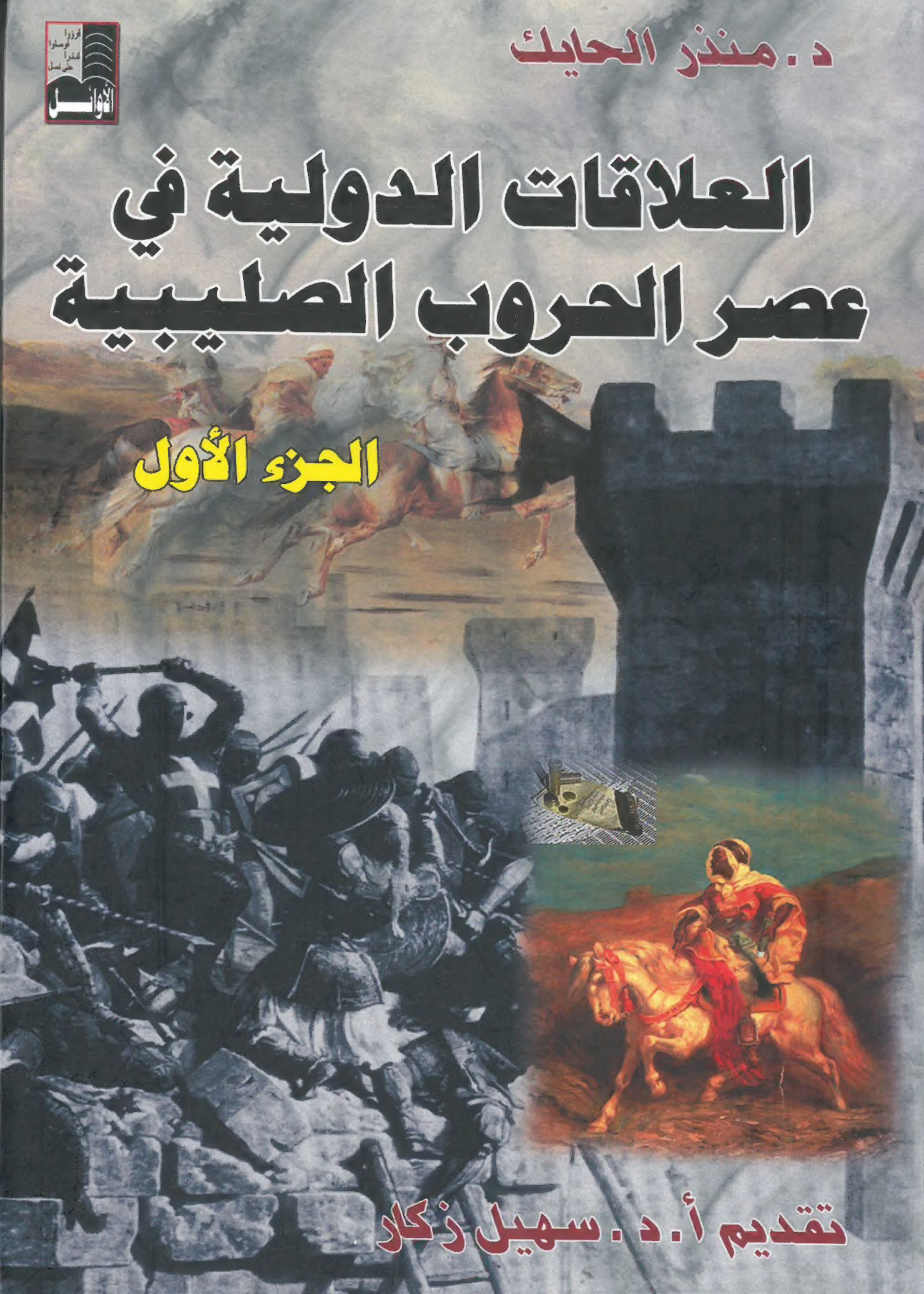


الأوائل
د. منذر الحايك
العلاقات الدولية في عصر الحروب الصليبية
الجزء الأول
تقديم أ. د. سهيل زكار



قرؤوا فوصلوا
لنقرأ حتّى نصل

الطّبعة الأولى
آب 2006م

الإشراف الفنّي: يزن يعقوب
الإخراج الفنّي: فؤاد يعقوب
تصميم الغلاف: عبد القادر إدريس
التّدقيق والمُراجعة: إسماعيل الكُردي

الكتاب: العلاقات الدّوليّة
في عصر الحُرُوب الصّليبيّة
تأليف: د. مُنذر الحايك

النّاشر: الأوائل للنّشر والتّوزيع
سُوريّة . دمشق . الإدارة: ص . ب 3397
هـاتـف: 00963 11 44676270/1/2
فـاكس: 00963 11 44676273/4/5
البريد الإلكتروني: alawael@scs-net.org
التّوزيع: دمشق ص . ب 10181
هاتف: 00963011022333013
البريد الإلكتروني: alawael@daralawael.com
جـوّال: 00963 93 418181
00963 93 411550
موقع الدّار على الإنترنت:
www.daralawael.com

الدُّكتُور مُنذر الحايك

العلاقات الدّوليَّة
في
عصر الحُرُوب الصّليبيَّة

الجُزء الأوّل

العلاقات بين القوى والدُّول الإسلاميّة

تقديم : أ. د. سُهيل زَكّار

الأوائل

2006

قرؤوا فوصلوا ، لنقرأ حتّى نصل

تنويهٌ هامٌ

من أجل تواصُل أكثر مع السّادة القُرّاء ، فقد خَصّصْنَا آخر (32) صفحة من هذا الكتاب لمنشورات الدّار ؛ حيثُ يجد السّادة القُرّاء قائمة بمنشورات الدّار ، ولمحة إلى كُلّ كتاب أصدرتْهُ الدّار .

هذه القائمة تُعطي انطباعاً عامّاً عمّا تنشُرُهُ الدّار من آراء ، كما تُعطي لمحةً عامّةً إلى الخطّ الذي تنتهجُه الدّار ، وهذا - بلا شَكٍّ - سيجعل التّواصُل أسرع وأقرب وأصدق.

فنرجُو من السّادة القُرّاء قراءة هذه الصّفحات بتأنٍّ وتدبُّر، ونرجُو مُراسلتنا بمُلاحظاتكُم واستفساراتكُم عن الكُتُب التي تنشُرُها الدار .

الإهداء

إلى فراس

الذي تابع السَّيرَ على الدَّرب

وحقَّق كثيراً من الآمال...

صفحات محبَّة ودليل تفاؤل . .

بأنَّ العزيمة باقية

وأنَّ المضيَّ قُدُماً لم يتوقَّف..

أبو فراس

بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم: أ.د. سُهيل زكّار

تعدّدت مذاهب تعليل التاريخ وتفسيره، وطرائق مُعالجة أحداثه، وغالباً؛ ما جاءت المذاهب انعكاساً لتيّارات العصر السّياسيّة، والاجتماعيّة، والاقتصاديّة، وغير ذلك، وانطبق هذا التعامل مع أحداث قرنَيْ الحُرُوب الصّليبيّة، ففي عصر الاستعمار الأُورُبي، ولا سيما الفرنسي، رأى عدد كبير من الباحثين الفرنسيين في أحداث الحُرُوب الصّليبيّة رسالة الأُمّة الفرنسيّة، التي جاء الوقت ـ بعد الحَرْب الكونية الأُولى ـ إلى إعادة حملها إلى بلاد الشّام. ومع قيام مدارس التفسير الاقتصادي، جرى تفسير دوافع الصليبيين بأنّها كانت اقتصاديّة، وفي بعض الأحيان امتزج التفسير الاقتصادي بالتفسير القومي.

وقُبيل نهاية القرن الماضي، مع انتهاء الحَرْب الباردة، وقيام تحكُّم القُطب الواحد، شهدنا ظُهُور تيّارات جديدة، كان من أبرزها: صدام الحضارات، ونهاية التاريخ، والعولمة، وفكرة الإمبراطُوريّة العالمية الديمقراطية، ومشروع الشّرْق الأوسط الكبير، وأطرُوحات أُخرى كثيرة، وامتازت هذه المُدّة الزمانية بظُهُور التيّارات الدِّينيّة، أو ما أُطلق عليه ـ أحياناً ـ اسم: "تيّارات اليمين"، ومعها رسخ في عُقُول الكثيرين في أنحاء العالم أن القُطب الواحد هدفه القضاء على الإسلام، مثلما قضى ـ من قبلُ ـ على الماركسية، وسلاح هذا القُطب هُو التعصُّب الكَنَسي، وهذا ما وضح لدى إعادة انتخاب الرئيس بُوش لولاية ثانية، فالرئيس بُوش ينتمي إلى حَرَكَة المُتطهِّرين الجُدُد، واستخدم مراراً اصطلاح: "صليبية" في أحاديثه عن غزو أفغانستان، واستخدمه أكثر في أحاديثه عن احتلال العراق. ودفع هذا بقُوّة القيام بتفسير دوافع أحداث الحُرُوب الصّليبيّة على أنّها كانت دينيّة بالمقام الأوّل، ولم يقبل بعض الباحثين، ولا سيما بقايا اليسار القومي العَرَبي، بهذا التفسير، وشاهدوا في أحداث أفغانستان والعراق مع أحداث أُخرى كثيرة نوعاً من أنواع العلاقات بين الكيانات، ولم تتّضح هذه الأُطرُوحة كثيراً بعد.

وأَخْذاً بمبدأ العلاقات، أَقْدَمَ د. مُنذر الحايك على مُعالجة أحداث الحُرُوب الصَّليبيَّة، لا سيما بعد صلاح الدِّين، وطبعاً؛ الصراعات السِّياسيَّة والعسكريَّة هي علاقات، لكنَّ المُشكلة هُنا: هل الصراعات الدّاخليَّة بين أفراد البيت الأيُّوبي، وتمزيق وحدة الدولة الكُبْرَى ـ التي أسَّسها صلاح الدِّين ـ هي علاقات محضة؟ أو بعبارة أُخرى: هل الوحدة التي أقامها صلاح الدِّين شكَّلت حالة استثناء، والتمزُّق هُو القاعدة، لأن دولة صلاح الدِّين كانت إمبراطُورية، وطبعاً؛ هذا أمر خطير، تقبله ـ الآن ـ العقلية العَرَبيَّة الراضخة للأنظمة، والتي استَبْعَدَت من حساباتها الدعوة إلى الوحدة، ثُمَّ الدعوات إلى التآلف وتوحيد الموقف، وهذا واضح تمام الوُضُوح من المواقف تجاه العراق.

واقع التاريخ يُحدِّثنا بأنَّ الحملة الصَّليبيَّة الأُولى حقَّقت نجاحاتها بسبب التمزُّق العَرَبي، ولا سيما على أرض الشَّام؛ مثلما حدث بعد وفاة صلاح الدِّين، وأخبار التاريخ تُحدِّثنا ـ أيضاً ـ أن معركة حطِّين وتحرير القُدْس جاءت نتيجة للوحدة التي أسَّسها صلاح الدِّين، وأنَّه لولا الوحدة لما تحقَّق النصر في عَيْن جالُوت، وفي معارك صَدِّ موجات الاجتياح المغولي، وفي الوقت نفسه؛ تصفية الوُجُود الصليبي كُلّيّاً من على أرض الشَّام.

أنا لا أُريد مُطلقاً اتِّهام د. مُنذر الحايك بعدم التنبُّه إلى هذه الأُمُور، هُو تنبَّه لها تماماً، فلدى حديثه عن زنكي، أوضح أن ثمار الوحدة الصغيرة التي حقَّقها زنكي كانت تحرير الرُّها، وإزالة الكيان الصليبي الأوَّل الذي تأسَّس في المشرق، وأظهر وعياً مشكوراً تجاه أهمِّيَّة الجزيرة، فمن المَوصل حقَّق زنكي الوحدة بين الجزيرة وأعالي بلاد الشَّام، وبعد اغتياله، تمكَّن ابنه محمود من توحيد الشَّام الشمالي مع الجنوبي، وأحبط خُطط الصليبيين في الاستيلاء على مصر، المهمَّة التي تابعها صلاح الدِّين بعده، وقطف ثمارها.

وأوضح د. مُنذر الحايك في دراسته الموثَّقة أنَّه قامت علاقات بين الكيانات الصَّليبيَّة والكيانات الأيُّوبيَّة وتحالفات، ذلك أن الصليبيين تورَّطوا ـ مُنذُ أيَّام الحملة الأُولى ـ في صراعات حُكَّام الشَّام الدّاخليَّة، وطبعاً؛ كانت هذه التحالفات ذات دوافع سُلطوية، لكنْ؛ على الرّغم من هذا التورُّط، فالأمر لم يتعدَّ الاستثناء، ولم يُشكِّل القاعدة.

ومُنْذُ احتلال الصليبيين للقُدْس أقلقت قضيَّة التمزُّق السِّياسي المُفكِّرين، وظهر هذا واضحاً عند السلمي في كتابه عن الجهاد، الذي هُو أوَّل مُؤلَّف من نوعه، وقد دعا فيه حُكَّام أيَّامه إلى تأجيل خُصُوماتهم، وتوحيد جُهُودهم، إلى أن يتمَّ اقتلاع المُحْتَلِّ الصليبي، وتحرير القُدْس، ومثل هذه الدعوة رائجة هذه الأيَّام، لكنَّها لم تنجح إلَّا بالاعتراف بإسرائيل، وبمنحها تنازلات مُتواصلة.

هذا؛ ويُلاحَظ أنَّه عندما تحقَّقت الوحدة أيَّام صلاح الدِّين، أعادت توحيد العَرَب، ودفعتهم إلى نسيان خلافاتهم القديمة، من صفِّين، إلى كربلاء، فالحرَّة، وغير ذلك، وهذا ما نراه عند الوهراني في واحد من مناماته؛ حيثُ كان الشُّفعاء يوم القيامة ـ بعد النبي صلَّى الله عليه وسلَّم ـ الإمام عليّ مع السِّبْطَيْن، لكنْ؛ كان لمُعاوية وابنه يزيد دور في منح الشفاعة أيضاً.

وحقيقة الحال إن العمل الذي أُقدِّم له، وأعدَّه د. مُنذر الحايك، من أهمِّ ما كُتب بالعَرَبيَّة حديثاً حول الحُرُوب الصَّليبيَّة، وأشهد أنَّه عالج جوانب هذه الحُرُوب بنجاح ودقَّة، ولولا أنَّه تملَّك في ذهنه ـ بوُضُوح ـ صُورة جميع جوانب هذا الموضوع الشائك لما حالفه النجاح. لقد أوضح ـ مُنْذُ البداية ـ أن قيام الإسلام ونجاح حَرَكَة الفُتُوحات الكُبْرَى، قسَّم عالم حوض البحر المُتوسِّط إلى عالمَيْن مُتصارعَيْن: واحد مُسلم، وآخر مسيحي، وفي العالم المسيحي كان للكَنيسة الكاثوليكية نُفُوذها الكبير، لذلك استجاب الأُورُبيون لنداء البابا أُورُبان الثَّاني في العام 1095م، فحملوا الصليب، وتوجَّهوا ـ على شكل أمواج بشرية ـ يُريدون القُدْس. وعندما وصلت جُمُوع الصليبيين إلى القسطنطينيَّة نجح الإمبراطُور ألكسيوس كومينوس في التعامل معها، ونقلها إلى البرِّ الآسيوي، وبذل سلاجقة الرُّوم جُهُودهم ضدَّ الصليبيين، فأخفقوا، ولم تتوفَّر لهم التعزيزات والنجدات، لأن السلاجقة كانت دولتهم تُعاني من التمزُّق، ومن الصراعات بين أبناء ملكشاه، وحاصر الصَّليبيُّون أنطاكية، وصمدت في وجههم طويلاً، لكنْ؛ لم يأت جيش كبير للتفريج عنها، وحين وصل جيش والي المَوصل كانت الفُرصة قد ضاعت. والمُثير للدهشة أن السُّلطات التي كانت تتحكَّم بالقاهرة قامت بالتفاوض مع الصليبيين، ثُمَّ التعاهد، فاستولت جُيُوشها على القُدْس عام 1098م، القُدْس التي حُوصرت بعد وقت قصير من قبَل الصليبيين، ولم يأت أحد للتفريج عنها من القاهرة، ولا من غيرها.

وتنبَّه د. الحايك إلى أن العلاقات تنشأ عنها مُعاهدات، واتِّفاقات، وهُدَن، ولذلك تتوفَّر خدمات للبريد، وكذلك سُفراء، ورُسُل، ومراسم، وفي حُرُوب الكيانات؛ تنشط المشاريع والأفكار، ولا سيما الزيجات "الدّبلُوماسيَّة"، فهذا وَضحَ أثناء تصدِّي صلاح الدِّين للحملة الثَّالثة، ولكنَّه استُخدم أكثر بين الأيُّوبيِّين، وأيضاً؛ بين الصليبيين.

وفي أثناء القرن الثَّالث عشر، وقت الصراعات الأيُّوبيَّة، ربح الصَّليبيُّون كثيراً من هذه الصراعات، ونالوا ـ بالمُعاهدات، والهُدَن ـ ما لم يستطيعوا نيله عسكريّاً، وصحيح أن أفراد البيت الأيُّوبي انغمسوا في صراعاتهم الدّاخليَّة، لكنَّ أوضاعهم كانت صعبة جدّاً، فقد واجهوا ثلاث حملات كبيرة مع عدد من الحملات الفرعية، وكانت أُورُبا تُرسل ـ بلا انقطاع ـ الحُجَّاج، والأسلحة، والخُيُول، والأعتدة، واضطرَّ بعض الحُكَّام الأيُّوبيِّين إلى الاستعانة بالمُرتزقة، وسواهم، خاصَّة فئة الخَوَارزميَّة، ونظراً لأن ولاء المُرتزقة والخَوارزميَّة اعتمد على المال، كان هذا مُرهقاً اقتصادياً وسياسياً وعسكريّاً. وقد احتاج الأيُّوبيُّون ـ مُنْذُ أيَّام صلاح الدِّين ـ إلى شراء الرقيق من الفتيان، وتدريبهم، وتعاظم هذا أيَّام الصَّالح أيُّوب، وتوفَّرت المادة البشرية، ولا سيما من القفجاق؛ بسبب الضربات الشديدة التي تعرَّضت قبائلهم لها على أيدي المغول.

وهُنا؛ تكرَّر حُدُوث ما لابدَّ منه، فبعد اغتيال زنكي في العام **1146**، وانقسام دولته إلى قسمَيْن: جزري، وشامي، وجد نُور الدِّين نفسه بحاجة إلى الطاقة البشرية، ورأى أن التُّركمان ضعف وُجُودهم في الشَّام الشمالي؛ لانشغالهم في الأناضول، وفي الجزيرة. وكانت أحداث الصراعات التركمانية، واجتياح التُّركمان للأناضول قد تسبَّبت ـ ضمن عوامل عديدة ـ في دَفْع أعداد كبيرة من الأرمن والأكراد على الهجرة، كما أيقظت الكرج، أو الجورجيين، وقاد هذا إلى تأسيس دولة أرمينيا الصُّغرَى في كليكية، وإلى التحاق أعداد كبيرة من الأكراد بنُور الدِّين، ولذلك عندما مات نُور الدِّين ورثه صلاح الدِّين، والآن؛ بعد وفاة الصَّالح أيُّوب أثناء التّصدِّي للحملة الأُولى للقدِّيس لويس، ورث مماليكُهُ السُّلطةَ، ووُلدَتْ دولةُ المماليك.

وكان للكرج أدوارهم في أحداث الجزيرة، وقد قادوا عدَّة حملات صليبية خاصَّة بهم، ولكن دور أرمن كليكية كان أشدَّ خُطُورة في الشَّام الشمالي، وعندما قدم المغول تحالف الكرج والأرمن مع

المغول، وشاركوا في جميع حملات المغول ضدَّ بلاد الشَّام، من عَيْن جالُوت حتَّى شقحب، ولِحُسْن الحظِّ أن باحثنا أجاد البحث في هذا الجانب، وغطَّاه، كما تعرَّض إلى دور الإمبراطُوريَّة البيزنطيَّة.

واستعرض مسألة التحالف بين فردريك الثَّاني والأيُّوبيين، ولا سيما مع الكامل، ثُمَّ ابنه أيُّوب من بعده، وهذه قضيَّة خطيرة تحتاج إلى أُطرُوحة قائمة بذاتها، فنحنُ ـ مثل جُلّ مُعاصري الكامل ـ ساءنا تسليم الكامل القُدْس لفردريك الثَّاني، لكنْ؛ هل كان لدى الكامل مشروعه الخاصّ، أو مخاوفه ممَّا كان يجري في أُورُوبا من تحضيرات لحملة جديدة، فأراد استغلال سُوء العلاقة بين فريدريك والبابويَّة، وكذلك مع الجنوية، وغيرهم؟

إن العمل الذي قام به باحثنا يفتح آفاقاً جديدة للبحث والتقصِّي، خاصَّة في الجُزء الثَّاني؛ حيثُ أجد أن عُنوان "العلاقات الآسيوية الأُورُوبيَّة" مُسوَّغ تمام التسويغ.

والعمل الذي أُقدِّم له اليوم شكَّل لديَّ بارقة أمل، أن الضعف اللامحدود الذي ألمَّ بدراسات التاريخ الإسلامي في جامعة دمشق، سوف يجري تداركه في حمص، ورُبَّما في حلب، والضعف في دراسات التاريخ الإسلامي هُو مأسوي، ومردُّه إلى أن المُعيدين الذين جرى تعيينهم في العقدَيْن الماضيَيْن اختيروا للونهم السِّياسي، ولم يخضعوا لمعايير الانتقاء الأكاديمي؛ مثل المُقابلات، واستشارة الأساتذة، وبذلتُ كُلَّ جهد مُستطاع حتَّى أجعل من هؤلاء الذين هُم ـ الآن ـ يتحمَّلون المسؤولية أكاديميين، فكان النجاح مجزوءاً، وهذا ـ بالفعل ـ أمر مُحزن، لابدَّ من إيجاد حلٍّ له.

الذي أتمنَّاه أن يكون العمل الذي أنجزه الباحث الدُّكتُور مُنذر الحايك، والذي أُقدِّم له، بداية لمزيد من الأبحاث في ميدان الحُرُوب الصَّليبيَّة، والميادين الأُخرى في تاريخ العَرَب والإسلام، ولا سيما بعد اكتمال مشروع الموسوعة الشاملة، والقادم منها سوف يُعينه إنْ شاء الله، ويزيد معلوماته.

له أتمنَّى التوفيق والنجاح، والحمد لله أوَّلاً، وآخراً، والصلاة والسلام على نبيِّه المُصطفى، وعلى آله، وصحبه، وسلَّم.

أ. د. سُهيل زَكّار

دمشق: الخميس 8 / ذي القعدة / 1426 هـ المُوافق 8 / كانون الأوَّل / 2005م

استهلال

مُنْذُ أن وُجدَت الدُّول بأبسط أشكالها السِّياسيَّة كانت العلاقات ـ فيما بينها ـ تشغل الحيِّزَ الأكبر من اهتمامها، فهذه العلاقات هي التي تُحدِّد توجُّهات دولة نحو الأخرى، بما فيها حالتَيْ الحَرْب، والسِّلْم. ويُعَدُّ تاريخ العلاقات بين المُجتمعات والدُّول تاريخاً للإنسانيَّة كُلِّها، فمُنْذُ القدَم تعيش البشرية في احتكاك دائم، ومُتنوِّع، يشمل كُلَّ المجالات العسكريَّة والسِّياسيَّة والحضارية، وعلى أساس هذه العلاقات قامت إمبراطُوريات امتدَّت فوق دُول، وشُعُوب، وأُخرى اندثرت، وتلاشت.

ورُبَّما كان أشهر ما في العلاقات الدّوليَّة على مرِّ العُصُور هي العلاقات التي ترتَّبت على ما سُمِّيَ الصراع بين الشَّرْق والغَرْب، وقد بدأت هذه القضية في وقت مُبكِّر من تاريخ العلاقات، ففي القرن الخامس قبل الميلاد انشقَّت أُورُوبا الهلنية عن آسيا الكنعانية الفارسية، فظهرت تلك القضية من خلال إثارة مُشكلة الحُدُود بين الفُرْس واليونان، أو بين آسيا وأُورُوبا. وكان كُلُّ هَمِّ الدُّول المُتعاقبة في الضفَّتَيْن كلتَيْهما أنْ تُحاول حلَّ هذه المُشكلة، كُلّ منها على طريقتها الخاصَّة، عصراً بعد عصر، وجيلاً بعد جيل.

تُعدُّ الحُرُوب الميدية بين الفُرْس والإغريق بداية الصراع بين الشَّرْق والغَرْب، فقد بدأت بهُجُوم الفُرْس على بلاد اليونان، بتصوُّر فارسي لحَلٍّ شرقي للقضية. لكنَّها انتهت بهُجُوم الإسكندر اليوناني، واحتلاله لمُعظم بلاد الشَّرْق، فارضاً الحَلَّ الأُورُوبي بالقُوَّة، ولـمَّا ظهرت قُوَّة الرُّومان، وتوسَّعوا في أُورُوبة، ورثوا الإغريق، وحَلَّهم لقضية الصراع مع الشَّرْق، وذلك عندما احتلُّوا الدُّول التي قامت على أنقاض إمبراطُورية الإسكندر في الأناضول، وسُورية، ومصر.

وحتَّى هذه المرحلة من الزمن بقي الصراع بين الشَّرْق والغَرْب صراعاً عسكريّاً وسياسياً، ولم يحمل أيَّ صبغة دينيَّة. لكنْ؛ بعد اعتناق أُورُوبا للمسيحية بإعلان قسطنطين المَسيحيَّة ديناً للدولة الرُّومانيَّة، بدأ الصراع بين الشَّرْق والغَرْب يأخذ شكله الدِّيني، وقد انفجر هذا الصراع عندما بدأت نهضة دينيَّة جديدة تعمُّ بلاد الفُرْس، وهي التي دفعت الملك الفارسي شاهبور الأوَّل من الأُسرة الساسانية، فهاجم إقليم سُورية الرُّوماني، وأسر إمبراطُور الرُّومان فاليريان، واحتلَّ أقسام واسعة من

شرق وشمال سُورية، وتابع الملك خسرو ـ عام 614 م ـ مُحاولة إمضاء الحَلّ الفارسي، فهاجم سُورية من جديد، واستولى على القُدْس، وأخذ منها خشبة الصليب المُقدَّس. لكنَّ الرَّدَّ الأُورُوبي لم يتأخَّر، فقد قام الإمبراطُور الرُّوماني هرقل عام 7 هـ 628 م بهزيمة الفُرْس، واستردَّ خشبة الصليب، وفرض الحَلَّ البيزنطي لقضية الصراع بين الشَّرْق والغَرْب[1].

وهُنا ـ أيضاً ـ لم يتأخَّر الرَّدُّ الشَّرقي طويلاً، فقد أُعلِن الحَلُّ العَرَبي لقضية الصراع؛ بإقامة إمبراطُورية آسيوية واسعة، ثُمَّ الهُجُوم على أُورُوبا من محورَيْن، القسطنطينيَّة وجنوب فرنسا بعد احتلال الأندلس.

ومُنْذُ هذا التاريخ؛ انقسم العالم إلى شرق مُسلم، وغرب مسيحي، ومع أن العداء بين الشَّرْق والغَرْب عداء تقليدي وقديم، لكنْ؛ زاده حدَّة هذا الانقسام الدِّيني، فالحُرُوب الدِّينيَّة تكون ـ عادةً ـ من أقسى الحُرُوب؛ لاعتقاد كُلِّ فريق بأنَّه يُنفِّذ إرادة الإله على الأرض، ويُؤدِّي واجباً مُقدَّساً انتدبه الرَّبُّ للقيام به. ورُبَّما تكون دوافع الحَرْب ـ في الأصل ـ دينيَّة، ولكنْ؛ لا يلبث الناس أن ينسوا الدِّين، وتُصبح أهدافُ الحَرْب السيطرةَ والاستغلالَ واستعبادَ الآخرين، والذي لا يتغيَّر ـ فقط ـ هُو العداء الموروث، والجُهُود المُستمرَّة التي يبذلها كلُّ فريق لإذلال الفريق الآخر.

وعلى هذا الأساس الدِّيني جاء الحَلُّ الأُورُوبي في العُصُور الوُسْطَى لقضية الصراع بين الشَّرْق والغَرْب بما عُرِفَ باسم الحُرُوب الصَّليبيَّة، وكانت هذه الحُرُوب تمتاز بأنَّها حرب جامعة، قام بها الغَرْب المسيحي ضدَّ الشَّرْق المُسلم، وقد اعتقدت جُمُوع الصليبيين ـ وقتها ـ بأنَّها حرب مُقدَّسة لغرض مقدس، وهي تتمُّ بتوجيه من الله، الذي أوكل الإشراف عليها إلى البابا؛ خليفته على الأرض. وعلى الدوام كان الحلُّ بالعنف يُولِّد ردَّ فعل عنيف، فالهُجُوم الفرنجي أيقظ رُوح الجهاد لدى المُسلمين، وولَّد حَرَكَة إحياء ثقافية تدعم الجهاد، وتحضُّ عليه، كانت إحدى صورها ظُهُور كُتُب الجهاد، وكُتُب فضائل البُلدان، وكُتُب الزيارات[2].

---

1 - للتوسُّع راجِعْ: الحضارة في الميزان، أرنولد توينبي، ترجمة: محمود أمين الشريف، 162.

2 - راجِعْ: الحُرُوب الصَّليبيَّة وتأثيرها، سوريال عطية، 7.

وكان للحُرُوب الصَّليبيَّة في كلِّ عصر تفسير ومعاني، فكُتَّاب عصر النهضة عَدُّوها تعبيراً عن رُوح التعصُّب والحماس والغيرة العمياء. أمّا الكُتّاب المُعاصرون ـ وبتأثير أفكار المدرسة الاقتصاديَّة ـ؛ فقد وصفوها بأنَّها مرحلة من مراحل التوسُّع الأُورُوبي في الشَّرْق، أخذت في العُصُور الوُسْطَى شكلاً استعمارياً بسبب زيادة عدد السُّكّان في فرنسا، وما جاورها، ونقص الموارد فيها. وهُنا يبدو أنَّه كُلَّما لمست أُورُوبا من نفسها قُوَّة هاجمت الشَّرْق، طمعاً بأراضيه للاستيطان، وبخيراته للاستغلال، وبموقعه الاستراتيجي عسكريّاً وسياسياً.

حالة الشَّرْق العَرَبي قُبيل الغزو الفرنجي:

في أوائل القرن الرَّابع الهجري كانت قوى الإمبراطُوريَّة العَرَبيَّة قد بدأت بالانهيار، وأخذت أطرافها بالانسلاخ عنها شيئاً بعد شيء، وكذلك فقد سقطت الدولة الأموية في الأندلس، لتخلفها دُويلات الطوائف المُتصارعة التي سهَّلت حرب الاسترداد. وبقيام الخلافة الفاطمية، وسيطرتها على مصر أُعيد الأمل ببناء قُوَّة عربية إسلامية خاصَّة في البحر المُتوسِّط، لكنَّ الفاطميين سُرعان ما أُنهكوا في صراعهم حول الشَّام، إضافة إلى الصراعات الدِّينيَّة والسِّياسيَّة مع الدولة العبَّاسيَّة.

في الوقت نفسه؛ كان أعداء العَرَب يستعيدون قُوَّتهم، ويُحقِّقون نجاحات عسكريَّة مُتتالية، فقد تقدَّم البيزنطيون ليُحطِّموا دفاعات ثُغُور الشَّام، ويحتلُّوا أجزاء مُهمَّة من شماله وساحله، ولم يُوقف التقدُّم البيزنطي ـ الذي بدا وقتها وكأنَّه حرب استرداد مُنظَّمة للشام بأكمله ـ إلَّا تدفُّق الشُّعُوب التُّركيَّة إلى الأراضي الإسلاميَّة من منطقة ما وراء النهر؛ حيثُ تمكَّن السُّلطان السلجوقي ألب أرسلان من أَسْر الإمبراطُور البيزنطي رُومانُوس ديجانس في معركة ملاذ كُرد قُرب بُحَيْرة وان عام **463** هـ **1071**م، بعد إبادة شبه كاملة للقُوَّات البيزنطيَّة. لكنَّ السلاجقة لم يستثمروا نصرهم، الذي أرعب أُورُوبا، وانقسموا إلى إمارات مُتصارعة، وصحيح أن بيزنطة تمكَّنت من تجاوز محنتها، لكنَّها فشلت في صَدِّ تدفُّق التُّركمان على الأناضول؛ حيثُ قامت دولة سلاجقة الرُّوم الذين اتَّخذوا من نيقية قُرب القسطنطينيَّة عاصمة لهم.

وقام التُّركمان ـ الذين دمَّروا المُؤسَّسات البيزنطيَّة، واحتلُّوا أرض الأناضول ـ بالعمل نفسه في الشَّام والجزيرة الشَّاميَّة؛ حيثُ تعطَّل كلُّ نشاط اقتصادي، وبلغت البلاد حالة مزرية من الضعف،

وتحوَّلت إلى إمارات وإقطاعات مُتصارعة، لا يهمُّ حُكَّامها إلَّا توسيع نطاق السيطرة، والحُصُول على أكبر قدر من المغانم. في هذه الحالة المُتردِّية للشام، حالة الدمار والفقر الكامل والحُكَّام الغُرباء المُتصارعين، فُوجئت البلاد بجحافل الفرنجة تحتلُّ أنطاكية، ثُمَّ الرُّهَا، ثُمَّ بلاد الساحل، وكانت الطامة الكُبْرَى في احتلالها البيت المُقدَّس، مع كُلِّ ذلك لم يستفق حُكَّام الشَّام من غفلتهم، واستمرُّوا في صراعاتهم[1].

العلاقات الدّوليّة في العصر الأيّوبي:

تكاد تكون مُعظم العلاقات الدّوليّة في هذا العصر قد تمحورت حول الحُرُوب بين المُسلمين وفرنجة الشَّرْق المدعومين من كُلِّ القوى السِّياسيَّة والعسكريَّة الأُورُوبيَّة، فقد تمثَّلت في هذه الحُرُوب مُعظم قوى العالم في وقتها؛ حيثُ شاركت فيها غالبية الشُّعُوب والدُّول الأُورُبيَّة، بينما في الطرف الإسلامي نجد أن مُعظم الدُّول الإسلاميَّة لم تُشارك في الحَرْب ضدَّ الفرنجة، لكنَّ هذه الدُّول الإسلاميَّة واجهت جميعها مُصيبة التَّتَار. وبذلك نجد إنْ كان الأمر في الحَرْب ضدَّ الفرنج، أو في الحَرْب ضدَّ التَّتَار، فقد التقت أمم الأرض في حُرُوب دامية، وكان أتون هذا الصراع يرتكز على أرض الشَّام ومصر.

ويُمكن ـ نظرياً ـ تقسيم مراحل الصراع بين الفرنج والمُسلمين إلى ثلاثة أدوار رئيسة هي:

1 ـ **دور القُوَّة الفرنجيَّة:** حيثُ كان واضحاً ضعف المُسلمين، بسبب تجزئة بلادهم، وتبعثر قواهم، وقد تأسَّست ـ خلال هذا الدور ـ مملكة القُدْس والإمارات الفرنجيَّة الأُخرى في الشَّرْق.

2 ـ **دور تعادل القوى:** بدأه عماد الدِّين زنكي بمشروع الوحدة في الشَّام، وتمكُّنه من استرداد الرُّهَا. وأكمل هذا الدَّورَ نُورُ الدِّين بن زنكي، الذي حقَّق الوحدة مع مصر.

3 ـ **دور الضعف الفرنجي:** وقد تحقَّق عندما تمكَّن صلاح الدِّين من قلب ميزان القوى بعد نصر حطِّين، وانشغال أُورُوبا عن فرنج المشرق بمُشكلاتها الدّاخليَّة. لكنَّ انقسام الممالك الأيُّوبيَّة بعد وفاة صلاح الدِّين أجَّلَ إنهاء الحَرْب حتَّى عودة الوحدة بين سُورية ومصر بقيام دولة المماليك.

---

1 - راجعْ: ما كتبه د. سُهيل زَكَّار في تقديمه لكتاب الإعلام والتبيين للحريري.

دولة صلاح الدِّين

في حياة السُّلطان نُور الدِّين محمود بن زنكي تمّ عمل سياسي وعسكري نادر عندما ضمّت مصر إلى دولة نُور الدِّين القائمة في الشَّام [1]، وقد تحقّق ذلك عبر حملات أسد الدِّين شيركوه، التي مكّنته من حُكْمها كقائد أتابكي ووزير فاطمي، ثُمّ خلفه ابن أخيه صلاح الدِّين الذي ألغى الخلافة الفاطمية رَسْميّاً، بعد أن كانت مُلغاة فعليّاً مُنْذُ أيّام الوزراء من آل الجمالي [2]، وحكم مصر حُكْماً مُباشراً نيابة عن نُور الدِّين، الذي غدا سُلطان الشَّام ومصر. وبعد وفاة نُور الدِّين محمود قام صلاح الدِّين حاكم مصر بالسيطرة على كامل الدولة عن طريق القُوّة العسكريّة، لكنّه بقي مسكوناً بأخلاقيات نُور الدِّين، فأعلن أنّه الوريث الحقيقي له ولمشروعه في الوحدة والجهاد [3]، وقد أثبتت الأيّام صحّة ادّعائه. وساعد صلاح الدِّين على تحقيق مشروعه كونه من رجال العالم الإسلامي القلائل الذين كانوا قادرين على تكوين دولة مركزية، من خلال ضبط وتوحيد عدد كبير من الحُكّام المُتفرّقين بطبعهم، وبمصالحهم الشخصية المُتنافرة. ومُعظم هؤلاء كانوا من الأُسرة الأيُّوبيّة ذات الأصل الكُردي، ولكن الأيُّوبيّين - في الواقع - كانوا مُختلفين - في كثير من الأُمُور - عن الحُكّام السلاجقة، حتّى في خلافاتهم وانقساماتهم، فقد ظلُّوا يرفعون راية الجهاد، ولهم في ذلك، بالرّغم من كلّ ما قيل، مواقف لا يُمكن لأحد أن يتجاهلها. ومع أصلهم الكُردي، فقد عدُّوا أنفسهم عرباً مُسلمين، إنْ لم يكن بنسبهم، فبثقافتهم، وقيَمهم، ومُحيطهم، لقد نشؤوا على أرض عربية، فتكلّموا لُغتها، وأحبُّوا آدابها، وعُلُومها، ورعوها، وحفلت مجالسهم بالعُلماء والأدباء [4].

---

1 - جرت العادة أن الدُّول الكُبْرَى التي تقوم في مصر تزحف إلى الشَّام، وتضمُّها كبلاد تابعة، واستمرّ ذلك مُنذُ أيّام الفراعنة وحملاتهم على سُورية، وحتّى قيام الدولة الفاطمية.

2- قام أبو علي بن الأفضل بن بدر الجمالي وزير الخليفة الفاطمي الحافظ لدين الله بالحجر على الخليفة، وقطع الخطبة للفاطميين، وخطب لنفسه، كما ألغى من الأذان شعار العلويين: حَيَّ على خير العمل، ثُمّ قُتل أبو علي من قبَل غلمانه، فأخرج الحافظ من السجن، وبُويع له بالخلافة. (المُختصر، أبو الفداء، 3/ 5) .

3 - السُّلطان نُور الدِّين، نيكيتا أليسيف، ترجمة: سليم قندلفت، 410.

4 - وفي ذلك قال الرشيد النابلسي يمدح الملك العادل:

يا آل أيُّوب الأولى لولاهم   عفت العُلُوم وعيفت الأشعارا

عندما تُوفِّي السُّلطان صلاح الدِّين في السَّابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة، ترك لأولاده دولة مُوحَّدة مُنتصرة قويَّة، ولم يقسمها بينهم كما قيل[1]، بل كانوا فيها وُلاةً ونُوَّاباً وأصحاب إقطاع، وهُو الشائع في حُكْم البلاد في ذلك العصر، ويُؤكِّد لنا ذلك رَدُّ السُّلطان صلاح الدِّين على أخيه العادل عندما أراد أنْ يُوليه حلب، فسأله العادل "أن يكتب له بمدينة حلب كتاباً، ويجعله ككتاب البيع والشراء. فامتنع السُّلطان، وقال: إنَّما تكون حلب إقطاعاً، ولمَّا اجتمعا قال له السُّلطان: أَ ظننتَ أن البلاد تُباع؟ أَوَ ما علمتَ أن البلاد لأهلها المُرابطين بها؟ ونحنُ خَزَنَةٌ للمُسلمين، ورُعاة للدِّين، وحُرَّاس لأموالهم"[2]. إضافة إلى ذلك؛ فإن اختيار صلاح الدِّين لآل بيته ليتولّوا إقطاعات الدولة وولاياتها كانت له جوانب عسكريَّة واضحة، فقد اختار الأقوياء الأكفَّاء؛ ليُواجهوا عُتاة قادة الفرنج وأُمرائهم، فندب لحمص ابن عمِّه ناصر الدِّين بن أسد الدِّين ليكون بمُواجهة أمير طرابلس، واختار لحماة ابن أخيه تقي الدِّين بن شاهنشاه لمُواجهة الاسبتاريَّة في قلعة الحصن، ووضع ابنه الأكبر الأفضل علي في دمشق أمام ملك القُدْس في عكَّا، وولَّى ابنه الظَّاهر غازي على حلب ليكون في مُواجهة أمير أنطاكية[3]. ومات السُّلطان، ولم يقسم البلاد، ولم يُسمَّى وُلاته من آل بيته بالمُلُوك ما كان حياً.

والمُشكلة ـ إذنْ ـ لم تكن في انقسام البلاد، بل في انقسام الوُلاة، فقد ترك صلاح الدِّين في الدولة، التي جهد أن تكون واحدة، أبناء مُنقسمين، لا يجدر بأيٍّ منهم إرث هذا الأب العظيم، كُلٌّ منهم كان طامعاً بما بيد أخيه، فتشتَّتوا، وفقدوا دولة أبيهم[4]، وآل الأمر إلى عمِّهم العادل؛ حيثُ

---

1 - يقول أحمد البيسومي في تقديمه لكتاب عُيُون الرَّوضَتَيْن: "إن صلاح الدِّين ـ بعد أن أكمل إشادة دولته، ووحَّد أجزاءها ـ حتَّى شرع في تفتيتها؛ حيثُ وزَّعها إلى إقطاعات على بعض جُنده وأهل بيته". (عُيُون الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، تحقيق: أحمد البيسومي، 1/ 6).

2 - الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، 18 / 478.

3 - سنا البرق، البِنْدَاري، تحقيق: ششن، 322، وسنا البرق، البِنْدَاري، تحقيق: نبراوي، 163، والكامل، ابن الأثير، أحداث عام 574 هـ.

4 - قال العماد الأصفهاني في مطلع قصيدة له يرثي السُّلطان صلاح الدِّين:

شمل الهدى والمُلك عمَّ شتاته   والدهر ساء وأقلعت حسناته

بالله أين النَّاصر الملك الذي لله خالصة صفت نيَّاته (الأنس الجليل، العليمي، 1/ 395).

وكأنَّه كان يتوقع ما سيؤول إليه الحال. وكذلك قال القاضي الفاضل في رسالة يُعزِّي فيها الظَّاهر غازي بفقد أبيه السُّلطان: "إنْ وقع بينكم اتِّفاق فما عدمتُم إلَّا شخصه الكريم، وإنْ كان غيره فالمصائب المُستقبلة أهونها موته، وهُو الأعظم". (البستان الجامع، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، 11/ 386)، وكان الأمر الذي خشي منه.

استقرَّت له السَّلطنة. وبالتَّأكيد؛ كان وَرَثَةُ العادل كحُكَّام وقادة عسكريين أفضل من وَرَثَة صلاح الدِّين، لكنَّهم أخذوا من أبناء عُمُومتهم الطمع والتآمر والتناحر فيما بينهم، ممَّا صبَّ ـ في النتيجة ـ في مصلحة القوى الأُخرى، وفي مُقدِّمتها الفرنج.

ولكنْ؛ لا نستطيع أن نُنكر أن الانقسام الذي حصل لدولة صلاح الدِّين بعد وفاته تمَّ وُفق توزيعه للولايات بين أفراد أسرته، وهذا التوزيع الغريب غير المنطقي كما يبدو، كان يعتمد على أُسُس وأعراف قديمة جدَّاً: فمصر ـ على سَعَتها، وأهمِّيَّتها، وَعَظَمة ثرواتها، كانت لواحد من أبناء صلاح الدِّين، بينما قُسِّمت الشَّام والجزيرة الشَّاميَّة بينهم رُقعاً صغيرة. وهذا ما يدعونا للاعتقاد أن صلاح الدِّين كان يُدرك أن مصر لا يُمكن أن تنقسم، أو تتجزَّأ، لطبيعة أرضها، وللتاريخ الطويل من الحُكْم المركزي المُوحَّد فيها، فمصر وحدة سياسيَّة وإدارية واحدة مُنْذُ أن وحَّدها الفرعون مينا، وهُنا؛ نجد أن استمرار هذه الوحدة جعل من مصر أكبر قوى الممالك الأيُّوبيَّة، وانعكس ذلك على مُلُوكها، الذين كانوا ـ غالباً ـ سلاطين الممالك الأيُّوبيَّة. أمَّا الشَّام؛ فالأمر يختلف فيها تماماً، فقد حكم فيها الأيُّوبيُّون ـ بعد صلاح الدِّين ـ بنوع من اتِّحاد الممالك، التي كان كُلٌّ منها يتمركز حول مدينة يحكمها عُضو من العائلة، وهُو يدين بولاء شكلي لأقوى فرد فيها، الذي هُو ـ عادةً ـ صاحب أكبر مملكة. ونُلاحظ هُنا أن تقسيم الممالك الأيُّوبيَّة في الشَّام يكاد يكون تطبيقاً حرفيَّاً لواقع ولسياسة ممالك المُدُن الآرامية القديمة، فكُلُّ مدينة ـ تقريباً ـ تُشكِّل دولةً مع ما حولها من الأراضي، وقد انطبق ذلك حتَّى على دمشق، مع أنَّه تبع لها قسماً كبيراً من جنوب الشَّام.

وليستمرَّ حُكْم هذه الممالك كانت تحتاج إلى المال لدفع نفقات المملكة التي كانت رواتب وأعطيات الجُند تُشكِّل قوامها الأعظم، ولانعدام الصناعة، ولتردِّي حال الزراعة في مُعظم الأيَّام كان اعتماد الممالك الأيُّوبيَّة في تحصيل الموارد يقوم ـ بشكل رئيس ـ على التجارة، فلا يُوجد منهم مَنْ لم يحتكر، أو في أحسن الأحوال، مَنْ لم يُوظِّف أموالاً طائلة في التجارة. وبعد المال؛ تأتي الشرعية التي كانت أهون ما يكون على صاحب السُّلطة؛ حيثُ يحصل عليها ببعض الهدايا إلى الخليفة، ويُكرِّسها فُقهاء وقُضاة يحتاجون إلى العمل في وظائف المملكة، في الإفتاء والتدريس والقضاء.

أمَّا شمال الشَّام والجزيرة الشَّاميَّة؛ فقد كانت هُناك فُسيفساء من الممالك والإمارات والمُدُن المُستقلَّة، بل وحتَّى القلاع المُستقلَّة، منها ما هُو تابع للبيت الأيُّوبي، ومنها ما هُو لحُكَّام من خارج البيت، منها ما هُو مُحالف، ومنها ما هُو مُعاد لهم. وقد ساهمت ـ في تشكيل تلك المنظومة الفُسيفسائية العجيبة ـ عدَّة أُمُور، منها: الطبيعة الجبلية للمنطقة، وخصب أرضها، وموقعها الاستراتيجي، وكونها ممرَّاً للتجارة بين الشَّرْق والغَرْب، ثُمَّ تنوُّع سُكَّانها العجيب دينياً وعرْقياً، إضافة إلى عامل سياسي آخر هُو وُقُوع هذه المناطق بين عدَّة قوى سياسيَّة وعسكريَّة كُبْرَى، فالأيُّوبيون في الشَّام، ولهم مُمتلكات هامَّة في الجزيرة، ومملكة أتابكة المَوصل التي انقسمت وعاشت على أمجادها السابقة، ومن المُلفت للنظر أنَّه مع قيام دُول إسلامية قويَّة على الحُدُود الأيُّوبيَّة، لكنَّ قواها شكَّلت تهديداً للسَّلطنة الأيُّوبيَّة، وتهديداً لعُمقها، بدلاً من أن تدعمها في حربها ضدَّ الفرنج، ومنها: الدولة الخَوَارزميَّة، وبشكل خاصٍّ؛ دولة سلاجقة الرُّوم، الذين كانوا يمدُّون أنظارهم نحو الجزيرة، ورُبَّما عبرها نحو الشَّام، فكان تدخُّلهم فيها ليس دفاعياً فقط؛ لتكون حاجزاً ضدَّ الخطر الأيُّوبي، بل هُجُومياً؛ لضمِّها لدولتهم، والتحرُّك منها نحو الشَّام.

وكذلك؛ فإن الوضع الداخلي للممالك الأيُّوبيَّة وعلاقاتها مع فرنج الساحل الشَّامي كان له ـ بالتَّأكيد ـ انعكاساته السلبية والإيجابية على العلاقات الخارجيَّة مع الدُّول الأُورُبيَّة بشكل خاصٍّ، ودول عالم العُصُور الوُسْطَى بشكل عامٍّ. وكذلك أثَّرت السَّلطنة الأيُّوبيَّة وتأثَّرت بالعلاقات والصراعات الأُورُبيَّة الدّاخليَّة، ومن أبرز الأمثلة على ذلك دور السَّلطنة الأيُّوبيَّة في الصراع بين البابويَّة والإمبراطُورية الجرمانية المُقدَّسَة. لكنْ؛ بشكل عامٍّ، كان الهُجُوم على الشَّرْق الإسلامي هاجساً مُشتركاً لكُلِّ الدُّول الأُورُوبيَّة على كُلِّ ما بينها من اختلافات عرْقية ومذهبية وسياسيَّة، بما فيها الدُّول الإمبراطُوريَّة القديمة التي انتقلت من أحلام السيطرة على العالم إلى حقيقة تأكيد وُجُودها في العالم، ومنها: بيزنطة، الإمبراطُوريَّة الجرمانية المُقدَّسَة، و الدولة البابويَّة، والدُّول التي حصلت على تكوين قومي أولي، وأخذت تشعر بوُجُودها الدولي، وتُريد إيجاد مكان لها في العالم الجديد،، ومنها: فرنسا، إنكلترا، ودول أُخرى شبه قومية اعتنقت المَسيحيَّة بوقت مُتأخِّر، وتُريد أن تُبرهن على حُسْن إيمانها، مثل: هنغاريا، بينما لم يُشارك الإسبان بقيَّة شُعُوب أُورُوبا في حُرُوبهم الصَّليبيَّة في الشَّام؛ لأنَّهم كانوا مُنهمكين في حربهم الصَّليبيَّة الخاصَّة، وهي حرب الاسترداد ضدَّ العَرَب المُسلمين في الأندلس.

ولا يخفى في هذه العلاقات أثر النُّمُوِّ التِّجاري، الذي حقَّقته الجُمهُوريات الإيطالية، والصراع التِّجاري فيما بينها، ودور ذلك في العلاقات مع السَّلطنة الأَيُّوبيَّة، ومُنعكساته على النشاط البحري التِّجاري والعسكري.

وفي خارج أُورُبا قامت دُول قومية مسيحيَّة شرقية، ساهمت كلّ منها على طريقتها في الحَرْب الأُورُوبيَّة الصَّليبيَّة، عبر مُحاولات التوسُّع نحو شمال الشَّام، فقد قامت في كيليكيا مملكة أرمينيا الصُّغرَى، وعلى مقربة منها كانت مملكة الكرج، والتي كان يجمعها مع الأرمن ـ عدا الديانة المَسيحيَّة ـ الطمع الدائم بالمزيد من أراضي الجزيرة.

لقد انهارت كلُّ هذه العلاقات الدّوليَّة إثر هُجُوم التَّتَار على المنطقة، واجتياحها، وحتَّى بعد تراجع التَّتَار لم تعدْ العلاقات كما كانت، ولا الدُّول كما كانت، فقد بدأ عصر جديد، ورُبَّما كان عالماً جديداً؛ إذ انتهت ـ إلى الأبد ـ السَّلطنة الأَيُّوبيَّة، وقامت على أنقاضها دولة المماليك الفتية، وأصبح الوُجُود الفرنجي في الشَّرْق والقضاء على دولة الأرمن في كيليكيا مسألة وقت سيُنجزها السلاطين المماليك.

إشكالية التاريخ في عصر الحُرُوب مع الفرنجة:

من المعروف أن مصادر ومراجع دراسة العصر الأَيُّوبي تتوفَّر بشكل كاف لإنجاز أيِّ بحث فيه، وخاصَّة بعد أن أصدر الأُستاذ الدُّكتُور سُهيل زَكَّار الموسوعة الشاملة، التي وفَّرت للمكتبة العَرَبيَّة سفراً هامّاً، يُحيط بكُلِّ جوانب الحُرُوب مع الفرنجة، وخاصَّة بما قدَّمه من مصادر فرنجية أصيلة كَتَبَهَا مُعاصرون، أتاحت لنا التعرُّف على وجهة نظر الآخر. وبذلك؛ لا يُعدُّ توفُّر المادة الأولية هي الإشكالية هُنا، فالإشكالية هي في التوفيق بين مصادر مُتنوِّعة مُختلفة، تختلف في التفاصيل أكثر من اتِّفاقها في العموميات، فاختلاف هويات المؤرِّخين، واختلاف انتماءاتهم الفكرية والسِّياسيَّة والمذهبية الدِّينيَّة، كلُّ ذلك يفرض رؤيا مُختلفة للحدث ذاته بين مؤرِّخ وآخر، ممَّا يفرض ـ بدوره ـ مهمَّة إضافية على الباحث، تقتضي الرُّجُوع إلى بيئة المؤرِّخ، وثقافته، ومصادره؛ للتعرُّف على وجهة نظره، وطريقة تفكيره، ومن ثَمَّ؛ أُسلُوب صياغته للحدث. كما أنَّنا ـ أحياناً ـ نجد أن بعض المؤرِّخين، من أصحاب الموسوعات التاريخية الكبيرة، تتبدَّل مواقفهم وُفقاً للاعتبارات الجديدة الطارئة، كما هي حال شيخ مؤرِّخي العَرَبيَّة ابن الأثير، الذي كان له موقف متحامل على السُّلطان

صلاح الدِّين في أوّل أمره، فقد كان ابن الأثير يعدُّه غاصباً لبلاد الأتابكة، الذين كان يعيش ابن الأثير وأسرته في كنفهم، لكنْ؛ بعد تخاذل الأتابكة، وخلافاتهم، وانتصارات صلاح الدِّين، وتحريره القُدْس، نجد أن صورته وصُورة أبنائه وخلفائه قد تحسَّنت - بشكل كبير - في مرويات ابن الأثير، بل دافع عنهم، ومدح أعمالهم، مع أنَّه لم يكن تحت سُلطانهم[1].

كما أن موضوع البحث في العلاقات يحتاج إلى الرُّجُوع لمصادر ومراجع عديدة ومنوَّعة، وكُلَّما كانت أكثر كانت الرؤيا في البحث شمولية أكثر، وأقرب إلى الموضوعية والحقيقة. ولكنَّها تُصبح بحاجة إلى تنسيق غاية في الدقة لفرز ما يحتاجه البحث منها، ثُمَّ مُعالجة كلّ نص من نُصُوصها المُختارة، مع عدم إغفال الحيِّز العام الذي ورد فيه، وعلاقته بما حوله من أحداث، أو ما سبقه، أو ما سيتلوه. أمَّا المراجع الحديثة والمُعاصرة؛ فكثير منها قد كتب بإملاء الهوى، أو استحوذت على الكاتب فكرة افترضها سابقاً، فتراه يجول في خضمِّ الأحداث لاهثاً خلفها، وقلَّما يُدركها، فمع ضرورة الاطِّلاع على كلِّ ما كُتب حول موضوع البحث، هُناك ضرورة الانتباه لشرك الإسقاطات السِّياسيَّة والمذهبية الحديثة على الأحداث التاريخية.

وممَّا زاد من صُعُوبة الركون لرأي المصادر القديمة أنَّها كانت مُنقسمة بين مدرستَيْن: العَرَبيَّة الإسلاميَّة، والفرنجية الأُورُوبيَّة، فلكلّ منها عقائدها، وتراثها، وحضارتها المُختلفة، وقد تعمَّق الخلاف بينهما عندما عُمِّد بالدم على أرض فلسطين. فكانت لكلٍّ منهم وجهة نظره التي دعمها، وسعى لتسويقها. ولكنْ؛ لابُدَّ أن نشهد هُنا بامتياز المؤرِّخين المُسلمين، وموضوعيَّتهم، فقد مدحوا الفرنج، وأشادوا بشجاعتهم في كثير من المواطن، بينما كان المُسلمون - بالنِّسبة للمؤرِّخين الفرنج على الدوام - برابرة همج، لا يستحقُّون الحياة.

مقاربة حول منهج البحث ودوافعه:

لقد كانت وقائع العصر الأيُّوبي مجالاً خصباً، في خصوصياتها، وعمومياتها، لكثير من الباحثين الذين قتلوها بحثاً، وتمحيصاً، حتَّى إنَّه أصبح من النادر أن نجد موضوعاً لم يكن مادَّة لأكثر من باحث، لكنَّنا قلَّما نجد بحثاً رابطاً بين هذه البحوث، شاملاً للعصر من إحدى جنباته، يخرج

---

1 - راجعْ ما قاله ابن الأثير عن مُلُوك بني أيُّوب في كتابه: الكامل في التاريخ، 12/ 352.

بنتائج عامَّة تصلح لأن تكون أساساً لنظرة عربية حديثة لما مضى من تاريخنا، وهُو ما سعيتُ إليه من خلال هذا البحث الذي سيكون جديداً في مضمونه، وجديداً في منهجه، فمنهج العمل هُنا لم يقم على كتابة تاريخ للعصر الأيُّوبي، وما كان هدفه تدوين أحداث مُتسلسلة، أو مُتفرِّقة، بل كان أساس منهج عمله رصد الأحداث التاريخية، والتعرُّض لكُلٍّ منها في سياقه وُفقاً لخُطَّة البحث، التي تُعنى بالعلاقات الدّوليَّة السِّياسيَّة منها والعسكريَّة بين الدُّول والقوى المُختلفة. إضافة إلى تحليل الحدث التاريخي، والإشارة إلى دلالاته في سياق العلاقات الدّوليَّة، ثُمَّ استخلاص نتيجة منطقية بدلالة الأحداث نفسها.

ونظراً لطبيعة البحث ولخُطَّة العمل التي وضعتُها له، كنتُ مُضطرَّاً لاتِّباع أُسلُوب مُختلف بعض الشيء عمَّا جرت به العادة، فلم يكن هُناك تسلسل للأحداث التاريخية في البحث بشكل عامٍّ إلَّا بما يخدم خُطَّة العمل، ولكني حرصتُ على تسلسل الأحداث ما أمكن ضمن كُلِّ مبحث. ورغبتُ أن تكون ساحة البحث واسعة لتكون الرؤيا شمولية؛ للحُصُول على نتائج أكثر عُمُومية بقدر المُستطاع، لتتناسب مع شُمُولية الموضوع، واتِّساع آفاقه.

ومن خلال كُلِّ ذلك عملتُ لتكوين وجهة نظر مُفترضة حول طبيعة العلاقات الدّوليَّة في ذلك العصر، من خلال العلاقات الدّوليَّة التي كانت سائدة. إن وجهة النظر هذه ستُمكِّننا من المُساهمة في تكوين الصُّورة العامَّة للعصر الأيُّوبي وفلسفته في الحياة بشكل عامٍّ. كما أن الواقع الذي يعيشه العَرَب اليوم، في منطقة البحث نفسها، أراه شديد الشبه بذلك العصر، فعسى أن تفيد هذه الدراسة في استخلاص العبر؛ لتُنير لنا درب المُستقبل.

وبهذا؛ أرجو أن أكون قد وُفِّقتُ في اختيار بحوث هذا الكتاب، وفي صنعته، وأُقدِّم اعتذاري سلفاً ليسبق كلّ تقصير حاصل، فالكمال لله وحده.

د. مُنذر مُحمَّد الحايك

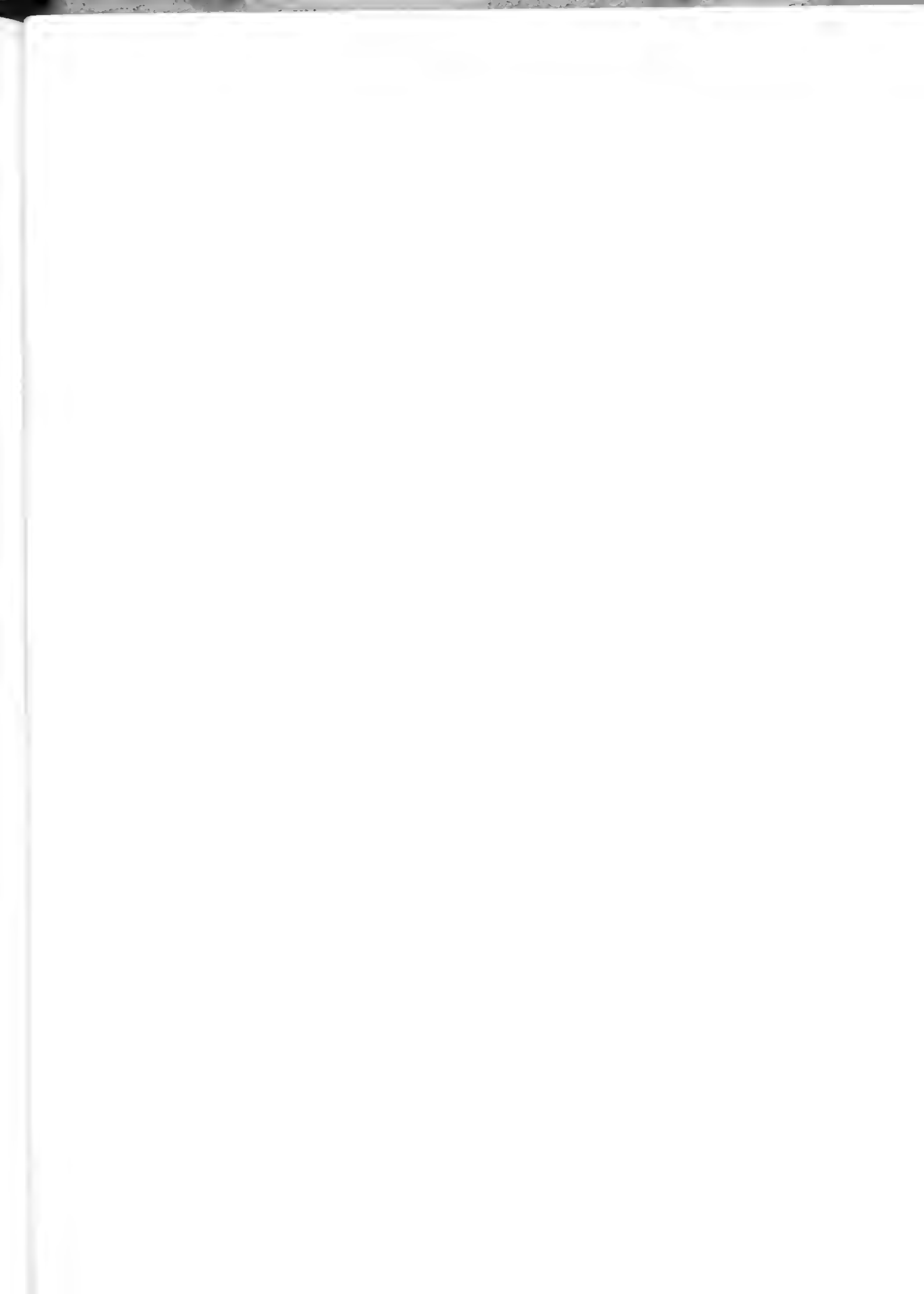
حمص الشَّام: الخميس 1/ ذي القعدة 1426 هـ المُوافق 1/ كانون الأوَّل 2005 م

الجُزء الأوَّل

العلاقات بين القوى والدُّول الإسلاميَّة

القسم الأوَّل

الحياة العامَّة في العصر الأيُوبي



الفصل الأوَّل

العلاقات السِّياسيَّة للسَّلطنة الأيُّوبيَّة

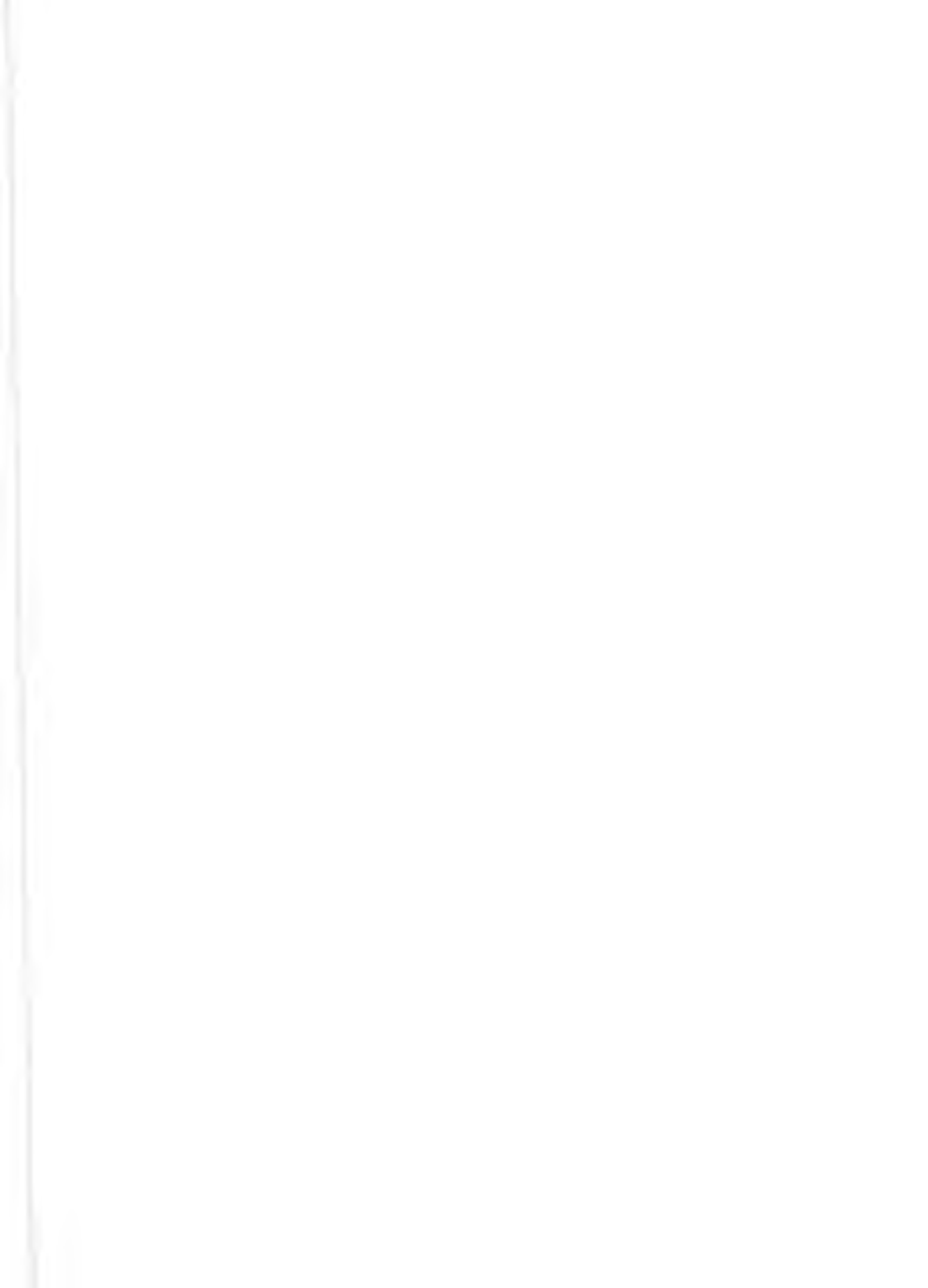
تمهيد:

كانت العلاقات السِّياسيَّة للسَّلطنة الأيُّوبيَّة تنقسم إلى قسمَيْن، أولهما: العلاقات السِّياسيَّة الدَّاخليَّة، وتشمل العلاقات ضمن المملكة الواحدة، أو ضمن الدولة الأيُّوبيَّة بشكل عامٍّ، وثانيهما: السياسة الخارجيَّة، أو العلاقات الخارجيَّة مع الممالك الإسلاميَّة الأُخرى، أو الدُّول غير الإسلاميَّة. ويبدو - بوُضُوح - أن السياسة الأيُّوبيَّة كانت استمراراً لسياسة الأتابكة الزنكيين بخُطُوطها العامَّة، فمع أنَّها كانت تُراعي الشرع الإسلامي بشدَّة، لكنْ؛ في الوقت نفسه كانت تُدرك أن أحكام السياسة شيء، والشرع شيء آخر، وهذا ما عبَّر عنه المقريزي بقوله: "اعلم أن الناس في زماننا يرون أن الأحكام على قسمَيْن: حُكم الشرع، وحُكم السياسة، فالشريعة هي ما شرع الله، وأمر به، والسياسة رسمت بأنَّها القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح وانتظام الأحوال"[1]. ويتضح لنا التطبيق الأيُّوبي للسياسة الدَّاخليَّة من خلال وصية السُّلطان صلاح الدِّين لولده الظَّاهر عند مسيره لتولِّي حلب، فقد قال له: "أوصيكَ بتقوى الله تعالى، فإنَّها رأس كل خير، وآمركَ بما أمر الله به فإنَّه سبب نجاتكَ، وأُحذِّركَ من الدماء، والدُّخُول فيها، والتقلُّد بها، فإن الدم لا ينام، وأُوصيكَ بحفظ قُلُوب الرعية، والنظر في أحوالهم، فأنت أميني وأمين الله عليهم، وأُوصيكَ بحفظ قُلُوب الأُمراء وأرباب الدولة والأكابر، فما بلغتُ ما بلغتُ إلَّا بمُداراة الناس، ولا تحقد على أحد، فإن الموت لا يُبقي على أحد"[2]. من هذه الوصية نستنتج القواعد الأساسية للسياسة الدَّاخليَّة التي طبَّقها صلاح الدِّين مُؤسِّس الدولة، والتزم بها مَنْ جاء بعده من آل بيته، إنَّها - باختصار - السياسة في ظلِّ الشرع الإسلامي.

---

1 - خُطط الآثار، المقريزي، 3/ 60.

2 - النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليُوسُفية، ابن شدَّاد، 241.



المبحث الأوّل:

المُعاهدات الدّوليّة

لقد أجاز الشرع الإسلامي مبدأ المُعاهدات حتّى مع الأعداء في حالتَيْ السِّلْم والحَرْب، وأمضى الخُلفاء الراشدون مُعاهدات صُلح عديدة، وحرصوا على الالتزام ببُنُودها، وحذَّروا من الغدر بالأعداء، فالوفاء بالعهد صفة مُلازمة لإيمان المُسلم[1]. وقد حضَّ الإسلام على الالتزام بالمُعاهدات، والوفاء بالعُهُود، من خلال آيات قُرآنيّة عديدة منها: ﴿ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولاً ﴾[2]، ﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ﴾[3]. وقد عد الإسلام أن مَنْ يعاهد فهو يُعاهد الله، وأن العهد هُو عهد الله، قال تعالى: ﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾[4]، وقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴾[5].

ولطبيعة العلاقات العسكريّة التي دامت قرابة القرنَيْن من الزّمان بين المُسلمين والفرنج، وللعلاقات العسكريّة التي - غالباً - ما كانت مُتوتّرة مع المَمالك والدُّول الإسلاميّة، وغير الإسلاميّة المُجاورة للمَمالك الأيُّوبيّة، وأيضاً؛ بسبب العلاقات العسكريّة التي لم تكن - دائماً - وُدّيّة بين المَمالك الأيُّوبيّة نفسها، فقد كان من الطبيعي جدّاً أن يتخلّل العلاقات المُتوتّرة فترات من السلام، تنشأ نتيجة لمُفاوضات يعقبها اتّفاق سلام كان يُسمّى غالباً: مُعاهدة، أو هُدنة، أو عهد صُلح. وهذه الاتّفاقيات كانت في - الأعمّ الأغلب - ثُنائية بين طرفَيْن، مع أنّنا شهدنا اتّفاقيات تنسحب على أطراف أُخرى مُوالين للطرفَيْن، أو لأحدهما. وفي عصر الحُرُوب مع الفرنجة تتالت المُعاهدات بين الأيُّوبيّين والفرنج، حتّى إنّه يُمكننا القول بأنّ سلسلة من المُعاهدات بينهما، مُنذُ مُعاهدة صلاح الدِّين مع ريتشارد، أو ما يُعرَف بصُلح الرملة، قد أمّنت سلاماً مُتّصلاً دام حوالي أربعين عاماً[6]، وبالتّأكيد؛ كانت هُناك بعض المُناوشات تقطع هذا السلام، لكنّها لم تبلغ حَدّ الحَرْب الشاملة، التي جرت أيّام صلاح الدِّين.

---

1 - العلاقات الدّوليّة، وهبة الزحيلي، 131.
2 - سُورة الإسراء، الآية: 34.
3 - سُورة الأنعام، الآية: 152.
4 - سُورة النحل، الآية: 91.
5 - سُورة الرعد، الآية: 20.
6 - الحُرُوب الصّليبيّة، باركر، 105.

قواعد المُعاهدات:

كانت هُناك قواعد وشُرُوط لإبرام المُعاهدات، منها ما ينطبق على جلسة الإبرام، التي كانت تضمُّ المُلُوك، أو مَنْ ينوب عنهم، ولترفُّع الملك أو السُّلطان عن مُباشرة تقرير البُنُود بنفسه كان الأيُّوبيُّون يُسمّون أحد مُلُوك الأُسرة مُقرِّراً لجلسة الصُّلح، فبعد هزيمة الفرنج في دمياط واتِّفاقهم مع السُّلطان الكامل على الصُّلح، وتسليم دمياط، "كان المُقرِّر لهذا الصُّلح الملك المُجاهد شيركوه باتِّفاق المُلُوك"[1]، فوقَّع المُجاهد صاحب حمص نُسخة الصُّلح نيابة عن المُسلمين، ممَّا اقتضى جلوسه كمُقرِّر على يمين سُلطان المُسلمين الملك الكامل، ودونه بقيَّة المُلُوك حسب مراتبهم[2]. وإضافة إلى المُقرِّر كان يُوقِّع الاتِّفاقية عدد من الحاضرين كشهود[3]. ويُمكن بحالة عدم الثقة ولضمان تنفيذ نصِّ اتِّفاقية السلام، وخاصَّة في الاتِّفاقيات التي تعقب أعمالاً حربية كبيرة، كان الجانبان يُسلِّمان رهائن لتأكيد صحة التزامهم بشُرُوط الاتِّفاق، وقد سلم السُّلطان الكامل ابنه الصَّالح أيُّوب واحداً من الرهائن للفرنج بعد توقيع اتِّفاقه معهم في نهاية الحملة الخامسة، وهُم ـ بالتَّالي ـ سلَّموا رهائنهم، وكان فيهم ملك عكَّا حنَّا برين، والنائب البابوي بيلاجيوس، ودُوق بافاريا، وغيرهم[4].

وكانت هُناك شُرُوط وقواعد يلتزم بها الأيُّوبيُّون ـ غالباً ـ في كتابة نصِّ مُعاهداتهم، منها:

1 ـ كان نصُّ المُعاهدات يُصاغ بالنثر المُرسَل، ومع إيجاز النَّصِّ، فقد كان يحرص الكُتَّاب على توضيح الشُّرُوط المُتَّفق عليها.

2 ـ يذكر نصُّ المُعاهدة أسماء الملكَيْن المتعاهدَيْن، ويحدِّد أطرافها، وشُرُوطها، وأسماء الشهود، ومدَّة المُعاهدة، وتاريخ بدء سريانها، وذكر البلاد والممالك التي تسري عليها، ثُمَّ نصّ الأيمان المحلوفة؛ للالتزام بها، وتطبيقها. وعادةً؛ كان يبدأ النصُّ بعبارة: "استقرَّت الهُدنة بين ....."، ويُختتم بعبارة: "وهذا ما وقع الاتِّفاق عليه، وحُلف عليه، والله المُوفِّق".

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 92.
2 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 611 ـ620/ 27.
3 - النُّظُم الدبلُوماسيَّة، صلاح المُنجِّد، 174.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 98.

3 ـ عادةً؛ كان يورد كاتب المُعاهدة بعضَ الآيات القُرآنيَّة في مَتْن النصِّ، وذلك وُفقاً لما يتناسب مع حالتها، فإن كانت بين طرفَيْن مُسلميْن كانت الآية: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ﴾[1]، وإن كانت بين طرف مُسلم وآخر غير مُسلم كانت الآية: ﴿ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾[2].

4 ـ يُركِّز نصُّ المُعاهدة على أن الطرفَيْن كلَيْهما كان راضياً عن المُعاهدة، مُصمِّماً على تنفيذ شُرُوطها.

5 ـ يكون نصُّ اليمين الذي حُلِف به للالتزام بالمُعاهدة، والوفاء بشُرُوطها، جُزءاً منها، وأحياناً؛ يكون مُفرداً عنها بورقة خاصَّة، تُرفَق بنص المُعاهدة.

6 ـ تُكتَب المُعاهدات إذا كانت بين المُسلمين على نسختَيْن باللُّغة العَرَبيَّة، وإذا كانت بين المُسلمين والفرنج، فتكون نُسخة باللُّغة العَرَبيَّة، ونُسخة مُترجمة عنها بلُغة الملك الفرنجي، ويُوقِّع، ويختم كُلُّ طرف النُّسخة المكتوبة بلُغته، ويُسلِّمها للطرف الآخر؛ ليحتفظ بها.

7 ـ كانت مُدَّة المُعاهدات تُحسَب بالشُّهُور الشمسية، وتُدوَّن بالقمرية، لذلك كانت كُلُّ المُعاهدات تتضمَّن حساب مُدَّتها بالسنوات والأشهر والأيَّام، ويُذكَر بدء سريان المُعاهدة وتوقيتها بالتاريخ الهجري، وإذا كانت المُعاهدة مع الفرنج يُذكَر بعده التاريخ الميلادي.

وكانت هُناك شُرُوط شرعية حرص المُسلمون في العصر الأيُّوبي أشدّ الحرص على مُراعاتها في مُعاهداتهم، منها:

1 ـ عدم وُجُود شرط مُخالف للشرع الإسلامي، أو يُعطِّل واحداً من حُدُوده.

2 ـ التفريط بمال المُسلمين، أو أرضهم، أو حُقُوقهم، ما لم تكن هُناك ضرورة مُوجبة لذلك.

3 ـ أنْ لا تزيد مُدَّة المُعاهدة عن عشر سنوات، وهي مُدَّة مُعاهدة الرسول ﷺ لأهل مكَّة في صُلح الحديبية[3].

---

1 - سُورة الحجرات، الآية: 9.

2 - سُورة الأنفال، الآية، 61.

3 - راجِعْ: النُّظُم الدّبلُوماسيَّة، صلاح المُنجِّد، 174 ـ 181.

المبحث الثّاني:
المُراسلات الدّبلُوماسيّة

لأهمّيّة الرسائل في العلاقات السّياسيّة للممالك الأيّوبيّة فقد أفرد لها ديوان خاصٌّ هُو ديوان الرسائل، وله مُتولٍّ، أو رئيس، واشترط فيه شُرُوطاً عدّة، لأنّه يتولّى الكتابة عن الملك، وبلسانه، منها أن يكون: "ذا دين وورع وأمانة، فإنّه بمنزلة كبيرة ورتبة خطيرة، يتحكّم بها في أرواح الناس، وأموالهم"[1]. وقد اشترط ابن الصيرفي في قانون ديوان الرسائل أن يكون مُتولّيه مُسلماً، ودعم شرطه بالآية القُرآنيّة:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ ﴾[2]، علماً أنّه قد تولّى الوزارة للمُلُوك الأيّوبيّة عدد كبير من الذّمّيّين، خلافاً لشرط ابن الصيرفي. ولطبيعة العلاقات الخارجيّة المُتعدّدة للدُّول الأيّوبيّة فقد كانت المُشكلة الكُبرى لديوان الرسائل هي تعدُّد اللُّغات التي ترد فيها الرسائل، فقد كانت من مُلُوك وأُمراء أرمن وفرنج وروم وغيرهم كثر، فلذلك وُجد في ديوان الرسائل مُترجمون للُغات عدّة. وتمّ ضبط موضوع الترجمة، والحرص على عدم التلاعب بها عن طريق آلية دقيقة لعملية الترجمة، فكان يُسلَّم الكتاب الأعجمي الوارد إلى الديوان إلى مُترجم يفهم لغته، وعليه أن يكتب ترجمة الكتاب "في ظهره، أو على ورقة تُجعَل تلوه"[3]، ثُمّ يذكر اسمه وتاريخ ترجمته، ويُشهد على ذلك شاهدَيْن بأنّ ما ذكره هُو تفسير الكتاب، بلا زيادة، ولا نُقصان، ويُقال له إنّ غيره سيحضر لتفسير الكتاب، فيخاف، ويُؤدّي الأمانة، وذلك لأن "أكثر مَنْ يُترجم على مذهب صاحب الخطّ"[4]، وبذلك يضمنون صحّة الترجمة.

وكانت الرسائل تُرسَل إلى المُلُوك، وترد منهم مكتوبة على طرس، وهُو صحيفة كبيرة من الورق[5]، أو على قرطاس من ورق البردي، وهُو صحيفة عريضة، أو على الكاغد، وهُو صُحُف غلاظ من القنّب، وكان كُلّ ذلك قبل ظُهُور الورق السمرقندي، وهُو صُحُف رقيقة

---

1 - القانون في ديوان الرسائل، ابن الصيرفي، 7.
2 - سُورة المائدة/ 51. (القانون في ديوان الرسائل، ابن الصيرفي، 7).
3 - القانون في ديوان الرسائل، ابن الصيرفي، 33.
4 - القانون في ديوان الرسائل، ابن الصيرفي، 34.
5 - رُسُوم دار الخلافة، الصابئ، 126.

لطيفة تُعدُّ أصل الورق الحالي، وكانت الرسائل تُلَفُّ بعد كتابتها، ويُعقَد حولها شرابة ابرسيم سوداء غالباً، ويُختَم عليها بالمسك والعنبر مخلوط بطين أسود. ثُمَّ يُوضع الكتاب في غلاف كان يُسمَّى خريطة، وهُو من ديباج أسود، "ويُشدُّ رأس الخريطة بشرابة أُخرى في أشريجة مختومة"[1].

وكانت الرسائل نادراً ما تُتبادل مكتوبة بين المُلوك، إلَّا في حالات خاصَّة، فغالباً كان الرُّسُل يحملون رسائل شفهية، خوف وُقُوع الرسالة بيد عدوٍّ، أو تغيّر الأحداث بسُرعة لا تتناسب مع سُرعة وُصُول الرسالة، فالرسول ـ بهذه الحالة ـ يستطيع تلافي الأمر.

رسائل الحمام الزاجل:

كان الحمام الزاجل هُو الوسيلة المُعتمَدَة لإيصال رسالة مُستعجلة تُنذر بخطر، أو تُبشِّر بحدث، وكان الحمام طريقة قديمة جدّاً للتراسل، ففي عصر الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة استُخدمت هذه الطريقة، ثُمَّ توقَّفت، إلى أن أعاد إحياءها نُور الدِّين محمود بن زنكي، فهُو أوَّل مَن اعتنى بالحمام، ونقله من المَوصل إلى الشَّام، وفي سنة 565 هـ بنى له الأبراج في كُلِّ المناطق التي كانت تتبع له في الشَّام[2]، وركَّز نُور الدِّين محمود على إقامة أبراج الحمام "على الطُّرُق بين المُسلمين والفرنج، وجعل فيها مَنْ يحفظها، ومعهم الطُّيُور الهوادي، فإذا رأوا من العدوّ أحداً أرسلوا الطُّيُور، فأخذ الناس حذرهم، واحتاطوا لأنفسهم"[3]. فكانت هُناك مَسَارب للحمام الزاجل تُغطِّي كافَّة أطراف الشَّام، فكانت تُطلَق الحمامة، وقد رُبطت برجلها رسالة من دمشق، فتحطّ في أبراج قارة، ومنها تُؤخَذ الرسالة، وتُربَط برجل حمامة أُخرى، تنطلق حتَّى تحطَّ في حمص، وهكذا إلى حماة، أو تنطلق من دمشق، أو حمص، إلى القريتَيْن، ثُمَّ منها إلى تدمر[4].

ورسائل الحمام كانت تُؤمِّن أخباراً سريعة جدّاً، ورُبَّما هي أسرع من أيِّ وسيلة في ذلك العصر، ولكنْ؛ كان لها عدَّة مُشكلات: فصغر حجم الحمامة وقلَّة تحمُّلها كان يفرض شكلاً خاصّاً للرسائل، فهي تحتاج إلى ورق رقيق جدّاً، يُكتَب عليه بخط دقيق، ويُقال إنَّه لكتابة رسائل الحمام

---

1 - أشريجة أو أسريجة من سرّج أي شد العرى. (رُسُوم دار الخلافة، الصابئ، 127).
2 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 2/ 90.
3 - عُيُون الرَّوضتَيْن، أبو شامة، 1/ 369.
4 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 14/ 393.

الزاجل اخترُع خط الغُبار. كذلك هُناك خطر وُقُوع الرسالة بين الأعـداء، فأوجـدوا رمـوزاً خاصّـة اصطلحوا عليها، يقول العماد الكاتب: أنّه في حصار عكّا "كُنّا نكتـب إلـيهم، ويكتبـون إلينـا، عـلى أجنحة الحمام الزاجل بالترجمة المُصطلح عليها سرّ الأُمُور"[1]. وكان لأبراج الحمام مُتولّيها، من حيثُ التربية والتدريب، ويكون في كل منزلة معتمدة، حتّى إنّـه قـد يُرافـق العَـسْكَر بأقفـاص فيهـا الحـمام المُدرَّب لاستخدامه عند الحاجة.

ويبدو أن البريد السريع اتّخذ شكلاً آخر في عهد سلطنة المماليك، فقـد أوجـدوا خيـل البريـد، وأقاموا لها محطّات؛ حيثُ كانت تنطلق الرسالة من مصر، وفي كُلِّ محطّة تُبدَّل الخيل بأُخرى مُستريحة، حتّى تصل إلى مقصدها.

الرُّسُل والسُّفراء:

كان إرسال السُّفراء هُو الشكل الأعمُّ للاتّصالات السِّياسيّة بين الدُّول والممالك والإمـارات، ولذلك؛ شكّل السُّفراء عاملاً مُهمّاً في تاريخ العلاقات السِّياسيّة الدّوليّة. وقد تفـاوت الـسُّفراء، كُـلٌّ وفق مؤهّلاته الشخصية، وإعداده، وخبرته، في تأثيرهم على العلاقات الدّوليّة في ذلـك العـصر، فلـم تكن السِّفارة لتأدية رسالة فحسب، بل لكَشْف أحوال البلاد، وصاحبها. كَتَبَ نظـام الملـك في كتابـه سياسة نامة: "يجب أن يعلم المُلوك أنّ بإرسالهم السُّفراء لا يقصدون تـسليم رسـالة، أو نقـل سـفارة فقط، بل هُناك مئات الأغراض يبغونها، فهُم ـ في الحقيقة ـ يُريدون أن يعلموا حالة الطُّرُق، والآبـار . . وقُوّة الجيش، ومُؤنته . . وكيف يعيش الأمـير . . وأن يعرفـوا تنظـيمات بلاطـه، حتّـى إذا رغبـوا في مُهاجمته يوماً، أو أرادوا نقض خُططه كانوا مُطّلعين مُـدركين، يـضعون المحاسـن والمـساوئ نـصب أعينهم، وينهجون بحسبها"[2].

لكُلِّ هذا حرص مُلوك الأيُّوبيّة في مصر والـشّام عـلى أن تكـون رُسُـلُهُم مـن طبقـة القُـضاة، أو الفُقهاء، ممّنْ يتّصفون بالخبرة والدراية بشُؤُون الحُكْم والدُّول، فكانت رُسُلُهُم مـن القُـضاة؛ مثـل القاضي والمؤرّخ ابن واصل الحموي، والقاضي محيي الدِّين بن الذكي[3]، وقاضي العَسْكَر نجم الدِّين

---

1 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكّار، 13/ 245.
2 - النُّظُم الدّبلُوماسيّة، صلاح المُنجِّد، 104.
3 - الوافي بالوفيات، الصفدي، 4/ 170.

خليل بن المصمودي[1]، وقاضي حماة عماد الدِّين بن القطب[2]، والقاضي هبة الله إسماعيل بن نبهان بن المقنشع[3]، والقاضي بهاء الدِّين مروان بن قابيا[4]، وغيرهم كثير. ومن الفُقهاء الذين ترسَّلوا للمُلُوك الأيُوبيَّة، الكمال بن المُهاجر الموصلي[5]، وشيخ الشُّيُوخ صدر الدِّين بن حموية[6]، وخطيب جامع دمشق جمال الدِّين مُحمَّد الدولعي الشافعي[7]، ورُبَّما كان أشهرهم رسول دار الخلافة الشَّيخ نجم الدِّين البادرائي مدرِّس النِّظاميَّة[8]، وشيخ الصُّوفيَّة شهاب الدِّين السهروردي[9]. ومن الوُجهاء والرُّؤساء الذين قاموا بالسِّفارات: الشهاب عبد السلام بن أبي عصرون، الذي ترسَّل عن مُلُوك بني أيُّوب إلى دار الخلافة[10]، ومن كبار مُوظَّفي الدولة، ترسَّل الدكز العادلي أُستاذ دار الملك العادل[11]، وكُلّ هؤلاء وأمثالهم لم تكن لتنقصهم الخبرة، أو التجربة، أو العلم، أو قُوَّة الشخصية، فالرسول إذا لم يكن يتمتَّع بالكفاءة اللازمة والدراية والحنكة، فقد يضرُّ مصلحة مخدومه، كما فعل رسول الملك الظَّاهر صاحب حلب، فقد وردت إلى الملك الظَّاهر عام **613** هـ **1216**م، رسالة عزّ الدِّين كيكاوس سُلطان سلاجقة الرُّوم يطلب فيها خُرُوج الظَّاهر بجيشه ليقصدا معاً مملكة الأرمن، فحمل ردّ الرسالة عبد الرحمن المنجي، ويبدو أن الرّدّ كان شفهياً كالعادة، فلمّا أدّى الرسالة، "حرَّف فيها، وزاد شُرُوطاً تضرُّ الملك الظَّاهر وتُوافق عزّ الدِّين كيكاوس، لعدم كفايته"[12].

كما كانت أهمِّيَّة الرسول تُشير إلى أهمِّيَّة موضوع رسالته من جهة، وإلى أهمِّيَّة المُرسَل إليه من جهة أُخرى، لذلك؛ عندما أرسل السُّلطان صلاح الدِّين يُبشِّر الخليفة بنصر حطِّين مع مُتطوِّع

---

1 - الجامع المُختصر، ابن الساعي، 259.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 330.
3 - بغية الطلب، ابن العديم، 10/ 4581.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 261.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 133. الكمال بن المُهاجر: تُوفِّي عام 634 هـ، راجعْ ترجمته في : البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 146 والوافي بالوفيات، الصفدي، 4/ 172.
6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 194
7 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 210
8 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 391.
9 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 180.
10 - شذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 149.
11 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 180.
12 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 234.

بغدادي من العامَّة اسمه رشيد البوشنجي، غضب الخليفة، وأهان الرسولَ، وأرسلَ يعاتب صلاح الدِّين، وقامت أزمة سياسيَّة فعليَّة بين الطرفَيْن[1]. وبالمُقابل؛ كان استقبال السفير يليق بمَنْ أرسله، فكان يحصل على أفضل ضيافة واستقبال وتكريم بالهدايا والعطايا، ولذلك أُحدثت وظيفة متأخِّرة في بلاطات المُلُوك الأيُّوبيَّة، ونمت، وتطوّرت في عهد الدولة المملوكية، هي وظيفة المهمندار، الذي كانت مهمّته استقبال السُّفراء، وسُؤالهم عن موجب حُضُورهم، وتسليم ما بيدهم إلى كاتم أسرار السُّلطان، ثُمَّ يُهيِّئ دُخُولهم على السُّلطان[2]، وإذا كان السفير قادماً في أمر خطير، أو من قبَل ملك، أو سُلطان كبير، فإن السُّلطان، أو الملك، يخرج لتوديعه بنفسه، كما فعل السُّلطان العادل، بخُرُوجه لوداع المُؤرِّخ ابن العديم قاضي وسفير مملكة حلب عام 637هـ1240م[3]. وأيضاً؛ يخرج الملك لاستقبال بعض كبار السُّفراء، وكانت عادةُ الاستقبال هذه خاصَّة لسُفراء الخليفة؛ حيثُ تستقبلهم المُلُوك الأيُّوبيَّة خارج المُدُن، ويعودون معهم، فقد خرج السُّلطان صلاح الدِّين بنفسه لاستقبال رُسُل الخليفة النَّاصر، وترجَّل لهم، وقبَّل الأرض[4]. وكانت الرُّسُل تحصل على منح وجوائز قيِّمة، فمنهم مَنْ يحتفظ بها، ومنهم مَنْ يُوزِّع جوائزه على الناس، وقد وزَّع أحمد بن عبد الرحيم القاضي الفاضل، الذي كان رسول الملك الكامل إلى الخليفة في بغداد، كُلَّ ما حصل عليه من الخليفة من جوائز وعطايا قبل أن يخرج من بغداد[5]، أمَّا سفير صاحب المَوصل بدر الدِّين لُؤلُؤ إلى الشَّام الكمال بن المُهاجر؛ "فلم يقبل شيئاً من أحد،ولا أكل طعامه[6].

وإذا اقتضت الحاجة، فقد يصطحب السفير معه الرسالة الجوابية[7]. وأحياناً؛ قد يُخطئ السفير، فيُسيء إلى مُرسله، فيُعاقَب عند عودته كما حدث مع الصلاح الأربيلي، وكان أديباً شاعراً، عندما أوفده الملك الكامل إلى أخيه المُعظَّم بدمشق، فاستماله المُعظَّم ضدَّ الكامل، وبلغ الكامل ذلك، فلمَّا عاد حبسه في الجبِّ عدَّة سنين[8]. وإذا كانت العلاقات السِّياسيَّة سيِّئة بين مملكتَيْن،

---

1 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، 184.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 701.ـ مهمندار: كلمة فارسية من مقطعَيْن: مهمان ـ ضيف، ودار ـ حافظ.
3 - الجامع المُختصر، ابن الساعي، 262.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 181.
5 - الوافي بالوفيات، الصفدي، 8/ 57.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 133.
7 - الجامع المُختصر، ابن الساعي/ 62.
8 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 286.

وأوفد أحدهما رسولاً، فقد يُمنَع من الوُصُول، ولا تُقبَل رسالته، فعندما أرسل الملكُ الظَّاهر صاحبُ حلب وزيرَهُ علمَ الدِّين قيصر إلى عمِّه الملك العادل في مصر، وكانت بينهما وحشة، فمنع العادلُ السفيرَ من الوُصُول إلى القاهرة، واحتجزه في بلبيس، وطلب منه تسليم الرسالة إلى قاضي بلبيس[1].

كذلك قام الملك العادل بالامتناع عن قبول رسالة ابن أخيه الملك الظَّاهر التي يطلب فيها الشفاعة لصاحب سنجار، ولم يكتف بذلك، بل أغلظ القول للسُّفراء[2]، وكان الملك الظَّاهر قد زوَّد سُفيرَيْه بتعليمات تُنفَّذ على التوالي، فقد أمرهما إذا لم يقبل العادلُ الشفاعةَ ـ ويبدو أنَّه كان يتوقَّع ذلك ـ أن يأمرا العَسْكَر الحلبي الموجُود في حملة العادل أن يترك الحصار، ويلتحق بحلب، وفعلاً؛ تمَّ ذلك، ولم يكتف الرسولان بهذا، بل نفَّذا المرحلة الثَّالثة من تعليمات الظَّاهر، فقد "دسَّ الرسولان إلى أصحاب العادل دسائس أفسدت أحواله"[3]، وبالفعل؛ كان لرُسُل الظَّاهر دور هامٌّ في إفشال حصار الملك العادل لسنجار، بالرّغم من القوى العسكريَّة الكبيرة التي تجمَّعت لديه في حصارها.

وكانت أكثر السِّفارات التي تجوب البلاد الإسلاميَّة هي سفارات الخُلفاء العبَّاسيين، فباعتبار الخليفة الحاكم الأعلى للممالك والدُّول الإسلاميَّة، فقد كانت رسائله ورُسُله متواترة إلى المُلُوك والحُكَّام في أُمُور مُختلفة ومُتعدِّدة، منها للإصلاح والتوسّط فيما بينهم، ومنها لتبليغهم أُمُور جرت في عاصمة الخلافة، أو منحهم التقليد والتشريف إلخ . . وأشهر مَنْ ترسَّل عن دار الخلافة كان محيي الدِّين ابن الجوزي[4]، الذي اشتهرت سفارته للصُّلح بين أولاد الملك العادل: الملك الكامل والملك المُعظَّم عام 629هـ 1232م[5]، وسفارته عام 636هـ 1238م للصُّلح بين أولاد الكامل: الصَّالح أيُّوب وأخيه العادل الثَّاني. وكذلك كان حال السفير نجم الدِّين البادرائي[6].

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 154.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 196.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 197/ 3.

4 - ابن الجوزي: يُوسُف بن عبد الرحمن بن علي (580 ـ 656 هـ 1185 ـ 1258م)، أُستاذ دار الخليفة المُستعصم، ومُدرِّس المدرسة المُستنصرية ببغداد، أنشأ المدرسة الجوزية بدمشق، أديب وشاعر وفقيه، قتله التَّتار شهيداً صبراً، راجعْ ترجمته في: النُّجُوم الزَّاهرَة، 7/ 66، وشذرات الذهب، 5/ 286، والبداية والنِّهاية، 13/ 203، والدارس في تاريخ المدارس، 2/ 62، وذيل المرآة، 1/ 332.

5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 257.

6 - البادرائي: 594 ـ 655 هـ نجم الدِّين مُحمَّد بن الحَسَن بن عبد الله درس في النِّظاميَّة ببغداد، وبمدرسته التي أنشأها بدمشق، راجعْ ترجمته في : ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 391.

الرُّسُل إلى الممالك الخارجيَّة:

لطبيعة العلاقات السِّياسيَّة بين الدُّول الأيُّوبيَّة والممالك الأُخرى، وتنوُّعها، فقد نشطت الرُّسُل بينهم، وكان من أكثر الممالك الإسلاميَّة مُراسلة للأيُّوبيين مملكة الخَوَارزميَّة. فقد تردَّدت الرُّسُل بين خوارزم شاه علاء الدِّين مُحمَّد بن تكش والملك العادل، فوصلت رُسُلُ الخوارزمي إلى العادل وهُو بمرج الصفر عام **615** هـ **1218**م، فأجاب العادل على الرسالة مع رسولَيْن، لمَّا وصلا همدان، وجدا التَّتار قد هزموا الخوارزمي، فاجتمعا بولده جلال الدِّين، فأخبر جلال الدِّين الرُّسُل بوفاة الملك العادل[1]. ثُمَّ تردَّدت رُسُلُ جلال الدِّين، السُّلطان الجديد للدولة الخَوَارزميَّة، إلى الملك الأشرف بن العادل وإلى مُعظم مُلُوك الأيُّوبيَّة في الشَّام[2]، وكانت علاقته مُتميِّزة بالملك المُعظَّم عيسى صاحب دمشق، ولابُدَّ أن مُراسلات عديدة سبقت التحالف المشهور بينهما.

وكذلك لوُجُود علاقات سياسيَّة نشطة بين الممالك الأيُّوبيَّة وسلطنة سلاجقة الرُّوم، فقد تواترت الرُّسُل بينهما بمُناسبات مُختلفة. ففي عام **624** هـ **1227**م، أرسلت مُعظم الممالك الأيُّوبيَّة رُسُلَها إلى سُلطان سلاجقة الرُّوم كَيْقُبَاذ، واجتمعت عنده[3]، وذلك ردَّاً على ما حمله رسوله كمال الدِّين كيمار قاضي أرزنجان من رسائل إليهم[4]. وتكرَّر قُدُوم رسول السُّلطان كَيْقُبَاذ في عام **630** هـ **1233**م؛ حيثُ عرج على مُعظم المُلُوك الأيُّوبيِّيْن، وأبلغهم رسائل من مخدومه[5].

أمَّا مع الدُّول غير الإسلاميَّة؛ فقد كانت ممالك وإمارات الفرنج على الساحل السوري في مُقدِّمة هذه البُلدان من حيثُ تبادل السِّفارات مع الممالك الأيُّوبيَّة.

وذلك للاحتكاك العسكري والسِّياسي الدائم بينهما، ويبدو أنَّه كان لدى الفرنج أشخاص قد تخصَّصوا بأدوار الرُّسُل، فرسول بيت الاسبتار سيمون كان مشهوراً ومعروفاً في الممالك الأيُّوبيَّة،

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار،20/ 210.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 150.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 143.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 141.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 259.

وبالتَّأكيد؛ كان يجيد اللُّغة العَرَبيَّة[1]. واستخدم بعض المُلُوك الأيُّوبيَّة رُسُلاً من الفرنجة في مهمَّات خاصَّة لهم في أُورُبة، كما فعل الملك الكامل عام 629 هـ 1232م عندما أرسل مسيو ريمون إلى جزائر البحر ـ أُورُبا ـ ليشتري له صقراً[2]، ويبدو أن مهمَّة شراء الصقر هي ما أُشيع لإخفاء حقيقة سفارته التي قد تكون ذات شأن سياسي كبير يقتضي السِّرِّيَّة[3]. أمَّا رُسُلُ المُدُن الإيطالية: جنوة والبُنْدُقية وبيزا، ورُسُل الإمبراطُوريَّة الجرمانية المُقدَّسَة؛ فلم تكن لتنقطع عن أبواب سلاطين بني أيُّوب[4]، وذلك لطبيعة العلاقات التِّجاريَّة بين دولهم والممالك الأيُّوبيَّة، وخاصَّة مصر.

خيانة الرُّسُل:

كان أخطر ما في المُراسلات هُو خيانة الرُّسُل وتحريفهم للرسائل وُفقاً لأهوائهم، فمُعظم المُراسلات كانت شفهية يحملها الرسول فَهْماً في عقله، ويُؤدِّيها مُشافهةً بالثقة والأمانة المطلوبة منه، لكنَّ بعض الرُّسُل تجاوزوا ذلك، واعتبروا أن مهمَّتهم سياسيَّة، وفي السياسة؛ كُلُّ شيء وارد. فعندما اعتقل النَّاصر داودُ عام 637 هـ 1240م، الملكَ الصَّالح أيُّوبَ، أرسل العادل الثَّاني صاحب مصر يطلب من داود أن يُرسل أسيره الصَّالح أيُّوب إليه في مصر، وبعث في الرسالة علاء الدِّين النابلسي، الذي كان هواه مع أيُّوب، وقد اعترف الرسول ـ فيما بعد ـ بخيانته للرسالة، فقد قال: "لمَّا اجتمعتُ بالناصر أكَّدتُ معه في الباطن أنْ لا يُجيب إلى ما طلبه العادل"[5]، فكانت نتائج ذلك في مُنتهى الخُطُورة على العادل الثَّاني، وتسببت في نزعه عن ملك مصر، فعدم انتقاء العادل لرسول ثقة أمين أدَّى إلى تمسُّك داود بأيُّوب، وعدم تسليمه، وبالتَّأكيد؛ فإن الرسول الخائن قد أكَّد لداود عدم تمتُّع العادل بتأييد الأُمراء، وزيَّن له ـ بالمُقابل ـ استخدام ورقة أيُّوب للوُصُول إلى حُكْم مصر، مُبيِّناً له تأييد أُمراء العَسْكَر لأيُّوب، واستعدادهم لتوليته بدل أخيه العادل، وهذا ما تمَّ فعلاً.

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 203.

2 - المنصُوري، ابن نظيف، 248.

3 - رُبَّما كانت هذه المهمَّة تتعلَّق باستعداد الكامل لتنفيذ مشروعه بالاستيلاء على مملكة سلاجقة الرُّوم، ونقل إخوته وأبناء عمّه مُلُوك بني أيُّوب من الشَّام إليها، لينفرد بحُكْم مصر والشَّام بكاملها، وقد دفعنا إلى هذا الافتراض قيادة الكامل لجُيُوشه في العام التالي 930 هـ 1233م، والتوجُّه نحو كيليكيا لتنفيذ مشروعه. راجعْ: شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 314.

4 - المنصُوري، ابن نظيف، 248.

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 244.

ودعم هذا الموقف بموقف رسول آخر حرَّف الرسالة، وخان مخدومه، وعمل لأهوائه السِّياسيَّة، فعندما قبض داودُ على أيُّوب كان معه قاضي سنجار بدر الدِّين، وهُو من أكثر المُقرَّبين إليه، فخاف بدر الدِّين على نفسه، وآثر السلامة، وذهب إلى دمشق، وتقرَّب إلى الملك الصَّالح إسماعيل، الذي استولى على دمشق من أيُّوب، وقام الصَّالح إسماعيل بما عُرف عنه من سُوء تدبير باختيار بدر الدِّين، قاضي سنجار ومُستشار أيُّوب السَّابق، ليؤدِّي رسالة منه إلى سُلطان سلاجقة الرُّوم كيخسرو، "فخان الرسالة، وتحدَّث باسم أيُّوب، ووفَّق بينه وبين كيخسرو"[1]، وهذا ـ أيضاً ـ ساهم في إنجاح مساعي أيُّوب للوُصُول إلى السَّلطنة من قلب محنة السجن والأسر. وساعد على تقويض جُهُود عدوَّيْه الصَّالح إسماعيل صاحب دمشق والعادل الثَّاني سُلطان مصر. وما كلّ ذلك إلَّا بسبب اعتماد المُلُوك على الرسائل الشفهية التي تقتضي ثقة مطلقة وأمانة تامَّة من الرُّسُل، وهذا ما لم يتوفَّر دائماً؛ بسبب عدم تدقيق صاحب الرسالة في مُيُول وولاء الرسول، وقبول ما يعرضه من ولاء زائف له.

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 251.

الفصل الثَّاني

دور السُّكَّان في العلاقات الدّوليَّة

المبحث الأوّل:

سكّان الممالك الأيُّوبيَّة

كانت تعيش في البلاد الدّاخليَّة التي تُسيطر عليها المالك الأيُّوبيَّة تركيبة عجيبة من السُّكَّان، من حيثُ الانتماء العرْقي والدِّيني على السواء، فقد كان فيها العَرَب والأتراك والأكراد والزنوج، ومماليك من كُلِّ أصقاع الدُّنيا، ومُهاجرين من المغرب العَرَبي، أو من بلاد فارس، أو من القفقاس. وصحيح أن مُعظم السُّكَّان كانوا من المُسلمين، لكنَّهم كانوا يتوزَّعون على مذاهب شتى[1]، ومع أن الغالبية تتبع المذهبَ السُّنِّيّ، فقد كان قسم مُهمٌّ منهم يلوذ بمذهب التشيُّع بفرَقه المُختلفة، من اثني عشرية، وإسماعيليَّة، والعلويين النصيرية، وفي حين تركَّز المذهب السُّنِّيُّ في المُدُن الكُبْرَى، فقد كان الشيعة موزَّعين على الجبال والأرياف[2]. ولا ننسى وُجُود مجموعة من الدُّرُوز تمركزت جنوب شرق جبال لُبنان.

ونتيجة للأوضاع الأمنية، فقد انقسمت المُدُن في الدولة الأيُّوبيَّة إلى أحياء شبه مُسوَّرة، لها بوَّاباتها التي تحرس ليلاً، وظهرت لها زعامات محلِّيَّة[3]. وكان تأثير هذه الفئات وزعاماتها في العلاقات الخارجيَّة، السِّياسيَّة أو العسكريَّة. ولكنَّنا نستطيع أن نتلمَّس بعض الأدوار لبعض الفئات السُّكَّانية التي استطاعت أن تتميَّز في علاقاتها ضمن الدولة الأيُّوبيَّة، ومنها:

المسيحيُّون المحلِّيُّون:

عاش المُسلمون والمسيحيُّون في الشَّرْق العَرَبي قبل الغزو الفرنجي بحالة فريدة من الانسجام، لا تُعكِّرها إلَّا بعض المواقف الشاذَّة، هُنا، أو هُناك، فطالما عدَّ المُسلمون والمسيحيُّون أنفسهم فرعَيْن

---

1 - من التاريخ الشَّامي، شاكر مُصطفى، 116.

2 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 1/ 75.

3 - تاريخ السلاجقة، أحمد إسماعيل، 64.

لحضارة شرقية واحدة، وكان لديهم إحساس واضح بالانتماء إليها[1]. وقد كان يُوجد بين سُكَّان الدولة الأيُّوبيَّة عُنصُر واضح من المسيحيين، يتوزَّعون على عدَّة طوائف أبرزها: الرُّوم الأرثوذكس، أو الملكانيون، والسريان الأرثوذكس، والأرمن الأرثوذكس. وتجدر الإشارة إلى وُجُود بعض الفرنجة المستأمنين، وهم - غالباً - من الكاثوليك، وكانوا يُقيمُون بشكل شبه دائم خاصَّة في المُدُن السَّاحليَّة لمزاولة الأعمال التِّجاريَّة، ومنهم مَنْ كان مُستوطناً ممَّنْ قدم مع الحملات، أو وُلد في الشَّرْق، وقد فضَّل بعضهم الاستمرار في العيش في المُدُن المحرَّرة، فدخل في عقد الذِّمَّة[2]، علماً أن الإقامة بين المُسلمين والخُضُوع لهم كان أمراً مُحرَّماً من قبَل البابا، مع أقسى العُقُوبات كالحرمان الكَنسي، واللعن، والطرد كُلِّيّاً من الكَنيسَة[3].

لقد سعى الفرنجة - بعد تأسيس إماراتهم في سُورية - إلى استمالة المسيحيين الأرثوذكس واليعاقبة، فلمَّا استولوا على القُدْس، وأبادوا سُكَّانها، حاول بلدوين الأوَّل سدَّ الفراغ السُّكَّاني باستقدام أعداد من المسيحيين السوريين من شرقي الأردن[4]، ولكنْ؛ على ما يبدو لم تُثمر عملية استمالة الفرنج لمسيحيِّيْ سُورية؛ إذْ إن هُناك الكثير من الدلائل على تنامي الكراهية المُتبادلة بين الجانبَيْن[5]، فالتسامح الذي كان يعاملهم به المُسلمون كان دافعاً قوياً لمسيحيِّيْ الشَّرْق؛ كي يُبعدهم عن الفرنجة الذين يتبعون كَنيسَة غريبة لها طقوس مُختلفة. ويُذكَر أنَّه عندما حرَّر السُّلطان صلاحُ الدِّين القُدْس عرض المسيحيُّون الأرثوذكس المُساعدةَ من الداخل[6]، كذلك تلقَّى السُّلطان صلاح الدِّين تهاني حامي الكَنيسَة الأرثوذكسية الإمبراطُور البيزنطي اسحاق أنجيلوس - **Isaac Angelus** على استرداده للمدينة المُقدَّسة.

---

1 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 256.
2 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13 / 159.
3 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43 / 1142.
4 - فنُّ الحَرْب، سميل، 91 و 55 **A History of deed's done Beyond the Sea, William of Tyr, p.**
و **Prewar, The Settlement of the Lateens in Jerusalem, P.**497
5 - **Diogil, La Croisades de Luis, P.** 314
6 - **Runciman, A History of Crusades ,P.** 465

وبالُمقابل؛ نستطيع أن نقول إن المسيحيين في بلاد الشَّام لم يتعرَّضوا لأي اضطهاد، أو خطر حقيقي على وُجُودهم، أو أنَّهم مُنعوا من مُمارسة طقوس عباداتهم طوال حقبة العُصُور الوُسْطَى من قبَل إخوانهم وجيرانهم المُسلمين، ولذلك نجد أن الكَنيسَة الأرثوذكسية اليونانية، وسائر المذاهب المَسيحيَّة الشَّرْقيَّة، قد هلَّلت لتحرير المُسلمين لمناطق الاحتلال الفرنجي، وخاصَّة بيت المَقْدس. ولقد كانت لهم دوافعهم القويَّة في ذلك، فقد جرَّبوا التسامح الدِّيني للمُسلمين، كما لمسوا ـ بشكل مُباشر، بواسطة الوُجُود الفرنجي في الشَّرْق ـ ما يعنيه العداء بين كَنييسَة رُوما وكَنيسَة القسطنطينيَّة. وهذا كُلُّه دعا الإمبراطُور البيزنطي آندرونيكوس كومنين للسعي وراء تحالف يربطه بالمُسلمين ضدَّ الفرنجة[1]. وممَّا يُذكَر هُنا ما قام به عماد الدِّين زنكي عندما حرَّر الرُّهَا من الفرنج عام 539 هـ ـ 1144م، فمع أنَّه لم يرحم الفرنجة فيها فقد عامل المسيحيين المحلِّيِّيْن بمُنتهى الرأفة، وزار كنائسهم، وكانت له علاقة حميمة مع المطران اليعقوبي للرُّهَا متى الرهاوي[2].

وبالنتيجة؛ نرى أنَّه على الرَّغم من رابط العقيدة الواحدة بين المسيحيين السوريين والفرنجة إلَّا أن روابط التاريخ واللُّغة والعيش المُشترك مع المُسلمين كانت أقوى، فمع أن المسيحيين السوريين لم يُقاتلوا الفرنجة عنوة، ولم يكونوا مصدر إزعاج حقيقي لهم، إلَّا أنَّهم ـ أيضاً ـ لم يستغلّوا الظُّرُوف الصعبة التي مرّ بها المُسلمون، فلم يُقاتلوهم، ولم يُثيروا القلاقل، أو يُشكِّلوا عقبات أمامهم. ومع أنَّه تمَّ طرح كثير من النظريات حول تعاون وثيق بين مسيحيِّيْ سُورية والفرنجة، لكنَّها ـ بمُعظمها ـ تعتمد على أحداث محدَّدة وتخمينات وتعميمات، فالنُّصُوص التاريخية تذكر أن قُوَّات المُشاة في الإمارات الفرنجيَّة كانت تُشكِّل من السُّكَّان المحلِّيِّيْن غالباً، وهذا صحيح، ولكنْ؛ ليس بالضرورة أن تكون من المسيحيين، فقد كانت تضمُّ أتراكاً وأكراداً وعرباً، وإذا كان جُلُّها من المسيحيين، فهم من الأرمن. أمَّا تعاون المسيحيين المحلِّيِّيْن مع الفرنجة، فقد تقتصر أمثلته على ما قام به الموارنة، إضافة إلى حوادث فردية قد تُثير الاستغراب أكثر ممَّا تُعدُّ دلائل على وجهة نظر محدَّدة، ومنها الرواية التي أوردها أبو شامة على ذمَّة مَنْ أبلغه، يقول: "بلغني أن النصارى ببعلبك سخموا وسوّدوا وُجُوه الصُّور في كَنيسَتهم على ما جرى على الفرنج، فعلم الوالي، فجناهم جناية شديدة، وأمر اليهود

1 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، 84.
2 - فنُّ الحَرْب، سميل، 94.

بصفعهم، وضربهم، وإهانتهم"[1]، هذا الحدث الذي لا ندري في أيّ كَنيسَة تمَّ في بعلبك، وقد تكون للموارنة، ورُبَّما ليس في مدينة بعلبك نفسها، بل في منطقتها؛ حيثُ ينتشر بعض الموارنة في غربها، ورُبَّما كانت القصة ردّاً لتبرير ما قام به المُسلمون في دمشق، فبعد هزيمة لويس وأسره في دمياط عام 648 هـ 1250م، أرسل المُعظَّم تُورانشاه ملابس الملك لويس الأسير إلى واليه على دمشق جمال الدّين ابن يغمور، " فدخل الناسَ كَنيسَةَ مريم بفرحة وسرور، ومعهم المغاني، ويطربون فرحاً بما جرى، وهمّوا بهدم الكَنيسَة"[2]، وبما أن أبو شامة مُؤرِّخ رصين، ولم يُجرَّب عليه أيُّ تلفيق، ولذلك نميل للاعتقاد بأنَّ ما تمَّ قد يكون في كَنيسَة مارونية في جنوب البقاع، فصلات الموارنة بالملك لويس كانت وثيقة[3].

وبشكل عامٍّ؛ كان المسيحيُّون الشرقيون في مصر والشَّام يشعرون بارتباط ما بالمُسلمين، إن لم يكن للجيرة والمُعاملة الحَسَنة التي يلقونها منهم، فللإحسان المرجو، فقد كان مُعظم الكَتَبَة في مصر والشَّام خلال العصر الأيُّوبي من المسيحيين، وخير دليل على ذلك هُو ابن الميقاط الذي كان يُلقَّب بالشيخ أبي الفتوح، الذي كان كاتبَ جُيُوش الملك العادل، وكان لديه في ديوانه "جماعة من الكُتَّاب مسيحيين أقباط"، وكان ابن الميقاط في سفره بين الشَّام ومصر مُرافقاً للسُّلطان العادل، يصحب حاشيته القبطية معه، ويقومون بطقوس عباداتهم في الطريق بكل حُرِّيَّة، وقد اصطحب معه القسَّ داود بن يُوحنَّا بن لقلق؛ ليُصلِّي بهم[4].

ولكن هؤلاء الكَتَبَة المسيحيين بالرّغم من ارتقائهم في مناصب الدولة، وتمتُّعهم بالسُّلطة والمال والجاه في ظلِّ المُلوك الأيُّوبيَّة، فقد كانوا يدفعون ـ في بعض الأحيان ـ ثمناً غالياً لذلك، وخاصَّة عندما يموت الملك الذي يعملون في ظلِّه، أو يتغيَّر عليهم. ورُبَّما كان خير مثال على ذلك هُو ابن هبة الله، الذي تولَّى خزانة السُّلطان المُعظَّم في دمشق، ووليها في عهد ابنه النَّاصر داود، وصال

---

1 -ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 365 وقد نقلها عنه: النويري، نهاية الأَرَب، 92ـ359، وابن كثير، البداية والنِّهاية، 13/ 178.

2 -ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 365. والمُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 223 . ثُمَّ يُتابع أبو شامة مُباشرة: "وبلغني أن النصارى ببعلبك ..."

3 -العُدوان الصليبي على مصر ، جوزيف نسيم يُوسُف، 67 ـ 68.

4 -أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 6.

وجال في عهدَيْها، فقد "تمكَّن من المُسلمين، وآذاهم، ورفع منار النصارى"[1]، ولكنْ؛ ما إن استولى الأشرف مُوسى على دمشق، حتَّى عزله، وحبسه عام 626 هـ 1229م، ثُمَّ علَّقه على باب كَنيسَة مريم، وطالبه بأموال عظيمة، مع ذلك؛ فهذا يُعَدُّ من الحوادث الفردية والعادية في ذلك الزمن، والذي كان يُصيب المُسلمين والمسيحيين، ولهذا؛ استمرَّ المسيحيُّون الشرقيون بولائهم المعلن للممالك الأيُّوبيَّة مُقابل عداء ظاهري واضح نحو الفرنج.

لكنَّ الفرنج حصلوا على بعض التسهيلات من قبَل أفراد من السُّكَّان المحلِّيِّيْن باعوا نُفُوسهم بالمال، أو من مجموعات كان لها دوافع عرْقية، أو طائفية. فيُذكَر أنَّه كان لدى مُعظم الإمارات الفرنجيَّة مُتطوِّعة من السُّكَّان المحلِّيِّيْن في جُيُوشهم، منهم المسيحيُّون المحلِّيُّون والأتراك المُسلمون، كما استغلَّ البدو معرفتهم بطبيعة الأرض، وخاصَّة البوادي والصحارى، فعمل بعضهم أدلاء وجواسيس للفرنجة مُقابل المال والأعطيات. أمَّا الدُّرُوز المُقيمون في وادي التيم؛ فيبدو أنَّهم تصرَّفوا بدهاء سياسي؛ حيثُ أرضوا الطرفَيْن من مُسلمين وفرنجة، فقد عملوا جواسيس للطرفَيْن[2].

الموارنة:

كان الموارنة يُشكِّلون طائفة دينيَّة صغيرة في العصر الأيُّوبي، وقد سكنوا بعض سُفُوح جبال لُبنان الغَرْبيَّة، وكانوا مُنعزلين ـ تماماً ـ عن المُسلمين، وعن الطوائف المَسيحيَّة الأُخرى، فهُم سريان، لكنَّهم لا ينتهجون العقيدة الأرثوذكسية، وبالوقت نفسه؛ لا يتبعون كَنيسَة رُوما الكاثوليكية، بل يتفرَّدون بعقائدهم. لكنَّ وُصُول قُوَّات الفرنج إلى الساحل الشَّامي دفع الموارنة ـ بالرّغم من استعرابهم باللُّغة ـ لاعتبار الفرنجة أقرباء لهم، وأنَّهم سيكونون مُخلِّصين[3]، فأحسنوا استقبالهم، وكانوا أوّل المُرحِّبين بهم. ثُمَّ أرسلوا وُفُودهم إلى رُوما، وانضمُّوا ـ رَسْميَّاً، وشرعياً ـ إلى كَنيسَتها الكاثوليكية، وكان كلّ ذلك على يد إيمري بطريرك اللاتين في أنطاكية، فقد "أعلنوا عودتهم عن الخطأ الذي كان قد استعبدهم لفترة طويلة"[4].

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 303.

2 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، 114.

3 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، 99.

4 - تاريخ الأعمال المُنجَزَة فيما وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صُور، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 7 / 444.

واندفع الموارنة لدعم الفرنجة في معاركهم، وكان لهم دور مُؤثِّر أحياناً، يقول وليم الصُّوري عن الموارنة: "لم يكن هؤلاء الناس قليلي العدد، وقُدِّروا بأنَّهم أكثر من أربعين ألفاً، وكانوا شعباً قوي البنية، ومُقاتلين شُجعاناً، قدَّموا فوائد عظيمة للمسيحيين في المعارك الصعبة التي كانوا قد خاضوها مراراً مع العدو"[1]. وردّاً لجميل الموارنة قام الفرنج أثناء احتلالهم للساحل الشَّامي "بمنح موارنة لُبنان جميع الحُقُوق الكَنَسية والمدنية التي كانت لأبناء الكَنيسَة الرُّومانيَّة الكاثوليكية"[2]. ويُقال إن عدداً من موارنة لُبنان قد شاركوا الملك الفرنسي لويس التَّاسع في حملته على مصر، وكانت جُمُوع منهم في استقباله أثناء عودته إلى عكَّا من الأسر، "وأرسل لهم لويس خطاباً خاصّاً يشكرهم فيه على حسن استقبالهم له"[3]. كما ارتفعت - في ذلك الوقت - أصوات كثيرة في أُورُوبة تُطالب بضمِّ الموارنة باعتبارهم جُزءاً من العالم المسيحي الغربي[4].

اليهُود:

في العصر الأيُّوبي كانت تُوجد جالية بسيطة من اليهُود مُوزَّعة على المُدُن الكُبرَى في الممالك الأيُّوبيَّة[5]، وهي تتألَّف من مجموعات صغيرة تتوزَّع في كلّ مكان تقريباً؛ وخاصَّة في المُدُن، وذلك وُفقاً لإحصاء بنيامين التطيلي لأعداد اليهُود في مناطق الشَّام ومصر[6]، ويتَّضح من ما ذكره بنيامين أن اليهُود غير موجُودين - تقريباً - في فلسطين والساحل الجنوبي للبحر المُتوسِّط، فأعدادهم في القُدْس 200 شخص، وفي عكَّا 200 أيضاً[7]، وممَّا يُلاحَظ أنَّه من الساحل ونحو الداخل تبدأ بالازدياد أعداد السُّكَّان اليهُود، لنُلاحظ كثافة نسبية في دمشق 3000 ثلاثة آلاف شخص، وفي حلب ألف وخمسمائة شخص[8]، وكُلَّما توغَّلنا شرقاً نحو العراق وفارس ارتفعت هذه الأعداد.

---

1 - تاريخ الأعمال المُنجَزَة فيما وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صُور، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 7 / 444.

2 - تاريخ سُورية ولُبنان، فيليب حتِّي، 2/ 262.

3 - العُدوان الصليبي على مصر ، جوزيف نسيم يُوسُف، 67 – 68.

4 - استرداد الأرض المُقدَّسَة، بيير دوبوا، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 37 / 144.

5 - من التاريخ الشَّامي ، شاكر مُصطفى، 117.

6 - زار اليهوديُّ الأندلسي بنيامين بن بونة التطلي بلادَ الشَّام ما بين عام 561 - 569هـ/ 1165 - 1173م.

7 - رحلة بنيامين، 92، ولا ندري هل هذا النقص بأعداد اليهُود له علاقة بابتعادهم عن مناطق الحُرُوب، فمُعظم اليهُود تُجَّار وحرفيون، وأعمالهم لا تزدهر إلَّا في مناطق يسود فيها السلام، أو أن لهذا النقص علاقة بإساءة الفرنجة لهم، وتسخيرهم للقيام بالأعمال الشاقَّة مع الأسرى (كلستان، سعدي الشيرازي، 144)، أو أن اليهُود ابتعدوا تاريخياً عن القُدْس وفلسطين مُنذُ الفتح العَرَبي لها وُفقاً لنصِّ العُهدة العُمَرية التي أعطاها عمر بن الخطَّاب لبطريرك القُدْس عند تسليمها، والتي تنصُّ: "ولا يسكن بإلياء معهم أحد من اليهُود". (تاريخ الرُّسُل والمُلُوك، الطبري، 3/ 609).

8 - رحلة بنيامين التطلي، 122.

ويبدو أن المذبحة التي تعرَّض لها اليهُود في القُدْس، عندما دخلها الفرنجة وإحراقهم داخل الكَنيس، الذي التجؤوا إليه[1]، قد جعلتهم يفرُّون من مناطق فلسطين والساحل نحو بُلدان الداخل الإسلاميَّة، أمَّا مَنْ بقي منهم، وتمكَّن الفرنجة من القبض عليه؛ فقد عُدَّ أسيراً، وأُحيل للعمل الشاقِّ في بناء التحصينات، وحَفْر الخنادق[2].

وقد تمكَّنتْ الجاليات اليهودية في البُلدان الإسلاميَّة من أن تُحقِّق ازدهاراً اقتصادياً وثقافياً كبيراً نتيجة التسامح الإسلامي السَّائد، ولذلك؛ تآلف اليهُود مع الحضارة العَرَبيَّة الإسلاميَّة[3]. وإن أعداد اليهُود القليلة في أراضي الدولة الأيُّوبيَّة لم تكن لتسمح لهم بلعب أيِّ دور مُؤثِّر في الصراع الدائر بسبب الغزو الفرنجي[4]. ولكنْ؛ بشكل عامٍّ، فقد "كان اليهُود يعدُّون أنفسهم رعايا أوفياء للدولة الإسلاميَّة، وأن الحملات الفرنجيَّة على الشَّرْق كانت محنة مُؤلمة بالنِّسبَة لهم"[5].

هذا؛ مع أنَّنا نفترض أن اليهُود في المشرق العَرَبي لم يتحْ لهم معرفة المذابح التي قام بها الحُجَّاج الفرنجة قبل توجُّههم إلى الشَّرْق في مُعظم مناطق أُورُبة، فقد كانت فكرة الأُورُبيين في عصر الحُرُوب الصَّليبيَّة عن اليهُود بأنَّهم "ملعونون إلى حَدِّ الشقاء، ممقوتون في جميع أنحاء الدُّنيا، ويُعَدُّون لاشيء"[6]. إن نظرة الفرنج هذه لليهود تُبرِّر اندفاعهم لـذَبْح هذه الطائفة، وتُقرِّبهم ـ بذلك ـ إلى الله قبل قيامهم بالحجِّ، وغزو المناطق المُقدَّسَة في فلسطين، فحملة الحُجَّاج التي عبرت ألمانيا ذبحت اليهُود في مدينتي مينز، وكُولن[7]. ثُمَّ قامت الحملة الفرنجيَّة التَّالية التي انطلقت من بريطانيا بالهُجُوم على اليهُود، وذبحهم في ستامفورد، وسانت أدموند، ثُمَّ حاصروهم في يُورك، فلمَّا أيقن اليهُود بالهلاك ذبحوا أولادهم وزوجاتهم، وأشعلوا النار، فاحترقوا جميعاً، فما كان من الحُجَّاج إلَّا أن نهبوا أموالهم، وانطلقوا في حَجِّهم[8].

---

1 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 115.
2 - يذكر سعدي الشيرازي أنَّه عندما أسره الفرنج قُرب القُدْس، ساقوه إلى طرابلس، وأجبروه على العمل مع اليهُود في حَفْر خندقها. (روضة الورد، سعدي الشيرازي، 114).
3 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 30.
4 - لم يذكر المُؤرِّخون ولا الرَّحَّالة المُسلمون مثل ابن بطُّوطة وابن جُبَيْر شيئاً عن اليهُود في القُدْس، أو في فلسطين في عصر الدولة الأيُّوبيَّة، إنَّما يتحدَّث ابن جُبَيْر عن مجموعة من اليهُود السامرة في مدينة نابلس (الرحلة، 272).
5 - كلود كاهن، الشَّرْق والغَرْب، 115.
6 - جولات ورحلات، فيليكس فابري، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1195.
7 - وُرُود التَّاريخ، روجر ويندوفر، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 44/ 24.
8 - وُرُود التَّاريخ، روجر ويندوفر، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 44/ 352.

طائفة العامَّة:

تكاد تكون المعلومات نادرة عن وضع العامَّة في الممالك الأيُّوبيَّة، ولكنَّنا نعرف أن هذه الطبقة كانت تضمُّ فئات واسعة من المُجتمع: جُنُود، حرَفيين، زراع، صغار التُّجَّار، والمُوظَّفين، وهؤلاء هُم دافعو الضرائب، ومُجنَّدو السُّخرة، وهم أوَّل مَنْ تُصيبه النكبات. وكانت حياتهم - في تلك الأيَّام - في غاية القسوة، خاصَّة في أيَّام الحُرُوب والحصار. وكان مُعظم أفراد طبقة العامَّة يعملون حرفيين في محلاتهم، أو أُجَرَاء لدى الغير، كما كان قسم آخر من السُّكَّان يخرج يومياً من المُدُن للتجارة التبادلية مع القرى القريبة، أو للعمل الزراعي في بساتين المُدُن، أو كُرُومها.

وكانت هُناك طبقة تلحق - عادةً - بطبقة العامَّة، لكنَّها تتميَّز عنها، وهي:

طائفة العبيد: ويبدو أن هذه الفئة كانت محدودة جدَّاً في المملك الأيُّوبيَّة، فمُعظم العامَّة كانوا من صغار الكَسَبَة والعمَّال، وجُلُّهم من الفقراء، وهم يعجزون عن إعالة العبيد والإماء، فبقي امتلاكهم وقفاً على الأغنياء القلَّة في المُجتمع الأيُّوبي، وعلى الأُسرة الحاكمة. ويجدر الإشارة إلى نقص موارد العبيد في الشَّام عموماً في ذلك العصر بسبب الحُرُوب مع الفرنجة، التي حدَّت - بشكل كبير - من تجارة العبيد. أمَّا أسرى الفرنج؛ فلم يكن يصيبهم الرِّقُّ غالباً، فقد اعتُبروا أسرى حرب، كان يتمُّ سجنهم لحين تبادل الأسرى[1].

دور العامَّة:

شهد العصر الأيُّوبي اضمحلالاً شديداً لدور السُّكَّان المحلِّيِّيْن في الحياة العامَّة بشكل عامٍّ، وبتأثيرهم بالعلاقات الخارجيَّة بشكل خاصٍّ، فتوالي الغُزاة والمصائب عليهم، وظُلم الحُكَّام وتجبُّرهم، سلبهم جُزءاً كبيراً من شعورهم الوطني، وأوهن عزائمهم، فاتَّصفت مواقفهم - بشكل عامٍّ - بالسلبية، واللامُبالاة[2]. وبلغ الأمر ببعض ضعاف النُّفُوس حَدَّ الانضمام إلى الفرنج في هجماتهم على إخوانهم من المُسلمين[3].

---

1 - الروض الزاهر، ابن عبد الظَّاهر، 331.

2 - العلاقات بين العَرَب والفرنج، زكي نقَّاش، 78.

3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 20 / 420.

ومن أهمّ ما يُلاحَظ في العصر الأيُّوبي غياب التنظيمات الشَّعْبيَّة المحلِّيَّة التي نشطت وتشعَّبت في العُصُور السابقة، فلم نعد نسمع بأيِّ دور فاعل لتنظيمات الأحداث، التي كانت سابقاً قد بلغت شأواً عظيماً، ويبدو أن هذا الغياب كان بسبب وُجُود دولة مركزية قويَّة كان حُكْمها مُباشراً من خلال ملك يتربَّع على العرش في كلّ مدينة من مُدُن الشَّام، كما أن قُوَّات الدولة النِّظاميَّة قد حلَّت مكان التنظيمات الشَّعْبيَّة، التي تظهر ـ عادةً ـ في غياب سُلطة قويَّة ذات تنظيم عسكري وإداري فاعل.

فالدور المتعاظم لتنظيمات الأحداث في دمشق وصور في العصر الفاطمي وفي حلب السلجوقية زمن الملك رضوان، قد انتهى، ورافق ذلك هُدُوء شعبي داخلي، واستقرار اقتصادي ومعاشي قد نراه لا يتناسب ـ نظرياً ـ مع مرحلة الحُرُوب والفتَن التي شهدها ذلك العصر، فكانت الحالة في مصر والشَّام ـ بالرّغم من الفتَن والمجاعات وانعدام الأمن ـ أشبه ما تكون باستسلام شعبي كامل، فلم تُسجَّل أية ثورة داخلية، أو حتَّى أيّ تحرُّك شعبي مُؤثِّر، مع كلّ ما كانت تتعرَّض له العامَّة من ظُلم واستغلال وجشع الحُكَّام، وقسوة الضرائب والسّخرة.

وبدا كأن الرُّوح المعنوية للشعب قد ماتت تماماً، ولا ندري هل كان مردُّ ذلك إلى حالة الجهاد والإجماع الشَّعْبي عليه ضدَّ الفرنجة أوّلاً، ثُمَّ ضدَّ التَّتار ثانياً؟ أم إلى طبيعة الحياة الجديدة الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة التي فرضها النظام العسكري الإقطاعي؟ فلم يعد هُناك بطَّالون يدورون في الأزقَّة لالتقاط عيشهم، وهم ـ عادةً ـ عماد الشغب والفتَن، وكانوا قوام تنظيم الأحداث والفتيان.

إضافة إلى ذلك؛ فتنظيمات الأحياء الشَّعْبيَّة الجديدة حصرت الفتَن بين أهل الأحياء، فكان ـ غالباً ـ ما يندلع القتال بين سُكَّان الأحياء[1]، وهذا ممَّا فتَّت قُوَّة المُدُن الشَّعْبيَّة، وأطمع المُلُوك في بسط يدهم بأموال الشعب، فتفنَّنوا في استخلاص الأموال من الناس[2].

ولكنْ؛ مع كُلِّ ذلك لابُدَّ أن نُسجِّل بعض الأحداث المُتفرِّقة التي شارك فيها العامَّة بالأحداث السِّياسيَّة والعسكريَّة، فعند الحاجة كان المُلُوك من بني أيُّوب يلجئون للعامَّة، ويستنجدون بهم لنصرتهم في حُرُوبهم ضدَّ بعضهم البعض، فقد قام أهل دمشق مع النَّاصر داود

1 - ذَيل الرَّوضَتَين، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 178.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 158، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 391 ـ 349.

عندما حاصره أعمامه الأشرف والكامل عام 626 هـ ـ1229م، وخرج أهل البلد مع العَسْكَر، وحاربوا[1]. وعندما تعرَّض الملك الصَّالح إسماعيل للحصار بدمشق عام 634 هـ ـ 1237م، خرج بفرقة من العامَّة يُسمِّيهم ابن العماد الحنبلي: الحرافشة[2].

وفي عام 659 هـ عندما توجَّه التَّتار نحو حماة، "أراد ملكها المنصور مُحمَّد الرحيل إلى دمشق، فمنعته العامَّة من ذلك، حتَّى استوثقوا منه أنَّه يعود إليهم عن قريب"[3]. إن كلَّ هذه الأدوار البطولية للعامَّة لم تُسفر عن أيِّ نتائج سياسيَّة، أو عسكريَّة، فالملك الصَّالح ترك دمشق، والنَّاصر داود سلَّمها للأشرف، وكذلك ملك حماة لم يقف بتراجعه أمام التَّتار، حتَّى دخل مصر، وترك حماة لمصيرها مع التَّتار، ممَّا يجعلنا نستنتج عدم فعالية العامَّة، أو حتَّى عدم وُجُود أيّ تأثير لهم في العلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة في العصر الأيُّوبي، وذلك لعدم خُضُوعهم لأيّ شكل من التنظيم.

---

1 ـ السُّلُوك، المقريزي، 1/ 353.

2 ـ شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 318.

3 ـ شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 441.

المبحث الثَّاني:

دور رجال الدِّين في العلاقات السِّياسيَّة

في ظلِّ حُكم الأُسرة الأيُّوبيَّة، التي كانت تحرص على صفتها الإسلاميَّة، لم يكن لرجال الدِّين دور بارز في الأُمور العامَّة، ومُجرياتها، وعلى العكس من ذلك، كان لهم تأثير كبير على طبقة العامَّة.

وكان رجال الدِّين من فُقهاء وقُضاة يحظون بِرِضا المُلُوك الأيُّوبيَّة طالما اكتفوا بالوعظ الدِّيني، ويحصلون على المناصب والأموال إنْ قاموا بمُباركة أفعال المُلُوك، وتبرير ما يرتكبون من مُخالفات للشرع وللمصلحة العامَّة. لكنْ؛ في كثير من الحالات التي تصدّوا فيها لظُلم بني أيُّوب كانت الويلات والمصائب تحلُّ بهم، وأقلّها العَزْل من المناصب الدِّينيَّة، التي كانت تعني المال والجاه.

وكان المُلُوك الأيُّوبيُّون حريصين على إظهار اهتمامهم بالدِّين ورجاله، كحُضُورهم مجالس الوعظ والإرشاد، التي يعقدها كبار العُلماء، فقد حضر الملك المُعظَّم صاحب دمشق عام 600 هـ 1204م "مجلس الحافظ أبو مُحمَّد عبد الغني بن عبد الواحد المَقْدسي الجماعيلي بجامع دمشق"[1]، كذلك حضر المُعظَّم درس القاضي جمال الدِّين المصري[2] مُدرِّس المدرسة العادلية بدمشق، ومعه أركان دولته من القُضاة والفُقهاء[3]، وهذا يدلُّ على حرص المُعظَّم وغيره من المُلُوك الأيُّوبيَّة على مجالس العلم، واهتمامهم بالعُلماء. وكان الملك الأمجد صاحب بعلبك يُحبُّ الشَّيخ عبد الله اليُونيني أسد الشَّام، وكان يزوره، "وكان الشَّيخ يُهينه، فما قام له يوماً قطُّ، وكان يقول له: يا مجيد؛ أنت تظلم، وتفعل، وتصنع، وهو يعتذر إليه"[4].

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار20/ 93. راجعْ ترجمة الحافظ في: ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 46.

2 - هُو القاضي جمال الدِّين أبو الفضائل يُونُس بن بدران بن فيروز الشافعي المعروف بالمصري، استقل بقضاء دمشق عام 619 هـ، وصار يُدعى قاضي القُضاة، تُوفِّي عام 622 هـ.

3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 20/ 256. راجعْ ترجمة جمال الدِّين في ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار20/ 258. ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 171.

4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار20 / 241.

وعندما ضرب الملكُ العادلُ القراطيسَ بدمشق، قال الشَّيخ عبد الله اليونيني: "انظروا إلى هذا الشَّيخ الفاعل الصانع يُفسد على الناس مُعاملاتهم، وبلغ العادل، فأبطلها"[1].

وكان لابن الجوزي مكانة رفيعة بين عُلماء دمشق، وتربطه علاقات جيِّدة مع أبناء الملك العادل، وخاصَّة الملك الأشرف والملك المُعظَّم، لكنَّ علاقته بالأشرف فسدت، عندما سلَّم الملكُ الكاملُ مدينةَ القُدْس إلى الإمبراطُور فريدريك، فعدَّ ابن الجوزي ذلك خيانةً، وألَّب الناس على فعلة الكامل، وحرَّضهم بخطبة بليغة في جامع دمشق؛ افتتحها بقوله: "أحسنَ الله عزاءَ المُؤمنين، يا خَجلة مُلُوك المُسلمين"، ثُمَّ أفتى بشرعية قتال الكامل والأشرف بسبب هذا العمل[2].

وفي عام 607 هـ 1210م، عندما خاف المُلُوك والأُمراء من سطوة الفرنج، بلغ من قُوَّة رجال الدِّين أنَّ سبط ابن الجوزي قام بجَمْع حملة شعبية من مُسلَّحي العوامِّ ومُتطوِّعة المُجاهدين في دمشق، وما حولها، وقادهم نحو مناطق سيطرة الفرنج في فلسطين، ممَّا اضطرَّ الملك المُعظَّم صاحب دمشق للخُرُوج بجُنده، ودعمهم في غزوتهم، حتَّى دخلوا بلاد الفرنج، فأسروا، وقتلوا، وأقاموا أيَّاماً، ولم يجرؤ الفرنج على التَّصدِّي لهم، ثُمَّ عادوا[3]. وفي عام 638 هـ 1241م، عندما سلَّم الصَّالح إسماعيلُ صاحبُ دمشق حصنَ شقيف أرنون وصفد للفرنج، مُقابل تحالفهم معه ضدَّ الصَّالح أيُّوب صاحب مصر، تصدَّى له الشَّيخ عزّ الدِّين عبد العزيز بن عبد السلام، خطيب جامع دمشق الشافعي، وسانده الشَّيخ جمال الدِّين أبو عمر بن الحاجب المالكي، فأنكرا على الصَّالح فعلتَهُ، وبسطا لسانَيْهما فيه، وأكثرا من التشنيع عليه، فغضب عليهما، ففارقا دمشق[4].

الدِّين والسياسة:

كان الأيُّوبيُّون رجال دولة ورجال حرب، تولَّوا القيادات العسكريَّة والإدارية هُم وأُسرهم وأقرباؤهم ومماليكهم، لكنَّهم ابتعدوا عن مُباشرة الوظائف التي لها صفة دينيَّة، كالقضاء والإفتاء والتدريس والخطابة ومشيخة الشُّيُوخ. واعتمد المُلُوك والأُمراء ـ بشكل كامل ـ على رجال الدِّين من

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار20 / 241.
2 - النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 15/ 7 ـ 6.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 20/ 135.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 302 وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 20/ 334.

فُقهاء وقُضاة في تولّي المهامّ الدّبلُوماسيّة للممالك الأيُّوبيّة، فكانوا المُفاوضين والرُّسُل والسُّفراء والوُسطاء، وذلك لشُعُور القادة الأيُّوبيِّين الأوائل بغُربة لُغوية وثقافية تُعيقهم عن هذه الأعمال، وكذلك لإحساسهم بقُصُور المُحاربين عن الدهاء السّياسي.

ولكنّ الأجيال اللاحقة للأسرة الأيُّوبيّة تمكّنت من تجاوز كلّ ذلك، فبرعوا في الفقه والحديث واللُّغة والشعر، وظهر منهم ساسة مُحنّكون، لكنّ رجال الدِّين كانوا قد سيطروا على بعض المناصب الدّبلُوماسيّة، واختصّوا بها كالرُّسُل والسِّفارات. وكانت هذه فُرصة ليحظى بهذه الوظائف الأكفّاء من أهل البلاد.

وقد انفرد شُيُوخ بعض المذاهب الإسلاميّة بمواقف سياسيّة مع هذا الملك ضدّ ذاك، فمن المعروف أن الحنابلة بدمشق قاموا بفتح باب السلامة لجُيُوش الملك الأفضل والملك العزيز المُحاصرين للملك العادل فيها عام 635 هـ 1238م[1].

ولعظيم تأثير الفُقهاء والقُضاة بالعامّة، فقد كان من المُتوقّع أن يتولّوا الدفاع عن هذه الطبقة، لكنّنا لم نلحظ لهم أيّ موقف من هذا، وكُلّ المواقف التي سُجّلَتْ للفُقهاء في معارضة المُلُوك الأيُّوبيّة هي مواقف تجاوز فيها المُلُوك حَدَّ الشرع، وانتهكوا حُرماته. فعندما سلّم الملكُ الكاملُ البيتَ المُقدَّسَ إلى فريدريك لم يتصدَّ للتشنيع على هذه الفعلة إلّا فُقهاء دمشق، لأن ملكها النّاصر داود كان مُعادياً للكامل، "فجلس الحافظ شمس الدِّين سبط ابن الجوزي بجامع دمشق، وذكر فضائل بيت المَقْدس"، فاحتشد الناس، وعلت أصواتهم بالصراخ والبكاء[2].

ولكنْ؛ يُسجّل للشيخ عزّ الدِّين عبد العزيز بن عبد السلام موقفه من الملك الصَّالح إسماعيل صاحب دمشق، الذي سمح للفرنج بدُخُول دمشق، وشراء السلاح منها، ليدعموه في حربه ضدّ الصَّالح أيُّوب، فقام الشَّيخ عزّ الدِّين، وأفتى في جامع دمشق بتحريم بيع السلاح للفرنج، وقطع خطبة الصَّالح، فما كان من الصَّالح إلّا أن عزله من خطبة الجامع، واعتقله[3].

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 141.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 353.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 302، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار 20/ 334.

إن هذا النوع من رجال الدِّين المُواجهين للباطل، المُتصدِّين لتجاوزات المُلُوك، لم يكن مرغوباً فيه، رغم ندرته في ذلك العصر. فالمُلُوك كانوا يرغبون في رجال دين لا يهتمُّون بالسياسة، لذلك انصرف الأيُّوبيُّون لتشجيع شُيُوخ الطُّرُق الصُّوفيَّة، وبناء الخوانق، والزوايا لهم، فهم لا يتدخَّلون في شُؤُون الحياة الدُّنيا، ويتفرَّغون للعبادة والتقشُّف، فغدت الشَّام في العصر الأيُّوبي مملكة الصُّوفيَّة[1].

دور القُضاة:

كان القاضي في الممالك الأيُّوبيَّة من كبار مُوظَّفي الدولة، وأعمدتها، ولذلك كان احتكاك القُضاة بالمُلُوك الأيُّوبيَّة أمراً مُحتَّماً، بل وشبه يومي، وتباينت العلاقة بينهما سلباً وإيجاباً، فكان يحظى ـ أحياناً ـ بعض القُضاة بمحبَّة ودعم الملك الأيُّوبي، فيقوى مركزه، وقد تزداد ثقة الملك به، فيُرسله في سفاراته، وكانت السِّفارات كلّها من نصيب القُضاة تقريباً، وذلك لعلمهم، وإمكانياتهم الشخصية، واختلاطهم بالحُكَّام والمُلُوك، فامتلكوا ميِّزات أهَّلتْهُم لهذا العمل الدبلوماسي الكبير الأهمِّيَّة للمملكة وللملك، وبرز منهم قُضاة ترسَّلوا في سفارات كانت ذات أثر بارز في العلاقات بين الدُّول الأيُّوبيَّة، وبينها وبين الدُّول الأُخرى.

ونستطيع أن نعدَّ القاضي بدر الدِّين يُوسُف بن الحَسَن الزرزاري من القُضاة المُقرَّبين من المُلُوك الأيُّوبيَّة، فقد اتَّصل بالملك الأشرف، الذي نقله إلى قضاء بعلبك، بعد أخذه لدمشق عام 635 هـ 1238م، "وكان يسلك من التجمُّل وكثرة المماليك والدوابّ وحُسْن الزّيّ ما لم يسلكه وُزراء الممالك الكبار"[2].

وفي عام 629 هـ 1232م قدم قاضي الرقَّة على السُّلطان الكامل، وذكر له ظُلم الملك الجواد لأهلها، فرفع الكاملُ يدَ الجواد عنها، وسلَّمها إليه[3].

وفي سنجار؛ استطاع القاضي بدر الدِّين أن يحصل على ثقة الملك الصَّالح أيُّوب عندما كان في الجزيرة، فولاه قضاء سنجار، واعتمد عليه، فأدَّى القاضي إلى أيُّوب خدمة العُمر؛ إذْ إنَّه عندما حاصر الملك الرحيم لُؤلُؤ سنجار حلق القاضي لحيته، وتدلَّى من السُّور، واجتاز المحاصِرين، ولحق

---

1 - ابن جُبَيْر، الرحلة، 256.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 187.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 244.

بالخَوَارزميَّة، وتمكَّن بدهائه من إقناعهم لتأييد الصَّالح أيُّوب، فقدموا معه، وفكّوا الحصار عن الصَّالح بسنجار، وهاجموا لُؤلُؤاً، ونهبوا جيشه، وهزموه، "وقلَّد ـ بذلك ـ الملكَ الصَّالح منَّة عظيمة، كانت سبب سعادته لَمَّا مَلَكَ الصَّالح مصرَ"[1].

ولكن أشهر قُضاة العصر الأيُّوبي بلا مُنازع كان ابن شدَّاد[2]، الذي بدأ عهده مع السُّلطان صلاح الدِّين، فكان قاضي العَسْكَر، وبعد وفاة السُّلطان، التحق ابن شدَّاد بالظاهر غازي بن صلاح الدِّين، وعاش عنده في حلب، وعندما قدم ابن شدَّاد على الملك الظَّاهر في حلب، "ولاه قضاءها، ووُقُوفها، وحلَّ عنده في رُتبة الوزارة والمشورة"[3]. وبعد وفاته؛ كان مع ابنه العزيز بن الظَّاهر، "مُحترماً مُكرَّماً مُتوليّاً الحُكْمَ في جميع ممالك حلب"[4].

وكان لمنصب القاضي من المكانة السِّياسيَّة والرفعة الاجتماعيَّة، وارتفاع الدخل ما جعله حلماً يتطاول إليه أكابر الأعيان، فبعد وفاة القاضي الفاضل ابن شدَّاد "كان كمال الدِّين عَمر بن العجمي، وهُو من أكابر حلب وأعيانها، متطاولاً إلى منصب القضاء، فبذل للعزيز ستِّين ألف درهم، وكُلّ سنة خمسين ألف درهم"[5].

ولكنْ؛ لم تكن حياة القُضاة كُلّها سعادة ورفعة، فقد واجه بعض القُضاة مُشكلات حقيقيَّة مع المُلوك، ففي عام 629 هـ 1232م، قبض الملك الأشرف على القُضاة بدمشق، وصادر منهم أموالاً عظيمة[6].

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 187.

2 - القاضي ابن شدَّاد: بهاء الدِّين أبو المحاسن يُوسُف بن رافع بن تميم، تُوفِّي بحلب عام 632 هـ.

3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 603.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 89.

5 ـ مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 92.

6 - المنصُوري، ابن نظيف، 123، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 172.

المبحث الثّالث:

دور المرأة في العلاقات السِّياسيَّة

لم يكن للنساء المُسلمات في عصر الحُرُوب مع الفرنجة أيّ دور عسكري، وبالتَّالي؛ لم يكن لهـنَّ دور سياسي يُذكَر. وبشكل عامٍّ؛ فإنَّه لم يكن للمرأة في هذا المُجتمع أيُّ دور في الحياة العامَّة، حتَّى وإن كانت من بنات الأُسرة الأيُّوبيَّة الحاكمة، ونادراً ما كانت تُعرَف إحدى النساء، فإن حصل هذا، فبعلم حصَّلتهُ، أو بفضل قدَّمتهُ.

وإذا استثنينا بعض صفقات الزواج السِّياسي ما بين أميرات وأُمراء الأسرات الحاكمة، والتي لم يكن للزوجات رأي فيها، فإنَّنا نجد أنَّه قد برزت بعض الحالات التي تستحقّ الوُقُوف عندها في هذا المجال، فقد كان يتمُّ استخدام بعض نساء الأُسرة الأيُّوبيَّة في استعطاف الملك المُنتصر لتخفيف وقع الهزيمة على قريب له، أو للحُصُول على بعض المكاسب الإضافيَّة من ملك لآخر، وهذه العادة، مع أنَّها كانت شائعة، وتعدَّدت حالاتها، ولكنْ؛ نادراً ما كان يُجاب طلب النسوة، أو يُقبل توسُّلهنَّ، وغالباً ما كُنَّ يُردُّنَّ خائبات. ويبدو أن عادة شفاعة النساء كانت عادة تُركية قديمة، أخذها الأيُّوبيُّون عن الأتابكة الزنكيين، فعندما حاصر السُّلطان صلاح الدِّين المَوصل خرجت إليه نساء البيت الأتابكي، ومعهم بنت نُور الدِّين يستشفعنَ لفكِّ حصاره عن المَوصل، فردَّهنَّ صلاح الدِّين خائبات[1]. ولم يطل الأمر، فبعد وفاة صلاح الدِّين انتزع أخوه الملك العادل مملكة دمشق من الأفضل بن صلاح الدِّين، ونفاه إلى الجزيرة، فأرسل الأفضل والدته عام 599 هـ 1203م، إلى عمِّه العادل، لتشفع له، ليُبقي عليه العادل بعض البلاد، فلم يُجبها[2]، ويُعلِّق ابن كثير على ذلك قائلاً: "عُوقب البيت الصلاحي بمثل ما فعله والدهم لَمَّا خرجت إليه نساء البيت الأتابكي وبنت نُور الدِّين، فَرَدَّهُنَّ، فجرى ذلك لابنه"[3].

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن كثير، 11/ 512.

2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 104 وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 223.

3 - الكامل في التاريخ، ابن كثير، 11/ 512.

وفي عام 635 هـ 1238م، احتلَّ الملكُ الكاملُ دمشقَ إثر موت شقيقه الملك الأشرف، وأخذ يتجهَّز لقصد حمص، "فأرسل إليه صاحبها الملك المُجاهد بنسائه، ودخلنَ على الكامل، فلم يلتفت إلى ذلك"[1]. وعندما انتهت دولة بني أيُّوب، وقامت دولة المماليك بقي الملك المُغيث عُمر بن العادل الثَّاني مُحاصراً في الكَرَك، وكان يخاف من الظَّاهر بيبرس سُلطان المماليك، فأرسل المُغيث والدته في عام 661 هـ 1263م لمُلاقاة بيبرس في غزَّة، فاستقبلها، واستعطفتْهُ على ابنها، فوعدها خيراً، وطلب نُزُوله إليه، ولمَّا نزل أعدمه[2].

أمَّا في مجال الحُكْم والسياسة؛ فكانت النساء الأيُّوبيات بعيدات عنها تماماً، على عادة ذلك الزَّمان، ولكن هذا لم يمنع من ظُهُور علامات فارقة بينهنَّ، مثل: ضَيْفَة خَاتُون بنت العادل، التي تمكَّنت من حُكْم حلب لفترة طويلة وصيَّة على حفيدها النَّاصر. ومع أنَّه يُفترَض أن كثيرات من بنات المُلُوك الأيُّوبيَّة كُنَّ في أوضاع أُسرية تُتيح لهنَّ مُمارسة السِّياسيَّة لو كُنَّ قد أُعْدِدن لها، فالسُّلطان صلاح الدِّين خلَّف سبعة عشر ولداً ذَكَراً، ولم يُخلِّف سوى بنت واحدة هي مُؤنسة خاتون، تزوَّجها ابن عمِّها الملك الكامل بن العادل[3]، ويبدو أنَّها كانت من بين أصغر أولاده، ولم نسمع أنَّها قامت بأيِّ دور سياسي، أو حتَّى اجتماعي، لا في مملكة أبيها، ولا في مملكة زوجها، مع أنَّها ابنة سُلطان، وزوجة سُلطان. كذلك كان للملك الأشرف ابن العادل ابنة وحيدة هي ملكة خاتون، ولم يكن له أيُّ ابن ذَكَر، ولم يُفكِّر الأشرف في إعدادها للحُكْم، ولم يخصّها بشيء من ملكه، واكتفى بأنْ أوصى لها بماله، وببعض الأوقاف، ومع وُجُود المال الكثير لدى هذه الأميرة الأيُّوبيَّة، وعيشها في كنف أبيها، الذي هُو من أشهر وأقوى مُلُوك عصره، ومن ثَمَّ؛ لدى زوجَيْهَا: ابن عمّها الملك الجواد يُونُس بن ممدود ابن العادل، الذي بعد أن طلَّقها تزوَّجها ابن عمِّها الآخر المنصُور بن الصَّالح إسماعيل بن العادل، وهي أمّ ولدَيْه[4]، ومع ذلك؛ فلم تقمْ بأيِّ دور سياسي، أو اجتماعي واضح، ممَّا يدلُّ على عدم تقبل المُلُوك الأيُّوبيَّة لفكرة تسلُّم المرأة لأيِّ عمل سياسي.

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 161، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 231.
2 - زبدة الفكرة، الدَّوادَار، 80 ، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 216.
3 - مُنتخبات التواريخ، صاحب حماة، 309 ، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 271.
4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 160.

ولكنَّنا لا نعدم بعض النساء الأيّوبيات اللواتي لعبنَ أدواراً سياسيَّة، أو اجتماعيَّة، مُتنوِّعة، ومُتفاوتة التأثير لسبب، أو لآخر، وممَّنْ يُشار إليهنَّ في هذا السياق:

ضَيْفَة خَاتُون بنت الملك العادل[1]:

بعد وفاة الملك العزيز بن الظَّاهر غازي صاحب حلب عام **634 هـ 1237م**، عهد بالملك لولده النَّاصر يُوسُف، وكان عمره نحو سبع سنين، فتولَّت الوصاية عليه جدَّته لأبيه ضَيْفَة خَاتُون[2] أمّ الملك العزيز، فكانت المرجع في الأُمور كلّها[3]. ومع أن ضَيْفَة خَاتُون حكمت بشكل مُباشر، لكنَّها فضَّلت أن تكون هُناك واجهة من الرجال تُمارس سُلطتها من خلفهم، فشكَّلت ما يُشبه مجلس حُكْم لمملكة حلب، مُؤلَّف من الأمير شمس الدِّين لُؤلُؤ الأميني، والأمير عزّ الدِّين عمر بن محلى، ووزير الدولة جمال الدِّين القفطي، إضافة إلى مُتولِّي القلعة، التي تضمُّ خَزْنَة المملكة، وأموالها[4]. وكان الواسطة بين مجلس الحُكْم وضَيْفَة خَاتُون، هُو طواشيها جمال الدولة إقبال الخاتوني، الذي "يحضر بينهم للمُشاورة، فإذا اتَّفقوا على شيء دخل إلى جَدَّة النَّاصر، والدة العزيز، وعرَّفها ما اتَّفق عليه الجماعة، فتأذن في فعله"[5]. ولم تكتف ضيفة، بالإشارة بفعل الأُمور واتِّخاذ القرار الأخير، بل كانت "العلامات على التواقيع والمُكاتبات إليها وحدها، فهي التي تمضيها بخاتمها"[6]، "فكانت الأُمور كلها منوطة بها"[7]. وأُضيفت إلى اسمها الألقاب الرفيعة، فكانت

---

1 - ضَيْفَة خَاتُون: 582 ـ 640 هـ، توفِّيت في قلعة حلب، ودُفنت فيها تجاه الصّفة التي دُفن فيها ولدها الملك العزيز، ولم تُدفَن في التربة التي بَنَتْهَا في منطقة الفردوس خارج باب المقام، وهي من روائع الأبنية الأيُّوبيَّة، وأكبرها، فيها مسجد ورباط. (أحياء حلب وأسواقها، خير الدِّين الأسدي، 299).

2 - ممَّا يُلاحَظ هُنا أنَّه عندما تُوفِّي زوج ضَيْفَة خَاتُون، الملك الظَّاهر غازي، وترك ابنه الصغير مُحمَّد ولياً لعهده، تشكَّل مجلس للوصاية، لم يكن فيه لضيفة وُجود، وتمَّ تجاهلها تماماً على العادة السائدة، ولكنَّها كانت الشخصية الأقوى والمرجع الأخير في حالة الوصاية على حفيدها، فلماذا لم تأخذ الدور نفسه في الوصاية على ابنها؟! هل كان ذلك لوُجُود شخصية طَغْرِيل القويَّة؟! وهُو مُتولِّي القلعة والمُتحكِّم بالسلاح والأموال، أم لعدم نُضج ضيفة بما يكفي لتولِّي هكذا مهامّ؟! ونحنُ نرجِّح الاحتمال الثَّاني.

3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 158.

4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 677 ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 118.

5 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 677.

6 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 677.

7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 118.

تُخاطَب: "بالسّتر العالي الخاتوني"[1]، ولكن تسميتها الشائعة كانت: الصاحبة[2]، وهي اختصار لصاحبة الستر العالي.

ونستطيع القول إن الصاحبة أصبحت حاكمة حلب الفعليّة، فعندما أشار الملكُ الكاملُ صاحب مصر بتولية الصّالح بن الظّاهر على عسكر حلب، وأرسل إليه خلعة دليل تقديمه له، رفضت الصاحبة تسليمه الخلعة، وأَبْعَدَتْهُ خارج حلب، فقد استشعرت منه خطراً؛ لأنّه الابن الأكبر لزوجها الملك الظّاهر، ولم ترضخ لمشيئة أخيها الكامل سُلطان بني أيُّوب وقتها[3]. وكذلك لم ترضخ لضغط الجار القوي، كيكاوس سُلطان سلاجقة الرُّوم، الذي سعى ليكون الأفضل بن صلاح الدِّين أتابكاً للملك النّاصر، وقد أيّد هذا الرأيَ عددٌ كبيرٌ من كبار أُمراء العَسْكَر الحلبي[4]، لكنّ الصاحبة تصدَّت لأُمراء العَسْكَر، وشَتَّتَت شملهم، ولم تلتفت لطلبات سُلطان السلاجقة، ولم ينسَ كيكاوس هذا الرفض لضَيْفَة خَاتُون، لكنَّه أجّل أمرها حتّى تورّطت في الهُجُوم على حماة عام 635 هـ، فعندما كانت مُعظم عساكر حلب تُحاصر مدينة حماة، أرسل كيكاوس إليها يطلب إقامة الخطبة، وضرب السّكّة باسمه، فلم تقبل الصاحبة، وأرادت أن لا تستجيب له، لكنّ المُستشارين نصحوها بالقبول، فَوَضْعُ حلب العسكري في غاية الخُطُورة، فلم تتشدَّد في رأيها عندما اقتنعت، ووافقت على طلبات كيكاوس سُلطان سلاجقة الرُّوم[5].

وظهرت رباطة جأش الصاحبة عندما هُزمت جُيُوش حلب أمام فرقة الخَوَارزميّة، الذين اندفعوا نحو حلب، فتصدَّت الصاحبة لتنظيم عملية الدفاع عن حاضرة ملكها، وأعطت تعليماتها إلى مُقدَّمي البلد، ووزَّعت عليهم المهامَّ لحفظ الأسوار والأبواب[6]. ويبدو أن الصاحبة قد انخرطت في العملية السّياسيّة تماماً، وتصرَّفت كملكة حقيقيَّة لمملكة حلب، حتَّى إنَّها كانت في الأزمات تُحلِّف

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 677.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 119 ـ 190، 428 ـ 288.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 677.
4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 339.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 190.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 284.

الناس والمُلُوك المُجاورين "لها ولابن ابنها النَّاصر صلاح الدِّين"، فيحلفون[1]. ولم تُسلِّم ضَيْفَة خَاتُون الحُكْمَ لابن ابنها طوال حياتها، فحكمت ستَّ سنوات، واستمرَّت في ملكها حتَّى ماتت عام 640 هـ 1242م، فاستردَّ حفيدُهَا عرشَهُ، وحَكَمَ مُستقلاً، وكان عُمره نحو ثلاث عشرة سنة[2].

غازية خاتون بنت الكامل:

عندما تُوفِّي الملك المُظفَّر محمود صاحب حماة عام 642 هـ 1244م، خلفه ابنه المنصُور مُحمَّد، وله من العُمر عشر سنين، فتولَّت الوصاية عليه والدته غازية خاتون، التي شكَّلت مجلس وصاية مُؤلَّفاً من سيف الدِّين طَغْريل، وشيخ الشُّيُوخ شرف الدِّين بن مُحمَّد، والطواشي مُرشد، والوزير بهاء الدِّين بن التاج، وكان جميعهم يرجعون إليها[3]، وحفظت المُلكَ لابنها حتَّى بلغ أشُدَّه، فسلَّمتْهُ مقاليدَ الأُمُور، "وكانت من أحسن الناس سيرة وزُهداً وعبادة"[4]. ثُمَّ توفيت في قلعة حماة عام 656 هـ 1258م.

الستّ السوداء:

وتُعرَف ببنت الفقيه نصر[5]، ويبدو أن السواد اسم فقط، ولا يدلُّ على سواد بشرتها؛ إذْ لم يُشِرْ أحد إلى ذلك، وهي جارية تزوَّجها الملك الكامل، وأنجبت له ابنه العادل الثَّاني أبا بكر[6]، وكان لها دور كبير في نزع الصَّالح أيُّوب الابن الأكبر للملك الكامل من ولاية العهد، وتولية ابنها العادل مكانه؛ حيثُ سَلْطَنَهُ أبوه في حياته عام 630 هـ 1233م، "وكان الكامل يُحبُّه، ويُحبُّ أمَّه حُبّاً زائداً"[7]. وعندما أرسل الملك العزيز بن الظَّاهر صاحب حلب القاضي بهاء الدِّين بن شدَّاد إلى الملك الكامل عام 626 هـ 1229م، يطلب منه أن يُزوِّجه إحدى بناته، وافق الكامل على تزويجه

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 288.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 313.
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 173.
4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 196.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 176.
6 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 142.
7 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 367.

بابنته فاطمة خاتون[1]، وفاطمة أمها السّتّ السوداء[2]، وهذه المُصاهرة لا يُمكن أن تكون بعيدة عن تدبير ومآرب السّتّ السوداء، أحبّ زوجات الملك الكامل إلى قلبه.

ويبدو أن السّتّ السوداء ظلّت تتدخّل في الحياة السّياسيّة في أيّام حُكْم ابنها في مصر، كما كانت تفعل في عهد زوجها الكامل، فعندما أمسك النّاصر داودُ الصّالح أيُّوبَ، واعتقله في الكَرَك، وهُو مُنافس ابنها العادل، وكان مُتوجِّهاً لأخذ مصر منه، عملت والدة العادل وليمة عظيمة، "عمل فيها ألف رأس غنم"[3]. وعندما عاد داود، وأطلق الصّالح أيُّوب من سجنه، "عظم ذلك على العادل، وعلى والدته"[4]. وبمُقابل الدور الفعّال للسّتّ السوداء؛ نُلاحظ على العكس من ذلك أن أمّ الملك الصّالح أيُّوب، وهي جارية سوداء اسمها ورد المُنى[5]، لم يكن لها أيُّ تأثير على الملك الكامل، وبالتّالي؛ لم يكن لها أيُّ ذكْر خلال سلطنة ابنها الصّالح أيُّوب.

ستّ الشّام:

بنت أيُّوب وأُخت السُّلطان صلاح الدِّين، كانت مُتزوِّجة من عُمر بن لاجين، وهُو من رجال دولة السُّلطان صلاح الدِّين، وقد أنجبت له حُسام الدِّين مُحمَّد، الذي تُوفِّي في حياتها. وبعد وفاة زوجها عمر طلبها ابن عمِّها ناصر الدِّين مُحمَّد، وتزوَّجها، فأقامت في حمص حتّى وفاته. برزت ستُّ الشّام بالخدمة الاجتماعيّة، فقد كانت كثيرة البرّ والإحسان، بابها ملجأ للقاصدين، ويُعمَل بدارها من أنواع الأدوية كلّ سنة بألوف الدنانير لتُفرِّقها على الناس، كما بَنَتْ مدرستَيْن بدمشق، وأوقفت عليهما أوقافاً كثيرة. تُوفِّيَتْ بدمشق عام 616 هـ 1219م، ودُفنَتْ بتُربتها الحسامية[6].

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 665.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 142.
3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 373.
4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 166.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 180. وشفاء القُلوب، أحمد الحنبلي، 367/ 7. ويُقال بأنّها كانت مُولّدة سمراء، اسمها ورد الندى. (مرآة الجنان، اليافعي، 4/ 73).
6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 119.

أمة اللطيف:

"الشيخة الصالحة العالمة أمة اللطيف بنت الشَّيخ الناصح الحنبلي"[1]، زوجة الملك الأشرف مُوسى صاحب حمص، وهي إحدى شهيرات عصرها بالعلم، فقد "كانت فاضلة، ولها تصانيف"[2]، ومن أثارها مدرسة دار الحديث بدمشق، التي وَقَفَتْهَا على الحنابلة[3]. وبعد أن تزوَّجها الأشرف أُخذت منه حمص، فسافر بها إلى تلّ باشر والرحبة، فتوفِّيت هُناك عام 653 هـ ـ 1255م[4]. ورُبَّما كان زواجه بها له علاقة بأموالها أكثر من علاقته بعلمها، فبعد موتها ظهر لها من الأموال ما يُساوي ستّمائة ألف دينار، غير الأملاك والأوقاف[5].

المُصاهرات السِّياسيَّة:

يبدو أن عادة التقارب بين الأُسر عن طريق المُصاهرة كانت تُطبَّق ـ أيضاً ـ في عالم السياسة، فكثيراً ما أحكمت العلاقات السِّياسيَّة بعض الزيجات، وينطبق ذلك داخل تفرُّعات الأُسرة الأيُّوبيَّة، أو بينها وبين الأُسر المالكة التي تربطها بها علاقة تحتاج إلى توطيد، وطالما كان عقد الزواج يدلُّ على الوُدِّ المُتبادل بين مملكتَيْن، أو يطلبه ملك من ملك أقوى منه ليضمن دعمه، أو ليتَّقي مطامعه. ولم يكن هُناك شرط مُحدَّد لإتمام المُصاهرة بين البُيُوتات المالكة، وأُمرائها، إلَّا شرط الإسلام، فكلّ أصهار الأُسرة الأيُّوبيَّة من خارج أبنائها كانوا مُسلمين، أمَّا إصهار الأيُّوبيَّة إلى بُيُوت مالكة أُخرى؛ فكان لا ينطبق عليه هذا الشرط وُفقاً لتعاليم الشرع الإسلامي. فقد قام الملك العادل بالتفاوض مُطوَّلاً مع ملك إنكلترا ريتشارد من أجل الزواج بأُخته[6]. وكذلك تزوَّج الملك الأوحد بن العادل صاحب خِلاط ابنة ملك الكرج إيواني، وهي مسيحيَّة، وبعد وفاته؛ تزوَّجها أخوه الملك الأشرف[7].

---

1 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 182.

2 - الدارس، النعيمي، 2/ 63 و87.

3 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 182.

4 - الدارس، النعيمي، 2/ 63.

5 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 230. ويذكر الحنبلي أن أمة اللطيف كانت مختصَّة بخدمة ربيعة خاتون بنت أيُّوب، وحصل لها منها أموال عظيمة، ولمَّا توفيت ربيعة عام 643 هـ وقعت أمة اللطيف بالمُصادرة، وحُبست بالقلعة ثلاث سنين، ثُمَّ أُطلقَتْ، فتزوَّجها الأشرف مُوسى صاحب حمص عام 646 هـ قُبيل أخذ حمص منه بقليل. راجعْ : (شفاء القُلُوب، 230).

6 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 13/ 377.

7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 2001، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 113، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 20 / 131 ـ 146.

المُصاهرات السِّياسيَّة داخل البيت الأيُّوبي:

كان من أشهر المُصاهرات التي جرت بين بُيُوتات الأُسرة الأيُّوبيَّة:

المُصاهرة بين العادل والظاهر:

أوثق السُّلطان صلاح الدِّين صلته بأخيه العادل، فزوَّج ابنه الظَّاهر غازي من غازية خاتون ابنة العادل[1]، ولكن غازية خاتون مالبثت أنْ ماتت، وصادف أنْ ساءت العلاقة بين الظَّاهر غازي وعمّه العادل، وجرت بينهما حُرُوب ومُناوشات وحصار بدمشق، ثُمَّ استتبَّ الأمر للعادل، وبرز كأكبر قُوَّة أيُّوبية بعد استيلائه على مصر ودمشق والكرك وبعض الجزيرة، وخاف الظَّاهر أن يفعل به عمُّه ما فعله بأخيه الأفضل صاحب دمشق، ويسلبه مُلكه، فأرسل يطلب منه المُوادعة، واعترف له بالسَّلْطَنَة، وكإقرار على صفاء النُّفُوس؛ أرسل الظَّاهر قاضي عسكر السُّلطان صلاح الدِّين السَّابق وقاضي حلب الحالي ابن شدَّاد إلى عمِّه العادل ليخطب له ابنته ضَيْفَة خَاتُون عام 608 هـ، فوافق العادل "وزوَّجها، وزال ما بينهما من الإحن"[2].

مُصاهرات الملك الكامل:

كان للسُّلطان الملك الكامل عدداً من البنات، كُنَّ مجالاً رحباً لمُناوراته السِّياسيَّة مع مُلُوك وأُمراء آل بيته، وذلك من خلال تزويجهنَّ، أو الوعد بذلك. وكان أوَّل مَنْ طلب وُدَّ الملك الكامل عن طريق مُصاهرته هُو الملك العزيز بن الظَّاهر صاحب حلب، فقد سيَّر القاضي بهاء الدِّين بن شدَّاد إلى الملك الكامل وهُو على حصار دمشق عام 626 هـ 1232م؛ ليطلب منه يد ابنته فاطمة خاتون، فوافق الملك الكامل، وتمَّ عقد النكاح[3].

وبعد أَخذ الملك الكامل لدمشق من ابن أخيه النَّاصر داود بن المُعظَّم سار إلى حماة، وسلَّمها إلى الملك المُظفَّر، بعد أن نزع أخيه عنها، وانطلق الكامل إلى بلاد الجزيرة، فلحقه المُظفَّر، وطلب منه

---

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 327.

2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 114، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 20/ 632 ـ 633، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 328.

3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 665.

يد ابنته غازية خاتون[1]، فوافق الكامل، وعقد له[2]، وتبدو هذه المُصاهرة في ظاهرها نوع من رَدِّ الجميل، ولكنَّها ـ في حقيقة الأمر ـ تأكيداً لأمر المُظفَّر، ودعماً له بتقرُّبه من سُلطان البيت الأيُّوبي.

أمَّا ابنة الملك الكامل الثَّالثة؛ فهي عاشوراء خاتون، وكان الملك النَّاصر داود قد طلبها من عمِّه الكامل، فوافق، وكتب له عليها، وعندما كان الكامل في حملته ضدَّ سلاجقة الرُّوم شعر أن إخوته وآل بيته من بني أيُّوب قد تآمروا عليه، فعاد وقد نقم على داود لاعتقاده بأنَّه كان صاحب دور كبير في تأليبهم عليه، فأجبره على طلاق ابنته، فطلَّقها داود[3]. ولمَّا اكتمل تحالف ممالك الشَّام عام 634 هـ 1237م ضدَّ الملك الكامل صاحب مصر، بقي النَّاصر داود متأرجحاً بولائه، فحاول الملك الأشرف زعيم حلف الشَّام أن يستميله، فعرض عليه أن يزوِّجه ابنته الوحيدة، وأن يجعله وَليَّ عهده، لكنَّ داود رفض العرض، وذهب إلى مصر، "فَسُرَّ به الكامل، وجدَّد عقده على ابنته عاشوراء، التي طلَّقها منه"[4].

وهكذا يتَّضح أن مُعظم المُصاهرات ضمن الأُسرة الأيُّوبيَّة كانت نابعة من مصالح سياسيَّة وأغراض لمصلحة الأب، أو الزوج، أو كلَيْهما معاً أحياناً.

المُصاهرة بين بيتَيْ حماة وحلب:

في عام 643 هـ 1246م، أرسل الملكُ المنصُورُ صاحبُ حماة رُسُلَهُ إلى حلب، يطلب العقد على ابنة خالته عائشة خاتون بنت العزيز مُحمَّد بن الظَّاهر[5]، أُخت الملك النَّاصر الثَّاني. وفي عام 645 هـ 1247م، أرسل المنصُور رُسُلَهُ لاصطحاب عروسه إلى حماة، فوصلتها، ومعها أمّها فاطمة خاتون بنت الملك الكامل[6]، وهذه المُصاهرة هي تقوية لمركز حماة، فمملكة حلب الأيُّوبيَّة هي ـ الآن ـ أكبر قُوَّة في الشَّام، وتقوية الأواصر مع بيتها الحاكم فيه الكثير من الدعم لمملكة حماة.

---

1 - غازية: شقيقة المسعود صاحب اليمن، ووالدة المنصُور صاحب حماة، وأخيه الأفضل ابن المُظفَّر.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 145.
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 155.
4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 159.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 357.
6 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 422، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 176.

المُصاهرات الأيُّوبيَّة خارج الأُسرة:

كان أوَّل مَنْ أصهرَ إلى الأُسرة الأيُّوبيَّة من حُكَّام شمال العراق هُو مُظفَّر الدِّين كوكبوري صاحب إربل، فقد طلب يدَ ربيعة خاتون أُخت السُّلطان صلاح الدِّين، فزُفَّت إليه، وقد أنجبتْ له بنتاً، تزوَّجها ـ فيما بعد ـ زنكي بن أرسلان شاه الأتابكي[1]. في عام 607 هـ 1210م، طلب صاحب المَوصل الأتابك نُور الدِّين أرسلان شاه يد ابنة الملك العادل، وتزوَّجها[2].

ويبدو أن زواج المُلوك الأيُّوبيَّة من خارج الأُسرة، وإصهارهم إلى أسر حاكمة أُخرى كان قليلاً جدَّاً، أو شبه معدوم، وذلك بسبب سيطرة الأُسرة الأيُّوبيَّة على أغنى المَمالك، وأقواها. ولكن الخلافات بين مُلُوك البيت الأيُّوبي دفعت ببعضهم للتحالف مع أسر حاكمة أُخرى، وتقوية هذا التحالف بالتزوَّج منهم، كما كان حال الملك المُعظَّم بن العادل صاحب دمشق، الذي تزوَّج أُخت ناصر الدِّين أرتق صاحب ماردين عام 620 هـ 1223م[3]، والتزاوج بين الأُسرة الأيُّوبيَّة وبني أرتق يعود إلى عصر السُّلطان صلاح الدِّين، الذي زوَّج ابنة أخيه العادل إلى قُطب الدِّين سقمان بن نُور الدِّين مُحمَّد صاحب ماردين[4].

ولعدم وُجُود بنات مُؤهَّلات للزواج لدى السُّلطان صلاح الدِّين، عند تأسيسه لدولته، فإنَّه كان يُزوِّج بنات أخيه العادل من أبناء الأسر الحاكمة التي يُريد توثيق الصلة بها، فبعد تزويجه ابنة العادل لصاحب ماردين زوَّج ابنة أُخرى للعادل إلى قيصر شاه بن قليج أرسلان سُلطان سلاجقة الرُّوم، وذلك عندما قدم على السُّلطان عام 587 هـ 1191م. وأنجبت هذه الزوجة لقيصر شاه ابناً أصهر هُو ـ بدوره ـ إلى خاله الملك الأشرف، وكتب له الأشرف عليها بحران عام 629 هـ 1232م[5]، ويبدو أنَّه مات عنها، أو طلَّقها؛ لأنَّها رافقت أبيها الأشرف إلى دمشق، وتزوَّجت هُناك ابن عمِّها الملك الجواد يُونُس بن ممدود.

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 121.

2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن ،أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 20/ 147.

3 - النُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 6/ 315، والمنصُوري، ابن نظيف، 97.

4 - لقد وهم ابن شدَّاد في حديثه عن الملك المسعود رُكن الدِّين مودود بن محمود بن مُحمَّد بن قرا أرسلان، عندما قال: "كان والده مُزوَّجاً بابنة السُّلطان الملك العادل، فلمَّا مات والده أساء إليها". (الأعلاق الخطيرة، 3/ 2/ 520)، والصحيح أن قُطب الدِّين الذي تزوَّج ابنة العادل هُو عمّه، وليس أباه.

5 - المنصُوري، ابن نظيف، 235

واستمرَّ سلاجقة الرُّوم في طلب مُصاهرة الأُسرة الأيُّوبيَّة، فقد كانت الأسرتان تُشكِّلان أكبر قُوَّتَيْن في المنطقة، فأرسل غياث الدِّين كيخسرو سُلطان سلاجقة الرُّوم إلى ضَيْفَة خَاتُون صاحبة حلب يطلب منها أن تُزوِّجه غازية خاتون بنت الملك العزيز، التي هي أُخت الملك النَّاصر وَلِيّ العهد، على أن يتزوَّج الملك النَّاصر أُخت غياث الدِّين[1]. وفي عام 652 هـ 1254م، تمَّ الزواج. فقدمت ملكة خاتون، بنت كَيْقُبَاذ وأُخت كيخسرو صاحب الرُّوم، إلى زوجها الملك النَّاصر صاحب حلب[2]، وهي ابنة خالة والده العزيز[3]، وبالوقت نفسه وصلت غازية خاتون بنت الملك العزيز مُحمَّد إلى بلاد الرُّوم، وتزوَّجها كيخسرو سُلطان سلاجقة الرُّوم[4].

وعندما استمال الملكُ الصَّالح نجم الدِّين أيُّوب الخوارزميةَ، وهُو في الجزيرة أراد ربط الأواصر معهم، فزوَّج مُقدَّمهم بركة خان بأُخته من أمِّه. ولجأ الخَوَارزميَّة إلى الأُسلُوب نفسه، فعندما خرجوا على أيُّوب، عام 643 هـ 1246م بعد تملُّكه مصر، كاتبوا مملوكه وقائد جُيُوشه رُكن الدِّين بيبرس، واتَّفقوا معه، ولتأكيد الاتِّفاق زوَّجوه منهم. كذلك عندما اتَّصل الخَوَارزميَّة بالناصر داود بن المُعظَّم صاحب الكَرَك، ووافقهم على أن يكون معهم ضدَّ الصَّالح أيُّوب، ولتأكيد التعاون بينهم زوَّجوه منهم[5].

وبعد أن قامت دولة المماليك بمصر، وقضوا على حُكْم الأيُّوبيِّين فيها، أراد الأمير فارس الدِّين أقطاي الجمدار، أكبر المماليك، وأقواهم، والمُتطلِّع إلى السُّلطة، أن يُصهر إلى الأُسرة الأيُّوبيَّة، ليدعم مركزه في مصر في صراع قدَّر أنَّه واقع لا محالة من أجل الانفراد بالسَّلْطَنَة، وهكذا زواج سيُؤَمِّن له غطاء شرعياً، سيكون مُنافسوه محرومين منه، فطلب يد أُخت الملك المنصُور صاحب حماة، وهي بنت الملك المُظفَّر محمود، وتمَّت المُوافقة، وخرجت العروس من حماة صوب مصر، "ممَّا جعل المُعزّ أيبك مُنافسه على السُّلطة يُعجِّل بقتله"، وعادت العروس إلى حماة[6].

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 686.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 190.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 686.
4 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 422.
5 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 322.
6 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 58.

المبحث الرّابع:

سُكّان المناطق الفرنجيَّة في ساحل الشَّام

لم تكن الحُدُود السِّياسيَّة في الشَّرْق العَرَبي زمن الحُرُوب الصَّليبيَّة لها أيّ معنى ديني، أو عرْقي، حتَّى إنَّه لم يكن هُناك خطّ حُدُود واضح، أو محدّد على الأرض، وعلى العموم؛ كان الفرنج - في غالبية أيّامهم - محصورين في شريط ساحلي ضيّق ومُتقطّع أحياناً.

كما أن الفرنج لم يُشكّلوا في مناطقهم أكثرية سُكّانية، فقد كان مُعظم السُّكّان من المُسلمين والمسيحيين المحلّيِّيْن، الذين استمرُّوا في تعاطي أعمالهم السابقة، وخاصَّة زراعة الأرض. بينما عاش الفرنج كسادة إقطاعيين، أو فُرسان مُقاتلين في المُدُن والحُصُون، التي شكّلت نقاط تحكُّم وسيطرة. فعندما لا تكون لهم قُوّات في الميدان نراهم يعيشون خلف أسوارهم[1].

كان المُسلمون يُسمّون شريط الساحل الشّامي الطراز الأخضر، وذلك لارتفاع مُعدّل أمطاره، وخُصُوبة أرضه[2]، وحتَّى ضمن هذا الشريط، فَلَمْ يُكوِّن الفرنجُ دولةً واحدةً، بل انقسموا - بعد استيطانهم مُباشرة - إلى وحدات سياسيَّة، فالحملات الفرنجيَّة جمعت جُنُوداً من أُصُول مُختلفة، ظلَّت مُتمايزة، وأسَّست دُولاً مُنفصلة، بل ومُتعارضة المصالح والأهواء في كثير من الأحيان. وصحيح أنَّهم تمتَّعوا بوحدة دينيَّة، لكنّهم كانوا من عناصر قومية وعرْقية شتَّى، لكُلّ منهم لُغته وعاداته، فقد غلب على سُكّان مملكة القُدْس البرغنديون، وعلى إمارة أنطاكية النورمان، وعلى إمارة طرابلس البروفنسيون، وقد انتقلت خلافات المُؤسّسين إلى أبنائهم، ومن ثَمَّ؛ إلى أحفادهم. ويبدو أن الانقسام والتجزئة بين المُسلمين قد انتقلت بعدوى الجوار إلى الفرنجة، حتَّى إن أُمراء ومُلُوك من الفرنجة قد تحالفوا مع أُمراء ومُلُوك من المُسلمين ضدَّ حلف مُقابل من فرنجة ومُسلمين.

---

1 - فنُّ الحَرْب، سميل، 109 و486.p ,A History of deed's done Beyond the Sea, William of Tyr

2 - قال الحريري يصف وضع الشّام قبل معركة حطّين: "هذا؛ وسواحل لشام كلّها بيد الفرنج، وهُو الطراز الأخضر، وهُو ما بين جبل لُبنان وبحر الرُّوم". (الإعلام والتبيين، 97).

وقال الوزير العزيزي يُوسُف بن المُجاور يمدح السُّلطان صلاح الدِّين:

هذا الطراز الأخضر استفتحته، فزهي بثوب من علاك مسجف (عُيُون الروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 178).

ورُوي - أيضاً - أن أحدهم قال: وسيفتح البيت المُقدَّس بعدما يطوى الطراز، ويقتل قيصرا.

والطراز هُو بلاد الساحل المُصطفَّة على البحر من الداروم جنوباً حتَّى بلاد أنطاكية شمالاً. (عُيُون الروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 179).

ولم يكـن الانقـسام الـسِّياسي للكيانـات الفرنجيَّـة في الـشَّرْق هُـو الأسـاس لتوزيـع القـوى العسكريَّة فيها، فقد كانت الطوائف العـسكريَّة مُتعـدِّدة ومُتنوِّعـة الـولاءات، فـأيّ مملكـة أو إمـارة فرنجية لم تكن تُسيطر على كلّ القوى العسكريَّة المُتواجدة على أراضيها، فالملـك أو الأمـير لـه قُوَّاتـه الخاصَّة، وهُناك قُوَّات أُخرى تُقيم على أراضيه بشكل دائم أو مُؤقَّت، فمن القُوَّات الدائمة الطوائـف الرُّهبانية المُقاتلة؛ مثل: الاسبتاريَّة، والدَّاويَة، والتِّيُوتُون، وغيرهم.

كذلك كانت تُقيم في المُدُن السَّاحليَّة الكُبْرَى الجاليـات التِّجاريَّـة؛ مثـل: البنادقـة، والجنويـة، والبيازنة، والتي كانت تُشارك في القتال لدعم الفرنجة بشكل فعَّال، لكنَّها كانت مُتصارعة مُتنافسة، بل ومُتحاربة فيما بينها، ولا تخضع لسُلطة البلد الـذي تُقـيم فيـه، فقـد حمـتهم الامتيـازات والحُقُـوق الخاصَّة، التي - غالباً - ما حصلوا عليها. أمَّا القُوَّات المُؤقَّتة؛ فهم الحُجَّاج المُقاتلون المتـدفِّقون فُـرادى وجماعات، فقد شكَّلوا قـوى عـسكريَّة لا يُـستهان بهـا في كثـير مـن الأحيـان، لهـا قادتهـا، ونُظُمهـا، واستراتيجيَّتها الخاصَّة، وأهمُّ ميزاتهم الحماسة الدِّينيَّة، والاندفاع للقتال.

كما أن مملكة القُدْس لم يكن لها إلَّا سيادة اسمية على الإمارات الأُخـرى، إضـافة إلى اسـتقلال طائفتَيْ الدَّاويَة والاسبتاريَّة عن أيّ سُلطة حتَّى سُـلطة ملـك القُـدْس، وانـتمائهم إلى البابـا مُبـاشرة، وإعلانهم بأنَّهم لا يخضعون إلَّا لأوامره، وقد أدَّى صراع هاتَيْن الطائفتَيْن فيما بينهما[1] وصراعاتهما على السيطرة التي بلغت حدَّ الاقتتال الداخلي أحيانـاً، إلى وُقُـوعهما في كثـير مـن الانتكاسـات الـسِّياسيَّة والعسكريَّة، وكانت من عوامل نهاية سيطرتهم في الشَّرْق.

التقسيمات الاجتماعيَّة للفرنج في سُورية:

عندما وصلت الحملة الفرنجيَّة الأُولى إلى بلاد الشَّام كانت تضمُّ جمعاً واحداً من النـاس، وإنْ اختلفت أُصُولهم، لكنَّ أهدافهم واهتماماتهم واحدة، وبتعاون كبير وانسجام فائق بيـنهم تمكَّنـوا مـن احتلال مناطق واسعة من بلاد الشَّام، لكنْ؛ مـا إنْ أقـاموا فيهـا حتَّـى أُصـيبوا بعـدوى التَّمـزُّق مـن

1 - العلاقات بين العَرَب والفرنج، زكي نقَّاش، 31.

جيرانهم، وأعدائهم المُسلمين، فانقسموا إلى إمارات، ودُويلات، وفئات، وطوائف[1]، وقد يكون لطبيعة أرض الشَّام وتباينها الجَغرافي دور مهمّ في هذا الانقسام بين الفرنجة.

وبتقادم الزمن ظهر جيل فرنجي جديد، له صفات خاصَّة، ورُبَّما كان من أهم ميزاته زوال رُوح التعصُّب الأعمى، الذي ميَّز رجال الحملة الأُولى، ولأن تدفُّق الحُجَّاج المُقاتلين الوافدين من أُورُوبا لم ينقطع، فقد انقسم المُجتمع الفرنجي في الشَّام إلى طبقتَيْن كبيرتَيْن مُتمايزتَيْن[2]، مع وُجُود طبقة صغيرة، لكنَّها كانت واضحة، وهي طبقة الفقراء3، والتي لم تكن تهتمّ ـ على الأغلب ـ إلَّا بتأمين قُوتها، وهي خليط من الطبقتَيْن التاليتَيْن:

1 ـ **الوافدون:** وهم القادمون الجدد، وغالباً؛ هُم من الحُجَّاج المتأجّجين بالحماسة الدِّينيَّة، والراغبين في القتال، لكنْ؛ ـ في الغالب ـ تكون إقامتهم مُؤقَّتة.

2 ـ **البلديون:** أو البوليانز، وهم أبناء الجيل الثَّاني والثَّالث وما بعدهم، ممَّنْ وُلد على أرض الشَّام، وتأثَّر بعادات أهلها، وتقاليدهم، وحضارتهم. وقد انتشرت فكرة خاطئة مفادها أن البوليانز هُم أبناء زيجات مُختلطة بين الفرنج والسُّكَّان المحلِّيِّيْن من مسيحيين ومُسلمين، ولكن ذلك تنفيه إشارات واضحة من مُؤرِّخي الحملات المُعاصرين لها، والتي تؤكِّد بأنَّ البوليانز تحدَّروا من صليبين أصليين، وهم جيل صليبي جديد، وأن تسمية البوليانز مشتقَّة من كلمة فرنسية تعني صغير الحيوان **(pullus - Polain)**[4].

لقد بلغ الخلاف بين البلديين والوافدين إلى درجة العداء الصريح، فبعد تتويج ملك فرنجي على مملكة القُدْس من الوافدين انتشرت أنشودة تقول:

---

1 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار من الموسوعة الشاملة، 1 / 11 ـ حول الاستيطان الفرنجي، راجعْ: **Prawer. Colonization activities in the Latin kingdom of Jerusalem, P.P.**:1063 ـ1108

2 - المصدر السَّابق، الصفحات نفسها.

3 - المصدر السَّابق، الصفحات نفسها، كانت تُسمَّى طبقة الفقراء: **Tafurs**. قارنْ بها كلمة: طفر وطفران باللّهجة العاميَّة في بلاد الشَّام.

4 - راجعْ: دراسة مرغريت مُورغان لذيول وليم الصُّوري، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 8/ 239.

"على الرّغم من البلديين

لدينا ملك من الوافدين

إن هذا البغض وهذا الحقد

سيجعلنا نفقد مملكة القُدْس"[1].

وقد أحسَّ العَرَب بهذا الانقسام في مُجتمع الفرنجة، فكانوا يُسمُّون الوافدين: الغربا[2]، وأحياناً؛ البَحْريين[3]، نظراً لقُدُومهم من البحر. ولكن العَرَب المُسلمين لم يستفيدوا مُطلقاً من هذا الانقسام، فلا شيء كان يُوحِّد البلديين والوافدين مثل عداوتهم للمُسلمين.

كذلك كان البلديون يشعرون بحاجتهم الماسَّة لقُوَّة الوافدين لاستمرار الحَرْب المُقدَّسة، فالوافدون هُم وقودها، وهذا ما ساعد على استمرار الحياة المُشتركة بينهما، وحال دُون حُدُوث انعزال إمارات الفرنج عن أُورُبا نهائيّاً، فكُلَّما أحدق الخطر بالإمارات الفرنجيَّة زادت التصاقاً بأُورُبا، ويقيناً بأهمِّيَّة الوافدين.

لذلك؛ عندما تكوَّن مُجتمع فرنجي جديد يضمُّ الأجيال التي وُلدت في سُورية لم ينفصل عن أُورُبا، ولم يندمج في الشَّرْق الإسلامي، بل كانت استمرَّت الهُوَّة الواسعة بالفصل بينهما؛ بحيثُ لا يُمكن لأحد أن يربط بين طرفَيْهَا[4]. ورُبَّما كان من مُكرِّسات هذا الانفصال بقاء الفرنجة في سُورية طبقة حاكمة، وبقاء مُعظم السُّكَّان السوريين مسيحيين ومُسلمين الخاضعين لحُكْم الفرنجة مُتمتِّعين بكلِّ مُقوِّمات وُجُودهم من حيثُ اللُّغة، والدِّين، والعادات، وكانت مسألة تبعيَّتهم إلى الفرنجة مسألة الوقت الذي يحتفظ فيه الفرنجة بقُوَّتهم، وبكُلِّ بساطة؛ كانت تعود المياه إلى مجاريها بالنِّسبة للسُّكَّان عندما يُهزَم الفرنجة، وتنسحب قُوَّاتهم.

---

1 - ذيل وليم الصُّوري، مخطوطة ليون/ 828 (1184 ـ 1197)، تحقيق: مرغريت مُورغان، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 8/ 300.

2 - راجع: مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 1/ 140.

3 - النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 15/ 222.

4 - فنُّ الحَرْب، سميل، 88.

أمَّا عن استشراق الفرنجة البلديين؛ فهُو أمر طبيعي جدّاً، تفرضه طبيعة الحياة في الشَّرْق، فقد استخدموا الأطبَّاء والطبَّاخين والخَدَم والحرفيين من أهل البلاد، كما لبسوا الثياب الفضفاضة المحلِّيَّة في بُيُوتهم، وزيَّنوا قُصُورهم بالفسيفساء والزُّجاج المُلوَّن، وصدحت فيها الأطيار، وتخلَّلتها النوافير، واستخدموا الصابون للنظافة، والسُّكَّر للتحلية، واستساغوا الأطباق الشَّرْقيَّة[1]، وأتقن قسم منهم ـ وفيهم بعض الأُمراء ـ اللُّغةَ العَرَبيَّة، فكانوا يُترجمون بين الوافدين والمُسلمين[2].

ونُلاحظ أن العديد من الصداقات قد عُقدت بين رجال من الفرنج البلديين وبين المُسلمين، ورُبَّما من أشهرها ما تحدَّث عنه أُسامة بن مُنقذ من صداقات له مع أُمراء وفُرسان من الفرنج[3].

ولكن كل ذلك ما كان ليجعل الفرنج البلديين سوريين، أو يُبعدهم عن أُورُوبيَّتهم، وما كان استشراق البلديين وصداقاتهم مع أندادهم من المُسلمين إلَّا حوادث فردية وقضايا سطحية[4]، فلا الفرنج امتلكوا الجرأة لينعتقوا من رُوحهم الصَّليبيَّة نهائيّاً، ولا المُسلمين قبلوهم كأمر واقع، أو تحمل وُجُوده، بل رفضوهم على الدوام، ولم يعترفوا بوُجُودهم في أيّ حال من الأحوال، وخير مثال هُنا على عدم قبول المُسلمين للفرنجة ـ رغم اضطرارهم للخُضُوع لهم بالقُوَّة أحياناً ـ هُو موقف قاضي مدينة جبلة منصُور بن نبيل الذي كان مُقرَّباً لبوهيموند أمير أنطاكية، ومحلّ ثقته، ومع ذلك؛ فما إنْ لاحت قُوَّات صلاح الدِّين على مقربة من مدينته، حتَّى خرج إليه، وساعده على تحريرها، ويقول ابن الأثير مُعلِّلاً موقفه: "فَحَمَلَتْهُ الغَيْرَةُ للدِّين على قَصْد السُّلطان"[5].

ومع كلّ الاتِّفاقيات والهُدنات والمُفاوضات والتبادل التِّجاري، فقد ظلَّت النظرة الإسلاميَّة للفرنج على أنَّهم غرباء، احتلّوا بلاد المُسلمين، ويجب طردهم، وبالرغم من فترات الضعف التي مرَّ بها المُسلمون، إلَّا أنَّهم ـ في النتيجة ـ حصدوا ثمار رفضهم، وعدم قبولهم للأمر الواقع، وطردوا الفرنجة نهائيّاً من الأرض العَرَبيَّة.

---

1 - Monro, The Kingdom of Crusaders p.p.: 105-120

2 - ابن شدَّاد، النَّوادر السُّلطانيَّة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 15/ 222+ 198.

3 - أُسامة بن مُنقذ، كتاب الاعتبار، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 12/ 246+240+192.

4 - فنُّ الحَرْب، سميل، 85.

5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 7.

السُّكَّان المحلِّيُّون تحت سُلطة الفرنجة:

يُعتَقَد ـ حتَّى الآن ـ بأنَّ الغالبية العُظْمَى من السُّكَّان في الإمارات أو الممالك الفرنجيَّة التي تأسَّست في سُورية، كانوا من العَرَب المسيحيين، أو من المُسلمين، فالفرنجة كانوا ـ بغالبيَّتهم ـ فُرساناً ومُقاتلين شكَّلوا طبقة حاكمة إقطاعية، كان وُجُود الفلاحين المحلِّيِّيْن ضروريّاً لوُجُودها. وحتَّى في حال توفُّر أعداد من السُّكَّان الفرنجة، كما في حالة المُدُن، فوُجُود السُّكَّان المحلِّيِّيْن ليقوموا بالأعمال اليومية ضروري، لأن الفرنجة كانوا ـ غالباً ـ مشغولين في الحُرُوب التي تقتضي منهم حشد كلّ طاقاتهم البشرية المُقاتلة. كلّ ذلك دفع الحُكَّام الفرنجة لترك حيِّز واسع من حُرِّيَّة العمل، ورُبَّما الإدارة الذاتية، فضلاً عن قيامهم بشعائرهم الدِّينيَّة، ومُمارسة عاداتهم وتقاليدهم بكلّ تسامح. إن هذا التسامح الفرنجي، والجهد الواضح من قبلهم لإقامة علاقات حسنة مع السُّكَّان المحلِّيِّيْن، ما كان ـ أبداً ـ بدوافع إنسانيَّة محضة، بل كان ـ واضحاً تماماً ـ أنَّه من أجل تنشيط الحَرَكَة الاقتصاديَّة في إماراتهم، وبالتَّالي؛ زيادة مواردهم المالية[1]. لكنْ؛ مع كلّ ذلك ظلَّ السُّكَّان المحلِّيُّون ـ مُسلمون ومسيحيُّون ـ ينظرون إلى الفرنجة كغُرباء، وقد أظهرت الأحداث أنَّهم ـ دائماً ـ كانوا ينتظرون ميلان كفَّة المُسلمين؛ ليتحرَّكوا معهم. وصحيح أن السُّكَّان المحلِّيِّيْن كانوا عُنصراً اقتصاديّاً مُؤثِّراً في دعمه لآلة الحَرْب الفرنجيَّة، لكنْ؛ عندما كان يتمكَّن قائد مُسلم من إحسان الاستفادة منهم، فإنَّهم كانوا يُشكِّلون خطراً مُميتاً على الفرنج، ولذلك قال عنهم وليم الصُّوري: "ما من عدوٍّ أسوأ من العدوِّ المُقيم بين ظهرانيك"[2].

1- Couiton. Medieval Panorama. P: 322 وراجع ما كتبه ابن جُبَيْر الذي زار أراضي الفرنجة ومُدُنهم عام 1184م، الرحلة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 14/ 58.

2 - العبارة اللاتينيَّة هي:

"nulla enim pestis efficacior ad nucen dum quam fam liaris inimicas"

(A History of deed's done Beyond the Sea, William of Tyr, p.109)

المُسلمون تحت حُكْم الفرنجة:

لم يُحاول الفرنجة ـ بشكل جديٍّ ـ تحويل المُسلمين عن دينهم، مع أنّهم قد أغلقوا مُعظم المساجد الإسلاميَّة[1]، وظلّت اللُّغة العَربيَّة مُتداولة في كُلِّ المناطق الفرنجيَّة، وحتّى في المُدُن، ولم تترك اللُّغات الأُورُبيَّة ـ اللاتينيَّة، أو الفرنسيَّة، أو غيرها ـ أيَّ أثر في السُّكّان المحلِّيِّين، كما أن الموارنة ـ الذين كانوا أقرب السُّكّان إلى اللاتين ـ فقد ظلُّوا يتكلَّمون العَربيَّة.

ويبدو أن اللُّغات كانت مُتعدِّدة في مناطق السيادة الفرنجيَّة، ولم تتفوَّق إحداها على الأُخرى، حتّى إنَّنا نسمع أن الفرنجي كان يحتاج إلى ترجمان في طرابلس[2]، وكان كتاب ديوان التجارة في عكّا "يكتبون بالعَرَبيَّة، ويتكلَّمون بها"[3].

وبشكل عامٍّ؛ نستطيع أن نقول إن السُّكّان المحلِّيِّين لم يذوبوا في المُجتمع الفرنجي، وبالوقت نفسه، لم يكن لهم أيّ تأثير في الحياة العامَّة للممالك الفرنجيَّة، ولا في العلاقات بين الممالك الأيُّوبيَّة والإمارات الفرنجيَّة[4].

الفلاحون المُسلمون:

يصف ابن جُبَيْر في رحلته ـ التي اجتاز فيها بلاد الشّام من دمشق إلى عكّا ـ حال الفلاحين المُسلمين تحت حُكْم الإقطاعيين الفرنجة، يقول: "رحلنا من تبنين وطريقنا كلّه ضياع مُتّصلة، وعمائر مُنتظمة، سُكّانها كُلُّها مُسلمون، وهُم مع الإفرنج على حال ترفيه . . . وذلك أنّهم يُؤدُّون لهم نصف الغلَّة عند أوان ضمِّها، وجزية عن كُلِّ رأس دينار وخمسة قراريط، ولا يعترضونهم في غير ذلك. ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يُؤدُّونها، ومساكنهم بأيديهم، وجميع أموالهم متروكة لهم، وكلّ ما بأيدي الفرنج من المُدُن بساحل الشّام على هذه السبيل، رساتيقهم كلّها للمُسلمين، وهي القرى والضياع. ... ونزلنا ضيعة من ضياع عكّة على مقدار فرسخ، ورئيسها الناظر فيها من

---

1 - كان الفرنجة يُسمّون المسجد: ماهومري، نسبة إلى النبي مُحمَّد (ص)، وحوّلوا الكثير من المساجد في المناطق التي احتلُّوها إلى كنائس، ولكنْ؛ فيما بعد، أُعيد افتتاح بعضها، أو على الأقلّ، مسجد في كُلِّ مدينة كبيرة لصلاة الجالية الإسلاميَّة التِّجاريَّة، وبعض السُّكّان المحلِّيِّين من المُسلمين.

2 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 216.

3 - الرحلة، ابن جُبَيْر، 274.

4 - يصف ابن جُبَيْر علاقة المُسلمين المحلِّيِّين بالفرنجة في منطقتي عكّا وصور فقط.

المُسلمين مُقدَّم من جهة الإفرنج على مَنْ فيها من عُمّالها من المُسلمين، فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة مُقبلة"[1].

ونستنتج ممّا ذكره ابن جُبَيْر:

1 ـ أن الفرنجة حرصوا على عمارة الأرض واستثمارها، يقول: "طريقنا كُلُّه ضياع مُتَّصلة، وعمائر مُنتظمة".

2 ـ أن كُلَّ الفلاحين في أراضي الفرنج من المُسلمين، ورُبَّما هُم فلاَّحو الأرض القُدماء، وجدهم الفرنج فيها، فاحتفظوا بهم، يقول: "رساتيقهم كُلُّها للمُسلمين، وهي القُرى والضياع".

3 ـ حرص الفرنج على استقرار الفلاحين في الأرض، والاعتناء بهم، "وهُم مع الأفرنج على حال ترفيه".

4 ـ لم يفرض الفرنجُ ضرائبَ باهظةً، بل كانت ضرائبهم مُعتدلة، يتمكَّن الفلاحون من تأديتها بسُهُولة ويُسر.

5 ـ لم يتدخَّل الفرنجُ بالشُّؤُون الدّاخليَّة للرعايا المُسلمين، "مساكنهم بأيديهم، وجميع أحوالهم متروكة لهم".

6 ـ وضع الفرنج لكُلِّ قرية مسؤولاً من أهلها، "الناظر فيها من المُسلمين مُقدَّم من جهة الإفرنج". ويبدو أن أحوال هؤلاء الرُّؤساء كانت جيِّدة جدًّا، ولهم حُرِّيَّة واسعة في التصرُّف، فقد استضاف مسؤول قرية صغيرة قريبة من عكّا قافلةً إسلاميةً، دُون أن يتحرَّج من السُّلطات الفرنجيَّة، وكان غنياً لدرجة أنَّه تمكَّن من القيام بواجب الضيافة نحوهم جميعاً، "فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة مُقبلة، وأحضرهم صغيراً وكبيراً".

1 - الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار 14/ 61.

ولكنْ؛ لنا أيضاً مُلاحظات على ما ذكره ابن جُبَيْر، منها:

1 ـ هل كان كُلُّ المُسلمين يلقون المُعاملة نفسها في كُلِّ ممالـك الفـرنج؟! يبـدو أن هـذا الأمـر مشكوك فيه[1].

2 ـ هل ذكر ابن جُبَيْر ما ذكره عن حال الفلاحين المُسلمين لدى الفرنج لتمجيـد الفـرنج؟ أم لغرض آخر؟ أم لُمجرَّد الذِّكْر؟

في الحقيقة؛ لا يُمكن الجزم بأيِّ جواب، لكنْ؛ بالتَّأكيد، لم يكن ابن جُبَيْر يقصد مـدح مُعاملـة الفرنج، وليس هُو من السذاجة؛ بحيثُ يُؤكِّد على تلك المعلومات لمُجرَّد ذكْر حَدَث سيخدم الفرنج، بشكل، أو بآخر، وهُو التَّقيّ المُؤمن الداعي للجهاد ضدَّ الفرنج، المُحرِّم للتعامل معه[2].

وعلى الأغلب؛ كانت معلومات ابن جُبَيْر صـحيحة في مكانهـا، لكنَّـه ذَكَرَهَـا لتنبيـه حُكَّـام المُسلمين لحُسن مُعاملة الفلاحين، وعدم فرض الضرائب الباهظة، وليُنبِّه لفوائد ذلـك عـلى الدولـة، وعلى السُّكَّان. لذلك؛ يذكر ابن جُبَيْر أن مُعظم الفلاحين المُسلمين في بـلاد الفرنجـة قـد اسـتهواهم عَدْلُ الفرنج، يقول: "وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم، لما يُبصرون عليه إخوانهم من أهل رسـاتيق المُسلمين، وعُمّالهم، لأنَّهم على ضدِّ أحوالهم من الترفيـه والرفـق، وهـذه مـن الفجـائع الطارئـة عـلى المُسلمين أن يشتكي الصنف الإسلامي من جور صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضدِّه وعدوِّه المالك لـه من الإفرنج، ويأنس بعدله"[3].

المسيحيُّون المحلِّيُّون في إمارات الفرنجة:

لم يتمكَّن الفرنجة من احتواء نصارى المنطقة من عرب وسريان وأرمـن وغـيرهم، فقـد كـان الفرنجة يعدُّون أنفسهم، كما قـال ولـيم الـصُّوري: رعايـا المـسيح، ويعـدُّون الأُمـم الأُخـرى أبنـاء الضلال[4]، وهذا الضلال ينسحب ـ أيضاً ـ على المسيحيين الشرقيين في سُورية، الذين احتكّوا بكثـرة

---

1 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، 216.
2 - الرحلة، ابن جُبَيْر، 280.
3 - الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار 14/ 61.
4 - نقلاً عن وليم الصُّوري (الحُرُوب الصَّليبيَّة – روايات شهود عيان، د. سُهيل زَكّار 401).

بالفرنجة، من خلال تواجدهم في مُعظم مناطق السيطرة الفرنجيَّة، وفي مناطق القتال بينهم وبين المُسلمين.

لكنْ؛ بشكل عامٍّ، كان دور المسيحيين الشرقيين في الحُرُوب مع الفرنجة هامشياً ضعيفاً، وذلك لوُجُود فواصل مُهمَّة بينهم وبين الفرنجة، الذين نظروا إليهم ـ في أحسن الأحوال ـ على أنَّهم مسيحيين هراطقة مُستعربين، ولم يعدُّوهم بأفضل من المُسلمين، فإذا قدروا على قَتْلهم كان به، وإلَّا فَسَلْبُ كنائسهم وأراضيهم لا بأس به[1].

وقد نظر الفرنجة إلى مسيحيِّيْ الشَّرْق نظرة دونية، وعدُّوهم شعباً غير مُحبٍّ للقتال[2]، ووصف وليم الصُّوري السريان بقوله: "هُو شعب نعتبره ضعيفاً، ومُخنَّثاً"[3]، مع العلم أن وليم ليس من الوافدين، فقد وُلد في سُورية، ومع ذلك؛ بقيت لديه نزعة التفوُّق كفرنجي. لكنْ؛ من كلِّ ذلك يجب أن نستثني حالة المسيحيين الأرمن والمسيحيين الموارنة، والتي عالجنا كلاً منها على حدة في هذا الكتاب.

1 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 97.
2 - A History of deed's done Beyond the Sea, William of Tyr, P. 109 وفنُّ الحَرْب، سميل، 97.
3 - تاريخ الأعمال المُنجَزة فيما وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صُور، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 7/ 459.

المبحث الخامس:

العلاقات بين السُّكَّان عبر الحُدُود

العلاقات التِّجاريَّة:

قال ابن جُبَيْر في رحلته: "ومن أغرب ما يحدث في الدُّنيا، أن قوافل المُسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج، وسبيهم يدخل إلى بلاد المُسلمين"[1]، وهذا دليل واضح على تقديم المنفعة الناتجة عن التبادل التِّجاري على الخلافات السِّياسيَّة والعسكريَّة؛ حيثُ يبدو أن المُسلمين والفرنج قد توصّلوا إلى اتِّفاقيات كان الالتزام بتطبيقها أقوى من الالتزام السِّياسي، أو العسكري، وهذا دليل على ترسُّخ قيَم للتعامل القائم على المنفعة المُتبادلة لم يَعْتَدْ عليها ذلك العصر، بدليل استغراب ابن جُبَيْر لما يحصل، ونسب ذلك إلى "الاعتدال في السياسة"[2].

لقد كان حجم التبادل التِّجاري كبيراً جدَّاً، في مقاييس ذلك الزَّمان، بين الإمارات الفرنجيَّة ومملكة القُدْس، التي كانت تُشكِّل الواجهة البَحْريَّة، وتضمُّ الموانئ التِّجاريَّة لبلاد الشَّام، وبين بلاد المُسلمين، التي تُشكِّل العمق الاقتصادي، والمنفذ المفتوح باتِّجاه بلاد الشَّرْق الأقصى، ودليلنا على ذلك هُو تدفُّق الدراهم الفرنجيَّة الكبير على دمشق، يقول أبو شامة في أحداث عام 658 هـ 1260م: "وابتلى الناس في هذه السنة بغلاء شديد، ومن أكثر أسبابه ما أحدثه الفرنج من ضرب الدراهم المعروفة باليَافيَّة، وكانت كثيرة الغشّ، وكثرت في البلد كثرة عظيمة"[3].

وبالتَّأكيد؛ فإن كثرة الدراهم اليافية جاءت ثمن بضائع بيعت للفرنج. كما يُشير إلى ذلك كون كُتَّاب ميناء عكَّا من الفرنج النصارى "يكتبون العَرَبيَّة، ويتكلَّمون بها،"[4].

وكان الفرنج يتساهلون في فرض الضرائب على التجارة الداخلة إلى أراضيهم، فهي عماد حياتهم الاقتصاديَّة، فالضريبة كانت ديناراً صوريَّاً وقيراطاً على كل شخص يعبر الحُدُود إلى مناطق

---

1 - الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 14/ 58.
2 - الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 14/ 59.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 20 / 179.
4 - الرحلة، ابن جُبَيْر، 275.

سيطرة الفرنجة، وهُو مبلغ معقول جدًّا بالنِّسبَة لرُسُوم ذلك الزَّمان، كما يقول ابـن جُبَـيْر[1]. كـذلك يُؤكِّد ابن جُبَيْر على حسن المُعاملة، فكان للتُّجَّار في مناطق السيطرة الفرنجيَّة حُرِّيَّة التَّصرُّف والتنقُّـل والإقامة؛ حيثُ أحبّوا، فيقول: "طلب رحل مَنْ لا سلعة لـه، لـئلا يحتوي عـلى سـلعة مخبـوءة فيـه، وأطلق سراحه، فنزل حيثُ شاء، وكلّ ذلك برفق وتؤدة، دُون تعنيف، ولا حمل "[2].

علماً أنَّنا لا نعتقد بأنَّ البابوات كانوا يستثنون إمارات الفرنجة في الشَّرْق من تحريماتهم المشدَّدة للتجارة مع المُسلمين[3]، ولكنْ؛ حتَّى بين أُورُوبا نفسها وبين الممالك الأيُّوبيَّـة كانـت التجـارة تـسير بدُون عوائق، فواردات سُورية عبر الإمارات اللاتينيَّة كانت لا تنقطع عن أُورُوبا[4].

كذلك لم تتوقَّف عن التـدفُّق إلى أُورُوبـا مُنتجـات مـصر مـن الكتَّـان والـسُّكَّر والحريـر[5]، والبهارات من الشَّرْق الأقصى عبر مصر[6]، وبالطريقة نفـسها؛ كانـت واردات أُورُوبـا تتـدفَّق عـلى مصر وسُورية[7].

المناصفات:

كانت كثير من المناطق في أراض فلسطين تُسمَّى المناصفات، أو المثالثات، وهي مناطق مُتنازَع عليها بين المُسلمين والفرنج، ولم يستطع أيٌّ منهم السيطرة العـسكريَّة عليهـا بـشكل نهـائي، وحتَّـى يستفيد الطرفان، اتَّفقا على السماح بعمارة الأرض، واقتسام منتوجاتهـا، مُناصـفة، أو مُثالثـة، وكانـت مدينة صيدا وما حولها من أكبر المُناصفات بين المُسلمين والفـرنج، وقـد اجتـاز ابـن جُبَيْر في رحلـه بطرف إحدى هذه المُناصفات، وهي أراضي بانياس، فيقول: "وعمالـة تلـك البطحـاء بـين الإفـرنج وبين المُسلمين، هم في ذلك حَدٌّ يُعرَف بحَدِّ المُقاسمة، فهم يتشاطرون الغلَّة على اسـتواء، ومواشـيهم

1 - الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 14/ 60.
2 - الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 14/ 62.
3 - كتاب الأسرار، مارينو سانوتو ـ تورسيللو، من الموسوعة الشاملة، د. سُـهيل زَكَّـار 38 / 17 – 76– 79 – 81، وجولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار40 / 359.
4 - كتاب الأسرار، مارينو سانوتو- تورسيللو، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 38 / 71 – 145.
5 - كتاب الأسرار، مارينو سانوتو- تورسيللو، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 38 / 69.
6 - كتاب الأسرار، مارينو سانوتو- تورسيللو، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 38 / 68.
7 - كتاب الأسرار، مارينو سانوتو- تورسيللو، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار 38 / 71.

مُختلطة، ولا حيف يجري بينهما فيها""[1]. ويقول وليم الصُّوري: "إن عادة اقتسام السُّلطة بشكل مُتماثل بين المسيحيين والكَفَرَة قد سادت لسنوات كثيرة، وكانت ماتزال تُطبَّق في هذا الوقت، كما قُسمت الضرائب والجزية بشكل مُتماثل بينهما أيضاً""[2].

إن هذه المُناصفات والمُثالثات تُشكِّل دليلاً على حسٍّ عال بالواقعية لدى الفريقَيْن، فلولا هكذا اتِّفاق لبقيت مساحات واسعة من الأراضي مُعطَّلة عن الإنتاج، وتشرَّد فلاحوها، وتبعثروا؛ ليُشكِّلوا عبئاً على هذا الفريق، أو ذاك. ولذا؛ نجد أن منطقاً خاصَّاً في بعض الأصعدة كان يسود مُجريات الأحداث، فبالرغم من الحُرُوب التي لم تنقطع لسنوات، وما رافقها من إغارات، وكَرٍّ، وفَرٍّ، وتحرُّكات عسكريَّة كُبْرَى وصغرى، فقد استمرَّ الفلاحون في زراعة الأرض، ودفع الضرائب، كما كانوا يفعلون دائماً، فالحُرُوب هُنا، مع تعدُّدها، لم يُسجّل أنَّها سبَّبت مجاعة، وبشكل عامٍّ؛ لم يرافقها عمليات نهب كُبْرَى كالتي ترافق مُعظم الحُرُوب.

---

1 - الرحلة، ابن جُبَيْر، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار 14/ 60.

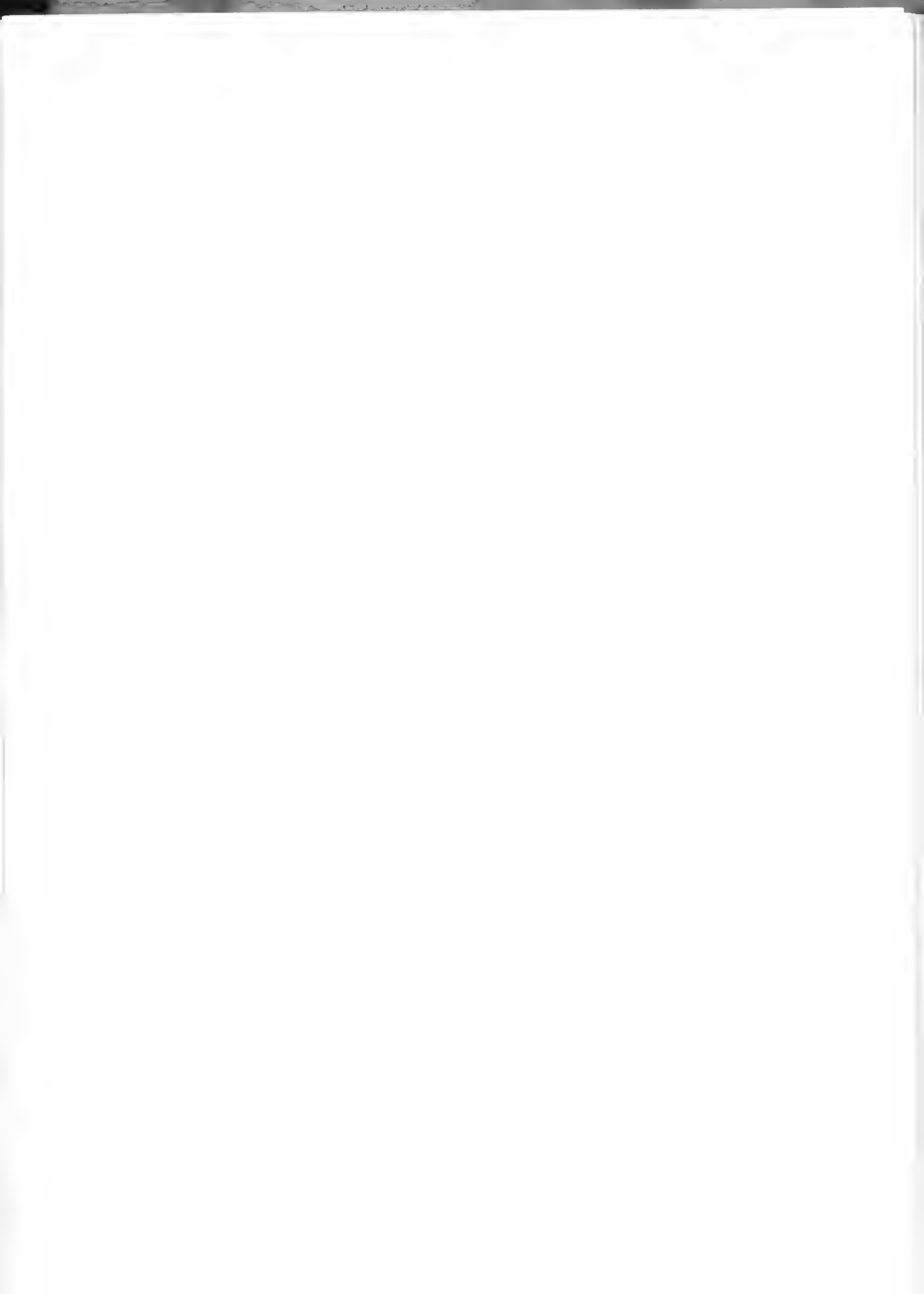
2 - تاريخ الأعمال المُنجَزَة فيما وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صُور، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار 7/ 458.



القسم الثّاني

مراكز القوى الدّاخليّة

ودورها في العلاقات الخارجيّة



الفصل الأوَّل

دور أرباب السيف

ورجال الإدارة في العلاقات الدّوليّة

المبحث الأوّل:

طوائف العَسكَر

كان كلّ الأُمراء وقادة الجُند في حياة مُؤسّس الدولة الأيُّوبيّة السُّلطان صلاح الدِّين، بمَنْ فيهم أفراد عائلة السُّلطان، مُجرَّد أعوان، مع أن بعضهم لم يُخف نواياه في التطلُّع إلى السُّلطة العليا في الدولة، أو الاستقلال بما تحت يده من البلاد.

لكنَّ وُجود شخصية القائد الذي التفَّ الجميع تحت لوائه منعت أصحاب المطامع من تحقيق آمالهم. وكان من الطبيعي أن يختلف الأمر بعد موت صلاح الدِّين؛ حيثُ ظهرت طموحات كثير من الشَّخصيَّات العسكريَّة، الذين كانوا قادة في الجيش، أو نُوَّاباً في بعض الإقطاعات، أو كانوا زعماء لبعض طوائف الجُند، أو المجموعات القَبَلية، وخاصَّة من الأكراد، الذين اعتبروا أن دولة صلاح الدِّين هي دولتهم. ولغياب شخصية السُّلطان القويَّة، التي كانت تُسيطر على كلّ ما حولها، بدأت - بعد موته - تتشكَّل مراكز قوى حول هؤلاء الأُمراء، حيناً ضمن بوتقة العشائرية، وحيناً آخر من خلال الولاء لشخص، مثل طوائف المماليك الأَسَديَّة والنَّاصريَّة. ولكن هؤلاء الأُمراء عملوا مُنفردين في كثير من الأحيان، ثقة بنفسهم، وبماضيهم العسكري والسِّياسي مع السُّلطان صلاح الدِّين، الشيء الذي يُعطيهم - وُفقاً لرأيهم - الحقَّ في اقتسام التركة الصَّلاحيَّة. فأخذوا يتجمَّعون حول أولاده أوّلاً، وفيما بعد؛ ضدهم مع عمِّهم العادل، ثُمَّ ظهر منهم مَنْ عمل لنفسه بشكل مُباشر. ممَّا يجعلنا نعتقد أن نظام الإدارة في الدولة الأيُّوبيَّة كان يمنح قدراً كبيراً من الحُرِّيَّة للأمراء في إقطاعاتهم، وولاياتهم، مع اشتراط الولاء للسُّلطان. لكنْ؛ بعد تجزئة الدولة بوفاة السُّلطان صلاح الدِّين ترسَّخ الاستقلال الإداري للحُكَّام، وأصبح الولاء لسُلطان البيت نسبياً ورمزياً، ورُبَّما توقَّف

عند حُدُود الخطبة والسّكّة، وكانت أحسن حالات الولاء للسُّلطان تُترجَم بدعمه بفرقة من العَسْكَر عند الحاجة.

عندما تُوفِّي السُّلطان صلاح الدِّين كان أُمراء دولته في دمشق، من خارج العائلة، قد التقوا لمُبايعة وَصيِّه وابنه الأكبر الملك الأفضل، ومنهم:

حُسام الدِّين بشارة، مُقدَّم الجميع. وبدر الدِّين مودود، شحنة دمشق، وأخيه سعد الدِّين. وناصر الدِّين منكورس بن خمارتكين، أمير صهيون وبرزية. وسابق الدِّين عُثمان بن الداية، أمير شيزر وأبو قبيس. وعزّ الدِّين إبراهيم بن شمس الدِّين بن المُقدَّم، أمير بغراس وكفر طاب وفامية. وبدر الدِّين دلدرم بن بهاء الدِّين ياروق. وكلّ من: خشترين بن حسين الهكاري، أنوشروان الزرزاري، ميمون القصري، عزّ الدِّين أُسامة الجبلي، شمس الدِّين سنقر الكبير، سنقر المشطوب، آيبك الأفطس، علكان، وملكان، وكلّ هؤلاء كانوا لا خُبز لهم[1]، ممَّا يعني أنَّهم بدُون إمارات أو مناطق يحكمونها لحساب دولة السُّلطان صلاح الدِّين.

انقسمت دولة صلاح الدِّين بعد وفاته سياسياً وعسكريّاً بين ثلاثة من أبنائه؛ سمَّاهم هُو قبل موته، وتوقَّع أنَّهم الأفضل للحفاظ عليها، وألحق بقيَّة إخوتهم بهم كأمراء صغار. فكان الأفضل في دمشق، والعزيز في مصر، والظاهر في حلب. ورافق انقسام الدولة انقسام ولاء أُمراء الجيش وقُوَّاده، فظهرت ـ على الفور ـ طوائف كانت معروفة أثناء حياة السُّلطان، لكنَّها كانت جُزءاً من هيكلية دولته، دُون أن يكون لها مواقف مُنفردة. وكان المسوّغ الشرعي لسُّلطة هذه الطوائف هُو الجهاد، أمَّا المسوغ القانوني؛ فهُو تكليف السُّلطان. ومن أهمّ هذه الطوائف، طائفتا الأَسَديَّة والصلاحية:

آ . **الأَسَديَّة:** هُم مماليك أسد الدِّين شيركوه، وحواشيه الأكراد[2]، ويُمكن أن نُضيف لهم بعض المُتحالفين معهم، والمُنضمِّين إليهم، وقد كان مع أسد الدِّين شيركوه ثمانية آلاف مُقاتل لدى استقراره بمصر، خمسمائة منهم يُشكّلون فرقة الأَسَديَّة[3]، وهؤلاء الخمسمائة هُم من مماليك أسد

---

1 - النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، 248، ومُنتخبات من كتاب التاريخ، ابن أَيُّوب، 311، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 197.
2 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 123.
3 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 3 / 310.

الدِّين، ومن مُتطوِّعة الأكراد، وكانوا قوام الفرقة المطلوبة منه مُقابل إقطاع حمص في دولة السُّلطان نُور الدِّين محمود[1]. وبعد وفاة أسد الدِّين الكبير تبرز مُلاحظتان على الفرقة الأَسَديَّة:

1 ـ لم ينتقل ولاء الأَسَديَّة كما هُو مفروض إلى أولاد أسد الدِّين، وخاصَّة أنَّه كان منهم أمير كبير مُتشوِّف للسَّلطنة هُو الملك القاهر مُحمَّد بن أسد الدِّين شيركوه، فلم يلتفت إليه الأَسَديَّة، ويبدو أن القاهر ـ بالمُقابل ـ لم يتوجَّه نحوهم بأيِّ بادرة لاستقطابهم، ممَّا يدلُّ على أن ولاءهم بالكامل انتقل إلى صلاح الدِّين، كما انتقلت إليه خلافة أسد الدِّين في مناصب مصر، ورُبَّما لأن الأَسَديَّة هُم مَن اختار صلاح الدِّين، ودعمه في حُكْم مصر.

2 ـ بسبب شخصية السُّلطان صلاح الدِّين، أو رُبَّما بسبب ظُرُوف الحَرْب الطويلة التي عاشها خلال حياته السِّياسيَّة كلّها، لم تظهر الأَسَديَّة كقُوَّة مُنفصلة، أو ذات شأن في تقرير أيٍّ من أُمُور الدولة الصَّلاحيَّة، مع أنَّهم كان من المُمكن أن يُشكِّلوا قُوَّة لا يُستهان بها بحال تجمُّعهم في بدايات حُكْم السُّلطان صلاح الدِّين، بل إنَّنا نستطيع القول إنَّهم القُوَّة الكُبْرَى التي قامت عليها دولته، فهم الأُمراء والقادة، قبل أن يُنشئ صلاح الدِّين مماليكه الصَّلاحيَّة ورجال دولته الخاصِّين به. ولكنْ؛ لمُجرَّد غياب شخصية السُّلطان المتميِّزة الآسرة، ظهرت الأَسَديَّة تُحاول أن تحقِّق مكانة مُتميِّزة في الدولة، من خلال اللعب على حبال الخلافات بين كبار الوَرَثَة أبناء صلاح الدِّين وعمّهم العادل.

وكان من قوى الأَسَديَّة ورجالهم بعد وفاة صلاح الدِّين:

آ. المماليك الأَسَديَّة:

1 . **سيف الدِّين يازكوج:** وهُو مُقدَّم الأَسَديَّة، وكبيرهم[2]، كان يتولى منصب الحاجب بدمشق في دولة صلاح الدِّين[3].

2 . **أبو الهيجاء السمين**[4]: من كبار مُقدَّمي الأَسَديَّة، وكان صلاح الدِّين قد ولاَّه القُدْس بعد تحريرها، واستمرَّ بها حتَّى عَزَلَهُ الملك العزيز بن صلاح الدِّين صاحب مصر عام **589** هـ **1193**م.

---

1 - الشَّرق الأدنى، السَّيِّد الباز العريني، 155.
1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 88، والروضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 19 / 468.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 5.
4 - راجِعْ ما وَرَدَ عنه في بحث أُمراء العَسْكَر، من هذا الكتاب.

3 ـ **عزّ الدِّين جرديك:** مُقدَّم الأَسَديَّة بعد أبو الهيجاء السمين[1].

4 ـ **مرزوق الطشتدار:** وكان كما يظهر من اسمه يتولَّى منصب الطشتدار للسُّلطان صلاح الدِّين في دمشق، وقد حجَّ عام 607 هـ[2].

5 ـ **أزكش:** وكان يختصُّ بأبي الهيجاء السمين.

ب ـ أُمراء الأكراد:

وهم بقايا ضُبَّاط جيش أسد الدِّين شيركوه الكبير، وغالباً؛ هُم من جُنُود الحلقة غير المماليك، وقد ظهر منهم: ابن كهدان، وفخر الدِّين البانياسي، ومثقال الجمدار، وبهرام التاجي[3].

ونُلاحظ أن الأَسَديَّة، في دولة صلاح الدِّين ودول أولاده وعمّهم، قد أصبحوا جيلاً قديماً من الأُمراء الكبار، وغالباً ما كانت شُهرتهم العسكريَّة السابقة هي سبب تمتُّعهم بالقُوَّة السِّياسيَّة، ورُبَّما بسبب خبراتهم الكبيرة المُكتَسَبَة، بينما ـ عددياً ـ هُم أقلُّ بكثير من مُنافسيهم الصَّلاحيَّة، وذلك بسبب موتهم بالحُرُوب، وبعامل السِّنِّ. بينما امتازت الفرقة الصَّلاحيَّة بعديدها الأكبر، وبتحكُّم أكثر وأهمّ بمناصب الدولة التي حظاهم بها السُّلطان، وبكونهم شُبَّاناً أكثر من الأَسَديَّة، وبالتَّالي؛ امتلاكهم للقُوَّة، ولرُوح المُغامرة.

ب ـ الصَّلاحيَّة: وهم مماليك صلاح الدِّين، وأُمراء دولته، وقد أخذ صلاح الدِّين بتشكيل فرقة خاصَّة به مُنْذُ أن حكم مصر، وكان قوامها ـ في البداية ـ ثلاثة آلاف وخمسمائة فارس[4]، ومنهم :

1 ـ **فخر الدِّين جهاركس**، مُقدَّم الطائفة الصَّلاحيَّة، وكبيرهم[5]. كان أحد حُجَّاب دمشق في حياة السُّلطان صلاح الدِّين[6]، تُوفِّي عام 607 هـ **1210**م[7]، أو **608** هـ **1211**م في دمشق،

1 ـ مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 87، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 123.
2 ـ ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 149.
3 ـ المنصُوري، ابن نظيف، 9.
4 ـ مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 3 / 310.
5 ـ مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 711 ـ208.
6 ـ المنصُوري، ابن نظيف، 5. وغالباً ما كانت وظيفة حاجب تعني أحد قادة الحامية بدمشق.
7 ـ مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 208.

ودُفن في سفح جبل قاسيون، ويُقال له: جهاركس، أو إياز جركس، وكان يتولَّى بانياس والشقيف وهونين للعادل[1].

2. **فارس الدِّين ميمون القصري**: " منسوب إلى قصر الخُلفاء بمصر، أخذه صلاح الدِّين من هُناك "[2]، وكان يتولَّى نابلس[3]، وكان الملك الظَّاهر بن صلاح الدِّين يُعظِّمه، ويحترمه أكثر من بقيَّة الصَّلاحيَّة، لذلك نقموا على الظَّاهر بسببه[4]. عاش ميمون بقيَّة حياته في بلاط الظَّاهر بحلب، وهُو آخر مَنْ بقي من كبار الصَّلاحيَّة؛ إذْ تُوفِّي عام **610** هـ **1213**م بحلب[5]، وخلَّف أموالاً كثيرة[6].

3. **فخر الدِّين ألطنبا الجحَّاف**[7]: كان من كبار الصَّلاحيَّة المُؤيِّدين للأفضل بن صلاح الدِّين ضدَّ عمِّه العادل[8]، ولكنَّه كان يشكُّ بنوايا الظَّاهر غازي بن صلاح الدِّين، فعمل له دعوة، ولمَّا شرب علم من فلتات لسانه سُوء نيَّته تجاهه، فهرب الجحَّاف من مُعسكر الأفضل والظاهر، وهم يُحاصرون دمشق، وانضمَّ إلى عمِّهما العادل[9].

4. **ألبكي الفارس**: قَبَضَ عليه الأفضل بمصر بعد هرب الصَّلاحيَّة منها، كان جريئاً، له مواقف تُذكَر، فقد واجه الظَّاهر غازي، واتَّهمه بالغدر علانية، وضرب أُسامة الصلاحي الذي خان طائفته، وانضمَّ للعادل[10].

5. **زين الدِّين قراجا**: من مُقدَّمي الصَّلاحيَّة، "كان أميراً أديباً خيِّراً عاقلاً[1]، تُوفِّي بدمشق عام **604** هـ **1207**م، ودُفن بسفح جبل قاسيون"[2].

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 159.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 115.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 88.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 18.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 115.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 220.
7 - المنصُوري، ابن نظيف، 41 ـ20، أصل الاسم تركي من مقطعَيْن، ألتون: الذهب، بغا: ثور. وقد ذكره ابن واصل باسم الجحاد. (مُفرِّج الكُرُوب، 3/ 91).
8 - المنصُوري، ابن نظيف، 14.
9 - المنصُوري، ابن نظيف، 20
10 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 119.

6. **علاء الدِّين شقير:** وكان من الصَّلاحيَّة، الذين قبض عليهم الأفضل بعد هرب زملائهم من مصر[3].

7. **أسد الدِّين قرا سنقر**[4]: ويُقال له تحريفاً سرا سنقر، وكان من حُجَّاب دمشق في عهد صلاح الدِّين[5].

8. **مُبارز الدِّين سنقر:** وكان يُميَّز عن قرا سنقر بإضافة الحلبي إلى اسمه، أو بتسمية سنقر الكبير، وكان ـ أيضاً ـ من حُجَّاب دمشق في عهد صلاح الدِّين، وله ولد عُرف باسم الظهير بن سنقر، تُوفِّي سنقر الكبير الحلبي عام **620 هـ 1223**م[6].

9. **طَغْريل المهراني:** وهُو ـ كما يدلُّ اسمه ـ من الأكراد المهرانية، وقد انسحب من جيش الأفضل خلال حصاره دمشق، والتحق بالعادل[7].

10. **آيبك فطيس:** وهُو من الصَّلاحيَّة، الذين قبض عليهم الأفضل بمصر.

11. **بهرام الرُّومي، وبهرام القارصي:** وهُما من الصَّلاحيَّة، الذين هربوا من عند الأفضل بمصر.

12. **عزّ الدِّين أُسامة الجبلي:** كان من حُجَّاب دمشق أيَّام صلاح الدِّين[8]، "ومن أجلاء الأُمراء الصَّلاحيَّة"[9]. بعد وفاة صلاح الدِّين، وتسلُّم ولده الأفضل حُكْم دمشق، فارقه عزّ الدِّين أُسامة إلى مصر، لأُمُور نقمها عليه، فاستقبله الملك العزيز، وأكرمه، فأخذ أُسامة يُحرِّضه ضدَّ الأفضل[10]، وقرَّب الملك العزيز إليه عزّ الدِّين أُسامة حتَّى أصبح صاحب سرِّه وحاجبه والواسطة بينه وبين عمِّه العادل[11].

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 175.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 121.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 91.
4 - اسم تركي من مقطعَيْن، قره: أسود، سنقر: صقر.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 5.
6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 258.
7 - المنصُوري، ابن نظيف، 9.
8 - المنصُوري، ابن نظيف، 5.
9 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 39.
10 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 39.
11 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 55.

وبعد استتباب الأمر للعادل في الشّام، كان أُسامة من جُملة أُمرائها، فسلَّمه العادل بيروت، فحصَّن قلعتها عام 593 هـ 1197م، وترك بها جماعة من الجُند[1]، فخافوا من الفرنج، وانهزموا، وبقيت القلعة خالية، فأخذها الفرنج، "فأخذ الناس يلعنون أُسامة لتفريطه فيها، قال عماد الدِّين الكاتب:

إن بيع الحُصُون من غير حرب سُنَّة سَنَّها ببيروت سامة[2]

وقال بعضهم والفرنج يُحاصرون حصن تبنين يُذكِّر بما فعله أُسامة:

سلِّم الحصن ما عليك ملامة ما يلام الذي يروم السلامة

فعطاء الحُصُون من غير حرب سُنَّة سَنَّها ببيروت سامة[3]

ولمَّا وصل الأفضل إلى حُكْم مصر، وهرب منها الصَّلاحيَّة، انضمَّ إليهم في القُدْس أُسامة، وكاتبوا العادل[4]. وفي عام 596 هـ 1700م، كان أُسامة أميراً للحجِّ الشَّامي بتكليف من الملك العادل. وفي عام 597 هـ 1701م، التقاه الملك الأفضل وهُو منفي في صرخد، فدعاه لُموافقته، فوافق معه أُسامة، وحلف له، فعرفه الحال، والاتِّفاق بينه وبين جماعته من الصَّلاحيَّة، فكتب أُسامة مُباشرة إلى العادل، فأخذ حذره[5]. وبذلك ؛نجد أن أُسامة قد خرج على طائفة الصَّلاحيَّة التي ينتمي إليها، وخان قضيَّة رفاقه مع الأفضل، وانتقل إلى جانب العادل، ويبدو أن فراسته واستقراءه للأُمُور قد أوحيا له بأنَّ الفوز للعادل.

ولمَّا نَدَبَ العادلُ أُسامة لُمفاوضة الصَّلاحيَّة تصدَّى له ألبكى الفارس الصلاحي، وأغلظ له القول، وضربه[6]، وكادت الصَّلاحيَّة أن تفتك به، لولا أنَّه استجار بميمون القصري، وما ذلك

---

1 -مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 71.

2 -مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 74، رُبَّما كانت ضرورة الشعر في هذا البيت التي حوَّلت اسم أُسامة إلى سامة هي التي جعلت كثير من المُؤرِّخين المُتأخِّرين يُطلقون عليه اسم: سامة.

3 -الروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 233.

4 -مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 92.

5 -مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 119.

6 -مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 119.

إلَّا حنقاً من الصَّلاحيَّة على خيانته لهم، وهُو منهم. وبعد استتباب الأمر للعادل في مصر والشَّام استقرَّ أُسامة في حُكْم قلعة كوكب، وبلدة عجلون[1] التي بنى فيها قلعة[2].

وكان من المفروض أن يكون أُسامة رجل دولة العادل الأوَّل، ولكنَّنا نجد أن سُوء التفاهم قد استفحل بين أُسامة وبين الملك المُعظَّم بن العادل والي دمشق، فترك أُسامة الشَّام عام 607 هـ 1210م، وذهب إلى مصر لعند العادل "ليستريح من معاندة المُعظَّم له"[3]. وبدلاً من تكريمه وحمايته طلب منه العادل تسليم حصني كوكب وعجلون، فرفض أُسامة، ثُمَّ مالبث المُعظَّم أن وصل إلى مصر عام 608 هـ 1211م، فخاف أُسامة، وهرب في البرِّيَّة نحو قلاعه في الشَّام، فتبعه المُعظَّم، وأمسكه، وسجنه في قلعة الكَرَك[4]، وتسلَّم المُعظَّمُ حُصُونَهُ، وخرَّب قلعة كوكب.

الصراع السِّياسي بين الأَسَديَّة والصلاحية:

كانت الطائفة الأَسَديَّة ومَنْ ينضمُّ إليهم من الأكراد يكرهون العادل، لكنْ؛ دعتهم الضرورة إليه[5]، فالصلاحية كانوا مُؤيِّدين للأفضل في صراعه مع عمِّه العادل. ففرضوا ـ بذلك ـ موقفاً على الأَسَديَّة لا يرغبون به، فمن المعروف أن "الفرقة الأَسَديَّة والأكراد كانوا مُحبِّين للملك الأفضل"[6]، ولكنْ؛ في الحقيقة، ونتيجة لاستقراء الأحداث، نجد أنَّهم ـ جميعاً ـ كانت محبَّتهم الأُولى وولاؤهم الأوَّل لأنفسهم، فقد كانوا يميلون حيثُ تميل المصالح والمكاسب، وكان تجمُّعهم ضمن طائفتَيْ الأَسَديَّة والصلاحية لتشكيل قوى كُبْرَى، أوَّلاً للتصدِّي للطائفة المُنافسة، ومن ثَمَّ؛ لإحداث تأثير أقوى، وتحقيق مكاسب أكثر.

فعزّ الدِّين أُسامة رأى أن مصالحه مضمونة أكثر مع العادل، فخرج عن الصَّلاحيَّة، وأيَّد العادل، بل إنَّنا نستطيع أن نقول إنَّه كان سبباً قوياً من أسباب تفوُّق العادل على أبناء أخيه. واشترط

---

1 - مُنتخبات من كتاب التاريخ، ابن أَيُّوب، 311.
2 - تقع عجلون على جبل عوف، نسبة لقبيلة عوف من جرم من قضاعة (إمارة الكَرَك، يُوسُف غوانمة،184).
3 - المنصُوري ، ابن نظيف، 62.
4 - المنصُوري، ابن نظيف،76 ـ68 ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 209.
5 - النُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 6/ 123.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 87.

جهاركس على الأفضل أربعين ألف دينار، قبض منها ثلاثين ألف، ولم يقبل قراجا بأقلَّ من أخذ صرخد من الأفضل ثمناً لتأييدهما له في حربه ضدَّ عمِّه عام **597 هـ 1201**م[1].

ولكنْ؛ من ناحية أُخرى، نجد أن الواقع السِّياسي المُمزَّق من جهة، وشخصيَّات أبناء صلاح الدِّين الذين لم يكن بينهم مَنْ يرقى لخلافة والده من جهة أُخرى، كان لهما دور مُهمّ في تصرُّفات الأَسَديَّة والصلاحية غير المُلتزمة، أو التي تتَّصف بعدم الوفاء. فقد كان الملك العزيز عُثمان بن صلاح الدِّين ضعيف الشخصية، حتَّى تمكَّن جهاركس مُقدَّم الصَّلاحيَّة من السيطرة عليه، فغدا الحاكم الفعلي للدولة، ممَّا أدَّى إلى نقمة الأَسَديَّة، الذين انفصلوا عن جيش العزيز أثناء تحرُّكه نحو الشَّام لأَخْذها من أخيه الأفضل، والتحقوا بدمشق.

وبعد موت العزيز صاحب مصر استدعت الأَسَديَّة الملك الأفضل لحُكْمها، فهرب الصَّلاحيَّة من مصر، وعادوا مع العادل إليها، على أن يكون أتابكاً للمنصُور بن العزيز، فقام الأَسَديَّة بالمُزاودة على الصَّلاحيَّة، وحسَّنوا للعادل عَزْلَ المنصُور، والاستقلال بالأمر تقرُّباً إليه، وإبعاداً للصلاحية، فخلعه العادل، وتسلطن، ولمَّا دعا ميمونُ القصري جماعتَهُ للوُقُوف ضدَّ العادل أجابوه: "إنَّنا قد افتُضحنا بين الناس بأنَّنا نُقيم في كُلّ يوم ملكاً، ونعزل ملكاً، ثُمَّ إلى مَنْ تُسلِّم الأمر؟ الأفضل ما فيه رجاء، وباقي إخوته غير الظَّاهر ليست لهم في النفس عظمة، والظاهر فما يُمكنه أن يُخلي بلاده، ويصير إلينا"[2].

وانتهى أمر الطائفة الصَّلاحيَّة، بموت مُقدَّميها الكبار قراجا وجهاركس وأُسامة، "وصفت حُصُونهم للملك العادل والمُعظَّم من بعده"[3].

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 16.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 117.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 209. وراجع: السُّلُوك، المقريزي، 1/ 293.

المبحث الثَّاني:

أُمراء العَسْكَر

ساهم عدد من قادة الجُند و أُمراء العَسْكَر - بشكل أو بآخر - في العلاقات الدّوليَّة للسَّلطنة الأيُّوبيَّة، وكان من أكثرهم تأثيراً:

1 . أبو الهيجاء السمين:

كُنيته أبو الهيجاء[1]، ولقبه حُسام الدِّين، ولكنَّه اشتُهر بالسمين؛ " لأنَّه كان كثير السمن "[2]، فقد قيل إنَّ بطنه إذا ركب يصل إلى عُنق الفَرَس[3]. وينتسب أبو الهيجاء إلى قبيلة من الأكراد تُسمَّى المهرانية[4]، التي كانت مساكنها بالقُرب من بلدة إربل[5]، واستطاع أبو الهيجاء أن يكون مُقدَّم طائفة الأكراد بكاملها في الجيش الأيُّوبي[6]، وحليفاً قوياً لأُمراء الطائفة الأَسَديَّة[7]، ثُمَّ مُقدَّماً لها[8].

رافق أبو الهيجاء السُّلطانَ صلاح الدِّين في حُروبه مُنْذُ أن دخل الشَّام، وكان معه في الجزيرة عام 578 هـ 1191م، عندما ضمَّ مُعظم مُدُنها وقلاعها إلى دولته. ولَمَّا فتح صلاح الدِّين بلدة: حديثة نصيبين، ولَّى عليها أبو الهيجاء السمين، وتابع تقدُّمه نحو المَوصل، "ولَمَّا عاد إليها لقيه أهلها شاكين من أبي الهيجاء السمين، باكين من ظُلمه، فأنكر عليه ظُلمه، وعزله عنهم، وأخذه معه"[9]، وإنْ دلَّت هذه الحادثة على شيء فإنَّها تدلُّ على أن أبي الهيجاء شخصية عسكريَّة، يعرف بشُؤُون القتال،

---

1 - ويجعلها الراوندي:" أبو الهيج"، وهُو تصحيف، ورُبَّما كان ذلك بفعل الترجمة، راجعْ: راحة الصُّدُور، الراوندي، 540.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 125.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 11، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 141.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 47، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2، 5/ 605.ويقول ابن الأثير إنَّه من الأكراد الحكمية، راجعْ: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 125.
5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 125.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 47.
7 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 605 ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل ، 3/ 47.
8 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 123.
9 - الكامل، ابن الأثير، 11/ 488، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 124.

ولا علاقة له بأُمُور الحُكْم وسياسة الرعية، ويبدو أنَّه تصرَّف مع أهل حديثة نـصيبين كـأنَّهم مجموعـة من الجُند بإمرته، ممَّا دفعهم للتظلُّم إلى السُّلطان، الذي أدرك الخطأ بتعيينه، فعزله، وأعاده إلى صُفُوف الجيش، وهُو مكانه الطبيعي.

ونستنتج أن أبا الهيجاء كان شخصية عسكريَّة قاسية، وهـذا سرُّ نجاحـه في الجـيش وتزعُّمـه لطائفة مُحاربة، أمَّا في الإدارة؛ فالأمر يحتاج لمواهب أُخرى يبدو أنَّها لم تكن متـوفِّرة لـدى أبي الهيجـاء. لكنَّ هذه التجربة الإدارية لن تكون الأخيرة، فبعد موت السُّلطان صلاح الدِّين في دمشق عـام **589** هـ **1193**م، استمرَّ أبو الهيجاء أميراً من أُمراء الجيش، الذي انتقلت قيادته إلى أولاد صـلاح الـدِّين، وانضمَّ أبو الهيجاء إلى الملك العزيز بن صلاح الـدِّين صـاحب مـصر، فقـد بايعـه بعـد وفـاة والـده، وحلف له، ووثق به الملك العزيز، "وما كان يظنُّ أنَّه يحنث في يمينه، وأنَّه تـصدر منـه مخـامره عليـه، واجتمعت عليه الأُمراء الأَسَديَّة، وخوَّفوه من الملك العزيز، ولم يزالوا به حتَّـى أجـابهم إلى مُفارقتـه، والانضمام إلى الملك العادل والملك الأفضل" [1].

دخل أبو الهيجاء بقُوَّة في الصراع على السُّلطة، فقد كاتب الملـك الأفـضل، وطلبـه مـع عمِّـه العادل إلى مصر، بعد أن عمل هُو والأَسَديَّة على تفريق العَسْكَر عن العزيز حتَّى تخلَّى عنه الأُمـراء[2]. ولمَّا تحرَّك الأفضل من قاعدة حُكْمه دمشق، لأخذ مصر من أخيه العزيز ومعه عمّه العـادل عـام **591** هـ وصل الأفضل إلى القُدْس، وكانت مع العزيز، فعزل نائب العزيز فيها عزّ الـدِّين جرديـك، وولَّى عليها أبو الهيجاء السمين[3]. وهذه الولاية لأبي الهيجاء على القُدْس، المدينة ذات الأهمِّيَّـة الاسـتثنائية في الدولة، دليلاً على تقدُّمه وعُلُوِّ منصبه، وفي الحقيقة؛لم نتمكَّن من سماع أيّ أخبار عن كيفية إدارة أبي الهيجاء للقُدْس الشريف، لأنَّه كان مشغولاً عنها بالصراع بين الأفضل والعزيز وعمّهـا، فقـد رافـق جيش الأفضل والعادل إلى مصر، تاركاً القُدْس مع نُوَّابه[4]. وبعد الاتِّفاق بين العـادل والعزيـز عـاد الأفضل من مصر ومعه أبو الهيجاء السمين[5]، الذي بقي في القُدْس مقرّ ولايته الجديدة.

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 47.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 51.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 52.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 52.
5 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 606.

وفي العام 592 هـ 1196م، وبعد فشل الأفضل في أخذ مصر، وعودته إلى دمشق، تحرَّك العزيز من مصر في هجمة مُعاكسة على دمشق، وكانت معه الطائفة الصَّلاحيَّة مُنافسو الأَسَديَّة، "ولمَّا وصل الملك العزيز إلى القُدْس وبه أبو الهيجاء السمين، وكان خائفاً من الملك العزيز الذي "عزم على منازلته"، فطلب أبو الهيجاء تسليم القُدْس "على أن يرحل بماله، فأُجيب إلى ذلك، وتسلَّم الملكُ العزيزُ منه القُدْسَ" [1]، "فرحل أبو الهيجاء السمين والمهرانيَّة والأَسَديَّة، وساروا إلى دمشق"[2].

وفي عام 592 هـ 1196م، تمكَّن العزيز من أخذ دمشق من أخيه الأفضل، وكان ذلك انتصاراً للطائفة الصَّلاحيَّة، التي التفَّت حول العزيز وعمّه العادل، على الطائفة الأَسَديَّة، التي التفَّت حول الأفضل، ويبدو أن أبا الهيجاء عرف أن أيّام عزِّه قد ولَّت مع نَفْي الأفضل إلى صرخد، وقرَّر مُفارقة الشَّام، فتوجَّه شرقاً، وعبر الفُرات نحو المَوصل، وهُناك طلبه ديوان الخلافة إلى بغداد، فسار نحوها، ووصلها في عام 593 هـ 1197.

"قدم حُسام الدِّين أبو الهيجاء السمين بغداد، وخرج الموكب للقائه، ودخل أبو الهيجاء في زيّ عظيم، فرتّب الأطلاب على ترتيب الشَّام، وكان في خدمته عدَّة من الأُمراء، وكان معه ولد أخيه عزّ الدِّين كور الفرس، وجاء هُو بعد الكُلِّ في العدَّة الكاملة والسلاح التّام، وخرج - أيضاً - أهل بغداد للقائه، وكان رأسه صغيراً، وبطنه كبيراً جدَّاً؛ بحيثُ كان بطنه على رقبة البغلة، وكان قد رآه عند الخريبة رجل كواز، فعمل في الساعة كُوزاً من طين على هيئته، وسبقه، فعلَّقه في السُّوق، فلمَّا اجتاز به ضحك، ثُمَّ عمل - بعد ذلك - أهل بغداد كيزاناً سمّوها: أبو الهيجاء السمين على صُورته.

وأكرمه الخليفة، وأقام له الضيافات، ثُمَّ أمره أن يُجرِّد جماعة من أصحابه مع عسكر الخليفة إلى همذان، فجرَّد جماعة، فلمَّا بعدوا عن بغداد، نهبوا خزانة الخليفة، وقتلوا جماعة من عسكره، ومضوا إلى المَوصل والجزيرة، وعاد عسكر الخليفة إلى بغداد، فنقل الخليفةُ أبا الهيجاء إلى دار عند النِّظاميَّة كانت لسُلطان دمشق مُجير الدِّين آبق، ووكّل به. ثُمَّ خلع عليه بعد ذلك" [3]، "وأكْرِم إكراماً كثيراً،

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 70.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 605.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 11، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 141.

ثُمَّ جُهز مُقدَّماً على العساكر البغدادية إلى همذان، فسار إليها" [1]. وكان قد "طلب أمير العلم في بغداد وحسام الجاندار ومعين الكاشي نائب الوزير إلى الخليفة أن يُكلّف أبا الهيجاء السمين بالقُدُوم إلى همذان"[2]، فقد كانت الاضطرابات تعمُّها، والقوى المُتصارعة على السُّلطة فيها كلّ يوم لهم موقعه. فكتب الخليفة إلى أبي الهيجاء "رسالة للسير إلى همذان، وطرد الجمع هُناك"[3]، إن هذا الطلب الشخصي لأبي الهيجاء دليل على شُهرته العسكريَّة الواسعة، التي وصلت بغداد، وجعلت المُتسلِّطين على الخليفة فيها يُقنعونه بطلبه لإنهاء الاضطرابات في همذان. ولم يتخلَّف أبو الهيجاء عن الطلب، وتوجَّه على الفور من بغداد إلى همذان على رأس جيش الخليفة.

إن هذه المُوافقة الفورية لأبي الهيجاء، والتحرُّك الفوري بدُون أيِّ استطلاع للمنطقة التي سيقود العمليات العسكريَّة فيها، أو أيّ دراسة للقوى المُتواجدة هُناك، إن كان ذلك يعتبر دليلاً على ثقة قويَّة بالنفس وشجاعة نادرة، لكنَّه لن يكون تصرُّف قائد مُحنَّك، ولن يكون محمود العواقب.

" فلمَّا وصل أبي الهيجاء مع جُنُوده إلى همذان، حاصروا الملك أوزبك، واستولوا على همذان بلحظة واحدة "[4]، وخمدت الفتنة[5]، وهذا النصر الخاطف لا شكَّ أن عامل المُفاجأة قد لعب فيه دوراً حاسماً، إضافة إلى شجاعة قائد الحملة، لكنَّ الأُمُور بخواتيمها، فقد "هجم مياجق على همذان، واشتبك مع أبي الهيج السمين، ودارت الحَرْب مُدَّة يومَيْن، وهرب أبو الهيج"[6]، ونتيجة لهذه الهزيمة، التي كلَّفت ديوان الخلافة مبالغ كبيرة مع عدد لا يُستهان به من جندها، ساء موقف أبي الهيجاء تجاه الديوان والخليفة، "فخاف أبو الهيجاء من الديوان، ولم يُمكنه المقام، فعاد يُريد إربل؛ لأنَّه من بلدها، فتُوفِّي قبل وُصُوله"[7]، في عام **594** هـ **1198**م، "وكان أميراً شُجاعاً مقداماً عارفاً مُتجمِّلاً سيوساً"[8]. ولم يختر أبو الهيجاء لنهايته سوى بلاده ومسقط رأسه، ومع كُلِّ الأمجاد،

---

1 - الكامل، ابن الأثير، 12/ 125.
2 - راحة الصُّدُور، الراوندي، 540.
3 - راحة الصُّدُور، الراوندي، 540.
4 - راحة الصُّدُور، الراوندي، 540.
5 - راحة الصُّدُور، الراوندي، 541.
6 - راحة الصُّدُور، الراوندي، 542.
7 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 125.
8 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 145.

التي كانت له في الشّام، فلم يقصدها؛ لأنّه يُدرك أن قاعدته السّياسيّة فيها قد انتهت مع نهاية الملك الأفضل، الذي كان يُمثّل الظلّ الباهت لأبيه السُّلطان صلاح الدِّين.

2. ابن المشطوب:

هُو عماد الدِّين أبو العبَّاس أحمد بن سيف الدِّين علي بن أحمد بن أبي الهيجاء بن عبد الله بن أبي الخليل مرزبان الهكاري[1]، فهُو كُردي من الأكراد الهكارية[2]، "كان أميراً كبيراً وافر الحُرْمة عند المُلوك، وكان عالي الهمَّة، غزير الجُود، واسع الكرم، شُجاعاً، أبيّ النَّفْس، تهابه المُلُوك، له وقائع مشهورة في الخُرُوج عليهم"، ويُعدُّ واحداً من أبرز أُمراء السُّلطان صلاح الدِّين[3]، كما كان سيِّد الأكراد الهكارية، وزعيماً مُطاعاً لهم، حتَّى لُقِّب بملك الهكارية[4]. وقد ولد ابن المشطوب سنة **575** هـ **1179**م؛ تقديراً[5].

والمشطوب هُو والده أبو الحُسَيْن سيف الدِّين علي، لشطبة كانت بوجهه، "وكان أميراً شُجاعاً، صابراً في الحُرُوب، مُطاعاً في قبيلته، دخل مع أسد الدِّين شيركوه إلى مصر في المرَّات الثلاث، ثُمَّ عاد بعد سلطنة صلاح الدِّين إلى البلاد الشَّاميَّة "[6]، فأصبح من أكابر أُمراء السُّلطان صلاح الدِّين، "وكان يُسمَّى في الدولة الصَّلاحيَّة بالأمير الكبير، ولم يُشاركه أحد في هذا الاسم"، وقد رتَّبه صلاح الدِّين في عكَّا لَمَّا خاف عليها من الفرنج مع بهاء الدِّين قراقوش، وبعد استيلاء الفرنج عليها تخلَّص من الأَسْر، والتحق بالسُّلطان، ولكنَّه تُوفِّي في العام نفسه **588** هـ **1197**م، وصُلِّي عليه في المسجد الأقصى[7].

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 720.

2 - الهكارية: جبال فوق المَوصل (المُنتظم، ابن الجوزي، 17 / 7). - ويقول ياقوت: بلدة وناحية في جزيرة ابن عمر، يسكنها أكراد يُقال لهم هكارية. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: الهكارية).

3 - دُرَر العُقُود، المقريزي، 2/ 343، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 584، ووفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/ 180، والمواعظ والاعتبار، المقريزي، 1/ 405، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 120، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 16، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 314.

4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 117، وكَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 198.

5 - وفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/ 180.

6 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 117.

7 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 117، ووفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/ 180.

ظهر ابن المشطوب على ساحة الأحداث السِّياسيَّة، مثل مُعظم أُمراء العَسْكَر، بعد وفاة السُّلطان، وبدء الخلافات بين أولاده وعمّهم العادل على اقتسام التركة. كان الأمير عماد الدِّين أحمد بن المشطوب قد ورث إقطاع ثلثَيْ نابلس، وذلك بعد وفاة والده الأمير سيف الدِّين عليّ، الذي كان له إقطاع نابلس بكاملها، لكنْ؛ بعد وفاته قام السُّلطان صلاح الدِّين برَصْد ثُلث إقطاعها لمصالح القُدْس الشريف، وأقطعَ الباقي إلى عماد الدِّين أحمد[1]، وبعد وفاة السُّلطان صلاح الدِّين كانت نابلس تتبع مملكة الملك الأفضل، الذي استقلَّ بدمشق.

ويبدو أن ابن المشطوب بدأ مُغامراته السِّياسيَّة باكراً، فعندما كان الملك العزيز يقود حملة مصر عام 594 هـ 1198م، لنجدة عمّه السُّلطان العادل بمُواجهة الفرنج المُحاصرين لحصن تبنين، بلغ العزيز أن مجموعة من أُمراء الجُند بينهم ابن المشطوب قد عزموا على قتله، ممَّا اضطرَّه إلى العودة مُسرعاً نحو مصر[2]. وسكت عليها الملك العزيز، حتَّى سنحت له فُرصة الانتقام من ابن المشطوب، فعندما وقع الخلاف بين الملك العزيز وأخيه الأفضل صاحب دمشق قام العزيز بإقطاع نابلس، وهي إقطاع ابن المشطوب كما أنَّها تتبع الأفضل صاحب دمشق، فامتنع ابن المشطوب من تسليمها لمقطعها الجديد، "فوقع الشَّرُّ بين الأفضل والعزيز"[3]، ولمَّا انتهى الصراع بين الأخوَيْن، بطرد الأفضل من دمشق، فضَّل ابن المشطوب الالتحاق بخدمة العادل، لذلك كان ضمن قُوَّاته على حصار ماردين عام 595 هـ 1199م، ولمَّا اضطرَّ العادل لترك الحصار بسبب توجُّهه إلى مصر ترك ابنه الكامل لمُتابعة الحصار، ورتَّب معه عدداً من الأُمراء من بينهم ابن المشطوب[4]، ولمَّا فشل الحصار، وعاد الجيش، رجع ابن المشطوب ليُشارك ـ من جديد ـ في الأحداث السِّياسيَّة والعسكريَّة بين أبناء صلاح الدِّين وعمِّهم العادل.

فبعد وفاة السُّلطان صلاح الدِّين نجد أن ولاء ابن المشطوب للملك الأفضل هُو امتداد لولائه لوالده السُّلطان، ولذلك شارك ابن المشطوب مع ميمون القصري وقراجا بالاجتماع الذي

1 - التاريخ المُختصر، ابن أبي الدم، 524، والسُّلوك، المقريزي، 1/ 314.
2 - من عقد الجمان، العيني، أحداث عام 594 هـ الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكّار، 59/ 12.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 602.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 8.

عُقد عام 596 هـ 1200م، واتَّفقوا فيه وحلفوا على تولية الأفضل في مصر[1]. ورُبَّما كان لـدَعْم ابـن المشطوب للأفضل دور حاسم، وذلك لأهمِّيَّة موقع وقُـوَّة ابـن المـشطوب في الدولـة، التـي تجـزَّأت، وانقسم أمراؤها شيعاً وأحزاباً.

وعندما سار الأفضل عام 597 هـ 1201م، بقُوَّاته لأخذ دمشق، قاعدته القديمـة مـن عمِّـه العادل، كان ابن المشطوب يُقاتل بكُلِّ حمية واندفاع على باب الحديد[2]. ولَمَّا شعر الأفـضل بتغـيُّر نيـة أخيه وشريكه في حصار دمشق الظَّاهر غازي، اتَّصل سرَّاً بعمِّه العادل، ويبـدو أن ذلـك كـان بتـدبير ومشورة ابن المشطوب، فهُو الوحيد الذي حضر اجتماعهم السِّرِّيّ قُرب دمشق؛ حيثُ اتَّفقا على إنهاء الحصار مُقابل إقطاعات في الجزيرة يُعطيها العادل لابن أخيه الأفضل[3]. ولكنَّ الغريب أن نجد ابـن المشطوب بعد فشل حصار دمشق يسير مع الظَّاهر غازي، الذي يبـدو أنَّـه استماله، فقـد وعـده بـأنْ يُقطعه منبجَ وقلعةَ نجم، ولَمَّا كانت منبج لا تخضع لسُلطان الظَّاهر، فقـد سـيَّر ابـن المـشطوب نُوَّابـه لاستلام قلعة نجم، فما سلَّموها إليهم[4].

وفي عام 598 هـ 1202م، بعد وُصُول ابن المشطوب مع الظَّاهر إلى حلب، أخذ يُطالبه بتنفيذ وعده بإقطاع منبج، والقيام "بحصارها، وأخذها له"[5]، ويبدو أن الظَّاهر كان في موقف حرج أمام وعده، فهُو يرغب في كسب ابن المشطوب إلى جانبه في الصراع القريـب المُتوقَّـع ضـدَّ عمِّـه العـادل؛ لأنَّه يعرف أن ابن المشطوب من الذين يُعتمَد عليهم في هـذا الـصراع، ولا يُريـد ـ في الوقـت نفسه ـ أن يُحكِّمه في شيء من البلاد، رُبَّما لشُكُوك في نفسه، أو لخوفـه مـن شخـصية ابـن المـشطوب القويَّـة. ولكنْ؛ في النتيجة، نفَّذ الظَّاهر وعده لابن المشطوب، وأخذ منبج، وأقطعها له[6]، لكنَّ شكَّ الظَّـاهر بابن المشطوب لم يتبدَّد، فلخوفه من أن يتمرَّد في منبج، ويعـصى عليـه في قلعتهـا، قـام بهَـدْم القلعـة،

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 13.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 18.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 17.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 20 ـ 21.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 21.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 131.

وتخريب أسوارها، قبل أن يُسلِّمها إليه[1]. ويُقال إن الملك الظَّاهر ـ بعد تسليمه منبج لابن المشطوب ـ قد بلغه أنَّه ينوي العصيان، فسار إليه بالعسكر، وهدم قلعة منبج، وسُورَهَا، فغضب ابن المشطوب، وترك خدمة الظَّاهر، وسار نحو الشَّرق[2].

وعندما سوَّى الظَّاهر أُمُوره مع عمِّه العادل، واصطلحا، وتعاهدا، كان من جُملة الأُمُور التي اتَّفقا عليها أن يطرد الظَّاهر ابن المشطوب، وحلف أن لا يستخدمه أبداً. وقصد ابنُ المشطوب الملكَ العادلَ، فما قبله، ولكنَّه سمح لابنه الأوحد أيُّوب صاحب مَيَّافارقين أن يستخدمه عنده، فما وقع بينهما اتِّفاق، فقرَّبه الأشرف بن العادل، وأحسن إليه، وأرضاه[3].

ويبدو أن الملك الأشرف رغب باستخدام ابن المشطوب؛ لأنَّه كان يستعدُّ للتحرُّك في الجزيرة، فَحَمْلَتُهُ على ماردين كانت وشيكة، لذلك؛ أرسل في عام **599** هـ **1203**م، ابن المشطوب رسولاً إلى الملك الأفضل في سُمَيساط، ليدعوه إلى الحُضُور بقُوَّاته للمُشاركة في الحملة على ماردين، وشارك ابن المشطوب مع الأشرف في الحملة، فأقطعه الأشرف رأس عين الخابور[4] مكافأة على جُهُوده ظاهراً، وبالتَّأكيد؛ كان للأشرف من وراء ذلك هدف خفيّ، فالكُلُّ يعرف أن ولاء ابن المشطوب القديم كان للأفضل، ورأس عين كانت من جُملة البُلدان التي أعطيت للأفضل في التسوية بينه وبين عمِّه، ثُمَّ أخذت منه، فأراد الأشرف الإيقاع بين ابن المشطوب وبين الأفضل بمنحه بلدة يعتقد الأفضل أنَّها من حُقُوقه المسلوبة.

ولَمَّا تحركت قُوَّات أتابك المَوصل نحو الجزيرة للتصدِّي للأشرف، أرسل ابن المشطوب إلى والده العادل يستشيره فيما يفعل[5]، وأعاد العادل ابن المشطوب بسُرعة إلى ولده الأشرف مشيراً بعدم المُجازفة بقتال الأتابك، ولكن المعركة وقعت في العام نفسه **599** هـ **1203**م، ولابُدَّ أن ابن المشطوب كان أحد أبطالها، ولحقت بجيش الأتابك هزيمة شنيعة[6].

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 101.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 602.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 25.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 38 ـ 39.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 40.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 40 ـ 41.

وفي عام 601 هـ 1205م بعد انتصار الأشرف "خاف الظَّاهر غازي من قُوَّة عمِّه في الشَّام، فسيَّر إلى البلاد، وأفسد عسكراً مثل ابن المشطوب"[1]. ولكنْ؛ سُرعان ما عادت الأُمُور إلى نصابها، فلم نُلاحظ أيَّ تحرُّك لابن المشطوب، وإن كان هذا يدلُّ على استعداده الدائم للعمل ضدَّ العادل، وربَّما الخُرُوج على أيِّ نظام أيُّوبي بشكل عامٍّ، بعدما رأى من صراعهم على الحُكْم.

وفي عام 605 هـ 1208م، "مات الأمير جناح الدِّين الهكاري أخو المشطوب، وتغيَّرت أحوال عماد الدِّين المشطوب"[2]، ولابُدَّ أنَّه كان عَوْناً كبيراً له حتَّى تغيَّرت أحواله بعد موته، ولكن ذلك لم يُسبِّب تغيُّر موقفه من الدولة، أو تغيُّر موقف الدولة منه، فبعد مُدَّة بسيطة كان ابن المشطوب يُشارك في حملة العادل على سنجار، وحصارها، "فلمَّا أخذ العادل بلاد الخابور أعطى إلى ابن المشطوب بلدة المجدل"[3].

مُحاولة ابن المشطوب خلع السُّلطان الكامل:

نزل الفرنج على دمياط لأَخْذها، من أجل السيطرة على مصر، في أواخر أيَّام الملك العادل، وكان نائبه في مصر ابنه الملك الكامل، الذي سارع بجمع العَسْكَر، ونزل مُقابل الفرنج لدفعهم عن دمياط، وكان العادل في الشَّام يجمع الجُيُوش، ويُسيِّرها إلى مصر، ولكنَّه تُوفِّي فجأة قُرب دمشق عام 615 هـ 1218م. ولمَّا وصلت أخبار وفاته إلى مُعسكر الكامل عند دمياط كان ابن المشطوب أحد كبار أُمراء العَسْكَر، فاعتقد أن الفُرصة قد لاحت له لتحقيق مشروع رُبَّما كان يحلم به من سنوات طويلة، وهُو الوُصُول إلى قمَّة السُّلطة في الدولة، فعندما بلغه موت العادل عزم على خلع الملك الكامل من السَّلطنة وتولية أخيه الفائز إبراهيم[4].

وكان ابن المشطوب يعتمد على كونه "من أَجَلِّ الأُمراء الأكابر، وله لفيف من الأكراد الهكارية ينقادون إليه، ويطيعونه"[5]، واتَّفق مع مجموعة من الأُمراء[6]، منهم الأمير عزّ الدِّين

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 52.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 57 ، ولا ندري هل هُو عمُّه أم أخوه؟ فأخو المشطوب تعني أنَّه عمّه، ثُمَّ يعود لينعت عماد الدِّين بالمشطوب، فربما كان يقصد أن المُتوفَّى أخوه.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 60.
4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 120. والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 314.
5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 314.
6 - المواعظ والاعتبار، المقريزي، 1/ 405.

الحميدي، والأمير أسد الدِّين الهكاري، والأمير مُجاهد الدِّين[1]، كذلك أفسد قلوب جماعة من الجُند[2]، "وكان عسكر مصر أكثره من الأكراد وابن المشطوب ملكهم"[3]، فاجتمع مع مَنْ وافقه، وقال لهم عن الملك الكامل: "هذا صبيّ خفيف، ولا يأتينا منه خير"[4]، "فلمَّا بلغ الكامل دخل عليهم، فإذْ هُم مُجتمعون وبين أيديهم المُصحف، وهم يحلفون لأخيه الفائز، فعندما رأوه، تفرَّقوا، فخشي على نفسه منهم، فخرج"[5].

مشروع ابن المشطوب:

1 ـ فضَّل ابن المشطوب سلوكَ التآمر ليحقِّق هدفه بالوُصُول إلى السُّلطة، وبالتَّأكيد؛ كان يُقَدِّر أنَّه مع شخصية قويَّة كالكامل لن يكون إلَّا واحداً من الأُمراء في أحسن الأحوال، لذلك فكَّر بتبديل السُّلطان، واختار أخاه الفائز لتقديره ـ أيضاً ـ أنَّه سيكون أسهل قياداً، ومطيَّة مُناسبة لحُكْم الدولة بواسطته، أو حتَّى بدونه بعد مُدَّة، فهدفه من العملية هُو أن "يصير له التحكُّم في المملكة"[6].

2 ـ اختار ابنُ المشطوب أسوأ الأوقات بالنِّسبَة للدولة وللأُمَّة، فقد مات السُّلطان العادل، والفرنج يرابطون بقُوَّات عظيمة أمام دمياط، وبالتَّأكيد؛ كقائد عسكري كان يعرف معنى الانقلاب السِّياسي الذي كان ينوي تنفيذه في مثل تلك الظُّرُوف، وانعكاسه على الموقف العسكري، وهذا ما تمَّ فعلاً، مع أن المُؤامرة قد انكشفت للكامل الذي هرب من المُعسكر إلى إشموم طناح، لأنَّه لم يعد يعرف مَنْ معه ومَنْ هُو ضدَّه من العَسْكَر، فلمَّا أصبح الجيش، ولم يجدوا الملك الكامل، تركوا مُعسكرهم في العادلية بما فيه، ولحقوا بالكامل، ممَّا مكَّن الفرنج من أخذ المُعسكر بما فيه، والعُبُور إلى ضفَّة دمياط، ومُحاصرتها من البرِّ والبحر، ولو تابع الكامل هربه من مصر لكانت بكاملها لقمة سائغة للفرنج[7].

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 314.
2 - مفرج الكروب، ابن واصل، 4/ 16.
3 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك 7/ 198.
4 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 158.
5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 314.
6 - السُّلُوك، المقريزي، 314، والمواعظ والاعتبار، المقريزي، 1/ 405.
7 - مُفرِّج الكرُوب، ابن واصل، 4/ 16.

3 ـ إن التصرُّف غير المُتوقَّع من الكامل، بدُخُولـه المُفـاجئ عـلى المتـآمرين وهـم يتعاهـدون، ويُقسمون، ثُمَّ مُغادرته المُفاجئة للمُعسكر، أربكَ ابنَ المـشطوب وجماعتـه، وأفـشل الخُطَّـة بكاملهـا، ولكن الذي قلب ميزان القوى، ومنع من تجديد مُحاولة ابن المشطوب مرَّة أُخرى، هُـو وُصُـول الملـك المُعظَّم إلى أخيه الكامل في مُعسكره الجديد بإشموم طناح.

نفي ابن المشطوب من مصر:

علم الملك المُعظَّم من أخيه الكامل ما يُحاوله ابـن المـشطوب، فتكفـل لـه بتـسوية الموضـوع، وحلف المُعظَّم أنْ لا ينزل عن فرسه حتَّى ينفيه من الديار المصريَّة[1]، وركـب المُعظَّـم إلى خيمـة ابـن المشطوب، فذُهل، "وأدهشه وُقُـوف المُعظَّـم ببابـه"[2]، "فاسـتدعاه ليركـب معـه، ويـسايره"[3]، "فاستمهله، حتَّى يلبس خُفَّيْه وثيابه، فلم يُمهله، فركب معه وهُو آمن"[4]، "وسـايره إلى أن خـرج من المُعسكر"[5]، وكان المُعظَّم قد أعدَّ خمسين مملوكاً من خيرة مماليكه، ووضع عليهم عـشرة مـن آل أيُّوب، على أن يلحقوا به إذا خرج من المُعسكر، فلمَّا وصلوا إليـه التفـت المُعظَّـم إلى ابـن المـشطوب، وقال له: "يا عماد الدِّين، هذه الديار المصريَّة لنا أو لـك؟ فقـال: الله، الله، يـا خونـد، أنـا مملـوك بنـي أيُّوب، فقال المُعظَّم: نحنُ ما عُدنا نريـدكَ، تـبلى بغيرنـا، ولا تـبلى بنـا"[6]، ثُـمَّ سـلَّمه إلى أصـحابه، وأمرهم بإخراجه من مصر، ونفيه إلى الشَّام[7]"فما وجد سبيلاً للامتنـاع، ولا قـدر عـلى المُدافعـة، " فساروا به إلى الشَّام[8].

كانت خُطَّة المُعظَّم في غاية البساطة، مع أنَّها تحتاج إلى الكثير من الجُرأة، فقُـوَّة ابـن المـشطوب تكمن بكونه بين أتباعه ومُؤيِّديه في المُعسكر، ومتى عُزل عنهم لا يُمكنه إلَّا التسليم. ويبدو أن المُعظَّم قد فضَّل نَفْيَهُ على قَتْله، مع أنَّه كان يُمكنه ذلك بعد إخراجه من المُعسكر، لأن القتـل لـن يُـبرِّر أمـام

---

1 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 198.
2 - دُرَر العُقُود، المقريزي، 2/ 343.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 18.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 315.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 18.
6 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 199.
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 18.
8 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 315.

مُؤيِّديه، الذين قد يقومون بعمل ما، في وقت لا يحتمل أي خلاف في صُفُوف جيش يواجه الأعداء. أمَّا نفيه؛ فقد يكون له ألف تبرير، وربّما تنكشف الحقيقة تكون الأُمُور قد هدأت.

ابن المشطوب في الشَّام:

كانت أوَّل محطَّة لابن المشطوب في الشَّام هي حماة، ولابُدَّ أنَّه أمضى وقته في الطريق وهُو يفكِّر في الانتقام، وفي مشروع بديل عن مشروعه المُخفق للسيطرة على مملكة مصر. وبالفعل؛ نستطيع أن نرى فيما قام به ابن المشطوب ملامح مشروع حاول تنفيذه في الشَّام أوَّلاً، وفي الجزيرة ثانياً.

فعندما وصل ابن المشطوب إلى حماة كان مُجرَّداً من جميع ماله، سوى نفقة الطريق التي أعطاها له الملك المُعظَّم، ومن جميع رجاله سوى أربعة مماليك[1]. ويبدو أنَّ قَصْدَ حماة كان اختياراً من ابن المشطوب، بدليل نتائج توقُّفه فيها، فعند وُصُوله إلى حماة تلقَّاه صاحبها المنصُور، فأكرمه، وقام بضيافته[2]، ممَّا يجعلنا نُرجِّح أن هُناك مُراسلات سابقة بينهما، أو على الأقلِّ أن المنصُور طَلَبَهُ إليه وهُو في الطريق من مصر، ووعده بالدَّعم والنصرة. ولم يُضيِّع ابن المشطوب وقته؛ إذْ سُرعان ما أخذ بجَمْع الرجال في حماة، وكان من الطبيعي أن تنضمَّ إليه جُمُوع الأكراد فيها، وفي ما جاورها من البُلدان، واستخدم غيرهم من المُرتزقة الذين وصفهم ابن العديم بأنَّهم "أرباب الفساد"[3]، حتَّى صار جمعه حوالي ثمانمائة فارس، وألفا راجل[4].

وبالتَّأكيد؛ كان ابن المشطوب ـ خلال عملية جمع الرجال ـ يُتابع مُشاوراته مع الملك المنصُور صاحب حماة، الذي "ساعده بالمال والرجال على ذلك"[5]. ولكنْ؛ كان لكُلٍّ من الرجلَيْن أهدافه المُختلفة، فابن المشطوب كان هدفه الواضح هُو تشكيل إمارة خاصَّة لنفسه، تعفيه من تحكُّم مُلُوك بني أيُّوب، وذلك بأنْ "يتغلَّب على بعض الأطراف"[6].

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 77.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 29.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 649.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 29 ، بينما يقول ابن نظيف إنَّه رحل عن حماة بسبعمائة فارس فقط. (المنصُوري، 77).
5 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 649.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 29.

أمّا المنصُور؛ فيبدو أنّه كان يرغب في زعزعة مُلك أبناء العادل، وتحريض الأفضل، ودعمه لاستعادة البلاد، أو بعضها منها، وبالتّأكيد؛ فإن مصلحته في هذه العملية هي كسر طوق أبناء العادل، الذي يزداد إحكاماً حوله من الجنوب والشمال. وبحال نجاح الأفضل وابن المشطوب فستكون له اليد الطولى عليهما، ويكون قد ضمن دوراً أقوى لمملكة حماة في الصراعات السِّياسيَّة والعسكريَّة التي قدَّر أنّها ستقوم بعد وفاة العادل، ومع اختلاف الأهداف البعيدة بين المنصُور وابن المشطوب فقد تمَّ الاتّفاق على الشكل الأوّلي للتّحرُّك.

فبعد المُساهمة الكبيرة للمنصُور في إعداد القُوّة العسكريَّة التي ستُرافق ابن المشطوب لابُدَّ أنّه قد وجَّه، أو شجَّع على الأقلّ، انضمام قاضي حماة الشَّيخ نجم الدِّين أبو البركات بن الشَّيخ شرف الدِّين بن عصرون إلى حاشية ابن المشطوب[1]، حتّى يُشكِّل الجانب الإداري والغطاء الشرعي في مُرافقته لهذا المُغامر، والتي كان المنصُور يُرجِّح نجاحها، فالشيخ نجم الدِّين هُو الأداة التي أمل أن تكون فعَّالة للسيطرة على نزوات ابن المشطوب، وتوجُّهه وُفق رغبة المنصُور، ويدلُّنا على ذلك ما شرطه الشَّيخ نجم الدِّين على ابن المشطوب، الذي وعده بأنْ "يُحكِّمه فيما يملكه من البلاد، وأنّه لا يخرج عن رأيه"[2]، فالشيخ شرف الدِّين سيكون قاضي الإمارة المُنتظَرَة، ومُستشاراً، ووزيراً ناصحاً، ومُوجِّهاً لابن المشطوب، وهذا أمر شائع في الممالك الأيُّوبيَّة، وربَّما كان أبرز أمثلته القاضي الفاضل في دولة السُّلطان صلاح الدِّين.

ولابُدَّ أن الحليفَيْن قد اتَّصلا بالملك الأفضل، الذي شرط المنصُور على ابن المشطوب أن تكون الحَرَكَة لصالحه، وباسمه، وطلب منه "أن يمضي بمَنْ جمعه من العساكر إلى الأفضل"[3]. وكان الأفضل في هذا الوقت قد اتّفق مع سُلطان سلاجقة الرُّوم على أن يحتلا حلب، وتُسلَّم إلى الأفضل، وبلاد الأشرف، ويأخذها السُّلطان الرُّومي.

ونستنتج من مُجريات الأحداث أن الأفضل وسُلطان الرُّوم قد راسلا المنصُور، وربَّما اتّفقا معه، وتحالفوا، وأن دعم المنصُور لابن المشطوب جاء في سياق هذا الحلف، فهُو - رَسْميّاً - يضمن

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 29، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 650.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 29.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 249.

الحذر بعدم مُشاركته المُباشرة ضدَّ مملكة حلب والملك الأشرف، فالنتائج غير مضمونة، وبالوقت نفسه؛ يُقدِّم الدعم السِّرِّيَّ للأفضل وحليفه الرُّومي بتجهيز ابن المشطوب ماديّاً وعسكريّاً، وتوجيهه نحوهما، فعندما طلب المنصُور من ابن المشطوب التّوجُّه نحو الأفضل أبلغه ـ صراحة ـ أنَّه هُو وسُلطان الرُّوم كيكاوس سيقومان معه، ويُساعدانه[1].

ويبدو أن هذا المشروع قد طرق أسماع الملك الأشرف، الذي سارع إلى مُراسلة ابن المشطوب لإفساد حَرَكَته، التي قدر أنّها ستكون مُؤثِّرة جدّاً، وخاصَّة ضمن الأحداث المتلاحقة ضدَّ أبناء العادل، فالفرنج يُطبقون على دمياط، وسلاجقة الرُّوم يُهاجمون الجزيرة مع حليفهم الأفضل، فكتب الأشرف إلى ابن المشطوب وهُو بحماة يعده بإقطاع يُرضيه، فامتنع عن القبول، لأن الاتِّفاق تمَّ بينه وبين الأفضل وكيكاوس على قتال الأشرف، وانتزاع البلاد منه، "وكانت مُراسلته لهما قد سبقت عرض الأشرف"[2]. لقد جاء عرض الأشرف مُتأخِّراً، لكنَّه ـ بالتَّأكيد ـ لاقى هوىً في نفس ابن المشطوب، لأن الإمارة تأتيه بالراحة، ولكن المُشكلة هي اتِّفاقه المُسبق مع أعداء الأشرف، وخاصَّة كونه في حماة، وتحت يد صاحبها، الذي لا يميل لهكذا اتِّفاق، فقد دفع الأموال، وقدَّم الرجال لتحقيق مشروع ضدَّ الأشرف.

وفي عام 616 هـ 1219م، تحرَّك ابن المشطوب مع عساكره من حماة، وقد أعلن أن "وُجهته نحو الأفضل في سُمَيساط، ليتَّفق معه ومع سُلطان الرُّوم كيكاوس على قتال الأشرف، وانتزاع البلاد منه"[3]، ولكن ابن المشطوب بدلاً من أن يتحرَّك بسرِّيَّة، ويعبر بلاد حلب بسُرعة لينضمَّ إلى حُلفائه الأفضل وكيكاوس، نجد أنَّه بحَرَكَة رعناء لا تدلُّ على أيِّ حنكة عسكريَّة، يخترق عَلَناً ـ وبصُورة استعراضية ـ أراضي حلب، مُجتازاً قنسرين باتِّجاه نهر الساجور؛ حيثُ وجد خيل جند حلب ترعى في المروج، فاستاقها، وأقام عند الساجور[4] بدلاً من أن يتحرَّك بسُرعة شمالاً نحو سُمَيساط.

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 649.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 29.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 29.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 30.

وهُنا؛ لابُدَّ أن نتساءل، هل ابن المشطوب بهذه السذاجة العسكريَّة التي ظهر بها؟ إن كان الجواب بالنفي، فلابُدَّ أن الأمر مرسوم ومُدبَّر، وأنَّه يتحرَّك وُفقاً لخُطَّة حاكها بسرِّيَّة تامَّة مع الأشرف.

وجاء تصرُّف الأشرف ليُفسِّر سبب حَرَكَة ابن المشطوب غير المُتوقَّعة، فنظراً لتفرُّق عساكر الأشرف في السُّهُول والمروج لرَعْي خُيُولهم، كما هي العادة في كلّ ربيع، نفترض أنَّه كان في قلَّة من جُنده، "فأركب الأشرف مَنْ بحضرته من العَسْكَر خلف ابن المشطوب، فقبضوا عليه على الساجور، ومعه الشَّيخ ابن أبي عصرون، وساقوهما إلى الأشرف، فعفا عنهما، وأقطع عماد الدِّين رأس عين"[1]، وأعطاه زليبا ملكاً[2]. إن ما قام به الأشرف يدلُّ على أن حَرَكَة ابن المشطوب للاستيلاء على خيل حلب هي مسرحية لتبرير ما يليها، فالمُراسلات بين الأشرف وبين ابن المشطوب كُلِّلَتْ بالنجاح قبل أن يغادر حماة، واتَّفقا فيها على إخراج الأمر بهذا الشكل، فابن المشطوب خرج لينضمَّ لحُلفائه، لا ليقوم بنهب الخُيُول كفعل بعض اللُّصُوص، ثُمَّ إنَّه حتَّى لم يتصرَّف كاللصوص الذين يهربون بالغنيمة بأقصى سُرعة، فقد أقام ينتظر على ضفاف الساجور.

وماذا فعل الفُرسان والمشاة الذين كانوا معه، والذين يُشكِّلون قوام جيش لا بأس به في المعايير العسكريَّة لذلك الزَّمان؟ لم نسمع عن أيِّ مُقاومة لهم مُقابل شرذمة من جُنُود الأشرف جُمعت على عجل، وتمكَّنت من القبض على قائدهم ابن المشطوب ومُستشاره الشَّيخ نجم الدِّين بسُهُولة فائقة، ثُمَّ يأتي العفو السريع للأشرف عن ابن المشطوب، ويزيده إقطاعاً مُهمَّاً هو رأس عين، كُلُّ ذلك يزيدنا يقيناً أن كلَّ شيء كان مدروساً ومُخطَّطاً ومُتَّفقاً عليه، وبأنَّ جُهُود الملك المنصُور صاحب حماة قد باءت بالفشل، ولابُدَّ أنَّه تحسَّر كثيراً على ما دفعه لابن المشطوب، ورُبَّما علَّل نفسه بفُرصة أُخرى.

وهُنا؛ لابُدَّ من مُلاحظة ما يلي:

كان ابن المشطوب ـ وإنْ جاء عابراً ـ جُزءاً من حَرَكَة كيكاوس لاحتلال الجزيرة وحلب، مُوظِّفاً الملك الأفضل كواجهة شرعية لأخذ البلاد باسمه، وبالتَّأكيد؛ كان ابن المشطوب يعي دوره في العملية، ويأمل بالكسب الكبير منها، فالوُعُود كانت تنهال عليه بلا حساب، لكنْ؛ لماذا تجاوب مع

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 30، راجعْ أيضاً: زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 650.

2 - المنصُوري، ابن نظيف، 77. الإقطاع يُعطى مُقابل تقديم عدد مُحدَّد من المُقاتلين عند الحاجة، ويُمكن استرداده، أمَّا المُلك؛ فلا يُمكن نزعه من صاحبه إلَّا بالحَرْب.

الأشرف، وترك حُلفاء أقوياء، تُناسبه تطلُّعاتهم ضدَّ أبناء العادل، يبدو أن غدر كيكاوس بالأفضل قد بلغ ابن المشطوب، إن لم تكن هزيمته أمام الأشرف هي السبب المُباشر في هذا التحوُّل بموقف ابن المشطوب، فاستجاب لدعوة الأشرف، واتَّفق معه على إخراج عملية الانضمام إليه بشكل يحفظ له ماء وجهه، وينفي عنه صفة الغدر أمام صاحب حماة أوَّلاً، وأمام الأفضل وصاحب الرُّوم ثانياً.

ابن المشطوب في الجزيرة:

لم يطلْ استقرار ابن المشطوب في إقطاعه، ولتطلُّعه إلى تحقيق مركز أكبر، أو "لما في نفسه من الغدر والفساد"[1]، قام في عام **616** هـ **1219**م، بالخُرُوج على الأشرف، وانضمَّ إلى أعدائه، الذين شكَّلوا حلفاً ضدَّه. فقد اتَّفق ابن المشطوب مع صاحب ماردين، وهُو من الأعداء الدائمين للأشرف، من أجل الخُرُوج على الملك الأشرف[2]، وسلَّمه ابن المشطوب رأس عين، فعوَّضه عنها بإقطاع أرجيش، وبقيت زليبا ملكاً له[3].

وفي عام **617** هـ **1220**م، راسل مُظفَّرُ الدِّين كوكبوري صاحبُ إربل مُلُوكَ الأطراف يستميلهم إليه ضدَّ الملك الأشرف وحليفه بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل، فأجابه ابن المشطوب[4]، "وجمع جمعاً كثيراً من الأكراد والمُفسدين"[5]، فطلب منه كوكبوري التحرُّك إلى ماردين للاجتماع مع صاحبها ومع صاحب آمد، لمنع الأشرف من العُبُور نحو المَوصل لمُساعدتها ضدَّ هُجُوم كوكبوري عليها[6]، فكان اللقاء عند دنيسر قُرب ماردين. ولكنَّ تحرُّك الأشرف السِّياسي كان كفيلاً بزعزعة الحلف قبل تحرُّكه العسكري، فقد اتَّصل بصاحب آمد، وهُو أكثر الحُلفاء عرضة للإغراء، وأعطاه بلد حاني وجبل جور، ووعده بتسليم دارا له، فترك الحُلفاء، وانضمَّ للأشرف، فانحلَّ الحلف، واستتبَّ الأمر للأشرف من جديد[7].

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 70.

2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 651، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، / 121.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 78.

4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 242.

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 70.

6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 442.

7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 71، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 442.

لكنَّ ابن المشطوب أصرَّ على عصيانه، فقاد عسكره، واتَّجه صوب نصيبين في جمع قليل، على أمل أن يحقِّق نصراً بمُفرده، ولكنَّه واجه هزيمةً غير مُتوقَّعة من والي نصيبين ابن صبره، فتفرَّق جنده، وهرب. وعندما كان يسير فارَّاً على طُرُق سنجار خرج صاحبها الأتابكي، وكان مُوافقاً للأشرف، فقبض على ابن المشطوب[1]. ولكن الغريب في الأمر أن أفكار ابن المشطوب لاقت قبولاً عند صاحب سنجار، فقد استطاع إقناعه بالخُرُوج على الأشرف، ولمَّا طلبه الأشرف منه امتنع من تسليمه، وأطلقه[2]، فعاد ابن المشطوب من جديد حُرَّاً، "فجمع معه مَنْ يُريد الفساد"[3]، ويبدو أنَّهم كانوا كُثُراً وجاهزين دوماً للانضمام لكُلِّ خارج على النظام، فسار بهم نحو المَوصل، وأخذ بنهب بلادها، وعاد إلى سنجار، ثُمَّ خرج منها ثانية للإغارة، ويبدو أن صاحب المَوصل كان قد استعدَّ له، وجهَّز عسكراً هزموه، فهرب ابن المشطوب ليتحصَّن في تلِّ أعفر، فحاصروه، فحضر لُؤلُؤ، وعرض عليه النُّزُول بالأمان، فنزل، وأكرمه لُؤلُؤ، وأخذه إلى المَوصل؛ حيثُ كان موقف العامَّة مُفاجئاً، فعندما دخل ابن المشطوب إلى المَوصل، "فرح الناس به، ودعوا له لمحبَّتهم له"[4]، إن هذه المحبَّة تُحيِّر الباحث، فرجل مثل ابن المشطوب خارج على القانون أغار على بلاد المَوصل، ونهبها، وقاتل عسكرها، وتهدَّدها، فلماذا تُحبُّه العامَّة؟!

وهُنا؛ لا نجد إلَّا التخمين، فلا نعتقد أن خُرُوجه على النظام هُو السبب، ولا تحدِّيه للمُلُوك الذين هُم - غالباً - مكروهون من العامَّة، ولكنْ؛ على الغالب، إن الصفات التي تمتَّع ابن المشطوب، وما شاع عنه من بطولة وشجاعة وذكْر مُغامراته العسكريَّة، التي من المُحتمل أنَّها قد تضخَّمت عدَّة مرَّات، هي سبب هذه المشاعر من الناس نحوه.

ولكن بدر الدِّين لُؤلُؤ لم يقدِّر شعور الناس، ولم يهتمّ به على الإطلاق، بل كانت حساباته السِّياسيَّة هي الأهمّ، فقد غدر بابن المشطوب، وألقى القبض عليه، واعتقله، ورُبَّما كان ذلك بطلب من الأشرف الذي أرسل الحاجب عليّ، وهُو من أكبر أصحابه، ليطلبه من بدر الدِّين، ويأتيه به،

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 442، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 71 - 72.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 72.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 343.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 72.

فسلّمه لُؤلُؤ إلى الحاجب، الذي حمله إلى الأشرف في حَرّان[1]، فـأمر الأشرف بإلقائـه في جُـبٍّ بقلعـة حَرّان عام 617 هـ 1220م[2]. وبقي ابن المشطوب في سجنه الرهيب مُدّة عـامين، حتّـى تُـوفّي عـام 619 هـ 1222م[3] من القمل، ومن الجوع، ومن ضغط القيود عليه[4].

وكان موت ابن المشطوب بهذه الصُّورة المُرعبة هي نتيجة لأفعاله بحسب رأي بعض المُؤرّخين، فأبو الفداء يرى أنّه "لقي بغيه، وخُرُوجه مرّة بعد أُخرى"[5]، وابن واصل يقـول: "لقّـاه الله عاقبة ما فعله بالمُسلمين في دمياط، وسعيه الرديء، إلى أن كـادت ديـار مـصر تُنـزَع مـن أيـدي المُسلمين"[6]. ودُفن ابن المشطوب في حَرّان، حتّى " بنت له ابنته قبّـة عـلى بـاب مدينـة رأس عـين، ونقلته من حَرّان إليها"[7].

أمّا الشّيخ نجم الدِّين أبو البركات بن شرف الدِّين بن عصرون، قاضي حماة السّابق، ومُرافق ابن المشطوب، فقد عانى من الاعتقال حتّى مات ابن المشطوب، فشفع فيه لدى الملك الأشرف، فخر الدِّين بن شيخ الشُّيُوخ أثناء سفارته للملك الكامل، فقبلت شفاعته، وأطلقه من سجنه[8].

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 76.

2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 125، ووفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/ 180،وذَيْل الرّوضَتَيْن، أبو شامة، 121، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 76.

3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 333، ووفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/ 180، والمُختصر، أبو الفداء،3/ 125.

4 - ذَيْل الرّوضَتَيْن، أبو شامة،121.

5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 125.

6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 76.

7 - وفيات الأعيان، ابن خلكان، 1/ 180.

8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 76 ـ كان الشّيخ أبو البركات نجم الدِّين بن شرف الدِّين بن عصرون عـمّ والـدة فخر الدِّين بن شيخ الشُّيُوخ، فقد تزوّج والد فخر الدِّين الشّيخ صدر الدِّين مُحمّد ابن عماد الدِّين عُمر بـن حمويـه بابنـة شهاب الدِّين بن شرف الدِّين بن عصرون، وأنجبت له فخر الدِّين وإخوته. ووالدتهم هي ابنة أخ لنجم الدِّين صـاحب ابن المشطوب، وهي التي أرضعت الملك الكامل، فكان ذلك سبب تقدُّم أولادها عنده. راجـعْ: دُرَر العقـود الفريـدة، المقريزي 2/ 313، وكَنز الدُّرر، ابن آيبك، 1/ 193.

المبحث الثّالث:

رجال الدولة

كان هُناك عدد من الرجال العظام من خارج البيت ومماليكه اعتمد عليهم الأيُّوبيُّون، منهم رجال دين، أو وزراء، ومنهم الحُجّاب، أو الخُدَّام، وكان لكُلٍّ من هؤلاء الرجال علاقة بواحد من مُلُوك الأيُّوبيّة، أو أكثر، وقد ترتَّب على هذه العلاقة مواقف سياسيَّة وعسكريَّة في حياة منطقة معيَّنة، أو الدولة بشكل عامٍّ.

أولاد شيخ الشُّيُوخ:

مع أن الدِّين الإسلامي لم ينصّ على وُجُود مراتب دينيَّة، فإنّنا نجد أن بعض الوظائف الدِّينيَّة قد فرضت نفسها مع الزمن، ومن حاجة الناس إليها. وبذلك اكتسبت كلمة الشَّيخ معنى دينياً؛ حيثُ أصبحت تُطلَق على الفُقهاء، أو القُضاة، بمعنى صاحب العلم، ولكنَّها بعد انتشار الطُّرُق الصُّوفيَّة اكتسبت معنى جديداً، فالشيخ هُو رئيس وقائد الطريقة الصُّوفيَّة، وله أتباع ومُريدون وتلاميذ. ثُمَّ وُجد للطُّرُق الصُّوفيَّة منصب شيخ الشُّيُوخ، "الذي وُجد - أوّل الأمر - في بغداد"[1]، وأُطلق على مَنْ يتولَّى نظر الزوايا والخانقاوات[2] الصُّوفيَّة في البلاد.

وأوّل مَنْ تولَّى مشيخة شُيُوخ الصُّوفيَّة في الشَّام هُو الشَّيخ عماد الدِّين أبي الفتح عُمر بن علي ابن مُحمَّد بن حمويه، الذي "قدم إلى الشَّام في الأيّام النورية، ففوّض إليه الشهيد نُور الدِّين مشيخة الصُّوفيَّة بالشام، وجعل إليه نظر الخانكاهات بها"[3]، وكان نُور الدِّين يحترمه، ويحبُّه4، والشيخ عماد الدِّين هُو "ابن الفقيه أصيل خراسان أبي الحُسَيْن عليّ ابن الإمام الزاهد علم الزهّاد أبو عبد الله مُحمَّد بن حمويه الحمشوني الجويني الشافعي"[5]، فأبناء شيخ الشُّيُوخ من آل حمويه أو الجويني هُم من

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 20/ 26.

2 - الزاوية أو الخانقاه، ويُقال لها الخانكاه: هي مكان مُمارسة الصُّوفيَّة لطقوسهم التعبُّدية.

3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 20/ 338، وكذلك انظر : مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 257، وكَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 193.

4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار،20/ 240.

5 - دُرَر العُقُود، المقريزي، 2/ 313.

أُصُول فارسية، انتهجت طريق العلم والفقه والصُّوفيَّة، وموطنهم القديم "من بحر آباد من رستاق جوين"[1]، ويُقال إن حمويه بن علي جدّهم "من ولد رزم بن يونان أحد قُوَّاد كسرى أنو شروان، وتولَّى حمويه قيادة جيش نصر بن نوح بن سامان، ودبَّر دولته"[2].

بقي الشَّيخ عماد الدِّين عُمر في مشيخة شُيُوخ الصُّوفيَّة حتَّى دُخُول صلاح الدِّين دمشق، فأقرَّه عليها حتَّى تُوفِّي عام 577 هـ1181م، فولَّى صلاح الدِّين صدر الدِّين مُحمَّد بن عماد الدِّين مكان والده في المشيخة بدمشق[3]. وكان فقيهاً فاضلاً وصوفياً صالحاً[4]، وتزوَّج صدر الدِّين مُحمَّد بابنة القاضي شهاب الدِّين بن شرف الدِّين بن أبي عصرون، فأنجبت له عشرة أولاد[5].

وبعد وفاة السُّلطان صلاح الدِّين وتولِّي أخيه الملك العادل في مصر والشَّام "كان صدر الدِّين جليلاً مُعظَّماً عند العادل"[6]، وكان هُو الرسول المُعتمَد للملك العادل إلى دار الخلافة، فقد ترسَّل عنه إلى الخليفة النَّاصر أكثر من مرَّة[7]، في مهمَّات الأُمُور[8]. وامتدَّت مشيخة صدر الدِّين ليُصبح شيخ الشُّيُوخ في مصر والشَّام[9]، وولاه العادل المناصب الشرعية في الجزيرة، ثُمَّ استدعاه من دمشق إلى مصر ليُولِّيه التدريس بالمدرسة الشافعية فيها[10]، وليتولَّى مشيخة خانقاه الصُّوفيَّة سعيد السعداء[11].

---

1 - ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، 3/ 453.

2 - خُطط الآثار، المقريزي، 2/ 346.

3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 240، وخطط الآثار، المقريزي، 2/ 346، وكَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 193، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 257.

4 - شفاء القُلُوب، الحنبلي، 300.

5 - خُطط الآثار، المقريزي، 2/ 346، وكَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 194، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 257.

6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 257.

7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 257.

8 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 1/ 193، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 257.

9 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 91.

10 - الروضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 19/ 477.

11 - سعيد السُّعداء: خانقاه للصُّوفيَّة في شارع الجمالية في القاهرة، كانت داراً لسعيد السُّعداء الأُستاذ قنبر أحد الأُستاذَيْن المُحنَّكَيْن في قصر الخليفة المُستنصر الفاطمي، قتله الخليفة المُستنصر، ورمى برأسه من القصر عام 544 هـ. وكانت الدار تقع مُقابل دار الوزارة، ولمَّا تولَّى صلاح الدِّين حُكْمَ مصر عمل هذه الدار برسم الصُّوفيَّة الواردين من البلاد، ووقفها عليهم، فعُرِفَتْ بالخانقاه الصَّلاحيَّة، أو النَّاصريَّة، وكان يُنعَتُ شيخُهَا بشيخ الشُّيُوخ، ولا يتولَّى

وعندما وُلد الكامل مُحمَّد بن الملك العادل **573** هـ**1177**م، كانت ولادته قريبة من ولادة أحد أبناء صدر الدِّين، وللعلاقة الوثيقة بين صدر الدِّين والملك العادل، قامت زوجة صدر الدِّين بنت أبي عصرون بإرضاع الملك الكامل[1]، وهذه عادة كانت شائعة بين الأسر حتَّى زمن ليس ببعيد، وذلك في حال نقص حليب الأمّ، أو لزيادة الاهتمام بالمولود، وبهذه الحالة؛ يُصبح الرضيع أخاً لكُلِّ أولاد المرأة المُرضعة، وهكذا أصبح الكامل أخاً بالرضاع لأولاد صدر الدِّين[2]، لذلك؛ تقدَّموا في دولة الكامل، وكانت لهم إمرة السيف والقلم[3].

ولمَّا نزل الفرنج على دمياط، وأخذوا بُرج السلسلة عام **615** هـ **1218**م، أرسل الكامل نائب مصر إلى أبيه العادل في الشَّام شيخ الشُّيُوخ صدر الدِّين رسولاً لطلب النجدات[4]. وكذلك أرسله الكامل عام **617** هـ عندما احتلَّ الفرنج دمياط إلى الخليفة النَّاصر يستنجده، فمرض صدر الدِّين، ومات في المَوصل "وعُمره ثلاث وسبعون سنة "[5]، ويقول ابن واصل إن مهمَّته كانت إلى بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل6، ورُبَّما وفاته في المَوصل هي التي أوهمت ابن واصل.

وبعد وفاة صدر الدِّين بدأ نجم أولاده بالصُّعُود، وأخذت أسماؤهم تظهر في دولة الكامل، وهُم:

1- **عماد الدِّين عُمر**[7]: (581-636 هـ 1185-1239م):

وُلد عماد الدِّين بدمشق عام **581** هـ **1185**م، وعندما استدعى الملك العادل والده صدر الدِّين من دمشق إلى مصر، رافقته أُسرته، وأولاده، فنشأ عماد الدِّين في مصر[8]، وكان مُقرَّباً للملك

مشيختها إلَّا الأكابر والأعيان. (المواعظ والاعتبار، المقريزي، 3 / 401)، وقد تحوَّلت - فيما بعد - إلى مسجد سعيد السُّعداء (النُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 4/ 8 - 50 - 148 وخُطط الآثار، المقريزي، 2/ 415).

1 - لبعد تاريخ ولادة الكامل عن تاريخ ولادة أيّ من أولاد صدر الدِّين الذُّكُور الأربعة، فلابُدَّ أن أُمَّهم أرضعته مع إحدى بناتها.

2 - خُطط الآثار، المقريزي، 2/ 346.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 257.

4 - النُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 6/ 222.

5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 240.

6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 91.

7 - ترجمته في: شذرات الذهب 5/ 181، والتَّكملة لوفيات النَّقَلَة، المنذري، 3/ 506.

8 - دُرَر العُقُود، المقريزي، 2/ 313.

الكامل، حتّى غدا رجل دولته الأوّل، فاستخدمه في وظيفة أبيه صدر الدِّين، فكان رسوله إلى الخليفة في بغداد. وفي عام 633 هـ 1236م "جمع له رئاسة العَلَم والقلم، ولم يُجمع ذلك لأحد قبله"[1]، وتنقّل عماد الدِّين في عدّة ولايات، ثُمَّ تولّى مشيخة الشُّيُوخ بالخانقاه الصَّلاحيّة سعيد السعداء[2]، وتولّى التدريس في المدرسة النَّاصريَّة.

وكان عماد الدِّين مع الملك الكامل في حملته على دمشق. ولمَّا تُوفِّي الكامل أقام عمادُ الدِّين الملكُ الجوادُ يُونُسَ بن ممدود، ابن أخي الكامل نائباً عن الملك العادل بن الكامل الذي تولّى السَّلطنة بمصر بعد وفاة والده، ثُمَّ عاد إلى مصر، فوجد الأمر على غير ما يُحبُّ[3]، فالملك العادل قد قبض على أخيه فخر الدِّين يُوسُف، ولمَّا قابل عمادُ الدِّين الملكَ العادلَ حمَّله مسؤولية تسليم دمشق للجواد، وَهَمَّ بالقبض عليه، فهوّن الأمر على العادل، وتعهّد له بإحضار الجواد إلى القاهرة، فسمح له بالسير إلى دمشق، ولمَّا وصلها وهُو مُطمئنٌّ إلى سُلطته على الجواد، طلب منه تسليم دمشق، ومُرافقته إلى القاهرة، "وماطله الجواد، فأحضر الوُلاة الشادين، وأبلغهم عزل العادل للجواد عن دمشق"[4]، والتفت عماد الدِّين إلى الملك المُجاهد صاحب حمص حليف الجواد القوي[5]، والذي ما إنْ سمع بقصد عماد الدِّين دمشق حتّى سبقه إليها[6]، داعماً للجواد[7]، وأقنعه بالتماسك والتحالف معه ضدَّ ابنَيْ الكامل الصَّالح أيُّوب صاحب الجزيرة، والعادل الثَّاني صاحب مصر[8]، وتمكّن المُجاهد من السيطرة على الجواد الذي "بقي لا يفعل شيئاً إلّا برأي صاحب حمص"[9].

وأراد عماد الدِّين الضغط على المُجاهد، فطلب من الجواد إخراجه من دمشق، وطالب المُجاهد بدفع ما كان قد عرضه من أموال على الملك الكامل قبل وفاته[10]، واعتمد عماد الدِّين على

---

1 - خُطط الآثار، المقريزي، 2/ 346.

2 - الخانقاه الصَّلاحيَّة: هي خانقاه سعيد السعداء التي سبق تعريفها.

3 - شفاء القُلُوب، الحنبلي، 389.

4 - دُرر العُقُود، المقريزي، 2/ 313.

5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 276.

6 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 721.

7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 195.

8 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 631-640/ 20.

9 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 173.

10 - التاريخ الصالحي، ابن واصل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكّار، 21/ 604.

قُوَّة العادل الثَّاني سُلطان مصر، الذي اعتبر نفسه نائباً عنه في دمشق، وعلى ضعف الملك الجواد، لكنَّه لم يأخذ بالحسبان ردَّة فعل المُجاهد سيِّد دمشق الفعلي، والذي سيفعل المُستحيل للحفاظ على نُفُوذه فيها، فطلب المُجاهد من عماد الدِّين، مُلَوِّحاً بالوُعُود والوعيد، أن يكتب للعادل الثَّاني ينصحه بترك دمشق، فراوغ عماد الدِّين، وقال: إنَّه سيكتب بعد أن يُصلِّي خارج دمشق، فأدرك المُجاهد أنَّه سيهرب إلى بعلبك[1]، فقرَّر المُجاهد مع الجواد قتل عماد الدِّين ابن الشَّيخ اغتيالاً، ونفَّذا ذلك. وهُناك خلاف على شخصية مُنفِّذ هذا الاغتيال السِّياسي، فابن تغري بردي يقول: إن المُجاهد "أمر بعض نصارى قارا بقتله"[2]، بينما يقول ابن العميد والمقريزي: إنَّهم اتَّفقوا مع نُوَّاب الإسماعيليَّة، فقتلوه مُقابل مال[3]، بينما لا يُحدِّد أبو شامة هُويَّة مَنْ قتله[4]، وقد نُفِّذَتْ عملية الاغتيال داخل قلعة دمشق عام 636 هـ 1239م، وكان ممَّنْ حضر الصلاة عليه المُؤرِّخ أبو شامة[5].

2. مُعين الدِّين حسن (588، 643 هـ 1192، 1246م)[6]:

كان مُعين الدِّين وريث المشيخة أوَّل الأمر، فقد ولي منصب أباه في مشيخة الشُّيُوخ بمصر، ثُمَّ استخدمه الملك الكامل في الرسالة إلى الخليفة في بغداد، وأقامه ـ بعدها ـ نائباً للوزارة في مصر، حتَّى مات الكامل عام 635 هـ 1238م. وفي عام 637 هـ 1240م لمَّا استتبَّ الأمر للصَّالح أيُّوب في سلطنة مصر "استوزر الصَّالح مُعين الدِّين الحَسَن، ومكَّنه وفوَّض إليه تدبير المملكة، فقام بوزارة الصَّالح أحسن قيام"[7]. ثُمَّ قدَّم الصَّالح أيُّوب مُعين الدِّين على العَسْكَر[8]، فبعد معركة غزَّة وانتصار الخَوَارزميَّة حُلفاء أيُّوب على الفرنج وحُلفائهم أُمراء الشَّام، وجَّه أيُّوب جُيُوش مصر بقيادة

---

1 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 631 ـ 640/ 20.
2 - النُّجوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 314.
3 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 24 ودُرَر العُقُود، المقريزي، 2/ 315.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 329. راجعْ مناقشة ذلك في مبحث العلاقات مع الإسماعيليَّة.
5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 329.
6 - ترجمته في: ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 48، والعبر، الذهبي، 5/ 175، ودول الإسلام، القدسي، 2/ 112، و البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 171، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 352، وشذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 218، ومرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 755.
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 276.
8 - خُطط الآثار، المقريزي، 2/ 346.

مُعين الدِّين لإنهاء المعارضة في الشَّام. وفي عام 642 هـ 1244م خرج مُعين الدِّين بالعسكر من مصر "ومعه الدهليز السُّلطاني والخزائن، وأقامه السُّلطان مقام نفسه، وأذن له أن يجلس على راس السماط، ويركب كعادة المُلُوك، وأن يقف الطواشي الاستدار على خدمته على السماط، ويقف أمير جاندار والحجاب بين يدَيْه كعادتهم في خدمة السُّلطان، وكتب للخَوَارزميَّة ليسيروا في خدمته"[1].

إن هذا التكريم من الصَّالح أيُّوب لمُعين الدِّين يدلُّ على مدى اعتماده عليه، وثقته به، ومُساعدةً وتسهيلاً لمهمّته في الشَّام، التي كان أيُّوب يُدرك ـ تماماً ـ مدى صُعُوبتها، فالشام بكاملها من المُلُوك الأيُّوبيَّة حتَّى الفرنج مُتَّحدون جميعاً ضدَّه، لكنَّ الصَّالح أحسن استغلال نصره في غزَّة عليهم، وأسرع لجني ثمار هذا النصر على يد مُعين الدِّين.

وصل مُعين الدِّين إلى دمشق، وألقى عليها الحصار، فأرسل إليه الصَّالح إسماعيل "سجّادة وإبريقاً وعكّازاً، وقال له: اشتغالكَ بهذا أَوْلَى، فأرسل له طبلاً وزمراً وغلالة حرير"[2]، وكانت رسالة إسماعيل تقول: إنكَ فقيه تهتمُّ بأُمُور الصلاة والوضوء، وشيخاً يحتاج لعكّاز، والحَرْب ليست لكَ. فردَّ على الصَّالح إسماعيل يقول برسالته: إنكَ لا تُحسن إلَّا عمل المغاني، ولبس الحرير، ولن يكون لكَ مصلحة في القتال. وبالفعل؛ أثبتت الحوادث أن مُعين الدِّين رجل سيف وقلم، فقد تمكَّن من فرض الاستسلام على دمشق، ودخلها عام 643 هـ 1246م[3]. وبعد دُخُول دمشق، أقدم مُعين الدِّين على القيام بعمل سياسي سيكون له نتائج كبيرة، فقد منع الخَوَارزميَّة، أصحاب نصر غزَّة ومُساعديه في حصار دمشق، من دُخُول المدينة التي كانوا يُمنّون نُفُوسهم بأسلابها، ولمُكافأتهم على أتعابهم أقطعهم الساحل الشَّامي بمناشير كَتَبَهَا لهم[4].

لم يمنع مُعين الدِّين الخَوَارزميَّة من خراب دمشق، ولم يحمها منهم فقط، بل حافظ على الشَّام لملكه أيُّوب، وتصرَّف بمسؤولية القائد، كما أن اختياره الساحل لإقطاع الخَوَارزميَّة كان على ما يبدو يقصد منه عدَّة أُمُور، رُبَّما كان منها: تقديره لقُوَّة الخَوَارزميَّة وقُدرتهم على حماية الساحل، الذي استعاد

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 420.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 421.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 344.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 423.

الأيُّوبيُّون أجزاء مُهمَّة منه، لكنَّها لم تعد لحالتها السابقة، لتكرار هجمات الفرنج عليها، فهي مكشوفة أمام البحر. وبطبيعة الحال؛ لم يُعجب ذلك الخَوَارزميَّة، فشقّوا عصا الطاعة، فهم ليسوا رجال إعمار وزرع أو استقرار، ولا يناسبهم إلّا مكاسب النهب السريعة، فارتدُّوا على دمشق يُحاصرونها.

وأثناء الحصار تُوفِّي مُعين الدِّين ابن الشَّيخ في دمشق عام **643** هـ **1246**م "عن ستٍّ وخمسين سنة "[1]، "وكان بين بُلُوغ أُمنيَّته وحُلُول منيَّته أربعة أشهر ونصف، وكان جواداً كريماً "[2]، وصُلِّي عليه بجامع دمشق، ودُفن بجبل قاسيون، عند أخيه عماد الدِّين عمر[3].

3. كمال الدِّين أحمد (639/584 هـ 1188، 1241م):

عندما أخذ الكامل بلاد الجزيرة كلَّف كمال الدِّين بالنيابة فيها، ثُمَّ طلبه إلى مصر لتولِّي تدريس الفقه الشافعي في مدارسها[4]. وبقي كمال الدِّين على منزلته ومكانته في أيَّام العادل الثَّاني بن الكامل[5]. وفي عهد الملك الصَّالح أيُّوب قدَّمه على الجُيُوش غير مرَّة[6].

وفي عام **639** هـ **1241**م، جعله الصَّالح أيُّوب مُقدَّم حملته على الشَّام لقتال النَّاصر داود صاحب الكَرَك وحليفه الملك الجواد صاحب دمشق، فاشتبك معهم قُرب القُدْس، فهزموه، وأسروه، وقام النَّاصر داود بإطلاق سراحه، فتوجَّه إلى مصر، ولمَّا بلغ غزَّة تُوفِّي فيها، وكان ذلك في العام نفسه **639** هـ **1241**م[7]، وبنى أخوه مُعين الدِّين على قبره هُناك قبَّة[8].

---

1 - شذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 218.

2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 200.

3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 349.

4 - خُطط الآثار، المقريزي، 2/ 347.

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 276.

6 - خُطط الآثار، المقريزي، 2/ 347.

7- واختلف في سنة وفاته بين 639 هـ و640 هـ، فهي عند أبي شامة (ذَيْل الرَّوضَتَيْن، 7)، وابن تغري بردي (النُّجُوم الزَّاهرَة، 7) في عام 640 هـ. بينما يقول ابن واصل (مُفرِّج الكُرُوب، 7)، والمقريزي (السُّلُوك، 7)، إن وفاته كانت عام 639 هـ.

8 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 345، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 300 ـ 301.

4. فخر الدِّين يُوسُف[1]:

كانت ولادة يُوسُف بدمشق بعد الثمانين وخمسمائة 580 هـ 1184م [2]، وقُتل عام 647 هـ 1249م شهيداً بدمياط. بعد تولِّي الكامل سلطنة مصر، أمَّره، وجعله نديماً له، وبعثه رسولاً إلى الفرنج، وإلى إخوته في الشَّام، وإلى الخليفة في بغداد، وسلَّمه قيادة الجيش وتدبير المملكة[3]، فخلع العمامة وهي شعار الفُقهاء، ولبس الشربوش وهُو لباس الأُمراء[4]، وكان "عظيماً في الدولة الكاملية" [5]. ويبدو أن ثقة الكامل بفخر الدِّين كانت بلا حُدُود، واعتماده عليه كان كبيراً، فقد كان رسوله الخاصّ إلى الإمبراطُور فريدريك الثَّاني، وهُو الذي أشرف على تنفيذ اتِّفاقية تسليم القُدْس لفريدريك، ورافق الإمبراطُور في زيارته لها، ممَّا جعل صداقته مع الإمبراطُور تتعمَّق إلى درجة تبادل الرسائل معه[6]، ويُقال بأنَّ فريدريك قد منحه رُتبة فارس[7].

واستمرَّ على وضعه المُميَّز في الدولة أيَّام العادل الثَّاني ابن الكامل فقد "كان الأمير فخر الدِّين ابن شيخ الشُّيُوخ من أجَلِّ الأُمراء، وأعظمهم عند العادل، ويقتاد به جماعة من الأُمراء والجُند"[8]، وكان رئيساً مُحتشماً[9]، لكنَّه واجه محنة شديدة بعد مقتل أخيه عماد الدِّين بدمشق. ورُبَّما اعتبر فخر الدِّين أن السُّلطان العادل الثَّاني مسؤولاً عن مقتل أخيه عماد الدِّين بإرساله إلى حتفه في دمشق، فأراد الانتقام منه، ورُبَّما كان هذا سبباً مُباشراً حرَّك لدى فخر الدِّين نيَّة مبيَّتة ضدَّ السَّلطنة الأيُّوبيَّة، التي كان فخر الدِّين من أكثر الناس معرفة بالفساد، الذي أصبح عليه مُلُوكها وأُمراؤها.

---

1 - ترجمته في : تلخيص مجمع الآداب، ابن الفوطي، 3/ 453.

2 - شذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 238.

3 - خُطط الآثار، المقريزي، 2/ 346.

4 - الشربوش: قلنسوة طويلة مثلثة الشكل، كان يستعمله أرباب السيف من الأُمراء (المُعجم المفصل بأسماء الملابس عند العَرَب، رينهارت دوزي، ترجمة د. أكرم فاضل)، والكلمة معربة عن سربوس الفارسية، وتعني غطاء الرأس. (الألفاظ الفارسية المعرَّبة، السَّيِّد أدي شير، مادَّة: سربوس).

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 276.

6 - المنصُوري، ابن نظيف، 190 ـ 194 ـ يُورد ابن نظيف نصَّ رسالتَيْن من فريدريك إلى فخر الدِّين.

7 - سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 36 / 82.

8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 215.

9 - شذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 238 ـ 239.

وبعد أن سيطر الصَّالح أيُّوب بن الكامل على دمشق في تحدٍّ كبير لسلطنة أخيه العادل في مصر، وجد فخر الدِّين الطريق لإزاحة العادل من السَّلطنة، وبالتَّأكيد؛ كان فخر الدِّين يعتقد أن مصالحه مع أيُّوب ستكون أفضل ممَّا هي عليه مع أخيه العادل، فكاتبه، "واستحثَّه على سُرعة القُدوم إلى مصر، واطَّلع النَّاصر داود على ذلك، فأطلع العادل، فقبض عليه، واعتقله في قلعة الجبل[1]، عام 641 هـ 1243م، وأقام فخر الدِّين في سجنه ثلاث سنين؛ حيثُ "لاقى شدائداً وضرّاً"[2]، "وما كان يُمكنه النوم من القمل"[3].

ولمَّا دخل الصَّالح أيُّوب مصر بعد أن قبض على أخيه العادل أخرج فخر الدِّين من سجنه، فغادر السجن في موكب عظيم "اجتمع له خلق من الرعية، ودعوا له، لأنَّه كان مُحبَّباً إلى الناس لكرمه وحُسن سيرته، فبلغ الصَّالح ذلك، فاستشعر منه، ولم يُعجبه، وأمره بلزوم بيته، فلزم بيته غير مضيق عليه"[4].

إن ما جرى، من سجن فخر الدِّين بسبب أيُّوب، ثُمَّ الإقامة الجبرية بأمر من أيُّوب، يدل على علو همة هذا الأمير الذي وجد نفسه قادراً على التدخل في أمر السَّلطنة والصراع عليها، فإنْ صحَّ اتِّصاله بأيُّوب[5] فهُو دليل على وُجود مشروع لديه لدُخول لعبة السُّلطة، ودعمه لوُجود سُلطان يناسب مصالحه ضدَّ سُلطان لا يناسبها، ولم يكن فخر الدِّين لينسى بناء القاعدة الشَّعْبيَّة لمشروعه المُستقبلي، فالأعداد الكبيرة من الناس التي احتفلت يوم خُرُوجه من السجن كانت من الضخامة والفاعلية؛ بحيثُ أخافت السُّلطان الجديد أيُّوب، فألزمه بيته حتَّى عام 643 هـ 1246م، حيثُ جاءته الضارَّة النافعة، فقد تُوفِّي أخوه مُعين الدِّين، ولم يبقَ من أولاد الشَّيخ غير فخر الدِّين يُوسُف، "فأفرج عنه السُّلطان أيُّوب، وخلع عليه، وأمَّره، وقدَّمه، وبالغ في الإحسان إليه"[6].

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 276.
2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 200.
3 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 755، وتاريخ الإسلام، الذهبي، 641 ـ 650، أحداث عام 643.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 276
5 - وهذا أمر مُرجَّح، لأن خُرُوج أيُّوب من دمشق نحو مصر قد تمَّ بدعوة من أُمرائها، ولابُدَّ أن فخر الدِّين كان أبلغهم تأثيراً في قرار التحرُّك نحو مصر قبل أن يثبت أيُّوب أقدامه في الشَّام.
6 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 424.

وتابع فخر الدِّين مُباشرة مهمَّة أخيه المُتوفَّى، فقاد العَسْكَر نحو الشَّام، وحاصر النَّاصر داود، أحد أطراف التحالف مع الفرنج ضدَّ الصَّالح أيُّوب، حتَّى أجابه إلى ما طلبه منه[1]. وفي عام 645 هـ 1247م، حاصر طبرية، وفتحها، ثُمَّ "حاصر عسقلان، وقاتل عليها قتالاً عظيماً، وفتحها"[2]، وكانتا قد سُلِّمتا للفرنج عام 641 هـ 1243[3].

وفي سنة 646 هـ 1257م، هاجم سُلطان حلب النَّاصر الثَّاني حمص، وتمكَّن من إجبار صاحبها الأشرف مُوسى حليف النَّاصر أيُّوب على التسليم[4]. كان النَّاصر أيُّوب مشغولاً بمرضه عن إنجاد حليفه ملك حمص[5]، لكنَّه مع ما هُو عليه من الضعف تحرَّك إلى الشَّام، وأقام بدمشق، وأرسل جيشه مع نائبه[6] في دمشق فخر الدِّين بن الشَّيخ لاستنقاذ حمص من يد الحلبيين[7]، فأحكم فخر الدِّين حصار حمص، ورماها بالمجانيق[8]، ولمَّا أرسل النَّاصر الثَّاني النجدات من حلب لفكِّ حصار حمص تصدَّى لها فخر الدِّين، وأوقع بهم خسائر كبيرة[9]، وشدَّد فخرُ الدِّين الحصارَ على حمص، حتَّى أشرف على أخذها[10].

وفي هذه الأثناء وصل إلى السُّلطان أيُّوب بدمشق الخبر بأنَّ "الفرنج قد اجتمعوا بجزيرة قبرص لقصد الديار المصريَّة "[11]، فترك حصار حمص، وسحب قُوَّاته، وتوجَّه نحو مصر[12]. ويبدو أن السُّلطان كان يملك معلومات عن مكان إنزال الحملة الفرنجيَّة، وعرف أن دمياط هدف لويس، فشحنها بآلات عظيمة وذخائر وافرة، وعهد لبني كنانة وهُم مشهورون بالشجاعة والإقدام

---

1 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري / 203.
2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري / 216، وأخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 36.
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 176.
4 - العبر، الذهبي، 5/ 185، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 412.
5 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 328، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 177.
6 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 379.
7 - العبر، الذهبي، 5/ 188.
8 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 412.
9 - العبر، الذهبي، 5/ 188.
10 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 431.
11 - وفيات الأعيان، ابن خلكان، 6/ 259.
12 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 379، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 177.

لحماية المدينة من الداخل[1]، ثُمَّ أمر السُّلطان نائبه في القاهرة ابن أبي علي بتجهيز الأُسطُول، وتسييره في النيل نحو دمياط[2]، واستكمل أيُّوب استعداداته العسكريَّة بتوجيه نخبة قُوَّاته مع قائد جيشه ورجل دولته الأوَّل فخر الدِّين يُوسُف إلى دمياط للتصدِّي للحملة المُتوقَّع وُصُولها من البحر. وتمركز فخر الدِّين بقُوَّاته على الساحل في جيزة دمياط من الغَرْب، وأصبح فرع النيل المُسمَّى دمياط يفصل بينه وبين المدينة[3]، وهُو موقع استراتيجي أثبت نُزُول الحملة الفرنجيَّة أمامه أنَّه كان مُوفَّقاً باختياره، فقد حَصَرَ بقُوَّاته جيشَ الفرنج، الذي تمكَّن من النُّزُول إلى البرِّ بين فرع دمياط وساحل البحر، وسدَّ عليهم طريق التقدُّم البرِّيّ نحو الداخل.

ويصف شاهد عيان فرنجي رافق حملة لويس ما وجده الفرنج ساعة وُصُولهم ساحل مصر يقول: "وعندما ألقوا مراسيهم رأوا الساحل مليئاً بالمُسلمين على الخُيُول، وعلى الأقدام، وكان مصبُّ النيل في الوقت نفسه مُغطًّى بالسُّفُن العازمة على إعاقة هُجُوم شعبنا"[4] "ونزل الفرنج في البرِّ الذي عسكر فيه المُسلمون، فناوشهم المُسلمون، واستشهد بعضهم. ولمَّا أمسى الليل رحل فخر الدِّين بمَنْ معه من العساكر... وخلا البرّ الغربي للفرنج"[5]، ولم يُقتَلْ من العَسْكَر أحد، سوى شيخ من المُتطوِّعة جاء من الكَرَك، واستشهد في هذه المُناوشات[6].

ويبدو أن فخر الدِّين لم يُحاول منع إنزال الفرنجة على البرّ المصري بشكل جدِّيٍّ، ولم يتصدَّ للحملة في وقت حرج جدّاً للغُزاة هُو ساعة تدافعهم نحو البرّ لإقامة رأس جسر لهم فيه، فلو فعل ذلك مع استعداداته الكُبْرَى، وفُقدان الفرنجة لعامل المُفاجأة، أو سرِّيَّة الحملة، وقتاله على أرضه وبين شعب يدعمه، فعلى الأقلّ؛ كان قد أوقع خسائر جسيمة في صُفُوف حملة لويس التَّاسع، ولكان أجبره على تغيير مكان الإنزال، إنْ لم نقل منعه نهائيّاً، ولكنَّنا نجد أن فخر الدِّين على عكس كُلِّ التوقُّعات والاحتمالات العسكريَّة التي يملك زمامها، قام بسحب قُوَّاته بعد مُناوشات بسيطة، بدت

---

1 - البيان والإعراب، المقريزي، 20 ـ 21، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 178.

2 - البيان والإعراب، المقريزي، 21.

3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 437.

4 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1177.

5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 437.

6 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 219.

استعراضية أكثر منها حربية، وعبر نحو دمياط مُخْلِياً الساحة للفرنج لإتمام إنزالهم، وفتح ـ عامداً، أو مُهملاً ـ طريقَ دمياط أمام الفرنجة بأهون الأسباب، وأسهلها، علماً أن الفرنج لم يضغطوا عسكريَّاً عليه لإجباره على الانسحاب، ولم يُشكِّلوا تهديداً حقيقيَّاً لقُوَّاته.

كان انسحاب فخر الدِّين مُثيراً لدهشة الجُند والسُّكَّان والفرنجة على السواء. فلماذا انسحب خارقاً كُلَّ التَّقاليد العسكريَّة، وضارباً عرض الحائط بمصير دمياط، بل الديار المصريَّة، والدولة كُلّها؟!.

كان فخر الدِّين أكثر المُقرَّبين من السُّلطان أيُّوب، وحضر معه من الشَّام إلى مصر، وكان رفيقه ونديمه في الطريق، لذلك كان يُدرك فخر الدِّين مدى استفحال مرض السُّلطان، ورُبَّما كان يتوقَّع موته بين لحظة وأُخرى، ووريث المملكة الوحيد في أقصى الشَّام، إنَّها على ما يبدو الفُرصة التي انتظرها فخر الدِّين طويلاً، فالمعركة مع الفرنج يُمكن أن تطول على أسوار دمياط، لكنَّ المعركة على السُّلطة ستُحسم بشكل سريع إذا مات السُّلطان، فقرَّر الانسحاب نحو المُعسكر، لكنَّ النتائج المُفجعة لانسحابه رُبَّما كانت أكثر بكثير ممَّا توقَّع.

فانسحاب كُتلة الجيش الكُبْرَى بدُون قتال، دفعت حامية دمياط بقيادة الأُمراء الكنانيين للانسحاب منها، "فلمَّا رأى أهل دمياط رحيل العَسْكَر، خرجوا، ولم يبقَ بالمدينة أحد"[1]، وعندما تقدَّم الفرنج نحو المدينة، وجدوا الأبواب مُفتَّحة، وليس بها أحد، فاعتقدوا أنَّها مكيدة، وأحجموا عن دُخُولها أوَّل الأمر[2]، ثُمَّ دخلوها، وتملَّكوا ما بها من السلاح والمُؤن والذخائر صفواً عفواً[3]. "وعُدَّت هذه الفعلة من الأمير فخر الدِّين من أقبح ما يشنع به"[4]، وعدَّها بعض المُؤرِّخين سُوء تدبير[5]، أو قبيح رأي[6]، ولكنَّها تبقى بدُون تفسير مُقنع إلَّا إذا اعتبرنا أن السعي للسُّلطة كان من أهمِّ دوافع فخر الدِّين، والأحداث التَّالية تُؤكِّد ذلك:

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 437.
2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 220.
3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 378، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 179، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 439.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 438.
5 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 369.
6 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 330.

لَمَّا وصل فخر الدِّين وعساكره، وخلفهم الأُمراء الكنانيون، وأهل دمياط إلى مُعسكر السُّلطان في أشموم طناح، أمر السُّلطان بشنق الأُمراء الكنانيين[1]، "وكانوا نيِّفاً وخمسين أميراً[2]، وتغيَّر السُّلطان على الأمير فخر الدِّين، وقال: أما قدرتُم تقفون ساعة بين يدَيْ الفرنج؟! وقامت الشناعة من كُلِّ أحد على الأمير فخر الدِّين"[3].

وهُنا؛ نجد تناقضاً كبيراً في موقف السُّلطان أيُّوب، فقد نتفهَّم إعدامه للأمراء الكنانية بأنَّه تدبير عسكري أثناء الحَرْب لمنع غيرهم من التهاون، لكنْ؛ ما هُو مُبَرِّر تغاضيه عن فخر الدِّين، وهُو السبب الرئيس لضياع دمياط، خاصَّة وأن مُخالفته للأوامر العسكريَّة بالانسحاب دُون قتال جلية واضحة؟! فهل كان السُّلطان ـ حقّاً ـ غير قادر على عُقُوبته، أو على الأقلّ مساءلته، أو أنَّه كان رجل الجيش القوي؟! فإن لم نقل: إن السُّلطان خاف منه، فقد نقول: إنَّه كان بأمسِّ الحاجة إليه في مثل تلك الظُّرُوف، ورُبَّما كان ردّ فعله القوي تجاه الكنانيين لعدم قدرته على التصرُّف مع فخر الدِّين. ويُبرِّر المقريزي بعبارة دبلوماسية جدّاً موقف السُّلطان تجاه فخر الدِّين؛ حيثُ يقول: "وكان الوقت لا يتَّسع إلَّا للصبر والتغاضي"[4]، ولكنْ؛ حتَّى هذا التغاضي لم يُعجب أُمراء العَسْكَر، وخافوا أن يكون السُّلطان قد بيَّت لهم الغدر، فَهَمُّوا بقتله، لكنَّ فخر الدِّين أشار عليهم بالصبر، حتَّى يتبيَّن أمر السُّلطان، "وقال لهم: إنَّه على فراش الموت، وإلَّا فهُو تحت أيديكم؛ فتركوه"[5].

فهل نستشفُّ بوادر انقلاب عسكري على السُّلطان؟ وإن كان ذلك حقيقة فيبدو لنا أن التاريخ يُعيد نفسه، ففي الظُّرُوف نفسها والمكان نفسه كان ابن المشطوب يُدبِّر مُؤامرة لخلع الكامل، وها هُو فخر الدِّين ومعه مجموعة من أُمراء العَسْكَر يُريدون الإطاحة بأيُّوب ابن الكامل.

وكما فعل الكامل من قبل أسرع أيُّوب مُغادراً أشموم طناح نحو المنصُورة، ولكن المرض كان قد نال منه، وانتظار موته بالمرض هُو الذي دفع عنه الموت بسُيُوف أُمراء الجُند الموالين لفخر الدِّين.

---

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 378.
2 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 36.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 439.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 439.
5 - شذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 237، ـ وانظر أيضاً: المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 216، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 439.

وبالفعل؛ لم تطلْ حياة السُّلطان، فتوفي بعد وُصوله المنصُورة، دُون أن يوصي بخلافته إلى أحد، ولا حتَّى لولده تُوران شاه، فهُو يعرف أنَّه لا يصلح للحُكْم[1]، فظهرت على الفور ثلاث شخصيَّات كلّ منها يتشوَّف للسَّلطنة، وكالعادة؛ لم يختلفوا أوَّل الأمر، بل اتَّفقوا، ورتَّبوا أُمُور الدولة بعد وفاة سُلطانها أحسن ترتيب، وهُم:

1. **شَجَر الدُّرّ**: جارية أيُّوب وزوجته، وأمّ ولده خليل المُتوفَّى، وأقرب الناس إليه، وقد أخذت زمام المُبادرة واستدعت كلاً من:

2. **الطواشي جمال الدِّين مُحسن**، وكان أقرب الناس إلى السُّلطان، وأكثرهم مُلازمة له.

3. **الأمير فخر الدِّين**: مُقدَّم الجيش، والأمير الأكثر شعبية بين الناس، وقد عرف الفرنج مكانته، قال عنه جوانفيل: "كان فخر الدِّين أعظم الناس مكانة في العالم الإسلامي"[2].

واتَّفقت معهم على تدبير المملكة[3]، وشكَّلوا ما يُشبه مجلس حُكْم انتقالي، يتَّضح فيه جناحان، **الأوّل** : سياسي، وتُمثِّله شَجَر الدُّرّ، **والثاني**: عسكري، ويُمثِّله فخر الدِّين. وكانت أُولى خطوات مجلس الحُكْم هذا أنْ طلب الأُمراء والقادة والوُلاة والجُند ليحلفوا، وأداء القَسَم هُو الضمان الشرعي لولاء الناس، وكان نصُّ القَسَم الذي أُملي على الناس يتضمَّن الولاء للسُّلطان؛ فهم لم يعلنوا موته بعد، ومن ثَمَّ؛ لابنه تُوران شاه، ولفخر الدِّين قائداً عامَّاً للجيش، وأتابكاً لتُوران شاه، ومُدبِّراً لدولته[4]، وكتبوا إلى نائب القاهرة ابن أبي علي ليحلف الناس على ذلك[5].

من ذلك كُلِّه؛ يبدو لنا أن الأمير فخر الدِّين هُو رجل الدولة الأقوى، الذي يُسيطر على الجيش، مع أن مماليك السُّلطان أيُّوب يُشكِّلون قُوَّة قتالية كبيرة فيه، لكنْ؛ على ما يبدو، لم يكونوا قد وصلوا إلى التحكُّم بالقيادات العُليا، ولم تبرز كفاءتهم وأهليَّتهم للقيادة بعد، ولن يتمّ ذلك حتَّى تجري معركة المنصُورة. ونستطيع أن نتوقَّع أن فخر الدِّين رضي أن يكون الرجل الثَّاني اسميَّاً، بعد تُوران شاه بن أيُّوب، لعدَّة أسباب:

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 444،
2 - سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 36 / 83.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 444.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 444.
5 - السُّلُوك، المقريزي، 1 / 444.

1 ـ تأمين غطاء شرعي تتمُّ الدعوة له، بعد إعلان موت أيُّوب، فالدعوة المُباشرة لنفسه ستُواجه معارضة شديدة من الأطراف كُلِّها.

2 ـ كان فخر الدِّين يشكُّ بإمكانية وُصُول تُوران شاه إلى مصر، ففي الشَّام أعداء كُثُرٌ لتُوران شاه يتربَّصون به، وسيتكفَّلون بمنعه من إتمام سفره، إضافة إلى مخاطر الطريق الأُخرى من أقاصي شمال الشَّام حتَّى مصر[1].

3 ـ مُوافقة فخر الدِّين على سلطنة تُوران شاه تهدئة فعَّالة لمعارضيه المُتوقَّعين، وأولهم شَجَر الدُّرِّ التي تتمتَّع بولاء مماليك أيُّوب وهم جمرة الجيش، وأخطرهم ابن أبي علي نائب السُّلطان في القاهرة.

أمَّا على أرض الواقع؛ فقد سبقت الأفعال النوايا، فالوقت لا يكاد يتَّسع لتردُّد مُتردِّد، ولا لتأنِّي مُتأنٍّ، فمُباشرةً؛ أخذ الأمير فخر الدِّين بالتصرُّف بالمملكة، وتدبير أُمُور الدولة والجيش، وأعاد إقطاع البلاد بمناشير جديدة[2]، "وأخذ فخر الدِّين بالاستبداد والاستقلال بالمملكة، وصار يركب في موكب عظيم، وجميع الأُمراء في خدمته" [3].

وقد وصلت أصداء ذلك إلى مُعسكر لويس التَّاسع، واعتقدوا بأنَّ فخر الدِّين قد خلف السُّلطان رَسْميّاً، ويُؤكِّد ذلك جوانفيل، مُرافق الملك، الذي كتب يقول: "اختار المُسلمون مكان السُّلطان، الذي مات واحداً اسمه فخر الدِّين، وحمل على رايته التي تألَّفت من ثلاثة أقسام:

على القسم الأوَّل، رنك الإمبراطُور فريدريك. وعلى الثَّاني، رنك سُلطان حلب. وعلى الثَّالث، رنك سُلطان القاهرة " [4]. وحَمْلُ فخر الدِّين لهذه الرنوك الثلاثة ما هُو إلَّا تعبير عن التحالف الوثيق مع فريدريك، والرمز الثَّاني للشام التي تتبع لسُلطان مصر، وليس رمز حلب كما اعتقد جوانفيل.

---

1 - العُدوان الصليبي على مصر، جوزيف نسيم يُوسُف، 142.
2 - المنشور: رُقعة من الورق، يُكتَب عليها اسم الإقطاع، واسم صاحبه.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 445.
4 - سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36 / 82 ـ 83.

وبالمُقابل؛ كان الرجل الآخر القوي وهُو نائب القاهرة ابـن أبي عـلي لا يُفـوِّت الوقـت. فقـد تتالت عليه الكُتُب من المنصُورة باسم السُّلطان أيُّـوب، "وشـكَّ بعلامـة السُّلطان، فـدقَّق بأخبـار المُعسكر حتَّى عرف موته، فاشتدَّ خوفه مـن فخـر الـدِّين، وخـشي أن يتغلَّـب عـلى المُلـك، فاحتـاط لنفسه"[1]، ولمَّا كان يعرف تمام المعرفة قُوَّة فخر الدِّين، وأنَّـه لا قبَـلَ لـه بمُنافـسته، فقـد تعلَّـق أملـه بحُضُور تُوران شاه، فأرسل قُصَّاده تترى نحو تُوران شاه لإحضاره على جنـاح الـسُّرعة، وكتـب لـه يقول: "المصلحة في السُّرعة، ومتى تأخَّرت فات الفوت، وتغلَّب الأمير فخر الدِّين على البلاد"[2].

وكانت أخبار مصر السِّياسيَّة تصل إلى الفرنج بواسطة عُيُونهم، أو عبر الأسرى، وممَّا وصلهم ـ بشكل شبه دقيق ـ تـأزُّم الوضـع بـين الـسُّلطان أيُّـوب وفخـر الـدِّين بعـد انـسحابه مـن دميـاط. أمَّا نتائج ذلك، وعلاقة فخر الدِّين بـابن أبي عـلي نائـب القـاهرة؛ فقـد وصـلتهم مُـشوَّشة في أوَّلهـا، ومعكوسة في آخرها، ورُبَّما كان السبب في صـياغتها مـن قبَـل الكُتَّـاب المُـرافقين للحملـة، والـذين جعلوها تخدم أهدافهم[3].

وكانت الدلائل كُلُّها تُشير إلى تفوُّق فخر الدِّين في أيِّ صراع قادم عـلى الـسُّلطة، فهُـو الأفـضل تجربة، والأقوى، والأكثر أتباعاً، والأشدُّ استعداداً لهذا الأمر. ولكـن القـدر كـان لـه بالمرصـاد، عنـدما أخرجه من حلبة الصراع بأهون الأسباب، فقد هاجم الفرنجُ ـ ليلاً ـ المنصُورةَ؛ حيثُ يُعسكر المُسلمون "الذين لم يشعروا إلَّا والفرنج معهم في المُعسكر، وكان فخر الدِّين في الحمَّام، فخرج مدهوشـاً، وركـب فرسه في غير اعتداد، وليس معه سوى بعض مماليكه والأجناد، فلقيـه طلـب الفـرنج الدوايـة، وكانـت طلبته الفرنج، فقتلوه"[4]، "فقد طعن، ووقع ضربتان في وجهه، فسقط"[5]. جاء استشهاد فخر الدِّين في موقعة المنصُورة ليُحقِّق له ولمُنافسيه على السواء أُمُوراً عظيمة: بالنِّسبة له، فقد محا ـ باستشهاده مُدافعاً عن المنصُورة ـ عارَ تراجعه عن دمياط، وبالنسبة لمُنافسيه، فقد أزاحه الموت من أمامهم بأيسر السبل، كما

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 444.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 445.
3 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 1124.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 447.
5 - مرآة الجنان، اليافعي، 4/ 91. ـ وينفرد صاحب مرآة الجنان بجعل وفاة فخر الدِّين عام 648 هـ بينما هي ـ وُفقاً لتأريخ الموقعة، ولكُلِّ مَنْ ترجم له من المُؤرِّخين ـ عام 647 هـ.

أتاح استشهاد فخر الدِّين لقُوَّة جديدة بالظهور، وهي مماليك الصَّالح أيُّوب، الصالحية، أو البَحْريَّة، الذين تصدّوا لهُجُوم الفرنج على المنصُورة، وأوقعوا بهم خسائر فادحة، ولمع ـ من يومها ـ اسم بيبرس البندقداري، وفارس الدِّين أبو الهيجاء، وغيرهما[1]. وبموت فخر الدِّين؛ فقدت الدولة آخر رمز يُمثِّل العصر الأيُّوبي، ومهَّد موته لقيام عصر جديد؛ هُو عصر المماليك.

كان فخر الدِّين "عاقلاً جواداً ممدحاً مُدبِّراً خليقاً بالملك محبوباً إلى الناس"[2]، ويُتابع ابن تغري بردي قائلاً عنه: "ولمَّا مات الملك الصَّالح أيُّوب على دمياط نُدب للمُلك، فامتنع، ولو أجاب لما خالفوه"[3]، وهذا خبر ضعيف، لا تدعمه الوقائع التي جرت، ونعتقد أن ابن تغري بردي قد وَهمَ بذلك، ولكنَّنا نحار أمام تفسير ما حصل: "فَيَوْم مقتله نهب مماليكُهُ وبعضُ الأُمراء دارَهُ، وكسروا صناديقه، وخزائنه، وأخذوا أمواله، وخُيُوله، وأحرقوا داره"[4]. هذا التصرُّف لا يتمُّ ـ عادةً ـ إلَّا ضدَّ شخص مكروه مستبدٍّ، ويأتي كانتقام لأفعال قام بها، وهُنا؛ نستبعد هذه الأسباب، وسيبقى سرُّ هذا التصرُّف لا يجد تفسيراً منطقياً إلَّا إذا حاولنا التوصُّل إلى مقاربة بالاستنتاج، فقد يكون ظرفُ الحَرْب والفَلَتَانُ الأخير بموت السُّلطان، ثُمَّ موت أقوى الرجال بعده، وعدم وُجُود أيِّ قريب لفخر الدِّين في الدولة يُخشَى منه، فهُو آخر إخوته وفاةً. لكنْ؛ يبقى التفسير ناقصاً؛ لأن مَنْ قام بالنهب والحرق هُم مماليكه، الذين هُم تربيته، وأولاد نعمته !.

---

1 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 376.
2 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 363.
3 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 363.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 448.

المبحث الرّابع:

دور بعض الأتباع

كان من الطبيعي في نظام الحُكْم الأيُّوبي، وطريقة عمل الجهاز الإداري فيه، أن يرتقي الموهوبون من أصغر المراتب في الحاشية إلى تولّي بعض المناصب الحكومية، وأن يصلوا إلى أعلاها في بعض الأحيان، معتمدين على شخصياتهم المتفوّقة، وعلى مواهب إدارية مُتميِّزة، وبشكل خاصّ؛ على قُربهم من الملك، أو الحاكم، الذي كان في أمسّ الحاجة إلى رجال أكفّاء، يعرفهم، ويثق بهم. ويبدو أنّهم لم يُدركُوا حقيقة كانت تتكرّر أمامهم، وهي أنّهم كُلّما اقتربوا من الشُّهرة والنجاح أكثر اقتربوا من النّهاية أكثر، فعلى الدوام كانت المُلوك تبطش بعُمّالها عند اقترابهم من القمّة، ورُبّما كانت ضربة استباقية، يُوجّهونها ضدّ مطامع استقلالية كانوا يفترضون وُجُودها.

1. الحاجب علي:

يبدو من التسمية أنّه كان حاجباً للملك الأشرف، وأن علاقته به كانت قديمة، حتّى حاز على ثقته الكاملة، فكان "حُسام الدِّين الحاجب علي نائب الملك الأشرف في بلاده"[1]، ورسوله في المهمّات من الأُمُور. فقد بعثه الأشرف بمهمّة ديبلوماسية إلى أخيه المُعظّم ليردعه عن الهُجُوم على حمص وحماة عام 619 هـ 1222م[2].

وكان الحاجب علي يُعدُّ من أخصّ أصحاب الأشرف، والمُقرّبين إليه، لذلك نجد أن الأشرف ـ بعد عصيان المُظفّر عليه ـ أخذ منه خِلاط، وأرسل الحاجب عليّ نائباً له فيها[3]، وأهمّيّة خِلاط تؤكّد لنا مدى اعتماد الأشرف على الحاجب علي. وجاءت الأحداث لتُثبت جدارة الحاجب علي، ففي عام 623 هـ 1226م، بعد أن قام شرف الملك، وزير جلال الدِّين منكبرتي ونائبه في تفليس، بنَهْب أعمال أرزن الرُّوم، مرَّ في طريق عودته بالقُرب من خِلاط ومعه قُوّة من جيشه، فاعترضهم الحاجب عليّ "واستنقذ

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 655.

2 - المنصُوري، ابن نظيف، 95، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 655.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 188.

ما معهم من الغنائم، ثُمَّ عاد بعسكره سالمين"[1]. وعندما هاجم جلال الدِّين منكبرتي خِلاط في العام نفسه، وكان يتمتَّع بسُمعه مُرعبة، وجيش قوي، خاصَّة بعد أن فتح تفليس عاصمة الكرج، قام الحاجب علي بواجب الدفاع عن خِلاط بوجه هذه القُوَّة العاتية خير قيام[2]، وبعد أن تمكَّن جلال الدِّين من احتلال حاضر خِلاط، قاد الحاجب عليّ الهُجُوم المُعاكس بنفسه، "وترجَّل الحاجب عليّ، ووقف في نحر العدوِّ، وأبلى بلاءً عظيماً"[3]، حتَّى أجبر جلالَ الدِّين عن التراجع عن خِلاط[4].

وفي عام **624** هـ **1227**م، سار الحاجب عليّ، "وهُو النائب عن الملك الأشرف بخلاط، والمُقدَّم على عساكرها، إلى بلاد أذربيجان، فيمَنْ عنده من العساكر، "وتسلَّم خوى، وما جاورها من الحُصُون بالاتِّفاق مع زوجة[5] جلال الدِّين خوارزم شاه[6]، وأخذ خزائن جلال الدِّين، وعائلته، وعاد إلى خِلاط، فقيل له: "بئس ما فعلتَ، اعتديتَ عليه، لتُتلف البلادَ، فلم يُفكِّر"[7]، ولذلك اتَّهمه بعض المُؤرِّخين بأنَّه سبب هُجُوم جلال الدِّين منكبرتي على خِلاط فيما بعد، وأخذها[8].

ذلك كُلُّه يدلُّ على أن الحاجب عليّ قد امتلك قُوَّة عسكريَّة كبيرة، تجاوزت المُتعارف عليه بالنِّسبَة لنائب في خِلاط، كما أن أعماله العسكريَّة هذه، على ما هي عليه من الخُطُورة تجاه الخَوَارزميَّة، وما ستجرُّه من مُحاولات انتقامية، فإنَّها ـ في الوقت نفسه ـ فتحت عينَيْ الأشرف على هذا النائب، الذي يتصدَّى لأقوى جيش في المنطقة، ويردّه، ثُمَّ يغزوه في بلاده، ويأخذ بعضها منه، وسيجعله الأشرف يدفع ثمن هذه الظاهرة من القُوَّة والإخلاص، وإن كانت في خدمته. والغريب أن مَنْ سيتصدَّى للحاجب علي أوَّلاً هُو سيِّده الأشرف، الذي اعتبره خطراً شديداً عليه، ويبدو أن الحاجب عليّ لم تخطر على باله تلك الأُمُور كُلُّها، واعتقد أنَّه يُحسن البلاء في سبيل الملك الأشرف، فعاد،

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 456.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 136.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 461.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 190.
5 - زوجة جلال الدِّين: هي بنت جيهان خواجا وزير جلال الدِّين سُلطان الخَوَارزميَّة، أرسلها الحاجب عليّ إلى الأشرف، فانتقم جلال الدِّين بالهُجُوم على خِلاط، وفتحها، وأخذ منها ابنة ملك الكرج زوجة الأشرف. (أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 15).
6 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 138، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 471.
7 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 140.
8 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 15.

"وجمع العَسْكَر لقصد الخوارزمي"[1]، لكنَّ تحرُّك علاء الدِّين كَيْقُبَاذ سُلطان سلاجقة الرُّوم بالقُرب منه جعله يُؤجِّل العمل ضدَّ الخوارزمي، ويلتفت إليه، فبعد أن "استولى كَيْقُبَاذ على أرزنجان أراد التّوجُّه إلى أرزن الرُّوم، ليأخذها، وفيها ابن عمِّه طُغْريل شاه بن قلج أرسلان، فلمَّا سمع صاحبُهَا أرسل إلى الأمير حُسام الدِّين عليّ بخلاط يستنجده، وأظهر طاعة الأشرف"[2]، وتحرَّك الحاجب عليّ لحماية أرزن الرُّوم، ورُبَّما كان يخشى بأنْ يثني كَيْقُبَاذ بخلاط بعد توسُّعه نحو أرزن الرُّوم. ولمَّا علم كَيْقُبَاذ بتحرُّك الحاجب عليّ تراجع عن أرزن الرُّوم[3].

وهُنا؛ طار صواب الأشرف من قُوَّة الحاجب عليّ وتحكُّمه في الجزيرة، فبعد تصدِّيه للخورازمي، وأَخْذ بلاده، وخزائنه، لم يبقَ إلَّا التّصدِّي للرومي، حتَّى يُصبح الحاجب علي ملك الجزيرة، وحاكمها الحقيقي، ويبدو أن الغيرة والحسد كانا يوغران صدره على الحاجب عليّ، وكان تخوُّفه منه يزداد مع كلِّ انتصار له، ولم يُفكِّر الأشرف بأنَّ هذه الانتصارات باسمه، وتُجيَّر لحسابه، بل فوق هذا، فالناس يقولون إن واحداً من أتباع الأشرف يفعل كذا، وكذا[4].

لكنَّ المُلْك عقيم، والمُلُوك قتلوا أخوة لهم، فكيف بتابع غريب؟!

وفي عام 626 هـ 1229م، أرسل الأشرف إلى خِلاط مملوكه عزّ الدِّين آيبك، وهُو من أكبر الأُمراء عنده[5]، وكان يتولَّى نيابة منطقة دارا للأشرف[6]، فالمهمَّة جليلة تستدعي رجلاً جليلاً للقيام بها، ويبدو أن العداء كان مُستحكماً بين عزّ الدِّين آيبك والحاجب عليّ[7]، فلذلك اختاره الأشرف.

ولمَّا وصل آيبك إلى خِلاط، "وصله كتاب الأشرف بالقبض على الحاجب علي"[8]، فاعتقله آيبك، وبعد أيَّام وصل كتاب إلى الأشرف "بأنَّ الحاجب عليّ مات بالإسهال، وكان الأمر على غير

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 161.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 480.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 480.
4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 485.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 263.
6 - أخبار الأيُوبيِّين، ابن العميد، 15.
7 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 485.
8 - المنصُوري، ابن نظيف،180.

ذلك"[1]، فقد قتله آيبك غيلة[2]، ولم يعلم أحد من الناس السبب في قتله. فقيل "إن الكامل أمر أخاه الأشرف بذلك لأشياء باطنة، لم يطَّلع الناس عليها"[3]، وقد يكون للكامل المصلحة ذاتها التي للأشرف في التخلُّص من الحاجب علي، أمَّا ما عدا ذلك؛ فهي ـ غالباً ـ تكهُّنات من الناس؛ لإيجاد سبب لعمل لم يجدوا له سبباً ظاهراً.

أمَّا صاحب كتاب أخبار الأيُّوبيِّين؛ فيجعل سبب قتل الحاجب علي هُو أَخْذه لزوجة جلال الدِّين منكبرتي، الذي سبب هُجُوم جلال الدِّين على خِلاط، وأَخْذه زوجة الأشرف منها، "فَسَيَّر الأشرف إلى مملوكه عزّ الدِّين صاحب دارا في أن يقبض على الحاجب، ويقتله، فقتله"[4].

وهُنا؛ يجب أن نذكر أن هُجُوم جلال الدِّين الناجح على خِلاط، وفَتْحها، وأَخْذ زوجة الأشرف منها كان بعد قتل الحاجب علي، وأثناء ولاية عزّ الدِّين آيبك عليها.

إن كُلَّ ما عرفناه عن الحاجب علي هُو أن لقبه حُسام الدِّين، وأنَّه ابن حَمَّاد[5]، وأنَّه "من أهل المَوصل، واتَّصل بخدمة السُّلطان الأشرف، وصار من أخصِّ أصحابه، وأزلامه"[6]. وقال ابن الأثير عن الحاجب علي: "كان حافظاً لصاحبه، مُشفقاً عليه، وحسن السيرة في الرعية"[7].

وقال ابن واصل عنه: "كان ـ رحمه الله ـ حسن السيرة، كريماً، كثير البرِّ، والصدقات، عمَّر الخانات في طُرُق السبيل"[8]. ولم نعرف من أهله سوى أخ له اسمه بدر الدِّين عُثمان، كان قد ترقَّى في خدمة الأشرف أيضاً، حتَّى إنَّه كان رسوله إلى دار الخلافة عام 622 هـ[9]، فلمَّا سمع الأشرف بموت الحاجب علي ألقى القبض على عُثمان "وأخذ جميع ما له، واستقاله، وبقي في الاعتقال مُدَّة، ثُمَّ أطلقه"[10].

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 180.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 485.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 263.
4 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 15.
5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 485، والمنصُوري، ابن نظيف، 173.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 263.
7 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 485.
8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 263، ـ راجعْ ترجمة الحاجب علي في: شذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 119.
9 - المنصُوري، ابن نظيف، 118، حاشية المُحقِّق من تاريخ ابن الفُرات، 5 / 172.
10 - المنصُوري، ابن نظيف، 180.

ويبدو أن أبلغ رَدٍّ على الأشرف لقتله الحاجب علي، لا لذنب سوى تميُّزه، وتوفيقه، كان من جلال الدِّين الخوارزمي، الذي جاء مقتل الحاجب في مصلحته، فقد حصر خِلاط، وملكها، وأسر عزّ الدِّين آيبك النائب الجديد للأشرف بها، وقتله[1].

وجاء العدوُّ الأكبر للحاجب علي الذي هُو جلال الدِّين منكبرتي، فانتقم له من الأشرف؛ حيثُ أخذ خِلاط منه عام 627 هـ 1230م، وردَّ إلى الحاجب علي اعتباره، فقد شعر الناس بفقده، كما قام جلال الدِّين بالانتقام له من آيبك، فقتله.

2. الخادم صواب:

هُو شمس الدِّين صواب العادلي، نسبة إلى الملك العادل بن أيُّوب، فقد "كان أكبر الخُدَّام العادلية، وأوثقهم"[2]. كان صواب خادماً طواشياً[3]، تربَّى في ظلِّ الملك العادل، ولمَّا تُوفِّي العادل، انتقل للخدمة مع ابنه، ووَلِيّ عهده الملك الكامل، الذي سلَّمه قيادة الجيش، فكان يُضرَب به المَثَلُ في الشجاعة[4]، وذُكر أنَّه "أحد الفُرسان المذكورين، كان إذا حمل يقول: أين أصحاب الخصي"[5]. كان له أيَّام عزِّه أكثر من مائة خادم، وأكثرهم أصبحوا ـ فيما بعد ـ أُمراء[6]، وكان صاحب برٍّ، وصدقة، ومعروف بين الناس[7].

وفي عام 629 هـ 1232م، تحرَّك الكامل نحو بلاد الشَّرْق قاصداً آمد، فاصطحب معه ابنه الصَّالح أيُّوب، وبعد فتح آمد ولَّى الكاملُ ابنَهُ الصَّالح نائباً عنه في آمد وبلاد الشَّرْق، ولكنَّه وضع معه شمس الدِّين صواب، فكان صواب يتصرَّف في كُلِّ شيء "والصَّالح في صُورة النائب فقط"[8]، فكان لصواب النقض والإبرام في كافَّة أُمور حُكْم بلاد الشَّرْق، أمَّا الصَّالح؛ فهُو صُورة معه[9].

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 485.
2 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 309، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 34.
3 - الطواشي: هُو مملوك خصي، وكان يُخصَّص للخدمة في دُور النساء.
4 - شذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 149.
5 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري ، 148.
6 - شذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 149، والمُختار، ابن الجزري ، 159، ومرآة الجنان، اليافعي، 4/ 60.
7 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 159.
8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 17 ـ 134.
9 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 34.

وفي عام 631 هـ 1234م، تحرَّك الملك الكامل من مصر ليقوم بحملته ضدَّ سلطنة سلاجقة الرُّوم، وانضمَّ إليه كُلُّ مُلوك بني أيُّوب، وأُمرائهم، فتشكَّل لديه أكبر جيش أيُّوبي بعد عصر صلاح الدِّين[1]، وكان الخادم صواب هُو قائد مُقدِّمة الجيش "الشاليش"[2].

ولمَّا عجز الكامل عن اجتياز الممرَّات الجبلية لدُخول بلاد سلاجقة الرُّوم، شكَّل قُوَّة بقيادة المُظفَّر ملك حماة ومعه الخادم صواب، فأوقع بهم جيش علاء الدِّين كَيْقُبَاذ، وأسر المُظفَّر، كما أسر صواب، لكنَّ علاء الدِّين أطلقهم، وأكرمهم[3]، وعاد صواب ليُقيم في آمد نائباً كما كان.

وفي عام 632 هـ 1235م، تُوفِّي شمس الدِّين صواب في آمد وهُو نائب للكامل فيها، ودُفن بها[4]. وبعد وفاة صواب استقلَّ أيُّوب بن الكامل بحُكْم بلاد الجزيرة، وتسلَّم حصن كيفا، بما فيه من الذخائر والمال، وصار يحكم في آمد، وبلادها، وحَرَّان، والرقَّة، والرُّهَا، وسروج، ورأس عين، وما يتبع تلك المُدُن من البلاد[5].

3. الخادم طَغْريل:

عندما اشتدَّ المرض بالملك الظَّاهر غازي بن السُّلطان صلاح الدِّين، عهد بالمُلك لابنه الصغير مُحمَّد، ولقبه العزيز، وكان عُمره ثلاث سنين، وتجاوز ـ بذلك ـ ما جرت به العادة من تولية الابن الأكبر، وكان ذلك خوفاً منه على مُلكه من عمِّه العادل، فابنه العزيز هُو ـ في الوقت نفسه ـ ابن بنت العادل، فأمل أن يحافظ ـ بذلك ـ على المُلك في ذُرِّيَّته، ولصغر سنِّ العزيز جعل من مملوكه طَغْريل مُربِّياً وأتابكاً لولده، ليقوم بأمره، ريثما يبلغ أشدَّه.

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 75.
2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 149.
3 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 149، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 78.
4 - مرآة الجنان، اليافعي، 4/ 60، وشذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 149، والمُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 159، ـ وينفرد ابن شدَّاد، فيذكر أن صواب تُوفِّي عام 633 هـ (الأعلاق الخطيرة، 3/ 2/ 524).
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 134.

كان طَغْريل ـ ولقبه شهاب الدِّين[1] ـ مملوكاً للظاهر غازي من أصل رومي، وثق بـه، وأمـل منه أن يحفظ مُلك ولده الصغير. ولمَّا مات الملك الظَّاهر قام طَغْريل بأمر العزيـز، وأمَّـر مملكـة حلـب خير قيام، كان الملك الأشرف بن العادل يقول عنه: "إنْ كان لله وَليّ في الأرض فهُو هذا الخـادم"[2].

وقد ذكره المُؤرِّخ ابن الأثير، وهُو من ناقدي البيت الأيُّوبي ومَنْ يلفُّ لفَّه، قال: "هُو مـن خيـار عبـاد الله، أَحْسَنَ السيرةَ، وعَدلَ في الناس، وأزال كثيراً من السُّنن الجارية، وأعاد أملاكاً كانت قـد أُخـذت من أربابها، وقام بتربية الطفل أحسن قيام، وحفظ بلاده، وملك ما كان يتعذَّر على الظَّاهر مُلكه، ومـا أقبح بالمُلوك وأبناء المُلوك أن يكون هذا الرجل الغريب المُنفرد أحسن سيرة وأعفّ عن أموال الرعيـة وأقرب إلى الخير منهم، ولا أعلم ـ اليوم ـ في وُلاة أُمور المُسلمين أحسن سيرة منه"[3].

وقال عنه ابن الجزري: "كان صالحاً زاهداً مُحسناً مُتصدِّقاً يُحيي ثُلـث الليـل صـلاة، ويجـالس الصالحين، وكان واسطة خير. وكان قد طهَّر حلب من الفُسق والفُجُور والمكس والخُمُور[4]".

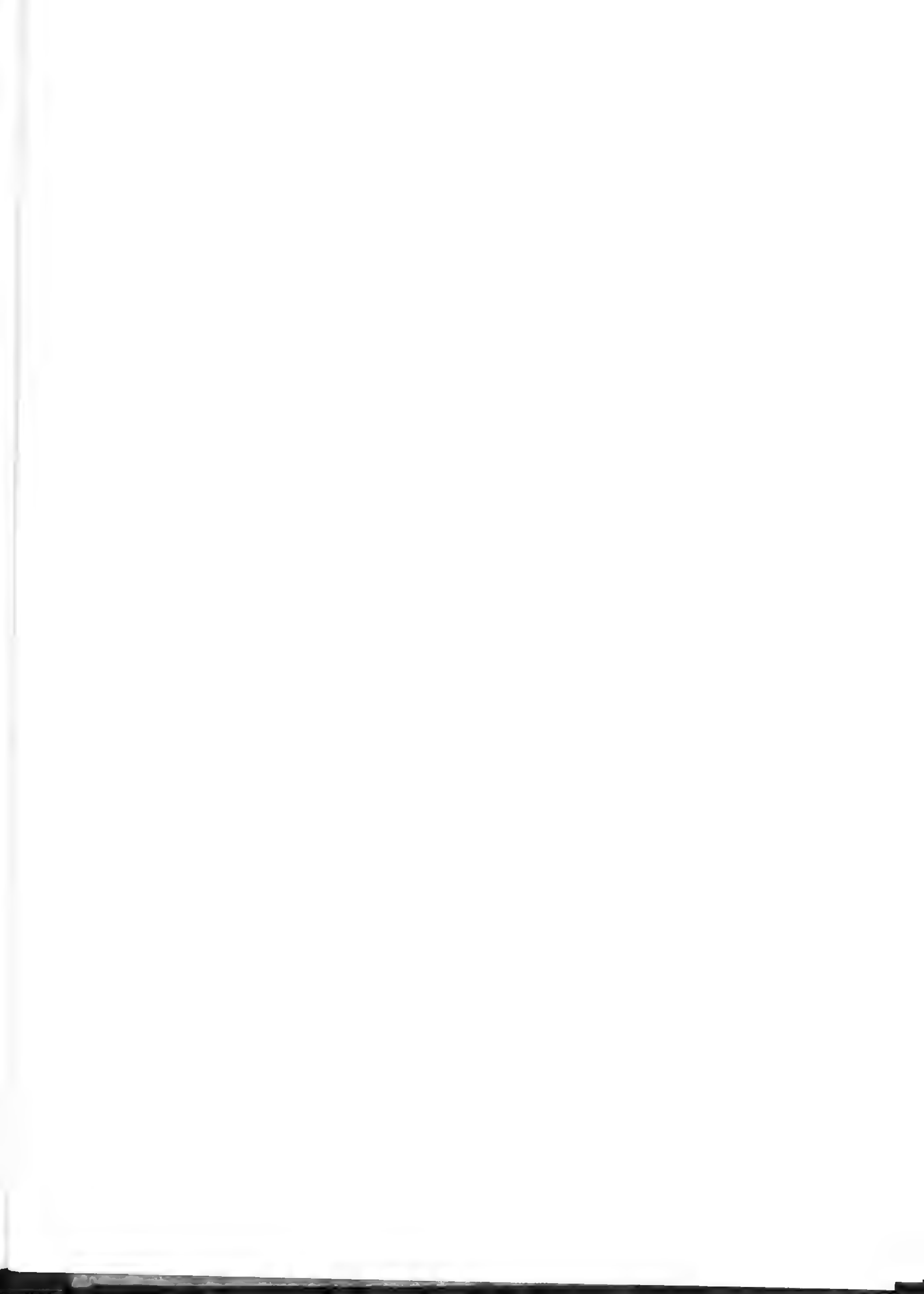
---

1 - رسم بعض المُؤرِّخين الاسم: طغرل، وبعضهم بزيادة ياء فيـه: طَغْريـل. راجـعْ ترجمتـه في: وفيـات الأعيـان، ابـن خلكان، 7/ 100، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 215 ـ 216، والنُّجوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6 / 286، وشذرات الذهب، ابن العماد، 5 / 145.

2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 154.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 313.

4 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 154.



الفصل الثَّاني

العلاقات الخارجيَّة للقبائل البدويَّة

المبحث الأوَّل:

سُلطة الدولة وقُوَّة البدو

مع أن الحُكَّام الأيُّوبيِّيْن كانوا أكراداً بأصلهم، فلم يُلاحَظ اهتماماً خاصَّاً منهم بالأكراد، أو بتميُّز لوضعهم، أو بتحامل على المجموعات والقوميات الأُخرى. ويُمكن أن نردَّ ذلك إلى أن الأُسرة الأيُّوبيَّة الحاكمة قد تعرَّبت تماماً بثقافتها، وتربيتها، فقد نشأ أفراد الأُسرة الأيُّوبيَّة "نشأة عربية إسلامية، وشغفوا حُبَّاً باللُّغة العَرَبيَّة، وآدابها، وعُلُومها، وقرَّبوا إليهم الشعراء، والعُلماء، والكُتَّاب"[1]، وكان لتعلُّقهم الشديد بالإسلام أكبر الأثر بسُرعة تعرُّبهم، وهذا ينطبق على كُلِّ الأكراد، وليس على الحُكَّام الأيُّوبيِّيْن فقط[2]، وإن الصدامات المحدَّدة التي تمَّت بين الأيُّوبيِّيْن وبعض القبائل العَرَبيَّة، مثل حملتهم في مصر على بني كنز الدولة، أو الجذاميين، فهي حالات خاصَّة، تمَّت تحت ضغط ظُرُوف سياسيَّة خاصَّة[3].

وعلى العكس من ذلك؛ نجد أن ما ارتقى إليه أُمراء القبائل العَرَبيَّة في مصر والشَّام في العصر الأيُّوبي فاق كُلَّ ما سبقه، وذلك نتيجة لتنامي دورهم السِّياسي والعسكري، إن كان في الصراعات الدّاخليَّة بين مُلُوك البيت الأيُّوبي، أو في الصراع ضدَّ فرنج الساحل الشَّامي، فقد أحدث العادل منصب إمرة العَرَب في الشَّام، وقلَّده للأمير حديثة[4] بن عقبة بن فضل بن ربيعة[5]، وتوارث هذا

---

1 - في تاريخ الأيُّوبيِّيْن، أحمد العبادي، 2/ 94.

2 - لقد بلغ من تعرُّب الأكراد في العصر الأيُّوبي روايتهم للحديث، وتعمُّقهم في الفقه، وتذوُّقهم للشعر العَرَبي، ونظم بعضهم لبديع الشعر، انظرْ: ديوان الملك الأمجد الأيُّوبي، وكذلك قصيدة جُندي كُردي في رثاء أمّ المُظفَّر ملك حماة. (المُختصر، أبو الفداء، 3/ 124).

3 - دراسات في تاريخ العُرُوبة، عبد المجيد عابدين، 118.

4 - قبائل العَرَب، العمري، 117.

5 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 206، ـ يقول ابن خلدون: إن الإمرة على العَرَب كانت زمن العادل لعيسى بن مُحمَّد بن ربيعة، ثُمَّ بعده لمانع بن حديثة بن عقبة بن فضل، الذي تُوفِّي عام 630 هـ وخلفه ابنه مهنَّا، ومهنَّا بن مانع هُو الذي حضر معركة عَيْن جالوت مع المُظفَّر قطز، وأقطعه بعدها سلمية. (العبر، ابن خلدون، 6/ 18).

المنصبَ أبناؤه، وازدادوا رفعة وعزَّة ومنعة، حتَّى أصبح الأمير منهم يُسمَّى ملكاً[1]، ولا يختلف عن المُلوك إلَّا بطريقة حياته البدويَّة[2]. وكانت رتبة الإمرة تعني منح بُوق يُضرَب على بابه، وفي تحرُّكاته، وعَلَم يرفعه أثناء مسيره[3].

وقد نظَّمت الدولة الأيُّوبيَّة ـ فيما بعد ـ علاقاتها مع أُمراء البدو من خلال ديوان خاصٍّ، يُشرف عليه موظَّف عالي المُستوى؛ يُسمَّى المهمندار، رُبَّما كانت وظيفته تُعادل مرتبة وزير لشُؤُون البدو، وكان يتمتَّع بمعرفة دقيقة لقبائلهم، وأنسابها، والعلاقات فيما بينها، "ويتلقَّى الرُّسُل والعُرْبان الواردين على السُّلطان، ويُنزلهم دار الضيافة، ويتحدَّث في القيام بأُمُورهم"[4]. ومُعظم معلومات المُؤرِّخين عن هذه الوظيفة مُستمدَّة من مهمندار عاصر أواخر الدولة الأيُّوبيَّة وأوائل المملوكية هُو بدر الدِّين أبو المحاسن يُوسُف بن أبي المعالي بن زماخ المعروف بابن سيف الدولة، لأنَّه ـ فيما يقال ـ من ذُرِّيَّة سيف الدولة الحمداني[5]، ويُضيف ابن حَجَر عن بدر الدِّين مهمندار العَرَب: "وُلد سنة اثنتَيْن وستِّماية، وكان مُتجنِّداً ـ من أُمراء السيف ـ وله يد في النَّظْم والتاريخ، وله تصانيف في الأنساب والبديع"[6]. وعلى ما يبدو؛ لم يكن الهدف من إقامة إمرة البدو تسليط قبيلة على بقيَّة القبائل، أو رفعها فوقهم، وهذا أمر حسَّاس جدَّاً في التعامل مع البدو، بل كان لاتِّساع أراضي الدولة وتداخل الحُدُود مع الدُّول المُحيطة وضمن المهالك الأيُّوبيَّة نفسها، ولعدم اعتراف البدو بهذه الحُدُود وتحرُّكهم بحُرِّيَّة كاملة عبرها، فهدفت الدولة الأيُّوبيَّة، من منصب أمير العَرَب، ضبطَ هذا التحرُّك، ورُبَّما الأهمُّ من ذلك ضبط استغلال القبائل البدويَّة للصراعات الإقليميَّة، فتقوم الدولة بدعم قبيلة قويَّة عن طريق تسمية شيخها أميراً للعرب، لتساعد الدولة في ضبط بقيَّة القبائل.

---

1 - العبر، الذهبي، 5/ 344.
2 - حول إمرة العَرَب راجعْ: العبر، ابن خلدون، 6/ 18.
3 - وهي تعادل إمرة طبلخاناة أيَّام المماليك، راجعْ: قبائل العَرَب، العمري، 16.
4 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 22.
5 - ابن حَجَر، الدُّرر الكَامنة، 5/ 231.
6 - ابن حَجَر، الدُّرر الكَامنة، 5/ 231.

ونتيجة لتنامي دور القبائل في الدولة الأيُّوبيَّة، ومن بعدها في الدولة المملوكية، نجد أن عدداً لا يُستهان به من المُؤرِّخين قد أفردوا مُؤلَّفات عن الأعراب[1]، وكُلُّ مَنْ كَتَبَ عن العصر الأيُّوبي لابُدَّ أنَّه تحدَّث عن الأعراب بقليل أو بكثير، فكان لهم - بذلك - فضل حفظ أحداث ومعلومات كانت - حتماً - ستضيع لو لم يقوموا بتدوينها في مُؤلَّفاتهم. وهُنا؛ لابُدَّ من الإشارة إلى ظاهرة بدت شبه عامَّة في الكتابة عن البدو، أو الأعراب، فقد ركَّز الكُتَّاب على مَيْل البدو للفساد والتخريب، ومع أن هذا لا يُمكن إنكاره في ذلك العصر، ولكنَّه تعميم يُخطئ أكثر ممَّا يُصيب في شموله لكُلِّ ما يقوم به الأعراب، فلم تُؤخَذ بعين الاعتبار الأُمُور التَّالية:

1 - نظرة الدولة إلى البدو، فقد كانت - غالباً - متعالية، إنْ لم نقل إنَّه كان فيها من الاحتقار للأعراب الشيء الكثير.

2 - شعور الأعراب بأنَّهم أُبعدوا - بالقُوَّة - عن مسرح السياسة في بُلدان لهم فيها أكثر بكثير ممَّا للحُكَّام الغرباء بأصلهم على الأقلّ.

3 - انعزال المُلُوك والأُمراء في الدولة عن مُشكلات الشعب بشكل عامٍّ، ممَّا يستدعي - في كثير من الأحيان - ردَّ فعل شعبيَّاً، إنْ كان في المُدُن، أو الأرياف، أو لدى البدو، ولكُلٍّ طريقته في التعبير عن المُطالبة بحقِّه، أو تأكيد وُجُوده.

4 - دائماً كانت الدولة تُواجه تحرُّكات الأعراب بأقصى ما تملك من العنف، الإجلاء، والقتل، والنهب، ذلك كُلُّه لابُدَّ أن يترك أحقاداً قابلة للإثارة كُلَّما سنحت الفُرصة.

ولذلك نجد أن مُعظم مَنْ كَتَبَ في ذلك العصر عن البدو قد كَتَبَ بنَفَس الدولة، وبوُجهة نظرها، وبرؤياها لقضية الأعراب. ولكنْ؛ إذا أردنا أن نكون صادقين أكثر، فإن واقع الأعراب نفسه كان يتحمَّل جُزءاً كبيراً من المسؤولية، وذلك لعدَّة أسباب، منها:

1 - اعتاد البدو على طريقة للكسب، أصبحت - مع مُرُور الوقت - مشروعة في عُرْفهم؛ وهي النهب.

---

1 - مثل: المقريزي: البيان والأعراب عمَّا بأرض مصر من الأعراب، والقلقشندي: قلائد الجمان، وابن فضل الله العمري: قبائل العَرَب، وغيرهم.

2 ـ ضعف الشُّعُور الوطني والدِّيني لدى البدو، نتيجة لعوامل عديدة، أدّى لتقديم مصلحتهم الآنية على كُلِّ ما عداها في مواقفهم، وتصرُّفاتهم.

3 ـ ضغط الظُّرُوف البيئية على البدو، كسنوات الجفاف مثلاً، في ظلِّ غياب مُساندة فعَّالة، من الدولة، أو من المُجتمعات المستقرَّة في الأرياف والمُدُن، لتجاوز تلك الظُّرُوف.

4 ـ إنَّ تخلُّف مُجتمع البداوة وافتقاده للتنظيم، أقام هُوَّة بينه وبين المُجتمع الحضري، مع كُلِّ ما بينهم من احتكاك، ذلك كُلُّه جعل الأعراب هدفاً سهلاً للدولة، تستطيع التعامل معه وُفق مُقتضيات الظُّرُوف، فإمَّا قتلاً وتشريداً، وإمَّا تحالفاً واستغلالاً لقُوَّة البدو العسكريَّة.

ولكنَّنا ـ الآن ـ لا نستطيع إلَّا أن نعترف أنَّه كان للأعراب كثير من المواقف الجهادية ضدَّ أعداء الأُمَّة، ومن المواقف الوطنية التي كانت تتفجَّر عندما يُحسن القائمون على الدولة توجيهها ورعايتها. ورُبَّما كانت كُلُّ تصرُّفات البدو اللامنضبطة موجَّهة ضدَّ الدولة، فلضغطها الدائم عليهم كانوا يستغلُّون وقت حاجتها إليهم أكبر استغلال، فعندما استدعى الملك الأشرف عام 615 هـ 1218م، الأمير مانع بن حديثة وعُربانه لمُساعدته في التّصدِّي لهُجُوم سُلطان الرُّوم كيكاوس على الجزيرة وحلب، "عاثت العَرَبان في بلد حلب، والملك الأشرف يُداريهم لحاجته إليهم"[1]. وفي عام 620 هـ 1223م، قامت قُوَّة مُسلَّحة كبيرة من الأعراب، واعترضت قافلة الحجِّ الشَّامي، ولولا حنكة قائد القافلة أمير الحاج شرف الدِّين يعقوب بن مُحمَّد الموصلي، الذي صانع الأعراب بماله، وصان القافلة منهم، بالترغيب والترهيب[2]، وإلَّا لكانوا فتكوا بها دُون أيِّ وازع ديني، أو مُراعاة لحُرمة حُجَّاج البيت الحرام. كذلك استغلَّ الأعراب هُجُوم جلال الدِّين منكبرتي على شمال العراق عام 622 هـ 1225م، فخلعوا الطاعة، وقطعوا الطريق، ونهبوا القُرى[3]، وقد اعتبروا أنَّها فُرصتهم للانتقام، ولكنْ؛ ممَّنْ؟ من الضُّعفاء، والبُسطاء، وصغار التُّجَّار، وليس من الحُكَّام، أو القادة، ولكنْ؛ يبدو أن الأعراب لم يكن لديهم وعي كاف لإدراك الفرق بين الجهتَيْن.

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 265، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 645.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 418.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 428.

المبحث الثَّاني:

المجال السِّياسي والعسكري للبدو

كان البدو ـ مُنذُ قيام الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة ـ يُشكِّلون طبقة لها كيانها المُستقلّ، وقد حافظوا على هذا الكيان مادامو مُحافظين على طبيعة حياتهم ضمن البيئة البدويَّة. وعندما بدأت سيطرة الدولة العبَّاسيَّة تتراخى، وقواها تضمحلُّ، أخذت القبائل العَرَبيَّة البدويَّة تفرض نُفُوذها، فهي مازالت قوى عسكريَّة، لها نوع من التنظيم، مكَّنها من لعب دور جديد من أدوار الصراع بين البداوة والحضر على أرض الشَّرْق العَرَبي، التي طالما تصادما عليها، فكُلَّما ضعفت سُلطة الدولة الحضرية في المُدُن، ازداد نُفُوذ البدو عليها، حتَّى إنَّهم تمكّنوا ـ في هذه المرحلة التاريخية ـ من إقامة دُول حقيقيَّة فوق مراكز حضرية مُهمَّة في شمال بلاد الشَّام. إن مرحلة شُيُوخ القبائل البدويَّة في مُدُن الشَّام، الذين كرهوا إحلال الأمن، وقاوموا مركزية الحُكْم، قد حوَّل البلاد إلى حالة من الفوضى، لا تُحسَد عليها، ممَّا فتح الباب أمام قوى التُّركمان الغريبة، ومكَّنها من التغلغل إلى البلاد بفضل القُوَّة وبعض التنظيم اللذَيْن امتلكهما حُكَّامهم السلاجقة. ولكنْ؛ لم يكن دور البدو الدائم هُو تدمير المراكز الحضرية، ففي بعض الأحيان أحيوها؛ بحيثُ تألَّقت حتَّى التوهُّج، كما في دولة بني حمدان، التي ظهرت كقُوَّة تُمثِّل العصبية العَرَبيَّة[1].

وبعد قيام الخلافة العبَّاسيَّة حدث تحوُّل كبير في طبيعة البنية العسكريَّة للدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة، فقد اعتمد العبَّاسيون في تنظيمهم العسكري على جيش نظامي محترف، حلَّ محلَّ القبائل العَرَبيَّة والجُند المتطوِّعة والمُجاهدين، وبالتَّالي؛ قُطعت الصلة الرَّسْميَّة بين الدولة والقبائل عندما أُلغيت أُعطياتهم من ديوان الجُند، ولم تُحيِّد الدولةُ ـ بذلك ـ قُوَّةَ البدو العسكريَّة، بل فقدت وسيلة مُهمَّة للسيطرة على هذه القُوَّة. ومع تغلغل الضعف في الإدارة العبَّاسيَّة زحفت قبيلة خفاجة من الجزيرة العَرَبيَّة، في مطلع القرن الرَّابع الهجري، وسيطرت على الكوفة والمناطق التي حولها[2].

---

1 - ظهر الإسلام، أحمد أمين، 1/ 58، ـ وكذلك راجعْ: مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 1/ 198.

2 - حول بني خفاجة راجعْ كتاب: بنو خفاجة، مُحمَّد عبد المنعم خفاجي.

كذلك تحرَّك بنو أسد نحو العراق، وأقاموا الإمارة المزيدية[1]، وكانوا من القُوَّة؛ بحيثُ حصلوا على اعتراف السُّلطة البويهية المُتحكِّمة في بغداد عام 403 هـ 1012 م، واستمرَّت هذه الإمارة تُسيطر على برِّ وسط العراق من البصرة حتَّى تكريت، إلى أن حلَّ السلاجقة محلَّ البهويين، فقضوا عليها تدريجياً.

كما أن عدداً من هذه الإمارات أو الدُّويلات البدويَّة تشكَّلت على الحُدُود البيزنطيَّة عندما ضعفت قُوَّة الدولة العبَّاسيَّة عن حمايتها، ودور دولة بني حمدان لا يُنكَر في ذلك، كذلك قامت إمارة آل الشَّيخ البدويَّة في آمد[2]. وعلى أنقاض الدولة الحمدانية أقام بنو كلاب إمارتَيْن مُستقلَّتَيْن؛ وهما الإمارة العقيلية التي قامت في بلاد الجزيرة[3]، والدولة المرداسية[4] في حلب. أمَّا الشكل الآخر الذي ظهرت فيه قُوَّة القبائل البدويَّة؛ فكان من خلال الصراعات بين الدُّول القائمة قُربهم، فقد كانت القوى البدويَّة المُتواجدة في المنطقة هي التي تُرجِّح كفَّة الصراع بينها، وذلك وُفقاً لمصالح القبيلة، وبغَضِّ النظر عن أيِّ اعتبار آخر، وهذا ما دفع ابن فضل الله العمري للقول: "أمَّا في الواقع؛ فكُنتُ أراهم ـ دائماً ـ مع الغالب"[5].

البدو في الدولة الأيُّوبيَّة:

عندما أرسى السُّلطان صلاحُ الدِّين قواعدَ دولته كانت القبائل العَرَبيَّة كما كانت قبل خمسمائة عام، وكما ستستمرُّ لألف عام قادمة، تجوب أرض الدولة في مصر والشَّام، وتتجوَّل على حُدُودها، دُون أن تعترف بهذه الحُدُود، فبين العراق والشَّام وبين نجد والشَّام، وبين برقة وبلاد مصر، تتحرَّك كثير من هذه القبائل، ولا يحدُّ من تحرُّكها أو يُحدِّده إلَّا عاملَيْن: الأوَّل طبيعي، وهُو وُجُود الأعشاب لرعي خُيُولها ومواشيها، والثاني: سياسي، فلكُلِّ قبيلة، أو مجموعة قبلية، مناطق نُفُوذ، ومجال حيوي لا تتركه إلَّا بالقُوَّة. ولكنْ؛ غالباً ما كانت القبائل العَرَبيَّة، أو تحالُفُ هذه القبائل، يُشكِّل قُوَّة عسكريَّة وسياسيَّة ضاغطة على الدولة، فيحظون بالامتيازات والإقطاعات والمُساعدات المالية والألقاب لشُيُوخهم. وكان عدد أفراد القبيلة يعني الشيء الكثير في تحديد موقعها بالنِّسبة لبقية

---

1 - حول هذه الإمارة راجعْ كتاب: الإمارة المزيدية، عبد الجبَّار ناجي.

2 - مروج الذهب، المسعودي، 5 / 145.

3 - راجعْ كتاب: الإمارات العَرَبيَّة في بلاد الشَّام، مُحمَّد مرسي الشَّيخ.

4 - راجعْ كتاب: بنو مرداس الكلابيون، مُحمَّد أحمد عبد المولى.

5 - قبائل العَرَب، العمري، 13.

القبائل، أو بالنِّسبة للدولة المُجاورة لها، فعدد الأفراد هُو عدد المُقاتلين، ومُعظم مُقاتلي البدو كانوا فُرساناً يمتازون بخفَّة المُناورة.

وكان اعتماد الممالك الأيُّوبيَّة على البدو كبيراً مُنذُ أيَّام السُّلطان صلاح الدِّين، ولكنْ؛ ضمن الواقع التالي:

1 ـ تساند القبائل العَرَبيَّة الجيش الأيُّوبي كقُوَّة مُنفصلة بتنظيماتها القبلية، ويُمكن أن تُقاتل كأحد الأجنحة المُستقلَّة للجيش، وذلك نظراً لطريقة تسليح البدو الخفيفة، وطرائقهم الخاصَّة في القتال، الذي هُو ـ غالباً ـ فردي، وغير منضبط، ضمن خُطَّة المعركة العامَّة.

2 ـ يندر أن نجد معركة لم يُجنِّد فيها الأيُّوبيُّون البدوَ للقتال فيها معهم، إلَّا أنَّنا نُلاحظ ـ دائماً ـ صيغة الحذر في التعامل الأيُّوبي مع البدو، وخاصَّة في الأعمال الحَرْبيَّة؛ حيثُ يُمكن أن ينقلب البدو في أيِّ لحظة لنهب أثقال الجيش الحليف إذا ما لاحت هزيمته، كما حدث في معركة دمياط عندما نهبوا مُعسكر المُسلمين[1].

3 ـ غالباً ما كانت تنعكس الصراعات بين الممالك الأيُّوبيَّة على القبائل البدويَّة المحالفة لها، فتجري معارك بين القبائل لا مصلحة مُباشرة فيها لكلا الطرفَيْن، إلَّا إرضاء لأحد المُلُوك الأيُّوبيَّة.

4 ـ كُلَّما كانت الدولة أضعف وعجزت عن تجنيد الجُيُوش ازداد اعتمادها على البدو كقُوَّة عسكريَّة بديلة؛ حيثُ كانت موجُودة دائماً، ومُستعدَّة أن تُقاتل دائماً، ونادراً ما يهمُّها مع مَنْ تُقاتل، أو ضدَّ مَنْ، حتَّى شكَّل البدو ـ في بعض الأحيان ـ قُوَّة كُبْرَى لبعض الدُّول الأيُّوبيَّة، فقال عنهم ابن فضل العمري: "وهم أسوار المُدُن، وحَفَظَة الطُّرُق، ولم يزل منهم أئمَّة للطلائع، وجناح للجُيُوش"[2].

5 ـ مُنذُ ما قبل قيام الدولة الأيُّوبيَّة، خاصَّة القرنَيْن العاشر والحادي عشر الميلاديَّيْن، والشرق العَرَبي يشهد حالة من تعاظم الدور السِّياسي والعسكري للبدو، مع أن ذلك لم يترافق بزيادة كبيرة في أعدادهم، أو نُمُوٍّ لمواردهم الاقتصاديَّة[3]، فتَعَامُلُ الدُّول الأيُّوبيَّة مع البدو كان تعاملاً مع واقع قائم، لكنَّ الأيُّوبيِّيْن ـ غالباً ـ ما كانوا يُسيطرون عليه.

---

1 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36 / 99.

2 - قبائل العَرَب، العمري، 69.

3 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 31.

المبحث الثَّالث:

قبائل البدو من غير العَرَب

كانت كلمة بدو في العصر الأيُّوبي تشمل القبائل العَرَبيَّة البدويَّة ومجموعات عِرْقية أُخرى، أهمّها: التُّركمان، والأكراد، وكانوا ـ بغالبيَّتهم العُظْمَى ـ من المُسلمين السُّنَّة، وقد اتَّبع التُّركمان مذهبَ أبي حنيفة، بينما اتَّبع الأكرادُ مذهبَ الشافعي[1].

آ. التُّركمان:

وهم قبيلة الأغُز من التُّرك، ويُعدُّون اثنَيْن وعشرين بطناً، أوَّلهم وأشهرهم: قنق، ومنها السلاطين[2]. ويقول أبو الفداء: إن الغُز، وهم طائفة من التُّرك، قصدوا خراسان، وهزموا السُّلطان سنجر، وكانوا يعيشون في بلاد ما وراء النهر، حتَّى أخرجهم منها الخطا، "وكانوا كُفَّاراً، وكان مَنْ أسلم منهم وخالط المُسلمين يصير ترجماناً بين الفريقَيْن، .. ثُمَّ قيل تركماناً بالكاف العجمية، ولمَّا أسلم الغُز جميعهم قيل لهم: تراكمين"[3]، ويُؤكِّد أبو الفداء أن الغُز هُم التُّركمان، ولكنَّه لم يكن مُقنعاً في تفسيره لاسم تركمان، فالجذر ترك هُو أساس التسمية كما هُو واضح، وليس له علاقة بالترجمة.

مع امتداد دولة السلاجقة، وبعد مقتل الوزير البساسيري، بدأ الغُزّ بالانتشار في شمال الشَّام، وأخذت قُوَّتهم تتزايد فيه. ثُمَّ عرف الشَّام مجموعةً من التُّركمان باسم: الناوكية، عبرت إلى الساحل الشَّامي من الأراضي البيزنطيَّة بزعامة مُقدَّمهم: قرلو، ويبدو أن الناوكية ليس اسم عشيرة، بل هُو اسم لتجمُّع كان خارجاً على السُّلطان السلجوقي[4]. ثُمَّ تدفَّقت نحو الشَّام مجموعات مُتعدِّدة من التُّركمان، وبرزت أسماء مُقدَّميهم، مثل: جبق، وأرتق[5]، وصندق. وغدا الشَّام مجالاً للصراع بين قُوَّتَيْن بدويَّتَيْن، الأُولى من الأعراب المُتسلِّطين على مناطق واسعة من البلاد، وهم مُتشيِّعون، والثَّانية من الأتراك السُّنَّة، تُريد أن تحلَّ محلَّ الأعراب، وقد مهَّد الصراع بينهما للسيطرة السلجوقية ـ فيما بعد ـ على الشَّام[6].

---

1 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 229.

2 - ديوان لغات التُّرك، الكاشغري، 1/ 56.

3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 26.

4 - ناوك: كلمة فارسية تعني القوس، وربَّما كانت الناوكية تعني جماعة الرماة.

5 - أرتق: أسَّس الدولة الأرتقية في شمال الشَّام.

6 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زكَّار، الموسوعة الشاملة، 1 / 170 ـ 126.

وفي أيّام حُكْم السلاجقة، وبعدهم الزنكيون، تدفَّقت على شمال بلاد الشّام والجزيرة قبائل تركمانية بقضِّها وقضيضها، وهي ماتزال على حالة البداوة، وقامت بالانسياح فيها، تُمارس الرعي، وتربية الماشية، يُشتُّون في سُهُول الجزيرة، ويُصيِّفون في سُفُوح طوروس[1]، ورُبَّما كانت سُهُول حمص آخر ما وصلته القبائل التركمانية جنوباً[2]، وقد شكَّلت مصدراً كبيراً للمُتطوِّعة في الجُيُوش الأيُّوبيَّة، فالسُّلطان صلاح الدِّين ومَنْ جاء بعده من مُلُوك بني أيُّوب كانوا يقومون بحملات مُنظَّمة لجَمْع التُّركمان، ويدفعون لهم النفقات، مُقابل خدمتهم في الجيش[3].

العلاقات بين التُّركمان والممالك الأيُّوبيَّة:

ولكن هذه المجموعات القبلية التركمانية، رُبَّما لعدم توحُّدها، أو لعدم قُدرتها على تنظيم نفسها، لم تُشكِّل قُوَّة عسكريَّة أو سياسيَّة ضاغطة على الممالك الأيُّوبيَّة، فلم يكن لهم أيّ حساب في ميزان القوى الأيُّوبي إلَّا من خلال قيامهم باضطرابات وقَطْعهم الطريق عندما يضطرب الأمن، أو تسنح لهم الفُرصة[4]. ولكنْ؛ عندما تتبنَّى دولة أو تدعم جماعة مُنظَّمة قبائل التُّركمان هذه، وتُحاول تسخيرها لمصالحها، فسُرعان ما نجد أن أحد أُمراء التُّركمان قد ظهر على الساحة، ومعه قوى عسكريَّة كبيرة، تُهدِّد دُولاً وممالك قويَّة، ومثال ذلك:

1 ـ **قنغر التركماني**: بعد وفاة الملك العزيز صاحب حلب عام **634** هـ **1237**م، ظهر على الساحة أمير تركماني اسمه قنغر، يمتلك قُوَّة عسكريَّة كبيرة، مكَّنته من الإغارة على أراضي مملكة حلب، وهزيمة جيشها، "فتخوَّف أُمراء حلب أن يكون ذلك بأمر الرُّومي، فأرسلوا له، فأنكر، وأمره برَدِّ ما أُخذ، فردَّ بعضه، وانكفَّ عن العيث والفساد"[5]. ويبدو أن الأمر برُمَّته كان بتوجيه من كَيْقُبَاذ سُلطان سلاجقة الرُّوم، بقصد توطيد هيمنته على مملكة حلب الأيُّوبيَّة، التي اعتقد أن الوقت مُناسب للتدخُّل في شُؤُونها، بعد موت ملكها، وقيام ابنه الصغير مكانه[6].

---

1 - روايات المُؤرِّخ ميخائيل السوري الكبير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 5/ 298.

2 - راجعْ : مملكة حمص، منذر الحايك، 247.

3 - الشَّرق الأدنى ـ الأيُّوبيُّون، السَّيِّد الباز العريني، 165.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 327، و الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 179.

5 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 680 ـ 681.

6 - راجعْ تفصيل ذلك في مبحث العلاقات مع سلاجقة الرُّوم في هذا الكتاب.

وبعد عام واحد؛ انقلبت الآية مع قنغر، ففي عام 635 هـ 1238م، نزل السُّلطان الكامل[1] من مصر، وحاصر دمشق، وأخذها، فاستعدَّت حلب للحصار، واستقدمت المُقاتلين والمُتطوِّعة لاستخدامهم، ووصل قنغر التركماني، فاستخدم بحلب، وقُدِم على التُّركمان، ولكن القدر لم يتحْ لقنغر الدفاعَ عن حلب، فأثناء استعداد السُّلطان الكامل لغزو حلب مرض، ومات بدمشق[2]، فقام الحلبيون بالقبض على قنغر التركماني، وحبسوه بقلعة حلب، ونهبوا خيامه ودوابّه، فلم يعدْ لهم به حاجة، كذلك كان الأمر بالنِّسبَة له مع سلاجقة الرُّوم، فبعد أن استخدموه، تركوه لمصيره في حلب[3].

2 . **ابن دودي التركماني:** أثناء تحرُّك الخَوَارزميَّة في الجزيرة وشمال الشَّام، ومُهاجمتهم لمملكة حلب ضمّوا إليهم جموعاً من التُّركمان المُتواجدين في المنطقة، وكانوا أعداداً كبيرة، فقد ذكر أنَّهم "سبعون ألف جوبان ما عدا الجفالة "[4]، وهذه مُبالغة، فلو كان عدد التُّركمان سبعة آلاف لكانوا كثيرين. وكان يقود جُمُوع التُّركمان هذه رجل منهم اسمه ابن دودي[5]، أو ابن دودا[6].

ولكن تصدِّي المنصُور إبراهيم ملك حمص للخَوَارزميَّة وحُلفائهم التُّركمان عام 640 هـ1243 م، وإلحاقه بهم هزيمة شنيعة[7]، أدَّت إلى تشتُّت قوى التُّركمان مرَّة أُخرى، وتبعثرهم في الجزيرة وشمال الشَّام. كما أن وُجُود قُوَّتَيْن بدويَّتَيْن هما القبائل العَرَبيَّة والقبائل التركمانية، مع ما لهما

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 685.

2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 686.

3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 687.

4 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 331، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 470، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 706، ـ الجفالة: هُم من جفل، أو فزع من شيء، ومضى هارباً على وجهه، أمّا الجوابنة؛ فَجَمْعٌ مُفرده جوبان، وفيها عدَّة أقوال، فيُمكن أن تكون نسبة إلى قبيلة جوبي الكُردية (السُّلوك، المقريزي، 1/ 4)، ونستبعد ذلك، فالحديث هُنا عن التُّركمان. ويُمكن أن تكون نسبة إلى جوبان وهي من قُرى مرو (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: جوبان). ومن الاستخدامات اللاحقة لهذه الكلمة نميل إلى الاعتقاد بأنّه كان يقصد بالجوابنة المُقاتلين المشاة الذين لا يحترفون القتال، ثُمَّ تطور معنى الكلمة فيما بعد لتُطلَق على مَنْ يعمل برعي المواشي بالأجرة.(سيرة منكبرتي، النسوي، 107، ودراسات في تاريخ الرستن، منذر الحايك، 251).

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 296، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 512.

6 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد ، 3/ 2/ 470، وكَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7 / 305.

7 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 170.

من طريقة الحياة نفسها، كان لابُدَّ أن يؤدِّي إلى صدامات بينهما، ففي عام 622 هـ 1225م، جرت معركة كبيرة بين مجموعات من القبائل العَرَبيَّة وتجمُّع لقبائل التُّركمان قُرب الرقّة[1].

3. **الياروقية:** وهم جماعة من التُّركمان، ينتسبون إلى ياروق، وهُو زعيم قديم لهم وجَدّ مُقدَّمهم دلدُرُم، وقد ظهرت الياروقية كمجموعة عشائرية مُقاتلة في أيّام السُّلطان نُور الدِّين بن زنكي، وكانت حلب مقرّهم الرئيس، فقد سكنوا في ربضها؛ حيثُ عرفت محلّتهم بالياروقية[2]. وكانت إقطاعاتهم في جبل السماق وتلّ باشر وغيرها[3]، وخدموا بعد موت نُور الدِّين مع ابنه في حلب، وشاركوا مع قُوّات الأتابكة ضدَّ توسُّع السُّلطان صلاح الدِّين في الجزيرة[4]. وبعد أَخْذ السُّلطان صلاح الدِّين لحلب انضمُّوا إليه، وكانوا ضمن عسكر ابنه الملك الظَّاهر غازي بحلب طالما كان والده السُّلطان حياً، ولمَّا تُوفِّي صلاح الدِّين عام 589 هـ 1193م، ترك الياروقية خدمة الظَّاهر، والتحقوا بعمِّه الملك العادل[5]، وكان ذلك بسبب خوفهم من انتقامه منهم، فقد "تكبَّروا، وتحامقوا على الظَّاهر، وقصَّروا في خدمته في حياة أبيه، وكانوا يُعظِّمون دلدُرُم بن ياروق، ويركبون كُلُّهم في خدمته كأنَّه السُّلطان"[6]، فلمَّا استقلَّ الظَّاهر بملك حلب اعتقل مُقدَّمهم دلدرم بن ياروق، وطرد الياروقيةَ كُلَّهم من حلب، وأخذ إقطاعاتهم، ثُمَّ شفع الملك العادل بدلدرم، فأطلقه الظَّاهر؛ حيثُ انضمَّ إلى العادل[7].

ب. الأكراد:

يقول المقريزي: "اعلمْ أن الناس قد اختلفوا في الأكراد"، وبعد أن يعدِّد أقوال لا يُعتَدُّ بها حول أصلهم، يقول: "إنَّما هُم قبيل من قبائل العجم، وهم قبائل عدَّة"[8]. وهذا هُو القول الفصل في اعتقادنا. وقد تواجدت قبائل الأكراد في المناطق نفسها من شمال الشَّام والجزيرة إلى جانب

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 112.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 647، والتاريخ المُختصر، ابن أبي الدم، 529.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 601.
4 - التاريخ المُظفَّري، ابن أبي الدّم، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 21/ 260.
5 - التاريخ المُختصر، ابن أبي الدم، 528.
6 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 601
7 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 602 ـ 604.
8 - الخطط والآثار، المقريزي، 3 / 83.

التُّركمان، وكانت مجموعات بدوية كُردية، مُنْذُ القرن الخامس الهجري، قد هاجرت إلى تلك المناطق على دفعات، إمَّا على شكل مجموعات عسكريَّة، أو تحرُّكات قَبَلية، واستطاع بعضها تأسيس الدولة المروانية في ديار بكر[1]، لكنَّها ظلَّت أقلّيَّة همُّها الصراع مع المجموعات البدويَّة التركمانية على مناطق النُّفوذ، والاشتراك في أحداث الشغب كُلَّما سنحت الفُرصة. ولم يكن لها أيُّ دور سياسي أو عسكري إلَّا من خلال التطوُّع العسكري كأفراد في الجيش النظامي، أو كعشائر تُقاتل كقُوَّات مُساندة للجيش النظامي، وقد كانت عدَّة قبائل من الأكراد تُقاتل مع جيش عماد الدِّين زنكي في هُجُومه على الرُّهَا[2]. وحاول نُور الدِّين بن زنكي مُوازنة التُّركمان بالأكراد، فاستخدمهم بجيشه بكثرة، وكان الأكراد قد أخذوا بالتدفُّق على شمال العراق والشَّام بعد أن دمَّر الكرج دولة منوجهر أو بني شدَّاد الكُردية، وهذه الهجرة ستُمهِّد لانتقال السُّلطة من دولة الأتابكة التُّركمان إلى دولة الأيُّوبيِّين الأكراد[3]. ومع قيام الدولة الأيُّوبيَّة برزت على الساحة مجموعات من الأكراد يجمعهم الانتساب إلى بلدة واحدة، أو قرابة عائلية وعشائرية، وكان منهم:

1 - **القيمرية:** وهم قوم من الأكراد، ينسبون إلى بلدة قيمر[4]، هاجروا إلى الشَّام كمجموعة قبلية، وكان زعيمهم في دمشق ناصر الدِّين أبو المعالي حسين بن عزيز بن أبي الفوارس القيمري الكُردي، وكانوا حامية دمشق في عهد الملك الصَّالح أيُّوب، وهم الذين استدعوا الملك النَّاصر يُوسُف، وفتحوا له أبواب دمشق، بعد قتل المماليك للملك المُعظَّم بن الصَّالح أيُّوب في مصر[5]. وقاتلوا مع النَّاصر يُوسُف في هُجُومه على مصر ضدَّ المماليك، وثبتوا معه عند الهزيمة، وقُتل في تلك المعركة جماعة من أُمرائهم[6]. ولكنَّهم ما لبثوا أن حاولوا قلب دولة النَّاصر يُوسُف عندما كان في محنته أمام التَّتار، "فخاف النَّاصر، وتخيَّل من الأُمراء القيمرية، الذين في دمشق، فاضطرب، وتحيَّر"[7].

---

1 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 2/ 294.
2 - روايات المُؤرِّخ الرهاوي المجهول، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 5/ 63.
3 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 2/ 280.
4 - قيمر: قلعة في الجبال بين المَوصل وخِلاط. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: قيمر).
5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 463.
6 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7/ 8.
7 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 500.

ويبدو أن القيمرية ـ مُنْذُ قُدُومهم إلى دمشق مع الملك النَّاصر يُوسُف ـ قد استقرُّوا فيها، وشادوا فيها من المعالم العمرانية ما خلَّد اسمهم حتَّى الآن، فَحَيُّ القيمرية الواقع شرق الجامع الأموي، والمنسوب إليهم هُو من أهمِّ معالم مدينة دمشق القديمة، وقد أخذ الحيُّ اسمَهُ من المدرسة القيمرية التي أنشأها الأمير ناصر الدِّين القيمري[1]، ومن تسمية هذا الحيِّ أُطلق اسم باب القيمرية على الباب الشرقي للجامع الأموي[2]. كما تُوجد مدرسة أُخرى باسم القيمرية، تُسمَّى القيمرية الصُّغْرَى[3]. وفي دمشق ـ أيضاً ـ حارة القيمري، وهي في حيِّ الصالحية عند البيمارستان القيمري[4].

2. الشهرزورية:

وهم مجموعة من الأكراد، ينتسبون إلى شهرزور[5]، فرُّوا من أمام غزو هُولاكُو لشمال العراق، وقدموا إلى دمشق، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف فارس، ومعهم أولادهم ونساؤهم، فاستخدمهم الملك النَّاصر يُوسُف، وأحسن إليهم، وأعطاهم الأموال والإقطاعات، وكان ذلك بطلب من القيمرية، وبتزكيتهم للشهرزورية أمام النَّاصر. ولكن الشهرزورية لم يقتنعوا بما حصلوا عليه، ولم يزدهم إحسان النَّاصر إلَّا عصياناً، ثُمَّ تركوا مُعسكر النَّاصر، والتحقوا بالملك المُغيث صاحب الكَرَك، وبعد هزيمة المُغيث أمام قُوَّات النَّاصر عام **657 هـ 1259م**، طلب النَّاصر إبعاد الشهرزورية من الكَرَك، فغادروها نحو ساحل فلسطين الجنوبي، وأقاموا هُناك[6].

1- أبو المعالي ناصر الدِّين حسين بن علي، وقيل: ابن عبد العزيز القيمري الكُردي، مُقدَّم جُيُوش الملك النَّاصر يُوسُف الثَّاني، وهُو الذي سلَّمه دمشق، تُوفِّي مُرابطاً في الساحل عام 665 هـ. (الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي، 1/ 335).

2 - القلائد الجوهرية، ابن طولون، 1/ 91 ـ 127.

3 - الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي، 1/ 339.

4 - وهُو جانب جامع الشَّيخ محيي الدِّين، شُيِّد عام 656 هـ (الدارس في تاريخ المدارس، النعيمي، 2/ 158، والمروج السندسية، ابن كنان، 34، ومُعجم دمشق التاريخي، قتيبة الشهابي، 1/ 221، ومعالم دمشق التاريخية، إيبش وشهابي، 463).

5 - شهرزور: كُورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان، والمدينة في صحراء، أهلها من الأكراد العُصاة، ولهم بطش وشدَّة. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: شهرزور).

6 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 46، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 505.

المبحث الرَّابع:

أعراب الشَّام ودورهم السِّياسي

كانت بادية الشَّام ـ مُنذُ القدم ـ مكاناً تنتشر فيه القبائل العَرَبيَّة، التي مازالت تعيش حالة البداوة، وتعدُّ أن هذه البادية موطنها، وأن سُهُول الشَّام هي عُمقها الحيوي، الذي تفزع إليه، سلْماً، أو حرباً، عند الخطر، وعند انعدام مصادر الحياة في البادية. وكانت ممالك الشَّام الأيُّوبيَّة تلتفُّ كقوس حول بادية الشَّام من حلب، إلى حماة، فحمص، فدمشق، فالكرك، وكُلٌّ من هذه المُدُن كانت تقوم بدور البوَّابة ما بين البادية والسُّهُول السَّاحليَّة، ومن ثَمَّ؛ البحر. وكان جُزء كبير من اقتصاد مُدُن الشَّام، التي تُشكِّل كُلٌّ منها إحدى الدُّويلات الأيُّوبيَّة، يستند ـ بشكل كبير ـ إلى تبادل المُنتجات مع سُكَّان البادية، وجُزء آخر من هذا الاقتصاد يعتمد على تسيير القوافل التِّجاريَّة عبر البادية، لذلك كانت علاقات تلك الممالك مع البدو على غاية من الأهمِّيَّة، وللسبب نفسه؛ كان لأُمراء البدو علاقات مُتميِّزة مع مُلُوك بني أيُّوب في الشَّام.

وكان لمُلُوك الشَّام الأيُّوبيَّة أسباب أُخرى لا تقلُّ أهمِّيَّة عن الأسباب الاقتصاديَّة لإقامة أوثق العلاقات مع البدو، فللقبائل البدويَّة طريقتها الخاصَّة في القتال، التي تعتمد على الكَرِّ والفَرِّ والسُّرعة الهائلة في التحرُّك، ولا تستطيع الجُيُوش النِّظاميَّة مجاراتها بذلك، ممَّا أجبر المُلُوك الأيُّوبيَّة في الشَّام على اصطناع كُلٍّ منهم للقبائل البدويَّة التي تجاوره، لا ليأمن شرَّها فقط على أريافه وقوافله التِّجاريَّة، بل لتكون ـ وقت الحاجة ـ رديفاً لقُوَّاته، أو طليعة لها، أو للتصدِّي لعُربان المُلُوك المُعادين له. وقد استخدم المُلُوك الأيُّوبيَّة في الشَّام القبائلَ البدويَّة في كُلِّ حُرُوبهم، إمَّا بشكل قُوَّات عسكريَّة رديفه لكتلة الجيش النظامي، وإمَّا على شكل كمائن، تنقضُّ في الوقت المُناسب على قُوَّات العدوِّ. كما استخدموا القبائل البدويَّة لشنِّ الحَرْب الاقتصاديَّة في بلاد خصومهم عن طريق رعي الزروع وقطع الأشجار ونهب القرى[1]. وبلغ من اختصاص المُلُوك الأيُّوبيَّة في الشَّام بجماعات وقبائل من البدو أنَّه كان يُقال "عرب الملك الأشرف"[2]، "وعربِ الملك المُجاهد"[3]، "وعرب الملك المُعظَّم"[4].

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 470.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 267.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 254.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 142.

كذلك كانت قبائل البدو تدفع الضرائب للملك الذي تعيش في جواره، وكانت الضريبة المفروضة عليهم اسمها العدَّاد، وماتزال هذه الضريبة مفروضة في وقتنا الحاضر، ولها الاسم ذاته، وهي تُحدَّد وُفقاً لعدد الأغنام أو الإبل التي يملكها كُلُّ شخص، فيقوم الوكيل - ويُسمَّى عند البدو العَدَّاد - بِعَدِّ الماشية، ويتسلَّم ضريبة كُلِّ رأس منها. ويبدو أن وُجُود أمير لعرب الشَّام لم يمنع المُلُوك الأيُّوبيَّة من القيام بواسطة وكلائهم الخاصِّين من القيام بالعدَّاد، وأَخْذ الضريبة مُباشرة من البدو دُون واسطة أمير العَرَب[1]، فربما كانت وظيفته سياسيَّة وعسكريَّة فقط بعُرف المُلُوك الأيُّوبيِّين. ولاعتماد البدو على تربية الماشية، فقد كان يتمُّ في أماكن تواجدهم رعي كثيف للأعشاب، لذلك كانت السُّلطات المحلِّيَّة تُزيحهم من طريق الحملات العسكريَّة، أو عن طريق الملك في تنقُّلاته، لتوفير الأعشاب للحملة، أو للحاشية، ودوابِّ الحمل، والركوب العديدة فيها[2].

قبائل الشَّام العَرَبيَّة:

بعد الفتح العَرَبي الإسلامي لبلاد الشَّام تدفَّقت نحوها القبائل العَرَبيَّة، وانتشرت القبائل الشمالية العدنانية في كافَّة مناطق الشَّام جنوباً وشمالاً ما عدا منطقة الوسط، حمص وباديتها، فقد اختصَّت بها القبائل العَرَبيَّة الجنوبية اليمانية. ولكنْ؛ مع مُرُور الزمن، كانت هُناك تبدُّلات ديموغرافية كبيرة، حتَّى إنَّنا لا نكاد نرى أيَّ ملامح للتقسيم السَّابق في العصر الأيُّوبي، فمُنْذُ العصر الفاطمي سيطرت القبائل اليمانية على جنوب ووسط الشَّام، فقد كانت - وقتها - قبيلة طيء اليمانية، بزعامة آل الجرَّاح، أكبر القبائل في جنوب الشَّام، ووسطه.

وكانت جذام اليمانية تُسيطر على وسط وشمال فلسطين، ومنهم بنو مرَّة، وبنو فيض، وبنو شجاع، في القُدْس، وما حولها، والعناترة حول بلدة الخليل. وكان بنو نمير في الكفرية ونمرين[3] في حوران. وفي وسط سُورية؛ نجد بني زبيد وأبناء عمِّهم بني ربيعة من طيء اليمانية ينتشرون في غوطة

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 622.
2 - رسالة جوزيف دي كانسي، من فُرسان مُستشفى القدِّيس يُوحنَّا إلى الملك إدوارد الأوَّل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36 / 369.
3 - كفرية ونمرين: لا نجد - الآن - اسم كفرية في حوران، أمَّا اسم نمرين؛ فمع عدم وُجُوده حرفياً، فإنَّ هُناك قُرى في حوران تحمل أسماء: نمر ونمرة. (المُعجم الجغرافي للقطر العَرَبي السوري، 427 - 428).

دمشق، وشمالها. وفي جنوب فلسطين؛ انتشر بنو جرم من طيء، ويُقال لهم بنو ثعلبة[1]. ومن طيء ـ أيضاً ـ كانت قبيلة غزيه، التي انتشرت ما بين الشَّام والعراق والحجاز، ومنها البطنين. كذلك كانت بقايا قبيلة غسَّان، وهي من الأزد، من كهلان اليمانية، ومنهم طائفة في حمص. واستطاعت عدَّة بطون من طيء أن تُسيطر على مناطق واسعة جنوب فلسطين وجنوب شرقي الأردن، كذلك نجد زعماء طيء في فلسطين من آل الجرَّاح قد استولوا على الرملة[2]، وأظهرت طيء سيادتها على القبائل في جنوب الشَّام أيَّام شيخهم دغفل بن الجرَّاح وأولاده مفرج وحسَّان[3]، اللذَيْن تحالفا مع الفاطميين أوَّلاً، ثُمَّ اصطدما بهم. وانتهت سيادة آل الجرَّاح بوفاة حسَّان بن دغفل عام 433 هـ 1043م[4]. وفي ظلِّ آل الجرَّاح كان يعيش بنو مهيد في وادي مُوسى، وكانوا يقطعون الطريق هُناك، ويخضعون لمنصُور بن دغفل[5]، وحول الكَرَك عاش بنو مهدي وبنو عقبة، وزعيمهم سابق الدِّين عيَّنه بن مهدي، الذي كلَّفه السُّلطان بيبرس بحماية الطريق حول الكَرَك[6]، وبنو مهدي هؤلاء من عذرة، من قضاعة الحميرية السبئية، ومنهم بطون كثيرة، وبنو عقبة من جذام[7]. أمَّا بنو عاملة، وهم من قبيلة سبأ اليمانية؛ فقد تواجدوا بكثافة في شمال فلسطين، حتَّى سُمِّيَتْ الجبالُ هُناك باسم جبال عاملة.

ومن قبائل عامر بن صعصعة تفرَّعت بنو هلال حول بلدة صرخد في الجولان، حتَّى سُمِّيَ جبل حوران ـ جبل الدُّرُوز الآن ـ باسم جبل هلال. وتفرَّع ـ أيضاً ـ عن عامر بن صعصعة بنو عقيل ابن ربيعة، فقد خرجوا من البحرَيْن إلى العراق، ثُمَّ إلى الجزيرة الشَّاميَّة؛ حيثُ أسَّس زعيمهم قريش وابنه مُسلم الدولةَ العقيليةَ هُناك. ويتواجد في بلاد حلب وجبل الأحص وأطراف الجزيرة تحالف قبلي من أعراب شتَّى يُعرَفون بآل بشَّار، وهم لا ينقادون لأمير واحد، ولو اجتمعوا لما أمن شرَّهم[8].

---

1 - وقد نقلهم صلاح الدِّين من جنوب فلسطين إلى مصر عام 583/ 1187، لأنَّه شكَّ بتعاملهم مع الفرنج. (قلائد الجمان، القلقشندي، 83، والبيان والإعراب، المقريزي، 5، وصُبح الأعشى، القلقشندي، 1/ 322، والروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 526، وقبائل العَرَب، العمري، 107).

2 - ذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي، 31.

3 - راجعْ: وفيات الأعيان، ابن خلكان، مادَّة: حسَّان بن دغفل.

4 - حول آل الجرَّاح راجعْ كتاب: الإمارة الطائية في بلاد الشَّام، مُصطفى الحياري.

5 - الاعتبار، أُسامة بن مُنقذ، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 12/ 158.

6 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 492.

7 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 213 ـ 2/ 334 ـ 12/ 130

8 - قبائل العَرَب، العمري، 145.

أمّا أشهر القبائل القيسية الشمالية في بلاد الشّام؛ فهم بنو كلاب، وقد انتشروا شمال حلب وحتّى سُفُوح جبال طوروس والدروب إلى بلاد الرُّوم، ويعد ضعف الدولة العبّاسيّة وقع على عاتقهم مهمّة التّصدّي للبيزنطيين، وسُجّلَتْ مآثرهم الجهادية ضدّ الرُّوم في السيرة الشَّعْبيَّة المعروفة باسم: الأميرة ذات الهمّة. والمرداسيون فرع منهم أسّس الدولة المرداسية، ما بين 415ـ 472 هـ 1025 ـ 1080م. واستمرّت قبيلة كلاب وتفرُّعاتها في مواقعهم التاريخية شمال الشّام حتّى العصر المملوكي، ولكنّهم لم يخضعوا لقيادة مُوحّدة، ممّا جعلهم يخضعون لزعامة آل فضل[1]، وقد قال عنهم الأمير علاء الدّين ألطنبغا نائب السّلطنة بحلب: "لو كان لهم شيخ كُفء يجمع صُفُوفهم لما استطاعت قبيلة أُخرى الوُقُوف إلى جانبهم"، وقال عنهم ابن فضل الله: "وبنو كلاب عرب أطراف حلب والروم، ولهم غزوات معلومة وغارات لا تُعدُّ، ولا تزال تُباع بنات الرُّوم وأبناؤهم من سباياهم، وهم يتكلّمون بالتُّركيَّة ... وهم عرب غُز، رجال حُرُوب، وأبطال جُيُوش"[2].

وفي أيّام دولة الملك الكامل بن العادل ظهر بنو كلاب على بني ربيعة، الذين اعتذروا عن حمل الغلال إلى مدينة خِلاط، فقد قال مانع بن حديثة وغنام بن طاهر للكامل: "إن الجمال غربت في البرّيّة، ولمّا قام بالأمر بنو كلاب حقد الكامل على مانع وغنام، وعندما أتياه عند أَخْذه لآمد، وبّخهما، وقال: والله؛ لولا إنكما عربيان لأفعلنّ بكما الواجب"[3]، ونستدلُّ من قول الكامل أن صفة العُرُوبة التي يحملها الأعراب كانت من الصفات ذات التقدير الخاصّ لدى مُلُوك بني أيُّوب، واستفادت كلاب من هذه الحادثة، فتقرّبت إلى الكامل، الذي قدّمهم، وأكرمهم، وكذلك تقرّبوا من الملك الأشرف، وكانوا معدودين من أتباعه[4].

وحول حمص كان هُناك بنو خالد، أو عرب حمص، وهم يدّعون النسب إلى خالد بن الوليد[5]، "ولعلّهم من ذوي قرابته من بني مخزوم"[6]. وهُناك بنو زبيد منتشرون في الشّام، منهم

---

1 - قبائل العَرَب، العمري، 144.
2 - قبائل العَرَب، العمري، 143.
3 - قبائل العَرَب، العمري، 144.
4 - قبائل العَرَب، العمري، 144.
5 - صُبح الأعشى ، القلقشندي، 4/ 214، وقبائل العَرَب، العمري، 143.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 254.

بصرخد، ومنهم بغوطة دمشق، "وهم جماعة نوفل الزبيدي"[1]، ونوفل كان يُشارك النَّاصر الثَّاني بحملته على مصر، ولمَّا غدر العزيزية بالناصر، وانكسر، "أخذه نوفل الزبيدي وجماعة من مماليكه وأصحابه، وعادوا به إلى الشَّام"[2]. ونوفل هُو الأمير ناصر الدِّين سيِّد عرب زبيد، كان ذا وُجهة وحُرمة ومكانة، وقد تُوفِّي عام 675 هـ 1276م[3]. ويقول ابن العميد: "بعد تفرُّق جَمْع الملك الصَّالح أيُّوب هاجمه عند نابلس حُسام الدِّين لُؤلُؤ، وهُو من غلمان عمِّه الصَّالح إسماعيل، ومعه جُمُوع عظيمة من العَرَبان اليزيديين"[4]، وغالباً؛ فهذا تصحيف، وهم العَرَبان الزبيديون، وليس اليزيديين. ومع تعدُّد قبائل الشَّام، فقد كان بنو ربيعة هُم وُجُوهها.

بنو ربيعة:

في العصر الأيُّوبي ساد بنو ربيعة جميعَ قبائل العَرَب في الشَّام والعراق والجزيرة، ويقول عنهم ابن فضل الله العمري: "هُم مُلُوك البرّ، وأُمراء الشَّام والعراق والحجاز"[5]. وكانوا يتبعون لأقربائهم بني الجرَّاح[6] في العصر الفاطمي، وجَدُّهم ربيعة نبغ بين قبائل العَرَب أيَّام الأتابك زنكي وولده نُور الدِّين[7]، وكان بنو ربيعة يدَّعون أن نسبهم يتَّصل بالبرامكة، لكنَّ الحمداني المهمندار نفى ذلك النسب، وقال: "الأصحُّ في نسب ربيعة إنَّه: ربيعة بن حازم بن علي بن مفرج بن دغفل بن جرَّاح"، ويمتدُّ في نسبه إلى طيء[8]، وطيء هي من قحطان اليمانية[9]، وقد بدأ ظُهُور بني ربيعة في القرن السَّادس الهجري ـ 12م[10]، ومع أن الأمير مانع بن حديثة بن فضل بن ربيعة كان أمير عرب الشَّام بلا مُنازع في عصر الدولة الأتابكية البورية بدمشق أيَّام طُغْتكِيْن، لكنَّه لم يُصرِّح له، ولا لغيره، من بني ربيعة بالإمرة على العَرَب بتقليد من السُّلطان، ولم يبدأ ذلك العُرْف حتَّى أيَّام الملك العادل بن

---

1 - قبائل العَرَب، العمري، 112.
2 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7 / 8.
3 - راجعْ ترجمته في: المنهل الصافي، ابن تغري بردي.
4 - أخبار الأيُّوبيِّيْن، ابن العميد، 29.
5 - قبائل العَرَب، العمري، 112.
6 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 203.
7 - قبائل العَرَب، العمري، 112.
8 - قبائل العَرَب، العمري، 112.
9 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 203.
10 - قبائل العَرَب، العمري، 27.

أيُّوب؛ حيثُ أمَّر منهم حديثة بن عصية بن فضل بن ربيعة[1]، ومنحه العادل ـ رَسْمِيّاً ـ لقبَ أمير العَرَب. وفي الحقيقة؛ استمرَّ هذا اللقب طيلة العصر الأيُّوبي غير واضح المعالم، غير مُحدَّد المهمَّات والواجبات، وذلك لطبيعة الحُكْم في الممالك الأيُّوبيَّة، فصحيح هُناك سُلطان أعظم تدين له بالطاعة جميع، أو مُعظم، وأحياناً بعض، الممالك الأيُّوبيَّة، لكنَّه ـ غالباً ـ لم يكن يملك قُوَّة كافية لفرض كُلِّ ما يُريد، وسلطنته خارج مملكته كانت ـ دائماً ـ تخضع لتقييم المصالح المحلِّيَّة والسياسة الإقليميَّة، لذلك، ومع وُجود منصب أمير العَرَب ظلَّت قبائل الشَّام البدويَّة تتحالف مع الممالك الأيُّوبيَّة، وتخوض حُرُوبها، وتلتزم بمُعاهداتها مُنفردة، فالانقسام الأيُّوبي السِّياسي حمى الانقسامات البدويَّة، ورعاها لتسخيرها وُفقاً لمصالحه، وبالتَّالي؛ لم يتمكَّن السُّلطان الأيُّوبي من إعطاء أمير العَرَب قُوَّة كافية لإخضاع كُلِّ القبائل له، ولأسرته، ولذلك؛ سيرتفع شأن منصب أمير العَرَب مع قيام دولة المماليك القويَّة المُوحَّدة.

إن ما دفع العادل لإحداث منصب رسمي لإمرة العَرَب هُو ـ بلا شكّ ـ دور القبائل العَرَبيَّة المتنامي، إن كان في الصراع ضدَّ الفرنجة، أو في الصراعات الدّاخليَّة بين ممالك البيت الأيُّوبي. ويبدو أن لقب أمير العَرَب في العصر الأيُّوبي لم يكن رتبة دائمة للشخص، فيُمكن تبديله ومنح اللقب إلى شخص آخر، كذلك لم يكن وراثياً بالضرورة، فإذا مات أمير العَرَب يعود الأمر للسُّلطان، فقد يُولِّي ابنه، إذا كان أهلاً لها، أو يُولِّي غيره. فعندما تُوفِّي حديثة أمير العَرَب قام الملك الكامل بقسمة الإمرة نصفَيْن، "نصفاً لمانع بن حديثة، ونصفاً لغنام أبي طاهر بن غنام"[2]، ثُمَّ نقل الإمرة كاملة إلى أبي بكر علي بن حديثة، وبقي فيها، حتَّى إنتزعها منه الظَّاهر بيبرس في سلطنته لأُمُور حقدها عليه، وأعطى الإمرة إلى عيسى بن مهنَّا بن مانع بن حديثة بن عصية بن فضل بن ربيعة. ولمَّا قصد أحمد بن طاهر بن غنام الملك الظَّاهر بيبرس، وسأله أن يُشركه في إمرة العَرَب كما كان جَدّه، لم يقبل بيبرس، ولكنَّه أرضاه بأنْ سمَّاه أميراً ببُوق وعَلَم[3]، وهي رتبة عسكريَّة.

---

1 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 206، وقبائل العَرَب، العمري، 117.

2 - قبائل العَرَب، العمري، 117.

3 - قبائل العَرَب، العمري، 117.

وينقسم بنو ربيعة إلى ثلاثة أفخاذ هُم المشهورون، وما عداهم أتباع، ولكُلٍّ من الثلاثة أمير مُختصٌّ به:

1 . **آل فضل**: نسبة إلى فضل بن ربيعة، وهم أعلاهم، وأرمقهم مكانة، وديارهم من حمص إلى الفُرات[1].

2 . **آل علي**: نسبة إلى علي بن حديثة بن عقبة، وقد ارتقوا لمنصب الإمرة أيّام الأشرف خليل ابن قلاوون، فبعد أن قبض على مهنّا بن عيسى قلّد الإمرة إلى مُحمَّد بن أبي بكر بن علي، وهم أهل بيت عظيم الشأن، ديارهم مرج دمشق، وغوطتها[2].

3 . **آل مرا**: نسبة إلى مرا بن ربيعة، وهم رجال صناديد، وأبطال مناجيد، منازلهم في الجولان وحوران[3]. وقد أورد عدَّة مُؤرِّخين وصف دُخُول فُرسان آل مرا إلى دمشق بترتيبهم العسكري، بعد بلائهم الحَسَن في موقعة حمص ضدَّ التتّار، قال ابن فضل الله: "أقبلوا زهاء أربعة آلاف فارس شاكين في السلاح، على الخيل المسومة والجياد المُطهَّمة، عليهم الكزغندات الحُمر في الأطلس المعدني، والديباج الرُّومي، وعلى رُؤُوسهم البيض، مُقلّدين بالسُّيُوف، بأيديهم الرماح، كأنَّهم صُقُور على صُقُور، وأمامهم العبيد تميل على الركائب[4].

وكان بنو ربيعة في العصر الأيُّوبي "وأوائل المملوكي أكابر وسادات العَرَب ووُجُوهها، ولهم عند السلاطين حُرمة كبيرة، وصيت عظيم"[5]. وتتبع لهم كُلُّ قبائل الشَّام العَرَبيَّة، وتدين لهم بالولاء بنو كلب، وبنو كلاب وآل بشّار، وبنو خالد، ومَنْ بالشام من غزية، وغيرهم، ولا يُوجد في ذلك الوقت "مَنْ لا يؤثر صُحبتهم، ويُظهر محبَّتهم"[6].

---

1 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 204.
2 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 208.
3 - قبائل العَرَب، العمري، 138.
4 - قبائل العَرَب، العمري، 142، - وقد ورد الوصف أيضاً في: السُّلُوك، المقريزي، 1/ 690، وصُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 209.
5 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 203.
6 - قبائل العَرَب، العمري، 141.

لكنَّ مواقفهم العامّة لم تتغيَّر، ولم تتبدَّل، فالغزو والنهب كُلَّما لاحت لهم الفُرصة، ولا صديق لهم، ولا عدوّ، إلَّا من خلال مصالحهم الخاصَّة، رغبة فيه، أو رهبة منه، ولذلك قال عنهم المهمندار: "وقد رأيتهم في الوقائع مع مَنْ غَلَبَ" [1].

وهذا ما كانت عليه كُلُّ قبائل الأعراب؛ حيثُ يبدو أنَّهم متى لمسوا ضعفاً من الدولة، أو المملكة التي هُم بجوارها، أو من قبائل أُخرى اندفعوا بغريزة لا تُقاوَم، للسلب والنهب، ففي عام 624 هـ 1227م، اندفعت غزية البطنين نحو حمص في عزِّ سطوة وقُوَّة ملكها المُجاهد، ونهبوا ما حول المدينة، "وأخذوا حتَّى غنم أهل البلد، فوقع الصوت، وركب العَسْكَر، وتبعوا العَرَبان إلى مُعظم الطريق، وكان فيهم قُوَّة ومنعة لكثرتهم، فعادوا عنهم بمُراسلة جرت بينهم، وذلك توفيقاً من الله لحقن الدماء" [2]، فقد كان فُرسان غزية يُشكِّلون قُوَّة أكبر من قُوَّة عسكر حمص، لذلك؛ تمكَّنوا من الاحتفاظ بما نهبوه من حمص، ومضوا، ورجع العَسْكَر يحمدون الله على سلامتهم، وحقن دمائهم.

لكنَّنا لا نستطيع إلَّا أن نستثني كثيراً من المواقف لبني ربيعة ، فقد قاتلوا، وخاصَّة آل مرا، في معركة حمص الثَّانية ضدَّ التَّتار، "وأثَّروا أثراً حسناً، وعملوا في التَّتار عملاً جيداً" [3].

كذلك شارك الأمير زامل بن علي مع فُرسان بني ربيعة في معركة حمص الأُولى مع الأشرف مُوسى صاحب حمص، وتمكَّنوا من هزيمة قُوَّة كبيرة للتَّتار عام **659 هـ 1260م** [4]. وأيضاً؛ يُسجَّل لبني زبيد موقفهم مع الملك النَّاصر الثَّاني، فبعد هزيمته على أبواب مصر من قبَل جيش المماليك بقيادة آيبك، كان بنو زبيد وأميرهم ناصر الدِّين نوفل من القلَّة الذين وقفوا معه، وحموه"، وعادوا به إلى الشَّام" [5].

---

1 - قبائل العَرَب، العمري، 141.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 141.
3 - قبائل العَرَب، العمري، 141.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 442.
5 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7 / 8.

المبحث الخامس:

أعراب الشَّام ودورهم العسكري

نظراً لانقسام الممالك الأيُّوبيَّة في الشَّام، ولقيام المُنافسة وحتَّى الحُرُوب فيما بينها، فقد استعان كُلٌّ منها بما حوله من القبائل البدويَّة، وسخَّرها لمصالحه، وجعلها سنداً عسكريَّاً في حملاته ومعاركه، إضافة للصدامات العسكريَّة مع الدُّول الأُخرى خارج البيت الأيُّوبي، ممَّا أعطى قيمة عسكريَّة كُبْرَى للبدو في بلاد الشَّام. بينما نُلاحظ أن دورهم العسكري في مصر كان ينحصر بالدفاع ضدَّ الغزوات الفرنجيَّة، أو بالقيام بثورات ضدَّ الدولة، وذلك لقيام مملكة أيُّوبية مُوحَّدة في مصر، وعدم وُجُود دُول مُجاورة تطمع في أراضيها سوى الحملات الفرنجيَّة القادمة عبر البحار.

أهمُّ الأدوار العسكريَّة التي لعبها البدو في الشَّام في العصر الأيُّوبي:

إن ما قام به بنو ربيعة بقيادة أميرهم مانع بن حديثة في التَّصدِّي لحملة عزّ الدِّين كيكاوس على حلب، رُبَّما كان من أهمِّ أدوارهم، وأكثرها إظهاراً لقُوَّتهم، فقد تمكَّنوا عام **615** هـ **1218**م من هزيمة سُلطان سلاجقة الرُّوم، وردِّه إلى بلاده، بعد أن احتلَّ عدَّة بُلدان في الجزيرة، وكان كيكاوس قد تحالف مع الصَّالح صاحب آمد والأفضل بن صلاح الدِّين صاحب سُمَيساط، وتقدَّموا لاحتلال بلاد الجزيرة وحلب[1]، فجمع الأشرفُ قُوَّاته، وطلب الأمير مانع وعربانه، فأتوه بجموعهم، ولمَّا سمع كيكاوس بتحشُّد الأشرف سير إليه "ألف فارس هُم خيار عسكره وأبطالهم"[2]، فوقع عليهم العَرَب، واحتووا عليهم، وعلى سوادهم، وركب الملك الأشرف، فوصل إليهم، وقد استباحوهم قتلاً وأسراً . . ولمَّا سمع كيكاوس ذلك سار عن منبج هارباً" [3]، وعاد إلى بلاده مكسوراً[4]، "ولمَّا وصل الأشرف كانت العَرَب قد فرغت منهم"[5]، لقد بدأ العَرَبُ المعركةَ ضدَّ كيكاوس، وهم الذين انتصروا فيها، إنَّها ـ بالفعل ـ معركتهم وحدهم؛ حيثُ لم يضرب فيها الأشرفُ بسيف سوى سُيُوف العَرَب.

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 74.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 267.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 645.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 74.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 265.

وفي عام 620 هـ 1223م، عندما خرج الملك المُعظَّم يُريد احتلال حمص وحماة أقام مُعسكره في سلمية، وقدَّم قُوَّات البدو المُرافقة له لتقطع إمداد حماة بالميرة، والتّصدِّي للنجدات القادمة إليها[1].

ثُمَّ ركَّز المُعظَّم حملته باتِّجاه حمص، فسيَّر عام 623 هـ 1226م، جماعة من الأعراب المُرافقين له، وهم عرب دمشق، فنهبوا قرى حمص، وخرَّبوها[2]، ولمَّا كان المُعظَّم يُحرِّك البدو لتنفيذ مخطَّطاته التوسُّعية في الشَّام، وإجهاد أعدائه، بينما قُوَّاته تستريح، فكَّر الأشرف والمُجاهد بالطريقة نفسها، فطلب المُجاهد من الأشرف تحريك بني ربيعة من شمال حلب باتِّجاهه لنجدة حمص، وبالفعل؛ أسرع مانع بن حديثة بعربانه نحو حمص، ولكن شهوة النهب اجتاحتهم في الطريق، خاصَّة أنَّهم وجدوا أمامهم قرى المعرَّة وقرى حماة والجُيُوش الأيُّوبيَّة بعيدة عنها، مشغولة ببعضها، ولن تفكِّر بمطاردتهم، بل على العكس تُريد مداراتهم للاستفادة من قُوَّتهم، فاندفعوا نحو هذه القرى العزلاء، فنهبوها، واقتسموا بيادرها، ورفضوا تأدية ضريبة العَدَّاد في ذلك العام[3].

إن البدو سلاح فتَّاك، ولكنَّه ذُو حَدَّين، وعلى مَنْ يُريد الاستفادة منهم أن يتحمَّل نزواتهم، ولذلك؛ لم يُحرِّك الملك الأشرف ساكناً حيالهم، وحتَّى لو أراد فإنَّه لن يتمكَّن من القيام بأيِّ عمل عسكري ضدَّهم، فقُوَّات الملك المُعظَّم تُعسكر في سلمية، وهي تترصَّد حَرَكَاته. وبعد أن حزم الملك المُعظَّم أمره، وهاجم حمص بقُوَّاته، أعاد الأشرف الاتِّصال بمانع، وطلب منه نجدة حمص، فاندفع بعربانه، "وتركوا أظعانهم بمرج دابق، وساروا جريدة إلى حمص"[4]، ويبدو أن ما تركوه في مرج دابق هي المنهوبات التي عجزوا عن السير بها. ومع كُلِّ فسادهم ونهبهم، فقد هاجم مانع بقُوَّاته الخفيفة جيشَ الملك المُعظَّم، فتصدَّت لهم عرب دمشق، وجرت بينهما عدَّة وقعات[5]، لم تكن حاسمة، ولم تُؤدِّ إلى نتيجة واضحة.

وفي عام 624 هـ 1227م، أطلق الملكُ المُعظَّمُ أخاه الملكَ الأشرفَ، وسمح له بمُغادرة دمشق، بعد أن حلف الأيمان المُغلَّظة على الولاء، وما إنْ غادر الملك الأشرف، حتَّى رجع عن أيمانه

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 655، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 126.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 659، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 177.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 659، و مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 177.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 177، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 660.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 177، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 660.

كُلِّها؛ بحُجَّة أنَّه كان مُكرهاً عليها، "فنـدم المُعظَّـم، وسـيَّر العَـرَب إلى بلـد حمـص وحمـاة، فعـاثوا فيها"[1]، "ونزلوا الزرَّاعة من أرض حمـص، وأرض جوسـيه، ومكثـوا أيَّامـاً يُغـيرون عـلى الـبلاد، ويعودون إلى منازلهم"[2]، وكان يقودهم سنجر المُلقَّب أمير العَرَب، وهُو مملـوك الملـك المُعظَّـم[3]، ممَّا يدلُّ على قيادة مُباشرة للملك المُعظَّم لهؤلاء الأعراب. لقد جرى كُلُّ ذلك والملك المُجاهـد مُهمـل لهم، حتَّى أعماهم الطمع ببلاده، عندها "ركب إليهم بمَنْ معه وأولاده، وأذن لأهل بلـده في النهـب، وأطمعهم، فما كان بأقلَّ من نصف نهار حتَّى نهبوهم، وسبوهم، وقتلوا وجرحـوا خَلْقَـاً"[4]. وهُنـا؛ نُلاحظ غياب قُوَّات بني ربيعة عن هذه الأحداث بسبب الوقعة بين الأمير مـانع بـن حديثـة أمـير آل فضل وابن عمِّه الأمير منيع قُرب بارين[5]؛ حيثُ هُزم الأمـير منيـع، وجُـرح، وانـسحب أتباعـه إلى بعلبك[6]، ولكنْ؛ إن غابت جُمُوع عربان بني ربيعة، فإن أميرهم مانع لم يغـبْ عـن مطـاردة المُجاهـد لعربان دمشق، فقد حضرها مع المُجاهد، وحصل على نصيبه من الغنائم[7].

في عام **642** هـ **1244**م، أيضاً؛ اصطدم عسكر حماة بعربان بني ربيعة بغيـاب أمـيرهم مـانع عند المُجاهد في حمص، وكانوا بقيادة أخيه الأمير علي، وانتصر العَرَبان "ولولا عـسكر حلـب لم يبـقَ من عسكر حماة بقيَّة"[8]. وبعد أن فتح الملكُ الكاملُ آمدَ في عام **629** هـ **1232**م، خـاف مـانع بـن حديثة منه "وانسحب إلى العراق، وعمل معه الخليفة من المكارمة ما لا عمله مع غيره"، ثُـمَّ عـاد في العام نفسه من العراق "وانصلح حاله مع الملك الأشرف"[9]. وفي عام **630** هـ **1233**م، كان مانع وأبناء عمِّه غنام ومنيع مُخيِّمَيْن في غوطة دمشق، ولمَّا خرج الملك الأشرف للصيد دعـوه إلـيهم، فأقـام عندهم أيَّاماً[10]. وعندما توغَّلت قبيلتا خفاجة وغزية في بادية الشَّام غرباً، ونزلـوا في تـدمر، فخـاف

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 206.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 142.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 142.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 142.
5 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 204 ـ 234.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 145 ـ 136.
7 - المنصُوري، ابن نظيف، 143.
8 - المنصُوري، ابن نظيف، 145.
9 - المنصُوري، ابن نظيف، 249.
10 - المنصُوري، ابن نظيف، 254.

من أذاهم الملك الأشرف والملك المُجاهد فاتَّفقا مع أُمراء عرب الشَّام على قصدهم، وساروا إليهم، ونهبوهم[1]. وفي عام 630 هـ 1233م، مات الأمير حُسام الدِّين مانع ابن حديثة أمير العَرَب، فأمَّر الملك الأشرف ابنه مهنَّا بن مانع[2]، ويبدو أن تأمير مهنَّا على العَرَب كان باتِّفاق الملكَيْن الأشرف والمُجاهد معاً؛ حيثُ خلعا عليه، وحمل مانع، ودُفن في سلمية[3].

لقد كانت علاقة ممالك الشَّام الأيُّوبيَّة بالبدو علاقة في مُنتهى الحساسية، وتحتاج إلى كثير من الحنكة والدراية بتقلُّباتهم، فعندما قامت الصاحبة ضَيْفَة خَاتُون الوصية على عرش حلب بتقريب أحلاف العَرَب، استوحش الأمير علي بن حديثة أمير آل فضل، واختار التوقيت الصعب بالنِّسبة لحلب، فانضمَّ إلى قُوَّات الخَوَارزميَّة التي تهاجمها، وعندما التقى عسكر حلب بالخَوَارزميَّة عام 638 هـ 1241م، كمن الأمير علي بعربانه بين البساتين، وانقض على مُؤَخِّرة العَسْكَر الحلبي، ففتك بها، فانهزم الحلبيون[4]، ولكن الضربة الكُبْرَى للحلبيين جاءتهم من حُلفائهم أحلاف العَرَب، الذين كانوا يُقاتلون معهم، فما إنْ لاحت هزيمة العَسْكَر الحلبي، حتَّى انقضوا عليه، فنهبوا أثقاله، "وكانوا أشدّ ضرراً عليه من انتهاب أموالهم من أعدائهم"[5]. وبعد هذا الغدر من الأحلاف بعسكر حلب عاد الأمير عليّ عن تحالفه مع الخَوَارزميَّة، وتركهم[6]، ولكن العلاقة مع حلب كان قد تولاها ابن عمِّه الأمير طاهر بن غنام، "فقد اتَّصل بخدمة الحلبيين، وأُمِّر على سائر العَرَب، وزوَّجته الصاحبة بعض جواريها، وأقطعته إقطاعاً يُرضيه"[7].

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 254.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 368، ـ راجعْ ترجمة مهنَّا بن مانع في: صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 205، والضوء اللامع، السخاوي، 5 / 146، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 205، والأعلام، الزركلي، 7 / 317.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 254، ـ استمرَّ آل مهنَّا في دَفْن أُمرائهم في سلمية، وعُرفت لهم مقبرة هُناك تقع شمال السلمية بعدَّة كيلومترات تُسمَّى جبَّانة الشَّيخ فرج، وقد دُفن فيها عيسى بن مهنَّا عام 680 هـ (شذرات الذهب، ابن العماد، 6 / 22)، ومحمد بن عيسى بن مهنَّا عام 724 هـ ومازال شاهدة قبره ماثلة هُناك.(عشائر الشَّام، أحمد وصفي زكريا، 1 / 88).
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 282، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 167، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 235.
5 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 695، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 282.
6 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 699.
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 288.

المبحث السَّادس:

دور القبائل البدويَّة في مصر

لم تتوقَّف القبائل العَرَبيَّة عن قصد مصر للتوطُّن والإقامة مُنْذُ الفتح العَرَبي الإسلامي، وأوَّل المناطق التي توطَّنت فيها هذه القبائل كانت في الدلتا، ثُمَّ بدأت القبائل العَرَبيَّة تتوغَّل جنوباً في الصعيد، حتَّى جاورت النوبة، وخالطتها. وكانت قبيلة جذام قدمت إلى مصر مع عَمرو بن العاص، وهي قبيلة يمنية تنتسب إلى كهلان وسبأ، ومن جذام كان بنو زيد الذين استقرُّوا في الشَّرْقيَّة حول بلبيس، ومنها ـ أيضاً ـ بنو سعد، وكانت مناطق سُكناهم حول الفسطاط، وكان منهم شاور السعدي وزير العاضد الخليفة الفاطمي[1]. وبشكل عامٍّ؛ انتشر بنو جذام حول الدلتا في الحوف الشرقي والحوف الغربي[2]. ومن جذام كان نمي أبو ختعم من ولد مالك بن هلبا بن مالك بن سويد، الذي تقدَّم في دولة الصَّالح أيُّوب، وبلغ عنده منزلة عالية، وقد أقطعه، وأمَّره، واقتنى المماليك، وفي دولة المُعزّ أيبك قدَّمه على عرب مصر، حتَّى قتله غلمانه، فجعل المعزّ ولدَيْه سُلمى ودَغَش مكانه[3]. وحول دمياط نزلت قبيلة سِنْبِس وهم من الغوث بن طيء، وكان لهم أيَّام الفاطميين شأن، وتجاورهم جماعة من كنانة بن خزيمة قدموا أيَّام الخليفة الفاطمي الفائز[4]، وفُرسان بني كنانة هُم الذين كلَّفهم الصَّالح أيُّوب بالدفاع عن دمياط، وانسحبوا منها، فشنقهم.

وفي صعيد مصر؛ انتشرت قبائل مُتعدِّدة، وتداخلت مناطق سُكْناها، لكنْ؛ يُلاحَظ أن قبيلة هلال قد أقامت حول أسوان، وإلى الجنوب منها. ثُمَّ قبيلة بُلِيّ، وكانوا في بلاد إضميم، وتوزَّعوا من أسيوط حتَّى عيذاب وحول سوهاج. كما كانت هُناك مجموعة من قريش أقامت في الاشمونين. أمَّا أكثر عرب الصعيد عدداً وتوزُّعاً؛ فقد كانت جهينة[5]، وهي من قضاعة، وكانت تُقيم في الأشمونين، وتنتشر ما بين منفلوط وأسيوط. ومن قضاعة كانت قبيلة كلب التي سكنت حول

1 - قلائد الجمان، القلقشندي، 54/ 62.

2 - قبائل العَرَب، العمري، 169.

3 - قبائل العَرَب، العمري، 171.

4 - قبائل العَرَب، العمري، 156.

5 - قبائل العَرَب، العمري، 157.

منفلوط، وكذلك بهراء من قضاعة سكنت في أقصى صعيد مصر، وحتّى بلاد الحبشة، "وكثروا هُناك، وغلبوا على بلاد النوبة، وهم يُحاربون الحبشة"[1]. وفي صعيد مصر؛ كانت ـ أيضاً ـ قبيلة الكنوز، وأصلهم من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، قدموا إلى مصر من اليمامة زمن الخليفة العبّاسي المُتوكِّل، وأقاموا في أعالي الصعيد، وتصدّوا لغارات البجة[2]، ثُمَّ اختلطوا بهم، وتزوَّجوا منهم، حتّى سيطروا على بلادهم، ومنهم بنو مسروق، الذين ينتسب إليهم مُحمَّد بن علي حامي أسوان وزعيم ربيعة، ولمّا مات؛ خلفه ابنه أبو المكارم هبة الله بن مُحمَّد بن علي، وهُو الذي ظفر بأبي ركوة الثائر الأموي الخارج على الحاكم بأمر الله، فأكرمه الحاكم، ولقّبه كَنزَ الدولة، وأصبحوا يُعرَفون كُلُّهم بكَنز الدولة، أو الكنوز، وآخر أُمرائهم قَتَلَهُ الملك العادل عام 507 هـ عندما جمع لحرب السُّلطان صلاح الدِّين، وأخذ يدعو للأمير داود بن العاضد[3].

قبائل البربر في مصر:

بعد هجرة القبائل العَرَبيّة نحو بلاد المغرب، اختلطت بالقبائل البربرية بالمُصاهرة والحلف والولاء، فحمل قسمٌ كبيرٌ من القبائل البربرية أنساباً عربية بالولاء، وبعد ذلك؛ انتقلوا للتعريب اللُّغوي[4]، "وذلك أن قبائل العَرَب نزلت على قبائل البربر، فنقلوهم إلى ألسنتهم بطول المُجاورة لهم، حتّى صاروا جنساً واحداً""[5]. وعندما قامت الدولة الفاطمية في المغرب، كانت القبائل البربرية عماد جُيُوشها. وبعد أن احتلَّ جوهر الصقلي مصر، وضمّها إلى الدولة الفاطمية، ومن ثَمَّ؛ جعلها قاعدة الدولة، أدّى ذلك إلى هجرة جُمُوع كبيرة من قبائل البربر إلى مصر، وجاءت هذه القبائل تحمل أنساباً عربية، وتنقسم إلى يمانية، مثل قبيلة هوارة، التي انتشرت غربي النيل، وقيسية؛ مثل قبيلة لواته، التي عبرت إلى شرقي النيل[6]، فكان لهم مُعظم بلاد البهنسا، وتفرّقوا في الجيزة والمنوفية والبُحَيْرة[7]، وقد

---

1 - قلائد الجمان، القلقشندي، 42 ـ 50.
2 - البجة: قبائل من السُّكّان الأفارقة القدماء لشمال السودان.
3 - البيان والإعراب، المقريزي، 44.
4 - دراسات في تاريخ العُرُوبة، عبد المجيد عابدين، مُلحق البيان والإعراب، 132.
5 - وصف أفريقية الشمالية والصحراوية، الإدريسي، 35.
6 - دراسات في تاريخ العُرُوبة، عبد المجيد عابدين، مُلحق البيان والإعراب، 132.
7 - قبائل العَرَب، العمري، 157.

خرجت لواته على الدولة الفاطمية، فسار إلى بلادهم في الوجه البحري أمير الجُيُوش بدر الجمالي عام 567 هـ 1172م، وأوقع بهم، وهزمهم، وطهَّر البرَّ الشرقي في مصر منهم[1].

واندرجت القبائل البربرية في مصر تحت اسم العَرَب والأعراب، ورُبَّما لحياة البداوة، ولتعربهم الكامل مع بداوتهم، فكان يُطلَق عليهم اسم عرب هوارة وعرب لواته[2]. وكانت قبائل الأعراب في مصر على اختلاف أنسابها تشترك جميعاً - مثل عرب الشَّام - بحُبِّ القتال، واغتنام الفُرص للسلب والنهب، فنجدهم عوناً لكُلِّ خارج على الدولة؛ إذْ لم يتمكَّنوا هُم بأنفسهم من الخُرُوج عليها، وقتالها. وكان مُعظم قتالهم من أجل الغنائم[3]، أو للسيطرة على البلاد، فكانت الحُرُوب تقع بين القبائل البدويَّة، فتُودي بالكثير منهم، كالواقعة التي جرت بين جرم وجذام وثعلبة بالشرقية عام 636 هـ 1238م، وقُتل فيها كثير منهم، حتَّى أرسل الملكُ العادلُ مَنْ يُصلح بينهم[4].

---

1 - المقفى الكبير، المقريزي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 1/ 295، - وقد وصف الشريف أبو يعلى مُحمَّد بن مُحمَّد بن الهبارية في كتاب الصادح والباغم هذه الحادثة، فقال شعراً:

كان بمصر بدر ... له عليها الأمر

يقتل كُلّ ساعة ... من أهلها جماعة

ثُمَّ غزا لواته ... إذ ظنَّهم حماته

فحين قيَّد الأسرى ... قال اقتلوهم صبرا

عشرين ألفاً كانوا ... حتَّى جرى الميدان

في النيل من دمائهم ... ولج في إفنائهم

2 - المقفى الكبير، المقريزي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 1/ 295.

3 - يروي أُسامة بن مُنقذ دوافعَ البدو للقتال، فيصف هُجُومهم عليه قائلاً: "فحمل عليّ العَرَب فوقعتُ . . فضربني واحد منهم ضربتَيْن بالسيف، وقال: هات الوزن . . ثُمَّ أخذ حصاني وسيفي" (كتاب الإعتبار، أُسامة بن مُنقذ، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 12/ 157).

4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 393.

المبحث السّابع:

العلاقات الدّوليّة لقبائل البدو

قبائل العَرَب والتّتار:

عندما استولى التّتار على أرمينيا والبلاد التي كانت للدولة الخَوَارزميّة في عام 629 هـ 1232م، اهتمَّ الخليفة المُستنصر غاية الاهتمام، "واستخدم عرباناً كثيرة" [1].

وفي عام 657 هـ 1259م، عندما هرب النّاصر يُوسُف الثّاني أمام الغزو المغولي للشام سار باتّجاه مصر، وعندما وصل البلقاء التجأ إلى أعراب تلك المنطقة، فأجاروه[2]، عندها؛ تسحّب أحد غلمانه، وهُو حسين الطبردار الكُردي، واتّصل بالتتار، وأعلمهم بمكانه، فهاجمت القُوّات المغولية أعراب البلقاء، وقبضوا على النّاصر يُوسُف، ثُمَّ وضعوا فيهم السيف، وبعد أن "غنموا أولادهم، ونساءهم، وأنعاماً شيئاً كثيراً، واستاقوا الجميع"[3]. ومن جهة أُخرى؛ وفي العام نفسه، جرت حادثة لا نرى لها أيَّ علاقة بالحادثة السابقة، قام الأعراب بالإغارة "على خيل الجشار التي للتّتار ومَنْ يتعلّق بهم، فاستاقوها، وكانت ترعى بالمرج بتلّ راهط وما حوله"[4]، " فساقت وراءهم التّتر، فلم يُدركُوا لهم الغبار، ولا استردُّوا منهم فرَسَاً، ولا حماراً"[5]. ومن المؤكّد أن جموعاً كبيرة من أعراب مصر وأعراب الشّام شاركت ضدَّ التّتار في موقعة عَيْن جالُوت[6].

قبائل العَرَب والفرنج:

في العلاقات بين قبائل البدو والفرنج لا يُمكن أن نخرج بحُكْم مُطلق، فقبائل البدو بلغت من التفرُّق الجَغرافي والانقسام السلالي مبلغاً كبيراً، ولم يُشكّلوا ـ في أفضل الأحوال ـ تجمُّعاً قبلياً، أو اتّحاداً يضمُّ مُعظم العَربان، ولكونهم يعيشون بهذا الشكل من الانتشار الواسع والاختلاف

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 232، كذلك راجعْ: السُّلُوك، المقريزي، 1/ 365.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 427، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 213، والبداية والنّهاية، ابن كثير، 13/ 220.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 20/ 408.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 20/ 409.
5 - البداية والنّهاية، ابن كثير، 13/ 233.
6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 20/ 411.

والتنازع، فمن الطبيعي أن يكون بينهم اللُّصُوص النهَّابون، وكذلك وُجُود ذوي النخوة والمروءة والكرم، ونجد مَنْ يتعامل مع الفرنجة، ويدلُّهم على عورات المُسلمين، وفي المُقابل؛ نجد المُجاهدين الذين يبلون في أعداء الأُمَّة أحسن البلاء.

مُنْذُ بدايات الغزو الفرنجي لبلاد الشَّام وجد الفرنجة مَنْ يتعاون معهم من البدو، وقد تجلَّى هذا التعاون بأوضح صُورة أمام أسوار حلب عام 518 هـ 1124م، عندما حاصر الفرنجُ المدينةَ، وبدا لهم أن سُقُوطها سيفتح أمامهم أبواب سُورية الدّاخليَّة، فاتَّصلوا مع دبيس بن صدقة، صاحب الحلَّة في العراق وأمير بني أسد، واتَّفقوا معه على أن يُساعدهم لاحتلال حلب. كما اتَّفقوا مع سالم بن مالك العقيلي، سيِّد بني عقيل وصاحب قلعة جعبر، وساندت قُوَّاتُ القبائل العَرَبيَّة قُوَّات الفرنج في الهُجُوم على حلب، وارتكبوا الفظائع، ونكلوا بالموتى، حتَّى جاء البرسقي أمير المَوصل، وأنقذ حلب[1]. وكان هذا التعاون اختباراً مُفيداً للفرنج، تعرَّفوا فيه على إمكانية التعامل مع البدو، والاستفادة من قُوَّتهم العسكريَّة مُقابل بعض المكاسب.

وفي بدايات دولة صلاح الدِّين، وعندما كان مشغولاً في الجزيرة يُحاصر حَرَّان عام 578 هـ 1191م، قامت حملة فرنجية من الكَرَك، وتوجَّهت نحو الحجاز، "لينبشوا الحُجرة النبوية، وينقلوه إليهم، ويأخذوا من المُسلمين جعلاً على زيارته"[2]، وسارت الحملة في مراكب من ميناء العقبة، حتَّى وصلت ساحل المدينة، "ودلَّها على عورات الساحلين من العَرَب من أشبه ركابها في الكُفر"[3]، "وكان معهم طائفة من مُرتدَّة العَرَب"، ولمَّا كان صلاح الدِّين لا يستطيع الحَرَكَة، كلَّف نائبه بمصر سيف الدولة بن مُنقذ، فَسَيَّرَ الحاجبَ لُؤلُؤ الأرمنيَّ، "فتداركهم، وبذل الأموال، فمالت إليه العَرَب للذهب"، فاستسلم الفرنج[4]. وفي الحقيقة؛ يحار المرء أمام تفسير موقف كهذا لأعراب الحجاز، ولا يجد سبباً لتعاونهم مع الفرنج لنبش الحُجرة النبوية إلَّا السبب الذي جعلهم يتخلُّون عنهم، وهُو الذهب، والطمع بالمكاسب، ولا أدري هل نستطيع أن نجد لهم ولو عذراً بسيطاً في حالة الفقر والجوع والجهل التي كانوا يعيشونها في غالب أيَّامهم؟!

---

1 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 3 / 260 - 261.
2 - تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14/ 88.
3 - من رسالة للعماد الأصفهاني في: الروضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 18/ 435.
4 - تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد الطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14/ 88.

وفي أثناء حملة ملك إنكلترا ريتشارد على فلسطين، كان يُعسكر قُرب قلعة النطرون، "فوصل إليه اثنان من البدو، وأخذا من الملك الأمانَ والثقةَ، وأقسما له يميناً تعهَّدا به بأنَّهما سيخدمانه بإخلاص، وسيُطلعانه على كمائن جيش صلاح الدِّين، وعن كُلِّ ما يدور حول صلاح الدِّين وجميع أهل البلاد"[1]، إن هذا التصرُّف قد لا يُمثِّل سلوك كُلِّ بدو فلسطين، لكنْ؛ في كثير من الأحيان، كُنَّا نجد مثل هذه الحالات، فهي طريقة سهلة للعيش لضعاف النُّفوس، خاصَّة في حال غياب أيِّ شعور ديني، أو قومي، أو وطني. ويبدو أن الملك ريتشارد قد أعجبه موضوع استخدام البدو، وأنَّه اهتمَّ بهم كأدلاء وجواسيس مأجورين، واعتمد عليهم، وسَيَّرَهُم يتسقَّطون له الأخبار، فعلم منهم بمسير قوافل مصر نحو الشَّام، "وكان العدوُّ يترقَّب أخبارهم، ويتوصَّل إليها بالعَرَب المُفسدين"[2]، واندمج الملك ريتشارد بلعبته مع البدو، ووثق بهم إلى درجة كبيرة، حتَّى إنَّه "ركب مع العَرَب بجمع يسير، وسار حتَّى أتى القفل، فطاف حوله في صُورة عربي"[3].

وبلغ تعامل البدو مع الفرنجة حدّاً أزعج صلاح الدِّين إلى درجة أنَّه قاد حملة خاصَّة عام 568 هـ 1173م، لطرد البدو من منطقة الكَرَك، لمنعهم من مُساعدة الفرنج الذين استخدموهم جواسيس وأدلاء[4]، وهي أوَّل غزوة لصلاح الدِّين من مصر، وكانت في عهد نُور الدِّين، لذلك أرسل له صلاح الدِّين رسالة من إنشاء القاضي الفاضل يشرح له فيها أسباب هذا التحرُّك العسكري، قال: "علم المملوك بما يُؤثره المولى، فإن يقصد الكُفَّار بما يقصُّ أجنحتهم، ويفلُّ أسلحتهم، ويقطع مواردهم، ويُخرِّب بلادهم، وأكبر الأسباب المعينة على ما يرومه من هذه المصلحة أنْ لا يُبقي في بلادهم أحد من العَرَبان، وأن ينتقلوا من ذُلِّ الكُفر إلى عزِّ الإيمان، ومَنْ اجتهد فيه عامَّة الاجتهاد، وعدَّه أفضل أسباب الجهاد، ترحيل كثير من أنفارهم، والحرص في تبديل ديارهم، إلى أن صار العدوُّ اليوم إذا نهض لا يجد بين يدَيْه دليلاً، ولا يستطيع حيلة، ولا يهتدي سبيلاً"[5].

---

1 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8 / 434.
2 - النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15/ 232.
3 - النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15/ 232.
4 - الروضتَيْن، أبو شامة، 1/ 206.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 1/ 225، والروضتَيْن، أبو شامة، 1 / 206.

إنَّها - إذنْ - معاناة شديدة كان المُسلمون يعانون منها لتعامل البدو مع أعدائهم، وإطلاعهم على عوراتهم، لم يجدْ لها صلاح الدِّين حلاً سوى نقل قبائل البدو من مواقع إقامتهم إلى داخل بلاده؛ لقطع اتِّصالهم بالعدوِّ الفرنجي. ثُمَّ أصبحت هذه السياسة عامَّة، يُطبِّقها صلاح الدِّين حيثما شكَّ بتعامل البدو مع الفرنجة، فبعد فَتْح صلاح الدِّين للبلاد قام عام **583** هـ **1187**م، بنقل بني ثعلبة من منطقة غزَّة إلى مصر؛ لأنَّهم كانوا يتعاملون مع الفرنج كأدلاء وجواسيس[1]، فقد "كانوا يداً مع الفرنج على المُسلمين"[2].

ومع أن صلاح الدِّين لم يتوقَّف عن الاستعانة بالبدو كقُوَّات خفيفة الحَرَكَة لمُساندة جيشه، لكنَّه تعلَّم - بعد هزيمة الرملة - أنَّهم سلاح ذو حَدَّين، فما إن لاحت الهزيمة حتَّى انقلبوا على جيش صلاح الدِّين ينهبون أثقاله ومتاعه[3]. وأجمع المُؤرِّخون أنَّه كان للأعراب موقف مُخزٍ في معركة دمياط عام **615** هـ **1218**م، فقد كان الملك الكامل مُرابطاً بجيش مصر أمام الفرنج الزاحفين لاحتلال دمياط، وكان أبوه الملك العادل في الشَّام يجمع النجدات، ويُوجِّهها إليه، وفي هذه الأثناء؛ مات العادل، وما كادت الأخبار تتسرَّب إلى مصر بموته "حتَّى وقع الطمع في الملك الكامل، وثارت العَرَب بنواحي أرض مصر، وكثر خلافهم، واشتدَّ ضررهم"[4]. "ولمَّا عبر الفرنج إلى أرض دمياط اجتمعت العَرَب على اختلاف قبائلها، ونهبوا البلاد المُجاورة لدمياط، وقطعوا الطريق، وأفسدوا، وبالغوا في الإفساد، فكانوا أشدَّ على المُسلمين من الفرنج"[5].

مع أن تصرُّف قبائل البدو هذا لا يُمكن أن يُبرِّره أيُّ عذر نضعه لهم، لكنَّه قد يبدو ردَّ فعل على معاناة طويلة من ظُلم السُّلطة الأيُّوبيَّة، التي ما إن انشغلت عنهم بالفرنج حتَّى ثاروا عليها،

---

1 - قلائد الجمان، القلقشندي، 83، والبيان والإعراب، المقريزي، 5، وصُبح الأعشى، القلقشندي، 1/ 322، والروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 526.

2 - قبائل العَرَب، العمري، 107، والبيان والإعراب، المقريزي، 5، - وقد وهم عبد المجيد عابدين بتعليله نقلهم من جنوب فلسطين إلى مصر، واعتقد أنَّها مكافأة قدَّمها صلاح الدِّين لهم، يقول: "وكان لقبائل طيء فضل كبير في مُحاربة الصليبيين، فأراد صلاح الدِّين أن يكافئهم، فنقل منهم جرماً وثعلبة إلى الحوف الشرقي". (دراسات في تاريخ العُرُوبة - مُلحق البيان والأعراب، 116).

3 - الشَّرق الأدنى، السَّيِّد الباز العريني، 166.

4 - السُّلوك، المقريزي، 1/ 314.

5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 326، وكذلك راجعْ: شفاء القُلُوب، الحنبلي، 301.

ونهبوا ما حولهم، وقد يُفسَّر الأمر بأنَّها طبيعة البدو، وفطرتهم بالسلب والنهب، فما إن وجدت لها مُتنفَّساً حتَّى إنطلقت، ولكنْ؛ مهما كان السبب فهُو غير مُهمٍّ بجانب فعلهم المُنكَر، الذي لا يُمكن تبريره إلَّا بجهلهم المطلق لأيِّ مصلحة عامَّة هي مصلحتهم فيما بعد.

وبالتَّأكيد؛ لم يكونوا ليُدركُوا حجم البلاء الذي يُسبِّبونه للبلاد، فبلغ الاستياء الرَّسْمي والشعبي من البدو في تلك الآونة مبلغاً كبيراً، حتَّى إن بعض الناس ـ وقتها ـ رأوا أن الفرنج أرحم من البدو[1].

ويبدو أن بطش الملك الصَّالح أيُّوب هُو الذي منع تكرار حوادث البدو في حملة لويس التَّاسع على دمياط، واحتلاله لها. لكنْ؛ ما إن تلوح الفُرصة حتَّى يعود البدو إلى عاداتهم التي لا يُبدِّلونها، فبعد أن أحرق المُسلمون الجسورَ التي بناها لويس للعُبُور عليها من أجل الهُجُوم على المُسلمين، جاء بدوي إلى مُعسكره، وأخبره أن بإمكانه أن يدلَّه على مخاضة تُمكِّن جيشه من العُبُور إلى جهة المُسلمين، شريطة أن يُعطيه خمسمائة دينار، ودفع لويس المال، وعبر الجيش الفرنجي، وفاجؤوا المُسلمين في مُعسكرهم[2]، ويُتابع جوانفيل مُرافق الملك لويس رواية ما حدث، فيقول: "بعدما هزمنا المُسلمين، وطردناهم من خيمهم، وتركوا مُخيَّمهم فارغاً، اندفع البُداة للقيام بنهبه، ولم يترك اللُّصوص خلفهم شيئاً، بل حملوا كُلَّ شيء خلَّفه المُسلمون . . ومن المعروف أن عادة هؤلاء القوم عَدَّ الجانب الضعيف صيداً حلالاً لهم"[3].

وبعد كُلِّ ما ذكرناه هل نستطيع الحُكْم على قبائل البدو بالعمالة المطلقة للفرنج؟! لا أظنُّ ذلك، فإن ما ورد هُو نصف الحقيقة، وهُو لا ينفي أنَّه كان لكثير من طوائف البدو مواقف وطنية، ووقفات يُسجِّلها التاريخ لهم، فقد كان جيش صلاح الدِّين لا يخلو من فُرسان البدو المُتطوِّعة للجهاد. فعندما كان السُّلطان مُخيِّماً في مرج عُيُون، وضع مجموعة من فُرسان بني ربيعة في كمين

---

1 - السُّلُوك، المقرزي، 1/ 320، ـ بعد أن احتلَّ الفرنجُ دمياطَ أرسل الكامل يجمع المُتطوِّعين من القاهرة، ولإثارة حماسة الناس أبلغوهم أن ملك الفرنج قد أقطع ديارَ مصر لأصحابه، فقال الشاعر الشَّعْبي:

يُهدِّدونا بأهل عكَّا أن يملكونا وأهل يافا

ومَنْ لنا أن يلوا علينا فالروم خير من الريافا

2 - جين جوانفيل، حياة القدِّيس لويس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 88.

3 - جين جوانفيل، حياة القدِّيس لويس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 99.

للفرنج، فكشفوهم، وحاصروهم، فقاتلوا، حتَّى قُتلوا عن آخرهم، وكان فيهم ثلاثة من أُمراء بني ربيعة[1]. كذلك كان السُّلطان صلاح الدِّين يعرف قيمة البدو كأدلاء، فنجدهم يتقدَّمونه في مسيره[2]، ثُمَّ يُسلِّطهم على مُعسكرات العدوِّ، فيقضُّون مضاجعهم، وينهبون ما وصلت إليه أيديهم، حتَّى إنَّهم - في أحد الأيَّام - أحضروا للسُّلطان كَنيسَة المُعسكر الفرنجي، وهي خيمة كبيرة[3]، وهذا دليل على جسارتهم على العدوِّ، واقتحامهم لمُعسكراته، حتَّى إنَّهم فكُّوا خيمة الكَنيسَة من وسط المُعسكر، وحملوها.

وعندما كان السُّلطان صلاح الدِّين مُرابطاً أمام للفرنج على حصار عكَّا بلغه أن جمعاً من الفرنج يخرجون للاحتطاب وللاحتشاش من طرف النهر، "فأكمن لهم جماعة من العَرَب، وقصد العَرَب لخفَّتهم على خُيُولهم، وأمنه عليهم، فخرجوا، ولم يشعروا بهم"[4]، "وحالوا بينهم وبين خيامهم"[5]، "وهجموا عليهم، وقتلوا منهم خلقاً عظيماً، وأسروا جماعة، وأحضروا رُؤُوساً عدَّة"[6]. وفي عام 647 هـ 1249م، بعد أن احتلَّ الفرنج دمياط استنفر الملك الصَّالح أيُّوبُ النَّاسَ، "فوصلت عربان كثيرة جدًّا، وأخذوا في الغارة على الفرنج، ومُناوشتهم"[7]. وكُلُّ ذلك مواقف وطنية وجهادية يجب أن نتذكَّرها، إلى جانب كُلِّ ما كان يُذكَر لهم من مواقف سيِّئة.

صُورة البدو لدى الفرنج:

قبِل الفرنجُ التعاملَ مع البدو، وبلا شكٍّ؛ فقد أفادوا منهم في مواقف كثيرة، وخاصَّة للدلالة في مسالك بلاد مجهولة بالنِّسبَة إليهم، ومعروفة بدقَّة بالنِّسبَة للبدو. وبالمُقابل؛ عاش الفرنج معاناة كبيرة من البدو، فهم لم يُخلصوا لهم في يوم من الأيَّام، وكانوا - على الدوام - ينتظرون الفُرصة لينقضُّوا

---

1 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 198، - والأُمراء هُم: زامل بن تبل بن مرا بن ربيعة أمير بني ربيعة، والأمير حجي بن منصور بن دغفل بن ربيعة، والأمير مطرف بن رفيع بن بردويل بن مرا بن ربيعة، وآخرون غيرهم.

2 - النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15/ 253.

3 - الروضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 194.

4 - النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15/ 116.

5 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13 / 207.

6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 294.

7 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 439.

عليهم، كما كانوا يفعلون بجُيُوش المُسلمين. لذلك ظلَّ الفرنج حذرين غاية الحذر في تعاملهم مع البدو، بل رُبَّما كانوا يخافون منهم، ويتَّضح هذا الخوف من خلال الصُّورة التي نقلها عن البدو مُؤرِّخو الفرنجة، فيقول عنهم بوتشارد راهب جبل صهيون:

"البدو يملكون أعداداً كبيرة من الماشية، ويقومون برعايتها، لا يمتلكون مكاناً دائماً للإقامة، يقصدون المراعي، ويُقيمُون خيامهم . . مُقاتلون مُتفوِّقون، يُحبُّون الحَرْب، ويستخدمون السيف والرّمح في المعركة، ولا يستخدمون النَّشَّاب، ويقولون إنَّها دناءة أن تنتزع حياة إنسان بواسطة سَهْم، وهُم شُجعان، ولا يرتدون إلَّا قميصاً فوقه عباءة فضفاضة، ويُغطُّون رُؤُوسهم بقطع قماش"[1].

ويقول الراهب الدومينيكاني فيلكس فايري: "إن البدو يزجُّون أنفسهم في أعظم المخاطر من دُون خوف، لاعتقادهم بأنَّ الموت أمر مَقْضي من الله لا يُمكن تجنُّبه"[2].

ويقول عنهم جين جوانفيل مُرافق الملك لويس في حملته على مصر: "ولا يعيشون في قُرى، أو مُدُن، بُيُوتهم أكوام مربوطة إلى أعمدة، عليها جلود أغنام مُعالجة بالشّب، يرتدون عباءات من الصوف، يلفُّون أنفسهم بها، ويعتقدون أن الانسان لا يموت قبل اليوم المحدَّد له، فلذلك يرفضون لبس الدُّرُوع، وشتيمتهم: عليكَ اللعنة مثل فرنجي يلبس الدُّرُوع خوفاً من الموت" [3]، ويُلخِّص فيليكسُ فايري النظرةَ إلى البدو في العصر الأيُّوبي بقوله: "إن البدو مكروهون من المُسلمين والمسيحيين سواء"[4].

---

1 - بورتشارد راهب جبل صهيون، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 39/ 242.

2 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43 / 1194.

3 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 36/ 100.

4 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1194



الفصل الثَّالث

العلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة

الفرقة الخَوَارزميَّة

المبحث الأوَّل:

فرقة المقاتلين المرتزقة

توجَّهت مُعظم عساكر جلال الدِّين الناجية من سُيُوف التَّتار إلى بلاد سلاجقة الرُّوم، وقصدوا السُّلطان علاء الدِّين كَيْقُبَاذ، الذي رحَّب بهم، واستخدمهم في جيشه[1]، وذُكِر أن كَيْقُبَاذ هُو الذي استدعاهم، فوافقوا على خدمته، وأقسموا له، فأقطعهم الأراضي في إرزن الرُّوم[2]. وظهرت نوايا كَيْقُبَاذ بعد استخدام الخَوَارزميَّة، فخاض أوَّل معاركه بهم ضدَّ الأيُّوبيِّين؛ حيثُ هاجم خِلاط، واحتلَّها بمُساعدة فعَّالة من فرقة الخَوَارزميَّة، كذلك هاجم عدَّة مُدُن وقلاع أيُّوبية في الجزيرة[3]، ممَّا دفع بني أيُّوب للتكتُّل، وجمع قُوَّاتهم، والسير بحملة عسكريَّة كُبْرَى نحو الجزيرة عام 633 هـ 1236م، واسترجعت الحملة ما احتلَّه كَيْقُبَاذ الذي انسحب إلى ما خلف ممَّرات طوروس، أو ما كان يُعرَف بالدربندات[4].

وعندما تُوفِّي كَيْقُبَاذ، وتولَّى مكانه ابنه غياث الدِّين كيخسرو[5]، "ارتاب بالخَوَارزميَّة، فقبض على أُمرائهم، وانفضَّ الباقون عنه، وعاثوا في الجهات"[6]. وفي الحقيقة؛ كانت نقمة غياث الدِّين على الخَوَارزميَّة لأنَّهم تلكَّؤوا بمُبايعته، فحبس مُقدَّمهم خير خان، الذي تُوفِّي في سجنه، وهرب الباقون نحو ملطية وخرتبرت، ثُمَّ سُمَيساط، يُغيرون، وينهبون، ثُمَّ انحدروا مُغيرين ما بين حَرَّان والرُّهَا

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 325.
2 - مُختصر سلجوق نامه، ابن البيبي، تعريب: مُحمَّد السعيد جمال الدِّين، 229.
3 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 314، وصدق الأخبار، ابن سنباط، 1/ 307.
4 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 695، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 158.
5 - شذرات الذهب، أحمد الحنبلي، 5/ 168، والعبر، الذهبي، 5/ 139.
6 - العبر، ابن خلدون، 5/ 355.

وسروج[1]، وعاشوا على النهب والتعرُّض للقوافل، وفرض الأتاوات على الحُكّام. فحاول غياث الدِّين استرضاءهم، لكنَّهم لم يوافقوا على العودة إليه[2]. وشكَّل الخَوَارزميَّة مجموعات مُتنقِّلة، ارتكبت من القتل والنهب والفواحش ما فاق ارتكابات التَّتَار؛ بحيثُ لن يُمكن لأحد أن يُسوِّغ وحشيَّتهم بفقر، أو عطالة[3]. وقد بلغ عدد مُقاتلي الخَوَارزميَّة في بدايات تواجدهم في الجزيرة نحو خمسة آلاف فارس[4]، ثُمَّ أخذوا بالتزايد بسبب انضمام أفراد ومجموعات إليهم، وأكبر المجموعات التي عملت معهم كانت من التُّركمان[5]، فأصبح تعدادهم ما بين عشرة آلاف فارس[6]، واثنَيْ عشر ألف[7].

ولأن الخَوَارزميَّة كانوا يعيشون عيشة العصابات، فإنَّهم لم يعودوا يخضعون لقائد واحد، بل كان لهم عدَّة مُقدَّمين، كان أكبرهم حُسام الدِّين بركة خان، الذي تمكَّن من الظهور على بقيَّة المُقدَّمين لمركزه السَّابق، "فقد كان أمير حاجب السُّلطان جلال الدِّين، وهُو شيخ داهية له رأي ورواء، ودونه يأتي عزّ الدِّين صاروخان، شحنة الجمال التي لجلال الدِّين وهُو شيخ بطين أبله، ثُمَّ بهاء الدِّين كشلو خان تربية جلال الدِّين، شابّ عاقل وابن أُخت جلال الدِّين، وبهادر، وبكجري، وتبلو، وغيرهم"[8]. ويبدو أن مُقدَّمي الخَوَارزميَّة اعتمدوا في زعامتهم على مناصبهم القديمة في جيش جلال الدِّين.

وكان الخَوَارزميَّة يتنقَّلون ويُقاتلون مُصطحبين معهم زوجاتهم وأولادهم وخيامهم ومُمتلكاتهم، وعندما استولوا على بعض المُدُن والحُصُون، أو حصلوا عليها كإقطاع انتقلوا للسَّكَن بها. وقد عمل الخَوَارزميَّة في الجزيرة والشَّام كفرقة مُرتزقة حقيقيَّة، تُؤجِّر سُيُوفها ورجالها لمَنْ يدفع لها أكثر، وعندما لا يجدون مَنْ يعملون لحسابه، كانوا يعملون لحسابهم الخاصّ. وعلى هذا الأساس فلا يُمكن أن نتوقَّع منهم الالتزام بميثاق، أو الوفاء بعهد، أو الإخلاص لسيِّد مُعيَّن. ولكُلِّ هذا لا نستطيع أن نعدَّهم من المُتطوِّعة، أو من مُحترفي الجُندية، فهم مُرتزقة يحترفون الارتزاق كمجموعة واحدة.

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 230، ومُختصر سلجوق نامه، ابن البيبي، تعريب: مُحمَّد السعيد جمال الدِّين، 250 ـ 251، ومُختصر تاريخ الدُّول، ابن العبري، 283.

2 - مُختصر سلجوق نامه، ابن البيبي، تعريب: مُحمَّد السعيد جمال الدِّين، 261 ـ 263.

3 - من ذكريات الغزو الفرنجي، د. شاكر مُصطفى، 101.

4 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 631 ـ 640/ 32.

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 296، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 476، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 331.

6 - تاريخ الزَّمان، ابن العبري، 276.

7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل 4/ 325.

8 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 631 ـ 640/ 32، وأخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 32، وكنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 353.

المبحث الثَّاني:

الصَّالح أيُّوب وفرقة الخَوَارزميَّة

في عام 634 هـ 1237م، سمع بأخبار فرقة الخَوَارزميَّة أمير حصن كيفا الصَّالح أيُّوب بن السُّلطان الكامل، وكان نائباً لأبيه في الجزيرة[1]، فأرسل يستأذن أباه في استخدامهم، فأذن له[2]، فاستقدمهم أيُّوب "وأفاض عليهم الأرزاق"[3]، وأعفى جميع أُمرائه من مهامِّهم، وأعطى أخبازهم للخَوَارزميَّة[4]. ويقول ابن خلدون إن سبب استقدام أيُّوب للخورازمية "ليحسم عن البلاد ضررهم"[5]، ولكن استخدام أيُّوب للخَوَارزميَّة لا يدلُّ على ذلك أبداً، فقد تقوَّى بهم، وهاجم أعداءه، وكانوا سبب سعده وارتقائه قبل أن ينقلبوا عليه.

في المرحلة الأُولى من التعاون بين أيُّوب والخَوَارزميَّة، وهي مرحلة الجزيرة، كان معهم كراكب الأسد، تهابه الناس، وهُو لمركوبه أهيب[6]، وحتَّى يضمن ولاءهم له زوج أُخته من والدته بمُقدَّم الخَوَارزميَّة بركة خان، وزوج ابنه المُغيث عُمر من ابنة بركة خان، ومع ذلك؛ كانوا "يُظهرون طاعتهم حيناً، ويتغاضون حيناً، ويطلبون منه ما يفوق طاقته"[7]. فالخوارزمية حتَّى بعد انضمامهم لقُوَّات الصَّالح لم يتحوَّلوا إلى قطعة عسكريَّة، ولم تتركهم رُوح التمرُّد. وعندما تحرَّك الملك الكامل لحصار حمص عام 635 هـ 1238 م، طلب من ابنه أيُّوب الهُجُوم على الرحبة، التي تتبع لمملكة حمص، فسار إليها الصَّالح، وحاصرها ومعه الخَوَارزميَّة، الذين ما إن سمعوا بموت الكامل، وشعروا بحرج موقف ابنه الصَّالح، حتَّى تمرَّدوا، وحاولوا القبض على سيِّدهم الصَّالح، فهرب منهم، والتجأ إلى سنجار، فنهب الخَوَارزميَّة معدَّاته وأمواله[8]، وتفرَّقوا في البلاد الجزرية يتحكَّمون بها[9]، ويُمارسون كُلَّ ما يخطر على البال من الموبقات والأذى للناس.

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 255.

2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 378.

3 - العبر، ابن خلدون، 5/ 355.

4 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 330، وصدق الأخبار، ابن سنباط، 1/ 311.

5 - العبر، ابن خلدون، 5/ 355.

6 - يُقال هذا التشبيه لمَنْ يُصاحب الحُكَّام (الدُّرَّة المضية، ابن صصرى، 20).

7 - مُفرِّج الكرُوب، ابن واصل، 5/ 153.

8 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 269.

9 - مُفرِّج الكرُوب، ابن واصل، 5/ 78.

وانتهز هذه الفُرصة سلاجقةُ الرُّوم، فاتَّفقوا مع صاحب ماردين، وهاجموا مدينة حَرَّان، وكان بها المُغيث بن الصَّالح أيُّوب، فهرب إلى قلعة جعبر، وأكمل عليه الخَوَارزميَّة الذين وقعوا على أثقاله، فنهبوها[1]. وكذلك كان حال بدر الدِّين لُؤلُؤ، فهُو يتحيَّن الفُرص. ولمَّا مات الكامل طمع لُؤلُؤ باحتلال بلاده، فبدأ بسنجار، وحاصرها، وكان بها الصَّالح أيُّوب، فطلب منه الصُّلح، فأصر لُؤلُؤ على حمله إلى بغداد في قفص[2]. ولمَّا بلغت الشدَّة بأيُّوب أقصاها لم يجد منقذاً له سوى الخَوَارزميَّة، وعرف أنَّهم يُحاصرون حَرَّان[3]. وكآخر سهم في جعبة الصَّالح أطلق قاضي سنجار بدر الدِّين السنجاري نحو الخَوَارزميَّة، فقد دلاه من السور ليلاً، ومضى إلى الخَوَارزميَّة، ووافقهم على كُلِّ ما طلبوه من إقطاعات: حَرَّان، والرُّهَا، وغيرها[4]، "واستمالهم، وطيَّب خواطرهم بكثرة ما وعدهم به، فمالوا إليه"[5]، كما أطمعهم القاضي بدر الدِّين بأموال لُؤلُؤ، ووعدهم أن تكون غنيمتهم الخاصَّة[6].

وفي هذه الأثناء كان المُغيث بن أيُّوب يُحاول اللُّجُوء إلى حلب، فردُّوه، فسار نحو حَرَّان، وهُناك وصله كتاب أبيه الصَّالح أيُّوب بالاتِّفاق مع الخَوَارزميَّة، ويطلب منه القُدُوم معهم لدفع لُؤلُؤ عن سنجار، فسار المُغيث مُسرعاً نحو الخورازمية، واندفعوا جميعاً نحو سنجار[7]، وكبسوا لُؤلُؤاً، فنجا وحده، ونهبوا خزائنه وأمواله وجميع ما كان في عسكره[8]، واستغنى الخَوَارزميَّة بما سلبوه

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 689.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 1197، والنُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 6/ 299.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 689، والنُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 6/ 299، - بينما يقول ابن العميد: إنَّهم كانوا "يتنقَّلون من مرج إلى مرج، ويأكلون، ويشربون". (أخبار الأيُّوبيِّين، 27)، وهذا وَهْمٌ؛ إذْ لا يُمكن للخَوَارزميَّة أن يُفوِّتوا هكذا فُرصة من الفوضى لجمع المكاسب.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 187، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 330، وصدق الأخبار، ابن سمباط، 12/ 315.
5 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 269.
6 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 27، ونهاية الأرَب، النويري، 25/ 233.
7 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 689.
8 - النُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 6/ 299، ونهاية الأرَب، النويري، 25/ 233، وأخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 27.

من لُؤلُؤ[1]. وعاد الصَّالح أيُّوب إلى حصن كيفا مهاباً، وحوله الخَوَارزميَّة، فوجَّههم صوب آمد لطرد جيش سلاجقة الرُّوم، الذين آثروا السلامة، وانسحبوا نحو بلادهم[2].

وعادت أُمُور الصَّالح أيُّوب للانتظام مع الخَوَارزميَّة في الجزيرة، فأخذ يتطلَّع إلى الشَّام، وجاءته الفُرصة تسعى في عام 636 هـ 1239م، عندما طلب الملك الجواد يُوسُف بن ممدود بن العادل، الذي تولَّى دمشق بعد وفاة عمِّه الكامل، من الصَّالح أيُّوب أن يُبادله على دمشق بالرقَّة وسنجار وعانة، فوافق الصَّالح، وأسرع نحو دمشق، وتسلَّمها منه[3]. ورتَّب أيُّوبُ ابنَهُ المُعظَّم تُوران شاه في حصن كيفا[4]، وترك الخَوَارزميَّة في إقطاعاتهم حَرَّان والرُّهَا لحراسة مُمتلكاته في الجزيرة. ويبدو أنَّهم فرضوا سُلطتهم كأمر واقع هُناك، فقد "تسلطن الخَوَارزميَّة على بلاد الجزيرة، وبالغوا في العيث والفساد"، وخطبت المُلُوك وُدَّهم، حتَّى إن المُظفَّر غازي صاحب مَيَّافارقين تزوَّج ابنة عمِّ مُقدَّمهم بركة خان[5].

ويبدو أن أيُّوب كان ينظر لموضوع المبادلة مع الجواد بمنظار آخر، فربما كان يعتبر أن دمشق هي حقّه بالإرث عن والده الكامل، وأن الجواد مُغتصب لهذا الحقّ، لذلك عندما اتَّفق معه بيت له الغدر، وما إن سار الجواد عن دمشق حتَّى أتبعه برسول إلى الخَوَارزميَّة ليقبضوا عليه، ولكن الجواد - ولحُسْن حظِّه - كشف الرسالة، وسار في البادية مُتخفِّياً، حتَّى وصل عانة، فأقام فيها[6]. وفي عام 637 هـ، استولى لُؤلُؤ صاحب المَوصل على سنجار، وطرد الجواد منها[7]، ولم يبقَ للجواد سوى عانة، فباعها للخليفة المُستنصر، ومن غرائب الأُمُور أنَّه سار - بعد ذلك - إلى حَرَّان، وأقام بين الخَوَارزميَّة، وانضمَّ إليهم[8].

---

1 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 704، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 300.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 190، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 689.
3 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 631 ـ640/ 20.
4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 691.
5 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 631 ـ 640/ 32.
6 - نهاية الأرَب، النويري، 29/ 244.
7 - المُختصر، أبو الفداء، 2/ 166، وصدق الأخبار، ابن سنباط، 1/ 320.
8 - الحوادث الجامعة، ابن الفوطي، 131.

حصار حمص:

وصل الصَّالح أيُّوب إلى قناعة مفادها أنَّه طالما بقي الملك المُجاهد في حمص فلن يستقرَّ مُلكه في دمشق، فلم يُضيِّع أيُّوب وقتَهُ في دمشق، وجدَّد تحالف والده الكامل مع المُظفَّر في حماة، وطلب منه تحريك جُيُوشه نحو حمص، وأرسل للخورازمية يطلبهم لحصار حمص، وتحرَّك هُو بعسكر دمشق نحو حمص، حتَّى وصل إلى ثنية العقاب[1]. سبق الخَوَارزميَّة جميع القُوَّات الحليفة، وألقوا حصارهم على حمص قبل أن تصل إليها قُوَّات المُظفَّر من حماة، أو قُوَّات الصَّالح من دمشق، وهذا ما أتاح للملك المُجاهد الاتِّفاق معهم، ودفع ما يُرضيهم مُقابل انسحابهم عن مدينته[2]. وبالتَّأكيد؛ فإن تواطؤ الخَوَارزميَّة ضدَّ سيِّدهم ووَليِّ نعمتهم الصَّالح، الذي سلَّطهم على البلاد والعباد، لم يكن من أجل مال المُجاهد فقط، بل يبدو أنَّهم وضعوا في حسبانهم أُموراً أُخرى، رُبَّما كان المُجاهد قد لمَّح لها خلال مُفاوضته معهم، ومنها:

1 - خطر لقائهم بقُوَّات دمشق وقُوَّات حماة المُتحالفتَيْن، فقد يخطر ببال الصَّالح أيُّوب - بعد أخذ حمص، وقد توفَّرت له كُلُّ أسباب القُوَّة - أن يُصفِّي حسابه القديم معهم.

2 - إذا استولت القُوَّات الحليفة على حمص فسيكون كُلُّ شيء للصَّالح أيُّوب، فأجور الخَوَارزميَّة مدفوعة سلفاً في إقطاعات الجزيرة، وبالتَّالي؛ ستكون خسائرهم في المعركة وجُهُودهم مجانية.

4 - لمس الخَوَارزميَّة مدى قُوَّة تحصين حمص، وعزيمة المُجاهد الصلبة، فوضعوا احتمال عدم النجاح في أخذها، ففضَّلوا مكسباً مضموناً بلا تعب.

5 - أثبتت الخَوَارزميَّة أمام حمص أنَّها فرقة مُرتزقة حقيقيَّة، وأنَّها مع مَنْ يدفع، وهذه النقطة لابُدَّ أن المُجاهد كان يُدركها تماماً، وقد أجاد استخدامها.

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 163.

2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 163، و السُّلُوك، المقريزي، 1/ 280.

كما يبدو أن المُجاهد ـ بطُرُقه المعهودة ـ قد شغل أفكار الخَوَارزميَّة حول أملاكهم في الجزيـرة، فلمَّا تأكَّد لهم طول المقام عادوا إلى بلادهم[1].

وكان المُظفَّر صاحب حماة في طريقه إلى حمص عندما ارتدَّ الخَوَارزميَّة عنها، فخاف أن يقصدوه؛ لأنَّه يُشكِّل لهم غنيمة سهلة على الطريق، فلا قُوَّة جيشه ولا تحالفه مع الصَّالح أيُّوب يحميانه منهم، فآثر الإسراع نحو أسوار حماة يتحصَّن بها[2]. وبعد أن عرف الخَوَارزميَّة أن مُخطَّطات الصَّالح أيُّوب لامتلاك مصر قد انتهت به في سجن الكَرَك، "تحرَّكت أطماعهم، وعاثوا في بلاد الشَّرْق والجزيرة"[3]. وبقدر الأعداء الذين اكتسبوهم بفسادهم اكتسبوا من الحُلفاء، فقد وجَدَ فيهم المُلُوك الحاقدون والأُمراء المنبوذون ملاذاً ومُتنفَّساً لغلِّهم على المُلُوك والممالك. فانضمَّ إليهم الملك الجواد يُونُس بن ممدود، الذي اعتقد أنَّه غُبن بتسليمه دمشق للصَّالح أيُّوب[4]. وكذلك الصَّالح إسماعيل بن المُجاهد الذي لم يحصل على نصيب من تركة أبيه في حمص[5]. وعلي بن حُذَيْفة أمير بني ربيعة الذي حقد على حلب لتقريبها أحلاف الأعراب[6]. وانضمَّ هؤلاء جميعاً إلى الخَوَارزميَّة. كما دخل حلفهم المُظفَّر شهاب الدِّين غازي صاحب مَيَّافارقين، لأنَّه شعر بأطماع سلاجقة الرُّوم تمتدُّ إلى بلده، فأعلم الحلبيين، وطلب حلفهم، فلم يوافقوه لاتِّفاقهم المُسبق مع صاحب الرُّوم[7]، علماً بأنَّ المُظفَّر هو شقيق ضَيْفَة خَاتُون الوصية على عرش حلب. كذلك تمكَّن المُظفَّر شهاب الدِّين من استمالة التُّركمان الكرمانية بالمال والوُعُود[8]، ويُمكن أن نعزو قيام التحالف الخوارزمي ليُقابل التحالف الشَّامي حلب حمص دمشق[9].

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 280.

2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 369.

3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 168، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 501.

4 - الحوادث الجامعة، ابن الفوطي، 131.

5 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 176، و تاريخ الإسلام، الذهبي، 631 ـ 640/ 31.

6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 282، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 501.

7 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 695، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 304.

8 - مُختصر سلجوق نامه، ابن البيبي، 276.

9 - الأتراك الخوارزميُّون، صبري سليم، 85.

وفي عام 638 هـ1241م[1]، قام الخَوَارزميَّة وحُلفاؤهم بالضغط على الحافظ نُور الدِّين أرسلان ابن العادل صاحب بالس وقلعة جعبر، بتحريض من ابنه الذي التجأ إليهم، وطلب حصار أبيه، فقام الحافظ ـ نتيجة لعجزه عن حماية أملاكه ـ بتسليمها إليأُخته ضَيْفَة خَاتُون، الوصية على عرش حلب، فانقضَّ الخَوَارزميَّة يُغيرون على جعبر وبالس[2]، ومعهم نجدة صاحب ماردين المنصُور الأرتقي[3]. فتصدَّى لهم عسكر حلب بقيادة المُعظَّم تُوران شاه بن السُّلطان صلاح الدِّين، والتقى الجمعان في وادي بزاعة قُرب البيرة، فهاجم الخَوَارزميَّة جيش حلب من أمامه، وخرج عليه علي بن حديثة بعربانه من الخلف، فانهزم الحلبيون هزيمة قبيحة[4]، ووقعت المُلُوك والأُمراء بين قتيل، وأسير[5]، فقد قُتل منهم: الصَّالح بن الأفضل صاحب سُمَيساط، والزاهر بن السُّلطان صلاح الدِّين، وأسر تُوران شاه، وأخيه نصرة الدِّين[6]. فاستعدَّ الحلبيون للحصار، "وتدفَّق الخَوَارزميَّة نحو حلب، وبثُّوا سراياهم حتَّى اعزاز وتلّ باشر وطرف العمق، وارتكبوا من الفواحش ما لم يفعله أحد من الكُفَّار"[7]؛ حيثُ انقضُّوا على منبج، واستباحوها، وفعلوا فيها فعْلَ التَّتَار[8]؛ إذ "ارتكبوا الفواحش بالنساء في الجامع علانية، وقتلوا الأطفال"[9]. كذلك كان فعلهم في سرمين؛ حيثُ دخلوا دار الدعوة الإسماعيليَّة، وكان قد اجتمع فيها أمتعة كثيرة للناس، ظنَّاً منهم أنَّهم لا يجسرون على قُربانها خوفاً من الإسماعيليَّة، فدخلوها قهراً، ونهبوا جميع ما كان فيها[10]،

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 282.

2 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 3/ 733.

3 - يُقدِّر ابنُ واصل نجدةَ ماردين للخَوَارزميَّة بحوالي 12 ألف فارس، (مُفرِّج الكُرُوب، 5/ 283).

4 - يُعلِّل ابنُ شدَّاد هذه الهزيمةَ، وهُو الذي كان يكتب في بلاط حلب، بأنَّ جيش حلب كان مُشتَّتاً في عدَّة مهامّ عسكريَّة، يقول: " لمَّا قصد الخوارزميةُ حلبَ كان عسكرها مُفرَّقاً في البلاد، بعضه بحمص لمَّا أغار الفرنج على بلدها، وبعضه في الرُّوم صحبة الأمير حُسام الدِّين ألطاش بن تركمان، وبعضه بقلعة جعبر مع الأمير ناصر الدِّين أبي المعالي الفارسي، وبعضه بعزاز بسبب التركماني الآغا خرية، ولم يكن بحلب ـ يومئذ ـ إلَّا دُون الألف فارس، خرج بهم المُعظَّم تُوران شاه بن صلاح الدِّين". (الأعلاق الخطيرة، 3/ 2/ 465).

5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 168، وكَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 349.

6 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 235.

7 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 697.

8 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 504، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 284.

9 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 406، ـ وكذلك حول فظائع الخَوَارزميَّة في المعرَّة راجع: ما أورده ابن واصل في: مُفرِّج الكُرُوب، 5/ 285.

10 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 700.

ثُمَّ استباحوا المعرَّة وكفر طاب[1]، قبل أن "يرجعوا إلى بلادهم، وهي حَرَّان، وما معها، بعد أن أخربوا بلد حلب"[2]. ويُحاول بعض الدارسين لوقائع الخَوَارزميَّة أن يُبرِّر فظائعهم تلك بأنَّها نتيجة للعنف الذي تعرَّضوا له من قِبَل التتَّار، وأن العنف والفظائع كادت تُصبح من سمات الحُرُوب المُتعارف عليها[3]، ولكنْ؛ نجد أنَّه من الأفضل النظر إلى حالة الخَوَارزميَّة من جميع النواحي: الاجتماعيَّة، والعسكريَّة، والاقتصاديَّة، والنفسية، إنَّها حالة لا تعرف الاستقرار بأيِّ شكل، فهم مع أيٍّ كان، وضد أيٍّ كان، ينقلبون على الحليف، ويحالفون العدوَّ، كُلُّ ذلك انطلاقاً من المصلحة الآنية، بدُون أيِّ استراتيجية في علاقاتهم، أو حُرُوبهم. فانقلبوا إلى فرقة من المُرتزقة، بلا مبادئ، وبلا أيِّ وازع.

وربَّما كان من أهمِّ أسباب الهُجُوم الخوارزمي على حلب:

1 ـ أخذ الحلبيون لجعبر وبالس مُبادلة، بعد أن كادت تقع بأيديهم.

2 ـ تحريض الصَّالح أيُّوب للخَوَارزميَّة ضدَّ حلب، التي شكَّلت حلفاً مُعادياً له مع حمص ودمشق.

3 ـ تحالف حلب مع غياث الدِّين كيخسرو عدوّ الخَوَارزميَّة القديم.

4 ـ غنى أرض حلب، وتفرُّق جيشها مابين نجدة كيخسرو وحماية القلاع والحُصُون.

5 ـ رفض ضَيْفَة خَاتُون الوصية على عرش حِلب طلب مُحمَّد تركان بن بركة خان للزواج بإحدى بنات البيت الأيُّوبي، وإهانتها للرسول[4].

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 928 ـ 290.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 167.
3 - الأتراك الخوارزميُّون، صبري سليم، 73.
4 - الحوادث الجامعة، ابن الفوطي، 143، ـ وراجعْ مناقشة أسباب العداء بين الخَوَارزميَّة والحلبيين في: الأتراك الخوارزميُّون، صبري سليم، 70 ـ 71.

المبحث الثَّالث:

المنصُور إبراهيم يتصدَّى للخَوَارزميَّة

ضجَّت الشَّام بأخبار الخَوَارزميَّة، وما فعلوا بحلب، وجيشها، فوصل الخبر إلى الملك المنصُور إبراهيم صاحب حمص، وكان يستعدُّ للإغارة على معاقل الفرنج "وعنده من عسكره وعسكر دمشق مقدار ألف فارس، فساق بالعسكر حتَّى وصل حلب، وأقام خارج باب الرابية يستقدم العَسْكَر"، وأرسلوا إلى الصَّالح إسماعيل، فَسَيَّرَ نجدةً أُخرى[1]، وإلى المُظفَّر صاحب مَيَّافارقين، فَمَاطَلَ، وسَوَّفَ[2].

وخرج الملك النَّاصر يُوسُف الثَّاني ابن العزيز صاحب حلب لاستقبال المنصُور، وكان عمره إحدى عشرة سنة[3]. وحين سمع الخَوَارزميَّة بوُصُول المنصُور إلى حلب، عادوا إلى إقطاعاتهم، وتجمَّعوا في حَرَّان للتوجُّه نحو حلب لضرب قُوَّات المنصُور قبل أن يكثر جمعه، "وظنُّوا أنَّهم يبادرون لصُلحهم، وقد انفصل عنهم علي بن حديثة"[4]، وبالمُقابل؛ قرَّبت الصاحبةُ ضَيْفَة خَاتُون الأميرَ طاهرَ بن غنام، وأَقْطَعَتْهُ وزوجته، وسَمَّتْهُ أميرَ جميع العَرَب[5].

وخرجت الفرقة الخَوَارزميَّة وأحلافها من حَرَّان عام **638** هـ، فعبروا الفُرات عند الرقَّة، وخرج الملك المنصُور إبراهيم، وعَسْكَرَ في النيرب، ولَمَّا وصلت الخَوَارزميَّة إلى نواحي دير حافر والجبول، ناوشتْهُم العَرَبان المُتحالفة مع المنصُور، فمضى الخَوَارزميَّة إلى سرمين، ونهبوا دار الدعوة الإسماعيليَّة فيها، ثُمَّ زحفوا إلى المعرَّة، فتحرَّك المنصُور بقُوَّاته من النيرب إلى تلِّ السُّلطان، فالحيار[6]، ومن اتِّجاه حَرَكَة المنصُور نتبيَّن أنَّه كان يقصد أن يقطع عليهم طريق العودة نحو مواقعهم في الجزيرة.

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 698.

2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 466.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 286.

4 - وكان رسول حلب هُو ابن العديم (زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 699).

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 287.

6 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 699، ـ تلّ السُّلطان: يُعرَف بالفنيدق، يبعد عن حلب نحو مرحلة على طريق دمشق. ـ الحيار: حيار بني القعقاع، صقع من برية قنسرين، بينه وبين حلب يومان. (ياقوت، مُعجم البُلدان، مادَّة: تلّ السُّلطان، ومادَّة: حيار).

ولمَّا تبيَّن الخَوَارزميَّة نوايا المنصُور، ولمسوا فيه القُوَّة والعزيمة، اضطرُّوا للهرب، مُتَّبعين دائـرة واسعة حتَّى لا يصطدموا به، فاندفعوا نحو كفر طاب، وأحرقوها، ثُمَّ شيزر، فهاجموا ربضها، وهُناك علموا أن المنصُور يتتبَّعهم، فاتَّجهوا شرقاً نحو حماة، فاجتازوا بها دُون التعـرُّض لهـا، بـل أن بعـضهم دخلها، فباع، واشترى، لانتماء صاحبها إلى الصَّالح أيُّـوب[1]. ثُـمَّ توجَّهـوا إلى سـلمية، فالرصـافة، وهُناك حاول المنصُور الإيقاع بهـم، فـسبقتْهُ إلـيهم مجموعـة مـن العَـرَب المُلحقـين بجيـشه، فـألقى الخَوَارزميَّة أثقالهم، وغنـائمهم، وأسراهـم، وانـدفعوا إلى الرقَّـة، فانـشغل العَـرَب بالاسـتيلاء عـلى الغنائم، فتمكَّن الخَوَارزميَّة من الإفلات والوُصُول إلى الفُرات مُقابـل الرقَّـة[2]، بيـنما كـان المنـصُور وجيشه في صفِّين، وكان جُلُّ همِّه أن يسبقهم لمنع عُبُورهم الفُرات، فتأخَّر عنهم ساعة، تمكَّنوا خلالهـا من التحصُّن وحفر خندق دفاعي حولهم في بستان البليل، ثُـمَّ تمكَّنـوا مـن عُبُـور الفُـرات إلى الرقَّـة، ومنها توجَّهوا إلى حَرَّان، ومن هُناك؛ توجَّهوا صوب الرُّهَا؛ حيثُ عسكروا قُربها مع مَـنْ تمكَّنـوا مـن جَمْعه من القُوَّات عند جبل يُدعى جَلْهَمَان. أمَّا المنصُور؛ فقد استمرَّ بملاحقتهم مـع جيـشه، ولكنَّـه لم يعبر وراءهم مُقابل الرقَّة، فهي إقطاع لهم، فقد خشي من مُفاجأة فيها، لذلك ذهب شـمالاً إلى البـيرة، فعبر الفُرات على جسرها، وهُناك وافاه ثلاثة آلاف فارس هُم نجدة صاحب الرُّوم[3]، وَعَـسْكَرَ بـين سروج والرُّهَا[4].

وكان هرب الخَوَارزميَّة هذا شيئاً جديداً في تكتيكهم العسكري، وهم الـذين اتَّبعـوا أُسـلُوب المُواجهة مهما كانت النتائج، فهل كان ذلك تقديراً لقُوَّة جيش المنصُور؟ أو لسُمعته كقائد عـسكري؟ أو لعدم رغبتهم في معركة لا غنيمة من ورائها؟ يبدو أن كُلَّ ذلك أجبرهم على أن يـضربوا في الأرض لتجنُّب لقاء مكشوف مع المنصُور إبراهيم، وكان هدفهم اللحـاق بالمُـدُن والحُـصُون التـي سـيطروا عليها في الجزيرة للتحصُّن بها.

---

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 366، وذيل المُختصر، ابن الـوردي، 2/ 244، ومُفـرِّج الكُـرُوب، ابـن واصـل، 5/ 286 ـ 289.

2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 168، وصدق الأخبار، ابن سنباط، 1/ 323.

3 - مُختصر سلجوق نامه، ابن بيبي، 264.

4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 699، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 286.

وعند جلهمان داهمهم المنصُور، فلم يجدوا بُدّاً من القتال "فكثَّروا سوادهم بالجمال، وعملوا رايات من القصب، وحشدوا معهم سُكَّان بعض المناطق"[1]، وما اتِّباعهم لهذه الحيل إلَّا دليل على خوفهم من اللقاء. وبالفعل؛ فقد كان تقديرهم لقُوَّة المنصُور وجيشه صحيحاً، فعندما بدأت المعركة في 7رمضان 638 هـ 1241م[2]، "كُسرت الخَوَارزميَّة، واستُبيح عسكرهم، وهربوا حتَّى الخابور، ثُمَّ التجؤوا إلى عانة لأنَّها بلد الخليفة"[3]. وكانوا قد مرُّوا في طريق هربهم بحران، فأخذوا نساءهم منها، وانطلقوا.

ويبدو أن المنصُور كان يُدرك أنَّه ما لم يستأصل شأفتهم فلن تسكن فتنتهم، وأراد أن يُحقِّق ذلك، ففوَّت عليه الخَوَارزميَّة الفُرصة بالتجائهم إلى مناطق سيطرة الخليفة؛ حيثُ لا تطولهم سُيُوف المنصُور. ويبدو أنَّه كان مُرحَّباً بهم هُناك، فقد سار مُحمَّد تركان بن بركة خان إلى بغداد، وكان عمره نحو عشر سنين، فتلقَّاه الحاجب، واستقبله الوزير، وقُلِّد سيفاً، وأُسكن داراً، ثُمَّ تبعه ابن كشلو خان[4]. وكانت تلك الحفاوة جُزء من خُطَّة الخليفة للاستعانة ببقايا الجيش الخوارزمي في محنته أمام تهديد التَّتَار، ففي عام 631 هـ 1234م، استخدم الخليفة أربعة آلاف فارس خوارزمي[5]، وبالتَّأكيد؛ كان يأمل بانضمام الفرقة الخَوَارزميَّة التي كانت في الجزيرة إليه، لذلك آواهم في عانة، واستقبل أولادهم، وأكرمهم غاية الإكرام.

وبعد هذه الضربة الكبيرة للخَوَارزميَّة استولى المنصُور على مناطقهم في الخابور وقرقيسياء، وضمَّها إليه[6]، وكذلك استولى على حَرَّان دُون قلعتها[7]، وكان نائب الخَوَارزميَّة فيها هُو شهاب الدِّين زندري كاتب الإنشاء في ديوان دولة الخَوَارزميَّة بعهد منكبرتي، فراسله المنصُور

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 507.

2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 410.

3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 508.

4 - الحوادث الجامعة، ابن الفوطي، 144.

5 - المنصُوري، ابن نظيف، 176.

6 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 168، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 411، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 508، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 245.

7 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 344.

سرّاً لتسليم القلعة[1]. فسُلِّمَت القلعة للحلبيين، الذين استولوا على سروج والرُّهَا ورأس عين وجملين والموزر والرقّة وأعمالها، وكُلُّها من مُمتلكات الصَّالح أَيُّوب، كذلك سلَّمَ المُعظَّمُ تُوران شاه بن الصَّالح أيُّوب آمدَ إلى سلاجقة الرُّوم المدعومين بجيش حلب، بعد هُجُومهم عليها، على أن تبقى له قلعة الهيثم وحصن كيفا[2]. أمَّا بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل؛ فقد سار إلى نصيبين ودارا، وأخذها، وحرَّر من سجن الخَوَارزميَّة في دارا المُعظَّم تُوران شاه ابنَ السُّلطان صلاح الدِّين قائد جيش حلب الأسير[3]، ولا ندري هل كان ذلك التوزيع ضمن اتِّفاق عامٍّ تمَّ فيه توزيع مناطق الخَوَارزميَّة؟ أم هُو تحقيق للأمر الواقع، فكُلٌّ منهم أخذ ما وصلت إليه يده؟.

استمرَّ الخَوَارزميَّة في عانة تحت حماية الخليفة حتَّى عام **639** هـ **1241**م، فخرجوا نحو المَوصل، فما كان من صاحبها بدر الدِّين لُؤلُؤ إلَّا أن اتَّفق معهم، وسلَّمهم نصيبين، بعد أن تأكَّد أنَّه لا طاقة له بهم، وأنَّه قد يستفيد من الفوضى التي يُحدثونها في الجزيرة[4]، وفي عام **640** هـ **1242**م، عادوا للاتِّفاق مع حليفهم القديم المُظفَّر غازي بن العادل صاحب مَيَّافارقين، لأنَّه كان يخشى من هُجُوم سلاجقة الرُّوم عليه، وطلب التحالف مع حلب، فلم يحالفوه، فاضطرَّ للتعلُّق مرَّة أُخرى بركب الخَوَارزميَّة، الذين ساروا إليه للهُجُوم على آمد، فبرز عسكر حلب مع المُعظَّم تُوران شاه نحو آمد، فارتدَّ عنها الخَوَارزميَّة، واعتصموا بمَيَّافارقين، فحاصرهم الحلبيون[5]، وبعد عدَّة وقعات معهم جرت مُفاوضات انتهت باتِّفاقهم على:

1 ـ يُقيم الخَوَارزميَّة في أطراف بلاد الرُّوم، ويُعيّن لهم سُلطان سلاجقة الرُّوم إقطاعات تكفيهم.

2 ـ تعطي ضَيْفَة خَاتُون، الوصية على عرش حلب، لأخيها المُظفَّر غازي من الإقطاعات ما تختاره هي من غير شرط.

---

1 - مُختصر سلجوق نامه، ابن بيبي، تعريب: مُحمَّد السعيد جمال الدِّين، 265.

2 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 734، ومُختصر سلجوق نامه، ابن بيبي، تعريب: مُحمَّد السعيد جمال الدِّين، 266.

3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 702، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 168، وصدق الأخبار، ابن سنباط، 323.

4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 703، والسُّلُوك، المقريزي، 2/ 309.

5 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 803.

3ـ يدخل المُظفَّر شهابُ الدِّين غازي في هذه الهُدنة، ويُسالم مَنْ يدخل بها.

4ـ يدخل السعيد نجم الدِّين غازي صاحب ماردين في الهُدنة، ويحلف لصاحب حلب[1].

5ـ تُطلق أسرى الخَوَارزميَّة من حلب[2].

إن هذا الصُّلح الغريب الذي يحصل فيه الجانب الأضعف، ليس على المكاسب الأكبر، بل على المكاسب كُلّها، لا يُفسِّره إلَّا ضغط التتَّار على سُلطان سلاجقة الرُّوم، وتحسبه منهم، فضغط ـ بدوره ـ على حُلفائه في حلب، وتنازلوا للخَوَارزميَّة وحُلفائهم عمَّا أرضاهم من البلاد، والإقطاعات، وغيرها، ورُبَّما لعدم قناعة الجميع، ماعدا الرُّومي، بهذه الهُدنة "فلم ينتظم من الأمر شيء "إلَّا إطلاق أسرى الخَوَارزميَّة بحلب"[3].

وبعد أن اطمأنَّ الخَوَارزميَّة لضعف أعدائهم راحوا ـ من جديد ـ يعيشون فساداً، واشتطُّوا بالطلب، فقد طلبوا من حلب زيادة إقطاعاتهم، ولمَّا رفض طلبهم هاجموا المَوصل، فاستنجد بدرُ الدِّين لُؤلُؤ بالناصر صلاح الدِّين الثَّاني صاحب حلب[4]. وطلب النَّاصر يُوسُف من الملك المنصُور إبراهيم القُدُوم لنجدته، فلبَّى مُسرعاً، ولمَّا وصل "خرج الملك النَّاصر وأكابر المدينة، والتقوه إلى ظاهر حلب"[5]. وكذلك طلب الحلبيون نجدة الرُّومي جلال الدِّين كيخسرو، فتأخَّر عن نجدتهم لغارات التتَّار على بلاده، وملكهم أرزن الرُّوم[6]. ولجأ الخَوَارزميَّة ـ هذه المرَّة ـ لتغطية جرائمهم بموقف سياسي، فأخذوا "يُظهرون للناس أنَّهم يفعلون ما يفعلونه خدمة لصاحب مصر، فإن أهل حلب وحمص ودمشق كانوا حزباً على الصَّالح صاحب مصر"[7]، ولكن سلوكهم السَّابق واللاحق يُثبت أن ما يفعلوه طبيعة متأصِّلة فيهم، لا يتركوها، ولا تتركهم.

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 306.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 703 ـ 704.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 306.
4 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 467.
5 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 509 ـ 510.
6 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 467.
7 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 303.

وبعد وُصُول المنصُور إلى حلب ضمَّ عَسْكَرَهَا إليه، ثُمَّ توجَّه إلى الجزيرة، وسار معه شمس الدِّين لُؤلُؤ الأميني مُدبِّر مملكة حلب مُساعداً ومُستشاراً[1]. وتوجَّه المنصُور إلى آمد ينتظر نجدة الرُّومي لمنازلة مَيَّافارقين، لكنَّ هُجُوم التَّتار على أرزن الرُّوم جعل المنصُور ينسحب إلى رأس عين. وتحرَّك الخَوَارزميَّة بسُرعتهم المعهودة إلى دنيسر، ثُمَّ إلى إقليم الخابور، فتبعهم المنصُور، ونزل المجدل[2]. وممَّا يلفت النظر هُنا انسحاب المنصُور خوفاً من التَّتار، وانهماكه بمطاردة الخَوَارزميَّة، فالسلبية الشديدة تجاه التَّتار من قبَل مُلُوك بني أيُّوب، قبل هُجُوم التَّتار على مُمتلكاتهم وممالكهم، كانت مُدهشة، فالسُّلُوك السلبي نفسه كان للملك المُظفَّر صاحب مَيَّافارقين، مع أن التَّتار قد وصلوا إلى خرتبرت المُجاورة لمَيَّافارقين[3]، هذا؛ إنْ لم نذكر الخَوَارزميَّة الأعداء القدماء للتَّتار.

ولمَّا التقى المنصُورُ الخوارزميةَ عند المجدل وجد معهم جمعاً عظيماً من التُّركمان[4]، والملك المُظفَّر غازي بقُوَّاته، الذي أرسل يغلظ في الكلام للمنصُور، ويطلب النُّزُول له عن الجزيرة بكاملها، وإلَّا، فالحرب[5]. والتقى الجمعان يوم الخميس **23** صفر **640** هـ **1243**م[6]. فدارت الدوائر مرَّة أُخرى على الخَوَارزميَّة، وحُلفائهم، وولُّوا "منهزمين أقبح هزيمة"[7]، "ونُهبت أموالهم، ونساؤهم"[8]، كذلك تبدَّد شمل التُّركمان، وأُسروا، ونُهبوا[9]، "ونزل الملك المنصُور في خيمة الملك المُظفَّر، واستولى على خزائنه"[10]. ثُمَّ توجَّه الملك المنصُور إلى حلب، فخرج الملك النَّاصر إلى منبج للقائه، واجتمع به، وسار معه حتَّى حلب[11]، ومن هُناك؛ عاد المنصُور إلى حمص ليُتابع الجهاد ضدَّ الفرنج[12].

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 467.

2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 704.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 310. ومرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 738.

4 - كان مُقدَّم التُّركمان ابن دودي (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 296، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 512)، وهُو ابن دودا في: (الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد 3/ 2/ 470، وكَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 350). وذكر الحنبلي أنَّه كان معه "سبعون ألف جوبان ما عدا الجفالة ". (شفاء القُلُوب، 331)، وأكَّد الرَّقم ابن شدَّاد (الأعلاق الخطيرة، 3/ 2/ 470، وابن العديم، زُبْدَة الحَلَب، 2/ 706)، وهذه مُبالغة، فلو كان عدد التُّركمان سبعة آلاف لكانوا كثيرين.

5 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 467.

6 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 170، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 512.

7 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 170.

8 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 350، والحوادث الجامعة، ابن الفوطي، 151.

9 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 738.

10 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 512، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 170، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 467.

11 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 512.

12 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 311، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 807.

وعلى الرّغم من هذه الضربة الموجعة للخَوَارزميّة، ومع كُلّ ما لحق بهم من قَتْل وأَسْر، فيبدو أنّهم استطاعوا تجاوز محنتهم مع حلول عام 640 هـ فجمعوا فلولهم، وعادوا لعاداتهم القديمة، فعاثوا فساداً في الجزيرة، وهاجموا الخابور ورأس عين، ونهبوهما، ونهبوا التُّركمان حُلفاء الأمس[1]، ومدُّوا أذاهم إلى ضواحي حلب. وكانت الوصية على عرش حلب ضَيْفَة خَاتُون بنت الملك العادل قد توفيت، واستقلَّ حفيدها الملك النَّاصر يُوسُف بالحُكْم في حلب، فأرسل جيشها لمطاردتهم بقيادة جمال الدّولة إقبال الخاتوني، فتجمّع الخَوَارزميّة في ماردين، ومعهم قُوّات المُظفَّر شهاب الدِّين صاحب مَيّافارقين، والسعيد نجم الدِّين صاحب ماردين[2]، "واحتموا بالجبال، وحَصَرَهُم عَسْكَرُ حلب، وخندقوا حولهم، وجرت وقعات"[3]، ولكن جيش حلب لم يظفر منهم بطائل، فعاد إلى بلده[4]، وكانت عدّة أسباب وراء هذه النتيجة السلبية، منها:

1 ـ غياب جيش حمص المُدرَّب، مع غياب نجدات أُخرى مُهمّة وُجِدَت في المرّات السابقة.

2 ـ غياب شخصية القائد العسكري المُخطِّط الشجاع، التي تحقّقت في الملك المنصُور.

وتكرّر تدخُّل علاء الدِّين كيخسرو سُلطان سلاجقة الرُّوم، فَخَطَرُ التَّتَار أصبح على أرض الواقع، بعد أن كان يلوح في الأفق، والقائد التتاري بايجو نوين يضرب باتِّجاهيْن؛ الأوّل: نحو بُلدان الخليفة العبَّاسي، اربل، فدقوقا، والثاني، باتِّجاه مملكة سلاجقة الرُّوم، في خرتبرت، وأرزن الرُّوم[5]، ممّا يعني حصر الجزيرة بين فكّيْ كمّاشة. فقام كيخسرو بإرسال "نائب المملكة شمس الدِّين الأصبهاني إلى شهاب الدِّين غازي، وإلى صاحب ماردين والخَوَارزميَّة، وأصلح بينهم"[6]، وكما في المرَّة الأُولى كانت التسوية والصُّلح من حساب حلب والرُّومي، فقد أُعطي صاحب ماردين رأس عين، والخَوَارزميّة خرتبرت، وغيرها، والمُظفَّر غازي أُعطي خِلاط، وعاد شمس الدِّين بقسم من عسكر حلب نجدة على التَّتَار[7].

---

1 - مرآة الزّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 738.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 314.

3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 807.

4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 514.

5 - مُختصر سلجوق نامه، ابن البيبي، تعريب: مُحمَّد السعيد جمال الدِّين، 280.

6 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 807.

7 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 807، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 326.

المبحث الرّابع:

الفرقة الخَوَارزميَّة في معركة غزّة

وفي هذه الأثناء؛ عادت أُمُور الصَّالح أيُّوب للانتظام من جديد، عندما تمكَّن من الاستيلاء على مصر، فانتعشت آمال الخَوَارزميَّة، ورُبَّما تطاولوا بمطامعهم للسيطرة على الشَّام من خلاله. ولم يجعلهم الصَّالح أيُّوب ينتظرون طويلاً، فهُو لم ينسَ دمشق التي سلبها منه عمُّه الصَّالح إسماعيل، فَكَاتَبَ أيُّوبُ الخوارزميةَ، واستدعاهم نحوه. ولمَّا سمع بذلك الصَّالح إسماعيل، شعر بخطر مُواجهة الخَوَارزميَّة[1]، فاتَّصل بالفرنج، وقدَّم لهم تنازلات كبيرة لعقد التحالف معهم ضدَّ الصَّالح أيُّوب[2]. وبالفعل؛ فقد تحرَّك الخَوَارزميَّة عام 642 هـ 1245م، من الجزيرة نحو مصر، "وما مرُّوا بموضع إلَّا ونهبوه، وعاثوا فيه"[3]، وكانت قُوَّاتهم قد أصبحت أكثر من عشرة آلاف مُقاتل[4] بما انضاف إليهم من التُّركمان، كما "انضمَّ إلى الخَوَارزميَّة جماعة من القيمرية قدموا معهم من الشَّرْق"[5]، كانوا بزعامة ناصر الدِّين وبهاء الدِّين القيمري[6]، فالخوارزمية لم يُشكِّلوا تكتُّلاً عرْقياً. وكُلّ مَنْ تستهويه حياة المُغامرة والعيش مُرتزقاً بسيفه كان بإمكانه الانضمام إليهم.

ولطبيعة التشكيلة العسكريَّة للخَوَارزميَّة بشكل عامٍّ، ولطريقة تحرُّكهم عبر البلاد، نستنتج أنَّهم لم يكونوا يحملون إلَّا الأسلحة الشخصية، فالمعدَّات الثقيلة ووسائط الحصار لم تكن من اهتماماتهم، لذلك تجنَّبوا المُدُن الحصينة، وساروا نحو الصَّالح في مصر "وهم يَقْتُلُون، ويَسْبُون، فانجفل الناس من بين أيديهم"[7]. وقد تحاشى مُلُوك الشَّام بمَنْ فيهم المنصُور إبراهيم والصَّالح

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 332.

2 - حُرُوب فريدريك الثَّاني في سُورية وقبرص، فيليب دي نوفار- رواية جُون لي ميج، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35 / 207.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 336.

4 - حملة لويس، مُصطفى زيادة، 73.

5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 419.

6 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 32 وكَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 353.

7 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 419.

إسماعيل الصدام مع الخَوَارزميَّة، واكتفوا بالتحصُّن داخل مُدُنهم[1]، ممَّا مكَّن الخَوَارزميَّة من الوُصُول بسُرعة إلى فلسطين.

انطلق الخَوَارزميَّة من نصيبين، فقطعوا الفُرات عند الرقَّة، وانقسموا هُناك إلى قسمَيْن، قسم أخذ طريق حمص البقاع دمشق[2]، وقسم سار على البرِّيَّة حتَّى غوطة دمشق[3]، ومن هُناك؛ توجَّهوا جميعاً نحو طبرية، فاستولوا عليها، ثُمَّ اندفعوا نحو القُدْس، وهاجموها[4]. وصل الخَوَارزميَّة إلى القُدْس عام 642 هـ 1244م، واصطدموا بالحامية الصَّليبيَّة فيها، وخاضوا معها قتال شوارع، واضطُرَّت الحامية للاستنجاد بأقرب حُلفائهم في الشَّام النَّاصر داود، الذي جعله هُجُوم الخَوَارزميَّة يتحصَّن في الكَرَك، ولم يجازف بالخُرُوج لُمساعدة حُلفائه الفرنج في القُدْس، إنَّما استغلَّ وضعه الخاصَّ لدى الخَوَارزميَّة[5]، وأرسل يطلب الأمان لحامية القُدْس مُقابل تسليم المدينة[6]، وخرجت الحامية من القُدْس، لكنَّ الخَوَارزميَّة خدعوهم برفع الأعلام الفرنجيَّة في القُدْس، فعادوا صوبها؛ حيثُ انقضَّ عليهم الخَوَارزميَّة، وأعملوا فيهم مذبحة لم ينجُ منها إلَّا السَّابق في الهرب[7]. ويصف ابن واصل ما فعلته الخَوَارزميَّة بعد ذلك بالقُدْس بقوله: " دخلت الخوارزميةُ القُدْسَ، وبذلوا السيف في مَنْ كان فيه من النصارى، ولم يُبقوا على أحد منهم، وسبوا ذراريهم ونساءهم، ودخلوا كَنيسَتهم المعروفة بقمامة، فهدموا المقبرة التي تعتقد النصارى أنَّها مقبرة المسيح عليه السلام، ونبشوا قبور مُلُوك الفرنج التي بقمامة، وأحرقوا عظام الموتى"[8]، " وقتلوا بطرك الرُّوم، وأحرقوا جماعة كثيرة من

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 419.

2 ـ تمَّ اعتراض هذه الفرقة قُرب بعلبك، وأسر قائدها. (لُبنان من السُّقُوط، تدمري، 254).

3 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 741.

4 - تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، ستيفن رنسيمان، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 3/ 371، وتاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، أنتوني بريدج، ترجمة: أحمد غسان سبانو، 262، ـ كانت القُدْس مدينة غير مُحصَّنة وُفقاً لاتِّفاقية تسليمها لفريدريك، وقد أزال النَّاصر داود ما بقي من تحصيناتها عندما احتلَّها قبل أن يُعيد تسليمها للفرنج مُقابل التحالف معهم ضدَّ الصَّالح أيُّوب.

5 - كانت أمّ النَّاصر داود خوارزمية (شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 337)، وأبوه الملك المُعظَّم كان حليفاً لجلال الدِّين منكبرتي خوارزمشاه، يُقسم برأسه، ويركب بخلعته. (المنصُوري، ابن نظيف، 96)، كما زوَّج المُعظَّم ابنته، وهي أُخت النَّاصر داود، إلى منكبرتي (مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 708).

6 - تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، ستيفن رنسيمان، 3/ 392.

7 - راجعْ: رسالة مُقدَّم الاسبتاريَّة في القُدْس. (التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 47/ 624).

8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 337.

النصارى في كَنيسَة القيامة"[1]، فالقُدْسُ كانت مدينة غير مُحصَّنة وُفق اتِّفاقية تسليمها من الملك الكامل إلى الإمبراطُور فريدريك[2].

وسار الخوارزميُّون إلى غزَّة، وأرسلوا يُخبرون الصَّالح أيُّوب بقُدُومهم[3]، فأكرم رُسُلَهُم، وأرسل لهم الخيل والخلع والأموال[4]، وأمرهم الانتظار في غزَّة، ووعدهم بالشام[5]. فأقاموا فيها ريثما أعاد الصَّالح أيُّوب ترتيبَ جيشه، وقدَّم عليه أخصَّ مماليكه؛ وهُو رُكن الدِّين بيبرس الصالحي، وأمره بالزحف إلى غزَّة؛ حيثُ انضمَّت إليه الخَوارزميَّة[6].

وهُنا؛ تحرَّك المنصُور إبراهيم، فقاد جُيُوش تحالف أيُّوبية الشَّام، والتقى قُوَّات الفرنج عند عكَّا، وسار باتِّجاه مصر. وفي عام **643** هـ **1246**م، التقت قُوَّات التحالف الشَّامي ـ الفرنجي مع قُوَّات التحالف المصري – الخوارزمي. ولكن المعركة الحقيقيَّة دارت بين فريقَيْن فقط هُم الخَوارزميَّة والفرنجة، فقد فرَّ من المعركة المصريُّون والشَّاميُّون كلاهما، "وثبتت الديوية والاسبتاريَّة، وقاتلوا إلى أن قُتلوا جميعاً، ولم يبقَ منهم إلَّا نفر يسير أسروهم"[7]، وقام الخَوارزميَّة بتطويق الفرنج، "وأفنوهم قتلاً وأسراً"[8]. ولم يتمّ في هذه المعركة أيُّ اشتباك بين المنصُور إبراهيم والخَوارزميَّة، الذين اختاروا الفرنج هدفاً لهُجُومهم، فالنصر هُنا خوارزمي، والهزيمة فرنجية.

وكان من الصعب على فرنج الساحل الشَّامي أن يتحمَّلوا هزيمة بهذا الحجم، فقد جرَّدتهم من مُعظم قواهم، وأصبحوا بحاجة ماسَّة إلى مُساعدات فورية[9]، وستكون هذه الهزيمة من أهمّ دوافع الحملة الفرنجيَّة السابعة[10].

---

1 - أخبار الأيُّوبيِّيْن، ابن العميد، 33.

2 - الإمبراطُور فريدريك وعلاقته بالشرق العَرَبي، د. حسن مبيض، محاضرة في الجمعية التاريخية السُّوريَّة، 15/ 3/ 1998.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 337.

4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 316.

5 - أخبار الأيُّوبيِّيْن، ابن العميد، 32.

6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 336.

7 - ابن العميد، أخبار الأيُّوبيِّيْن، 33.

8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 338.

9 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 118.

10 - العُدوان الصليبي على مصر، جوزيف نسيم، 50.

وبعد معركة غزَّة مُباشرة أرسل الصَّالح أيُّوب وزيره مُعين الدِّين ابن الشَّيخ[1] بعسكر إلى الشَّام، وأمر الخَوَارزميَّة باتِّباع أمره، فسار حتَّى وصل دمشق عام **642** هـ **1244**م، وحاصرها[2]، "واشتدَّ الحصار على دمشق، وأسقط بيد الصَّالح إسماعيل لفناء ما عنده من الذخائر، ولقلَّة الرجال معه"[3]. وكعادتهم؛ "عاث الخَوَارزميَّة في أعمال دمشق"[4].

ولَّما عاد المنصُور إبراهيم إلى دمشق منهزماً، "فلم يُقبل عليه الصَّالح إسماعيل كعادته، فعسر عليه ذلك" 5، وأخذ المنصُور إبراهيم المُبادرة، ويبدو أنَّه أراد أن يسبق الصَّالح إسماعيل، أو أنَّه شكَّ فيه، "فخرج من دمشق، وتحدَّث مع بركة خان مُقدَّم الخَوَارزميَّة في الصُّلح، وعاد إلى دمشق"[6]، ويُوضح الأمر ابن العميد بقوله: "وعزم الملك المنصُور أن يُسلِّم دمشق إلى الخَوَارزميَّة من باب شرقي نكاية في الملك الصَّالح إسماعيل، ثُمَّ انثنى عن هذا العزم خوفاً على المُسلمين من الخَوَارزميَّة"[7]. وكان اتِّصال المنصُور إبراهيم ببركة خان مُقدَّم الخَوَارزميَّة دليل اختيار ذكي من المنصُور، فابن الشَّيخ القائد العامّ لقُوَّات التحالف المصري ـ الخوارزمي يرى نفسه صاحب قضيَّة، ويُريد أن يُثبت إخلاصه لسُلطانه الصَّالح أيُّوب، بينما يعرف الجميع كيف يَرْضى بركة خان. عندها شعر ابن الشَّيخ بخُطُورة هذا الاتِّصال، فالخوارزمية لا يُوثَق بهم، وقد يبيعونه في اتِّفاق مُحتمل مع المنصُور الداهية، الذي جرَّب التعامل طويلاً مع الخَوَارزميَّة، وكذلك خاف الصَّالح إسماعيل، فأسرع بإرسال وزيره أمين الدولة[8] إلى مُعين الدِّين بن الشَّيخ[9]، فاتَّفقت المصالح كُلُّها على عقد الصُّلح، وتساهل الوزير ابن الشَّيخ، واتَّفق مع المنصُور وإسماعيل بشُرُوط مُرضية لهما.

---

1 - ابن الشَّيخ: مُعين الدِّين الحَسَن بن شيخ الشُّيُوخ، تُوفِّي عام 644 هـ 1247م، عن ستٍّ وخمسين سنة، راجعْ فقرة أولاد الشَّيخ في هذا الكتاب.

2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 174.

3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 376، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 348.

4 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 319.

5 - أخبار الأيُوبيِّيْن، ابن العميد، 33، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 339.

6 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 197، والسُّلُوك، المقريزي، 2/ 643، ومرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 753.

7 - أخبار الأيُوبيِّيْن، ابن العميد، 33.

8 - أمين الدولة: أبو الحَسَن بن غزال بن أبي سعيد، كان يهودياً، وأسلم، استوزره الملك الأمجد بهرام شاه، حتَّى تُوفِّي، فاستوزره الصَّالح إسماعيل، وعندما دخل ابن الشَّيخ دمشق اعتقله، ولم يُمكنه من اللحاق بإسماعيل، وأرسله إلى مصر؛ حيثُ سُجن في قلعة الجبل لمُدَّة خمس سنوات، ثُمَّ أعدم شنقاً. كان عالماً غزير العلم، مُتطبِّباً، له كتاب المنهاج الواضح، (طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، 2/ 234 ـ 239).

9 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 621، ومرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 753.

ووُفقاً لاتِّفاقية الصُّلح مع ابن الشَّيخ ضمن المنصُورُ لنفسه مملكة حمص كاملة، وضمن إسماعيلُ بعلبك وبصرى، وسُلِّمَتْ أبوابُ دمشق لقُوَّات ابن الشَّيخ[1].

وخرج المنصُور بجيشه سالماً نحو حمص، وتوجَّه إسماعيل نحو بعلبك[2]. وتوجَّهت شُكُوك ابن الشَّيخ نحو الخَوَارزميَّة، فمنعهم من دُخُول دمشق، بعد أن تسلَّمها عام **643** هـ **1246**م، واكتفى بمنحهم الإقطاعات في الساحل، فلم تُعجبهم، واعتبروها غير كافية[3]، وبالتَّأكيد؛ كان وراء هذا الموقف من الخَوَارزميَّة، مُقابلة مُقدَّمهم للمنصُور إبراهيم، فقد تمَّتْ اتِّفاقية الصُّلح وعملية التسليم دُون علم الخَوَارزميَّة، "الذين لم يكونوا حاضرين وقت الصُّلح، فلمَّا علموا بوُقُوع الصُّلح غضبوا"[4]، وشعروا بتغيُّر نيَّة المصريين عليهم، "وكانوا يظنُّون بأنَّ السُّلطان إذا انتصر على عمِّه الصَّالح إسماعيل يُقاسمهم البلاد. فلمَّا مُنعوا من دمشق، وصاروا في الساحل، تغيَّرت نيَّاتهم، واتَّفقوا على الخُرُوج عن طاعة السُّلطان"[5]. ولمَّا كثر فسادهم بأعمال دمشق، كتب ابن الشَّيخ بخَبَرهم إلى الملك الصَّالح أيُّوب، فطلب منه رَدْعَهُم، فتنمَّروا عليه[6].

ثُمَّ نقم الصَّالح أيُّوب على مُعين الدِّين ابن الشَّيخ تسهيلَهُ خُرُوج إسماعيل سالماً من دمشق، فعزله، وكلَّف حُسامَ الدِّين بن أبي علي والياً على دمشق، ولم تطلْ أيَّام مُعين الدِّين، فقد تُوفِّي عام **643** هـ **1246**م، بعد عزله بمُدَّة وجيزة[7]. فاشتطَّ الخَوَارزميَّة على ابن أبي علي بطلب الإقطاعات والولايات، ولَمَّا لم يُجبهم امتعضوا لذلك[8].

---

1 - خُطط الشَّام، مُحمَّد كُرد علي، 2/ 98_99.
2 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 324.
3 - تُحفة ذوي الألباب، الصفدي، 2/ 133.
4 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 178.
5 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 178.
6 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 358.
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 350.
8 - العبر، ابن خلدون، 5/ 358.

المبحث الخامس:

نهاية فرقة الخَوَارزميَّة

لقد انهارت أمال الخَوَارزميَّة بحليفهم أيُّوب، ولكنَّهم رأوا أن بإمكانهم تدارك الأمر، فانقلبوا عليه، وأعلنوا موقفهم منه بالهُجُوم على داريّا[1]، ونهبها[2]، وأخذوا بالاتِّصال بأعداء الصَّالح أيُّوب لتشكيل حلف جديد، غايته ضرب أيُّوب الذي استخدمهم لتنفيذ أغراضه في الجزيرة ومصر والشَّام، ثُمَّ تخلَّى عنهم. وكان أوَّل مَنْ تمَّ الاتِّصال به "الأمير رُكن الدِّين بيبرس الصالحي[3] قائد حامية غزَّة، فأصغى إليهم"، وصار معهم[4]. "وكاتبوا الصَّالح إسماعيلَ، فحالفوه على الصَّالح أيُّوب، ففرح بذلك، ونقض الصُّلحَ الذي كان قد وقع منه"[5].

وراسلوا النَّاصر داودَ صاحب الكَرَك، فحالفهم، وتزوَّج منهم، وكانت أُمُّه خوارزمية، وسارع بالاستيلاء على نابلس والقُدْس والأغوار[6]، وتحالفوا - كذلك - مع عزّ الدِّين آيبك المُعظَّمي صاحب صرخد[7].

واتَّفقت كلمة الجميع على حرب الصَّالح أيُّوب[8]، ولكنْ؛ هل حاول الخَوَارزميَّة استمالة المنصُور إبراهيم إلى حلفهم، فهُو من أبرز أعداء أيُّوب؟ أم أنَّهم لم يُحاولوا ذلك، وأبعدوه عن حلفهم عمداً؟.

ولغياب ما يُوضِّح ذلك، فالاحتمال الثَّاني هُو الأرجح، لأن العداء بين المنصُور والخَوَارزميَّة كان قد بلغ جدّاً لا رجعة فيه، حتَّى في تلك الظُّرُوف المتقلِّبة الأهواء. كما يجب أن لا يغيب عن البال دور الحلبيين المُعادي للخَوَارزميَّة، وتأثيره في حليفهم المنصُور.

---

1 - داريَّا: قرية كبيرة جنوب غربي دمشق، وهي من قُرى غوطتها، راجعْ: المُعجم الجَغرافي للقطر العَربي السوري.
2 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 178، والعبر، الذهبي، 5/ 174، وتُحفة ذوي الألباب، الصفدي، 2/ 133.
3 - وهُو أكبر أُمراء الصَّالح أيُّوب، وهُو غير رُكن الدِّين بيبرس البندقداري، الذي تسلطن - فيما بعد - على مصر.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 322.
5 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 178.
6 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 337، والنُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 6/ 324.
7 - نهاية الأرَب، النويري، 29/ 314.
8 - النُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 6/ 423 ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 351

وبقدر قلق الصَّالح أيُّوب من الخَوَارزميَّة وحلفهم الجديد كان سروره باعتزال المنصُور إبراهيم لهم، وقرَّر أن يبذل كلَّ جهده لضمِّ المنصُور إلى جانبه، لكنَّه بدأ بحليف الخَوَارزميَّة الأقرب والأخطر، "فخدع السُّلطان مملوكه رُكن الدِّين بيبرس حتَّى فارق الخَوَارزميَّة، وقدم إليه، فاعتقله" بقلعة الجبل، وكان آخر العهد به.

وفي هذه الأثناء "عظمت مضرَّة الخَوَارزميَّة ببلاد الشَّام، وكثر نهبهم للبلاد، وسفكهم للدماء، وانتهاكهم للحرمات"[1]، حتَّى سُمِّيت هذه السنة "سنة الخَوَارزميَّة"[2]، والتي انتهت بحصارهم لدمشق عام 643 هـ 1246م[3]، وكان معهم الصَّالح إسماعيل بقُوَّات بعلبك[4]، والنَّاصر داود بقُوَّات الكَرَك[5]. ولم يترك الصَّالح أيُّوب لعمِّه إسماعيل الفُرصة لتجديد التحالف مع المنصُور إبراهيم، فقد سبقه إليه، وكاتبه[6]. "وأخذ الصَّالح نجم الدِّين في إعمال الحيل والتدبير، ومازال بالمنصُور إبراهيم صاحب حمص حتَّى مال إليه"[7]. "وصلح ما بين الملك المنصُور صاحب حمص والسُّلطان الملك الصَّالح، وحصل بينهما التَّصافي والتَّوادّ"[8].

وكذلك كَتَبَ الصَّالح أيُّوب إلى الحلبيين، "هؤلاء الخَوَارزميَّة قد أخربوا البلاد، والمصلحة أن نتَّفق عليهم"، فأجابوه، وخرج شمس الدِّين لُؤلُؤ مُقدَّماً على نجدة حلب[9].

وعندما كان الخَوَارزميَّة يشدِّدون حصارهم على دمشق، "وألحُّوا في القتال، ونهب الأعمال، وضايقوا دمشق، ومنعوا عنها الميرة"[10]، بدأ المنصُور إبراهيم - بعد إبرام اتِّفاقه مع الصَّالح أيُّوب -

---

1 - المُختصر، أبو الفداء3/ 176، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 322، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 254.
2 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 178.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 178.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 352، والسُّلُوك، المقريزي، 2/ 323.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 175.
6 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 178.
7 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 323.
8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 359.
9 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 201.
10 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 322.

بالاستعداد لمُواجهة الخَوَارزميَّة[1]، "وشرع في جمع الجُيُوش من الحلبيين والتُّركمان والأعراب"[2]، ونجدة قدمت من حماة[3]، فبلغ الخبرُ الخوارزمية، وخافوا غائلة ذلك، وقالوا: "دمشق ما تفوت والمصلحة قتاله عند بلده"[4]. وترك الخَوَارزميَّة حصارَ دمشق، ممَّا مكَّن جُندها من مُغادرة المدينة، والانضمام إلى القُوَّات التي جمعها المنصُور إبراهيم[5].

ولا نستطيع أن نُفسِّر تَرْكَ الخَوَارزميَّة حصار دمشق بأنَّه لمباغتة المنصُور عند بلده، فلو كان هذا هدفهم لساروا مُباشرة نحو حمص، لكنَّ تحرُّكهم كان من دمشق نحو مرج الصُّفَّر؛ حيثُ جمعوا قُوَّاتهم مع قُوَّات الصَّالح إسماعيل صاحب بعلبك، والنَّاصر داود صاحب الكَرَك، وعزّ الدِّين آيبك صاحب صلخد[6].

وهذا ما يدلُّ على أن السبب الحقيقي لتركهم دمشق هُو خوفهم من حَصْر المنصُور لهم بين قُوَّاته وبين دمشق، لذلك انسحبوا إلى مرج الصُّفَّر؛ حيثُ تمكَّنوا من اللقاء مع حُلفائهم. وعندما تحرَّكوا نحو حمص كان المنصُور قد أنهى استعداداته، وسار جنوباً، حتَّى وصل قُرب بُحَيْرة حمص[7]، وعلم بتقدُّم الخَوَارزميَّة نحوه، فتابع مسيره حتَّى التقاهم عند القصب، أو عُيُون القصب[8]. وكانت جُمُوع الخَوَارزميَّة وحُلفاؤهم يتمتَّعون بتفوُّق عددي كبير على قُوَّات

---

1 - وهم ابن خلدون بقوله: " وبعث نجم الدِّين من مصر إلى يُوسُف النَّاصر يستنجده على دفع الخَوَارزميَّة عن دمشق، فسار في عساكره ومعه إبراهيم بن شيركوه ". والصحيح أن النَّاصر يُوسُف صاحب حلب لم يسر لقتال الخَوَارزميَّة، فقد كان ـ وقتها ـ صبيّاً عمره بحُدُود خمس عشرة سنة، ولكنْ؛ سارت نجدة من قُوَّات حلب، انضمَّت إلى قُوَّات المنصُور إبراهيم، الذي كان قائد المعركة ضدَّ الخَوَارزميَّة.

2 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 178، والعبر، الذهبي، 5/ 181.

3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 178.

4 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 178، ـ قال بهذا الرأي بركة خان كبير مُقدَّمي الخَوَارزميَّة، ويبدو أنَّه فرضه على بقيَّة الحُلفاء. (مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 760).

5 - العبر، الذهبي، 5/ 181، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 179.

6 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 201، ـ مرج الصُّفَّر: سهل واسع قبلي دمشق، يبعد عنها نحو 38 كم، بين قريَتَيْ الكسوة وغباغب. (دمشق الشَّام في نُصُوص الرَّحّالين، أحمد الإيبش وقتيبة الشهابي، 1/ 74 ـ ح/ 1).

7 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 178.

8 - ذكرت عُيُون القصب في:عقد الجمان، العيني، 1/ 315، وذكرت القصب في: مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 359، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 377، و المُختصر، أبو الفداء، 3/ 175، والنُّجُوم، ابن تغري بردي، 6/ 325. وذكر أن اللقاء كان "بظاهر حمص" (السُّلُوك، المقريزي، 2/ 323). وأنَّه كان "بين أرض بعلبك وحمص". (ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 178)، وكلُّها تدلُّ على موضع في منطقة واحدة. وقد عُرِّفَتْ عُيُون القصب أو القصب بأنَّها :

المنصور، فقد قال شمس الدِّين لُؤلُؤ مُقدَّم نجدة حلب: "لَمَّا التقينا على حمص رأيتُ الخَوارزميَّة خَلْقاً عظيماً، وكُنَّا بالنِّسبَة إليهم كالشامة السوداء في الثور الأبيض"[1].

ولَمَّا بدأت المعركة 643 هـ 1246م، لم تُغن كثرة جُمُوع الخَوارزميَّة عنهم شيئاً، ولم يثبتوا أمام قُوَّات المنصُور، الذي برهن على أنَّه الوحيد بخبرته وشجاعته القادر على التعامل مع الخَوارزميَّة عسكريّاً. "وكُسِرت الخَوارزميَّة أشدّ كسرة، وقُتِلَتْ مُلُوكهم، وسُبِيَتْ نساؤهم، وغُنِمَتْ أموالهم، كسرهم الملك المنصُور إبراهيم بن المُجاهد أسد الدِّين"[2].

وكان يوم المعركة "يوماً مشهوداً، قتل فيه عامَّة الخَوارزميَّة"[3]، وقُتِل مُقدَّمهم بركة خان[4]. "وتبدَّد فيها شملهم، ولم تقم لهم بعدها قائمة"[5]. "ولَمَّا وصل خبر كسرهم إلى الملك الصَّالح أَيُّوب بديار مصر[6]، فرح فرحاً عظيماً، وزال ما كان عنده من الغيظ على إبراهيم صاحب حمص، وحصل بينهما التصافي بسبب ذلك"[7]. واستطاع الملك المنصُور إبراهيم بقدراته العسكريَّة وحنكته وشجاعته أن يزيل بلاء الخَوارزميَّة عن المُلُوك والممالك، وعن العباد والبلاد، "وكفى اللهُ الناسَ شرَّهم، فإن البلاد كانت منهم في بلاء عظيم"[8].

"مرحلة قبلي حمص" (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 359). وأنَّها: "منزلة بريد من حمص من قبليها" (النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 325) . وكُلّ هذه الدلائل تُشير إلى مكان واحد يُسمَّى ـ الآن ـ عين التَّنُّور، وهي عدَّة عُيُون ماء، تُشكِّل بُحَيْرة صغيرة، ينمو عليها القصب بكثرة، تبعد حوالي 10 كم جنوب بُحَيْرة حمص.

1 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 357.

2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 178.

3 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 178.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 359، ويُضيف ابن واصل: "قتله مملوك من مماليك الأمير سعد الدِّين بن الدريوش أحد أُمراء حلب الكبار". ويقول ابن الجزري: " قتل بركة خان الخوارزمي، أحد الخانات الأربعة، وكان أصلحهم في الميل إلى الخير، والرّفق بالناس، وكان الصَّالح أَيُّوب قد صاهره، وأحسن إليه، ثُمَّ جرى منه ما جرى، ولَمَّا قُتل انحلّ نظام الخَوارزميَّة ". (المُختار من حوادث الزَّمان، 205).

5 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 323.

6 - وهم د. عاشور حين ذكر: "وتمكَّن الصَّالح أَيُّوب من إنزال الهزيمة بالخَوارزميَّة بين بعلبك وحمص". (مصر والشَّام، عاشور، 116)، فمع أن هزيمتهم تصبُّ في مصلحة أَيُّوب، لكنَّ المنصُور إبراهيم هُو مَنْ هزمهم.

7 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 175.

8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 359.

وتشتَّت فلول الناجين من الخَوَارزميَّة في البلاد، والتجأت جماعة منهم مع مُقدَّمهم كشلو خان والصَّالح إسماعيل إلى حلب، فقبض عليهم صاحبها، "وملأ بهم الحُبُوس"[1]، وبعد أن أطلقهم النَّاصر يُوسُف[2] ذهبوا مع كشلوخان، والتحقوا بالمغول، فخدموهم[3]، "واندمجوا في جملتهم"[4]. وهربت مجموعة مع النَّاصر داود إلى الكَرَك، واستولوا على نابلس[5]، فأرسل النَّاصر أيُّوب جيشاً حاصر الكَرَك، حتَّى سلَّم إليه داودُ الخوارزميةَ الذين عنده[6]. وذهب قسم منهم ليخدم في مصر[7]، وخدمت جماعة منهم في الشَّام[8]، وقسم من الخَوَارزميَّة التجأ إلى صرخد مع آيبك9، وبذلك تحوَّل الخَوَارزميَّة من فرقة مُرتزقة مُنظَّمة إلى أفراد مُرتزقة، فهم لا يعرفون سوى القتال حرفة لكسب العيش.

إن ما قامت به فرقة الخَوَارزميَّة في الشَّام والجزيرة، وما حقَّقته من انتصارات على ممالك أيُّوبية كبيرة وعريقة وعلى تحالف الفرنج في غزَّة، كُلُّ ذلك يُشير إلى محصلة واحدة هي ضعف المُؤسَّسات العسكريَّة التي أقامتها الممالك الأيُّوبيَّة في الشَّام ومصر، يُقابل ذلك ضعف فاضح في القوى العسكريَّة لفرنجة الساحل الشَّامي، فهزيمة غزَّة كشفت تهلهل المُؤسَّسة العسكريَّة الفرنجيَّة في الشَّرق.

---

1 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 2/ 8/ 762.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 359.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 359.
4 - العبر، ابن خلدون، 5/ 358.
5 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 179.
6 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 324.
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 359، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 326.
8 - صدق الأخبار، ابن سمباط، 1/ 336، و مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 359، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 325.
9 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7 / 359.

القسم الثَّالث

العلاقات الدّوليَّة

لإمارات وممالك الجزيرة الشَّاميَّة



الفصل الأوَّل

الأيُّوبيُّون في الجزيرة الشَّاميَّة

المبحث الأوَّل

الجَغرافية السِّياسيَّة للجزيرة الشَّاميَّة

كانت تسمية الجزيرة تُطلَق - في الغالب - على جزيرة ابن عُمر. أمَّا الجزيرة الشَّاميَّة؛ فقد أطلق عليها الجَغرافيون والمُؤرِّخون العَرَب عدَّة تسميات، منها: البلاد الشَّرقيَّة[1]، أو الشَّرق[2]، وهي تسمية - كما هُو واضح - تصحُّ بالنِّسبَة لموقعها من حلب فقط، ولا تصحُّ بالنِّسبَة لدمشق مثلاً. وسُمِّيَتْ بلاد الأطراف ومُلُوكها مُلُوك الأطراف، وهي تسمية تصحُّ بالنِّسبَة للممالك والإمارات الأيُّوبيَّة، كما دُعيَتْ بلاد الشَّرق الفراتية[3].

ورُبَّما كانت أكثر التسميات التي تنطبق على الواقع هي تسميتها بقاطع الفُرات[4]، ولكنَّهم - أحياناً - كانوا يُسمُّونها الجزيرة بشكل عامٍّ[5].

أمَّا التسمية التي نجدها أكثر ملائمة؛ فهي: الجزيرة الشَّاميَّة، لأنَّها جزيرة بين الفُرات وروافده، ودجلة وروافده، وتقع في أعلى بلاد الشَّام.

وبذلك نستطيع أن نحدِّد أن الجزيرة الشَّاميَّة هي الأراضي الممتدَّة من نهر الفُرات غرباً حتَّى نهر دجلة شرقاً، وأعالي الفُرات وروافده شمالاً، وهذه المنطقة جبلية في الشمال عموماً، تتخلَّلها سُهول خصبة، وتعبرها طُرُق تجارية هامَّة جدَّاً، ونجد في رحابها تسميات عديدة، مثل: ديار ربيعة، وديار بكر، وديار مضر، نسبة إلى القبائل العَرَبيَّة التي سكنتها مُنْذُ القدَم.

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 82.
2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 453.
3 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 201.
4 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 466، - قاطع الفُرات: الأراضي الواقعة شمال شرق الفُرات حتَّى نهر دجلة. (ابن العديم، زُبْدَة الحَلَب، 2/ 548).
5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 82.

ومع أن هذه الجزيرة تبدو إقليماً خاصّاً، بكُلِّ ما فيها من مُقوِّمات، لكنّها تلتصق ـ بشدَّة ـ بطرفَيْن: الشَّام من جهة، والعراق من جهة أُخرى، فهي رأس مُثلَّث، ضلعاه الشَّام والعراق، وقاعدته بوادي الشَّام والعراق، وهذا ما دفع البعض لتسمية المنطقة بكاملها بالهلال الخصيب.

كانت الجزيرة الشَّاميَّة تتمتَّع بثروات اقتصاديَّة، أتاحتها خُصُوبة أرضها، ووفرة أمطارها، وتوفُّر العديد من الموادِّ الخامّ فيها مع كثافة سُكَّانية عالية، إضافة لموقعها التِّجاري المُتميِّز؛ حيثُ كانت مُعظم طُرُق التجارة الدّوليَّة تمرُّ فيها، كلُّ ذلك ساعد على نُمُوِّ أجهزة إدارية مُتطوِّرة لممالكها وإماراتها[1].

ورُبَّما لا نكون مغالين إذا قلنا إنَّه ـ غالباً، بعد حسم الصراع بين أفراد البيت الأيُّوبي على دمشق ـ تكون الأطراف هي السبب الأكبر لخلافاتهم، فالعلاقات الأيُّوبيَّة تمحورت لفترات طويلة حول مُدُن الجزيرة والشمال الشَّامي.

فشمال الشَّام والجزيرة الشَّاميَّة كانا يُشكِّلان فُسيفساء من الممالك والإمارات والمُدُن المُستقلَّة، بل وحتَّى القلاع المُستقلَّة.

ولعبت في تشكيل تلك المنظومة الفسيفسائية العجيبة الطبيعة الجبلية لتلك المنطقة، وخصب أرضها، وموقعها الاستراتيجي عسكريّاً واقتصادياً، وكونها من أهمِّ ممرَّات التجارة بين الشَّرْق والغَرْب، وتنوُّع سُكَّانها العجيب ما بين مُسلمين ومسيحيين، منهم العَرَب، والمستعربون، والسريان، والفُرْس، والأتراك، والأكراد، وغيرهم، إضافة إلى عامل سياسي آخر هُو وُقُوع هذه المناطق بين عدَّة قوى سياسيَّة وعسكريَّة كُبْرَى، فالأيُّوبيون في الشَّام، ولهم مُمتلكات هامَّة في الجزيرة، وهم يتطلَّعون لمدِّ سُلطتهم نحو مملكة سلاجقة الرُّوم في آسيا الصُّغْرَى. وسلاجقة الرُّوم وهم يمدُّون أنظارهم ـ أيضاً ـ نحو الجزيرة، ورُبَّما عبرها نحو الشَّام، ولم يكن تدخُّل سلاجقة الرُّوم في الجزيرة دفاعياً فقط، لجَعْلها حاجزاً ضدَّ الخطر الأيُّوبي، بل هُجُومياً لضمِّها إلى دولتهم، والتحرُّك منها نحو الشَّام. كذلك وُجدَتْ مملكة أرمينيا الصُّغْرَى على مقربة منها، وإنْ كان توجُّهها الأساسي صوب الإمارة الفرنجيَّة في أنطاكية.

---

1 - الإمارات الأرتقية، عماد الدِّين خليل، 12.

أمّا الفرنج، فبعد تحرير عماد الدِّين لإمارة الرُّهَا؛ لم يعد لهم أيُّ تأثير يُذكَر في السياسة الجزرية.
ويبقى في الجنوب الشرقي أتابكة المَوصل، لكـنَّهم لم يستطيعوا أن يتجمَّعوا ضمن البيت الواحد، ولا أن يتَّخذوا موقفاً مُوحَّداً دائماً، بل على العكس، كانت خلافاتهم وحُرُوبهم وتنازعهم للسيطرة على المُدُن والقلاع تستهلك قواهم باستمرار.

ولكنَّ القُوَّتَيْن الدائمتَيْن الرئيستَيْن اللتَيْن ظهرتا على مسرح الصراع هُنا في هذا العصر هما قُوَّة سلاجقة الرُّوم والقوى الأيُّوبيَّة.

ومع أن بناء دولة سلاجقة الرُّوم كان يقوم ـ أساساً ـ على توجُّه جهادي ضدَّ بيزنطة المَسيحيَّة، فقد كانت تلتفت نحو الجزيرة عندما تواجه صُعُوبات عسكريَّة على الجبهة البيزنطيَّة، لكنَّ الصراعات على السُّلطة داخل البيت السلجوقي، وابتداء الضعف في مفاصل الدولة، منع من أن يكون لهم دور حاسم في الجزيرة، ممَّا أتاح للأيُّوبيين الانفراد بالسيطرة شبه المطلقة فيها من أيَّام السُّلطان صلاح الدِّين وحتَّى قُدُوم الغزو المغولي.

أمَّا القُوَّة الأيُّوبيَّة؛ فقد وُجِدت ولها توجُّه مشابه تماماً لتوجُّه السلاجقة، فالدولة الأيُّوبيَّة قامت على أساس الجهاد والتصدِّي للاحتلال الفرنجي، ولكنْ؛ لغلبة الهُدُوء على الجبهة الفرنجيَّة، بعد وفاة صلاح الدِّين، ولتشعُّب الأملاك الأيُّوبيَّة في قلب الجزيرة، وأهمِّيَّة مواردها، وموقعها، فقد كان لها الدور الأكبر في التأثير على السياسة الأيُّوبيَّة، والتأثُّر بمُجرياتها.

لذلك يُمكننا القول إن المناطق الجزرية كانت المعترك السِّياسي والعسكري الرئيس بين قوى المنطقة الكُبْرَى والصُّغْرَى.

ممالك المُدُن في الجزيرة:

خِلاط: بكسر أوله، البلد العامرة المشهورة[1]، وكان يُقال لها أخلاط، ولكنْ؛ بلغة العصر الأيُّوبي كان اسمها المُتداول هُو خِلاط. وهي على الحُدُود ما بين بلاد المُسلمين والأرمن، ويتكلَّم أهلها ثلاث لغات: العَرَبيَّة والفارسية والأرمنية، ويعتقد بعضهم أنَّها سُمِّيَتْ خِلاط لاختلاط اللُّغات بها[2]، وسيرد الحديث بالتفصيل عنها في فقرة قادمة.

سُمَيساط: أولُّه ضمٌّ، وفَتْح ثانيه، بلدة في أعالي الشَّام من طرف بلاد الرُّوم شرقي جبل اللكام، تقع على الشاطئ الغربي للفرات، وهُو من عندها يحمل السُّفُن والأطواف إلى بغداد[3]. دخلت في مُلك صلاح الدِّين عندما أرسى قواعد حُكْمه في الجزيرة، ثُمَّ أقطعها لأخيه العادل قبيل وفاته، ولمَّا أخذ العادلُ دمشقَ من ابن أخيه الأفضل علي أقطعه سُمَيساط، وهي البلدة الوحيدة التي بقيت معه حتَّى مات عام **622 هـ 1225م**[4]، فاختلف أولاده مع عمِّهم[5]، ثُمَّ استتبَّ الأمر بينهم على تولية المُؤيَّد ناصر الدِّين مُحمَّد بن الأفضل، وأن يكون مُدبِّر دولته عمّه المُفضَل قُطب الدِّين مُوسى. وفي سنة **632 هـ 1235م**، أخذ الملك العادل منهما سُمَيساط.

وبعد تراجع الكامل عن الجزيرة وتحكُّم الخَوَارزميَّة فيها، استولى علاء الدِّين كَيْقُبَاذ على سُمَيساط مع ما حولها، وظلَّت ضمن سلطنة سلاجقة الرُّوم، حتَّى استولى عليها التَّتار عام **658 هـ 1260م**[6].

البيرة، أو جسر البيرة: هي بلدة عندها جسر لعُبُور الفُرات[7]، قُرب سُمَيساط، وبها قلعة حصينة[1]. كان صاحبها شهاب الدِّين بن أرتق، ثُمَّ سلَّمها إلى السُّلطان صلاح الدِّين، فأصبحت البيرة

---

1 - مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: خِلاط.

2 - سفر نامة، ناصر خسرو، تعريب: يحيى الخشَّاب، 40، ـ وكانت خِلاط من أعظم المالك، وذكر أنَّها تُقارب الديار المصريَّة في المنزلة، وأنَّها تشمل على نحو سبعين بلداً (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 176)، ولذلك كانت تُسمَّى المملكة الخلاطية (راجعْ نقش قلعة دمشق في ملاحق هذا الكتاب).

3- مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: سُمَيساط، وتقويم البُلدان، أبو الفداء، 267، والمسالك والممالك، ابن خُرْدَاذْبَه، 174، وبغية الطلب، ابن العديم، 1/ 634، وآثار البلاد، القزويني، 494.

4 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 191.

5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 429.

6 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 191.

7 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 548.

من مضافات حلب، وعندما تُوفِّي السُّلطان صلاح الدِّين كانت البيرة بيد ابنه الزاهر داود، فأقرَّه عليها أخوه الشقيق الظَّاهر غازي صاحب حلب[2]، وفي عام 632 هـ 1235م، اشتدَّ مرض الزاهر، فاستدعى ابن أخيه العزيز بن الظَّاهر صاحب حلب، وسلَّمه البيرة، ولمَّا تُوفِّي، قام العزيز بترتيب أحوالها[3].

بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقَّة، تبعد عن الضفَّة الغَرْبيَّة للفرات حوالي أربعة أميال[4].

وكانت بالس تتبع لمملكة نُور الدِّين بن زنكي، وقد أقطعها لغلامه حيدر، وملك البلد بعد وفات حيدر أولاده، إلى أن أخذها منهم الظَّاهر غازي بعد ملكه حلب[5]، ثُمَّ أخذها منه عمُّه العادل بعد سيطرته على دمشق ومصر، فَأَقْطَعَهَا إلى ابنه الملك الحافظ أرسلان شاه مضافة لقلعة جعبر، وعندما خاف الملك الحافظ تآمر أبنائه وعلاقتهم المُريبة بالخَوَارزميَّة، راسل أُخته ضَيْفَة خَاتُون بنت العادل القائمة بأُمُور حلب نيابة عن حفيدها الملك النَّاصر صلاح الدِّين الثَّاني، وعرض عليها تسليمها جعبر وبالس مُقابل إعزاز، فوافقت، وتمَّت المبادلة عام 638 هـ 1241م، وبقيت بالس ضمن مملكة النَّاصر صاحب حلب، حتَّى استولى عليها المغول، فتفرَّق أهلها في البلاد[6].

بَهَسْنَا: بفتحتَيْن وسُكُون السِّين ونُون وألف، قلعة حصينة عجيبة من أعمال حلب، وهي بالقُرب من مرعش وسُمَيساط[7]، وتقع بفم الدربند، ولها ضياع كثيرة.

وكانت ضمن مملكة النَّاصر يُوسُف الثَّاني، حتَّى استولى هُولاكُو على حلب، فباعها مُتولِّيها سيف الدِّين العقرب إلى ملك الأرمن صاحب سيس[8]. وهي ـ اليوم ـ ضمن الأراضي التُّركيَّة شمال غرب عينتاب[9].

---

1 - مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: البيرة.

2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 156، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 267، ووفيات الأعيان، ابن خلكان، 2/ 258.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 88.

4 - مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: بالس.

5 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 21.

6 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 23.

7 - مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: بَهَسْنَا.

8 - تاريخ الدُّول والمُلُوك، ابن الفُرات، 8/ 155.

9 - راجع حول بَهَسْنَا: صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 121، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 645.

قلعة نجم: تقوم على ضفَّة الفُرات اليمنى، تُحيط بها وديان عميقة، وتبعد عن منبج 32 كم نحو الشمال الشرقي[1]. عندها جسر يُعبَر عليه يُعرَف بجسر منبج، عمَّرها نجم غلام جني الصفواني مولى ابن صفوان العقيلي[2]، وهي قلعة حصينة توالى عليها عدَّة حُكَّام، حتَّى أخذها السُّلطان صلاح الدِّين، واستقرَّت بعده بيد ابنه الظَّاهر غازي، الذي ولَّى عليها عتيقه بدر الدِّين إيدمر، فأعاد إعمارها عام 613 هـ 1216م، ثُمَّ استردَّها منه الملك العزيز بن الظَّاهر، وكانت بيد الملك النَّاصر الثَّاني عندما استولى عليها التَّتار[3].

تلّ باشر: قلعة حصينة وكُورة واسعة شمال حلب بينها وبين حلب يومان[4]. بعد أن تسلَّمها السُّلطان صلاح الدِّين أَقْطَعَهَا إلى الأمير بدر الدِّين دلدرم بن ياروق، ولمَّا تُوفِّي تولاها من بعده ابنه، ولمَّا خرج عزّ الدِّين كيكاوس سُلطان سلاجقة الرُّوم إلى الجزيرة انتزعها من يد ابن دلدرم، ولكنْ؛ بعد هزيمته، استردَّها الأشرف، وسلَّمها لمُدبِّر مملكة حلب طُغْريل[5]، وبقيت تلّ باشر وقلعتها بيد الأتابك طُغْريل، حتَّى أخذها منه الملك العزيز غصباً عام 629 هـ 1232م[6].

مَيَّافارقين: بفَتْح أوَّله، وتشديد ثانيه، أشهر مدينة في ديار بكر[7]. تسلَّمها صلاح الدِّين خلال توسُّعه في الجزيرة عام 587 هـ 1191م، وقبيل وفاته أَقْطَعَهَا مع بُلدان الجزيرة إلى أخيه العادل. وفي عام 598 هـ 1202م، أعطى العادلُ مَيَّافارقين لابنه الأوحد نجم الدِّين أيُّوب، وضمَّ إليها خِلاط سنة 604 هـ 1208، وبقيت معه حتَّى مات عام 609 هـ 1212م، فضمَّ أخوه الأشرفُ خِلاط إلى بلاده[8]، وأُضيفَتْ مَيَّافارقين إلى أخيه المُظفَّر شهاب الدِّين غازي[9].

---

1 - المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، إشراف: العماد مُصطفى طلاس، مادَّة: قلعة نجم.
2 - التنبيه والأشراف، القلقشندي، 331.
3 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 473 .
4 - مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: تل باشر
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 9.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 250.
7 - مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: مَيَّافارقين.
8 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 453 ـ 455.
9 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 208.

المبحث الثّاني

مرحلة التأسيس الأيوّبي

صلاح الدِّين يدخل الجزيرة:

كان صاحب قلعة البيرة[1] شهاب الدِّين الأرتقي[2]، في طاعة عزّ الدِّين مسعود صاحب المَوصل، وفي عام 577 هـ 1181م، مات شهاب الدِّين، ومَلَكَ القلعةَ ابنُهُ، فطلب ابن عمّه الإذنَ من صاحب المَوصل بحصر البيرة، وأَخْذها، فوافق، فاستنجد صاحبُ البيرة بالسُّلطان صلاح الدِّين، وعرض عليه أن يكون في خدمته[3].

وفي عام 578 هـ 1182م، طلب مُظفَّرُ الدِّين كوكبوري[4] من السُّلطان صلاح الدِّين أن يعبر الفُرات إليه، فاجتمع به عند البيرة، وراسل صلاحُ الدِّين مُلُوكَ الجزيرة، فأجابه نُور الدِّين مُحمَّد بن قرا أرسلان الأرتقي صاحب حصن كيفا على أن يفتح آمد، ويُسلِّمها له. وكان أوَّل بلد حصره صلاح الدِّين وحُلفاؤه في الجزيرة هُو الرُّهَا، التي سلَّمها صاحبها فخر الدِّين مسعود الزعفراني بالأمان، فأعطاها صلاح الدِّين إلى مُظفَّر الدِّين كوكبوري مع حَرَّان[5]. ثُمَّ سار إلى الرقَّة، فتركها قُطب الدِّين ينال بن حسان المنبجي، فأخذها صلاح الدِّين، وسار منها إلى الخابور[6]، فأخذه مع قرقيسيا وماكسين وعرابان[7]، وسار إلى صفِّين، فملكها[8]. وفي العام نفسه 578 هـ 1182م،

---

1 - البيرة: قلعة مُطلَّة على الفُرات، راجعْ ما سيأتي عنها في هذا المبحث.

2 - هُو ابن عمّ قُطب الدِّين إيلغازي بن إلبي بن تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 475 ـ 476.

4 - ابن زين الدِّين علي بن بكتكين، مُقطع حَرَّان من قبَل الأتابك عزّ الدِّين.

5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 482.

6- الخابور: رافد كبير لنهر الفُرات، والمقصود هُنا الأراضي الواقعة على ضفاف الخابور، ويبدو من رسالة للقاضي الفاضل أنَّها بلاد وافرة الخصب، فيعدّها مزرعة المَوصل، ومصدر تموينها؛ إذْ يقول: "وبلاد الخابور وهي مُستغلات المَوصل"(رسائل القاضي الفاضل، عبد الرحيم بن علي بن حسن، 167).

7 - رسائل القاضي الفاضل، عبد الرحيم بن علي بن حسن، 167.

8 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 484.

سار صلاح الدِّين بعد امتناع المَوصل عليه إلى سنجار[1]، فسلَّمها صاحبُهَا شرفُ الدِّين أمير أميران هندو أخو عزّ الدِّين صاحب المَوصل.

وفي عام 579 هـ 1283م، حاصر صلاحُ الدِّين آمدَ، وأخذها من حاكمها بهاء الدِّين بن نيسان، وسلَّمها إلى نُور الدِّين بن قرا أرسلان[2] حسب وعده. ولَمَّا تُوفِّي نُور الدِّين عام 581 هـ 1185 أقرَّ صلاح الدِّين ولده سقمان عليها، ولقَّبه قُطب الدِّين، وكان عماد الدِّين أخو نُور الدِّين يقود عسكر آمد في خدمة صلاح الدِّين، فأراد أَخْذَ آمد، فلمَّا فاتته، أخذ حصنَ خرتبرت[3]. وتسلَّم صلاح الدِّين مَيَّافارقين بالأمان في العام نفسه581 هـ 1185م[4]. وفي عام 586 هـ 1190م، تُوفِّي زين الدِّين يُوسُف صاحب إربل، وسُرَّ أخوه مُظفَّر الدِّين بوفاته، وقدَّم خمسين ألف دينار إلى السُّلطان صلاح الدِّين حتَّى أخذ إربل، ونزل عن حَرَّان والرُّهَا وسُمَيساط[5].

تقي الدِّين في الجزيرة:

كانت حلب أكبر المالك الأيُّوبيَّة في شمال الشَّام، ومركز الثقل الأيُّوبي، وهي التي تُوازن بقواها وبنُفُوذها السِّياسي مملكة المَوصل الأتابكية في شمال العراق. ولقد أدرك صلاح الدِّين أهمِّيَّة حلب عندما ولَّى عليها ابنه الظَّاهر غازي. وكانت مملكة حلب تضمُّ ـ أوَّل الأمر ـ: إعزاز ومنبج، وعدد من البلدات الأصغر والقُرى الزراعية الخصبة. وفي الشمال الشرقي من حلب تقع بلاد الجزيرة الشَّاميَّة.

في عام 587 هـ 1191م، بعد أن استردَّ صلاح الدِّين البلاد الجزرية، من مُظفَّر الدِّين كوكبري، وأَقْطَعَهَا إلى ابن أخيه تقي الدِّين إضافة إلى إقطاعه، وكان يقطع هذه المالك، على العادة الجارية، لقُوَّاده ولأهل بيته، لتتحوَّل هذه الإقطاعات إلى عدد من الجُنُود يخدمون تحت السلاح وقت

---

1 - سنجار: بكسر السين وتسكين النون، وهي تعريب سنكار. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: سنجار)، وهي بلدة تقع ـ الآن ـ في العراق، وهي على جبل يحمل الاسم نفسه، وتمتدُّ سُفُوحه حتَّى تدخل الحُدُود السُّوريَّة، وسنكار اسم فارسي، أصله من مقطعَيْن سنك: الحجر وخارا: الصلد، خُفِّف إلى سنكار.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 493.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 514.

4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 515.

5 - التاريخ الإسلامي المُختصر، ابن أبي الدّم، 521.

الحاجة. وكان تقي الدِّين عُمر بن شاهنشاه، ابـن أخـي الـسُّلطان صـلاح الـدِّين، أوَّل مَـنْ أقطـع في الجزيرة، فقد أعطاه عمّه مَيَّافارقين، ثُمَّ أقطعه حَرَّان والرُّهَا، إضافة لما كان معه في الشَّام.

فسار إليها تقي الدِّين بجنده من على حصار عكَّا، ولمَّـا وصـل مَيَّافـارقين طمـع فـيما حولهـا، فاستولى على حاني في ديار بكر، واصطدم بـسيف الـدِّين بكتمـر صـاحب خِـلاط، فهزمـه، وفي هـذا الوقت الحرج غدر الفرنج بالمُسلمين، ودخلوا عكَّا، "ونسب السُّلطان ذلك بعد قضاء الله وقـدره إلى الملك المُظفَّر تقي الدِّين"؛ حيثُ سافر على أن يعود بأضعاف عسكره، فاشتغل بخـلاط، وغيرهـا[1]، ورُبَّما كان يُفكِّر في التوسُّع أكثر، لكنَّه أثناء حصاره لملاذ كُرد تُوفِّي فجـأة، فحملـه ابنـه نـاصر الـدِّين مُحمَّد إلى مَيَّافارقين، ودفنه فيها[2]، واستولى على ما كان لوالده في الجزيرة، وراسل ناصر الـدِّين مُحمَّـد السُّلطان صلاح الدِّين طالباً إقراره مكان والده، فلم يرَ السُّلطان في ذلـك مـصلحة؛ لخُطُـورة الـبلاد، وحداثة سنِّ طالبها، كما لم يرغب بتسليم بلاد الجزيرة، التي هي عمقه الاسـتراتيجي، إلى صـبي غـرٍّ، فتمرَّد ناصر الدِّين على السُّلطان المشغول بحرب الفرنج، فَسَيَّرَ إليه الـسُّلطان ابنـه الأفـضل لرَدْعـه، وهُنا؛ تدخَّل العادل أخو صلاح الدِّين ليقطع الطريق على الأفضل، وطلب إقطاع الجزيرة من صلاح الدِّين[3]، قال العماد: "كان السُّلطان لمُلازمة أخيه العادل له قد مال إلى رأيه"[4]، وانتهى الأمر بإبقـاء ناصر الدِّين في إقطاع والده بحماة[5]، وأقطع صلاح الدِّين البلاد الجزريـة إلى أخيـه العـادل أبي بكـر، وهي حَرَّان والرُّهَا وسُمَيساط ومَيَّافارقين وحاني، وسَيَّرَهُ إلى ابن تقي الدِّين ليتـسلَّم منـه الـبلاد عـام 588 هـ 1192م[6]. فحصل العادل على البلاد الجزرية الداخلة في دولة صلاح الدِّين، والتي كانـت بيد تقي الدِّين، وطلب فوقها قلعة جعبر، وكانت مع الظَّاهر بحلب، فأخذها[7].

---

1 - التاريخ الإسلامي المُختصر، ابن أبي الدَّم، 522.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 62.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 82، والفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسـوعة الـشاملة، د. سُـهيل زَكَّـار، 13/ 466.
4 - الروضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 19/ 3.
5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 82/ 83/ 11، والفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 466.
6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 83.
7 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 466.

المبحث الثَّالث

الملك العادل يُوطِّد الحُكْم الأيُّوبي

تُوفِّي السُّلطان صلاح الدِّين عام 589 هـ 1193م، فخرج صاحب المَوصل عزّ الدِّين ومعه حُلفاؤه، ونزل دنيسر لاسترجاع بلاد الجزيرة، فالأتابك يعدُّون البلاد إرثاً شرعياً لهم من نُور الدِّين، غصبهم إيَّاها صلاح الدِّين، فأسرع العادلُ، ونزل حَرَّان، واستنجد بعساكر ابنَيْ أخيه الظَّاهر صاحب حلب، والأفضل صاحب دمشق، فأنجدوه، ولكن الحلف الأتابكي تفكَّك بمرض عزّ الدِّين، فاغتنم العادلُ الفُرصة، واحتلَّ سروج، ونزل إلى الرقَّة، فولَّى عليها ابن أخيه الظافر[1]. وفي عام 596 هـ 1200م، تمكَّن العادل من أخذ دمشق من ابن أخيه الأفضل، وأعطاه بدلاً عنها مَيَّافارقين وسُمَيساط وسروج[2]، ومعها رأس عين وجملين وقلعة نجم[3]. وفي عام 608 هـ 1211م، أعطى العادلُ إلى ولده المُظفَّر غازي الرُّهَا مع مَيَّافارقين[4].

آ. إقطاع الملك العادل في الجزيرة:

كان للعادل إقطاع مُعظم أراضي دولة صلاح الدِّين في الجزيرة؛ حيثُ كان يحكمها نيابة عن أخيه، وبعد وفاته استقلَّ بها، وظلَّت هذه البلاد بتصرُّف نُوَّابه حتَّى عام 598 هـ 1202م، عندما استقرَّ له سُلطان البلاد، واستولى على حُكْم مصر ودمشق، قام بتوزيع بلاده بين أولاده: فالكامل في مصر، والمُعظَّم في دمشق، وأمَّا ولايات الجزيرة؛ فقد وزعها كما يلي:

- **الأشرف مُوسى**: وعيَّن له حَرَّان والرُّهَا وسروج، وكلّ ما له في الشَّرْق، ما عدا مَيَّافارقين، نيابة عن والده.
- **الأوحد نجم الدِّين أيُّوب**: اختصه بمَيَّافارقين[5]، نيابة عن والده.
- **الحافظ أرسلان شاه**: جعل له قلعة جعبر، وبلدة بالس، نيابة عن والده[6].

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 601.

2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 444.

3 - روايات ابن العبري، ابن العبري، ترجمة: د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 5 / 452.

4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 114.

5 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 453.

6 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 271.

الأحلاف السِّياسيَّة والتحرُّكات العسكريَّة في الجزيرة بعد وفاة صلاح الدِّين:

بعد وفاة السُّلطان صلاح الدِّين انتقض الأُمراء والمُلوك المُعاهدين على خلفائه، وكان أوَّلهم بكتمر صاحب خِلاط، ثُمَّ أيَّده صاحب ماردين، وراسلوا أتابكة المَوصل وسنجار، وتحالفوا، وأصبحت المناطق الأيُّوبيَّة مهدَّدة من الشمال ومن الشَّرْق، وتحرَّكت الجُيُوش صوبها، وأرسلوا للعادل: "أن اخرُجْ من بلادنا". وباتت السيطرة الأيُّوبيَّة في الجزيرة مهدَّدة تماماً، وكان امتحاناً مُبكِّراً يتعرَّض له العادل، بل الدولة الأيُّوبيَّة بكاملها بعد موت مُؤسِّسها. لكنَّ الإرادة الإلهية أوَّلاً، وعزيمة العادل، والتفاف الأيُّوبيَّة حوله ثانياً، حوَّلا كُلَّ ذلك إلى نصر كبير للأيُّوبية، وتأكيد على إحكام قبضتها في الجزيرة.

في مُعسكر الحُلفاء:

1 ـ كانت الضربة الأُولى التي وُجِّهَتْ للحُلفاء هي مقتل بكتمر صاحب خِلاط؛ إذْ اغتالته الباطنية وهُو في أوج تنمُّره وشماتته بموت صلاح الدِّين، فقد ظهر بشعار السَّلطنة، وتلقَّب بالملك النَّاصر، وراسل الأُمراء والمُلوك، وعندما بدا وكأن السعد يجاريه، سقط بخناجر الباطنية، لتنهار دعامة قويَّة من الحلف المناوئ للأيُّوبية[1].

2 ـ تردَّد عزّ الدِّين مسعود صاحب المَوصل، وتلكَّأ في التحرُّك العسكري ضدَّ الأيُّوبيَّة لاحتلال بلادهم الجزرية، وعندما تحرَّك في الجيش داهمه المرض، فعاد محمولاً في محفَّة إلى المَوصل، وتبعه جيش التحالف الأتابكي بدُون أن يُحرز أيَّ نتيجة.

3 ـ وجد صاحب ماردين نفسه وحيداً في الميدان، "فتضرَّع، وتذرَّع، وتشفَّع، حتَّى عفا عنه" العادل.

4 ـ تحرَّك العادل بسُرعة " فكتب إلى بني أخيه يستنجدهم، فأنجدوه"، وتحرَّكت الفرق الأيُّوبيَّة نحو الجزيرة من كُلِّ مكان، وأوَّلها وأقربها نجدة حلب، ثُمَّ حمص وبعلبك ودمشق.

ولم يعد هذا التجمُّع الأيُّوبي بلا مكسب، فقد استغلَّ العادل تجمُّع النجدات، وتراجع الأتابكة، فأمر ابنه الظافر بقيادة الجُند، واحتلال مدينة سروج، وكانت لعماد الدِّين، فاحتلَّها، ثُمَّ احتلَّ الرقَّة، واستولى على بلاد الخابور[2].

---

1 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 436.

2 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 436.

وتبلور الوضع السِّياسي بعد هذا الاختبار للدولة الأيُّوبيَّة، بتأكيد سلطنة العادل على كامل أراضي الجزيرة، كما تأكَّدت على الشَّام. فمُلُوك الجزيرة وأُمراؤها، إمَّا يتبعون مُباشرة لوُلاة العادل، أو مُحالفون له، خاضعون، يخطبون له على منابرهم، ويسكُّون اسمه على نقودهم.

موقف حلب:

في عام **594** هـ **1198**م، أنجد الظَّاهر عمَّه العادلَ في هُجُومه على ماردين، ولَمَّا وقع الخلافُ بينه وبين عمِّه، إثر وفاة العزيز، وتحرَّك الظَّاهر مع أخيه الأفضل لأَخْذ دمشق، دعم الظَّاهر تحالفَ أتابكة سنجار والمَوصل، فهزموا جيشَ العادل، وأجلوه عن ماردين[1]. وبعد فشل خُطَّة الظَّاهر بأَخْذ دمشق من عمِّه العادل راسلَ حُسامَ الدِّين يولق صاحب ماردين، وحاول تأليف حلف معه ومع أُمراء الجزيرة، بمَنْ فيهم أخوه الأفضل. وعندما عاد العادل للهُجُوم على ماردين عام **599** هـ **1202**م، تدخَّل الظَّاهر، إنَّما هذه المرَّة بوساطة سلمية، كانت لمصلحة كُلِّ الأطراف.

فقد سار الأشرف نائب والده العادل في حَرَّان إلى ماردين، وحاصرها عام **599** هـ، فأدرك صاحبها أنَّه سيكون الخاسر الأكبر باعتماده على حلف مُتفكِّك أصلاً، لا يجمعه إلَّا المصلحة، وتُفرِّقه المصلحة، فأرسل للظاهر صاحب حلب، الذي وافق على السعي بالصُّلح، ووافق العادل على الصُّلح مُقابل مائة وخمسين ألف دينار، وأن تُقام له الخُطبة والسّكَّة في ماردين[2]. إن مُوافقة العادل تدلُّ على عدم تأكُّده من النجاح العسكري، فقد فشل ابنه الأشرف بتحقيق نصر عسكري تجاه ماردين[3]، وربَّما لا العادل ولا الأشرف كانا يتوقَّعان نصراً عسكريّاً ضدَّ بلدة محصنة كماردين، وقلعتها الشهيرة[4]. وبالمُقابل؛ ضمن العادل حُصُوله على **150** ألف دينار نقداً، والخطبة والسّكَّة في ماردين، مع نجدة عساكرها له عند الطلب. وحصل الظَّاهر على عمولة هي **20** ألف دينار، وإقطاع قرية القرادى[5] من صاحب ماردين[6].

---

1 - عقد الجمان 1/ 2/ 228، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 62، والعبر، ابن خلدون، 5/ 588.

2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 103.

3 - مملكة حلب، كمال بدور، 149.

4 - راجعْ: الإمارات الأرتقية، عماد الدِّين خليل، 164.

5 - القرادي: قرية من أعمال شبختان (الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 179).

6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 139، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 103، وشفاء القُلُوب، الحنبلي، 213، والمنصُوري، ابن نظيف، 38، ـ بينما يقول المقريزي بأنَّ المبلغ هُو: عشرة آلاف فقط، (السُّلُوك، 1/ 161).

المبحث الرَّابع

القوى السِّياسيَّة في الجزيرة الشَّاميَّة

مُشكلة أخلاط[1]:

لم يتمكَّن صلاح الدِّين من ضمِّ أخلاط إلى مملكته[2]، فقد كانت تحت حُكْم سيف الدِّين بكتمر، الذي استولى على السُّلطة بها بعد موت مولاه شاهرمن ـ شاه أرمن ـ بن سكمان ملك أخلاط. واستطاع بكتمر حفظ مملكته من توسُّع السُّلطان صلاح الدِّين في الجزيرة، وعرف نواياه تجاه خِلاط، لذلك حقد عليه، وعند وفاة السُّلطان أظهر الابتهاج، وتلقَّب بالملك النَّاصر، وهُو لقب صلاح الدِّين[3]. وتحالف مع أتابك المَوصل، ويُقال إن بكتمر هُو مَنْ شكَّل الحلف ضدَّ الأيُّوبيَّة، ولكنَّ قتله المُفاجىء عام 589 هـ 1193م، بعد شهرَيْن من وفاة صلاح الدِّين بأيدي الإسماعيليَّة، أنهى كُلَّ خطر كان يُشكِّله بكتمر على الأيُّوبيِّيْن[4]. وهذا الاغتيال السِّياسي الأوَّل الذي نفَّذه الإسماعيليَّة بعد وفاة صلاح الدِّين، تأكيداً لتمسُّكهم بالتحالف مع خلفائه، قد وفَّر على الأيُّوبيَّة الكثير من المتاعب، وفكَّكَ ـ فعليّاً ـ تحالف مُلُوك الأطراف ضدهم، بعد قتل المحرِّك والمُدبِّر والأشدّ حقداً عليهم.

فملك خِلاط بعده مملوكه آق سنقر ولقبه هزار ديناري، وتسمَّى: الملك بدر الدِّين، لكنَّه لم يعش طويلاً بعدها، فقد تُوفِّي عام 595 هـ، فولَّى الأُمراء مُحمَّد ابن صاحب خِلاط السَّابق بكتمر، وكان شابّاً فاسداً[5] جاهلاً، قتل أتابكه شجاع الدِّين قتلغ، الذي كان حَسَنَ السيرة مع الجُند والرعية، واشتغل هُو باللهو والشراب، فانتقض عليه الناس، وملَّكوا سيف الدِّين بلبان، وكان مملوكاً لشاه أرمن، وتسلَّم خِلاط[6]، فكتب جماعة ابن بكتمر للملك الأوحد ابن العادل صاحب مَيَّافارقين

---

1 - يُفسِّر ناصر خسرو سبب تسميتها، فيقول: هي بين بلاد المُسلمين والأرمن، ويتكلَّمون بها ثلاث لغات: "العَرَبيَّة، والفارسية، والأرمنية، وأظنُّ أنَّها سُمِّيَتْ أخلاط لهذا السبب". (سفر نامة، ناصر خسرو، تعريب د. يحيى الخشَّاب، 39).

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 255.

3 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 436.

4 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 436.

5 - تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14 / 84.

6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 253.

يستدعونه إلى خِلاط، فسار إليها[1]، وكان قد طلب النجدة من أبيه العادل، فأرسل له جيشاً كبيراً[2]، تمكّن بواسطته الأوحد من هزيمة بلبان[3]. لكنّ بلبان استنجد بمغيث الدِّين طغرل شاه بن قلج أرسلان السلجوقي[4]، صاحب أرزن الرُّوم[5]، فسار إليه بنفسه ومعه العَسْكَر، فهزموا الأوحد[6]، فعاد إلى مَيَّافارقين. وطمع طغرل شاه بأخلاط، وغدر ببلبان، فقتله؛ ليملك خِلاط، لكنَّ أهلها لم يُسلِّموها له، وقاوموه، فعاد إلى بلاده. واستدعوا الملك الأوحد، وسلَّموه المدينة سنة **604** هـ[7].

وتخوَّف أصحاب المُدُن المُجاورة من قُوَّة الأوحد، التي تُعدُّ امتداداً لقُوَّة والده العادل وأخيه الأشرف، وهي أكبر القوى العسكريَّة والسِّياسيَّة في الجزيرة، فحاولوا النيل منه، ولكنَّ دَعْمَ أخيه الأشرف جعلهم يتراجعون[8]، واستفاد الأوحد من وُجُود قُوَّات أخيه الأشرف، فهاجم قلعة أوان، وهي للكرج، فملكها[9]، فخاف مُلُوك المُدُن المُجاورة، واتَّفقوا على ترك طاعة العادل، وأعلنوا طاعة خسرو شاه بن قلج أرسلان سُلطان سلاجقة الرُّوم، وخطبوا له، وراسلوا الكرج يُحرِّضونهم ضدَّ الأوحد[10]، فتحرَّك ملك الكرج عام **607** هـ **1210**م، إلى خِلاط، وحاصرها بقُوَّاته، وفي إحدى الهجمات لجيش الكرج على أبواب خِلاط سقط ملكهم عن جواده، فأسرع المُدافعون عن الباب، وأسروا الملك، واقتادوه إلى الأوحد، الذي فاوضه على إطلاق سراحه مُقابل عدَّة شُرُوط، منها: تسليم بعض القلاع، وإطلاق خمسة آلاف أسير مُسلم، ودفع مائة ألف دينار، وتزويج ابنة ملك

---

1 - تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكّار، 14/ 84، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 255، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 176، ومن عقد الجمان، العيني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، أحداث عام 599 هـ 59/ 17.

2 - روايات ابن العبري، ابن العبري، ترجمة: د. سُهيل زَكّار، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 5/ 459.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 272.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 176.

5 - تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 14/ 84.

6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 176.

7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 176، وروايات ابن العبري، ابن العبري، ترجمة: د. سُهيل زَكّار، 5/ 459، وتاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، 14/ 84، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 453.

8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 176، وروايات ابن العبري، ابن العبري، 5/ 459.

9 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 274.

10 - ذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 127، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 75.

الكرج للملك الأوحد، وإقامة هُدنة بينهما مُدَّتها ثلاث سنوات[1]، فتخاذل مُلُوك المُدُن المُجاورة لِخلاط المُتحالفين ضدَّ الأوحد وأبيه العادل، وقصدوا العادل وهُو في حَرَّان، واعتذروا إليه، وعادوا إلى طاعته[2].

وبعد مرض عُضال تُوفِّي الملك الأوحد نجم الدِّين أَيُّوب بن العادل في مدينة ملاذ كُرد، ودُفن بها[3] سنة 605 هـ ـ 1208م[4]، فتسلَّمها أخوه الملك الأشرف صاحب الجزيرة، واستقرَّت في مُلكه[5]، وأُضيفَتْ مَيَّافارقين إلى المُظفَّر شهاب الدِّين غازي[6]، فعظم شأن الأشرف بمُلكه خِلاط، وهي قصبة أرمينيا[7]، فعظم أمره، وتلقَّب شاهرمن[8] بعد أن ملكها. وفي عام 617 هـ ـ 1220م، وقُبيل توجُّه الأشرف من الجزيرة إلى مصر لنجدة أخيه الكامل ضدَّ الفرنج الذين قصدوا دمياط، أَقْطَعَ الأشرفُ أخاه المُظفَّر شهاب الدِّين غازي خِلاط ومعها كُلّ أعمال أرمينية ومَيَّافارقين وحاني، وأخذ منه الرُّهَا وسروج، ولمَّا قصدتْهُ رُسُلُ الكرج يطلبون التحالف معه ضدَّ المغول، أحالهم إلى المُظفَّر غازي[9].

وبعد عودة الأشرف من دمياط انقلبت موازين التحالفات الأيُّوبيَّة؛ حيثُ اتَّفق الأشرف مع الكامل ضدَّ المُعظَّم، فأرسل المُعظَّم للمُظفَّر غازي يستميله ضدَّ الأشرف، فمال معه، وخلع طاعة

---

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 274، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 113.

2 - ذيل المُختصر، ابن الوردي 2/ 127، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 75.

3 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 455، ـ الأوحد هُو: أَيُّوب بن أبي بكر العادل بن أَيُّوب لقبه نجم الدِّين، تُوفِّي في ملاذ كُرد، ودُفن بها. (ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 81)، وهُو صاحب مَيَّافارقين إقطاعاً من والده، واستولى على خِلاط بدعوة من أهلها. (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 175).

4 - انقسم المُؤرِّخون حول تحديد سنة وفاة الأوحد أَيُّوب بن العادل، فهي في عام 609 هـ لدى أبي شامة، ذَيْل الرَّوضَتَيْن، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار،20 / 158، والحنبلي، شفاء القُلُوب، 275، وهي في عام 607 هـ لدى ابن نظيف، المنصُوري،650، وأبي الفداء، المُختصر، 3 ـ 113، وابن واصل، مُفرِّج الكُرُوب، 3 ـ 208.

5 - تاريخ البغدادي ورحلته، عبد اللطيف البغدادي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14/ 84، والكامل في التاريخ، 12 / 253 ـ 272، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 158.

6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 208.

7 - تُحفة ذوي الألباب، الصفدي، 2/ 124، راجعْ أيضاً: سفر نامة، ناصر خسرو، تعريب: يحيى الخشَّاب، 39.

8 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 113، ـ شاهرمن: أو شاه أرمن؛ أيْ ملك الأرمن نسبة لعدد الأرمن الكبير في خِلاط.

9 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 399.

الأشرف[1]، ويبدو أن أهمَّ دوافع المُعظَّم تجاه المُظفَّر هي أهمِّيَّة مملكة خِلاط، واتِّساعها، وموقعها الذي يُشكِّل شوكة في جنب الأشرف تُعيقه عن الحَرَكَة، إضافة إلى كونها صلة وصل لا غنى عنها ما بينه وبين الخوارزمي حليف المُعظَّم، والتي ستُدخله إلى عالم الجزيرة، ومنها إلى الشَّام.

ففي عام 621 هـ 1224م، قصد الأشرفُ خِلاط بجُيُوشه، وتمكَّن من هزيمة المُظفَّر عندما تصدَّى له، فهرب إلى خِلاط، لكنَّ أهلها فتحوا أبوابها للأشرف، فتحصَّن المُظفَّرُ في القلعة، وأنزله الأشرف بالأمان، وأخذ منه خِلاط، وأبقى عليه مَيَّافارقين[2]، وأرسل الأشرفُ حاجبَهُ حُسام الدِّين علي نائباً إلى خِلاط[3]، فقام بمهمَّته خير قيام[4]، ودافع عنها ضدَّ الخوارزمي وجيشه القوي، وأجبره على التراجع[5]، كما تصدَّى لكَيْقُبَاذ، ودفعه عن أرزن الرُّوم[6]، ممَّا جعل الأشرف يتوجَّس خيفة من قُوَّته، فأرسل مملوكه عزّ الدِّين آيبك إلى خِلاط، وأمره بقتل الحاجب علي، فقتله[7]، وتولَّى عزُّ الدِّين خِلاط، حتَّى هاجمها جلال الدِّين خوارزمشاه، وفتحها عام 627 هـ 1230م، ولمَّا دخلها "فعل في ذلك فعْلَ التَّتَر، فقتل كُلَّ مَنْ وجد في البلد وسبى عسكرُهُ الحريمَ، وباعوا الأولاد كما يفعل بالكَفَرَة "[8]، ثُمَّ قبض على عزِّ الدِّين آيبك نائب الأشرف في خِلاط، وسلَّمه إلى مملوك الحاجب علي، فقتله[9]، فقام الأشرف، وجمع عساكرَ الشَّام، وحالف علاء الدِّين كيقباد سُلطان سلاجقة الرُّوم، والتقوا جلالَ الدِّين، فهزموه، "واسترجع الأشرفُ خِلاط، وقد صارت خراباً يباباً"[10].

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 657، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 134.

2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 657، وتاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، 14/ 84، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 134.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 188.

4- المُختصر، أبو الفداء، 3/ 136.

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 190.

6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 480.

7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 263، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 485، وأخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 15.

8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 295.

9 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 146.

10 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 299.

الفصل الثَّاني

العلاقات الخارجيَّة للممالك الأيُّوبيَّة في الجزيرة

المبحث الأوَّل

الملك الأفضل في الجزيرة

كان الأفضلُ أكبرَ أولاد صلاح الدِّين، ووَلِيِّ عهده، وبعد وفاة والده كوَّن مملكة دمشق، التي كانت إقطاعاً له في حياة والده السُّلطان، وهي تمتدُّ من حُدُود حمص شمالاً إلى حُدُود العريش جنوباً، يفصلها عن بعض السواحل المناطق المحتلَّة من قبَل الفرنج.

وفي عام 592 هـ 1196م، تمكَّن الملك العادل من إخراج ابن أخيه الأفضل من دمشق إلى صرخد[1]، وبعد موت العزيز ابن صلاح الدِّين صاحب مصر تمكَّن الأفضل من الوُصُول إلى حُكْم مصر عام 595 هـ 1199م، لكنْ؛ نتيجة التحاسد بين الأخوة أبناء صلاح الدِّين، وشخصية الأفضل غير القيادية[2]، فقد طُرد الأفضل من مصر عام 596 هـ 1200م، وعاد إلى صرخد، ثُمَّ خسرها ـ أيضاً ـ بعد مُغامرته الفاشلة لأخْذ دمشق عام 597 هـ 1201م. وأثناء حصار الأفضل وأخيه الظَّاهر للعادل بدمشق، راسل العادلُ الأفضلَ، ووعده بالبلاد الشَّرْقيَّة، فانسحب من الحصار، وعمل على تفشيله، وسلَّمه العادل مَيَّافارقين[3] وسُمَيساط وسروج[4] وقلعة نجم[5].

---

1 - صرخد: بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهي قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: صرخد)، ويُقال لها ـ الآن ـ صلخد، وهي مدينة في جبل العَرَب، تتبع مُحافظة السويداء السُّوريَّة. (المُعجم الجَغرافي للقطر السوري، مادَّة: صلخد).

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 143.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 126.

4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 444.

5 - المُختصر، أبو الفداء 3/ 101 ـ قلعة نجم: قلعة حصينة على الفُرات، بناها نجم غلام جني الصفواني، وكانت تتبع لبني حسَّان أصحاب منبج، وبعد وفاة حسَّان بن كمشتكين البعلبكي عام 542 هـ 1147م، أقْطَعَ السُّلطان نورُ الدِّين منبج ومعها قلعة نجم إلى ابنه قُطب الدِّين ينال ابن حسَّان. وعندما تولَّى السُّلطان صلاح الدِّين كان ينال من أشدِّ الأمراء عداوةً له، والتحريض عليه، فحاصره السُّلطان، وأسره عام 572 هـ 1176م، (الكامل، ابن الأثير، 11 / 329، زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 218)، ثُمَّ تولاها الظَّاهر غازي بن صلاح الدِّين مع حلب، وسلَّمها لأخيه=

ويبدو أن العادل كان يُدرك تماماً ما يفعل، فقد وضع الأفضل في الجزيرة ليبعده أوّلاً عن مراكز القوى في دمشق ومصر، وليضعه تحت إشراف ومراقبة ولده الأشرف صاحب إقطاع الجزيرة، وكانت لدى العادل مخططات أُخرى تتعلّق بالأفضل، رُبّما لم يطلع عليها سوى ابنه الأشرف الذي سيُنفّذها لاحقا. ففي عام **599** هـ **1203**م، طلب الأشرف من الأفضل القُدُوم بعساكره للتوجه معه في الحملة ضدّ ماردين، وبالفعل وصل الأفضل إلى حَرّان ورافقه الأشرف الذي كان يظهر الود والاحترام للأفضل، حتّى إنّه عندما استولى على رأس عين الخابور سلمها له، وبعد الصُّلح مع ماردين والعودة إلى حَرّان بلغ كرم الأشرف غايته مع ابن عمّه؛ حيثُ أعطاه بلدة جملين[1].

إن هذا الإكرام ـ بالتّأكيد ـ أدهش الأفضل، وجعله ينساق مع ما خطّط له العادل وابنه الأشرف، من الاعتقاد بمحبّتهما، وتقديرهما له، والتّخلّي عن كُلّ شكٍّ بهما، أو حذر منهما.

ولكن ضربهما له لم يتأخّر كثيراً، ففي العام نفسه أرسل الملك العادل عسكره ونوابه واستعاد جملين من الأفضل، وانتزع منه سروج وشبختان والموزر والسن[2]، ويُحاول ابن العديم تبرير فعل الملك العادل بقوله: "وعصى الملك الأفضل على عمّه الملك العادل في البلاد التي كان أعطاه إيّاها"[3]، فما زاد على أنْ أظهره مُتمرّداً على عمّه صاحب الشرعية الملك العادل، سُلطان البلاد، الذي تفضّل على الأفضل بها، مع أنّه لا يُوجد دليل على عصيانه، ولا مُبرّر لهذا العصيان المُفترض.

وقام الظّاهر أخو الأفضل بحَرَكَة مُفاجئة، رُبّما تدلُّ على تنسيق مع العادل، واقتسام سرّيٍّ لبُلدان الأفضل بينهما، فاستولى الظّاهر على قلعة نجم[4]، وقد برّر ابن العديم ـ أيضاً ـ فعلة الظّاهر بأخيه الأفضل بأنّ الظّاهر تخوّف من أخذ العادل لقلعة نجم، وهي ذات موقع استراتيجي مُهمّ بالنّسبَة لمملكته، ويُضيف مُذكّراً ومُؤكّداً تبريره لأخذ الظّاهر قلعة نجم، فيقول: "وكان الملك

=الأفضل، لكنّه عاد، واستردّها، وأقطعَهَا لعتيقه الأمير بدر الدّين أيدمر، حتّى نزعها منه العزيز بن الظّاهر عام 629 هـ وفي أيّام الملك النّاصر الثّاني استولى عليها التّتار، وخرّبوها. (الأعلاق الخطيرة، ابن شدّاد، 1/ 2/ 476).

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 38.

2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 623، وروايات ابن العبري، ابن العبري، ترجمة: د. سُهيل زَكّار، الموسوعة الشّاميّة، 5/ 427.

3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 623.

4 - روايات ابن العبري، ابن العبري، ترجمة: د. سُهيل زَكّار، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 5/ 427، والأعلاق الخطيرة، ابن شدّاد، 1/ 2/ 475.

الظَّاهر قد سلَّمها للأفضل"[1]، ولكن ابن الأثير يرى الأمر من وُجهة نظر أُخرى؛ حيثُ يصف ما قام به الملك الظَّاهر نحو الملك الأفضل بقوله: "وكان هذا أقبح ما سُمع عن ملك يُزاحم أخاه في مثل قلعة نجم، مع خسَّتها وحقارتها وكثرة بلاده وعدمها لأخيه"[2].

ثُمَّ تابع العادل وابنه الأشرف تنفيذ مُخطَّطها ضدَّ الأفضل، "فأخذوا رأس عين الخابور من الملك الأفضل، وكذلك جملين، بكذبة كذبوها عليه لاستعادة البلاد منه، ولم يُبقوا عليه سوى سُمَيساط لا غير"[3].

كانت مُحاولة الأفضل الأخيرة، قبل أن يفقد كُلَّ أمل له ضمن أُسرته الأيُّوبيَّة، هي التذلُّل لعمِّه العادل، واستعطافه، فأرسل والدته إلى حماة؛ ليشفع صاحبها المنصُور عند العادل لإبقاء بلاده عليه، لكنَّ العادل لم يلتفت لذلك[4]، عندها؛ وجد الأفضل نفسه وحيداً ضمن البيت الأيُّوبي، فأعداؤه هُم أخوه وعمّه وأبناء عمِّه، ممَّا زاد الأفضل حنقاً، ودفعه باتِّجاه مُعاكس، فالتفت خارج البيت ليجد كيكاوس[5] سُلطان سلاجقة الرُّوم قريباً منه، ومُرحّباً به، ورُبَّما لأنَّه عدوّ البيت الأيُّوبي انتمى إليه، وخطب له على منابر سُمَيساط[6]، فكان انتقام الضعيف من الأقوياء.

وعندما تُوفِّي الملك الظَّاهر صاحب حلب، في عام **613** هـ **1216**م، وجد كيكاوس في الأفضل ضالَّته، فهُو وسيلته للسيطرة على الجزيرة، ومن ثَمَّ؛ الدُّخول إلى الشَّام.

فأثار مطامع الأفضل، ووعده بأَخذ حلب، وتسليمها له، "وكان كيكاوس يُريد الملك لنفسه، ويجعل الأفضل ذريعة للتوصُّل إليه"[7].

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 623، كذلك راجعْ: الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 475.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 182.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 38، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 104.
4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 104.
5 - هُو السُّلطان عزّ الدِّين سُليمان بن قلج أرسلان بن مسعود السلجوقي صاحب الرُّوم.
6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 182، وروايات ابن العبري، ابن العبري، ترجمة: د. سُهيل زكَّار، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 5/ 427.
7 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 644.

ففي عام 615 هـ؛ طلب كيكاوس من الأفضل أن يُكاتب أُمراء حلب الذين يميلون إليه، فكاتبهم، ووعدوه[1]، وكان عدد من مُستشاري عزّ الدِّين كيكاوس قد "حسَّنوا له قصد حلب، وقالوا: المصلحة أن تستعين بالأفضل، فإنَّه في طاعتكَ، ويخطب لكَ، والناس مائلون إليه، فاستدعاه، وأكرمه، واتَّفقا على قصد البلاد، وأن حلب وأعمالها للأفضل وبلاد الأشرف لعزّ الدِّين"[2].

ساند الأفضلُ كيكاوسَ، ورافقه في هُجُومه على مُمتلكات حلب، "وساروا، فملكوا رعبان، وسُلِّمت للأفضل، لكنْ؛ لمَّا مُلكَتْ تلّ باشر أخذها عزّ الدِّين كيكاوس لنفسه، وكذلك منبج، فنفرَ الأفضل، وقال: هذا أوَّل الغدر، ونفرت أهل البلاد، فقد كانوا فرحين بمُلك الأفضل"[3].

"ولمَّا تحقَّق الأفضل من سُوء نيَّة كيكاوس، أشار عليه بقصد البلاد، وتأخير حلب، لمُرُور الزمن في غير فائدة؛ لئلا يتحصَّل لعزّ الدِّين مقصوده"[4].

وكان تراجع الأفضل عن دعم كيكاوس من الأسباب القويَّة لهزيمته أمام قُوَّات حلب والأشرف مُوسى[5]، فقد تراجع منهزماً، واستردُّوا كُلَّ ما استولى عليه.

وعاد الأفضل ليقبع في سُمَيساط، "ولم يتحرَّك - بعدها - في طلب مُلك، إلى أن مات عام 622 هـ"[6] 1225م، وكان موته فجأة، وله من العمر سبع وخمسين سنة[7].

واختلف أولاده وأخوته في ملك سُمَيساط بعد موته، ولم يقوَ أحد منهم على الباقين ليستبدَّ بالأمر[8]، ويبدو أنَّهم اتَّفقوا على المُؤيَّد ناصر الدِّين مُحمَّد بن الأفضل علي، وأن يكون مُدبِّر دولته عمّه

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 644.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 263.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 263.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 265.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 74، - وعن مُغامرة الأفضل مع كيكاوس راجعْ:
Pre Ottoman, Clud Cahen, p 123
6 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 119.
7 - بعد أن مات الملك الأفضل علي في سُمَيساط نُقل ليُدفَن في ظاهر حلب بالقُرب من مشهد الهروي، خارج باب المقام جنوب حلب. وهُو - الآن - في حيِّ الفردوس، قُرب مدرسة ورباط ضَيْفَة خَاتُون بنت العادل.
8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 155، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 429.

المُفضَّل مُوسى، واستقرُّوا بها إلى عام 632 هـ 1235م؛ حيثُ أخذها منهم الملك العادل، وعوَّضـهما عنها جملين[1].

وهكذا أكملَ العادلُ مُخطَّطه تجاه الأفضل الذي كان يتصوَّره الأقوى بين أبناء صلاح الـدِّين، ولكنَّه كان ـ على ما يبدو ـ بعيـداً عـن مغـاور الـسياسة وألاعيبهـا، بـسيطاً، مـع أنَّـه جمـع الفـضائل والأخلاق الحَسَنة، وعلَّل أبو الفداء ما جرى معه بأنَّه كان "قليل الحظِّ"[2]، لكنَّ الأرجح أنَّه سُـوء تدبير أكثر منه قلَّة حظٍّ، فله من الخبرة والتجربة، في دولة أبيه، رُبَّما ما يفـوق مـا كـان لأخيـه الظَّـاهر غازي أو العزيز.

وهُنا؛ نُلاحظ أن العادل قد تجاوز صلاح الدِّين بحُسْن التدبير لتدريب أبنائه، ورُبَّما كان ذلك بسبب انشغال صلاح الدِّين الدائم بالجهاد، فقد أمضى جُلَّ عمره على صهوة جـواده، وكـان يـرى أن تحرير الأرض رسالة عليه أن يُؤدِّيها، فلم يلتفت إلى ما سـواها، بيـنما التفـت العـادل لترتيـب شُـؤُون أولاده بعد موت صلاح الدِّين، وساعده على ذلك توقُّف الأعمال الحَرْبيَّة الكُبْرَى مع الفرنج.

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 195.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 135.

المبحث الثّاني

الأشرف مُوسى ملك الجزيرة

بعد وفاة العادل عام 615 هـ 1218م، حدثت التجزئة الثّانية للدولة الأيُّوبيَّة، وانعكست بأوضح صورها في الجزيرة، التي كانت شبه مُوحَّدة تحت سُلطة العادل وأبنائه، الذين هُم نُوَّاب له فيها، وأصبح الملك الأشرف بن العادل ملك الجزيرة بلا مُنازع، فهُو أكبر قُوَّة فيها، وصاحب مُعظم بلادها، وعلى الفُرات كان لأخيه الحافظ أرسلان شاه إمارة صغيرة تتشكَّل من قلعة جعبر وبلدة بالس[1]. ونستطيع أن نُميِّز في حُكْم الأشرف للجزيرة أربعة مراحل:

المرحلة الأُولى:

بدأت علاقة الملك الأشرف بالجزيرة الشّاميَّة عندما وضع والده السُّلطان العادل تحت إمرته قُوَّة عسكريَّة عام 599 هـ 1203م، ووجهه لاحتلال ماردين، ومع أن الحملة لم تُضطرّ للقتال، فقد حقَّقت مكسباً كبيراً؛ إذْ قام صاحب ماردين بطلب وساطة الظّاهر غازي صاحب حلب للصُّلح مع السُّلطان العادل، وتمَّ الأمر على أن يدفع للسُّلطان مائة وخمسين ألف دينار، ويدخل تحت طاعته بإعلان الخطبة، وضرب السّكَّة باسمه[2]. وكانت حملة الملك الأشرف أداة ضغط فعَّالة لقبول صاحب ماردين الخُضُوع للسُّلطان العادل، وبالوقت نفسه؛ مهَّدت لصعود نجم الملك الأشرف في الجزيرة.

لكنَّ السعد الحقيقي للأشرف جاء بمُبادرة منه عندما قرَّر التّصدِّي لهُجُوم الأتابك نُور الدِّين صاحب المَوصل، الذي غرَّر به أُمراء الشّام اللاجئين إليه، وهوَّنوا له أمرَ الملك الأشرف، فكان اللقاء قُرب بلدة باشزى[3]، وبالكاد؛ نجا نُور الدِّين بنفسه نحو المَوصل، وأُخذت جُنُوده ما بين أسير وقتيل، فَسَيَّرَ الملك الأشرف يعلم والده السُّلطان العادل، "فاستعظم العادلُ ذلك، وما صدَّقه"[4]. وكما برع الملكُ الأشرفُ في قيادة المعركة العسكريَّة، ضدَّ أتابك المَوصل، برع

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 453، والسُّلوك، المقريزي، 1/ 271.

2 - المُختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 80.

3 - باشزى: بليدة قُرب المَوصل بين جزيرة ابن عُمر ونصيبين، فيها سوق، وتقصدها القوافل. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: باشزى).

4 - المنصُوري، ابن نظيف، 40 ـ 41.

- أيضاً - في توجيه الدفَّة السِّياسيَّة، واستغلال نتائج نصره، فقد رتَّب مُعاهدة صُلح في أوائل عام 600 هـ 1204م، مع الأتابك، وتحالفا معاً[1]، ليتحوَّل الملك الأشرف، وقبل أن يُولِّيه والده إقطاعَهُ في الجزيرة، إلى الرجل الأوَّل فيها، وإلى سُلطان حقيقي لها. وبعد استتباب الأمر للعادل وتولِّيه سلطنة الأيُّوبيَّة في الشَّام ومصر ولَّى ابنَهُ الأشرفَ مُوسى على مُعظم مُمتلكاته الجزرية، وكانت قاعدتها حَرَّان، ووضع معه أخاه الأوحد في ولاية مَيَّافارقين، وابنه الحافظ في قلعة جعبر، ومعها بالس[2].

المرحلة الثَّانية:

بدأت عام 598 هـ؛ حيثُ حكم نائباً عن أبيه على ولاية الجزيرة، وفيها ظهرت شخصيَّته السِّياسيَّة والعسكريَّة، وتميَّزت بالنجاح، فقد حالفه التوفيق في كُلِّ تحالفاته السِّياسيَّة ومعاركه العسكريَّة، وتُعدُّ هذه المرحلة جُزءاً من دولة العادل.

المرحلة الثَّالثة:

وهي المرحلة الأساسية والهامَّة للأشرف وللجزيرة. بدأت عام 615 هـ 1218م، وفيها انفراد بالحُكْم بعد موت والده العادل، ونشطت فيها العلاقات السِّياسيَّة والتحرُّكات العسكريَّة لدولته الجزرية مع كُلِّ الإمارات المُجاورة، إنْ كانت أيُّوبية، أو غيرها.

في عام 616 هـ 1219م، تُوفِّي نُور الدِّين صاحب المَوصل، وقام الوصي بدر الدِّين لُؤلُؤ، وخطب للسُّلطان الكامل، وللملك الأشرف[3]، بما يعني وضع نفسه تحت طاعتهما، وطلب حمايتهما له، فقد كان لُؤلُؤ يُدرك الأطماع التي سيواجهها في تدبيره لدولة صبي صغير. وفعلاً؛ فقد تحرَّك زنكي ابن عزّ الدِّين مُطالباً بأنْ يكون هُو الوصي على ابن أخيه في المَوصل، ودعمه مُظفَّر الدِّين صاحب إربل الذي رآها فُرصة طيِّبة للتدخُّل في شُؤون المَوصل، فسارع لُؤلُؤ لطلب نجدة الملك الأشرف[4]، ولكن الملك الأشرف كان مشغولاً عن المَوصل بالحلف الذي شكَّله كوكبري ضدَّه في الجزيرة، فقد راسل مُلوكها، وكان من أبرز مَنْ لبَّى دعوته، كيكاوس سُلطان سلاجقة الرُّوم، وصاحب آمد

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 41.
2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 453.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 649.
4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 649.

وحصن كيفا، وصاحب ماردين، وكان الاتِّفاق بينهم على أن يكونوا في طاعة كيكاوس، ويخطبوا له، كما أكمل كوكبري الحلقةَ باتِّصاله بأُمراء جند الملك الأشرف، فانحاز إليه بعضهم، وتركوا الملك الأشرف، وساروا للقاء صاحب آمد؛ لمنع الملك الأشرف من الحَرَكَة لمُساعدة المَوصل. ولكنْ؛ حدث ما لم يكن بالحسبان، فقد تراجع صاحب آمد عن الحلف، وعاد إلى طاعة الملك الأشرف[1]، ولابُدَّ أن الثمن الذي حصل عليه صاحب آمد من الملك الأشرف، وهُو مدينة حاني وجبل جور، كان سبب انقلاب موقفه. ومرَّة أُخرى؛ يُثبت الملك الأشرف أنَّه ملك الجزيرة بلا مُنازع، فما يعجز عنه بالقُوَّة العسكريَّة يستطيع تحقيقه بالمُناورات السِّياسيَّة، فانحلَّ حلف كوكبري، وعاد الجميع إلى طاعة الملك الأشرف[2]، لقد وجَّه الملك الأشرف جهده السِّياسي نحو أضعف نقاط الحلف، وهُو صاحب آمد، وتمكَّن من شرائه، فضرب الحلف بأكمله.

وجاء ردُّ الملك الأشرف على الحلف السَّابق سريعاً وناجحاً، ففي مطلع عام 617 هـ 1220م، استغلَّ لجوء ابن المشطوب إلى سنجار، وسار إليها، فتسلَّمها من صاحبها[3]، وعوَّضه الرقَّة[4]، يقول أبو الفداء: "وهذا من سعادة الملك الأشرف، فأباه نازل سنجار في جُمُوع عظيمة، وطال عليها مقامه، فلم يملكها، وملكها ابنه بأهون سبب"[5]. ويقول ابن واصل: "وهذه الواقعة من جُملة سعادته الخارقة، فإن أباه العادل نازلها في جميع مُلُوك أهل بيته، فلم ينلْ منها غرضاً، وأخذها الملك الأشرف عفواً بلا تعب". ثُمَّ أخذ الملك الأشرف الرقَّة بعد ذلك[6]، وتابع زحفه نحو المَوصل لدعمها، ممَّا أجبر كوكبري لعقد الصُّلح مع صاحبها، ثُمَّ التفت الملك الأشرف إلى صاحب قرقيسيا[7]، فقبض عليه، وأخذها منه[8]. كما استولى على دنيسر[9].

---

1 - الكامل، ابن الأثير، 12/ 442.
2 - الكامل، ابن الأثير، 12 / 443.
3 - كان صاحب سنجار هُو الملك الأمجد محمود بن قُطب الدِّين مُحمَّد بن عماد الدِّين زنكي بن مودود بن زنكي.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 2/ 122.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 125.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 73.
7 - قرقيسيا: مُعرَّب كركيسيا من كركيس، وتعني الحلبة، تقع على نهر الخابور قُرب الرحبة. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: قرقيسيا).
8 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 651.
9 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 125، - دنيسر: بلد مشهور من نواحي الجزيرة قُرب ماردين. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: دنيسر).

العلاقات الجزرية للأشرف موسى:

في عام 617 هـ 1220م، "أَقْطَعَ الأشرفُ مُوسى مدينةَ خِلاط وجميع أعمال أرمينية ومدينة مَيَّافارقين في ديار بكر ومدينة حاني أخاه شهاب الدِّين غازي، وأخذ منه الرُّهَا ومدينة سروج"[1]، "وجعله وَلِيّ عهده في البلاد، التي له جميعها، وحلَّف له النُّوَّاب والعسكر"[2].

ويبدو أن الأشرف كان يرغب في تقوية مركز أخيه شهاب الدِّين غازي، وتدريبه على الحُكْم، ورُبَّما كان ذلك إعداداً له ليكون خليفته ووريثه، فالأشرف لم ينجب خلال حياته سوى بنت واحدة، ومُشكلة الوراثة كانت مُشكلة تحتاج للكثير من التفكير والتدبير. وقد أتى هذا التدبير في وقت بالغ الحرج بالنِّسبَة للأشرف، وبالنسبة لكلِّ الممالك الأيُّوبيَّة، فبعد تسيير الأشرف لأخيه غازي إلى خِلاط جمع عسكره، وتوجَّه إلى مصر، فدمياط كانت قد سقطت بيد الفرنج، ومصر مُهدَّدة بالسُّقوط، وبالتَّالي؛ كامل المملكة الأيُّوبيَّة، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى؛ كان هُناك خطر، رُبَّما يكون أكبر، لكنْ؛ بتقدير الأشرف كان خطراً يُمكن تأجيل مُواجهته لما بعد مُواجهة خطر الفرنج، "فلمَّا أتاه رُسُلُ الكرج يطلبون المُوافقة لردِّ التَّتَر، اعتذر بالمسير إلى مصر، وقال لهم: إني قد أَقْطَعْتُ ولاية خِلاط لأخي، وسيَّرتُهُ إليها؛ ليكون بالقُرب منكم، وتركتُ عنده العساكر، فمتى احتجتُمْ إلى نصرته حضر لدفع التَّتَر"[3]. ويبدو من هذا الجواب أن الأشرف لم يكن يُقدِّر خطر التَّتار حقَّ قدره، رُبَّما لعدم وُجُود معلومات كافية لديه عن قُوَّة التَّتار، إضافة إلى أن الاحتكاك المُباشر معهم لم يكن قد حصل بعد.

وكان الأشرف في مسيره إلى مصر شبه مُجبر تجاه المُلُوك والأُمراء الأيُّوبيَّة، وخاصَّة تجاه إلحاح أخيه المُعظَّم صاحب دمشق، الذي حضر إليه في مطلع عام 618 هـ 1221م، واجتمع به عند حَرَّان، وأقنعه بالمُساهمة في الحملة ضدَّ الفرنج، فقد "كان الأشرف مبايناً لأخيه الكامل في الباطن"[4].

ولكنْ؛ بعودة الأشرف من غُزاة دمياط عام 620 هـ 1223م، تغيَّر موقفه كُلِّيّاً من اخوته؛ إذْ يبدو أن هُناك اتِّفاقاً تمَّ بعد دمياط بينه وبين الكامل صاحب مصر ضدَّ المُعظَّم صاحب دمشق، وكان

1- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 399.
2- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 412.
3- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 399.
4- ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 128.

انعكاس ذلك في الساحة الجزرية أن المُعظَّم ـ الذي وجد نفسه محصوراً بين أخوَيْه الكامل من الجنوب والأشرف من الشمال ـ بدأ التحرُّك في الجزيرة لإثارة المتاعب في وجه الأشرف. ففي عام 623 هـ 1226م، وردّ على المُعظَّم رسول مُظفَّر الدِّين بن زين الدِّين كوكبوري بن علي كوجك، صاحب إربل، يغريه بغزو مُدُن الشَّام حمص وحماة، لأن مُلُوكها كانوا يداً واحدة مع الأشرف[1]، وإن مُظفَّر الدِّين سيشغل الأشرف عن الجزيرة بخُرُوجه إلى المَوصل[2].

بدأ المُعظَّم خُطَّته مع أخيه شهاب الدِّين غازي، نائب الأشرف في خِلاط، فحرَّضه على عصيان الأشرف، واستماله نحوه[3]. وحاول الأشرف تدارك الأمر، فطلبه ليُقدِّم إليه بحَرَّان، "فامتنع، وأظهر العصيان، فجمع الأشرفُ عساكرَ الشَّرق، وسار إلى خِلاط"[4]. فخرج غازي، وقاتله، فهُزم، وهرب إلى خِلاط، التي فتحها أهلها للأشرف، فتحصَّن غازي بالقلعة، وطلب العفو من أخيه، فأجابه، وأبقى عليه مَيَّافارقين فقط[5].

يبدو ـ للوهلة الأُولى ـ أن عصيان غازي لأخيه الأشرف حَرَكَة خرقاء لا معنى لها، ولكنْ؛ بالتَّأكيد، كان لغازي دوافعه القويَّة لهذا التصرُّف، ومرتكزات بدت له ثابتة لتأمين النجاح، إنَّه ـ بالتَّأكيد ـ كان يُدرك قُوَّة الأشرف في الجزيرة، وتحالفه مع الكامل صاحب مصر أقوى وأكبر الممالك الأيُّوبيَّة، وقبل كلِّ ذلك فالأشرف هُو صاحب الإحسان إليه، بنيابته في خِلاط، وبجعله وَليّ عهده. ولكنْ؛ إذا وسَّعنا دائرة الرؤية خارج الجزيرة فإنَّنا نرى أن هُناك ما شجَّع غازي على العصيان، فالمُعظَّم ومعه قُوَّات دمشق يُشكِّلان سداً منيعاً بوجه الكامل، وقُوَّات مصر التي لن تستطيع نجدة الأشرف، الذي سيُواجه حليفهم الثَّالث مُظفَّر الدِّين صاحب إربل، الذي سيتحرَّك في شمال العراق، وعلى حُدُود دولة الأشرف الشَّرقيَّة، فيُعيقه عن مُهاجمة غازي، الذي وزَّع عسكره على الحُصُون، وانتظر تحرُّك الحُلفاء[6].

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 176.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 125.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 657.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، أحداث عام: 620 هـ،20/ 257.
5 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 657، وتاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار،20 / 273.
6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 422.

أمّا إنعام الأشرف عليه بولاية كبيرة وتوليته عهده؛ فإن غازي رُبّما كان يُدرك أن الأشرف قد يستردّها منه في أيّ وقت، ورُبّما كان يستعجل الأُمور، فلا يُريد أن ينتظر حتّى وفاة الأشرف، وفي هذه الحالة ـ أيضاً ـ لا شيء مضمون، فالقُوّة والتحالفات الجيّدة هي التي تضمن السيطرة والتحكُّم بالولايات، وليس عهداً قد يكون لا قيمة له؛ إذْ لم يُقرّه سُلطان مصر والمُلوك الآخرون من بني أيّوب، بل ورُبّما المُلوك المُجاورون من خارج البيت الأيّوبي. لكنّ الذي لم يُقدّره غازي بشكل صحيح هُو قُوّة حُلفائه، فالمُعظّم لم يستطع التحرُّك من دمشق بعد أن هدّده الكامل والأشرف أنّهم سيقصدونه، ويأخذون دمشق إنْ تحرَّك منها[1]، أمّا مُظفَّر الدِّين؛ فقد تحرَّك من إربل نحو المَوصل وهي في حلف الأشرف، فحاصرها "عشرة أيّام بلا طائل، ولمّا لم يتحرَّك أحد عاد"[2].

فشلت خُطط المُعظَّم ضدَّ الأشرف في الجزيرة، فغازي كان أمره هيّناً، وانتهى عصيانه بفشله السريع، أمّا مُظفَّر الدِّين كوكبري؛ فهُو بعيد نسبياً، ولم يستطع أن يُحقّق أيّ نجاح ضدَّ المَوصل حليفة الأشرف، لذلك؛ امتدَّت أنظار المُعظَّم نحو قُوّة كبيرة في الشَّرق هي الدولة الخَوارزميّة، التي كانت قُوّاتها تتراجع غرباً نحو بُلدان الجزيرة تحت ضغط تقدُّم التّتار، فاتّصل المُعظَّم بالخوارزمي جلال الدِّين منكبرتي طالباً التحالف معه ضدَّ الأشرف وحُلفائه في الجزيرة.

وبعد توثيق التحالف بين المُعظَّم والخوارزمي طلب المُعظَّم منه منازلة خِلاط، أكبر مُدُن مملكة الأشرف، ليشغله عن التفكير بمُهاجمة دمشق، فتحرَّك الخوارزمي عام **623** هـ **1226**م، نحو خِلاط، وحاصرها أربعين يوماً[3]. وأمام قُوّة الخوارزمي الكبيرة فضل الأشرف أسهل الطُّرُق، فذهب إلى أخيه المُعظَّم، وأظهر له الخُضوع، "وسأله أن يسأل الخوارزمي أن يرحل عن خِلاط . . فبعث المُعظَّم، ورحَّل الخوارزمي"[4].

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 422.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 422.
3 - تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكّار، 20/ 284.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكّار، أحداث عام: 623/ هـ 20 / 384، ـ ويقول ابن العديم: "كان الأشرف في دمشق . . . . فوردت الأخبار بنُزُول خوارزم شاه على خِلاط، ومُحاصرتها، .. فوافق الأشرفُ أخاه على ما طلبه منه، ورحَّل خوارزم شاه عن خِلاط". (زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 661)، ونحنُ نُرجّح أن يكون الأشرف قد توجَّه إلى دمشق بعد حصار الخوارزمي لِخلاط.

اتّفاق الملك الأشرف والملك الكامل عقب نصر دمياط:

ذهب الملك الأشرف إلى مصر لنجدة أخيه الكامل بعد احتلال الفرنج لدمياط، مع أنهما كانا على تباعد في الرأي والمصلحة، فقد كان ذهاب الملك الأشرف تحت ضغط وإلحاح أخيه الملك المُعظَّم، الذي كان على أتمّ اتّفاق وتفاهم معه. ولكنْ؛ بعد عودة الملك الأشرف من مصر انقلبت المُيُول، وبان للعيان اتّفاق الملك الأشرف مع الكامل لتحييد الملك المُعظّم عن الساحة.

عام **618** هـ **1221**م، عادت المُلُوك الأيُّوبيّة وجُيُوشهم بعد انتصارهم في واقعة دمياط، وبقي الملك الأشرف عند الكامل، ولم يشرْ أيٌّ من مُؤرّخي أحداث هذه الفترة إلى أيِّ مباحثات، أو اتّفاق جرى بين الأخوَيْن، ممّا أدّى لتبديل مواقفهما تجاه بعضهما، وتجاه بقيّة الأخوة أبناء العادل. ولكن مُجريات الأحداث تدلُّ على أن مباحثات سرِّيّة ـ وغالباً على انفراد ـ بين الكامل والملك الأشرف قد جرت، وأن اتّفاقات سياسيّة وعسكريّة عدّة قد تمخّضت عنها تلك المباحثات، وإن كنّا لا نعرفها بالتحديد، لكنّ خُطُوطها قُرِئَتْ من خلال تصرُّفات الأخوَيْن السِّياسيّة والعسكريّة اللاحقة.

وكان لذلك الاتّفاق غير المُعلَن نتائج على غاية من الأهمِّيّة في الشّام والجزيرة. كان أوّل عمل قام به الملك الأشرف فور عودته من غُزاة دمياط إلى الجزيرة في العام نفسه **618** هـ **1221**م، هُو انتزاع الرقّة من يد الأمجد محمود بن قُطب الدِّين، وكان قد عوّضه بها بدلاً عن سنجار، وأقام الملك الأشرف في الرقّة[1]، ولا ندري لِمَ قام بهذا العمل؟ وفي هذا الوقت بالذات؟ إلّا أن يكون قد بيّت نزع الرقّة منه قبل سفره إلى دمياط، وبعد فراغه من خطر الفرنج، وانشغاله بهم، عاد، واستردّها.

أصداء التحالف في الجزيرة:

عندما شعر الملك المُعظّم بالتقارب بين أخوَيْه، قدّر أنّه سيدفع من مملكته ونُفُوذه ثمنَ هذا التقارب، فبدأ يتلمّس طُرُقاً للرّدّ على تحالف أخوَيْه، وبالتّأكيد؛ فكّر الملك المُعظّم بكُلٍّ من حوله من المُلُوك، وكانت الساحة أمامه كما يلي:

---

1 - مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 105.

1 ـ إخوته الآخرون: مُعظمهم أصحاب قلاع وبُلدان صغيرة، ولا يُشكّلون إلّا قُوّة تأثير بسيطة، ما عدا أخيه المُظفَّر غازي صاحب خِلاط، فاتَّصل به، وحَسَّن له الخُرُوج على الملك الأشرف، والانضمام إليه، ولا ندري بما وعده! فهل وعده بمُلك الجزيرة بعد إزاحة الملك الأشرف[1]؟! وفي الحقيقة؛ يجب أن يكون الوعد بهذا المُستوى، فغازي وَلِيّ عهد الملك الأشرف[2]، وصنيعته، ويعرف أنَّه سيخلفه بعد موته؛ إذْ لا وارث له، ومع ذلك، جعله الوعد يُقدم على الخُرُوج عليه.

2 ـ مُلُوك بني أيُّوب وابن عمِّهم المُجاهد: وكانوا كُلُّهم محالفين للأشرف، ويداً واحدة معه[3].

3 ـ صاحب حلب الملك العزيز مُحمَّد طفل صغير ووصيّه طَغْريل مُتَّفق بشكل كامل مع الملك الأشرف.

4 ـ في حماة الملك النَّاصر قلج أرسلان مُتحالف مع الملك الأشرف، الذي يضمن له مُلكه، فقد اغتصب حقَّ أخيه المُظفَّر في ملك حماة بعد موت أبيه.

5 ـ الملك المُجاهد صاحب حمص، كان من أفضل حُلفاء الكامل، وأقواهم، يُطلعه الكامل على مُراسلاته[4]، ويُشاوره[5]، ولا تنقطع هدايا الكامل إليه[6].

إذاً؛ على الملك المُعظَّم أن يلتفت خارج البيت الأيُّوبي من أجل تأمين دعم قوي يكسر عنه طوق أخوَيْه من الشمال والجنوب، فامتدَّت أنظاره نحو مُظفَّر الدِّين كوكبري بن زين الدِّين كجك صاحب إربل، فالمودَّة بينهما سابقة.

وكان كوكبري قد طلب من الملك المُعظَّم عام 622 هـ ـ 1225م، إرسال ابنه ووَلِيّ عهده النَّاصر داود ليُقيم لديه في إربل[7]، فاعتمد الملك المُعظَّم على وُجود ابنه في بلاط المُظفَّر، وأرسل له

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 138.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 657.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 176.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 147.
5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 261.
6 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 262، والمنصُوري، ابن نظيف، 157+ 258.
7 - المنصُوري، ابن نظيف، 110.

عام 623 هـ 1226م، رسولاً يشرح حال الشَّام، ويعرض عليه التحالف معه[1]، وعاد الرسول بجواب الرسالة، التي عرفنا أنَّها كانت بالمُوافقة نتيجة للأحداث اللاحقة. كما قام الملك المُعظَّم بمُراسلة الملك المسعود بن الصَّالح الأرتقي صاحب آمد، وطلب منه التحالف ضدَّ الملك الأشرف، فوافق، واتَّفقا على ذلك[2].

واتَّفق الملك المُعظَّم مع أكبر قُوَّة خارجية كانت تلوح في الأُفُق الشمالي الشرقي وهي الدولة الخَوَارزميَّة، فقد راسل السُّلطان جلال الدِّين، وحالفه، ونتيجة للخوف من قُدُوم جلال الدِّين إلى المنطقة تحرَّكت القُوَّة الخارجيَّة الثَّانية، وهي دولة سلاجقة الرُّوم، فحالف سُلطانها كَيْقُبَاذ الملك الأشرف[3].

واتَّضح في المنطقة معالم حلفَيْن كبيرَيْن، الأوَّل: دبَّره ورتَّبه الملك المُعظَّم، وأكبر قُوَّة فيه الدولة الخَوَارزميَّة، ومعهم مُظفَّر الدِّين صاحب إربل، والمسعود صاحب آمد والمُظفَّر غازي صاحب خِلاط.

أمَّا الحلف الثَّاني؛ فهُو حلف انتظم فيه مُعارضو الحلف الأوَّل، وفيه ـ حُكْماً ـ الملك الكامل وأخاه الملك الأشرف، وحليف الملك الأشرف القديم بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل، وانضمَّ إليهم كَيْقُبَاذ سُلطان سلاجقة الرُّوم.

بدأ التحرُّك العملي لحلف الملك المُعظَّم، بإعلان المُظفَّر شهاب الدِّين غازي العصيان على أخيه الملك الأشرف في خِلاط، فسار إليه الملك الأشرف، وحاصره، وأنزله من قلعتها بالأمان، فاستردَّها منه، وأبقى عليه مَيَّافارقين فقط[4].

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 124، ـ الرسول هُو الشّرف بن عنين الشاعر المعروف بالهَجَّاء الدمشقي.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 202.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 203

4 - تاريخ البغدادي ورحلته، عبد اللطيف البغدادي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 273، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 134، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 138، ـ حيثُ يقول ابن واصل: "وهذه مكرمة للبيت الأيُّوبي، لم يكن مثلها لأحد من المُلُوك قبلهم، وخُصُوصاً آل سلجوق، فإذا ظفر أحد منهم بأخيه أو ابن عمِّه الخارج عليه، إمَّا أن يوسطه بالسيف، أو يخنقه بوتر القوس، وأحسن أحواله أن يعتقله، ويُضيِّق عليه، إلى أن يموت كمداً".

أمَّا مُظفَّر الدِّين كوكبري؛ فقد سار من إربل بجُيُوشه، وألقى الحصار على المَوصل، وكان فيها بدر الدِّين لُؤلُؤ حليف الملك الأشرف[1]، ومُعظم جنده في نجدة الملك الأشرف الذي كان يُحاصر أخاه المُظفَّر في خِلاط، فحاصر كوكبري المَوصل عشرة أيَّام، ثُمَّ رحل عنها، بعد أن علم بسُقُوط خِلاط بيد الملك الأشرف[2].

أمَّا الملك المُعظَّم؛ فقد وصله رسول كوكبري بخُرُوجه إلى المَوصل، وُفقاً للاتِّفاق، طالباً منه التحرُّك لأخذ مُدُن الشَّام، فقاد الملكُ المُعظَّمُ جيشَهُ، وتوجَّه إلى حمص، وكانت في غاية القُوَّة، فلم ينلْ منها طائل[3]، وأوعز الملك الأشرف إلى حليفه الرُّومي كَيْقُبَاذ ليتحرَّك صوب آمد، ويُحاصرها، فَسَيَّرَ كَيْقُبَاذ صوبها عسكرَهُ، فاحتلُّوا قلعة الكختا[4]، فراسلَ صاحبُ آمد الملكَ الأشرف، وأعلنَ الطاعةَ، وللمرَّة الثَّانية؛ يعود صاحب آمد عن مواقفه، فطلب الملك الأشرف من علاء الدِّين كَيْقُبَاذ الكفّ عن آمد ورد ما أخذ منها، فرفض، وأدَّى الأمر إلى اشتباك بين عساكر الملك الأشرف القادمين لنجدة آمد وعساكر كَيْقُبَاذ، فانتصرت عسكر سلاجقة الرُّوم، واحتلُّوا حصناً جديداً لآمد هُو حصن منصُور[5].

وبالمُقابل؛ طلب الملك المُعظَّم من حليفه الخوارزمي مُهاجمة خِلاط، فحاصرها الخوارزمي أربعين يوماً. ولمَّا قصد الملكُ الأشرفُ الملكَ المُعظَّمَ، والتقاه في دمشق، أرسل الملكُ المُعظَّمُ إلى الخوارزمي يطلب منه ترك حصار خِلاط، فأجابه، ورحل عنها[6]. فلماذا لم يوافق الرُّومي حليفه الملك الأشرف، ولم يرحل عن آمد، بينما وافق الخوارزمي على طلب حليفه الملك المُعظَّم، ورحل عن خِلاط ؟!

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 134.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 138.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 125.

4 - قلعة الكختا: من بلاد الجزيرة كانت تتبع آمد، وهي قلعة عالية البناء لها بساتين ونهر، تبعد عن ملطية مسيرة يومَيْن. (تقويم البُلدان، أبو الفداء، 263).

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 203، ـ حصن منصُور: من ثُغُور الجزيرة، يحاذي الفُرات، وينحدر النهر الأزرق من شماله الغربي. (بُلدان الخلافة الشَّرقيَّة، كي لسترانج، ترجمة: بشير فرنسيس، 215).

6 - تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 284، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 136، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 661.

إن الرُّومي كان يُحقِّق انتصارات، ويستولي على حُصُون، في ظلِّ وضع مثالي من الفوضى في الجزيرة، وتضارب المصالح، التي صبَّتْ كُلُّها ضمن سياسته التوسُّعية في الجزيرة، كما كان يُدرك ـ تماماً ـ ضعف الملك الأشرف عن مُواجهته، وخاصَّة بعد أن توزَّعت قُوَّاته ما بين الجزيرة؛ حيثُ ثبَّت هُجُوم الخوارزمي قُوَّاتِ الملك الأشرف في خِلاط، وبين حماية حمص وحماة من هُجُوم الملك المُعظَّم عليهما[1].

بينما نجد أن الخوارزمي قد قبل لأنَّه واجه مصاعب كبيرة في خِلاط، فرغم دُخُوله ربض البلدة، فقد واجهتْهُ مُقاومة عنيفة، كلَّفتْهُ خسائر كبيرة، هُو في غنى عنها[2]، كما أنَّه كان غير مُطمئنٍّ لخُطُوطه الخلفية، فخلفه التَّتار في الشَّرق،وهُو يُريد أن يتفرَّغ لهم بأقصى سُرعة، لذلك؛ اغتنم طلب الملك المُعظَّم، ورحل ببعض الكرامة من أمام خِلاط.

نتيجة لتعقُّد الوضع السِّياسي والعسكري في شمال الشَّام اتَّفق الملك الأشرف والملك المُعظَّم على اللقاء، وأن "يرحل كُلٌّ منهما عن الموضع الذي يُحاصره"، فالتقيا في القريتَيْن، وسار الملك الأشرف مع الملك المُعظَّم حتَّى دخلا دمشق[3].

ويبدو من هذه الأحداث وتطوُّراتها أن الملك الأشرف هُو صاحب فكرة الاجتماع " قصداً لقطع مادَّة الشَّرِّ "[4]، وهُو الذي سار إلى الملك المُعظَّم، وذهب معه إلى عاصمته دمشق، وأظهر الملكُ المُعظَّمُ السرورَ بذلك، وزيَّن البلد[5]، ولكنْ؛ هل هُو مسرور بلقاء أخيه؟ أم بحُصُوله عليه كالأسير بأيسر الطُّرُق؟ " فحاله في الباطن بخلاف ما أظهر، والرُّسُل مُتردِّدة بينه وبين خوارزم شاه ..... وصار بينهما اتِّحاد كُلِّيٌّ"[6]، وفي عام 623 هـ 1226م "كان الملك الأشرف في دمشق كالأسير...

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 179.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 461.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 125، ـ القريتَيْن: بلدة في البادية جنوب شرقي حمص.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 179.

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 179.

6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 179.

فوردت الأخبار بنُزُول خوارزم شاه على خِلاط، ومُحاصرتها... فوافق الملكُ الأشرفُ أخاه على ما طلبه منه" [1]، فأطلقه، وعاد الملك الأشرف للجزيرة.

المرحلة الرابعة:

بدأت بوفاة المُعظَّم عام 624 هـ 1227م، وأَخْذ الأشرف دمشق، وتسليمه بعض مُدُن الجزيرة للكامل عام 626 هـ 1229م. لم يكن النَّاصر داود بن المُعظَّم يملك مُؤهِّلات والده، فبعد أن خلفه في حُكْم مملكة دمشق، عرض عليه الأشرف الانضمام إلى حلف الشَّام ضدَّ الكامل، فأبى، وانحاز إلى الكامل[2]. لكنَّ الكامل كشف سريعاً عن أطماعه بدمشق، وسار نحوها عام 625 هـ 1228م، فاستنجد داود بعمِّه الأشرف، فسارع إليه مع المُجاهد، ولكنَّهما بدل دُخُول دمشق، أو الإقامة حولها للدفاع عنها، التقيا الكامل، وعقدا مؤتمر العوجا، الذي تقرَّر فيه نزع دمشق من داود، وتسليمها للأشرف، مُقابل تسليم الأشرف للكامل عدَّة بُلدان في الجزيرة، منها: الرقَّة، والرُّهَا، وغيرها[3].

وتمتاز هذه المرحلة بنزوع الأشرف إلى حياة الترف والدعة بدمشق، وتحوُّل القُوَّة الكُبْرَى في الجزيرة من الأشرف إلى الكامل، الذي كانت مُشكلته مع الجزيرة هي مُشكلة المسافة والبُعْد عنها، وغالباً ما كانت تسبقه الأحداث إليها.

وكان الكامل قد أرسل إلى فريدريك يعده بالقُدْس إن حضر لنصرته ضدَّ أخيه الملك المُعظَّم، ولكن أيَّام الملك المُعظَّم لم تطلْ، فقد تُوفِّي عام 624 هـ 1227م، وخلفه ولده النَّاصر داود في دمشق، ممَّا سهل مهمَّة الملك الأشرف والكامل في أَخْذ مملكته. ففي سنة 625 هـ 1228م، تحرَّك الكامل من مصر "وأرسل داود يستدعي الملك الأشرف من بلاده الشَّرْقيَّة... ودخل الملكُ الأشرفُ دمشقَ، فأُعجب بها، وعمل في الباطن على انتزاعها لنفسه"[4]، بينما وثق داود بالملك الأشرف، "لمَّا خدعه بعذوبة لسانه، فَسَيَّره إلى الملك الكامل، معتمداً في إصلاح أُمُوره عليه، فلم يألُ جهداً أن ساق

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 661.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 125.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 479.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 350.

الحصار"[1]. ورُبَّما كان الأمر قد تقرَّر مُسبقاً بين الملك الأشرف والكامل، وأرادا تطبيقه ضدَّ الملك المُعظَّم، فلمَّا مات، طبَّقاه ضدَّ ابنه داود، فأخذا منه دمشقَ، ونَفَّذا الاتِّفاق.

وفي عام 626 هـ 1229م، تسلَّم الملكُ الأشرفُ دمشقَ، وأعطى للكامل - عوضاً عنها - حَرَّان، والرُّهَا، ورأس عين، والرقَّة، والموزر، وبذلك؛ دخل الكاملُ عالمَ الجزيرة الشَّاميَّة من أوسع أبوابه، وأصبح القُوَّة السِّياسيَّة والعسكريَّة الأكبر في البلاد الجزرية، بعد أن تخلَّى الملك الأشرف له عن مواقعه بها. ويبدو أن الملك الأشرف "اقتنع بدمشق، واشتغل باللهو والملاذ"[2]، وأهمل أُمُور الجزيرة، ولكن الغريب في الأمر أنَّه - في الوقت نفسه - أخذ موقع زلبيا من أخيه الحافظ، وأمر بعمارة قلعة فيه[3]. فهل هي مُحاولة من الملك الأشرف لإثبات الوُجُود في الجزيرة؟!

كان أوَّل مَنْ أسفر عن مطامعه في الجزيرة بعد تبدُّل الأوضاع فيها هُو جلال الدِّين الخوارزمي، فقد هاجم خِلاط، وحاصرها، وحالف الخوارزميَّ، وأنجده، وهُو على حصار خِلاط، كُلّ من صاحب سرماري، وصاحب أرزن الرُّوم[4]. وطال حصار الخوارزمي لِخلاط دُون أن يتحرَّك الملك الأشرف لنجدتها، رُبَّما لأنَّه مشغول بتقرير أمر دمشق، وتأمين ما حولها، ففي الوقت الذي كان فيه الخوارزمي يُحاصر خِلاط كان الملك الأشرف يُحاصر بعلبك[5]، أو - رُبَّما - لأنَّه يعرف مُسبقاً أن لا طاقة له بالخوارزمي دُون تحالف قوي يدعمه، وهذا التحالف لم يتمكَّن من تحقيقه بسُرعة، وإلَّا فكيف نُفسِّر تخلِّيه عن خِلاط المدينة الغنية ذات الموقع الاستراتيجي؟!

وفي عام 627 هـ 1230م، تمكَّن خوارزم شاه من دُخُول خِلاط بخيانة من القائد المُكلَّف بحراسة أحد الأبواب[6]، ولحنقه من المُقاومة الشرسة التي واجهته "فعل بأهلها ما يفعله التَّتَر"[7]، "فقتل كُلَّ مَنْ وجد في البلد، وسبى عسكرُهُ الحريمَ، وباعوا الأولاد كما يُفعَل بالكَفَرَة"[8].

---

1 - الفوائد الجلية، الأمجد حسين بن داود، 219.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 147.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 189، حوادث عام 626/ هـ.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 83.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 189.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 294.
7 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 146.
8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 294.

"وبلغ الملك الأشرف أَخْذ الخوارزمي خِلاط، وهُو بدمشق، فخرج على وجهه، حتَّى أتـى الرقَّـة"، "ثُمَّ سار إلى حَرَّان، وكتب إلى حلب والمَوصل والجزيرة، فجاءته العساكر، ورحل يُريـد الـرُّوم"[1]، ويبدو أن هذا الدُّخُول القوي لخوارزم شاه إلى مسرح الجزيـرة قـد أزعـج كَيْقُبـاذ سُـلطان سـلاجقة الرُّوم، فخلاط مفتاح بلاده[2]. ورُبَّما بسعي من كَيْقُبَاذ ورغبة من الملك الأشرف جَمَعَا جيـشاهما، بعـد أن وحَّـد الخطـر المُشترك بيـنهما[3]، وتمكَّنـا مـن هزيمـة جـلال الـدِّين، واسـترجع الملـك الأشرف خِلاط[4]عام 628 هـ 1231م "وهي خراب يباب، ثُـمَّ وقعت المُراسـلة بيـنهم، وتحـالفوا عـلى مـا بأيديهم، ولا يتعرَّض أحدهم لما بيد الآخر"[5].

ومع أن الكامل كان في الرقَّة فإنَّه لم يُشارك في الحَرْب مع الملك الأشرف ضدَّ الخوارزمي، فهل ذلك لمُجرَّد أن خِلاط من أملاك الملك الأشرف؟ وكأن خطر الخوارزمي لن يتعدَّى خِلاط إلى مُمتلكاته في الجزيرة، فقد "رجع الكامل قاصداً مصر"[6]، بلا مُبالاة، وكأن أمر الجزيرة لا يعنيه أبداً.

وبعد استرجاع خِلاط، وكفّ شرّ الخوارزمي بالاتِّفاق معـه، والحلـف القـديم مـع الرُّومـي، وجد الملك الأشرف أن الوقت قد صفا له، فتخلَّى عـن الجزيـرة ومـشاكلها للكامـل، وتفـرَّغ للهـوه وملذَّاته بدمشق[7]، مُفسحاً المجال لأخيه الكامل للتحرُّك في الشَّام والجزيرة، ومُحاولة تحقيق مشروعه الكبير بضَمِّ الشَّام إلى مصر، وتشكيل مملكة واحدة منهما تحت حُكْمه.

---

1 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7 / 299.

2 - The Encyclopedia of Islam, vol: IV, p 817

3 - Pre Ottoman, Clud Cahen, p 128

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 299، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 159.

5 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 147.

6 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 299.

7 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 147.

المبحث الثّالث

الملك الكامل في الجزيرة

انقسم عهد السُّلطان الكامل في الجزيرة الشَّاميّة إلى قسمَيْن:

1 . مرحلة الوفاق الأيُّوبي والاعتراف بسلطنة الكامل:

بعد أن أخذ الكامل دمشق عام 626 هـ 1229 م، من ابن أخيه النَّاصر داود، سلَّمها لأخيه الأشرف، الذي أعطاه بدلاً عنها عدَّة مناطق في الجزيرة، منها: حَرَّان، والرقَّة، والرُّهَا، وسروج، ورأس عين، وجملين، والموزر[1].

"وبقي للأشرف من البلاد الشَّرقيَّة: نصيبين، وسنجار، والخابور، وبلاد خِلاط. وكانت مَيَّافارقين بيد المُظفَّر شهاب الدِّين غازي أخيهما، وجعبر بيد أخيهما الآخر الحافظ أرسلان شاه"[2]. وَسَيَّرَ الكاملُ شمسَ الدِّين صوابَ الخادمَ[3]، وفخرَ الدِّين بن شيخ الشُّيُوخ إلى الجزيرة، يتسلَّمانها من الملك الحافظ، ومن بدر الدِّين قابيا[4]، وكانا ينوبان عن الأشرف فيها.

ولم تمتدّ مُمتلكات الكامل من مصر حتَّى الجزيرة وحسب، بل اعترف به جميع مُلُوك بني أيُّوب سُلطاناً أعظم عليهم، ومرجعاً للبيت الأيُّوبي دُون أن يخرج أيٌّ منهم عن طاعته، وتحقَّق بذلك القسم الأوَّل من مشروع الكامل، وهُو ضَمُّ الشَّام إلى مصر تحت حُكْمه، وهذا الحُلم كان يراود كُلَّ مَنْ شعر بتفوُّقه من مُلُوك بني أيُّوب.

ولتحقيق كامل المشروع تحرَّك الكامل بقُوَّاته من مصر عام 629 هـ 1231م، بعد أن مهَّد لنجاح مشروعه بسلسلة من المُصاهرات، ربط بها مَنْ يخشى معارضتهم من المُلُوك الأيُّوبيَّة، فقد زوَّج ابنتَهُ فاطمة خاتون من الملك العزيز صاحب حلب[5]، كما زوَّج الكاملُ ابنتَهُ الأُخرى غازية خاتون

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 257.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 257.
3 - الخادم شمس الدِّين صواب العادلي، من كبار مماليك السُّلطان العادل، تُوفِّي عام: 632 هـ 1243م (النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 287).
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 177.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 160.

من الملك المُظفَّر صاحب حماة، وفي طريقه مرَّ بالكرك، فعقد لصاحبها ابن أخيه النَّاصر داود بن المُعظَّم على ابنته الثَّالثة عاشورا خاتون. وغطَّى الكامل تحرُّكه العسكري بإظهار هدف يُمكن قبوله في الشَّام، ويُسوّغ به خُرُوجه بهذه القُوَّة، فقد أعلن أنَّه يُريد انتزاع آمد[1] من يد ملكها المسعود بن الصَّالح محمود.

وكانت آمد مع قُوَّة حُصُونها لا تستحقُّ هذا الجمع العسكري الهائل الذي وصل مع الكامل، والذي قال عنه ابن واصل في أحداث عام 631 هـ 1234م، ما يلي: "شاهدت من العساكر وكثرتها ما غلب على ظني إنَّه لم يجتمع مثله في الأعصار القريبة منَّا لملك من المُلُوك"[2].

وأثبت صاحب آمد في المحنة التي تعرَّض لها مع الكامل أنَّه غير جدير، لا بالحُكْم، ولا بالقيادة، فمع سماعه بتوجُّه مُلُوك بني أيُّوب مُجتمعين مع الكامل ضدَّه، وعزمهم على خلعه، أرسل وزيره شرف العلاء بهدايا للكامل والأشرف في حَرَّان، فاعتُقِل الوزير، والمسعود صاحب آمد لا يحترز، ولا يستعدّ[3].

وينتقد ابن نظيف تصرُّف صاحب آمد الذي لم يُقدِّر حجم الخطر القادم نحوه، فقد أرسل رسولاً إلى الملك المُجاهد ليتوسَّط له عند الكامل، "ولم يبذل إلَّا ذهباً، ولا طلب بعض البلاد، ولا نزل عن شيء . . ولم يزل في قلَّة عقله"[4].

وحاصر الكاملُ مدينةَ آمد بقُوَّات هائلة الحجم والفعَّالية، وهاجمتْهَا العساكر، ونقبت الأسوار، فطلب أهلُهَا الأمان، فأجابهم الكامل[5]. ونزل صاحبها إلى الكامل، فاعتقله وسجنه في حصن كيفا[6].

1- تنبع أهمِّيَّة آمد من كونها محطَّة تجارية بالغة الأهمِّيَّة بين ثلاث دُول: السَّلطنة الأيُّوبيَّة في الجزيرة والشَّام، وسلطنة سلاجقة الرزم في الأناضول، ومملكة أرمينيا الصُّغرَى في كيليكيا. ـ راجعْ: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 460، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 10 / 44.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 74.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 236.

4 - المنصُوري، ابن نظيف، 237.

5 - المنصُوري، ابن نظيف، 237.

6 - ابن دقماق، نُزهة الأنام، أحداث عام 623 هـ مخطوط (المنصُوري، ابن نظيف، 238 ـ 244).

وسلَّم الكاملُ آمدَ لابنه الصَّالح أيُّوب ليكون نائباً عنه فيها[1]، "ورتَّب معه الطواشي شمس الدِّين صواب العادلي، لأنَّه كان من أكبر الخدم العادلية، وأوثقهم عنده، وجعل إليه النقض والإبرام في جميع الأُمُور، والملك الصَّالح معه صُورة"[2]، وقصد ـ بذلك ـ إبعاد أيُّوب عن القاهرة، حيثُ ترك الكاملُ ابنَهُ الآخر العادل نائباً فيها، ووَليّاً للعهد. وتابع الكاملُ تسلُّمَ القلاع حول آمد3، فصبح بمُواجهة مُباشرة مع سُلطان سلاجقة الرُّوم علاء الدِّين كَيْقُبَاذ بن كيخسرو، وكان الصدام بينهما لا يحتاج لأكثر ممَّا هُو قائم فعلاً، فالحُدُود المُشتركة بينهما طويلة ومتداخلة، وفي الحقيقة؛ لم تكن هُناك حُدُود واضحة المعالم، وبالتَّأكيد؛ كان كُلٌّ منهما يُفسِّر هذا الوضع لصالحه، إنْ لم نقل إنَّ كُلاً منهما كانت لديه رغبة كبيرة لتعديلها لصالحه، وتبيَّن أن لكُلٍّ منهما مشاريعه الخاصَّة في مملكة الآخر، فالرُّومي كان لا يخفي اهتمامه بالسيطرة على مناطق الفُرات شريان الحياة بين الجزيرة والشَّام، والكامل تكشَّفت مُخطَّطاته لاحتلال بلاد الرُّوم بسُرعة[4].

وكانت المُبادرة الأُولى من كَيْقُبَاذ، الذي اغتنم فُرصة هُجُوم الكامل، وقام باحتلال عدَّة قلاع كانت تتبع لآمد، منها: كركر، وكرفازاك، والسويداء، شراءاً من مُتسلِّميها، فتضاعفت نقمة الكامل على الرُّومي، الذي أحنقه ـ أيضاً ـ بمنعه التُّركمان عن القُدُوم لبيع الميرة لعسكره[5].

وهُنا؛ يُقرِّر الكامل تنفيذ الجُزء الثَّاني من مشروعه الكبير، والهُجُوم على دولة سلاجقة الرُّوم واحتلالها، لنقل إقطاعات مُلُوك الشَّام الأيُّوبيَّة إليها، وضمّ الشَّام ـ بشكل كامل ـ إلى مصر بدولة واحدة، وملك واحد. لكنْ؛ يبدو أن حسابات الكامل كانت غير دقيقة، فإمَّا أنَّه قد بالغ في ثقته بنفسه، بالسيطرة الكاملة على المُلُوك الأيُّوبيَّة، الذين رُبَّما خدعه منهم التفافهم حوله، وتنفيذهم لأوامره، أو سُوء تقديره لقُوَّة خصمه الرُّومي، وبالأخصّ؛ لطبيعة بلاده، وحصانتها، واتِّساعها. ومع أن كُلَّ مُلُوك بني أيُّوب قاطبة كانوا مع عساكرهم في خدمته، ولم يتخلَّف منهم سوى العزيز بن

---

1 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 18، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 160.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 34.
3 - قلاع آمد هي: الجبابرة ـ أكل ـ كركر ـ حصن كيفا ـ كرفازاك ـ قلعة نجم ـ الهيثم ـ باتاسا ـ الجديدة ـ القرشية. (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 17 و4/ 277).
4 - راجعْ: السياسة الأمنية للسُّلطان السلجوقي علاء الدِّين قيقباذ، نورة باذياب، مجلَّة المُؤرِّخ العَرَبي، 1 / 2.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 240 ـ 242.

الظَّاهر غازي صاحب حلب، وذلك لتحالفه وعلاقته المُميَّزة وجيرتـه بحُـدُود مُـشتركة طويلـة مـع صاحب الرُّوم، ومع ذلك؛ فقد أرسل قطعة من عسكره نجدة للكامل [1].

وكذلك تخلَّف صاحب بانياس، فقد تُوفِّي العزيز بن العادل صاحبها عـام 630 هـ ـ 1233م، وخلفه ولده الظَّاهر، ثُمَّ مالبث أن تُوفِّي، فخلفه أخوه السعيد ابن العزيز،وهُو طفل [2].

وحضر مع السُّلطان الملك الكامل أخوه الملك الأشرف، فقد كانت هذه الحَرْب بالاتِّفاق معه أوَّلاً، ولتعرُّض الرُّومي لمدينة خِلاط وهي للأشرف. وكذلك كان معه الملك النَّاصر داود بـن المُعظَّم صاحب الكَرَك، والملك المُجاهد صاحب حمص، والملك المُظفَّر صاحب حماة، كذلك كان مع الكامل كُلٌّ من إخوته: الملك الصَّالح عماد الدِّين إسماعيل، والملك الحافظ أرسلان شاه صاحب قلعة جعـبر، والملك المُظفَّر شهاب الدِّين غازي صاحب مَيَّافارقين، وكذلك كان مـع الكامـل الملـك الزاهـر مجد الدِّين بن السُّلطان صلاح الدِّين صاحب البيرة، وأخوه الملـك المُفـضَّل مُوسـى صـاحب سُمَيساط، وابن أخيهما الملك الصَّالح أحمد بن الظَّاهر صاحب عين تـاب، وغـيرهم، حتَّـى قيـل: "إنَّـه كـان في مُعسكر الكامل ستَّة عشر دهليزاً لستَّة عشر ملكاً" [3].

2. مرحلة الانقسام الأيُّوبي، وحلف الشَّام ضدَّ السُّلطان الكامل:

لكنَّ كُلَّ ذلك لم يغن الكامل شيئاً، فيروي لنا الأمجد حسن بن الملك النَّـاصر داود مـا حـصل بين المُلُوك الأيُّوبيَّة، يقول: "إلَّا أن الكامل ـ فيما بلغني ـ كان قد تفـوَّه بـها وغـر صـدور أهلـه عليـه، وسدَّد سهامهم بالتخاذل إليه، وذلك إنَّه قال: أريد أن أجعل البلاد سفقتَيْن، فأضمّ الـشَّام إلى مـصر، وأُعوِّض مُلُوكه في الرُّوم، فحَذِر كُلّ منهم مُفارقة إلفه، وخشي أن يكون في مناصرتـه كالباحـث عـن حتفه بظلفه. فخَبِرت أن المُجاهد انتصب لهذه القضية، فكان ابـن بجـدتها وشـيخ نجـدتها، فـاجتمع بوالدي وبالملك الأشرف وجماعة من المُلُوك مُقدَّمي النُّجُد، فحذرهم عاقبة التغرير، وقـرَّر معهـم أن الحزم كُلَّ الحزم في التلكُّؤ والتقصير. . فتنسَّم الملكُ الكاملُ الأخبارَ، وطار تخيُّله منهم كُلَّ مطار" [4].

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 75.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 76.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 75 ـ 76.

4 - الفوائد الجلية، الأمجد حسن بن داود، 218.

ويروي المقريزي الواقعة نفسها، فيقول: "واتَّفق نفور بني أيُّوب من الملك الكامل، سبب أنَّه حفظ عنه أنَّه قال لخواصِّه: إنْ صار لنا مُلك الرُّوم نُعوِّض مُلُوك الشَّام والشرق مملكة الرُّوم بدل ما بأيديهم، ونجعل الشَّام والشرق مضافاً إلى ملك مصر. فحَذَّر من ذلك المُجاهد، وأعلم به الأشرف، وأحضر بني عمِّه وأقاربه، وأعلمهم ذلك، فاتَّفقوا على الملك الكامل، وكتبوا إلى السُّلطان علاء الدِّين بالميل معه، وخذلان الكامل، وسيَّروا الكُتُبَ بذلك، فاتَّفق وُقُوعها في يد الملك الكامل، فَكَتَمَهَا، ورحل راجعاً"[1].

ونستنتج من النصَّيْن السابقَيْن أن:

1 ـ اتِّفاق النُّصُوص على أن الكامل صرَّح عن مشروعه بضمِّ الجزيرة والشَّام إلى مصر.

2 ـ أنَّه يُريد تعويض المُلُوك من آل بيته بدل ممالكهم في الجزيرة والشَّام بممالك وإقطاعات في بلاد الرُّوم.

3 ـ الملك المُجاهد هُو مَنْ قام بإبلاغ المُلُوك الأيُّوبيَّة بمشروع الكامل.

4 ـ مُوافقة جميع المُلُوك الأيُّوبيَّة على التحالف ضدَّ الكامل ما عدا الملك المُظفَّر صاحب حماة، الذي انتظم في حلفهم ظاهراً، وكان في باطنه مع الكامل[2]. وكان لدى بعضهم دوافع ومبرِّرات للوُقُوف في وجه السُّلطان الكامل، فمثلاً:

أ ـ الملك النَّاصر داود كان ينقم على الجميع سلب دمشق منه، وقد جاءته فُرصة مُواتية للانتقام من مُلُوك بني أيُّوب، فعمل على تفريق كلمتهم.

ب ـ الملك الأشرف كان قد طلب من الكامل الرقَّة لنقص موارده، فلم يجبه، وتَقَوَّل كُلٌّ منهما على الآخر، فحملها الأشرف على الكامل[3].

أمَّا الآخرون؛ فلا مبرِّرات لهم، خاصَّة شيخهم ومُحرِّكهم الفاعل الملك المُجاهد، فقد حصل من الكامل على سلمية، وهي حُلمه القديم.

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 369.
2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 316.
3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 316.

5 ـ الدور الفعَّال للملك للمُجاهد[1] في هذه القضية، الذي تتَّضح لنا أهمِّيَّته من خلال التساؤلات التي تنشأ عن الخبر الذي نقله، وهي:

أ ـ هل قال الكامل ذلك القول فعلاً ؟ عندها نستنتج أن المُجاهد قد وضع الكامل تحت مراقبته الشديدة، وأن له عُيُوناً وآذاناً في حاشية الكامل، وذلك انطلاقاً من طبيعة تكوين المُجاهد، الذي اعتاد الحذر والشكّ.

ب ـ قد يكون الكامل لم يقلْ ذلك الكلام، وهذا احتمال وارد، فالمُجاهد وحده هُو مصدر الحديث، عندها يُمكن أن نقول إن المُجاهد قد اختلق الحكاية بكاملها لضرب الكامل، الذي تزايدت قُوَّته لحَدِّ الخطر، وبات مُتحكِّماً في مُلُوك الشَّام.

لكنَّ قبول مُلُوك البيت الأيُّوبي لأقوال المُجاهد فوراً وبلا مناقشة، وفيهم أخوة الكامل، يدلُّ إمَّا على الثقة الزائدة بالمُجاهد، وهذا احتمال ضعيف فيما بين أفراد البيت، الذين اعتادوا عدم الثقة بأحد، وخاصَّة الأقرباء، أو على أن نيَّاتهم جميعاً كانت مُتَّفقة على التخوُّف من الكامل وقُوَّته.

ولدينا رواية تُؤكِّد هذا الاحتمال، وتُبيِّن أن المُجاهد قد توقَّع ذلك، دُون أن ينسبه للكامل، فقد ذُكر أن المُجاهد قال للأشرف: "إنْ حَكَمَ الكامل على الرُّوم أخذ جميع ما بأيدينا"[2]، أو أنَّه قال له: "متى أخذ الرُّوم تعبنا به، وبقينا بين يدَيْه يُقلِّبنا كيف شاء"[3].

6 ـ علم السُّلطان الكامل باتِّفاق المُلُوك عليه مُباشرة، إنْ كان بوُقُوع الكُتُب بين يدَيْه، وهذا احتمال ضعيف، أو بواسطة عُيُونه في بلاطات مُلُوك آل بيته، فهذا يدلُّ على تبادل عدم الثقة بينهم، ووضع العُيُون والجواسيس لتنسُّم الأخبار خشية الغدر.

توقَّف السُّلطان الكامل على النهر الأزرق في أوائل بلد الرُّوم أمام الدربند، وبدأت المصاعب تواجهه، ومنها:

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 158.

2 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 282.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 122، وكنز الدُّرّ، ابن آيبك، 7/ 318.

1 ـ وجد أن الرُّومي قد سدَّ في وجهه الدربند، وهُو الممرُّ الوحيد لبلاد الرُّوم، بالتحصينات والحراسة المُحكمة.

2 ـ أُجبر على أن يعسكر في رُقعة ضيِّقة من الأرض، ممَّا أدَّى إلى "قلَّة الأقوات في عسكر الكامل"، وارتفعت الأسعار، فكان الجُندي مُضطرّاً لأن يصرف أكثر ممَّا يكسب، وبالتَّالي؛ يبدأ بالتذمُّر، وإثارة الفوضى.

3 ـ أحسَّ السُّلطان الكامل بتخاذل مُلوك الأيُّوبيَّة من حوله، وهذا مُثير للرُّعب؛ حيثُ يُمكن أن يُؤتَى من مأمنه، ويُمكن لإخوته وأبناء عمومته أن يكونوا أكبر خطراً من الأعداء عليه.

ويبدو أن السُّلطان الكامل قد شعر باختلاط الأوراق، بعد علمه بانتشار إشاعة نقل المُلُوك الأيُّوبيَّة إلى أرض الرُّوم بعد أَخْذها، وأيقن أن مشروعه بات في مهبِّ الريح، فقرَّر العمل بسُرعة، فرحل نحو أطراف بَهَسْنَا. وجاءته مشورة صاحب خرتبرت كَحَلٍّ مُنقذ عندما عرض عليه دُخُول بلد الرُّوم من جهة بلده، ويبدو أن الكامل ـ بعد أن أصبحت لديه معطيات جديدة حول فساد نيَّة مَنْ معه من المُلُوك ـ لم يعد قادراً على المُجازفة ودُخُول بلاد الرُّوم بنفسه، كذلك لم يردْ أن يُرسل أيّاً من المُلُوك غير الموثوق بولائهم له، بمَنْ فيهم إخوته، ونظراً لثقته بالمُظفَّر صاحب حماة، فقد أمره بالتحرُّك مع ميمنة الجيش إلى بلد الرُّوم عبر خرتبرت، وأرسل معه مملوك والده ورجله الأوَّل شمس الدِّين صواب العادلي، ونخبة أُمراء الجيش المصري كقُوَّة مُتقدِّمة تتألَّف من خمسة وعشرين ألف فارس، وبالتَّأكيد؛ فإن السُّلطان كان ينوي أن يلحق بهذه القُوَّة ومعه كامل الجيش إذا حقَّقت النجاح.

وفي الحقيقة؛ فإن ما تمَّ هو خُطَّة عسكريَّة جيِّدة، تُؤمِّن دُخُول عمق الرُّوم بقُوَّة استطلاع قتالية، تلتفُّ خلف تحصينات الرُّومي في الدربند، وتُفاجئه، لكنْ؛ يبدو أن سُوء النيات بين القادة أدَّى إلى تسرُّب أخبار القُوَّة المُهاجمة، إن لم نقل إن الأخبار وصلت عبر كُتُب المُلُوك الأيُّوبيَّة إلى الرُّومي، مع طلبهم التحالف معه ضدَّ الكامل[1]، فقد انقضَّ اثنا عشر ألف فارس من عسكر الرُّوم على فرقة المُظفَّر، واضطرُّوهم إلى اللُّجُوء إلى قلعة خرتبرت، بعد أسر عدد كبير منهم.

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 369.

ثُمَّ وصل علاء الدِّين بقُوَّاته، وحاصر قلعة خرتبرت مُدَّة أربعة وعشرين يوماً، لم يجرؤ خلالها السُّلطان الكامل على إنجاد القلعة، أو الهُجُوم على قُوَّات الرُّومي لفكّ الحصار عن المُظفَّر، بل فضَّل السُّلطان الكامل تركَهُ لمصيره، بدلاً من أن يُغامر بمصيره هُو بين فكَّيْ كمَّاشة المتآمرين عليه، الذين "تقاعدوا عن القتال، وفسدت نيَّاتهم" من أهل بيته، وبين عدوِّه القوي الشرس علاء الدِّين كَيْقُبَاذ، "فما أمكنه التحرُّك لقتال كَيْقُبَاذ وفكّ الحصار عن المُظفَّر في خرتبرت"[1]. وكانت الخسارة الكُبْرَى لصاحب خرتبرت، فقد طلب المُظفَّر الأمان، فأُمِّن، وخرج، وتسلَّم علاءُ الدِّين القلعةَ والقلاعَ السبعة التي حولها، وأنهى حُكْمَ الفرع الأرتقي فيها[2]. وتراجع الكامل لأنَّه "لم يرَ المقارعة بأنصار قد تفرَّقت عزماتهم"[3]، ولم يستطع الكامل فعل شيء مع الملك المُجاهد المُدبِّر الحقيقي للتحرُّك ضدَّه، ولا مع الأشرف أقوى مُلُوك الشَّام، فصبَّ جام غضبه على النَّاصر داود، ويصف ذلك الأمجد بن النَّاصر داود بقوله: "ورتَّب فوات تلك المملكة على سعي والدي، فعدَّه عليه أكبر ذنب، فلمَّا فارقه من دمشق آذنه بحرب"[4]، وألزمه بطلاق ابنته عاشوراء، فطلَّقها[5].

وبدا على الساحة وكأن الأُمُور قد انعكست على سعي الكامل، الذي خرج يطلب بلاد الرُّوم ومعه كل مُلُوك بيته، فعاد، وقد انقلبوا عليه جميعاً، وأرسلوا يطلبون منه عدم الخُرُوج إلى الشَّام[6]، ولأن خيوط اللعبة السِّياسيَّة منوطة بشخص الملك في الدُّول الأيُّوبيَّة، فقد كانت تتداخل الأُمُور، وقد يحدث انهيار سياسي وعسكري بحال وفاة الملك، فلا تُوجد مُؤسَّسات سياسيَّة أو عسكريَّة تتابع نهج الملك، الذي كان كخيط السبحة الذي ينظم حبَّاتها، فإذا انقطع تبعثرت، وهذا ما حدث في الشَّام عندما تُوفِّي الملك الأشرف بدمشق عام 635 هـ 1238م[7].

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 155.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 77/ 81، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 162، وذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 131.
3 - الفوائد الجلية، الأمجد بن داود، 219.
4 - الفوائد الجلية، الأمجد بن داود، 219.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 155.
6 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 317.
7 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 165.



الفصل الثالث

العلاقات الأيُّوبيَّة مع مُلوك الأطراف

المبحث الأوَّل

العلاقات الأيُّوبيَّة مع الأرانقة

كانت الإمارة الأرتقيَّة قد انقسمت إلى فرعَيْن، الفرع الأوَّل: في آمد، ومعها حصن كيفا، وكانت السِّياسة العامَّة لهذا الفرع الأرتقي هي التَّحالف مع الأيُّوبيِّيْن. أمَّا الفرع الأرتقي الثَّاني؛ فكان في ماردين. وكانت مواقف صاحب ماردين ـ على الدّوام ـ مُناهضة للأيُّوبيِّيْن، وهُو مع أيِّ حلف يقوم ضدَّهم[1]. وكانت هُناك بعض الإمارات الأرتقيَّة الصّغيرة مثل السّويداء، ودارا، وهي غير ذات أهمِّيَّة سياسيَّة، أو قُوَّة عَسْكَريَّة.

1 ـ ماردين:

تُعدُّ ماردين من أشهر مُدُن الجزيرة، وهي "مبنيَّة على جبل كالدَّرَج، بعضه دُون بعض، ولارتفاع البلد ومساكنه لا يعلو فوقه طير، ويُرى السّحاب دُونها"[2]، وبها " قلعة مشهورة على قبَّة جبل الجزيرة، مُشرفة على دنيسر، ودارا، ونصيبين"[3].

وقد تملَّك ماردينَ سقمانُ بن أرتق في فترة صراع القادة السّلاجقة على السُّلطة في الجزيرة، وعندما تُوفِّي سقمان عام **498**هـ **1105**م، خلفه ابنه نجم الدِّين إيلغازي، الذي تُوفِّي عام **516**هـ **1122**م. وتولَّى بعده ابنه حسام الدِّين تمرتاش، وكان مُعاصراً لنُور الدِّين بن زنكي، ومُحالفاً له، فعندما فتح نُور الدِّين قلعةَ الصَّوَر، سلَّمها له. ولمَّا تُوفِّي تمرتاش عام **547**هـ **1152**م، خلفه ابنه نجم الدِّين إلبي، ومن بعده؛ تولَّى ابنه قُطب الدِّين إيلغازي، الذي تُوفِّي عام **580**هـ ، وخلفه ابنه

---

1 - الإمارات الأرتقيَّة، عماد الدِّين خليل، 170.

2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 542.

3 - مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: ماردين ـ حول وصف المدينة، راجعْ: الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 542 ـ 543.

حسام الدِّين يولق أرسلان وهُو طفل، ولصغر سنِّه كان يتولَّى تدبير دولته نظام الدِّين ألْـبَقِش، ومعـه مملوكه لُؤلُؤ.

في عام 594هـ 1198م، أرسل نظام الـدِّين الـبقش[1]، مُـدبِّر مملكـة حسام الـدِّين يولـق أرسلان بن إيلغازي بن ألبي الأرتقي صاحب ماردين، إلى العادل يستدعيه؛ ليُسلِّمه ماردين، عـلى أنْ يُعوِّضه عنها، فسار العادل بسُرعة نحوهـا، ولكـنَّ نظـام الـدِّين نـدم، ولم يـف لـه، فطلـب العـادلُ النّجدات، فوصله من العزيز في مصر ألف فارس، ومن الظّاهر في حلـب خمسمائة، فحـاصر العـادلُ ماردينَ، واستطاع الاستيلاء على المدينة، وصمدت القلعة[2].

ولوفاة العزيز المُفاجئة ترك العادل ابنه الكامل مُحاصراً قلعة مـاردين، وتوجَّـه مُـسرعاً نحـو دمشق[3]، ونتيجة لهذا الوضع؛ وقع الصُّلح بين الأفضل نُور الدِّين صاحب المَوصل وابن عمِّه عـماد الدِّين صاحب سنجار، وعزِّ الدِّين صاحب جزيرة ابن عُمر[4]، واتَّفقوا على إنجاد ماردين، وسـاروا إليها، وهزموا الكامل، الذي رحل عن ماردين، بعد أن كادت تسقط بيده[5].

ولمَّا مات حُسام الدِّين يولق، تولَّى المُلكَ أخاه الأصغر قُطـب الـدِّين أرسـلان، فقتـل نظـام الدِّين البقش ومملوكه لُؤلُؤ، وانفرد بالحُكم في ماردين، وأعمالها[6]، حتَّى تُوفِّي عام 601هـ 1205م، فتولَّى ابنه المنصور أرتق[7]. وفي سنة 636هـ 1239م، اجتمع مماليك أرتق على قَتْل سيِّدهم، فقتلـوه وهُو نائم، وولُّوا ابنه الملك السّعيد إيل غازي، وكان محبوساً في قلعة البارعيَّة[8].

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 557.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 80، و الرّوضتَيْن، أبو شامة، 2/ 234.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 95.
4 - الكامل في التَّاريخ، ابن الأثير، 12/ 148.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 102 ، و الباهر، ابن الأثير، 194.
6 - كان يتبع لماردين قلعة البارعيَّة وقلعة الصَّوَر.
7 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 555_557.
8 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 558.

2. آمد:

يقول عنها ياقوت: "آمد: بكسر الميم، ما أظنُّها إلّا لفظة رُوميَّة، بلد قديم حصين، مَبني بالحجارة السُّود على نشز، دجلة تُحيط بأكثره مُستديرة به كالهلال[1].

بعد أن استولى صلاح الدِّين على آمد، سلَّمها إلى صاحب حصن كيفا نُور الدِّين مُحمَّد بن قرا أرسلان، الذي تُوفِّي عام 581 هـ ، فأقرَّ صلاح الدِّين عليها ولده قُطب الدِّين سقمان (581 – 597 هـ 1185 - 1201م)[2]. وبعد موت صلاح الدِّين عام 589هـ 1193م، قام قُطب الدِّين بإرسال أتابكه الصّلاح قتلغ آبه إلى العادل، يطلب عهداً على آمد، ويخطب إليه ابنته، وكان خائفاً من استرجاع العادل لآمد منه، فهي من الفُتُوح الصّلاحيَّة، وقد وهبها صلاح الدِّين لأبيه نُور الدِّين، فوافق العادل[3]. ثُمَّ أخذ قُطب الدِّين يتصرَّف كالحاكم المُستقلّ، ويدخل في التّحالفات، ويسعى لتقوية مركزه.

3. حصن كيفا:

يقول عنها ياقوت: "ويُقال كيبا، وأظنُّها أرمنيَّة، وهي بلدة وقلعة عظيمة، مُشرفة على دجلة بين آمد، وجزيرة ابن عُمر من ديار بكر"[4]، وكان حصن كيفا يُضاف لِمَنْ يلي ديارَ بكر، وأكثر ما كان مُضافاً إلى آمد. وقد تملَّك سكمان بن أرتق صاحب ديار بكر حصن كيفا، وبعد وفاة سكمان؛ تولَّى الحصنَ ولدُهُ داودُ، ومن بعده؛ ابنه قرا أرسلان، ثُمَّ ولده نُور الدِّين مُحمَّد المُعاصر لنُور الدِّين بن زنكي والمُحالف له[5].

4. خَرْتَبِرْت:

بالفَتْح، ثُمَّ السُّكُون، وفَتْح التّاء، وباء مكسورة، وراء ساكنة، وهُو اسم أرمني للحصن المعروف بحصن زياد، يقع في أقصى ديار بكر من بلاد الرّوم، بينه وبين ملطية مسيرة يومَيْن، وبينهما الفُرات[6]. وهي قلعة حولها سبعة من الحُصُون، وقد أسَّس إمارة خَرْتَبِرْت الأرتقيّة عماد الدِّين أبو بكر قرا أرسلان، شقيق حاكم حصن كيفا في ذلك الوقت، وذلك في حُدُود عام 581هـ 1185م.

---

1 - مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادة: آمد.
2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 514 ـ 519.
3 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشّاملة، د. سُهيل زكّار، 13/ 142.
4 - مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادة: كيفا ، ـ وهي ـ اليوم ـ في تُركيا، راجعْ: بُلدان الخلافة الشّرقيّة، 144.
5 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 498.
6 - مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادة: خَرْتَبِرْت، و ذيل مرآة الزّمان، اليونيني، 1/ 132.

بداية العلاقات بين الأراتقة والدّولة الأيُّوبيَّة:

أثناء حملة الجزيرة عام 578هـ 1182م، راسل صلاحُ الدِّين مُلُوكها وأُمراءها، فوافقه نُور الدِّين بن مُحمَّد بن قرا أرسلان الأرتقي[1] صاحب حصن كيفا، على أنْ يُسلِّم صلاح الدِّين آمد إليه، إذا فتحها. وفي العام نفسه 578هـ 1182م، سلَّم حاكم آمد بهاء الدِّين بن نيسان البلدة إلى صلاح الدِّين، الذي وفى بوعده، وسلَّمها إلى نُور الدِّين مُحمَّد[2]، وبعد أنْ تُوفِّي؛ أقرَّ صلاح الدِّين مكانه ولده قُطب الدِّين سكمان[3]، "وذلك بعد أنْ حضر الصّلاح قتلغ أبه في عام 584هـ 1188م، وهو أتابك قُطب الدِّين، وأخذ لصاحبه مُلك ديار بكر عهداً، وقد أحضر قُضاة بلاده شُهُوداً، وخطب لصاحبه ابنة العادل، وكان خائفاً على آمد، فهي من فُتُوح السُّلطان، وهبها لأبيه نُور الدِّين بن قرا أرسلان، فأشفق من استرجاعها بعد وفاة والده، ورغب بالمُصاهرة للمُظاهرة "[4].

ولا يخفى أنَّ تدبير أتابك أمير آمد الأرتقي كان يعتمد على عدَّة أُمُور، منها: استعطاف صلاح الدِّين، وتذكيره بالعُهُود القديمة مع والد الأمير، وتوثيق عُرى التّقارب بالمُصاهرة، عن طريق طلب يد ابنة العادل للأمير، فصلاح الدِّين لا تُوجد لديه بنات أو أخوات يصلحنَ للزّواج، والعادل هُو أخوه، ومُستشاره، ووزيره.

وكذلك حرص صلاح الدِّين على توثيق الصّلة وتأكيد العُهُود، فإقراره الأمير الأرتقي على آمد هُو جُزء من سياسة الاستقرار التي انتهجها نحو الجزيرة، فهي عُمقه الاستراتيجي، وهي مصدر المُتطوِّعة للجيش، ومكان الإمداد بالجُنُود، ومصدر عظيم لموارد الدّولة.

واستمرَّت هذه السِّياسة للدّولة الأيُّوبيَّة تجاه الجزيرة حتَّى وفاة السُّلطان صلاح الدِّين، الذي كانت جُهُوده وتوجُّهاته الأساسيَّة نحو حرب الفرنج، وبعد وفاته؛ تغيَّرت استراتيجيَّة الدّولة، فقد التفت العادل لتوطيد نُفُوذه، وأخذ ما بأيدي أولاد أخيه من البُلدان، مُنطلقاً من منطقة الجزيرة، التي كانت بها إقطاعاته الكُبرى.

1- حول نسب الأراتقة راجعْ: تاريخ آمد ومَيَّافارقين، ابن الأزرق الفارقي، الموسوعة الشّاملة، د. سُهيل زَكّار، 11/ 262.

2- الكامل في التّاريخ، ابن الأثير، 11/ 484- 493.

3- الأعلاق الخطيرة، ابن شدّاد، 3/ 2/ 516.

4- الفَتح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشّاملة، د. سُهيل زَكّار، 13/ 142.

العلاقات مع ماردين:

كان أوَّل احتكاك بين الأراتقة والعادل في عام 594هـ 1198م، فقد "ورد إلى العادل كتاب النّظام مُدبِّر مملكة حسام الدِّين يولق أرسلان بن إيلغازي بن ألبي الأرتقي صاحب ماردين، يستدعيه ليُسلِّمه ماردين"[1]، فسار العادل نحوها، لكنَّ النّظام ندم، وغيَّر رأيه، وتحصَّن في ماردين، فطلب العادل النّجدات من ابن أخيه العزيز صاحب مصر، الذي أرسل له ألف فارس، ومن ابن أخيه الظّاهر صاحب حلب، الذي أرسل له خمسمائة فارس، فتمكّن العادل من احتلال ربض ماردين، وحاصر قلعتها[2]، واستولى على ولاياتها، ومُدُنها، مثل: رأس عين، ودنيسر.

وشدَّد العادلُ الحصارَ على قلعة ماردين، ولم يبقَ سوى التّسليم، فورد الخبر بوفاة العزيز صاحب مصر، وتولية أخيه الأفضل مكانه[3]، فقرَّر العادل التَّحرُّك نحو دمشق. لكنَّ ضعف القلعة الذي عاينه شجَّعه على مُتابعة حصارها ببعض جُنده مع ابنه الكامل[4]. واغتنم التّحالف الأتابكي فُرصة غياب الكامل، فوحَّدوا قُوَّات المَوصل وسنجار وجزيرة ابن عُمر، وتحرَّكوا لإنجاد ماردين، وتمكَّنوا من إجبار الكامل على فكِّ الحصار[5]، ونجت ماردين من الوُقُوع بيد العادل. ووقف في هذه الحرب أمير حصن كيفا الأرتقي على الحياد؛ إذْ لم نسمع له أيَّ نشاط سياسي، أو تحرُّك عَسْكَري.

وبعد فشل الأخوَيْن الظّاهر والأفضل أمام دمشق، وانسحابهم عنها، زاد ذلك في قُوَّة العادل، فلمّا رجع الظّاهر إلى حلب، اتَّصل بحُسام الدِّين يولق صاحب ماردين، واتَّفق معه على تشكيل حلف جزري ضدَّ العادل، لكنَّه فشل بالقيام بأيِّ عمل مُجد لاتِّفاق الفائز بن العادل مع نُور الدِّين صاحب المَوصل.

ولم ينسَ العادلُ ماردينَ، فعندما استقرَّ وَضْعه في مصر ودمشق قام في عام 599هـ 1202م بإرسال حملة عسكريَّة يقودها ولده الأشرف إلى ماردين، وطلب النّجدات من المَوصل وسنجار،

1- مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 80.

2- مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 80، و الرّوضتَيْن، أبو شامة، 2/ 234.

3- الكامل في التّاريخ، ابن الأثير، 12/ 58.

4- الباهر، ابن الأثير، 194.

5- مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 102، و الباهر، ابن الأثير، 194، و الكامل في التّاريخ، ابن الأثير، 12/ 62، والعبر، ابن خلدون، 5/ 588.

فأمدُّوا الأشرف بالعساكر، فسار إلى ماردين، وهزم عَسْكَرَهَا[1]، ثُمَّ حاصرها، ولكنَّ الحصار لم يكن فعَّالاً ،ولم يُؤدِّ إلى نتيجة، فتدخَّل الظّاهر غازي بالصُّلح بين ماردين والعادل[2]. فالظّاهر عندما لم يتمكَّن من التَّدخُّل العسكري كان يرغب ـ ضمنيَّاً ـ بعدم تملُّك العادل لماردين، حتَّى لا يزداد قُوَّة بها في الجزيرة، لذلك؛ وجد أنَّ الصُّلح في مصلحته أوَّلاً، وفي مصلحة ماردين ثانياً، فهو يضمن وُجُودها، وكذلك وجد العادل في الصُّلح مصلحة مُؤقَّتة له، وذلك لعدم تحقيق الأشرف نجاحاً عسكريَّاً في مهمَّته. ولكنْ؛ ظهر العادل بمظهر المُنتصر معنويَّاً، فقد حمل إليه صاحب ماردين، وُفقاً لبُنُود الصُّلح، مائة وخمسين ألف دينار، وخطب له ببلاده، وضرب السّكَّة باسمه، ووعد أن يكون عَسْكَرُهُ بخدمته حين الطّلب[3]. وبدا الظّاهر في تدخُّله بهذا الصُّلح كأنَّه وسيط رخيص، وليس ملكاً يتدخَّل لحلِّ الخلافات، وإقرار السِّلْم، فقد كانت أُجرته على هذه الصّفقة قرية القرادي، وعشرين ألف دينار، كما ذكر بعض المُؤرِّخين[4]، أو عشرة آلاف دينار ـ فقط ـ كما ذكر بعضهم الآخر[5].

ماردين وسياسة العداء للأيُّوبيين:

ربما لأن آمد كانت إقطاعاً من صلاح الدِّين للأراتقة؛ فقد احتفظت ـ على الدوام ـ بولائها للسِّياسة الأيُّوبيَّة العُليا، أمَّا الإمارة الأرتقيَّة الأُخرى في ماردين؛ فإنها كانت تتبع سياسة معاكسة لها، فقد كانت ـ في الأعم الأغلب ـ تتبع سياسة العداء للأيُّوبيين، حتَّى إنها كانت ـ على الدوام ـ ملجأ للأُمراء الفارِّين من الممالك الأيُّوبيَّة، وخاصَّة الخارجين منهم على الأشرف، فقد استقبل أمير ماردين الأرتقي عام **618**هـ **1221**م مُبارزَ الدِّين سنقر الصّلاحي، الذي خالف الأشرف، وخرج عن طاعته[6].

ولكن هذه السياسة العامَّة بالعداء للأيُّوبيين كانت ـ أحياناً ـ تشهد تراجعاً ملموساً، فعندما كان الملك المُعظَّم في الجزيرة عام **618**هـ **1221**م، استقبله ناصر الدِّين صاحب ماردين في قلعته،

---

1 - المُختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 80.

2 - الكامل في التَّاريخ، ابن الأثير، 12/ 179.

3 - الكامل في التَّاريخ، ابن الأثير، 12/ 179، و مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 139، و شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 213، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 103، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 161، والمنصُوري، ابن نظيف، 38.

4 - الكامل في التَّاريخ، ابن الأثير، 12/ 179، مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 139.

5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 161، و المُختصر، أبو الفداء، 3/ 103، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 213، والمنصُوري، ابن نظيف، 38.

6 - ذيل الرّوضتَيْن، أبو شامة، 134.

وزوّج كُلٌّ منهما ابنته للآخر، في زواج مُقايضة سياسي، ستبدو نتائجه بعد مُدَّة قريبة، وكان ذلك بمُباركة الأشرف، وإذنه[1].

ولكنّنا - بسُرعة - نرى ماردين تعود لعدائها التّقليدي للأيُّوبيَّة، فقد كانت أسرع الإمارات الجزريَّة بالانضمام إلى حلف علاء الدِّين الخوارزمي، ومُظفَّر الدِّين كوكبوري، الذين ضمُّوا إليهم المُعظَّم الأيُّوبي صاحب دمشق، ضدَّ الأشرف صاحب القُوَّة الأيُّوبيَّة الكُبرى في الجزيرة، وحليفه أخيه الكامل صاحب مصر، وخطب في ماردين لعلاء الدِّين الخوارزمي إشعاراً بسَلْطنته عام 623هـ 1226م، وتحدِّياً لسلطنة الكامل[2].

وفي عام 625هـ 1228م، اضطرَّ الأشرف لاستعراض قُوَّته في الجزيرة، حتَّى عاد صاحب ماردين إلى طاعته، وكدليل على شَكِّ الأشرف به، وليُبقي على الخوف في نفسه؛ رفض أن يحلف له على إقراره في بلاده، مع أن رسول الخليفة قد تدخَّل مُتوسِّطاً في هذه القضيَّة[3]. وقبل أن ينطلق الأشرف في زيارته إلى مصر، وفي العام نفسه 625هـ 1228م، أعطى أوامر واضحة لنُوَّابه في الجزيرة: أخيه الحافظ صاحب جعبر، وعزِّ الدِّين آيبك نائب خِلاط، بأنْ يلتزموا الهُدُوء والحذر مع صاحب ماردين، وأنْ لا يُهاجموه إلَّا إذا بدأهم هُو بالهُجُوم[4]، فينتهز ناصر الدِّين صاحب ماردين الفُرصة، ويشنّ الهُجُوم على أراضي حصن كيفا، فيسلب، وينهب، ويحرق[5]. ولم يكتف بذلك، بل سعى - أيضاً - لتحريض صاحب الرّوم لغزو الجزيرة وأملاك الأيُّوبيين خاصَّة، وكان الرّومي يستعدُّ لغزو أنطاكية، فأرسل له صاحب ماردين يقول: "ما لمضيّك إلى أنطاكية معنى. البلاد خالية، والأشرف عند الكامل . . . فتسيِّر إليَّ عسكراً لآخذ لكَ تلك البلاد". فقام الرّومي بالعمل وحده، دون التّعامل مع صاحب ماردين، ونفَّذ بقُوَّاته عدَّة إغارات محدودة في الجزيرة، لم تُسفر عن شيء يُذكَر، وعاد إلى بلاده[6].

---

1 - ذيل الرّوضتَيْن، أبو شامة، 128، و المُختصر، أبو الفداء، 3/ 413 ، و النُّجُوم الزّاهرة، ابن تغري بردي، 6/ 239.
2 - الكامل في التّاريخ، ابن الأثير، 12/ 187.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 159.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 163.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 163.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 165.

وفي عام 626هـ 1229م، وتحت تأثير هذا التّجاهل من الرّومي، وربما لأسباب آنيَّة أقـوى، قام صاحب ماردين بقَطْع الخطبة للرّومي في بلاده، وخطب للكامل، وضرب السّكَّة باسمه، اعترافاً بالتَبعيَّة له[1]. ويبدو أن هذا التّحوُّل عن الرّومي، وإعلان الطّاعـة للملـك الكامـل، والسير ضـمن بوتقة السِّياسة الأيُوبيَّة الشّبه مُوحَّدة تحت شعار سلطنة الكامل، استمرَّ حتى عـام 629هـ 1232م، عندما حاصرَ الكاملُ آمدَ، وفيها الفرع الأرتقي المُنافس لفرع ماردين، فبـدل دعـم صـاحب مـاردين لابن عمِّه في آمد، قام بإرسال مبعوثيه يحملون الهدايا إلى الكامل، ومعهم بعض ممَّا يحتاجه العَسْكَر في الحصار؛ كالخيَم، والأكسية[2].

وبعد فَتْح آمد عام 630هـ 1233م، قدم على الملـك الكامـل أولاد صـاحب مـاردين، ولي العهد وأخوه، للتّهنئة بالفَتْح، فأكرمهما الكامل[3]، كُلُّ ذلك يدلُّ على بهجـة حُكَّـام مـاردين بـسُقُوط آمد، فالعلاقات بينهما كانت ـ دائماً ـ سيِّئة، والتّنافس قائم، وكُلُّ إمـارة مـنهما كانـت تـسعى لـسَلْب الأُخرى بعض مناطقها[4].

ولكنْ؛ مُباشرة بعد سُقُوط آمد تعود ماردين لتبدِّل موقفها مـن الأيُوبيَّـة، وتـنقض تحالفهـا وطاعتها للكامل، وربما كان ذلك لسُوء تدبير نائب الكامل في آمد ابنه نجم الدِّين أيوب، ففـي العـام نفسه لسُقُوط آمد تحالف صاحب ماردين الملك السعيد إيلغازي نجم الدِّين مع كَيْقُبَاذ ملـك الـرّوم، وقامت قُوَّاتهما المُشتركة بالهُجُوم على حرَّان، قاعـدة الأشرف في الجزيـرة، وعـلى الرّهَـا، وعـلى الرَّقَّـة قاعدة الكامل، "وفعلا بالجزيرة ما لا تفعله التَّتَر"[5].

وفي عام 635هـ 1237م، سارعت ماردين للدُّخول في حلـف الـشّام، الـذي ضـمَّ ممالـك دمشق وحمص، وسلطنة سلاجقة الرّوم، ومملكة حلب، ضدَّ العادل بن الكامل سُلطان مـصر، لكـنْ؛ سُرعان ما انسحبت ماردين من هذا الحلف، واتَّفق صاحبها مـع الخوارزميَّـة، الـذين كـانوا يعيثـون فساداً في الجزيرة، وشاركت قُوَّات ماردين العَسْكَريَّة بهُجُوم مُشترك مع الخوارزميَّـة عـلى آمـد، التـي

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 188.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 237.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 239.
4 - الإمارات الأرتقيَّة، عماد الدِّين خليل، 187.
5 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 135.

كانت بيد السّلاجقة الرّوم، واحتلّوها[1]. كذلك هاجموا حرَّان، وفيها المُغيث بن أيُّوب، فهرب منهم إلى جعبر، فلحقوه، ونهبوا أثقاله[2]. ممَّا جعل مملكة حلب، التي كانت أكبر المُتضرِّرين من الخوارزميَّة، تتَّخذ موقفاً مُعادياً لماردين حليفة الخوارزميَّة، وقامت بخُطوة عَسْكَريَّة هامَّة، فقد تحرَّك جيش حلب عام **641**هـ **1244**م، بحملة ضدَّ ماردين، ولكنَّها انتهت بالصُّلح، وأقطع النّاصر الثاني صاحب حلب رأس عين لصاحب ماردين[3]. ويبدو أنَّ صاحب حلب آثر هذا الاتِّفاق الذي يقوم على خسارته لبعض الأراضي لشُعُوره بالخطر الأكبر القادم من الشرق.

وتأكيداً لهذا الاتِّفاق؛ قام النّاصر الثاني بإرسال النّجدات العَسْكَريَّة إلى ماردين، عندما هاجم بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل عام **646**هـ **1248**م، مُمتلكاتها في نصيبين، ودارا، ورأس عين، فقام جيش حلب باحتلال نصيبين، التي كان للمَوصل جُزء منها، وأقطعها لصاحب ماردين، فتدخَّل الخليفة، وأرسل يشفع بصاحب المَوصل لُؤلُؤ، فقبل النّاصر الشّفاعة، وترك له نصيبين، وأعطى صاحب ماردين بدلاً عنها ماكسين، والمجدل، وبعض مناطق الخابور[4]. وفي عام **657**هـ **1259**م، وبعد اكتساح التّتار للعراق، استدعى هُولاكُو الملكَ السّعيدَ صاحبَ ماردين، فاعتذر بمرضه، وأرسل ابنه المُظفَّر قرا أرسلان، ومعه هدايا كثيرة، فلم يعذره هُولاكُو، فأرسل السّعيد إلى النّاصر الثاني يعرض عليه المُشاركة في مشروع مُتكامل للتَّصدِّي للتَّتار، وحمل العرض ابن شدَّاد، وأبلغه للناصر الثاني.

قال ابن شدَّاد: "لمَّا أذن لي يشموط ـ ابن هولاكو ـ بالعودة، رحلتُ إلى ماردين، واجتمعتُ بالملك السّعيد، قال لي: أنا أُقرض صاحبكم ـ الملك النّاصر الثّاني صاحب حلب ـ ثلاثمائة ألف دينار مصريَّة، ويُسيِّر لي ثلاثة آلاف فارس، أقترحهم عليه، ويصل إلى حلب بنفسه، وله عليَّ أنْ أُرحِّل التّتر عن مَيَّافارقين، فإذا بلغتُ غرضي من ذلك، اتَّفقتُ معه على قَصْد المَوصل، وإخراجها من يد هذا

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 271.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 187، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 1/ 119.
3 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 1/ 136.
4 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 1/ 138، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 181، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 412.

المُنافق ـ بدر الدِّين لُؤلُؤ، وكان قد اتَّفق مع التَّتار ـ ، فاستحلفتْهُ على ذلك، فحلف، ولَمَّا قابلت الملك النَّاصرَ؛ عرَّفتْهُ ما أشار به صاحب ماردين، فلم يحر جواباً"[1].

وممَّا نقله ابن شدَّاد نتبيَّن رُؤية سياسية وعَسْكَريَّة تامَّة الوُضُوح لدى السّعيد ملك ماردين، ومشروعاً عَسْكَريّاً مُتكاملاً، ربما كان الأمل الوحيد لخلاص الجزيرة من وُقُوعها تحت نير التَّتار، فقد كانوا يحاصرون مَيَّافارقين، وصاحبها يُبدي بسالة خارقة في المُقاومة، أذهلت التَّتار أنفسهم، وأيّ هُجُوم عليهم يجعلهم بين نارَيْن، ويُقوِّي فُرص النصر. كما يظهر لنا أن السّعيد كان يُدرك أهمِّيَّة وُجُود النَّاصر في حلب قريباً من الميدان، وأثَر وُجُوده في تقوية النُّفُوس، وثبات الناس، ويطلب السّعيد: أنْ ينتقي هُو الفُرسان، خشية أنْ يُرسل له الناصر أغراراً، لا يصلحون للمهمَّة العظيمة. كما نجد ثقة كبيرة بالنَّفْس لدى السّعيد، فهُو يتعهَّد بترحيل التَّتار عن مَيَّافارقين، ثُمَّ يضع خُطَّة تالية لذلك؛ وهي: مُطاردة التَّتار حتَّى شمال العراق، وأخذ المَوصل من يد بدر الدِّين لُؤلُؤ عميل التَّتار. ولكن الغريب هو عدم ردّ النّاصر على هذه الاقتراحات سلباً، أو إيجاباً، ممَّا نعدُّه دليلاً على حَيْرته، وعدم استقراره على رأي بشأن التَّتار. وقاوم السّعيد ـ بجُهُوده الخاصَّة المُنفردة ـ قُوَّات التَّتار المُتدفِّقة، وقد حاصروه في ماردين عام **658هـ 1260**م، حتَّى سلَّمها لهم ولده المُظفَّر قرا أرسلان في العام التّالي **659هـ 1260**[2].

العلاقات مع آمد:

استمرَّ قُطب الدِّين سقمان بن نُور الدِّين مُحَمَّد في حُكْم آمد، حتَّى تُوفِّي عام **597**هـ ، فتولَّى أخوه الملك الصّالح ناصر الدِّين محمود[3]، الذي أرسل وزيره ضياء الدِّين بن شيخ السّلاميَّة إلى الملك العادل، في مُخيَّمه على بُحيرة قدس، ليُجدِّد العُهُود معه، ويستحلفه لصاحبه الصالح حتى يقدم عليه بنفسه[4]. واستمرَّ الصالح محمود بسياسة التّقارب مع الممالك الأيُّوبيَّة، وكانت علاقته جيِّدة جدّاً بالملك الأشرف، "وكان الأشرف بن العادل يُحبُّه"[5]، وقد زار الصّالح محمود الأشرف أكثر

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 498 ـ 499.

2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 498 ـ 499.

3 - الكامل في التَّاريخ، ابن الأثير، 12/ 170.

4 - المنصُوري، ابن نظيف، 53.

5 - ذيل الرّوضتَيْن، أبو شامة، 124، والبداية والنّهاية، ابن كثير، 13/ 93 .

من مرَّة، رغبة منه في الحفاظ على العلاقات الطَّيِّبة مع الأيُّوبيَّة عامَّة، والأشرف سُلطان الجزيرة خاصَّة. واستمرَّ الصالح بذلك، حتَّى تُوفِّي عام **619**هـ **1222**م[1].

وتولَّى حُكْم آمد من بعده ابنه الملك المسعود رُكن الدِّين مودود[2]، وخالف المسعود سياسة أبيه المُوالية للملك الأشرف، فخرج عن طاعة الأيُّوبيين، ومُحالفتهم، وانتمى إلى جلال الدِّين الخوارزمي، فحالفه، وخطب له، وأخذ المسعود بالهُجُوم على أطراف مَيَّافارقين، وفيها المُظفَّر غازي أخو الأشرف، وأعلن العداء السّافر للكامل والأشرف وحليفه علاء الدِّين الرّومي.

وفي عام **623**هـ **1226**م، اتَّفق مع المُعظَّم صاحب دمشق، ومُظفَّر الدِّين صاحب إربل، وانضمَّ لحلفهم مع الخوارزمي، مُقابل تحالف علاء الدِّين كَيْقُبَاذ والأشرف والكامل، فطلب الأشرف من علاء الدِّين مُهاجمة آمد، فسيَّر عساكره نحو بلادها، وفتح عدَّة حُصُون تابعة لآمد، فخاف المسعود، وراسل الأشرف، مُعلناً العودة إلى التّحالف معه، مُقابل أنْ يكفَّ علاء الدِّين عن بلاده، ويُعيد ما أخذ من حُصُونها. فوافق الأشرف، وراسل لعلاء الدِّين بذلك، فرفض "فأرسل الأشرف عساكره لمساعدة صاحب آمد، الذي جمع، وسار إلى عَسْكَر الرّوم وهُم يحصرون حصن ألكختين من بلاد آمد، فهُزم، وجُرح، واستولى عَسْكَرُ علاء الدِّين على ألكختين، وهي من أمنع الحُصُون[3]، ويبدو أن نجدة الأشرف للمسعود لم تكن قوية بما يكفي لهزيمة الرّومي، فمُعظم عساكر الأشرف توجَّهت نحو حمص لنجدتها ضدَّ هُجُوم المُعظَّم صاحب دمشق[4].

وفي عام **625**هـ **1228**م، قبل أن يُسيِّر الأشرف إلى الشام، أعطى تعليماته لأخيه الحافظ في جعبر، ونائبه عزّ الدِّين آيبك في خِلاط، بأنْ يُنجدوا صاحب آمد إذا هاجمه علاء الدِّين كيقباد[5].

ولمَّا استقرَّ الأشرف بدمشق، مُبتعداً عن الجزيرة ومشاكلها، يبدو أن المسعود صاحب آمد قد شعر بالراحة، وترك نفسه على سجيَّتها، فقد كان كثير الوَلَع بالنِّساء[1]، وأخذ بالتعرُّض لنساء

---

1 ـ الكامل في التّاريخ، ابن الأثير، 12/ 412 ـ وقد ذكره أبو شامة في ذيل الرّوضتَيْن ضمن وفيات عام 617، لكنّه رجَّح أنْ تكون وفاته 619هـ (ذيل الرّوضتَيْن، أبو شامة، 124).

2 - ذيل الرّوضتَيْن، أبو شامة، 124.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 202 ـ 203.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 179.

5 - المنصُوري، ابن نظيف، 163.

الرّعيَّة، حتَّى نُسب إلى الفُسق[2]، وهذا ما أعطى الكاملَ المُبرِّر لإظهار أطماعه بضمِّ آمد لأملاكه الجزريَّة، التي أخذها من الأشرف بدل دمشق. فكتب الكامل إلى الخليفة المُستنصر بالله يشكو إليه المسعود، ويُعدِّد معايبه، ويُركِّز على تعرُّضه لحريم الرّعيَّة، ويستأذنه في حصار آمد، وأخذها[3].

وفي عام 629هـ؛ تحرَّك الكامل بجُيُوشه من مصر إلى الشّام، فانضمَّ إليه الأشرف، وسارا نحو الجزيرة، فشعر الملك المسعود صاحب آمد بالخطر، وعرف أنَّه هو المقصود بهذا التَّحرُّك، فأرسل وزيره شرف العلاء مُحمَّلاً بالهدايا للكامل والأشرف، فاحتجزوه حتَّى قبل التّعامل مع الكامل ضدَّ مليكه صاحب آمد، فأخذ يُضلِّله بكُتُبه كي لا يحترز. وسار الكامل إلى آمد ومعه مُلُوك وأُمراء الأيُّوبيَّة، وتابع المسعود مساعيه السِّياسيَّة، فأرسل إلى الملك المُجاهد، وهو شيخ الأيُّوبيَّة، ليتوسَّط له عند الكامل.

وأرسل صاحب ماردين الأرتقي نجدة عَسْكَريَّة للكامل ضدَّ قريبه المسعود صاحب آمد، ولمَّا بدأ الحصار والهُجُوم على الأسوار طلب أهلها الأمان[4]، فقد كانوا مُبغضين لصاحبهم لسُوء سيرته، فتخلّوا عنه، وتمنّوا زوال مُلْكه[5]، ثُمَّ عرض المسعود التّسليم مُقابل إقطاع بمصر، فوافق الكامل، وسُلِّمت آمد وقلعتها[6]، ووصل إلى الكامل ـ وهُو على حصار آمد ـ رسول الخليفة المُستنصر حاملاً إليه التّقليد[7]، ممَّا يعني مُوافقته على أَخْذ آمد، كما وصلته هدايا صاحب ماردين الأرتقي "تقرُّباً ومُصانعة "[8]، الذي شعر بالخطر يقترب منه، فحاول التّقرُّب من الكامل، واسترضاءه. ونزل المسعود إلى مُعسكر الكامل، فأكرمه، وطلب منه تسليم القلاع الأُخرى، فكتب له إقراراً بها ما عدا حصن كيفا، "قال: ما هُو لي، ولا في حُكْمي". فتسلَّم الكاملُ بعضَ القلاع، وسيَّر قطعة من جيشه إلى حصن كيفا، وفاوض مَنْ في الحُصن، فلم يقبلوا، فضيَّق الكامل على صاحب

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 520.
2 - ذيل الرّوضتَيْن، أبو شامة، 124.
3 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 521.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 236 ـ 237.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 117.
6 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 523.
7 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 135.
8 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 243.

آمد، وعذَّبه[1]، وفي عام 630هـ 1233م، سار الأشرف إلى حصن كيفا، ومعه صاحب آمد مُقيَّداً، وطلب من النُّوَّاب تسليمه، فسلَّموه الحصن[2] بعد تعذيب المسعود أمامهم[3]. وولَّى الكامل ابنه الصالح نجم الدِّين أيُّوب على آمد وقلاعها[4]، وسار راجعاً نحو مصر، ومعه صاحب آمد؛ حيثُ أَقْطَعَهُ هُناك، وأحسن إليه[5].

ولم يطل الأمر بالملك المسعود حتَّى اعتقله الملك الكامل، وسجنه، مُدَّعياً أنَّه يتَّصل بسلاجقة الرُّوم، ويتآمر معهم ضدَّه[6]، وعندما تُوفِّي الكامل عام 635هـ 1238م، قام ابنه العادل بإطلاق سراح المسعود، فتوجَّه إلى الشام، وأقام عند صاحب حماة الملك المُظفَّر، الذي أكرمه، حتَّى انفصل عنه مُتوجِّهاً إلى الشّرق، واتَّصل هُناك بالتَّتار، فقتلوه طمعاً بما معه من المال[7]، وبسُوء تصرُّفه وسُوء أخلاقه هَدَمَ الملكُ المسعود ما بناه أجداده الأراتقة في آمد خلال قرن ونصف من الزّمان، فقد تلاشت قُوَّة حُصُون آمد وكيفا أمام تخلِّي الرّعيَّة عنه، ومُباركة الخليفة، وتصميم الكامل[8].

وتحوَّلت آمد إلى ولاية أيُّوبيَّة، تُحكَم مباشرة هي وقلاعها من قبَل نجم الدِّين أيُّوب ابن السُّلطان الكامل، وبعد وفاة والده عام 635هـ 1238م، استقلَّ أيُّوب بإمارة ماردين والبلاد الجزريَّة، التي كانت لوالد الكامل حتَّى عام 636هـ1239م؛ حيثُ بادل ابن عمّه الجواد، فأخذ منه دمشق مقابل الرّقَّة وسنجار وعانة، فترك أيُّوب الجزيرة، وتوجَّه إلى دمشق[9]، وجعل ابنه المُعظَّم تُورانشاه نائباً عنه في آمد وكيفا.

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 241.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 246 ـ 247.
3 - المُختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 145.
4 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 224، والمنصُوري، ابن نظيف، 244 ، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 159.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 17، والنُّجُوم الزّاهرة، ابن تغري بردي، 6/ 250 ـ وينفرد ابن نظيف بالقول: "سار صاحب آمد إلى دمشق، وشرى داراً وبُستاناً". (المنصُوري، ابن نظيف، 244)، ويبدو أنَّه وَهم في هذا، أو أنَّه فعل ذلك أوَّلاً، ثُمَّ سار إلى مصر.
6 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 265 ، والنُّجُوم الزّاهرة، ابن تغري بردي، 6/ 250.
7 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 159، وذيل الرّوضتَيْن، أبو شامة، 124، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 17.
8 - الإمارات الأرتقيَّة، عماد الدِّين خليل، 186.
9 - زُبدة الحَلَب، ابن العديم، 498.

وعندما شعر كيخسرو سُلطان سلاجقة الرّوم بالظُّرُوف المُلائمة لتوسُّعه تحرَّكَ صوب آمد، واحتلَّ بعض قلاعها، وحاصرها، وكان بها المُعظَّم تُورانشاه، الذي جاءته نجدة الخوارزميَّة بعد إيقاعهم بصاحب المَوصل بدر الدِّين لُؤلُؤ، وبعد مُناوشات مع عَسْكَر الرّوم اضطرُّوهم للانسحاب عن آمد[1].

لخوارزميَّة عنه، عاد غياث الدِّين كيخسرو إلى حصار آمد، وشدَّد الضّغط عليها، فتركها تُورانشاه، وتوجَّه إلى حصن كيفا، فسقطت المدينة بيد كيخسرو، ودخلتْها عساكر سلاجقة الرّوم[2]. وأقام المُعظَّم تُورانشاه في حصن كيفا، حتَّى خرج منه إلى سلطنة مصر بعد وفاة والده أيُّوب عام 647هـ 1249م، واستناب في حصن كيفا ولده الملك الأوحد عبد الله ابن تُورانشاه.

ولمَّا دخل التّتَار إلى الجزيرة جاء الأوحد إلى هُولاكُو، وقدَّم له هديَّة، فأبقى عليه الحصنَ[3]. واستمرَّت آمد بيد سلاجقة الرّوم حتَّى سنة 655هـ 1257م؛ حيثُ قصدها ناصر الدِّين مُحمَّد بن المُظفَّر صاحب مَيَّافارقين، لعلمه بمُكاتبة بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل لأهلها من أجل تسليمها له، فكتب ناصر الدِّين إلى الملك السّعيد صاحب ماردين، وشرح له الموقف، وطلب نجدته، فأجابه. فتقدَّمت عساكر مَيَّافارقين إلى آمد، وهزموا عَسْكَرَ الرّوم بها، واستولوا عليها[4].

وفي عام 657هـ 1259م، نزل هُولاكُو أمام آمد، وطلب من سيف الدِّين بن علي نائب الكامل صاحب مَيَّافارقين في آمد أنْ يُسلِّمها له، فوافق، وقام هُولاكُو بتسليمها إلى عزِّ الدِّين وأخيه رُكن الدِّين ابنَيْ غياث الدِّين سُلطان سلاجقة الرّوم، اللّذَيْن تولَّيا حُكْم البلاد، بعد مصرع أبيهما غياث الدِّين كيخسرو إثر هزيمته عام 641هـ 1243م أمام التّتَار[5]، ولمَّا اقتسما البلاد؛ كانت آمد لرُكن الدِّين قلج أرسلان "ونُوَّابه بآمد مع نُوَّاب التّتَار"[6].

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 190.

2 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 343.

3 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 498.

4 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 524.

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 326.

6 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 526.

العلاقات مع خَرْتَبِرْت:

ولم يكن لهذه الإمارة دور يُذكَر في أحداث الجزيرة بسبب صغرها، وتطرُّفها نحو الشّمال[1]، وربما كان أهمّ أدوار هذه الإمارة هُو دعوة صاحبها للملك الكامل عندما تعذَّر عليه عُبُور الدّربند للهُجُوم على بلاد سلاجقة الرّوم عام 631هـ 1234م، ليعبر من درب أمام حصنه، ولكنَّ قُوَّات كيقباد سُلطان سلاجقة الرّوم هزم الفرقة الأيُّوبيَّة، التي أرسلها الكامل بقيادة المُظفَّر صاحب حماة، ولمَّا التجأ المُظفَّر إلى حصن خَرْتَبِرْت حاصره كَيْقُبَاذ، ثُمَّ أطلقه بعد أن استولى عليها[2].

وكنتيجة للعلاقات بين السّلطنة الأيُّوبيَّة وإمارات الأراتقة نجد أنَّ الأراتقة قد حالفوا الأيُّوبيين مُنْذُ دُخُولهم إلى الجزيرة الشّاميَّة، وسلَّم صلاح الدِّين مدينة آمد - بعد أنْ فتحها - إلى واحد من أُمرائهم، وصاهره، فقد كانت سياسة صلاح الدِّين الجزريَّة تهدف إلى تحقيق الاستقرار فيها، وربط أُمرائها بتبعيَّة مُباشرة، ليحصل على الدَّعْم المادّي والعَسْكَري، خاصَّة الجُند، ليتقوَّى على الحرب، ويتفرَّغ للجهاد.

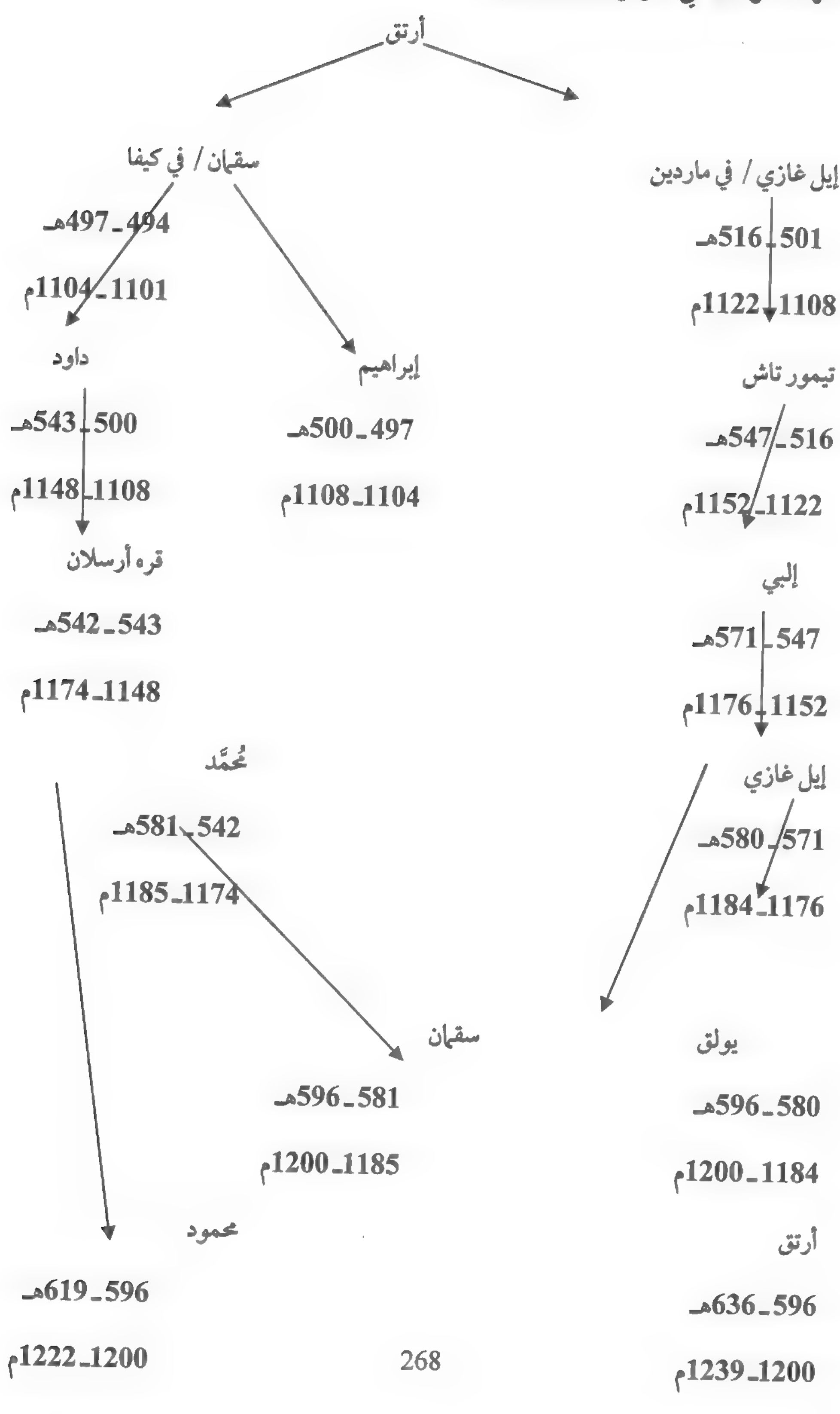
ولكنَّ الأُسرة الأرتقيَّة كانت تنقسم إلى عدَّة فُرُوع، منها: فرع آمد التّابع بولائه للأيُّوبيَّة، وفرع ماردين المُهادن، أو المُعادي لهم حسب الظُّرُوف، فقد لعبت ماردين على حبال التّحالفات، طوراً مع سلاجقة الرّوم ضدَّ الأيُّوبيَّة، وطوراً آخر مع الأيُّوبيَّة ضدَّ سلاجقة الرّوم، إلى أنْ قضى الملك الكامل على حُكْمهم في آمد، واحتلَّها، عندها؛ أعلنت ماردين العداء السّافر، وسعت للتّحالف مع كُلِّ عدوٍّ للأيُّوبيَّة، حتى جاء التّتّار، فكانت ماردين من المُدُن القليلة التي ضربت أروع الأمثلة في المُقاومة. أمّا فرع خَرْتَبِرْت الأرتقي؛ فقد كان يُسيطر على قلعة صغيرة لم تكن ذات بال، ثُمّ استولى عليها سلاجقة الرّوم نتيجة ولاء صاحبها للأيُّوبيَّة، ودَعْمه للملك الكامل في هُجُومه على بلاد السّلاجقة.

---

1 - الإمارات الأرتقيَّة، عماد الدِّين خليل، 187.

2 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 131، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 162.

المُلوك الأراتقة في ماردين وحصن كيفا



المبحث الثّاني

العلاقات الأيُّوبيّة مع الأتابكة

لقد عُرِفَتْ ـ في عصر الدُّويلات ـ عدَّة دُول باسم الأتابكية، منها: دمشق، والمَوصل، وحلب، وأرمينيا، وأذربيجان، وفارس، ولورستان، وكرمان[1]، وغيرها. وقامت هذه الدُّول على أنقاض الدولة السلجوقية، فقد اعتمد السلاجقة في حُكْمهم على عدد من القادة الأتراك، ولربطهم بالدولة وبالأسرة الحاكمة كان السُّلطان السلجوقي يعهد بتربية واحد من أولاده للبعض منهم، وقد يُزوِّجه أمّ الطفل مُطلَّقة السُّلطان[2]، أو يكتفي برعايتهم لأولاده. فعندما قام السُّلطان السلجوقي محمود بتولية عماد الدِّين زنكي على المَوصل عهد إليه السُّلطان بتربية ابنيه ألب أرسلان وفروخ شاه، مع أنَّه لم يُزوِّجه بأيٍّ من زوجاته السابقات، ومع ذلك؛ فقد عُرِف باسم أتابك[3].

أتابكة المَوصل والجزيرة:

عندما قُتل الشهيد عماد الدِّين زنكي على حصار جعبر، تجاوز الصدمة العنيفة في المُعسكر رجلان، الأوَّل هو جمال الدِّين مُحمَّد بن علي أكبر مُستشاري عماد الدِّين، الذي سارع إلى سيف الدِّين غازي بن عماد الدِّين زنكي، وطلب منه التّوجُّه نحو المَوصل، القاعدة الأساسية للدولة، لتنصيبه خليفة لوالده[4]، بينما كان الرجل الثّاني هو شيركوه بن شاذي، الذي اصطحب نُور الدِّين محمود الابن الثّاني لعماد الدِّين إلى حلب، ونصَّبه فيها[5]، ومنها امتدَّت سيطرة نُور الدِّين على الشَّام، ثُمَّ مصر. وبموت نُور الدِّين؛ خلفه ابنه إسماعيل، الذي لم يكن ـ في الحقيقة ـ يملك أيَّ فُرصة أمام شخصية مُتميِّزة مثل شخصية القائد صلاح الدِّين، فما إنْ تُوفِّي إسماعيل شابّاً حتّى كانت الشّام ومصر كُلّها بيد صلاح الدِّين، وزال الفرع الشّامي، ليبقى فرع المَوصل الأتابكي، ويستمرّ.

---

1 - راجعْ كتاب:

The Mohammedan dynasties, Lane-Poole.

2 - أعطى تاج الدولة تتش حمص إلى جناح الدولة حسين، وجعله أتابك لابنه رضوان بعد أن زوَّجه أمّ رضوان تركان خاتون. (بغية الطلب، ابن العديم، 6/ 2806).

3 - أتابك لفظ تركي من مقطعَيْن: أتا أو أطا ومعناها أب، وبك معناها أمير.

4 - الكواكب الدُّرِّيَّة، ابن قاضي شهبة، 122، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 113.

5 - الكواكب الدُّرِّيَّة، ابن قاضي شهبة، 122، والروضتَيْن، أبو شامة، 1/ 120.

في أوّل الأمر طمع سيف الدِّين غازي بن قُطب الدِّين مودود، في بلاد عمّه نُور الدِّين، وهاجم الجزيرة[1]، لكنْ؛ بعد توجُّه صلاح الدِّين لأَخْذ حلب من إسماعيل بن نُور الدِّين، أدرك غازي أهمِّيَّة تلاحمه مع حلب، فما بعدها إلَّا المَوصل، لذلك أرسل نجدة قويَّة لها بقيادة أخيه عزّ الدِّين مسعود[2]. ولمَّا تُوفِّي إسماعيل بن نُور الدِّين أوصى بحلب لسيف الدِّين غازي صاحب المَوصل، وطلب منه أخاه عماد الدِّين زنكي أن يأخذ منه سنجار، ويُعطيه حلب، فوافق[3]، ولمّا أخذ صلاح الدِّين سنجار عاد، وبادل عليها عماد الدِّين مُقابل حلب[4].

وفي عام **480 هـ 1087**م، استقلَّ والي إربل زين الدِّين أبي سعيد يُوسُف ينالتكين بن زين الدِّين علي بن بكتكين، وكَاتَبَ صلاحَ الدِّين، وانحاز له، مُقِرَّاً بسلطنته، فكتب له منشوراً ببلاده[5]، وهكذا خرجت إربل عن المَوصل، ممَّا أضعف موقف عزّ الدِّين مسعود، الذي خلف أخاه، وقوى جانب صلاح الدِّين. كذلك التجأ إلى السُّلطان صلاح الدِّين صاحب جزيرة ابن عُمر[6] معزّ الدِّين سنجر شاه بن سيف الدِّين غازي بن مودود، وكان يحثُّه على قصد المَوصل[7].

بدأت العلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة الأيُّوبيَّة مع أتابكة المَوصل وسنجار أيَّام صلاح الدِّين، الذي كان يعدُّ أنَّه وريث رسالة عماد الدِّين ونُور الدِّين بالتحرير والتوحيد، لذلك هاجم المَوصل، وبلادها، وأخذ منهم حلب، أمَّا سيف الدِّين غازي وأخوه عزّ الدِّين مسعود وأبناؤهم من بعدهم،

---

1 - الروضتَيْن، أبو شامة، 231 ـ 234، والباهر، ابن الأثير، 175، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 5، وسنا البرق، البِنْدَاري، تحقيق: ششن، 167.
2 - سنا البرق، البِنْدَاري، تحقيق: ششن، 186.
3 - سنا البرق، البِنْدَاري، تحقيق: نبراوي، 185.
4 - سنا البرق، البِنْدَاري، تحقيق: نبراوي، 209.
5 - سنا البرق، البِنْدَاري، تحقيق: نبراوي، 249.
6 - يقول ابن خلكان: " أكثر الناس يقولون جزيرة ابن عُمر، ولا أدري مَنْ ابن عُمر؟ وقيل إنَّها منسوبة إلى يُوسُف بن عُمر الثقفي أمير العراقَيْن، ثُمَّ أني ظفرت بالصواب في ذلك، وهُو أن رجلاً من أهل برقعيد من أعمال المَوصل بناها وهُو عبد العزيز بن عُمر، فأُضيفَتْ إليه. ورأيتُ في بعض التواريخ ابني عمر أوس وكامل، ولا أدري ـ أيضاً ـ منْ هما، ثُمَّ رأيتُ في تاريخ ابن المُستوفي في ترجمة أبي السعادات المبارك بن الأثير أنَّه من جزيرة أوس وكامل ابني عُمر بن أوس الثعلبي. (وفيات الأعيان، ابن خلكان، 1 / 494 ـ أوردها عبَّاس العزَّاوي في كتابه: التعريف بالمُؤرِّخين).
7 - سنا البرق، البِنْدَاري، تحقيق: نبراوي، 250.

فيرون أنَّهم أصحاب الدولة كُلّها، وما صلاح الدِّين إلَّا تابع مُتمرِّد، استولى على تركة سيِّده، وحرمهم منها، وقد عبروا عن هذا الموقف غداة موت صلاح الدِّين.

ولم يُقيَّض لدولة أتابكة المَوصل بعد وفاة سيف الدِّين غازي شخصية قويَّة مثل شخصية العادل الأيُّوبي يلُمُّ أطرافها، فاستمرَّت انقساماتها، وخلافاتها، وصراعها السِّياسي الدائم، بل والعسكري في بعض الأحيان. وكانت التجزئة أمراً واقعاً لا رادَّ له بعد وفاة كُلِّ سُلطان قوي له عدَّة أبناء، أو حتَّى أُمراء، أو قُوَّاد أقوياء. فبحسب نظام الإقطاع العسكري السلجوقي يكتسب صاحب الإقطاع حقَّه مدى الحياة، وله حقُّ التوريث لأبنائه، وعلى هذا النظام قامت دُول الأتابكيات، وكان هُو سبب انقسامها، وضعفها.

العلاقات الأيُّوبيَّة الأتابكية في عهد العادل:

كان أتابكة المَوصل وسنجار يجاورون الأملاك الأيُّوبيَّة في الجزيرة التي كان فيها إقطاع الملك العادل، وهُو كبير البيت الأيُّوبي بعد وفاة أخيه صلاح الدِّين. ويبدو أن عزّ الدِّين مسعود صاحب المَوصل أراد اغتنام فُرصة موت صلاح الدِّين، فتناسى خلافاته مع أخيه عماد الدِّين صاحب سنجار، وجمعا عسكرهما، وراسل مسعودُ مُلُوكَ الأطراف، وشكَّل تحالفاً قوياً ضدَّ الأيُّوبيَّة [1].

وتشكَّل حلف سياسي عسكري قلَّما شهدت مثله الجزيرة، من المعارضين للبيت الأيُّوبي، ومن الطامعين بعد وفاة عميد هذا البيت، فانضمَّ إلى هذا التحالف بكتمر صاحب خِلاط، الذي كان يضمر العداء لصلاح الدِّين ولأسرته، كذلك انضمَّ له صاحب ماردين، الذي كان أوَّل المُتحرِّكين عسكريَّاً، فحاصر حصن الموزر، وكان صلاح الدِّين قد اقتطعه من ولاية ماردين، وألحقه بالرها، وسارت قُوَّات التحالف تقصد الرُّهَا، وهي أكبر بُلدان الجزيرة وقتها، "وأرسلوا للعادل: أن اخرج من بلادنا"[2]. إنَّه الحقّ القديم يُطالبون به الآن، فالبلاد ـ في اعتقادهم ـ هي مُلك لجَدِّهم عماد الدِّين زنكي، قد ورثوها منه، وما صلاح الدِّين إلَّا مُغتصب لإرثهم الشرعي.

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9/ 227، ـ إن رواية ابن الأثير، الذي يعيش في بلاط المَوصل، تُظهر أن قائد هذا التحالف هُو عزّ الدِّين مسعود صاحب المَوصل. (الكامل في التاريخ، 9/ 227)، بينما يعدُّ ابن واصل أن هذا التحالف كان بقيادة بكتمر أمير خِلاط، الذي كان يكره صلاح الدِّين. (مُفرِّج الكُرُوب، 3/ 16)، راجعْ أيضاً: مملكة حلب، كمال بدور، 141.

2 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 13/ 436.

ويبدو أن عزّ الدِّين في تردُّده قد أضاع عدَّة شهور في مُفاوضات مع مُلُوك الأطراف ليُوحِّدهم ضدَّ الأيُّوبيَّة[1]. ويذكر ابن الأثير تفاصيل مُهمَّة عن طبيعة التحرُّك الأتابكي ضدَّ العادل؛ فيقول:

"لمَّا بلغ عزّ الدِّين مسعود بن مودود بن زنكي صاحب المَوصل وفاة صلاح الدِّين جمع أهل الرأي من دولته، وفيهم مُجاهد الدِّين قايماز كبير دولته، والمُقدَّم على كُلِّ مَنْ فيها، وهُو نائبه فيهم، واستشارهم فيما يفعل، فسكتوا، فقال أخو مجد الدِّين أبو السعادات المبارك: أرى أن تخرج مُسرعاً جريدة فيمَنْ خفَّ من أصحابك وحلقتكَ الخاصّ، وتتقدّم إلى الباقين باللحاق بكَ إلى نصيبين، وتُكاتب أصحاب الأطراف: مُظفَّر الدِّين صاحب إربل، وسنجر شاه، وابن أخيكَ صاحب جزيرة ابن عُمر، وأخيكَ عماد الدِّين صاحب سنجار، تُعرِّفهم أنكَ قد سرتَ، وتطلب المُساعدة، فمتى رأوكَ قد سرتَ خافوكَ، وإن أجابكَ أخوكَ إلى المُوافقة، وإلا بدأت بنصيبين، فأخذتَها، ثُمَّ سرتَ إلى الخابور وهُو له، فأقطعته، وتركتَ مُقابل أخيكَ عسكراً يمنعه من الحَرَكَة، أو قصدتَ الرقَّة وتأتي حَرَّان والرُّهَا، فليس فيها مَنْ يحفظها، فإن العادل قد أخذهما من ابن تقي الدِّين، ولم يُقمْ فيهما ليُصلح ما لهما. وليس وراءكَ ما تخاف عليه، فإن بلدكَ عظيم لا يُبالي بكُلِّ مَنْ ورائكَ. فقال مُجاهد الدِّين: المصلحة أن تُكاتب أصحاب الأطراف، وتأخذ رأيهم، وتستميلهم، فقال أخي: سيُشيرون بترك الحَرَكَة، لأنَّهم لا يُريدون أن يقوى هذا السُّلطان، وسيغالطونكم مادامت البلاد الجزرية فارغة، فإذا جاء مَنْ يحفظها يجاهرونكم بالعداوة، ولم يتكلَّم أكثر خوفاً من مُجاهد الدِّين[2]".

فإذا تجاوزنا مُحاولة ابن الأثير تعظيم رأي أخيه أبي السعادات مُستشار عزّ الدِّين، فإنَّنا لا نستطيع إلَّا الإقرار معه أنَّنا أمام ملك مُتردِّد يُؤثر السلامة، ولا يُحبُّ المُغامرة، فخُطط أبي السعادات تبدو أنَّها تدبير مُحكَم، لكنَّ مُجاهد الدِّين ـ رجل دولة المَوصل القوي ـ كان يُفضِّل التأنِّي حتَّى يتمّ استجلاء موقف بقيَّة الأطراف، كي لا تجازف المَوصل بتحرُّك قد يُكلِّفها الكثير. وفي الحقيقة؛ لم يكن العادل ليحتاج من أعدائه لأكثر من هذه الحكمة والتأنِّي ليُرتِّب أُموره؛ حيثُ عاجلهم برسالة تخبرهم بموت أخيه صلاح الدِّين، واتِّفاق الكلمة على ابنه الأفضل، وأنَّه ـ أيْ العادل ـ مُدبِّر دولته، وأنَّه قد سار في "عسكر جَمٍّ لقصد ماردين"، التي تعرَّض صاحبها لبعض قُرى العادل، "فظنُّوه حقَّاً،

---

1 - الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14/ 338.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 73.

نفـتروا عـن الحَرَكَـة. ولَّمـا سـيَّروا الجواسـيس علمـوا أنَّـه في ظـاهر حَرَّان مـائتي خيمـة لا غـير، فتحرَّكوا"[1]. "ولَّما علم العادل بمسيرهم نحو بلاده، استنجد بعساكر الظَّاهر والأفضل"[2]، لأنَّـه لا يملك القُوَّة لدفعهم، خاصَّة أن الأُمُور السِّياسيَّة والعسكريَّة كانـت مـاتزال غائمـة بعـد فُقـدان السُّلطان صلاح الدِّين، ولم تختبر بعد وحدة البيت الأيُّوبي، ولا مدى فاعلية قواهم.

فنزل عزّ الدِّين دينسرَ، "ونزل العادل حَرَّان. ولَّما اقترب عزّ الدِّين من الرُّهَا ومعه أخوه، كان العادل قريباً منهم"[3]، وقد وصلتْهُ النجدات من حلب، ومن دمشق[4]. مع ذلـك؛ طلـب العـادلُ الصُّلحَ "على أن تكون البلاد الجزرية: الرُّهَا، وحَرَّان، والرقَّة، وما معها، بيده على سبيل الإقطاع مـن عزّ الدِّين، فلم يُجبه إلى ذلك[5]".

لكنَّ المرض سُرعان ما داهم عزّ الدِّين مسعود، وأجبره على العودة نحو المَوصل، تاركاً جيشه مع أخيه عماد الدِّين لإكمال المهمَّة التي خرجا من أجلها؛ وهي احتلال الجزيرة، لكنَّ عماد الـدِّين قـرَّر الصُّلح مع الملك العادل، رُبَّما لأنَّه كان مسالماً في طبعه، لَـيِّن العريكـة، يُـؤثر الـسلامة، أو لأن مـرض أخيه جعله يُفكِّر في مشاكل البيت الأتابكي، ورأى أن عودته نحو سنجار غدت ضرورية، ومهما كان الأمر فقد قرَّر الصُّلح، وكان ذلك يصبُّ في مصلحة العـادل. فاضـطرَّ صـاحب مـاردين للتـضرُّع، وتشفَّع إلى العادل، فعفا عنه. ولم يُضيِّع العادلُ الفُرصة، واستغلَّ وُجُود النجدات معه، فأمر الظـافر ـ وهُو بعسكر دمشق ـ أن يُحاصر سروج، وأمده، ففتحهـا. ثُـمَّ تحـرَّك العـادل نحـو الرقَّـة، فتـسلَّمها، وأعطاها إقطاعاً إلى ابن أخيه الظافر قائد نجدة دمشق[6]، وكانت هي وسروج لعماد الدِّين صـاحب سنجار[7]. كذلك استولى العادل على بلد الخابور[8] جميعه، وفرَّقه إقطاعاً على المُلُوك الذين معه، مثل:

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 100.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 601.
3 - يقول ابن الأثير واصفاً العادل عند اقتراب قُوَّات الأتابكة منه: "فخاف خوفاً عظيماً". (الكامل في التـاريخ، 12 / 100)، ورُبَّما كان هذا الخوف من إضافات ابن الأثير ليرضي سادة المَوصل، الذين كتب في ظلِّ رعايتهم، وإلَّا فـما أدراه بخوف العادل، وإنْ كان قليلاً، أو عظيماً، علماً أنَّه لا داعي لخوف العادل، فقد وصلتْهُ نجدات قويَّة.
4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 601.
5 - الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 14 / 939.
6 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 601.
7 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 203، والفَتْح القِسِّي، العماد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 13/ 436.
8 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 13 / 436.

صاحب حماة، وصاحب حمص[1]. إن هذا التوزيع للإقطاعات لابُدَّ أن العادل كان يقصد منه استمالة أُمراء ومُلُوك بني أيُّوب، وتقريبهم إليه، ولم يكن يقصد منه توزيع إقطاع عسكري حقيقي، بدليل استرجاعه ـ فيما بعد ـ لكُلِّ الإقطاعات التي وزَّعها في هذه المرحلة المُبكِّرة من مُلكه.

كان هذا أوَّل احتكاك عسكري بين الأيُّوبيَّة وأتابكة المَوصل، وقد تمَّ بعد وفاة صلاح الدِّين مُباشرة بتحرُّك أتابكي نحو الرُّهَا، التي تتبع للعادل، وفي هذا الصراع، وقف البيت الأتابكي مُوحَّداً مُقابل البيت الأيُّوبي، الذي خاض أوَّل امتحان له في الوحدة ضدَّ خطر خارجي؛ حيثُ أمدَّ كُلَّ أبناء صلاح الدِّين عمَّهم بالجُيُوش، ولكنَّهم لم يتوقَّعوا أن السياسة الأيُّوبيَّة الجزرية ـ بعدها ـ ستُصبح صدى لصراعاتهم في الشَّام.

الأتابكة وأولاد العادل، نُوَّاب الجزيرة :

في عام 598 هـ 1202م، وبعد استتباب الأمر للعادل في الشَّام ومصر، سحب ابنَهُ الكبير ووَليَّ عهده الكاملَ مُحمَّد من الجزيرة، وولاه مصر، وولَّى العادلُ ابنَهُ المُعظَّمَ عيسى دمشقَ، ومعها سُورية الجنوبية، وولَّى ابنَهُ الأشرفَ مُوسى على مُعظم مُمتلكاته الجزرية، و كانت قاعدتها حَرَّان، ووضع معه أخاه الأوحد في ولاية مَيَّافارقين، وابنه الحافظ في قلعة جعبر، ومعها بالس[2]. من هذا التوزيع؛ نستطيع أن نستنتج الأولويات في سياسة العادل، فيبدو واضحاً أن آخر اهتماماته هي الجزيرة، بينما يُركِّز ـ بشدَّة ـ على مصر، فهي القاعدة الأساسية لحُكم بني أيُّوب، ثُمَّ تليها الشَّام.

ولأن العادل كان يرغب بالحفاظ على مكاسبه في الجزيرة، وبالتَّالي؛ على دولته، فقد سعى جاهداً لتحقيق نوع من السِّلْم المحلِّيِّ في الجزيرة، خاصَّة في بداية عهده، وحاول أن يتجنَّب أيَّ مُغامرة عسكريَّة قد تقلب الوضع كُلَّه في وجهه، وكانت نصائحه لأولاده في الجزيرة تدلُّ على ذلك، خاصَّة أنَّه كان يشكُّ في تصرُّفات ابن أخيه الظَّاهر غازي في حلب. ويبدو أن فشل صلاح الدِّين مرَّتَيْن أمام المَوصل كوَّن لدى العادل فكرة خاطئة عن قُوَّة الأتابكة، ولم يُدرك ما آل إليه الحال بعد كُلِّ تلك السنوات والتغيُّرات في المَوصل.

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 85 ـ 59.

2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 453.

ولكن الظُّرُوف كانت تصبُّ في مصلحة العادل، فقد وقع الانقسام ضمن البيت الأتابكي، ففي عام **594** هـ **1198**م، ونتيجة لتعدِّيات قُطب الدِّين صاحب سنجار على قرى تتبع المَوصل، قام أمير المَوصل نُور الدِّين، واحتلَّ نصيبين، وهي من أملاك سنجار[1]. فراسل قُطب الدِّين الملك العادل، وكان بدمشق، وبذل له الأموال ليُنجده، ولاحت فُرصة نادرة للعادل تجعله يدخل وسط البيت الأتابكي بدعوة من أحد أفراده، فلم يتردَّد، وجمع قُوَّة كبيرة، وتحرَّك نحو الجزيرة.

في هذه الأثناء، كان نُور الدِّين قد انسحب من نصيبين، وعاد للمَوصل بسبب وباء تفشَّى في عسكره، فاستعادها قُطب الدِّين، لكنَّ العادل ـ كعادته ـ أراد أن يستغلَّ وُجُود الجيش معه في الجزيرة، فتوجَّه نحو ماردين، التي كان مُدبِّر المملكة فيها قد دعاه ليتسلَّمها مُقابل عوض[2]، ولكنَّه لم يف للعادل[3]، وتحصَّن في ماردين، فهاجمها العادل، واستولى على ربضها، وحاصر القلعة[4]، واستمرَّ بحصارها، حتَّى دخلت سنة **595** هـ **1199**م. وكان من المُتوقَّع أن لا تصمد القلعة طويلاً أمام قُوَّات العادل، ومعه قُوَّات أيُّوبية كبيرة، لكنَّ حَدَثاً ما لم يكن بالحسبان، وقلب الموازين مرَّة أُخرى، إنَّما ـ الآن ـ داخل البيت الأيُّوبي، فقد ورد الخبر بوفاة العزيز صاحب مصر، واستدعاء أخوه الأفضل ليتربَّع مكانه على عرش القاهرة. وبدأ الخطر ـ الآن ـ يلوح من جانب حلب وصاحبها الظَّاهر بن صلاح الدِّين، الذي أخذ يُدبِّر لأَخْذ دمشق من عمِّه العادل، فكان من مصلحته أن يُثبته على حصار ماردين، فاتَّصل الظَّاهر بأتابكة المَوصل واتَّفق مع نُور الدِّين أميرها، ليتحرَّك نحو ماردين لمنع سُقُوطها، وبذلك ضمن منع العادل من الحَرَكَة نحو الشَّام. وعندما خرج الأفضل من مصر طالباً دمشق أرسل إلى نُور الدِّين يطلب التحالف معه، والمُساعدة ضدَّ العادل[5].

وأخذ البيت الأيُّوبي بالانقسام، وعاد البيت الأتابكي للتجمُّع ضمن تحالف شمالي كبير، فكان معهم الظَّاهر الأيُّوبي ملك حلب، وصاحب ماردين. فالعادل ـ الآن ـ في وضع عسكري حرج، وأملاكه غنائم سهلة لِمَنْ يتصدَّى لها. وتحرَّك جيش نُور الدِّين من المَوصل، ومعه قُطب الدِّين مُحمَّد

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9 / 246.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 80.
3 - الروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 234.
4 - الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 14/ 349.
5 - الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 14 / 351.

من سنجار، ومعزّ الدِّين سنجر شاه من جزيرة ابن عُمر، واتَّجهوا صوب ماردين، التي ترك العادل قلعتها تحت الحصار بقيادة ابنه الكامل مُحمَّد، وأسرع هُو صوب دمشق، التي كانت جُيُوش أيُّوبية الشَّام ومصر تتحرَّك نحوها لحصارها، لكنَّ العادل تمكَّن من دُخُول دمشق، والثبات فيها.

واستطاع جيش الأتابكة هزيمة الكامل عند ماردين، فتراجع أمامهم، وكانت الفُرصة سانحة أمام التجمُّع الأتابكي وحُلفائهم لإعادة احتلال الجزيرة، وكانت نيَّة نُور الدِّين المُتابعة لأَخْذ حرَّان[1]، لكنَّه ـ فجأة ـ يُقرِّر الانسحاب نحو قاعدته في المَوصل مُحتجَّاً بمرضه[2]، ويبدو أن حقيقة الأمر هي خلافه مع الظَّاهر الذي يذكر ابن الأثير بأنَّه كان بسبب طلب الظَّاهر الخطبة والسّكَّة في المَوصل[3]، إن هذا السبب حتَّى وإنْ ذكره ابن الأثير فهُو مشكوك فيه، خاصَّة في ظلِّ هذا الظرف، فخطر العادل مازال قائماً. ويبدو لنا السبب الأكثر احتمالاً لعودة نُور الدِّين وانسحابه من مشروع التكتُّل ضدَّ العادل هُو عدم تطبيق الظَّاهر لبُنُود الاتِّفاق معه، فقد اتَّفقا على أن تكون لنُور الدِّين سروج والرقَّة، ولكن الظَّاهر قام بإقطاع سروج إلى الأمير سيف الدِّين بن علم الدِّين بن جندر قائد القُوَّة الحلبية لدعم التحالف الأتابكي ضدَّ العادل[4]، فقد تبيَّن نُور الدِّين حقيقة نواياه، وأدرك أن الظَّاهر يُريد استغلال كره الأتابك للعادل، وتجنيدهم ضدَّه، مُستفيداً من إيقاظ أحلامهم باستعادة الجزيرة. وجاء تنبُّه نُور الدِّين لذلك في الوقت المُناسب، ممَّا مكَّن العادل من الاحتفاظ بدمشق، ولذلك نعتقد أن موضوع الخطبة والسّكَّة لم يكن ذا بال لدى نُور الدِّين، فهي شيء شكلي، ويُمكن أن يكون مرحلياً يتمُّ التَّخلِّي عنه عند اللزوم، خاصَّة إذا عرفنا أن نُور الدِّين كان قد سبق وعرض الخطبة والسّكَّة في بلاده على الظَّاهر عندما طلب التحالف معه ضدَّ العادل عام **606 هـ ـ 1209**م، أثناء هُجُوم العادل على سنجار، والاعتراف به سُلطاناً على كلّ بلاد الأتابكة[5]. كما أن قُطب الدِّين مُحمَّد صاحب سنجار كان يخطب فعلاً للعادل ببلاده[6]. هُنا؛ تبدو لنا السياسة الأيُّوبيَّة في الجزيرة ـ بشكل جلي ـ كصدى لسياستهم في الشَّام.

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9/ 247.
2 - الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار،14 / 196، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9/ 247.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9/ 247.
4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 3/ 145.
5 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 630.
6 - المُختصر، أبو شامة، 3/ 105.

وبعد طرد الأفضل من مصر، وخلع المنصُور بن العزيز عن عرشها عام 596 هـ 1200م، انفرد العادل بملك مصر، ولم يبقَ في ساحة المُواجهة ضدّه من أولاد أخيه سوى الظّاهر في حلب، الذي أيقن أنّه يكون سيكون التالي في أطماع عمّه العادل، فعاد الظّاهر لإحياء الحلف الشمالي من جديد، لحماية ظهره في الجزيرة والشرق، ليتفرّغ للصراع المُقبل مع عمّه العادل. اتّصل الظّاهر بنُور الدِّين أتابك المَوصل، وحُسام الدِّين يولق صاحب ماردين، "وتحالفوا، وحلفوا"[1]، وظهرت فائدة هذا الحلف للظاهر عندما تحرَّك لحصار دمشق عام 597 هـ 1201م؛ حيثُ طلب من نُور الدِّين مُهاجمة مُمتلكات العادل في الجزيرة، فتحرَّك نُور الدِّين من المَوصل ومعه ابن عمّه قُطب الدِّين صاحب سنجار، وانضمَّ إليهما صاحب ماردين، وقصدوا رأس عين، وفيها الفائز بن العادل نائباً عن أبيه.

وهُنا ـ أيضاً ـ يُكرِّر نُورُ الدِّين انسحابَهُ بحُجَّة تفشِّي المرض بين قُوَّاته، ولكن الاحتمال الأقوى لانسحابه هُو تواتر الأخبار من دمشق عن اختلاف الظّاهر وأخيه الأفضل ورجحان كفّة عمِّهما العادل في صراعهم معه على دمشق. وليحمي نُور الدِّين ظهره خلال انسحابه، وليُعوِّض تورُّطه الثّاني، وانخداعه بوُعُود الظّاهر، قام بعقد الصُّلح مع الفائز بن العادل، ثُمَّ انسحب نحو المَوصل، لينهار التحالف الشمالي مرَّة أُخرى[2]، ممّا مكّن الفائز للتفرُّغ في الجزيرة، فقلب الآية، وبدلاً من ضغط الحُلفاء على العادل في الجزيرة لتسليم دمشق أخذ الفائز بالهُجُوم على مُمتلكات حلب لتخفيف الضغط العسكري عن دمشق، فهاجم بالس ومنبج، ولمّا تصدّى له المبارز أقجا قائد جند حلب هزمه الفائز، وأمعن بنهب إقطاعات قادة جند حلب المُحاصرين لدمشق، حتّى يشغل أفكارهم. ولكنَّ كُلَّ هذه الحَرَكَة للفائز في الجزيرة لم تكن إلّا الجُزء الأوَّل في خُطّته، التي سهّلها له فشل التحالف الحلبي الأتابكي، فالجُزء الثّاني، وهُو الأهمّ، كان التحاق الفائز مع جند الجزيرة بوالده العادل المُرابط في نابلس لإنقاذ دمشق المُحاصرة.

وبعد أن استتبَّ الأمر للعادل داخل البيت الأيُّوبي، بإقصاء الأفضل وخُضُوع الظّاهر، غدا العادل السُّلطان الأعظم للأيُّوبية، فله الخطبة والسّكّة في كُلِّ إمارات الشّام، وبيده مُدُن عدّة من الجزيرة، إضافة إلى تملُّكه مصر ودمشق وجنوب الشّام. وكان الأمر على العكس من ذلك داخل

1- الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9/ 354، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 120، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 630.
2- الباهر، ابن الأثير، 196، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 126، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 34.

البيت الأتابكي، فقد عادت الخلافات الأتابكية من جديد عام 600 هـ-1203م؛ إذْ قام قُطب الدِّين مُحَمَّد بالانتماء للعادل واللُّجُوء لحمايته بإعلان الخطبة والسِّكَّة له في سنجار، ورُبَّما كان ذلك نكاية بأمير المَوصل نُور الدِّين، أو خوفاً من مطامعه، التي سُرعان ما تبدَّت بهُجُومه على نصيبين، واحتلالها[1]، فأمر العادلُ ابنَهُ الأشرف الذي أولاه حُكْم أملاكه في الجزيرة، وابنه الأوحد صاحب مَيَّافارقين، بالتحرُّك لنجدة صاحب سنجار، فسارا ومعهما نجدة صاحب حلب، فهزموا نُور الدِّين الذي هرب لا يُصدِّق بنجاته إلى المَوصل[2]، فالانقسام الأتابكي ـ الآن ـ يواجهه تجمُّع أيُّوبي.

الانقلاب في توجُّهات المَوصل السِّياسيَّة:

يبدو أن نُور الدِّين صاحب المَوصل قد أيقن ـ بعد تلك التجربة ـ أنَّ أيَّ تحرُّك ناجح يجب أن يكون بدعم وتأييد العادل، الذي أصبح القُوَّة الكُبْرَى في المنطقة، وفي الوقت نفسه؛ كان العادل يرى من مصلحته تفريق مُلُوك البيت الأتابكي، والدُّخُول بينهم؛ ليتمكَّن من السيطرة عليهم كما فعل مع أولاد أخيه، ففي عام 605 هـ 1208م، طلب العادل مُصاهرة نُور الدِّين، وخطب ابنته لأحد أولاده[3]، وسعى لإقامة تحالف معه، واتَّفقا على اقتسام الممالك الأتابكية الأُخرى؛ بحيثُ يأخذ العادل سنجار وهي لقُطب الدِّين ابن عمِّ نُور الدِّين، ويأخذ نُور الدِّين جزيرة ابن عُمر، وهي لمحمود بن سنجر شاه[4]. وجاءت الفُرصة للعادل تسعى، فقد هاجم الكرج مملكة خِلاط، واحتلُّوا أرجيش[5]، وكانت للأوحد بن العادل، الذي استصرخ أباه[6]، فأعلن العادل التعبئة ضدَّ الكرج، "وكتب إلى البلاد بطلب العساكر، وأظهر أنَّه يُريد قصد الكرج"[7]، وكان ذلك ملائماً لإخفاء العادل حقيقة نواياه ضدَّ سنجار، ولم يُظهر اتِّفاقه مع صاحب المَوصل، لمنع قُطب الدِّين صاحبها من الاستعداد، وأخذه على غرَّة من جهة، ومن جهة أُخرى؛ لمنع الأُمراء الأيُّوبيِّين، الذين قدَّر العادل أنَّ

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 105.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 105
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 191.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 191، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 286، ـ أمَّا ابن نظيف؛ فيقول: إن خُرُوج العادل كان بسبب ما وصل إليه من تحالف أتابك المَوصل والظاهر مع جميع الشرقيين. (المنصُوري، 57).
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 183.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 190.
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 190.

أَخْذَهُ لسنجار قد لا يُعجبهم، من التآمر عليه، بينما لا يُشكِّل التّصدِّي المُعلَن للكرج أيَّ خطر عليهم، بل على العكس، فالعدوُّ كافر، وهذا جهاد لا يستطيع أيٌّ منهم أن يتخلَّف عنه.

وسارع العادل إلى حَرَّان، وطلب أن يكون التجمُّع عليها[1]، فوصله ولده الأوحد صاحب أخلاط مع عسكره، وولده الأشرف بقُوَّات الجزيرة، والمنصُور صاحب حماة، والمُجاهد صاحب حمص، والأمجد صاحب بعلبك، والصَّالح صاحب آمد مع عسكرهم، كما وصلت عساكر الظَّاهر صاحب حلب، وصاحب السويداء وصاحب دارا بقُوَّاتهم[2]، والأطرف في الأمر وُصُول عسكر المنصُور صاحب سنجار[3]. وعندما وصل العادل رأس عين بلغه انسحاب الكرج[4]، وذلك " أن الكرج لَمَّا عرفوا بحركته، خافوا، وكرُّوا عائدين إلى بلادهم[5]. فالتفت العادل لتحقيق هدفه الرئيس، ولابُدَّ أنَّه قد حار في أمره، فكيف يتوجَّه نحو سنجار لأَخْذها وقُوَّات أميرها قُطب الدِّين معه في حملته؟! وكيف يُبرِّر ذلك أمام المُلُوك والأُمراء من آل بيته؟! فلم يجد أفضل من إعلان الغضب على قُطب الدِّين؛ لأنَّه تخلَّف عن الحُضُور بنفسه، واكتفى بإرسال قُوَّاته، وقال: إنَّه "تجدّد له قصد سنجار لتخلُّف صاحبها عن وُصُوله بنفسه"[6]، مع أن الظَّاهر غازي - أيضاً - لم يصل بنفسه، فالأمر مُبيَّت، وأساس جمع الجُيُوش هُو قصد سنجار، وعلى الغالب؛ فإن تحرُّك الكرج جاء عَرَضاً، فأحسن العادل استغلاله. وأعلن العادل أنَّه سيتوجَّه لمعاقبة صاحب سنجار أوَّلاً، وأرسل إليه يطلب تسليم سنجار مُقابل عوض، فرفض ذلك[7]. وفي عام **605** هـ **1208**م، كان العادل يتحرَّك صوب سنجار، وفي طريقه أخذ نصيبين والخابور، ثُمَّ "نصب المجانيق، وقاتل سنجار، وأشرف على أَخْذها عنوة[8]".

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 57.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 191.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 75 ـ 58.

4 - زبدة حلب، ابن العديم، 2/ 630.

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 192.

6 - المنصُوري، ابن نظيف، 57.

7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 191.

8 - المنصُوري، ابن نظيف، 95 ـ 58.

عندما حاصر العادلُ سنجارَ كان نُور الدِّين صاحب المَوصل يهمُّ بإرسال نجدة عسكريَّة له مع ولده الظَّاهر عزّ الدِّين مسعود لتنفيذ الاتِّفاق المُسبق بينهما، وإذْ برسول مُظفَّر الدِّين كوكبوري صاحب إربل، الذي كانت له وُجهة نظر أُخرى، فقد شعر بأنَّ العادل قُوَّة كُبرَى في مُجاورتها خطر شديد عليه، وعلى المَوصل، فأنفذ رسوله إلى صاحب المَوصل، وشرح وُجهة نظره، وعرض عليه التحالف لإنقاذ سنجار، التي ستكون حاجزاً أمام أطماع العادل بممالكهم. هُنا؛ أدرك نُور الدِّين أنَّه استقدم أكبر الأخطار نحو حُدُوده، وخاف مغبَّة ما بعد سيطرة العادل على سنجار[1]، ورُبَّما كان مُظفَّر الدِّين كوكبوري حاكم إربل هُو مَنْ نمَّى هذا الخوف في نفس نُور الدِّين من خلال كُتُبه المُتواترة عليه، والتي يعرض فيها المُساندة، ويدعوه للتصدِّي للعادل، وتشكيل تحالف ضدَّه، فوافق نُور الدِّين، وراسلا الظَّاهر في حلب، فوافق، وانضمَّ إليهم، مع أن قُوَّة كبيرة من جيشه كانت مع العادل على سنجار. وأظهر غازي سبباً غير حقيقي لتبرير خُرُوجه على عمِّه، فقال: إن العادل قد تصرَّف بقرية القرادي التابعة لماردين، والتي حصل عليها الظَّاهر نتيجة عقد الصُّلح بين العادل وصاحب ماردين[2]، وبالطبع؛ فدوافعه الحقيقيَّة لا تخفى على أحد، فقُوَّة العادل في الشمال ستكون ضدَّه أيضاً، والظاهر لديه شكٌّ دائم بنوايا عمِّه، خاصَّة بعدما فعله بأخَويْه الأفضل والعزيز[3]. وراسل الحُلفاء الخليفة ليشفع لدى العادل بصاحب سنجار[4]، وما ذلك إلَّا لزيادة الضغط على العادل، وعَزْله سياسياً.

وأرسل مُظفَّر الدِّين إلى العادل يشفع في صاحب سنجار، "فلم يقبل، وقال: لا يجوز لي في الشرع تمكين هؤلاء من أخذ أموال بيت المال في الفساد، وترك خدمة الأجناد، وفي مصلحة الجهاد"[5]، فكانت حُجَّته هي المصلحة العامَّة، التي لا يُراعيها صاحب سنجار وفساده وإتلافه للأموال العامَّة، كما اتَّهمه بالتقصير بحقِّ الجيش، وبواجب الجهاد، إنَّها تهمة كبيرة وحُجَّة مُسوّغة في

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 190.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 190.

3 - يُضيف ابن العديم سبباً آخر لا نعتقد بصحَّته، وهُو أن الحُلفاء قد وعدوه بالسَّلْطَنَة، وأنْ تكون الخطبة والسكَّة باسمه في بلادهم، (زُبْدَة الحَلَب، 2/ 630).

4 - الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14/ 355.

5 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 630.

ذلك الزّمان. وكان ردُّ مُظفَّر الدِّين أنْ أفسد جماعة من عسكر العادل[1]، بأنْ استمالهم بالأموال والوُعُود بإقطاعات، ففسدت نيّاتهم عن مناصحة العادل بالقتال معه، وهذه طريقة للتعامل كانت شائعة جدّاً، فمُعظم الجُند جاهز سلفاً للاتّفاق مع مَنْ يدفع أكثر.

واستمرَّ حصار العادل لسنجار حتّى عام **606** هـ **1209**م، فطلب صاحبها قُطب الدِّين مُساعدة ابن عمِّه نُور الدِّين صاحب المَوصل، ومُظفَّر الدِّين صاحب إربل، ولمّا كان العادل قد رفض الشفاعة بسنجار، فتحرَّكا بعساكرهما نحوه[2]. كذلك خرج الظّاهر من حلب بقُوّاته، وأرسل للعادل يشفع بصاحب سنجار، وقال لرسولَيْه: "إنْ لم يقبل الشفاعة، فأعلِماه أني خارج إلى بلاده، وأنْ يأمرا عسكر حلب أنْ يُفارقوه إلى المَوصل، أو إلى حلب"[3]، وأرسل يُغري المُجاهد صاحب حمص، والمنصُور صاحب حماة بالعادل، فكانت الضربة القاسمة لوحدة البيت الأيُّوبي واجتماعه في القتال على سنجار، فتخاذل قُوّاد العادل عن القتال، وتآمر مُلُوك الأيُّوبيَّة الذين معه، لا سيما المُجاهد الذي كان يُدْخِل من جانبه الأقوات إلى سنجار[4]، وغالباً؛ فقد كانت للمُجاهد دوافعه الخاصَّة ضدَّ العادل، ولم يتصرَّف بذلك من أجل الأتابكة، أو بتحريض الظّاهر له[5].

وفي هذه الأثناء، أرسل الخليفةُ النّاصر رسولَهُ أبو نصر هبة الله بن المبارك بن الضحّاك، وهُو أُستاذ داره، والأمير آقباش، وهُو من خواصِّ مماليك الخليفة، للشفاعة بصاحب سنجار، وترك حصارها[6]. فلاحت فُرصة الخلاص من هذا المأزق للعادل، فأظهر قبول وساطة الخليفة، ووافق شريطة احتفاظه بنصيبين والخابور[7]، ويُضيف ابن الأثير شرطاً آخر له، هُو دُخُول سنجار في حلفه8، وربَّما كتب ابن الأثير ذلك تسويقاً لمواقف صاحب المَوصل المُستقبلية ضدَّ سنجار

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 630.
2 - الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 14/ 355.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 196.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 197.
5 - راجعْ: مملكة حمص الأيُّوبيَّة، مُنذر الحايك، 167.
6 - الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 14 / 355، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 197، - بينما يقول أبو شامة: " وأرسل الخليفة ابن الضحّاك أُستاذ داره آقباش الناصري يشفع إلى العادل" (ذَيل الرَّوضَتَيْن، 67)، وهذا خلط بين الشخصيَّتَيْن، رُبَّما كان ذلك بسبب خطأ في النسخ.
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 197.
8 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 9/ 302.

وصاحبها، فموضوع التحالف شيء غير مضمون، إن لم يكن عن رغبة صادقة ومصلحة حقيقيّة، لذلك لا نعتقد أن العادل قد اهتمّ كثيراً بشرط كهذا.

وقفة مع تحرُّكات الحُلفاء ضدَّ العادل في حصار سنجار:

1 ـ تدخَّل الظَّاهر غازي في حصار سنجار مدفوعاً بمصالحه وعدائه القديم للعادل، ولخشيته من تزايد نُفُوذ عمِّه في الشمال، فأوفد رسولَيْن للعادل بمهمَّة علنية، يطلب فيها الشفاعة لصاحب سنجار، وبمهمَّة سرِّيَّة لتبليغ القوَّات الحلبية في جيش العادل كي تعود إلى حلب، وأعلن أنَّه نقض اتِّفاقه مع العادل؛ لأنَّه احتلَّ قرية قرادي، ولم تكن القرية ذات بال، ولكنْ؛ وفي الحقيقة، كان الظَّاهر يفتش عن سبب.

2 ـ اتَّصل الحُلفاء بالملك المُجاهد صاحب حمص، الذي كان على رأس قوَّاته على حصار سنجار مع العادل، واستمالوه، فالمُجاهد ـ أيضاً ـ يهمُّه أن لا تتَّسع مملكة العادل، فقد يتفرَّغ له بعد أن شاهد تصرُّفه مع أولاد أخيه، وهم الأقرب له، "فأخذ المُجاهد ـ بدلاً من القتال على سنجار وتشديد الحصار عليها من جهته ـ يُدخل إليها الأغنام، وغيرها من الأقوات ظاهراً، ولا يُقاتل عليها"[1]، وكذلك اقتدى به غيره من الأُمراء المُحاصرين لسنجار[2].

3 ـ توحَّدت ـ بشكل غير مُتوقَّع ـ قُوَّات مُظفَّر الدِّين كوكبوري مع قُوَّات نُور الدِّين، ثُمَّ تحرَّكا نحو سنجار، بعد أن أرسلا يشفعان لصاحب سنجار، ورفض العادل[3].

4 ـ ويبدو أن تزايد أنصار الحلف الشمالي ضدَّ العادل، وتخاذل أصحابه، وتفرُّقهم، وتدخُّل الخليفة بقُوَّة بإرساله شخصيَّة مُهمَّة في السِّفارة إلى العادل هُو بهاء الدِّين بن الضحَّاك أُستاذ دار الخلافة، يقول ابن الأثير حول إنفاذ مثل هذا الرسول: "وناهيكَ بهذا شرفاً وجلالة وقدراً لنُور الدِّين عند أمير المُؤمنين؛ إذْ يُنفذ مثل أُستاذ داره[4]، ومعه الأمير آقباش من خواصّ مماليك الخليفة"[5]، فاضطرَّ العادل لقبول الوساطة، وفكّ الحصار عن سنجار[6].

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 286.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 197.

3 - الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكّار، 14/ 355.

4 - الباهر، ابن الأثير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكّار، 14 / 355.

5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 287.

6 - المنصُوري، ابن نظيف، 59، والباهر، ابن الأثير، 196، ـ ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 197.

5 - إن قبول العادل لوساطة الخليفة ما هو إلَّا مخرج حفظ به ماء وجهه، فقد أيقن بفشل الحصار، وتأكَّد من تخاذل بني أيُّوب من حوله، وأن الأُمُور تكاد أن تنقلب عليه، فكانت وساطة الخليفة إنقاذاً له بالدرجة الأُولى.

ونستنتج من كُلِّ ذلك أن البيت الأتابكي بعلاقاته السِّياسيَّة والعسكريَّة لم يكن مُكافئاً للبيت الأيُّوبي، لا من حيثُ القُوَّة والتأثير، ولا من حيثُ وحدة البيت الأتابكي، فلم يكن لهم وزن إقليمي مُؤثِّر قادر على إحداث تغيُّرات جذرية في شمال العراق والجزيرة، حتَّى في حال استغلالهم لخلافات البيت الأيُّوبي، ونجد - على الدوام - أن مُعظم أُمراء الأتابكة يخضعون لسُلطان الأيُّوبيَّة، ويدعمونهم بالنجدات، ويخطبون لهم وينقشون اسمهم على السّكَّة في بلادهم، في مُعظم هذه المرحلة من الزمن. إلَّا أن عهد التفوُّق الأيُّوبي الكامل، والانفراد بالزعامة، قد تمَّ بوفاة نُور الدِّين أرسلان شاه صاحب المَوصل عام 607 هـ 1210م، واقتسام طفلَيْه الصغيرَيْن مملكته[1]، وبدء وصاية بدر الدِّين لُؤلُؤ مملوك أرسلان شاه [2]على المَوصل. وبأبسط الطُّرُق زالت عقبة كأداء من أمام الملك العادل، وتحقَّق له الاطمئنان والراحة على حُدُوده الشَّرقيَّة[3].

العلاقات مع الأتابكة في عهد الأشرف:

بعد موت السُّلطان العادل 615 هـ 1218م، كان الصُّلح بين الأيُّوبيَّة والأتابكة، الذي عُقد على أسوار سنجار مايزال قائماً، وحاول الملك الأشرف وهُو أقوى مُلُوك شمال الشَّام أن يحافظ على علاقاته مع الأتابكة ومُلُوك الأطراف على أساس ذلك الاتِّفاق، لكنَّ مُستجدَّات الأُمُور سبقتْهُ. ففي العام نفسه تُوفِّي عزّ الدِّين مسعود بن أرسلان شاه صاحب المَوصل[4]، فتحرَّك عماد الدِّين زنكي بن أرسلان شاه صاحب قلاع الحميدية وعقر وشوش، واستولى على عدد من قلاع المَوصل، ولمَّا تصدَّى

---

1 - تولَّى في المَوصل عزّ الدِّين مسعود بن نُور الدِّين أرسلان شاه، وكان عمره عشر سنين. وتولَّى أخوه الأصغر عماد الدِّين زنكي قلاع: عقر الشوش والحميدية.

2- بدر الدِّين لُؤلُؤ: ابن عبد الله، الملك المسعود أبو الفضائل الأتابكي الرُّومي، مملوك أرمني اشتراه أرسلان شاه، وتمكَّن عنده، حتَّى وثق به، فولاه الوصاية على ابنه. ترجمته في: الباهر، ابن الأثير، 23، والكامل، ابن الأثير، 12 / 238، ومجمع الآداب، ابن الفوطي، 4 / 171، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 2 / 126.

3 - الأيُّوبيُّون في شمال الشَّام والجزيرة، محمود ياسين التكريتي، 152.

4 - ذَيْل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، 114.

له لُؤلُؤ الوصي على أمير المَوصل الصغير نُور الدِّين أرسلان شاه ابن عزّ الـدِّين مسعود، هزمـه عـماد الدِّين بدعم ومُساعدة فعَّالة من مُظفَّر الـدِّين كوكبوري صـاحب إربـل، فلـم يجـد لُؤلُـؤ أمامـه إلَّا الالتجاء إلى الأشرف[1].

أرسل الأشرف إلى كوكبـوري يُـذكِّره بمُعاهـدة سـنجار، ويُهـدِّده، لكـنَّ كوكبـوري لم يلتفـت لتهديده، فالأخبار كانت قد تسرَّبت بأنَّ الفرنج قد هـاجموا مـصر، وأنَّهـم أخـذوا دميـاط، وأن الأيُّوبيَّـة بكاملهم مشغولون بالدفاع عن مرتكز حُكْمهم في مصر. وهذا ما شجَّع مُلُوك الأطـراف الآخـرين عـلى تشكيل حلف مُعادٍ للأشرف في شمال الشَّام، واتَّفقوا على طاعـة عـزّ الـدِّين كيكـاوس سُـلطان سـلاجقة الرُّوم، وخطبوا له على منابر بلادهم. وانضمَّ إلى الحلف كُلٌّ من: صاحب آمد، وصاحب ماردين[2].

ولكنْ؛ مع كُلِّ الظُّرُوف الصعبة التي قامت في وجه الأشرف، فقد أرسل نجدة عسكريَّة قويَّة إلى لُؤلُؤ، مكَّنته من هزيمة عماد الـدِّين عـام 616 هــ 1219م، عنـد قلعـة العقـر، فهـرب إلى إربـل مهزوماً، واستعاد لُؤلُؤ قُوَّته في المنطقة، وَسَيَّرَ نجدةً قويَّة مع ابنـه إلى الأشرف، الـذي أراد أن يـضرب بلاد الفرنج في الساحل ليُخفِّف ضغطهم على الكامل في مصر. وتحرَّك كوكبوري من جديد، وضغط على المَوصل، وتمكَّن من هزيمة لُؤلُؤ، الذي هرب، ودخل المَوصل[3]. وازداد ضغط كوكبـوري عـلى الأشرف، فقد راسل بعض أُمرائه، واستمالهم، فتركوا الأشرف، والتحقوا به، ومنهم ابـن المـشطوب. وعندما أخذت قُوَّة التحالف تزداد وتبرز ضدَّ الأشرف، انهار هذا الحلـف فجـأة، فقـد تُـوفِّي زعيمـه كيكاوس، واستغلَّ الأشرفُ الفُرصة، ففاوضَ صاحب آمد، فتخلَّى عن الحُلفـاء، وانحـاز لـلأشرف مُقابل حُصُوله على مدينة حاني وجبل جور[4]. وسارع أعضاء الحلف لإعلان ولائهم للأشرف.

وتحرَّك الأشرف بقُوَّاته نحو المَوصل؛ لينهي أمر إربل، وفي الطريـق؛ تلقَّـاه صـاحب سـنجار محمود فروخ شاه، وطلب منه استلام سنجار وتعويضه الرقَّة بدلاً عنها، فأخذها الأشرف، وزال منها

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 335 ـ 337.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 342.
3 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 91.
4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 342.

حُكْم الأتابك نهائيّاً[1] عام 617 هـ 1220م[2]، وتـابع الأشرف مسيرته، وقُـرب المَوصـل جاءتـه رُسُلُ الخليفة للتوسُّط بالصُّلح، ورُسُلُ كوكبوري بإعادة القلاع للمَوصل، فقبل الصُّلح، وعاد[3].

وهُنا نُلاحظ أنّه بغياب أي استراتيجية دينيَّة كانت أو وطنيـة للممالـك في علاقاتهـا الـسِّياسيَّة والعسكريَّة يبرز دور القائد الملك، وهُو غالباً ما يتحرَّك وُفقاً لمطامعه الشخصية، وأهوائه، وإذا مات، فقد تنقلب سياسة الدولة رأساً على عقب، وتنهـار الاتِّفاقيـات والأحـلاف كـما حـصل عنـد مـوت كيكاوس سُلطان سلاجقة الرُّوم.

العلاقات الأيُّوبيَّة مع المَوصل بعد زوال حُكْم الأتابكة:

نتيجة لعدم ظُهُور شخصيَّات قويَّـة، وللخلافـات وطمـع الإخـوة وأبنـاء العـمّ بمُمتلكـات بعضهم البعض، زال الحُكْم الأتابكي من المَوصل وسنجار. فقد تسلَّم الأشرف سنجار عام 617 هـ 1220م "عفواً بلا تعب"، بينما عجز أبوه العادل عنها، ومعه جميع مُلُوك البيت الأيُّوبي، فقـد بادلهـا صاحبها محمود فروخ شاه بن قُطب الدِّين بالرقَّة، لكنَّ الأشرف ما لبـث ـ بعـد ذلـك ـ أن أخـذ منـه الرقَّة أيضاً[4]. وفي عام 621 هـ 1224م، أظهر بدر الدِّين لُؤلُؤ أن ناصر الدِّين محمود ابن عزّ الـدِّين مسعود قد مات، واستولى على حُكْم المَوصل، الذي كان بيده فعليّاً مُنْذُ وفاة عـزّ الـدِّين مـسعود عـام 615 هـ 1218م[5].

وكان الملك الأشرف مايزال يُمثِّل أكبر قُوَّة أيُّوبية في المنطقة، وتوجُّهاته الـسِّياسيَّة تلتقـي مـع توجُّهات الظَّاهر في حلب، ومع سياسـة أخيـه المُعظَّـم في دمـشق، ومـع اعـتراف الأشرف الاسـمي بالسَّلْطَنَة لأخيه الكامل ملك مصر، إلَّا أنَّه كـان مباينـاً لـه في البـاطن[6]. لكـنَّ الأشرف تحـوَّل عـن

---

1 - المُختصر ، أبو الفداء، 3/ 125، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 343.

2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، موسوعة 20/ 239، ومفرج الكروب، ابن واصل، 4/ 73، ـ بينما هي سنة 616 هـ لدى ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 12 / 343.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 242، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 333 ـ 346.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 73.

5 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 91.

6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 20 / 246.

سياسته هذه، وتحالف مع أخيه الكامل ضدَّ أخيه المُعظَّم، بعد عودتهم من معركة دمياط 618 هـ 1221م، التي تجمَّع فيها البيت الأيُّوبي بكامله ضدَّ الفرنج، وحقَّقوا نصراً عظيماً عليهم.

ولمَّا وجد المُعظَّم نفسه مُحاصراً بين أخوَيْه: الأشرف في الشمال، والكامل في الجنوب، تحرَّك صوب الجزيرة، وبدأ يُفتِّش عن حُلفاء ليتقوَّى بهم من جهة، وليشغل بال الأشرف بهم من جهة أُخرى. وكان أوَّل حُلفائه هُناك هُو مُظفَّر الدِّين صاحب إربل، ففي عام 623 هـ 1226م، أرسل إليه المُعظَّم في هذا الشأن مع الشرف بن عنين الشاعر الدمشقي المعروف بالهجَّاء، وعاد منه بجواب الرسالة[1]، ولتأكيد التحالف، وتعبيراً عن نجاحه، أرسل المُعظَّم عيسى ابنه النَّاصر داود إلى إربل ليُقيم في بلاط مُظفَّر الدِّين[2]. وكذلك تمكَّن المُعظَّم من توثيق تحالفه مع صاحب ماردين وغيره من أُمراء الجزيرة[3]، الذين كانوا يخشون تزايد قُوَّة الأشرف في شمال الشَّام.

وتمخَّض تحالف المُعظَّم مع مُظفَّر الدِّين عن خُطَّة هُجُومية تتمُّ بوقت واحد؛ حيثُ يُهاجم كُلٌّ منهم البلاد المُجاورة له، فتوجَّه مُظفَّر الدِّين نحو المَوصل، وتوجَّه المُعظَّم نحو حماة وحمص[4]، لكنَّ ضغط الكامل والأشرف على المُعظَّم جعله يتراجع نحو دمشق دُون تحقيق أيِّ فائدة[5]. ولعدم نجاح المُعظَّم في الشَّام فشل مُظفَّر الدِّين، وارتدَّ عن المَوصل.

المَوصل تَستردُّ سنجار:

تُوفِّي الملك المُعظَّم بن العادل عام 624 هـ 1227م، وخلفه في دمشق ابنه النَّاصر داود، وفي عام 625 هـ 1228م، قام كُلٌّ من: الكامل ملك مصر والأشرف صاحب الجزيرة بحصار دمشق، وعندما احتلاَّها أخذها الأشرف مُقابل تسليمه عدَّة مواضع في الجزيرة للكامل، منها: الرقَّة، والرُّهَا، وسنجار[6]. فوضع الملك الكامل ابنَهُ العادل ولياً لعهده في مصر، وولَّى بلاد الجزيرة لابنه الصَّالح أيُّوب.

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 124.

2 - المنصُوري، ابن نظيف، 110.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 125.

4 - المنصُوري، ابن نظيف، 125، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 176.

5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 257.

6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 479، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 140، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 473.

في عام 635 هـ 1238م، بعد وفاة الأشرف أخذ الكامل دمشق من الصَّالح إسماعيل، الذي تولاَّها بوصية من الأشرف[1]. وبعد ذلك؛ بأشهر قليلة تُوفِّي الكامل، فاستقلَّ ابناه، كُلٌّ منهما بما تحت يده، وولَّى أُمراء الكامل ابن أخيه الجواد يُونُس بن ممدود بن العادل نائباً بدمشق، عن العادل بن الكامل سُلطان مصر[2]. وعجز الجواد عن القيام بأمر دمشق، وخاف من العادل؛ لأنَّه لم يُقرّه في نيابتها، فبادل الصَّالح أيُّوب على دمشق بالرقَّة وسنجار، وعانة[3]، وأقام الجواد في سنجار، وطلب معاضدة لُؤلُؤ حاكم المَوصل، فأجابه مُضمراً له الخديعة والغدر، ولاطفه، حتَّى تمكَّن من الاستيلاء على سنجار، وطرده منها[4]، وهكذا عادت سنجار إلى مملكة المَوصل في ظلِّ دولة بدر الدِّين لُؤلُؤ[5]، الذي خلف أتابكة المَوصل الزنكيين، والذي كانت سياسته وعلاقاته مع الأيُّوبيِّين استمراراً لعلاقة الأتابكة، وقد فرض ذلك الاستمرار موقع المَوصل، ومصلحة القائم بدولتها أيّ كان.

وفي عام 646 هـ 1248م، في عهد الملك النَّاصر الثَّاني صاحب حلب، استغلَّ بدر الدِّين لُؤلُؤ صراع النَّاصر مع أيُّوب على حمص، فاحتلَّ حصَّة حلب من نصيبين، ونهب عدَّة مناطق تابعة لها، مثل: دار، ورأس عين، فأرسل النَّاصر جيشه، وهزم لُؤلُؤاً، واستعاد نصيبين بالكامل، بما فيها حصَّة المَوصل، فسارع لُؤلُؤ إلى الخليفة ليُرسل إلى النَّاصر مُتوسِّطاً بالصُّلح بينهما، فتنازل النَّاصر عن نصيبين، التي كانت مصدر الخلافات بين الطرفَيْن، مُقابل مبلغ سنوي من المال يدفعه لُؤلُؤ[6]، وفي الحقيقة؛ يُمكن أن يُفسَّر هذا التنازل من قبل النَّاصر، وهُو الطرف الأقوى، برغبته للتفرُّغ لحرب

---

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 317، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 493.
2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 389، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 498.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 498
4 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 30.
5 - حكم لُؤلُؤ المَوصل مُدَّة خمسين عاماً، ولمَّا قدم التَّتار عاهدهم، وحالفهم، وقاتل معهم، وقابل هُولاكُو عدَّة مرَّات، وكان هُولاكُو يثق به، فسلَّمه عدَّة بلاد، وتُوفِّي لُؤلُؤ عام 659 هـ 1261م، عن ستَّة وتسعين عاماً، ففوَّض هُولاكُو مُلكه إلى ابنه الملك الصَّالح، الذي كان قد زوَّجه ابنة جلال الدِّين الخوارزمي، وانتفض الصَّالح على التَّتار، وحالف بيبرس سُلطان مصر، فأمدَّه بالجُنود، لكنَّ زوجته راسلت التَّتار، فهاجموا المَوصل، وبعد صُمُود بطولي، قتلوه شرَّ قتلة.(جامع التواريخ - هُولاكُو، رشيد الدِّين، 327 - 332).
6 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 1/ 138، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 180، وتاريخ ابن الوردي، 2/ 264، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 412.

أيُّوب القادم بجُيُوش مصر لحصار حمص، وانتزعها منه[1]. ثُمَّ عاد بدر الدِّين لُؤلُؤ ليستغلَّ انشغال النَّاصر الثَّاني بحربه ضدَّ المماليك في مصر، فاحتلَّ جزيرة ابن عُمر عام 649 هـ 1251م، واعتقل الملكُ المسعودُ آخرَ مُلُوك الأتابكة الزنكيين فيها، مُنهياً هذه الدولة إلى الأبد[2].

وفي النِّهاية؛ نُلاحظ أنَّه بعد أن فَقَدَ الأتابكةُ الأملَ باسترداد الشَّام، التي كانوا يعدُّونها ميراثهم الشرعي من نُور الدِّين، وبعد عدَّة معارك غير مُجدية مع صلاح الدِّين، وتسلّمه حلب منهم، هادنوه، ودعموه في جهاده ضدَّ الفرنج، ولكنْ؛ بعد موت صلاح الدِّين حاول الأتابكة الانقضاض على أخيه ووريثه في الجزيرة الملك العادل، وجمعوا جُيُوشهم، وحالفوا أُمراء الجزيرة، لكنَّهم ـ في النتيجة ـ عادوا حُلفاء مُقرِّين بخُضُوع اسميٍّ للعادل، ولابنه الأشرف، وصحيح أن دولة الأتابكة عاصرت الدولة الأيُّوبيَّة، ولكنَّها لم تكن ـ في يوم من الأيَّام ـ نـدَّاً لها، ولم تُشكِّل أيَّ خطر عليها، فقد كان الأتابكة مُنقسمين مُتحاربين، مُتحاسدين، مُتباغضين، لا يليقون بميراث عماد الدِّين الزنكي ونُور الدِّين محمود. ولذلك سارت دولتهم من ضعف إلى أضعف، حتَّى استولى عليها مملوك لهم هُو بدر الدِّين لُؤلُؤ.

الملُوك الأتابكة:

في الموصل:

1 ـ قسيم الدولة آق سنقر: ت 487 هـ 1094م.

2 ـ عماد الدِّين زنكي: 521 ـ 541 هـ 1127 ـ 1146م.

3 ـ سيف الدِّين غازي: 541 ـ 544 هـ 1146 ـ 1149م.

4 ـ قُطب الدِّين مودود: 544 ـ 565 هـ 1149 ـ 1169م.

5 ـ سيف الدِّين غازي: 565 ـ 576 هـ 1169 ـ 1180م.

6 ـ عزّ الدِّين مسعود: 576 ـ 589 هـ 1180 ـ 1193م.

1- مملكة حلب، كمال بدور، 145.

2- الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3 / 2 / 238.

7 ـ نُور الدِّين أرسلان شاه: 589 ـ 606 هـ 1193 ـ 1210م.

8 ـ عزّ الدِّين مسعود:606 ـ 615 هـ 1210 ـ 1218م.

9 ـ نُور الدِّين أرسلان شاه: 615 ـ 616 هـ 1218 ـ 1219م.

10 ـ ناصر الدِّين محمود: 616 ـ 630 هـ 1219 ـ 1233م.

في سنجار:

1 ـ عماد الدِّين زنكي: 511 ـ 593 هـ 1117 ـ 1197م.

2 ـ قُطب الدِّين مُحمَّد: 539 ـ 616 هـ 1179 ـ 1219م.

3 ـ عماد الدِّين شاهنشاه: 616 هـ 1219م.

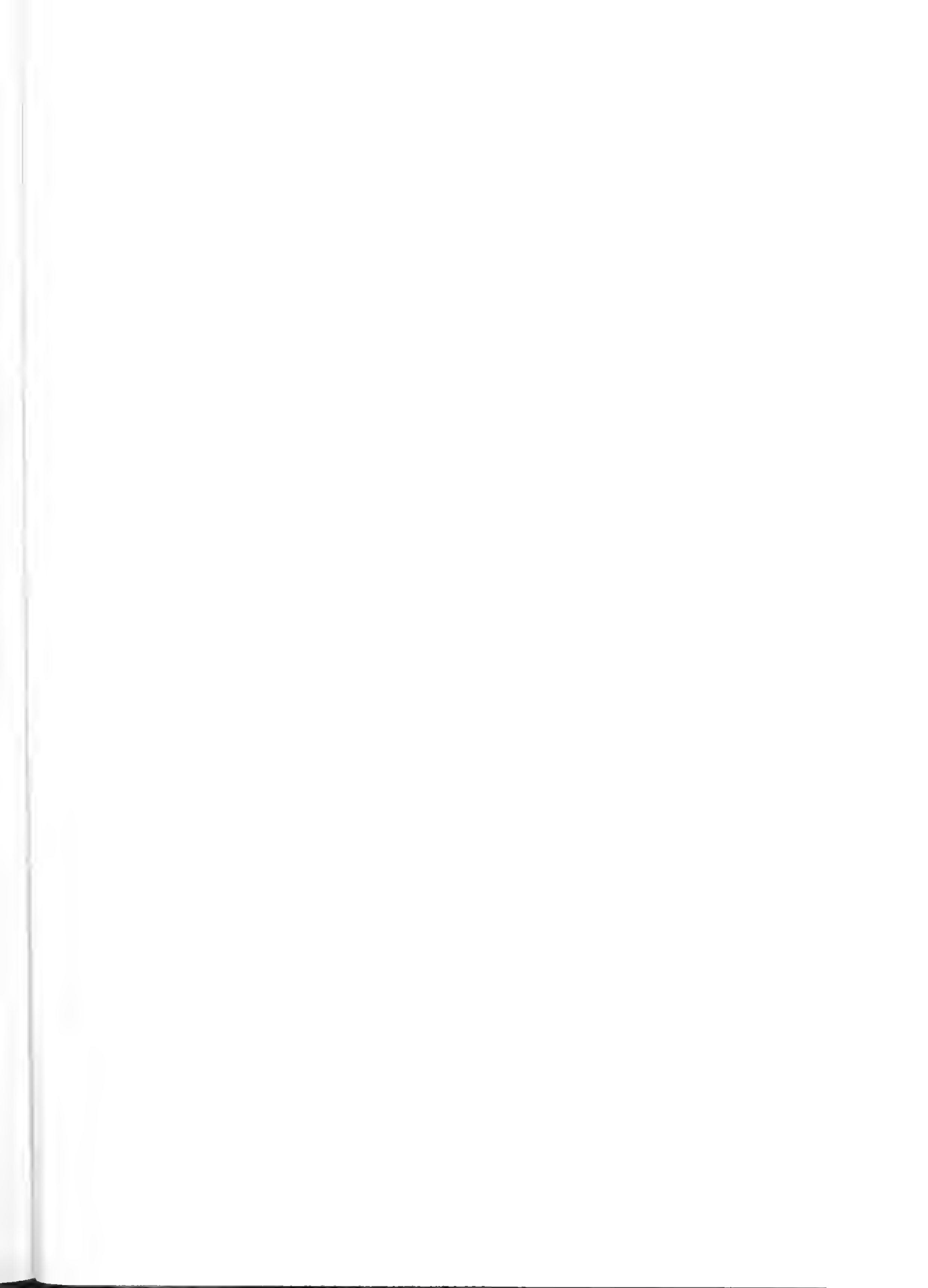
4 ـ جلال الدِّين محمود فروخ شاه:616 ـ 617 هـ 1219 ـ 1220م.

في جزيرة ابن عُمر:

1 ـ معزّ الدِّين سنجر شاه: 576 ـ 605 هـ 1180 ـ 1208م.

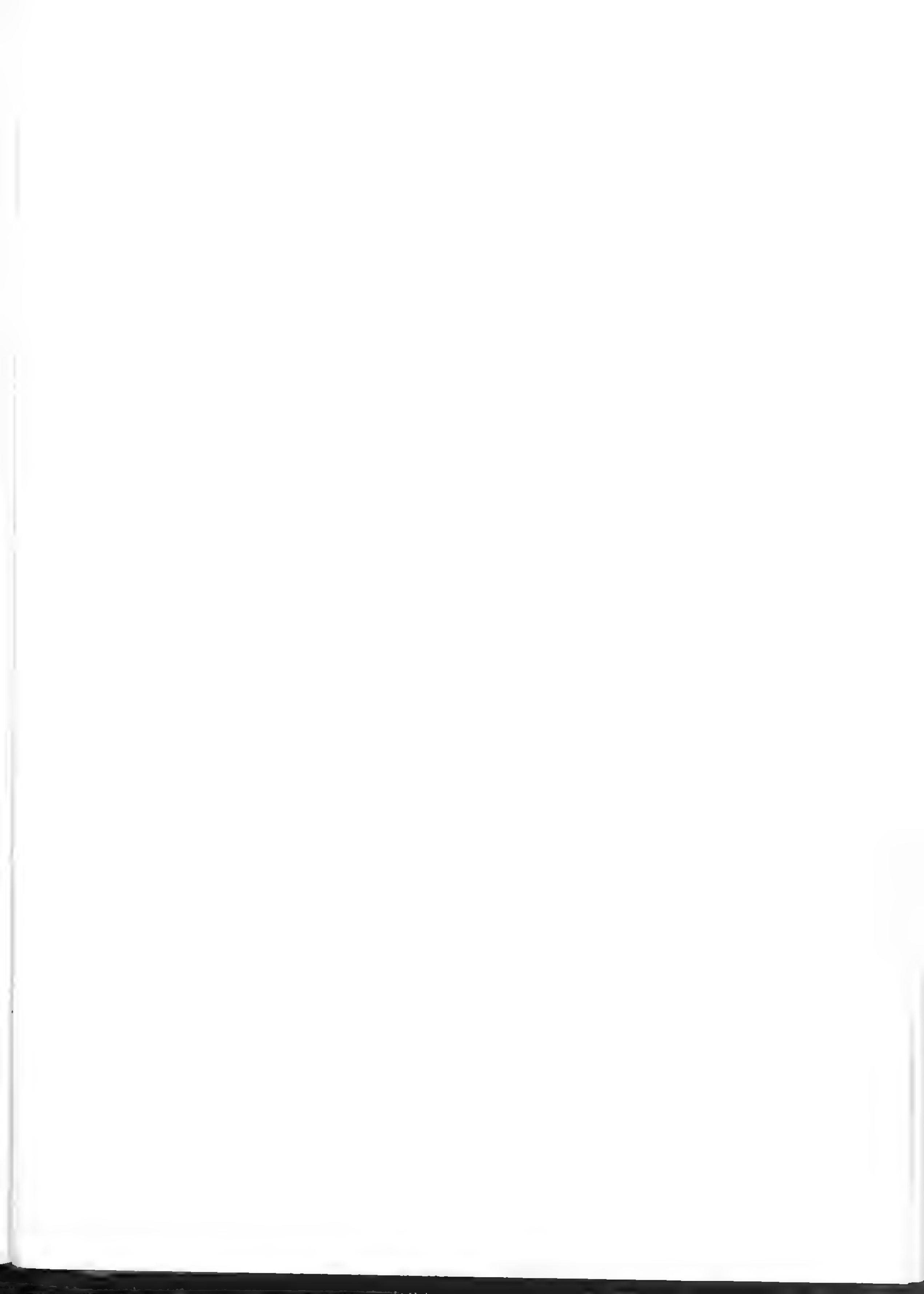
2 ـ محمود بن سنجر شاه: 605 ـ 639 هـ 1208 ـ 1241م.

3 ـ المسعود بن محمود: 639 ـ 649 هـ1241 ـ 1251م.



القسم الرَّابع

العلاقات الدّوليَّة للممالك الإسلاميَّة



الفصل الأوَّل

العلاقات الخارجيَّة

لدولة الخلافة العبَّاسيَّة

المبحث الأوَّل

صحوة الخلافة العبَّاسيَّة

انتعشت الخلافة العبَّاسيَّة بعد تفتُّت دولة السلاجقة، واضمحلالها، فقد تخلَّصت من تسلُّط سلاطين السلاجقة، وتحكُّمهم فيها، وخلافاتهم، وحُروبهم، التي عطَّلت البلاد، وأودتْ بالعباد. وصحيح أن منصب الخليفة ظلَّ على الدوام مرجعية دينيَّة وشرعية لا يُستغنَى عنها لأيِّ حاكم مُسلم، فإن قُوَّة هذه الشرعية كانت تتعلَّق بشخصية الخليفة، وقدرته على تجسيد منصبه، وغالباً؛ كان الخُلفاء العبَّاسيون في هذه المرحلة المُتأخِّرة من دولتهم غير جديرين باسم الخلافة، وغير مُؤهَّلين لتمثيل الشرعية العُظْمَى للدُّول الإسلاميَّة كافَّة، فتحوَّلت الخلافة إلى رمز، وصارت السُّلطة الحقيقيَّة بيد الأُمراء المُتغلِّبين، بما عُرِفَ باسم: إمارة الاستيلاء[1]، لذلك ارتفعت بعض الأصوات تُطالب بتوحيد الخلافة والسَّلطنة بيد السُّلطان المُسيطر[2].

ومع عودة السُّلطة للخليفة في بغداد، غدا منصب الخلافة يعني - فيما يعنيه - حاكم أواسط العراق، وهي المناطق التي تتبع لبغداد، وهي قابلة للزيادة والنُّقصان. وفي عام **575 هـ 1179**م، تولَّى عرش الخلافة العبَّاسيَّة الخليفة النَّاصر لدين الله أحمد أبو العبَّاس بن الخليفة المُستضيء، وكان الخليفة النَّاصر يتمتَّع بشخصية قويَّة، فتمكَّن من إعادة الهيبة لمنصب الخلافة، وأعاد السيطرة على عدَّة مناطق لم يمتدّ إليها نُفُوذ الخُلفاء مُنْذُ زمن طويل. "وكان النَّاصر قد ملأ القُلُوب هيبة وخيفة، فكان يرهبه أهل الهند ومصر كما يرهبه أهل بغداد، فأحيا بهيبته الخلافة، وكانت قد ماتت بموت المعتصم"[3].

---

1 - الأحكام السُّلطانية، الماوردي، 31.

2 - غياث الأُمم في التياث الظّلم، الجويني - إمام الحرمين، 226.

3 - تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 405.

"واستولى مع العراق على إقليم خوزستان، وغيرهما من الأطراف، وملك همذان، وأصفهان"[1]. وكان للخليفة النّاصر "أصحاب أخبار في العراق، وسائر الأطراف، يُطالعونه بجُزئيات الأُمور، وكُلّيّاتها"[2]. وأمضى "الخليفة النّاصر مُدّة حياته في عزّة وجلالة وقمع للأعداء، وكان شديد الاهتمام بمصالح الملك ... واستمرّ خليفة سبعاً وأربعين سنة"[3].

وفي عهد الخليفة النّاصر؛ عظم شأن سُلطان الخَوَارزميّة علاء الدِّين مُحمّد بن تكش، الذي أراد أن يكون له ما كان لسلاطين السلاجقة من نُفُوذ في بغداد، بعد أن استولى على دولتهم، فطلب من الخليفة أن تكون له دار السّلطنة في بغداد مع شُحنة من العساكر فيها، فرفض الخليفة، ممّا أزّم العلاقة بينهما، فقام الخوارزمي بالطعن بصحّة ولاية الخليفة، وحصل على فتوى بخَلْعه، ونوى تنصيب خليفة في بلاده، والتوجُّه لنزع خليفة بغداد بالقُوّة، وتحرّك بالفعل نحوه، واحتلّ عدّة مناطق تابعة للخليفة، لكنّه ـ بسبب ظُرُوف خارجة عن إرادة الطرفَيْن ـ فشلت حملته على بغداد، وعاد نحو الشّرق.

وكان سلاطين الخَوَارزميّة، علاء الدِّين ومن بعده ابنه جلال الدِّين، يدّعون بأنّ الخليفة النّاصر قد راسل التّتار، وأنّه هُو الذي حسّن لهم غزْوَ بلاد الخَوَارزميّة، وأَطْمَعَهُم فيها[4]، ويقول ابن واصل ـ بعد ذكْره لهذا الخبر ـ: "فإنْ كان صحّ ذلك، فقد قدّر الله ـ تعالى ـ انقطاع الدولة بهم"، فهُو لا يُؤكّد ولا ينفي، بل يُذكّر بالنتيجة، فإنْ كان ذلك صحيحاً، فإن التّتار هُم مَنْ قضى على الدولة العبّاسيّة، وأزالوها من الوُجُود.

بينما يُؤكّد ابن آيبك ـ نقلاً عن صاحب كتاب تاريخ بغداد ـ الواقعة بحذافيرها، يقول: "قال ابن واصل صاحب تاريخ بغداد: شهدت على جماعة من سراة الناس من أرباب دولة بغداد – كلّ يذكر ويتقلّد في ذمته ـ أن الإمام النّاصر كَتَبَ إلى التّتار يستدعيهم إلى البلاد، ويُهوّن عليهم العُبُور إلى

1 - مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 170.
2 - مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 163.
3 - تاريخ البغدادي ورحلته، عبد اللطيف البغدادي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 14 / 74.
4 - مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 170.

الأقاليم، ويُصغِّر عندهم أمر السُّلطان علاء الدِّين خوارزم شاه، كُلُّ ذلك خوفاً منه؛ لئلا يحضر إلى بغداد، وتعود الخلافة كما كانت أيَّام بني سلجوق"[1].

أمَّا ابن الأثير؛ فيُلمِّح إلى ذلك تلميحاً، مُتحاشياً ذكْر الخليفة، يقول وهُو يتحدَّث عن أسباب خُرُوج التَّتار: "وقيل في سبب خُرُوجهم إلى بلاد الإسلام غير ذلك ممَّا لا يُذكَر في بُطُون الدفاتر.

فكان ما كان ممَّا لستُ أذكره فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر "[2]

ثُمَّ يصرح ابن الأثير بما أحجم عنه أوَّلاً، فيقول: "وإنْ كان سبب ما ينسبه العجم إليه صحيحاً من أنَّه هُو الذي أَطْمَعَ التَّتَر في البلاد، وراسلهم في ذلك، فهُو الطَّامَّة الكُبْرَى، التي يصغر عندها كُلُّ ذنب عظيم"[3].

ومع أن ابن الأثير يذكر ما نسبه العجم أو الخَوَارزميَّة إلى النَّاصر دُون أن يُؤكِّد، أو ينفي، لكنْ؛ يظهر أنَّه يميل لتصديقه لُمجرَّد عودته لذكْر الأمر، وإلَّا لنفاه عن الخليفة، ولَمَا شدد في تبيان فظاعة هذا العمل. وتكرَّرت الاتِّهامات زمن الخليفة المُستعصم؛ حيثُ اتَّهم كثير من المُؤرِّخين الوزير ابن العلقمي بالتعامل مع التَّتار، وتسهيل دُخُولهم إلى بغداد[4].

---

1 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7 / 217.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 362

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 440.

4 - راجعْ تفصيل ذلك في معرض دفاع حسن الأمين عن ابن العلقمي (الغزو المغولي، 89 ـ 106).

المبحث الثّاني

تنظيم الفُتُوَّة

لعب نظام الفُتُوَّة دوراً كبيراً في العلاقات الدّوليّة بين الخلافة العبّاسيّة والعديد من الممالك الإسلاميّة، وعلى الخصوص الممالك الأيُّوبيّة، وذلك من خلال الهدف السّياسي البعيد، الذي حاولت الخلافةُ العبّاسيّة الوُصُولَ إليه عبر تنظيم الفُتُوَّة، وهُو إعادة فرض سيطرتها على تلك الممالك بأُسلُوب جديد.

يقوم نظام الفُتُوَّة ـ أساساً ـ على مكارم الأخلاق، فهُو: "أنْ تُقرِّب مَنْ يُبغضكَ، وتُكرِم مَنْ يُؤذيكَ، وتُحسن إلى مَنْ يُسيء إليكَ"، وهذه أُمُور حسنة مطلوبة، سُمِّيَتْ فُتُوَّة أم لم تُسمَّ[1]، وقد شهد هذا النظام ذروة مجده مع الخليفة العبّاسي النّاصر لدين الله. "كان الخليفة النّاصر شابّاً مرحاً"[2]، وبالتّأكيد؛ كان يمتلئ بالحيوية والرجولة، "والناس يتهيَّبون لُقياه"[3]، فانعكست قُوَّة شخصيَّته على قُوَّة منصب الخلافة، والتمس النّاصر طريقة جديدة لتقوية نُفُوذه على الممالك الإسلاميّة المُختلفة، التي تدين له بنُفُوذ معنوي، وليس له عليها أيُّ تأثير سياسي حقيقي، فسعى لتزويد منصب الخلافة بسُلطة أُخرى غير سُلطة الشرعية، تتمثّل بسُلطة اجتماعيّة سياسيّة أخلاقية، تُؤدِّي ـ بحال انتشارها ـ إلى التفاف الجميع حول منصب الخلافة، الذي يرأس هذه السُّلطة، أو المُنظَّمة الجديدة، بغَضِّ النظر عن الاختلافات المذهبية للأتباع، ورأى أن ذلك يتحقَّق من خلال تنظيم الفُتُوَّة[4].

لم تكن الفُتُوَّة أمراً جديداً في الدولة العَرَبيّة الإسلاميّة، فهي معروفة كتنظيم مُنذُ زمن ليس بالقريب، وقد تجلَّت فيها رُوح الفُرُوسيّة العَرَبيّة، ومكارم الأخلاق العَرَبيّة الإسلاميّة. وتعود بعض الأقوال بالفُتُوَّة إلى عهد الرسول (ص) الذي ألبس الإمام عليّ لباس الفُتُوَّة، وممّا يُقال: إنّ هذا اللّباس أُنزل على النّبي في صُندُوق، ويستدلُّون على ذلك بالآية: يا بني آدم، قد أنزلنا عليكم لباساً يُواري

---

1 - الفُتُوَّة عند العَرَب، الدسوقي، 250.
2 - تاريخ البغدادي ورحلته، عبد اللطيف البغدادي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكّار، 14 / 74.
3 - تاريخ البغدادي ورحلته، عبد اللطيف البغدادي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكّار، 14 / 74.
4 - الشّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشّيخ، 242.

سوأتكم ، ويذكرون تسلسلاً يمتدُّ من الإمام عليّ، إلى أنْ يصل إلى الخليفة النَّاصر لدين الله، الذي أحيا نظام الفُتُوَّة[1].

وكان صاحب الفُتُوَّة في بغداد أيَّام الخليفة النَّاصر هُو الشَّيخ عبد الجبَّار، فأحضره الخليفة، "وأعطاه خمسمائة دينار، وخلع عليه، وعلى ولده، وكان شيخاً حسناً، له أتباع كثيرون"[2]. ممَّا يعني أنَّه تنازل للخليفة عن منصب رئيس الفتيان، وما قام به الخليفة النَّاصر - بعد ذلك - هُو عملية إعادة تنظيم ورعاية لهذه المنظمة، فجعله ذلك رجلها الأوَّل، ورئيسها، ثُمَّ حدَّد قواعدها، ونشرها، وانتسب إليه في الفُتُوَّة أكابر الناس والمُلوك. ففي عام **607** هـ **1210**م، طلب الخليفة النَّاصر من كُلِّ مُلُوك المُسلمين أن ينتموا إليه في الفُتُوَّة، ويعدُّونه إمامهم بها، على أن تنتمي رعية كُلٍّ منهم إلى ملكها[3].

نظام الفُتُوَّة:

وقد وُضع للفُتُوَّة شُرُوط خاصَّة يجب أن تنطبق على مَنْ ينتمي إليها، ومنها: صدق الحديث، وأداء الأمانة، وأداء الفرائض، واجتناب المحارم، ونصرة المظلوم، وصلة الرحم، والوفاء بالعهد، وغيرها من قواعد الأخلاق التي حضَّ عليها الإسلام[4]. وكانت هُناك أُمُور عديدة يُطلَب تطبيقها من المُنتسبين إلى تنظيم الفُتُوَّة، وكُلُّها يُستدَلُّ عليها من ذكرها في الأحاديث النبوية الشريفة، منها:

- طاعة الرؤساء والمُقدَّمين.
- الأمر بالمعروف، والنهي عن المُنكر.
- نصرة المظلوم، وإغاثة الملهوف.
- حفظ الجار[5].
- التعاضد والتناصر بين الأعضاء.
- حفظ العهد.

---

1 - الفُتُوَّة عند العَرَب، الدسوقي، 2/ 437.
2 - التاريخ المُظفَّري، ابن أبي الدّم، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 21 / 256.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 206.
4 - الفُتُوَّة عند العَرَب، الدسوقي، 229.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 164.

ـ كتمان السِّرِّ.

ـ صدق اللهجة.

ـ العفَّة عن المحارم[1].

وما كُلُّ ذلك إلَّا استجماع لمكارم الأخلاق العَرَبيَّة، وتعاليم الإسلام في التعامل، ولرُوح الشجاعة والإيثار[2].

وكان المنتسبون لتنظيم الفُتُوَّة يُسمّون الفتيان، أمَّا مَنْ ينضمُّ حديثاً لها؛ فيُدعى بالرفيق، ويُرشَّح الفتى الجديد لقبوله في التنظيم فتيان قدماء، ثُمَّ يقام حفل تنسيب للمُنضمِّين الجُدُد، تُلقى فيه كلمات، تشيد بالفُتُوَّة، وتربطها بتعاليم الإسلام من خلال الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة[3].

ويشرب المُنتسبون الجُدُد كأس الفُتُوَّة وفيه ماء وملح[4]، وهُو دليل قبول الأنظمة والتعاليم الخاصَّة بالفُتُوَّة. وكان الفتى ـ عند تنسيبه ـ يُلفُّ بملابس رقيقة من الكتَّان، أو القطن الأبيض، ثُمَّ يرتدي السروال الخاصّ بالفُتُوَّة، وكان السروال هُو الشعار، أو الزيّ الخاصّ لهذا التنظيم، فجميع الفتيان يرتدون طرازاً خاصّاً ومُوحَّداً من السراويل يميزهم عن بقيَّة الناس[5]. ثُمَّ توضع على رأس الفتى طاقية صغيرة سوداء، وفوقها قلنسوة من الصوف الأبيض، ويضع على أكتافه قباء، أو عباءة خفيفة، يُلفُّ عليها حزام، يُعلَّق به سكِّين، أو خنجر، ويلبس في رجله خفَّيْن[6]. ورُبَّما كان من أشهر

---

1 - التاريخ المُظفَّري، ابن أبي الدّم، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 21 / 258.

2 - النُّظُم الدّبلُوماسيَّة، صلاح الدِّين المُنجِّد، 151.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 206.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 206 ، ح / 2، ورُبَّما كان امتداداً لشرب كأس الفُتُوَّة ما يُعرَف ـ الآن ـ بشُرب النخب.

5 - الحوادث الجامعة، ابن الفوطي، 89 ـ 143، والجامع المُختصر، ابن الساعي، 225 ـ 233. وفيه منشور الخليفة حول تنظيم الفُتُوَّة، (تاريخ سُورية ولُبنان، فيليب حتِّي، ترجمة: جُورج حدَّاد، 2/ 252)، يقول فيليب حتِّي: "إن تنظيم الفُتُوَّة تأثَّر ـ على الغالب ـ بمُنظَّمات الفُرسان الصَّليبيَّة"، ولكنَّنا نعتقد أن مُنظَّمات الفُرسان الصَّليبيَّة التي كانت نشأتها في بلاد الشَّام ما هي إلَّا انعكاس وتقليد لتنظيم الفُتُوَّة العَرَبي الإسلامي. كما أن هُناك فارقاً كبيراً بين الفُتُوَّة العَرَبيَّة الإسلاميَّة وأنظمة الفُرُوسيَّة الأُورُبيَّة، وهُو أن مكارم الأخلاق التي حرصت عليها الفُتُوَّة كانت تُطبَّق على الجميع، بينما أخلاقيات الفُرُوسيَّة الأُورُبيَّة كانت لطبقة الفُرسان والنُّبلاء فقط، ولا تطبَّق على الطبقات الأدنى. (حضارة ونُظُم أُورُبة، سعيد عاشور، 402). و
Stephenson, Meddle History, P.P: 239-240

6 - مجمع الآداب، ابن الفوطي، 1/ 1184.

حفلات تنسيب المُلوك لتنظيم الفُتُوَّة هي الحفلة التي أقامها الملك المنصُور صاحب حماة عام 622 هـ 1223م، وأقام الخطبة فيها قاضي حماة سالم بن نصر الله والد المُؤرِّخ ابن واصل[1].

وعندما استكمل الخليفةُ النَّاصر تنظيمَهُ الجديد نظرياً، بدأ بتسيير رُسُله إلى مُلُوك المُسلمين، طالباً منهم الانتماء إليه عبر نظام الفُتُوَّة، وقد قبل الجميع ذلك، وانتسبوا للخليفة النَّاصر[2]، فهذا لا يُنقص من مُلكهم شيء، وما سُلطة الفُتُوَّة إلَّا سُلطة معنوية، لذلك لم يتخلَّف منهم أحد. وقد "لبس السُّلطان العادلُ سراويلَ الفُتُوَّة للخليفة النَّاصر"[3]، وكذلك أولاده الملك المُعظَّم والملك الكامل والملك الأشرف، ولبسها المُجاهد صاحب حمص، والملك الظَّاهر غازي ابن السُّلطان صلاح الدِّين صاحب حلب، وكذلك أرسل لباس الفُتُوَّة إلى كيخسرو سُلطان الرُّوم[4]. واعتقد الخليفة النَّاصر بذلك أنَّه قد جمع الأُمَّة حوله، وبالفعل؛ فقد أسبغت الفُتُوَّة مزيداً من الهيبة على منصب الخليفة[5]، فقد كان الملك الذي ينتسب إلى الخليفة يتبعه كُلُّ أركان دولته وأكابر بلاده. ولكن اهتمام الخليفة النَّاصر بتنظيم الفُتُوَّة جعله يعتقد أنَّها كُلّ ما يربطه بمُلُوك المُسلمين، حتَّى إنَّه لم يُبصر أعظم المخاطر التي تحيق بهم، ففي عام 615 هـ 1218م، وصلت رُسُلُ الخليفة النَّاصر إلى الملك الكامل[6] وهُو مُرابط على دمياط أمام قُوَّات الفرنجة التي احتلَّت المدينة، وأخذت تتقدَّم باتِّجاه القاهرة، "فظنَّ الناس الظنون الجميلة يومئذ في الخليفة، فتبيَّن أنَّه لأجل رمي البُندُق، وكونه يُريد أن يكون هُو قبْلته، فتعجَّب الناس من إمام العصر، وهمَّته"[7]. فكأن الكامل كان بحاجة إلى زعامة الخليفة لرمي البُندُق ليُقاوم جحافل الفرنج الزاحفة على مصر.

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 164.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 206.
3 - تاريخ البغدادي ورحلته، عبد اللطيف البغدادي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14 / 74.
4 - نكت الهميان، الصفدي، 91، ومجمع الآداب، ابن الفوطي، 4/ 1248.
5 - راجعْ: الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 242.
6 - في عام 606 هـ، وصل أمر الخليفة النَّاصر إلى شمس الدِّين بن البعلبكي قاضي فتيان دمشق بالتوجُّه إلى مصر ليشدَّ الملك الكامل فُتُوَّة للخليفة. (ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشَّاميَّة، سُهيل زَكَّار، 20 / 134).
7 - المنصُوري، ابن نظيف، 75.

من نشاطات الفُتُوَّة:

وكان من اهتمامات الفتيان الرمي بالبُنْدُق، وتدريب الحمام، وقد تفنَّن الناس في ذلك سواء الأُمراء أو المُلُوك[1]. وفي العصر الأيُّوبي كان الرمي بالبُنْدُق[2] قد شاع في مُعظم أنحاء الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة، وهُو رياضة رمي وتدريب على التسديد، ويُستخدم للرمي على الطُّيُور من أجل الصيد، أو الرياضة. وكان الخليفة العبَّاسي النَّاصر لدين الله قد منع رمي البُنْدُق إلَّا لمَنْ ينتمي له[3]، وكذلك منع اللعب بالطُّيُور الهوادي أو المناسيب[4]، وتربيتها، إلَّا أن تكون من طُيُوره، أو من نسلها[5]، ويقول ابن الأثير مُتهكِّماً، مُقارناً الأخطار المُحدقة بالأُمَّة باهتمامات الخليفة: "فكان غرام الخليفة النَّاصر بهذه الأشياء من أعظم الأُمُور"[6].

لقد قصد الخليفة النَّاصر من اهتمامه الكبير بنظام الفُتُوَّة تقوية مركزه وزيادة فاعلية منصب الخليفة، وربط مُلُوك الأطراف والرعايا بشخص الخليفة، من حيثُ كونه زعيماً فعليّاً، إضافة لكونه خليفة وإماماً شرعياً، ولكنَّ كُلَّ ما قام به النَّاصر لتنظيم الفُتُوَّة تهاوى بعد موته، بل ونستطيع القول إن هذا التنظيم كان متهاوياً مُنْذُ قيامه، ورُبَّما كان ذلك بسبب كونه نظاماً يعتمد على شخص الخليفة، فلم يكن للفُتُوَّة جهاز تنظيمي رابط ضابط قادر على الاستمرار بعد غياب النَّاصر، وأرى أن الأهمَّ من ذلك أن النَّاصر أقام نظام الفُتُوَّة على معان رُوحية وأخلاقية فقط، ولم يرتَقِ به إلى قيمة معنوية وواقعية كُبْرَى كانت من أولويات عصره ألا وهي الجهاد، خاصَّة أن الفُتُوَّة كانت تنظيماً شبه عسكري.

---

1 - نكت الهميان، الصفدي، 91.

2 - البُنْدُق: مُفردها بُنْدُقة، وهي لفظة فارسية، وتُسمَّى - أيضاً - الجلاهق أو الجلاهقات. كُرات صغيرة من حجر أو معدن أو طين يُعجَن، ثُمَّ يُشوى، (حول صُنع كُرات البُنْدُق من الطين راجعْ: السيرة الشَّعْبيَّة للظاهر بيبرس، رواية: الدِّيناري، 81، المكتبة الثقافية، بيروت / بلا)، وتُقذف الكُرات من ماسُورة بواسطة وتر القوس، أو بالنفخ. راجعْ: تاريخ التمدُّن الإسلامي، جُورجي زيدان، 5 / 159، واستُخدمت المزاريق لرمي البُنْدُق، وهي أنابيب تقذف البُنْدُقة بالنفخ، وقد تحوَّلت إلى البُنْدُقيَّة عندما استُخدم البارود فيها.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 440.

4 - الهوادي: السريعة الاهتداء إلى أبراجها.

- المناسيب: المنسوبة لآبائها؛ أيْ المعروف سلسلة نسبها، وهي نوع من الحمائم التي كانت تُستخدم في البريد، وتُربَّى لهذه الغاية.

5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 440، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 164.

6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 440.

النّبوية:

يبدو بأنَّ تنظيم الفُتُوَّة أصبح له مع الزمن تفرُّعات بأشكال عديدة، رُبَّما كان من أشهرها النبوية، التي يُؤكِّد ابن المعمار بأنَّها إحدى فرَق الفُتُوَّة بقوله: "ولم تزل الفُتُوَّة تنتقل، وهَلُمَّ جرَّاً، إلى عصرنا هذا، حتَّى تفرَّعت، وصارت بُيُوتاً، وأحزاباً، وقبائل؛ كالرّهاصيَّة، والسّجينيَّة، والخليليَّة، والمولاَئيَّة، والنبويَّة، لما حدث بينهم من الاختلاف، وكُلٌّ منهم ذهب إلى رأي"[1].

وفي دمشق؛ عُرف أتباع تنظيم الفُتُوَّة بـ"النّبوية[2]، وهم يدينون بالفُتُوَّة وبأمر الرجولة كُلّها، وكُلّ مَنْ ألحقوه بهم لخصلة يرونها فيه يحزمونه السراويل، ولا يرون أن يستعدي أحد منهم في نازلة تنزل به، ولهم في ذلك مذاهب عجيبة، وإذا أقسم أحدهم بالفُتُوَّة برّ بقَسَمه، وشأنهم عجيب في الأنفة والائتلاف"[3]. وقد ذكر ابن جُبَيْر أن في مدينة دمشق: "طائفة تُعرَف بالنبويَّة سُنيُّون يدينون بالفُتُوَّة وأُمُور الرجولة كُلّها"[4].

وقد انتشرت فرقة النبوية، وتواجد أتباعها بكثرة في شمال العراق، وفي الجزيرة، فعندما صَلَبَ سيفُ الدِّين غازي الأتابكي أحد زعماء النبوية في نصيبين، خرجت النبوية من المَوصل ونصيبين، وتبعهم خَلْق كثير من مُدُن الفُرات والخابور، وساروا طالبين صلاح الدِّين"[5]، إنَّه خُرُوج جماعي على حُكْم الأتابكة، والتحاق بخصمهم صلاح الدِّين. ويبدو أن هؤلاء النبوية أنفسهم قد مرُّوا في طريقهم على بلاد الإسماعيليَّة في بزاعة والباب شمال حلب، وارتكبوا المذابح التي ذكرها ابن جُبَيْر في حديثه عن بلدة بزاعة، يقول: "ويناظرها في جانب البطحاء قرية كبيرة تُعرَف بالباب، وكان يعمرها

---

1 - الفُتُوَّة، ابن المعمار، 147.

2 - النّبوية: نسبة إلى النُّبُوَّة التي كانت مُرادفة للفُتُوَّة، يقول ابن واصل في معرض حديثه عن الخليفة النّاصر: " ولبس سراويلات النُّبُوَّة والفُتُوَّة "، (مُفرِّج الكُرُوب، 4 / 164)، ـ ورُبَّما هي نبوية؛ لأنَّهم كانوا يعتبرون أن تعاليم الفُتُوَّة أخذها الإمام علي (ر) عن النبي مُحمَّد (ص)، فكُلُّ تعاليمها مُستقاة من الأحاديث النبوية الشريفة، وكان صاحبها في ذلك العصر الخليفة النّاصر،وهُو عبّاسي من بيت النُّبُوَّة أيضاً.

3 - تذكرة بالأخبار عن اتّفاقات الأسفار، ابن جُبَيْر، 252، ـ وحول ذلك راجعْ : في التاريخ الشّامي، شاكر مُصطفى،1/ 128؛ حيثُ يقول: "إن صلاح الدِّين قد لبس سراويل الفُتُوَّة "، وقد وهم في ذلك، فأوَّل مَنْ لبسها من الأيُّوبيِّين هُو الملك العادل وأولاده، ثُمَّ بعض مُلُوك بني أيُّوب، ممَّن جاء بعد صلاح الدِّين. (ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 20 / 61).

4 - الرحلة، ابن جُبَيْر، 252 و 167 Urban Life in Syria Nicola Ziadeh, P.

5 - تاريخ آمد ومَيَّافارقين، ابن الأزرق الفارقي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 11 / 314.

مُنْذُ ثمان سنين قوم من الملاحدة الإسماعيليّة، فطار شرارهم، . . حتّى داخلت العصبية أهل البلاد، . . ووضعوا السُّيُوف فيهم، فاستأصلوهم عن آخرهم، وعجّلوا بقَطْع دابرهم، وكُوِّمَتْ بهذه البطحاء جماجمهم"[1].

وقد اختلف في ترتيب أحرف النبوية[2]؛ حيثُ يجعلها بعضهم البنوية، من الأبناء، وهذا المنحى ضعيف، والأصحُّ ما رآه مُصطفى جواد بقوله: "الصحيح في ضبط هذا الاسم النّبويَّة، نسبة إلى النبي عليه الصلاة والسلام، كالخليليَّة نسبة إلى إبراهيم الخليل، عليه السلام"[3].

الخلافة بعد الإمام النَّاصر:

في عام 622 هـ 1225م، تُوفِّي الخليفة النَّاصر لدين الله، وقيل إنَّ الخلافة قد ماتت بموته[4]، فهُو الذي أعاد الكثير من القُوَّة السابقة لمنصب الخلافة، ولكنَّنا ـ بنظرة سريعة ـ نجد أن الخليفة النَّاصر لم يُحقِّق أيَّ شيء يُذكَر عمَّا كان لسلفه، ولا لما سيكون لخلفه من سُلطة على الممالك الأيُّوبيَّة، أو غيرها، التي كانت وستبقى تبعيّتها للخلافة تبعية اسمية، تنحصر بمنح مُلُوكها التقليد والخلعة كرمز لشرعية حُكْمهم لبلاد يُسيطرون عليها فعلاً، لا تتوسَّع إلَّا بالحَرْب والقُوَّة، ولا يزول حُكْمهم، أو تتقلَّص ولاياتهم إلَّا بالحَرْب والقُوَّة.

وبعد وفاة النَّاصر؛ تولَّى الخلافةَ ابنُهُ الإمامُ الظَّاهر بأمر الله مُحمَّد، الذي استهلَّ خلافته بإرسال الرُّسُل إلى الممالك الأيُّوبيَّة لتأكيد الخطبة له، والسّكَّة باسمه، ثُمَّ ردَّ مُلُوك الأيُّوبيَّة بإرسال رُسُلهم إليه في العزاء بوالده، والتهنئة بولايته[5].

ولكن الظَّاهر لم تطلْ مُدَّة خلافته؛ حيثُ تُوفِّي عام 623 هـ 1226م، وتولَّى بعده ابنه المُستنصر بالله المنصُور أبو جعفر حتَّى وفاته عام 640 هـ 1242م. " فقلَّد أربابُ الرأي ولدَهُ المُستعصم بالله

1 - تذكرة بالأخبار عن اتِّفاقات الأسفار، ابن جُبَيْر، 224.
2 - نعتقد أن الخلاف نشأ عن خطأ في النسخ، وأن الأصل كان واحداً وهُو النبوية.
3 - مُصطفى جواد، مُقدِّمة كتاب الفُتُوَّة، ص70.
4 - تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 405
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 116 ـ 118.

عبد الله، واستبدَّ بتدبير الخلافة أربابُ دولته"[1]، وقام أفراد الحاشية بأسوأ دور بالنِّسبَة للخليفة في أسوأ وقت بالنِّسبَة للخلافة، فقد أغروه بجَمْع المال، "والاقتصار على بعض الجُند، وقطع الباقين، ومُسالمة التَّتَر، وحمل القطيعة إليهم، ليكفّوا عنه، وقالوا له: هذه الطائفة قد ملكوا مُعظم بلاد الإسلام، ولم يقف أحد من المُلوك قدَّامهم، فالحزم مهاداتهم، ومُهادنتهم، وأن يُحمَل إليهم في كُلِّ سنة من المال ما يُرضيهم؛ ليكفُّوا، وينكفوا "[2]، والخليفة المُستعصم ضعيف الرأي، سيِّئ التدبير[3].

فضعفت علاقات الخلافة بالمُلوك الأيُّوبيَّة، وهم آخر مُلوك الإسلام، ولم تعد الرُّسُل تعبر المسافات بين بغداد ومصر والشَّام. وممَّا زاد التباعد بين الطرفَيْن أن السياسة الأيُّوبيَّة كانت - بشكل عامٍّ - تتوجَّه لتجنُّب التَّتَار وكأنَّها تتعامى عنهم، بينما التَّتَار يجولون حول بغداد "وشرُّهم مُتزايد والخليفة والناس في غفلة عمَّا يُراد بهم"[4].

حتَّى كان عام **656** هـ **1258**م؛ حيثُ داهم التَّتَار بغدادَ، واستباحوها قتلاً ونهباً وحرقاً، والغريب في الأمر أن عاصمة الإسلام تُنتهَكُ بعد حصار طويل، دُون أن يتقدَّم لنجدتها جُندي واحد، أو متطوِّع واحد، ودُون أن يقوم أحد من المُلوك والأُمراء الأيُّوبيِّيْن بمدِّ يد العون لعاصمة الخلافة، التي كان يستمدُّ منها شرعية وُجُوده في الحُكْم، فهل هُو الدِّين يُوفِّق لتقاعس خليفة بغداد وأُمراء العراق ومُلُوك الشَّرق الإسلامي عن نجدة الشَّام ومصر عندما داهمها الغزو الفرنجي، وتكالبت عليها الحملات، واحتلَّت قُدْسَ المُسلمين؟ أم هي القطيعة التي نتجت عن التجزئة الطويلة؛ حيثُ غدت هُمُوم المشرق لا تعني المغرب، وهُمُوم الشَّام لا تعني العراق؟! ولكنَّ المُستَغرَب في الأمر أن الجميع كانوا يُدركُون أن أيّاً من الأعداء التَّتَار أو الفرنج كان لن يقف عند حَدٍّ إذا أُتيح له التقدُّم، وبالتَّالي؛ فالخطر يعني الجميع، ومع ذلك كان كُلُّ قسم يكتفي بالأماني الطيِّبة نحو القسم الآخر.

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 321.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 322.
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 194.
4 - تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 418.

المبحث الثّالث

العلاقات الدّبلوماسيّة بين الأيّوبيّيْن ودولة الخلافة

بدأت العلاقات الفعليّة بين دولة بني أيّوب والخلافة العبّاسيّة بعد وفاة الملك العادل نُور الدِّين عام 569 هـ 1174م، ودُخُول صلاح الدِّين إلى الشَّام، وضمّها إلى مصر، وتشكيل الدولة الأيُّوبيَّة، وذلك في عهد الخليفة العبَّاسي المُستضيء بالله، الذي لم يهتمّ كثيراً فيمَنْ يُسيطر على الشَّام، ولم يتدخَّل - بأيِّ شكل من الأشكال - لا ضدَّ صلاح الدِّين، ولا معه، فالخليفة يُرسل التقليد الذي يُمثِّل الشرعية الدِّينيَّة لمَنْ غلب من الأُمراء، فالسُّلطة - فعليّاً - بأيدي الأُمراء المُتغلِّبين، والإمارة هي إمارة استيلاء[1]. فأرسل له صلاحُ الدِّين رسالةً مُطوّلةً من إنشاء القاضي الفاضل، يشرح فيها قيامه بالدولة، وتوحيده للأقطار، وإقامة الخطبة العبَّاسيَّة فيها، وشرح الوضع الدولي من حوله ومُعاناته وانتصاراته، ثُمَّ يطلب من الخليفة التقليد بما تحت يده من البلاد، وما سيُفتح فيما بعد[2]، ويبدو أن الخليفة المُستضيء لم يُرسل التقليد، ولم يمنح الخليفة صلاح الدِّين صفة الشرعية التي طلبها، وبالتَّالي؛ لم تقمْ علاقة سياسيَّة بين الطرفَيْن، وسينتظر صلاح الدِّين حتَّى تولِّي النَّاصر لدين الله منصب الخلافة عام 575 هـ 1179م، فيُرسل له التقليد عام 576 هـ 1180م، وتبدأ العلاقات الرَّسميَّة والفعليَّة بين الدولة الأيُّوبيَّة ودولة الخلافة.

في عام 579 هـ 1183م، عندما كان صلاح الدِّين يُحاصر المَوصل، أرسل إليه الخليفة النَّاصر شيخ الشُّيُوخ صدر الدِّين عبد الرحيم رسولاً يشفع في المُواصلة، وبعد إلحاح؛ قبل الشفاعة، فسار معه الرسول إلى سنجار؛ حيثُ شهد فتحها[3].

ولكن بعد الانتصارات المُدوِّية على الفرنج وتحرير بيت المَقْدس، ضجَّ العالم الإسلامي باسم صلاح الدِّين، ولابُدَّ أن عديداً من المُقارنات قد أجراها الناس بينه وبين الخليفة النَّاصر، ولشخصية

---

1 - الأحكام السُّلطانية، الماوردي، 31.

2 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 13 / 90.

3 - التاريخ المُظفَّري، ابن أبي الدّم الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 21 / 260.

الخليفة القويَّة لم يقبل بوضع مُتدنٍّ أمام قائد عسكري يعدُّه يعمل بتفويض منه، فتوتَّرت العلاقات السِّياسيَّة بين الخليفة وصلاح الدِّين، وأعلن الخليفة أنَّه ينقم عليه عدَّة أُمُور، منها:

1 ـ ما شاع بأنَّ صلاح الدِّين يُريد قلب الخلافة، والاستيلاء عليها.

2 ـ تسمَّى صلاح الدِّين بالملك النَّاصر، وهُو يعرف أن النَّاصر هُو لقب الخليفة، الذي عدَّه تطاولاً عليه، وتشوُّفاً لمنصبه من قبَل صلاح الدِّين.

3 ـ إرسال جُندي بسيط في البشارة بفَتْح القُدْس إلى ديوان الخلافة، بينما جرت العادة إرسال أهمّ شخصيَّات الدولة في الأُمُور الجليلة، ممَّا عدَّه الخليفة تهاوناً بمنصبه، واستصغاراً له.

ثُمَّ قرَّر الخليفة كشف حقيقة نوايا صلاح الدِّين تجاهه، فأرسل تاج الدِّين أخا العماد الأصفهاني، الذي كان في حاشية صلاح الدِّين، لتسهيل مهمَّته في التعرُّف على بواطن الأُمُور، وحمل تاج الدِّين رسالة فيها مُوجبات العتب، فردَّ صلاح الدِّين بأنَّه على الطاعة، مُذكِّراً الخليفة ما قام به من القضاء على الدولة الفاطمية، وردَّ مصر إلى حظيرة الخلافة العبَّاسيَّة، وهزيمته للفرنج، واستنقاذ بيت المَقْدس منهم[1].

ويبدو أن الأمر قد سُوِّي بين الرجلَيْن؛ ممَّا سيُؤدِّي إلى علاقات طيِّبة بين الخلافة وخُلفاء صلاح الدِّين حتَّى انقضاء الدولتَيْن، ولكنْ؛ مَنْ يتمعَّن في بواطن العلاقات بين الخليفة والأيُّوبيين سيُلاحظ أن نسبة كبيرة من الشكِّ كانت تُراود الخليفة في مدى إخلاص المُلُوك الأيُّوبيَّة.

ويبدو أن تقليد الخُلفاء العبَّاسيين للأمراء والمُلُوك المُتحكِّمين في الشَّام، كان مُنْذُ دُخُول الفرنج إليها، يعني تنصيبهم وُلاة حرب وقادة مُجاهدين ضدَّ الغُزاة الفرنج. ورُبَّما لم يكن يُوجد ما ينصُّ على ذلك، لكنَّه الشائع والمُتعارف عليه في ذلك الوقت، فعندما تُوفِّي السُّلطان صلاح الدِّين عام 589 هـ 1193م، قام ابنه وخليفته الملك الأفضل بتسيير رسول إلى الخليفة في بغداد يحمل له "لامة الحَرْب التي لصلاح الدِّين، وفرسه، وستّة وثلاثين درهماً، لم يُخلِّف من المال سواها"[2].

---

1 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13 / 121.
2 - تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 409.

إنَّها رسالة واضحة، فسلاح صلاح الدِّين أُعيد إلى الخليفة بعد انتهاء مهمَّته الجهادية، وما خلَّفه من مال أُعيد - أيضاً - كرمز لولايته الإدارية على البلاد. كذلك الأمر كان يوم وفاة الملك المُظفَّر صاحب حماة في عام 642 هـ 1244م، فقد حمل قاضي حماة "زرديَّته وسيفه ولامة حربه"[1]، إلى الخليفة المُستعصم، وسار من حماة - في الوقت نفسه - رسول آخر إلى مصر يحمل إلى السُّلطان الصَّالح أيُّوب سيف الملك للمُظفَّر[2]، إنَّه إعلان بانتهاء المهمَّة لصاحب الشرعية الكُبْرَى الخليفة العبَّاسي، وللسُّلطان الأيُّوبي الأكبر صاحب الشرعية الصُّغْرَى، فقد كان مُلُوك حماة - على الدوام - مُؤيِّدين للسلاطين الأيُّوبيِّيْن، مُلتزمين بهم، وقلَّما خرجوا عليهم مثلما كان يفعل مُلُوك حلب ومُلُوك حمص. وكان الخليفة العبَّاسي، إضافة إلى الشرعية التي تفرضه إماماً وخليفة، ذا مرتبة سياسيَّة ودينية، تجعله أكبر منزلة من كُلِّ المُلُوك، بل إن كُلَّ المُلُوك حاكمين باسمه، يدعون له على منابر بلادهم، وينقشون اسمه مع اسم كُلٍّ منهم على النقود المضروبة في بلاده.

كان الخُلفاء العبَّاسيون غالباً ما يُحاولون استمالة المُلُوك والأُمراء الأيُّوبيِّيْن بالهدايا، وغيرها، ففي عام 622 هـ 1225م "وصل الشَّيخ شهاب الدِّين السهروردي إلى الملك الأشرف بالرقَّة بهدايا وتحف، وأشياء ما سمح خُلفاء بني العبَّاس لأحد من مُلُوك الأطراف بمثلها،من أقوال جميلة وطرف جليلة"[3]، لماذا هذه المُعاملة الخاصَّة من الخليفة النَّاصر للملك الأشرف؟! إنَّه أقوى المُلُوك المُجاورين لشمال دولة الخلافة، وليس له أيُّ مطامع فيها، إضافة إلى التزام بني أيُّوب المطلَق بدعم الخليفة، وإنْ كان ذلك معنوياً فقط، فعلى الدوام كانوا يُجلُّون هيبة الخلافة، ويعملون على إعلاء شأنها، إضافة إلى الظُّرُوف المحرجة التي كانت تُحيط بالخليفة النَّاصر في ذلك الوقت، فقد هجم الخوارزمي جلال الدِّين منكبرتي على خوزستان، وكانت للخليفة، ووصل جُنُوده إلى أعمال بغداد، التي استعدَّت للحصار[4].

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 346.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 347.

3 - المنصُوري، ابن نظيف،110.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 152، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 134.

وتكرَّر ذلك في عهد الخليفة المُستنصر عام 625 هـ 1228م، فقد "ورد على الملك الأشرف رسول الديوان بهدايا وتحف، وفي الجملة إنعام خمسين ألف دينار أتابكية، وقال له كُلّ قول"، ومما قاله: " قد عزمتُ على تسيير الرُّسُل إلى البلاد بأنَّ مَنْ لم يكن في طاعتكَ تركتُ الذمة منه"[1].

وفي هذه المرَّة نجد السبب أكثر وُضُوحاً، فالحاجب علي بن حماد نائب الأشرف في خِلاط كان قد دخل عراق العجم، واستباح مملكة جلال الدِّين الخوارزمي، واستقبله السُّكَّان، وطلبوا منه قُدُوم الملك الأشرف لتسليمه توريز، وغيرها[2]، ولكن رسالة الخليفة كانت أسرع إليه، وفيها الهدايا والمال والقول الجميل، فاضطرَّ الأشرف ـ إزاء هذه المُعاملة المتميِّزة ـ أن يُرسل رُكن الدِّين أمير جاندار بهدية إلى الخليفة يستأذنه بدُخُول بلاد العجم، وعاد الجواب إلى الأشرف من الخليفة يأمره أن لا يتحرَّك من سنجار، فاضطرَّ إلى المكوث فيها بعدما كان قد تجهَّز للسير إلى بلاد العجم، فحرمه بذلك الخليفة من تلك البلاد الواسعة التي لم يسبق لبني أيُّوب أيّ سيطرة فيها[3].

وكان مُلُوك بني أيُّوب يقومون بكُلِّ واجباتهم المعنوية تجاه منصب الخليفة، فعندما تُوفِّي علي ابن الخليفة النَّاصر عام 612 هـ 1215م، أرسل الخليفة يُعلم مُلُوك بني أيُّوب، "فجلسوا في العزاء، لابسين شعار الحُزن خدمة للخليفة"[4].

ولمَّا تُوفِّي الخليفة الظَّاهر وخلفه ابنه المُستنصر أرسل الملك الكامل وزيره مُعين الدِّين بن الشَّيخ مُعزِّياً ومُهنِّئاً[5].

وكان مُلُوك بني أيُّوب يُجدِّدون الولاء للخُلفاء العبَّاسيين عبر أداء قَسَم الولاء، أو ما كان يُعرَف بالتحليف؛ حيثُ يحلف الملكُ بنصٍّ قَسَم طويل يُلزمه بإعتاق عبيده وإمائه، وتطليق زوجاته، والبراءة من الدِّين . . . إنْ أخلَّ بنصرة الخليفة، أو عمل ضدَّه، وفي عام 627 هـ 1230م، حلف

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 155.

2 - المنصُوري، ابن نظيف، 156 ـ توريز: رُبَّما هي تبريز، أشهر مُدُن أذربيجان (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: تبريز).

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 715 ـ 158.

4 - السُّلُوك، المقريزي، 1 / 301.

5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 344.

الملك الكامل للخليفة المُستنصر في مدينة الرقَّة، بحُضور رُسُل الخليفة وعلى رأسهم مُحيي الدِّين بن الجوزي، وجميع مُلوك بني أيُّوب[1].

ولم تنقطع الرُّسُل بين مُلوك بني أيُّوب وبين ديوان الخلافة، فكان يندر أن يخلو عام من رُسُل تتردَّد برسائل وغيرها مُنذُ أيَّام الملك العادل، فقد أرسل العادل رسالة إلى الخليفة النَّاصر عام **614** هـ **1217**م، وعاد جوابها مع الشَّيخ صدر الدِّين بن حمويه[2].

وفي عام **627** هـ **1230**م، أرسل الملك الكامل القاضي الأشرف بن القاضي الفاضل برسالة إلى الخليفة المُستنصر، وعاد معه بجواب الرسالة مُحيي الدِّين بن الجوزي[3].

وممَّا يُلاحظ على تبادل الرسائل بين الخليفة ومُلوك بني أيُّوب أن إسباغ الأهمِّيَّة على الرسالة يُستمدُّ من أهمِّيَّة شخصية الرسول، الذي كان يُنتقَى من أبرز شخصيَّات البلاط، مع تركيز خاصٍّ على كبار الفُقهاء والقُضاة لإلمامهم بأُصول الخطاب، وللاحترام المُتوقَّع حُصُولهم عليه من المُرسَل إليه.

وكان رسول الخليفة - في ذهابه وإيابه، في أداء مهمَّته - يُقابل المُلُوك الواقعين على طريقه، فعندما سَفَر مُحيي الدِّين بن الجوزي برسالة الخليفة المُستنصر إلى الملك الكامل في مصر عام **629** هـ **1232**م، تلقَّاه في حمص الملك المنصُور بن المُجاهد وَلِيّ عهد مملكة حمص، وهُو في طريق ذهابه، ولمَّا عاد من أداء مهمَّته تلقَّاه الملك المُجاهد بنفسه مع أولاده في مدينة دمشق، بينما تلقَّاه الملك الأشرف عند قارا[4].

وعندما مرَّ شهاب الدِّين السهروردي رسول الخليفة النَّاصر بحلب عام **601** هـ **1205**م، يحمل التشريف للملك العادل استُقبل فيها استقبالاً عظيماً، وجلس في مسجدها الجامع للوعظ، وحضر مجلسه كبار رجال حلب[5]، ولابُدَّ أن الاستقبال نفسه كان له في حماة وحمص[6].

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 199.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1 / 307.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 195 - 196.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 251 - 255 - 258.
5 - مُفرِّج الكرُوب، ابن واصل، 3 / 180.
6 - راجعْ : النُّظُم الدّبلُوماسيَّة، صلاح الدِّين المُنجِّد، 59.

ويبدو أن استقبال رُسُل الخليفة كان يتناسب طرداً مع ما يحمله من خبر مُتوقَّع لمُلُوك الأيُّوبيَّة، فيبلغ الاهتمام به مداه مع حمله لخلع التقليد والتشريف، أو إن كان يسعى في مصلحة مُباشرة لهم. ففي عام 629 هـ 1232م، عندما كان الملك الكامل في الجزيرة بسبب حَرَكَة التَّتار حولها وصله الخبر بوُصُول ابن الجوزي رسولاً من الخليفة المُستنصر، "فأمر بتلقِّي رسول الخليفة، وإتيانه إلى أيِّ موضع كان به، وهذا أوقع إهانة له، فلم يجتمع به إلَّا على السويداء، على السماط أيضاً، ولم يخرج على الطريق أحد له"[1].

إن اهتمام الكامل بأمر التَّتار، وتقديره لعدم جدوى سفارة رسول الخليفة هي التي أدَّت إلى هذه المُعاملة غير المُتوقَّعة، والتي وصلت إلى حَدِّ الإهانة لرسول الخليفة حسب تقدير المُؤرِّخ ابن نظيف[2].

ولم تكن سفارات الخليفة إلى بني أيُّوب لأُمُور تتعلَّق بالخلافة ودولتها فقط، بل كان قسم كبير من هذه السِّفارات يتعلَّق بأُمُور داخل البيت الأيُّوبي، أو يتعلَّق بأُمُور بين الأيُّوبيِّيْن ومُلُوك آخرين. فعندما كان الملك العادل يُحاصر سنجار عام 606 هـ 1210م، قدِم هبة الله بن المبارك بن الضحاك رسولاً من الخليفة النَّاصر يطلب منه ترك حصار سنجار، ويشفع في صاحبها[3]، فوافق العادل، وانسحب، وفي الحقيقة؛ كانت استجابته لطلب الخليفة تغطية لانسحابه من حصار فاشل.

وفي عام 623 هـ 1235م، قدم ابن الجوزي رسولاً من الخليفة الظَّاهر إلى الملك المُعظَّم بدمشق، "يطلب منه الرُّجُوع عن حلف الخوارزمي"، ويعرض التوسُّط بالصُّلح بين المُعظَّم واخوته، فرفض المُعظَّم[4]، ولم يكن هذا التدخُّل من الخليفة حرصاً على وحدة البيت الأيُّوبي، أو رغبة في إزالة الخلافات بين مُلُوك بني أيُّوب، بل ضدَّ الخوارزمي جلال الدِّين، الذي كان يُهدِّد الخليفة، ويجتاح مُمتلكاته.

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 236.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 236.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1 / 289.
4 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6 / 264.

كذلك في عام 629 هـ 1232م، وصل ابن الجوزي رسول الخليفة المُستنصر إلى الملك الكامل، فصادفه على آمد، وقد فتحها، فهنَّأه، وشفع بصاحبَيْ المَوصل وإربل، فقبل الكامل الشفاعة وحلف لهم[1]، وما كان قبول الكامل بغَضِّ الطرف عن تحرُّك بدر الدِّين لُؤلُؤ ومُظفَّر الدِّين كوكبري صاحبَيْ المَوصل وإربل إلَّا للمُشكلات الكثيرة التي كان يتعرَّض لها الكامل في الجزيرة، ورُبَّما كان أهمّها خطر التَّتار، الذي أخذ يلوح في أفق الجزيرة، والدور الكبير الذي يُمكن أن يكون الكامل قد قدَّره للمَوصل ولإربل في مُقاومة هذا الخطر.

ولم يقتصر عمل رُسُل الخليفة على السِّفارة بينه وبين مُلُوك بني أيُّوب، بل تعدَّى عملهم للسِّفارة بين مُلُوك بني أيُّوب أنفسهم، فعندما كان الملك الكامل يُحاصر دمشق عام 635 هـ 1238م "كان السفير بينه وبين الصَّالح إسماعيل لتسليمها الصاحب مُحيي الدِّين أبو المُظفَّر يُوسُف بن الشَّيخ أبي الفرج بن الجوزي رسول الخليفة، الذي حضر ليُوقِّع الصُّلح بين مُلُوك بني أيُّوب"[2].

وفي عام 633 هـ 1236م، عندما ساءت العلاقة بين النَّاصر داود وعمّه الكامل "أرسل الخليفة المُستعصم بالله رسولاً مشربشاً[3] من أكبر خواصّه ليشفع فيه إلى الكامل، وإبقاء بلاده عليه، وقبل الكامل شفاعة الخليفة، وسافر داود إلى الكَرَك، وأقام آمناً، لانتسابه إلى الخليفة"[4].

إن هذا يدلُّ على احترام كبير من قبَل مُلُوك بني أيُّوب لمنصب الخليفة، وحرص كُلٍّ منهم على اكتساب الخليفة إلى جانب قضاياه الخاصَّة.

ويبدو أنَّه كان للخليفة العبَّاسي رأي في التوسُّط والشفاعة بين مُلُوك بني أيُّوب، ويحدِّد ذلك وُفقاً لمصلحة دولة الخلافة، أو مصلحة منصب الخليفة، فعندما حاصرت قُوَّات الصَّالح أيُّوب دمشق عام 642 هـ أرسل صاحبها الصَّالح إسماعيل إلى الخليفة "وزيره أمين الدولة إلى بغداد مُستشفعاً بالخليفة المُستعصم بالله، ومُتوسِّلاً إليه ليُصلح بينه وبين ابن أخيه أيُّوب، ثُمَّ رجع من بغداد، ولم يتحصَّل على طائل من رسالته"[5]، فالصالح إسماعيل لم يتذكَّر الخليفة إلَّا عندما ألجأتْهُ الضرورة

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 242.

2 - السُّلُوك، المقريزي، 1 / 379.

3 - مشربش: يلبس الشربوش.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 111 ـ 113.

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 341، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 376.

إليه، والخليفة المُستعصم لم يشأ أن يُخاطر بالضغط على أيُّوب، وهُو القُوَّة النامية في المالك الأيُّوبيَّة، لذلك لم يستجبْ الخليفة للنداء، ولم يتدخَّل.

وكما لم يقمْ خليفة المُسلمين بأيِّ ردِّ فعل عندما سقط القُدْس الشريف؛ أُولى القبلتَيْن، وثالث الحرَمَيْن بيد الفرنج[1]، فإنَّه كذلك فعل عندما حرَّر صلاح الدِّين القُدْس[2]، وكذلك فعل عندما أعاد الملك الكامل تسليم القُدْس للفرنجة عام 626 هـ، وكأن الكامل كان مُتأكِّداً من عدم مُبالاة الخليفة بقُدْس المُسلمين، فلم يحسب له أيّ حساب، واكتفى بتكليف كاتبه جمال الدِّين الأشرفي بن أبي دبوقة الذي أرسله لتسكين الناس عندما قاموا عليه في الشَّام لتسليمه القُدْس، بالمُرُور على بغداد لإحاطة الخليفة علماً بما جرى[3]، ويكفي بهذه المواقف تعبيراً عن حقيقة سُلطة الخُلفاء على مُلُوك الأطراف، ومنهم بني أيُّوب.

ولذلك نجد أن الخليفة لم يتجاوز الناحية المعنوية في دَعْمه لمُلُوك بني أيُّوب، مُعتمداً على الشرعية التي يُمثِّلها، ففي أشدِّ الأزمات التي تعرَّضوا لها لم يُقدِّم لهم إلَّا رُسُلاً تدعمهم بالكلام المعسول، والاعتذار عن عدم إمكانية تقديم شيء آخر، فعندما ضاقت الأُمُور بالسُّلطان صلاح الدِّين وهُو في مُواجهة الفرنج أرسل يطلب المُساعدة من الخليفة النَّاصر، فأعاد الخليفة الرسول طالباً من صلاح الدِّين مُساعدته لأخذ تكريت، يقول القاضي الفاضل في ذلك: "وقف المملوك على كتاب بغداد، والمقصود الذي أرسل من أجله الرسول، وهي المعونة على الجهاد، وعرف استدعاء المُساعدة على تكريت، ولو كان لنا فراغ لما كان النظر الصحيح يقتضيها"، ثُمَّ يقول عن الرسول الذي سار إلى بغداد بالرسالة: "ولا شكَّ أنَّه أُنسي الرسالة التي توجَّه فيها، فإنَّا بعثناهُ يلتمَّس لنا نفقة، فالتمسها منا"[4].

وعندما ضاقت الأُمُور بالسُّلطان صلاح الدِّين، وتكالبت عليه قوى الفرنج في معركة عكَّا، "ندب القاضي بهاء الدِّين ابن شدَّاد بالمضي إلى خليفة الوقت الإمام النَّاصر، وإعلامه بهذه الحادثة،

---

1 - المُنتظم، ابن الجوزي، 17 / 47.

2 - يقول كلود كاهن: " فخليفة مثل النَّاصر، وهُو شخصية مرموقة، كان يبحث عن كُلِّ ما يعلي مكانته، كان مثبطاً لعزيمة صلاح الدِّين بإجاباته الفاترة على نداءات الجهاد التي يُرسلها إليه". (الشَّرق والغَرْب، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 194 ـ 195).

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 179، والسُّلُوك، المقريزي، 1 / 355.

4 - الروضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 19 / 309.

فوعده الديوان بكُلِّ جميل"، وبعد مُدَّة وصل رسول الديوان ومعه حملان من النفط وتوقيع بعشرين ألف دينار، وخمسة من الزرَّاقين[1]، فردَّ السُّلطان التوقيعَ[2]، ويحار المرء، فهل هذه هي ـ حقّاً ـ إمكانات دولة الخلافة، في عصر صحوة الخلافة مع الخليفة النَّاصر، التي تنجَّد بها المُسلمون في الشَّام في أشرس معاركهم مع الفرنج؟ أم أن الخليفة تعب من عدم الرّدِّ، فبادر بنجدة لا تليق بصاحب قرية؟! المُهمّ في الأمر أن صلاح الدِّين كان يُدرك حقيقة العلاقة مع الخليفة؛ حيثُ قبل ما قدَّمه الخليفة على ضعته، وكان ردُّه التوقيع بالمال للحفاظ على خيط العلاقة المعنوي بالخليفة؛ لأن صلاح الدِّين كان مُتأكِّداً من أنَّه لن يُسدِّد.

وتساهم في توضيح حقيقة موقف الخليفة من مُلُوك بني أيُّوب هذه المحاورة التي جرت بين الملك المُعظَّم صاحب دمشق وابن الجوزي رسول الخليفة الظَّاهر، الذي طلب منه ترك التحالف مع الخوارزمي ضدَّ إخوته: "قال المُعظَّم: إذا رجعتُ عن الخوارزمي، وقصدني إخوتي، تُنجدوني؟ قال: نعم. قال: ما لكم عادة تُنجدون أحداً، هذه كُتُب الخليفة النَّاصر لدين الله عندنا، ونحنُ على دمياط نكتب، ونستصرخ به، فيجيء الجواب: بأنَّا قد كتبنا إلى مُلُوك الجزيرة، ولم يفعلوا"[3].

وبالمُقابل؛ نجد أن الكامل نفسه، الذي لم يُنجده الخليفة النَّاصر على دمياط، عندما استنجد به الخليفة المُستنصر لدفع غائلة التَّتار المُتقدِّمين نحو بغداد عام 635 هـ 1238م، جنَّد له الفُرسان من ماله الخاصّ، ورفض أن يستخدم أموال الخليفة[4]، وبالفعل؛ فقد وصل إلى بغداد ستُّمائة فارس يقودهم إبراهيم بن خضر بن السُّلطان صلاح الدِّين، ثُمَّ تبعهم عساكر كثيرة يقودها المُظفَّر عُمر والملك السعيد ابنا الأمجد صاحب بعلبك، لمُساعدة الخليفة على دفع التَّتار[5].

---

1 - الزرَّاق: الرامي بقوارير النفط لإحراق معدَّات العدوّ، وسُمِّيَ بذلك لأن النفط كان يزرق بواسطة أنبوبة.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2 / 314.

3 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6 / 264.

4 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 21، والسُّلُوك، المقريزي، 1 / 380.

5 - المُختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 166.

المبحث الرّابع

المُلُوك الأيُّوبيُّون وشعارات الشرعية العبّاسيّة

مع انقسام دولة الخلافة العبّاسيّة الفعلي، وسيطرة مُلُوك وأُمراء وقادة وزعماء وشُيُوخ وغيرهم على مناطق مُتعدِّدة من جسم الدولة، منها ما كان يُشكِّل دُولاً كبيرة جدّاً، ومنها إمارات صغيرة، وأحياناً؛ قلعة أو بلدة لها حاكمها الخاصّ، وهُو يتصرَّف بكُلِّ الشُّؤُون السّياسيّة والعسكريّة والداخلية باستقلالية تامّة، ومع كُلِّ هذا الانقسام بقيت هُناك سُلطة اسمية للخليفة على كُلِّ الدُّول والدُّويلات المُستقلّة، انطلاقاً من أن الخلافة هي منصب ديني، والخليفة هُو إمام المُسلمين ومرجعهم الأعلى دينياً وسياسياً، وأيضاً؛ لأن البلاد بكاملها كانت لدولة الخلافة، وكُلّ سيطرة على أيّ منطقة منها ليست شرعية، وصاحبها لا يملك الحقّ الشرعي في الحُكْم، لذلك كان كُلٌّ منهم مُضطرّاً ـ بشكل أو بآخر ـ أنْ يُقرَّ بسُلطة اسمية للخليفة في بلاده. وكان خُلفاء بني العبّاس المُتأخِّرون يرضون بهذه السيطرة الاسمية، التي لا تتعدّى ذكْر اسمهم في خطبة الجمعة على منابر المساجد؛ بحيثُ يسبقه اسم الملك المحلّي، ونقش اسمهم على العملة التي يسكّها هذا الملك، أو ذاك، ضمن أراضي البلاد، التي كانت ـ فيما مضى ـ تُسمّى أراضي الخلافة العبّاسيّة.

وكان هُناك شكل رسمي برُوتُوكُولي لمُوافقة الخليفة التي كانت مضمونة دائماً على أن يشمل بشرعية حُكْم المُلُوك المُتنفِّذين في أطراف الدولة، مع أن سُلطاتهم وأراضيهم كانت تقوم على حساب سُلطة وأراضي الخليفة، حتّى لم يبقَ للخليفة إلّا بغداد واسم الخلافة. هذا الشكل الرّسْمي لمُوافقة الخليفة كان يلزم لكُلِّ حاكم جديد، بل، ولكُلِّ توسُّع يقوم به، وأحياناً؛ كان بحاجة إلى تجديد سنوي. ونُلاحظ أن مُعظم الخُلفاء المتأخِّرين قد استمرؤا هذه التمثيلية، فكانت رُسُلُهُم تترى إلى مُلُوك الأطراف بالمُوافقات الشرعية، التي عُرِفَتْ بعدَّة أسماء، منها:

1 ـ التقليد: ويعني التولية، وهي من قلَّدتُهُ أمر كذا؛ أيْ وَلَّيْتُهُ عليه[1]، فالتقليد هُو مرسوم سياسي يصدر من ديوان الخلافة لتكليف شخص ما بالحُكْم في بلد، أو بلاد مُعيَّنة. وقد حرص المُلُوك الأيُّوبيُّون حرصاً كبيراً على أن يتولّى كُلٌّ منهم عمله بمباركة شريفة من الخليفة، تتجلّى بمنحه التقليد

---

1 ـ مُعجم المُصطلحات والألقاب التاريخية، مُصطفى الخطيب، 109.

لولايته، وإن كان ذلك شكلياً محضاً، ويأتي بعد مُباشرته الولاية الفعليَّة بالوراثـة، أو بالتغلُّـب، ورُبَّـما كان هذا الحرص مبعثه إيمانهم وتمسُّكهم بشرعية الحُكْم الدِّيني، أو لكسب النـاس بغطـاء الشرعية، بعد أن كسبوا السُّلطة فعليّاً، والأغلب أنّه كان للأمرَيْن اعتبارهما في سياسة المُلُوك الأيُّوبيَّة.

ففي عام **576** هـ **1180**م، وبعد سنوات قليلة من سيطرة السُّلطان صلاح الدِّين على الشَّام، أرسل الخليفـةُ النَّـاصر رُسُـلَهُ تحمـل التقليـد لـصلاح الـدِّين إشـعاراً بالمُوافقـة عـلى تولِّيـه منـصب السَّلطنة[1]. وعندما أراد السُّلطان صلاح الدِّين أَخْذ آمد، وضمّها إلى دولته عـام **579** هــ **1183**م، كَتَبَ قبل الشروع في الحملة إلى الخليفة النَّاصر يطلب إذنه في قصد آمد، "فوصله تقليد بهـا"[2]. وفي عام **604** هـ عندما سيطر العادل على مملكة مصر وعلى دمشق والـبلاد الجزريـة أرسـل أُسـتاذ داره الدكز العادلي والقاضي خليل بن المصمودي قاضي العَسْكَر إلى الخليفة في بغداد "لطلب التقليـد عـلى مصر والشَّام والجزيرة"، فأُكرما، وأُجيبا[3]، وزيادة في التكريم أرسل الخليفة معهـما الـشَّيخ شـهاب الدِّين السهروردي ونُور الدِّين التركي الخليفتي[4]، يحملان من الخليفـة إلى العـادل "تقليـداً بـالبلاد التي تحت حُكْمه"[5]، "وقرأ صفي الدِّين بن شكر وزير العادل التقليـد الـذي أرسـله الخليفـة عـلى كرسي نُصب له"[6]، ممّا يُوضِّح لنا بأنَّ التقليد هُو مرسوم سياسي إداري ديني يصدره الخليفة بتولية جُزء من أراضي الخلافة إلى شخص يُذكَر اسمه في التقليد مقروناً بصفات التقدير والتعظيم.

وفي عام **628** هـ **1231**م، وصل رسول من الخليفة بالتقليـد إلى الـسُّلطان الكامـل، "وقلّـد تقليداً لم يُقلّد به غيره من سائر المُلُوك من بني العبَّاس، وزادوه زيادات عظيمة في التقدمة لـه والقـول، وكذلك للأشرف، وكذلك لولده الصَّالح، ولِمَنْ عيَّنوه"[7]، فقد غدا التقليد منشور تفخيم وتعظـيم وزيادة في القول والوصف للملك المُقلَّـد، تبلـغ حَـدَّ الـشطط في إغـداق الـصفات والنعـوت عليـه.

---

1 - التاريخ المُظفَّري، ابن أبي الدّم، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 21 / 256.
2 - التاريخ المُظفَّري، ابن أبي الدّم، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 21/ 260.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 180.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 122.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 109.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 180.
7 - المنصُوري، ابن نظيف، 231.

وبعد أن سيطر الملك الصَّالح أيُّوب بن السُّلطان الكامل عام 643 هـ على مصر والشَّام وصل رُسُلُ الخليفة، الفلك مُحمَّد بن وجه السبع وجمال الدِّين بن عبد الرحمن بن الجوزي، ومعهما التقليد . . فنصب المنبر، وصعد عليه الرسول، وقرأ التقليد بالدهليز السُّلطاني، والسُّلطان قائم على قدمَيْه، حتَّى فرغ من القراءة"[1]، ومع أن التقليد هُو قرار الخليفة بإقرار ملك من مُلُوك الأطراف على ولاية استطاع مُلْكَهَا فعلاً، فإن المُلُوك الأيُّوبيَّة كانوا يُقدِّرون التقليد حقَّ قدره، فقيام أيُّوب واقفاً على قدمَيْه أثناء قراءة تقليده لدليل كبير على مدى أهمِّيَّة التقليد بالنِّسبة إليه، فهُو النصُّ الشرعي الذي يُفوِّض إليه حُكْمَ البلاد شرعاً وقانوناً. ولا نستطيع هُنا إلَّا أن نُلاحظ أن مُعظم التَّقاليد كانت تصدر لمُلُوك بني أيُّوب من الخُلفاء بناءً على طلب مُسبق منهم، مع رسول يحمل الهدايا اللائقة[2].

2- **التشريف:** أو خلعة التشريف، وهُو جبَّة، أو عباءة بلون أسود، لذلك قد يُسمَّى التشريف الأسود[3]، والسواد هُو شعار بني العبَّاس[4]، وتكون خلعة التشريف مُذهَّبة عادةً، وتُسمَّى التشريف الإمامي[5]، فهي تشريف من الإمام؛ أيْ الخليفة العبَّاسي للشخص المُرسَل إليه. وكان رسول الخليفة يقوم بوَضْع التشريف على أكتاف الملك المُرسَل إليه، بعد قراءة التقليد، فيلبسه، ويسير به في شوارع بلده، أو بين خواصِّه[6]. فعندما وصل إلى السُّلطان النَّاصر صلاح الدِّين التقليد والتشريف من الخليفة عام 576 هـ 1180م، "ركب النَّاصر بالتشريف"[7]. وفي عام 604 هـ 1208م، وصل تشريف من الخليفة النَّاصر إلى السُّلطان العادل، وإلى أولاده، ووزيره، "فركب العادل وولداه ووزيره بالتشريفات إلى ظاهر البلد، ثُمَّ عادوا إلى القلعة"[8].

1- السُّلُوك، المقريزي، 1 / 425، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 352.
2- مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 350.
3- السُّلُوك، المقريزي، 1 / 425.
4- رُسُوم دار الخلافة، الصابىء، 93.
5- مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 350.
6- مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 180، 4 / 352، والتاريخ المُظفَّري، ابن أبي الدَّم، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 21 / 256، والسُّلُوك، المقريزي، 1 / 425.
7- التاريخ المُظفَّري، ابن أبي الدَّم، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 21 / 256.
8- مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 180، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 109.

وفي عام 623 هـ 1226م، وصل رسول الخليفة الظَّاهر مُحيي الدِّين بن الجوزي[1]، ومعه تشريفات إلى مُلُوك بني أيُّوب[2]. وفي عام 643 هـ 1246م، بعد أن مَلَكَ الصَّالح أيُّوبُ مصرَ والشَّام، أرسل إلى ديوان الخلافة القاضي ابن أبي عصرون[3] "يلتمس التقليد بالديار المصريَّة والشَّام والشرق والتشريف الإمامي"، فجاء من الخليفة المُستعصم معه "رسول كبير من الديوان، وعلى يده التشريف"، فوصل الرسول وأيُّوب مُخيِّم بالعبَّاسية، "فلبس السُّلطان التشريفَ الأسودَ المُذهَّبَ"[4].

3 ـ **الخلعة**: وهي ما يخلعه الخليفة أو الملك على أحد من الناس[5]، وكان خُلفاء بني العبَّاس كثيراً ما يهبون الخلع لأتباعهم. وأنواع الخلع التي كانت تُرسَل إلى مُلُوك بني أيُّوب كانت ـ غالباً ـ ما ترافق التقليد، وتكمل التشريف. وهي خلع أصحاب الجُيُوش، وولاة الحُرُوب[6]، فمُلُوك بني أيُّوب كانوا وُلاة دار الحَرْب في مُواجهة الفرنج مُنْذُ أن قامت دولتهم. والخلعة ـ في كثير من الأحيان ـ كانت تعني مُوافقة الخليفة على تقليد الملك في بلاده، وهي ـ عادةً ـ تتكوَّن من عمامة سوداء ورداء فضفاض ـ عباءة ـ أسود مُبطَّن، مُوشَّى بالذهب، وسيف مُحلَّى بالفضَّة والذهب، له حمائل مُوشَّاة أيضاً. ثُمَّ يأتي الحملان، وهُو حصان بسرج مُزيَّن.

وكانت هُناك زيادة على هذه الخلع المُتعارف عليها تُزاد لأصحاب الفتوح من القُوَّاد، وهي طَوْق وسوارَيْن من الذهب[7]، وهذه الزيادة أُعطيَتْ لقُوَّاد دولة الخلافة، ولم تُرسَل مع الخلع إلى مُلُوك بني أيُّوب إلَّا نادراً، ففي عام 599 هـ 1203م، أرسل الخليفةُ الخلعَ إلى الملك العادل وأولاده، فلبسوها[8]، ولم يُذكَر أنَّها تضمُّ الطَّوق والسوارَيْن. أمَّا في عام 605 هـ؛ فقد وصل إلى بغداد من

---

1 - أبو المُظفَّر مُحيي الدِّين يُوسُف بن جمال الدِّين أبي الفرج بن الجوزي.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4 / 175.
3 - عزّ الدِّين بن عبد العزيز بن القاضي نجم الدِّين عبد الرحمن بن أبي عصرون، تُوفِّي في القُدْس عام 643 هـ.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 350 ـ 352، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 377.
5 - مُعجم المُصطلحات والألقاب التاريخية، مُصطفى الخطيب، 165.
6 - راجعْ أنواع خلع أصحاب الجُيُوش وولاة الحُرُوب في كتاب: رُسُوم دار الخلافة، الصابىء، 93.
7 - رُسُوم دار الخلافة، الصابىء، 93.
8 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 61.

دمشق قاضي عسكر الشَّام ابن المصمودي[1] رسولاً من الملك العادل، وتسلَّم الخلع للعـادل وأولاده، وكان في خلعة العادل الطَّوق والسواران[2]، وأرسل معهم الخليفة الشَّيخ شهاب الدِّين الـسهروردي رسولاً لحمل الخلعة، واهتمَّ العادل كثيراً بهذه الخلعة، فقد "أرسل العَسْكَر للقاء الرسول، فتلقّـوه في الغسولة[3]، وخرج العادل، وتلقَّاه في القصير[4] مع ولدَيْـه الأشرف والمُعظَّـم، وغُلِّقَـت الأسـواقُ، وخرج الناسُ كُلُّهم، وكان يوماً مشهوداً"، ثُمَّ جلس العادل بقلعة دمشق، ولبس الخلعـة، "وطُـوِّق بطَوْق ذهب ثقيل"[5]. إنَّه تقدير كبير من الخليفة النَّاصر للملك العادل، واهتمام أكبر من العادل يدلُّ على مُستوى أهمِّيَّة تقليده بالخلعة والطَّوْق، فقام العادل وأولاده ومُلُـوك بنـي أيُّـوب بإغـداق الهـدايا والتحف على رسول الخليفة، وكانت كبيرة إلى درجة أن الخليفة قد أعرض عنه عند عودته إلى بغـداد بهذه الكمِّيَّة من الهدايا[6].

وفي عام 623 هـ 1226م، توجَّه مُحيي الدِّين بن الجوزي رسولاً من الخليفة الظَّاهر إلى مُلُوك بني أيُّوب، فوصل إلى الأشرف أوَّلاً، وكان في الجزيرة، "فأفاض عليه الخلع الإماميـة الظاهريـة، ثُـمَّ وصل حلب، فتلقَّاه الملك العزيز، فألبسه خلعة الخليفة، . . . فركب العزيز بهـا، وتوجَّـه إلى دمـشق، وألْبَسَ المُعظَّمَ خلعةَ الخليفة، . . ثُمَّ توجَّه إلى مصر، فـأَلْبَسَ الكامـلَ خلعـةَ الخلافـة المُكمّلـة، بـالطَّوْق الذهب"[7]، إنَّها خلع بالجملة لمُلُوك بني أيُّوب في الشَّام ومـصر، ولكـن خلعـة الـسُّلطان الكامـل هـي الخلعة الوحيدة المُكمّلة بالطَّوق الذهب، فالطَّوْق لم يُعدُّ من شعارات قُوَّاد الفتوح، بـل مـن تمـام الخلعـة وكمالها التي ينفرد بها سُلطان بني أيُّوب عن المُلُوك الآخرين. وفي عام 628 هـ 1231م، وصـل رسـول الخليفة إلى السُّلطان الكامل بمصر يحمل الخلع من الخليفة[8]، ونفترض أن هذه الخلعة ـ أيـضاً ـ كانـت

---

1 - ابن المصمودي: نجم الدِّين خليل الحنفي الحموي، تُوفِّي عام 641 هـ 1243م، (النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6 / 348).
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 122.
3 - الغسولة: قرية تقع شمال شرق دمشق، وهي ـ حالياً ـ قُرب مطار دمشق الدولي، (المُعجـم الجَغـرافي للقطـر العَرَبي السوري، مادَّة: الغسولة).
4 - القصير: قرية على طريق حمص، شمال دمشق بمرحلة. (المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، مادَّة: القصير).
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 180، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 109، والمنصُوري، ابن نظيف، 56.
6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 20 / 124.
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 175.
8 - المنصُوري، ابن نظيف، 231.

تضمُّ الطَّوْق، فقد أصبح حقّاً مُكتسباً للسُّلطان. وفي عام 643 هـ 1237م، وبعد أن تسلطن الصَّالح أيُّوب، وسيطر على مصر ودمشق، أرسل إلى ديوان الخلافة يلتمس التقليد، فوصله رسول الخليفة، ومعه التقليد والطَّوْق الذهب[1]، فالطَّوْق أصبح حقّاً ضمن خلعة الخليفة لِمَنْ يتولَّى منصب السُّلطان الأعظم من بني أيُّوب.

وكما كانت المُنافسة على السُّلطة بين آخر سلاطين بني أيُّوب في الشَّام وأوَّل سلاطين المماليك في مصر كانت ـ أيضاً ـ بينهما المُنافسة على خلعة الخليفة، فبعد أن سيطر الملك النَّاصر صلاح الدِّين الثَّاني على الشَّام "أرسل ابن العديم رسولاً إلى الخليفة المُستعصم وصحبته تقدمه جليلة، وطلب خلعة من الخليفة لمخدومه"[2]، فالناصر يُريد أن يُؤكِّد شرعية الحُكْم الأيُّوبي الذي آل إليه مُقابل عدم شرعية حُكْم المماليك، الذين استولوا على السُّلطة في مصر، فما كان من المُعزّ أيبك إلَّا أن أرسل شمس الدِّين سنقر[3]، "وصحبته تقدمه جليلة، وسعى في تعطيل خلعة النَّاصر يُوسُف"[4]، فآيبك لم يطلب الخلعة لنفسه، رُبَّما لأنَّه كان يُدرك صُعُوبة مُوافقة الخليفة على ذلك، فحُكْمه في مصر لم يستقرّ بعد، وهُناك مشاكل كثيرة شرعية وعسكريَّة وإدارية ماتزال قائمة، لذلك كان جُلُّ ما يطمح إليه هُو عدم منح الخليفة الخلعة للناصر يُوسُف.

أمَّا الغريب في هذا الأمر؛ فهُو موقف الخليفة المُستعصم الذي حار فيمَنْ يُرضي من الطرفَيْن، فقد قدَّما هدايا جليلة لا يُمكن أن يُنكَر تأثيرها، ولذلك وجد الخليفة الضعيف الشخصية مخرجاً بأنْ "أحضر سكِّيناً كبيرة من اليشم[5]، وقال لوزيره: أعط هذه السكِّين لرسول صاحب الشَّام، علامة منِّي في أن له خلعة عندي في وقت آخر"[6]، وهذا أمر طبيعي بالنِّسبَة للمُستعصم، فهُو لم يشأ أن يدخل في صراع المُلُوك على السُّلطة، فدوره إقرار من يتغلَّب منهم، وعندها تكون الخلعة من حقِّه الطبيعي.

1 - مُفرِّج الكرُوب، ابن واصل، 5 / 350، والسُّلُوك، المقريزي، 1 / 425.
2 - عقد الجمان، العيني، 1 / 117.
3 - سنقر الأقرع: من مماليك المُظفَّر غازي صاحب مَيَّافارقين، فارقه، والتحق بمصر.
4 - عقد الجمان، العيني، 1 / 117.
5 - اليشم: حجر كريم.
6 - عقد الجمان، العيني، 1 / 117.

المبحث الخامس

قضيَّة الملك النَّاصر داود والخليفة العبَّاسي

(وجه آخر للعلاقات بين الأَيُّوبيِّيْن والخليفة) :

في عام 630 هـ ـ 1233م، تحرَّك الملك الكامل بعساكره من مصر نحو الجزيرة للتصدِّي لهُجُوم سُلطان سلاجقة الرُّوم، وفي طريقه مرَّ على الكَرَك، فاستقبله النَّاصر داود، واتَّفق معه، وقبل الكامل زواج ابنته عاشوراء من داود[1]، ورُبَّما أراد الكامل بهذه العلاقة مع داود تقوية مركزه في الشَّام، ويبدو أن داود لم ينسَ ما فعله عمُّه الكامل؛ حيثُ نزع منه دمشق، وأخذ منه قلعة الشوبك، فاستغلَّ النَّاصر داود فُرصة تآمر المُلُوك الأَيُّوبيَّة على الكامل أثناء غزوه لبلاد الرُّوم، فانخرط في حلفهم ضدَّه. وصحيح أن الملك المُجاهد هُو مَنْ حرَّك المُلُوك ضدَّ الكامل، وأبلغهم أنَّه قال: "أريد أن أجعل البلاد سفقتَيْن، فأضمّ الشَّام إلى مصر، وأعوّض مُلُوكه في الرُّوم، فحذر كلّ منهم مُفارقة إلفه، وخشي أن يكون في مناصرته كالباحث عن حتفه بظلفه"، لكنَّ النَّاصر داود الذي "لدغته أراقم بغيهم، وأنفذوا في انتزاع دمشق منه سهام أمرهم ونهيهم، علم أن القلق مُترتِّب على ما يُحاولونه من الفتح، فخلل في سراتهم رأيه الناصح، وفاوضهم مُفاوضة أخذت من قلوبهم بالمجامع، فتنسَّم الملكُ الكاملُ الأخبارَ"[2]، وعلم دور داود في التحريض عليه، ورُبَّما لأنَّه الطرف الأضعف وقعت عليه ثائرة الكامل، فألزمه بطلاق ابنته، وتهدَّده، "فخاف النَّاصر خوفاً عظيماً"[3]، ولشدَّة خوفه من الملك الكامل ترك النَّاصر بلاده عام 633 هـ، وسار إلى بغداد لائذاً بالخليفة المُستنصر[4]. كان لجوء داود لأعتاب الخليفة سابقة لمُلُوك بني أيُّوب، فلم يقصد أيٌّ منهم الخليفةَ فيما قبل، ويبدو أن ما اضطرَّ داود إلى ذلك هُو خوفه الشديد من عمِّه الكامل، خاصَّة أنَّه جرَّب مُعاداته سابقاً، فخرج من معركته معه خاسراً مُعظم بلاده. ولكن الظُّرُوف ـ الآن ـ مُختلفة، فالملك الأشرف ومُلُوك الشَّام مُعادون تماماً للملك الكامل، فلِمَ لَمْ يلجأ النَّاصر إليهم؟ بالتَّأكيد؛ إنَّها تجربته المرَّة السابقة معهم؛ حيثُ أوقعوه بين

---

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 348.

2 - الفوائد الجلية في الفرائد النَّاصريَّة ـ سيرة النَّاصر داود، الأمجد حسن بن داود، 218.

3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 348.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 100، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 348.

المطرقة والسندان، فعندما استنجد بعمِّه الملك الأشرف اتَّفق عليه مع عمِّه الآخر الملك الكامل، ونزعوا منه دمشق، لكُلِّ ذلك لم يجدْ داود أمامه إلَّا الخليفة، فقصده مُستجيراً به.

سار النَّاصر داود إلى بغداد مع عدد من خواصِّه، ولمَّا وصل مدينة الحلَّة، وهي تابعة للخليفة، استقبله أميرها شرف الدِّين علي بن جمال الدِّين قشتمر، وأكرمه، وتابع - بعدها - داودُ طريقَهُ إلى بغداد، فأمر الخليفةُ المُستنصرُ حاشيتَهُ باستقباله، وإنزاله بدار الوزارة، وقام النَّاصر بتقديم هدايا نفيسة إلى الخليفة، فيها من التحف والجواهر[1]، "وكان طامعاً بمُقابلة الخليفة، فلم يُؤذَنْ له في ذلك، وطال مقامه في بغداد[2]. ولم يُقصِّر الخليفةُ بحقِّ ضيافة داود وإكرامه، فقد خلع عليه قبا أطلس[3]، وشربوش[4]، وفرساً بمركب ذهب وكنبوش[5]، وأُعطي علماً وجفتاتَيْن[6]، كما أُعطي خمسةً وعشرين ألف دينار، وعدَّة رُؤُوس خيل، وبقج[7] ثياب فاخرة، وشُرِّف أتباعه[8]، ومع كُلِّ ذلك الإكرام لم يوافق الخليفة على استقباله، مُراعاة منه لخاطر الملك الكامل، فبالتأكيد؛ كانت مصلحة الخليفة مع سُلطان بني أيُّوب، لا مع أمير مغضوب عليه، يرتعد خوفاً من سُلطانه. ولكن داود لم ييأس، واستمرَّ بتضرُّعه للخليفة حتَّى يحظى بالمُقابلة، وقد شجَّعه على ذلك أن الخليفة كان قد استقبل مُظفَّر الدِّين بن زين الدِّين صاحب المَوصل، فأنشأ النَّاصر داودُ قصيدةً يمدح فيها الخليفة، ويقارن فيها بين استقبال مُظفَّر الدِّين، والإعراض عنه، وأرسلها إلى الخليفة يستعطفه لمُقابلته[9]، "وأعجبت القصيدة الخليفةَ، وأراد الجمعَ بين المصلحتَيْن، فاستدعاه سرَّاً جَبْرَاً لقلبه، وعدم الجَهْر

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 157.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 100.

3 - قبا: من قباء وهُو ثوب واسع، يُرتَدَى فوق الثياب العادية.

4 - الشربوش: قلنسوة طويلة، شُرِح سابقاً.

5 - الكنبوش: ما يُستَر به ظَهْرُ الفَرَس، وكفله، ويكون من خيوط الذهب، أو الصوف المرقوم، ويركب به القُضاة وأهل العلم. (صُبح الأعشى، القلقشندي، 2 / 135).

6 - جفتاتَيْن: غلامان يرتدي كُلٌّ منهما ثوباً من الحرير الأصفر، ويركب كُلٌّ منهما على فَرَس أبيض، ويتقدَّمان الاحتفالات. (تكملة المعاجم العَرَبيَّة، رينهات دوزي، مادَّة: جفته).

7 - بقج: جمع باقجة، وهي تُركية تعني الصُّرَّة. (النُّقُود العَرَبيَّة وعلم النميات، الأب أنستاس ماري الكرملي، 168).

8 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 161 - 162.

9 - مطلع القصيدة: ودان، ألَمَّتْ بالكثيب ذوائبه وجنح الدّجى وحفٌ تجول غياهِبُه

(راجعْ القصيدة في: ديوان الملك النَّاصر داود، 221).

رعاية للكامل"[1]. ثُمَّ سَيَّرَ الخليفةُ رسولاً مع النَّاصر ليشفع فيه إلى الكامل، حتَّى لا يتعرَّض لـبلاده، وكان الرسول سعد الدِّين حسن بن علي من كبار خواصِّ الخليفة، فتلقَّاه الأشرف والكامل بدمشق، وسار الرسول مع النَّاصر داود ليُلبسه الخلعة في الكَرَك إشعاراً بتكريم الخليفة لـه، "وأقام آمناً لانتسابه إلى الخليفة"[2]. ويبدو أن هذا ما سعى إليه داود، ولكنْ؛ إلى متى سيستمرُّ أمنه واستقراره في ما بقي له من البلاد؟!

بعد موت الملك الكامل، تنازع ولداه الصَّالح والعادل على السُّلطة، وتمكَّن الصَّالح أيُّوب من أَخْذ دمشق، وسار إلى مصر، وفي الطريق؛ تخلَّى عنه جنده وأصحابه لخُرُوج دمشق من يده، فقبض عليه النَّاصر داودُ، واعتقله في الكَرَك، ثُمَّ اتَّفق معه، وأخرجه، وتملَّك الصَّالح أيُّوب مصر، لكنَّه تنكَّر لعُهُوده، فدخل النَّاصر داودُ ضدَّه في حلف الشَّام.

لكنْ؛ بعد هزيمة غزَّة، وأَخْذ أيُّوب لدمشق، وضَغْط ابن الشَّيخ العسكري على داود، وحصاره في الكَرَك، ضاقت الدُّنيا به، فسار من الكَرَك نحو الملك النَّاصر يُوسُف الثَّاني في حلب، معتضداً به، ولاجئاً إليه عام **647** هـ **1249**م، "وكان قد بقي عند داود من الجوهر مقدار كثير[3]، وكان معه من نفائس الجواهر ما هُو كالنجوم الزواهر . . يقوَّم بضرورة البيع بخمسمائة ألف دينار"[4]. ويبدو أن داود خاف أن يطمع النَّاصر يُوسُف بالجوهر الذي معه، "فلم يجد عليه مأمناً سوى دار الخلافة . . فجمع ما عنده من الجوهر الثمين، وسيَّره وداعة إلى الإمام المُستعصم، فلمَّا وصل الجوهر إليهم، سيَّروا بوُصُوله خطاً"[5]، فكان داود كالمُستجير من الرمضاء بالنار؛ حيثُ لن تقع عينه على تلك الثروة التي تصوَّر أنَّها في أكثر الأمكنة أمناً، إنَّها ذمَّة الخليفة. ولم يكن هذا التصرُّف الخاطئ الوحيد الذي ارتكبه داودُ، ويبدو فيه أن الحكمة والتعقُّل قد جانباه، أو أن الشدَّة والخوف

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 106، (راجعْ وقائع المُقابلة بين داود والخليفة في: الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن بن داود، 220).

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 113، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 157، والمُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 162.

3 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 179.

4 - الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 226، ـ يقول أبو الفداء: "كان يُساوي مائة ألف دينار إذا بيع بالهوان". (المُختصر، أبو الفداء، 3 / 179).

5 - الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 226 ـ 227.

قد شلَّا تفكيره، فقد سلَّم حُكمَ الكَرَك قبل أن يغادرها إلى ابنه الأصغر عيسى، ولقبه المُعظَّم، وجعله نائباً له في مملكته، مُتجاهلاً ولديه الأكبر؛ وهما الأمجد حسن، والظاهر شاذي[1]، فاستغلَّ ولدا داود غيبته، وصغر سنِّ أخيهم المُعظَّم نائب والدهم في الكَرَك، وقاموا بالاتِّفاق مع الصَّالح أيُّوب، وسلَّماه الكَرَك مُقابل أموال وإقطاع لهما في مصر[2]، ولم يطلْ العهدُ بهما، فقد مات أيُّوب بعد أيَّام قليلة، فطُردا من مصر، وخرجا خاسرين كلَّ شيء[3].

ويبدو أن أُمُور النَّاصر داود سارت على عكس ما يرتجي في حلب، فقد قام لُؤلُؤ الأميني مُدبِّر مملكة حلب بتحريض النَّاصر يُوسُف عليه؛ إذْ يقول الأمجد حسن بن داود في سيرة أبيه: "ولمَّا قصد الملكُ النَّاصر يُوسُفَ مُنتصراً، وجد من كفيل دولته مُتنكّراً"[4]. ففي عام **648** هـ**1250**م، قبض النَّاصر يُوسُف على داود، وسجنه في قلعة حمص[5]، وفي سجن حمص نظم قصيدة في التوسُّل والرجاء[6]، ويُستشفُّ من مضمون القصيدة أنَّه جاء طالباً اللُّجُوء والحماية لدى النَّاصر يُوسُف، فلم يُجبه، بل رماه بإفك القول، وسجنه، ولم يجد في النِّهاية داود إلَّا الله سبحانه يلجأ إليه، ويطلب منه. ولمَّا طال سجنه بقلعة حمص "لم يجد سوى الخليفة ملاذاً، فبعث ولده المُعظَّم عيسى مُستشفعاً"[7]، وكانت استجابة الخليفة على غير ما توقَّع؛ حيثُ "سَيَّرَ معه شفاعة لا يُرجى لمثلها نجاح"[8]، فالرسول شخص عاديّ لا أهمِّيَّة له، ويبدو أن النَّاصر يُوسُف فَهِمَ إشارة الخليفة بأنَّه غير مَعْني بأمر داود، فاعتذر عن إطلاقه من السجن، وتعلَّل باستعداده لحرب المماليك بمصر، وإنَّه يخشى أن يُفسد عليه الأمر في الشَّام.

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 179.

2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 215.

3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 354.

4 - الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 226.

5 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 353، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 184.

6 - مطلع القصيدة: إلهي أنت أعلى وأعلم بمحقوق ما تبدي الصدور وتكتم .
(ديوان الملك النَّاصر داود، 260، ـ كذلك انظرْ: عقد الجمان، العيني، 1 / 38).

7 - الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 227.

8 - الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 227.

وبعد هزيمة النَّاصر يُوسُف أمام المماليك، أوعز داود إلى ولدَيه الظَّاهر شاذي، والأوحد يُوسُف أن يتوجَّها إلى بغداد ليُذَكِّرا الخليفةَ بقضيَّته، ولكنَّهما رُدَّا من الطريق قبل بُلُوغ بغداد، "وقيل إنَّ النَّاصر طلب ردَّهما، فعادا إلى دمشق"[1]. وكان الخليفة قد أرسل الشَّيخ نجم الدِّين البادرائي[2] رسولاً ليُصلح بين النَّاصر يُوسُف والمماليك، واستطاع - فعلاً - التوصُّل إلى الصُّلح وإطلاق الأسرى الشُّوام في مصر، فكتب أولاد داود إلى البادرائي وهُو بدمشق عام **651 هـ** **1253م**، فرأف بحالهم، وحدَّث النَّاصر يُوسُف بأمر داود، فأطلقه، "مُشترطاً عليه ألَّا يُقيم عنده إلَّا ريثما يتجهَّز للسفر"[3]، ولم يجد داود مكاناً يلجأ إليه بعد إطلاقه من السجن "سوى قصد الخليفة . . . فتوجَّه يؤمّه، في وثوق من الرجاء، معتمداً على ما استودعه من المال والولاء"[4]. ولكن النَّاصر يُوسُف عمَّم على كُلِّ المُلوك والأُمراء في الشَّام ألَّا يسمحوا لداود بإقامة، ولا يمدُّوه بمُساعدة، وعندما مرَّ داود على الرحبة وفيها الأشرف مُوسى بن المنصُور بن المُجاهد، فبالرغم من أوامر الملك النَّاصر يُوسُف "أرسل إلى النَّاصر داود مركبَيْن مُوسقَيْن دقيقاً وشعيراً"[5]، ولم يكتف بذلك، بل "سَيَّرَ إليه أشياء غير واحدة من جميع ما يحتاج إليه"[6]، وبذلك "قام الأشرف بن المنصُور في خدمته بما يليق بمكارم أخلاقه الزكية"، ولكن هذا تحدِّياً لسُلطان الشَّام النَّاصر يُوسُف، الذي انزعج من الأشرف، "وسقاه من عتبه سماماً، وسدَّد إليه من تخويفه سهاماً"[7]. وأرسل النَّاصر يُوسُف إلى الخليفة يطلب منه عدم استقبال داود، فردُّوه من عانه، ومنعوه التزوُّد بالمؤن، "وطلب وديعته، فمنعوه إيَّاها"[8]. ويبدو أن الخليفة كان لا يرغب أن يتبنَّى داود، الذي تحوَّل إلى مُشرَّد مشاغب غير مرغوب فيه في بلاده، ولدى سُلطانه النَّاصر، الذي كان الخليفة يُريد أن يحافظ على علاقات جيِّدة

---

1 - الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 227.

2 - راجعْ ترجمته في: مبحث المماليك، فصل مقتل المُعظَّم تُورانشاه، من هذا الكتاب.

3 - الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 228.

4 - الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 228.

5 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 186 - 187، - موسقَيْن: ممتلئَيْن.

6 - كنز الدُّرر، ابن آيبك، 8 / 23.

7 - الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 229.

8 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 186.

معه، إضافة إلى أن الخليفة ـ رُبَّما ـ فكَّر أن عودة داود إلى بغداد ستكون ـ بلا شكٍّ ـ لطلب وديعته من الجوهر، فَمَنْعُهُ من الحُضُور يعني تَمَلُّكَ الوديعةَ.

فأقام داود في أزوار الفُرات، ثُمَّ انضمَّ إلى نفر من قبيلة غزية، يتجوَّل معهم في بوادي العراق، ولكن الخليفة ظلَّ قلقاً حيال وُجُوده قريباً من العراق، فطلب من النَّاصر يُوسُف أن يسمح له بالعودة إلى دمشق، فعاد نحوها عام 653 هـ[1]، ومن دمشق توجَّه داود إلى الحجاز، واستشفع بقبر النبي(ص)، وأشهد الناسَ على الخليفة الذي لا يردُّ وديعته[2]، وقد أحدثت هذه الحَرَكَة من داود ضجَّة دينيَّة حول الخليفة، الذي سارع بإرسال مَنْ يحاسب داود، فحسبوا عليه ثمن كُلِّ طعام تناوله عندهم، وثمن كُلِّ هدية أخذها بأغلى الأثمان، وأعطوه نزراً يسيراً[3]، وعاد النَّاصر داودُ نحو دمشق، وانتهت به الفاقة والإملاق أن يُقيم مع أولاده في تُربة والده بسفح جبل قاسيون[4].

وفي عام 655 هـ 1257م، عندما كان نجم الدِّين البادرائي رسول الخليفة المُستعصم في دمشق استجار به داود ليصحبه إلى بغداد، فاصطحبه معه إلى قرقيسيا، وشاور عليه، ولكن النَّاصر يُوسُف توصَّل إلى منعه من ذلك، فلم يأذن الخليفة له، فقد كان في شغل شاغل عن داود وعن كُلِّ الشَّام ومُشكلاتها، فالتتار باتوا قريبين من بغداد، وهُولاكُو يُنذر الخليفة، ويتوعَّده طالباً منه أن يمثل أمامه. وعاد داود "على البرِّيَّة، وقصد تيه بني إسرائيل[5]، وأقام مع عرب تلك البلاد"[6]. وفي تيه بني إسرائيل، الذي اعتقد داود أنَّه أصبح فيه بعيداً عن المُتربِّصين به، ظهر له عدوٌّ جديد؛ هُو الملك المُغيث بن العادل الثَّاني، الذي استولى على الكَرَك بعد وفاة الصَّالح أيُّوب. وكان المُغيث مُحقَّاً بقلقه من النَّاصر داود، فهُو صاحب البلاد الشرعي، وقد سلَّمها أولاده غدراً، وكذلك حصل المُغيث عليها غدراً، فخشي المُغيث، واحتاط، وأخذ يُلاطف داود، ويخادعه، حتَّى تمكَّن من القبض عليه،

---

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 355، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 186.

2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 355.

3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 356، والفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 243، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 191.

4 - الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 244، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 191، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 356.

5 - تيه بني إسرائيل: صحراء سيناء.

6 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 193.

وأخذ يُعدُّ له مطمورة لا يخرج منها حياً[1]، وفي هذه الأثناء؛ كان التَّتار قد أحدقوا ببغداد، فأرسل الخليفة المُستعصم رسوله "يطلب النَّاصر داود ليُقدِّمه على بعض العساكر لمُلتقى التَّتَر"[2]، "فوصل الرسول إلى الكَرَك والحفرة تُعدُّ لداود، فأنقذه من ميتة شنيعة، وأخذه معه إلى دمشق"[3]، ويبدو أن الخليفة المُستعصم عندما ضاقت به الحال تذكَّر داود، وتذكَّر إلحاحه وإصراره، وتذكَّر تحريره للقُدْس من الفرنج، بعد أن تسلَّموه من الكامل، ورُبَّما كان داود قد عرض ذلك على المُستعصم في وقت سابق، على الأحوال كُلِّها كان طلبه لداود القشَّة التي يتمسَّك بها الغريق.

مع أن الظُّرُوف لم تسمح لنا لمعرفة مدى ما كان يُمكن أن يقدِّمه داود في مهمَّته للقتال ضدَّ التَّتار، فقد سبق تصاعد الأحداثُ الجميعَ، وسقطت بغدادُ بيد التَّتار، وداود مايزال يستعدُّ بدمشق، ولمَّا سمع رسول الخليفة بهذا الخبر، ترك داود، وترك جميع العساكر وكُلَّ ما جاء من أجله، ومضى لحال سبيله[4]، وشاع بين الناس أن الخليفة هرب من بغداد، ولحق ببعض العَرَب، فقال داود: "لابُدَّ لي من اللحاق به"[5]، ولكن القدر كان يتربَّص بداود بطريقة أُخرى، فقد انتشر بين الناس طاعون مات منه النَّاصر داود عام **656** هـ **1258**م، وهُو في قرية البويضاء قُرب دمشق، فأظهر النَّاصر يُوسُفُ الحزنَ عليه، ودفنه في تُربة والده بسفح جبل قاسيون[6].

وفي النتيجة نجد بأنَّ الشَّام ومصر، وهما بلاد السَّلطنة الأيُّوبيَّة، كانتا تُعدَّان جُزءاً من دولة الخلافة العبَّاسيَّة، التي كانت ـ نظرياً ـ ماتزال تشمل العالم الإسلامي، ولكن تبعية مصر والشَّام للخلافة كانت اسمية، فقد قام الحُكَّام الأيُّوبيُّون وغيرهم بمُمارسة الحُكْم في البلاد، وفصلوها فعليَّاً عن دولة الخلافة، ومع ذلك؛ بقي للخلافة هيبتها المُستمدَّة ـ غالباً ـ من سُلطتها الدِّينيَّة، ومن الحاجة إليها لمنح الشرعية للمُتصارعين وللمُغتصبين. وعلى هذا الأساس؛ فقد قامت علاقات متأرجحة بين مُلُوك الأيُّوبيَّة من جهة وبين الخُلفاء العبَّاسيين من جهة أُخرى، ولكنَّها اتَّسمت ـ غالباً ـ بصيغ

---

1 - الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 215 ـ 216، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 356.
2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 356.
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 195، والفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 217، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 356.
4 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 356، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 195.
5 - الفوائد الجلية، الملك الأمجد حسن، 123.
6 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 195.

دبلوماسية؛ حيثُ اقتنع الخُلفاء بإقرار حُكَّام الشَّام ومصر بسيادتهم الاسمية، والدعاء لهم في الخطبة، ونَقْش أسمائهم على السّكَّة، فالخُلفاء العبَّاسيون في هذه المرحلة لم يكونوا قادرين على تحقيق ما هُو أفضل من ذلك. أمَّا الأيُّوبيُّون في الشَّام ومصر؛ فكانوا يرون في تبعيَّتهم الاسمية للخلافة مكسباً كاملاً بُدُون أيِّ تبعات مادِّيَّة، فهم يحصلون على دعم معنوي كبير لسُلطتهم، ويستمدون شرعية لها من شرعية الخلافة. فكانت العلاقات بينهم تُترجَم بتبادل الرسائل، وإيفاد الرُّسُل، حاملين أوامر التفويض بالولايات لحُكَّامها الجُدُد، وحلَل التشريف لتكريمهم. إضافة إلى أن رُسُل الخليفة كانت ـ في كثير من الأحيان ـ تحضر للتوسُّط بين المُلُوك والحُكَّام المتنازعين، وحَلِّ خلافاتهم. لذلك لم تنقطع الرُّسُل بين الخلافة والحواضر الأيُّوبيَّة خلال هذا العصر. ومع كُلِّ ذلك لم يتجاوز الدعم العبَّاسي لمُلُوك بني أيُّوب الشكلَ المعنوي، حتَّى في أشدِّ الأزمات التي اعترضتهم، وقبل الأيُّوبيُّون ذلك، ولكنْ؛ لا ندري هل كان القبول على أساس أن الخلافة لا تملك أكثر من ذلك؟! أم أنَّهم هُم لا يُريدون من الخلافة أكثر من ذلك؟!

الخُلفاء العبَّاسيون المُعاصرون للحُكْم الأيُّوبي

1 ـ المُستضيء بالله الحسن أبو مُحمَّد بن المُستنجد (33).

566 ـ 575 هـ 1171 ـ 1179م.

2 ـ النَّاصر لدين الله أحمد أبو العبَّاس بن المُستضيء (34).

575 ـ 622 هـ 1179 ـ 1225م.

3 ـ الظَّاهر بأمر الله مُحمَّد أبو نصر بن النَّاصر (35).

622 ـ 623 هـ 1225 ـ 1226م.

4 ـ المُستنصر بالله المنصُور أبو جعفر بن الظَّاهر (36).

362 ـ 640 هـ 1226 ـ 1242م.

5 ـ المُستعصم بالله عبد الله أبو أحمد بن المُستنصر (37).

640 ـ 656 هـ 1242 ـ 1258م.

الفصل الثّاني

العلاقات الدّوليّة للفرقة الإسماعيليّة

المبحث الأوّل

الدعوة الإسماعيليّة[1]

مُنذُ أن استتبَّ الأمرُ للفاطميين بمصر أخذوا بنَشْر دُعاتهم في أرجاء الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة، يُرَوِّجون للمذهب الشيعي الإسماعيلي بشكل نشط ومُنظَّم، وانتشر الدُّعاة في بلاد المشرق الإسلامي خاصَّة، لكسب الأنصار، ولإضعاف نُفُوذ الخلافة العبَّاسيَّة. ومع امتلاك الفاطميين لقوى عسكريَّة كُبْرَى، وامتلاكهم آلاف الدُّعاة وجَّهوهم في حرب دينيَّة تُواكب حُرُوبهم السِّياسيَّة والعسكريَّة ضدَّ العبَّاسيين، فالنتيجة لم تكن في صالحهم، فقد استعاد المذهب السُّنِّيُّ فاعليَّته، وأخذ الفاطميُّون بالتراجع سياسياً ومذهبياً.

وللحقيقة؛ لم يكن النصر عبَّاسياً، فمع الحَرْب المعنوية التي شنَّها العبَّاسيون ضدَّ الخُلفاء الفاطميين باتِّهامهم بادِّعاء النسب العلوي، وبأنَّهم لا يمتُّون للعرب بأيِّ صلة[2]، ومع كُلِّ الاحتياطات الأمنية التي اتَّخذوها ضدَّ دُعاتهم، فقد كان النصر سلجوقياً؛ إذْ واكب المدّ الفاطمي، تدفُّق قبائل التُّرك نحو أراضي الدولة العبَّاسيَّة، وبما أنَّهم أسلموا حديثاً، واتَّبعوا مذهب السُّنَّة، فكان لهم اندفاع المُؤمنين الجُدُد، وبموالاتهم وإخلاصهم للخلافة وسلفيَّتهم وتعصُّبهم لعقيدتهم، قاموا

---

1 - سُمِّيَتْ إسماعيليَّة لأن أتباعها يعتقدون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق بن مُحمَّد الباقر بن علي زين العابدين بن الحُسَيْن بن علي بن أبي طالب. وسُمِّيَتْ - أيضاً - باطنية لاعتقادهم ببقاء الإمامة في آل علي، وأن الأرض لا تخلو من إمام مُطلقاً؛ إمَّا ظاهر بذاته، أو مستور. وسُمُّوا ملاحده لعدم إقامتهم شرائع الإسلام كما تُطبِّقها الفرَق الأُخرى، وسُمُّوا - أيضاً - الحشيشية للاعتقاد الشائع بأنَّهم كانوا يستخدمون الحشيش المُخدِّر للسيطرة على رجالهم. وعشبة الحشيش هي القنَّب الهندي أو اسمها بالهندية (بيهانغ)، وبالعَرَبيَّة (بنج)، وكان يُستخدم - أحياناً - كمُخدِّر طبِّيّ. راجعْ: سيرة منكبرتي، النسوي، 51، وصُبح الأعشى، القلقشندي، 13/ 245، وأخبار مصر، ابن ميسر، 2/ 68، والروضتَيْن، أبو شامة، 52 + 198، ودولة النزارية أجداد آغا خان، طه أحمد شرف، 216، والشرق الإسلامي قبل الغزو المغولي، حافظ أحمد حمدي، 86 - 88، وتاريخ سُورية ولُبنان، فيليب حتِّي، ترجمة: جُورج حدَّاد، 2/ 245. وهُناك مناقشة وافية تتبنَّى معنىً جديداً للحشيشية في كتاب: الحشيشية، برنارد، لويس، ترجمة: سُهيل زَكَّار، 169 - 171.

2 - راجعْ: المواعظ والاعتبار، المقريزي، 2 / 18.

بالتصدِّي للفاطميين عسكريّاً وعقائدياً. كذلك جاءت صدمة الغزو الفرنجي لبلاد الشَّام، التي ساعدت على انبعاث يقظة سُنّيَّة عامَّة، قادها الفُقهاء والمُتصوِّفة، الذين عدُّوا أن الفاطميين سلَّموا البلاد للفرنج، وفاوضوهم على اقتسامها، أو على الأقلِّ؛ تقاعسوا في الدفاع عنها، وهُم حماتها[1].

لكنْ؛ من ناحية أُخرى أدَّى دُخُول السلاجقة الأتراك إلى سُورية لقيام العديد من المشاكل على كافَّة الصُّعُد، إضافة إلى عجزهم عن التّصدِّي بشكل حاسم للفرنج، ومع وُجُود أساس عقائدي شيعي خاصَّة في شمال سُورية، كُلُّ ذلك مهَّد لنجاح فرع جديد للدعوة الفاطمية كان ينتقد الدعوة القديمة، لذلك عُرف بالدعوة الجديدة، أو الفرع النزاري، الذي التفَّ حوله عدد لا يُستهان به من الأتباع في الشَّام، فقد انقسم الدُّعاة الفاطميُّون، مُنْذُ أيَّام الخليفة الفاطمي المُستنصر؛ حيثُ تشيَّع بعضهم لابنه المُستعلي، وظلَّت مصر مركزهم الرئيس، وانتشر منها هذا الفرع إلى اليمن، وحتَّى الهند؛ حيثُ عُرفت هُناك منهم جماعة البهرة. وتشيَّع بعض منهم للابن الآخر نزار، واتَّخذوا بلاد المشرق ميداناً لهم، وأسَّسوا الدعوة الجديدة، ومنها امتدَّت الدعوة نحو شمال العراق، ومنها إلى سُورية[2].

وقد أسَّس الدعوة الجديدة الداعي الحسن ابن الصبَّاح[3]، الذي جعل في عام **483** هـ **1090**م مقرَّه في قلعة ألموت، الواقعة على إحدى قمَم جبل ألبرز في بلاد فارس. استغلَّ الحسن الصبَّاح الخلافات السِّياسيَّة ليدعم مذهبه الجديد في قلب الشَّرْق الإسلامي، ولأنَّه لم يستطع أن يتغلَّب على الأطراف الأُخرى، فقد غدا طرفاً جديداً من أطراف الصراع، كان له الدور الأكبر في إضعاف قُوَّة الشَّرْق الإسلامي، والتمهيد للسيطرة الخَوَارزميَّة، ثُمَّ المغولية عليه.

---

1 - الحشَّاشون، برنارد لويس، ترجمة: مُحمَّد العزب، 66 ـ 67.

2 - حول عقائد الإسماعيليَّة والفَرْق بين الدعوة القديمة والدعوة الجديدة راجعْ كتاب: المِلَل والنِّحَل، الشهرستاني.

3 - حسن الصبَّاح: حسن بن علي بن مُحمَّد الصبَّاح الحميري، الرازي المعروف بالكيَّال، " كان رجلاً شهماً عالماً بالهندسة، والحساب، والنُّجُوم، والسِّحْر، وغير ذلك". وُلد في مدينة قُمّ، بعد أنْ قدم والده إليها من الكُوفة، ثُمَّ تحوَّل إلى الرَّيّ، وهُناك تتلمذ حسن على الدّاعية الإسماعيلي أحمد بن عبد الملك بن عطَّاش الطبيب، ثُمَّ طاف البلاد حتَّى وصل مصر، واجتمع بالخليفة الفاطمي المُستنصر بالله، ثُمَّ عاد إلى فارس، وأسَّس دعوته الخاصَّة. (جامع التواريخ ـ هُولاكُو، رشيد الدِّين، 258، وراجعْ ترجمة الحَسَن بن الصبَّاح في: المُقفَّى، المقريزي، أوردها د. سُهيل زكَّار ضمن التراجم المُلحقة في كتاب الحشيشية لبرنارد لويس، 371).

ورُبَّما كان من أهمِّ أسباب نجاح الدعوة الإسماعيليَّة في الشَّرْق:

ـ إلغاء السُّلطان السلجوقي ألب أرسلان نظامَ البريد الذي كان سائداً في أرجاء الدولة حتَّى ذلك الوقت، ممَّا حَجَبَ أخبارَ النشاط الإسماعيلي عن الوُلاة والقادة السلاجقة[1].

ـ نشاط مدارس الدعوة الإسماعيليَّة في مصر، وتوجيه دُعاتها ـ بشكل خاصٍّ ـ نحو البلاد الشَّرقيَّة.

ـ تصدِّي العبَّاسيين والسلاجقة للدُّعاة، والمُبالغة في عُقُوبتهم، ممَّا حول الدعوة نحو السِّرِّيَّة المطلقة، وأصبح لها نظام تعاون وتكاتف فريد، ورُبَّما كان هذا أحد أسباب توجُّههم نحو الاغتيال.

ـ الصراع القائم بين الخلافة العبَّاسيَّة والسَّلطنة السلجوقية بعد وفاة السُّلطان ملكشاه، فلم يعودوا يهتمُّون للتصدِّي لهم.

ـ التنظيم الفعَّال الذي قام به الحسن الصبَّاح لأتباعه، فقد قسَّمهم إلى سبع درجات أساسية، وحدَّد لكُلِّ قسم منهم مهمَّات يقوم بها[2]، وهم بالتسلسل:

1 ـ داعي الدُّعاة. 2 ـ كبار الدُّعاة. 3 ـ الدُّعاة. 4 ـ الرِّفاق. 5 ـ اللاَّصقون. 6 ـ الفدائيون. 7 ـ المستجيبون.

بعد وفاة حسن الصبَّاح عام **518 هـ 1124م**، خلفه داعٍ إسماعيلي آخر من زملائه هُو الكيا بُزُرْكَ أُمِّيد[3]، وبعد وفاته عام **532 هـ 1138م**، خلفه ابنه مُحمَّد بن بُزُرْك حتَّى وفاته عام **557 هـ 1162م**، فتولَّى بعده ابنه حسن بن مُحمَّد الذي أحدث تغيُّراً نوعياً في العقيدة الإسماعيليَّة؛ إذْ أعلن القيامة، وأعفى أتباعه من كُلِّ الشعائر الإسلاميَّة عام **559 هـ 1164**[4]، ولمَّا مات حسن عام **561 هـ 1166م**، استمرَّ من بعده ابنه مُحمَّد الثَّاني على تعاليم القيامة، إلى أن مات عام **607 هـ 1210م**،

---

1 - سيرة منكبرتي، النسوي، 7.

A History of Persia, Sykes, p. 55 - 2

3 - الكيا: كلمة فارسية تعني: ملك (التيارات الأدبية، مُحمَّد ألتونجي، 165)، وبُزُرْك: فارسية تعني: كبير، وأميد تعني: أمل (المُعجم الذهبي، مُحمَّد ألتونجي، مادَّة: بُزُرْك، ومادَّة: أميد).

4 - جامع التواريخ ـ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 25، والحشَّاشون، برنارد لويس، ترجمة: مُحمَّد العزب، 135.

فخلفه ابنه جلال الدِّين حسن[1]، الذي ألغى القيامة فور تولِّيه، وأعلن إعادة الالتزام بالشريعة الإسلاميَّة، وفروضها، على المذهب الشافعي[2]، وكان ذلك أيَّام سلطنة الملك العادل أبي بكر بن أيُّوب في مصر والشَّام.

حول التقلُّب الدِّيني للإسماعيليَّة:

كانت الفرقة الإسماعيليَّة التي أسَّسها الحسن الصبَّاح، والتي عُرِفَتْ بالدعوة الجديدة، تُعدُّ من فرَق الشيعة المغالية، لكنَّها لم تخرج عن حظيرة الإسلام كُلِّيّاً، ولكن مرسوم الإمام حسن بن مُحمَّد بن الكيا بُزُرْك أميد، الذي أعلن فيه القيامة؛ أيْ انتهاء الشريعة، وسُقُوط الفرائض، والتحلُّل من المُحرَّمات[3]، وقيل إنَّ حسن اعتمد القيامة، بعد أن نهل من مُعظم العُلُوم، واعتنق مبدأ تناسخ الأرواح، الذي يُنسَب إلى أفلاطون، وعلَّم أتباعه ذلك، فلا يبالون في الموت[4]. وبذلك أعلنت كُلُّ الفرَق الإسلاميَّة خُرُوج الإسماعيليَّة من حظيرة الدِّين، وجعلت هذه الفرقة خارج نطاق الإسلام، وبعد أن كانوا يُسمّون بالباطنية أُطلق عليهم اسم الملاحدة[5]، والزنادقة[6].

واستمرَّ عمل الفرقة الإسماعيليَّة الجديدة في فارس وسُورية بالقيام،ة وإيقاف الشريعة طيلة مُدَّة حُكْم مُحمَّد الثَّاني، الذي عيَّن ابنه جلال الدِّين حسن قائماً مقامه بالنَّصّ[7]، ولكن حسن "مُنْذُ صغره كان يعترض على موضوع القيامة"[8]، وبعد أن شبَّ خالف عقيدة أبيه، وأظهر الميلَ للإسلام، "واستقذر قواعد الإلحاد، والإباحة"[9]، وطلب من كافَّة أتباعه -بمَنْ فيهم إسماعيليَّة الشَّام، الالتزام بالشريعة الإسلاميَّة، وإظهار شعائر الإسلام، وإقامة الحَدِّ على مَنْ ارتكب مُحرَّماً،

---

1 - جلال الدِّين حسن: تُوفِّي عام 618 هـ ترجمته في: شذرات الذهب، ابن العماد، 5 / 84.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 211،
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 298، وفاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 335، وهُناك وصف مُفصَّل لما تمَّ في الاحتفال الذي أقامه حسن بن مُحمَّد في قلعة ألموت لإعلان القيامة، في شهر رمضان عام 559 هـ (الحشيشية، برنارد لويس، 230).
4 - روايات ابن العبري، ابن العبري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 5 / 991.
5 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 13/ 245.
6 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 176.
7 - فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 335.
8 - الحشَّاشون، برنارد لويس، ترجمة: مُحمَّد العزب، 146.
9 - فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 335.

فأجـابوه. "وأرسـل جـلال الـدِّين إلى الخليفـة النَّـاصر يبـذل الطاعـة، ويستدعي قُـضاة وفُقهـاء، فأُجيب"[1].

ومع أن هُناك مَنْ يشكُّ بما فعله جلال الدِّين حسن، ويعدُّ إعلانه العـودة إلى الإسـلام مـا هُـو إلَّا تظاهر[2]، يُوجد مَنْ يعتقد بصدق ما قام به جلال الدِّين، وكلا الطـرفَيْن يُقَـدِّرون أسـباباً لتحـوُّل جلال الدِّين عن تعاليم القيامة، ومنها:

1 ـ كان جلال الدِّين "حسن الاعتقاد، . . وكان يكاتب الخليفة والسلاطين سرَّاً، ويُظهر لهـم أنَّه يدين بالإسلام"، وأنَّه اعترض مُنْذُ صغره على موضوع القيامة، وكان جادَّاً بالسعي نحو تـصالح إسلامي[3].

2 ـ عودة جلال الدِّين لحظيرة السُّنَّة كانت بتأثير أُمِّه، التي كان يرتبط بها بشدَّة، "وهـي سُـنِّيَّة مُؤمنة"، وقد قصدت الحجاز للحجِّ عـام **609** هــ **1212**م[4]، وأثنـاء مُرورهـا ببغـداد نالـت مـن التكريم والاهتمام في العاصمة العبَّاسيَّة من الخاصَّة ومن الخليفة بالـذات الـشيء الكثير[5]. وكـذلك "أُكرمت بطريق مكَّة"[6].

3 ـ رُبَّما كان دافع حسن "عن طريق العناد لأبيه"[7]، فعلاقـتهما الشخـصية لم تكـن عـلى مـا يُرام، وعداؤه لأبيه وتآمره المُبكِّر ضدَّه لم يكونا ليخفيا على أحد، إضافة إلى مُراسلته الخليفـة العبَّـاسي للاتِّفاق معه أثناء حُكْم أبيه.

4 ـ أَمْرُ إلغاء القيامة برُمَّته كان مُجرَّد تظاهر بالعودة إلى حظيرة الإسلام لـضرورات مرحليـة، وقد حلَّل حسن لنفسه ذلك وُفقاً لمبدأ التقية[8]، فالإسماعيليَّة فرقة باطنية كـما هُـو معـروف. وتُعلِّـل

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 157.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 157، وتاريخ البغـدادي ورحلتـه، المُوفَّـق عبـد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14 / 77، ـ ويُضيف المُوفَّق: "حتَّى شعروا بالخوف لظهـور خـوارزم شـاه بن تكش، فتظاهروا بالإسلام، وأقاموا شعائره". وخوف جلال الدِّين حسن من الخوارزمي يُبرِّر ما قيل بأنَّـه " أوَّل مَـنْ راسل جنكيز خان قبل أن يخرج من بلاده إلى بلاد الإسلام" . (الحشَّاشون، برنارد لويس، ترجمة: مُحمَّد العزب،150).
3 - الحشَّاشون، برنارد لويس، ترجمة: مُحمَّد العزب،146.
4 - فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 336، والحشَّاشون، برنارد لويس، تعريب: مُحمَّد العزب، 147.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 211.
6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 298، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 211.
7 - فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 335.
8 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 81.

عودته لخطيرة الإسلام بأنّها نتيجة لخوفه من جلال الدِّين خوارزم شاه "فما وجده مُخلّصاً إلّا التظاهر بالإسلام وإقامة شعائره"، فقد كان الخليفة النّاصر يراسل جلال الدِّين باستمرار لإعادة شعائر الإسلام، فيرفض ذلك[1].

ولكنْ؛ يبدو أن نيّة جلال الدِّين بإعادة التصالح مع مُحيطه الإسلامي هي الاحتمال الأرجح في سبب إلغائه القيامة، لوُجُود دوافع كثيرة اضطرّته إلى ذلك، منها:

1 ـ العُزلة التي كان يعيشها الإسماعيليّة في حُصُونهم.

2 ـ انحسار الدعوة الإسماعيليّة، وعدم انتشارها في مناطق جديدة.

3 ـ الضعف الذي بدأ يدبُّ في كيان الفرقة الجديدة.

4 ـ تراجع فاعلية سلاحها القديم "الاغتيال".

ورُبّما كان كُلُّ ما سبق من الأسباب مُجتمعة هي ما دفع جلال الدِّين حسن للإقدام على خطوته الانقلابية في العقيدة، والتي كان لها تأثيرات سياسيّة وعسكريّة كبيرة في علاقات الإسماعيليّة في فارس والشّام، فقد ألزم جلال الدِّين حسن أتباعه، ليس في فارس وحدها، بل وفي الشّام، بالعودة إلى شعائر الإسلام وُفق مذهب الشافعي السّائد في ذلك الوقت[2]. وعلى اعتبار أن من شعائر الإسلام طاعة الخليفة، فقد أرسل جلال الدِّين رُسُلَهُ إلى بغداد يُعلمون الخليفة العبّاسي النّاصر بالتحوُّل عن القيامة، وتُعلن له الطاعة[3]، فعُرف جلال الدِّين حسن مُنذُ ذلك الوقت بلقب:(نو مُسلمان)؛ أيْ المُسلم الجديد[4].

---

1 - تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 14 / 77، ـ وهُنا يُوجد وَهْمٌ وقع به المُوفّق، فقد قال: " راسل الخليفةُ النّاصر جلالَ الدِّين حسنَ صاحب ألموت يُراوده أن يعتمد شعار الإسلام من صلاة وصيام وغير ذلك ممّا رفضوه في زمان سنان، فيرفض". والصحيح أن الرفض لم يكن في زمن سنان، الذي كان في قلاع الشّام، بل زمن مُحمّد والد حسن، وهُو إمام الدعوة في ألموت.

2 - المنصُوري، ابن نظيف، 62، ومُفرّج الكرُوب، ابن واصل، 3/ 201، وذَيْل الرّوضَتَيْن، أبو شامة، 81، ولُبنان من السُّقوط بيد الصليبين حتّى التحرير، عُمر تدمُري، 221.

3 - المُوفّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 14/ 77، ـ وذَيْل الرّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 20/ 157.

4 - جامع التواريخ ـ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمّد صادق نشأت، 259.

ونتيجة للوضع الجديد للإسماعيليّة، بعد عودتها إمارة ضمن البوتقة الإسلاميّة تتبع للخليفة، وتعترف به، ولو اسمياً، فقد حرَّك جلال الدِّين قُوَّاته العسكريَّة حول مناطقه دعماً للخليفة حيناً، ولمصالحة الخاصَّة أحياناً، وبعد أن كانت الإسماعيليَّة لا تستطيع إلَّا تحريك فدائييها للاغتيالات، أصبحت تُحرُّك الجُيُوش لتحقيق مصالحها. ولَّما تُوفِّي جلال الدِّين حسن بن مُحمَّد عام **618** هـ**1221**م[1] خلفه ابنه علاء الدِّين مُحمَّد بن حسن[2]، وكان مسايراً لنهج أبيه في العقيدة.

تأثير العودة إلى الشريعة على إسماعيليَّة الشَّام وعلاقتهم بالأيُّوبية:

عندما ألغى جلالُ الدِّين حسنُ القيامةَ عام **607** هـ **1210**م[3]، أرسل إلى أتباعه في قلاع الشَّام يأمرهم باتِّباع شعائر الإسلام[4]، فالتزموا بذلك، وهُنا تتَّضح دقَّة الالتزام من قبَل الإسماعيليَّة الشَّاميَّة بأوامر المركز في قلعة ألموت بفارس، فالوُلاة يُعيَّنون من المركز، والسِّياسيَّة العليا يرسمها المركز، والمُساعدات المالية من المركز عندما تضيق الأحوال، إضافة إلى وُجُود الإمام هُناك، وهُو صاحب الأمر والنهي وُفق المذهب الإسماعيلي. وكُلُّ هذا أمر طبيعي، لكنَّ ما يتعارض معه بشكل مُحيِّر هُو علاقة إسماعيليَّة الشَّام بالفرنج، التي تستحقُّ وقفة طويلة معها، ومع ما تبعها من مُفاوضات قام بها إسماعيليَّة الشَّام مع ملك القُدْس الفرنجي لاعتناق المَسيحيَّة.

هذا الحَدَثُ، بإلغاء القيامة، وعودة الإسماعيليَّة إلى حظيرة الإسلام، الذي عمَّ الآفاق لأهمِّيَّته وغرابته، وصل ـ بالتَّأكيد ـ إلى مسامع الفرنجة في الساحل السوري، فهُناك روايات فرنجية عن تنصُّر

---

1 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 114.

2 - وقع ابن الأثير في الوَهْم عندما قال في أحداث سنة 610 هـ: " تُوفِّي جلال الدِّين الحَسَن، وهُو من أولاد الحَسَن بن الصبّاح"، فجلال الدِّين ليس من أولاد الحَسَن بن الصبّاح، بل من أولاد زميله الداعي بُزُرْك أميد.

3 - تمَّ ذلك عام 607 هـ وُفقاً لما ذكره الجويني (تاريخ فاتح العالم، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2 / 335)، وعام 608 هـ وُفقاً لما ذكره ابن الأثير (الكامل 12 / 268)، ولما ذكره ابن واصل (مُفرِّج الكُرُوب 3/ 211)، وعام 609 هـ وُفقاً لما ذكره أبو شامة (ذَيْل الرَّوضَتَيْن 81)، وعام 610 هـ وُفقاً لما ذكره ابن آيبك (كَنز الدُّرر ـ 7 / 176). ولقد اعتمدتُ تاريخ 607 هـ لأنني لاحظتُ أن هُناك خطأً جَغرافياً يصل بالترتيب التصاعدي بين مركز الحَدَث وبين المُؤرِّخين المذكورين، فالعام الأوَّل ما ذكره الجويني في كتاب تاريخ فاتح العالم وهُو قُرب مركز الحَدَث في بلاد فارس، والثاني ابن الأثير وهُو في شمال العراق، ورُبَّما أخذ عنه ابن واصل، والثَّالث أبو شامة في دمشق، والرَّابع ابن آيبك في مصر، علماً أنَّنا نجد كُلَّ تواريخهم صحيحة بحال إذا اعتبرنا أن كُلاً منهم دوَّن الخبر سنة وُصُوله إلى بلده.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 211، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 298، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 81.

الإسماعيليّة لا تستقيم إلّا إذا ربطناها بسماعهم لهذا الخبر، ولكنّها تبقى موجُودة بقُوّة لتعدُّد الرُّواة الفرنج المُعاصرين الذين ردّدوها. يروي روجر ويندوفر مُحاولة الإسماعيليّة اعتناق المَسيحيّة في عام 567 هـ 1172م، فيقول: "حصل رئيسهم في هذه الأيّام على كتاب الأناجيل وكتابات الرُّسل؛ حيثُ درس المُعجزات المَسيحيّة، وأفكارها، وهذا ما جعله يتخلّى عن شرعة مُحمّد، ويتحوّل إلى الشرعة الفضيلة للمسيح، وَهَدَمَ المساجدَ، وصلّى وُفق عادات المسيحيين، وأرسل واحداً من رجاله إلى بلدوين[1] للحُصُول على تكريس المعمودية، لكنّ فُرسان الدّاويَة قتلوه، ممّا ألحق ضرراً بالكَنيسَة"[2].

ويروي هذه القصّة وليم رئيس أساقفة صُور، مُحاولاً التأكيد على أن طلب التحوُّل قد تمّ بناء على القناعة التامّة لشيخ الجبل بتعاليم المَسيحيّة، يقول: "حدث خلال عهدنا أن اختاروا حاكماً لهم كان رجلاً فصيحاً جدّاً، وحادّ الذكاء، ولامعاً، وكان بحوزة هذا الرجل كُتُبُ الأناجيل والشريعة الرسولية، وقد انكبَّ باستمرار على دراسة هذه الكُتُب، وحاول ـ لمُدّة من الزمن، وبجهد كبير ـ اتّباع الوصايا الرائعة للمسيح والعقيدة الرسولية"[3]. ويُتابع وليم بأنّ شيخ الجبل قد علّم شعبه قناعته الجديدة، وأرسل رسولاً يُدعى عبد الله إلى الملك عموري[4] الأوّل ملك القُدْس يعرض عليه تلقّي الإسماعيليّة التعميد مُقابل إعفائهم من الجزية التي يفرضها عليهم فُرسان الدّاويَة. ثُمّ يتحدّث وليم عن حفاوة الملك الفرنجي بالرسول، والاتّفاق التامّ بينهما، ولكن؛ أثناء عودة الرسول إلى بلاده لإتمام الصفقة هاجمه فُرسان الدّاويَة، وقتلوه، فأثار النبأ حفيظة الملك، واعتبر قتل الرسول إساءة شخصية له، ونشب خلاف حادّ بينه وبين الدّاويَة، لكنّ وفاة الملك عموري أنهت القضية، مثلما أنهى اغتيال الرسول قضيّة تحوُّل الإسماعيليّة إلى المَسيحيّة[5].

---

1 - يذكر وليم الصُّوري بأنّ ملك القُدْس الذي اتّصل به الإسماعيليّة من أجل التنصُّر هُو: عموري الأوّل (من تاريخ أعمال أُنجزت فيما وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صُور، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 7/ 367).

2 - وُرُود التّاريخ، روجر ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 44/ 170، و
William of Tyre, vol. II, pp. 392 4- & Burchard, A Description of the Holy Land p, 105

3 - من تاريخ أعمال أُنجزت فيما وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صُور، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 7/ 367.

4 - يذكر روجر ويندوفر بأنّ ملك القُدْس الذي اتّصل به الإسماعيليّة من أجل التنصُّر هُو: بلدوين (وُرُود التّاريخ، روجر ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 44/ 170).

5 - من تاريخ أعمال أُنجزت فيما وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صُور، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 7/ 369).

ويقول وولتر ماب: "طلب حاكم الحشيشية شيخ الجبل من بطريرك القُدْس تزويده بكُتُب الأناجيل، فأرسلها له مع مُترجم، فاستقبلهم بكُلِّ تشوُّق ورغبة، ثُمَّ أرسل يطلب كَهَنَةً لتسلُّم التعميد الكامل مع قرابين الإيمان، فاعتقل الدَّاوِيَة رسوله، وقتلوه، خشية أنَّ تحوُّل الكُفَّار قد تقود إلى وحدة السلام، ولمَّا اكتشف شيخُ الجبل الخيانةَ بقي مُلازماً لإيمانه القديم"[1]. كذلك يُردّد حكاية طلب اعتناق الإسماعيليَّة للدِّين المسيحي الراهبُ بورتشارد في روايته لأحداث سُورية[2]. وقد فُسِّر قتل رسول الإسماعيليَّة من قبل الدَّاوِيَة بأنَّه حرص منهم على الإتاوة التي يحصلون عليها من الإسماعيليَّة، والتي ستضيع عليهم إذا تنصَّروا، فقاموا بهذا العمل[3].

ومع أن أكثر من مصدر فرنجي يُؤكِّد هذه الرواية فإنَّنا لا نستطيع أن نقبلها كمُسلمة، فما الذي يدفع شيخَ الجبل لاعتناق المَسيحيَّة، مع غياب أيِّ مكسب ظاهر له، أو لأتباعه من هذا التحوُّل، إضافة إلى ما نعرفه من التمسُّك الشديد للإسماعيليَّة بمعتقداتهم التي كانوا يُضحُّون بأنفسهم بسُهُولة في سبيلها؟! ذاك يدفعنا للشّكِّ بهذه الرواية. ثُمَّ إن هذه الحادثة تبدو غير منطقية، خاصَّة في الزمن الذي يُقال إنَّها تمَّت فيه، فلا سابقة، ولا لاحقة، لها من قبَل أيِّ طائفة دينيَّة، إلَّا إذا اعتبرناها ـ وُفقاً لمبدأ التقية ـ مُناورة سياسيَّة من قبَل الإسماعيليَّة، فقد سيطر ـ وقتها ـ نُور الدِّين على الشَّام، وقامت حملة مُنظَّمة من الدولة، يرافقها تأييد شعبي كبير، بالضغط على أتباع الإسماعيليَّة في الشَّام، وكانت قواعدهم منتشرة فيها، فطُردوا من المُدُن، والتجؤوا إلى الجبال السَّاحليَّة، محصورين بين مطرقة نُور الدِّين وسندان الفرنجة، فرُبَّما كان التنصُّر حلاً فكَّر به زعيم الإسماعيليَّة للخُرُوج من وضع صعب، ولكنَّه شيء لم يتمّ على كُلِّ حال. ورُبَّما وُضعت هذه الرواية ونُشرت كَرَدٍّ فرنجي على صدى ما وصل إليهم عن اعتناق الإسماعيليَّة للمذهب السُّنِّيِّ، وولائهم للخلافة العبَّاسيَّة.

---

1 - ما جاء عند وولتر ماب ـ Diomede, P.10، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36 / 389.

2 - بورتشارد راهب جبل صهيون، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 39 / 242.

3 - فيليب حتِّي، تاريخ سُورية ولُبنان، ترجمة: جُورج حدَّاد، 2 / 246.

المبحث الثَّاني

الفرقة الإسماعيليَّة في الشَّام

كان أشهر مُقدَّمي الإسماعيليَّة في الشَّام راشد الدِّين سنان[1]، الذي اتَّخذ من قلعة مصياف مقرّاً له، وهُو أوَّل مَنْ أُطلق عليه لقبُ شيخ الجبل، الذي عُرف به كُلُّ الأئمة بعده. ويصف ابن العبري سنان بقوله: "كان سنان مهيباً لدى المُلوك العَرَب والفرنجة، فقد صنع سكاكين صكّ، على كُلِّ واحدة منها اسم أحد المُلوك، وعلى مَنْ تُهدى إليه أن يُنجز ما يطلبه منه سنان، ولو كلَّفه حياته، وقد نهل هذا الزعيم الإسماعيلي من جميع العُلُوم، واعتنق مبدأ تناسخ الأرواح، الذي يُنسَب إلى أفلاطون، وعلَّم أتباعه هذا المبدأ، ولهذا؛ كانوا لا يُبالون بالموت، واختفى سنان عدَّة مرَّات، ثُمَّ عاد، وكان يُشاع أنَّه مات، واعتقد أتباعه أنَّه حيّ سيعود"[2].

إن أهمِّيَّة نصّ ابن العبري لا تنبع من دقَّة المعلومات التي يوردها النصّ، بل من كونه استطاع أن يعكس صُورة سنان كما تخيَّلها النَّاس في ذلك الزَّمان، فممَّا لا شكَّ فيه أن سنان كان من الأشخاص الأكثر هيبة في زمانه، ولكنَّنا لا نعتقد أنَّه كان يُسخِّر المُلوك لفعل ما يشاء، ونُرجِّح اطِّلاعه على العُلُوم، ومن المؤكَّد اعتناقه لمبدأ تناسخ الأرواح، وهُنا تكمن أهمِّيَّة هذا النصّ، فهُو يُعلِّل اندفاع الإسماعيليَّة للموت بسبب إيمانهم بالتناسخ، وليس كما أُشيع بأنَّ أعمالهم كانت تتمُّ تحت تأثير الحشيش المُخدِّر.

ويبدو أن خلافة إمام إسماعيليَّة الشَّام لم تكن بأيدي الأتباع فيها، فقد كانت تتمُّ بتكليف من المركز في قلعة ألموت، فبعد وفاة سنان في مصياف تولَّى ابنه النَّاصر الفارسي[3]. وفي عام 624 هـ 1227م، كان يتولَّى إمامة الإسماعيليَّة في مصياف شخص اسمه مجد الدِّين، فأرسل إلى علاء الدِّين

---

1 - تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14/ 97 - راشد الدِّين سنان: "كان أعرج لحجر وقع عليه من الزلزلة الكائنة في دولة نُور الدِّين، فاجتمع إليه مُحبُّوه كي يقتلوه، حتَّى يرجع إليهم صحيحاً، فلاطفهم، حتَّى تركوه. ولمَّا جاء الأمر من الموت من الكيا مُحمَّد ليحلّهم من الإسلام، ويُسقط عنهم التكاليف، نزل سنان إلى مصيات في شهر رمضان، فأكل، فأكلوا معه". (تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14/ 80).

2 - روايات ابن العبري، ابن العبري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 5 / 441.

3 - تاريخ البغدادي ورحلته، المُوفَّق عبد اللطيف، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 14/ 79، وروايات ابن العبري، ابن العبري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 5 / 991، - ويبدو أن سنان كان فارسياً كما يظهر من اسم ابنه: النَّاصر الفارسي.

كَيْقُبَاذ، سُلطان سلاجقة الرُّوم في الأناضول، يطلب منه المبلغ المُقرَّر عليه، وهُو ألفا دينار، فأبى ذلك؛ لأنَّها كانت تُدفَع إلى صاحب ألموت، وأرسل يسأله في ذلك، "فقال له: تحملها إليهم بالشام، فقد عيَّنَّاها لهم ذخيرة، فحملوها"[1]، وهذا يدلُّ على دعم ألموت لقلاع الشَّام ماديّاً وقت الحاجة، وأن مُلُوك المُسلمين بمُعظمهم كانوا يُدارون الإسماعيليَّة بشكل من الأشكال، مثل: التحالف معهم، أو تقديم المُساعدة، أو الهدايا، أو مال مُحدَّد يُدفَع سنوياً. إنَّ دفع هذه الجزية يدلُّ على مدى خوف الحُكَّام والمُلُوك من خناجر الإسماعيليَّة، وعلى أن الأخبار حول اغتيالاتهم قد حوَّلتهم إلى ما يُشبه الأُسطُورة، وإلى أن مُلُوك السلاجقة الرُّوم لم يكونوا قادرين على ضبط أمنهم بين حاشيتهم ومُرافقيهم والمُتَّصلين بهم.

قلاع الشَّام الإسماعيليَّة في العصر الأيُّوبي:

يذكر أن القلاع الإسماعيليَّة في جبال الشَّام السَّاحليَّة كانت في عام 654 هـ 1256م ثمانية قلاع[2]، منها:

1 . **مصياف:** أو مصيات، وهي حصن حصين مشهور للإسماعيليَّة بالساحل الشَّامي قُرب طرابلس، وكانت قلعتها مُحصَّنة تحصيناً قوياً يُثير العجب[3]، وقعت تحت سيطرة المغول عام 655 هـ 1260م، ثُمَّ عادت إلى سيطرة الإسماعيليَّة، حتَّى احتلَّها الظَّاهر بيبرس، مُنهياً الوُجُود الإسماعيلي فيها عام 660 هـ 1270م[4]. وهي ـ اليوم ـ مركز منطقة تتبع مُحافظة حماة، تقع على السُّفُوح الشَّرقيَّة لجبال اللاذقية، جنوب غرب حماة 45كم[5].

2 . **القدموس:** قلعة حصينة، استولى عليها الإسماعيليَّة عام 506 هـ 1113م، واستخدموها كقاعدة ضدَّ جيرانهم المُسلمين والفرنج على السواء[6]، وهي ـ الآن ـ بلدة ومركز ناحية في مرتفعات جبال اللاذقية، تتبع منطقة بانياس، مُحافظة طرطوس[7].

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 145 ـ 146.
2 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 3.
47 - الجَغرافيون والرحَّالة، مُحمَّد عوض، 35.
4 - حول قلعة مصياف راجعْ: ذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي والاعتبار، أُسامة بن مُنقذ والمُعجم الجَغرافي للقطر السوري: مادَّة: مصياف.
5 - المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، بإشراف العماد مُصطفى طلاس، مادَّة: مصياف.
6 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 174.
7 - المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، بإشراف العماد مُصطفى طلاس، مادَّة: قدموس.

3 ـ **العليقة:** قلعة على السُّفُوح الغَرْبيَّة لجبال اللاذقية، منطقة بانياس، جنوب شرق جبلة، جاءت تسميتها من موقعها المُعلّق على مرتفع جبلي، تُطلُّ العليقة على البحر من بُعد 15 كم، وهي تتحكّم بالممرّ الجبلي، الذي يصل حماة ببانياس عبر القدموس. بناها العَرَب نحو 431 هـ ـ 1040 م، احتلَّها راشد الدِّين سنان، وضمَّها إلى قلاع الإسماعيليَّة[1].

4 ـ **الخوابي:** قلعة على السُّفُوح الغَرْبيَّة لجبال اللاذقية، تبعد 25 كم شمال شرق طرطوس، سُمِّيَت الخوابي لوُجُود خوابي فخارية كثيرة فيها، شيَّدها شيخ الجبل راشد الدِّين سنان مطلع القرن 12 م[2].

5 ـ **المنيقة:** وهي قلعة تقوم بالقُرب من القدموس[3].

6 ـ **الكهف:** قلعة على السُّفُوح الغَرْبيَّة لجبال اللاذقية، منطقة الشَّيخ بدر، مُحافظة طرطوس، كانت تكتسب أهمِّيَّتها من إشرافها على أراضي كونتية طرابلس الفرنجيَّة، سُمِّيَتْ بالكهف لأن مدخلها محفور بالصخر[4].

الإسماعيليَّة والاغتيالات في الشَّام:

شهدت سياسة الإسماعيليَّة في الشَّام ـ باعتمادها على الاغتيال كوسيلة لحسم المواقف السِّياسيَّة ـ تبدُّلات كبيرة، ففي بدايات انتشار الإسماعيليَّة في الشَّام، لجؤوا إلى اغتيال كُلِّ مَنْ أمكنهم من القادة، الذين يُمكن أن يقفوا بوجههم، فكان أوَّل ضحاياهم تاج الدولة حسين صاحب حمص، الذي كان أتابك الملك السلجوقي رضوان وزوج أمِّه، فقد قتلوه في حمص عام 496 هـ ـ 1103م، ويُقال إن ذلك تمَّ بتحريض من الملك رضوان لتساهله مع الإسماعيليَّة، وتمركزهم في حلب في ذلك الوقت[5].

---

1 ـ صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 174، والمُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، بإشراف العماد مُصطفى طلاس، مادَّة: العليقة.
2 ـ المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، بإشراف العماد مُصطفى طلاس، مادَّة: الخوابي.
3 ـ تُحفة النُّظَّار، ابن بطُّوطة، 76، ونخبة الدهر، شيخ الربوة، 208، والمُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، بإشراف العماد مُصطفى طلاس، مادَّة: المنيقة.
4 ـ الإدريسي، نُزهة المُشتاق، 19، والمُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، بإشراف العماد مُصطفى طلاس، مادَّة: الكهف.
5 ـ تاريخ حلب، العظيمي، 361، وذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي، 230.

ثُمَّ اغتالوا مودود، وهُو من أوائل قادة الجهاد ضدَّ الفرنج، بجامع دمشق[1]. وبعد فشل مُحاولتهم اغتيال صلاح الدِّين، ومُحاصرته لهم، والاتِّفاق الذي تمَّ بينهما، تبدَّلت سياستهم كُلِّيَّاً، فقد توجَّهت خناجرهم الفتَّاكة ـ بعدها ـ نحو قادة الفرنج، ولكنْ؛ انتقلت اغتيالاتهم من حيِّز الواقع لتدخل عالم الأُسطُورة، وحكايات السمر المُسلِّية في الليالي، حتَّى إن كلَّ حادثة قَتْل لا يُعرَف مُرتكبها أصبحت تُلصَق بالإسماعيليَّة، ومع الأسف؛ فقد انتقلت هذه العدوى إلى المُؤرِّخين.

فقد أورد المكين جرجس في كتابه أخبار الأيُّوبيِّيْن ما يلي: "استشار الجواد[2] المُجاهد[3] في أمر عماد الدِّين ابن الشَّيخ[4]، فأشار عليه بقتله، فوافقهم الأمير سيف الدِّين علي بن قلج على ذلك، فسيَّروا إلى نُوَّاب الإسماعيليَّة، وقرروا معهم قتله، وأعطاهم الملكُ الجوادُ قرية الرصيف من الشعرا[5]، وحمل إليهم مالاً تقرَّر الأمر عليه، فرتَّبوا نفرَيْن من الفداوية، فقتلوه على باب جامع دمشق، وأشاعوا أنَّهم قتلوه غلطاً، وما كان مقصودهم إلَّا الملك الجواد، فإنَّه يُشبهه"[6]. وكرَّر الرواية المقريزي المُتوفَّى عام 845 هـ فقال: " ورأوا أن أمرهم لا يتمُّ إلَّا بقتل عماد الدِّين، فبعثوا إلى نُوَّاب الإسماعيليَّة في قتله، ودفعوا إليهم مالاً وقُربة ـ والصحيح قرية، فبعثوا فداويَيْن قدما إلى دمشق، فلمَّا خرج عماد الدِّين إلى الجامع، وثبا عليه، وقتلاه، وأشاعا أنهما قد غلطا في قتله، وأن المقصود إنَّما كان قتل الملك الجواد، فإنَّه كان كثير الشبه به"[7].

---

1 - الباهر، ابن الأثير، 18.

2 - هُو: الملك الجواد إسماعيل صاحب دمشق.

3 - هُو: الملك المُجاهد شيركوه صاحب حمص.

4 - هُو: وزير العادل الثَّاني سُلطان مصر .

5 - الشعرا: لم يذكرها ياقوت في مُعجمه، وفي المُعجم الجَغرافي ثلاث إشارات إلى هذا الموقع، الأُولى: جبل الشعرة، في السلسلة التدمرية الشمالية، ولا أعتقد أنَّه المقصود لبُعْده عن مواقع الإسماعيليَّة، ولعدم وُجُود قُرى ومزارع فيه. الثَّانية: قرية الشعرة، في السُّفُوح الغَرْبيَّة لجبال اللاذقية، قريبة من القدموس، أحد أهمِّ مواقع الإسماعيليَّة في الشَّام، واحتمال ضعيف أن تكون هي القرية المقصودة لكونها في بلاد الإسماعيليَّة، والاسم للقرية، وليس لما يجاورها. والثَّالثة: شعرة العجايز، وهي قرية قريبة من بلدة معرَّة النعمان، وتقع على جانب مسيل الشعرة، والاحتمال الأرجح أن تكون هي المقصودة، لوُقُوعها على رصيف مسيل الشعرة. (المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، 4 / 28 ـ 29).

6 - أخبار الأيُّوبيِّيْن، ابن العميد، 24.

7 - دُرَر العُقُود الفريدة، المقريزي، 2 / 315.

ومع أنّنا نعرف أن قتل ابن الشّيخ لم يكن بحاجة إلى فدائيّيْ الإسماعيليّة، فهُو رغم صفته الرّسميّة كنائب للسُّلطان العادل الثّاني فلا يملك قُوّة فعليّة البتّة، بينما المُجاهد أوّلاً، والجواد ثانياً، هما أصحاب القُوّة بدمشق، وتدبير حادثة قتله سهل جدّاً بالنّسبة إليهما، ولا يحتاج لفدائيّيْن، ولا إلى دفع نفقات مالية كبيرة، وقرية ذات خراج. ويُخبرنا ابن تغري بردي الرواية الأقرب للحقيقة، وهي أن المُجاهد "استدعى بعض نصارى قارا[1]، وأمره بقتله"، ونفّذ الأمر على أنّه حادث، فقد سُجن القاتل لعدّة أيّام، ثُمّ أُطلق سراحه[2]، ورواية ابن العبري والمقريزي تدلُّنا على أن العديد من حوادث الاغتيال قد أُلصقت بالإسماعيليّة، وهي إنْ صحّت فهي دليل على أن الاغتيالات السّياسيّة الهادفة للمصلحة الإسماعيليّة العُليا قد تحوّلت إلى قتل مأجور لتحقيق ربح، أو مصلحة. ومع كُلّ ذلك فيبدو أن تهمة الاغتيال، وخاصّة اغتيال المُلوك، كانت تروق لمُقدّمي إسماعيليّة الشّام؛ إذْ يروي الراهب البريطاني إيف لي بريتون، رسول الملك لويس إلى الإسماعيليّة: "أن شيخ الجبل كُلّما ركب، وسار، مشى أمامه مُناد يحمل بلطة، لها حَدٌّ طويل مُغلّف بالفضّة، وقد ثبّت عليها عدداً من الخناجر، وهُو ينادي طوال سيره: ابتعدوا عن طريق الذي يحمل في يدَيْه موت المُلوك"[3].

---

1 - قارا : "قرية كبيرة، وسُكّانها جميعاً من النصارى". (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادّة: قارا)، كانت في العصر الأيّوبي تتبع مملكة حمص. (مملكة حمص الأيّوبيّة، مُنذر الحايك، 296)، وحول قارا راجعْ: صُبح الأعشى، القلقشندي، 14 / 381، ورحلة ابن جُبَيْر، 233،و المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، مادّة: قارا.

2 - النُّجُوم الزّاهرَة، ابن تغري بردي، 6 / 314، وتاريخ الإسلام، الذهبي، 631 ـ 640 / 20، والتاريخ الصالحي، ابن واصل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 21/ 609.

3 - سيرة القدّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 36 / 171.

المبحث الثّالث

التحالف بين السّلطنة الأيُّوبيَّة والفرقة الإسماعيليَّة

يبدو أن بدايات ضعف شُهرة وقُوَّة الإسماعيليِّيْن كمُغتالين رهيبين قد بدأت مُنْذُ أيَّام صلاح الدِّين، فبعد المَدِّ الإسماعيلي الكبير في الشَّام، وتحكُّمهم في أكبر مُدُنها مثل: حلب، ودمشق، وسيطرتهم على عدد من أمنع قلاعها، أخذت دعوتهم بالضعف، خاصَّة بعد طردهم من المُدُن بثورات شعبية، ومذابح، أودت بالكثير منهم في حلب ودمشق وعدَّة بُلدان شامية، فلم تتكوَّن الدولة الأيُّوبيَّة وتستقرّ إلَّا والإسماعيليَّة مُنكمشون في قلاعهم الحصينة، مُستفيدون من كونهم في جبال وعرة، تقع على حُدُود السيطرة الفرنجيَّة.

لذلك كان لهم أثر ضعيف على سياسة الدُّول الأيُّوبيَّة، التي اختاروا محالفتها مُنْذُ البداية، ومن ناحية أُخرى؛ نجد أن الأيُّوبيِّيْن يدعمونهم سياسياً، ويُدافعون عنهم عسكريَّاً، ورُبَّما كانوا يعدُّونهم سدَّاً بوجه الفرنج، أو قُوَّة، وإن فقدت الكثير من فاعليَّتها فلا يزال اسمها كبيراً، يستفيدون منها في صراعاتهم الدّاخليَّة، أو الخارجيَّة. وهذا لا يعني أنَّهم كانوا على هامش السياسة الأيُّوبيَّة تماماً، فالأحداث الدّاخليَّة للفرقة الإسماعيليَّة قد أثَّرت وتأثَّرت بشكل واضح بعلاقتهم بالقوى المُحيطة بهم، ومنها الأيُّوبيُّون.

اقتصرت العلاقات الأيُّوبيَّة الإسماعيليَّة على علاقة الأيُّوبيِّيْن بإسماعيليَّة الشَّام فقط، ولم يكن لهم أيُّ صلة بإسماعيليَّة فارس. وكان زعيم الإسماعيليَّة في الشَّام ـ أو كما يُسمُّونه صاحب الدعوة، عندما أسَّس صلاح الدِّين الدولة الأيُّوبيَّة ـ هُو راشد الدِّين "سنان بن سلمان"[1]، وكان أصله من حصن الإسماعيليَّة الرئيسي في ألموت[2] بفارس، فرأى منه صاحب الأمر هُناك نجابة وشهامة وعقلاً وتدبيراً، فسيَّره إلى حُصُون الشَّام، فوصلها، وجَدَّ في إقامة الدعوة واستجلاب القُلُوب أيَّام السُّلطان

---

1 - راشد الدِّين سنان: ابن سلمان بن مُحمَّد البصري، كان يُعلِّم الصبيان في البصرة، كان أعرجاً، وَلِيَ قلاع الدعوة في الشَّام، وأقام في قلعة الكهف، ترجمته في: شذرات الذهب، ابن العماد، ـ تاريخ البغدادي ورحلته، ـ ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، ـ بغية الطلب، ابن العديم. وقد أورد المستشرق برنارد لويس تفاصيل مُهمَّة عن حياة راشد الدِّين في كتابه: الحشيشية، ترجمة: د. سُهيل زكَّار، 296.

2 - حول ألموت راجعْ: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 8 / 140.

نُور الدِّين، واستولى على عدَّة قلاع في الشَّام، وعزم نُور الدِّين على قصده، لكنَّه تُوفِّي قبل ذلك، وأقام سنان حتَّى تُوفِّي عام588 هـ" 1192م[1].

بدأت العلاقات بين إسماعيليَّة الشَّام وبين الأيُّوبيِّيْن في وقت مُبكِّر من عهد السُّلطان صلاح الدِّين، من خلال مُحاولتَيْن لاغتياله: الأُولى عندما كان صلاح الدِّين في عام 570 هـ 1175م، يُحاصر حلب؛ حيثُ اتَّصل الحلبيون بسنان إمام الإسماعيليَّة، ووعدوه بضياع ومال، فأرسل الفداوية لقتل صلاح الدِّين[2]. والمُحاولة الثَّانية أثناء مُحاصرته لإعزاز عام 571 هـ 1176م[3]، لكنَّه نجا منهم في المُحاولتَيْن.

لذلك جعلهم صلاح الدِّين همَّه الأوَّل، وتوجَّه نحو أكبر قلاعهم ومقرّ قيادتهم في مصياف، وألقى الحصار عليها عام 572 هـ 1177م، وكُلُّه عزم على استئصال شأفتهم من الشَّام[4]، فشعر الإسماعيليَّة أنَّهم أمام خطر حقيقي لم يُمكن مُواجهته بالاغتيال، ولن يُمكن لقلاعهم الصُّمود أمام قُوَّاته، ممَّا اضطرَّهم ـ على ما يبدو ـ لأنْ يعقدوا اتِّفاقاً سرِّيّاً، لم يُعلَن أبداً، ورُبَّما كان عدم إعلانه رغبة أيُّوبية لأسباب دينيَّة مذهبية، فهم ـ نظرياً ـ حُماة السُّنَّة، وهكذا اتِّفاق يُوقعهم بتناقض ومشاكل يُمكن تجاوزها بكتمانه، لذلك نجد أن كُلَّ ما ذكره المُؤرِّخون حول سبب عودة صلاح عن قتالهم، وفكّ حصاره لمصياف: أن شهاب الدِّين الحارمي خال السُّلطان صلاح الدِّين[5]، وكان والي حماة ـ التي تُعدُّ مصياف من أراضيها ـ قد توسَّط ـ بناءً على طلب راشد الدِّين سنان زعيم إسماعيليَّة الشَّام ـ مع صلاح الدِّين، ففكَّ حصاره عنهم، وصالحهم عام 572 هـ 1177م[6]، وسار عنهم.

---

1 - النُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 6 / 117.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11 / 419.
3 - سنا البرق، البِنْدَاري، تحقيق ششن، 210.
4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 57، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 521 ـ 530.
5 - شهاب الدِّين محمود بن تكش الحارمي، (زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 523).
6 - سنا البرق، البِنْدَاري، تحقيق ششن، 219، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 59، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 528، وصلاح الدِّين والحشَّاشون، برنارد لويس، مقالة في مجلَّة الدِّراسات الشَّرقيَّة والأفريقية.
و Lewis. B, Saladin and Assassins

ولكنْ؛ يبدو أن الموضوع لم يكن وساطة عادية لفكِّ الحصار فقط، بل كان اتِّفاقاً عامّاً وشاملاً، سيلتزم به الطرفان ومَنْ يخلفهما زمناً طويلاً، ومع أن مُجريات هذا الاتِّفاق لم تُعلَن، لكنَّها تتَّضح من الوقائع اللاحقة، ومنها:

1 ـ في مُعاهدة صُلح الرملة مع الفرنج اشترط صلاح الدِّين دُخُول بلاد الإسماعيليَّة فيه[1]، وهذا دليل على اتِّفاقه الكامل معهم، وكأن مناطقهم جُزء من بلاده.

2 ـ لم نعد نسمع عن اغتيال، أو حتَّى مُحاولة اغتيال أيِّ أمير أو قائد أيُّوبي من قبَل الإسماعيليَّة، مُنذُ عام 572 هـ 1177م، وحتَّى نهاية الدولة الأيُّوبيَّة. وبالمُقابل؛ لم تُجرِّدْ أيُّ حملة أيُّوبية ضدَّ معاقل الإسماعيليَّة، بل على العكس، دعمت الممالكُ الأيُّوبيَّة هذه المواقعَ كُلَّما تعرَّضت إلى هُجُوم الفرنجة.

3 ـ توجَّهت خناجر الإسماعيليَّة نحو الفرنج، واغتالوا عدداً من مُلُوكهم وأُمرائهم.

وبعد الاتِّفاق بين صلاح الدِّين والإسماعيليَّة أخذت تسوء علاقتهم مع أتابكة حلب، فقد تنكَّر لهم الصَّالح إسماعيل بعد تودُّد، واستولى على قرية حجيرا التابعة لهم، ولَمَّا طالبه سنان بردِّها رفض إسماعيل، فأرسل سنان رجاله، وأحرقوا أسواق حلب[2].

وسريعاً ما عبَّر الإسماعيليَّة عن وفائهم للتحالف مع الأُسرة الأيُّوبيَّة، فبعد وفاة صلاح الدِّين أعلن بكتمر صاحب خِلاط ابتهاجه، وظهر بشعار السَّلطنة، وتلقَّب بالملك النَّاصر "القب صلاح الدِّين"، وأقام تحالفاً مُعادياً للأيُّوبية مع صاحب آمد، ومع أتابكة المَوصل وسنجار، ولَمَّا تحركت جُيُوش التحالف تدخَّلت الخناجر الإسماعيليَّة لتُنهي حياة بكتمر، وتُنهي معه أخطر تحالف واجه الأُسرة الأيُّوبيَّة في الجزيرة بعد موت صلاح الدِّين[3].

وقد ظهرت جلياً على ساحة الشَّام، ومن خلال الأحداث، آثار الاتِّفاق الضمني بين الممالك الأيُّوبيَّة وبين الإسماعيليَّة في الشَّام، فالعلاقات بينهما كانت أكثر من طبيعية، وممَّا يُشير إلى التحالف بينهما هُو سماح مملكة حلب للإسماعيليَّة بإقامة دار للدعوة في بعض البُلدان التابعة لها؛ مثل

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 403.

2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 1 / 138، والحشيشية، برنارد لويس، 134.

3 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 13 / 436.

سرمين[1]، ولكن وُجُودها في بلدة صغيرة، بعد أن كانت دُور الدعوة في عواصم الشَّام كحلب ودمشق، يدلُّ على انكماش الدعوة الإسماعيليَّة، وتراجعها كثيراً؛ بحيثُ أنَّها لم تعد تُشكِّل خطراً يُذكَر على أُمراء الأيُّوبيَّة، فتساهلوا معها، ورُبَّما عدُّوها حليفاً، إنْ لم ينفع، لا يضرُّ. وفي عام 631 هـ 1234م، أرسل الملكُ المُجاهدُ أسدُ الدِّين شيركوه صاحب حمص هدية للإسماعيليَّة[2]، وهي - بالتَّأكيد - دليل على علاقات طيبة شاملة.

وفي المحنة التي تعرَّض لها الصَّالح أيُّوب 636 هـ 1239م عندما سُجن في الكَرَك، فارقه بدر الدِّين قاضي سنجار، فأراد الصَّالح إسماعيل المُستولي على دمشق أن يستخدم بدر الدِّين في رسالة إلى كيخسرو سُلطان سلاجقة الرُّوم، فخان بدر الدِّين الرسالة، وتحدَّث باسم أيُّوب، ولذلك خاف من العودة لدمشق "والتجأ إلى الإسماعيليَّة، وكان مُقدَّم الإسماعيليَّة رجلاً من العجم ورد من ألموت يُقال له تاج الدِّين، فأجاره، ولمَّا طلبه إسماعيل منه مغلطه، وطلب من القاضي اللُّجُوء إلى حماة"[3]. فهل تدلُّ هذه الحادثة على الضعف الذي وصلت إليه قُوَّة الإسماعيليَّة في الشَّام؛ حيثُ لم يجرؤ مُقدَّمهم على مصارحة الصَّالح إسماعيل بأنَّه يحمي القاضي؟! أم أنَّها تدلُّ على أن مُقدَّم الإسماعيليَّة كان يُمارس سياسة أسلافه بالحرص على صداقة كُلِّ الأطراف الأيُّوبيَّة؟! رُبَّما الدلالتان معاً!.

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 700.

2 - المنصُوري، ابن نظيف، 259.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 251.

المبحث الرّابع

العلاقـات الإسماعيليـّة الخَوَارزميـّة وانعكاسـها علـى الممالـك الأيوّبيّة

1 ـ في فارس:

مع أن بحثنا يتعلّق ـ بشكل رئيس ـ بالعلاقات في الشّام، لكـنَّ معرفـة أسـاس العلاقـة بـين الخَوَارزميَّة وإسماعيليَّة الشّام يُوجب علينا أن نبدأ بها من فارس :

كان لابُدَّ من أن ينفجر الصراع بين الدولة الخَوَارزميَّة وبين الإسماعيليَّة المتمركـزين في بعـض المناطق والقلاع الجبلية في فارس، فقد سـعت الدولـة الخَوَارزميَّـة للـسيطرة المطلقـة في بـلاد الـشَّرْق الإسلامي، وأزالت كُلَّ القوى المحلِّيَّة، ويبدو أن الإسماعيليَّة كانوا ينحنون أمام العواصف التي تُهدِّد باقتلاعهم، فقد أعلنوا خُضُوعهم للسُّلطان علاء الدِّين خوارزم شاه، وأقاموا لـه الخطبـة في بلادهـم أيّام الإمام جلال الدِّين حسن[1].

وعندما بدأت تظهر قُوَّة التّتَار في بلاد الشَّرْق الإسلامي نظر إليهم جلال الـدِّين كقُـوَّة يُمكـن أن يُستفاد منها، فيُقال إنَّه أوَّل مَنْ رَاسَلَ جنكيز خان قبل أن يخرج من بلاده إلى ديار الإسلام[2]، وممَّا يُؤكِّـد ذلك أن علاء الدِّين مُحمَّد بن جلال الدِّين حسن قد أرسل بدر الدِّين أحمد رسـولاً مـن طرفـه إلى التَّتَـار، وعلم بذلك جلال الدِّين خوارزم شاه، فأرسل لعلاء الدِّين يسأله في ذلك، فكان جوابـه: "إن الـسُّلطان يعلم أن لنا بلاداً متاخمة للتّتَار، ولابُدَّ لنا من مُداراتهم دَفْعَاً للأذى عنهـا، فـإذا ثبـت للـسُّلطان أن رسـالته ـ أي بدر الدِّين أحمد ـ كانت في فساد يعود للدولة ـ الخَوَارزميَّة ـ فنحنُ المُذنبون في ذلك"[3].

---

1 - سيرة منكبرتي، النسوي، 340.

2 - الحشّاشون، لويس برنارد، ترجمة: مُحمَّد العزب، 150.

3 - سيرة منكبرتي، النسوي، 340.

ومع هذا الاعتذار المُقنَّع ظاهراً، فيبدو أن الإسماعيليّة كانوا يرغبون في تحطيم قُوَّة الخَوارزميّة الذين أطبقوا عليهم، فلم يمض بعض الوقت إلَّا وقد ضُبط رسول لهم يحمل كتاباً إلى التّتار فيه عدَّة بُنُود، منها: حثّهم على سُرعة الوُصُول[1].

وكان حال الإسماعيليّة مع الدولة الخَوارزميّة في تقلُّب دائم، يميلون مع الدولة أو ضدَّها، حسب قُوَّتها، وضعفها، فخلال غزو المغول للبلاد استغلّت الإسماعيليّة حالة الفوضى "فعاثت في البلاد فساداً "[2].

وبعد عودة جلال الدِّين منكبرتي من الهند، وإعادة سيطرته على البلاد، هاجمهم، وضرب بعض حُصُونهم عام **624** هـ **1227**م، ونهب أعمالهم، فانكمشوا في حُصُونهم ثُمَّ أخذوا يتقرَّبون إليه[3]، لكنَّهم عملوا في الخفاء على تحريض أعدائه عليه، وفي مُقدِّمتهم المغول[4]. ففرض عليهم إتاوة سنوية[5] مقدارها ثلاثون ألف دينار[6].

مع ذلك؛ فقد ظلّت الإسماعيليّة في قلاعها شوكة في ظهر الدولة الخَوارزميّة، تعمل ضدَّها في العَلَن حيناً، وفي الخفاء أحياناً. ويُحمِّل بعض المُؤرِّخين الإسماعيليّة مسؤوليةَ مُراسلة المغول، وحثّهم على قصد بلاد الإسلام، وتهوين أمر الخَوارزميّة عليهم، وأنّهم سبب نكبة البلاد بالمغول[7]. ولكنَّ السؤال الذي يطرح نفسه: هل كان المغول - فعلاً - بحاجة إلى مَنْ يستقدمهم إلى بلاد الإسلام، أو يُوجِّههم نحوها؟ يبدو أن ذلك لم يكن ضرورياً، فجنكيز خان كان له مشروعه الخاصّ الطموح بهذا الاتّجاه.

---

1 - سيرة منكبرتي، النسوي، 343.
2 - سيرة منكبرتي، النسوي، 336.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 217، والدولة الخَوارزميّة والمغول، حافظ حمدي، 818 - 191.
4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 496، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 315.
5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 495.
6 - سيرة منكبرتي، النسوي، 336.
7 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 - 495، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 317.

2. في الشَّام:

بعد الهزيمة النهائية لجلال الدِّين خوارزم شاه أمام المغول، ومقتله، تفرَّق جنده في البلاد، لكنَّ مجموعة كبيرة منهم دخلت بلاد الشَّام، وشاركت في أحداثها، وعُرِفَتْ باسم الخَوَارزميَّة، ويبدو أنَّهم لم ينسوا عداءهم القديم للإسماعيليَّة، فأثناء هُجُوم الخَوَارزميَّة على ضواحي حلب "تحرَّكوا إلى سرمين، ونهبوها، ودخلوا دار الدعوة، وكان قد اجتمع فيها أمتعة كثيرة للناس، ظنَّاً منهم أنَّهم لا يجسرون على قربانها خوفاً من الإسماعيليَّة، فدخلوها ظُهراً، ونهبوا جميع ما كان فيها"[1].

وبالمُقابل؛ فإن الإسماعيليَّة قتلوا بدمشق رسولَ جلال الدِّين خوارزم شاه عام 628 هـ 1231م[2]. فطريقتهم بالاغتيال لم يتخلّوا عنها، ولكنَّها لم تعدْ مُوجَّهة ضدَّ الدولة الأيُّوبيَّة، ولم تعدْ قويَّة؛ بحيثُ تطال أيَّاً كان، فالسفير الخوارزمي شخص عادي غير مُحترس، ولكنَّها إشارة قويَّة إلى أنَّهم مازالوا موجُودين في الشَّام.

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 700.

2 - المنصُوري، ابن نظيف، 230.

المبحث الخامس

العلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة بين الإسماعيليَّة والفرنج

في أيَّام حُكْم السُّلطان العادل انتهت الهُدنة العامَّة التي عقدها صلاح الدِّين مع الفرنج، واشترط أن تشمل بلاد الإسماعيليَّة، فكان لابُدَّ من الاحتكاك المُباشر بين الإسماعيليَّة والفرنج، وذلك بسبب المُجاورة، فقد كانت قلاع الإسماعيليَّة في الشَّام تقوم على الحُدُود الفاصلة بين مناطق سيطرة الفرنج في الساحل وبين بلاد المُسلمين في الداخل، فهم اختاروا لها نقاطاً استراتيجيةً على قمم جبال الساحل السوري، بعد طردهم من المُدُن الدّاخليَّة[1]. ويبدو أن التساهل الأيُّوبي معهم، والتغاضي عن وُجُودهم، بل والحماية والمُساعدات العسكريَّة لهم رغم العداء الدِّيني، فقد نصَّب الأيُّوبيَّة أنفسهم، كما الأتابكة والسلاجقة من قبلهم، حُماة للسُّنَّة، وتشدَّدوا مع أعدائها، وهذا الموقف من الإسماعيليَّة لا نستطيع تفسيره إلَّا بسبب موقع بلادهم وقلاعهم التي تقوم كحَدٍّ فاصل بمُواجهة قلاع الفرنجة، الذين أقاموا على حُدُودهم طائفتَيْ الاسبتاريَّة والدَّاويَة، وهم الأشدُّ تعصُّباً، والأكثر شراسة، على حُدُود بلاد الإسلام. فكأن الإسماعيليَّة وُجدوا في المكان المُناسب الذي يخدم مصالح الإمارات والممالك الأيُّوبيَّة في الشَّام. ولكن يبدو أن الكفَّة كانت تميل لصالح الاسبتاريَّة والداوية، فسلاح الإسماعيليَّة، الذي أرهب المُلوك والأُمراء، لم يكن ذا جدوى مع هذه الطوائف، فإذا قُتل لهم سيِّد حلَّ محلَّه آخر، والإسماعيليَّة لا يُضيِّعون رجالهم بلا مُقابل[2]، لذلك رضخ الإسماعيليَّة، ودفعوا المال إلى كُلٍّ من الاسبتاريَّة[3] والداوية[4].

لقد سعت الإسماعيليَّة في الشَّام لإقامة توازن في علاقاتها ما بين الممالك الأيُّوبيَّة من جهة وإمارات الفرنجة من جهة ثانية، فبعد أن أمَّنوا جانب الأيُّوبيِّيْن في اتِّفاق غير مُعلن، عملوا لعقد تحالفات مع الفرنجة[5]. ولكنْ؛ يبدو أن الفكرة السَّيِّئة للفرنجة عن الإسماعيليَّة هي التي حالت دُون

---

1 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 114.
2 - سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 36 / 168.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 151، وسيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 168.
4 - ورود التواريخ، فيلكس فايري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43 ـ 1194، وسيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36 / 168.
5 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 114، والحَرَكَة الصَّليبيَّة، سعيد عاشور، 2 / 109.

إتمام ذلك[1]، لكنَّ الإسماعيليَّة ما كفَّت من مُحاولاتها للتحالف مع الفرنج، وللسعي لإقامة علاقات طيِّبة معهم لمُوازنة علاقتهم بالأيُّوبيين، فدعوة مُقدَّم الإسماعيليَّة نصر الفارسي عام **589** هـ **1193**م، للكونت هنري دي شامبين أحد أُمراء عكَّا الكبار لزيارته في مقرِّه، أثناء مُروره بطرطوس، والحفاوة في استقباله، واستعراض قلاعه، وطاعة رجاله العمياء أمامه، ثُمَّ الهدايا الثمينة التي قُدِّمَتْ له[2]، فما كُلُّ ذلك إلَّا بدايات مُبكِّرة لتطلُّع إسماعيلي لعلاقات جيِّدة مع الفرنج، ومُحاولة لكسب وُدِّهم.

وتردَّدت اتِّهامات مُباشرة للإسماعيليَّة أنَّهم نفَّذوا عدَّة عمليات اغتيال لصالح الاسبتاريَّة جيرانهم في جبال الساحل السوري[3]، فعندما اغتالوا ريموند بن بُوهيمند أمير أنطاكية في كَنِيسَة طرطوس عام **610** هـ **1213**م[4]، قيل إنَّ ذلك تمَّ بتحريض من الاسبتاريَّة. وعندما اغتيل بطريرك القُدْس عام **611** هـ **1214**م، وهُو المعروف بعدائه للاسبتاريَّة، فاتَّهموا الاسبتاريَّة بتحريض الإسماعيليَّة على قتله[5].

كُلُّ ذلك يدلُّ على مدى الضغط الذي كان الاسبتاريَّة بمقدورهم مُمارسته على الإسماعيليَّة؛ حيثُ يدفعون لهم إتاوات سنوية، ويُنفِّذون عمليات اغتيال لحسابهم، إنَّما ليس ضدَّ الأيُّوبيِّين، فعلى ما يبدو كان التحالف معهم شيئاً مُقدَّساً بالنِّسبَة للإسماعيليَّة، فبعد قَتْلهم لابن أمير أنطاكية هاجم والده بلادهم، ولم يتحرَّك الاسبتاريَّة لنجدتهم، بل رُبَّما اضطرُّوا للتظاهر بدعم بُوهيمند ضدَّهم، بينما تحرَّك المُلُوك الأيُّوبيُّون بكُلِّ حزم من حلب، ومن دمشق، لنجدتهم، وأنقذوهم منه. ومع كُلِّ ذلك؛

---

1 - راجعْ حول المعتقدات الأُورُبيَّة عن الإسماعيليَّة في العُصُور الوُسْطَى: فيليكس فايري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1194، وورود التواريخ، روجر ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 44/ 170، - وقد وضع القسُّ الألماني ي ريكاردوس رسالة لملك فرنسا فيليب السَّادس عندما فكَّر بغزو الشَّرق الإسلامي عام هـ 1332م قال فيها: " أذكر الحشَّاشين الذين ينبغي أن يلعنهم الإنسان، ويتفاداهم، إنَّهم يبيعون أنفسهم، ويتعطَّشون للدماء البشرية، ويقتلون الأبرياء مُقابل أجر.. وهم يُغيِّرون مظهرهم كالشياطين.. وذلك أنَّهم يُحاكون الحَرَكَات والثياب واللُّغات" (الحشَّاشون، برنارد لويس، تعريب: مُحمَّد العزب، 11)، - ولذلك أصبحت كلمة حشَّاشين **Assassin** اسماً شائعاً في مُعظم اللُّغات الأُورُبيَّة للاغتيال.

2 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8 / 474.

3 - سيطر الاسبتاريَّة على عدَّة قلاع مُواجهة لقلاع الإسماعيليَّة، منها قلعة الحصن (كراك شيفالييه)، وقلعة صافيتا. (البُرج الأبيض).

4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 637، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 219.

5 - تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، ستيفن رنسيمان، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 3/ 247.

فقد كانت علاقة الإسماعيليّة في الشّام تختلف كُلّيّاً بالنّسبة لملوك أوربا القادمين نحو الشّرق، أو أمراء وملوك الفرنجة الآخرين.

فعندما قدم الإمبراطور فريدريك الثّاني في حملته نحو فلسطين عام 624 هـ 1227م راسله مجد الدّين مُقدّم الإسماعيليّة في الشّام، ويبدو أنّه ضمّن رسالته تهديداً مُباشراً لشخص الإمبراطور، لذلك سارع بردّ الجواب مع رسول خاصّ، "وعلى يده هدية بما يناهز ثمانين ألف دينار لحفظ نفسه منهم"، فحلف له مجد الدّين، وأرسل قميصه أماناً للإمبراطور[1]،إنّه مبلغ كبير يدفعه فريدريك، ولكنّه يدلّ على خوف أكبر من فتّاك الإسماعيليّة. وهذا ما شجّع الإسماعيليّة على إرسال رُسُلهم إلى الملك لويس ملك فرنسا عندما قدم إلى الشّرق؛ حيثُ التقوا به في قُبرُص. يتحدّث جوانفيل مُرافق الملك لويس عن هذا اللقاء الذي كان حاضراً فيه، فيقول: "وصلت رُسُلُ شيخ الجبل، وقد حمل أحدهم ثلاثة خناجر دخلت شفرة كُلّ واحد منها في مقبض الآخر، وقدّموها للملك شارة للتّحدّي إذا لم يتمّ الاتّفاق، ولفّ الآخر حول ذراعه قطعة من قماش الكتّان، وقدّمها للملك لتكون كفناً له إذا رفض مطالب شيخ الجبل. وقال الرسول للملك: مولاي يسألكَ إذا ما كُنتَ تعرفه؟ فردّ لويس بأنّه سمع عنه، فقال الرسول: بما أنكَ سمعتَ عنه، فأنا مُندهش لأنكَ لم تُرسل مبلغاً من المال لتُبقه صديقاً لكَ مثلما يفعل إمبراطور ألمانيا وملك هنغاريا، وإذا كان هذا لا يوافقكَ، فعليك ترتيب أمر إعفائه من دفع الجزية للاسبتاريّة والدّاويّة.

وفي المُقابلة الثّانية؛ حضر مُقدّما الاسبتاريّة والدّاويّة مع الملك، فتحدّثا مع الرُّسُل بالعَرَبيّة، وهدّدوهم بالقتل، وطلبا منهم المُغادرة، والعودة خلال أسبوعيْن مع هدايا للملك لويس لإرضائه. وفعلاً؛ عادت الرُّسُل في المُهلة المُحدّدة ومعهم قميص شيخ الجبل، وهُو تعبير عن تقربة للملك، وخاتمه الخاصّ، وعليه اسمه، وهدايا وجواهر وتماثيل من الكريستال رُبطت بها ورود من العنبر بخيوط من ذهب، فقبلها لويس، وأعادهم مع كثير من الهدايا، يرافقهم راهب بريطاني يُجيد العَرَبيّة هُو إيف لي بريتون، الذي عدّ أن أهمّ اكتشاف له في بلاد الإسماعيليّة هُو أن شيخ الجبل لا يتبع شريعة مُحمّد (ص)، بل هُو من أتباع عليّ (رض)[2].

---

1 - المنصوري، ابن نظيف، 151.

2 - حياة القدّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكّار، 36 / 716 _ 168.

العلاقات العسكريَّة مع الفرنج:

لم تكن علاقات الإسماعيليَّة بالفرنج كُلّها علاقات سياسيَّة؛ إذْ سيطر الاحتكاك العسكري على جانب مُهمٍّ من هذه العلاقات، فقد أغار الفرنج عام **612 هـ 1215م**، على بلاد الإسماعيليَّة، وأخذوا منها نحو ثلاثمائة أسير[1]، "ورحلوا عنهم، بعد أن حاربوهم حرباً شديداً، وكان المُتوسّط في الصُّلح بينهم الملك الظَّاهر[2]. وهذه الغارة ـ كما هُو معروف ـ كانت بسبب قتلهم لابن صاحب إنطاكية، ولم يُنقذ قلعة الخوابي إلّا تدخُّل الظَّاهر غازي بن صلاح الدِّين صاحب حلب، فقد "خرج بعسكره من حلب مُتوجِّهاً إلى بلاد الإسماعيليَّة ليدفع عنهم الفرنج"، وَسَيَّرَ الظَّاهر أمامه "نجدة إلى الخوابي، فصعدت إليه، وأنفذ إلى الحصن إقامة كثيرة وميرة"، " فرحل الفرنج عن الخوابي[3].

واستمرَّت علاقات الإسماعيليَّة بالفرنجة حتَّى قبيل القضاء على وُجُودهم كُلِّيّاً في الشَّام، فيروي متَّى باريس المُؤرِّخ الإنكليزي: أنَّه في عام **637 هـ 1238م**، وصلت سفارة إسماعيليَّة إلى أُورُبة تطلب المُساعدة ضدَّ الخطر المغولي، في الحقيقة؛ كانت رسالة تحذير لأُورُبا أكثر منها طلب مُساعدة، فالإسماعيليَّة بعد أن شاهدوا تهاوي المالك الإسلاميَّة، وكانوا يعرفون ضعف دولة الخلافة وضعف الأيُّوبيَّة في الشَّام. لذلك لم يجدوا أمامهم إلَّا أُورُبا التي مثَّلت آخر أمل لغريق يُدرك قَدَرَهُ جيِّداً، لكنَّه لا يملك إلَّا أن يصرخ طالباً النجدة؛ حيثُ لا أحد يسمع طلبه.

الاغتيالات الإسماعيليَّة لقادة الفرنج:

1 ـ اغتيال كونراد دي منتفرات مركيز صُور وملك القُدْس الاسمي عام **588 هـ 1192م**، وقد قيل إنَّ اغتياله تمَّ بطلب من ريتشارد الأوَّل ملك إنكلترا مُقابل مال دفعه للإسماعيليَّة أثناء تواجده في فلسطين، لأن كونراد أوشك أن يتولَّى مملكة القُدْس على غير رغبة من ريتشارد، لكنَّ عميد مقرِّ الكَهَنَة في لندن رالف دي سيتو يُوردُ نصَّ رسالة من شيخ الجبل إلى ليوبولد دوق النمسا، ينفي فيها ـ بشكل جازم ـ تورُّط الملك ريتشارد بالتحريض على قتل الماركيز، ويُقسم شيخ الجبل على

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 172، عام 612 هـ.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 232.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 219

ذلك، ويقول بأنَّ السبب الحقيقي لاغتياله هُو قتل الماركيز، وسلبه لأموال بعض الإسماعيليَّة[1]. لكنَّ شدَّة النفي، والتبرير غير المطلوب، تجعل الشكَّ يتسرَّب إلى صحَّة هذه الرسالة؛ خاصَّة أنَّها من مرويَّات كاهن إنكليزي قد يهمُّه الحفاظ على نقاء سُمعة مليكه.

وقيل إنَّ اغتياله كان بطلب من صلاح الدِّين، حيثُ خيَّر راشد الدِّين سنان بين قَتْل ريتشارد ملك إنكلترا وبين قَتْل الماركيز مُقابل عشرة آلاف دينار، فلم يُمكن قَتْل ريتشارد، أو "لم يره سنان مصلحة لهم، لئلا يخلو وجه صلاح الدِّين من الفرنج، ويتفرَّغ لهم"[2]. ويُقال أيضاً بأنَّ الإسماعيليَّة قتلوه لأنَّه صادر لهم سفينة مُحمَّلة بالبضائع، ولمَّا طالبوه بها، رفض تسليمها[3].

2 ـ في عام 613 هـ ـ 1216م، قدمت حملة فرنجية كبيرة العدد من البحر، يقودها همفري أخو ملكة عكَّا، فخشي منه "الملك العادل، فجرَّد له إسماعيلي ضربة خمسة سكاكين فمات، وقتل الإسماعيلي"[4]. وطالما أن فائدة العادل كانت قويَّة في هذا الاغتيال، فيُمكن أن نعدَّ أنَّه تمَّ بتحريض أو بطلب رَسْمي منه، ممَّا يدلُّ على استمرار التحالف الوثيق، وإن كان غير مُعلن بين الأيُّوبيَّة وبين إسماعيليَّة الشَّام.

وكُلُّ هذه الاغتيالات تدل على:

1 ـ استمرار التعاون بين الأيُّوبيَّة والإسماعيليَّة، حتَّى بعد وفاة صلاح الدِّين وراشد الدِّين.

2 ـ وُجود تحوُّل جَذري في موقف الإسماعيليَّة من الاغتيالات، فبعد أن كانت تخريبية مُوجَّهة ضدَّ قادة المُسلمين أخذت تتَّصف بالوطنية لتوجُّهها ضدَّ الفرنج.

دور إسماعيليَّة الشَّام في صراع الأيُّوبيِّيْن ضدَّ الفرنج:

كانت العلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة بين إسماعيليَّة الشَّام وجيرانهم فرنج الساحل الشَّامي تحمل في طيَّاتها الكثير من التناقض، أو بشكل أصحّ؛ كانت العلاقات القائمة بينهما مبنية على المصالح المتبدِّلة دوماً، والمتناقضة أحياناً، ورُبَّما كان هذا النوع من العلاقات هُو سبب تضارب معلومات

---

1 - تواريخ أُسرة بلانتغنت، رسائل رالف دي سيتو، الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 30 / 266.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 78 ـ 79.

- 3A History of the Crusades, Setton, 11 - 80

وذيل وليم الصُّوري، مخطوطة مكتبة ليون / 228، الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 8 / 421.

4 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7 / 183

مُؤرِّخي الفرنج عن الإسماعيليَّة، يقول عنهم بورتشارد راهب جبل صهيون: "هُناك مُسلمون اسمهم الحشيشية، يسكنون الجبال وراء طرطوس، ويملكون عدداً من القلاع والمُدُن مع أراض خصبة، ويُقال إن لديهم أربعين ألف مُقاتل، ولديهم مُقدَّم واحد، لا يلي بحقّ الوراثة، بل بسبب الفضائل الشخصية، واسمه شيخ الجبل، ويُقال إنَّهم من أصل فارسي، وهم مُرعبون لجميع مَنْ حولهم"[1]. إن الوصف الجَغرافي الذي يُحدِّده الكاتب الفرنجي صحيح تماماً، وكذلك المعلومات عن تولِّي مُقدَّمهم، فقد كان الإسماعيليَّة مُتاخمين لمناطق السيطرة الفرنجيَّة، حتَّى إنَّه كان هُناك نوع من رسم للحُدُود بين الطرفَيْن، فقد وُجدت أحجار لتعليم الحُدُود الفاصلة، نُقش عليها من جهة الإسماعيليَّة خناجر، ومن جهة الفرنج صلبان[2]. ولكن تعداد مُقاتليهم المذكور فيه مُبالغة هائلة، كما أن الأصل الفارسي ينطبق - فقط - على المُقدَّمين، بينما الأتباع - وإن كانوا خليطاً عِرْقياً - فهُم محلِّيُّون.

وفي عام **610** هـ **1213**م، توتَّرت العلاقات بين الإسماعيليَّة والفرنج عندما اغتال بعض الإسماعيليَّة ريموند بن بُوهمند الرَّابع حاكم أنطاكية في كَنيسَة طرطوس، رُبَّما كان ذلك باتِّفاق مع الأيُّوبيَّة، أو بطلب منهم، فقام بُوهمند بقيادة حملة كبيرة، وحاصر قلعة الإسماعيليَّة "الخوابي" شرق طرطوس، وبدا أنَّه كان مُصمِّماً على فتحها، والتنكيل بالإسماعيليَّة انتقاماً لابنه. فما كان من الإسماعيليَّة - بعدما لمسوا الخطر المُحدق - إلَّا أن طلبوا مُساعدة الظَّاهر غازي ابن صلاح الدِّين صاحب حلب، ومُساعدة الملك المُعظَّم نائب أبيه العادل في دمشق. هذا الطلب للدعم والمُساعدة لا يُمكن أن يكون بدُون وُجُود نوع من مُعاهدات الدفاع المُشترك، ويُؤكِّد ذلك ردُّ الأيُّوبيَّة الحاسم والسريع، فقد خرج الظَّاهر بقُوَّاته من حلب نحو حصن الخوابي لنجدته، وسار المُعظَّم من دمشق، فهاجم بلاد طرابلس، فاضطرَّ بُوهمند لفكِّ الحصار عن قلعة الخوابي، ونجت منه[3]. وفي عام **612** هـ **1215**م، عاود الفرنجُ الهُجُومَ على قلعة الخوابي، ولكن وُجُود نجدة حلبية فيها مكَّنت الحصن من المُقاومة، واضطرَّ الفرنج لقبول وساطة الظَّاهر غازي، ورحلوا عن الحصن[4].

---

1 - بورتشارد راهب جبل صهيون، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 39 / 242.

2 - بورتشارد راهب جبل صهيون، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 39 / 242.

3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2 / 635، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 224.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 229+ 232.

وفي عام 625 هـ ـ 1228م، قدم الإمبراطُور فريدريك الثّاني بحملته إلى فلسطين، فراسل الإسماعيليَّة، مُطيِّباً قلوبهم من ناحيته، فأطلعوا حُلفائهم الأيُّوبيّين في حلب على نصِّ الرسالة مع رسولهم منصُور بن يزيد، ونصحوهم بالتحالف مع فرنج الساحل ضدَّ فريدريك، ممَّا يدلُّ على أن الإسماعيليَّة كانوا يعرفون أنَّه محروم كَنَسيّاً، وأن فرنج الساحل ضدَّ حملته، ثُمَّ طلبوا من الحلبيين إعلامهم إن كانوا عاجزين عن دفعه، ليُصلحوا أحوالهم معه[1]. وفي الحقيقة؛ فهذا تصرُّف الحُلفاء الحقيقيين، فالاتّفاق أو التحالف وإنْ كان غير مكتوب بينهما فلا زال الطرفان مُتمسِّكَيْن به، ويعملون بمقتضاه.

وبشكل عامٍّ؛ كانت قلاع الإسماعيليَّة في الشَّام تُعدُّ إمارة مُستقلَّة سياسياً، وإنْ كانت تتبع ـ بشكل أو بآخر ـ لمركز الدعوة في بلاد فارس. وقد حكمت العلاقة بينهم وبين الأيُّوبيَّة استراتيجية سياسيَّة التزم بها الطرفان بدقَّة، فمُنْذُ أيَّام صلاح الدِّين عقد الإسماعيليُّون تحالفاً سياسياً عسكريّاً مع السَّلطنة الأيُّوبيَّة، ممَّا أتاح لهم تلقِّي الدعم العسكري الأيُّوبي عند تعرضهم لهجمات الفرنج، وكان هذا الدعم فعَّالاً دائماً. وقابله تنفيذ الإسماعيليَّة اغتيالات عدَّة لصالح السَّلطنة الأيُّوبيَّة. وبشكل عامٍّ؛ شكَّلت قلاع الإسماعيليَّة خطَّ مُواجهة أوَّلاً أمام قلاع الاسبتاريَّة والدَّاويَة في جبال الساحل السوري الشمالي، وكانت العلاقات العسكريَّة فيما بينهم مُتوتِّرة بشكل عامٍّ، لكنَّ علاقاتهم السِّياسيَّة بالفرنج كانت نشطة.

ومُقابل هذا الاستقرار السِّياسي في العلاقات السِّياسيَّة للإسماعيليَّة كان هُناك تخبُّط عقائدي إسماعيلي، فقد ألغى أحد أئمَّتهم الالتزام بالشرع الإسلامي، فازداد توتُّر علاقاتهم بمَنْ حولهم من المُسلمين، ثُمَّ أعاد الالتزامَ إمامٌ آخر، ممَّا أدَّى إلى عودة العلاقات بحُدُودها المقبولة، وهُناك روايات عن محُاولة اعتناقهم الديانة المَسيحيَّة، ممَّا ألقى ظلالاً قاتمة على انتمائهم للوسط الإسلامي بشكل عامٍّ، ولمَّا ساءت العلاقات بين إسماعيليَّة فارس والدولة الخَوَارزميَّة اتُّهموا بدعوة التَّتار للتخلُّص من الخطر الخوارزمي، ولمَّا هاجمهم الخَوَارزميَّة استكانوا أمام العاصفة، لكنَّ عاصفة التَّتار اقتلعت جذورهم من فارس، فانهارت قواهم في الشَّام، وأنهى الظَّاهر بيبرسُ سُلطان المماليك وُجُودَهُم العسكري فيها.

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 160.

جدول حُكَّام الإسماعيليَّة

استمرَّ حُكْمهم في قلعة ألموت 177 سنة، من سنة 477 هـ 1084م، حتَّى سنة 654 هـ 1256م، وتولَّى منهم ثمانية حُكَّام:

1 ـ **حسن بن علي بن مُحمَّد الصباح الحميري**: كان داعية إسماعيليّاً، تولَّى حُكْم ألموت عام 483 هـ 1090م، تُوفِّي عام 518 هـ 1124م.

2 ـ **الكيا بُزُرْك أُمِّيد**: كان داعية وزميلاً للحسن الصباح، تولَّى الحُكْم عام 518 هـ 1124م، أسَّس أُسرة وراثية بتولية ابنه من بعده، تُوفِّي عام 532 هـ 1138م.

3 ـ **مُحمَّد بن بُزُرْك أميد**: تولَّى عام 532 هـ 1138م. تُوفِّي عام 557 هـ 1162م.

4 ـ **حسن بن مُحمَّد**: تولَّى عام 557 هـ 1162م، ادَّعى نسباً إسماعيلياً إلى نزار بن الخليفة الفاطمي المُستنصر، وأعلن نفسه إماماً لفرقته، ثُمَّ أعلن القيامة عام 559 هـ 1164م، تُوفِّي عام 561 هـ 1166م.

5 ـ **مُحمَّد بن حسن**: تولَّى عام 561 هـ 1166م، تُوفِّي عام 607 هـ 1210م.

6 ـ **جلال الدِّين حسن بن مُحمَّد**: المُلقَّب (نو مُسلمان)، ألغى القيامة فور تولِّيه عام 607 هـ 1210م، تُوفِّي عام 618 هـ 1221م.

7 ـ **علاء الدِّين مُحمَّد بن حسن**: تولَّى عام 618 هـ 1221م، أُصيب بمرض الماليخوليا، اغتيل عام 653 هـ 1255م.

8 ـ **رُكن الدِّين خورشاه**: تولَّى عام 653 هـ 1255م، قتله المغول مع كُلِّ أفراد أسرته 656 هـ 1258م.



الفصل الثّالث

العلاقات الدّوليّة لبعض الدّول الإسلاميّة

المبحث الأوّل

علاقات الشّام ومصر مع المغرب الأقصى

بدأت هذه العلاقات فعليّاً بقيام دولة صلاح الدِّين في مصر، التي هي بوّابة المغرب العَرَبي، فكان من الطبيعي ـ لسبب، أو لآخر ـ أنْ تتفاعل العلاقات الأيُّوبيَّة مع المغرب سياسياً وعسكريّاً، لكنْ؛ ممّا حدَّ من هذه العلاقات، بل وربّما جعلها مُستحيلة، هُو مُواجهة كل طرف لعدو مُختلف، شغله تماماً، وجعله يستغرق كلّ اهتماماته في التّصدِّي له، إضافة إلى المُشكلات الدّاخليّة وصُعُوبات ترسيخ الحُكْم لدى كلّ طرف. كان الطرف الشرقي في الشّام ومصر يتعرّض للعُدوان الفرنجي، بينما كان الطرف الغربي يشهد عُدواناً من نوع آخر، إنَّه حرب الاسترداد التي كانت ناشطة في الأندلس وصقلية وامتداداتها نحو شواطىء المغرب العَرَبي، لكنَّ كلّ ذلك لم يمنع من قيام بعض العلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة بين شطرَيْ المشرق والمغرب العَرَبي.

بعد أن أعاد صلاح الدِّين السيطرة على دولة نُور الدِّين وضمّ الشّام إلى مصر، أعاد توزيع ولاته على أطرافها، فاستبدل ابن أخيه تقي الدِّين عمر والي مصر بابنه العزيز، فغضب تقي الدِّين وكاد أن يظهر العصيان، لكنَّه فضل أن يسير بجُنُوده ومماليكه إلى المغرب ليُقيم له فيها مملكة خاصَّة. وبالفعل خرج تقي الدِّين وعسكر في الجيزة، وبدأ بالاستعداد وكتب إلى عمّه السُّلطان صلاح الدِّين بذلك.

ويبدو أن الملك المُظفَّر تقي الدِّين كان يعتمد في مشروعه الغربي على قُوَّة استطلاع كان قد أرسلها مُسبقاً بقيادة مملوكه قراقوش[1]، يقول العماد الكاتب: "وكان أحد مماليكه قراقوش من قبل قد سار إلى برقة، وَمَلَكَهَا، وتجاوز إلى أفريقية، وهُو يكتب - أبداً - إلى مالكه الملك المُظفَّر يرغبه في تلك المملكة، ويقول: إن البلاد سائبة"[2]. ولمَّا وصلت أخبار حملة تقي الدِّين على المغرب إلى السُّلطان صلاح الدِّين قال: "لعَمْري؛ إن فتح المغرب مُهمّ، لكنَّ فَتْحَ البيت المُقدَّس أهمّ، وإذا توجَّه تقي الدِّين برجالنا المعروفة ذهب العُمر في اقتناء الرجال، وإذا فتحنا القُدْس والساحل طوينا إلى تلك المهالك المراحل"[3]. وفي الحقيقة؛ فإن توجُّه كُلٍّ من الرجلَيْن يناقض استراتيجية الآخر، فصلاح الدِّين سُلطان البلاد، وهدفه الجهاد، وهمُّه طرد الفرنج وتحرير القُدْس، ويرى أنَّه يُمكن - فيما بعد - التفكير في غير ذلك. أمَّا المُظفَّر تقي الدِّين فباحث عن مملكة يُؤسِّس فيها مُلكاً خاصَّاً به، وشجَّعه تقدُّم مملوكه قراقوش التقوي، وأخباره بخُلُوِّ بلاد الغَرْب من قُوَّة مانعة.

لكنَّ صلاح الدِّين لم يتوانَ في هذا الأمر، وأصرَّ على ابن أخيه أن يترك كُلَّ شيء، ويقدم عليه في الشَّام، فامتثل تقي الدِّين للأمر، ولمَّا قابل عمَّه مُلبِّياً لدعوته أرضاه صلاح الدِّين بإقطاعات كبيرة في الشَّام والجزيرة، ثنته عن التفكير في المغرب، الذي كان - في كُلِّ الأحوال - مُغامرة تقبل النجاح والفشل[4].

ولكنْ؛ عندما كتب السُّلطان صلاح الدِّين إلى الخليفة العبَّاسي المُستضيء يشرح له أحوال دولته ذكر فتوحات قراقوش مملوك تقي الدِّين ضمن خُطَّة الدولة، وكأنَّها تمَّتْ بدعمه وإشرافه الشخصي، وعدَّدها ضمن أعماله، فقد قال في رسالته التي هي من إنشاء القاضي الفاضل: "ولنا في المغرب، أثر أغرب .. وذلك أن بني عبد المُؤمن قد اشتهر أن أمرهم أمر، وملكهم قد عمر، وجُيُوشهم لا تُطاق،

---

1 - قراقوش: التقوي، مملوك تقي الدِّين، وهُو غير قراقوش الصلاحي مملوك صلاح الدِّين، ونائبه على القاهرة، والذي شنَّع عليه أهل مصر. ويبدو أنَّه تحرَّك من مصر قبيل وفاة نُور الدِّين، وبالتَّأكيد؛ كان ذلك بمُوافقة صلاح الدِّين، إنْ لم يكن بدعمه وتوجيهه، وهذا ما دفع ابن خلدون ليقول بأنَّ حملة قراقوش كان من أهمّ دوافعها الوحشة بين صلاح الدِّين ونُور الدِّين. (العبر، ابن خلدون، 6 / 394)؛ أيْ أنَّه كان يمهِّد لمملكة بديلة إذا أقصاه نُور الدِّين عن مصر.

2 - الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19 / 4.

3 - الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19 / 4.

4 - الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19 / 4.

وأوامرهم لا تشاق، ونحنُ ـ والحمد لله ـ قد ملكنا مِمّا يجاورنا منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر، وسيَّرنا عسكراً بعد عسكر، رجع بنصر بعد نصر، ومن البلاد المشاهير والأقاليم الجماهير: لُكّ، برقة، قفصة، قسطيلية، وتَوْزَر، كُلُّ هذه تُقام فيها الخطبة لمولانا الإمام المُستضيء بالله"[1].

وعلى الأرض تمكَّن قراقوش من الاستيلاء بسُهُولة على مُحيط مدينة طرابلس الغَرْب ومُعظم نواحي جبل نفوسة، فتوافدت عليه قبائل العَرَب، وخاصَّة قبيلة رياح، التي خلعت طاعة المُوحِّدين، وساندت قراقوش، فتمكَّن ـ بهذا الدعم ـ من احتلال طرابلس، فقدمت إليه مجموعات أُخرى من القبائل العَرَبيَّة من هلال وبعض سليم، فاصطنعهم، وفرض لهم العطاء، واستبدَّ هُو بحُكم طرابلس. وكان قراقوش يخطب للخليفة العبَّاسي وللسُّلطان صلاح الدِّين ولمولاه تقي الدِّين[2].

ويبدو أن حملة قراقوش التقوي على المغرب قد انتهت بمُجرَّد إرضاء سيِّده تقي الدِّين بإقطاعات الشَّام، فاستدعى جُنُوده ومماليكه إليه في الشَّام، وعاد مُعظمهم إلَّا مجموعة منهم قد تخلَّفت في المغرب مع أحد قادة الحملة، وهُو مملوك لتقي الدِّين اسمه زين الدِّين بوزبا، فقد تابع بمَنْ رافقه من الجُند تقدُّمه نحو الغَرْب، واستولى على عدَّة بلدات، لكنَّه ـ في النِّهاية ـ هزم أمام قُوَّات ابن عبد المُؤمن سُلطان المغرب، فأسره، ثُمَّ أطلقه، وجهَّزه بما يلزم مع جنده، وسيره لغزو الثُّغُور، فوجده مُقاتلاً شُجاعاً وقائداً مُحنَّكاً، فجعله أحد مُقدَّمي جيشه[3].

ولَمَّا اشتدَّ ضغط الفرنج على عكَّا، ووقف صلاح الدِّين بقُوَّاته أمامها عاجزاً عن إنقاذها، لأنَّه لا يستطيع مُهاجمة الفرنج المدعومين بالأساطيل القويَّة، وقد وصف هذه الحال صلاح الدِّين في إحدى رسائله بقوله: "إنَّهم ـ الآن ـ على عكَّا، يمدُّهم البحر بمراكب أكثر عدَّة من أمواجه"[4]. ولذلك لم يجد صلاح الدِّين بُدّاً من مُحاولة طلب نجدة سُلطان المغرب يعقوب ابن يُوسُف[5]، فالمُوحِّدون وُفقاً لما قال ابن خلدون: " أقاموا خُطَّة هذا الأُسطُول على أتمِّ ما عُرف، وأعظم ما

---

1 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 13 / 86 ـ 87.

2 - العبر، ابن خلدون، 6 / 395، راجعْ تفاصيل حُكْم قراقوش لطرابلس في: علاقات المُوحِّدين بالدول النصرانية والدُّول الإسلاميَّة، هشام أبو رجيلة، 143.

3 - الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19 / 5.

4 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 7 / 627.

5 - المنصُور يعقوب بن يُوسُف بن عبد المُؤمن (580 / 595 هـ 1184 / 1199 م).

عُهد"، ويُضيف ابن خلدون مُتحدِّثاً عن الأساطيل في عهد المنصُور يعقوب، بقوله: "وانتهت أساطيل المُسلمين على عهده في الكثرة، والاستجادة ما لم تبلغه من قبل، ولا من بعد فيما عهدناه"[1].
فكتب القاضي الفاضل نصَّ كتاب الطلب، وحمله إليه عام 586 هـ 1190م، شمس الدِّين عبد الرحمن بن مُنقذ الكناني، وقد ورد في الكتاب تعريفٌ بقُوَّة الفرنج البَحْريَّة، والإمدادات الكبيرة التي تصلهم في البحر، ويسأله السُّلطان صلاح الدِّين: إن كان أُسطُول المغرب مُستعدَّاً وجاهزاً، "فالبدار البدار". ثُمَّ يعتذر السُّلطان عن أفعال قراقوش وبوزبا وغزوهم للمغرب، ويتنصَّل من عملهما[2].

وبالفعل؛ أقلع عبد الرحمن بن مُنقذ على ظهر سفينة من ميناء الإسكندرية في 13 رمضان 586 هـ 1190م، وبعد توقُّف بسيط في طرابلس الغَرْب أقلع منها إلى المغرب الأقصى، فاستقبله الوزير أبو يحيى بن أبي بكر، ثُمَّ قابل السُّلطان يعقوب، الذي تسلَّم الرسالة، وقبل هدية صلاح الدِّين[3].

وبقي ابن مُنقذ في مراكش حتَّى عام 588 هـ 1192م؛ حيثُ غادر إلى صر، ويبدو أنَّه عاد دُون أن يحمل ردَّاً على الرسالة، وبالتَّالي؛ فإن صلاح الدِّين لم يحصل على أيِّ مُساعدة من ابن عبد المُؤمن كما كان يأمل. وقيل إنَّ سبب تجاهل ابن عبد المُؤمن لطلب صلاح الدِّين إنَّه لم يخاطبه برسالته إليه بإمرة المُؤمنين، كما كان أتباعه في المغرب يُخاطبونه[4].

وإذا كان السُّلطان صلاح الدِّين لم يتمكَّن من إثارة اهتمام خليفة المغرب وأُمرائه وقادته بالجهاد المُشترك ضدَّ الفرنجة[5] فإن قضيَّة القُدْس والجهاد المُقدَّس لتحريره قد استثارت كثيراً من عامَّة المغاربة، الذين لم يكونوا بحاجة إلى توجيه رسمي ليندفعوا نحو بلاد الشَّام.

---

1 - العبر، ابن خلدون، 6 / 528.
2 - راجعْ نصَّ كتاب السُّلطان صلاح الدِّين إلى ابن عبد المُؤمن في : الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19/ 288.
3 - لمعرفة تفاصيل الهدية راجعْ: الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19 / 797.
4 - الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19 / 298 ـ 300.
5 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 242.

المغاربة في الشَّام[1]:

من المعروف أن المغاربة تـدفَّقوا بكثـرة عـلى مـصر والـشَّام في عـصر الحُـرُوب مـع الفرنجـة كمجموعات وأفراد، ولأسباب مُختلفة، رُبَّما كان من أهمّها الجهاد في سبيل الله، ممَّا حتَّم قيام علاقـات عسكريَّة بين المتطوِّعة المغاربة والفرنجة، ولكنَّنا نُلاحظ أن تلك العلاقات كانت في أضيق شكل، فلا تُوجد إشارات واضحة لدى مُؤرِّخي الحُرُوب مع الفرنجة على اشتراك المغاربـة كوحـدات مُـستقلَّة، أو حتَّى كمجموعات صغيرة مُنفصلة، وكُلُّ ما تمَّ ذكره هُـو حـوادث فرديـة، مثـل: خُـرُوج الـشَّيخ يُوسُف بن درباس الفندلاوي المغربي من دمشق عندما حاصرها الفرنج في الحملة الثَّانية عام 543 هـ 1149م، وقتاله لهم رغم شيخوخته، ممَّا أدَّى إلى استشهاده[2].

ويُركِّز الرَّحَّالة المغربي ابن جُبَيْر في مرويات رحلته على دور المغاربة في الحَـرْب ضـدَّ الفرنجـة زمن صلاح الدِّين، ويقول: إن الضرائب التي يتقاضاها الفرنج على مُرُور التُّجَّار المغاربة أعلى بكثـير من الضرائب المفروضة على غيرهم، ويُعلِّل ذلك بنكايتهم في الفرنج[3]، وممَّا يُؤكِّـد ذلـك أن رسـول الفرنجة إلى صلاح الدِّين، أثناء حصارهم لعكَّا، جاء ومعه أسـير مغـربي كهديـة، فـاهتمَّ بـه صـلاح الدِّين[4].

كذلك يذكر ابن جُبَيْر أن المغاربة البحريين أنجدوا القُوَّة البَحْريَّة التي شكَّلها الأمير لُؤلُؤ لـردِّ غزوة الفرنجة في البحر الأحمر، والتي كانوا ينوون الوُصُول فيها إلى المدينة المُنوَّرة[5].

ويبدو أن شُهرة المغاربة بمعاناة البحر قد انعكست عليهم وبالاً على فقـرائهم في مـصر، فعـلى الدوام؛ كان هُناك مَنْ يتعرَّض لهم بالقبض لسدِّ حاجة الأُسطُول، يقول المقرِّي في كتابه نفح الطيـب: "وسائر الفقراء لا يتعرَّضون إليهم بالقبض للأُسطُول إلَّا المغاربـة، فـذلك وقـف علـيهم لمعـرفتهم

1 - كان "تعبير مغربي" يشمل سُكَّان غرب الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة من ليبيا وحتَّى الأندلس.
2 - مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة : فندلاو وذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي، 298.
3 - الرحلة، ابن جُبَيْر، 274.
4 - الفَتْح القِسِّي في الفتح القدسي، العماد الأصفهاني، 502.
5 - الرحلة، ابن جُبَيْر، 35.

بمعاناة البحر، وقد عمَّ ذلك مَنْ يعرف معاناة البحر منهم، ومَنْ لم يعرف، فيُحمَل إلى السجن، حتَّى يحين وقت الأُسطُول"[1].

وهذا دليل على أهمِّيَّة دور المغاربة في الحُرُوب ضدَّ الفرنجة، ولكنَّه يبقى دوراً شعبيَّاً، وبمُبادرات فردية تلبية لفريضة الجهاد، بينما لم يُجبْ سُلطان المغرب طَلَبَ السُّلطان صلاح الدِّين لدعمه عسكريَّاً ضدَّ الفرنج[2].

ويبدو أن المغاربة قد اختصُّوا بإقامة الأسواق للعسكر، فكانوا يُقيمُون مطاعم وحمامات مُتنقِّلة تصاحب تحرُّكات الجُند، وقد قدَّر المقريزي أعدادَ المغاربة الذين يُقيمُون بخدمة الجيش الأيُّوبي بأكثر من ثلاثة آلاف مغربي[3]، وهذا دعم إداري لا يُنكَر لرفاهية الجيش وصحَّته. ورُبَّما لتعاظم دور المغاربة المُتطوِّعة للجهاد، فقد أوقف الملك الأفضل بن السُّلطان صلاح الدِّين حيَّاً خاصَّاً في مدينة القُدْس، يقع بجوار المسجد الأقصى، لسكن المغاربة، حتَّى صار يُعرَف بحارة المغاربة[4].

وأخيراً؛ نُلاحظ أن الحملة الأيُّوبيَّة قد انطلقت نحو المغرب في وقت مُبكِّر من عهد صلاح الدِّين، وقد احتلَّت حملة تقي الدِّين والي مصر إقليم برقة، واصطدمت بالمُوحِّدين في تُونُس، لكنَّ السُّلطان صلاح الدِّين أمر بسحب الحملة، وتنصَّل منها عندما طلب مُساعدة ابن عبد المُؤمن البَحْريَّة، فتجاهل ابن عبد المُؤمن طلبه، وغالباً كان هذا التجاهل بسبب توجُّهاته الأندلسية وهُمُومه المغربية، وليس لعدم مخاطبته بإمرة المُؤمنين كما تردَّد.

---

1 - نفح الطيب، المقري، 3 / 111 ـ 112.

2 - الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 19 / 288.

3 - السُّلُوك، المقريزي، 1 / 94.

4 - الأنس الجليل، العليمي، 2 / 397، والشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، 114.

المبحث الثَّاني

العلاقات الخارجيَّة لأُمراء الحجاز

كانت كُلُّ المهالك الإسلاميَّة تُقيم علاقات ضمنية مع الحجاز من خلال فريضة الحجِّ والزيارة التي يقوم بها سنوياً مُسلمو تلك البلاد، ولكنْ؛ انفردت الدولة الأيُّوبيَّة بعلاقات مميّزة مع الحجاز بسبب أن أرض ممالكها في الشَّام ومصر هي منافذ لُمعظم مناطق العالم الإسلامي نحو الحجاز وهي الأقرب إليه. مع ذلك؛ لم يكن في الحجاز ما يُغري مُلوك بني أيُّوب للسيطرة عليه، أو مَدّ مُلْكهم إليه، فهُو مسؤولية أمام الأُمَّة الإسلاميَّة أكثر منه مغانم وسُلطة. لذلك؛ حاول الأيُّوبيُّون ـ ما استطاعوا ـ أن تظلَّ صلتهم الوحيدة بالحجاز هي قافلة الحجِّ الشَّامي، وقافلة الحجِّ المصري، وتأمين سلامتها بالذهاب والإقامة والإياب.

كان يُسيطر على الحجاز في العصر الأيُّوبي الأشراف العلويُّون؛ حيثُ يحكم منهم في مكَّة المُكرَّمة الفرع الزيدي الحَسَني، وكانت لهم الأهمِّيَّة الكُبْرَى لسيطرتهم على مدينة مكَّة المُكرَّمة والمسجد الحرام والكعبة المُشرَّفة، ووُجُود مناسك الحجّ كلّها في قبضتهم.

أمَّا في المدينة المُنوَّرة؛ فكان يحكم الأشراف من الفرع الحُسَيْني العلوي، وكانت إمارتهم أقل أهمِّيَّة لإمكان استغناء الحُجَّاج عن الزيارة إلَّا لَمنْ كانت المدينة المُنوَّرة في طريقهم كحُجَّاج الشَّام، ومع القرابة بين أُمراء مكَّة وأُمراء المدينة، فقد كانت المُنازعات، بل والحُرُوب، شائعة بينهما، لأن كُلاً منهما، وخاصَّة أُمراء مكَّة، يطمع في السيطرة على ما بيد الآخر.

في بدايات العصر الأيُّوبي كان يحكم مكَّة الأمير داود بن عيسى بن مُحمَّد بن أبي هاشم الزيدي الحَسَني العلوي، ويقاسمه في الإمرة أخوه الأمير مكثر، وفي عام 589 هـ تُوفِّي داودُ أميرُ مكَّة المُكرَّمة[1]، فخلفه ابنه الأمير قتادة، الذي كان ذا أطماع شديدة، ويملك شخصية قويَّة تميل إلى السيطرة والتحكُّم[2]، أمَّا في المدينة المُنوَّرة؛ فكان يحكم في بدايات العصر الأيُّوبي الأمير سالم بن قاسم بن مهنا الحُسَيْني العلوي، وكان يرغب بقيام علاقات وُدِّيَّة مع الأيُّوبيِّين ليستفيد من دعمهم لمُواجهة

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 104.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 205.

أطماع أبناء عمِّه حُكَّام مكَّة المُكرَّمة، فتوجَّه الأمير سالم نحو الشَّام عام 590هـ 1194م، ساعياً في تحقيق قيام علاقة سياسيَّة تُؤدِّي إلى دعم عسكري، ولكنْ؛ في غيابه عن المدينة المُنوَّرة طمعت العَرَب في غزوها، فاجتمعت أحلاف من القبائل البدويَّة التي تُقيم في بوادي الحجاز بزعامة قبيلة زغب، وهاجموا المدينة المُنوَّرة، فتصدَّى لهم الأمير هاشم بن قاسم، الذي كان يحكم نيابة عن أخيه، فقتلوه، ونهبوا ما تمكَّنوا من نهبه[1].

ويبدو أن الأمير سالم لم يحصل على مبتغاه من رحلة الشَّام، فالمُلوك الأيُّوبيُّون مشغولون بمُشكلاتهم الدَّاخليَّة، وحكم الحجاز من آخر اهتماماتهم. ورُبَّما أدرك ذلك قتادة أمير مكَّة المُكرَّمة الذي قام عام 601 هـ 1205م، بقيادة جنده ومماليكه، وهاجم المدينة المُنوَّرة للاستيلاء عليها، ولكنَّه واجه مُقاومة عنيفة من الأمير سالم، الذي تصدَّى له، وهزمه، فهرب قتادة، وتحصَّن في مكَّة المُكرَّمة، فتبعه سالم، وحصره، عندها؛ لجأ قتادة إلى المُؤامرات، فاستمال قادة الأمير سالم، وأطمعهم، ففسدت نيَّاتهم على أميرهم، فاضطرَّ سالم للرحيل إلى المدينة المُنوَّرة[2].

ولم يجد الأمير قتادة مَنْ ينتقم منه إلَّا أئمَّة المذاهب في مكَّة، فقتل إمام الحنفية، وإمام الشافعية، ثُمَّ التفت إلى قافلة الحجّ اليمني، فنهبها[3]. وسيتكرَّر نهب الحُجَّاج العُزَّل من قبَل أُمراء مكَّة، وتَرْكهم لمُواجهة الموت عُراة جياع، كُلَّما توجَّس أميرها خيفة من أحد، فينتقم من حُجَّاج بيت الله الحرام، علماً أنَّه الشريف الحسيب النسيب الذي يحكم مكَّة بحُكْم قرابته من رسول الله (ص).

وفي زحام يوم النحر لعام 608 هـ 1211م، قام رجل عراقي بالهُجُوم على شريف من بني عمِّ قتادة، وقتله، فقتلوا القاتل، الذي رُبَّما كان يُدافع عن شرفه أو ماله من تعدِّي هذا الشريف، وهُو أمر كان شائعاً جدَّاً، ولكنْ؛ كالعادة بُنيت قصَّة كاملة حول عملية القتل هذه، وقيل إنَّ القاتل باطنيّ من الإسماعيليَّة اندسَّ في قافلة الحجِّ العراقي بناءً على رغبة الخليفة العبَّاسي، وأنَّه قتل ابن عمِّ الأمير قتادة لشبهه الشديد به، بينما كان المقصود هُو الأمير، فوجدها قتادة فُرصة مُناسبة، وهاجم بجنده وعبيده الحُجَّاج العراقيين، وبدأت عملية نهب مُنظَّمة لهم. ولم يتمكَّن أمير قافلة الحجِّ العراقي علاء

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 110.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 205.

3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 149.

الدِّين مُحَمَّد بن الأمير ياقوت من التّصدِّي لشريف مكَّة لكونه صبياً غرّاً، فنصحه الناس بالانحياز إلى موضع الحُجَّاج الشاميين، وكان قائد قافلة الحجِّ الشَّامي الصمصام إسماعيل، ومعه في القافلة ربيعة خاتون بنت أيُّوب أُخت السُّلطان العادل.

ولمَّا هرب الحُجَّاج العراقيون استولى قتادة على أحمالهم وأثقالهم، ولم يترك لهم شيئاً منها، وأرسل جنده وعبيده إلى منى، فضربوا الناس بالحجارة، ورموهم بالنشَّاب، وقتلوا منهم، فدخل أميرُ قافلة العراق خيمةَ ربيعة خاتون، واستجار بها، فأرسلت إلى قتادة مع أمير قافلة القُدْس علي بن السلار تقول: "ما ذنبُ الناس؟! قد قتلتَ القاتلَ، وجعلتَ ذلك وسيلة لنهب المُسلمين، واستحللتَ الدماء في الشهر الحرام، وخوَّفتْهُ، فطلب مائة ألف دينار لكفِّ أذاه عن الناس، فجمعوا له ثلاثين. "وأقام الناس ما بين قتيل وجريح ومسلوب وعريان"، ويُقال إنَّه أخذ ما قيمته ألف ألف دينار من الحُجَّاج العراقيين، ويُعلِّق ابن شدَّاد على ذلك بقوله: ولم ينتطح فيها عنزان"[1]. ويبدو أنَّه للمصادفة كان ضمن قافلة الحجِّ العراقي والدة جلال الدِّين زعيم إسماعيليَّة فارس في قلعة ألموت، ويُقال إنَّها تحمَّلتْ دَفْعَ مُعظم الغرامات التي تكبَّدتها القافلة[2].

واتَّهم قتادةُ الخليفةَ العبَّاسيَّ بتدبير مُؤامرة لقتله، وقال: "ما فعل هذا إلَّا الخليفة، ولئن عاد أحد من بغداد لأقتلنَّ الجميع"[3]. ولكن قتادة عاد، فشعر بعظيم ما فعل من إساءة للخلافة، وعاد يُحاول استرضاء الخليفة، فأرسل جماعة من أولاده وأصحابه إلى بغداد، "فدخلوها ومعهم السُّيُوف مسلولة، والأكفان، فقبَّلوا العتبة، واعتذروا"[4]. ويبدو أن أمر الحجاز قد بدأ يثير اهتمام السُّلطان العادل، بعد أن استقرَّ له الأمر في الشَّام ومصر، ففي عام **611** هـ **1214**م، كان أمير قافلة الحجِّ الشَّامي الملك المُعظَّم بن العادل، فلمَّا وصل المدينة المُنوَّرة تلقَّاه أميرها سالم، واهتمَّ بخدمته، فهُو لا زال يحلم بالدعم الأيُّوبي ضدَّ أُمراء مكَّة، وممَّا سهَّل مهمَّة سالم أن قتادة أمير مكَّة لم يُحسن استقبال الملك المُعظَّم في حجِّه، فلمَّا عاد المُعظَّم أخبر والده العادل الذي أمر بتجهيز قُوَّة عسكريَّة بقيادة الناهض بن الجرجي توجَّهت إلى المدينة المُنوَّرة؛ حيثُ استقبلهم الأمير سالم، وقصدوا جميعاً مكَّة،

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زكَّار، 20 / 152.
2 - الحشيشية، برنارد لويس، ترجمة: سُهيل زكَّار، 237.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زكَّار، 20 / 152.
4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 297.

فهرب قتادة منها إلى البادية، ولم يُجرِّب المُقاومة[1]، ولكنَّه سُرعان ما عاد إلى مكَّة بعد تراجع الحملة الأيُّوبيَّة، وجمع مُؤيِّديه، وهاجم المدينة المُنوَّرة عام 612 هـ 1215م، "وحاصروها أيَّاماً، وقطع ثمرها، وكثيراً من نخلها". وتصدَّى له أهل المدينة، وهزموه، فعاد نحو مكَّة[2].

وأيقن الأمير سالم أنَّه لن يستريح ما لم يقض تماماً على قُوَّة عدوِّه قتادة أمير مكَّة، وأن ذلك لن يتمَّ إلَّا بالدعم وبالقوى الأيُّوبيَّة، فسار إلى دمشق مُجدِّداً، وعسكر في الكسوة، فجنَّد بعض التُّركمان، وتلقَّى الدعم الأيُّوبي بفرقة يقودها الناهض بن الجرجي نفسه، وقاد سالم قُوَّاته وتوجَّه نحو الحجاز، لكنَّه تُوفِّي في الطريق عام 612 هـ 1215م، فخلفه ابن أخيه المدعو جماز، الذي قاد الحملة، وواصل المهمَّة، وضمَّ إليه في الطريق بعض الأعراب من بني طيء بقيادة حميد بن راجب، وهاجم بجميع مَنْ معه مكَّة، ولمَّا تصدَّى له قتادة تمكَّن من هزيمته، فهرب قتادة إلى قلعة ينبع[3] التابعة له، فتبعه جماز، وحاصره فيها، وبعد سلب المنطقة، ونهبها، عادوا عن الحصار، وغادرت الحملة الشَّاميَّة إلى موطنها، ولمَّا أحصوا غنائمهم في الشَّام وجدوا في الأسرى نساء وصبيان من الأشراف الحَسَنيون والحُسَيْنيون، فلم يستعبدوهم، وسلَّموهم إلى أشراف دمشق؛ ليكفلوهم، ويُعيلوهم مَنْ وقفهم[4].

وفي النِّهاية؛ أدرك قتادة أنَّه سيكون الخاسر الأكبر في صراعه مع أُمراء المدينة، وإنَّه لن يقوى على المُقاومة بوُجود الدعم الأيُّوبي، فحاول أن يُدلي بدلوه في التقرُّب من الأيُّوبيِّيْن، فراسل الملك الكامل صاحب مصر، لأنَّه كان يعرف أن هوى أخيه المُعظَّم صاحب دمشق مع أعدائه في المدينة، وعرض على الكامل أن يُسلِّمه قلعة ينبع، وهي قلعة الميناء الاستراتيجي للحجاز على البحر الأحمر الذي هُو صلتها بمصر، فوافق الكامل، وبالفعل؛ تسلَّم نُوَّابه عام 613 هـ قلعة ينبع، مُقابل أن يحميه من هُجُوم الأمير قاسم بن جماز، الذي تولَّى حُكْم المدينة المُنوَّرة، وكان ينتظر انتهاء مناسك الحجِّ؛ ليُهاجم مكَّة، ويحتلّها بعد أن احتلَّ وادي القرى الغني بنخيله وزرعه، وكان تابعاً لقتادة[5].

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زكَّار، 20 / 169.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زكَّار، 20 / 172.
3 - ينبع: هي ميناء المدينة المُنوَّرة على البحر الأحمر. وقال ياقوت: "هي من المدينة على سبع مراحل، وفيها عُيُون عذاب كثيرة، وهي من أرض تهامة". (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: ينبع).
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 89 ـ 90، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 173.
5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 92.

وبذلك قام نوع من التوازن الاستراتيجي بين أُمراء مكَّة المدعومين من الفرع الأيُّوبي في مصر، وبين أُمراء المدينة المدعومين من الفرع الأيُّوبي في دمشق، واستمرَّ هذا التوازن حتَّى وفاة الأمير قتادة عام 617 هـ 1220م[1]، فتولَّى بعده ابنُهُ حسن، ولمَّا تُوفِّي قتادة كان له من العمر نحو تسعين سنة، وقيل إنَّ ابنه حسن هُو الذي قتله خنقاً، وكان قد قتل عمَّه قبله، ثُمَّ استدعى حسن أخاً له يُقيم في ينبع، فقتله أيضاً[2].

وكان للأمير حسن أخ آخر اسمه راجح يُقيم مع العَرَب بظاهر مكَّة، فلمَّا قدمتْ قافلة الحجِّ العراقي، وكان أميرها آقباش مملوك الخليفة النَّاصر لدين الله، وقد حمل معه الخلع والتقليد من الخليفة إلى حسن بن قتادة، فاتَّصل راجحُ بآقباش، وقال له: "أنا أكبر وُلد قتادة، وطلب توليته على مكَّة"[3]، وتختلف الروايات حول موقف آقباش من راجح، فيقول ابن الأثير: إن أمير الحجِّ العراقي قد وافقه[4]، بينما يقول أبو شامة: إن آقباش لم يُجبه، لكنَّ حَسَن ظنَّ أن آقباش قد ولاه مكَّة[5]. على الحالَيْن كلَيْهما؛ قام الأمير حسن بالخطوة العدائية الأُولى ضدَّ أمير الحجِّ العراقي، فأغلق أبواب مكَّة، ومنع الناس من دُخُولها، فوقعت الفتنة بين الأخوَيْن، وضجَّت الحُجَّاج، فركب آقباش مسالماً ليُسكن الفتنة، ويُهدىء الناس، فتلقَّاه أصحاب حسن، وقاتلوه، فانهزم أصحابه عنه، وقُتل آقباش، وحملوا رأسه إلى حسن، الذي نصبه على المسعى، وهاجم أتباع حسن الحُجَّاج لنهبهم، على مجرى العادة، فتصدَّى لهم المبارز أمير الحجِّ الشَّامي، وخوَّف حسن من غضب الملك الكامل والملك المُعظَّم، فهدأت الفتنة[6].

وبعد استيلاء أطسيس بن الملك الكامل على اليمن، أصبحت الحجاز محصورة بين الأملاك الأيُّوبيَّة. فازداد الاهتمام الأيُّوبي بها. وفي عام 619 هـ1222م، حجَّ من اليمن الملك المسعود أطسيس بن الكامل، ومعه عدد وافر من الجُند، فانحاز عن طريقه حسن بن قتادة، الذي كان في حالة من

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 236.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 402.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 236.
4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 401.
5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 236.
6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 236.

الضعف بعد تفرُّق الأشراف والمماليك عنه، وقام عسكر أطسيس بنهب مكَّة، "حتَّى أخذ الثياب عن الناس"[1]، وتجبَّر أطسيس بقُوَّته، وتحكَّم، فمنع علم الخليفة من الصعود إلى منى، واستهان بحُرمات مكَّة، ويُروى عن جمال الدِّين الحصيري أنَّه قال: "رأيتُ أطسيسَ قد صعد على قبَّة زمزم وهو يرمي حمام مكَّة بالبُندُق، وغلمانه في المسعى يضربون الناسَ بالسُّيُوف في أرجلهم، ويقولون: اسعوا قليلاً قليلاً، فإن السُّلطان نائم سكران"[2].

ومع كلِّ هذه الشدَّة والتجبُّر فإن الأمن الذي حقَّقه أطسيس لمكَّة كان مفقوداً منها لعقود طويلة خلتْ، فبعد استيلائه عليها؛ توالت على مكَّة التجارات والقوافل، ورخصت الأسعار في أيَّام حُكْمه لها، "ولعظيم هيبته خَلَت الأشرار، وآمنت الطُّرُق والديار"[3].

وبذلك؛ انضوت الحجاز بكاملها تحت السيطرة الأيُّوبيَّة، فالمدينة المُنوَّرة كان صاحبها في تبعية كاملة للملك المُعظَّم صاحب دمشق، وعندما عاد مُؤرِّخ الشَّام أبو شامة من حجِّه عام 621 هـ 1224 سجَّل في ذيل تاريخه إشارة بالغة الدلالة على هذه التبعية، وقد وردت عَرَضاً وهو يشيد باهتمام صاحب المدينة بالأمن، فعزا ذلك لتبعيَّته لصاحب الشَّام الملك المُعظَّم[4].

أمَّا مكَّة؛ فقد تبعت ـ بشكل مُباشر ـ إلى مملكة اليمن الأيُّوبيَّة، وقد حلَّ في ذلك الوقت السُّلطان الأيُّوبي الكامل مُشكلة كُبرَى كان يُعاني منها الحُجَّاج، عندما أتاح دُخُول الكعبة المُشرَّفة لمَنْ أراد من الزُّوَّار، "فقد أرضى بني شيبة سَدَنَة الكعبة بمال، عوضاً عمَّا كانوا يأخذونه بإغلاقه، وفتحه لمَنْ أرادوا"[5].

ثُمَّ تبدَّلت القوى المُتحكِّمة في مناطق جوار الحجاز، فقد تُوفِّي المُعظَّم، واقتسم الملك الكامل وأخيه الأشرف مملكة دمشق، وخلعوا عنها داود بن المُعظَّم، وكذلك استولى ابن رسول على اليمن بعد وفاة أطسيس، فأراد الكامل ـ عندما زحف على الشَّام ـ أن يُثبت وُجُوده في الحجاز، فأرسل عام

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 413.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زكَّار، 20 / 253.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زكَّار، 20 / 254.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زكَّار، 20 / 274.
5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زكَّار، 20 / 279.

629 هـ ـ 1232م، حملة بقيادة فخر الدِّين بن شيخ الشُّيُوخ إلى ساحل الحجاز ليحمي ينبع، لكنَّ ابن الشَّيخ دخل مكَّة، فلمَّا وصل الخبر إلى الكامل، "فما أعجبه ذلك، وقال: نحنُ أمرناه أن يصل الينبع لا غير، مَنْ أمره بأَخْذ مكَّة؟"[1].

ويبدو أن السُّلطان الكامل لم يكن يُريد إثارة المشاكل في الحجاز، ولا يُريد إلَّا تأمين طريق حجِّ المصريين بالاحتفاظ بميناء ينبع، وكان يُدرك خطر أَخْذ مكَّة، بعد فقده لحُكْم اليمن. وكانت مخاوف السُّلطان الكامل في محلِّها، فقد جمع أمير مكَّة العَرَب، وأمدَّه ابن رسول حاكم اليمن بقُوَّة من جنده، قاموا جميعاً بالهُجُوم على ابن الشَّيخ والقُوَّات الأيُّوبيَّة المُتواجدة في مكَّة، فهربوا من مكَّة إلى ينبع، وكاد ابن الشَّيخ أن يُؤسَر في هذه الموقعة[2]، وبذلك؛ خرجت مكَّة نهائيَّاً من تحت المظلَّة الأيُّوبيَّة. وكذلك خرجت المدينة بالتدريج عن سُلطتهم، خاصَّة بعد مقتل الأمير شيحة بن سالم عام 646 هـ[3]، وتولِّي حُكْم المدينة ابنه الأكبر عيسى بن شيحة[4].

وكمُجمل للعلاقات بين السَّلطنة الأيُّوبيَّة والحجاز نرى أن مملكتَيْ دمشق ومصر الأيُّوبيَّتَيْن قد تنازعتا النُّفُوذ على أشراف الحجاز في مكَّة والمدينة، وتدخَّل مُلُوكها في خلافات الأشراف على السُّلطة، ودعموا بعضهم ضدَّ بعض بالأموال والجُيُوش، حتَّى فرضوا سيطرتهم الكاملة على الحجاز.

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 235.

2 - المنصُوري، ابن نظيف، 235.

3 - راجعْ ترجمته في: صُبح الأعشى، القلقشندي، 4 / 300، والسُّلُوك، المقريزي، 1 / 473، وتاريخ الإسلام، الذهبي، 600 ـ 699، أحداث عام 646 هـ.

4 - المُختار، ابن الجزري، 215.

الفصل الرَّابع

العلاقات الدّوليّة لسلطنة المماليك

المبحث الأوّل

طائفة المماليك

المماليك هُم الرقيق الصَّالح للعمل، وغالباً؛ هُم من الفتيان والفتيات الأرقَّاء. فقد كان الرِّقُّ نظاماً شائعاً في عالم العُصُور الوُسْطَى، وقد عرفته الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة في وقت مُبكِّر من قيامها، من خلال مصدر كبير له هُو الأسر. فالأسرى نتيجة طبيعية للعمليات الحَرْبيَّة الكُبْرَى، التي رافقت قيام الدولة، وكما كان سائداً في عُرْف ذلك الزَّمان، فهُم سيتحوَّلون إلى رقيق، يُمكن فداؤه، أو بيعه، أو استخدامه، ومع أن الإسلام قد شجَّع ـ بشكل كبير ـ على عتق الرقيق، وجعل ذلك زكاة وصدقة وكفَّارة للذُّنُوب وحسنة كبيرة عند الله، فإن أعداداً كبيرة من الرقيق كانت موجُودة بحُكْم الواقع في الدولة الإسلاميَّة، دخلت القُصُور والبُيُوت للخدمة، ثُمَّ استخدموا في الإدارة، وأخيراً؛ وصلوا إلى الجيش.

كان الخُلفاء العبَّاسيون أوَّل مَن استخدم المماليك بكثرة في قُصُورهم وأعمالهم الرَّسْميَّة، كما استخدموهم مُقاتلين وأُمراء في الجيش[1]، وخاصَّة أيَّام الخليفة المعتصم. وكان المماليك بمُعظمهم من الجنس التركي، وذلك للتجربة العبَّاسيَّة الفاشلة مع الفُرْس، ولعدم اطمئنانهم لبني قومهم من العَرَب. وعندما قامت الدولة الطولونية في مصر[2]، اعتمدت على المماليك، واستقدمتهم بأعداد كبيرة، حتَّى قيل إنَّهم بلغوا **24** ألف مملوك، وكذلك الأمر بالنِّسبَة للإخشيديين والفاطميين من بعدهم، فقد اعتمدوا على المماليك في تكوين جُيُوشهم[3].

ولمَّا حَكَمَ الأيُّوبيُّون، وهُم أكراد الأصل، توصَّلوا للحُكْم عن طريق الدولة السلجوقية التُّركيَّة، لذلك؛ نقلوا عنها الكثير من عاداتها، ونُظُمها التُّركيَّة المشرقية، وكانت القاعدة العامَّة المعروفة عن

---

1 - العلاقات السِّياسيَّة بين المماليك والمغول، فايد عاشور، 11.

2 - الدولة الطولونية: أسَّسها في مصر أحمد بن طولون، وحكمت ما بين: 425 ـ 292 هـ = 868 ـ 905م.

3 - دراسات في تاريخ المماليك، علي إبراهيم حسن، 22.

السلاجقة اعتقادهم بأنّه لا يُمكن للفُرْس ولا للعرب أن يُخلصوا في خدمة الأتراك، فاعتمدوا على وفاء المماليك، الذين تربّوا ونشؤوا عندهم[1]. فمع أن الأيُّوبيّيّن مُقاتلين أكراداً، كان من المُمكن أن يعتمدوا على بني جنسهم، لكنّهم اعتمدوا كذلك على التُّركمان المُتواجدين بكثرة في الجيش مُنْذُ أيّام الدولة السلجوقية والدولة الزنكية، كما أنّهم بالغوا في شراء المماليك الأتراك واقتنائهم، وكوّنوا منهم فرَقاً عسكريّة، وارتقى منهم لمناصب القيادة والإمارة كُلُّ مَنْ له أهليّة، أو شُجاعة.

ويُفسِّر ابن خلدون سبب اعتماد الدُّول على المماليك، ويعدّهم نعمة ساقها الله لإنقاذ الدِّين والدولة، فيقول: "حتّى إذا استغرقت الدولة في الحضارة والترف، ولبست أثواب البلاء والعجز، ... بما أخذ أهلها عند الاستغراق في التنعُّم والتشاغل باللّذّات.. من تكاسل الهمَم عن المناصرة .. فكان من لُطف الله ـ سُبحانه ـ أنْ تدارك الإيمان... بأنْ بعث لهم من هذه الطائفة التُّركيّة.. أُمراء حامية"[2]. فالمماليك ـ برأي ابن خلدون، المُؤرِّخ وواضع علم العمران البشري ـ هُم تلبية لحاجة ماسّة في الدولة، وتعويض لنقص خطير في المُجتمع. ثُمّ يُعطي ابن خلدون رأيه في نظام الرقيق الإسلامي ومُعاملة الرقيق، فيقول: "يُجلبون من دار الحَرْب إلى دار الإسلام، في مقادة الرّقّ الذي يكمن اللُّطفُ في طيّه... ثُمّ يخرج بهم التُّجّار إلى مصر أرسالاً كالقطعان، فيستعرضهم أهل الملك، ويتنافسون في أثمانهم... لا لقصد الاستعباد، إنّما هُو إكثاف للعصبية.... يُنزلونهم في غُرف الملك، ويأخذونهم بالتربية، ثُمّ يعرضونهم على الرمي والثقافة، وركض الخيل والمطاعنة، حتّى تشتدّ منهم السواعد. فإن بلغوا إلى هذا الحَدّ، ضاعفوا أرزاقهم، ودرجوهم في مراتب الدولة، والدولة ترف أغصانها من نضرة الشباب"[3].

إن ما يتحدَّث عنه ابن خلدون لا يدخل تحت وصف الرِّقِّ إلَّا من باب التسمية، وكما قال ليس هُو باستعباد أبداً، بل هُو تبَنٍّ، طالما القصد منه "إكثاف العصبية". وهُو تربية في أعلى المدارس العسكريّة والإدارية، تُؤهّلهم لشغل المناصب في الدولة، حتّى قيادة الجيش والوزارة، بل وحتّى الملك والسّلطنة فيما بعد.

1 - في تاريخ الأيُّوبيّيّن، أحمد العبادي، 35.

2 - العبر، ابن خلدون، 5/ 441.

3 - العبر، ابن خلدون، 5/ 441.

المماليك الأتراك:

كانت دار الحَرْب ـ الدُّول غير المُسلمة ـ هي مصدر الرقيق إلى دار الإسلام، ومع تنوُّع مصادر الرقيق الذي كان يدخل إلى الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة من بلاد الصقالبة ـ من صقلية وجزر المُتوسِّط وجنوب إيطالية وفرنسا ـ، والروم ـ من يونان آسية الصُّغْرَى والبلقان وجزرها ـ، والبلغار ـ من السلاف ـ، والزنوج ـ من أفريقية ـ، وغيرها، فإن الجنس التركي كان هُو المصدر الأكثر دفقاً للرقيق إلى الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة، وكانوا خاصَّة من قبائل الأتراك الوثنية التي كانت ماتزال تتنقل في أواسط أسيا.

وبدأ بروز العُنصُر التركي في الدولة العبَّاسيَّة إثر استقدام المعتصم للأتراك، وإكثاره منهم حتَّى بنى لهم مدينة خاصَّة هي سامراء، وكان اعتماده عليهم لإبعاد العَرَب والفُرْس، الذين لم يعودوا محلَّ ثقة لدى خُلفاء بني العبَّاس، حتَّى سيطر المماليك الأتراك على الدولة العبَّاسيَّة، وتلاعبوا بخلفائها، واستقدموا الآلاف من بني جنسهم، إلى أن كوَّنوا دولتهم السلجوقية التُّركيَّة، ولم يتركوا للخُلفاء إلَّا الاسم. وبعد انقسام الدولة السلجوقية وانهيارها وقيام الدولة الخَوَارزميَّة ظهر التَّتار، وتحوَّلت شُعُوب وقبائل تركية بمجموعها إلى أسرى، مثل الخطا، والخَوَارزميَّة، والقفجاق، وغيرهم، "فبيعت ذراريهم، وجلبهم التُّجَّار إلى الآفاق، فسيق منهم إلى ديار مصر والشَّام في آخر الدولة الأيُّوبيَّة جُمُوع من الشُّبَّان، وأواسط الفتيان، فاشتراهم مُلُوك بني أيُّوب بأنفس الأثمان، ليتجمَّلوا بهم في الموكب، ويعتضدوا بهم في الكتائب"[1].

ومُنذُ بدايات الدولة الأيُّوبيَّة اهتمَّ مُلُوكها بشراء المماليك، والاختصاص بالنابه والقوي منهم، فبعد موت أسد الدِّين شيركوه ظهرت مماليكه ـ الأَسَديَّة ـ على الساحة، وكذلك ـ الصَّلاحيَّة ـ مماليك النَّاصر صلاح الدِّين. وكان الصراع بين الأَسَديَّة والصلاحية قد امتدَّ حتَّى على منصب السَّلطنة الأيُّوبيَّة، فتأييد فئة منهم أو عدمه هُو الذي يُقرِّر مَنْ سيكون الملك هُنا، أو السُّلطان هُناك. وقد تابع العادلُ سياسةَ أخيه النَّاصر صلاح الدِّين بالاستكثار من المماليك، وتسليمهم أهمّ المناصب، وكذلك تبعه أبناؤه الكامل والأشرف والمُعظَّم[2]. ولمَّا استتبَّ أمر السَّلطنة للملك الصَّالح أيُّوب

---

1 - زبدة الفكرة، الدَّوادَار، 2.

2 - زبدة الفكرة، الدَّوادَار، 3، والعبر، ابن خلدون، 5/ 442.

"استكثرَ منهم، وبذل فيهم الأموال العظيمة، واعتمد عليهم لما جرَّب من نُصحهم وثباتهم حين أسلمه بنو جنسه"[1].

إن نظرة سريعة إلى تركيبة الدولة الأيُّوبيَّة العِرْقية - رُبَّما - تُوضِّح لنا أسباب هذا التّوجُّه نحو اقتناء المماليك الأتراك. فمع أن الدولة الأيُّوبيَّة كُردية بمُلُوكها، وعدد من أُمرائها وقادتها، فإن أيّاً من مُلُوكها لم يتصرَّف على أساس عِرْقي أبداً، بل كُلُّ الوقائع تثبت العكس، فهم لم ينفصلوا عن الأتراك والتُّركمان، الذين شكَّلوا العديد الأكبر من أُمراء الدولة وجُنُود وقادة الجيش، ولم يتكتَّل الأكراد عِرْقياً في مُواجهة أيِّ حادثة، حتَّى من الحوادث التي عصفت بدولتهم، بل كانوا مُنقسمين على الدوام، حتَّى إنَّنا بعد عهد السُّلطان الكامل، لا نُلاحظ لهم أيَّ وُجُود عسكري، أو سياسي، باستثناء وُجُود الأُسرة الحاكمة، والتي يُمكن أن نقول عنها في هذه المرحلة إنَّها ذات أُصُول كُردية، وهي مُنقسمة مُتصارعة باستمرار على السُّلطة. ورُبَّما كان توقُّف هجرة الأكراد نحو بلاد الشّام وتقلُّص هجرة التُّركمان بشكل كبير إليها، هُو ما دفع مُلُوك الأيُّوبيَّة نحو التعويض بواسطة شراء المماليك الأتراك[2].

وكان التقسيم الغالب لفِرَق المماليك العسكريَّة في الدولة وُفقاً لمالكهم، فكانت هُناك:

1 - المماليك السُّلطانية: أو الخاصكية، وهم مماليك السُّلطان القائم في الحُكْم، فهُو أُستاذهم ومُربِّيهم، فيُلازمونه، ويحمونه، ولهم - عادةً - أفضل الرواتب والإقطاعات، ويُرشَّحون للإمارات والإدارات، فهم محلّ ثقة السُّلطان المطلقة.

2 - القرانصة: وهم مماليك السلاطين السابقين، ولهم ترتيبهم في ديوان الجيش، ورواتبهم.

3 - مماليك الأُمراء: حيثُ كان لكُلِّ أمير فرقته العسكريَّة الخاصَّة من المماليك وُفقاً لراتبه، أو حجم إقطاعه.

4 - أجناد الحلقة: وكان جُزء كبير منهم من المماليك، يُسجِّلون في ديوانها، ويتقاضون منه الرواتب، وهم مماليك لمُلُوك وأُمراء سابقين، أو مُتوفِّين، احترفوا الجُندية[3].

1 - زبدة الفكرة، الدَّوادار، 3.

2 - راجِعْ: مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 3 / 405.

3 - إن مُعظم معلوماتنا عن تنظيم المماليك الإداري والعسكري في العصر الأيُّوبي تعود للعصر المملوكي، مع أنَّنا نعتقد أنَّها اختلفت فيه عن العصر الأيُّوبي اختلافاً بيِّناً.

الصَّالح أيُّوب وفرقة المماليك البَحْرِيَّة:

جرى السُّلطان الكامل على سُنَّة والده السُّلطان العادل، وقام بتسمية ابنه الأكبر الصَّالح أيُّوب وَليّاً لعهده، وتركه نائباً عنه بمصر، وتوجَّه نحو بلاده في الجزيرة[1]، عندها؛ ظنَّ الصَّالح أيُّوب أن الفُرصة قد جاءته تسعى، وأن عليه أن يُوطِّد مُلكه في مصر، فالكامل قد لا يعود إليها لسبب من الأسباب. فكان أوَّل ما فعله أن اشترى ألف مملوك، فأصبح القُوَّة الكُبْرَى في مصر بغياب والده، ممَّا دفع فخر الدِّين بن الشَّيخ الذي رتَّبه الكامل مع ولده الصَّالح "للخوف على نفسه، ومضى إلى خدمة الكامل"[2]، وعندما وصلت هذه الأخبار مسامع السُّلطان الكامل عام **626 هـ 1229**م عاد بسُرعة نحو مصر، وأبعدَ ابنَهُ الصَّالح نحو الشَّرق، وولَّى عهده إلى ابنه الآخر العادل[3]. وهُنا؛ نُلاحظ توجُّهاً مُبكِّراً للناصر أيُّوب لاقتناء أعداد كبيرة من المماليك، والاعتماد عليهم. وعندما توصَّل الصَّالح أيُّوب إلى السَّلطنة في مصر والشَّام، كانت هُناك عدَّة طوائف من المماليك كان بإمكانه الاعتماد عليها، وخاصَّة أن منها مَنْ كان سبب مُلكه، فقد قام المماليك الأشرفية[4] عام **637 هـ 1239**م، بالقبض على الملك العادل بن الكامل، وسجنوه، واستدعوا الصَّالح أيُّوب لملك مصر[5]. ولكنَّنا نجد أن الصَّالح أيُّوب قد نظر للعملية على أنَّها عملية غدر من المُمكن أنْ تتكرَّر ضدَّه، فقام بتصفية طوائف المماليك السابقة، ففي عام **638 هـ 1240**م، قبض على زعماء الأشرفية، وصفَّى جماعتهم، "ونادى مَنْ أخفى أحداً من الأشرفية نُهب ماله، وأُودعوا السُّجُون"[6]، وكذلك فعل بالأمراء الكاملية[7]. "فقد تحقَّق أنَّه لا ينتظم مُلكه إلَّا بالراحة منهم، والاستبدال بهم"[8]، وأخذ بشراء المماليك، "فاشترى من المماليك التُّرك ما لم يشتر أحد من المُلُوك"[9]، حتَّى صاروا مُعظم عسكره[10]، وبالغ في

---

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 365، وأخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 26.
2 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 26.
3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 365.
4 - هُم من مماليك الملك الأشرف بن العادل.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 166.
6 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 405.
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 274، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 405.
8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 274.
9 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 370.
10 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 331.

ذلك[1]، ومكّنه القضاء على الأشرفية والكاملية وخدم القصر المُتحكِّمين في الدولة من "تقديم مماليكه، مجازاة لهم على ثباتهم في خدمته، ولزومهم حين فارقه الناس"[2]، فقد تخلّى عنه القادة والأُمراء والأكراد، وحتّى حاشيته، والتحقوا بالصالح إسماعيل عندما استولى على دمشق عام 637 هـ 1240م، مستغلاً غياب أيّوب عنها[3]. وعندما قبض الملك النّاصر داود على الصَّالح أيّوب بعد أَخذ دمشق منه، سجنه في قلعة الكَرَك، "فأقام مماليكه فيها حتّى خلص من سجنه، فاجتمعوا عليه، وقد عظمت مكانتهم عنده، وكان من أمره ما كان حتّى ملك مصر، فرعى لهم ثباتهم معه حين تفرَّق عنه الأكراد"[4]، "فأمرهم واحداً بعد واحد، وكُلّما قطع خبز أمير أعطاه لمملوك من مماليكه، وقدَّمه، حتّى صار أكثر الأُمراء من مماليكه لاعتماده عليهم، وثقته بهم"[5]. واستخدم الصَّالح أيّوب مماليكه حرساً ملكياً لأمنه الخاصّ، "فقد رتّب جماعة من المماليك التُّرك حول دهليزه"[6]، "وذلك لكثرة ما جرَّب من غدر الأكراد، والخَوَارزميَّة، وغيرهم"[7]. ولمَّا اجتمع للصَّالح أيّوب من المماليك ما لم يجتمع لأحد من قبله من المُلوك "حتّى عاد أكثر جيشه مماليكه"[8]، شرع في بناء قلعة على جزيرة الروضة في بحر النيل، وكانت مُتنزَّهاً لوالده السُّلطان الكامل، وأتمّها في ثلاث سنين، وانتقل ليسكن بها[9]، ونقل معه مماليكه، وأسكنهم بها على طبقاتهم. فأُطلق عليهم اسم البَحْريَّة نسبة لسكنهم في بحر النيل. ويُقدِّر المقريزي أنّهم كانوا دُون الألف مملوك[10].

وفي الحقيقة؛ لا نستطيع أن نعدَّ أن هُناك سبباً واحداً أو حادثة مُعيَّنة هي التي دفعت الصَّالح أيّوب نحو جمع أعداد كبيرة من المماليك، فقبل أن يخوض أيّ تجربة سياسيَّة أو عسكريَّة نجد أنّه

---

1 - العبر، ابن خلدون 5/ 442.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5 / 277.
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 173 ـ 175.
4 - الخطط والآثار، المقريزي، 3 / 90.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 277.
6 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 179.
7 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7 / 370.
8 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 370.
9 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 278.
10 - الخطط والآثار، المقريزي، 3 / 90.

بمُجرَّد تولِّي نيابة مصر عن أبيه بدأ بشراء أعداد كبيرة من المماليك[1]، وعندما كان نائباً في الجزيرة اصطنع وحالف فرقة الخَوَارزميَّة، وخاضوا معه كُلَّ حُرُوبه، حتَّى تحققت سلطنته في مصر والشَّام[2].

إذنْ؛ نستطيع القول إن الصَّالح أيُّوب ـ مُنْذُ البداية ـ كانت لديه دوافعه وأسبابه حول اقتناء المماليك، والإكثار منهم، والاعتماد عليهم، ويبدو أنَّه كان يمتلك نظريَّته الخاصَّة حول الاستفادة منهم في مشاريعه السِّياسيَّة والعسكريَّة، ورُبَّما كان أساس تلك النظرية هُو قناعته المُبكِّرة بفساد الجهازَيْن السِّياسي والعسكري ورجالها في دولة أبيه، ثُمَّ تعزَّزت هذه القناعة بتخلِّي أعوانه عنه بعد أَخْذ دمشق منه، وأكَّدها القبض على أخيه الملك العادل من قبَل حاشيته وحُماته، وإنْ كان ذلك لمصلحته، لكنَّه جعله يشعر بخوف حقيقي من أن تتكرَّر العملية معه، فانتهى به الأمر إلى تسليم مماليكه مُعظم مُرافق الدولة وقيادات الجيش[3]. وهُنا؛ نجد أن ذلك يجعلنا نستحضر دوافع الخليفة العبَّاسي المعتصم لجَمْع المماليك الأتراك، وتمكينهم من التحكُّم بالدولة، ولم يكن في سلطنة الصَّالح أيُّوب شاعراً كدعبل الخزاعي الذي هجا المعتصم بقوله:

لقد ضاع أمر الناس حيثُ يسوسهم ... وصيف وأشناس، وقد عظم الخطب

وكلّ تركي عليه مهانة ... فأنت له أمّ، وأنت له أب[4]

ولكنْ؛ بالتَّأكيد، كان شعور الناس في القاهرة أيَّام الصَّالح أيُّوب كشعور الناس في بغداد زمن المعتصم؛ حيثُ تلقَّوا من أذى المماليك الأتراك الشيءَ الكثير، فضجُّوا، واحتجُّوا، فبنى المعتصم لمماليكه الأتراك مدينة سامراء، ونقلهم إليها5، وللأسباب نفسها، بنى الصَّالح أيُّوبُ قلعةَ الروضة، وأسكن مماليكَهُ الأتراكَ بها، فكانت كسامراء مدينة عسكريَّة.

---

1 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 26.
2 - راجعْ: العلاقات مع فرقة الخَوَارزميَّة في هذا الكتاب.
3 - راجعْ كتاب: قيام دولة المماليك الأُولى في مصر والشَّام، أحمد مُختار العبادي، 94.
4 - تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 310.
5 - تاريخ الأُمم والمُلُوك، الطبري، 9/ 18، وتاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 311.

تُوفِّي الصَّالح أيُّوب عام 647 هـ 1207م، في ظُرُوف سياسيَّة وعسكريَّة غاية في الخُطُورة، فالفرنج يحتلُّون دمياط ثغر الديار المصريَّة، ويضغطون بقُوَّة عسكريَّة كبيرة تجاه القاهرة، لكنَّ الأمل كان بعدد من الرجال مثل فخر الدِّين بن الشَّيخ، الذي تولَّى قيادة الجيش، وابن أبي علي نائب القاهرة، وقُوَّة عسكريَّة مُتأجِّجة لم تُختبَر بعدُ في قتال حقيقي؛ هي مجموعة المماليك البَحْريَّة.

المماليك البَحْريَّة في معركة المنصُورة:

شكَّلت هذه المعركة الحَدَّ الفاصلَ بين الهزيمة والنصر للمُسلمين في حربهم ضدَّ الهُجُوم الفرنجي على مصر، وكان أبطالها ـ بالفعل ـ المماليكَ البَحْريَّة، مماليكَ الصَّالح أيُّوب. فقد هاجم الفرنجُ مُعسكرَ المُسلمين في بلدة المنصُورة، "ولم يشعر المُسلمون المُقيمون بالخيام إلَّا والفرنج معهم، وكبسوا عليهم، وتفرَّق المُسلمون، وكادت تكون كسرة... ثُمَّ أغاث اللهُ المُسلمين بطائفة من المماليك الصالحية المعروفين بالبَحْريَّة... وحملوا على الفرنج حملة مُنكرة، فبدَّدوا شملهم"[1]. ورُبَّما كان استشهاد قائد الجيش فخر الدِّين بن الشَّيخ في تلك المعركة، قد أفسح المجال لتلمع أسماء قادة جُدُد من مُقدَّمي المماليك البَحْريَّة، فقد برز اسم بيبرس البندقداري، الذي قاد الهُجُوم المُعاكس ضدَّ الفرنج، وتسبَّب بنكبتهم الكُبْرَى في المنصُورة.

إن نصر معركة المنصُورة الذي حقَّقه المماليك البَحْريَّة سيكون له دور كبير في شعورهم بأنَّهم قُوَّة كُبْرَى تُسيطر على الجيش بكامله، وأن دورهم قد حان ليُدلوا بدلوهم في تقرير مصير السَّلطنة والوزارة، بعد موت السُّلطان، واستشهاد قائد الجيش، وتولِّيهم إدارة دفَّة المعركة مع الفرنج.

إن قُوَّة المماليك البَحْريَّة وانتصاراتهم تُعيدنا ـ مرَّة أُخرى ـ إلى مُقارنتهم ببني جنسهم مماليك المعتصم، الذين حقَّقوا له انتصارات عظيمة، وجعلوه يُفكِّر بتحقيق ما عجز عنه أسلافه من خُلفاء بني العبَّاس. فقد قام المعتصم مع مماليكه الأتراك بغزو الرُّوم، وأنكى بهم "نكاية عظيمة لم يُسمَع بمثلها لخليفة"، كذلك فكَّر بالسَّيْر إلى الأندلس لاسترجاعها من الأمويين[2].

1 - كنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 376.
2 - تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 223.

المبحث الثّاني

المماليك وآخر سلاطين الأيُّوبيَّة في مصر

تُوفِّي الصَّالح أيُّوب والسَّلطنة تمرُّ بمحنة قاسية، فالفرنج ـ بعد احتلالهم لـدمياط ـ يضغطون على قُوّات الصَّالح، وهم مُصمِّمون على الزحف نحو القاهرة. وفي هـذه الأوقـات العصيبة تكـون البلاد والجيش بحاجة ماسَّة إلى زعيم قوي الشخصية، مهاب الجانب، بقدر ما هُـو محبـوب. ومـع أن الصَّالح قد طال مرضه، ولابُدَّ أنَّه توقَّع الموت، فلم يُوصِ بخليفة له، ويبدو أن ابنـه الوحيـد المُعظَّـم تُورانشاه[1] كان لا يتمتَّع بثقته، بل رُبَّما كان على غاية الاستياء منه، فتركه شبه مَنْفي في حـصن كيفـا، وكأنَّه يعيد ما فعله الكامل معه بنفيه إلى بلاد الشَّرْق. أمَّا بقيَّة أهله من آل أيُّوب؛ فلم يُجرِّب مـنهم إلَّا الإساءة والغدر، وخاصَّة ما جرى له منهم في أَخْذ دمشق منه، وفي سجنه في الكَـرَك. فعنـدما أحـسَّ أيُّوب بدنو خطر الموت منه، عند اضطراره للسفر مريضاً إلى الشَّام عام **645** هـ **1247**م، ترك وصية من أغرب الوصايا، فقد استدعى حُسام الدِّين بن أبي علي نائبه في القـاهرة، وقـال لـه: "إني مـسافر، وأخاف أن يعرض لي موت، وأخي العادل بقلعة مصر، فيأخذ البلاد، فـإنْ حـدث لي في سـفري هـذا مرض، فأعدمه، وولدي تُورانشاه لا يصلح للمُلك، فإنْ بلغَكَ مـوتي، فـلا تُـسلِّم الـبلاد لأحـد مـن أهلي، بل سلمها إلى الخليفة المُستعصم"[2]. إنَّها وصية انتقام من كُلِّ أهله، مـن أخيـه العـادل لقتلـه، حتَّى لا يتمتَّع بالحياة، أو بالحُكْم من بعده، ومن ابنه، ومن أهله، ونستطيع أن نُلاحظ هُنا بأنَّ أيُّـوب لم يُدرك أنَّه زرع قُوَّة جديدة في الدولة هي التي ستُقرِّر مَنْ سيخلفه، ولن تلتفت إلى وصيَّته أبداً، وكأنَّـه لا يعرف أن الخليفة المُستعصم أضعف من أن يتسلَّم إحدى قـرى العـراق مـن أمـير صـغير، فكيـف يتسلَّم مصر على ما فيها من القوى والطامعين؟! هذا؛ إنْ كانت هذه الوصية حقيقيَّة.

ولكن المؤكَّد في الأمر أن الصَّالح أيُّوب لم يُؤهِّل خليفة له يتولَّى السَّلطنة مـن بعـده كـما فعـل السُّلطان العادل بأبنائه، وكما فعل السُّلطان الكامل بالعادل الثَّاني.

---

1 - تُورانشاه: اسم تركي من مقطعَيْن، توران: الشَّرق، وشاه: ملك، (شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 50).

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 375.

قبيل وفاة الصَّالح أيُّوب كانت القوى الظاهرة في سلطنته مُوزَّعة ما بين ابن أبي علي نائب القاهرة، وفخر الدِّين بن الشَّيخ قائد العَسْكَر، ولكنْ؛ بعد موته، ظهرت قوى جديدة على الساحة، فَجَارِيَتُهُ السابقة، التي أصبحت زوجتَهُ، ثُمَّ أرملته، شَجَرُ الدُّرِّ، دخلت ـ بقُوَّة ـ حلبة الصراع على السُّلطة، مدعومة بقُوَّة تُطلُّ على الساحة لأوَّل مرَّة هي قُوَّة المماليك البَحْريَّة، وشَجَر الدُّرِّ تُعدُّ منهم. وكان بديهياً في تلك الظُّرُوف العصيبة للدولة أنَّه ليس من المصلحة إظهار التنافس على الحُكم، فَمَنْ يتصدَّى لهذا الموقع سيكون أوَّل الأهداف لبقية القوى، ومع أنَّه لم يتمّ تداول عَلَني، أو اتِّفاق مُبرَم بين الأطراف، فقد كان هُناك إجماع على استدعاء تُورانشاه، وتوليته السَّلطنة.

تُورانشاه في مصر:

وصل تُورانشاه إلى مصر، ومعه حاشية صغيرة، لم يُحسن انتقاءها أبداً لمُرافقته إلى كرسي السَّلطنة، فهي قد تليق بأمير حصن صغير في أقصى البلاد، لكنَّها غير مُؤهَّلة، وغير قادرة على مُساندة سُلطان دولة كبيرة تمرُّ بظرُوف صعبة جدَّاً[1].

ولمَّا وصل تُورانشاه المُعسكرَ تسلَّم صلاحيات والده كاملة، وإضافة إلى عدم تأهيله، أو خبرته السابقة، كان مُصاباً بمرض عصبي، وتنتابه حرَكَات غير إرادية، "فيتحرَّك كتفه الأيمن مع نصف وجهه، وكثيراً ما يولع بلحيته"[2]، ويبدو أنَّه كان به خفَّة، وعدم تعقُّل، أو قُدرة على إدراك أغوار السياسة، فقد جاء برغبة الجميع كحَلٍّ مُؤقَّت للموقف المُتأزِّم، وجاء لا يملك إلَّا حقَّ الوراثة، مُقابل شخصيَّات تملك حقَّ الحُكم الحقيقي للدولة بقُوَّة الأمر الواقع، فلم يُدرك كُلَّ هذا.

ومع أن الفرنج قد تكفَّلوا بإزاحة أكبر العوائق أمام حُكم تُورانشاه بقَتْلهم لفخر الدِّين بن الشَّيخ، لكنْ؛ بقيت أمامه عقبات لا يُستهان بها، وهي تتمثَّل بشَجَر الدُّرِّ زوج أبيه، وخلفها المماليك الصالحية، وكأن تُورانشاه قد شعر بالخطر الداهم من قبَل شَجَر الدُّرِّ والمماليك بعد وُصوله مُباشرة، فجعلهم همَّه واهتمامه، وأخذ يُهدِّدهم، ويتوعَّدهم[3]، لكنَّه ـ على أيِّ حال ـ لم يُقدِّر هذا الخطرَ حقَّ قَدْره.

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3 / 180.

2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 427.

3 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 38، وعقد الجمان، العيني، 1 / 23.

وكما اتَّفق الجميع على استدعاء تُورانشاه لتوليته السَّلطنة، اتَّفق الجميع ـ بعد شهر واحد ـ على قتله، والتخلُّص منه[1]، وقد نُؤيِّد ابن بيبرس الدَّوادَار بقوله: " أساء تُورانشاه مع مماليك والده التدبير، فكان كالباحث عن حتفه بظلفه"، ولكنَّنا لا نُؤيِّده عندما يُتابع فيقول: "ولعلَّه ـ لو أنصفهم ـ لم تمتدّ أيدي النوائب إليه"[2]، فالمماليك البَحْريَّة، الطائفة العسكريَّة الأكثر شباباً، والمُنظَّمة بشكل جيِّد جدّاً، كانوا سيقتلون أيَّ شخص يستلم السُّلطة، فقد شعر مُقدَّمو المماليك بقُدرتهم العسكريَّة بعد اختبار المنصُورة، وبقُدرتهم على قيادة الجيش والبلاد، فاعتقدوا بأحقِّيَّتهم بالحُكم، وأهليَّتهم له، فبيبرس البندقداري كان قائد قُوَّة الفُرسان، وهُو صاحب مأثرة المنصُورة، وأقطاي قائد الجيش العامّ، الذي تصدَّى للقُوَّات الرئيسية للملك لويس، وألحق به خسائر فادحة بعد معركة المنصُورة، وكُلُّ ذلك بعد وفاة أيُّوب، وقبيل وُصُول ابنه تُورانشاه. إن ما أظهره المماليك البَحْريَّة من قُوَّة وجَلَد في هذه المعارك دفعت المُؤرِّخ ابن واصل ليُلقِّبهم بداوية الإسلام، تشبيهاً بفرقة الدواية، أشرس الفرَق المُقاتلة لفرنج الساحل الشَّامي.

كان إلحاح تُورانشاه على شَجَر الدُّرِّ، ومُطالبتها بأموال أبيه وجواهره، فاتحة الشَّرِّ بالنِّسبَة إليه، فهذا العمل ضدَّ أرملة السُّلطان، مهما كانت دوافعه، قد أساء كثيراً لتُورانشاه، وألَّب الناس ضدَّه، وخاصَّة المماليك الصالحية، وأدْخَلَ سلطنة تُورانشاه في حيِّز الخطر الحقيقي. ولكنْ؛ هل كانت مُطالبته بالمال والمجوهرات لحاجة فعليَّة؛ لدعم الأعمال الحَرْبيَّة مثلاً؟! أم أنَّها كانت لمُجرَّد مُضايقة شَجَر الدُّرِّ؟! ومهما كانت الأسباب، فقد أدركت جدِّيَّة الأمر، ممَّا جعلها تهرب منه إلى القُدْس[3]. رُبَّما كان تُورانشاه يحتاج ـ فعلاً ـ للمال الذي احتجنته شَجَر الدُّرِّ، فقد كان من غير المعقول أن يتجنَّى عليها، وخاصَّة أنَّها الساعية الكُبْرَى لاستقدامه من الشَّرْق، وتوليته.

---

1 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6 / 370.

2 - زبدة الفكرة، الدَّوادَار، 3.

3 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6 / 370.

والمُهمُّ في الأمر أن عداء المماليك لتُورانشاه لم يكن بسبب شَجَر الدُّرِّ فقط، فمن المعروف أن ولاء المماليك ـ غالباً ـ ينتقل بعد وفاة أُستاذهم إلى ابنه، وهذا ما بدا للوهلة الأُولى، فقد ذهب أقطاي الأكبر[1] بنفسه إلى حصن كيفا لاستقدام تُورانشاه[2]، وفي الطريق؛ وعده تُورانشاه بأنْ يُقطعه الإسكندرية، ولمَّا لم يُنفِّذ ذلك، ثار غَضَبُ أقطاي عليه، فأخذ تُورانشاه يُهدِّده، ويتوعَّده بحَبْسه في الجبِّ، فكتم له الشَّرَّ[3]. وإذا أردنا أن نفتِّش على عذر لتُورانشاه وعدم تنفيذ وعده لأقطاي، فرُبَّما نجد ضيق الوقت، وانشغاله بحرب الفرنج، ورُبَّما كانت البداية إلحاح أقطاي، وتجاهل تُورانشاه.

ولم يكتف تُورانشاه بإثارة عداء أقطاي، بل قام بعمل أخرق آخر؛ حيثُ عزل ابن أبي علي عن نيابة القاهرة[4]، فَفَقَدَ بذلك الشخص الوحيد الذي كان من المُمكن أن يثق به، والثقل المُرجّح الذي كان قد يُؤثِّر كثيراً في صراعه القادم مع مماليك أبيه، الذين قرَّروا الإسراع في قَتْله قبل خُرُوج الفرنج من دمياط، فقد قدَّر المماليك أنَّه لو تمَّ النصر، وانتهت العمليات العسكريَّة، فيُمكن لتُورانشاه عندها التمكُّن منهم، ورُبَّما القضاء عليهم.

فلم يتقرَّب تُورانشاه لمماليك أبيه، ولم يُكرمهم كما كانوا يتوقَّعون منه بعد مُساعدتهم له في تولِّي السَّلطنة، وبعد تحقيقهم النصر على الفرنج، بل على العكس، قرَّب حاشيته التي رافقته من حصن كيفا، وولاَّهم المناصب، وعزل مماليك أبيه، ثُمَّ أخذ يتهدَّدهم، فاتَّفقوا على قَتْله[5]. لكنْ؛ ألم يشعر تُورانشاه ـ بعد كُلِّ ما فعله مع شَجَر الدُّرِّ والمماليك ـ بالخطر من ناحيتهم؟ إن عدم احترازه يدلُّ على عدم شعوره بالخطر، فلو كان يُقدِّر خطر المماليك حقَّ قَدْره، لاحترز منهم، وخاصَّة مع وُجُود طوائف عسكريَّة أُخرى كان بإمكانه استمالتهم، لكنَّه لم يفعل. كما كان بإمكانه أن يعيد خطوة جَدِّه

---

1 - أقطاي الجمدار الصالحي، كبير المماليك الصالحية ومُقدَّمهم (دُول الإسلام الشريفة البهية، القدسي، 25)، ـ ترجمته في: ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 188، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 190، والوافي بالوفيات، الصفدي، 9 / 317، وكنز الدُّرر، ابن آيبك، 8 / 24، وشذرات الذهب، ابن العماد، 5 / 255.

2 - الإعلام والتبيين، الحريري، 97.

3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 185.

4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 185، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 427.

5 - أخبار الأيُّوبيِّيْن، ابن العميد، 38 وعقد الجمان، العيني، 1 / 23

الكامل بالهرب من المُعسكر، وإفشال مُؤامرة المماليك، كما أفشل جَدُّه مُؤامرةَ ابـن المـشطوب، ولكنَّـه ـ أيضاً ـ لم يفعل، حتَّى هاجمه المماليك، وقتلوه، دُون أن تمتدَّ يد واحدة لمُساعدته.

ومرَّة أُخرى؛ يُذكِّرنا قتل مماليك الصَّالح أيُّوب الأتراك لابنه تُورانشاه بقتل مماليـك المعتـصم الأتراك لابنه المُتوكِّل سنة 247 هـ-861 م[1]، لكنَّ العمليتَيْن المُتشابهتَيْن ستكون لهما نتـائج مُختلفـة، فالمماليك الأتراك في بغداد، مع أنَّهم سيطروا ـ تماماً ـ على الحُكْم، لكنَّهم فضَّلوا القيام به خلف واجهة الخُلفاء، فتلاعبوا بهم، يُقيمُونهم في الخلافة، ويعزلونهم، ثُمَّ يقتلونهم، ويسملونهم كما يُريدون.

أمَّا في مصر، فبعد قتلهم لابن أُستاذهم؛ قـاموا بـانقلاب عـسكري كامـل، وتولَّـوا الـسُّلطة مُباشرة عبر تقلُّد أحد قادتهم لمنصب السُّلطان، وأسَّسوا ـ بذلك ـ دولة جديدة، ونظاماً جديداً.

1 - تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 323، وتاريخ الأُمم والمُلُوك، الطبري، 9 / 227.

المبحث الثَّالث

الانقلاب العسكري للمماليك وتوليّهم السُّلطة

كان فخر الدِّين بن الشَّيخ يُدرك ـ تماماً ـ أن أيَّام السُّلطان أيُّوب معدودة بسبب مرضه[1]، وأنَّه لا خليفة مُحتمَل له من أهل بيته، وهذا ما جعله يُفكِّر بالوُصُول إلى السُّلطة، إضافة إلى تمكُّنه من السيطرة الكاملة على مُعظم فرَق الجيش، واستمالته لشَجَر الدُّرِّ جارية السُّلطان وزوجته.

أمَّا مَنْ يقفون ضدَّ مُخطَّطاته؛ فقد كان أبرزهم ابن أبي علي نائب السُّلطان في القاهرة، فقد كان كُلّ منهما يترصَّد الآخر، ويخشى انفراده بالسُّلطة. أمَّا فرقة المماليك البَحْريَّة، وهم حرس السُّلطان وقُوَّاته الخاصَّة؛ فلم يكن من المُمكن التكهُّن بموقفهم بعد وفاة السُّلطان، ولذلك؛ دخل فخر الدِّين في لُعبة استدعاء تُورانشاه من الشَّرق[2]، ليخلف والده، استرضاءً لهم، على أمل أنْ يتمَّ استيلاؤه على السُّلطة مرحلياً. لكنَّ واقعة المنصُورة لم تمهله ليُتمَّ ما دبَّر، ومع ذلك؛ فقد استمرَّت الخُطَّة بدونه، لدُخُول أطراف جديدة فيها، كان أبرزها شَجَر الدُّرِّ، التي تكفَّلت بالغطاء السِّياسي للانقلاب، وقُوَّة المماليك البَحْريَّة، الذين كوَّنوا القُوَّة العسكريَّة له، بواسطتهم مُباشرة، وبواسطة فرَق المماليك الأُخرى، وبقيَّة الجُند عن طريق الاتِّفاق المُباشر معهم، أو عن طريق سكوتهم على ما يجري لعدم اهتمامهم، أو أملاً باستغلال الظُّرُوف الناشئة. فكُلُّ طرف كانت له حساباته الخاصَّة، لكنَّها كُلُّها صبَّتْ ضدَّ مصلحة تُورانشاه، الذي جعل من نفسه هدفاً سهلاً بعدم أهليَّته للقيادة، وعدم تقديره لقُوَّة خصومه، واستهتاره بهم، ولكنْ؛ حتَّى بدُون كُلِّ ذلك، فما كان ليتغيَّر من الأمر شيء، فظُرُوف القتال مع الفرنج وتوزُّع السُّلطات وتشكيلة قوى الجيش القديمة والجديدة كُلُّها كانت تُحتِّم قيام تحرُّك سياسي وعسكري كبير ضدَّ السُّلطة المركزية، وتُشير إلى أنَّه قد حان أوانه، واكتملت أركانه، فهُناك قيَم جديدة، ومفاهيم جديدة، وتكتُّلات وولاءات جديدة، إنَّه انقلاب بكُلِّ نواحي الحياة، حتَّى إنَّه بدا أن كُلَّ التغييرات قد تمَّتْ في الدولة، ولم يبقَ سوى رأس السُّلطة، فلو لم يمت أيُّوب لهبَّتْ العاصفة في وجهه، وكادت أن تهبَّ لولا مرضه الشديد، فواجهها ابنه الذي سرَّع بهبوبها، لعدم

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 439.

2 - تُحفة ذوي الألباب، الصفدي، 2/ 146.

درايته بالأوضاع المستجدَّة في مصر، ويتحمَّل والده أيُّوب جُزءاً كبيراً من هذه النِّهايـة المأسـوية التـي تعرَّض لها، فقد تركه منبوذاً في أقصى الشَّرق، بعيداً عن أغوار السياسة ومشاكل السَّلطنة، ورُبَّما لهـذا لم يعهد له بولاية العهد.

اغتيال السُّلطان والاستيلاء على السُّلطة:

لقد قرَّر المماليك البَحْريَّة قَتْلَ ابن أُستاذهم لعدَّة أسباب، لكنْ؛ كُلّهـا يُمكـن أن لا تُعـبِّر عـن الحقيقة في اتِّخاذهم لهذا القرار، وخاصَّة أنَّهم حُماته وحَرَسُهُ كما هُو مفروض، وهذا أقلّ واجباتهم تجاه ابن أُستاذهم وسُلطانهم. والغريب في الأمر أنَّهم هاجموه عَلَنَاً، وفي دهليزه ومجلسه، فقد دخل بيبرس، الذي ظهر مُؤخَّراً في معركة المنصُورة، مع عدد من البَحْريَّة، وضربه بالسيف، فتلقَّاه تُورانـشاه بيـده، فقطع أصابعه، فارتبكوا، وهربوا[1]. إنَّها رهبة السُّلطان، والغريـب في الأمـر أن يُهـاجَم الـسُّلطان في مُعسكره، وضمن جنده وحُرَّاسه بهذه السُّهُولة، والأغرب من ذلك أن تُورانشاه بعد هرب المُهـاجمين لم يتحـصَّن، ولم يهـرب، ولم يتَّخـذ أيَّ إجـراء، ولكنَّنـا لا نـدري هـل حـاول، ولم يـتمكَّن؟! أم كـان كخروف الأُضحيَّة، الذي يعرف الجميع مصيره، ويوافق الجميع على ذَبْحه؟!.

وعاد إليه البَحْريَّة يقودهم مُقدَّمهم أقطاي، فأجهز عليه من بـدأ بـضربه أوَّلاً، وهُـو بيـبرس، "ضربه البندقداري بالسيف على عاتقه، فوقع قطعتَيْن"[2]، وهُنا؛ نميل لتأكيد رواية جوانفيل الـذي شاهد عملية الاغتيال بنفسه، وقال: إن مَنْ قَتَلَ السُّلطان هُم حَرَسُـهُ الشخـصي، وقـد قُـدِّر عـددهم بخمسمائة فارس[3]، وهذا يُوضِّح الأمر، فلسيطرتهم على مقرِّ القيادة انفردوا بالسُّلطان، وقتلـوه دُون أيِّ مُقاومة. ويُضيف جوانفيل: "إن فارس الدِّين أقطاي شطره بسيفه، واستخرج قلبه من جسده"، وحمله إلى لويس طالباً مكافأته[4]، وغالباً؛ فهذه إحدى مبالغات جوانفيل. والشخص الوحيـد الـذي حاول التدخُّل لحماية تُورانشاه هُو رسول الخليفة نجم الـدِّين البـادرائي[5]، الـذي اسـتفظع أن يُقتَـلَ

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 180، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 364.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 185.
3 - سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 133 ـ 135.
4 - سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 135.
5 - البادرائي: (594هـ ـ 1197م + 655 هـ ـ 1257م)، هُو نجم الدِّين عبد الله أبو مُحمَّد، يُنسَب إلى بادراء من قُرى أصفهان، ترسَّل عن الخليفة مرَّات عدَّة، وولي قضاء العراق في آخر أيَّامه. راجـعْ ترجمتـه في: لـبّ اللبـاب، الـسُّيُوطي، مادَّة: بادراء وطبقات الشافعية، السبكي، 5 / 113.

سُلطان المُسلمين بهذه الطريقة، ويبدو أن صوت البادرائي كان من الضعف؛ بحيثُ أن تهديداً بسيطاً من المماليك البَحْريَّة "بإخراق حُرمة الخلافة "[1] كان كافياً لإسكاته.

وإنْ دلَّ هذا التّصدِّي العنيف لرسول الخليفة على شيء، فهُو يدلُّ على عدم احترام كامل من قبَل المماليك للشرعية، فهُو عدم اعتراف ضمنيّ بها، أو جهل بموقعها، وبما تُمثّله، فلا الشرعية الأيُوبيَّة كان لها قيمة عندهم عندما قتلوا السُّلطان الشرعي، ولا شرعية الخلافة وهي الشرعية الكُبْرَى عندما هدّدوا رسول الخليفة ومُثّله بالقتل، إنَّها رُوح جديدة ومفاهيم جديدة لعصر بدا أنَّه يبدأ بهذه الأحداث الجسام.

نتائج مقتل تُورانشاه في الشَّام:

1 - **في الكَرَك**: كان الملك المُغيث فتح الدِّين عُمر بن الملك العادل بن السُّلطان الكامل مسجوناً في قلعة الشوبك، وكان نائب الكَرَك والشوبك الأمير بدر الدِّين لُؤلُؤ الصوابي الصالحي، فقام النائب بعد مقتل تُورانشاه بإطلاق المُغيث، وسلَّمه قلعتَيْ الكَرَك والشوبك[2]، وكانتا تتبعان لسُلطان مصر.

2 - **في الصبيبة**[3]: استغلَّ الملك السعيد حسن بن عُثمان بن السُّلطان العادل بن أيُّوب[4]، ظُرُوف اختلال السُّلطة بعد مقتل تُورانشاه، وهرب من القاهرة، وعاد إلى الصبيبة سنة **648** هـ وكان قد ملكها بعد موت أخيه أيُّوب بن عُثمان، ثُمَّ تنازل عنها للصَّالح أيُّوب، مُقابل إقطاع في مصر[5].

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 185، - إخراق حرمة الخلافة: المقصود بها خَرْق حُرمة الخلافة من خلال التعدِّي على رسول الخليفة، أو قتله، وليس كما فهمها د. أحمد مُختار العبادي بالدعوة لخلافة أخرى كالمُوحِّدين. (تاريخ الأيُّوبيِّيْن، 94)، ونرجِّح أن هذا شيء بعيد جدّاً عن تفكير المماليك في ذلك الوقت.

2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 182

3 - الصبيبة: حصن بناه الملك العزيز عُثمان بن العادل بن أيُّوب وهُو قلعة بانياس. (ترجمته في: مرآة الزَّمان، ابن الجوزي، 8/ 847 - البداية والنِّهاية، ابن كثير 13/ 137 وشفاء القُلُوب، الحنبلي، 320 والنُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 6/ 281 والدارس، النعيمي، 1/ 549 وشذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 136.

4 - ترجمته في : ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 207، والسُّلوك، المقريزي، 1/ 441، وشفاء القُلُوب، الحنبلي، 360، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 13/ 225، وشذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 292، وترويح القُلُوب، الزبيدي، 71.

5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 182.

3- في دمشق: بعد مقتل تُورانشاه كاتب أُمراء البَحْريَّة في مصر أُمراء دمشق لموافقتهم وأتباعهم[1]، فلم يُجيبوهم[2]، فقد كانت القيمرية[3] أكبر قُوَّة مملوكية عسكريَّة في دمشق، ولم يكتفوا بعدم مُوافقة البَحْريَّة، بل أرسلوا إلى النَّاصر يُوسُف الثَّاني صاحب حلب وحمص يطلبون منه الحُضُور لتسليمه دمشق، وأيَّدهم ـ بذلك ـ جمال الدِّين بن يغمور نائب دمشق، واعتقلوا جماعة من أُمراء البَحْريَّة في دمشق[4]، ويبدو أنَّهم كانوا قلَّة فيها؛ بحيثُ لم يتمكَّنوا من المُقاومة، وتبع ذلك قبض البَحْريَّة على مَنْ كان من القيمرية بمصر.

وإذا حاولنا استقراء أسباب خُرُوج دمشق على بَحْريَّة القاهرة، نجد أن أهمَّ الأسباب هُو التنافر والتحاسد بين طوائف المماليك، وخاصَّة لعلَّة الجنسية، فالبَحْريَّة أتراك، بينما القيمرية أكراد، إضافة إلى أن البَحْريَّة في مصر قُوَّة مُسيطرة بيدها كُلّ المناصب الهامَّة من أيَّام الصَّالح أيُّوب، ويملكون القُوَّة العسكريَّة الأكثر تنظيماً وفعَّالية، بينما تعيش دمشق حالة من توازن قوى بين طوائف عدَّة من المماليك، وغيرهم، فكان من مصلحة أُمراء دمشق استمرار الحُكْم الأيُّوبي، لذلك؛ استدعوا النَّاصر يُوسُفَ من حلب، الذي وجد أن القسم الأوَّل من مشروعه وهُو مُلك الشَّام مُوحَّدة قد تحقَّق بيُسر وسُهُولة، فأخذ يستعدُّ لتحقيق القسم الثَّاني، وهُو ملك مصر، وكان يُدرك مدى المخاطر، والصُّعُوبة في ذلك، ولكنَّه كان مدفوعاً بهاجس إعادة الأمجاد الأيُّوبيَّة، ورُبَّما كان لاسمه تأثير في ذلك، فأخذ يُقلِّد جَدَّه وسميّه السُّلطان صلاح الدِّين، الذي لم يكن يملك من مزاياه إلَّا الاسم، لكنْ؛ ممَّا لا يُنكَر له أنَّه أعاد توحيد الشَّام من جديد.

ورُبَّما للظروف القاسية المُحيطة بالبيت الأيُّوبي التي أخذت تُهدِّده بالزوال، فقد التفَّ بنو أيُّوب جميعاً حول النَّاصر يُوسُف الثَّاني سُلطاناً للبيت، وطالبوا باسمه مُمثِّلاً للشرعية الأيُّوبيَّة بحُكْم مصر، وإقصاء المماليك عنها.

1- ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 185.
2- المُختصر، أبو الفداء، 3/ 182.
3- القيمرية: مماليك أكراد، من قلعة قيمر، وهي بين المَوصل وخِلاط. راجعْ: لبّ اللباب، السُّيُوطي، 112.
4- المُختصر، أبو الفداء، 3/ 183

وكان من جُملة ما شنَّعه الأيُّوبيُّون على المماليك في مصر ضمن حربهم الإعلامية ضدَّهم، أن المماليك قد أطلقوا لويس ملك فرنسا الأسير طمعاً بالفدية[1]، ولكنْ؛ ما لا يُمكن لأحد نُكرانه هُو اتِّفاق المماليك مع لويس بعد إطلاق سراحه لنصرتهم ضدَّ الملك النَّاصر مُقابل تسليمه القُدْس[2].

المرحلة الانتقالية (مرحلة شَجَر الدُّرِّ):

مع أن السُّلطة أصبحت فعليّاً بأيدي المماليك بعد قتلهم لتُورانشاه، ولعدم وُجود مُطالب قوي بالعرش، فقد كانوا في حالة من الإرباك، لأن هذا التحوُّل الحادّ لابُدَّ له من مُبرّرات شرعية، ولابُدَّ له من إخراج قانوني يُراعي المظاهر على الأقلّ، فبرزت شَجَرُ الدُّرِّ زوجة السُّلطان الأيُّوبي المُتوفَّى، وهي أُمّ ابنه خليل الذي مات صغيراً، ومن هُنا؛ استمدَّت شرعيَّتها، فَتَسَمَّتْ والدة خليل، وبه وقَّعت الكُتُبَ[3]، وهي - في الوقت نفسه - جارية من طبقة المماليك، وخاصَّة أنَّها كانت المُدبِّرة لمملكة زوجها، وبالفعل؛ فقد قادت الدولة بكفاءة عالية مُنْذُ موته وحتَّى إعلان وفاته رَسْميّاً[4].

فقرَّر المماليك رَفْعَ شَجَر الدُّرِّ إلى سدَّة السَّلطنة، لتكون الرأس السِّياسي للدولة، لما تحمله من شرعية، ولكونها من المماليك. وقد بدت شرعيَّتها ضعيفة جدّاً خاصَّة كونها امرأة، وتمَّ تفادي الأمر بتعيين عزّ الدِّين آيبك - وهُو من مَقدَّمي البَحْريَّة[5] - قائداً للجيش - مُقدَّم العَسْكَر - على أنْ يتزوَّج بشَجَر الدُّرِّ.

وإذا تساءلنا عن سبب عدم تقدُّم أقطاي كبير البَحْريَّة أو بيبرس بطل المنصُورة، فإن الأحداث القادمة ستحمل الإجابة، وتجعلنا نعتقد أن أقطاي كان يطمح بمنصب السَّلطنة، وقد أصبح - فعلاً - السُّلطان غير المُتوَّج، قبل أن يُقتَلَ غدراً[6]، أمَّا بيبرس البندقداري؛ فلابُدَّ أنَّه كان يُدرك أن دوره لم يحنْ بعد، وأن عليه أن يتعلَّم الكثير قبل أن يصل إلى السَّلطنة، وقد وصلها فعلاً،

---

1 - العُدوان الصليبي، جوزيف نسيم يُوسُف، 3/ 143.
2 - راجعْ نص الاتِّفاقية: العُدوان الصليبي على الشَّام، جوزيف نسيم يُوسُف، 177.
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 182.
4 - دُول الإسلام الشريفة، القدسي، 25.
5 - آيبك: الأمير عزّ الدِّين آيبك الجاشنكير التركماني الصالحي من مُقدَّمي البَحْريَّة، وأوَّل مَنْ تملَّك من الطائفة التُّركيَّة.(زبدة الفكرة، الدَّوادَار، 3، وعقد الجمان، العيني، 34،) - والجاشنكير: هُو الذي يتذوَّق الطعام والشراب قبل السُّلطان، وهُو لفظ فارسي من مقطعَيْن. راجعْ كتاب: صُبح الأعشى، القلقشندي، 5 / 460.
6 - زبدة الفكرة، الدَّوادَار، 10.

وكأنّه كان يُخطِّط للأمر من قبلُ، يقول ابن تغري بردي: "تشوَّف إلى السَّلطنة عدَّة أُمراء، فخيف من شرِّهم، ومال الناس إلى آيبك المذكور، وهُو من أواسط الأُمراء، ولم يكن من أعيانهم . . وقالوا: هذا متى أردنا صرفه أمكننا ذلك لعدم شوكته"[1].

لم يطلْ عهد شَجَر الدُّرِّ أكثر من ثمانين يوماً في دست المملكة، فالاعتراضات على ولاية امرأة للمُسلمين كانت كثيرة، والمشاكل التي تعرَّضت لها الدولة كبيرة، وأعداؤها في الشَّام النَّاصر والمُغيث يستعدُّون أهلها ضدَّ المماليك في مصر، وعلى رأس كُلِّ هؤلاء الخليفة العبَّاسي المُستعصم، الذي اعترض على ولاية امرأة، فاضطرَّ المماليك البَحْريَّة أن يطلبوا من شَجَر الدُّرِّ التنازل عن السَّلطنة إلى زوجها آيبك ليُرضوا الخليفة، وهُو الشرعية الكُبْرَى الضرورية لهم في تلك الظُّرُوف[2].

لقد كانت ولاية شَجَر الدُّرِّ قنطرة عبرت عليها السَّلطنة من بني أيُّوب إلى المماليك، علماً أن هذه العادات لوراثة العرش عبر امرأة لم يعرفها العَرَب المُسلمون، وهُنا؛ يجب أن نُلاحظ أنَّها تمَّتْ وُفقاً لعادات غريبة، رُبَّما تتوافق مع العادات القديمة لشعوب التُّرك، أو أنَّهم اقتبسوها عن الفرنجة، الذين طال الاحتكاك بهم.

ولكنْ؛ حتَّى يتسلَّم آيبك العرش، فمع أنَّه رجل تبقى هُناك مُشكلة، فهُو مملوك، وهذا شيء جديد لم تعتده الناس بعدُ.

---

1 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7 / 4.

2 - بدائع الزهور، ابن إياس، 1/ 278، وراجعْ مناقشة ذلك في: مملكة حلب الأيُّوبيَّة، كمال بدور، 168.

المبحث الرَّابع

الرَّدُّ الأيوُّبي على انقلاب المماليك

استجدَّت أُمُور هامَّة هدَّدت الدولة المملوكية الوليدة، فقد استولى النَّاصر صلاح الدِّين الثَّاني ملك حلب على الشَّام، والتفَّ حوله البيتُ الأيُّـوبي، ورفـض النَّـاصر سياسـةَ الأمـر الواقـع، وأخـذ يُطالب باسم الشرعية بحقِّ البيت الأيُّوبي في مُلك مصر، ممَّا شكَّل خطراً حقيقيّاً على المماليك البَحْريَّة، الذين لجؤوا إلى حيلة قديمة، فقد تنصَّل آيبك من السَّلطنة[1]، ورفعوا لمنصب السَّلطنة صبياً صغيراً من بني أيُّوب[2]، هو مُوسى بن النَّاصر يُوسُف بن أتسز بن الكامل، ولقَّبوه الملك الأشرف، وخطبوا له على المنابر، وسكُّوا العملة باسمه، وعيَّن آيبكُ نفسَهُ أتابكاً له، ومُقدَّماً عـلى العَـسْكَر[3]، ومـا كُـلُّ ذلك إلَّا ليُبطلوا ادِّعاء النَّاصر يُوسُف بحقِّه الشرعي بحُكْم مصر.

ولكن الأُمُور العسكريَّة تعقَّدت، وبدأت الحلقة تـضيق حـول البَحْريَّـة، فقـد تقـدَّم عـسكر النَّاصر يُوسُف من دمشق، واحتلوا غزَّة، الموقع المُتقدِّم لمصر، وبوَّابـة الـشَّام، ففـرَّ مَـنْ كـان بهـا مـن عسكر مصر عائدين، وعـسكروا في الـصالحية[4]، وأعلنـوا طاعـة الملـك المُغيـث صـاحب الكَـرَك، وخطبوا له.

إنَّه دليل واضح على اختلاف طوائف المماليك، واحتجاج على تفرُّد آيبك والبَحْريَّة بالـسُّلطة، وعملياً؛ هُو هُجُوم مُزدوج لبنـي أيُّـوب باتِّجـاه مـصر لطـرد البَحْريَّـة، فطـرف منـه هُجُـوم النَّـاصر العسكري، والطرف الآخر انضمام فرقة من الجيش المصري إلى المُغيث، وهي في قلب مصر.

عندها؛ شعر البَحْريَّة بالخطر يُحدق بهم، فأعلنوا أن البلاد للخليفة المُستعصم، ونـادوا ـ بـذلك ـ في القاهرة وبلاد مصر[5].

---

1 - تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 418.

2 - كان عُمره ستّ سنوات في: السُّلُوك، المقريزي، 1/ 367، ـ وثماني سنوات في: تاريخ الخُلفـاء، الـسُّيُوطي، 418، ـ وعشر سنوات في: النُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 7/ 5.

3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 367، وبدائع الزهور، ابن إياس، 1/ 1/ 287، والمُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 234.

4 - الصالحية: بليدة شرق القاهرة على طريق الشَّام.

5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 183.

إنَّها عودة لوصية الصَّالح أيُّوب تناسوها عندما تمكَّنوا من الأمر، وتذكَّروها عندما كادت الأُمُور تفلت من أيديهم، وسيعودون لنسيانها قريباً، وبالوقت نفسه؛ تحرَّك البَحْريَّة عسكريَّاً، فقد شكَّلوا قُوَّة فُرسان كبيرة بقيادة أقطاي، أَنْهَتْ أمر مُتمرِّدي الصالحية، وطردت قُوَّات النَّاصر من غزَّة[1]، ممَّا أثبت نيَّة البَحْريَّة على المُقاومة، وعدم الاستسلام بسُهُولة.

ولكن انتصار المماليك على حامية غزَّة، واسترداده لها، لم يفتَّ بعضد النَّاصر يُوسُف الثَّاني، فقد حزم أمره، وقرَّر التحرُّك نحو مصر، ويبدو أنَّه أجرى تقويماً للموقف العامّ، فقدَّر موقعه من الأحداث التي تمر بها مصر، ولابُدَّ أنَّه لاحظ كثير من المعوقات أمام مشروعه، منها:

1 ـ أن البَحْريَّة قُوَّة عسكريَّة لا يُستهان بها، وخاصَّة بعد هُجُوم أقطاي على غزَّة، وامتلاكهم لقادة عسكريين لامعين.

2 ـ تسترُّ البَحْريَّة خلف شرعية الأشرف مُوسى الأيُّوبي.

3 ـ مُحاولة كَسْبهم للخليفة بإزاحة شَجَر الدُّرِّ عن السَّلطنة، ومُناداتهم بأنَّ بلاد مصر للخليفة، وأنّ المُعزّ أيبك نائبه فيها.

4 ـ أَفْقَدَ البَحْريَّةُ النَّاصر يُوسُفَ مُؤيِّديه في مصر، بعد القبض على كُلِّ مُوال له فيها.

ولكنْ؛ بالمُقابل، كانت تلوح أمام النَّاصر كثير من المُغريات تدفعه نحو مصر، منها:

1 ـ أن الشرعية الأيُّوبيَّة ـ التي انقلب عليها المماليك البَحْريَّة ـ تُخوِّله الحقَّ في حُكْم مصر.

2 ـ علاقاته الجيِّدة مع الخليفة العبَّاسي، والذي قدَّر أنَّه لن ينخدع بمُحاولة المماليك لاسترضائه.

3 ـ امتلاكه قُوَّة عسكريَّة رُبَّما لم تجتمع في الشَّام من عقود كثيرة، إضافة إلى وُجُود قائد جيشه لُؤلُؤ الأميني، الذي كان محلَّ ثقة كبيرة في مجال قيادة الجُيُوش، وتحقيق النصر.

4 ـ اجتمع مع النَّاصر يُوسُف كافَّة أُمراء ومُلُوك البيت الأيُّوبي، في إجماع لتأييد سلطنته، وهذا لم يحصل ـ من قبلُ ـ إلَّا نادراً.

5 ـ أن الأشرف مُوسى ـ الذي أقامه البَحْريَّة في مصر ـ ما هُو إلَّا صبي لا يتجاوز السادسة من عمره، وهُو غطاء شرعي شفَّاف لا يخدع أحداً.

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 369، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 268، وعقد الجمان، العيني، 18/ 320.

ولكنْ؛ في الحقيقة، كانت هُناك أُمُور كثيرة لم يلحظها النَّاصر، وستُفاجئه بها الأحداث المتلاحقة خلال غزوه لمصر، وربَّما سيكون من أهمّها ظُهُور ما يُشبه العصبية المملوكية بشكل عامٍّ، وعصبية مملوكية تركية بشكل خاصٍّ.

سار النَّاصر بجُيُوشه من دمشق قاصداً مصر ومعه آل بيته، فهي حرب البيت الأيُّوبي ضدَّ مُغتصبين ناكرين للجميل، ولحقّ التربية، ولم يتخلَّف عنه سوى المُغيث، الذي استولى على الكَرَك والشوبك، وأصبحت له مشاريعه الخاصَّة.

وتولَّى قيادة جيش الشَّام شمس الدِّين لُؤلُؤ الأميني مُدبِّر المملكة، والذي كان من أكبر الداعين للهُجُوم على مصر، والذي كان يستهزئ بقُوَّات المماليك، ويقول: إنَّه يستطيع أخذ مصر بمائتي امرأة[1].

بعد وُصُول أخبار تحرُّك النَّاصر نحو مصر، اجتمع قادة البَحْريَّة، وقرَّروا التصدِّي لهُجُوم النَّاصر، وتولَّى آيبك مهمات القيادة العسكريَّة بحُكْم موقعه، وكانت استعداداته قد تضمَّنت - إضافة إلى تعبئة قُوَّات مصر - استخدام عرب الصعيد، مُحاولاً الاستفادة منهم في المعركة، كذلك لجأ إلى الحَرْب النَّفْسية ضدَّ النَّاصر، مُحاولاً الإيقاع بينه وبين إسماعيل، أقوى شخصيَّات بني أيُّوب في الحملة، فأطلق ولدَيْ إسماعيل، وكانا في سجن القاهرة، وأحسن إليهما، وأشاع أنَّه اتَّفق مع أبيهما.

وحدثت المعركة المُتوقَّعة، ولكنْ؛ عكس كُلِّ التوقُّعات كانت أحداثها، فقد صَدَمَ جيشُ النَّاصر جيشَ المماليك بقُوَّة، جعلتهم ينهزمون نحو القاهرة، وخُيِّل للجميع أن النصر قد تمَّ، فانطلقت قُوَّة الجيش الشَّامي الأساسية بقيادة جمال الدِّين بن يغمور تطارد جيش مصر حتَّى أبواب القاهرة؛ حيثُ نصب السرادق السُّلطانية، وانتُظر وُصُول النَّاصر ليدخل عاصمة السَّلطنة، وصادف ذلك يوم جمعة، فخطب الأئمَّة في مساجد مصر ومسجد القلعة باسم الملك النَّاصر، ولكن الملك النَّاصر بقي في مكانه مُرابطاً، ومعه الفُقهاء والقُضاة[2]، ولشُعُوره بعزَّة النصر، فقد نشر أعلامه وسناجقه[3].

1- عقد الجمان، العيني، 1/ 39.

2- يقول أبو الفداء عنهم: جماعة يسيرة من المُتعمِّمين. (المُختصر، 3/ 184).

3- عقد الجمان، العيني،1 / 39.

ولكنْ؛ حدث ما لم يكن بحسبان أحد، فقد صادف مُرُور المُعزّ أيبك سُلطان المماليك ومعه قائد جيشه ومُقدَّم البَحْريَّة فارس الدِّين أقطاي مع بضع مئات من فُرسان البَحْريَّة، فشاهدوا سناجق النَّاصر، وليس معه إلَّا حَرَسه الخاصّ، وهم المماليك العزيزية[1]، ولا ندري مَنْ منهم اتَّصل بمَنْ، المُهمُّ بالأمر أن الاتِّصال بين العزيزية والبَحْريَّة قد تمَّ، وباع العزيزية ابن أُستاذهم النَّاصر، وانضمُّوا للبَحْريَّة، فلم يجد النَّاصر أمامه إلَّا الفرار نحو الشَّام؛ لينجو بجلده[2]. يقول جوانفيل، ولا ندري دقَّة مصادره: إن السُّلطان عاد إلى الشَّام مجرُوحاً في رأسه وفي يده[3]،

بذلك أصبح آيبك والبَحْريَّة في حالة جيِّدة من القُوَّة، فقد استردُّوا أنفاسهم، ودُعموا بالعزيزية، وأجبروا النَّاصر على الفرار، فاندفع آيبك مع قُوَّاته باتِّجاه فرقة من جيش النَّاصر كان يقودها مُقدَّم الجيش لُؤلُؤ الأميني، فهزمهم، وأسر لُؤلُؤاً، وضرب عنقه على الفور، وكذلك فعل بضياء الدِّين القيمري أحد مُقدَّمي القيمرية، الذين سلَّموا دمشقَ للناصر[4].

هذه المعركة الغريبة بمُجرياتها تستحقُّ التوقُّف مع بعض أحداثها، وطرح بعض التساؤلات:

1 ـ لماذا توقَّفت القُوَّة الرئيسية للجيش الشَّامي، التي هزمت البَحْريَّة، وطاردتها حتَّى العبَّاسيَّة، ولم تدخل القاهرة، وتُنهي أمر البَحْريَّة نهائيّاً؟! ولو دخلوا القاهرة "لما بقي مع آيبك مَنْ يُقاتلهم"[5].

ولا نجد لهم مُبرِّراً إلَّا أن تكون قد وصلتهم أنباء هروب النَّاصر نحو الشَّام، فاختلفت آراؤهم، وخافوا دُخُولَ القاهرة، علماً أنَّه من المشكوك فيه أن تصلهم الأخبار بهذه السُّرعة.

2 ـ لماذا رابط النَّاصر في الكراع عند أرض المعركة، ولم يتحرَّك خلف جيشه في مطاردته للمهزومين؟! وهُنا؛ لا نجد تفسيراً إلَّا التردُّد والخوف، فرُبَّما فضَّل البقاء على حُدُود الصحراء للهرب وقت الحاجة، أو دُخُول مصر بعد استتباب الأمر فيها نهائيّاً.

---

1 - العزيزية: نسبة إلى العزيز مُحمَّد بن غازي، فهُم مماليك والد النَّاصر يُوسُف.

2 - عقد الجمان، العيني، 1/ 40.

3 - سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 36 / 197.

4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 185.

5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 185.

3ـ لماذا انضمَّ العزيزية للبَحْريَّة، وتركوا ابن أُستاذهم ومُربِّيهم وصاحب الفضل عليهم؟!

يجتهد المقرزي فيُجيب عن هذا السُّؤال بقوله: "كان مع النَّاصر جمع كبير من مماليك أبيه العزيز، وهم أتراك يميلون للبَحْريَّة لعلَّة الجنسية"[1].

أمَّا نتائج المعركة؛ فإن أوَّلها كان تثبُّت حُكْم المماليك لمصر، وتاليها كان توالي الخسائر على النَّاصر، فكان حاله مثل حال الزرافة التي خرجت تطلب قرنَيْن، فعادت بلا أذنَيْن، فبعد عودته للشام مهزوماً، ثار عليه الملك المُغيث، واحتلَّ نابلس في خطوة بدت وكأنَّها مُطالبة بإعادة مملكة النَّاصر داود في الكَرَك، وكأن المُغيث عدَّ نفسه وريثاً شرعياً لها.

---

1 - السُّلوك، المقريزي، 1/ 374.

المبحث الخامس

صراع المماليك على الحُكْم

مشروع آيبك:

مع أن الصعاب قد عاجلت عزّ الدِّين آيبك، لكنَّه كان يسير في مشروعه للحُكْم على خُطى المُلوك والسلاطين الأيُّوبيَّة، فقد تربَّى في مدرستهم، وعندما بدأ حُكْم آيبك بالاستقرار في مصر بعد هزيمة النَّاصر، أخذ يستفحل أمر فارس الدِّين أقطاي، الذي التفَّتْ حوله البَحْريَّة، وكثر أتباعه، وأخذ يتصرَّف كأنَّه السُّلطان، ثُمَّ أراد أن يدعم مركزه بغطاء شرعي لا يملكه السُّلطان آيبك نفسه، ورُبَّما كانت هذه الخطوة الأخيرة بتقديره قبل أن يزيح السُّلطان، ويتولَّى عرش المملكة، فقد أرسل أقطاي يخطب ابنة الملك المُظفَّر الأيُّوبي من أخيها الملك المنصُور صاحب حماة، الذي وافق على الخطبة، ورُبَّما كان ذلك تدبيراً أيُّوبياً لتشجيع أقطاي ضدَّ آيبك. عندها؛ طلب أقطاي من آيبك أن يُفرد له مكاناً في قلعة الجبل، ليسكن به مع عروسه[1]، والقلعة مقرُّ السُّلطان ورمزه، ولم يجد آيبك ـ وهُو يرى المُلْكَ ينسلُّ من بين أصابعه ـ سوى الغدر وسيلة للخلاص من أقطاي، فدعاه إلى القلعة، وهُناك؛ رتَّب آيبك مَنْ اغتاله عام 652 هـ، ولمَّا بلغ الخبر البَحْريَّة "أجمعوا أمرهم على التوجُّه إلى الشَّام"، ففرَّ أُمراؤهم الكبار قاصدين النَّاصر في دمشق[2]، واستنَّ آيبك سُنَّة القَتْل في الصراع على السُّلطة بين المماليك، والتي سيذوق طعمها هُو وكثير من سلاطين المماليك من بعده.

انتهى عام 648 هـ 1250م، بأحداثه الجسام، وحاول النَّاصر يُوسُف أن يتجاوز هزيمته في ذلك العام أمام المماليك المُستولين على مصر، ففي مطلع عام 649 هـ 1251م، أرسل النَّاصر فرقة من عسكره إلى غزَّة، فأعادت السيطرة عليها، واعتقد المماليك أنَّها مُقدِّمة حملة جديدة للناصر على مصر، فخرجوا بجُيُوشهم، وعسكروا في السائح[3]. وهُنا؛ تحرَّك الخليفة المُستعصم، فأرسل رسوله البادرائي إلى الملك النَّاصر صاحب الشَّام، يطلب منه مُصالحة المُعزّ أيبك، وأن يتَّفقا على حرب التتَّار[4].

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 390.

2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 12 ـ 13، وأخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 42.

3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 186.

4 - طبقات الشافعية، السبكي، 5 / 113.

إذنْ؛ فالخليفة لم يتحرَّك حتّى دفعه خطر التّتار إلى ذلك دفعاً، فالصراع بين مُلُوك الأطراف كان ـ دوماً ـ لمصلحة الخليفة؛ لأنّه يُضعف المُتصارعين، أمّا الآن؛ فهُو يُريدهم أقوياء لدَعْمه ضدّ خطر قضى على كُلّ القوى الإسلاميّة في الشّرق، ولم يبقَ للخليفة من دعم يُفكّر فيه سوى الشّام ومصر. وافق النّاصر يُوسُف على القسم الأوّل من طلب الخليفة، وهُو الصُّلح مع آيبك، وبالتّأكيد؛ لم يُفكّر كثيراً لا هُو ولا آيبك من بعده في القسم الثّاني، وهُو نجدة الخليفة ضدّ التّتار، ويبدو أن النّاصر قد وَجَدَ في الصُّلح الذي عرضه الخليفة حلاً سهلاً لمُشكلة مُواجهته مع المماليك في مصر، التي كانت تزداد صُعُوبة في كُلّ يوم، فالمماليك اتّصلوا بالملك لويس، أسيرهم السّابق، وكان لا يزال في فلسطين، وطلبوا دعمه ضدّ النّاصر، مُقابل تسهيلات كبيرة يُقدّمونها له في اتّفاقية الصُّلح. كما كان النّاصر يعيش في حالة رهاب حقيقي من مجموعات المماليك التي تُؤلّف قسماً كبيراً من جيشه، وذلك بعد خيانة العزيزية، وهم أقربهم إليه بعد مماليكه. ففي عام **650 هـ ـ 1252**م، أرسل النّاصر يُوسُف رسولاً خاصّاً من قبله، هُو النظام بن المولى لمُرافقة البادرائي رسول الخليفة إلى مصر لعرض شُرُوط الصُّلح على آيبك، الذي استقبل الرُّسُل، ووافق بسُرعة على الصُّلح[1]، فدوافع آيبك للصُّلح ـ أيضاً ـ كانت كثيرة، منها:

1 ـ عدم اطمئنانه للاتّفاق مع لويس، الذي اكتشف أنّه يبتزّه للحُصُول على أكبر قدر من التنازلات، دُون أن يكون قادراً على تقديم أيّ مُساعدة.

2 ـ قدّر أن اتّصاله بلويس قد أثار الشُّعُور المُعادي ضدّ المماليك في كُلّ العالم الإسلامي.

3 ـ كما أدرك أن الصُّلح مع النّاصر بسعي الخليفة هُو اعتراف من الشرعية الصُّغْرَى ـ الأيُّوبيّين، والشرعية الكُبْرَى ـ الخلافة ـ بحُكْم المماليك لمصر.

وتمّ الصُّلح على قاعدة اقتسام البلاد؛ بحيثُ يكون للمصريين في الشّام غزّة والقُدْس وكُلّ ما هُو جنوبها، وللناصر يُوسُف نابلس وكُلّ ما هُو شمالها، وعادت الرُّسُل من مصر في عام **651 هـ ـ 1253**م، ومعهم أسرى معركة الكراع من أُمراء الأيُّوبيّة وقادة النّاصر[2]. ويبدو أن إطلاق الأسرى

---

1 ـ المُختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 232.

2 ـ المُختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 232، والنُّجُوم الزّاهرَة، ابن تغري بردي، 7/ 10، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 385، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 186، وعقد الجمان، العيني، 18/ 339، وشفاء القُلُوب، الحنبلي، 415، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 274.

كان أهمّ نتائج هذا الصُّلح، إنْ لم نقل إنَّه كان كُلّها، فقد استمرَّ العداء بين الطرفَيْن، وفي عام 654 هـ 1256م، كان الصراع بين النَّاصر يُوسُف صاحب الشَّام والمُعزّ أيبك المُستولي على حُكْم مصر على أشدِّه، عندها؛ احتاج النَّاصر إلى دعم شرعية الخلافة لتأييد حقِّه وحقِّ البيت الأيُّوبي لمُواجهة آيبك، الذي يعدُّه دخيلاً تسلَّط على الحُكْم، فأرسل النَّاصر إلى الخليفة مع رسوله المُؤرِّخ ابن العديم يطلب منه خلعة، وقد حمل الرسول معه "تقدمة جليلة" 1. وفهم آيبك مقصد النَّاصر من الخلعة، فعدَّ نفسه لا يقلّ عنه بشيء، وأرسل سنقر الأقرع، وهُو أحد كبار أُمراء المماليك2، يحمل هدية لا تقلُّ عن هدية النَّاصر، ولكنَّه لم يطلب خلعه لنفسه، بل طالب بتعطيل خلعة النَّاصر، فحار الخليفة الضعيف في أمره، وبالتَّأكيد؛ لم تكن أشخاص المُلُوك المتنازعين هي التي تُهمُّه، فأمامه في الشَّرْق التَّتار بجحافلهم، وليس وراءه في الغَرْب سوى النَّاصر في الشَّام وآيبك في مصر، فطلب الخليفة من ابن العديم الاعتذارَ للناصر، وأعطاه سكِّيناً مقبضها من الحجارة الكريمة ليُقدِّمها إليه قائلاً: إنَّها "علامة منِّي في أن له خلعه عندي في وقت آخر"، وعاد ابن العديم بدُون خلعة3. ومع أن آيبك قد فاز في الصراع مع النَّاصر عند الخليفة، لكنَّه لم يفزْ في الصراع مع القَدَر، ففي عام 655 هـ 1257م، قُتل في أكثر الأماكن أمناً له، فقد قيل إنَّ زوجته شَجَرَ الدُّرِّ قد قتلتْهُ، فأُزيح بذلك من أمام الخليفة العائق الذي يمنعه من إرسال الخلعة للملك النَّاصر، وكسبه إلى صفِّه، في وقت حرج، فسارع الخليفة المُستعصم بإرسال الخلعة والطَّوْق والتقليد، كما جرت العادة تماماً إلى الملك النَّاصر، وقد وصل رسول الخليفة في العام نفسه 655 هـ 1257م، الذي قُتل فيه آيبك، ولكنْ؛ دُون أن يترتَّب على ذلك فائدة تُذكَر للطرفَيْن.

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 191.
2 - سنقر الأقرع: كان مملوكاً للمُظفَّر غازي صاحب مَيَّافارقين (المُختصر، أبو الفداء، 3/ 191).
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 191.

المبحث السَّادس

الصراع العسكري بين المماليك والسَّلطنة الأيوبيَّة

المماليك البَحْريَّة في الشَّام:

استقبل الملكُ النَّاصر في دمشق عام 652 هـ 1254م، أُمراء البَحْريَّة[1] الفارِّين، الذين حرَّضوه لأخذ مصر، مع أنَّه لم يكن بحاجة إلى هذا التحريض ليتحرَّك معهم[2]، فقاد جيشه من جديد، وعسكر في غور الأردن، وأرسل طلائعه بقيادة المُعظَّم تُورانشاه بن صلاح الدِّين، فاحتلُّوا غزَّة[3]. وبرز آيبك مع قُوَّاته إلى العبَّاسيَّة [4]، ومع كُلّ ما بين الرجلَيْن، فقد أرسل آيبك إلى الملك النَّاصر ينصحه قائلاً: "لا تركنْ إلى البَحْريَّة ما يجيء منهم خير"، فلم يلتفتْ له[5]، وطالبه بردِّ البلاد التي أخذها في فلسطين بالاتِّفاق مع رسول الخليفة، فوافق آيبك. وما هذه المُوافقة إلَّا إقرار بالأمر الواقع، فعسكر النَّاصر كانت حول القُدْس والبَحْريَّة في غزَّة، وقد قام الملك النَّاصر بإقطاع تلك البلاد إلى البَحْريَّة [6]، ليجعلهم بمُواجهة عدوِّهم المُشترك آيبك، وليُدافعوا عن هذه المناطق المكشوفة التي يصعب عليه الدفاع عنها.

وكان آيبك يُقيم مع قُوَّاته في مُعسكر قُرب العبَّاسيَّة مُنْذُ أن تحرَّك النَّاصر وجُيُوشه من الشَّام، ومعه فرقة المماليك العزيزية، التي انضمَّت إلى قُوَّاته، بعد أن خانوا الملك النَّاصر، وكانوا سبب هزيمته في الكراع، ويبدو أن العزيزية قد شعروا بمقدرتهم على التلاعب بمصير المُلُوك، فأخذوا يُدبِّرون للقبض على المُعزّ أيبك، وشعر بتدبيرهم، فاحترس منهم، واستعدَّ لهم، ولمَّا تأكَّدوا من

---

1 - كان ضمن أُمراء البَحْريَّة الفارِّين إلى دمشق: بيبرس البندقداري، وبلبان الرشيدي، وأزدمر السيفي، وسنقر الأشقر، وقلاوون الألفي، وسنقر الرُّومي، وبدر الدِّين بيسري، وسيف الدِّين المستعربي. (المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 235).

2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 235.

3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 190.

4 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 235.

5 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 235.

6 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 292، ونهاية الأَرَب، النويري، 29/ 434.

افتضاح أمر غدرهم بآيبك، هربوا على عجل من مُخيَّمهم في العبَّاسيَّة، فصادر آيبك كُلَّ ما تركـوه[1]، وقبض على بعضهم، فقتل منهم، وسجن الآخرين[2]. وكان هذا بمثابة الإعلان أنَّه لن يكـون هُنـاك أمان لسُلطان أو ملك مع وُجُود طوائف عسكريَّة قويَّة، وأنَّه لا ولاء لهذه الطوائف إلَّا ولاء الخُضُوع للقُوَّة، أو ولاء الطمع بالمكاسب.

ونُلاحظ هُنا أن النَّاصر يُوسُف لم يستفدْ مُطلقاً من أحداث هامَّة جـرت في مـصر، وكـان مـن المُمكن أن يُوظِّفها بقليل من الدعم لمصلحته وضدَّ حُكْم المماليك، ومنها:

1 ـ تحرُّك العزيزية ضدَّ آيبك في مُعسكر العبَّاسيَّة، ومُحاولتهم القبض عليه، ولكن هذه الحَرَكَـة لم تكن بتنسيق مع النَّاصر يُوسُف، ورُبَّما جاءت عَرَضَاً لتنسجم مع رغباته[3]، ولذلك لم يستفدْ منهـا، كـما أنَّه لعدم التنسيق جرى التمرُّد في ظُرُوف كانت لمصلحة آيبك؛ حيثُ تمكَّن من القضاء عليهـا بـسُهُولة. بينما كان تمرُّدهم على النَّاصر في معركة الكراع في توقيت قاتل، أدَّى إلى تغيير مجرى المعركة تماماً[4].

2 ـ قام الشريف حـصن الـدِّين بـن ثعلـب زعـيم الأعـراب في صـعيد مـصر عـام 651 هـ ـ 1253م، بثورة ضدَّ حُكْم آيبك، وتزامن معها عصيان والي الصعيد آيبك الأفـرم الـذي دعـم تحـرُّك ثعلب، ومع أن الشريف ثعلب استنجد بالناصر يُوسُـف، لكنَّـه لم يتـدخَّل[5]. وكـان مـن المُمكـن أن يستغلَّ النَّاصر تلك الثورةَ أفضلَ استغلال[6].

3 ـ كذلك لم يستغلّ النَّاصر صراعَ آيبك مع مُقدَّم البَحْريَّة أقطـاي، الـذي كـان يُنـازع آيبـكَ السُّلطةَ، ويتطاول عليه، ويمنعه من الانفراد بالحُكْم، مع تقرُّب أقطاي للبيت الأيُّوبي، وخُطبته لبنـت المُظفَّر أُخت المنصُور صاحب حماة الأيُّوبي[7]. والغريب في الأمر هُنا أن آيبك كاتبَ النَّاصر يُوسُف في

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 190.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 396، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7/ 30.
3 - يُقال بأنَّ تحرُّك العزيزية كان بإيعاز من الملك النَّاصر. (المُختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 235).
4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 190، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 396، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7 / 30.
5 - البيان والإعراب، المقريزي، 144، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 190.
6 - ويُعلِّل العبادي عدم تجاوب النَّاصر مع طلب مُساعدة ثعلب بوُجُود رسول الخليفة لديه طالباً الصُّلح مع المصريين. (في تاريخ الأيُّوبيِّين، أحمد مُختار العبادي، 118).
7 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 388، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 190، وأخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 42.

أمر أقطاي، وطلب رأيه، لكنَّ النَّاصر لم يتدخَّل في الصراع بين المماليك[1]، رُبَّما لعدم تفضيله أيّ منهم على الآخر، مع أن هذا ليس من السياسة في شيء.

الخليفة العبَّاسي يسعى في الصُّلح:

كان أكثر الناس قلقاً لصراع النَّاصر مع مماليك مصر هُو الخليفة العبَّاسي المُستعصم بالله، فالتتار يكتسحون العراق، وطلائعهم اقتربت من بغداد، ولم يبقَ من قُوَّة في العالم الإسلامي يُمكن أن تدعم الخليفة سوى الشَّام ومصر، فأعاد الخليفة تسيير رسوله نجم الدِّين البادرائي لإعادة الصُّلح، وتثبيته بين النَّاصر يُوسُف والمُعزّ أيبك، وكانت الشُّرُوط الجديدة للصُّلح أن يكون الشَّام بأكمله للناصر، ومصر لآيبك[2]، ويُضيف المقريزي بنداً آخر هُو أن لا يُؤوي النَّاصر يُوسُفُ المماليكَ البَحْريَّةَ الفارِّين في الشَّام[3]. ونعتقد أن هذا البند كان مُهمّاً جدّاً لآيبك في اتِّفاقية الصُّلح، وبدليل النتائج نرى أنَّه - رُبَّما - كان أوَّل البُنُود، فالبَحْريَّة هُم أكثر ما يخشاه آيبك على مُلكه، وهُو يُدرك أنَّهم سيستمرُّون بالتحريض عليه، ومن أجل تمرير هذا البند الذي لم يكن ليقبله النَّاصر يُوسُف بسُهُولة، فالبَحْريَّة ورقة رابحة بيده ضدَّ آيبك، من أجل ذلك؛ وافق آيبك أن تكون الشَّام بكاملها للناصر يُوسُف. وكان محرجاً للناصر تنفيذ هذا البند من اتِّفاقه مع آيبك، الذي ينصُّ صراحةً على طَرْد البَحْريَّة من الشَّام، فحاول أن يخلق سبباً، فأشاع أنَّه نقل إليه أنَّهم يُريدون أن يفتكوا به[4]. إنَّه سبب مُقنع اختاره النَّاصر، فسُمعة المماليك تجعل من السهل تصديق تبدُّل ولائهم بهذه السُّرعة، لكنْ؛ هل كان - فعلاً - بإمكان البَحْريَّة الفتكُ بالناصر، بالرّغم من احترازه وحيطته ؟! وإذا كان ذلك مُمكناً، فلمصلحة مَنْ؟! بل، وأين مصلحتهم في ذلك؟! فالناصر أكبر شخصية مُؤهَّلة لتنفيذ انتقامهم من آيبك، ولابُدَّ أنَّهم ما كانوا ليفرطوا به بتلك السُّهُولة[5].

---

1 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7/ 11.
2 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7/ 33، وذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 12.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 500.
4 - المُختصر، أبو الفداء، 192.
5 - يقول المقريزي: إن سبب مُغادرة البَحْريَّة لدمشق هُو: وُصُول الخبر بأنَّ الملك النَّاصر قد طلب نجدة التتَار لاسترجاع مصر من المماليك، وأنَّهم قد سيَّروا إليه عشرين ألف فارس (السُّلُوك، المقريزي، 1/ 500).

بعد أن أشاع النَّاصر كشفه لمُؤامرة البَحْريَّة، طلب منهم مُغادرة دمشق، ولكنْ؛ إلى أين؟ لم يبقَ إلَّا مكان واحد لالتجائهم إليه، مع أنَّه أضعف من أن يُحقِّق لهم الآمال بالعودة مُنتصرين إلى مصر، إنَّه الملك المُغيث عُمر صاحب الكَرَك الجديد. فغادر البَحْريَّة دمشقَ إلى غزَّة، وراسلوا المُغيثَ، وانتموا له. ويبدو أن النَّاصر شعر بالخوف فعلاً من البَحْريَّة، ورُبَّما لم يكن بحسبانه أن ينضمُّوا للمغيث، فأراد إدراكهم قبل وُصُولهم إلى هدفهم، فأرسل خلفهم فرقة من جيشه إلى غزَّة، فكمن لهم البَحْريَّة، وهزموهم، ثُمَّ أمدَّ النَّاصر جيشه، وأعاد الكَرَّةَ، فهزموا البَحْريَّة، واضطرُّوهم للهرب نحو الكَرَك إلى الملك المُغيث، الذي استقبلهم أحسن استقبال، وفرَّق فيهم الأموال الجليلة[1]. وفي الحقيقة؛ أَحْسَنَ المُغيثُ انتهازَ هذه الفُرصة، فالبَحْريَّة أداة جيِّدة يُمكنه استخدامها لتحقيق مشاريعه التوسُّعية، هذه المشاريع التي لم يخلُ من وضعها أيٌّ من مُلوك آل أيُّوب، وكانت خُطط البَحْريَّة والمُغيث بغاية التطابق، فالطرفان هدفهما مصر. جهَّز المُغيث البَحْريَّة بما يلزمهم، وتحرَّك بجيشه معهم، وساروا إلى مصر عبر غزَّة، فتصدَّى لهم آيبك بجُيُوش مصر، وألحق بهم هزيمة كبيرة[2]، "فهرب المُغيث إلى الكَرَك في أسوأ حال، ونُهبَتْ أثقالُهُ ودهليزُهُ"[3]، وأثناء عودة البَحْريَّة مُنهزمين من مصر عام **656** هـ **1258**م، لم يفتْهُم الهُجُوم على غزَّة، وكانت فيها قُوَّات النَّاصر يُوسُف، الذي عدَّه البَحْريَّة في مصافِّ أعدائهم، ولمَّا تصدَّى لهم قائد الحامية الشَّاميَّة الأمير مجيد الدِّين بن أبي ذكرى هزموه، وأسروه، "وقوي أمر البَحْريَّة، وأكثروا العيثَ، والفساد"[4].

وأثناء تحرُّك البَحْريَّة في جنوب الشَّام، صادفوا في غور الأردن فرقة الشهرزورية[5]، التي كانت قد هربت من العراق تحت ضغط التَّتار، فاتَّفقوا معهم، وتزوَّج بيبرس البندقداري أحد مُقدَّمي البَحْريَّة امرأةً منهم[6]، وذلك لتوثيق الاتِّفاق بالمُصاهرة، فالبَحْريَّة بحاجة إلى قوى داعمة. وهذا التحالف ـ إضافة إلى مُهاجمة حامية غزَّة ـ حرَّك مخاوف النَّاصر يُوسُف، فَسَيَّرَ عساكره نحوهم،

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 193.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 500.
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 195.
4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 197
5 - الشهرزورية: فرقة من الأكراد نسبة إلى بلدة شهرزور، (راجعْ: مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: شهرزور)، هربوا من العراق بعد غزو التَّتار، فانضمُّوا للناصر في الشَّام، ثُمَّ تمرَّدوا عليه.
6 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 255.

فَهَزَمَت البَحْرِيَّةُ عسكرَ الشَّام، فركبَ النَّاصر بنفسه، وبكامل ثقل جيشه إليهم، فهربت البَحْرِيَّةُ إلى الكَرَك، والشهرزورية إلى مصر[1]. ويبدو أن النَّاصر أراد حسم الموقف نهائيّاً مع البَحْرِيَّة، فتابع تحرُّكه يدعمه جيش حماة بقيادة الملك المنصُور، فوصلوا الكَرَك، وشدَّدوا الحصار عليها، فخاف ملكها المُغيث، مع متانة حُصُون الكَرَك، وقُوَّة أسوارها، وأراد حلّ القضية سلمياً مع النَّاصر، فطلب الصُّلح، ووافق النَّاصر على شرط أن يُسلِّمه البَحْرِيَّة، فالبَحْرِيَّة هُم ما يُريده النَّاصر الآن، وأمر المُغيث يُمكن أن يُؤجّل، فحصاره غير مضمون النتائج. وبلا تردُّد؛ وافق المُغيث على تسليم حُلفاء الأمس[2]، فقد أصبحت البَحْرِيَّة ورقة خاسرة بيد المُغيث، الذي جرَّبهم أكثر من مرَّة، ولم يُفلحوا، بل رُبَّما عدَّهم سبباً لتوريطه في الهُجُوم على مصر، وما تلا ذلك من خسائر فادحة تكبَّدها. في هذه الأثناء؛ شعر بخُطُورة الموقف أحد مُقدَّمي البَحْرِيَّة، ورُبَّما كان أذكاهم وأكثرهم أهليَّة للقيادة، وهُو بيبرس البندقداري، الذي يعرف بدقَّة أين يجب أن يكون في كُلِّ ظرف، فتسلَّل من قلعة الكَرَك، ولجأ إلى النَّاصر يُوسُفَ، الذي استقبله، وعفا عنه، وقبض المُغيثُ على بقيَّة البَحْرِيَّة، وسلَّمهم للناصر، الذي اعتقلهم في سجن قلعة حلب، وبقوا فيه، حتَّى فتح التَّتار حلبَ، وأخذوهم منها[3].

وبعد أن استقرَّ أمر المُعزّ أيبك في حُكْم مصر نتيجة لصُلحه مع النَّاصر يُوسُف، والتخلُّص من أقطاي والبَحْرِيَّة، قام عام 652 هـ بعَزْل الأشرف السُّلطان الأيُّوبي الصغير، الذي كان "آخر من خطب له من بيت أيُّوب بمصر"[4]، وأعلن آيبكُ نفسَهُ سُلطاناً على البلاد، وهي الخطوة الأهمّ في مشروعه السِّياسي. ومع كُلِّ هذه القُوَّة التي شعر بها آيبك، فقد كان البيت الأيُّوبي يُؤرِّقه، رُبَّما لشُعُوره كمملوك سابق لهم، وهذا ما تُفسِّره ردود أفعاله المتناقضة نحو الأيُّوبيَّة، فبعد أن أنهى كُلَّ سُلطان لهم في أرض مصر، أراد أن يُزيلَ كُلَّ رموزهم منها، فأعفى حُسام الدِّين بن أبي علي الهذباني[5] من مهامّه، ونزع إقطاعه، وسمح له بالسفر إلى الشَّام[6]، فاستقبله النَّاصر يُوسُف، وخلع

1 - زبدة الفكرة، الدَّوادَار، 34.
2 - شفاء القُلُوب، الزبيدي، 433، وزبدة الفكرة، الدَّوادَار، 9/ 55.
3 - شفاء القُلُوب، الزبيدي، 433، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 198.
4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 190.
5 - ترجمته في: ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 384.
6 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 186.

عليه[1]، وأعطاه إمرة خمسمائة فارس[2]. ولكنْ؛ وبعد كُلِّ ذلك فآيبك لا زال يشعر بعدم شرعية حُكْمه، فأراد أن يلجأ لطريقة أُخرى يستمدُّ بها بعض الشرعية، فقرَّر أن يخطب ابنة بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل ووريث البيت الأتابكي، وابنة الملك المنصور صاحب حماة سليل البيت الأيُّوبي والعائلة التقويَّة الشهيرة فيه[3]، إن تدعيم الحُكْم بالمُصاهرة عادة شائعة، وكانت مُتَّبعة لدى البيت الأيُّوبي. ولكن هذه المُصاهرة بالجملة لم تفهمها شَجَرُ الدُّرِّ زوجة آيبك على حقيقتها السِّياسيَّة، وعدَّتها خيانةً صريحةً لها، وعدم وفاء يُقدِّمه مُقابل السَّلطنة التي قدَّمتها له، فقتلتْهُ ليلاً هي وجواريها، وأظهرت أنَّه مات.

ومع أن رواية القتل تُجمع عليها مُعظم المصادر، ولكنَّه يحقُّ لنا أن نسأل: ألا يُمكن أن يكون آيبك قد مات فعلاً بشكل طبيعي؟ فهذا علمياً وارد، وخاصَّة في ظُرُوف الضغوط الكبيرة التي كان يعيشها سُلطان المماليك داخلياً وخارجياً، ويُؤيِّد هذه الفكرة المُؤرِّخ أبو شامة، وهُو مُعاصر للحادثة، يقول: "ثُمَّ مات هذا التركماني بداره بغتة، ولا يُعلَم سبب موته، وتعصَّب أصحابه لإقامة ابنه مقامه، ولقَّبوه بالملك المنصُور نُور الدِّين علي، واتَّهموا زوجة التركماني أنَّها قتلته، فأعدموها"[4]. وهُنا؛ لا نستطيع أن نُرجِّح، لكنَّ الموت الطبيعي يبقى احتمالاً قائماً، خاصَّة وأن كلَّ ما أخذه أصحاب آيبك ومماليكه المعزية[5]من دلائل على أنَّه قُتل "أنَّهم فارقوه بالعشيِّ سليماً، وألفوه في الصباح عديماً"[6]، وهذا ليس بالدليل القاطع، فالموت المُفاجئ كثير الحُدُوث، ولا يحتاج لمرض يسبقه، لكنَّها المُفاجأة لأصحابه، وسيادة عقلية التآمر والغدر، وتفسير كلّ الأُمُور على أساسها، ساهمت بإلصاق التُّهمة - التي لا ندري مدى صحَّتها - بشَجَر الدُّرِّ، ممَّا تسبَّب بقتلها على أبشع صُورة.

وبعد مقتل سُلطان المماليك الملك المُعزّ عزّ الدِّين آيبك وزوجته شَجَر الدُّرِّ سنة 655 هـ - 1257م، أقام مماليكُ آيبك المعزية نُورَ الدِّين علي بن أُستاذهم آيبك مكانه[7]، وكان عمره خمس

---

1 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 232.
2 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 8 / 23.
3 - زبدة الفكرة، الدَّوادَار، 19، وعقد الجمان، العيني، 1/ 118.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 387.
5 - المعزية: هُم مماليك الملك المُعزّ عزّ الدِّين آيبك، سلطنوا ابنه علي بعد مقتله، وأصبح مُقدَّمهم المُظفَّر قطز أتابكاً له.
6 - زبدة الفكرة، الدَّوادَار، 24.
7 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 192.

عشرة سنة، واستمرَّ بالسَّلْطَنَة، حتَّى خلعه المُظفَّر قطز[1]، مُتـذرِّعاً بخطـر التَّتـار، وأن التـصدِّي لهـم يحتاج إلى سُلطان قوي قادر.

كانت كُلُّ تلك الحُرُوب والمُؤامرات والقتل والاغتيالات بين الحُكَّام في مصر والشَّام متزامنة مع هُجُوم التَّتار على العراق، وحصارهم لبغداد بقوى هائلة، كان يسبقها ـ دائماً ـ سُمعة سيِّئة تُبشِّر بأبشع أنواع القتل الجماعي والحرق والدمار، وكأن ما كان يجري في العراق لا علاقـة لـه مُطلقاً بحُكَّـام مـصر والشَّام، فالخليفة مُحاصر في بغداد، يستغيث، فلا يُغاث، لقد جاء اليـوم الـذي جعـل التَّتـار فيـه الخليفـةَ المُستعصمَ يُسدِّد ما سلف منه ومن آبائه بحقِّ بلاد الأطراف، التـي هاجمهـا الغُـزاةُ، فلـم يُحرِّك الخُلفـاء سوى رُسُلهم وخلَعهم وأُمنيَّاتهم الطَّيِّبة. ولكن سُقُوط بغداد عـام 658 هــ 1260م، بيـد التَّتـار كـان الصرخة الأخيرة التي أرعبت النَّاصر، وأشعرتْهُ بمصيره المُرتقب، فهُـو يعـرف أنَّـه التـالي في حـسابات التَّتار، وليس أمامه إلَّا مصر، وفيها أعداؤه المماليك، وبالتَّأكيد؛ كان ذلك يُسبِّب له حَيْرَة قاتلة.

خرج النَّاصر ليُعسكر بجيشه في برزة، ومعه المنـصُور صـاحب حمـاة، وهـذا كُـلُّ شيء تمكَّـن النَّاصر من فعله لمُواجهة خطر التَّتار، الذين اكتسحوا العراق، وتغلغلوا في الجزيرة، ورُبَّما وجد لنفسه عُذراً بأنَّه غير قادر عسكريَّاً على مُواجهة التَّتار، ولكنَّ السُّؤال المُهمّ هُنا: ألَم يفكِّر بالاتِّفاق والتحالف مع المماليك في مصر ـ ولو مُؤقَّتاً ـ ضدَّ خطر مُشترك داهم؟! أم أن كُرهه لهـم وحقـده علـيهم جعـلاه يُضحِّي بنفسه وبالناس وبالبلاد؟! لكنْ؛ ومن طرف آخر، هل كان المماليك في مـصر مُـستعدِّين لهـذا التعاون؟! أم أن حقدهم على النَّاصر وبني أيُّوب أعماهم عن مُلاحظة خطر التَّتار، وأن مصر سـتكون واحدة من أهدافهم القريبة بعد الشَّام؟!

وكان آخر ما يحتاجه النَّاصر الثَّاني في مُعسكره بـبرزة هُـو اكتـشافه لتـآمر مماليكـه الخاصـكية ضدَّه، فقد علم أنَّهم يُريدون القبض عليه، وتولية أخيه مكانه، فسارع النَّـاصر بـالهرب مـن المُعـسكر ليلاً نحو قلعة دمشق، وتحصَّن بها، ولمَّا علـم مماليكـه بهربـه، وافتـضاح أمـرهم، سـاروا نحـو غـزَّة،

---

1 ـ قُطز: لفظ مغولي يعني الشّرس، (النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7 / 72)، ـ رُبَّما كان الاسم مغوليَّاً، لكنْ؛ من المعروف أن السُّلطان قُطز تركي الجنسية، وهُو ثالث مُلُوك التُّرك بمصر، واسمه محمود ابن ممـدود، ويُقـال إنَّـه قريـب جلال الدِّين خوارزم شاه، وقد أُسر في حُرُوب التت، وبيع في دمشق للسُّلطان المُعزّ أيبك. (الـسُّلُوك، المقريـزي، 2 / 435 ـ 741).

يُرافقهم بيبرس البندقداري، الذي اتَّصل من هُناك بـالمُظفَّر قطـز سُـلطان المماليـك الجديـد في مـصر، فدعاه للعودة، وأكرمه[1].

وأخيراً، فإنّنا ـ بشكل عامٍّ ـ نستطيع أن نُلاحظ أنّه بعدما ازداد اعتماد الأيّوبيّيْن على المماليك في الجيش ثُمَّ في الإدارة، وخاصَّة في عهد الصَّالح أيّوب، ثُمَّ تمكَّن المماليك مـن تحقيـق النصر عـلى حملـة لويس في المنصُورة عقب وفاة أيّوب، أصبحت كلّ الدلائل تُشير إلى تنامي قُـوَّة المماليـك إزاء ضـعف القُوَّة الأيّوبيّة، وخاصَّة في الجيش، فكان من الطبيعي أَخذهم السُّلطة بالقُوَّة التي امتلكوهـا. وكانـت العلاقات بين سلطنة المماليك وبقايا الدولة الأيّوبيّة في الشَّام مُتوتِّرة على الدوام، وحتَّـى نائبـة التَّتـار لم تكن كافية لتُقنعهم بتوحيد جُهُودهم ضدَّ عدوٍّ مُشترك.

سلاطين المماليك المُعاصرين للحُكْم الأيُّوبي في الشَّام:

1. شَجَر الدُّرّ. ارملة الصَّالح أيُّوب:(648 هـ 1250).

2. الملك المُعزّ عزّ الدِّين آيبك:(864 ـ 657 هـ 1250 ـ 1257م).

3. الملك المنصُور نُور الدِّين علي بن آيبك:(655 ـ 657 هـ 7125 ـ 1259م).

4. الملك المُظفَّر سيف الدِّين قُطز:(765 ـ 658 هـ 9125 ـ 1260م).

5. الملك الظَّاهر رُكن الدِّين بيبرس:(865 ـ 676 هـ 1260 ـ 1277م).

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 200، والمُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 255.

الفصل الخامس

العلاقات الدّوليّة لمملكة سلاجقة الرُّوم

المبحث الأوَّل

دولة السلاجقة في بلاد الرُّوم

شكَّل السلاجقة واحدة من أكبر الدُّول الإسلاميَّة، التي نتجت عن تجزئة دولة الخلافة العبَّاسيَّة. وتعود بدايات الدولة السلجوقية إلى دُقاق أحد زعماء الأتراك، الذي كان يرأس قبيلة قنق، التي ضمَّت قبائل الغزّ بأتّحاد قبلي[1]، عندما كانوا في نواحي كاشَغَر. وقام ولده سلجوق بالنزوح إلى إقليم بُخارى المُسلم؛ حيثُ اعتنق مع قبيلته الإسلام السُّنِّيّ، وأخذ يغزو التُّرك الكُفَّار. ولمَّا حاول السُّلطان محمود الغزنوي طَرْدَهُ انتصر عليه، واحتلَّ خراسان عام **431** هـ **1039**م، وتابع ابنُهُ طغرل بك التقدُّم غرباً، حتَّى استدعاه الخليفة والقادة الأتراك إلى بغداد عام **447** هـ **1055**م، فسيطر عليها، وتحكَّم بالخليفة الضعيف القائم بأمر الله، الذي استبدل السيادة البويهية بالسيادة السلجوقية، وهُناك؛ اتَّخذ طغرل بك ـ لأوَّل مرَّة ـ لقب سُلطان.

وقد رافق السلاجقةَ في رحلتهم تلك جُمُوعٌ هائلةٌ من الأتراك والتُّركمان، تمكَّنت في عهد السُّلطان ألب أرسلان[2]، ومن ثَمَّ؛ في عهد ابنه ملكشاه[3]، من تشكيل دولتهم الكُبْرَى، التي امتدَّت من أفغانستان حتَّى حُدُود دولة الرُّوم البيزنطيين غرباً، وحتَّى عسقلان على حُدُود مصر جنوباً.

وعندما هزم ألبُ أرسلان عام **463** هـ **1071**م الجيشَ البيزنطيَّ، في معركة ملاذكُرد، وأسر الإمبراطُور[4]، انفتحت آسيا الصُّغْرَى بكاملها أمام الأتراك. ولأوَّل مرَّة؛ تتحرك الحُدُود التقليدية بين المُسلمين والبيزنطيين مئات الأميال إلى الغَرْب، ويبدأ الأتراك بعملية احتلال واستيطان مُستمرَّة،

1 - زبدة التواريخ، الصدر الكبير، 113.

2 - السُّلطان ألب أرسلان: حَكَمَ عرشَ السلاجقة في الفترة ما بين السنوات 3106 ـ 1072م.

3 - السُّلطان ملكشاه: حَكَمَ عرشَ السلاجقة في الفترة ما بين السنوات 1072 ـ 1079م.

4 - راحة الصُّدُور، الراوندي، تعريب: إبراهيم الشواربي، 189.

حتَّى أطبقوا على كامل الأناضول، ومازالوا به حتَّى اليوم، بفضل قيام الدولة العُثمانية[1]. ومثل كُلِّ الممالك الكُبْرَى جاء وقت تجزَّأت فيه مملكة السلاجقة، فاستقلَّ في الأناضول[2] ابنُ عمِّ ألب أرسلان، وهُو سُلَيْمان بن قتلمش بن سلجوق[3]، الذي احتلَّ نيقيه[4]عام 469 هـ 1077م، وجعل عاصمته في قونيه[5]عام 477 هـ 1084م. وكان قلج أرسلان[6] بن سُلَيْمان هُو أوَّل مَنْ تصدَّى لطلائع حملات الفرنجة في الأناضول عام 489 هـ 1096[7].

وتوارثت الأُسرةُ المُلكَ في بلاد الرُّوم، حتَّى كانت وفاة السُّلطان ملك شاه الثَّاني[8]عام 485 هـ هـ 1192م، فتولَّى السَّلطنة غياث الدِّين كيخسرو[9] الأوَّل[10] ابن قلج أرسلان الثَّاني، ولكنَّه في عام 599 هـ 1203م، تعرَّض للهُجُوم من قبَل أخيه رُكن الدِّين سُلَيْمان، الذي حاصره في قونية، وأخذها منه، فهرب غياث الدِّين، "وقصد الظَّاهر غازي صاحب حلب، فلم يجد عنده قبولاً"، وحطَّ به الرحال ـ أخيراً ـ في القسطنطينيَّة[11]، فأحسن إليه الإمبراطُور البيزنطي، وزوَّجه ابنةَ أحد وجهاء البلاط. ولمَّا استولى الفرنجُ على القسطنطينيَّة عام 600 هـ 1204م، هرب كيخسرو إلى قلعة حَميَّه.

---

1 - تنتسب الدولة العُثمانية إلى عُثمان بن أَرْطغْرُل بن سُلَيْمان، الذي أقام مملكته على أنقاض دولة سلاجقة الرُّوم، واستقلَّ في عاصمته يكي شهر، بعد مقتل آخر سلاطينهم بيد التَّتار عام ٦٩٩ هـ ١٣٠٠م، ثُمَّ أخذ يتوسَّع في الأناضول. راجعْ كتاب: تاريخ الدولة العلية العُثمانية، مُحمَّد فريد بك المحامي، ١١٧ ـ ١١٨.

2 - الأناضول: مُرتفعات آسيا الصُّغرَى، وهي ما كان يُعرَف في العصر الأيُّوبي باسم بلاد الرُّوم، ونسبة إليها سُمِّي السلاجقة: سلاجقة الرُّوم، وأحياناً: الرُّوم.

3 - حول حياة هذا السُّلطان راجعْ كتاب: The Seljuks in Asia Minor, Tamara Rice, p 43

4 - نيقيه: مدينة في آسية الصُّغرَى قُرب القسطنطينيَّة.

5 - قونية: مدينة وسط الأناضول، جنوب أنقرة، يقول ياقوت: من أعظم مُدُن الإسلام بالرُّوم، وبها قبر أفلاطون.(مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: قونية)، والشهير فيها ـ الآن ـ قبر الصوفي والشاعر المولى جلال الدِّين الرُّومي، صاحب الطريقة المولوية.

6 - حول حياة السُّلطان قلج أرسلان ـ Kilq Arslan راجعْ:

The Seljuks in Asia Minor, Tamara Rice, p 50

7 - راجعْ كتاب: بلاد التُّرك في العُصُور الوُسْطَى، زبيدة عطا، دار الفكر العَرَبي، القاهرة / بلا.

8 - ملك شاه الثَّاني: سُلطان سلاجقة الرُّوم، حَكَمَ في الفترة ما بين السنوات ١١٨٨ ـ ١١٩٢م. ـ راجعْ سلسلة نسب مُلُوك سلاجقة الرُّوم في الملاحق.

9 - كيخسرو: اسم فارسي من مقطعَيْن: كيا ـ خسرو.

10 - حول حياة السُّلطان KeyhÜsrev راجعْ:

The Seljuks in Asia Minor, Tamara Rice, p 67

11 - اسمها القديم بيزنطة، بنى المدينة الجديدة الإمبراطُور الرُّوماني قسطنطين الكبير، ودشَّنها عام ٣٣٠ م، فدُعيَتْ باسمه.

وتُوفِّي رُكن الدِّين سُلَيْمان الثَّاني عام 599 هـ 1203م، فخلفه ابنه قلج أرسلان الثَّالث، ولكن الأتراك الأوج ـ وهم مُعظم قبائل تلك البلاد ـ لم يقبلوا به، واستدعوا غياثَ الدِّين، فدخل قونية عام 600 هـ 1204م، واستقرَّ بها سُلطاناً لأتراك الأناضول، أو سلاجقة الرُّوم[1].

وفي هذه الفترة التي كانت تسود فيها أجواء الجهاد ضدَّ الفرنجة، ومُحاولات استنهاض هِمَم المُسلمين للدفاع عن مُقدّساتهم في فلسطين، نُلاحظ عدم وُجود أيِّ فكرة لدى سلاجقة الرُّوم تخصُّ التضامن الإسلامي، علماً أنَّهم كانوا ـ وقتها ـ قليلي الانشغال بمُحاربة البيزنطيين[2]، وسنُلاحظ أنَّه لن يكون للدِّين أيُّ أثر بعلاقاتهم السِّياسيَّة، أو بتحرُّكاتهم العسكريَّة، التي بُنيت ـ أصلاً ـ على الجهاد ضدَّ البيزنطيين، واستخلاص الأرض منهم، وإعمارها بالأتراك، بل على العكس من ذلك؛ إذْ نجد أن وضعهم على الحُدُود البيزنطيَّة أخذ يسوده السلام، ومُنْذُ تولِّي كيخسرو السَّلطنة، ومع كُلِّ مشاكله مع أبناء البيت السلجوقي، نراه يلتفت للتدخُّل بقُوَّة وفاعلية باتِّجاه الجنوب الشرقي صوب الجزيرة، ومناطق السيطرة الأيُّوبيَّة.

فما هي دوافع كيخسرو في هذا الاتِّجاه؟! يعتقد بعضهم أن حالة الانقسام والتشرذم في الجزيرة، ووُجود أعداد كبيرة من الأتراك والتُّركمان فيها، هي من أقوى دوافعه[3]، ويعتقد آخرون بوُجود أطماع اقتصاديَّة لكيخسرو في سُهول الجزيرة الخصبة، وللوُصُول إلى نهر الفُرات كشريان مُواصلات[4]. ولكنْ؛ قبل أن نُقرِّر يجب أن نُلاحظ أن العُنصُر التركي كان ينتشر في الجزيرة، وفي مساحات واسعة حولها، وصحيح أن إمارات الجزيرة مُتفرِّقة، لكنَّ حُصُونها منيعة، وتنتظم مُعظمُها في أحلاف عسكريَّة قويَّة، كما أن المناطق السهلية قليلة في الجزيرة العليا، ونهر الفُرات في أعاليه لا يصلح للملاحة. لكنَّنا نعتقد أن اندفاع كيخسرو بمُخطَّطاته التوسُّعية تجاه الجزيرة، ومن ثَمَّ؛ حلب، ورُبَّما الشَّام بكاملها، كان بدوافع أُخرى، مهَّدتْ لها علاقة الوفاق والتقارب مع الإمبراطور

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 200، راجعْ: The Seljuks, Rice , P. 43.50 -

2 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 242.

3 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 233.

4 - السياسة الأمنية، نورة باذياب، 671 ـ 675.

البيزنطي في نيقية، الذي لم يُشكِّل تهديداً لدولة السلاجقة، بقدر ما كان درعاً لها أمام دولـة اللاتـين في القسطنطينيّة[1]، التي حرصت على تحقيق نوع من السلام بينها وبين سلطنة السلاجقة[2].

أمّا الدافع الأكبر لكيخسر؛ فقد تجلّى بسعيه لتحقيق حالة من التوازن في مملكته، بإقامـة جنـاح شرقي لها يوازن به الجناح الغربي في آسيا الصُّغْرَى، سُكّانياً وعقائدياً وجغرافياً، وإنْ عجِـز كيخسرو وخلفاؤه عن تنفيذ هذا المُخطَّط، فقد نفَّذتْهُ الدولة العُثمانية، التي خلفت دولـة سـلاجقة الـرُّوم بعـد عقود من الزمن.

وهذا يُفسّر لنا السياسة المُتأرجحة ما بين السِّلْم والحَرْب والتحالف والهُجُوم التي اتَّبعتها دولة سلاجقة الرُّوم مع الممالك الأيُّوبيّة وممالـك الجزيـرة عامَّـة مـن جهـة، ومـع الإمبراطُوريّـة البيزنطيّـة وإمارات الفرنج ودولة الأرمن من جهة أُخرى.

---

1 -Pre Ottoman, Clud Cahen, p. 275 + 664

2 -Pre Ottoman, Clud Cahen, p. 122

المبحث الثّاني

بداية العلاقات الأيوّبيّة مع سلاجقة الرّوم

عندما كان السُّلطان صلاح الدِّين يُوحِّد مصرَ والشَّام، ويُركِّز اهتمامه على مُحاربة الفرنج وتحرير الأرض، كان سُلطان سلاجقة الرُّوم في الأناضول، قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان[1]، يُوزِّع مملكته على بنيه العشرة، "فقوي كُلٌّ منهم في ثغره، واستقلَّ بأمره، ودبَّ في طبعه حُبُّ الاستيلاء والاستبداد، ومدّ عينَيْه إلى ما في يد صاحبه من البلاد"[2].

كان أكبر هؤلاء الأبناء قُطب الدِّين ملكشاه، وهُو صاحب سيواس، "فهاجم قونيه عاصمة أبيه، وقتل أُمراءه، وأبقاه معه كالمُعتقل، واستكتبه أنَّه وَليّ عهده، والقائم بالسَّلْطَنَة معه، ومن بعده، وذهب لحصار أخيه سُلطان شاه في قيسارية، فتمكَّن الأب من الفرار إلى غياث الدِّين كيخسرو صاحب برغلو، فجمع له، وحشد، وسار معه إلى قونيه، فدخلها، ثُمَّ مات، فتولَّى غياث الدِّين فيها"[3].

ويبدو أن أبناء البيت السلجوقي - أثناء صراعهم - قد طلبوا تدخُّل السُّلطان صلاح الدِّين، فأرسل قاضيَ العَسْكَر ابنَ الفرَّاش يتوسَّط بين السُّلطان قلج أرسلان وأولاده، فتردَّد يُسفر بينهم سنة، وعاد[4]. وبعد وفاة صلاح الدِّين؛ كان يلوح في أُفق الشَّام أن ابنه الظَّاهر غازي صاحب حلب سيُشكِّل أكبر قُوَّة أيُّوبية شمالية، وفي عهده؛ تطابقت السياستان الحلبية والسلجوقية، وغلب على علاقتهما التحالف والتعاون. وعندما هدَّد ليون ملك الأرمن أمنَ مملكة السلاجقة، بقُوَّته العسكريَّة وحُصُونه المنيعة، والأهمّ من ذلك تمكُّنه من فتح ميناء بحري على المُتوسِّط لاستقطاب التجارة العالمية[5]، قدَّم الظَّاهر غازي نجدة عسكريَّة قويَّة، فيها عدد من كبار أُمراء حلب، دعمت الجيشَ السلجوقيَّ في هُجُومه على مملكة الأرمن[6].

---

1 - قال ابن الأثير في أحداث عام 600 هـ: "تُوفِّي رُكن الدِّين سُلَيْمان بن قلج أرسلان بن مسعود ابن قلج أرسلان بن سُلَيْمان بن قتلمش بن سلجوق صاحب الرُّوم، بعد أن أخذ أنقرة من أخيه، وقتله، فاجتمع الناس على ولده قلج أرسلان بن سُلَيْمان، وكان صغيراً".(الكامل في التاريخ، 12/ 195).

2 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 426، - راجعْ التفاصيل في: بلاد التُّرك في العُصُور الوُسْطَى، زبيدة عطا، 103.

3 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار،13/ 426.

4 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار،13 / 428.

5 - هُو ميناء إياس على البحر الأبيض المُتوسِّط، وكانت أهمّ أسباب الهجمات السلجوقية ضدَّ مملكة الأرمن هي أسباب اقتصاديَّة، فالتنافس على اجتذاب خُطُوط التجارة بينهما كان على أشدِّه.(السياسة الأمنية، نورة باذياب، 667).

6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 187، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 111، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 188، وكَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 112.

وإزاء هذا التحالف سارع ليون ملكُ الأرمن - الذي لم يكن غريباً عن معرفة توزُّع القوى السِّياسيَّة في المنطقة، وتناقضاتها - فاتَّصل بالملك العادل صاحب القُوَّة الأيُّوبيَّة الأكبر، فوجد العادل بهذا الطلب إقراراً بقُوَّته، وبفاعليَّتها على مُختلف الساحات، فأجابه، وراسل كيخسرو، الذي لبَّى طلبَ العادل، وعقد الصُّلح مع ليون بشُرُوط يستفيد منها كُلُّ الأطراف[1]، وعلى ما يبدو؛ كانت تلبية كيخسرو لطلب العادل توافق مصالحه، فقد حصل على كُلِّ ما يُريده من مملكة الأرمن، فلم يكن في نيَّته القضاء عليها، وهذه سياسة عامَّة سنراه يُطبِّقها مع الإمارات والممالك المُجاورة؛ إذْ يكتفي منها بالتبعية، ودفع الجزية، ورُبَّما يُفضِّلها على الاحتلال المُباشر.

كما أن مصلحة الظَّاهر غازي في تحقيق حالة سلْم مُستقرّ مع مملكة أنطاكية، لتردِّي أوضاعها الدّاخليَّة والعسكريَّة، وحتَّى يتفرَّغ لمُخطَّطات عمِّه العادل، قد انعكست على نتائج الحملة المُشتركة السلجوقية الحلبية ضدَّ الأرمن، ونراها واضحة في أحد شُرُوط المُعاهدة معهم؛ وهُو: ردّ الأرمن حصن بغراس للدَّاوية، وأنْ لا يتعرَّضوا لأنطاكية[2]. وإذا تمكَّن كيخسرو من تسوية كُلِّ المشاكل مع إمبراطُور القسطنطينيَّة اللاتيني هنري دي فلاندرز، فإنَّه - على ما يبدو - اضطرَّ أن يخوض معركة مع ثيودور لارسكارس[3] الإمبراطُور البيزنطي في نيقية، فانتصر كيخسرو، ولكنَّه قُتل أثناء مطاردة المنهزمين[4]. فخلفه أولاده الثلاثة: قلج أرسلان (Kilïj Arslan) أخذ السَّلطنة، وعزّ الدِّين كيكاوس (Kay-KäÜs) في ملطية، وعلاء الدِّين كَيْقُباذ (Kubädh - Kay)[5] في توكات[6]، وسُرعان ما تفرَّغوا للصراع على التركة، ممَّا أربك سياسة الظَّاهر، الذي كان يعتمد على تحالفه مع مملكة السلاجقة بشكل أساسي، فحاول التدخُّل للصُّلح بينهما، لكنَّ جُهُوده كانت بلا جدوى[7].

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 629.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 629، - ونجد أن ابن العديم هُو المصدر الوحيد الذي ذكر شُرُوط هذه المُعاهدة.
3 - تدعو المصادر العَرَبيَّة هذا الإمبراطُور باسم الأشكري، تعريباً للقبه لاسكاريس.
4 - Pre Ottoman, Clud Cahen, p. 1211
5 - علاء الدِّين قيقباذ الأوَّل: (616 - 634 هـ 1219 - 1236م)، وقيقباذ اسم فارسي من مقطعَيْن: كيا - قباد، وقد ورد الاسم لدى مُعظم المُؤرِّخين العَرَب بالذال المُعجمة، على عادة العَرَب بقلب كُلّ دال فارسية إلى ذال مُعجمة، لذلك؛ آثرتُ رَسْمَهُ بهذا الشكل. وهُو ألمع سلاطين سلاجقة الرُّوم، قال عنه ابن العبري: " كان ممتازاً بين مُلُوك زمانه بمنظره المخيف، وذكائه المُفرط، وشخصه النقيّ المُنزَّه عن كُلِّ الأهواء الرديئة، خلافاً لمُلُوك العَرَب المعتادين الانغماس فيها". (تاريخ الزَّمان، ترجمة: إسحق أرملة، 283).
6 - Pre Ottoman, Clud Cahen, p 121
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 217.

وفي عام 613 هـ ـ1216م، أثناء اشتداد تخوُّف الظَّاهر غازي من عمِّه العادل، الذي سيطر على مصر ودمشق، وانفرد بأكبر قُوَّة أيُّوبية، راسل الظَّاهر كيكاوسَ بن كيخسرو، فأجابه، وخرج بنفسه يقود الجيش إلى أطراف الجزيرة، ليذهبا بحملة مُشتركة ضدَّ ملك الأرمن، الذي احتلَّ أنطاكية، وهُو ـ في الوقت نفسه ـ حليف للعادل، "فندم الظَّاهر، ورأى أن حفْظَ بيته أَوْلَى، وأن اتِّفاقه مع عمِّه أجمل"[1]، فما الذي جعل الظَّاهر يندم؟! هل هُو الخوف من وُقُوعه تحت سُلطة كيكاوس؟! أم شعر بأنَّه يحالف غريباً ضدَّ سُلطان البيت الأيُّوبي؟!

وفي الحقيقة نجد أن أقرب الاحتمالات إلى فكْر الظَّاهر غازي هُو الهاجس الذي كان يُسيطر على كُلِّ مُلُوك الأيُّوبيَّة وأُمرائهم، وله وجهان: الوجه الأوَّل، حُبُّ التملُّك والسُّلطة والوُصُول إلى السَّلطنة العُظْمَى إنْ أمكن، والوجه الثَّاني، الحفاظ على وحدة البيت الأيُّوبي، الذي يرون فيه ـ بالنتيجة ـ نوعاً من الحماية والأمن المُشترك. فراسل الظَّاهر عمَّه العادلَ يستميله، ويطلب منه أن يحلف له ولوَليِّ عهده.

وكان كيكاوسُ يحثُّ الظَّاهر على الخُرُوج، فضاق صدرُ الظَّاهر، فَرَأيُ عمِّه العادل لم يصلْ بعدُ، فإنْ خرج يكون قد أفسد ما بينه وبين عمِّه، وإنْ رجع عن عزمه يُفسد ما بينه وبين كيكاوس. "وحاول الاعتذار للرومي بوجه جميل، ولشدَّة فكره مرض، ومات"[2]، فلاحت الفُرصة لكيكاوس لاستغلال الظُّرُوف الناجمة عن وفاة الظَّاهر غازي صاحب حلب، ومنها:

1 ـ وُجُود طفل صغير بالحُكْم في حلب.

2 ـ معارضة بعض أُمراء حلب لأتابكية طَغْريل لملك حلب الطفل.

3 ـ حقد كيكاوس على الظَّاهر غازي، فقد عدَّه مسؤولاً عن توريطه بالخُرُوج بحملة عسكريَّة ضدَّ الأرمن، ثُمَّ تخلَّى عنه، والتجأ لحلف عمِّه العادل.

5 ـ انشغال الملك العادل بهُجُوم الفرنج على دمياط، وجهده في تسيير النجدات من الشَّام إلى مصر.

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 637.

2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 637.

6 ـ وُجُود مَنْ يُحبِّذ أتابكية الملك الأفضل لابن أخيه الظَّاهر من أُمراء حلب، والأفضل في طاعته كيكاوس، ويخطب له[1].

"لما مات الظَّاهر، وتولَّى ابنه العزيز وهُو طفل، وقع الطمع في بلاده، وَحَسَّنَ بعضُهُم للمَلك الغالب عزّ الدِّين كيكاوس بن كيخسرو سُلطان الرُّوم قصدَ حلب، وتملُّكها، وقالوا: المصلحة أن تستعين بالأفضل، فإنَّه في طاعتكَ، ويخطب لكَ، والناس مائلون إليه"[2].

استدعى كيكاوسُ الأفضلَ من سُمَيساط، وأكرمه، وأقنعه أن يسير معه، ويُكاتب أُمراء حلب ليأخذها له، ويأخذ كيكاوس بلاد الأشرف. وكاتب كيكاوس علمَ الدِّين قيصر مُتولِّي قلعة دربساك، فسار إليه، وجاهر بالعصيان، ووافقه الصَّالح الأرتقي صاحب آمد، وكذلك نزل إليه نجم الدِّين ألطنبغا الظاهري من بَهَسْنَا، وكان قد عصي بها[3].

وسار كيكاوسُ والأفضلُ فأخذا رعبان، وسُلِّمت للأفضل، ثُمَّ حاصر كيكاوس قلعة بَهَسْنَا[4]، ولمَّا أخذت تلّ باشر، وهي من مملكة حلب، احتفظ بها كيكاوس لنفسه، "فنفرَ الأفضل، وقال: هذا أوَّل الغدر، ونفرت أهل البلاد، فقد كانوا فرحين بمملكة الأفضل، فلمَّا رأوا ذلك خافوا"[5].

ولمَّا تحقَّق الأفضل من سُوء نيَّة عزّ الدِّين كيكاوس "أشار عليه بقصد البلاد، وتأخير حلب، لمُرُور الزَّمان في غير فائدة، لئلا يتحصَّل مقصودة"[6]. وبالفعل؛ فإنَّه خلال الوقت الذي أضاعه كيكاوس، أمام منبج وغيرها، وصلت النجدات إلى حلب، ووصلها الملك الأشرف مُوسى بقُوَّاته

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 644، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 309.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 263.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 265 ـ 266، ـ الطنبغا: هي ألتون بغا، لفظة تركية تعني الثور الذهبي، وهُو من أُمراء الظَّاهر غازي، زوَّجه إحدى سراريه، وولاَّه قلعة بَهَسْنَا، فاتَّفق مع كيكاوس، ونزل إليه ليُسلِّمه القلعة، فتسلَّمت زوجته القلعة، وعصيت بها، فعذَّبه كيكاوس أمام القلعة، ثُمَّ قتله، ولم تُسلِّم إليه، وبعد هزيمة كيكاوس؛ تسلَّم نُوَّابُ العزيز القلعةَ، وأنعم على زوجة الطنبغا وأولادها بإقطاع إعزاز (أخبار الأيُّوبيِّيْن ابن العميد،10).
4 - يقول ابن العميد إن الذي نزل على قلعة بَهَسْنَا هُو كَيْقُبَاذ، (أخبار الأيُّوبيِّيْن،ابن العميد،10)، وهذا وَهْم.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 263.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 266.

التي كان يُهاجم بها أرضَ الفرنج، عند صافيتا وقلعة الحصن، ليمنعهم من إنجاد الفرنجة النازلين على دمياط[1].

إن حَرَكَة كيكاوس في هذا التوقيت الصعب بالنِّسبَة للأيُّوبية، عام **615** هـ **1218**م؛ حيثُ الفرنج يداهمون دمياط، رُبَّما تكون هي التي دفعت المُؤرِّخ أبو شامة لاتِّهام كيكاوس بتحريض الفرنج على غزو دمياط[2]، فأثناء نُزُول الفرنج على دمياط، واستنفار الكامل، وطلبه النجدة من مُلُوك الشَّام، والعادل في مرج الصفر يجمع العساكر، "ورد الخبر بحَرَكَة الملك الغالب كيكاوس السلجوقي سُلطان الرُّوم إلى البلاد الشَّاميَّة"[3]، وممَّا لا شكَّ فيه أن كيكاوس عرف بغزو الفرنج، واستغلَّ الفُرصة، ولم يُحرِّكه أيُّ وازع ديني لُمساعدة الأيُّوبيَّة، أو حتَّى للوُقُوف على الحياد، بل نجد أنَّه هجم يُريد اقتسام الغنيمة. "وكان كيكاوس يُريد المُلك لنفسه، ويجعل الأفضل ذريعة للتوصُّل إليه"[4].

ثُمَّ سار كيكاوس، وفتح منبج، وأمام هذا الهُجُوم استنجد طَغْريل أتابك حلب بالعادل، الذي رغم اهتمامه الكبير بنجدة ابنه الكامل ضدَّ الفرنج في مصر، فإنَّه أوعز لابنه الأشرف بالتحرُّك لانجاد حلب، وانضمَّ إليه مانع ابن حديثة أمير العَرَب.

"فلمَّا سمع عزّ الدِّين كيكاوس بذلك، وكان بمنبج، ولَّى منهزماً، وقد ملأ الرعب قلبه، ورحل الأشرف متبعاً له، يتخطَّف أطراف عسكره، فأخذ تلّ باشر، ورعبان، وتلّ خالد، وبُرج الرصاص، وأعطى الجميع لابن أُخته الملك العزيز"[5]. "وسيَّر كيكاوس ألف فارس هُم نخبة عسكره، فوقع عليهم العَرَب، واستباحوهم قتلاً وأسراً، فهرب كيكاوس"[6]. وبعد أن استردَّ الملك الأشرف كُلَّ البلاد عاد دُون أن يستثمر انتصاره، وذلك لوُصُول خبر موت أبيه السُّلطان العادل[7]،

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 265.
2 - أبو شامة ، ذَيْل الرَّوضَتَيْن، 112.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 309.
4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 644.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 267.
6 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 645.
7 - بغية الطلب، ابن العديم، 1/ 105، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 263، والمنصُوري، ابن نظيف، 74.

وفي الحقيقة؛ نستطيع أن نستنتج أَنَّه كان هُناك أكثر من سبب لعودة الأشرف عن مطاردة كيكاوس بعد هزيمته، وليس موت العادل فقط، منها:

1 ـ لم تكن الهزيمة كاملة لكيكاوس، فمُقدِّمة جيشه ـ فقط ـ هي التي هُزِمَتْ، ورُبَّما تكون صُورة الرُّعب التي صوَّر بها بعض المُؤرِّخين تراجُعَ كيكاوس مُبالغاً فيها، فالأشرف لم يجرؤ على الاصطدام بجيش كيكاوس، الذي لم تمسّه الهزيمة، بل كان يقوم بأعمال عسكريَّة محدودة خلف خطّ تراجع كيكاوس، بأنْ يتخطَّف المُتخلِّفين، وأطراف العَسْكَر.

2 ـ الأخبار الواردة من مصر عن أَخْذ الفرنج لدمياط؛ الثغر الاستراتيجي لمصر، وإمكانية تقدُّمهم داخل البلاد المصريَّة، ورُبَّما للشام، ولا أدري ما هُو سند المُؤرِّخ الدمشقي أبو شامة، أو مصادره، عندما اتَّهم كيكاوس بأَنَّه "هُو الذي أطمعَ الفرنج في دمياط"؟![1].

وفي عام 611 هـ ـ 1214 م، عوَّض عزّ الدِّين كيكاوس تراجُعَهُ عن الجزيرة وحلب بظفره بعدوِّه القديم الأشكري[2] قاتل أبيه غياث الدِّين كيخسرو، فقد أمسك به جماعة من التُّركمان أثناء خُرُوجه للصيد، وحملوه إلى كيكاوس، ففدى نفسه بأموال طائلة، "وتسليم قلاع وبلاد لم يملكها المُسلمون قبل ذلك قطُّ"[3].

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 113، ـ وقد وهمت د. باذياب؛ حيثُ اعتقدت أن أبو شامة اتَّهم كَيْقُبَاذ،(السياسة الأمنية للسُّلطان كَيْقُبَاذ، د. نوره باذياب، 681)، بينما هُو ـ في الحقيقة ـ قد أتَّهم كيكاوس، مع أن نصَّ أبي شامة واضح؛ إذْ يقول في أحداث عام 615 هـ : "وكانت وفاة كيكاوس في شوَّال، وهُو الذي أَطْمَعَ الفرنج في دمياط". راجعْ: السياسة الأمنية للسُّلطان السلجوقي علاء الدِّين كَيْقُبَاذ الأوَّل، وأثرها على التقدُّم الاقتصادي لبلاده، د. نوره عبد الله باذياب، مجلَّة المُؤرِّخ العَرَبي، العدد الثَّامن، المجلَّد الأوَّل، مارس 2000، اتِّحاد المُؤرِّخين، القاهرة.

2 - اللّشكري: أو الأشكري هُو يثودور لاسكاريس، ثاني أباطرة البيزنطيين في نيقية، وقد أسَّس هذه الدولةَ الإمبراطُور قسطنطينُ الحادي عشر عام 1204م 600 هـ، عندما استولى اللاتين على القسطنطينيَّة في الحملة الرابعة، وخلفه ثيودور الأوَّل لاسكاريس (4120 ـ 1222). وتمكَّن خلفه ميخائيل الثَّامن عام 1261م، من العودة إلى القسطنطينيَّة، وطرد اللاتين منها.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 225.

المبحث الثَّالث

العلاقات في عهد السُّلطان كَيْقُبَاذ

تبدَّلت سياسة سلاجقة الرُّوم تجاه الأيُّوبيِّين بعدما مات كيكاوس عام 615 هـ ـ 1218[1]، وخلفه أخوه علاء الدِّين كَيْقُبَاذ[2]، الذي راسل الملك الأشرف، واتَّفق معه[3]، ضمن سياسة حلّ المشاكل مع الأقوياء، والتفرُّغ للضُّعفاء. فقد حلَّ كَيْقُبَاذ مشاكلَهُ مع الأشرف، ومع عمِّه طغرل شاه[4] صاحب أرزن الرُّوم[5]، وعدل عن سياسة سلفه ذات المُيُول للتوسُّع جنوباً نحو حلب، ومدّ أنظاره شرقاً نحو أملاك الأراتقه في آمد. ورُبَّما كان الدافع الكبير وراء سياسة كَيْقُبَاذ هُو خوفه من الخطر الخوارزمي، فجلال الدِّين منكبرتي يكتسح ممالك الشَّرق، ويتقدَّم غرباً، وقد مدَّ نُفُوذه نحو الجزيرة وأطراف الأناضول بتحالفه مع الملك المسعود بن الصَّالح الأرتقي صاحب آمد، ضمن حلف ضمَّ المُعظَّم بدمشق، ومُظفَّر الدِّين في إربل[6].

وصادفت تلك السياسةُ هوىً في نفس الأشرف، الذي كان في ذروة صراعه مع أخيه المُعظَّم وحُلفائه، وفي عام 623 هـ ـ 1226م، طلب الأشرف من كَيْقُبَاذ أن يقصد آمد، فوجَّه إليها جيشه، وفتح بعض الحُصُون حولها، ممَّا اضطرَّ صاحبها الصَّالح الأرتقي أن يتخلَّى عن حُلفائه، ويلتجئ للملك الأشرف، الذي طلب من كَيْقُبَاذ الكفَّ عن آمد، وردَّ ما أخذ من حُصُونها، ولكن علاء الدِّين كَيْقُبَاذ "امتنع، وقال: ما كُنتُ نائباً للأشرف يأمرني مرَّة، وينهاني في أُخرى"[7]، و أراد الأشرف أن يحفظ ماء وجهه مع صاحب آمد، فأرسل إليه نجدة عسكريَّة لمُساعدته في فكّ حصار جيش علاء

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 113.

2 - 616 ـ 634 هـ/ 1219 ـ 1236م.

3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 650.

4 - مُغيث الدِّين طغرل شاه بن قلج أرسلان.

5 - أرزن الرُّوم: بلدة من أرمينية أهلها أرمن، وهي ـ الآن ـ ولاية ونواح واسعة كثيرة الخيرات. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة :أرزن الرُّوم)، وهي آخر حَدِّ بلاد الرُّوم من جهة الشَّرق.(كتاب الجَغرافية، المغربي، 187)، وبها منبع الفُرات من شرقيها وشماليها. (تقويم البُلدان، أبو الفداء، 385)، ويُقال لها: (**Erzurum**) أو أرضروم؛ راجع: **Pre Ottoman, Clud Cahen, p 125**

6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 202 ـ 203.

7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 203.

الدِّين عن قلعة الكختين، ومع ذلك؛ انتصر جيش علاء الدِّين، واستولى عسكر الرُّوم على الكختين[1]، ولم يستطع الأشرف أن يفعل أكثر من ذلك، فمُعظم عساكره قد توجَّهت نحو حمص؛ نجدة لها من هُجُوم المُعظَّم[2].

ويبدو أن الأشرف لم يردْ أن يُوسِّع الفجوة مع كَيْقُبَاذ، في وقت لا ينقصه فيه الأعداء، فعاد إلى حَرَّان مُحاولاً تهدئة الأُمُور مع كَيْقُبَاذ، ورُبَّما لم يكن كَيْقُبَاذ نفسه يرغب بفتح جبهة مع الأيُّوبيِّين، مع أنَّه يُدرك ضعفهم، فتجاوز الأشرف، وتوجَّه إلى سُلطان البيت الأيُّوبي الملك الكامل مُباشرة. ففي عام 623 هـ 1226م، قدِم رسول كَيْقُبَاذ بهدية جليلة إلى الملك الكامل[3]، ونستطيع أن نعدَّها تعبيراً عن حُسن النيَّة، ومدّ جسور الصداقة مع الملك الكامل والأيُّوبية عموماً، خاصَّة؛ بعد تحقيق نصر دمياط. وقد استمرَّت السياسة السِّلْمية التي اتَّبعها كَيْقُبَاذ، حتَّى أدَّت إلى قيام سِلْم قلَّما شهدت المنطقة مثيلاً له، ويدُلنا عليه تجمُّع رُسُل الخليفة، ورُسُل الملك الأشرف، ورُسُل الملك المُعظَّم، ورُسُل الملك المُجاهد، ورُسُل أتابك حلب عام 624 هـ 1227م، في وقت واحد، في بلاط علاء الدِّين كَيْقُبَاذ[4]. ورُبَّما كان من أحد أهمِّ أسباب هذا السِّلْم هُو الخطر الخوارزمي الذي يلوح في الشَّرق، ولتأكيد حالة السِّلْم هذه تدخَّل كَيْقُبَاذ حتَّى بين مُلُوك البيت الأيُّوبي، مُحاولاً منع الخلافات بينهم، فعندما تحرَّك المُعظَّم نحو حمص في عام 624 هـ 1227م، بعد اتِّفاقه مع جلال الدِّين الخوارزمي ومُظفَّر الدِّين كوكبوري، أرسل كَيْقُبَاذ رسولاً عالي المُستوى هُو المهمندار[5] نجم الدِّين إلى الملك المُجاهد يحمل جواب رسالة كان المُجاهد قد أرسلها إلى كَيْقُبَاذ، ويبدو أنَّه ـ بعد الاتِّفاق السَّابق عنده ـ أرسل المُجاهد يُخبره بتحرُّك المُعظَّم ضدَّه، فأوفد المهمندار إلى الملك المُعظَّم، وخلال مُروره في حمص نحو دمشق "اجتمع به السُّلطان الملك المُجاهد في جواب رسالته، وفاوضه، وقال: قد وصلت من صاحبي في قضاء شغلك مع المُعظَّم، وإزالة اعتراضه على جميع مالك"، وصادف وُصُوله تحرُّك

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 203.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 179.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 3/ 344.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 143.
5 - المهمندار: هُو مَنْ يتلقَّى رُسُلَ السُّلطان الواردة، ويُنزلهم في دار الضيافة (صُبح الأعشى، القلقشندي، 5 / 459).

طلائع المُعظَّم نحو حماة، وتصدَّى المُجاهد لها، وردَّها خاسرة[1]. وكما كان لعلاء الدِّين كَيْقُبَاذ مُخطَّطاته السِّياسيَّة والعسكريَّة الخارجيَّة كانت له - في الوقت نفسه - مُخطَّطاته ضمن البيت السلجوقي في الأناضول، ففي عام 625 هـ 1228م، استولى كَيْقُبَاذ على أرزنكان[2]، ثُمَّ بدأ يُحضِّر للهُجُوم على أرزن الرُّوم، وبها ابن عمِّه طغرل شاه بن قلج أرسلان، الذي خاف وأعلن تبعيَّته للملك الأشرف، واستنجد بنائب الأشرف في خِلاط. فسار الأمير حُسام الدِّين بن أبي علي نائب خِلاط بعساكره، التي كان قد جمعها تحسُّباً لحركة كَيْقُبَاذ، فقد كان يُدرك أن الهدف الثَّاني لكَيْقُبَاذ بعد أرزن هُو خِلاط، فتقاعس كَيْقُبَاذ عن قصده، وفشلت مُخطَّطاته[3].

وفي عام 625 هـ 1228م، اتَّفق الملك الأشرف والسُّلطان الكامل على أَخْذ دمشق من ابن أخيهما داود بن المُعظَّم، ولمَّا تمَّ لهما الأمرُ، تسلَّمها الملك الأشرف مُقابل عدَّة مناطق من الجزيرة تسلَّمها السُّلطان الكامل، فدخل الكامل - بذلك - ميدان السياسة الجزرية، وأعقب هذا الدُّخول السِّياسي تحرُّك عسكري، كان له نتائج كبيرة على سلطنة الأيُّوبيِّين، وعلاقاتهم ببعضهم البعض. وأبعدت تلك التسويةُ الملكَ الأشرف عن ميدان الجزيرة، وجعلتها آخر اهتماماته، وقرَّبت الكاملَ من حُدُود سلطنة سلاجقة الرُّوم، ومهَّدتْ لعلاقة تحالف بينه وبين كَيْقُبَاذ، ثُمَّ أعقب التحالف قيام أكبر حملة أيُّوبية على بلاد سلاجقة الرُّوم.

فبعد دُخُول الملك الكامل عالم الجزيرة، عام 626 هـ 1229م، قام صاحب ماردين بإعلان خُرُوجه عن طاعة كَيْقُبَاذ، وخطب للسُّلطان الكامل في بلاده، وضرب السِّكَّة باسمه[4]. وفي الوقت نفسه كان رسول حُسام الدِّين صاحب أرزن الرُّوم يُرسل هداياه للأشرف، ويعتذر عن تحالفه مع

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 146.

2 - أرزنجان: بلدة طيِّبة مشهورة، كثيرة الخيرات والأهل، من بلاد أرمينية قريبة من أرزن الرُّوم، وغالب أهلها أرمن. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: أرزنجان)، وهي تقع على ضفَّة الفُرات اليمنى.(تقويم البُلدان، أبو الفداء، 385)، كان يحكمها بنو منكوجك، وهم أُسرة تركمانية، كوَّنت إمارة لها غرب الفُرات في أرزنجان وعدَّة بلدات حولها، حكمها فخر الدِّين بهرام شاه، ثُمَّ خلفه ابنه علاء الدِّين داود شاه، وظلُّوا يخضعون لسلطنة سلاجقة الرُّوم، حتَّى احتلَّ كَيْقُبَاذ بلادَهُم في عهد داود، الذي كان عالماً بالطِّبِّ والفَلَك، بعيداً عن أُمُور السياسة والحَرْب. راجع: ابن بيبي، مُختصر سلجوق نامة، تعريب: مُحمَّد السعيد جمال الدِّين، 143. و Pre Ottoman, Clud Cahen. p 126

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 480 - 479.

4 - المنصُوري، ابن نظيف، 188.

كَيْقُبَاذ[1]. إن هذه المواقف المُتردِّدة وغير المُستقرَّة للضُّعفاء في تحالفهم مع الأقوياء كانت تهدف لكسب أكبر قدر من الوقت في الحُكم، بعيداً عن خطر الاجتياح، فلم تكن لمُعظم الأُمراء في الجزيرة سياسة ثابتة، ولا ولاء دائم، حتَّى مع أقرب الأقرباء، وهُنا ينطبق القول: لا عدوّ دائم، ولا صديق دائم، في السياسة، وإنما مصلحة دائمة.

ولكنْ؛ إن استطاعت هذه السياسة المُتقلِّبة مع القوى الكُبْرَى أن تمنح الضُّعفاءَ بعضَ الوقت، فلن تتمكَّن من منحهم كُلَّ الوقت، في عام 627 هـ 1230م، انضمَّ صاحب أرزن ديار بكر - في آخر تقلُّباته السِّياسيَّة - للقُوَّة الوافدة الجديدة المُتمثِّلة بجلال الدِّين الخوارزمي، أثناء غزوه للجزيرة، ولَمَّا هُزم الخوارزمي، وهرب، قام الأشرف مُوسى بمُحاصرة أرزن الرُّوم، وفتحها، وأخذ صاحبها، وسلَّمه إلى ابن عمِّه كَيْقُبَاذ، فبقي مسجوناً عنده حتَّى مات في سجنه، وسلَّم الأشرف أرزنَ وجميعَ بلادها إلى نُوَّاب كَيْقُبَاذ[2].

التحالف الأيُّوبي السلجوقي:

وعندما داهم الخطرُ الخوارزميُّ الجزيرةَ عام 627 هـ 1230م، اضطرَّ الملك الكامل وعلاء الدِّين كَيْقُبَاذ لتوثيق تحالفهما لمُواجهته، فأرسل كَيْقُبَاذ مَنْ أخذ يمين الكامل على التحالف والمصافاة والنصرة، وكذلك أرسل السُّلطان الكامل رسولَيه: الشهاب أحمد[3]، وجمال الدِّين أبا القاسم عبد الرحمن السكندري[4]، فحلَّفا كَيْقُبَاذ للكامل. وأرسل كَيْقُبَاذ يُخبر الكاملَ أنَّه وجَّه "خمسة عشر ألف فارس إلى أرزنجان، وعشرة آلاف إلى ملطية[5]، وأنَّه حيثُ يأمره الكامل، فطاب قلبُ الكامل بذلك، وكان مُهتمّاً من أمر الخوارزمي"[6]، فقد هاجم جلالُ الدِّين مدينةَ خِلاط، واحتلَّها عام 627 هـ 1230م، وكانت تتبع للملك الأشرف مُوسى.

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 175.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 300، وكَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 299.
3 - الشهاب أحمد: من المُقرَّبين للملك الكامل، تُوفِّي عام 634 هـ - 1236م.
4 - الجمال السكندري: تُوفِّي عام 651 - 1253م.
5 - ملطية: من بلاد الرُّوم مشهورة مذكورة، وهي تُتاخم الشَّام (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: ملطية). وراجعْ: التعريف بالمُصطلح الشريف، ابن فضل الله العمري، 437، وكتاب الجَغرافية، المغربي، 219.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 195 - 196.

كان الكامل بحران، وعندما نزل إلى الرقَّة بلغه فيها أَخْذ جلال الدِّين الخوارزمي خِلاط، وبلغ ذلك الأشرف وهُو بدمشق، فخرج على وجهه، حتَّى أتى الرقَّة، فوصلهم رسول كَيْقُبَاذ ومعه نصُّ الرسالة التي وجَّهها إلى جلال الدِّين الخوارزمي، وهي كما دوَّنها ابن نظيف في تاريخه ضمن أحداث عام 627 هـ، قال: "أورد الكمال كيار رسالة الرُّومي التي كان سيَّرها إلى الخوارزميِّ إلى الكامل الأشرف، وهي أنَّه قال له:

المولى من بيت كبير، ومازلتم ماشين الحال إلى أن غيَّر والدكَ نيَّته، وخبط على نفسه، وآل به الحال إلى ما آل، والآن؛ قد فضَّلتَ هؤلاء بيت أيُّوب، وتجنَّيتَ عليهم، وهم بيت كبير كثير السعادة، قد تأصَّل من سنين، ولهم الإحسان إلى الجُند والرعايا والمُجاورين، ولهم الأموال والبلاد والرجال والأولاد والقُوَّة، وأنت، فلا أموال، ولا رجال، ولا قُوَّة، وبلادكَ خربة، ونحنُ نعرف حالكَ أكثر منكَ، ولا تظنّ أني عدوّهم، لا، والله، بل صديقهم، ونسيبهم، بما بيننا من الأهلية، والمُصاهرة، واختلاط الدّم، ولعمِّي مُعزّ الدِّين، منهم الأولاد، ولي منهم الأولاد، ولا شكَّ جرى بيننا قضيَّة عاتبتهم عليها، وعدنا إلى ما كنَّا عليه، فلا تعتقد غير هذا، والمصلحة عندي نصحكَ، فتُصالحهم، وتعتدّ بهم أصدقاء، فنحنُ نعرف ما وراءك من الأعداء، يُعينونكَ على عدوِّكَ، ويقع الاتِّفاق، وشأنك وشأن الكرج، وغيرهم، وهذا نُصحي لكَ، فلا تغترَّ بمَنْ يُكاتبكَ، ويحلف لكَ، فكُلُّه زُور، وتدفيع للأوقات، وقد - والله - قُلتُ جميع ما يلزمني عقلاً وشرعاً. فكان الجواب أنْ قال لرسولي: عُدْ إلى صاحبكَ، والجواب يصل مع قاصدي"[1].

ونُلاحظ على رسالة كَيْقُبَاذ للخوارزمي ما يلي:

1 - أنَّها إحدى الرسائل السِّياسيَّة القليلة التي تحتوي موضوعاً بهذه الأهمِّيَّة، ووصلتْ إلينا، أو أنَّه بسبب الترجمة وصل إلينا فحواها، من خلال مُؤرِّخ كان مايزال - وقتها - يشغل منصب كاتب ووزير الملك الحافظ بن العادل[2]، الذي كان حاضراً مع أخوَيْه الكامل والأشرف أثناء تسليم الرسالة[3].

2 - بعد أن تستعرض الرسالةُ واقعَ البيت الخوارزمي، وتُعدِّد مآثرَ البيت الأيُّوبي، وعراقته، يُحدِّد كَيْقُبَاذ موقفَهُ السِّياسي من الأيُّوبيِّين، ونستشفُّ أنَّه يملك خطَّاً استراتيجياً بعيد النظر من خلال وصفه لهذه العلاقة، ولكنَّه - للأسف - تراجع عنها بعد سنوات قليلة، واشتبك مع الأيُّوبيِّين.

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 219 - 198.

2 - المنصُوري، ابن نظيف، 174.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 197.

3 ـ الأهمِّيَّة القُصْوَى لهذه الرسالة تتجلَّى باقتراح كَيْقُبَاذ على الخوارزمي صداقةَ الأيُّوبيِّيْن، لتشكيل حلف يستطيع أن يقف وراء الخوارزمي في مُقاومته للتَّتَار، وبالتَّأكيد؛ يكون كَيْقُبَاذ فيه طالما هُو الذي اقترحه.

4 ـ يُنبِّه كَيْقُبَاذ جلالَ الدِّين أن هُناك أعداء خارج الدولة الإسلاميَّة، بإمكانه التوسُّع نحوهم، كالكرج، وغيرهم، بينما لم يتقيَّد كَيْقُبَاذ نفسه بذلك، فقد هاجم مُمتلكات الأيُّوبيِّيْن، وأمامه البيزنطيون، والكرج.

5 ـ نُلاحظ إدراك كَيْقُبَاذ الواقعَ السِّياسي لأُمراء الجزيرة والشَّام، وصَغَارهم، لتآمرهم، وتحريضهم الأعداءَ على بعضهم البعض، وحلفانهم الأيمان الباطلة. ويُنبِّه جلال الدِّين لعدم الاغترار بأقوالهم، والاعتماد على أكاذيبهم، وسيعود كَيْقُبَاذ بنفسه للعب السياسة معهم، بطريقتهم التي انتقدها، وكأنَّه لا يعرفهم. ويبدو أن كَيْقُبَاذ قد أدرك أن الخوارزمي لن يقبل بما نصحه به، لذلك وجَّه مُباشرة رسالة خاصَّة إلى الملك الأشرف يقول فيها:

"تحضر إلى عندي، لنتَّفق على هذا الذي أضرَّ بالبلاد، وأهلك العباد، فعندي المال والرجال"، فشاور الملكُ الأشرفُ أخاه السُّلطانَ الكاملَ على ذلك، فوافق[1]، وردَّ الأشرف في جوابه قائلاً لرسول كَيْقُبَاذ: "أنا أصل بنفسي جريدة إلى خدمته" [2]. وفعلاً؛ اجتمعا بسيواس "وبالغ الأشرف في خدمة الرُّومي؛ بحيثُ أنَّه كان يبوسُ له الأرض، فما يخدمه الرُّومي على ذلك، وتعاظم عنهم الرُّومي تعاظماً زائداً بحماقته"[3]. إن هذا التذلُّل من الأشرف والتكبُّر من كَيْقُبَاذ يدلُّنا على الحالة العسكريَّة المتردِّية للأشرف أمام هُجُوم الخوارزمي، وعظيم حاجته لدعم كَيْقُبَاذ، الذي أدرك ذلك، واستغلَّه غاية الاستغلال. لكنْ؛ بما أن الأُمُور بخواتيمها، فقد سار الأشرف وكَيْقُبَاذ بقُوَّاتها "إلى جهة خِلاط، والتقى الفريقان، فولَّى الخوارزميُّون وجلالُ الدِّين منهزمين"[4]، وتمكَّن الأشرف ـ نتيجة هذا النصر ـ من استعادة خِلاط.

---

1 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 299.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 203.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 205.
4 - المُختصر، أبو شامة، 3/ 146.

الصراع العسكري بين الأيُّوبيَّة والسلاجقة:

أدّى التحالف بين الأشرف ومعه الأيُّوبيَّة وبين كَيْقُبَاذ وسلاجقة الرُّوم إلى تحقيق نصر لم يكن ليحلم به أيُّ طرف مُنفرد منهما، وستكون هذه الحَرْب المُشتركة سبباً لحرب قادمة بينهما، فبعد أن اطَّلع أُمراء جند الشَّام ـ أثناء توافدهم إلى سيواس في بلاد سلاجقة الرُّوم ـ على قُوَّة السلاجقة، وحصانة معاقلهم، استضعفوها، ووصفوا ذلك للسُّلطان الكامل، الذي وافق ذلك مُخطَّطاته السِّياسيَّة والعسكريَّة[1]، خاصَّة؛ بعد أن عقد اتِّفاقه مع الإمبراطُور فريدريك الثَّاني، وأَمن جبهة فرنج الشَّام، وأخذه دمشق، واستتباب الأمر له في الشَّام والجزيرة. وفي الوقت نفسه؛ يبدو أن كَيْقُبَاذ كانت له حساباته الخاصَّة لتقييم الوضع العسكري، فقد شجَّعه زوال الخطر الخوارزمي وملاحقة التَّتار لجلال الدِّين، وربَّما أراد كَيْقُبَاذ امتحان قُوَّة الخَوَارزميَّة الذين استخدمهم بعد هزيمة جلال الدِّين، واستغلال غياب الأشرف عن ساحة الجزيرة، وانشغاله بمَلاذِّه في دمشق[2]. وكما هُو مُتوقَّع، فالصدام بين السُّلطان الكامل، بعد امتداد أملاكه إلى الجزيرة، وبين كَيْقُبَاذ الرُّومي، بدأ مُبكِّراً؛ لأن كلاً منهما كان يعتقد أن قُوَّة الآخر خطر مُباشر عليه. فالكامل يعدُّ كَيْقُبَاذ قُوَّة خارجية غريبة عن الجزيرة، يجب إبعادها، وكذلك كَيْقُبَاذ كان يعدُّ الكامل قُوَّة غريبة عن المنطقة، مجالها مصر، وتواجدها في الجزيرة غير مرغوب فيه.

ولمَّا سنحت الأسبابُ المُباشرة للصدام، لم يتوانَ الفريقان عن استغلالها، ففي عام **629** هـ، بعد أن فتح الكاملُ آمدَ أخذ يتسلَّم القلاعَ التي حولها، فأفسد عليه كَيْقُبَاذ قلعتَيْ كرفازاك وكرر، فغضب الكاملُ عليه، وطلب وساطة الأشرف، باعتباره حليفاً لكَيْقُبَاذ، فما نفعت وساطته. وازداد حنق الكامل على كَيْقُبَاذ لمنعه التُّركمان من القُدُوم إلى أراضيه لبيع مُنتجاتهم من الأغنام والغلال[3]، ويبدو أن هذا التحرُّك للتركمان كان له مردود اقتصادي كبير على المنطقة.

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 74، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 314، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 234.

2 - المُختصر، أبو شامة، 3/ 154.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 240 ـ 242.

وتطوَّرت الأُمُور العسكريَّة بشكل خطير عندما هاجم كَيْقُبَاذ عام 630 هـ 1233م، بلدة خِلاط، واحتلَّها، وقام بعمارتها، ونقل إليها الفلاَّحين، وزرعها[1]، وهذا فعل مَنْ يرغب بالاحتفاظ بها. فبدأ القلق في الجزيرة، وخاصَّة بعد أن أخذ كَيْقُبَاذ عدداً من القلاع والمناطق ما بين خِلاط وآمد، وحاصر حَرَّان والرُّهَا والرقَّة، واستولى على مناطق واسعة في الجزيرة [2]، وكان عند كَيْقُبَاذ عدد من أُمراء العَسْكَر الشاميين الفارين، يدلُّونه على المواقع، ويدعمونه بالرأي[3]، إضافة إلى أن تحرُّكه العسكري كان بمُشاركة فعَّالة من حليفه صاحب ماردين[4].

وخاف صاحب خرتبرت من أطماع كَيْقُبَاذ، فأرسل إلى نائب الملك الكامل في آمد الخادم صواب العادلي يطلب تحسين العلاقة بينهما[5]. أمَّا الملك الأشرف، صاحب خِلاط وصاحب القُوَّة الأيُّوبيَّة الأكبر في الجزيرة، الذي كان بعيداً عن الساحة الجزرية، يُقيم في دمشق، ينعم بجنَّاتها وثمارها؛ فعلى ما يبدو شعر بضعفه أمام كَيْقُبَاذ، وأدرك أن الأمر سيكون أكبر من استطاعة قُوَّاته إذا حصل صدام عسكري مُباشر، وحتَّى بعد إنجاده بقُوَّات من مصر سيكون النجاح غير مضمون، ولكنْ؛ يبدو أنَّه قدَّر الخطر السلجوقي حقَّ قدره، ولابُدَّ من أنَّه راسل السُّلطانَ الكاملَ، وشرح له الحال، وخوَّفه من كَيْقُبَاذ، حتَّى قرَّر الكامل التوجُّه بقُوَّاته إلى الشَّام، ومنها نحو الجزيرة.

كان التحرُّك السِّياسي لكَيْقُبَاذ يواكب تحرُّكه العسكري، ولا يقلُّ عنه أهمِّيَّة، فنجد أنَّه أرسل عام 631 هـ 1233م، رسولاً إلى الملك المُجاهد في حمص[6]، ومع أن المُجاهد هُو الأكثر قابلية للتفاوض معه لتفشيل الحلف الأيُّوبي، لأنَّه الأبعد في القُربى بين الأخوة أبناء العادل، ولأن تطلُّعاته لا تخفى على أحد، ولكنْ؛ هل هُو الوحيد الذي راسله كَيْقُبَاذ؟ لا نعتقد ذلك، فغالباً كان له تحرُّك سياسي نشط، وأن رُسُلَهُ توجَّهت إلى أكثر من أمير وملك أيُّوبي، ولكن التاريخ لم يُرزَق بمُؤرِّخ من داخل قُصُورهم يُدوِّن ما حدث كما فعل ابن نظيف الكاتب في بلاط الملك المُجاهد. ومع أنَّنا لم نعرف

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 255.
2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 147.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 255.
4 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 147.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 262.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 259.

ردَّ الملك المُجاهد على كَيْقُبَاذ، فإنَّنا نستطيع أن نتوقَّع أنَّه راوغ، وردَّه بلطف، فقد تحرَّك السُّلطان الكامل نحو الشَّام، وطلب من مُلوكه وأمرائه موافاته بقوَّاتهم للتصدِّي لكَيْقُبَاذ، ولم يتأخَّر الملك المُجاهد عن الالتحاق به.

تمكَّن السُّلطان الكامل في حملته تلك من تحقيق أوسع تحالف سياسي عرفته الممالك الأيُوبيَّة، وجمع أكبر قُوَّة عسكريَّة لها مُنْذُ موت السُّلطان صلاح الدِّين[1]، وقد تميَّزت النجدات بحُضُور المُلُوك والأُمراء بأنفسهم مع قُوَّاتهم، فاجتمع في عسكره ستَّة عشر ملكاً[2]، ما عدا العزيز بن الظَّاهر صاحب حلب، الذي وجد نفسه في موقف لا يُحسَد عليه، فقد كان مُحرجاً بين حليفه الرُّومي كَيْقُبَاذ وسُلطان الأيُوبيَّة الكامل، فأرسل كَيْقُبَاذ للعزيز يقول: "أنا راض منكَ بأنْ تمدَّه بالأجناد والأموال، على أنْ لا تنزل إليه أبداً"[3]، ويبدو أنَّ الكامل - أيضاً - رضي منه بذلك، فأعفاه من النُّزُول بنفسه[4]، فأرضى العزيز القُوَّتين المُتحاربتَيْن، ولم يخسر أيّاً منهما، فكلاهما مُقدِّر لموقفه.

وبعد تجمُّع الجُيُوش؛ اتَّضح أن السُّلطان الكامل قد اتَّخذ من هُجُوم كَيْقُبَاذ على خِلاط ذريعة لتنفيذ مُخطَّطاته السِّياسيَّة والعسكريَّة، التي كانت تنقسم إلى قسمَيْن:

- الأوَّل : توحيد البيت الأيُوبي، والاستفادة من قُوَّاته المُجتمعة لإلحاق هزيمة شاملة وكاملة بسلاجقة الرُّوم، وأَخْذ بلادهم.

- الثَّاني: بعد تحقيق النصر، الالتفات للمُلُوك والأُمراء الأيُوبيَّة، والخلاص منهم، ومن مُؤامراتهم وخلافاتهم بضربة واحدة، عن طريق نزعهم عن ولاياتهم في الشَّام والجزيرة، وإقطاعهم بلاد سلاجقة الرُّوم[5].

لكنَّ التخطيط الجيِّد لا يعني ربح المعركة، وخاصَّة إذا جرت الأُمُور بعكس الأُمنيَّات، فقد سار السُّلطان الكامل في أوائل عام **632** هـ **1235**م، نحو كَيْقُبَاذ، الذي نزل بجيشه على الدربند[6]، "وبنى عليه سوراً، وقاتلوا مَنْ يطلع إليه"[7]، وحفظ كَيْقُبَاذ الطُّرُقات إلى بلاده، وهي صعبة ضيِّقة

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 75.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 673.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 673.
4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 673.
5 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 288.
6 - الدربند: هُو الممرّ الجبلي الضيِّق، الذي يخترق جبال طوروس، ويُؤدِّي إلى داخل بلاد الأناضول.
7 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 674.

جدّاً[1]، وأحسَّ الكامل بتخاذل حُلفائه، وفساد نيّاتهم، وكثرة الغلاء في سوق العَسْكَر، وامتناع الدربند[2]، وكلّها نقاط في غير صالحه، وقد تُودي به إلى كارثة، فانتقل من موضعه على النهر الأزرق[3]، إلى أطراف بَهَسْنَا على بُحيرة أنزنيت، فوصل إليه صاحب خرتبرت، وهُو من المُلُوك الأرتقية، وأشار عليه بالدُّخُول إلى بلاد الرُّوم من جهته، فأمر السُّلطان الكامل صاحب حماة الملك المُظفَّر، وهُو ثقته الوحيد، أن يمضي بميمنة الجيش[4]، على أن يتبعهم ببقية العَسْكَر. فتحرَّك الملك المُظفَّر ومعه عدد من الأُمراء، فوصلوا خرتبرت كقُوَّة استطلاع مُتقدِّمة للجيش، الكامل، لكنْ؛ لا ندري كيف كشف كَيْقُبَاذ أمرهم، فكان بانتظارهم اثنا عشر ألف فارس سلجوقي، اضطرُّوهم - بعد الهزيمة - إلى اللُّجُوء إلى قلعة خرتبرت، وسُرعان ما وصل كَيْقُبَاذ بنفسه، وحاصرهم في القلعة مُدَّة أربعة وعشرين يوماً، ولمَّا يئس الملك المُظفَّر من نجدة السُّلطان الكامل، طلب الأمان، فأمَّنه كَيْقُبَاذ، ونزل إليه المُظفَّر، فأطلقه، واحتلَّ كَيْقُبَاذ قلعةَ خرتبرت، مع ما حولها من القلاع[5].

لقد أمضى الملك المُظفَّر قرابة الشهر مُحاصَراً في خرتبرت، ولم يتحرَّك السُّلطان الكامل لفكِّ الحصار عنه، وبالتَّأكيد؛ كان الكامل يعلم بما آل إليه الأمر في خرتبرت. إن عدم تحرُّك السُّلطان الكامل بكُلِّ ما معه من قُوَّات وحُلفاء وجند لإنقاذ المُظفَّر لا يُفسِّره سوى أمر واحد، وهُو خوفه من حُلفائه الذين معه أكثر من خوفه من عدوِّه، فالمعركة مع كَيْقُبَاذ غير مضمونة، وولاء الحُلفاء من مُلُوك الأيُّوبيَّة مشكوك فيه، بل ويخشى أشدّ الخشية منه، فقد يستغلُّون مُجريات المعركة، أو نتائجها، إنْ لم تكن مرضية للإمساك به، خاصَّة وثقته الوحيد الملك المُظفَّر مُحاصَراً بعيداً، والكامل وحده بين أخوة وأبناء عمّ، ولكنَّهم مُتَّفقون عليه، مُعادون له في الباطن، فلذلك ترك المُظفَّر يُواجه مصيرَهُ بنفسه، أو ضحَّى به مُكْرَهاً، وعاد الكامل بشبه هزيمة، بعد أن دخل الشتاء، وانكشف له فساد نوايا حُلفائه الأيُّوبيِّين، فسارع نحو مصر[6] كاتماً غيظه[7].

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 77.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 78.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 674، - النهر الأزرق: وهُو في أوائل بلد الرُّوم، ويسير مُقابل الدربند.
4 - وهي قُوَّات حماة، وُفقاً للتقليد العسكري الأيُّوبي المُتَّبع مُنْذُ أيَّام تقي الدِّين والسُّلطان صلاح الدِّين.
5 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 131، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 674، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 79 - 81.
6 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 154، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 676.
7 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 288.

لقد كان الملك المُجاهد هُو الساعي لتفرُّق الكلمة عن السُّلطان الكامل، وهُو الذي أبلغ مُلُوك الأيُوبيَّة بنيَّة الكامل نقل إقطاعاتهم إلى بلاد السلاجقة، إنْ ملكها[1]، فهُو صاحب مشروع الحذر من قُوَّة الكامل، بل والداعي للتحالف ضدَّه، والجميع بمَنْ فيهم الكامل كان يُدرك أن ما تمَّ كان بفعل المُجاهد[2]، فقد كان له عدَّة دوافع ذاتية للقيام بهذا العمل، فهُو يعتقد أن السَّلطنة كانت من حقِّه، وأن أيَّ تحالف للأيُوبية ضدَّ أيِّ أحد سيكون هُو ضحيَّته المُحتملة الثَّانية، لكنْ؛ ألا يُمكن أن يكون له دوافع خارجية، مثلاً؛ اتِّصال كَيْقُبَاذ به، وطلبه منه الخُرُوج على الحلف، أو شقِّه إنْ أمكن؟! فنحنُ نعرف أن كَيْقُبَاذ أرسل للملك المُجاهد رسولاً استقبله المُجاهد في حمص عام **631** هـ **1234**م[3]. وعلى كلِّ الأحوال؛ صبَّت جُهُود الملك المُجاهد في مصلحة كَيْقُبَاذ في الدرجة الأُولى، الذي اشتدَّ طمعه لفشل الحملة الكُبْرَى عليه، ولتألُّب المُلُوك على السُّلطان الكامل[4].

وبعد انقضاء الشتاء جاء ردُّ كَيْقُبَاذ، فخرج بجُيُوشه إلى الجزيرة، "فاستولى على حَرَّان والرُّهَا والسويدية وقطينا، أخذها ممَّنْ كان بها من النُّوَّاب مخامرة، أو باعوها له بيعاً"[5]، واستولى على الرقَّة، وسبى أهل البلاد مثل الكُفَّار"[6]، وفعل بالجزيرة ما لا تفعله التَتَر[7]، إنَّه حنقُ كَيْقُبَاذ على التحالف الأيُوبي ضدَّه، فالسبي في المناطق المُهاجمة لم يكن معروفاً إلَّا من غير المُسلمين، مثل: الكرج، والفرنج، والبيزنطيين، أمَّا حُكَّام المُسلمين؛ فيتنازعون على ملكية الأرض والقلاع والمُدُن فقط، وتكون الرعية تبعاً لمَنْ غلب.

ولمَّا بلغ السُّلطان الكامل والملك الأشرف ما فعله كَيْقُبَاذ في ممالكهما توجَّه الكامل بجُيُوشه من مصر عام **633** هـ **1236**م، نحو الجزيرة، والتقى بالأشرف ومعه العساكر الشَّاميَّة، فأخذوا حَرَّان والرُّهَا والسويداء عنوة بالسيف، وتسلَّموا قطينا صُلحاً، وهدموا قلعة الرُّهَا والسويداء، فاستردَّ الكامل كُلَّ ما أخذه الرُّومي[8].

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 288.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 158، والفوائد الجلية، الأمجد حسين بن داود، 217.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 259.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 98.
5 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 315.
6 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 676.
7 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 135.
8 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 315، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 676.

ونُلاحظ هُنا عدَّة أُمُور، منها: أن السُّلطة الأيُّوبيَّة في الجزيرة أصبحت مرتهنة بوُجُود المُلُوك أنفسهم، وبوُجُود الجُيُوش الكثيفة معهم، فلا النُّوَّاب ولا الحاميات الأيُّوبيَّة يُضمن ولاؤها للملك في غيابه عن الساحة، فكُلُّ ما استولى عليه الرُّومي من الأملاك الأيُّوبيَّة في الجزيرة أخذه بالاتِّفاق مع نُوَّاب الأيُّوبيَّة، بينما نجد أن استرداد الكامل لتلك المواقع كان بالسيف، فالحاميات والنُّوَّاب الرُّوم قاتلوا بضراوة، بينما غادرها كَيْقُبَاذ مع القُوَّة الرئيسية من جيشه إلى المرتفعات والدروب عند تخوم بلاده، فهُو يعرف أنَّه غير قادر على مُواجهة مُباشرة مع بني أيُّوب. كما أن الموقف الرَّسْمي لمُلُوك الأيُّوبيَّة لم يتغيَّر تجاه السُّلطان الكامل، وإنْ تغيَّرت نيَّاتهم، فقد اضطرُّوا للتحرُّك مع السُّلطان الكامل في حملته الجديدة، فكان معه حليفه الوفي الملك المُظفَّر صاحب حماة، ورافقه أخوه الملك الأشرف مُوسى، والملك المُجاهد مع ما في نُفُوسهم عليه[1]. وردَّاً على ما قام به كَيْقُبَاذ، من سبي وغيره من الأعمال غير المُتعارف عليها في الحُرُوب بين مُلُوك المنطقة، فقد أمسك الكامل بجند الحاميات والنُّوَّاب الذين تركهم كَيْقُبَاذ، "وأمر بحملهم مُقيَّدين في محاير[2] على الجمال أسارى إلى مصر، واستقبح الناسُ هذه الفعلةَ منه ولم يجر له ولا لأحد من أهل بيته مثلها، وإنما حمله إنْ كان ممتلئاً غيظاً على علاء الدِّين"[3]، فالردُّ غير المعتاد من قبَل كَيْقُبَاذ استدعى ردَّاً عليه من قبَل الكامل.

في عام 634 هـ 1237م، وبعد وفاة الملك العزيز صاحب حلب ظهر على الساحة الشمالية لحلب أمير تركماني اسمه قنغر، يمتلك قُوَّة عسكريَّة كبيرة، مكَّنته من الإغارة على أراضي مملكة حلب، وهزيمة جيشها، الذي تصدَّى له، "فتخوَّف أُمراء حلب أن يكون ذلك بأمر الرُّومي، فأرسلوا له، فأنكر، وأمره بردِّ ما أخذ، فردَّ بعضه، وانكفَّ عن العيث والفساد"[4]. ومع أن عدداً كبيراً من الأُمراء التُّركمان وغير التُّركمان في ذلك الوقت كان لهم أتباع، وأحياناً؛ بعض القُوَّة الفاعلة، لكنَّ هذه القُوَّة غير العادية لقنغر - التي هزمت جيش حلب - لم تكن لتظهر على أطراف مملكة السلاجقة في ظلِّ واحد من أقوى مُلُوكها، بدُون دعم مُباشر من الملك نفسه، ولم تكن هذه القُوَّة

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 109.
2 - جمع محارة، تُصنَع من الخشب، وتُحمَل على الجمال ليركب عليها المسافر، وهي شقَّتان، على كُلِّ جانب من الجنبَيْن شقّ، يُسمَّى محارة وتَسَعُ شخصاً واحداً. (قاموس الصناعات الشَّاميَّة، مُحمَّد سعيد القاسمي، 420).
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 110.
4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 680 - 681.

ـ مهما بلغت ـ لتجازف بقتال جيش مملكة قويَّة مثل حلب، هي ـ بالوقت نفسه ـ حليفة لمملكة الرُّوم، بدُون توجيه ملك الرُّوم نفسه. فماذا كان يُريد ـ بذلك ـ من حلب؟ ويبدو لنا أن كَيْقُبَاذ كانت له عدَّة أهداف من وراء هُجُوم قنغر:

1 ـ تُشكِّل هذه الإغارةُ قُوَّةَ استطلاع عسكريَّة، اختبرت قُوَّةَ جيش حلب، وبهزيمته تبيَّن ضعفه، وعدم تشكيله أيَّ تهديد عسكري.

2 ـ بعد موت العزيز لابُدَّ من الضغط على أُمراء حلب، الذين قد يكون لبعضهم آراء لا تصبُّ في مصلحة الوفاق مع مملكة الرُّوم.

3 ـ إنَّها رسالة واضحة الحروف، قُرئت بسُهُولة من قبَل أُمراء حلب، فأرسلوا بسُرعة إلى كَيْقُبَاذ، يُذكِّرونه بالعُهُود، ليكفَّ عنهم قنغر، فكفَّه، وردَّ بعض الأسلاب، وأخذ بعضها كأجر لعمله.

4 ـ أدَّت هذه العملية إلى كُلِّ ما يرغب به كَيْقُبَاذ، فقد سيَّر له طَغْريل أتابك ملكها الصغير النَّاصر الثَّاني "رسولاً في الباطن، وهُو أوحد الدِّين قاضي خِلاط، فاستحلفه على الموالاة للناصر، والذَّبّ عن بلاده، ودَفْع مَنْ يقصدها. . فبذل الرُّومي من نفسه المُوافقة والنصرة للملك النَّاصر، وكفّ مَنْ يقصد بلاده بأذى"[1].

إن ما تمَّ في الحقيقة هُو وضع حلب تحت وصاية وحماية مملكة سلاجقة الرُّوم، ولكنْ؛ إذا تساءلنا: الحماية ممَّنْ؟ وهل لحلب أعداء يُخشَى منهم؟! نجد أن كلّ الدلائل تُشير إلى أبناء العادل، السُّلطان الكامل والملك الأشرف أصحاب الممالك القويَّة في مصر والشَّام، إنَّه الخوف القديم من والدهم العادل يتجدَّد في كلِّ لحظة ضعف تمرُّ بها مملكة حلب، ويصبُّ ذلك الآن في صالح مملكة سلاجقة الرُّوم القُوَّة المُجاورة الأكبر.

ونتيجة للعداء الذي استفحل بين السُّلطان الكامل والملك الأشرف سعى الأشرف لتشكيل حلف شاميٍّ كبير ضدَّ الكامل، انضمَّ إليه كلُّ المُلُوك الأيُّوبيَّة في الشَّام، ووسَّعَ الأشرفُ الحلفَ، فاتَّصل بعلاء الدِّين كَيْقُبَاذ عدوّهم القديم، واتَّفق معه على التحالف ضدَّ أخيه السُّلطان الكامل[2].

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 681.

2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 167.

المبحث الرَّابع

العلاقات في عهد السُّلطان كيخسرو

في عام 634 هـ 1237م، تُوفِّي علاء الدِّين كَيْقُبَاذ سُلطان سلاجقة الرُّوم بمدينة قيصرية، ويُخبرنا ابن العديم خبر الشاهد العيان أن أتابك حلب طَغْريل أوفده باسم الملك النَّاصر بن العزيز ليُعزِّي غياث الدِّين كيخسرو بأبيه كَيْقُبَاذ، "ولتجديد الأيمان عليه على القاعدة التي كانت مع أبيه، فحلفته على ذلك"[1]، فحلب - كما يبدو - حريصة كلّ الحرص على تحالفها مع مملكة سلاجقة الرُّوم، وبالمُقابل؛ نجد كيخسرو يُريد توثيق العلاقة مع حلب بأكثر من التحالف، فسلك طريق المُصاهرة، وطلب يد أُخت الملك النَّاصر ابنة الملك العزيز، على أن يُزوِّج أُخته للملك النَّاصر، وتمّ العقد على يد المُؤرِّخ ابن العديم، الذي قام بنفسه بإجراء العقد على أُخت كيخسرو وكيلاً للملك النَّاصر[2]. واستفادت حلب من هذا الحلف بمُساعدة فعَّالة، قدَّمها لها كيخسرو للتصدِّي لفرقة الخَوَارزميَّة، التي هدَّدت حلب والجزيرة[3].

ولم يكن السُّلطان الكامل بأقلَّ حرصاً من مملكة حلب على طلب وُدّ كيخسرو، فاغتنم فُرصة وفاة والده كَيْقُبَاذ، وأرسل "الفقيه أفضل الدِّين مُحمَّد الخونجي إلى بلاد الرُّوم يُعزِّي غياث الدِّين بأبيه علاء الدِّين كَيْقُبَاذ المُتوفَّى، وسيَّر معه ذهباً برسم الصدقة، وثياب أطلس برسم أغشية الضريح، وكان ذلك استجلاباً منه له، ليخرجه عن الأشرف"[4]. فمملكة سلاجقة الرُّوم هي - الآن - القُوَّة الأكبر على تخوم الممالك الأيُّوبيَّة، وأفراد البيت الأيُّوبي كُلّ منهم له الرغبة بكسبها إلى جانبه، ولكنْ؛ ليست رغباتهم هي المهمَّة، فالمُهمُّ هُو حسابات السُّلطان الرُّومي الجديد، ومع رغبة مَنْ منهم تتوافق.

لم يمض كثير وقت حتَّى أخذ كيخسرو يستغلُّ ظُرُوف حلب أكبر استغلال، فبعد كلّ مُقدِّمات التحالف والمودَّة والمُصاهرة أرسل في العام نفسه 634 هـ 1237م، عزّ الدِّين قاضي مدينة

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 682.

2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 686.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 183، السُّلوك، المقريزي، 1/ 272، كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 330، عقد الجمان، العيني، 18/ 208.

4 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 319.

دوقات إلى حلب، وكان جيشها مُقيماً على حصار مدينة حماة، فطلب إقامة الخطبة وضرب السّكّة في مملكة حلب باسم كيخسرو، ولم يكن أمام أتابك حلب طَغْريل وأُمرائها إلّا المُوافقة[1]، وبذلك؛ أُعلنت تبعية حلب رَسْمياً لمملكة سلاجقة الرُّوم. ومع كُلّ ذلك تبقى تبعية اسمية، لكنّها كانت كافية وذات معان كبيرة لمُلوك سلاجقة الرُّوم، وخاصّة ما تعنيه من انفراد حلب عن سلطنة الأيّوبيّين، فالسُّلطان الكامل بعيد في مصر، والملك الأشرف يتمتّع بمناخ دمشق، والقُوّة الأكبر في شمال الشّام والجزيرة هي قُوّة سلاجقة الرُّوم.

بعد أن وقع الخلاف ما بين الملك الأشرف وأخيه الملك الكامل في عام **635** هـ **1238**م، سعى الملك الأشرف لإقامة تحالف شامي ضدّ السُّلطان الكامل، وحصره في مصر، ثُمّ فكّر في توسيع الحلف، فضمّ إليه كيخسرو صاحب الرُّوم، فكان التحالف الشّامي -الرُّومي ضدّ الكامل. وسيتّضح لنا معنى خوف حلب والتجاء أُمرائها إلى الرُّومي من خلال الأحداث التّالية، فبعد موت الأشرف، في السنة نفسها **635** هـ **1238**م، تولّى مملكته بوصيّة منه الصّالح إسماعيل، الذي قام بتجديد التحالف الشّامي، والتحالف الشّامي الرُّومي، وراسل كيخسرو، وأكّد على التحالف بينهما[2]. لكنّ إسماعيل سُرعان ما فقد دمشق، فقد احتلّها السُّلطان الكامل، الذي كانت خطوته التّالية ضدّ حمص، ثُمّ حلب، عندها؛ طلبت حلبُ النجدةَ، فأمدّها الرُّومي بفرقة من أَجَلّ عساكره، وعرض إرسال المزيد، وكاتب كيخسرو السُّلطان الكامل لثنيه عن قصد حلب، فرفض، ونجت حلب بأيسر السُّبُل؛ إذْ مات الملك الكامل وهُو يهمُّ بالمسير إلى حمص عام **635** هـ **1238**م. وفي المُقابل؛ فقد اضطرّ كيخسرو عام **640** هـ **1243**م أن يطلب النجدة من حلب لصدّ قُوّة التّتار المتقدّمة نحو بلاده، فأرسلوا له نجدة يقودها ناصح الدّين الفارسي، شاركت معه في المعركة ضدّ التّتار، فهُزموا، وطلب كيخسرو الأمانَ من التّتار، فأمّنوه[3].

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 690.

2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 160.

3 - ذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 252، وأخبار الأيّوبيّين، ابن العميد، 32، ومُختصر تاريخ الدُّول، ابن العبري، 440، ومُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 327.

ولم يكتف كيخسرو بصيغة التحالف مع الملك الصَّالح إسماعيل، بل أرسل عام 638 هـ 1241م، إليه يطلب إقامة الخطبة على منابر دمشق، "فخطب له، وكان يوماً مشهوداً، وحضر رُسُل الرُّوم"[1]، واستمرَّت الخطبة لسُلطان سلاجقة الرُّوم كيخسرو حتَّى عام 640 هـ؛ حيثُ أُبطلت خطبته من دمشق، وخُطب فيها للصَّالح أيُّوب[2].

وتنفيذاً لمطامع السلاجقة القديمة في الجزيرة استغلَّ كيخسرو الثَّاني وُجُوده في التحالف الموجَّه ضدَّ السُّلطان الكامل، وأرسل عساكره إلى آمد، فحاصروها، وكان بها المُعظَّم تُورانشاه بن الصَّالح أيُّوب بن الكامل، فأنجده أبوه بفرقة الخَوَارزميَّة، الذين طردهم كيخسرو من خدمته، فالتجؤوا إلى أيُّوب، وبعد مُناوشات بسيطة، انهزم عسكر الرُّوم عن آمد[3]. ولمَّا فشل أيُّوب في حملته على مصر، وَفَقَدَ دمشقَ عام 637 هـ 1240م، وتخلَّت عنه الخَوَارزميَّة، استغلَّ كيخسرو ذلك، ووجَّه قُوَّاته نحو آمد، وتشدَّد في حصارها، فهرب منها تُورانشاه بن الصَّالح أيُّوب نحو حصن كيفا، وتسلَّم عسكرُ الرُّوم آمدَ[4]. لقد حقَّق كيخسرو الثَّاني الحُلم القديم لأجداده بامتلاك آمد، واستخلاصها من حُكْم الأيُّوبيِّين. ولكنْ؛ لن يدوم هذا الحال، فقد عادت آمد إلى الحُكْم الأيُّوبي عام 655 هـ 1257م؛ حيثُ وجَّه الملك الكامل مُحمَّد بن المُظفَّر صاحب مَيَّافارقين قُوَّاته، ومعه نجدة من الملك السعيد صاحب ماردين، فهزموا عسكر الرُّوم، واستولوا على آمد، ولكنَّ قَدَرَ هذه البلدة[5] أعاد الرُّوم إليها من جديد، ففي عام 657 هـ 1259م، عندما نزل عليها هُولاكُو، وتسلَّمها من نائب الملك الكامل، قام بتسليمها إلى أولاد كيخسرو الثَّاني عزّ الدِّين ورُكن الدِّين، ووضع معهم نُوَّاب التَّتار[6].

إن أهمَّ ما يُلاحَظ على العلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة بين سلطنة سلاجقة الرُّوم والممالك الأيُّوبيَّة أن العلاقات السِّلْمية بينهما كانت تسود كُلَّما لاح خطر في الأفق، وأن التحالف بينهما كان يتمُّ

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 409.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 415.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 190.
4 - كنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 343.
5 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 524.
6 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 526.

في حال وُقُوع الخطر، وخاصّة الخطر الذي يخشى منه السلاجقة، كما كانت الحال في التحالف ضدَّ جلال الدِّين منكبرتي، والتحالف والتعاون العسكري ضدَّ التَّتار، فيما عدا ذلك، فالعلاقات - على الغالب - علاقات مُناورات سياسة، حتَّى تسنح الفُرصة، فينقضّ السلاجقة على المُمتلكات الأيُّوبيَّة، كما فعل السلاجقة باحتلال خِلاط، وغيرها، أو تتحرَّك الجُيُوش الأيُّوبيَّة ضدَّ سلطنة السلاجقة تُحاول احتلال بلادهم، كما فعل السُّلطان الكامل الأيُّوبي.

وبالرغم من أن الدِّين الإسلامي يجمع بين سلاجقة الرُّوم والأيُّوبيين، فإن السلاجقة لم يدعموا جهاد الأيُّوبيِّيْن ضدَّ الفرنجة، بل على العكس، حاولوا استغلال هجمات الفرنجة لاحتلال مواقع لهم في بعض الممالك الأيُّوبيَّة، حتَّى إنَّه اتُّهم بعض سلاطين السلاجقة بأنَّهم أطمعوا الفرنج لأَخذ أرض المُسلمين في مصر[1].

وبالتَّالي؛ لم نلحظ أنَّه كان للدِّين أيٌّ أثر في العلاقات بين السلطنتَيْن.

وفي النتيجة؛ نستطيع القول بأنَّ سلاجقة الرُّوم لم يساهموا بقيام جبهة تضامن إسلامي ضدَّ الفرنجة، ولم يُشاركوا الأيُّوبيِّيْن في الجهاد ضدَّ أعداء الدِّين المُشترك، ولم يُلاحَظ على تحرُّكاتهم السِّياسيَّة والعسكريَّة أنَّها مدفوعة بأيِّ أثر ديني، مع أن دولتهم - أصلاً - قامت للجهاد ضدَّ البيزنطيين، بل على العكس من ذلك، فقد مدَّ سلاطينهم أعينَهُم للسيطرة على الجزيرة الشَّاميَّة، ورُبَّما - من خلالها - على الشَّام، تاركين جهاد البيزنطيين خلفهم، ولا ندري إن كان ذلك لصُعُوبة التقدُّم على تلك الجبهة؟ أم لمُوازنة الجناح الأناضولي للدولة بجناح شامي؟

وكانت لسلطنة السلاجقة علاقات سياسيَّة مُتميِّزة مع مملكة حلب الأيُّوبيَّة، فهي الجار المُباشر لهم، وقد بدأت تلك العلاقات بمُحاولة السلاجقة احتلال حلب، وانتهت بمُعاهدات ومُساعدات عسكريَّة ومُصاهرات بينهما. أمَّا علاقة السلاجقة ببقية الممالك الأيُّوبيَّة؛ فقد بدأت عدائية؛ حيثُ تمَّ تبادل الهجمات العسكريَّة. بعد ذلك؛ تحسَّنت العلاقات بين السلاجقة والأيُّوبية؛ بحيثُ أدَّت للتحالف بينهما ضدَّ الخطر الخوارزمي.

---

1 - يقول أبو شامة إن كَيْقُباذ هُو الذي أطمع الفرنج في دمياط، (ذَيْل الرَّوضَتَيْن، 113).

بعض سلاطين سلاجقة الرّوم

ـ سُلَيْمان بن قتلمش بن سلجوق: **471 ـ 479 هـ 1077 ـ 1086م.**

1 ـ قلج أرسلان بن سُلَيْمان: **485 ـ 500 هـ 1092 ـ 1107م.**

2 ـ ملك شاه بن قلج أرسلان: **500 ـ 510 هـ 1107 ـ 1116م.**

3 ـ مسعود بن قلج أرسلان: **510 ـ 551 هـ 1116 ـ 1156م.**

4 ـ قلج أرسلان الثّاني: **551 ـ 584 هـ 1156 ـ 1188م.**

5 ـ ملك شاه الثّاني: **584 ـ 588 هـ 1188 ـ 1192م.**

6 ـ كيخسر الأوّل بن قلج أرسلان الثّاني: **588 ـ 596 هـ 1192 ـ 1200م.**

7 ـ سُلَيْمان الثّاني بن قلج أرسلان: **596 ـ 599 هـ 1200 ـ 1203م.**

8 ـ قلج أرسلان الثّالث بن سُلَيْمان: **599 ـ 600 هـ 1203 ـ 1204م.**

9 ـ كيكاوس الأوّل: **607 ـ 616 هـ 1210 ـ 1219م.**

10 ـ كَيْقُبَاذ الأوّل: **616 ـ 633 هـ 1219 ـ 1236م.**

11 ـ كيخسرو الأوّل/ ثانية : **600 ـ 607 هـ 1204 ـ 1210م.**

12 ـ كيكاوس بن كيخسرو: **607 ـ 616 هـ 1210 ـ 1219م.**

13 ـ كَيْقُبَاذ بن كيخسرو: **616 – 633هـ 1219 – 1236م**

14 ـ كيخسرو الثّاني بن كَيْقُبَاذ: **633 ـ 644 هـ 1236 ـ 1246م.**

15 ـ كيكاوس الثّاني بن كيخسرو الثّاني: **644 ـ 655 هـ 1246 ـ 1257م.**

الفصل السَّادس

العلاقات الدّوليّة للمملكة الخَوارزميّة

المبحث الأوّل

الدولة الخَوارزميّة، وبداية العلاقات مع الممالك الأيّوبيّة

الدولة الخَوارزميّة:

بينما كانت الممالك الأيُّوبيَّة في مطلع القرن السَّابع الهجري، الثَّالث عشر الميلادي، تتصارع على النُّفوذ، وأعداؤهم التقليديون فرنج الساحل الشَّامي قد دخلوا في مرحلة سكون لانشغال أُورُبة عنهم بمُشكلاتها الدّاخليَّة، وكان أقصى ما يطمحون إليه هُدنة مع جيرانهم المُسلمين، تُتيح لهم التفرُّغ لجمع الثروات، وصلت من بلاد الشَّرق إلى حُدُود الجزيرة قُوَّة عسكريَّة جديدة هي جيش الخَوَارزميَّة.

ينتسب الخوارزميُّون إلى خوارزم[1] وهُو اسم للدولة والأرض، ومنه أُطلق على مُلُوكهم اسم خوارزم شاه. ينتمي الخوارزميُّون إلى الجنس التركي، الذي غلب على مُعظم أجزاء آسيا الوُسْطَى[2]، "وفي وُجُوههم أثر التُّرك، وفي طباعهم أخلاق التُّرك"[3].

---

1 - خوارزم: أرض شاسعة خصبة على نهر جيحون - أمودريا -، وهي مُوزَّعة - اليوم - بين جمهوريَّتَيْ تركمانستان وأوزبكستان، ونسبة إليها أطلق العَرَب اسمَ بحر خوارزم على بُحيرة آرال. ويقول ياقوت الحموي: إن خوارزم اسم تركي يعني لحم وحطب. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: خوارزم)، ويعترض الدُّكتور إحسان حقِّي في تحقيقه لكتاب الدولة العلية العُثمانية على معنى التسمية، ويقول إن الأصحَّ أنَّها تعني آكِل الحَرْب؛ أيْ : المستميت في الحَرْب. (الدولة العلية العُثمانية، مُحمَّد فريد، تحقيق: إحسان حقِّي، ح/ 3، ص/ 61).

2 - الأتراك الخوارزميُّون، صبري سليم، 13.

3 - مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: خوارزم، وراجعْ: آثار البلاد، القزويني، 520.

ينتسب مُلُوك خوارزم إلى أنوشتكين، وهُو مملوك تركي للأمير السلجوقي بلباك، اشتراه من بلاد الغور في أفغانستان[1]، وقدَّمه للسُّلطان ملكشاه، فأصبح ساقياً عنده[2]، وترقَّى في خدمته، حتَّى أصبح شحنة لخوارزم[3].

وفي عام **490** هـ **1097**م، أرسل أنوشتكين ابنَهُ قُطب الدِّين مُحمَّد إلى مدينة مرو لتلقِّي العلم، فاتَّصل هُناك بحاكم خراسان السلجوقي، الذي عيَّنه والياً على خوارزم، ولقَّبه خوارزمشاه[4]، ثُمَّ أقرَّه في عمله الأمير سنجر السلجوقي[5]، فتمكَّن مُحمَّد من تثبيت مُلكه، وتأسيس الأُسرة الخَوَارزميَّة الحاكمة[6].

وبعد موت قُطب الدِّين عام **521** هـ **1127**م، خلفه ابنه أتسز، الذي خرج عام **530** هـ **1136**م، عن طاعة السلاجقة، وخاض صراعاً طويلاً مع سنجر، انتهى بخُضُوعه إليه، وطلب العفو منه، فوافق، وأعاده إلى بلاده[7].

وبعد وفاة أتسز، خلفه ابنه إيل أرسلان[8]، الذي أنهى - عملياً - سُلطانَ السلاجقة على العراق[9]. وتُوفِّي إيل أرسلان عام **589** هـ **1193**م، فخلفه أخوه علاء الدِّين تكش، الذي خاض عدَّة معارك مع الخطا[10]، وطالب سُلطان الخَوَارزميَّة أن يكون له ما كان لسلاطين السلاجقة من سُلطة في بغداد[11].

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 10/ 267.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 322.
3 - تاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 1/ 255.
4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير،10/ 267.
5 - حبيب السير، خواندمير، 2/ 629.
6 - عُرِفَتْ هذه الأُسرة باسم خوارزمشاه، وقد حكمت ما بين 490 هـ - 627 هـ - 1097م - 1230م.
7 - نهاية الأَرَب، النويري، 26/ 385.
8 - أحداث التاريخ الإسلامي، ترمانيني، 3/ 1/ 398.
9 - راحة الصُّدُور، الراوندي، تعريب: إبراهيم الشواربي، 513.
10 - الخطا: أقوام من العرْق التركي، موطنهم سهوب أواسط آسيا، وكانوا بدواً يسكنون الخيام.
11 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 63.

ويعتقد عبَّاس إقبال أن ردَّ فعل الخليفة النَّاصر كان باستعداء الغوريين عليه، وأن تحالف الخليفة مع جلال الدِّين الحَسَن الثَّالث صاحب قلاع الإسماعيليَّة كان مُوجَّهاً ضدَّه[1].

وكان لتكش ولدان، الأوَّل: غياث الدِّين، وقد استولى على عراق العجم، وكرمان وفارس[2]، والثاني: جلال الدِّين منكبرتي[3]، وهُو الابن الأكبر لتكش[4]، والذي احتلَّ غزنه عاصمة الدولة الغورية عام 613 هـ 1216م[5]، وأسقطَ اسمَ الخليفة العبَّاسي من الخطبة والسّكَّة بفتوى عدم أهليَّته، وعيَّن بدلاً عنه أحد أبناء الحُسَيْن بن علي خليفة للمُسلمين[6].

وهُناك إشارات إلى أن الخليفة العبَّاسي اتَّخذ أسوأ ردِّ فعل ضدَّ منكبرتي؛ حيثُ يعتقد البعض أن الخليفة النَّاصر رَاسَلَ جنكيز خان، وحثَّه على التحرُّك غرباً نحو بلاد الإسلام؛ للقضاء على الخوارزمي[7].

بداية العلاقات الأيُّوبيَّة بالدولة الخَوارزميَّة:

كان أوَّل احتكاك دبلوماسي على مُستوى عالٍ بين دولة الخَوارزميَّة ودولة الملك العادل الأيُّوبيَّة قد جرى عام 615 هـ؛ حيثُ وصل رسول خوارزم شاه إلى الملك العادل وهُو بمرج الصُفَّر، ومع أن ظُرُوف العادل لم تكن عادية، فالفرنج يضغطون عليه في فلسطين، ثُمَّ نزلوا على دمياط ثغر مصر، ومع ذلك؛ فقد بعث بجواب رسالة الخوارزمي مع جمال الدِّين مُحمَّد الدولعي خطيب الجامع الأموي بدمشق، ومعه قاضي العَسْكَر نجم الدِّين ابن علي الحنفي، وقد وصلا همدان،

1 - تاريخ إيران، عبَّاس إقبال، تعريب: مُحمَّد علاء منصور، 332.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 136.

3 - منكبرتي: تعني هبة السماء، أو مبعوث السماء (Heaven sent) انظرْ: **History of Bookhara, Vambery. P, 134**

4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير،10/ 105

5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير،10/ 105، ونهاية الأرَب، النويري، 27/ 214.

6 - ابن الفوطي، تلخيص مجمع الآداب، 4/ 2/ 1085.

7 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 440، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 39، وراجعْ مناقشة ذلك في: مبحث العلاقات مع دولة الخلافة من هذا الكتاب.

فوجدا الخوارزمي قد واجه هزيمة قاسية أمام التّتار، فسارا إلى قُرب بخارى، واجتمعا بولده جلال الدِّين[1]، وأثناء الاجتماع؛ أخبرهما جلال الدِّين بوفاة الملك العادل[2].

ومع أن رسالة خوارزم شاه للعادل بقيت سرِّيَّة، وتشتَّت أمرُ الدولة الخَوارزميَّة بالهُجُوم الصاعق للتّتار عليها، ثُمَّ مات مُحمَّد خوارزم شاه، فإن أحداً لم يذكر فحوى الرسالة، أو غاية الخوارزمي من إرسالها، لكنّنا نستطيع أن نُقدِّر ذلك، فالخوارزمي كان - وقتها - يخوض صراعاً مريراً مع الخليفة، ويُطالبه بنُفُوذ السلاجقة على الخلافة باعتباره وريثهم، وإنْ كان بشكل غير شرعي، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى، فقد كان خلفه في الشَّرق جحافل التّتار، وقد جرَّب قدراتهم القتالية، ومُثابرتهم.

ولذا؛ نعتقد أن مُراسلته مع العادل كانت لتأمين عمق استراتيجي له في صراعاته المُتعدِّدة، وممَّا يُؤكِّد ذلك أن ابنه جلال الدِّين منكبرتي - بعد هزائمه المتوالية أمام التّتار - لجأ إلى الجزيرة الشَّاميَّة، ودخلها غازياً أوَّلاً، ثُمَّ لاجئاً ثانياً.

ولكن خوارزم شاه - رُبَّما - لم يكن يعرف بأنَّ حال العادل ليست بأفضل من حاله، فالفرنج يُهاجمون من فلسطين، وهُو يتراجع أمامهم نحو دمشق، ثُمَّ نزلوا في ثغر الديار المصريَّة دمياط، وهذا ما أهمَّه لدرجة الموت، وكان ذلك بعد أيّام قليلة من مُقابلة رسول الخورازمي، وتسيير رسولَيْه إليه، اللّذَيْن - بالتّأكيد - حملا النوايا الطيِّبة لا غير. لكنْ؛ مع انعدام النتائج المُباشرة لهذا الاتِّصال الدبلوماسي الأوَّل، فقد ترتَّب عليه - على ما يبدو - نتائج بعيدة وعلاقات مُتناقضة ما بين سلْم وحرب بين جلال الدِّين منكبرتي بن علاء الدِّين خوارزم شاه وبين الأشرف بن العادل والمُعظَّم بن العادل فيما بعد. وخاصَّة عندما تحرَّك منكبرتي غرباً، رُبَّما مدفوعاً بضغط التّتَر، فاحتلَّ أصفهان،

1 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 223.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 20/ 210.

واستولى على خوزستان، وهي للخليفة العبَّاسي النَّاصر، ثُـمَّ زحـف نحـو بغـداد مُحـاولاً احتلالها[1]، "وَفَعَلَ أشنعَ ما يفعله التَّتر" [2].

ثُمَّ تردَّدت رُسُلُ جلال الدِّين، السُّلطان الجديـد للدولـة الخَوَارزميَّـة، إلى الملـك الأشرف بـن العادل، وإلى مُعظم مُلُوك الأيُّوبيَّة في الشَّام[3].

وفي عام 621 هـ 1224م، كانت العلاقات بين الممالك الأيُّوبيَّة تعاني من أزمة حادَّة وانقسام شديد، فقد اتَّفق الملك الكامل صاحب مصر مع أخيه الملك الأشرف صاحب الجزيرة على أخيهما الملك المُعظَّم صاحب دمشق، وضغطا عليه، ممَّا اضطرَّه للتفكير بحليف قوي، وكانت أخبار انتصارات جلال الدِّين منكبرتي وتقدُّمه السريع نحو العراق تُدوِّي في المنطقة، فاعتقد المُعظَّم أنَّه وجد به الحَلَّ لمشاكله مع إخوته.

وعندما كان منكبرتي في أذربيجان بعث إليه المُعظَّم محتسب دمشق صدر الدِّين البكري[4]، ورتَّب معه "رجلاً صوفياً من خانقاه السُّمَيساطي يُقال له الملق"[5]، ورُبَّما لم يكن المُعظَّم واثقاً من استجابة منكبرتي له، وقبوله التحالف معه، فلم يُرسل له وزيراً، ولا قاضياً، بل أرسل المحتسب مع الصُّوفيَّة، واخترع له قصَّة لتمويه سفارته، فقد كان الجراد يغزو أطراف دمشق، فأعلن أنَّهم سيذهبون إلى أذربيجان لإحضار ماء من عين فيها، فتتبَّع الماء طُيُور السمرمر التي تصل دمشق معه، وتلتهم الجراد. ومع أن الجوّ العامّ كان يسمح بتصديق هكذا رواية، فإن الأمر لم يخف على المُهتمِّين، الذين أدركوا أن المقصود هُو الاتِّصال بمنكبرتي المُتواجد في أذربيجان. وعاد رسول المُعظَّم يحمل أفضل الأخبار له، فقد وعده منكبرتي بالتحالف والدعم، وأرسل له خلعة وفَرَساً، ففرح المُعظَّم

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 136.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 215.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 150.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 253.
5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 273.

بذلك، ولبس الخلعة، وركب الفَرَسَ يشقُّ شوارع دمشق، وكان إذا حلف يحلف برأس السُّلطان جلال الدِّين[1]. "وهذه كانت أوَّل علاقة بين الخوارزمي جلال الدِّين وبين البيت الأيُّوبي"[2].

وفي عام **622** هـ **1225**م، تقدَّم منكبرتي باتِّجاه بغداد، وفتح دقوقا القريبة منها، وَكَتَبَ إلى حليفه المُعظَّم يقول: "تحضر أنتَ ومَنْ عاهدني، واتَّفق معي، حتَّى نقصد الخليفةَ، فإنَّه كان السبب في هلاك أبي ومجيء الكُفَّار إلى البلاد"، فردَّ المُعظَّم: "أنا معكَ على كُلِّ أحد، إلَّا الخليفة، فإنَّه إمام المُسلمين"[3]. ويبدو أن الخليفة استشعر الخطر من زحف الخوارزمي، وأراد أن يفتَّ بعضده، ويُبعد عنه حُلفاءه؛ وأهمّهم المُعظَّم، فأرسل إليه عام **623** هـ **1226**م، مُحيي الدِّين بن الجوزي رسولاً، وإرسال هذه الشخصية الهامَّة يدلُّ على أهمِّيَّة المهمَّة بالنِّسبَة للخليفة، فقال ابن الجوزي للمُعظَّم في رسالته: "المصلحة الرُّجُوع عن هذا الخارجي إلى إخوتكَ، ونُصلح بينكَ وبينهم"، قال المُعظَّم: "إذا رجعت عن الخوارزمي، وقصدني إخوتي، تُنجدوني؟ قال: نعم"، فردَّ المُعظَّم: "ما لكم عادة تُنجدون أحداً"[4]. وفي هذه الأثناء؛ كانت "الرُّسُل لا تنقطع بين المُعظَّم وخوارزم شاه جلال الدِّين[5]، وعندما تأكَّد الملك الكامل من تحالف أخيه المُعظَّم مع جلال الدِّين منكبرتي "خاف من ذلك، وكاتب الإمبراطُور ملكَ الفرنج، في أن يقدم إلى عكَّا؛ ليشغل سرّ أخيه المُعظَّم عمَّا هو فيه"[6].

إن صراع الأخوة أبناء العادل نتيجة لجوئهم للتحالف مع الغرباء أودى بالمنطقة لتكون مجال مطامع مُلُوك الشَّرْق والغَرْب، فمنكبرتي الخوارزمي والإمبراطُور فريدريك الثَّاني الفرنجي سيجدان فُرصتهما المُناسبة للمُطالبة بحُقُوق لهم في الجزيرة والشَّام نتيجة وُعُود أبناء العادل المُختلفين المتنازعين، الذين ضحُّوا بالبلاد من أجل ضرب بعضهم البعض، فمنكبرتي أخذ خِلاط وعدَّة بلاد أُخرى في الجزيرة، وفريدريك أخذ القُدْس، ممَّا سيُؤدِّي إلى نتائج مُستقبلية، غاية في الخُطُورة.

---

1 - مرآة الجنان، اليافعي، 43.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 43 ـ 36.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 277.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 284.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 137.
6 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 713 ـ 138.

المبحث الثّاني

العلاقات بين الملك الأشرف وجلال الدِّين منكبرتي

بشكل مُفاجئ؛ ساد السلام بين جلال الدِّين منكبرتي وبين الخليفة المُستنصر، فاعترف منكبرتي بشرعية الخليفة، وخطب له على منابر دولته[1]. وكان منكبرتي - في الحقيقة - مُضطرّاً لهذا الصُّلح؛ بسبب ضغط التّتار الشديد عليه، ولعدم تقبُّل أهل خراسان والعراق لحُكْم الخَوَارزميَّة، فهُم يعدُّونهم خارجين على السلاجقة، عُصاة للخليفة[2]، إضافة إلى عصيان أحد أُمراء منكبرتي، الذي اضطرَّ للسير نحوه باتِّجاه الشَّرق، قبل أن يستفحل أمره[3]، كلّ ذلك أجبر منكبرتي على ترك مشاريعه في العراق ضدَّ الخليفة. أمّا المشاريع الأهمّ، التي اضطرَّ لتركها أيضاً؛ فهي مشاريعه في الجزيرة والشَّام؛ حيثُ كان يأمل أن يمدَّ نُفُوذه إليها بالتعاون مع حُلفائه هُناك. وكان منكبرتي قد اتَّفق مع الملك المُعظَّم صاحب دمشق، ومُظفَّر الدِّين صاحب إربل، وصاحب آمد، وأمير كيفا، ووزَّعوا الأهداف التي يجب مُهاجمتها، فكان لمُظفَّر الدِّين الهُجُوم على المَوصل، واحتلالها، وللمُعظَّم الهُجُوم على حمص وحماة، واحتلالهما، أمّا جلال الدِّين منكبرتي؛ فيقصد مدينة خِلاط، ويحتلّها، وبذلك يضربون الملك الأشرف صاحب خِلاط وحُلفاءه أصحاب المَوصل وحماة وحمص[4]. وفي الحقيقة؛ كان جلال الدِّين منكبرتي هُو الذي يملك القُوَّة الضاربة للحلف، فلمّا اضطرَّ للعودة نحو بلاده الشَّرقيَّة انحلَّ الحلف، ولم يترتَّب أيُّ نتيجة عن التحرُّك العسكري لحُلفائه في الشَّام والجزيرة، مع أن مُظفَّر الدِّين هاجم المَوصل، والمُعظَّم هاجم حمص وحماة، لكنَّ غياب الخوارزمي وتحرُّك الأشرف السريع مع حليفه كَيْقُبَاذ كفلا بإفشال الهُجُومَيْن، وانسحاب صاحب آمد وصاحب كيفا من الحلف، وعودتهما لولاء الأشرف[5].

---

1 - سيرة منكبرتي، النسوي، 280.

2 - تاريخ التّتار، عبّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 129.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 187.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 176.

5 - حول تضارب مواقف الأميرَيْن الأرتقيَّيْن صاحب آمد وصاحب كيفا، راجعْ: (الإمارات الأرتقية، عماد الدِّين خليل، 179 ـ 181).

وبعد صُلح منكبرتي مع الخليفة لم يبقَ أمامه مجال للحركة إلّا باتِّجاه الشمال، نحو بلاد الكرج، وبالتَّأكيد؛ كان منكبرتي يُدرك أنَّه سيكون وجهاً لوجه - بعد هُجُومه على الكرج - مع مملكة سلاجقة الرُّوم، ومع الممالك الأيُّوبيَّة في الجزيرة، لذلك؛ أوفد القاضي مُجير الدِّين عمر ابن سعد الخوارزمي رسولاً إلى علاء الدِّين كَيْقُبَاذ سُلطان سلاجقة الرُّوم، ومن ثَمَّ؛ إلى مُلُوك الشَّام، يُخبرهم بنيَّة السُّلطان جلال الدِّين بالجهاد ضدَّ الكرج، ويطلب منهم العون والمُساعدة ضدَّ أعداء الإسلام[1]. ويبدو أن كُلَّ المُلُوك الذين خاطبهم رسول منكبرتي كان لهم الرأي نفسه، والتساؤل نفسه: متى كان منكبرتي يهتمُّ بالإسلام وجهاد أعدائه؟! وربَّما كانت أجوبتهم دبلوماسية لرسوله، لكنْ؛ في الواقع، لم يترتَّب أيُّ نتائج ملموسة على مُبادرة منكبرتي هذه، وغالباً كان يتوقَّع ذلك، فقد أسرع بالزحف إلى بلاد الكرج، واستولى على عاصمتهم تفليس[2]، وأصبح - بذلك - على حُدُود الجزيرة الشَّاميَّة، وعلى احتكاك مُباشر بالممالك الأيُّوبيَّة فيها. ويبدو أنَّه "قد عزم على قصد بلاد الشَّام، لكنْ؛ صرفه الله عنها"[3]، وفي الحقيقة؛ انصرف منكبرتي عن غزو الجزيرة والشَّام لأن جُيُوش التَّتَار كانت قد اقتحمت بلاده الشَّرقيَّة.

وبعد فتح جلال الدِّين منكبرتي عاصمة الكرج تفليس، ترك بها حامية قويَّة بقيادة وزيره شرف الملك، فَقَلَّتْ عليهم الميرةُ، فخرجوا عام **623 هـ** - **1226م**، من تفليس نحو أرزن الرُّوم، فنهبوا منطقتها، وأخذوا من الغنائم الشيءَ الكثيرَ، وكان طريق عودتهم على أطراف خِلاط، فاعترضهم نائب الأشرف فيها الحاجب حُسام الدِّين علي، وأوقع بهم، واستردَّ كُلَّ ما نهبوه. فخاف الوزيرُ شرفُ الملك، وأرسل إلى جلال الدِّين يحثُّه على العودة، ويُحذِّره مغبَّة التأخير للانتقام من الحاجب علي. فعاد جلال الدِّين نحو خِلاط، وحاصرها، واحتلَّ الربض، وَنَهَبَتْهُ عساكر الخَوَارزميَّة. لكنَّ أهل خِلاط استماتوا في القتال، ووقف الحاجب علي يُقاتل أمامهم، حتَّى ردُّوهم، ثُمَّ اشتدَّ البرد، ونزل الثلج، فرحل جلال الدِّين عن خِلاط[4].

---

1 - تاريخ التَّتَار، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 144.
2 - سيرة منكبرتي، النسوي، 211.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 339.
4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 455 - 461.

وكان جلال الدِّين منكبرتي عندما احتلَّ أذربيجان قد تزوَّج زوجة ملكها السَّابق أوزبك، وهي ابنة السُّلطان السلجوقي طغرل، وكانت مُتحكِّمة في البلاد خلال عهد زوجها أوزبك، فأهملها جلال الدِّين، ونزع منها صلاحياتها السابقة، وندب للنيابة عنه في خوي[1] شرف الدِّين الباخرزي، الذي أراد التحكُّم ببنت طغرل، "ونزل بدارها، واستخرج دفائنها، وخزائنها، وطلبت اللحاق بالسُّلطان، فأبى"[2]، فنقمت عليه، واتَّفقت مع أهل مدينتها خوي، واتَّصلوا بنائب الملك الأشرف في خِلاط الحاجب حُسام الدِّين علي، واستدعوه ليتسلَّم البلاد. "وكان شرف الملك معتقداً بخُلُوّ الجوِّ، فورد الخبر بقُرب الحاجب بالعساكر الشَّاميَّة، فولَّى صوب تبريز، وخلَّى أذربيجان، فوصل الحاجب علي"[3]، وملك خوي وما جاورها من الحُصُون والبُلدان، وذلك في عام **624 هـ 1227م**، وقويت شوكته هُناك، ولو أقام في أذربيجان لَمَلَكَهَا بالكامل، لكنَّه قرَّر العودة إلى خِلاط، واصطحب معه زوجة جلال الدِّين ابنة السُّلطان طغرل[4].

وكان ردُّ الخوارزمي سريعاً، فبعد عودة الحاجب علي من خوي، قام شرف الملك الباخرزي وزير ونائب السُّلطان جلال الدِّين بالهُجُوم على قلعة شمران[5] التي كانت للملك الأشرف، وحاصرها[6]. ويُخبرنا صاحب سيرة منكبرتي عمَّا جرى في هذا الحصار، فيقول: "فإذْ بأصوات الكوسات[7]، وإذْ بأعلام صفر وراءها أعلام حُمر، فولَّى شرفُ المُلك منهزماً، وترك مُعسكره. وسار الطلبُ وراء شرف المُلك...ثُمَّ أنجد السُّلطانُ شرفَ المُلك... وسار يطلب الحاجبَ علي، فالتقيا، وهُزم الحاجب، وقُتل تاجُ المُلُوك بن العادل، وغنم شرف المُلك مُعسكرهم، وَسَيَّرَ الغارات"[8]. مع تعادل القُوَّتَيْن، من حيثُ نتائج الوقائع، فإن القُوَّة الأيُّوبيَّة هي الأفضل، فالحاجب عليّ هُو نائب

---

1 - خوي: بلد مشهور من أعمال أذربيجان. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: خوي).

2 - سيرة منكبرتي، النسوي، 825 ـ 259.

3 - سيرة منكبرتي، النسوي، 260.

4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 471.

5 - شمران: قال ياقوت: شميران بلد في أرمينية، وشميرام حصن بأرمينية، (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، 3 / 365).

6 - سيرة منكبرتي، النسوي، 269.

7 - الكوسات: صنجات نحاس، (صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 9ـ 13)، ـ النقارات: طبول صغيرة (صُبح الأعشى، القلقشندي، 3/ 475).

8 - سيرة منكبرتي، النسوي، 270 ـ 275.

للأشرف، وبدون دعم مُباشر من سيِّده، تمكَّن من تحقيق انتصارات كبيرة بالنِّسبة لإمكاناته العسكريَّة ولموقعه السِّياسي، بينما كانت القوى الخَوَارزميَّة تحتاج لدعم السُّلطان المُباشر، أو لقسم من جيشه، لتُحقِّق أيَّ انتصار، وما ذلك إلَّا لأن الدولة الخَوارزميَّة تُقاتل في أراض شبه مُعادية، حتَّى في المناطق التي تُسيطر عليها، وهي دولة مُجهدة استنزفها التَّتار، وطاش حجر سُلطانها.

وبعد هذه الصراعات الجانبية بين الباخرزي نائب جلال الدِّين، والحاجب علي نائب الأشرف كان لابُدَّ من تصعيد الموقف، وخاصَّة عندما لمس جلال الدِّين هدوءاً ملحوظاً على جبهته مع التَّتار، فقاد جُيُوشه، وتوجَّه نحو الجزيرة. وكانت أوَّل بُلدان الجزيرة التي احتلَّها منكبرتي هي ماردين، وعندما دخلها، دوَّت أخبار قُوَّته الوحشية وأفعاله التي لم يفعلها إلَّا التَّتار، في كل أنحاء الشَّام[1]، وامتدَّت أطماعه نحو الجزيرة كلّها، ورُبَّما الشَّام من بعدها، لما لمسه من ضعف القوى الأيُّوبيَّة فيها، وتفرُّق كلمتهم، ومُحالفة المُعظَّم له ضدَّ أخوَيْه الكامل والأشرف، وخاصَّة أن الأشرف قد أزال بيدَيْه شوكه طالما وقفتْ في حلق أطماع منكبرتي بعَزْله الحاجب علي عن خِلاط، واعتقاله فيها.

وممَّا شجَّع منكبرتي أكثر على اقتحام الجزيرة وُجُود أُمراء فيها، كاتبوه، وحالفوه، مثل صاحب سر ماري، وصاحب أرزن الرُّوم، اللّذَيْن قدَّما له النجدات العسكريَّة، وأمدَّاه بما يلزم من المعدَّات والمؤن[2]، عندما حاصر مدينة خِلاط.

ألقى جلالُ الدِّين منكبرتي الحصارَ على مدينة خِلاط، وهي للملك الأشرف، فقاومت حامية المدينة حصارَ الخوارزمي لفترة طويلة نسبياً[3]، دُون أن يتحرَّك صاحبها الملك الأشرف، الذي رُبَّما كان مشغولاً بأُمور دمشق، أو أنَّه كان يأمل بفشل الحصار، أو بفكِّه عن طريق التحرُّك السِّياسي، فقد أنزل نائب خِلاط عزّ الدِّين آيبك رسولاً إلى جلال الدِّين يبذل له الخُضُوع والطاعة، ويُخبره أن الملك الأشرف "ما أمره بالقبض على الحاجب إلَّا لإساءته الأدب مع السُّلطان، والتخطِّي إلى بلاده من غير أمر صدر إليه، وها هو قد ولأني خِلاط مأموراً بطاعة السُّلطان، واتِّباع مُراده". وبالغ رسول عزّ

1 - السُّلوك، المقريزي، 1/ 339.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 83، وتاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 84.
3 - قاومت مدينةُ خِلاط حصارَ الخوارزمي عشرة أشهر .(تاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 78).

الدِّين آيبك بمُلاطفة السُّلطان، فلم يلتفتْ إلى كُلِّ ذلك، وقال لـه: "إن أردتَ مَرضـاتي، فابعـث إليَّ الحاجبَ علياً"، ولَّما عاد الرسول إلى عزّ الدِّين، قام بقتل الحاجب عليّ مُباشرة[1].

ونحنُ نعرف أن الحاجب علي عندما حقَّق انتصاراته على الخَوَارزميَّـة، وأحـضر بنـت طغـرل زوجة الخوارزمي ابتهج الأشرف، وعدَّ ذلك من انتصاراته. وما قاله رسول عزّ الـدِّين نائـب خِـلاط المُحاصرة حول اعتقال الحاجب علي هُو استغلال لظرف اعتقاله، وقد أدرك الخـوارزمي ذلـك، فلـم يهتمّ كثيراً، وطلب الحاجب علي، ولكنْ؛ هل كان يرمي من طلبه الانتقام منه بنفسه؟! أم كان يعـرف أن طلبه سيُؤدِّي إلى قتله؟!

كذلك ورد إلى جلال الدِّين منكبرتي ـ وهُو على حصار خِلاط ـ رسولان مـن ديـوان الخليفـة المُنتصر، وطلبا فكَّ الحصار، فلم يوافق جلال الدِّين، "واسـتنكر ذلـك، وقـد حـان فتحهـا، فقـالا: نخاف أن تعجز عنها، وترحل، فبإشارة الديوان يكون الأمر أفـضل"[2]. ورُبَّـما استرضـاءً للخليفـة الذي كان جلال الدِّين يحرص ـ في ظرُوفه تلك ـ على عـدم إغـضابه، ولكـي يُمـرِّر عـدم استجابته، لطلب الخليفة، أرسل إليه يسأله أنْ يُنعم عليه بلباس الفُتُوَّة. وكان الخليفة مُهتمَّاً بنشر تنظيم الفُتُـوَّة، وخاصَّة بين المُلوك، فتسلَّم طلب جلال الدِّين منكبرتي نقيب الفُتُوَّة في دار الخلافة جلال الـدِّين عبـد الله بن المُختار، فرغَّب الخليفة بذلك، فأجابه، وسارت الرُّسُل باتِّجاه منكـبرتي، ومعهـم "التـشاريف والخلع، فوصلوا والخوارزمي على أخلاط، مُحاصراً لهـا، فألبسوه الفُتُـوَّة، وتـشاريف الخلافـة" عـام 626 هـ1229م[3]. ونسي الخليفة أمر خِلاط بالكامل، فالأمر سيَّان إنْ كانت مع الأشرف، أو كانت مع الخوارزمي، والمُهمُّ عنده أنَّه زاد عدد المُلوك الذين ألبسهم سراويل الفُتُوَّة، وهي عنوان الطاعة لـه، أمَّا الخوارزمي؛ فلا الخليفة، ولا نظام الفُتُوَّة، كانا يعنيان له أكثر من مواقف، يُريد أن يُوجِّهها لصالح مشاريعه السِّياسيَّة والعسكريَّة.

---

1 - سيرة منكبرتي، النسوي، 299.

2 - سيرة منكبرتي، النسوي، 307.

3 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 296.

وبعد مُقاومة ضارية وصبر طويل أظهرته مدينة خِلاط، تآمر بعض الأُمراء مع منكبرتي، وساعدوه على دُخُول المدينة[1]، عام 627 هـ[2]. ويُقال إن مَنْ تآمر على تسليم خِلاط للخوارزمي هُو: ابن مُحسن دلدرم[3]، ورفيقه[4]. ولُحنق منكبرتي من المُقاومة التي أبدتها خِلاط "فعل بأهلها ما يفعله التَّتَر"[5]، " فقتل مَنْ وجده من أهل البلد، وخرَّبها، وسبى الحريمَ، واسترقَّ الأولادَ، ونهبَ الأموالَ، وجرى على أهلها ما لم يُسمَع بمثله"[6]. وقام جلال الدِّين بالقبض على مُجير الدِّين يعقوب وتقي الدِّين عبَّاس شقيقَيْ الأشرف، وأعدم عزَّ الدِّين آيبك نائب الأشرف في خِلاط؛ إذْ سلَّمه لمملوك للحاجب عليّ ليقتله انتقاماً لأُستاذه. كما أخذ زوجة الأشرف ابنة إيفاني ملك الكرج "وكان أبوها قد زوَّجها للملك الأوحد بعد أسره أمام خِلاط، وبعد موت الأوحد تزوَّجها أخوه الملك الأشرف، وضمَّها منكبرتي إلى حريمه انتقاماً لأَخْذ الحاجب علي زوجته من خوي[7]، ودخل بها جلال الدِّين تلك الليلة[8].

وبعد أن استقرَّ منكبرتي في خِلاط لم ينسَ الخليفة، فقام بتسيير تقي الدِّين عبَّاس بن العادل وشقيق الأشرف، في قيوده إلى بغداد هدية إلى الخليفة. وفي بغداد؛ أُزيلت عنه القيود، وأكرمه الخليفة، وبقي عنده حتَّى كُسرَ الخوارزمي[9].

إن كلَّ ما قام به منكبرتي في خِلاط ليدلّ على أكثر من الوحشية والتهوُّر، إنَّه دليل على عدم امتلاكه لعقلية القائد السِّياسي، أو رجل الدولة، رُبَّما كانت تلك الوحشية قد تولَّدت في نفسه نتيجة لكُلّ الظُّرُوف التي عاشها، وخاصَّة في كفاحه المرير ضدَّ التَّتار. أمَّا هديَّته للخليفة؛ ففيها مسحة من الاستخفاف ببني أيُّوب، أكثر ممَّا فيها تقدير للخليفة.

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 487.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 309.
3 - دلدرم: اسم تركي أصله: بيلدرم؛ أيْ البرق.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 85.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 146.
6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 487.
7 - تاريخ التَّتار، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 158.
8 - تاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 79.
9 - المنصُوري، ابن نظيف، 200.

المبحث الثَّالث

العلاقات الخَوَارزميَّة مع قوى الجزيرة الشَّاميَّة

عندما دخل جلالُ الدِّين خوارزم شاه إلى عالم الجزيرة الشَّاميَّة، بما يُمثِّله جيشه من قُوَّة كُبْرَى، أدَّى ذلك إلى إعادة تشكيل التكتُّلات السِّياسيَّة والعسكريَّة التي كانت سائدة قبل وُصول الخوارزمي، ولاح في الأفق انقسام أصحاب القوى في الجزيرة الشَّاميَّة بين حلفَيْن كبيرَيْن، هما:

آ. حُلفاء الخوارزمي:

1 - **رُكن الدِّين جيهان شاه بن طغرل:** صاحب أرزن الرُّوم، وابن عمّ علاء الدِّين كَيْقُبَاذ[1]، وقد كانت بينه وبين قيقباذ عداوة مُستحكمة، ممَّا جعل علاء الدِّين يخاف من هذا التحالف[2]، وقد حضر رُكن الدِّين جيهان شاه بنفسه إلى عند جلال الدِّين وهُو يُحاصر خِلاط، وأمدَّه بعساكره، وبالمعدَّات اللازمة للحصار[3]. وبعد دُخول جلال الدِّين خِلاط جاء إليه جيهان شاه، وأعلمه "باتِّفاق مُلُوك الشَّام والرُّوم عليه، وقال: الرأي مُبادرتهم قبل أن يجتمعوا، فصوّب السُّلطان رأيه"[4].

2 - **حُسام الدِّين خضر الأصيلي**[5]: صاحب سر ماري، وكان حُسام الدِّين يتلاعب على حبال السياسة، فيُظهر لجلال الدِّين أنَّه معه، ومن جُملة أتباعه، وكذلك يفعل مع الأشرف[6]. وعندما حاصر جلال الدِّين خِلاط قدم إليه بنفسه، وبجنده، ومعه آلات لدعم الحصار، فأكرمه الخوارزمي بعد فتحه خِلاط، وأعطاه بلدة أرجيش، والأل[7]. وكان حُسام الدِّين يعتقد أنَّه - بذلك - سيحفظ إمارته من الطرفَيْن المتنازعَيْن، وبالتَّأكيد؛ فإن حُسام الدِّين كان يُبرِّر لنفسه ذلك بضعفه أمام القوى الكبيرة المُتصارعة حوله، ولكنَّه لم يُفكِّر بأنَّ أمره سينكشف لهما معاً، فقد أرسل الحاجب علي نائب

---

1 - تاريخ التتَّار، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 159، وسيرة منكبرتي، النسوي، 329.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 489، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 298.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 185.
4 - سيرة منكبرتي، النسوي، 329.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 219.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 666.
7 - الأل: بلدة بالجزيرة. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: الأل)

الأشرف في خِلاط كتاب صاحب سر ماري حُسام الدِّين وطيّه كتاب وزير الخوارزمي الواصل إليه، ولابُدَّ أن حُسام الدِّين بنفسه هُو الذي سلَّم الكتاب للحاجب علي بُرهاناً على مودته، ويُؤكِّد فيه وزير الخوارزمي شرف الملك[1]: بأنَّ جلال الدِّين "لا شكَّ ولا شُبهة في تصميم عزمه المبارك على فتح بلاد الأرمن والشَّام"[2]. وأرفق معها رسالة منكبرتي نفسه؛ حيثُ يُؤكِّد عزمه على غزو الأرمن والشَّام لولا إعاقة الفتَن الدّاخليَّة في بلاده[3]، وأنَّه حالما ينتهي منها سيتوجَّه نحو الأرمن والشَّام[4].

كذلك أرسل صاحب سر ماري ابنَهُ إلى عند الملك الحافظ، وهُو نائب الأشرف في الجزيرة، فأكرمه الحافظ، لكنْ؛ عندما حضر الأشرف لاسترداد خِلاط من الخوارزمي، قبض على حُسام الدِّين خضر، وعلى ابنه، وحملهم إلى دمشق[5]، وذلك جزاءً لتحالفه مع الخوارزمي. بعد ذلك؛ حاول جلال الدِّين منكبرتي أن يتودَّد إلى السُّلطان علاء الدِّين كَيْقُباذ، فأرسل له رسولاً يحمل هدايا قيِّمة، فلم يأبه له الرُّومي، فابن عمِّه صاحب أرزن الرُّوم عند الخوارزمي، وهُو لا يأمن منه. كما يبدو أنَّه كان يعرف أن الخورازمي لا يحفل بحلف، ولا بمُوالاة إلَّا وُفقاً لمصالحه.

ب. الأيُّوبيَّة وحُلفاؤهم:

كان أكبر مُلوك الأيُّوبيَّة وهُو السُّلطان الكامل "مُهتمّاً من أمر الخوارزمي"[6]، الذي دخل عالم الجزيرة بقُوَّة بعد احتلاله لمدينة خِلاط، فقد أشرف على الشَّام، وقُوَّته لا تخفى على أحد، لذلك؛ ركَّز الكاملُ جُهودَهُ من أجل التحالف مع الرُّومي علاء الدِّين ضدَّ الخوارزمي[7]، وكان هذا رأي الملك الأشرف، وهُو المَعْني بالأمر، فخلاط من أملاكه، وكانت القُوَّة المُعادلة للخوارزمي هي قُوَّة الرُّومي علاء الدِّين كَيْقُباذ سُلطان سلاجقة الرُّوم، فرغب الكامل بالتحالف معه، آملاً منه النجدة في صراع مُرتقَب ضدَّ الخوارزمي[8]. أمّا كَيْقُباذ؛ فإنَّه كان مُهتمّاً لأمر الخوارزمي رُبَّما أكثر من الأيُّوبيَّة، فقد أزعجه دُخول

---

1 - شرف الملك: خواجا جيهان علي بن أبي القاسم، تُوفِّي عام 628 هـ 1231م.

2 - راجعْ نصَّ الرسالة في: المنصُوري، ابن نظيف، 169.

3 - راجعْ نصَّ الرسالة في: المنصُوري، ابن نظيف، 170.

4 - المنصُوري، ابن نظيف، 172.

5 - المنصُوري، ابن نظيف، 219.

6 - المنصُوري، ابن نظيف، 196.

7 - المنصُوري، ابن نظيف، 196.

8 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 273.

الخوارزمي مسرح الجزيرة، وأَخْذ خِلاط، وهي مفتاح بلاده، لذلك عدَّ أن تحالفه مع الأيُّوبيّة، بغَضِّ النظر عن كُلِّ المواقف السابقة، أمر مصيري بالنِّسبَة إليه، فقد "خاف أن يأخذ بلاده"[1].

وفي عام 627 هـ 1230م، أرسل الرُّومي رسوله إلى الملك الكامل، الذي كان مُقيماً في الرقَّة، يُحلِّفه على التعاهد والتعاضد. وبالمُقابل؛ أرسل الملك الكامل كُلاً من: الشهاب أحمد[2]، والجمال الكندري[3]، لتحليف الرُّومي[4]. والغريب في الأمر هُو تضارب الأخبار عن موقف علاء الدِّين كَيْقُبَاذ من جلال الدِّين منكبرتي ومن بني أيُّوب، ويبدو من هذه الأخبار أن الرُّومي لم يكن قد حزم أمره بعد، وأنَّه يُلاطف الطرفَيْن، ويتودَّد لهما على السواء، فقد أورد النسوي أنَّه قد وصلت للسُّلطان جلال الدِّين رسالة من علاء الدِّين كَيْقُبَاذ صاحب الرُّوم يغريه بمُعاداة بني أيُّوب، ويعده بالمُساعدة عليهم، ويقول فيها: "إنَّه كان اشتغل في سنته تلك بمَنْ يُتاخمه من الكَفَرَة، ففتح لهم عدَّة حُصُون، كما أن السُّلطان اشتغل بالتتار، فردَّهم على أعقابهم، ولم يبقَ - الآن - إلَّا صرف الهمَم إلى هؤلاء الفئة الباغية، والشرذمة الطاغية"، وبالغ في ذكر الصفات السَّيِّئة لبني أيُّوب حتَّى قال: "ورجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"[5]. وفي الحقيقة؛ إنْ صحَّت هذه الرسالة، فهي تحريض شديد من الرُّومي، وإغراء واضح له لقتال الأيُّوبيَّة، وذمّ لهم بلغ حدَّه الأقصى باعتبار قتالهم هُو الجهاد الأكبر، فَمَنْ يُقاتلهم يُثاب أكثر ممَّنْ يُقاتل التَّتار، أو الفرنجَ، على حدِّ قول الرُّومي. وفي الوقت نفسه؛ يصل إلى الرقَّة الكمال كيمار رسول علاء الدِّين كَيْقُبَاذ صاحب الرُّوم يحمل صُورة عن الرسالة التي كان قد سيَّرها إلى جلال الدِّين الخورازمي، وسُلِّمَتْ الرسالة بمحضر من المُلُوك الأيُّوبيَّة: الكامل، والأشرف، والحافظ، ولديهم رسول الخليفة مُحيي الدِّين بن الجوزي، وممَّا جاء في الرسالة: "لقد تجنَّيتَ على بيت أيُّوب، وهم بيت كبير كثير السعادة، قد تأصَّل من سنين... ولهم الأموال والبلاد والرجال والأولاد... وأنت، فلا أموال، ولا رجال، وبلادكَ خربة... ولا تظنّ أني عدوّهم، لا؛ والله،

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 291.

2 - شهاب الدِّين: هُو أحد المُقرَّبين من الملك الكامل، تُوفِّي عام 634 هـ 1236م.

3 - جمال الدِّين أبو القاسم عبد الرحمن الكندري، فقيه ومُدرِّس في مدرسة الشافعية بمصر، تُوفِّي 651 هـ 1283م. (الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 185).

4 - المنصُوري، ابن نظيف، 195.

5 - سيرة منكبرتي، النسوي، 278.

بل صديقهم ونسيبهم بما بيننا من الأهلية والمُصاهرة"[1]. إزاء هذَيْن النَّصَّيْن يحار الباحث في أيّهما كان الرُّومي صادقاً؟ رُبَّما في كلَيْهما، فلكُلٍّ واحد كَتَبَ ما يُرضيه، وما يُحقِّق له مصالحه الشخصية عند مُتلقِّي الرسالة في الوقت نفسه. ورُبَّما كان موقف الرُّومي المُعادي للأيُّوبية قبل أن يأخذ الخوارزمي خِلاط، فقدَّم عرضه للخوارزمي، ويبدو أن عرضه لم يلقَ أذناً صاغية من الخوارزمي، ولم يلتفت إليه، لذلك؛ عندما احتلَّ خِلاط عدَّ إن الخطر قد أصبح على بابه، فاندفع الرُّومي نحو الأيُّوبيَّة ليتحالف معهم. وألحَّ الرُّومي في طلب الملك الأشرف الذي كان في دمشق "حتَّى قيل إنَّه في يوم واحد وصل إلى الكامل والأشرف منه خمسة رُسُل"[2]، فتشكَّلت نُواة الحلف المُواجه لحلف جلال الدِّين الخوارزمي من الملك الكامل صاحب مصر وأخيه الملك الأشرف صاحب دمشق، ولكُلٍّ منهما مُدُن وبلاد في الجزيرة تتبع إليه، واتَّفق معهم حُلفاؤهم التقليديون: صاحب المَوصل مُظفَّر الدِّين، والممالك الأيُّوبيَّة في حلب، وحماة، وحمص.

وكان طلب كَيْقُبَاذ من الأشرف: أن "تحضر إلى عندي، لنتَّفق على هذا الذي أضرَّ بالبلاد، وأهلك العباد، فعندي المال والرجال"[3]. لقد كان الرُّومي يُدرك تماماً أنَّه غير قادر على مُواجهة الخوارزمي بقُوَّاته الخاصَّة، ولذلك ألحَّ على التحالف مع بني أيُّوب، وخاصَّة الملك الأشرف، فهُو يعرف إمكاناته العسكريَّة وقدرته القيادية. ومع أن الاتِّفاق يصبُّ في مصلحة الأشرف تماماً، فقد شاور أخاه الكامل، فقال الكامل: إن في الاتِّفاق مع الرُّومي مصلحة لنا، وأخذ الكامل معه سبعة آلاف فارس، وغادر الرقَّة إلى مصر[4]. فلماذا غادر الكامل ساحة المعركة المُتوقَّعة؟ ولماذا ابتعد إلى مصر؟! مكتفياً بإسداء النُّصح لأخيه الأشرف بالاتِّفاق مع الرُّومي، هل هي ثقة بأخيه؟! أم عدم اكتراث؟! يبدو أن تقييم موقف الكامل ليس بالأمر السهل، فانسحاب الكامل بجنده نحو مصر لابُدَّ أنَّه لأمر عظيم تراءى له، أو أنَّها غاية المصلحة الضيِّقة؛ حيثُ سار إلى مصر ليكون في قاعدة سلطنته بعيداً عن النتائج، التي قد لا تكون في مصلحة الأيُّوبيَّة في الشَّام.

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 198.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 489.
3 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 299.
4 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 299.

وإذا حاولنا أن نُفتِّش على تبرير لحركة الكامل بالانسحاب، فرُبَّما نقول إنَّه اطمئنَّ بعدما أرسل الرُّومي يُخبره: "أنَّه سيَّر خمسة عشر ألف فارس إلى أزربيجان، وعشرة آلاف إلى ملطية، وإنَّه حيثُ يأمره الكامل، فطاب قلب الكامل بذلك"[1]. على كلّ الأحوال؛ سار الأشرف إلى حَرَّان بسبعمائة فارس، وأقام بها ينتظر وُصُول عساكر الشَّام ليلتحق بحليفه الرُّومي[2]، ووصلت النجدات إلى الأشرف في حَرَّان؛ حيثُ بلغ عدد فُرسان الأشرف خمسة آلاف فارس، ومنهم عسكر دمشق، والجزيرة، وحلب، وحماة، وكان يقود عسكر حمص الملك المنصُور إبراهيم بن المُجاهد[3]. فسار الأشرف من حَرَّان بجموعه، والتقى بحليفه الرُّومي مع عسكره قُرب سيواس، وسارا نحو خِلاط[4].

معركة ياصجمن 627 هـ:

جمع الأشرفُ عسكرَ الجزيرة والشَّام، فكان معه بحُدُود خمسة آلاف فارس "من الشجعان، وكُلٌّ منهم قد جرَّب الحَرْب، ومُقدَّمهم أمير من أُمراء عسكر حلب يُقال له عزّ الدِّين عُمر بن علي المكاري، من الشجاعة في الدرجة العليا، وله الأوصاف الجميلة"[5]. وكان مع علاء الدِّين كَيْقُبَاذ حوالي عشرين ألفاً من المُقاتلين[6]. وفي أثناء الاستعدادات؛ حضر إلى منكبرتي رُكن الدِّين جيهان شاه صاحب أرزن الرُّوم، وأعلمه "باتِّفاق مُلُوك الشَّام والروم عليه، وقال: الرأي مُبادرتهم قبل أن يجتمعوا، فصوَّب السُّلطان رأيه، واتَّفقا . . منتظرين حَرَكَة العسكرين أيّهما تحرَّك أوَّلاً، ساقا إليه قبل اتِّصاله بصاحبه"[7]. وللحقيقة؛ فهذه خُطَّة جيِّدة، وكان من المُمكن أن تُؤدِّي إلى اختلاف جذري في نتيجة المعركة، لكنْ؛ "مَرضَ السُّلطان مرضاً شديداً، وسقط على الفراش، وتواترت كُتُبُ رُكن الدِّين مُحرِّضة على المعركة، والسُّلطان في شُغل عنها، وبعد أن خفَّ عنه المرض ساق، وبعض عساكره في الشَّرْق وبعضها في حصار بعض القلاع"[8]. إن الأيَّام التي أمضاها السُّلطان جلال الدِّين مريضاً

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 195.
2 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 299.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 298.
4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 489.
5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 489.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 298.
7 - سيرة منكبرتي، النسوي، 329.
8 - سيرة منكبرتي، النسوي، 330.

كانت أيّاماً ذهبية للحُلفاء، فقد أكملوا استعداداتهم، والتقى الجيشان بسيواس، وما إنْ سمعوا بحَرَكَة الخوارزمي حتَّى تحرَّكوا، والتقوا بعسكره في مرج ياصجمن[1]، وأطلَّت العساكر الأيُّوبيَّة والرُّومية عليهم في المرج وهم مُعسكرين، بينما جيش الحُلفاء بأتمّ أهبَّة واستعداد، وكان الرُّومي هُو الدبندار[2]، وقُوَّات الرُّوم تُشكِّل الميمنة والميسرة، أمَّا القُوَّات الأيُّوبيَّة؛ فهي بقيادة الأشرف، وتُشكِّل القلبَ، وكُلٌّ منهم له بعض الأجنحة، فكان صاحب خرتبرت الأرتقي من أجنحة الرُّومي، "وكان مع الرُّومي من الخلائق ما طبق الأرض، وملأها من التُّركمان، والأرمن، والفرنج، والمُسلمين، وغيرهم". والملك المنصُور صاحب حمص كان من أجنحة الأشرف، "وقد عمل عملاً عظيماً هُو وأصحابه، وفقد جماعة منهم دُون باقي جميع السلاطين"، أمَّا عسكر حلب؛ فكان في وسط القلب. وكانت العَرَبان قد حضرت مع الأشرف، وهي لكونها قُوَّات خفيفة جدّاً، فهي التي تبدأ المطاردة، ويسوق خلفها باقي العَسْكَر[3]. والتقى الجمعان "فانكسرت الخَوَارزميَّة، ووقع منهم في واد خلق كثير، فهلكوا"[4]، "وولَّى جلال الدِّين منهزماً، وتفرَّقت عساكره، وتمزَّقت"[5]. وقبض كَيْقُبَاذ على ابن عمِّه، رُكن الدِّين جيهان شاه بن أَرْطُغْرُل صاحب أرزن الرُّوم، وسجنه[6]، ويُقال إنَّه قتله[7].

ويشرح لنا الجويني مُجريات هذه المعركة الغريبة، مُبرِّراً هزيمة جلال الدِّين منكبرتي أمام تحالف الأشرف وكَيْقُبَاذ برواية لا تفتقد إلى التماسك، يقول: "كان جلال الدِّين قد دهمه المرض، فبرز من محنته، وامتطى جواده، ولأن صحَّته مازالت واهنة لم يُحسن التمسُّك بزمام جواده، فانطلق الجواد على غير هُدى، فقالت الخاصَّة: يجب أن ينال السُّلطانُ راحتَهُ، فعادت الرايات، وحين رأت صُفُوف الميمنة والميسرة ذلك ظنُّوا أن السُّلطان انهزم، فتراجعوا، بينما ظنَّ جيش الخصوم هذا التراجع حيلة

---

1 - يا صجمن: هُو من أعمال أذربيجان، ذكره ابن الأثير باسم: باسي حمار، (الكامل في التاريخ، 12/ 490).

2 - الدبندار: الذي يضرب الطبل (صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 13)، ونستنتج من السياق أنَّها تعني القائد العامّ، الذي يتحرَّك الجميع بأمره.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 206 ـ 209.

4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 309.

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 298، - يروي ابن واصل حادثة تدلُّ على اختلال عقل جلال الدِّين بعد هزيمته. (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 298).

6 - تاريخ التَّتار، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 159، والمنصُوري، ابن نظيف، 212.

7 - سيرة منكبرتي، النسوي، 331.

من السُّلطان، ليسوقهم إلى الصحراء، فلم يلحقوا به[1]، ولو ساق الرُّومي والأشرف خلف الخوارزمي لتمكّنوا من إبادة قوّاته، "بل ظنُّوا أن له عدَّة أمكنة، لأنَّه انكسر من غير قتال فقالوا: هذه خديعة، ما نثق بكسرته"[2]، ونستدلُّ من ذلك أنَّها كانت معركة غير حاسمة، ولم يتمّ فيها قتال حقيقي، أدَّت ظُرُوف مرض منكبرتي إلى تراجع جيشه، دُون استثمار عسكري لهذا التراجع من قبَل الأشرف وحليفه كَيْقُبَاذ، ممَّا مكّن الخوارزمي من إعادة جمع قُوَّاته، ثُمَّ سار إلى خِلاط، ومنها إلى أذربيجان[3]. ويقول ابن نظيف: إنَّه بعد هزيمة الخوارزمي هُم الأشرف عُبُور بلاد العجم وراءه، وظلَّ ـ تارةً ـ يُقدم، وتارة يُحجم[4]. ولكنْ؛ في الحقيقة، حتَّى لو كانت نتيجة المعركة حاسمة تماماً، وهزيمة الخوارزمي كاملة، ما كان الأشرف ليُقدم على هذه الخطوة لأسباب كثيرة، منها:

1 ـ عندما احتلَّ الحاجب على بلاد أذربيجان لم يتمكَّن من الإقامة فيها طويلاً، بل غادرها مُسرعاً، مع أنَّه قدمها بمُوافقة أهلها.

2 ـ لم يكن الرُّومي ليسمح بهذا التوسُّع للأشرف، ممَّا يعني قُوَّة كُبْرَى قُرب حُدُوده، وبالتَّالي؛ لن يدعمه، إذا لم يمنعه أصلاً من دُخُول بلاد الشَّرْق.

3 ـ تتشكَّل قوى الأشرف العسكريَّة، إضافة إلى قُوَّاته، من عساكر المالك الأيُّوبيَّة: حلب، وحمص، وحماة، وغيرها، ولا يُمكن أن تسير هذه القُوَّات بهذه الحملة لبُعد قواعدها، ولحاجتها لأوامر جديدة.

4 ـ إن الأشرف يعرف جيّداً ما يواجهه الخوارزمي من متاعب من أهل البلاد، وأهمّ من ذلك من التّتَار المُتحفِّزين في الشَّرق.

5 ـ أمَّا إذا كان المقصود بعُبُور الأشرف هُو حملة للمطاردة فقط؛ فهي غير مأمونة الجوانب، وفائدتها العسكريَّة قليلة.

ولكُلِّ ذلك نعتقد أن ما فكَّر به الأشرف هُو مُجرَّد أقوال تخدم الحَرْب المعنوية، ويُؤيِّد ما نذهب إليه مُحاولة الأشرف المُباشرة للصُّلح مع الخوارزمي.

---

1 - تاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 84.

2 - المنصُوري، ابن نظيف، 211.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 490، ـ وقيل بأنَّ الخوارزمي تابع مسيره إلى خوي. (الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 491).

4 - المنصُوري، ابن نظيف، 214.

نتائج المعركة:

بعد المعركة مُباشرة تحرَّك الأشرف نحو خِلاط، فاسترجعها[1]، عام 628 هـ 1231م[2]، وهي خراب يباب[3]. والغريب في الأمر أن جميع الأطراف المُتحاربة المُنتصرة: علاء الدِّين كَيْقُبَاذ الرُّومي، والأشرف مُوسى الأيُّوبي، والمهزومة: جلال الدِّين منكبرتي الخوارزمي، جميعهم مالوا للصُّلح، وبدؤوا بمُفاوضات ومُراسلات للاتِّفاق فيما بينهم، والتحالف على أن يبقى بيد كُلّ منهم ما يملكه من البلاد، ولا يتعرَّض أحدهم لما بيد الأخر[4]، فما هي دوافع هذا الصُّلح بالنِّسبة لكُلّ الأطراف؟

1 ـ بالنِّسبة لجلال الدِّين منكبرتي، كان وضعه لا يحتمل مثل هذه الهزيمة، وإنْ لم تكن حاسمة، "فقد ضعف جلال الدِّين، وقويت عليه التّتَار"[5]، لذلك؛ مال للصُّلح، وهُو من مصلحته بالدرجة الأُولى.

2 ـ أمّا بالنِّسبة للأشرف؛ فإن بوادر خلافه مع أخيه الكامل كانت قد بدأت فعلاً، ولابُدَّ إن انسحاب الكامل، وعدم دعمه للأشرف في معركة مصيرية مع الخوارزمي كان بداية ذلك الخلاف.

3 ـ أمّا علاء الدِّين كَيْقُبَاذ؛ فالمعركة ضدَّ الخوارزمي بالنِّسبة إليه كانت معركة وقائية، لإبعاده عن حُدُوده، كما أن له مُحاولات سابقة للتحالف مع الخوارزمي، وحتَّى إنَّه سعى لتوجُّهها ضدَّ بني أيُّوب.

ويقول النسوي صاحب سيرة منكبرتي: إن الأشرف هُو الذي ابتدأ بطلب الصُّلح والتحالف مع جلال الدِّين، وإنَّه وسَّطَ شرفَ الملك وزير جلال الدِّين في إتمامه، وأرسل له يقول: "إن سُلطانك سُلطان المُسلمين، وسندهم، والحجاب دونهم، فهلا ترغبه في جمع الكلمة... وأنا ضامن السُّلطان من جهة كَيْقُبَاذ، وأخي الكامل"، وتردَّدت الرُّسُلُ بينهم، حتَّى وافق السُّلطان جلال الدِّين على الصُّلح[6].

بينما يقول ابن نظيف: إن الملك الأشرف أرسل لجلال الدِّين يطلب حسن مُعاملة الأسرى، فردَّ عليه منكبرتي بطلب الصُّلح، وقال من جُملة رسالته: "فإن اخترتُم الصُّلح، بسم الله"[7]. ويُتابع

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 299.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 159.
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 147.
4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 147، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 491.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 146.
6 - سيرة منكبرتي، النسوي، 333.
7 - المنصُوري، ابن نظيف، 215.

ابن نظيف: بأنَّ الأشرف قد ردَّ عليه برسالة جاء فيها: "بلادنا قد خربتْ، فصُلحنا على أيِّ شيء يكون؟ فإنْ أردتَ ذلك، فانزل عن هذه البلاد"[1]، وهذا يُؤكِّد أن جميع الأطراف كانت ترى في الصُّلح مصلحة لها، وخاصَّة أن خطر التَّتار ـ وهُو خطر أكبر ـ قد أخذ يقترب من الساحة، والجميع على يقين بأنَّهم سيُواجهونه.

وفي عام 627 هـ 1230م، أخذ خواجا جيهانُ وزيرُ جلال الدِّين منكبرتي المُبادرةَ، وطلب رسولاً يصل إليه من عند الأشرف والرُّومي ليتباحث معه. فسيَّروا إليه المُظفَّرَ غازي، فتباحث معه، وعاد ومعه رسول، فأمر الأشرفُ العساكرَ والمُلوك وعسكرَ الرُّومي أن يلبسوا، ويتجمَّلوا، وأن يقف بيد يدَيْه أكابر الأُمراء، ثُمَّ أحضر الرسول فسمع رسالته، وصرفه، "واتَّفق الرأي على إرسال الجواب مع الحكيم سعد الدِّين[2] لأنَّه يعرف بالعجمي"[3]، والمُهمُّ في الأمر أن المباحثات بينهما أثمرت. وفي عام 628 هـ 1231م، سار الملك الأشرف إلى خِلاط ليُقابل فيها رُسُلَ جلال الدِّين، إنَّها لفتة ذات مغزى كبير أن يستقبل الأشرف رُسُلَ الخوارزمي في بلد كانوا قد احتلُّوه، واسترجعه الأشرف منهم، ممَّا سيُشكِّل ضغطاً نفسياً على رُسُل الخوارزمي لمصلحة الأشرف. وفعلاً؛ وصل إلى خِلاط وفدُ الخَوَارزميَّة، يرأسه الوزير خواجا جيهان، وبرفقته الحكيم سعد الدِّين رسول الأشرف، وحلف لهم الأشرف على الاتِّفاق[4].

وتسارعت الأحداث؛ فبشكل مُفاجئ، وصل إلى جلال الدِّين منكبرتي خبرُ عُبُور القائد التتاري جورماغون نوين لنهر أموية[5]، فالتتار قد سمعوا بهزيمته "وكان الملاعين لمَّا بلغهم عود السُّلطان من الرُّوم بجَمْع مُفرَّق، وشمل مُبدَّد مُمزَّق، اغتنموا ضعفه، وطلبوه"[6]، وقيل: بأنَّ مُقدَّم

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 216.

2 - الطبيب سعد الدِّين بن عبد العزيز بن المُوفَّق ت عام 644 هـ 1246م، راجعْ ترجمته في: طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، 3/ 314.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 222، ـ يُعرَف بالعجمي: أيْ يتكلَّم اللُّغة الفارسية.

4 - المنصُوري، ابن نظيف، 224.

5 - تاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 85، وتاريخ مُختصر الدُّول، ابن العبري، 430.

6 - سيرة منكبرتي، النسوي، 348.

الإسماعيليَّة في ألموت هُو مَنْ أطلعهم على حال جـلال الـدِّين، وطلـب مـنهم الهُجُـوم عليـه"[1]. ولم يجدْ جلال أمامه من حلٍّ سوى الاستنجاد بالأشرف والرُّومي ومُلُوك الجزيرة والخليفة.

استنجاد جلال الدِّين بالأشرف:

عندما أيقن جلال الدِّين منكـبرتي بسُوء موقفه أمـام التَّتـار، وأن المعـارك القادمـة ستُحدِّد وُجُوده، ووُجُود دولته، وأنَّه غير مُستعد لها، بدأ يُطلق صيحات الاستغاثة وهُو شبه مُتأكِّد مـن عـدم جدواها. كانت القوى التي يُمكن أن تدعم جـلال الـدِّين في ذلـك الوقـت محدودة وبعيـدة نـسبياً، وبعضها غير قادر، أو غير مُهتمٍّ بتقديم المُساعدة، أو أنَّه ناقم عليه.

فصاحب الرُّوم علاء الدِّين كَيْقُبَاذ كان مُعادياً لجلال الدِّين، لأنَّه "جـرَّد سـتة آلاف فـارس، فأغاروا على خرتبرت وأزربيجان وملطية، لما كان ينقم على علاء الدِّين كَيْقُبَاذ، وتحريـشه إيَّـاه بكُتُبـه المتابعة بخلاط، ثُمَّ ميله عنه إلى الأشرف"[2]. ومع كُلِّ ذلك؛ فقـد أرسـل جـلال الـدِّين إلى كَيْقُبَـاذ يطلب نجدته، فلم يردّ عليه[3]، وكذلك كَاتَـبَ الخليفـة العبَّـاسي المُنتـصر بـالله في بغـداد[4]، ولكـن الخليفة، رغم تحسُّن علاقته بجلال الدِّين، فلا يُمكن أن يكون قد نسي تجريد جلال الـدِّين الحمـلات ضدَّه، وحتَّى إذا رغب بإنجاده فهُو غير قادر، وإذا أنجـده فعـلاً، فنجدتـه لـن تكـون ذات جـدوى، لضعف حال الخليفة.

وفي الحقيقة؛ كان الملك الوحيد القادر على تقديم نجدة تستطيع أن تدعم جلال الدِّين بـشكل جدِّيّ هُو الملك الأشرف بإمداد من أيُّوبية الشَّام وأخيه الكامـل في مـصر. لـذلك قـام جـلال الـدِّين بإرسال مُجير الدِّين يعقوب بن الملـك العـادل، "وكـان قـد أسره عنـدما احتـلَّ خِـلاط"، إلى أخيـه الأشرف، وحمله رسالة تتضمَّن الاستغاثة الأخيرة من دولة مَقْضي عليها، ومَلك انتهى أمره، وقال له:

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، حوادث عام 628، وجامع التواريخ - تاريخ هُولاكُو، رشـيد الـدِّين، ترجمـة: مُحمَّـد صادق نشأت، 44.

2 - سيرة منكبرتي، النسوي، 372

3 - ابن العبري، تاريخ مُختصر الدُّول، 340، وتاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمَّد ألتونجي، 2/ 86.

4 - تاريخ التَّتار، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 161.

"أعلمه أن الشَّرق طار شراره... وليس يردُّهم إلَّا اجتماع الأُمَّة، واتِّفاق الكلمة، وهيهات: هل من راق، وقد بلغت التراق"[1].

ويبدو أن جلال الدِّين كان مُتأكِّداً من عدم جدوى الاستنجاد بأحد، وأنَّه ترضية لخواطر بعض قادته قام بذلك، يقول البَسَوي: "وأجمعوا على الاستنجاد بالملك الأشرف مُوسى على التَّتار، وكان جماعة من الجبناء يُشيرون على السُّلطان بذلك، وهُو يُخالفهم باطناً، والسُّلطان يُتابع رُسُلَهُ للملك الأشرف مُستنجداً، والعقل يُنكر ذلك مُستبعداً، وهيهات، إن الضغينة إذا تمكَّنت من القُلُوب تلبث، ورُبَّما تُورَّث، إن المستعين على العدوِّ بذي ثائرة كالمستجير من الرمضاء بالنار"[2]. وحتَّى لا يُضطرَّ الأشرف إلى مُواجهة الرُّسُل، فقد ترك الشَّام، وتوجَّه إلى مصر، يتفرَّج بها، ويتسلَّى، ولم يسمح رجاله لرُسُل جلال الدِّين بالوُصُول إلى دمشق، فمكث الرُّسُل بحَيْرَة من أمرهم، ولكن موقف الأشرف كان قد وضح لهم، فأرسل مُختصَّ الدِّين - أكبر رُسُل جلال الدِّين - رسالةً إليه، يُبلغه اليأس من نجدة الأشرف له، وأن الأشرف لن يرجع من مصر حتَّى ينجلي موقف جلال الدِّين مع التَّتار، وأنهى رسالته بقوله: "فلينظر السُّلطان في شغله غير مُنتظر جواب رُسُله"[3]. عند ذلك؛ يئس جلال الدِّين من نجدة الأشرف، وكلَّف البَسَوي بالترسُّل إلى مُلُوك الجزيرة الآخرين، لطلب حُضُورهم مع عساكرهم، ويُخبرنا البَسَوي عن هذه المهمَّة، فيقول: "فأرسلني إلى الملك المُظفَّر شهاب الدِّين غازي بن العادل، أستحضره بنفسه و عسكره، ومَنْ حوله من المُلُوك مثل صاحبَيْ آمد وماردين، وقال: عند حُضُورهم لا حاجة لنجدة الملك الأشرف. وقال لي: قُلْ للمُظفَّر، هَلُمَّ لي مُساعداً..."[4]. ويبدو أن هذا الطلب - أيضاً - قام به جلال الدِّين بدُون قناعة بفائدته، يقول البَسَوي: "ولمَّا خلا المجلس قال لي: نحنُ لا نشكُّ في هؤلاء، أبداً؛ لم يُنجدونا، ولا تنفع الشكوى إلى غير راحم، إن هؤلاء - يعني التُّرك من أُمرائه - يُطمعون أنفسهم فيما لا يكون، تسويلاً بكواذب الظنون، وقد شوَّشوا علينا بهذا الطمع وجه تدبيرنا، فاخترتُكَ لهذه الرسالة، لترجع من المبعوث إليه باليأس، الذي لا رجاء بعده،

1 - سيرة منكبرتي، النسوي، 355.
2 - سيرة منكبرتي، النسوي، 370 - 371.
3 - سيرة منكبرتي، النسوي، 372.
4 - سيرة منكبرتي، النسوي، 372.

ولا تأميل عنده"[1]، وهذا دليل على حالة اليأس القاتل التي وصل إليها جلال الدِّين، والتي ستُؤدِّي إلى فشله الكامل.

ومع ذلك؛ فقد سافر البَسَوي إلى الملك المُظفَّر شهاب الدِّين غازي بن الملك العادل في مَيَّافارقين، فاعتذر له بقلَّة عسكره، وأنَّه نائب لإخوته، وحذَّره من صاحبَيْ آمد وماردين، وطلب منه اختبارهما؛ ليعلم نفاقهما. وكان آخر الحوار بينهما أنْ قال البَسَوي للمُظفَّر: "لابُدَّ من حالتَيْن؛ إمَّا للسُّلطان، وإمَّا عليه، وأيّ منهما كانت تعقبكما ندامة، فإنْ كانت للسُّلطان وقعدتُم عن نصرته، فإنْ بذلتم خزائن الأرض لمرضاته لم تنفعْ، وإنْ كانت عليه، فستذكرونه حين تبلون بمُجاورة التَّتار، فردَّ المُظفَّر: كلام لا أشكُّ في صحَّته، ولكنني محكوم علي"[2]. إنَّها - إذنْ - السياسة الأيُّوبيَّة غير المُعلنة، والتي تقضي بترك جلال الدِّين لمصيره أمام التَّتار، انتقاماً من مواقفه السابقة ضدَّهم ومن أَخْذه لخِلاط، وخوفاً من مطامعه ببلادهم. ولكنَّهم لم يُقدِّروا مدى قصر نظر تلك السياسة، التي ستنعكس عليهم بالويل والثبور، ولو بعد حين، فهل - فعلاً - كان مُلُوك الأيُّوبيَّة الأشرف والكامل لا يُقدِّرون خطر التَّتار حقَّ قدره؟! أم أن معلوماتهم عن التَّتار وخُططهم كانت قليلة أو مُضلِّلة؟! مهما تكن الأسباب فإن بني أيُّوب قد دفعوا ثمن ذلك الموقف غالياً جدَّاً، فقد أنهى التَّتار حُكْمهم ودولتهم إلى الأبد.

آخر المعارك:

بعد حساب دقيق للموقف السِّياسي أجراه جلال الدِّين تبيَّن له أنْ لا أحد سيتقدَّم لنجدته، وبتقييم الموقف العسكري استنتج أنَّه غير قادر على مُواجهة التَّتار، وتأكَّد أنَّهم مُتَّجهون نحوه، ويقصدونه بالتحديد، فسار بمَنْ معه من العَسْكَر نحو الجزيرة، ولمَّا اقترب من خِلاط، أرسل إلى نائب الملك الأشرف فيها: "ما جئنا للحرب، ولا للأذى، وإنما خوف هذا العدوّ حملنا على قصد بلادكم"[3]، ورُبَّما أمل جلال الدِّين أن يضع مُلُوك بني أيُّوب ونُوَّابهم تحت الأمر الواقع، بنقل معركته مع التَّتار إلى ديارهم، ولكنَّه - نتيجة لخوفه وتحرُّكه على شكل هارب، وليس بشكل قائد يتحرَّك في أرض معركة - أهمل الاستطلاع والكمائن والحراسة، فبينما كان مُعسكراً عن أطراف آمد

---

1 - سيرة منكبرتي، النسوي، 372 - 373.

2 - سيرة منكبرتي، النسوي، 337 - 374.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 498.

"كبس التَّتَر جلالَ الدِّين ليلاً، فهرب في نفر يسير من أصحابه، ونهب التَّتَر المُعسكرَ، وقتلوا مَنْ ظفروا به، والباقي ولُّوا منهزمين، وتمزَّقوا كلّ ممزّق"[1]، وسار جلال الدِّين هارباً باتِّجاه مَيَّافارقين، فوصل إلى قرية صادفه فيها رجل كُردي، فقتله انتقاماً لمقتل أبيه وأخيه من قبَل عسكر جلال الدِّين[2]، ولمَّا علم الملك المُظفَّر شهاب الدِّين غازي بذلك طلب الكُرديَّ، فقتله[3]، ودفن جُثَّة جلال الدِّين، وأخفى قبره[4]، إنَّه الجميل الوحيد الذي قدَّمه بنو أيُّوب إلى جلال الدِّين؛ حيثُ إنَّهم لم يرغبوا بحمايته، أو أنَّهم عجزوا عن حمايته حياً، فحموه ميتاً من انتقام شنيع كان سيقوم به التَّتار، وتمثيل بشع بجُثَّته، لولا مُبادرة المُظفَّر بإخفائها.

وتفرَّق مَنْ نجا من عسكر جلال الدِّين في كُلِّ وجه من وُجُوه الأرض نحو نصيبين، والمَوصل، وسنجار، وإربل، وغيرها، "فتخطَّفهم المُلوك والرعايا، وطمع فيهم كُلُّ أحد حتَّى الفلاح والكُردي والبدوي"[5]، وقصد الجُزء الأكبر من فلول الجيش بلاد سلاجقة الرُّوم، فاستخدمهم علاء الدِّين كَيْقُبَاذ، وضمّهم إلى جيشه[6]، وتوجَّه خال جلال الدِّين مع جماعة من الجيش إلى مَيَّافارقين، فاستقبلهم شهاب الدِّين غازي، أمَّا زوجة جلال الدِّين وحاشيته وخدمه، ومعهم بعض العَسْكَر؛ فمضوا إلى حَرَّان، فأمَّنهم الأمير صواب نائب الملك الكامل فيها، ثُمَّ غدر بهم[7]، "فأخذ مالهم، وسلاحهم، ودوابّهم"[8]. فهل كان هذا انتقام بني أيُّوب؟! أم أنَّه كلّ ما استطاعوا تقديمه لذكرى السُّلطان جلال الدِّين منكبرتي.

الخَوارزميَّة ونظرية السدّ في وجه التَّتار:

ردَّد كثير من المُؤرِّخين أن الدولة الخَوارزميَّة كانت سدَّاً في وجه التَّتار، يمنعهم من التقدُّم غرباً باتِّجاه قلب الدولة الإسلاميَّة، حتَّى إن بعضهم قد وهم، ولم يُميِّز بين الدولة الخَوارزميَّة وبين

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 321، وراجعْ تفاصيل الحادثة في: سيرة منكبرتي، النسوي، 378.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 321.

3 - ابن العميد، أخبار الأيُّوبيِّين، 18، وكَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 303.

4 - سيرة منكبرتي، النسوي، 383

5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 498.

6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 325.

7 - ابن نظيف، المنصُوري، 157، وكَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 302.

8 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 498.

فرقة الخَوَارزميّة، التي عاثت فساداً في الجزيرة والشّام، وتأسّف للقضاء عليهم، وعدّ ذلك تهديماً للسّدّ، الذي كان قائماً في وجه التّتَار. وقد وردت هذه الفكرة في رسائل جلال الدِّين منكبرتي إلى مُلُوك الإسلام، عندما استنجدهم على التّتَار، بأنّه يستطيع إذا أنجدوه أن يُقيم بهم سدّاً في وجه التّتَار، فمن جُملة ما عرض عليهم قوله: "فإن وليت استحالت عليكم مُناهضته، وإني أستطيع أن أجعل بكم سدّ الإسكندر"[1]. وقد ذكرت الفكرة ذاتها، لكنْ؛ كان جلال الدِّين هُو نفسه السّدّ بين المُسلمين وبين التّتَار، "وإنّه إذا ارتفع هُو من البَيْن يعجزون عن مُقاومتهم، وإنّه كسد الإسكندر يمنعهم عنهم"[2]، وردّد هذه الفكرة عديد من المُؤرِّخين، فابن واصل - مثلاً - يقول في معرض حديثه عن جلال الدِّين: "وكان سدّاً بيننا وبين التّتَر، فبهلاكه؛ تمكّنت التّتَر من العراق والروم والجزيرة، والتطرُّق إلى الشّام"[3]، ونسب ابن كثير في ترجمته لجلال الدِّين منكبرتي إلى الملك الأشرف قوله: "هُو سدّ بيننا وبين التّتَار، كما أن السّدّ بيننا وبين يأجوج ومأجوج"[4]، مع أنّه من المُستبعد صدور هذا القول عن الأشرف، نظراً لموقفه من جلال الدِّين قبل هُجُوم التّتَار الأخير عليه، وبعده. ويروي ابن تغري بردي: إنّه لمّا قتل جلال الدِّين منكبرتي "دخل جماعة على الملك الأشرف يُهنّئونه بموته، فقال: تُهنّئوني به، وتفرحون!! سوف ترون غبّه، والله لتكوننّ هذه الكسرة سبباً لدُخول التّتَار إلى بلاد الإسلام، ما كان الخوارزمي إلّا مثل السّدّ الذي بيننا وبين يأجوج ومأجوج. فكان كما قال الأشرف"[5]. وهُنا - أيضاً - هي أقوال مُستبعدة عن الأشرف بدليل مواقفه السابقة لمقتل جلال الدِّين، واللاحقة، وغالباً؛ هي أقوال تردّدت، ونُسبتْ إليه بعد هُجُوم التّتَار على الشّام، ثُمّ تسرّبتْ إلى كتابات المُؤرِّخين.

ويُحتمَل أن فكرة السّدّ الخوارزمي في وجه التّتَار لم يكن مصدرها جلال الدِّين، ولم يُفكِّر بها، ورُبّما كانت من أفكار كُتّاب ما بعد الاجتياح التتاري للشام، فقد نشر النَّسَوي مُعظم رسائل جلال

1 - تاريخ فاتح العالم، الجويني، تعريب: مُحمّد ألتونجي، 2/ 85.

2 - تاريخ مُختصر الدُّول، ابن العبري، 431.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 323.

4 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 9/ 13.

5 - النُّجُوم الزّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 276.

الدِّين، التي يستنجد بها مُلُوك الإسلام، ولا نجد بها أيّ إشارة لفكرة السّدّ[1]، والنَّسَوي المُؤرِّخ هُو المُستشار والكاتب الخاصّ لجلال الدِّين منكبرتي، كذلك لا نجد إشارة لفكرة السّدّ عند ابن نظيف، فهُو مُعاصر للأحداث، مُطَّلع عليها، وقد أورد مقتطفات من رسائل جلال الدِّين تخلو من هذه الفكرة[2]. ويبدو من نُصُوص رسائل جلال الدِّين أنَّها كانت شفهية، ولم تكن مكتوبة، فعندما أراد جلال الدِّين أن يُبلغ الأشرف بخُطُورة الوضع أمام التَّتار أحضر مُجيرَ الدِّين يعقوب بن العادل، "فأوصى إليه أن يمضي إلى الملك الأشرف، وليُعلمه...."[3]، وهذا يُوضِّح أن الرسالة كانت شفهية، ويُؤكِّد ذلك نصُّ ابن نظيف؛ حيثُ يقول: "لمَّا تحقَّق الخوارزمي قصدَ التَّتر له أطلق مُجير الدِّين بن الملك العادل، وقال له: نفسكَ لكَ ، فتُعَرِّف أخاكَ الأشرف بالتَّتر"[4].

والرسائل الشفوية يُمكن أنْ تُنقَل، وتتناقل، بأشكال مُتعدِّدة، فبأحسن الأحوال قد تكون فكرة السّدّ وردت عَرَضَاً في إحداها.

أمَّا فكرة السّدّ الخوارزمي بوجه التَّتار بحَدّ ذاتها؛ فنرى أنَّها معكوسة تماماً، فالخوارزمية ـ مُنْذُ قيام دولتهم ـ قد حطَّموا السّدّ الحقيقي الذي كان يُمكن أن يردَّ التَّتار، أو أن يصمد بوجههم، وذلك من خلال ما يلي:

1 ـ كان السُّلطان مُحمَّد خوارزم شاه مُحارباً قديراً، لكنَّه لم يهتمّ بسياسة المُلْك وإصلاح أمر الرعية، كان مُستبدَّاً بحُكْمه، مُتعصِّباً لرأيه، لا يهمُّه إلَّا توسيع دولته.

2 ـ أغلبية الجيش الخورازمي كانت من مُرتزقة الأتراك من عشائر القفجاق ومنقلي، لا يجمعهم تنظيم سليم، وهدفهم المُفضَّل هُو الغارات والنهب.

3 ـ قضاء خوارزمشاه على دولة الخطا ـ القراخطائيين ـ التي كانت حاجزاً أمام التَّتار[5].

---

1 - راجعْ: سيرة منكبرتي، النسوي، 834 ـ 373.

2 - المنصُوري، ابن نظيف، 277.

3 - سيرة منكبرتي، النسوي، 355.

4 - المنصُوري، ابن نظيف، 722 ـ 228.

5 - عندما اتَّجه خوارزمشاه إلى الخطا قال له الحكماء: إنَّا سمعنا من آبائنا أن وراء جيش الخطا عشَّاً للنحل، وهُو جيش يأجوج، وكانوا يقصدون به جيشَ التَّتار، فلا تستفزّ عشَّ النحل هذا. إلَّا أن طمع السيطرة على العالم أصمَّ آذانَ السُّلطان عن هذه النصائح، فمضى، وهزم خان الخطا، واستولى على بلاده.(مجمع الأنساب، مُحمَّد بن علي شبانكاره أي، 314).

4 ـ خُرُوج جلال الدِّين على الخليفة، وحملته الفاشلة عليه.

5 ـ قسوة جلال الدِّين الفائقة، وسلوكه الدموي.

6 ـ الخوف والتردُّد المسيطران عليه، ممَّا كان يمنعه من اتِّخاذ قرارات سريعة ومُناسبة.

7 ـ ظُلم الخوارزميِّيْن لرعاياهم، واستنزافهم اقتصادياً لتمويل حُرُوبهم التوسُّعية، إضافة إلى أن رعاياهم يعدُّونهم مُغتصبين للمُلك، خارجين على شرعية الخليفة، ممَّا دفع كثيراً من القبائل والجماعات للانضمام إلى التَّتار[1].

8 ـ لم يُبقِ الخوارزميةُ على أيِّ مملكة، أو مُلك مُستقلٍّ، من كاشغر حتَّى العراق، فلم يعد في كُلِّ تلك البلاد مَنْ له القُدرة على مُواجهة التَّتار، يقول ابن الأثير: "إن هؤلاء التَّتَر إنَّما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع، وسبب عدمه أن خوارزمشاه مُحمَّد كان قد استولى على البلاد، وقتل مُلُوكها، وأفناهم، وبقي هُو ـ وحده ـ سُلطان البلاد، فلمَّا انهزم منهم لم يبقَ مَنْ يمنعهم، ولا مَنْ يحميها"[2].

9 ـ يُؤكِّد كاتب مُتأخِّر هُو ابن عرب شاه فكرة تحطيم الخَوَارزميَّة للسّدّ، الذي كان في وجه التَّتار، ليحول بينهم وبين الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة، يقول: "أمَّا أخبار السُّلطان قُطب الدِّين[3]، فإنَّه تملَّك عراقَي العَرَب والعجم، واستولى على غالب الممالك بالقهر، ورفع ما بين ممالكه وبين ممالك جنكزخان من التَّتار المُسلمين قراجغتاي وعُبَّاد الأوثان، واسترقَّهم قهراً وقسراً، فكانوا شُعُوباً وقبائل يخرج منهم سبعون ألف مُقاتل[4]، وكان هؤلاء التَّتار متاخمين بلاد أنزار، وهي حدُّ ممالك السُّلطان، وهُم سدٌّ عظيم بين المُسلمين وبين جنكزخان، فغزاهم السُّلطان، وأبادهم، فارتفع السَّدُّ من البين، وانهدم الفاصل بين الجانبَيْن، واتَّصلت المملكتان، ودقَّت في مملكة السُّلطان قُطب الدِّين البشائر. وكان في نيسابور من أكابر الصدور شخصان من العُلماء، فاجتمعا، وأقاما العزاء، فسُئلا عن موجب هذا البكاء، وإنما الناس في فتوح وهناء، فقالا: أنتم تعدُّون هذا الثلم فتحاً، وتتصوَّرون هذا الفساد صُلحاً، وإنما هُو مبدأ الخُرُوج، وتسليط العُلُوج، وفتح سدّ ياجوج وماجوج، ونحنُ نُقيم

---

1 - راجعْ حول كلِّ تلك الأسباب: تاريخ التَّتار، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 126 ـ 129.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 361.

3 - قُطب الدِّين: السُّلطان قُطب الدِّين مُحمَّد بن أنوشتكين مُؤسِّس الدولة الخَوَارزميَّة، وأوَّل مَنْ لُقِّب خوارزمشاه.

4 - الذي قضى على هؤلاء هُو السُّلطان علاء الدِّين تكش بن قُطب الدِّين، والمقصود هُنا هُو شعب الخطا.

العزاء على الإسلام والمُسلمين"[1]. وهُنا ـ أيضاً ـ نعتقد بأنَّ هذا الاستنتاج كان مُتأخِّراً، وقد تمَّت صياغته على طريقة الحكايات لاستخلاص العبر، وما يهمُّنا فيه هُو إدراك الرأي العامّ الشَّعْبي لدور الدولة الخَوَارزميَّة في فتح طريق التَّتار.

ولكنْ؛ للحقيقة، فإن الدولة الخَوَارزميَّة لم تخرج في علاقاتها السِّياسيَّة، أو العسكريَّة، لا في الحَرْب، ولا في السِّلْم، عن رُوح العلاقات التي كانت سائدة في عصرها، ولا نستطيع أن نُلقي باللوم في أيِّ شيء حصل إلَّا على العصر بأكمله، وعلى كُلِّ مَنْ عاش فيه، فهذه أخلاقيات العصر، ومنها كان سلوك مَنْ عاش فيه. وقد بدأت العلاقات بين الدولة الخَوَارزميَّة والسَّلطنة الأيُّوبيَّة مُنْذُ أيَّام الملك العادل، ولمَّا دفع التَّتار الخوارزميةَ نحو الغَرْب دخلوا معترك الصراع على النُّفُوذ في الجزيرة الشَّاميَّة. وخاصَّة؛ عندما تحالف الملك المُعظَّم بن العادل مع جلال الدِّين منكبرتي سُلطان الخَوَارزميَّة ضدَّ أخويه، وانعكس ذلك على العلاقات الأيُّوبيَّة مع الخليفة العبَّاسي، الذي كان في حرب مع جلال الدِّين، ممَّا جعل الخليفة يتدخَّل مع المُعظَّم لمنع تحالفه مع عدوِّه جلال الدِّين، وجعل الكامل يردُّ على هذا الحلف بالتحالف مع الإمبراطُور فريدريك، هذا التحالف الذي نتج عنه انتكاسة كُبْرَى في سياسة الجهاد الأيُّوبيَّة بتسليم الملك الكامل مدينة القُدْس إلى فريدريك.

انتهى الجُزء الأوَّل، ويليه الجُزء الثَّاني؛ وهُو بعُنوان:

العلاقات الآسيويَّة الأُورُوبيَّة

1- فاكهة الخُلفاء، ابن عرب شاه، 486 ـ 487.

لمحة إلى المؤلِّف

د .مُنذر مُحمَّد الحايك:

- دُكتُوراه في تاريخ العرب والإسلام.
- عُضو دائم في اللِّجان العلميَّة، ومُنسِّق لأعمال المُؤتمرات التَّاريخيَّة والأثريَّة في جامعة البعث .
- رئيس سابق للجمعيَّة التَّاريخيَّة السُّوريَّة .
- أُستاذ مادَّة التَّاريخ في كُلِّيَّة الآداب، جامعة البعث (1992-2002) .
- باحث مُشارك في العديد من المُؤتمرات الدّوليَّة في الجامعات السُّورية والعَرَبيَّة.
- له أكثر من عشر مُؤلَّفات في التَّاريخ، والآثار، والتُّراث الشَّعبي.
- نَشَرَ عشرات البُحُوث التَّاريخيَّة، والأثريَّة، والاجتماعيَّة في المجلَّات العَرَبيَّة المُتخصِّصة.
- حَصَلَ على كثير من شهادات التَّقدير من عدَّة جامعات، ومراكز دراسات، وهيئات ثقافيَّة سُوريَّة، وعَرَبيَّة، وأجنبيَّة؛ تقديراً لنشاطاته الثَّقافيَّة، ومُشاركاته العلميَّة.

حقيقة الحال، إنّ العمل الذي أقدّم له، وأعدّه د. مُنذر الحايك، من أهمّ ما كتب بالعربيّة حديثاً حول الحروب الصّليبيّة، وأشهد أنّه عالج جوانب هذه الحروب بنجاح، ودقّة، ولولا أنّه تملّك في ذهنه - بوضوح - صورة جميع جوانب هذا الموضوع لما حالفه النّجاح.

لقد أوضح - منذ البداية - أنّ قيام الإسلام، ونجاح حركة الفتوحات الكبرى، قسم عالم البحر المتوسّط إلى عالمين متصارعين واحد مسلم، وآخر مسيحي، وفي العالم المسيحي، كان للكنيسة الكاثوليكيّة نفوذها الكبير، لذلك استجاب الأوروبيّون لنداء البابا، فحملوا الصّليب، وتوجّهوا - على شكل أمواج بشرية - يريدون القدس.

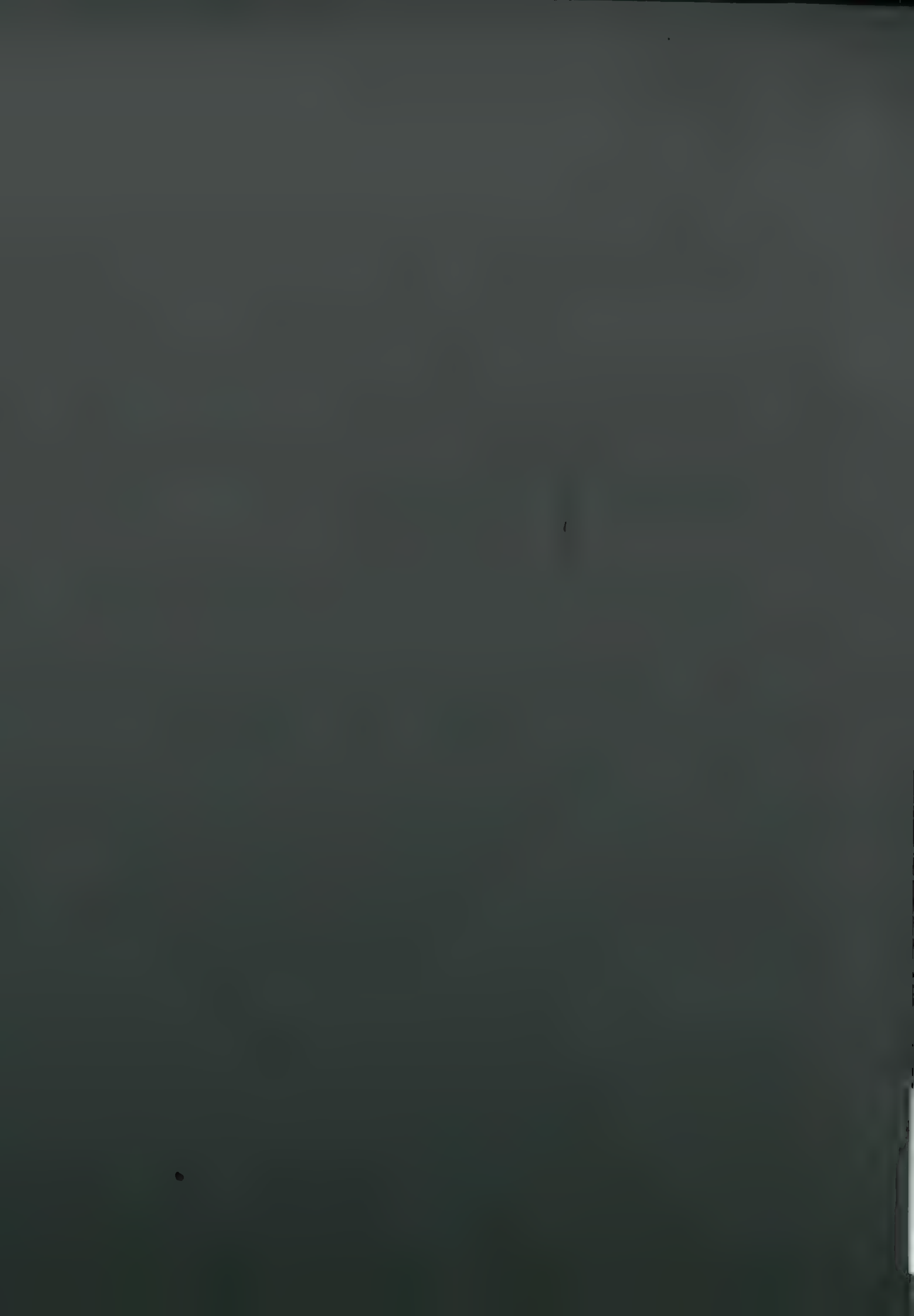
إنّ العمل الذي قام به باحثنا، والذي أقدّم له اليوم، يفتح آفاقاً جديدة للبحث والتّقصّي، وشكّل لديّ بارقة أمل في أنّ الضّعف اللامحدود الذي ألمّ بدراسات التّاريخ الإسلامي في جامعة دمشق، سوف يجري تداركه في حمص، وربّما في حلب، وهذا الضّعف المأساوي مردّه إلى أنّ المعيدين - الذين جرى تعيينهم في العقدين الماضيين لم يخضعوا لمعايير الانتقاء الأكاديمي، وهذا - بالفعل - أمر محزن، لابدّ من إيجاد حل له، الذي أتمناه أن يكون العمل الذي أنجزه الباحث الدّكتور مُنذر الحايك - والذي أقدّم له - بداية لمزيد من الأبحاث في ميدان الحروب الصّليبيّة، والميادين الأخرى في تاريخ العرب والإسلام.

له أتمنّى التوفيق والنجاح، والحمد لله، أوّلاً وآخراً، والصّلاة والسّلام على نبيّه المصطفى وعلى آله وصحبه، وسلّم.

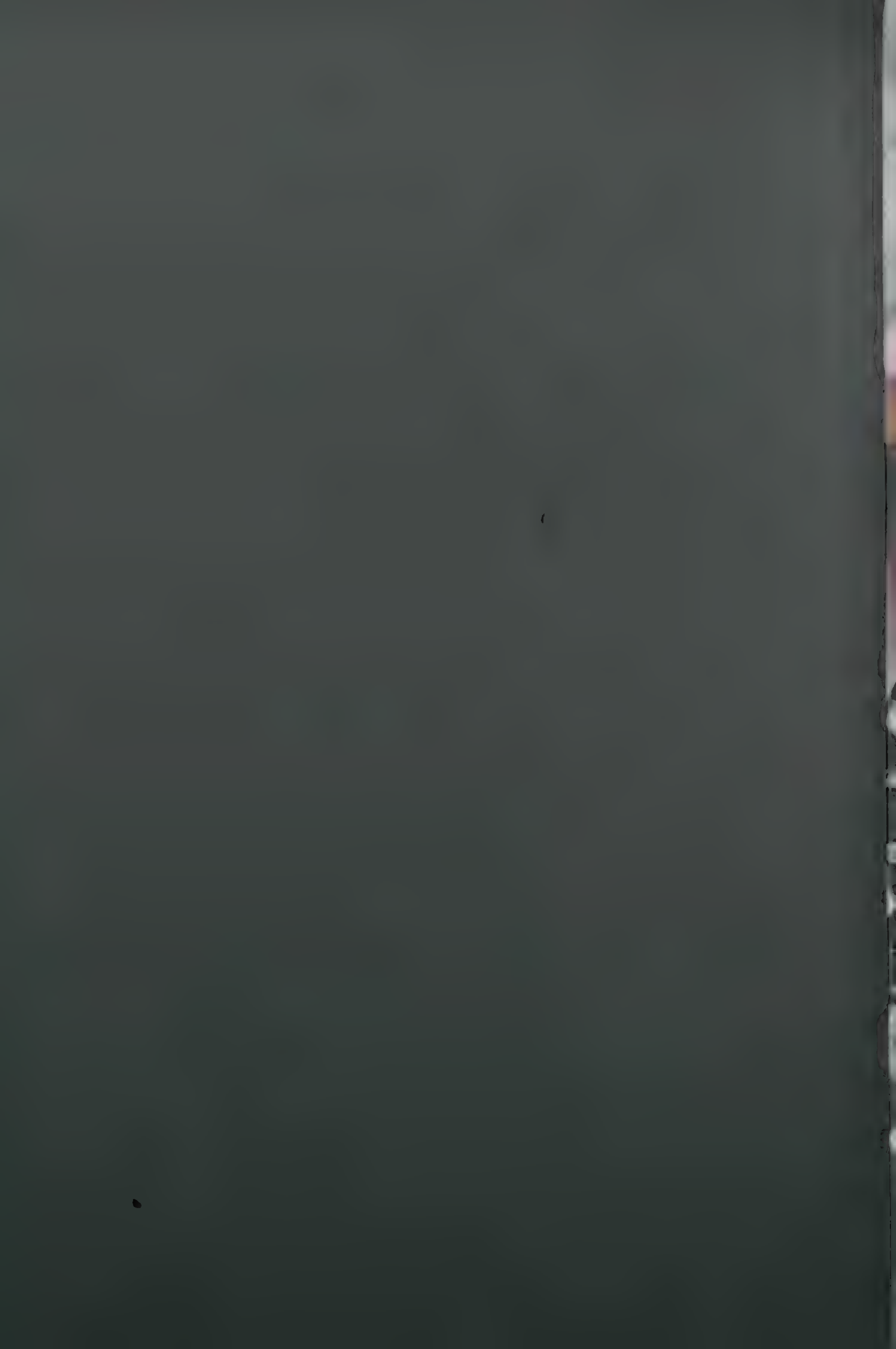
أ. د. سهيل زكّار

pixel studio design 2450733
www.pixelstudio.sy.com

AL - AWA'EL




الأوائل
د. منذر الحايك
العلاقات الدولية في
عصر الحروب الصليبية
الجزء الثاني
تقديم أ.د. سهيل زكار



الكتاب: العلاقات الدّوليّة

في عصر الحُرُوب الصّليبيّة

تأليف : د. مُنذر الحايك

النَّاشر : الأوائل للنَّشر والتَّوزيع

سُوريَّة . دمشق . الإدارة : ص . ب3397

هـاتـف : 00963 11 44676270/1/2

فـاكس : 00963 11 44676273/4/5

البريد الإلكتروني : alawael@scs-net.org

التَّوزيع : دمشق ص . ب10181

هاتف : 00963011102233013

البريد الإلكتروني: alawael@daralawael.com

جـوَّال : 00963 93 418181

00963 93 411550

موقع الدَّار على الإنترنت :

www.daralawael.com

قرؤوا فوصلوا

لنقرأ حتَّى نصل

الطَّبعة الأولى

آب 2006م

الإشراف الفنّي: يزن يعقوب

الإخراج الفني: فؤاد يعقوب

تصميم الغلاف: عبد القادر إدريس

التّدقيق والمُراجعة: إسماعيل الكُردي

الدُّكتُور مُنذر الحايك

العلاقات الدّوليَّة

في

عصر الحُرُوب الصّليبيَّة

الجُزء الثّاني

العلاقات الآسيويّة الأورُوبيّة

تقديم : أ. د. سُهيل زَكّار

الأوائل

2006


بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس

الجُزء الثَّاني

العلاقات الآسيويَّة الأُورُوبيَّة

التَّتار وعلاقاتهم الدّوليَّة:

الممالك المَسيحيَّة الشَّرْقيَّة: مملكة جُورجيا ـ بلاد النوبة ـ مملكة أرمينيا ـ الإمبراطُوريَّة البيزنطيَّة ـ فرنج الساحل الشَّامي ـ الحملات الأُورُوبيَّة على الشَّرْق.

الدُّول الأُورُوبيَّة: الدولة البابويَّة ـ الجمهوريات الإيطالية ـ الإمبراطُوريَّة الجرمانية المُقدَّسة ـ مملكة إنكلترا ـ النمسا ـ المجر ـ الفلمنك.

القسم الخامس

التَّتَار وعلاقاتهم الدّوليَّة

الفصل الأوَّل

العلاقات بين التَّتَار والدُّول المَسيحيَّة

المبحث الأوَّل:

التَّتَار في مُواجهة العالم الإسلامي

كان التَّتَار يعيشون في مناطق أواسط آسيا؛ حيثُ تمتدُّ مناطق واسعة من الأراضي السهبية والصحراوية، التي كانت ـ مُنْذُ أقدم العُصُور ـ منبعاً للهجرات، وتعيش فيها أقوام بدوية نصف مُتوحِّشة، ورغم تعدادها، فإن كلاً منها تكون وحدة قائمة بذاتها على أساس الجنس واللُّغة[1].

ومع التشابه الكبير في البيئة وأساليب الحياة والملامح بين التَّتَار والأتراك، فهم مُختلفون تماماً، وبينهم تفاوت شاسع[2].

وكان يُطلَق عليهم اسم التَّتَر نسبة لإحدى قبائلهم القويَّة، ثُمَّ أُطلق عليهم اسم المغول نسبة لقبيلة المونغكول. وقد اعتنق قسم كبير منهم المَسيحيَّة النسطوريةَ في مطلع القرن الخامس الهجري، الحادي عشر للميلاد.

وظلَّت حياة التَّتَار قائمة على نهب القبائل لبعضها، حتَّى ظهر تيموجين المونغكولي، وحصل على لقب جنكيز خان ـ الأمير المُحيط ـ عام 592 هـ 1196م.

ثُمَّ خاض عدَّة حُرُوب، وانتصر على القبائل واحدة إثر أُخرى، ضامّاً كُلَّ مَنْ يقبل الخُضُوع له، ومُبيداً إبادة جماعية القبائلَ المُعادية. ثُمَّ جمع الكورلتاي ـ المجلس الوطني ـ، وأعلن نفسه سُلطاناً على منغوليا، وأصبحت أوامره تُمثِّل الإرادة الإلهية، ولكنَّه دعمها بـ " الياسا "، وهي تضمُّ مجموعة أعراف وتقاليد التَّتَار[3].

---

1 - Gengis - Khan, Grenard, p. 8

2 - جامع التواريخ، تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، تعريب، مُحمَّد صادق نشأت، 2/ 1/ 212.

3 - حول الياسا أو اليسق راجعْ: العالم الإسلامي، بيرتولد شبولر، تعريب: خالد عيسى، 28، وخطط الآثار، المقريزي، 2/ 220.

لقد أعاد جنكيزُ خان تنظيمَ الجيش؛ بحيثُ تمكّن عام 614 هـ 1217م، من إسقاط إمبراطُورية الصين الشمالية، قبل أن يتوجَّه نحو الغَرْب؛ ليصطدم بدولة خوارزم، التي كانت في ذروة قُوّتها، فَسَحَقَ جنكيزُ خان جُيُوش هذه الدولة، بعد عدَّة معارك. ولم يكن هذا النصر الساحق بسبب تكتيك فُرسان التَّتار، فالخوارزمية والأتراك يُجيدونه تماماً، بل بسبب أدوات القتال ذات الأصل الصيني، التي استخدمها التَّتار[1]، إضافة إلى فُقدان التماسك القومي في جُيُوش الخَوَارزميَّة، وضمّ التَّتار العناصر التُّركيَّة إلى جُيُوشهم طوعاً، أو كرهاً[2].

وبعد مقتل جلال الدِّين منكبرتي عام 628 هـ 1231م، انفتحت بلاد الشَّرق الإسلامي -التي كان يُسيطر عليها الخَوَارزميَّة - أمام زحف التَّتار" لعدم المانع، وسبب عدمه أن خوارزم شاه مُحمَّد كان قد استولى على البلاد، وقتل مُلُوكها، وأفناهم، وبقي وحده سُلطان البلاد جميعها، فلمَّا انهزم منهم، لم يبقَ في البلاد مَنْ يمنعهم، ولا مَنْ يحميها"[3]، "فبهلاكه؛ تمكّنت التَّتَر من العراق، والروم، والجزيرة، والتطرُّق للشام"[4].

ومع تدفُّق التَّتار إلى أرض الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة عرف الناس أنَّه لا حُدُود للوحشية، فقد دمَّروا المُدُنَ والمَدَنية، وأزالوا حضارةً، جهد العَرَبُ المُسلمون قروناً طوال في بنائها.

وقد عبَّر المُوفَّق عبد اللطيف بن يُوسُف عن حديث التَّتار مع المُسلمين؛ حيثُ قال: "هُو حديث يأكل الأحاديث، وخبر يطوي الأخبار، وتاريخ يُنسي التواريخ، ونازلة تُصغر كُلّ نازلة، وفادحة تُطبق الأرض، وتملؤها ما بين الطول والعرض"[5]. فكأن التَّتار كانوا ينتقمون لجهلهم من العلم، ولتخلُّفهم من الحضارة، ولشظف عيشهم من الرفاهية.

---

1 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكّار، الموسوعة الشاملة، 3 / 413.

2 - راجعْ لبيرتولد شبولر: المغول في التاريخ، ترجمة: يُوسُف شلب الشَّام، والعالم الإسلامي في العصر المغولي، تعريب: خالد عيسى.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 361.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 323، - والروم: يُقصَد بها بلاد سلاجقة الرُّوم.

5 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 661 - 670/ 60.

وجعلوا أبلغ انتقامهم من حواضر الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة؛ حيثُ تهاوت أُمَّهات المُدُن تحت ضرباتهم. وتوَّج التَّتار وحشيَّتهم بما فعلوه في بغداد حين استولوا عليها عام 656 هـ 1258م، فقد حوَّلوا عاصمة الدُّنيا وحاضرة العلم إلى ركام مجبول بالدماء، يعلوه الدُّخان.

ظهر المغول بصُورة كائنات مُرعبة، أناس مجهولين قدموا من خلف سور يأجوج ومأجوج، وقد عرفوا كيف يُمثِّلون هذه الصُّورة المُرعبة بمهارة لزيادة فُرص نجاحهم، عن طريق التأثير النفسي. وإضافة للرُّعب الذي يثيرونه؛ كان هُناك انضباطهم المشهود، ومهارتهم الحَرْبيَّة، واستغلال الخلافات بين المِلَل والطوائف للتجسُّس، وقد جمعوا بين القسوة المُرعبة ضدَّ المعارضين وبين الوُعُود والضمانات للمُتحالفين والمستسلمين[1].

ولا أبلغ في خبرهم ممَّا ذكره ابن الأثير، فأثبت أنَّه ليس مُجرَّد مُدوِّن للأحداث، بل هُو مُؤرِّخ مُحلِّل، باحث عن الأسباب، يقول في حادثه التَّتار، ينعي الإسلام والمُسلمين:

"لقد بقيتُ عدَّة سنين مُعرضاً عن ذكْر هذه الحادثة استفظاعاً لها، كارهاً لذكْرها، فأنا أُقدِّم إليه رجلاً، وأُؤخِّر أُخرى، فَمَنْ الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمُسلمين . . فياليت أمِّي لم تلدني، ويا ليتني متُّ قبل حُدُوثها، وكنتُ نسياً منسياً. ثُمَّ رأيتُ أن تَرْكَ ذلك لا يجدي نفعاً. . . لهذه الحادثة التي استطار شررها، وعمَّ ضررها، وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح، فإن قوماً خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا بلاد الإسلام، فيفرغون منها ملكاً وتخريباً وقتلاً ونهباً، ولم ينجُ إلاَّ الشريد النادر في أقلِّ من سنة.

هذا لم يُسمَع بمثله، فعلوا هذا في أسرع زمان، ولم يلبثوا إلاَّ بمقدار مسيرهم لا غير . . ملكوا أكثر المعمور من الأرض، وأحسنه وأكثره عمارة وأهلاً، وأعدل أهل الأرض أخلاقاً وسيرة . . ولم يبقَ أحد في البلاد التي لم يطرقوها إلاَّ وهُو خائف يتوقَّعهم".

ثُمَّ يُتابع ابن الأثير ليُبيِّن أن هُناك عدَّة أخطار تكتنف المُسلمين، يقول: "ولقد بُلي الإسلام والمُسلمون في هذه المُدَّة بمصائب لم يبتل بها أحد من الأُمم، منها هؤلاء التَّتر.. أقبلوا من المشرق .. ومنها خُرُوج الفرنج من المغرب .. وأشرفت ديار مصر والشَّام وغيرها أن يملكوها.. ومنها أن الذي

---

1 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 255.

سلم من هاتَيْن الطائفتَيْن، فالسيف بينهم مسلول، والفتنة قائمة على ساق.. وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون"[1].

ولَمَّا تزايد خطر التَّتار، ومُلُوك الإسلام في حالة مزرية، طلب ابن الأثير النصر من الله؛ لأنَّه لا فائدة تُرجَى من المُلُوك، يقول: "عظم شأن التَّتَر، واشتدَّ خوف الناس منهم، والله - تعالى - ينصر الإسلام والمُسلمين نصراً من عنده، فما ترى في مُلُوك الإسلام مَنْ له رغبة في الجهاد، ولا في نصرة الدِّين، بل كُلّ منهم مُقبل على لهوه، ولعبه، وظُلم رعيَّته، وهذا أخوف عندي من العدوّ"[2].

ونظراً للشدَّة الشديدة التي عصفت بالمُسلمين نجد أن ابن الأثير يخرج عن قاعدة مُؤرِّخي عصره بمدح المُلُوك، أو تجنُّب الإساءة إليهم على الأقلّ، فيصفهم بما فيهم، دُون أن يستثني منهم أحداً، يقول: "يسَّر الله للمُسلمين والإسلام مَنْ يحفظهم، ويحوطهم، فلقد وقعوا من العدوّ إلى عظيم، ومن المُلُوك المُسلمين إلى مَنْ لا تتعدَّى همَّته بطنه وفرجه، ولم ينلْ المُسلمين أذى وشدَّة، مُذْ جاء النبي(ص) إلى هذا الوقت، مثل ما دفعوا إليه الآن"[3].

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 358.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 497.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 376.

المبحث الثّاني:

التّتَار والدِّين المسيحي

كانت الديانة الرّسْميّة للمغول هي الشامانية، لكنّ التجمُّع التّتَاري المغولي الذي أقامه جنكيز خان كان يضمُّ عدداً كبيراً من المسيحيين، هُم ثمرة البعثات التبشيرية النسطورية، التي توجّهت في وقت مُبكِّر من غربي العراق والجزيرة الشّاميَّة إلى أواسط آسيا[1]. حتَّى إن قبيلتَيْن من أكبر قبائل التجمُّع هما النايمان والكرائيت كانتا قد اعتنقتا المَسيحيَّة قبل جنكيز خان بوقت طويل. وهذا سبب ما شاع في أُورُبا عن وُجُود دولة مسيحيَّة كُبْرَى في أقصى الشَّرْق، وانتشرت الأقاويل عن قُوّة وعظمة ملكهم يُوحنَّا، وما هُو إلاَّ آخر خانات الكرائيت، الذي قتله جنكيز خان[2].

وبعدما وحّد جنكيزُ خان القبائلَ طلب من صديقه أونك خان ملك الكرائيت، وهم من الأقوام التّتَارية المُتنصِّرة، أن يُزوِّج ابنتَيْه إلى ابنَيْه، فكانت سيورقوقيتي بيكي لابنه تولوي[3]، وعندما تُوفِّي تولوي خان أخو أوكتاي خان قاآن التّتَار الأعظم، وأحبّهم إليه، طلب قاآن إلى زوجته سيورقوقيتي بيكي، تدبيرَ أمر عسكره، وكان لها أربعة بنين ثالثهم هُولاكُو، "فأحسنتْ تربية الأولاد، وضبط الأصحاب، وكانت لبيبة مُؤمنة تدين بدين النصرانية، تعظم محلَّ المطارنة والرُّهبان، وتقتبس صلواتهم وبركتهم"[4]، فمع أن هُولاكُو لم يدنْ بالنصرانية، فقد تلقَّى تربية نصرانية من أمّه المُؤمنة المتديِّنة.

وعندما تُوفِّي أوكتاي قاآن، وتولَّى ابنه كيوك خان كان معه أمير كبير اسمه قداق يتولَّى تدبير دولته "وكان مُعمَّداً مُؤمناً بالمسيح"، وكان معه أمير آخر اسمه جينقاي، "فهذان أحسنا النظر إلى النصارى، وَحَسَّنَا يقين كيوك خان ووالدته وأهل بيته بالمطارنة والأساقفة والرهابية، فصارت الدولة مسيحيَّة، وارتفع شأن الطوائف المنتمية إلى هذا المذهب"[5]. فالدولة التّتَارية كانت ـ مُنْذُ بداياتها ـ

---

1 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، 125.
2 - تاريخ المغول، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 178.
3 - جامع التواريخ ـ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 20.
4 - تاريخ مُختصر الدُّول، ابن العبري، 434.
5 - تاريخ مُختصر الدُّول، ابن العبري، 450.

واقعة تحت تأثير التبشير المسيحي النسطوري، الذي نجح في ضمِّ عدد كبير من الأُمراء ونساء البيت المالك إلى حظيرة المَسيحيَّة، ومع أن أحداً من الخانات لم يعلن تنصُّره، فـإنَّهم كـانوا يتقبَّلـون الأفكـار المَسيحيَّة، ويُميِّزون أتباعها من رعاياهم. وممَّا جعل أمر المَسيحيَّة يتعاظم أكثر في البيت المالـك زواج تولوي خان من دوقوز خاتون، وهي ـ أيضاً ـ من قبيلة الكرائيت المَسيحيَّة، وبعد موت تولوي خـان آلت دوقوز إلى هُولاكُو[1]، فكانت الزوجة المُفضَّلة لديه على نسائه الأخريات، وتمتَّعت بمنزلة كبـيرة في الدولة، وعند هُولاكُو، فقد كانت قويَّة الشخصية، تعرف كيف تُنفِّـذ مـا تُريـده. "وعملـت عـلى مُؤازرة المسيحيين، وفي عهدها؛ قوي حال تلـك الطائفـة، وكـان هُولاكُـو خـان يرعـاهم، ويعـزُّهم إرضاء لها"[2]. ولم تكن دوقوز ـ وحدها ـ من نساء هُولاكُو التي تدين بالمسيحية، فقـد كـان "نسـاء هُولاكُو البارزات مسيحيات نسطوريات"[3].

علاقة التَّتَار بالمسيحيين في الشَّام:

وكُلُّ ما سبق يُفسِّر ما حدث في البلاد الإسلاميَّة بعد استيلاء التَّتَار عليها مُباشرة، وخاصَّة؛ في العراق والجزيرة الشَّاميَّة؛ إذْ توقَّع النساطرةُ الحُصُولَ على مغانم كبيرة في ظلِّ دولـة هُولاكُـو؛ حيـثُ كانوا يعرفون أن قسماً كبيراً من جيشه وحاشيته وزوجاته يُشاركونهم في المعتقد الـدِّيني، ويتعـاطفون معهم، إضافة إلى أن هُولاكُو نفسه ـ بالرّغم من عدم إيمانه بديانتهم ـ كان يُشارك ـ غالباً ـ في حُضُور القداديس والاحتفال بالأعياد المَسيحيَّة، حتَّى إنَّـه سـمح ببنـاء كَنيسَة في الـبلاط الملكـي، وأوقـف الأوقاف للكنائس المَسيحيَّة، كما اتَّضح تفضيله للمسيحيين على المُسلمين في المُعاملة. "وحتَّـى أبنـاء الطوائف المَسيحيَّة الأُخرى؛ وهي: السريان، أو اليعاقبة، والأرمن، وإلى حَـدٍّ مـا، الأرثـوذكس، فقـد شعروا بتعاطف هُولاكُو معهم. وأصبح المسيحيُّون في سُورية وفلـسطين وآسـيا الـصُّغْرَى ينتظـرون قُدُوم هُولاكُو بفارغ الصبر، وأسهموا بالسُّقُوط السريع لكثير من المعاقل في شمال بلاد الرافدين"[4].

---

1 - وذلك على عادة التَّتَار وُفق قوانين الياسا، التي تقضي بوراثة الابن الأكبر لكُلِّ نساء أبيه ـ ما عدا أمّه ـ فيتزوَّجهن، أو يطرد، أو يهب، مَنْ شاء منهنَّ.

2 - جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 220.

3 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 3 / 413.

4 - العالم الإسلامي في العصر المغولي، شبولر، ترجمة: خالد عيسى، 75 ـ 58.

كما أن بعض المسيحيين ـ خاصَّة أرمن كيليكيا وفرنجة أنطاكية المرتبطين معهم، وبعض مسيحيِّي الشَّام ـ اعتبروا أنفسهم أدلاَّء للتَّتار؛ للحُصُول على بعض المكاسب، ناسين أن التَّتار يتصرَّفون كأعداء لكُلِّ حضارة، وأنَّهم يهدمون عالماً فيه المُسلمون والمسيحيُّون يُمثِّلون فرعَيْن لحضارة واحدة[1].

كان السُّكَّان المُسلمون ـ عند مداهمة التَّتار لبلدهم ـ يحتمون بالكنائس، لاعتقادهم الراسخ بتعامل أصحابها مع التَّتار[2]. أمَّا في دمشق؛ فقد شمخ النصارى بعد دُخُول التَّتار إليها عام 658 هـ ـ 1260م، "ورفعوا الصليب بها جهاراً، وألزموا الناس بالقيام له من الحوانيت، وصاحوا: ظهر الدِّين الصحيح"[3]. وتردَّد القائد إيل سبان وغيره من كبارهم إلى الكنائس، "وأحضر عدد من نصارى دمشق فرماناً من هُولاكُو للاعتناء والتوصية بهم، ودخلوا بالفرمان من باب توما[4]، وصُلبانهم مرتفعة وهم ينادون حولها بارتفاع دينهم واتِّضاع دين الإسلام، ويرشُّون الخمر على الناس، وبأبواب المساجد"[5]. وعندما صعد المُسلمون مع قُضاتهم وشهودهم إلى قلعة دمشق في اليوم التالي للشكوى إلى إيل سبان، "فأهانوهم، ورفعوا قسِّيس النصارى عليهم، وأخرجوهم من القلعة بالضرب والإهانة"[6]. ولابُدَّ أن هذه الصُّورة قد تكرَّرت في العديد من مُدُن الشَّام، وأدَّت إلى إضعاف التعايش الإسلامي المسيحي، الذي مضى عليه قرون عديدة، وغرست أحقاداً لم تكن موجُودة بينهما. ورُبَّما كانت النتائج المُستقبلية البعيدة، للعلاقات بين هذه الجماعات البشرية المحلِّيَّة والمُسلمين، قد انبعثت من هُنا، فلم يتمكَّن المُسلمين من الغفران لأولئك الذين عملوا مع التَّتار، وهدَّدوا الإسلام والحضارة بالزوال، فكان العزم المُطلق لطرد الفرنجة من مُستعمراتهم السَّاحليَّة، والقضاء المُبرَم على دولة أرمينية الصُّغرَى، ونظرة الشكِّ إلى النصارى المحلِّيِّين، الذين انحطَّ شأنهم، مُنْذُ ذلك الوقت[7].

---

1 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 256.

2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 564.

3 - دُول الإسلام الشريفة، القدسي، 29.

4 - أحد أبواب دمشق، ويقع في منطقة ـ حتَّى الآن ـ مُعظم سُكَّانها من النصارى. راجعْ: مُعجم دمشق التاريخي، قتيبة الشهابي، مادَّة: باب توما.

5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 412.

6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 413.

7 - تاريخ العَرَب والشعوب الإسلاميَّة، كلود كاهن، ترجمة: بدر الدِّين القاسم، 263.

المبحث الثَّالث:

العلاقات بين التَّتَار ومملكة الأرمن

لَّما بدأ التَّتَار بغزو أراضي الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة، وانتشرت أخبار قُوَّتهم واستيلاؤهم على المُدُن والحُصُون، يُرافقها شائعات عن تنصُّرهم، أو على الأقلّ، دعمهم واهتمامهم بالنصارى، اهتمّ الأرمن بهذا القادم القوي الرافع لشأن النصارى، فعمل هيثوم الأوّل[1] جاهداً للاتِّصال بالتَّتَار، وقد تحقَّق ذلك من خلال عدَّة زيارات لهم، كانت أهمّ نتائجها تكريس تبعية دولة الأرمن إلى إمبراطُورية التَّتَار، والتي ستُفرَض على خُلفاء الملك هيثوم حتَّى نهاية الدولة[2].

كان هيثوم الأوَّل ملك أرمنية يعاني من ضغط مملكة حلب الأيُّوبيَّة من جهة ومملكة سلاجقة الرُّوم من جهة أُخرى، ولا يحميه من هجمات الدولتَيْن إلاَّ متانة حُصُونه ووُعُورة بلاده، ومع ذلك كان يفقد من هذه الحُصُون باستمرار، فكان التَّتَار ـ بالنِّسبَة إليه ـ مُنقذاً وحليفاً مُناسباً جدَّاً ضدَّ جيرانه المُسلمين.

أرسل هيثومُ أخاه سمباد إلى عاصمة التَّتَار قراقوم لمُقابلة كيوك الخان الأكبر، وعاد من عنده بمرسوم يقضي بحماية أرمينية، ودعمها لاسترداد حُصُونها، التي احتلَّها المُسلمون. ولم يكتف هيثوم بذلك، بل ورغبة منه في تقوية تحالفه مع التَّتَار، وللضغينة الشديدة التي يُكنُّها للمُسلمين، قام هيثوم بنفسه بزيارة قراقوم، وقابل الخان منكو قاآن عام **651 هـ 1253م**، فقد "غادر هيثومُ كيليكيةَ، مُتوجِّهاً إلى الشَّرْق لزيارة شعَب الرُّماة، والمثول في حضرة الخان منكو، الذي استقبله بحفاوة وابتهاج، واستجاب لكُلِّ شيء طلبه"[3]. وتمَّت رحلة هيثوم إلى قراقوم عن طريق القوقاز؛ حيثُ التقى هُناك الحاكمَ التَّتاري باتو، الذي أمدَّه بعدد من الحُرَّاس، رافقوه إلى العاصمة قراقوم.

---

1 - هيثوم الأوَّل: (623 هـ ـ1229م ـ 667 هـ1269م)، ملك دولة أرمينيا الصُّغرَى (594 هـ1198م ـ 776 هـ1374م)، التي أقامها الأرمن في كيليكيا بعد ضعف القوى الإسلاميَّة هُناك.

2 - للتوسُّع حول علاقات الملك هيثوم بالتتار؛ راجعْ :

The kingdom of Cicilian Armenia, Nersessian, p. 656

3 - تاريخ سمباط الأرمني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 25 3.

وأثناء المُفاوضات مع منكو قاآن ذكَّره هيثوم بالاتِّفاق المُسبق مع الخان كيوك القاضي بشنِّ هُجُوم مُشترَك ضدَّ المُسلمين، وبالفعل؛ فقد حصل هيثوم على توصيات الخان بتقديم العون للمسيحيين، وبوعد لتجريد الجُيُوش ضدَّ المُسلمين، ويعتقد البعض أن حملة هُولاكُو على العراق كانت من نتائج هذا الوعد[1]. وقد أيقظت هذه المُعاهدةُ أطماعَ هيثوم للسيطرة على الشَّام، وضمّ الأراضي المُقدَّسة إلى دولة مسيحيَّة يحكمها، لذلك حاول إقناع الفرنجة بالانضمام إلى حلفه مع التَّتار، فلم يحظَ بالمُوافقة إلاَّ من صهره بُوهمند السَّادس أمير أنطاكية[2]. وبعد فتح بغداد؛ توجَّه هُولاكُو نحو الجزيرة الشَّاميَّة وحلب، أرسل عام **659 هـ 1261**م، إلى هيثوم يستقدمه، فوصل إليه مع جيشه، فاستقبله هُولاكُو بحفاوة[3]، وشارك هيثومُ وجيشُ الأرمن هُولاكُو في فظائعه عند فتح حلب وبقيَّة بُلدان شمال الشَّام والجزيرة. وعندما أراد قائد جيش التَّتار في الشَّام كتبغا نوين حشدَ قُوَّاته للهُجُوم على مصر، طلب من هيثوم الالتحاق به، فجاء على رأس خمسمائة رجل، شاركوا في معركة عَيْن جالُوت[4].

وبشكل عامٍّ؛ نُلاحظ أنَّه لم تتحقَّق أيُّ فائدة لمملكة أرمينية من جراء تهالك هيثوم على التحالف مع التَّتار، بل ـ رُبَّما ـ كان الأمر معكوساً، فقد كانت الفائدة كاملة للتَّتار من التحاق قُوَّات الأرمن بجُيُوشهم كُلَّما طلبوها، أمَّا حماية مملكة الأرمن، ففي ظل الفوضى السِّياسيَّة والعسكريَّة للاجتياح التَّتاري للبلاد، فلم يكن هُناك أي خطر مُحتمل عليها، اللهم إلاَّ خطر التَّتار أنفسهم، وكان من المُمكن اتِّقاؤه بأقلَّ من ذلك الاندفاع نحوهم، والإخلاص في خدمتهم والقتال أمامهم كما فعل الأرمن. أمَّا النتائج البعيدة لهذا التحالف؛ فستكون مُدمِّرة بالنِّسبَة لمملكة أرمينيا، فقد أدرك سلاطين المماليك الذين خلفوا سلاطين آل أيُّوب مدى خطر هذه الدولة الأرمنية على بلادهم، فجعلوها دأبهم، حتَّى أزالوها من الوُجُود.

---

1 - تاريخ المغول، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 180.

2 - الصَّليبيُّون في الشَّرق، زاباروف، ترجمة: إلياس شاهين، 314، وتاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، رنسيمان، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 3/ 507 ـ 523 ـ 526، والمغول في التاريخ، فُؤاد الصياد، 293، و الدولة الإسلاميَّة قبل الغزو المغولي، حافظ أحمد حمدي، 148، و**The Mongol Word Empire, Boil, p. 175**

3 - تاريخ سمباط الأرمني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 331.

4 - تاريخ سمباط الأرمني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 332، ـ ومن المُلاحظ هُنا أن سمباط قد أغفل ـ كُلِّيَّة ـ مصير النجدة الأرمنية والملك هيثوم بعد هزيمة التَّتار في عَيْن جالُوت.

المبحث الرَّابع:

العلاقات بين التَّتَار وفرنج الساحل الشَّامي

في أيَّام الاضطراب وانحلال الدولة التي سبقت هُجُوم التَّتَار على بلاد الشَّام، والتي عُرِفَتْ شعبياً بالجفلة، استغلَّ الفرنج أوضاعَ المُسلمين الصعبة، وأخذوا يقطعون الطريق عليهم، ويتخطَّفونهم[1]، وبعد دُخُول التَّتَار إلى بلاد الشَّام؛ كان لابُدَّ من قيام علاقات ـ بشكل ما ـ بينهم وبين الفرنج الموجُودين على الساحل الشَّامي، ولكنَّنا نُلاحظ أن هذه العلاقات ذات شقَّيْن:

ـ الأوَّل: الصدام العسكري بين الطرفَيْن، وإنْ كان محدوداً جدّاً.

ـ والثاني: العلاقات السِّياسيَّة، وهي تفاوضية سلْمية، كانت تطمح لإقامة نوع ما من التعاون أو التحالف ضدَّ دُول المُسلمين في الشَّرْق، وهي مُتشعِّبة جدّاً.

1 ـ العلاقات العسكريَّة:

قال رشيد الدِّين جامع سيرة هُولاكُو، إن هُولاكُو عاتب القائد بايجو نويان بعد عودته إليه قائلاً: "يجب أن تعود لكي تستولي على تلك الولاية حتَّى شاطئ البحر من أيدي أبناء الفرنج، ومن الكُفَّار"[2]، فهل هُو أمر من هُولاكُو للهُجُوم على الفرنج[3]؟! يبدو الأمر كذلك، ولو طال أمد وُجُود التَّتَار في الشَّام، فبالتأكيد؛ كانوا سيُهاجمون المُدُن الفرنجيَّة، ولكن صراعهم مع المُسلمين جعل "من سُقُوط الإمارات اللاتينيَّة أمراً مُحتَّماً بيد المُنتصر منهم"[4].

---

1 ـ لُبنان، عُمر تدمُري، 278، نقلاً عن: مُعجم شُيُوخ الذهبي، 541.

2 ـ جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 261.

3 ـ هل الكُفَّار هُم الفرنج؟ أم غيرهم؟ يُقال إن هُولاكُو قصد بالكُفَّار الأرمن والإغريق (كاترمير، ص/ 96 ـ وردت في الحاشية/ 1، ص/ 261، جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت)، ونستبعد أن يكون هُولاكُو قد قصد الأرمن، فهم حُلفاؤه، ويعرفهم جيِّداً، ولو كان يقصدهم لسمَّاهم باسمهم. أمَّا الإغريق؛ فهو ـ أيضاً ـ احتمال بعيد عن قصد هُولاكُو، وغالباً ما كان يقصد به أعداء المغول من بقيَّة الشُّعُوب، ورُبَّما هُو من وضع الكُتَّاب المُسلمين في بلاط هُولاكُو.

4 ـ الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 125.

فبعد دُخُول التّتَار إلى الشّام "خافت الفرنج منهم خوفاً كثيراً، وحصّنوا بلادهم، وحملوا إلى كتبوغا التقادم والهدايا الكثيرة، فطلب منهم أن يُخرِّبوا الأسوار التي على مُدُنهم وقلاعهم، فلم يوافقوه على ذلك"[1].

ثُمَّ أرسل التّتَار رُسُلَهُم مرَّتَيْن إلى أمير أنطاكية يأمرونه بإطاعة الخان، "وتدمير أسوار جميع مُدُنه وقلاعه، وأن يُرسل إليه جميع الموارد الناتجة من إمارته بالذهب والفضَّة، وأن يُرسل إليه ثلاثة آلاف عذراء"، لكنَّ أمير إنطاكية لم يستجبْ رغم التهديد بالانتقام[2]، ونُلاحظ بأنَّها الأوامر التي اعتاد التّتَار إرسالها إلى كُلِّ الممالك والمُدُن، فلا تمييز - إذنْ - لوضع الفرنج بالنِّسبَة للتّتَار، ولكن اليونيني يذكر نهاية مُختلفة لهذا الطلب، يقول: إن بيمند[3] صاحب طرابلس قد حضر إلى بعلبك لتقديم الطاعة إلى كتبغا، وأنَّه صعد إلى قلعتها، ودار فيها، وحدَّثته نفسه أن يطلبها من هُولاكُو، وحالت كسرة التّتَار بعد أشهر قليلة دُون ذلك[4]، فأمير أنطاكية رغب بالمُوافقة، وحضر للتحالف والاتِّفاق.

ومع أن التعاطف بين نصارى الشّرق والتّتَار لم يكن ليخفى على الفرنج فإنَّنا نجد بارونات عكّا يظهرون نقمتهم على التّتَار، "ناظرين إليهم كبرابرة لا يُمكن أن يُفضّلوا عن المُسلمين"[5]، ولكن كلّ ذلك لم يمنع الفرنج من الخوف على بلادهم من التّتَار الفاتحين المُرعبين، فبعد دُخُول كتبغا نوين إلى دمشق عام 658 هـ حضر إليه "رُسُلُ الفرنج الذين بالساحل بالهدايا والتقادم، لأنَّهم خافوا على بلادهم من تطرُّق التّتَار إليها، وغارتهم عليها، وشرعوا في تحصين مدائنهم وحُصُونهم"[6].

ويبدو أن الصدام العسكري الفعلي بين التّتَار والفرنج كان مُؤجَّلاً لما بعد إنهاء أمر مصر، وهذا التأجيل برغبة التّتَار، فهم قُوَّة الهُجوم الكُبْرَى.

---

1 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 51.

2 - التاريخ الكبير، متّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 47/ 713.

3 - بيمند: بُوهمند السَّادس.

4 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 3/ 92.

5 - الغزو المغولي، حسن الأمين، 121.

6 - عقد الجُمان، العيني، 1/ 237، وزبدة الفكرة، الدَّوادَار، 50.

ولكن حماقة جُوليان سيد صيدا والشقيف[1] كادت أن تُبدّل خُطّة هُولاكُو القاضية بعدم التعرُّض للفرنج ما لم يتعرَّضوا له، ففي عام 658 هـ 1260م، أغار جُوليان من قلعة الشقيف على البقاع، وضرب حامية التّتار في مرج عُيُون، فسيَّر كتبغا خلفه قُوَّة كبيرة بقيادة ابن أخيه، لكنَّ جُوليان كان مُستعدّاً، فكمن له في الطريق، وقتله، فما كان من كتبغا إلى أن قاد جيشه، وانقضَّ على صيدا، ومع المُقاومة المستميتة التي أبداها جُوليان في قلعتَي البرّ والبحر بمُساعدة السُّفُن الجنوية، فقد خرَّب التّتار أسوارَ صيدا[2]، واحتلُّوها، ونهبوها، وأسروا منها ثلاثمائة شخص[3]، ولم تبقَ حادثة صيدا حادثة مُفردة، فقد خرج يُوحنَّا إبلين الثّاني سيِّد بيروت ومعه الدَّاويَة، وأغاروا على الجليل، ورُبَّما لم يكونوا يتوقَّعون الصدام مع التّتار، الذين واجهوهم بِرَدٍّ قوي[4].

من كُلِّ ذلك نستنتج أن الصُّورة لم تتَّضح، والعلاقات بين التّتار والفرنج في الساحل لم تتبلور على صُورة واضحة، والتناقض كان يسود في التعامل، وفي ردود الأفعال بينهما، فكلا الطرفَيْن كان بحاجة إلى مزيد من الوقت ليُحدِّد موقفه بشكل نهائي من الطرف الآخر.

فقد كانت رغبة الفرنج هي إثبات وُجُودهم أمام التّتار، وإجبارهم على التعامل معهم بشكل مُختلف، بينما تتَّضح رغبة التّتار في إخضاع الفرنج من خلال ما ذكره متَّى باريس، يقول: "ورغبة من التّتار في إخضاع الصليبيين؛ طلبوا من الدَّاويَة والاسبتاريَّة في الأراضي المُقدَّسة أن يخضعوا إلى سُلطانهم، ولكنَّهم رفضوا، واستعدُّوا للقتال"[5].

2. العلاقات السِّياسيَّة:

مع أن علاقات التّتار مع فرنج الساحل الشّامي كان يُسيطر عليها التوتُّر والحذر والترقُّب، فهي مُختلفة تماماً عن ما كانت عليه مع الفرنج في أُورُبة. فقد ساد اعتقاد جارف في أُورُبة بإمكانية الاستفادة من قُوَّة التّتار لتطويق العالم الإسلامي من الخلف، فتوالت الرُّسُل إليهم ومعهم المُبشِّرون

---

1 - جُوليان: كان ضخم الجُثَّة، عابثاً ماجناً، لم يرث من ذكاء جدِّه رينالد شيئاً، إضافة لكونه مُسرفاً، فقد رهن صيدا لدى الدَّاويَة على مال استدانه. (لُبنان من السُّقُوط، عُمر تدمُري، 278) ـ وكذلك راجعْ: الغزو المغولي، حسن الأمين، 121.

2 - لُبنان من السُّقُوط، عُمر تدمُري، 279.

3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 410، وذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 360.

4 - تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، رنسيمان، 3 / 529.

5 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 50/ 1683.

والرُّهبان، لكنْ؛ دُون تحقيق نتيجة تُذكَر، فقد حال الحذرُ وبُعْدُ المسافة دُون تضافر جُهُود أُورُبا المَسيحيَّة والتَّتَار، الذين اعتقدت أُورُبا بمسيحيَّتهم[1].

وبلغت حَرَكَة التبادل الديبلوماسي بين أقطار أُورُبة وبين بلاط المغول أوجها في عصر الخان منكو قاآن بن تولوي.

فبعد يَأْس الفرنج من تحقيق انتصار حاسم على المُسلمين، ومَيَلان كفَّة المُسلمين العسكريَّة للرجحان ضدَّهم في الشَّام، أرادوا الإفادة من التَّتَار أعداء المُسلمين، والتحالف معهم، خاصَّة بعد انتشار أخبار تنصُّرهم[2]، وهذا ما جعل "أُورُبة تحلم بعقد تحالف مع المغول، يسهم في استرداد القُدْس، وتحويل آسيا إلى المَسيحيَّة"[3]، وهذا تطوُّر كبير في فكرة الحُرُوب الصَّليبيَّة، فقد غدت ـ مع هذه الأحلام ـ خُطَّة شاملة لتغيير العالم.

---

1 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 258.

2 - تاريخ المغول، عباس إقبال، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 178.

3 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 125.

المبحث الخامس:

العلاقات بين التتَّار ودول أُورُوبا

باباوات رُوما وحُلم ضمِّ التَّتار:

بناء على تقارير مُضلِّلة، تفيد بأنَّ التَّتار بمُعظمهم يعتنقون المَسيحيَّة، بنى بابوات رُوما ـ لعدَّة سنوات ـ اعتقادهم بأنَّ بإمكانهم كسب خانات التَّتار، بتحويلهم إلى الكَنيسَة الغَرْبيَّة، وهذا ما يتطابق مع أحلام مسيحيِّيْ أُورُبة في العُصُور الوُسْطَى، بظهور يُوحنَّا الشرقي، أو الهندي، رجل الدِّين الطائل الثراء، الذي يُمثِّل المسيح المُنتظَر القادم من الشَّرق، والذي جعل كثيراً من الأُورُبيين يربطون بينه وبين جنكيز خان، واعتقد عدَّة باباوات أن بإمكانهم تحقيق الهزيمة النهائية للإسلام بواسطته.

وعندما اكتشفت أُورُبة أن التَّتار ليسوا مسيحيين، وأنَّهم أبعد ما يكون عن تحقيق تلك الآمال، بدأ الباباوات التخطيطَ لتحويل خانات المغول إلى المَسيحيَّة، وكان لهم أمل كبير في ذلك لعدم اعتناقهم الإسلام، فبذلوا جُهُوداً مُضنية لضمِّهم إلى الكَنيسَة، وإقامة الكَنيسَة الكاثوليكية العالمية[1]، ففي المجمع الكَنَسي الذي عقده البابا أنوسنت الرَّابع في ليون عام 643 هـ 1245م، تقرَّر إرسال بعثتَيْن تبشيريَّتَيْن إلى بلاد التَّتار.

الأُولى: انطلقت في العام نفسه، وترأسها الراهب الفرنسسكاني كابريني، الذي عبر جنوب رُوسيا حتَّى وصل قراقوم، وحضر هُناك المجلس الأعلى للتَّتار ـ الكورلتاي ـ الذي انتُخب فيه كيوك خاناً أعظم، ولم يحصل كابريني من سفارته على أيِّ فائدة.

أمَّا الثَّانية؛ فكانت بعثة من المُبشِّرين الدُّومينيكان، يرأسها أنسلم آسيلين، انطلقت عام 645 هـ 1247م، ووصلت إيران عن طريق جُورجيا، والتقوا هُناك بالقائد بايجو نويان. وهذه البعثة، التي هَدَفَ منها البابا التبشير المسيحي لخانات التَّتار، والتحالف معهم ضدَّ المُسلمين، لم تكن بأفضل من سابقتها، بل كادت أن تُودي بحياة الرُّسُل إثر مشادَّة حامية في البلاط؛ حيثُ غالى الرُّهبان بتقديس البابا. ثُمَّ أوفد التَّتار معهم رسولَيْن عام 646 هـ 1248م، سلَّما رسالة للبابا، يطلبان فيها طاعته

---

1 - العالم الإسلامي في العصر المغولي، شبولر، ترجمة: خالد عيسى، 64 ـ 65.

للتَّتار، وطلبه للمثول أمام الخان[1]، عندها؛ تهاوت أحلام باباوات رُوما على أرض واقع التَّتار المندفعين للسيطرة والتحكُّم، فبينما كان الباباوات يحلمون بتحويل خانات التَّتار إلى المَسيحيَّة، وجعلهم تابعين للكَنيسَة الغَرْبيَّة لضرب المُسلمين، والسيطرة على العالم من خلال قُوَّتهم، كان التَّتار لا يرون في أُورُبة إلاَّ ميداناً جديداً للفتح، ولا يرون في الباباوات إلاَّ مُلوكاً يُطالبونهم بالخُضُوع لسيطرتهم، وإلاَّ؛ فالحرب.

لويس التَّاسع والتَّتار:

بدأت علاقات الملك الفرنسي القدِّيس لويس بالتَّتار عندما نزل جزيرة قبرص في حملته الصَّليبيَّة على مصر، يقول جين جوانفيل كاتب سيرة لويس ومُرافقه في الحملة: "عندما كان لويس مقيماً في قبرص، بعث ملك التَّتار العظيم برُسُل يحملون كثيراً من الرسائل اللطيفة، وقد أومأت هذه الرسائل بأنَّه على استعداد لتقديم العون إلى ملكنا للاستيلاء على الأراضي المُقدَّسة"[2].

ويبدو أن العلاقات مع التَّتار كانت ـ دوماً ـ تُستَغلُّ من قبَل كُتَّاب الفرنجة لرفع معنويات الأُورُبيين، وتحريضهم لدعم الحَرَكَة الصَّليبيَّة، فمتَّى باريس يتحدَّث عن حُضُور رسول التَّتار إلى لويس بقوله: "وصل أكثر التقارير سروراً بأنَّ أعظم مُلوك التَّتار قُوَّة خضع لتبشير وإقناع بطرس الهندي، وتحوَّل للمسيحية، وجرى تعميده، وأرسل الملك المذكور رسالة إلى لويس في دمياط يُشجِّعه، ووعده بمُساعدة فعَّالة بحُكْم كونه كاثوليكياً ومُعمَّداً جديداً"[3].

فمتَّى باريس لا يخفي سروره، ويُضيف خُضُوع ملك التَّتار للتعميد الكاثوليكي، ويجعل المكان في دمياط، ويبدو أن للأمر رواية أُخرى؛ إذْ يقول عباس إقبال: "أثناء تواجد لويس في قبرص قابله شخص مسيحي ادَّعى أنَّه رسول ايل تشكتاي قائد جيش المغول في إيران، بشأن انتزاع القُدْس من المُسلمين، والتعاون حول ذلك"[4].

---

1 -تاريخ المغول، عبَّاس إقبال، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 179، و الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 126، والصليبيون في الشَّرْق، زاباروف، ترجمة: إلياس شاهين، 314.

2 -حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 8 5.

3 -التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 1073.

4 -تاريخ المغول، عبَّاس إقبال، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 179.

وتأتي نتائج هذه السِّفارة لتُوضِّح لنا الكثير من حقائقها التي اختُلف في تفسير مُقدِّماتها، فقد ردَّ الملك لويس على السِّفارة بإرسال ثلاثة رُسُل، انطلقوا من قبرص عام **646** هـ **1248**م، نحو قراقوم عاصمة التَّتار[1]، برئاسة الراهب الدومينيكاني أندريه لُوغُومُو[2]، ويحملون هدايا قيِّمة، منها كما يقول جوانفيل: "خيمة أُعِدَّتْ لتكون كَنيسَة، صُنِعَتْ من قماش قرمزي، معها تماثيل حجرية، لها مواضيع كَنَسية، لجعل ديانتنا تبدو أكثر جاذبية للتَّتار"[3]. ونُلاحظ أن السِّفارة التَّتاريَّة كانت تُلمِّح لتعاون عسكري من أجل استرداد القُدْس، بينما كانت السِّفارة الفرنسيَّة تُؤكِّد على جانب التبشير الدِّيني، فالرُّسُل رهبان مُبشِّرون، والهدايا فيها كَنيسَة، وأدواتها.

فهل كان كُلّ منهم له أهداف تخفى عن الآخر؟ أم أن أهداف كُلٍّ منهم كانت مكشوفة للآخر، لكنَّه يصرُّ على إيصال رسالة مُعيَّنة؟ فسياسة التَّتار الدائمة في علاقاتهم مع الممالك الأُخرى هي إرسال الوُفُود والرُّسُل لغاية أساسية، فقبل إبلاغ مضمون الرسائل التي قد يكونون لا يعنونها أبداً، الاستطلاع والاستكشاف والتعرُّف على أرض الممالك التي حولهم، وقُوَّاتها وحُصُونها ونوايا الحُكَّام نحوهم إنْ أمكن، وهذا مُحتمل جدّاً بالنِّسبَة للملك لويس الذي جاء نحو الشَّرْق يقود حملة عسكريَّة كبيرة، فمن الطبيعي أن يُحاول التَّتار كشف نواياه، والتعرُّف على حجم قُوَّاته، ولا يُوجد أفضل من شخص يحتمي باسم رسول مُوفَد، ليعرف كثيراً من الأُمُور التي يُريدون الحُصُول عليها. وممَّا يُؤكِّد ذلك هُو ردّ فعل خان التَّتار على هدايا لويس، وطريقة فَهْمه لمضمون رسالته إليه، يقول جوانفيل: إن ملك التَّتار بعد أن نصب الخيمة المُرسَلة من لويس، قال لَمَنْ حوله: "ملك فرنسا يلتمس عطفنا، وقد وضع نفسه تحت حمايتنا، ويُمكنكم أن تروا الجزية التي أرسلها لنا". ثُمَّ أعاد الخانُ الرُّسُلَ، وأرفقهم برُسُل من عنده يطلبون من لويس كمِّيَّة سنوية من المال، وإلاَّ، فالحرب والدمار، فأسف لويس على إرسال رُسُله إلى التَّتار[4]. وهذا يُوضِّح ـ تماماً ـ اختلاف المفاهيم والمقاصد بين مُلُوك أُورُبة والتَّتار. ولكن الملك لويس لم يفقد الأمل ـ نهائيّاً ـ بنصرة التَّتار، ويبدو أن ذلك كان بتأثير هزيمته في دمياط، فأعاد الكرَّة عام **650** هـ **1252**م، وأرسل وفداً آخر برئاسة

---

1 - تاريخ المغول، عبَّاس إقبال، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 179.
2 - الصَّليبيُّون في الشَّرْق، زاباروف، ترجمة: إلياس شاهين، 314.
3 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 9 5.
4 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 1 8 1.

(غيوم دو روبوكي ـ Guillaume du rubuquis) إلى بلاط منكو قاآن، فسار عبر القسطنطينيَّة إلى القرم، ثُمَّ عبر جبال الأورال حتَّى وصل قراقوم، فأكرمه منكو قاآن، وجعله يناظر عُلماء دين بوذيين ومُسلمين، ثُمَّ حمَّله رسالة إلى لويس، يُطالبه فيها بالخُضُوع لطاعته، فوصلت الرسالة إلى لويس وهُو في عكَّا عام 652 هـ 1254م، وكانت بالخطِّ الأويغوري[1]، عندها؛ تهاوت آمال لويس، فلم يقبل التَّتار اعتناقَ المَسيحيَّة، بل طالبوه بالخُضُوع لهم، والاعتراف بسُلطانهم.

ويذكر متَّى باريس خيبة أمل أُورُبة عندما اكتشفت الحقيقة، مُعلِّلاً السببَ بالخداع، الذي مارسه البعض، يقول: "وجرى اختراع بعض التقارير لطمأنة المَسيحيَّة، ولتشجيع الصليبيين على الإبحار، حتَّى من قبَل أسقف مرسيليا، وبعض مشاهير الدَّاويَة، ولكنْ؛ عندما بانت الحقيقة، تألَّم الناس أكثر منهم"[2]. لقد كانت العلاقة بين التَّتار والفرنج في أُورُبة تقوم على عدم الفَهْم الكامل، وبعض الغشّ وخداع النفس من قبَل الأُورُبيين، لكنَّ الثابت فيها أن كلَّ منهم أرادها لمصلحته، فالأُورُبيون كان يعميهم هوس تحويل التَّتار إلى المَسيحيَّة للسيطرة على العالم بواسطتهم، والتَّتار كان يعميهم هوس السيطرة على العالم بالقُوَّة. وما كانت رسائلهم إلى مُلُوك أُورُبة أو أُمرائها إلاَّ نسخ طبق الأصل عن رسائلهم إلى مُلُوك المُسلمين وأُمرائهم قبل الهُجُوم عليهم، فهي للوعد والوعيد، وهُو جُزء من الحَرْب النفسية، التي أتقنوا إدارتها، كما هي ـ في الوقت نفسه ـ لجسِّ نبض الحُكَّام، واستكشاف بلادهم. أمَّا موضوع التحالف الذي أرادتْهُ أُورُبة، حتَّى في مفهومه السِّياسي المجرد عن الدِّن، فلم يكن ليقبل به التَّتار تحالف النّدّ للند، فصحيح أنَّهم تحالفوا مع الأرمن وهم دولة مسيحيَّة، لكنَّ تحالفهم كان تحالف القوي مع الضعيف، حول أرمينية إلى تابع حقيقي للتَّتار. ولكن ذلك لم يمنع من قيام تعاون عسكري عندما ضعفت آمال التَّتار بالسيطرة المطلقة في الشَّام، فقد طلب القائد بيدرا نجدة الاسبتار في قلعة الحصن، ولبّوا طلبه، فقاتلت ضمن جيش التَّتار فرقة منهم في معركة حمص الأُولى عام 659 هـ 1261م[3].

وبالتَّأكيد؛ لو كان يُوجد اتِّصال جَغرافي بين مناطق سيطرة المغول والفرنج في الشَّام لكان هُناك نوع آخر من العلاقات لا نستطيع التكهُّن بطبيعتها، لكنَّ كُلَّ ما نستطيع أن نقوله عنها ـ الآن ـ

---

1 - تاريخ المغول، عبَّاس إقبال، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 180.

2 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 1079.

3 - الاسبتاريَّة، جُوناثان سميث، ترجمة: صُبحي الجابي، 189.

إنَّها لن تكون ـ بأيِّ حال ـ مُتأثِّرة بالعامل الدِّيني، كما أرادت أُورُبة، وإن أُورُبا لن تخضع وتدخل في طاعة التَّتار كما أراد التَّتار، ويُؤكِّد ذلك موقف التَّتار من دولة الكرج المَسيحيَّة، فقد اجتاحوها بدُون إقامة أيِّ اعتبار للعامل الدِّيني[1]، وكان الكرج قد طلبوا التحالف مع مُلُوك بني أيُّوب ضدَّ التَّتار، ووصلت رُسُلُهُم إلى الملك الأشرف تطلب العون والتحالف[2]، ولكن الأشرف والمُلُوك الأيُّوبيَّة كانوا ـ وقتها ـ غير مُقدِّرين خطر التَّتار حقَّ قَدْره، وكان من المُمكن للأشرف لو كان مُهتمّاً بأمر التَّتار أن يُقيم تحالفاً كبيراً، في الجزيرة والشَّام، مُناهضاً لخطر التَّتار المُشترك.

وكنتيجة لُمجمل العلاقات بين المسيحيين ـ بشكل عامٍّ ـ والتَّتار، فإنَّنا نُلاحظ أن الأرمن فقط كانت لهم علاقاتهم المُميَّزة بالتَّتار، وقد قام بينهما تحالف وثيق، ولكن النتائج كانت على عكس ما توقَّع الأرمن، فقد استنزفهم التَّتار بالمطالب المادِّيَّة، وأرهقوهم بالمُشاركة الفعَّالة في حملاتهم، التي لم تكن لتعني للأرمن شيئاً أكثر من أنَّها ضدَّ المُسلمين، وفتحت أبواباً لحقد المُسلمين عليهم لن تغلق إلا بدمار مملكة أرمينية الصُّغْرَى.

أمَّا المسيحيُّون المحلِّيُّون؛ فقد عقدوا آمالاً كبيرة على التَّتار، حتَّى إنَّهم اعتبروهم المُخلِّصين، مُعتمدين على معلومات ناقصة عن حقيقة اعتناق التَّتار للمسيحية، أو رُبَّما لمعرفتهم بأنَّهم وثنيين، واعتقادهم بأنَّه يُمكن كسبهم بالتبشير إلى الدِّين المسيحي، وما هذه الآمال المخادعة بالتَّتار إلاَّ بعد يأسهم من الخلاص على أيدي الفرنج، ومُعاملة الفرنج السَّيِّئة لهم.

أمَّا عن العلاقة بين الفرنج والتَّتار؛ فنُلاحظ أن كلاً منهم كان يُحاول ـ من خلال صلته بالآخر ـ تسخيره لمصالحه الخاصَّة، فالتَّتار كانوا يسعون لتحقيق مشروع ضخم يتضمَّن إقامة إمبراطُورية عُظْمَى تشمل العالم، وكان الأُورُبيون يجهلون حقيقة التَّتار، وقد بنوا كلَّ علاقة لهم بالتَّتار على هذا الجهل، أمَّا فرنج الساحل الشَّامي؛ فقد كانوا في حالة مزرية من الضعف والتفكُّك، لا يماثلها إلاَّ ضعف وتفكُّك أعدائهم التقليديين من المُسلمين، لذلك حاولوا الإفادة من قُوَّة التَّتار لإطالة أمد وُجُودهم في الشَّرْق، أو على الأقلِّ؛ لتفادي خطرهم المُدمِّر.

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 375.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 398 ـ 399.

الفصل الثَّاني

علاقات التَّتَار مع إمارات وممالك الجزيرة الشَّاميَّة

المبحث الأوَّل:

صراع التَّتَار والخَوَارزميَّة وأثره على الجزيرة الشَّاميَّة

كانت الدولة الخَوَارزميَّة وملكها علاء الدِّين مُحمَّد بن تكش خوارزم شاه أوَّل مَن احتكَّ من المُسلمين بالتَّتَار، وكانت تلك الدولة هي حُدُود المُواجهة الأُولى لصدِّ هجمات التَّتَار على الدولة الإسلاميَّة. ورُبَّما لعبت السياسة الخرقاء لخوارزم شاه دوراً مُهمَّاً في تعجيل الغزو المغولي، أو إيجاد ذرائع له، لكنْ؛ ما كان لخورزم شاه مهما فعل من مُداراة أن يُجنِّب دولته والعالم الإسلامي خطر هُجُوم التَّتَار، ورُبَّما كان من أوَّل أخطائه السِّياسيَّة الإجهاز على دولة الخطا[1]، فأوَّلاً قد أزال حاجزاً مُهمَّاً من أمام التَّتَار كان من المُمكن بقليل من الدعم منه أن يصمد لهم، وثانياً جعل الخطا ينضمُّون إلى جُيُوش المغول، وصاروا معهم[2].

لَمَّا خرج جنكيز خان يقود شعب التَّتَار والمغول من براري أواسط أسيا، وطَرَقَ بلاد ما وراء النهر عام **615** هـ **1218**م، دمَّر بخارى وسمرقند "وكان خورازم شاه قد أخلى البلاد من المُلُوك، فلم يجدوا أحداً يردّهم"، ولم تكد تدخل سنة **617** هـ **1220**م، حتَّى وصلوا الرّيّ وقزوين وهمدان[3]. ومُقابل هذا الهُجُوم الكاسح كان خوارزم شاه قد اتَّبع خُطَّة عسكريَّة سقيمة في التَّصدِّي للتَّتَار، تعتمد على الدفاع، فوزع قُوَّاته على المُدُن الكُبْرَى، واحتمى بالأسوار، فسهل على التَّتَار اقتناص المُدُن واحدة إثر أُخرى[4]. وكانت بينهم وبين السُّلطان مُحمَّد خوارزمشاه عدَّة حُرُوب غير حاسمة، وبعد موته؛ تولَّى ابنه جلال الدِّين منكبرتي التَّصدِّي للتَّتَار، وخاض ضدَّهم معارك طاحنة، هزموه فيها غير مرَّة، فهرب إلى الهند، وتفرَّغ التَّتَار لبلاد فارس، وتقدَّموا نحو العراق وأذربيجان.

1- تاريخ الإسلام، الذهبي، 661ـ670/ 58.

2- النجوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 248.

3- النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 248.

4- راجعْ كتاب: الغزو المغولي، حسن الأمين، 43.

ثُمَّ عاد جلال الدِّين من الهند، وانتصر على التَّتار، وهـزمهم هزيمـة كُـبْرَى[1]، ولكـن جـلال الدِّين بدلاً من استثمار انتصاره ومطاردة التَّتار والتفرُّغ لهم، نـراه يتغـاضى عـن وُجُـودهم، ويتناسـى الخطر الذي يُمكن أن يُشكِّلوه، رغم هزيمتهم تلك، ولم يكتف بذلك، بـل مـارس سياسـة رعنـاء، لم تترك له صديقاً، أو حليفاً، في طول العالم الإسلامي، وعرضه. فبعد مُهاجمة جلال الدِّين لكُـلِّ المُلُـوك في شرق الدولة الإسلاميَّة، التفت إلى الخليفة، فأعلن عدم شرعيَّته، وأنَّه سيُزيحه مـن منصبه بـالقُوَّة، وبالفعل؛ تحرَّك نحو بغداد، واحتلَّ عدَّة مُـدُن تابعـة للخليفـة. لكـنَّ حملتـه ضـدَّ الخليفـة فـشلت في النِّهاية[2]. ولم يكتف بذلك، وبدلاً من الالتفات لخطر التَّتار الجاثم على مقربة منه، نـراه يمـدُّ أطماعـه نحو الجزيرة الشَّاميَّة، واستعدى البيت الأيُّوبي عليه عنـدما هـاجم خِـلاط، وهـي للملـك الأشرف، واحتلَّها، "فنهب، وسبى الحريم، واسترقَّ الأولاد، وقتل الرجال، وخرَّب القرى، وفعل ما لا يفعلـه أهل الكُفْر"[3]، فتحالف عليه علاء الدِّين كَيْقُبَاذ سُلطان سلاجقة الرُّوم والملـك الأشرف، وتمكَّنـوا من هزيمته في معركة ياصجمن[4]، وكانت هذه المعركة بداية النِّهاية لجلال الـدِّين منكـبرتي وللدولـة الخَوَارزميَّة، فقد علم التَّتار بهزيمته، ممَّا قوى نُفُوسهم للهُجُوم عليه، ولمَّا لم يجـد جـلال الـدِّين بنفسه القُوَّة على الصُّمُود أمام التَّتار استنجد بالخليفة، وبكَيْقُبَاذ الرُّومي، وبـالأشرف الأيُّـوبي، فلـم يُنجـده أحد، ممَّا سهَّل على التَّتار القضاء النهائي على جلال الدِّين الخوارزمي وجيشه، بعد أن كانوا قد قضوا ـ عملياً ـ على الدولة الخَوَارزميَّة.

وأثناء مطاردة التَّتار لجلال الدِّين كانوا قد دخلـوا بـشكل فعـلي إلى الجزيـرة الـشَّاميَّة؛ حيـثُ بدؤوا عملياتهم العسكريَّة فيها، وتفرَّقت مجموعات صغيرة منهم في أنحاء الجزيرة بلغت سنجار عام 628 هـ 1231م، يقول ابن نظيف: "وما يعلم مقدار ما قتلوا ونهبوا بسعرد، وكذلك دنيسر؛ حيثُ أحرقوا الجامع، ومَن احتمى به، وما وجدوا في الجزيرة مَنْ ردَّ لهم نشَّاباً، وقد ذكروا أن هؤلاء الغوارة ما بلغوا ألف فارس، وفعلوا بالبلاد ما فعلوه، وأخافوا الناس، وارتحلوا من الجزيرة إلى الشَّام"[5].

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 266.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 426.

3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 266.

4 - راجِعْ تفاصيل المعركة ونتائجها في مبحث: العلاقات الدّوليَّة لمملكة الخَوَارزميَّة من هذا الكتاب.

5 - المنصُوري، ابن نظيف، 229 ـ 230.

إنّها صُورة بالغة الدقّة، صوّرها بإيجاز ابن نظيف، تُظهر وضع الجزيرة بكُلِّ جوانبه، فأقلُّ من ألف فارس مغولي دوّخوا الجزيرة، ولم يقاومهم أحد، ارتكبوا الفظائع، ولم يجد الناسُ إلاّ الارتحالَ والهَرَبَ من الجزيرة إلى الشّام.

وأدّى الرُّعب من التّتار في هذه المناطق إلى تحرُّكات سياسيّة واستعدادات عسكريّة كبيرة، ففي عام **617** هـ **1220**م، أرسل الخليفة المُستنصر بالله إلى الملك الأشرف يطلبه "للحُضُور بنفسه في عساكره، ليجتمع الجميع على قصد التّتَر". وبعد أيّام؛ أرسل الكرج إلى الأشرف يطلبون الاتِّفاق لدفع التّتار، وقالوا في رسالتهم: "إن لم توافقونا على قتال هؤلاء القوم، ودفعهم عن بلادنا، وتحضروا بنُفُوسكم وعساكركم لهذا المُهِمّ، وإلاّ صالحناهم عليكم" [1].

وصادفت هجمة التّتار من الشّرْق هجمة الفرنج، التي لا تقلُّ عنها شراسة، من الغَرْب، فقد نزلوا مصر، واحتلُّوا دمياط، وتقدَّموا منها صوب القاهرة، والملك الكامل رُسُلُهُ لا تنقطع إلى الشّام من أجل إنجاده. ثُمَّ "وصل الملك المُعظَّم إلى عند أخيه الأشرف بحران يستنجده على الفرنج"[2]. ولابُدَّ أن الأشرف قد حار في أمره، بين نداء الخليفة وخطر المغول ونداء أخيه الكامل وخطر الفرنج، ثُمَّ حسم أمره، واعتذر للخليفة بمُدافعة الفرنج.

وكتدبير وقائي لمُواجهة خطر التّتار؛ قام الأشرف بإقطاع مدينة خِلاط وأعمالها ومَيّافارقين وحاني لأخيه شهاب الدِّين غازي، وسيَّره إلى خِلاط في أوائل عام **618** هـ **1221**م، ولمّا حضر رُسُلُ الكرج لتلقِّي جواب الرسالة قال لهم: "إني قد أقطعتُ ولاية خِلاط لأخي، وسيَّرته إليها؛ ليكون بالقُرب منكم، وتركتُ عنده العساكر، فمتى احتجتُم إلى نصرته حضر لدفع التّتَر"، ثُمَّ سار بعدد كبير من قُوّاته إلى مصر[3].

وبذلك عالج الأشرف الموقف الحرج، الذي أوقعه بين فكَّيْ كمّاشة التّتار والفرنج، بناء على مفهومه السِّياسي والعسكري للأمر، فقد اتَّخذ ترتيبات إدارية وعسكريّة في الجزيرة ضدَّ خطر المغول بتولِّيه أخيه شهاب الدِّين على خِلاط، ليجعله في قلب الأحداث إذا اقتحم التّتار الجزيرة، ودعمه

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 398.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 379.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 398 ـ 399.

بعدد وافر من العساكر، ونستطيع أن نقول بمفهوم اليوم: أنَّه كلَّف شهاب الدِّين بملفِّ التَّتار؛ ليتفرَّغ هُو لمُشكلة الفرنج، وسار نحو مصر للمُساعدة في حَلِّها. وقد أجاد ابن الأثير غاية الإجادة عندما عالج موقف الأشرف، وعلَّل سبب تركه ساحة التَّتار، وسيَّره إلى ساحة الفرنج، بما يلي:

1 ـ إن الفرنج ملكوا دمياط، وأشرفوا أن يملكوا ديار مصر، فإنْ حصل ذلك لم يبقَ بالشام، ولا غيره معهم ملك لأحد.

2 ـ الفرنج أشدّ شكيمة، وطالبو مُلك، فإذا ملكوا قرية لا يغادرونها إلاَّ بعد عجزهم عن حفظها.

3 ـ هاجم الفرنجُ كُرسيَّ مملكة البيت العادلي، وهي بعيدة عن التَّتار.

4 ـ لم يدخل التَّتار أراضي الممالك الأيُّوبيَّة بعد.

5 ـ التَّتار لا يُريدون الملك، وما غرضهم إلاَّ النهب والقتل والتخريب، ثُمَّ الانتقال من بلد إلى آخر[1].

ومع عظمة تحليل ابن الأثير، ورُبَّما تعبيره الدقيق عمَّا جاش في نفس الأشرف من أفكار، يبقى لنا اعتراض على نقطة واحدة أثارها، فمُلاحظاته عن الفرنج شديدة الدقَّة، وصحيحة تماماً، بينما نجد مُلاحظاته عن التَّتار غير دقيقة، رُبَّما لعدم الخبرة الطويلة بهم، أو لعدم توضُّح خُططهم بدقَّة، فقوله: "إن التَّتار ليسوا ممَّنْ يُريد المُنازعة في الملك، وما غرضهم إلاَّ النهب والقتل وتخريب البلاد والانتقال من بلد إلى آخر"، لا يجده مَنْ عاش بعد ابن الأثير، وعاصر دولة التَّتار في الشَّرْق الإسلامي صحيحاً، وما كان القتل والنهب والانتقال إلاَّ البداية، حتَّى دوَّخوا البلاد، ثُمَّ ملكوها، وأقاموا فيها ممالك ودول.

---

1 ـ الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 398 ـ 399.

المبحث الثَّاني:

دُخُول التَّتَار إلى الجزيرة الشَّاميَّة

بعد موت جنكيز خان، وتولِّي منكوقاآن خاناً أعظم للتَّتار كلّف هُولاكُو بقيادة الحملة إلى غرب آسيا، ووضع عدداً كبيراً من الفرَق العسكريَّة تحت قيادته[1]، ولذلك لم يلقَ مُقاومة تُذكَر، وحتَّى قلعة الإسماعيليَّة الشهيرة ألموت لم تجدْ بُدّاً - في النِّهاية - من الاستسلام له.

سار هُولاكُو مَزْهُوّاً بقُوَّته، وانتصاراته، تسبقه أخبار وحشية جُنُوده، وقد وضع نصب عينَيْه أكبر الأهداف التي يحلم بها التَّتار، إنَّها بغداد؛ حاضرة الدُّنيا في ذلك الوقت، لم يكن جُنُود التَّتار ليُفكِّرون بمدارس بغداد، ولا بجوامعها، ولا بمكتباتها، ولا بعلمائها، ولا بحُسنها، بل كان جُلّ ما فكروا فيه هُو ثرواتها، ونساءها، بذهبها، وأثاثها، وما عدا ذلك هُو طعمة لسُيُوفهم ونيرانهم.

ولَمَّا علم الخليفة المُستعصم بالله[2] أن التَّتار يقصدونه قرَّر بجسارة فائقة مُقاومتهم، وإذا حاولنا أن نُفكِّر بالمرتكزات التي بنى عليها الخليفة قرار المُقاومة نجد أنَّها ليست قُوَّة جنده، ولا قُوَّة أسوار بغداد، فمع أنَّه سمع أخبار قُوَّة التَّتار الفائقة، فإنَّنا نستشفُّ من ردِّه على رسائل هُولاكُو التي طلب فيها استسلام بغداد، أن دوافعه للمُقاومة كانت معنوية أكثر منها مادِّيَّة، وأنَّها خيالية أكثر منها واقعية، وتدلُّ على أن الخليفة المُستعصم كان يعيش في عُزلة عن أحداث العالم، وفي وَهْم قُوَّة منصب الخلافة، وَمَنَعَة حُرمتها، ورُبَّما كان يعتقد أن بغداد لا تقلُّ لدى المُسلمين عن مكَّة، وأنَّه يُمثِّل سُلالة النُّبُوَّة، التي سيثير المسُّ بها كُلّ مُسلمي الدُّنيا.

كان أوَّل خليفة عبَّاسي شعر بالخطر الحقيقي للتَّتار هُو الخليفة المُستنصر[3] الذي اهتمَّ بأمرهم غاية الاهتمام[4]، ويرجع اهتمام هذا الخليفة الجدِّيّ بأمر التَّتار إلى عدَّة أسباب منها:

---

1 - حوالي 129 ألف رجل، (العالم الإسلامي، شبولر، 45).

2 - المُستعصم بالله: عبد الله بن الخليفة المُستنصر، الخليفة السَّابع والثلاثون، وآخر خُلفاء بني العبَّاس، تولَّى الخلافة مابين أعوام: 640 - 656 هـ. قتله التَّتار شهيداً صبراً، بعد احتلالهم بغداد.

3 - المُستنصر بالله: أبو جعفر المنصُور بن الخليفة الظَّاهر، الخليفة السَّادس والثلاثون من خُلفاء بني العبَّاس، تولَّى الخلافة ما بين سنوات: 362 - 640 هـ. أنشأ المدرسة المُستنصرية في بغداد، واهتمَّ بالجيش، ولَمَّا هاجم التَّتار العراق في عهده، هزمتْهُم جُيُوشه.

4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 242، والمنصُوري، ابن نظيف، 233.

1 ـ أن غارات التَّتَار قد اكتسحت مناطق واسعة من العراق.

2 ـ أنَّهم استولوا على مناطق في العراق، عدا عن كونها قريبة جدَّاً من بغداد، فقد كانت ـ حتَّى وقت قريب ـ من أملاك الخليفة، مثل ششتر ودقوقا التي احتلّها الخوارزمي، وأخذها التَّتَار منه.

3 ـ رُبَّما تأكَّد الخليفة أنَّه ـ في النِّهاية ـ هُو المقصود، وأنَّه الهدف الأكبر لحملات التَّتَار.

ولكُلِّ ذلك؛ تواترت رُسُلُهُ إلى الملك الكامل والملك الأشرف لقُدُومهما إلى الشَّام، وفي عام 629 هـ خرج الأشرف من مصر، وتبعه الكامل بجُيُوشه، وعلى مُقدِّمته ابنه الصَّالح أيُّوب، وعلى العَسْكَر فخر الدِّين ابن شيخ الشُّيُوخ، ثُمَّ "خرج من دمشق، وعَسْكَرَ بسلمية، ومعه عساكر يضيق بها الفضاء، وسار، فتفرَّقت العساكر لكثرتها، وأتته رُسُلُ مُلُوك الأطراف"[1]. ولا نعتقد بأنَّ خُرُوج بني أيُّوب من مصر بهذا الجحفل كان لمُجرَّد دعوة الخليفة لهم، فحتَّى الآن كانوا يعدُّون التَّتَار يبغون النهب والعودة إلى قواعدهم بما نهبوه، وأنَّهم ليسوا طالبي مُلك، ولا أصحاب حُكْم مُدُن، فيكفي لتجنُّب شرِّهم إغلاق أبواب المُدُن حتَّى ينتهي هُجُومهم.

ولكن الذي دفع الكامل والأشرف للاهتمام الجدّيّ بأمر التَّتَار هُو تبدُّل في خُطَّة التَّتَار أنفسهم، فبعد الغارات والسلب والنهب والقت، ثُمَّ العودة شرقاً، قرَّروا فتح خِلاط[2] عاصمة الجزيرة، وأغنى مُدُنها، وأكبر المرتكزات الأيُّوبيَّة فيها. وفي الحقيقة؛ لم يكن هذا تبدُّلاً حقيقيّاً في خُطَّة التَّتَار، بل هُو تطبيق للجُزء الثَّاني منها، فالغارات ليست للسلب فقط، بل للاستطلاع، ولكشف المناطق، وترويع الناس، وترحيلهم، حتَّى لا يبقى مَنْ له قُدرة على المُقاومة؛ لا مادِّياً، ولا معنوياً، ثُمَّ يُهاجمون الحواضر، ويُقيمُون مرتكزات حُكْمهم فيها.

وصلت الجُيُوش الأيُّوبيَّة إلى الجزيرة، وأقام الكامل في حَرَّان، ووصلتْهُ النجدات من أيُّوبية الشَّام، وجاءته الأخبار برحيل التَّتَار المُحاصرين لخِلاط[3]، ويُبرِّر ابن نظيف سبب رحيل التَّتَار

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 365.

2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 365، والمنصُوري، ابن نظيف، 234.

3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 365.

بقوله: "فرحلوا عنها خوفاً من السُّلطان"[1]، وبالفعل؛ فالقُوَّة المُحاصرة لِخلاط لا يُمكن أن تقاوم هذا التجمُّع للجُيُوش الأيُّوبيَّة، لأن التَّتار لم يكونوا قد وصلوا إلى المرحلة الثَّالثة من خطتهم، وهي الزجّ بكامل قواهم في المعركة، وسيتمّ ذلك مع هُجُوم هُولاكُو بالقُوَّة الرئيسية للتَّتار على الجزيرة وحلب، بعد فراغه من أمر بغداد.

ورُبَّما بسبب عدم وُجُود تصوُّر شامل للصراع القادم مع التَّتار لدى المُلُوك الأيُّوبيَّة، لم يتمكَّنوا من التعامل العسكري، أو السِّياسي الصحيح معهم، فالكامل بعد أن سمع بعودة التَّتار عن خِلاط لم يقمْ بتعقُّبهم، أو حتَّى القيام بمسير استعراضي خلفهم، بل، بدلاً من ذلك، استولى على آمد من الملك المسعود الأرتقي، وعاد دُون أيِّ صدام مع التَّتار[2]. ومع هذه العودة للكامل، التي دلَّت على جهله أو تجاهله لخطر التَّتار، فإن ما فعله أفضل ممَّا قام به الخليفة ومُظفَّر الدِّين كوكبري صاحب إربل وبدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل عام 631 هـ 1234م، فقد وصلت رُسُلُ التَّتار إلى إربل والمَوصل يطلبون شراء موادّ تنقصهم، فسمحوا لهم، "واشتروا جمالاً وأقمشة، وأُقيم لهم الراتب في المَوصل، بإذن الخليفة لهم في ذلك"[3].

إن التَّتار، وإنْ دفعوا ثمن ما أخذوه، فالأموال التي دفعوها هي ـ بالتَّأكيد ـ منهوبة من المُسلمين، والكُلُّ يعرف ذلك، والموادُّ التي اشتروها سيستعينون بها، وإنْ كان بشكل غير مُباشر، على حرب المُسلمين، وزادوا عليها في المَوصل بتكريمهم وتقديم الراتب؛ أيْ المُساعدات والضيافات، فهل هي مكافأتهم على الفظائع التي ارتكبوها بحقِّ المُسلمين؟ وسيرتكبونها لاحقاً بحقِّ مَنْ أضافهم في إربل والمَوصل، وبحقِّ الخليفة نفسه، الذي تمَّ كُلُّ ذلك بإذنه. وحتَّى كُلّ ذلك، فهُو أفضل من تصرُّف سُلطان سلاجقة الرُّوم علاء الدِّين كَيْقُبَاذ، الذي بادر إلى تقديم الطاعة للتَّتار مع سفير خاصّ أرسله عام 630 هـ 1231م، إلى أقطاي قاآن، والتفت يشنُّ الحَرْب على الأيُّوبيَّة بدل التحالف معهم، فهاجم خِلاط، واستولى عليها، وعاد الملك الكامل للخُرُوج بجيشه من مصر عام 633 هـ

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 234.

2 - تاريخ المغول، عبَّاس إقبال، 167.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 259.

1236م، وحشد معه كُلَّ المُلُوك الأيُّوبيَّة بجُيُوشهم، فاستعاد خِلاط، وما كاد يعود أدراجه حتَّى رجع كَيْقُبَاذ، فاستولى على الرُّهَا وحَرَّان، ثُمَّ عاد الكامل، فاستعادها[1].

وفي العام نفسه 633 هـ 1236م، كان الملك الكامل مُقيماً في دينسير، بعد أن استعاد الرُّهَا وحَرَّان من الرُّومي، وردَّ عليه كتاب بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل "يُعرِّفه أن التَّتَار قطعوا دجلة في مائة طلب، كُلّ طلب خمسمائة فارس، ووصلوا سنجار، فرجع السُّلطان والأشرف، وقطعا الفُرات إلى دمشق"[2].

أوَّلاً: هُناك شكٌ في مدى صحَّة رسالة لُؤلُؤ، فهل فعلاً كان هُناك قُوَّة من التَّتَار وبهذا الحجم؟! أم أنَّه تهويل للأُمُور من قبَل لُؤلُؤ خوفاً من وُجُود قُوَّة الكامل والأيُّوبية بجواره؟! قد يكون هُو ضحيَّتهم المُحتملة؟ وخاصَّة أنَّه لم يُسجَّل نشاطاً كبيراً للتَّتَار بهذا الحجم ضدَّ أيِّ مكان في تلك المنطقة، وفي ذلك العام بالتحديد.

ثانياً: حتَّى لو كان الخبر صحيحاً، فبماذا نُفسِّر عودة الكامل والأشرف السريعة نحو الشَّام؟! هل كان ذلك خوفاً من التَّتَار؟! أم دفعاً وتسويفاً لصدام غير مأمون النتائج؟! على الأحوال كُلِّها؛ لن يكون الانسحاب أسوأ من التناحر والصراع بين الأيُّوبيِّين وسلاجقة الرُّوم، وهما أكبر قُوَّتَيْن إسلاميَّتَيْن، بينما التَّتَار يعصفون بالبلاد الإسلاميَّة الشَّرقيَّة، ويحيلونها دماراً مُرعباً. فهل كان مُلُوك الشَّام لاهين عن الخطر المُحدق بهم؟! أم هي نقص بالمعلومات الاستخباراتية لديهم؟ وهل الخليفة غير قادر حتَّى على وضع حَدٍّ لهذه الصراعات التافهة بينهما، وإنْ كان الخطر المُحدق بهم لم يُوحِّدهم، فهل يستطيع الخليفة ـ الذي لا يملك إلاَّ حُرمة اسمه ـ أن يُوحِّدهم؟! ولو حدث ذلك بمُعجزة لكان الأمل الأخير لصدِّ التَّتَار عند المعابر المنيعة بين أرمينيا وكُردستان والشَّام[3].

كان أوَّل مَن احتكَّ عسكريَّاً ـ بشكل فعلي ـ مع التَّتَار من بني أيُّوب هُو شهاب الدِّين غازي، فبعد هزيمة التَّتَار لجلال الدِّين منكبرتي عام 628 هـ 1231م، هاجمت فرقة منهم مَيَّافارقين، فتصدَّى لهم شهاب الدِّين "وكسرهم، وغنم أسلحتهم". ويبدو أنَّه كان أكثر بني أيُّوب معرفة بالتَّتَار، وبتقدير

---

1 - مرآة الجنان، اليافعي، 4/ 67.

2 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 316.

3 - تاريخ المغول، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 168.

قُوَّتهم الحقيقيَّة، فمع تغلُّبه على فرقة منهم إلاَّ أنَّه طلب من السُّلطان الكامل الدعم؛ لأن التَّتَار أصبحوا على حُدُوده، ورُبَّما كان شهاب الدِّين مُوقناً بأنَّ موجة من الصراع الدامي لا يُمكن لأحد أن يتنبَّأ بنتائجها ستضرب المنطقة، فطلب من الكامل - أيضاً - الإذن لنقل حريمه إلى مصر. وجاءه جواب الكامل، جواب مَنْ لازال يعيش مرحلة ما قبل التَّتَار، فقد ردَّ عليه: "إنْ أُخِذَتْ مَيَّافارقين، أُخِذَتْ مصر. وكيف يليق ببني أيُّوب أن يفسحوا لك بذلك ووراءهم خمسون ألف فارس؟!"[1].

هذا هُو حال بني أيُّوب وجوارهم في مُواجهة المرحلة الأُولى من هُجُوم التَّتَار على الجزيرة، صراعات محلِّيَّة، وتناحر، وتباغض، وطمع كلّ منهم بما بيد الآخر من البلاد، ولن تكون الأحوال في مُواجهة المرحلة الثَّانية أفضل.

في أوائل عام **635** هـ **1238**م، بلغ الخليفة أن جُمُوع التَّتَار تتوجَّه نحو بغداد، فسيَّر رسوله إلى الملك الكامل ومعه مائة ألف دينار مصرية ليُجنِّد عسكراً من الشَّام، فأخرج الكامل من بيت المال مائتَيْ ألف دينار لتجنيد العساكر، وأمر أن يسير معهم من عسكر مصر والشَّام عشرة آلاف فارس نجدة للخليفة، وأن تُعاد له أمواله. وكان الخليفة قد طلب أن يقود الحملة الملك النَّاصر داود بن الملك المُعظَّم، وقرَّر الكامل معه الأميران رُكن الدِّين الهيجاوي وعماد الدِّين بن موسك[2]. ونستطيع أن نُفسِّر طلب الخليفة بتجنيد عساكر من الشَّام؛ لأن التَّتَار اكتسحوا شمال وشرق العراق، وهي المناطق الأهلة بالسُّكَّان وبقبائل الأكراد والتُّركمان، الذين هُم المجال الطبيعي للتجنيد في العراق. وبسبب وفاة النَّاصر داود فشلت الحملة الشَّاميَّة.

وعندما تُوفِّي الملك الكامل بدمشق عام **635** هـ **1238**م طمع سُلطان سلاجقة الرُّوم غياث الدِّين كيخسرو بمُمتلكات الكامل الجزرية، ورُبَّما بسبب اعتقاده بأنَّه آمن من جهة التَّتَار، كان يُكرِّر هجماته على مُمتلكات الأيُّوبيِّيْن في الجزيرة، فحاصر كيخسرو آمدَ، وبها المُعظَّم تُورانشاه بن الصَّالح أيُّوب، واحتلَّ بعض قلاعها. وكذلك انقض بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل، من الطرف الآخر، على مُمتلكات الكامل الجزرية، فهاجم سنجار، وحاصرها، وفيها الصَّالح أيُّوب، الذي طمعت به

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 464.

2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 380.

الخَوَارزميَّة، وخرجت عن طاعته، ونهبوه، لكنَّه تمكَّن من استعادة ولائهم بالوُعُود والإقطاعات، فهزموا لُؤلُؤ الذي نجا بجلده، وتوجَّهوا نحو آمد، فانسحبت عساكر كيخسرو[1].

وفي عام 638 هـ 1241م، بدأ الدُّخول الرَّسْمي للتَّتار إلى الجزيرة، وكعادتهم؛ أرسل خاقانهم تولوي بن جنكيز خان رسولاً إلى شهاب الدِّين غازي صاحب مَيَّافارقين، ومعه كتاب مُوجَّه إليه وإلى كُلِّ مُلُوك الإسلام، يأمرهم فيه بالدُّخُول في طاعته، وقد ورد في مُقدِّمة الكتاب: "من نائب ربِّ السماء، ماسح وجه الأرض، ملك الشَّرْق والغَرْب، خاقان"، وأبلغ الرسول لشهاب الدِّين رسالة شفهية تنصُّ بأنَّ خاقان قد جعله سلحداره، وأنَّه يأمره بتخريب أسور بلاده، فردَّ شهاب الدِّين عليه قائلاً: "أنا من جُملة المُلُوك الذين أرسلتَ إليهم، فهم ما يفعلوا أفعل"[2]. ولم يتأخَّر التَّتار كثيراً، ففي عام 639 هـ 1242م، هاجموا أرزن الرُّوم، وأغاروا على خرتبرت[3]، وأيقن صاحب الرُّوم أن أمنه من جهة التَّتار غير دائم، وأنَّه أصبح - الآن - من جُملة أهدافهم المعلنة.

وصادف في تلك الأثناء وُجُود المنصُور إبراهيم بن المُجاهد شيركوه صاحب حمص على رأس جيش التحالف الأيُّوبي ضدَّ الخَوَارزميَّة، وكان يخوض ضدَّهم عمليات عسكريَّة في الجزيرة، ولمَّا سمع بحَرَكَة التَّتار انسحب نحو رأس عين[4]. والغريب في الأمر أن الخَوَارزميَّة، الذين كان المغول سبب نكبتهم، وهم أعداؤهم الأزليون، لم يأبهوا لحركة المغول، ورُبَّما كانوا يتجنَّبونهم، وكذلك المنصُور وجيش التحالف الأيُّوبي الذين كانوا يخوضون صراعاً مريراً ضدَّ الخَوَارزميَّة، فبمجرد سماع ذكْر حَرَكَة التَّتار يخافون، وينسحبون، ولم يُفكِّروا مُطلقاً بالثبات للتَّصدِّي لهم، ولم يُفكِّروا بتوحيد جُهُودهم مع الخَوَارزميَّة، ولو مُؤقَّتاً، للتَّصدِّي للتَّتار، وكأن الجميع كانوا يتغافلون عنهم.

وكان أوَّل مَنْ حاول التوفيق بين الأطراف المتنازعة في الجزيرة، على أمل أن يُشكِّلوا جبهة ضدَّ التَّتار، هُو غياث الدِّين كيخسرو، الذي شعر بخطر التَّتار المُتربِّص به، فأرسل عام 640 هـ 1242م، نائب المملكة الأمير شمس الدِّين الأصفهاني إلى شهاب الدِّين غازي صاحب مَيَّافارقين،

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 190.
2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 177.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 705.
4 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 331، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 705.

وإلى السَّعيد صاحب ماردين، وإلى الخَوَارزميَّة، وأصلح بينهم، وأرضاهم من حسابه، فأعطى صاحب ماردين رأس عين، والخَوَارزميَّة أعطاهم خرتبرت وبعض البلاد الأُخرى، أمَّا المُظفَّر غازي؛ فقد أعطاه خِلاط. وتابع نائب مملكة الرُّوم طريقه إلى حلب ومعه أموال عظيمة ليستخدم بها العساكر[1]. إن ما قام به كيخسرو يدلُّ على مدى اهتمامه لأمر التَّتَار:

1 ـ فقد أرضى الخَوَارزميَّة وحُلفاءهم من بلاده وأراضيه، رغم موقفهم العسكري الصعب أمام جيش حلب، الذي كان من المُمكن أن يُلحق بهم الهزيمة.

2 ـ كان يقصد بذلك توفير قوى جيش حلب، التي هي حليفة له للمعركة القادمة مع التَّتَار.

3 ـ كان رسوله إليهم أكبر شخصية في البلاد بعد السُّلطان، فهُو نائب المملكة.

4 ـ حلّ الخلاف العسكري الداخلي، ليتمكَّن من إيجاد أكبر عدد من المُتطوِّعين؛ لتجنيدهم للقتال ضدَّ التَّتَار.

وما إن وصل نائب المملكة شمس الدِّين الأصفهاني إلى حلب حتَّى طلب أن يرافقه قسم من جيشها كنجدة للمعركة القريبة مع التَّتَار، وبالفعل؛ أرسلت حلب نجدة قويَّة مُقدَّمها أبي المعالي الناصح الفارسي. فالتقاهم السُّلطان غياث الدِّين، وأكرمهم، "وفرح أهل بلاد الرُّوم، وقويت قلوبهم بنجدة حلب" [2]. وفي عام 641 هـ 1243م، أرسل غياث الدِّين بعضَ قُوَّاته ومعهم عسكر حلب لفكِّ حصار التَّتَار عن بلدة آقشهر[3]، فأحاط بهم التَّتَار، "ولم يسلم إلاَّ مَنْ حمل وخرج من بينهم"، وهرب السُّلطان غياث الدِّين، وأجفل أهل بلاد الرُّوم[4]، ثُمَّ استولى التَّتَار على آمد وخِلاط وما بينهما من بلاد الجزيرة[5].

ومع أن خطر التَّتَار كان واضحاً للجميع، ويستهدف الجميع، فإن مُلُوك وأُمراء الجزيرة قلَّ مَن انتبه منهم لهذا الخطر قبل أن يُحدق به، فقد استمرَّت بلاد الجزيرة ما بين سلب ونهب، تارة من

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 708، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 327.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 708.
3 - آقشهر: بلدة في الآناضول، قُرب قونية.
4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 708.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 326.

الخَوَارزميَّة، وتارة أُخرى من التَّتَار. أمَّا بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل؛ فكانت سياسته مُداراة الطائفتَيْن، وإيقاع الفتَن بينهما، بالوقت نفسه، ليشغل بعضهم ببعض عنه[1]. ولكن الآلة العسكريَّة الرهيبة للتَّتَار كانت قادرة على طحن الجميع، خاصَّة ضمن واقع خلافاتهم وحُرُوبهم وانقساماتهم، فحتى لُؤلُؤ صاحب المَوصل لم يستطع أن يستمرَّ بألاعيبه السِّياسيَّة؛ إذْ نراه ينخرط بالصراع العسكري للقوى المحلِّيَّة في الجزيرة.

ولكنْ؛ يبرز في هذه الظُّرُوف الصعبة النَّاصر يُوسُف صاحب حلب، الذي حاول ما عجز عنه كيخسرو في الجزيرة، فبدأ يسعى لحل النزاع بين الأُمراء فيها، وتدخَّل - بقُوَّة - لفرض السِّلْم بينهم، فأقطعهم نصيبين، ثلث لصاحب المَوصل، وثلث لصاحب ماردين، وثلث للمُعظَّم تُورانشاه بن أيُّوب صاحب حصن كيفا، وكان قصده استمالتهم لتشكيل حلف بمُواجهة التَّتَار. لكنَّ صاحب ماردين قام باحتلال كامل نصيبين عام 643 هـ 1248م، مستغلاً هجمات التَّتَار، فاعترض لُؤلُؤ صاحب المَوصل، وحرَّك جيشه نحو نصيبين، لكنَّ وُصُول رسول الخليفة المُستعصم عام 645 هـ 1247م، وسعيه بالصُّلح، أعاد الأُمُور بينهم على أساس الاتِّفاق القديم.

وفي عام 646 هـ 1248م، أثبت بدر الدِّين لُؤلُؤ إنَّه الرجل الأسوأ بالنِّسبَة لقضية المُسلمين أمام التَّتَار، فقد انغمس في صراع عسكري مع مُلُوك الجزيرة من أجل قضايا تافهة، وانتقم من صاحب ماردين، فهزم جيشه، واحتلَّ كامل نصيبين[2]، فاستنجد صاحب ماردين بالنَّاصر يُوسُف، فأرسل له عسكراً من حلب، تمكَّنوا من هزيمة لُؤلُؤ عام 647 هـ 1249م، واستردُّوا نصيبين.

وبذلك كانت نصيبين، التي أرادها النَّاصر يُوسُف حلاً للخلاف وسبباً للوحدة، سبباً للخلاف، بل، للحُرُوب التي استهلكت ما بقي من قُوَّة جُيُوش أُمراء الجزيرة، وكُلّ تفكير بالوحدة فيما بينهم، رغم الخطر الذي يُهدِّد الجميع بلا استثناء، وهكذا؛ فلم تنجح سياسة النَّاصر الجزرية لتأليف شكل بسيط من التفاهم، يصلح أن يكون قاعدة للتحالف ضدَّ التَّتَار. فقد دمَّر صاحب ماردين الملك السَّعيد وصاحب المَوصل لُؤلُؤ، بسبب مطامعها الرخيصة، بقايا الأمل بوحدة أُمراء الجزيرة أمام التَّتَار.

---

1 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 206.

2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 213.

المبحث الثَّالث:

صُمُود مَيَّافارقين

انتهى التَّتار من غارات الاستطلاع في الجزيرة، ومن جمع المعلومات عن أرضها وشعبها ومُلُوكها، وكانوا قد فرغوا من أمر بغداد، فوجَّهوا جُيُوشهم بثقلها صوب الجزيرة، وعلى رأسهم القائد العامّ للعمليات في المنطقة هُولاكُو خان.

لم يُضيِّع التَّتار الوقتَ، ففي عام 656 هـ 1258م، بعد سُقُوط بغداد، توجَّه هُولاكُو مُباشرة إلى الجزيرة، وكان هدفه دينسر ونصيبين، ومن ثَمَّ؛ حَرَّان، وكلَّف ابنه يشموط بقيادة فرقة أُخرى من جيش التَّتار، والسير باتِّجاه مَيَّافارقين، وكلَّف معه القائدَيْن إيلكا نويان وسونتاي نويان[1]. فوجَّه يشموط مجموعة من جيشه بقيادة كهداي كقُوَّة استطلاع، سبقته باتِّجاه مَيَّافارقين، ووجَّه فرقة أُخرى بقيادة الصَّالح ابن صاحب المَوصل بدر الدِّين لُؤلُؤ إلى آمد[2].

آمد بمُواجهة التَّتار:

في عام 630 هـ عندما استولى السُّلطان الكامل على مدينة آمد الجزرية من الملك المسعود، مُنهياً حُكْمَ الأُسرة الأرتقية فيها، ولَّى عليها ابنه الصَّالح أيُّوب، وعندما خرج منها أيُّوب، بأمر والده الكامل لحصار الرحبة عام 635 هـ 1238م، ولَّى عليها ولده المُعظَّم تُورانشاه، وبسبب موت الملك الكامل في العام نفسه، طمع غياث الدِّين كيخسرو صاحب الرُّوم بآمد، فاستولى عليها، وتركها تُورانشاه إلى حصن كيفا. وفي عام 655 هـ 1257م، كان الملك الكامل ناصر الدِّين مُحمَّد بن المُظفَّر شهاب الدِّين صاحب مَيَّافارقين قد عاد من زيارة منكو قاآن خان التَّتار الأعظم، بعد أن قدَّم له فروض الطاعة، فعلم أن بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل يُكاتبُ أهل آمد لتسليمه المدينة، فطلب نجدة الملك السَّعيد صاحب ماردين، وأرسل عسكره، فطردوا عساكر سلاجقة الرُّوم، واحتلُّوا

---

1 - نويان أو نوين: لفظة فارسية معناها: أمير (المُعجم الذهبي - فارسي عربي، مُحمَّد ألتونجي، مادَّة: نوين)، ثُمَّ أصبحت تُستخدَم في جيش التَّتار كرُتبة لقائد ألف.

2 - جامع التواريخ - تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 306 - 319، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 196، ومُختصر تاريخ الدُّول، ابن العبري، 383، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 490.

آمد[1]. وفي عام 657 هـ، وبينما كان التَّتار يُحاصرون مَيَّافارقين، وصل هُولاكُو إلى آمد، واستدعى سيف الدِّين بن محلي نائب الكامل فيها، فخرج إليه، وطلب منهم هُولاكُو تسليم المدينة، فلم يمانع، وقام هُولاكُو بتسليمها إلى ابنَيْ كيخسرو سُلطان سلاجقة الرُّوم المُتوفَّى؛ وهما رُكن الدِّين وعزّ الدِّين، ولَمَّا اقتسما البلاد، أصبحت آمد مع رُكن الدِّين قليج أرسلان، وفيها نُوَّابه مع نُوَّاب التَّتار، ثُمَّ انتقلت بعد مقتله إلى ابنه غياث الدِّين[2].

تحدِّي مَيَّافارقين للتَّتار:

كانت مَيَّافارقين للملك الأشرف مُوسى بن العادل، ولكونه بلا ولد يرثه، فقد جعل أخاه المُظفَّر شهاب الدِّين غازي وليّاً لعهده، وأقطعه مَيَّافارقين وخِلاط، وأخذ منه إقطاعه من والده العادل وهُو الرُّهَا وسروج، وعندما اختلف الملك الأشرف مع أخيه الملك المُعظَّم صاحب دمشق، انضمَّ المُظفَّر للمُعظَّم، وعصي على الأشرف، الذي حاصره في خِلاط، وأخذها منه، وأبقى عليه مَيَّافارقين فقط. وفي سنة 627 هـ 1230م، تمكَّن المُظفَّر من الفوز بأرزن، وعوَّض صاحبها مدينة حاني. وَطَرَقَ التَّتار مَيَّافارقين عام 642 هـ 1244م؛ حيثُ هاجمت فرقة كبيرة منهم المدينة، واستعدَّ المُظفَّر للحصار، ثُمَّ خرج المُظفَّر من مَيَّافارقين، وبعد مُناوشات مع التَّتار صانعهم نائب المُظفَّر في مَيَّافارقين بمال، فرحلوا، وعاد المُظفَّر إليها[3]. وقيل إنَّ وفاته كانت في العام نفسه 642 هـ 1244م، وقيل 645 هـ 1247م، وقيل 646 هـ 1248م[4]. وتولَّى بعده ابنه الكامل مُحمَّد[5].

وفي عام 650 هـ 1252م، نزل بايجو نوين على مَيَّافارقين، فخرج منها الكامل، والتجأ إلى حصن كيفا عند الملك المُوَحِّد، ومن هُناك؛ "اتَّصل الكامل بباتو خان، ووعده أن يسير إلى منكوقاآن" خان التَّتار الأكبر، ولَمَّا وصل إليه، وجد عنده إسماعيل بن لُؤلُؤ صاحب المَوصل والمُظفَّر

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 524.

2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 526، ويُضيف ابن شدَّاد: أن غياث الدِّين كان لا يزال بها حتَّى عام 679 هـ.

3 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 472.

4 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 324، وكانت وفاته عام 645، لدى ابن شدَّاد، الأعلاق الخطيرة، 3/ 2/ 474، ولدى الصفدي، الوافي بالوفيات، 4/ 307.

5 - ترجمته في ذيل أبو شامة، 205، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 441، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 203، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 293، وذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 2/ 75، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7 / 91، وشذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 295، والوافي بالوفيات، الصفدي، 4/ 307.

صاحب ماردين، والملك الجواد يُونُس وليفون بن هيثوم ملك الأرمن[1]. وجاءت زيارة الكامل لخان التَّتَار بعكس النتائج المُتوقَّعة، ففور عودته إلى مَيَّافارقين أعلن العصيان على التَّتَار، وحبس نُوَّابهم، وخرج باتِّجاه دمشق لمُقابلة الملك النَّاصر يُوسُف[2].

إن ردَّ الفعل الغريب والمُفاجئ للملك الكامل نحو التَّتَار يدلُّ على أَنَّه شكَّل قناعة مُحدَّدة وأكيدة من خلال زيارته لهم وتعرُّفه عليهم عن قُرب، ورُبَّما كانت هذه القناعة قد تولَّدت لدى كثير من مُلُوك الإسلام، لكنَّ الكامل كان الوحيد الذي اتَّخذ خطوات عمليَّة وُفقاً لهذه القناعة، والتي ستتوضَّح لدينا من خلال مباحثاته في الشَّام مع الملك النَّاصر.

أسباب خُرُوج الكامل على التَّتَار:

لابُدَّ بأَنَّ الأسباب التي دفعت الكامل لقراره بتحدِّي التَّتَار، والخُرُوج عن طاعتهم، كانت أسباباً وجيهة برأيه، وإلاَّ لما اتَّخذ هذا القرار الصعب، والذي عجزت عنه ممالك أقوى من مملكته، وأكبر، وإذا حاولنا استقراء هذه الأسباب نجد أَنَّه يشرحها بالتفصيل للملك النَّاصر يُوسُف عندما قابله، وتتلخَّص بما يلي:

1 ـ لا تفيد المُداراة مع التَّتَار، ولا ينفع تقديم الطاعة لهم، ويأتي بمثال على ذلك بتصرُّف الملك النَّاصر مع التَّتَار.

2 ـ غرض التَّتَار هُو قَتْل السُّكَّان، والاستيلاء على الأرض، وقد شاهد ذلك في كُلِّ البلاد التي قطعها، وُصُولاً إلى عاصمتهم.

3 ـ تأكَّد الكامل أن التَّتَار سيقتلونه، إنْ كان معهم، أو ضدَّهم، فاختار الشهادة.

ـ نصُّ ما قاله الكامل للملك النَّاصر:

"إن هؤلاء التَّتَر لا تفيد معهم مُداراة، ولا تنجع فيهم خدمة، وليس لهم غرض إلاَّ في ذهاب الأنفس، والاستيلاء على البلاد. ومولانا السُّلطان قد بذل لهم الأموال من سنة اثنتَيْن وأربعين، وإلى

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2 / 476 ـ 481.

2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2 / 486.

اليوم، فما الذي أثّرت فيهم من خلوص المودّة؟ فلا يغترّ مولانا بكلام بدر الدِّين ـ صاحب المَوصل ـ، ولا بكلام رسولكَ ـ الزّين الحافظي [1]، فإنَّهما جعلاكَ خبزاً ومعيشة. وأُحذِّركَ كُلَّ الحذر من رسولكَ، فإنَّه لا يناصحكَ، ولا يختاركَ عليهم، وغرضه إخراج مُلككَ من يدكَ. وأنا فقد علمتُ أنني مقتول؛ سواء أَكُنتُ لهم، أو عليهم، فاخترتُ بأنْ أكون باذلاً مهجتي في سبيل الله، وما الانتظار، وقد نزلوا على بغداد، والمصلحة خُرُوج السُّلطان ـ النَّاصر ـ بعساكره لإنجاد المُسلمين، وأنا بين يدَيْه، فإن أدركناهُ عليها، فبها، ونعمت، وكانت لنا عند الخليفة اليد البيضاء، وإنْ لم ندركه أخذنا بثأره"[2].

الخطوات العملية التي اتَّخذها الكامل ضدَّ التَّتار:

عندما قرَّر الكامل نزع طاعة التَّتار بعد عودته من عند منكو قاآن إلى مَيَّافارقين، قام بما يلي:

1 ـ حبس النُّوَّاب الذين وضعهم التَّتار في مَيَّافارقين، وذلك حتَّى لا يترك لهم أيّ سُلطة، أو عُيُون عليه في مدينته .

2 ـ علم الكامل أن بدر الدِّين لُؤلُؤ المتعامل مع التَّتار يُحاول أن يمدَّ نُفُوذه إلى الجزيرة، وأنَّه يراسل سُكَّان آمد ليُسلِّموها له، وكانت تتبع سلاجقة الرُّوم، فأرسل الكامل عسكره، واحتلَّ آمد، وهزم حملة سلاجقة الرُّوم، وقطع الطريق ـ بذلك ـ على مدِّ نُفُوذ أعوان التَّتار إلى الجزيرة[3].

3 ـ علم منكو قاآن بما فعله الكامل، فأسرَّها بنفسه، ليُوقع به، وطلب منه التّوجُّه بعسكره إلى بغداد لدعم هُولاكُو، فَسَوَّفَهُ الكامل، وتعلَّل، ثُمَّ غادر الجزيرة نحو دمشق للقاء الملك النَّاصر[4].

---

1 - الزين الحافظي: زين الدِّين سُلَيمان بن المُؤيَّد بن عامر العقرباني، الحافظي نسبة للملك الحافظ صاحب جعبر؛ حيثُ انتقل من خدمته إلى خدمة الملك النَّاصر يُوسُف الثَّاني، ثُمَّ انتقل عنه إلى خدمة هُولاكُو. وأغرى التَّتر بالمُسلمين، فكُلُّ دم سفكوه في الشَّام هُو شريكهم فيه، ثُمَّ غضب عليه هُولاكُو، وقتله عام 662 هـ1264م .
(ذيل مرآة الزّمان، اليونيني، 2/ 234 ـ 239).

2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 485.

3 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 482.

4 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 484.

مشروع الكامل لمُواجهة التَّتَار:

كانت لدى الكامل رؤية واضحة لموضوع الصراع مع التَّتَـار، وقـد تجلَّـت في المـشروع الـذي قدَّمه للملك النَّاصر عند زيارته له في دمشق، وهُو مشروع هُجُومي، وليس دفاعياً.

1 ـ أدرك النَّاصر أن نُزُول هُولاكُو على بغداد لحصارها هُو الهدف الأكبر للتَّتار، وإنَّهـم بعـده سيتوجَّهون إلى الجزيرة والشَّام.

2 ـ تأكَّد الكامل أن سُقُوط بغـداد سـيكون نهايـة للدولـة العَرَبيَّـة الإسـلاميَّة بكُـلِّ رموزهـا ومعانيها وممالكها وإماراتها.

3 ـ لكُلِّ ذلك كان مشروعه يبدأ من بغداد، فقد طلب من النَّـاصر يُوسُـف التَّوجُّـه بجيـشه، وسيكون الكامل معه، إلى بغداد لنجدتها، فمعركة بغداد هي التي ستحسم الصراع مع التَّتَار.

4 ـ كان يبدو من كلام الكامل ثقته ـ إلى حَدٍّ ـ ما بالنصر، فإنْ لم يُمكن نجدة الخليفة وإنقـاذه، فالثأر له.

5 ـ قام الكامل بتحذير النَّاصر من تضليل بدر الدِّين لُؤلُؤ المتعامـل مـع التَّتَـار، ومـن خيانـة رسول النَّاصر إلى التَّتَار وزيره الزين الحافظي، "فقد جعلوكَ خبزاً ومعيشة"[1].

ولكنْ؛ ما هي مرتكزات الكامل لهذا المشروع الذي بدا غير معقول للكثيرين في وقتـه؟! ومـا هي مُبرِّرات ثقته الكبيرة بإمكانية النصر على التَّتَار؟!

في الحقيقة؛ لقد كان الكامل واحداً من المُلُوك القلَّة الذين تجرَّؤوا على مُجرَّد التفكير بالمُقاومـة، ورُبَّما كان ذلك لتقديره الصحيح للموقف، فقد قَتَلَ التَّتَار المُلُوك المُستسلمين والخاضعين والمُقـاومين على السواء، وهذا ما أثبتت الأيَّام صحَّته، فالنَّاصر الهارب المُستسلم سيكون مـصيره غـير بعيـد عـن مصير الكامل المُقاوم المستبسل. بلا شكٍّ؛ إن هذا الإدراك للواقع قد توصَّل إليـه الكامـل مـن خـلال زيارته للتَّتَار، وتعرُّفه إليهم عن قُرب، فقد أيقن بغدرهم، كما أيقن بإمكانية هزيمتهم.

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 485.

ردّ النَّاصر على مشروع الكامل:

كان النَّاصر يُداري التَّتار، ويعلن طاعتهم، ويُقدِّم لهم الهدايا، ويُراسلهم، لذلك ما إنْ علم بتوجُّه الكامل المتمرِّد على التَّتار نحوه حتَّى جمع أرباب دولته واستشارهم، فكان رأي الأغلبية منهم استقبال الكامل، والاستماع إلى ما جاء من أجله، بينما عارض ذلك الزين الحافظي والصَّالح نُور الدِّين بن المُجاهد، والملك الأشرف بن المنصُور صاحب حمص، فإنَّهم كانوا مُتَّفقين مع التَّتار، وقال الزين الحافظي للناصر: "متى بلغ هُولاكُو خُرُوجكَ إليه جعله سبباً إلى قصد بلادكَ، والمصلحة اعتذاركَ إليه، وردّه. فلم يُمكن النَّاصر إلاَّ مُوافقة الجمِّ الغفير، فخرج إليه، وتلقَّاه، وأنزله بدار السعادة" [1].

إن ما نستنتجه من ما دار في مجلس الملك النَّاصر هُو أن أعوان التَّتار يُشكِّلون حزباً له وُجُوده، حتَّى في حاشية المُلُوك، ولكنَّهم قلَّة. وأن مُعظم الناس كانت مشاعرها ضدَّ التَّتار، وتميل للمُقاومة مهما كانت النتائج. ومع أن موقف الملك النَّاصر كان مع الأغلبية، لكنْ؛ بما لا يُعرِّضه للخطر المُباشر، فصحيح أنَّه استقبل الكامل، واستمع إليه، لكنَّه لم يوافق على مشروعه، وردّ على المشروع بما لم يكن يتوقَّعه الكامل، فبعد أن عرض الكامل مشروعه للمسير إلى بغداد أيَّد جميع الحاضرين في المجلس هذا المشروع، ما عدا حزب التَّتار، فقد كانت لهم جرأة في المعارضة، أمَّا الملك النَّاصر؛ فكان ردُّه متخاذلاً أكثر من تخاذله على أرض الواقع؛ إذْ عرض على الكامل أن يُرسل من طرفه رسولاً ليشفع له عند هُولاكُو، فأجابه الكامل قائلاً: "جئتكَ في أمر ديني تُعوِّضني عنه بأمر دنيوي؟ فقال: متى نزلوا عليكَ أرسلتُ لكَ عسكراً. فأجاب الكامل: هذا لا ينفعني حينئذ؛ إذْ لا وُصُول له إلي" [2].

لقد مثَّل الكاملُ إرادةَ الجهاد والمُقاومة مهما كلَّف الثمن، واختار الشهادة بعزَّة، إنْ لم يُمكن النصر. أمَّا الملك النَّاصر؛ فقد عبَّر عن جُبنه وتخاذله وحَيْرته وتردُّده، وانعدام قدرته على اتِّخاذ قرار ناجح في لحظة تحتاج إلى قرار.

وبقي الكامل في دمشق حتَّى سمع بسُقُوط بغداد، فرجع إلى بلاده عن طريق حلب؛ حيثُ التقى به ابن شدَّاد، وقال له: "أصبتَ في قصدكَ الملك النَّاصر، وما أصبتَ في رُجُوعكَ، هلا قصدتَ

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 485.

2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 486.

مصر؟ فيردّ الكامل: لقد خفتُ على قلب الملك النَّاصر، فيُشير عليه ابن شدَّاد أن يُخرج حريمه من مَيَّافارقين، ويستخلف نُوَّاباً، ويعود للملك النَّاصر، لعلَّ تنهض عزيمته"[1]. ويتَّضح لنا من هذا الحديث بين الكامل وابن شدَّاد أن فكرة قصد مصر كأمل أخير للوُقُوف في وجه التَّتَار قد خطرت على بال الكامل، لكنَّه لم يُنفِّذها، حتَّى لا يغضب النَّاصر في وقت هُو بأمسِّ الحاجة إليه، كما نتبيَّن أن ابن شدَّاد كان مُطَّلعاً بدقَّة على الوضع العامّ، فقد عرف أن وضع الجزيرة ميؤوس منه، فنصح الكامل بإخراج حريمه من مَيَّافارقين، وعرف أن النَّاصر متخاذل خائف يحتاج لاستنهاض عزيمته.

نهاية الكامل وسُقُوط مَيَّافارقين:

في عام **656** هـ**1258**م، دخل يشموط بن هُولاكُو بقُوَّاته إلى الجزيرة، وأرسل فرقة بقيادة كهداي إلى مَيَّافارقين2، وكان الكامل ـ وقتها ـ في آمد، فاستشار خواصَّه، فأشاروا عليه بعدم الخُرُوج، فلم يوافق، وخرج بعسكره ليلاً يُريد أن يُفاجئ كهداي، فلمَّا اقترب من مُعسكر التَّتَار رأى أن لا طاقة له بهم، فانسحب نحو مَيَّافارقين. وفي الصباح؛ وصلت القُوَّات الرئيسية للتَّتَار مع يشموط، وحاصروا مَيَّافارقين، وطلبوا خُرُوج الكامل إلى يشموط، فأنكرت الحامية وُجُوده، وأرسلوا هدية للتَّتَار مع رسول، فاستجوبه يشموط، فأقرَّ له بوُجُود الكامل في مَيَّافارقين. وفي هذه الأثناء؛ وصلت النجدات للتَّتَار، فقد وصلت نجدة لُؤلُؤ صاحب المَوصل مع ولدَيْه، ووصلت نجدة صاحب ماردين مع ولده المُظفَّر، وشاركوا في الحصار.

وفي عام **657** هـ **1259**م، رحل يشموط عن مَيَّافارقين بسبب قسوة الشتاء، وترك عليها ثلاثة آلاف رجل، ثُمَّ عاد في الربيع مع جُيُوش كثيفة، وشدَّد الهُجُوم على مَيَّافارقين، التي صمدت ببسالة[3]. وكانت رُسُلُ الكامل تتواتر إلى الملك النَّاصر طالباً النجدة، ولا من مُجيب[4].

إن الخوف المُتمكِّن في قلب الملك النَّاصر من التَّتَار، والذي دعمته انتصارات هُولاكُو، وفتحه لبغداد هي ما منعه من إرسال النجدة إلى الملك الكامل في مَيَّافارقين[5].

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 486.

2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 196، ومُختصر تاريخ الدُّول، ابن العبري، 383، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 213/ 490، وزبدة الفكرة، الدَّوادَاري، 9/ 62.

3 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 490.

4 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 498 ـ 499.

5 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 91، وأخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 45، ومُختصر تاريخ الدُّول، ابن العبري، 483.

وكان التَّتار ـ كعادتهم ـ يُفضِّلون استسلام المُدُن والقلاع بالمُفاوضات من خلال الترهيب والترغيب، وهذا ما قاموا به في مَيَّافارقين، فلم يتركوا وسيلة إلاَّ واتَّبعوها لإقناع الكامل بتسليم المدينة، فكان ردُّه الدائم عليهم: إنَّه لا يثق بوُعُود التَّتار، وإنَّه لن ينخدع بكلامهم المعسول، ولن يخشى جُيُوشهم، وأنَّه سيضرب بالسيف مادام حياً[1].

ويبدو أنَّه كان في مَيَّافارقين إجماع من العَسْكَر والسُّكَّان على دعم موقف الكامل، لذلك صمدوا، واستبسلوا في القتال، ولم يقنعوا بالدفاع فكانت فرق من الجيش تخرج باستمرار لتُثخن في قُوَّات المغول، وتعود، كما "كان لهم منجنيق في غاية الإحكام ودقَّة الرمي"، ممَّا أعجز التَّتار عن إخضاع المدينة، رغم النجدات العسكريَّة القويَّة التي وصلتهم، والمُساعدة الكبيرة من بدر الدِّين لُؤلُؤ بالمنجنيقات. ممَّا دفع هُولاكُو لإرسال نجدة كبيرة إضافية لدعم حصار مَيَّافارقين بقيادة أرقتو، وحمَّله خُطَّة جديدة تتلخَّص بأنَّهم إذا عجزوا عن اقتحام ماردين، فليصبروا عليها حتَّى تنفد منها الأقوات.

ومع ذلك؛ استمرَّ الحصار سنة أُخرى، وبالفعل؛ نفدت الأقوات من المدينة، وحلَّت المجاعة فيها، وفي عام **658** هـ **1260**م، سقط آخر معقل للمُقاومة في الجزيرة، ودخل التَّتار مَيَّافارقين، "فوجدوا جميع سُكَّانها موتى، ماعدا سبعين شخصاً نصف أحياء، وقبضوا على الكامل، فعنَّفه هُولاكُو، وأمر بتقطيعه"[2]، ثُمَّ قطعوا رأسه، وطافوا به في الشَّام[3]، إلى أن وصل دمشق، فعلَّقوه على باب الفراديس، حتَّى أنزله الأهالي، ودفنوه[4]. وقتل التَّتار كُلَّ مَنْ وجدوه في مَيَّافارقين، وهدموها[5]. وهذا يدلُّ على شدة حنق المغول من الملك الكامل، ومن مُقاومته لهم، ورُبَّما كان أيسر ما كلَّفتهم إيَّاه هُو الخسائر البشرية والمادِّيَّة، فهي ـ بلا شكٍّ ـ ساهمت في تحطيم سُمعتهم الحَرْبيَّة المُرعبة، لأن مُقاومة الكامل أصبحت رمزاً لإرادة المُقاومة ضدَّ التَّتار، وأصبح الكامل بموته قُدوة ومثالاً للتضحية والشهادة.

---

1 - جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 319.

2 - جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 319.

3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 205، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 203، والحوادث الجامعة، ابن الفوطي، 164، وزبدة الفكرة، الدَّوادار، 9/ 62.

4 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 506.

5 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 506.

المبحث الرَّابع:

سفارة ابن شدَّاد بين السُّلطان النَّاصر وهُولاكُو

عجز الملك النَّاصر عن أيِّ تصرُّف عسكري أو سياسي تجاه هُجُوم التَّتار على الجزيرة، فهُو ـ رَسْميَّاً وسياسياً ـ حليف التَّتار، وصديقهم، ورُسُلُهُ وهداياه إليهم لا تنقطع "مُنْذُ عشرين سنة طوعاً واختياراً"[1]، ولكن النَّاصر كان يشعر بأنَّ وضع السِّلْم بينه وبين التَّتار غير حقيقي، حتَّى إنَّه لم يكن يأمنهم على رُوحه، ويبدو أنَّه كان يعلم في قرارة نفسه أن دوره ودور بلاده لم يحنْ بعدُ في مُخطَّط التَّتار، وأنَّهم يسيرون بخطىً متتابعة نحوه، وخاصَّة بعدما هاجموا الجزيرة. ولكسر حالة الجمود هذه، من اللا سلْم واللا حرب بينه وبين التَّتار، أرسل الملك النَّاصر سفارة إلى يشموط وهُو يُحاصر مَيَّافارقين، ورُبَّما كانت سفارته تلك تعويضاً عن عدم قُدرته أو عن خوفه من إرسال أيِّ نجدة لذلك البلد المنكوب بحصار التَّتار. كانت السِّفارة تتألَّف من الملك المُفضَّل صلاح الدِّين يُوسُف بن مُوسى بن السُّلطان صلاح الدِّين، ولكونه من البيت الأيُّوبي نُرجِّح أن يكون هُو رئيس الوفد والمُخوَّل بالكلام.

وكان يرافقه المُؤرِّخ والكاتب ابن شدَّاد، الذي سطَّر في كتابه الأعلاق الخطيرة ما جرى معهم في تلك السِّفارة، وكان مصدر معلوماتنا عنها، ولأنَّه لم يذكر أسماء بقيَّة السِّفارة، فإنَّنا نعتقد أنَّهم مُرافقون ثانويون للمُساعدة الإدارية.

بدأ ابن شدَّاد حديثه عن هذه السِّفارة بصيغة الجمع، ولكنَّنا ـ بعد حين ـ نجده ينتقل للحديث بصُورة المُفرد، وكأنَّه وحده في السِّفارة، فهُو الذي يفاوض، وهُو الذي يتكلَّم، وإليه يُوجَّه الكلام، ولا ندري هل كان ابن شدَّاد ـ لأدبه وعلمه وخبرته، فعلاً ـ هُو رئيس السِّفارة؟ أم أنَّه تولَّى رئاستها لغياب المُفضَّل في الطريق لسبب من الأسباب؟ ويوصي الملكُ النَّاصر رُسُلَهُ أن يأخذوا معهم من حلب هدية قيِّمة تتألَّف من مال وجواهر، كما أرسل النَّاصر معهم من دمشق أولاده الثلاثة وحريمه ليكونوا بحلب، فهل كان النَّاصر يشعر بأنَّ حلب هي مكان أكثر أمناً لهم؟ إذنْ؛ لماذا تركها، وأقام بدمشق؟ إنَّها في الحقيقة خطوة مُحيِّرة من الملك النَّاصر، تزيد اعتقادنا بتردُّده وضياع قُدرته على اتِّخاذ قرار. وينطلق الرُّسُل، فيمرون على حماة وماردين، ثُمَّ يُتابعون نحو مَيَّافارقين، وهم يُرسلون

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 493.

رسائل تحذير للناس بالهرب من أمام التّتار، فهل ذلك كان خُطَّة رَسْمِيَّة كُلِّفوا بها؟! أم ردّ فعل عشوائي قاموا به؟!

اعترضت سرايا التّتار المنتشرة في الجزيرة طريق السِّفارة، فمنها مَنْ قنع قائدها بطعام بطنه، ومنها مَنْ طلب هدية، إلى أن اعترضتهم قُوَّة أرسلها يشموط لُملاقاتهم، ففتّشتهم، وفتّشت دوابّهم، ثُمَّ قاموا بتمريرهم بين نارَيْن مُوقدتَيْن وهم يضربونهم ضرباً خفيفاً بالعصي، ثُمَّ أخذوا منهم ثوب قماش، وقطعوا منه قطعة، ثُمَّ مزّقوها إلى قطع صغيرة، وطرحوها في النار، إنّه - بلا شكٍّ - طقس وثني من طقوس التّتار له غاية مُحدَّدة. وبعد كُلِّ ذلك؛ أخذوهم مع الهدايا لُمقابلة يشموط، ولَمّا وصلوا إليه أدّى ابن شدّاد الرسالةَ، ويا للعجب من مضمونها، وهُو:

1 - تهنئة يشموط بسلامة الوُصُول إلى مَيّافارقين.

2 - التشكّي له من تعرُّض جُنُوده لبلاد الجزيرة، وقَتْل الناس فيها.

3 - تذكيره بانقياد النّاصر لهم طوعاً مُنْذُ عشرين سنة، وبحجم الهدايا والأموال التي دفعها لهم.

فماذا كان ردُّ يشموط؟ إنّه تقريع وتأنيب للرُّسُل على تجرُّئهم بقول ذلك الكلام، ثُمَّ تبرير لتصرُّفات التّتار بأنَّ سُكّان الجزيرة هُم من بدأ بحرب التّتار، وكأن السُّكّان هُم من ذهب إلى بلاد التّتار، ودخلوها عليهم. وإن التّتار ما دخلوا الجزيرة إلاّ لطلب التُّركمان والعَرَب، وكأن التُّركمان والعَرَب في الجزيرة لا يعنون النّاصر بشيء، فهم ليسوا رعايا ثابتين. ولَمّا طلب ابن شدّاد من التّتار ردّ ما نهبوه من حَرّان أغاظهم ذلك، وهدّدوه بالقتل، وروّعوه بتمريره بجانب القتلى، وأنّه سيكون منهم إنْ لم يعقل، والعقل - هُنا - بأنْ يقبل كُلَّ ما يُريده التّتار. ولكن الغريب في أمر السِّفارة كلّها أن أحداً لم يتحدَّث عن مَيّافارقين المُحاصرة!.

وبعد ذلك؛ طلب التّتار من ابن شدّاد التّوجُّه إلى الكامل في مَيّافارقين لإقناعه بالخُرُوج منها، فرفض، ولَمّا هدَّدوه قبل على شرط أن يسفر بينهما بالصُّلح، فأرسلوا معه أذدمر بن بايجو، وتردَّد بينهما ثلاثة أيّام حتّى اتّفقوا على الصُّلح لقاء دفع مبلغ من المال وهدايا للتّتار ليرحلوا، وبالفعل؛ بدأ يشموط بالرحيل، لكنّه عدل حين ورده كتاب لُؤلُؤ صاحب المَوصل يُخبره بقيام تمرُّد ضدَّ الملك النّاصر يُوسُف، وإنّه هرب، كما يُخبر لُؤلُؤ بأنَّ النّاصر يُوسُف يراسله مُحرِّضاً إيّاه على التّتار. وهكذا؛ لم تسفر سفارة ابن شدّاد إلاّ عن أموال وهدايا تسلّمها التّتار[1].

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدّاد، 3/ 2/ 339 - 396، راجعْ نصّ ابن شدّاد في ملاحق هذا الكتاب.

المبحث الخامس:

مُقاومة ماردين

كانت ماردين آخر الإمارات الأرتقية في الجزيرة. وفي سنة 636 هـ 1239م، قُتل صاحبها المنصُورُ أرتقُ بن قُطب الدِّين أرسلان باتِّفاق مماليكه، وأخرجوا ابنَهُ السَّعيد نجمَ الدِّين إيلغازي، وكان أبوه قد حبسه، ونصَّبوه ملكاً على ماردين[1].

وفي عام 657 هـ 1259م، عندما دخل هُولاكُو الجزيرةَ قاصداً حلب، نزل على آمد، وحاصرها، ومن هُناك؛ أرسل إلى الملك السَّعيد صاحب ماردين يستدعيه، فسيَّر إليه ابنه المُظفَّر قرا أرسلان، وقاضي قُضاة ماردين مُهذِّب الدِّين مُحمَّد بن مجلي، والأمير سابق الدِّين بلبان مع هدية ورسالة يعتذر فيها عن الحُضُور بنفسه لمرضه، فقال هُولاكُو: "ليس مرض الملك السَّعيد صحيحاً، وإنما هُو متمارض مُحافظة للملك النَّاصر، فإن انتصرتُ عليه اعتذر بزيادة المرض، وإنْ انتصر عليَّ، فتكون له اليد البيضاء عنده؛ إذْ لم يجتمع بي، ولو كان للملك النَّاصر قُوَّة يدفعني بها لم يمكِّنني من دُخُول هذه البلاد، وقد بلغني أنَّه أرسل حريمه إلى مصر، وهذا يدلُّ على الهرب"[2]. ويبدو أن هُولاكُو قد أصاب عندما قال بأنَّ السَّعيد متمارض، حتَّى لا يحضر إليه، ولكنَّه ـ بالتَّأكيد لم يصبْ ـ عندما قدَّر أن ذلك مصانعةً للملك النَّاصر، فالنَّاصر ـ حتَّى قبل اجتياح التَّتار للجزيرة ـ لم يكن له تأثير كبير على مُلُوك الجزيرة. ونجد أن هُولاكُو يردُّ على نفسه، فلو كان للناصر قُوَّة لدفعه عن بلاده، إنَّما نُرجِّح أن سبب عدم نُزُول السَّعيد بشخصه إلى هُولاكُو كان بسبب خوفه على نفسه من غدره.

واحتبس هُولاكُو ابن السَّعيد لديه، وأرسل القاضي ليبلغ صاحب ماردين بضرورة حُضُوره، وأبلغه القاضي أنَّه شاهد عند هُولاكُو عزّ الدِّين ورُكن الدِّين ولدي كيخسرو صاحب الرُّوم، "فتألَّم السَّعيد، وندم على إرسال ولده"[3].

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 558، ـ المنصُور أرتق بن قُطب الدِّين أرسلان بن نجم الدِّين إيلغازي بن ألبي بن تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق.

2 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 342، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 960.

3 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 342.

وسارع السَّعيد بإرسال الأمير عزّ الدِّين يُوسُف بن الشماع رسولاً يحمل في الظَّاهر هدية إلى هُولاكُو، وفي الباطن ليبلغ ولده أن يتحيَّل للهرب من عند هُولاكُو، وليبلغ ولدي كيخسرو الحذر من هُولاكُو وضرورة الهرب من عنده[1]. وأبلغ الرسول عزّ الدِّين بن غياث الدِّين كيخسرو رسالة الملك السَّعيد، التي يُنكر فيها على عزّ الدِّين كونه ألقى بنفسه إلى التهلكة في محبَّة هُولاكُو، وقال له: متى أبقى عليكَ، فإنها ذلك ليغرّ الملك النَّاصر بكَ، لا لمحبَّة لكَ، ورغبة فيكَ، فأوسع الحيلة في الانفصال عنه، والحذر منه. فشكره عزّ الدِّين على ما نبَّهه عليه، وقال: والله؛ ما خرجت البلاد عن أيدينا إلاَّ بتخاذل بعضنا عن بعض، فلو كانت الكلمة مُجتمعة لم يجر علينا ما جرى"[2]. مع كُلِّ الصدق في رسالة السَّعيد ومع كُلِّ ما أبداه عزّ الدِّين من قناعة بها، فإنَّه لم يقمْ بأيِّ تصرُّف سوى مُواصلة الخُضُوع لهُولاكُو وللتَّتار والسَّيْر في ركابهم.

مشروع السَّعيد:

كان السَّعيد مُتأكِّداً بأنَّ هُولاكُو سيقصده عاجلاً أم آجلاً، لذلك حاول تنفيذ مشروع دفاعي عسكري لمُواجهة التَّتار، رُبَّما كان مشروعه متواضعاً أكثر من مشروع الكامل صاحب مَيَّافارقين، لكنَّه قابل للتحقيق أكثر، واحتمالات نجاحه أكبر.

أثناء سفر ابن شدَّاد إلى يشموط مرَّ بماردين، وقابل الملك السَّعيد صاحبها، وأبلغه رسالة شفهية من الملك النَّاصر يُوسُف تتضمَّن استشارته في أمر التَّتار، يقول ابن شدَّاد: "فلم يُجبنا بكلمة، وقال: لقد ضجرتُ من نصحي إيَّاه"[3]، إذنْ؛ كان السَّعيد يُحاول إقناع النَّاصر، رُبَّما لتشكيل تحالف مع مُلُوك الجزيرة، أو لتطبيق خُطَّة مُعيَّنة، لكنَّ النَّاصر بتردُّده ما بين مُوالاة التَّتار وبين خوفه منهم وعدم ثقته بهم أضاع كُلَّ الفُرص، ولم ينتبه لنصيحة ناصح أو لمشروع مفيد.

لمَّا عاد ابن شدَّاد من سفارته جعل طريق عودته على ماردين، وقابل الملك السَّعيد مرَّة أُخرى، ويبدو أنَّه استطاع إقناعه لبذل مُحاولة جديدة مع الملك النَّاصر، فعرض الملكُ السَّعيد مشروعَهُ قائلاً لابن شدَّاد: "أنا أُقرض صاحبكم ثلاث مئة ألف دينار مصرية، ويُسيِّر لي ثلاثة آلاف فارس

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 559، وذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 342.

2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 561.

3 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 1/ 492.

اقترحهم عليه، ويصل إلى حلب بنفسه، وله عليَّ أنْ أُرَحِّلَ التَّتَر عن مَيَّافارقين، فإذا بلغت غرضي عن ذلك، اتَّفقتُ معه على قصد المَوصل وإخراجها من يد هذا المنافق"[1]. إن مشروع السَّعيد يكاد لا يُكلِّف الملك النَّاصر شيئاً، ويلقي عليه أقلَّ الأعباء مُقابل ما عرض السَّعيد من تحمُّله، فالمال من السَّعيد، وما على النَّاصر إلاَّ تجنيد الفُرسان الذين يطلبهم، وعليه أن يعود بجيشه إلى حلب ليحمي ظهر السَّعيد حتَّى يتمكَّن من مُهاجمة القُوَّة التي تُحاصر مَيَّافارقين، وهذه الخُطَّة كان من المُمكن أن تلاقي النجاح، فيشموط على مَيَّافارقين قد أصابه التعب، وبلغ منه الجهد مبلغه، وخاصَّة مع قُدُوم الشتاء، ولو هاجمه السَّعيد بفُرسان مُدرَّبين لأوقعه بين نارَيْن، حامية القلعة التي كانت تهاجم على الدوام وفُرسان السَّعيد، وكان احتمال النصر كبيراً، ورُبَّما كان له ما بعده. ثُمَّ إن خُطَّة السَّعيد مُركَّبة، وهي تقضي بعد توجيه هذه الضربة الكبيرة للتَّتار، والتي ستُؤدِّي إلى انسحابهم من الجزيرة، بالتوجُّه ـ بعدها ـ للقضاء على عميلهم في المَوصل بدر الدِّين لُؤلُؤ، والذي كان الداعم لعملياتهم في الجزيرة، والمُوجِّه لها، فيحرم التَّتار من مُرتكز قوي إذا تمكَّن من طرده من المَوصل.

إن خُطَّة السَّعيد بدت لابن شدَّاد مُتكاملة فعلاً وعملية وقابلة للتحقيق، بدليل أنَّه تحمَّس لها، ونقلها للملك النَّاصر، لكنَّ موقف النَّاصر الخائف المُتردِّد، والذي كان ينظر إلى كُلّ مشاريع المُقاومة على أنَّها بلا جدوى، أفسد من جديد مشروعاً كان من المُحتمل أن يكون بداية طريق جديدة للمنطقة بكاملها، فعندما أبلغه ابن شدَّاد خُطَّة السَّعيد، "لم يحرْ جواباً"[2].

ابن بطَّة وهُولاكُو:

بعد أن استولى هُولاكُو على حلب، وهرب الملك النَّاصر يُوسُف نحو مصر، استمرَّ الملك السَّعيد بالتواصل مع التَّتار، فأرسل عزّ الدِّين بن بطَّة بهدية إلى هُولاكُو، فوصل إليه وهُو يُحاصر عزاز، فقدَّم له الهدية، ثُمَّ إن هُولاكُو استدعى ابن بطَّة سرَّاً، وقال له: "اقض لي حاجة أقض لكَ ألف حاجة. قال له: ما هي؟ قال: أريد منكَ أن تُعرِّفني هل الملك السَّعيد مريض حقيقة؟ أم مُتمارض؟

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 498.
2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 499.

فقال له: كان مُتوعِّكاً، وازداد مرضه عند أخذك حلب، ثُمَّ عُوفي. فقال: إذا ألزمته بالمجيء تعلم أنَّه يفعل؟ قال له: ما يفعل أصلاً. فقال: لأيِّ سبب؟ قال: لأشياء كثيرة منها:

1 ـ أنكم لا تفون لأحد، ولا تقفون عند كلام تقولونه، وأنكم تُهينون المُلُوك، ولا ترعون حُقُوقهم، وقد تحقَّق أنَّه متى نزل إليكَ قتلته. قال: فإن قصدته أَيقدر أن يمنع نفسه مني؟! قال: نعم. قال: بأيِّ شيء؟ قال: بحصانة قلعته، وما فيها من الذخائر والأقوات، فإنَّه ادَّخر فيها قُوتَ أربعين سنة"[1].

2 ـ أنَّها كلمة حقٍّ قالها ابن بطَّة في وجه أعظم سفَّاحي التاريخ، وبالتَّأكيد؛ كان ابن بطَّة يتمتَّع برباطة جأش كبيرة، وحنكة لا يُستهان بها، حتَّى تمكَّن من ترتيب أفكاره، وقول حقائق، قد تُؤدِّي إلى موته السريع، لكنَّ ما قاله شكَّل صدمة لهُولاكُو، جعلتْهُ يُعيد النظر بسياسته تجاه المُلُوك، ويُعطيه هدية، ويكتب إلى السَّعيد: "إني قد أعفيتكَ من النُّزُول، فطيب قلبكَ"، ويُرسل له مع الرسالة ابنه الملك المُظفَّر[2]. ولكن كلَّ هذا لن يجدي مع طبيعة التَّتَار، ومع هُولاكُو بالذات الذي آمن بالقُوَّة وحدها، وبالقتل والدمار وسيلة لحُكْم الشُّعُوب، واحتلال البلاد.

سُقُوط ماردين:

تأكَّد الملك السَّعيد أن دوره قد حان، وأن التَّتَار ـ لابُدَّ ـ سيقصدون بلده، فاستعدّ لهم. وفي سنة 658 هـ 1260م، وصلت طلائع المغول، وعسكروا خارج ماردين، وأرسلوا يطلبون من السَّعيد إذناً بدُخُول البلد لشراء الأقوات والعلوفات، ثُمَّ يرحلون، فأذن لهم، وتردَّدوا في الدُّخُول والخُرُوج، وفي وقت العصر؛ صعد التَّتَار على أسوار البلد، ودقُّوا طبولهم، وهاجموا السُّكَّان، فقاوموهم "ودام القتال ثلاثة وستِّين يوماً، إلى أن فتح لهم بعض مُقدِّمي البلد درباً، فملكوه، فضعف أهل البلد، واحتموا بالكنائس لباطن كان لأصحابها مع التَّتَار، فملكت التَّتَار البلدَ، وأخذوا في قتال القلعة"[3]. وفي سنة 659 هـ 1261م، وقع وباء في أهل القلعة، فأهلك أكثرهم، ومات منه الملك السَّعيد[4]. وقيل إنَّ ابنه الملك المُظفَّر قد سقاه دواء سامَّاً في مرضه، فمات، لأنَّه كان ينصحه بالنُّزُول

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 562 ـ 563.
2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 563.
3 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 565.
4 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 566، وكَنز الدُّرر، ابن أيبك 8/ 65.

إلى التَّتَار، فيرفض[1]، وهذا احتمال بعيد؛ لأن المُظفَّر لم ينزل إلى التَّتَار مُباشرة عندما طلبوا منه ذلك بعد تولِّيه مكان أبيه، بل فاوضهم، وطلب رهائن، حتَّى يُرسل رُسُلَهُ إلى هُولاكُو، الذي أقرَّ الصُّلح معه، وانتدب كوهداي، وهُو من أكابر أُمرائه، ليُقيم في ماردين. وقد أسلم كوهداي بعد ذلك، وتزوَّج أُخت الملك المُظفَّر، وانتظم الصُّلح والهُدنة بين المُظفَّر والتَّتَار[2].

حُكَّام مَيَّافارقين الأيُّوبيَّة

السُّلطان صلاح الدِّين: 581 هـ 1185م.

الملك العادل أبو بكر: 590 هـ 1194م.

الأوحد نجم الدِّين بن العادل: 595 هـ1199م.

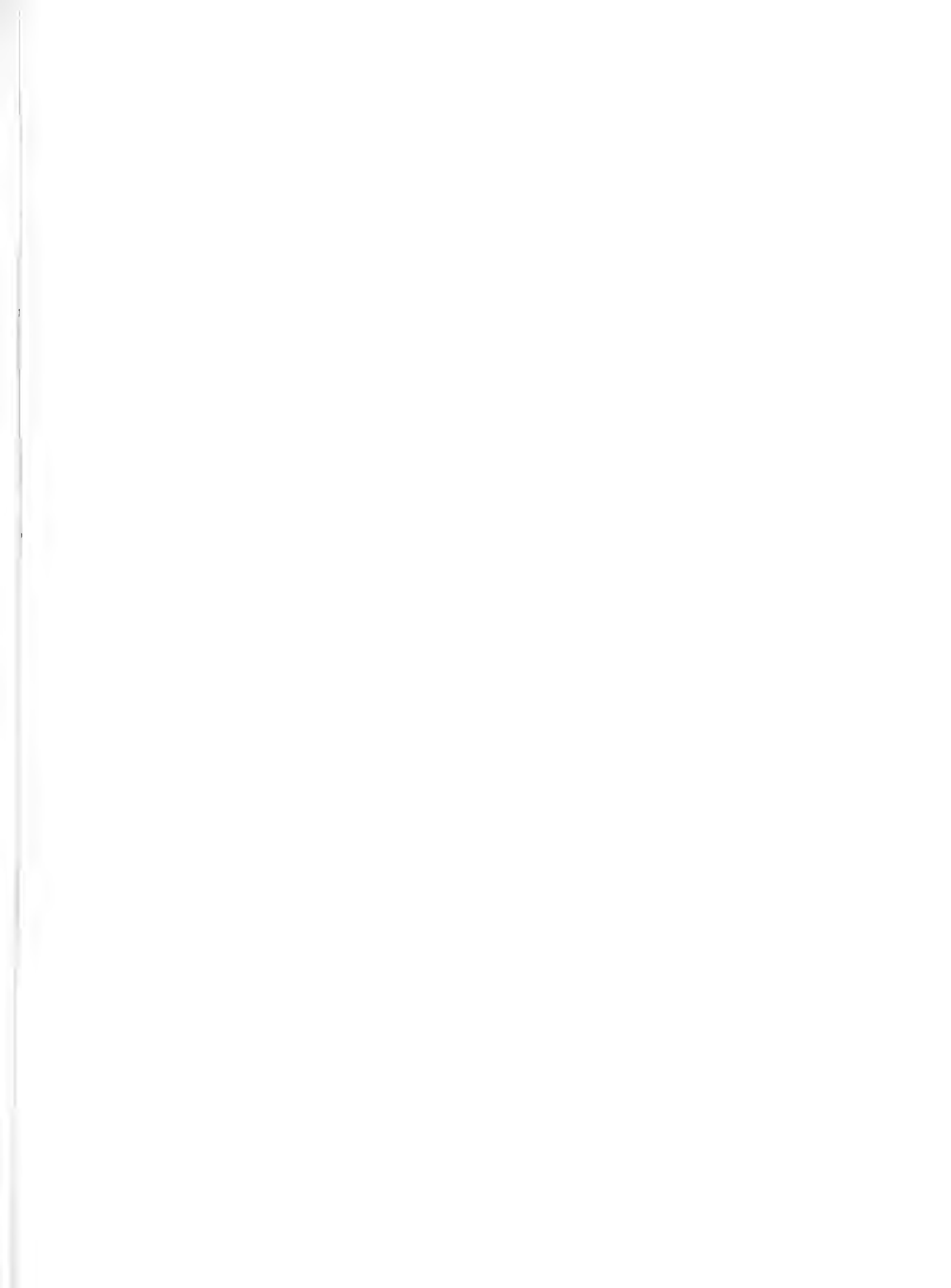
الأشرف مُوسى بن العادل: 607 هـ 1210م.

المُظفَّر شهاب الدِّين غازي بن العادل: 618 هـ 1221م ت، تقريباً 645 هـ 1247م.

الكامل ناصر الدِّين مُحمَّد بن غازي: قتله التَّتَار 658 هـ 1260م.

---

1 - جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 324.
2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2 / 568.



الفصل الثَّالث
التَّتَار في الشَّام

المبحث الأوَّل:
العلاقات بين السُّلطان الأيوبي النَّاصر والتَّتَار

كانت خُطَّة التَّتَار العسكريَّة للسيطرة على البلاد، يسبقها ـ على الدوام ـ تحرُّك ديبلوماسي لرُسُلهم وسُفرائهم، والمُتتبِّع لخطِّ سَيْر رُسُل التَّتَار في البلاد يستطيع أن يحدِّد اتِّجاهاً مفترضاً لتحرُّكهم العسكري اللاحق، فبعد سيطرتهم على بلاد فارس، بدأت اتِّصالاتهم مع دولة الخلافة وممالك شمال العراق، ثُمَّ مع مُلُوك الجزيرة وسلاجقة الرُّوم، وبعدها؛ مُلُوك الشَّام. ففي عام **628**هـ **1231**م، بعدما أنهى التَّتَار أمر الخوارزمية نهائيّاً، أرسلوا رُسُلهم إلى مُلُوك الشَّام[1]، ومع أنه كان وقتاً مُبَكِّراً بالنسبة لخُططهم العسكريَّة نحو الشَّام، فقد كان لا يزال أمامهم احتلال العراق بكامله والجزيرة وبلاد سلاجقة الرُّوم، ولكنْ؛ كان لدى التَّتَار لكُلِّ شيء حسابه، ولا شيء يمنع من استكشاف مُستقبلي يتعلَّق بالخُطط البعيدة، ويُمكن أنْ يفيد الخُطط القريبة. ونستطيع أنْ نُخمِّن أن رُسُلهم لم تنقطع عن الشَّام مُنْذُ ذلك الوقت على جري عادتهم في المناطق الأخرى، وذلك لبثِّ دعايتهم، والاستكشاف والاستطلاع للنوايا وللقوى العسكريَّة، ولطبيعة البلاد.

كان أوَّل شكل لفرض هيمنة التَّتَار على الشَّام قد بدأ عام **642** هـ **1244**م، عندما وصل إلى دمشق كتاب بدر الدِّين لُؤلُؤ، صاحب المَوصل حليف التَّتَار وعميلهم، يقول فيه: "إنِّي قرَّرتُ على أهل الشَّام قطيعة التَّتَر في كلِّ سنة من الغني عشرة دراهم، ومن المُتوسِّط خمسة، ومن الفقير درهم"، وقرأ الكتاب على الناس، وشرعوا في الجباية[2]. وبالتَّأكيد؛ فقد كان الكتاب يشير أن هذا المال مقابل أن يكفَّ التَّتَار عن البلاد، ويتركوها إلى غيرها.

ورُبَّما لم يكن بمقدور أحد من الشعب ولا من الحُكَّام أن يُفكِّر بأن هذا المال هو لتجهيز جيش التَّتَار لغزو بلادهم، وهذه ـ أيضاً ـ كانت من جُملة خُطط التَّتَار المُطبَّقة على البلاد قبل فَتْحها، لإضعاف أهلها بنَقْص الأموال، وتكون نفقات التَّتَار من أموال تلك الشُّعُوب. ولكنَّ قراءة كتاب لُؤلُؤ على الناس، والمُباشرة بجمع المال أمور تدلُّ عن انعدام سيطرة الحُكْم الأيُّوبي في الشام، وإلَّا لماذا لم يكن

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 231.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 419، و المُختار من حوادث الزمان، ابن الجزري، 192.

الخطاب مُوجَّهاً إلى صاحب دمشق النَّاصر يُوسُف؟! ولماذا لم يكن الجمع من خلال عُمَّاله؟! كما أن المباشرة بالجَمْع وعدم الاعتراض تدلَّان على حالة الفوضى والرُّعب من التَّتار.

رُبَّما يستطيع أحدهم أن يجد بعض العُذر للملك الأشرف بن العادل لتهاونه بأمر التَّتار، ففي أيَّامه؛ لم تكن قد توضَّحت مطامعهم في الجزيرة والشَّام، ورُبَّما تصوَّرهم الأشرف مُغيرين يسلبون، وينهبون، ثُمَّ يتراجعون شرقاً، فقد كان الفرنج يبدون له أكثر خطراً، خاصَّة بعد استيلائهم على دمياط. لكنَّ الذي لا يستطيع أحد إيجاد مُبرِّر أو عُذر لتهاونه وحَيْرته وتخاذله أمام التَّتار هُو الملك النَّاصر يُوسُف صاحب الشَّام، الذي جعل ضَمَّ مصر إلى مملكته همَّه واهتمامه، وكان بارعاً في التحالف مع مُلُوك الأيُّوبيّين الآخرين، ومع الفرنج ضدَّ المماليك في مصر، ومع ذلك؛ لم يأت بحَرَكَة سياسيَّة، أو عسكريَّة واحدة لجَمْع الشَّمل ضدَّ التَّتار، فبرهن عن شخصيَّة سياسيَّة هزيلة، تحمل عقلاً محدوداً محكوماً بهاجس من التَّهيُّؤات لإحياء دولة جَدِّه النَّاصر الكبير، الذي كان يعتقد أنَّه ليس - فقط - سَمِيَّه، بل وريثه، ومثيله، ولكنْ؛ أثبتت الأيَّام أنه لا يحمل من السُّلطان صلاح الدِّين إلَّا اسمه فقط.

كان أوَّل اتِّصال سياسي رسمي على مُستوى عال بين التَّتار وصاحب الشَّام النَّاصر يُوسُف في عام 648هـ 1250م عندما وصلته طّمغا[1] من خان التَّتار كيوك، ويبدو أن النَّاصر يُوسُف فرح كثيراً بهذه الطّمغا، واعتبر أنه سينجو بواسطتها من شرِّ التَّتار هُو وبلاده، "فصار يحملها في حياصته"[2]، وأرسل إلى الخان هدايا كثيرة[3]. وما يُلاحظ على التَّتار أنهم كانوا يُحرِّضون الحُكَّام على إرسال الهدايا الثمينة، ويُلحُّون بطَلَب أفخرها، وأغلاها، وهذا من ضمن خُطَّتهم لإفقار المُلُوك والتَّقوي بهاهم، بينما كان خانات التَّتار وأُمراؤهم يُرسلون - فقط - المناشير المكتوبة، والطّمغا، إلى المُلُوك. وكانت هدايا الملك النَّاصر إلى الخان كيوك سبباً لانزعاج هُولاكُو قائد حملة الشرق، الذي اعتبر أن النَّاصر يتجاهله بعدم إرسال هدايا له[4]، ورُبَّما ستكون هذه بداية سيِّئة لنهاية أسوأ بين الرجلَيْن. وبعد تعيين هُولاكُو قائداً عامَّاً لحملة العراق، أَوْكَلَ إليه الخان الاتِّصال بالمُلُوك، ولم يعد مسموحاً لأحد الاتِّصال بالخان.

---

1 - الطّمغا: كلمة تُركيَّة عُرِفَتْ - فيما بعد - بالدّمغة، وهي خَتْم الملك، أو شعاره، على قطعة من المعدن، وكانت تعني أن مَنْ يحملها في رعاية الخان، فهي أمان له.

2 - الحياصة: الحزام يُلَفُّ حول الخصر، وتُستخدَم للفَرَس.

3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 471.

4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 471.

المبحث الثاني:

السُّلطان النَّاصر بين المقاومة والاستسلام

عندما أنجز هُولاكُو مهمَّته الأُولى، واستولى على بغداد، بدأ ـ مُباشرة ـ بالالتفات إلى المهمَّة التالية؛ وهي الجزيرة، والشَّام، فأرسل عدَّة رسائل إلى صاحب الشَّام الملك النَّاصر يذكر فيها فتحه لبغداد، وقتله الخليفة، ويطلب من النَّاصر القُدُوم إليه مع رجاله وأمواله، ويُهدِّد ويُنذر الفارِّين نحو مصر[1]. وبعد أن تلاحقت رسائل هُولاكُو إلى الملك النَّاصر، وفيها من التهديد والوعيد ما جعل الملك النَّاصر يُفكِّر أكثر باتِّخاذ قرار المقاومة، فقد شعر بالغدر والحقد في طيَّات تلك الرسائل، ولكنْ؛ على ما يبدو أن النَّاصر لم يكن يملك الثقة بنفسه، ولا بجيشه، للقيام بهذا العمل، الذي لم ينجح به أحد حتَّى الآن، ولم يجد أمامه إلَّا مصر، فعسكرُهَا قوي، ومواردها كبيرة، وبدأ النَّاصر ينساق مع هذا الحلِّ، رغم معارضة حزب أعوان التَّتَار من الأُمراء في بلاطه، وعلى رأسهم وزيره الزين الحافظي، ويبدو أنه انصاع لضغوط حزب المقاومة، وهم من أُمراء الجند، وعلى رأسهم بكتمر وعلاء الدِّين القيمري، فأرسل الملك النَّاصر كاتبه وثقته المُؤرِّخ ابن العديم بمهمَّة على غاية من الخطورة إلى مصر، وهي طلب النجدة لمواجهة التَّتَار[2]، ولابُدَّ أن النَّاصر كلَّفه بمهمَّة أُخرَى سرِّيَّة هي كَشْف نوايا المماليك تجاهه. انطلق ابن العديم لتنفيذ مهمَّته، فوصل مجلس سُلطان مصر المنصُور علي بن المُعزّ آيبك، وعرض الأمر، وقبل أن يبتَّ بالجواب، قام قُطز بالقبض على المنصُور علي، وأعلن نفسه سُلطاناً على البلاد بحُجَّة الحاجة لسُلطان قوي قادر على الجهاد، والوقوف بوجه التَّتَار، ثُمَّ أبلغ ابن العديم جوابه إلى الملك النَّاصر: "إنه يُنجده، ولا يُقصِّر عن نصرته"[3]. ويبدو أن هذا الجواب ـ مع وضوحه ـ لم يقض على مخاوف النَّاصر من المماليك، ولعجزه وتردُّده، اختار النَّاصر أمراً وَسَطاً، فقد قرَّر الاستمرار بالاتِّصال مع هُولاكُو، وإرسال الرُّسُل والهدايا إليه، دون أن يسير إليه بنفسه، وهذا يعني عدم ثقته به، وبالوقت نفسه؛ لم يقطع علاقته بالمصريين، بل رُبَّما كان أميل إليهم بدليل مسيره نحو مصر، لكنه ـ أيضاً ـ لم يكن واثقاً بوعودهم.

---

1 - وردت الرسالة في: العلاقات السِّياسيَّة، فايد عاشور، 37، و وثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة، مُحمَّد ماهر حمادة، 352، راجعْ نصَّ الرسالة في ملاحق هذا الكتاب.

2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 199.

3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 199.

لقد تسارعت الأمور من حول الملك النَّاصر يُوسُف ـ بشكل كبير ـ بعد فَتْح هُولاكُو لبغداد عام 656هـ "فأرسل له النَّاصر ولده العزيز مُحمَّد بتُحف وهدايا ليُصانعه بذلك"[1] ويسترضيه، ولكن هُولاكُو كان يعرف ـ تماماً ـ ماذا يريد من النَّاصر، فأرسل إليه رسالة بالعَرَبيَّة، كتبها نصير الدِّين الطوسي[2] تتضمَّن تهديداً، وتحذيراً، وطلبه ـ فوراً ـ إلى حضرة هُولاكُو[3]، فعاد النَّاصر، وأرسل وزيره الزَّين الحافظي بتُحف وهدايا مَلَكيَّة إلى هُولاكُو، لكن الوزير استغلَّ حضوره في الرسالة، وتقرَّب إلى التَّتار "فعرف في الدركاه، واشتهر، وصدر له فرمان، وبايزه"[4].

ورُبَّما كانت حَيْرَة وتردُّد النَّاصر، وتملُّقه إلى هُولاكُو بالرُّسُل والهدايا هي التي أوقعت رشيد الدِّين بالوَهْم؛ حيثُ قال: "وكان سُلطان حلب ـ أحياناً ـ يُظهر الطاعة والمَيْل إلى هُولاكُو في الخفاء، فاتُّهم ـ لهذا ـ السبب عند سلاطين الشَّام، وقصدوه، فهرب، والتجأ إلى حضرة هُولاكُو خان، فقوَّى ذلك عزمه على فَتْح حلب"[5].

فالنَّاصر هُو سُلطان الشَّام، وقد فتح هُولاكُو حلبَ قبل وصول النَّاصر إليه بمُدَّة طويلة، ويعود رشيد الدِّين ليُناقض ما كتبه، فيقول: "لمَّا وصل هُولاكُو خان إلى حلب، فرَّ النَّاصر إلى قلعة كرك، ولمَّا أراد كيتبوقا أن يُحاصره، طلب الأمان، وسلَّم نفسه، فأرسله إلى الحضرة"[6]، وهذا ـ بالتَّأكيد ـ وَهْم. فالنَّاصر ترك حلب قبل حصار هُولاكُو لها بمُدَّة طويلة.

ورُبَّما للسبب نفسه، وهُو تضارب مواقف الملك النَّاصر، وتردُّده، يذكر المقريزي معلومات مناقضة تماماً لما ذكره رشيد الدِّين عن العلاقة بين النَّاصر وهُولاكُو، يقول المقريزي: "أنفذ الملك النَّاصر صاحب دمشق ابنه الملك العزيز إلى هُولاكُو، ومعه تقادم وعدَّة من الأُمراء، فلمَّا وصل الملك العزيز إلى هُولاكُو، قدَّم إليه ما معه، وسأل على لسان أبيه في نجدة ليأخذ مصر من المماليك، فأمر

---

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 416.

2 - نصير الدِّين الطُّوسي: مُحمَّد بن مُحمَّد بن الحسن، فيلسوف وعالم فَلَكي، وُلد في طوس، حوالي 600 هـ-1204م، وتُوفِّي عام 672 هـ - 1274م في بغداد، عاش مُدَّة في قلعة ألموت، وبعد فتحها، رافق هُولاكُو، وخَدَمَه. راجعْ كتاب: الفيلسوف نصير الدِّين الطُّوسي، د. عبد الأمير الأعسم.

3 - وردت الرسالة في: جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 296، ووثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة، مُحمَّد ماهر حمادة، 353 ـ راجعْ نصَّ الرسالة في ملاحق هذا الكتاب.

4 - الدركاه هي الخيمة، وهُنا هي المعسكر، والفرمان هُو قرار من هُولاكُو، وبايزه هي الطّمغة.

5 - جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 305.

6 - جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 208.

هُولاكُو أن يتوجَّه إليه بعسكر فيه قدر عشرين ألف فارس"[1]، ثُمَّ يعود المقريزي ليُؤكِّد وُصُول نجدة هُولاكُو إلى النَّاصر بدمشق[2]. وهذا الخبر بكامله وَهمَ به المقريزي، فالعزيز بن النَّاصر ذهب إلى هُولاكُو وهُو على حصار بغداد؛ لتملُّقه، واسترضائه، وليس لطلب النجدة لأَخْذ مصر من المماليك، فهذا لا يتناسب - أبداً - مع خوف الملك النَّاصر من التَّتار، وانسحابه أمام هُجُومهم على الجزيرة الشَّاميَّة من حلب إلى دمشق، وإرسال ابن العديم إلى مصر يطلب نجدة المماليك ضدَّ التَّتار.

إن عودة المقريزي ليُؤكِّد وُصُول نجدة التَّتار إلى دمشق - مع أن ذلك لم يحصل وفقاً لكُلِّ مُؤرِّخي تلك الأيَّام - تجعلنا نعتقد أنه رُبَّما كان يُريد اتِّهام النَّاصر بالتعاون مع التَّتار ضدَّ المماليك، وهي تُهمة بالخيانة العُظْمَى للسُّلطان الأيُّوبي صاحب الشَّرْعيَّة تُبرِّر أمام الرأي العامّ القضاء على نظامه، وتُعلي شأن نظام المماليك المُجاهدين ضدَّ التَّتار، المُنتصرين على أعداء الدِّين.

ونتوقَّع أنه مهما بلغ تردُّد النَّاصر، وتخاذله، فإنه لم يصل إلى حَدِّ طلب النجدة من كُلٍّ من المماليك والتَّتار ضدَّ بعضهم، وطالما تُؤكِّد النُّصُوص وُجُود المُؤرِّخ ابن العديم بمصر لطلب النجدة، فهي تنفي - ضمناً - طلبه النجدة من التَّتار.

ولكنَّ الغريب في الأمر هُو رسالة أرسلها هُولاكُو من إنشاء نصير الدِّين الطُّوسي إلى أُمراء عسكر الشَّام، وأجنادها، يتهدَّدهم، ويتوعَّدهم، ويطلب منهم الطاعة وهُم صاغرون[3]، ولابُدَّ أن هُولاكُو وقادته كانوا يعتقدون بأن النَّاصر ميَّال إليهم، ولكنه يخشى قادة العسكر، ورُبَّما نقل هذه الصُّورة إليهم عميلهم الزَّين الحافظي وزير الملك النَّاصر، وهي صُورة حقيقيَّة؛ بدليل أن أُمراء جُند النَّاصر انقلبوا عليه لتهاونه بأمر التَّتار، وكادوا يُقيمون أخيه الملك الظاهر غازي في السَّلْطَنَة مكانه[4]، ولكنَّ الدليل الأقوى على موقف أُمراء الجُند هُو ردُّهم على رسالة هُولاكُو، فقد أرسلوا له ردّاً كُلّه استصغار للتَّتار، وإظهار لقُوَّة جُند الشَّام، وعزمهم على المقاومة؛ خاصَّة بعد قَتْل التَّتار

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 500.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 508.
3 - الفيلسوف الطُّوسي، عبد الأمير الأعسم، 162 - راجعْ نصَّ الرسالة في ملاحق هذا الكتاب.
4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 200 و السُّلُوك، المقريزي، 1/ 512 - كذلك راجعْ ما قاله ناصر الدِّين القيمري في مجلس السُّلطان قُطز، الذي ناقش فيه مسألة التَّصدِّي للتَّتار، وكيف شجَّعه على الصُّمُود والمُواجهة. (وثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة، مُحمَّد حمادة، 356 - 357).

للخليفة، بل وصل الأمر بهم إلى تحدٍّ سافر ومكشوف للتَّتار، فقد حدَّدوا موعداً؛ هُو شهر صَفَر، ومكاناً هُو الرّستن للقائهم، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[1].

ونلاحظ من رَدِّ أُمراء العسكر تمسُّكهم بوحدة الموقف مع الملك النَّاصر، فرسالة هُولاكُو لم تُشر إليه، لا من قريب، ولا من بعيد، وكأنه يُبعده عنهم، أو أنه يُشعرهم بذلك، بينما جاء رَدُّ الأُمراء يُشير إلى أنهم مُتَّحدون مع الملك النَّاصر، مُتَّفقون معه على المقاومة، يقولون في الرسالة يخاطبون هُولاكُو: "وسيأتيك الملك النَّاصر، وبكتمر، وعلاء الدِّين القيمري، وسائر أُمراء الشَّام ينفرون"[2].

ويبدو أنه في الوقت ذاته، عام 657 هـ، وصلت رسالة المُظفَّر قُطز، الذي تسلطن في مصر، يُشجِّع فيها النَّاصر على الصُّمُود في وجه التَّتار، ويُعلن دعمه له، فقد خاف قُطز أن ينهار النَّاصر أمام الحرب النفسية التي يشنُّها التَّتار عليه، ويخضع لتهديدات هُولاكُو المُستمرَّة له، ورُبَّما كان هدف قُطز من هذه الرسالة، إن لم يكن تشجيع النَّاصر وتهدئة خوفه الكبير من التَّتار، فعلى الأقلِّ؛ طمأنَتُهُ من جهة حُكَّام مصر، وتحييده، حتَّى لا يكون عوناً للتَّتار، فبعد أن ترفَّق قُطز في رسالته إلى النَّاصر يُوسُف، وأقسم فيها بالأيمان أنه لا يُنازعه في المُلك، ولا يُقاومه، وأنه نائب عنه في ديار مصر، ومتى حلَّ بها، أقعده على عرشها، ثُمَّ يقول في رسالته: "وإنْ اخترتَني خدمتُكَ، وإنْ اخترتَ، قدمتُ ومَنْ معي من العسكر نجدة لكَ على القادم إليكَ، فإنْ كُنتَ لا تأمن حُضُوري، سيَّرتُ إليكَ العساكرَ صحبة مَنْ تختاره"، فشعر الملك النَّاصر بالاطمئنان[3]، ولكنْ؛ ليس إلى درجة الثقة، وبدليل تصرُّفاته اللاحقة، فقد ظلَّ مُتردِّداً بين الحزبَيْن المتنازعَيْن في بلاطه: فأحدهما يريد الاستعانة بقُطز والمقاومة، والحزب الثاني يريد منه الاستسلام إلى هُولاكُو.

لم تكن المقاومة أكبر من قوى الملك النَّاصر العسكرية بقَدْر ما كانت أكبر من قواه النَّفْسية، التي تُمكِّنه من اتِّخاذ قرارها، والنُّهُوض بعبء مواجهة، رُبَّما كان يراها محسومة سلفاً لغير صالحه،

---

1 - سُورة الشُّعراء، الآية / 227 - راجعْ نصَّ الرسالة في ملاحق هذا الكتاب.

2 - راجعْ نصَّ الرسالة في ملاحق هذا الكتاب.

3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 508 - ويُقدِّم المقريزي لهذه الرسالة في كتابه قائلاً: بأنَّ قُطز كتبها بعد وُرُود الخبر بوُصُول نجدة من عند هُولاكُو إلى الملك النَّاصر بدمشق. ويبدو أن المقريزي قد وَهَمَ بهذا الخبر من أساسه، وهذه الرسالة لا يمكن لقُطز أن يكتبها بعد وُصُول نجدة التَّتار للنَّاصر؛ إذْ يكون الأمر قد خرج من يده، ولو قال إنه كتبها عند طلب النجدة، أو قبل وُصُولها، لكان في الأمر مكان للنَّظَر.

ونتيجتها ـ كما كان يعتقد ـ الهزيمة، والقتل. وأمّا الخُضُوع لهُولاكُو، بالرغم من أن النّاصر لم يقطع شعرة العلاقات معه، فالخُضُوع كما يريده هُولاكُو، هُو استسلام بدُون قَيْد، أو شرط، ونتيجته القَتْل كما فعل التّتَار بغيره من المُلُوك.

بعد اغتيال مُقدَّم المماليك البَحْريَّة في مصر فارس الدِّين أقطاي؛ هرب البَحْريَّة إلى الشَّام، وقدموا على الملك النَّاصر، وكان بدمشق، فاستقبلهم، وأكرمهم، وكانت أخبار تقدُّم التّتَار من العراق نحو الشَّام في عام 657 هـ 1259م، تتواتر على الملك النَّاصر، فقال له بيبرس[1]: "قَدِّمني على أربعة آلاف فارس، أقوم بهم إلى شطِّ الفُرات، أمنع التّتَار من العبور إلى الشَّام. فلم يُمكِّنه الصالح صاحب حمص لباطن كان له مع التّتَار"[2]، وفي الحقيقة؛ فإن رأي بيبرس يبدو منطقياً من الناحية العسكريَّة، فدفاعات الشَّام كان يجب أن تقوم عند الفرات، وهو مَعْبر مائي إجباري لجُيُوش التّتَار، كان من الممكن إيقافهم عنده، ولكنْ؛ هل كان ذلك مُمكناً بأربعة آلاف فارس فقط، مقابل كلّ قُوَّات التّتَار، وسُمعتهم الرهيبة؟! حتَّى إنه قد بدا أن التّتَار قد سيطروا على الشَّام قبل أن يدخل جيشهم إليها، فقد كان لهم من السُّمعة المُرعبة فيها ما يجعل لهم فيها صَوْلة وجَوْلة، حتَّى أنَّ رُسُل التّتَار أخذوا يتحكَّمون بمدينة كُبْرَى وكُرسي مملكة هي حماة، فاعتقلوا قائد جُندها، وشيخ شُيُوخها، وطلبوا ملكها ليأخذوه، كلّ ذلك بسبب مَقْتل رسول للتّتَار قُرب حماة، ممَّا يدلُّ على حالة من الرُّعب القاتل من التّتَار، التي كان يعيشها السُّكَّان والحُكَّام، ويصف هذه الحالة ابن شدَّاد، وقد شاهدها أثناء سفره إلى مَيَّافارقين، يقول: "فلمّا وصلنا حماة، تعرَّضت رُسُل التَّتَر لصاحبها، وانتهكوا حُرمته، وأخذوا شُجاع الدِّين مُرشد الخادم ـ مُقدَّم عسكره ـ وشيخ الشُّيُوخ شرف الدِّين عبد العزيز بن مُحمَّد، وطلبوا الملك المُظفَّر، ليأخذوه معهم، بسبب الرُّسُل الذين قُتلوا في بلاده، فتوسَّطتُ بينهم على ألفَيْ درهم، وضيافة، فقبلوها، وأطلقوا مَنْ كان أُخِذَ"[3].

1 - رُكن الدِّين بيبرس البندقداري، أحد مُقدَّمي البَحْريَّة الفارِّين إلى الشَّام، وهُو الذي أصبح ـ فيما بعد ـ سُلطان مصر.

2 - المنهل الصَّافي، ابن تغري بردي 3/ 451 ـ الصالح هُو ابن صاحب حمص الملك المُجاهد وهُو: الملك الصالح إسماعيل بن الملك المُجاهد أسد الدِّين بن الملك القاهر مُحمَّد. لمُراجعة تفاصيل حياته انظرْ: مملكة حمص الأيُّوبيَّة، مُنذر الحايك، 126.

3 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 491.

المبحث الثالث:

سُقُوط حلب بيد التَّتَار

بعد احتلال بغداد، ودُخُول التَّتَار إلى الجزيرة الشَّاميَّة، كانت القوى السِّياسيَّة في المنطقة لا تدعو إلى التفاؤل أبداً، إذا ما فكَّر الملك النَّاصر يُوسُف بالتَّصدِّي للتَّتَار.

وحتَّى نكون مُنصفين، وبغَضِّ النظر عن سُلُوك الملك النَّاصر السابق الناتج عن شخصية غير قيادية، الذي ساهم بتأزُّم الوضع العامّ، فالظُّرُوف السِّياسيَّة والعسكريَّة التي أخذت تحيط بالملك النَّاصر كانت قاسية جدَّاً عليه، فمُعظم الحُكَّام قد قدَّموا الطاعة للتَّتَار للحفاظ على عُرُوشهم، وكان منهم بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل، وتاج الدِّين بن صلايا صاحب إربل، والمُظفَّر صاحب ماردين، وعزّ الدِّين ورُكن الدِّين أولاد كيخسرو وارثي عرش سلاجقة الرُّوم، والملك الوحيد الذي رفض الخُضُوع للتَّتَار هُو الملك الكامل مُحمَّد بن المُظفَّر غازي صاحب مَيَّافارقين، فحاصروه، وقتلوه[1]. أمَّا في الشَّام؛ فكان الملك المنصُور صاحب حماة تابعاً لسُلطان الشَّام الملك النَّاصر، فعندما تأزَّمت الأُمُور سَحَبَ جيشَهُ من حماة، والتحق بقُوَّات النَّاصر في دمشق، ويبقى السُّلطان الملك النَّاصر، صاحب أكبر قُوَّة عسكريَّة، فقد كان حائراً لا يدري ماذا يفعل، ويبدو أنه اتَّبع سياسة المُهادنة على كلِّ الجبهات، تاركاً الأُمُور تُقرِّر نفسها، ثُمَّ يُقرِّر هُو ماذا يفعل، ومن ضمن هذه السِّياسة أراد الابتعاد عن مسرح الأحداث، فترك حلب، وذهب ليُقيم بدمشق، فهي أبعد عن التَّتَار، الذين رُبَّما ظنَّ أنهم قد يتوقَّفون بمُعجزة، وأقرب إلى مصر، التي لا زال يعتبرها حِمَىً يمكن اللُّجُوء إليه. وضمن هذه الفوضى السِّياسيَّة والعسكريَّة، التي خلقها التَّتَار في المنطقة، كان الفرنج غير قادرين على تحديد موقفهم، فأعداء المُسلمين القادمين هل سيكونون أعداءً لهم بالوراثة؟! أم أنه يمكن أن يكونوا حُلفاء ضدَّ ما تبقَّى من القوى الإسلاميَّة؟! ويبدو أن معظم فرنج الساحل الشَّامي كانوا يميلون لاعتبار التَّتَار أعداء محتملين أشدّ أذى وقُوَّة من جيرانهم الحاليِّيْن المُسلمين[2].

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 198، و ذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 289، و السُّلُوك، المقريزي، 1/ 411، وعقد الجُمان، العيني، 1/ 397، و ذيل مرآة الزَّمان، اليُونيني، 1/ 91 .

2 - راجعْ مبحث العلاقات بين الفرنج والتَّتَار في هذا الكتاب.

أمّا آخر القوى السِّياسيَّة والعسكريَّة في المنطقة، وربَّما أهمّها على الإطلاق، فهي في مصر، التي استولى عليها المماليك، وتوالى سلاطينهم عليها، ولكنها بالنسبة للملك النَّاصر دار أعداء مُغتصبين للحقِّ الأيُّوبي، ثُمَّ إنه لا يأمنهم على نفسه، رغم محنته هذه.

سُقُوط حلب:

اختار هُولاكُو أن يهاجم الجزيرة أوّلاً، ولكنه ـ كعادة التَّتار ـ ما إن احتلَّ حرَّان، حتَّى أرسل ابنه يشموط مع قُوَّة كبيرة إلى حلب، ولشدَّة حماس أهل حلب وعسكرها، خالفوا رأي المُعظَّم تُورانشاه بن السُّلطان صلاح الدِّين قائد الحامية، وخرجوا من حلب لقتال التَّتار، "فخدعهم التَّتَر، وقتلوا منهم مقتله عظيمة"[1]، ثُمَّ وصل هُولاكُو بالقُوَّات الرئيسيَّة لجيش التَّتار، فوزَّع قادته على الأسوار والأبواب، ووفقاً لأساليبهم المُتَّبعة في حصار المُدُن، فقاموا ببناء سُور واقي، يحميهم من رمايات حامية المدينة، وحفروا حولهم خندقاً يتحصَّنون فيه، ونصبوا منجيناقاتهم[2]. ولمَّا كان التَّتار يُفضِّلون استسلام المُدُن، ويعملون جهدهم لذلك؛ إذْ لم تكن جُيُوش التَّتار تملك الصبر ولا الوقت لحصار طويل الأمد، فمشاريعهم التوسُّعية الكبيرة جعلتهم أعداء للأسوار التي تعيق حَرَكَتهم، ولذلك قامت خُطَّتهم العسكريَّة للهُجُوم في الشَّام على تهديم القلاع والأسوار[3]، فقد عرض هُولاكُو الأمان على أهل حلب[4]، فأجابوه "مالك عندنا إلَّا السيف"[5]، فأمر هُولاكُو بمُهاجمة أسوار المدينة، وكانت قد وصلته نجدة الأرمن، ومعها قُوَّات من فرنجة أنطاكية[6]. وبعد أُسبُوع من الحصار؛ فُتِحَت المدينة، أمَّا القلعة؛ فقد قاومت أربعين يوماً[7].

يصف ابن العميد ـ وهُو مُؤرِّخ مسيحي ـ فظائع التَّتار في حلب، فيقول: "قتل التَّتار من أهل حلب وأهل البلاد الذين اجتمعوا بها ما لا يُحصى، حتَّى قيل: إن ما قُتل ببغداد ولا في مدينة من مدائن العجم مثلها، وامتلأت الطُّرُقات من القتلى؛ بحيثُ كانت خُيُول التَّتار تمشي عليهم، وأسروا فيها من

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 199.
2 - جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 306.
3 - الرَّوض الظَّاهر، ابن عبد الظَّاهر، 93.
4 - راجعْ رسالة هُولاكُو إلى أهل حلب في: وثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة، مُحمَّد ماهر حمادة، 354.
5 - راجعْ رسالة هُولاكُو إلى أهل حلب، وردّهم عليها في: وثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة، مُحمَّد حمادة، 354.
6 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 510، و البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 213، و ذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 291.
7 - جامع التواريخ ـ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 306.

النسوان والصبيان ما يزيد عن مائـة ألـف نَفْس، وأكثرهم بيعـوا في بـلاد الفـرنج وبـلاد الأرمـن، ونقلوهم إلى جزائر البحر الجُوَّانيَّة"[1]، وإنْ لم يكن ناقل هذه الصُّورة من مُؤيِّدي التَّتـار، فهُـو - عـلى الأقلِّ - مُحايد، ولن نجد من مُؤرِّخي الإسلام مَنْ ذَكَرَ عن أفعال التَّتـار بحلـب أكثـر ممَّـا ذكـره هـذا المُؤرِّخ المسيحي.

ويُوضح الصُّورة - بجلاء أكثر - مُؤرِّخ أرمني، يمكـن أنـه اعتمـد في اسـتقاء معلوماتـه عـلى الأرمن، الذين قاتلوا مع جيش هُولاكُو ضدَّ حلب، ودخلوها معه، يقول: ولمَّا دخلتْ قُوَّات هُولاكُو مدينة حلب "اقترف المغول بسُيُوفهم مجازر رهيبـة ضـدَّ المُسلمين، وقتلـوهم دون رحمـة أو شـفقة، وما مـن أحـد يمكنـه أن يـصف المجـازر بحُكْـم فظاعتهـا واتِّـساع المـساحة التـي انتـشرت فوقهـا الجُثث"[2]، ويردُّ على هذا المُؤرِّخ الأرمني الذي يُلقي على التَّتار وحدهم مسؤولية الفظـائع والـدمار في حلب، مُؤرِّخ حلبي، فيقول ابن الشّحنة: "قرأتُ في تاريخ مُنتخب الدِّين يحيي بن أبي طي النَّجَّـار الحلبي، ما آل إليه أمر المسجد الجامع في عصره، قال: ولمَّا استولى التَّتَر المخذولون عـلى حلـب، دخـل صاحب سيس[3] إلى الجامع، وقتل خَلْقَاً كثيراً، وأحرق الجانب القبلي منه"[4].

ولمَّا بلغ الملكَ النَّاصر قصدُ التَّتار لحلب، خرج مع جيشه من دمشق، وعسكر في برزة[5] ومعه الملك المنصُور مُحمَّد صاحب حماة بجُنده، "واجتمع عنده أُمم عظيمة من العساكر والجفال"[6]، فماذا فعل النَّاصر؟ "خاف النَّاصر وأكابر دولتـه وأُمراؤهـا خوفـاً عظـيماً، واتَّفـق رأيهـم عـلى أن يُـسَيِّروا نسوانهم وأولادهم وأموالهم إلى مصر، ويُقيموا جرائد، فوافقهم النَّاصر على ذلك، وكـان لا يخـالفهم في شيء البتَّة؛ لاعتماده عليهم، وإنهم مشائخ، وقد حنَّكتهم التجارب"[7].

---

1 - أخبار الأيُّوبيين، ابن العميد، 49.
2 - تاريخ سمباط الأرمني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 331.
3 - هيثوم ملك الأرمن، وسيس هي عاصمة مملكة أرمينيا الصُّغْرَى.
4 - الدّرّ المُنتخب، ابن الشّحنة، 68.
5 - برزة: بلدة قريبة من دمشق من جهة الشمال، هي - الآن - إحدى أحياء دمشق، (المُعجم الجَغرافي للقطر العربي السوري، مادة: برزة).
6 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 200.
7 - أخبار الأيُّوبيين، ابن العميد، 49.

لقد كان سُقُوط حلب كارثة بالنسبة للمُسلمين في كُلِّ أقطارهم، أُضيفت إلى كوارث أكبر، ولكنْ؛ هل كان من المُمكن ألَّا تسقط حلب بيد هُولاكُو؟ أم أنه كان أمراً مفروغاً منه؟ في الحقيقة؛ إن كلّ جواب الآن سيكون بعيداً عن الدقَّة، وما نستطيع قوله ـ لنكون أقرب إلى الحقيقة ـ إنه لم يتمّ التعامل العسكري مع التتَّار في الشَّام بشكل سليم، فالمفروض أن حلب كانت تعني أشياء كثيرة للملك النَّاصر، فهي مُستقرُّ مُلكه وكُرسيه، وإن كان قد ملك دمشق، وهي مسقط رأسه، ومدرج صباه، وبالتَّأكيد؛ كان يدرك أن سُقُوطها سيكون سُقُوطاً للشَّام بيد التتَّار، وبداية النِّهاية للعصر الأيُّوبي بكامله. مع كُلِّ ذلك؛ ترك النَّاصر حلب وفيها حامية صغيرة، وسحب منها جيشه إلى دمشق.

فهل كان الملك النَّاصر يثق بأسوار حلب وحدها لتدافع عن مدينته وعن دولته. ومع أن سُقُوط حلب كان يُقرِّره سُقُوط مَيَّافارقين، فإن النَّاصر لم يدرك ذلك، وبدلاً من إرسال جيشه لمساعدة مَيَّافارقين، أرسل سفيره يُهنِّئ يشموط بن هُولاكُو بسلامة الوُصُول إليها[1].

كما أن وُجُود مُؤيِّدي التتَّار في بلاطه وبين مُستشاريه قد ساهم ـ بشكل كبير ـ في تخاذله، وعدم قيامه بأيِّ عمل جدِّي ضدَّ التتَّار، فقد كان حزب التتَّار في بلاطه يتألَّف من: الزَّين الحافظي، والصالح نُور الدِّين إسماعيل بن شيركوه[2]، وابن أخيه الملك الأشرف مُوسى صاحب حمص، والأمير حاجب نجم الدِّين مُحمَّد بن الافتخار ياقوت، وغيرهم[3].

وكذلك نجد أن النَّاصر يُوسُف قد وجَّه جُلَّ اهتماماته في السنوات الأخيرة للصراع ضدَّ المماليك في مصر، ممَّا عقَّد مهمَّته في التحالف معهم ضدَّ التتَّار. إضافة إلى ضعف شخصيَّة الملك النَّاصر القياديَّة؛ حيثُ فقد السيطرة نهائياً على جُنده، وحتَّى على مماليكه، وضاع بين اختلاف آرائهم وأهوائهم، وكلّ ذلك لن ينعكس عليه، وعلى مُلكه، بل وسيُؤدِّي إلى زوال الدولة الأيُّوبيَّة، واستقرار دولة المماليك بدُون مُعارض[4].

---

1 ـ الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 486.
2 ـ ذيل مرآة الزَّمان، اليُونيني، 2/ 126.
3 ـ الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 486.
4 ـ راجعْ : السُّلُوك، المقريزي، 1/ 513، و ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، 203، و زُبدة الفكرة، الدوادار، 9/ 67.

المبحث الرَّابع:

انسحاب النَّاصر من الشام ونهايته

لقد أصبح النَّاصر مسلوب الإرادة مرعوباً، ليس له رأي، وعندما شاهد جُنده ومماليكه هذه الحال، قرَّروا تنحيته باغتياله، أو القبض عليه، "وسلطنة أخيه الملك الظَّاهر غازي بن العزيز لشهامته"[1]، وعلم النَّاصر بالأمر، فترك المعسكر هارباً في الليل إلى قلعة دمشق، فأُسقط بيد مماليكه النَّاصرية، وأعوانهم، فهربوا ومعهم الظاهر غازي إلى غزَّة[2].

وكان تسارُعُ الأحداث في الشَّام أكبر من أن يترك صدى أو ذُيُولاً لهذه المحاولة الفاشلة، فالتَّتار لا يهدؤون، وقد انضمَّ إليهم ـ عَلَنَاً ـ الأشرف بن المُجاهد، فأعادوا له حمص، وأعمالها، وكذلك الملك السَّعيد بن العزيز؛ حيث أطلقه هُولاكُو من سجن البيرة، وأعاد له ولايته على بانياس، وقلعتها، التي تُعرَف بالصبيبة[3]، فقرَّر الملك النَّاصر الانسحاب جنوباً نحو مصر، وقد "تفلَّلت العسكر، وتصرَّمت، وقلَّت الحُرمة، وطمع كُلُّ أحد، ولم يبقَ عند النَّاصر إلَّا قوم قلائل"[4].

سار الملك النَّاصر عن دمشق على أمل جمع الكلمة مع المُظفَّر قُطز للقاء التَّتار، وأخذ ما بقي معه من الجيش، وترك دمشق خالية من العسكر، "وأهلها على الأسوار يشتمونهم، ويدعون عليهم، ويقولون: تركتُمُونا طُعمة للتَّتار، لا كَتَبَ الله عليكم السلامة"[5].

"وعبر الزَّين الحافظي إلى دمشق، وأغلق أبوابها، وسيَّر النَّاصر طلبه؛ ليجتمع به، فامتنع عن الخُرُوج إليه، وجمع أكابر دمشق، واتَّفق معهم على تسليم دمشق لنُوَّاب هولاوؤن"[6].

وسار النَّاصر ومعه المنصُور مُحمَّد صاحب حماة، فوصل نابلس؛ حيثُ ترك بها حامية، ولمَّا وصل غزَّة، انضمَّ إليه مماليكه الفارّون، وتصالح مع أخيه غازي، وعلم النَّاصر في غزَّة أن التَّتار

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 200، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 512، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 248، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 293.

2 - وهذا يُذكِّرنا بهَرَب الكامل من معسكره بمُواجهة الفرنج إلى المنصُورة، عندما حاول ابن المشطوب القبض عليه وتسليم السَّلْطَنَة لأخيه الفائز ، وفي الحالتَيْن كلتَيْهما فشل الانقلاب العسكري في تبديل رأس السُّلطة.

3 - أخبار الأيُوبيين، ابن العميد، 49، وعقد الجُمان، العيني، 1/ 277.

4 - أخبار الأيُوبيين، ابن العميد، 49.

5 - أخبار الأيُوبيين، ابن العميد، 50.

6 - أخبار الأيُوبيين، ابن العميد، 51.

قد احتلُّوا نابلس، فقصد العريش، وأرسل يخبر قُطز، ويسأله الاجتماع لمواجهة التَّتار، ويبدو أن جواباً شافياً مُطمئناً لم يصل من قُطز إلى النَّاصر، "فاستراب النَّاصر بأهل مصر"[1]، وكان قد بلغ قطية، "فخاف النَّاصر دُخُول مصر، فيُقبض"[2]، فسمح النَّاصر لمَنْ يريد من مُرافقيه دُخُول مصر، فحزم المنصُور مُحمَّد أمره، "ودخل المنصُور والعسكر مصر، فالتقاهم قُطز، وأحسن للمنصُور، وأعطاه سنجقاً، ودخلوا القاهرة"[3].

أمَّا الملك النَّاصر؛ فقد أعمته الحَيْرَة فيما يفعل؟ وأين يتوجَّه؟ وأخذ يُفكِّر بالتوجُّه نحو الحجاز، "ثُمَّ عدل إلى ناحية الكَرَك، فتحصَّن به، ولكنه قلق، فركب نحو البرِّيَّة، واستجار ببعض أُمراء الأعراب"[4].

ورُبَّما بسبب الطمع، أو نيل الحظوة لدى التَّتار، قام واحد من مُرافقيه وخَدَمه هُو حُسين الطبردار الكُردي[5] بالتوجُّه إلى إحدى سرايا التَّتار، التي أخذت تنتشر جنوب الأردن وفلسطين، وأعلمهم بمكان وُجُود الملك النَّاصر، "فقصدتْهُ التَّتار، وأتلفوا ما هُنالك من الأموال، وخرَّبوا الديار، وقتلوا الكبار والصغار، وهجموا على الأعراب التي بتلك النواحي، وقتلوا منهم خَلْقاً، وسبوا نسلهم ونساءهم"[6]، وقبضوا على الملك النَّاصر، وأرسلوه مع أخيه الظَّاهر غازي بن مُحمَّد[7]، وابنه الملك العزيز مُحمَّد بن يُوسُف[8]، وإسماعيل بن شيركوه، إلى كتبغا نوين، الذي سيَّره ـ بدوره ـ إلى هُولاكُو[9]، "وأقام النَّاصر عند هُولاكُو، حتَّى بلغتهم أخبار هزيمة التَّتار في عين

---

1 - العبر، ابن خلدون، 365.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 201، وعقد الجُمان، العيني، 1/ 232.
3 - المُختصر، أبو الفداء، 201، وعقد الجُمان، العيني، 1/ 232.
4 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 233.
5 - الطبردار: هو الحارس الشخصي للسُّلطان، وكان يحمل السلاح بين يدَيْه، والطبر هو أداة قتال تُشبه الفأس (مُعيد النِّعم، السبكي، 35).
6 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 233.
7 - انظرْ ترجمته في: شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 421، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7/ 206، وشذرات الذَّهَب، ابن العماد، 5/ 298.
8 - انظرْ ترجمته في: شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 447، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 212.
9 - كتبغا: كان اسمه كيد بوقا باورجي، وباورجي تعني الطَّبَّاخ، فقد كان مسؤول الأطعمة والأشربة في حملة هُولاكُو على العراق (فاتح العالم، الجُويني، 2/ 226).

جالُوت، فقام هُولاكُو بقَتْل النَّاصر بنفسه، ثُمَّ قتلوا بقية مَنْ كان معه: أخاه الظاهر غازي[1]، والملك الصالح إسماعيل بن المُجاهد شيركوه صاحب حمص[2]، ولم ينجُ من نقمة هُولاكُو إلَّا العزيز مُحمَّد ابن النَّاصر يُوسُف لصغر سنِّه؛ حيثُ بقي عند التَّتار حتَّى مات[3].

لقد عدَّ هُولاكُو أن الملك النَّاصر كان سبباً لهزيمة عين جالوت، وأنه غرَّر بالتَّتار، وورَّطهم بالهُجُوم على مصر، وقد ردَّ النَّاصر قبل مقتله على هُولاكُو بقوله: مَنْ يكون بتبريز[4] كيف يحكم على الشَّام؟!

ويُبرِّر رشيد الدِّين ـ كاتب سيرة هُولاكُو ـ مقتل النَّاصر؛ مُحاولاً تبرئة هُولاكُو، وجعل سبب مقتل النَّاصر وشاية رجل شامي، يقول: "كان هُولاكُو قد أحاط الملك النَّاصر برعايته، وفوَّض إليه حُكُومة دمشق، وسيَّره في ثلاثمائة فارس شامي، ولكنْ؛ بعد أن وصله نبأ وفاة كيتوبوقا، قال له رجل شامي: إن النَّاصر ليس مُخلصاً لكَ، وقد أراد أن يفرَّ إلى الشَّام لإمداد قُطز، الذي هزم كيتوبوقا بتدبيره، فسيَّر هُولاكُو مَنْ قتله وهُو في الطريق"[5].

التَّتار في دمشق:

بعد هرب الملك النَّاصر نحو مصر، وتولِّي الزَّين الحافظي أمر دمشق، وعمله على تسليمها للتَّتار، ورد إلى أهل دمشق كتاب من هُولاكُو تُلي على الناس في الجامع الأُموي، وكان مطلعه: "أمَّا بعد؛ فنحنُ جُنُود الله، بنا ينتقم"، ثُمَّ يتابع التهديد والوعيد[6].

هذا الكتاب يدلُّ على أن هُولاكُو لا يزال يخشى من مقاومة حقيقية في دمشق، حتَّى بعد مغادرة النَّاصر يُوسُف بكامل عساكره، وتولِّي الزَّين الحافظي عميل التَّتار لأُمُورها، فالرسالة كُلُّها تهديد ووعيد، ولا تدلُّ ـ أبداً ـ على أن التَّتار كانوا يُصدِّقون أن دمشق ستفتح لهم أبوابها كما حَدَثَ

---

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 420 ـ بينما تُجمع المصادر على أن الظَّاهر غازي أُسر مع الملك النَّاصر، وسار إلى هُولاكُو؛ حيثُ قُتل هُناك مع أخيه، ينفرد البدر العيني، بأنه كان مُقيماً بصرخد عندما دخل كتبغا دمشق، وأنه حضر إليه، فأقرَّه كتبغا على ما بيده. (عقد الجُمان، العيني، 1/ 237)، وهذا وَهْمٌ بالتَّأكيد.

2 - ذيل مرآة الزَّمان، اليُونيني، 2/ 126 و شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 332.

3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 420، وذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، 206 ـ 212.

4 - تبريز: أشهر مُدُن أذربيجان. راجعْ: صُبح الأعشى، القلقشندي، 4 / 357، ومُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: تبريز.

5 - جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 316.

6 - انظرْ نصَّ كتاب هُولاكُو في ملاحق هذا الكتاب.

فعلاً، فكانت رسالة هُولاكُو ـ بما فيها من التهديد ـ جُزءاً من الحرب النَّفْسية التي اشتُهر بها التَّتار، ولتقضي على أيِّ محاولة قد يُفكِّر بها أهل دمشق للمقاومة.

وكانت رُسُل التَّتار تنتظر دخول دمشق، وقد أقاموا في حرستا[1]، "فأُدخلوا دمشق، وقُرئ بالجامع فرمان جاء من عند مَلكهم معهم، فيه أمان لأهل دمشق، وما حولها، وشرع أكابر دمشق تدبير أُمُورهم معهم، ثُمَّ وصل إلى دمشق نُوَّاب التَّتار، ولقيهم كُبراء البلد بأحسن ملقى، وقُرئ ما معهم من الفرمان"[2].

ومع كُلِّ مظاهر الاستقبال الوُدِّي للتَّتار في دمشق، وطُغيان أخبار قُوَّتهم وقسوتهم الوحشية، فإنَّ دُخُولهم دمشق لم يتمّ بلا مقاومة، وإنْ كانت مُقاومة العين للمخرز، فعندما وصلت طلائع قُوَّات التَّتار إلى غُوطة دمشق من جهة الكسوة[3] تصدَّى لهم "جماعة كانوا تجمَّعوا، وتحزَّبوا"، وانتهت مقاومتهم بسُرعة؛ حيثُ أبادهم التَّتار، وقتلوا معهم أهالي قرية حزرما[4]، بمَنْ فيهم مُؤذِّن القرية، لأن اعتراضهم تمَّ قُرب هذه القرية[5].

ويبدو أن المقاومة للتَّتار ـ وإن كانت مُتفرِّقة وغير مُنظَّمة، ومعروف سَلَفاً أنها بلا جدوى ـ لكنها شملت معظم المناطق التي دخلوها من الشَّام، فعند اجتياح التَّتار لنابلس تصدَّى لهم "مُجير الدِّين بن سيف الدِّين بن أبي ذكرى، وكان شُجاعاً، وقد قتل منهم سبعة عشر، أو تسعة عشر قبل قتله"[6].

ولكن المقاومة الأكثر عنفاً في دمشق كانت من قلعتها التي "امتنع فيها الوالي والنقيب في جمع كثير بها، فاحتيج إلى حصارها"[7]، وتجمَّع حولها جيش المغول بآلات الحصار والمنجقيات، "وأصبحوا يرمون بها رمياً مُتتابعاً كالمطر، فأُخرب كثير من القلعة، فطلب مَنْ بها الأمان، فأُعطي لهم

---

1 ـ حرستا: بلدة شمال الغُوطة الشرقية، تبعد عن دمشق 7 كم. (المُعجم الجَغرافي للقُطر العربي السوري، مادَّة: حرستا).
2 ـ ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 405.
3 ـ الكسوة: بلدة قديمة جنوب دمشق 19 كم، على جانب النهر الأعوج (المُعجم الجَغرافي للقطر العربي السوري، مادَّة: الكسوة).
4 ـ حزرما: من قُرى غُوطة دمشق الشرقية، في منطقة دُوما، تقوم على تلٍّ أثري. (المُعجم الجَغرافي للقطر العربي السوري، مادَّة: حزرما).
5 ـ ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 463.
6 ـ ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 405.
7 ـ ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 405.

أمان التَّتَار[1] الذي لا يعني أيَّ شيء، واقتيد مَنْ بها إلى معسكر التَّتَار؛ حيث تمَّ إعدام والي قلعة دمشق بدر الدِّين بن قراجا، والنقيب جمال الدِّين بن الصيرفي الحلبي، اللذان قادا المقاومة في القلعة، مع مجموعة أُخْرَى ممَّنْ قُبض عليه في القلعة[2].

وقام والي دمشق الذي نصَّبه التَّتَار يتتبَّع رجالات الشَّام، وفرض الغرامات عليهم، بعد تهديدهم، وإهانتهم، وهذا ما تعرَّض له مُؤرِّخ دمشق أبو شامة، الذي يقول: "جرت علي حكاية من نائب التاتار إيل سبان، إهانة، وتهديد بضرب الرقبة، على أن وضعت خطي لهم بمبلغ كبير من المال ظُلماً وقهراً"[3].

1-ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 405.

2-ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 409.

3ـ ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 411

المبحث الخامس:

نهاية التَّتَار في الشَّام

عندما وصل الخبر إلى دمشق بهزيمة التَّتَار في معركة عين جالُوت، وأَسْر قائدهم كتبغا، وإعدامه، انهزمت حامية دمشق التَّتَاريَّة، التي كانت بقيادة إيل سبان، "وتبعهم الناس وأهل الضياع ينهبونهم، ويقتلون مَنْ ظفروا به منهم"[1]، "وقتل العوامُّ وغيرهم من التَّتَار جماعة كثيرة ظاهر دمشق، وألقى الله ـ تعالى ـ عليهم الذِّلَّة"[2]، وبدأت مطاردة بقايا التَّتَار المُنهزمين من عين جالُوت، والمُنسحبين من الحاميات، "ولحقهم الطلب من المُسلمين بأرض حمص، وغيرها، فسيبوا ما كان معهم من أسرى المُسلمين، وتبعَّجت خُيُولهم، فتخفَّفوا ممَّا معهم، حتَّى إنهم رموا أولادهم، وضربوا رقاب مَنْ عجزوا عن حمله من نسائهم"[3]، وهذا ما يجب مُقارنته بما حَدَثَ عند دُخُول التَّتَار الشَّام؛ حيثُ كان الرجل منهم يقتل عشرات المُسلمين، دون أن يرفعوا أيديهم للدفاع عن أنفسهم، وعندما كانت المرأة منهم تقتل عدَّة من الرجال بكُلِّ سُهُولة ودُون مُقاومة منهم، وعندما قام ألف فارس من التَّتَار بتدويخ الجزيرة، التي تضمُّ كُلُّ مدينة من مُدُنها آلاف الفُرسان، لنستنتج من هذه المُقارنة أن انتصارات التَّتَار السابقة اعتمدت ـ بالدرجة الأُولى ـ على عامل الذُّعر والخوف، الذين تقصَّدوا أن يسبقهم، ويقاتل قبلهم أهل الشَّام، وبالفعل؛ كان له أكبر الأثر في انتصاراتهم تلك.

ويبدو أن فُلُول التَّتَار الناجية من عين جالُوت خافوا أن يُدركهم الطلب وهُم في طريق انسحابهم المُتوقَّع من دمشق عبر حمص وحماة فحلب، لذلك انحرفوا من حمص، "وعرجوا نحو طريق الساحل"[4]، وما كان للتَّتَار أن يسلكوا هذا الطريق بخبراتهم الشخصية، إنما نُرجِّح أن مَنْ قادهم إليه، وكان دليلهم فيه هُو ملك الأرمن هيثوم، الذي شارك بقُوَّة أرمنيَّة تتألَّف من خمسمائة رجل مع قُوَّات كتبغا في عين جالُوت[5]، ولم تُشر المصادر الإسلامية إلى أَسْره، أو قتله، لذلك؛ نعتقد

---

1 - ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، 207.
2 - تُحفة ذوي الألباب، الصَّفدي، 2/ 162.
3 - ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 413.
4 - ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 413.
5 - تاريخ سمباط الأرمني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36/ 332.

أنه تمكَّن من الفرار، فهُو القادر على سُلُوك طريق الساحل، والالتجاء ـ عبره ـ إلى إمارة أنطاكية، ومن ثمَّ؛ إلى بلاده.

عندما دخل المُظفَّر قُطز إلى دمشق، لم يُهمل شأن المتعاملين مع التَّتار وأعوانهم، "فأمر بشنق جماعة من المُنتسبين إلى التَّتَر، فشُنقوا، وكان من جُملتهم حُسين الكُردي طبردار النَّاصر، وهُو الذي أوقعه في أيدي التَّتَر"[1]، وقبض المُظفَّر على العزيز فخر الدِّين عُثمان بن الملك المُغيث فتح الدِّين عُمر صاحب الكَرَك، وسجنه في دمشق، لأن والده كان قد أرسله إلى كتبغا بعد دُخُوله دمشق؛ ليُبرهن على حُسن نواياه تجاه التَّتار، وبقي عُثمان في سجن دمشق، حتَّى تسلطن الظَّاهر بيبرس، فأطلقه[2]. وكذلك فعل المنصُور مُحمَّد، "فلمَّا استقرَّ بحماة، قبض على جماعة كانوا مع التَّتر، واعتقلهم"[3].

لكنَّ العقوبات بالقتل والحبس التي طالت كُلَّ مَنْ آذى المُسلمين، ودلَّ التَّتار على عوراتهم، لم تطل المُتعاملين مع التَّتار، أو الذين تولّوا لهم بعض الأعمال، إنما أصبحوا معزولين عن الناس، مُتَّهمين يُرتاب بهم عند كُلِّ نازلة، ففي عام 659هـ عندما هاجم بيدرا شمال الشمال، وتقدَّم نحو حمص، خاف الناس في دمشق من عودة التَّتار إليها، فقبضوا على "كُلِّ مَنْ كان بينه وبين التَّتار تعلُّق، وأخرجوهم إلى مصر كرهاً"[4]، "وقُيِّد جماعة منهم"[5].

الأيُّوبيَّة في عين جالُوت وما بعدها:

يرى سعيد عاشور أن معركة عين جالُوت "كانت إيذاناً بغُرُوب شمس الدولة الأيُّوبيَّة، وارتفاع دولة المماليك"[6]، بينما نُلاحظ أن معركة عين جالُوت لم يكن لها كبير علاقة بإنهاء سَلطنة الأيُّوبيين في الشَّام، أو إماراتهم فيها، وليست هي التي أنهت الصراع بين الأيُّوبيين في الشَّام والمماليك في مصر، ففي الحقيقة؛ أن هُجُوم التَّتار على الشَّام واحتلالهم لها الذي سبق عين جالُوت بحوالي العام هُو مَنْ أنهى ـ فعليّاً ـ سَلطنة الأيُّوبيين، وقضى على إماراتهم في الشَّام، وكان ذلك قد تمَّ فعلاً بغَضِّ

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 205، وزُبدة الفكرة، الدوادار، 52.

2 - زُبدة الفكرة، الدوادار، 69.

3 - المُختصر، أبو الفداء 3/ 206.

4 - ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 20/ 448 ـ منهم : ابن عنتر، وهُو شريف الدِّين مُحمَّد بن أحمد بن عنتر، كان مُحتسباً بدمشق في أيَّام التَّتار، وتُوفِّي بمصر عام 661 هـ بعدما أُخرج إليها مُكرهاً.

5 - ذيل الرَّوضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 20/ 434.

6 - العصر المماليكي في مصر والشَّام، سعيد عاشور، 37.

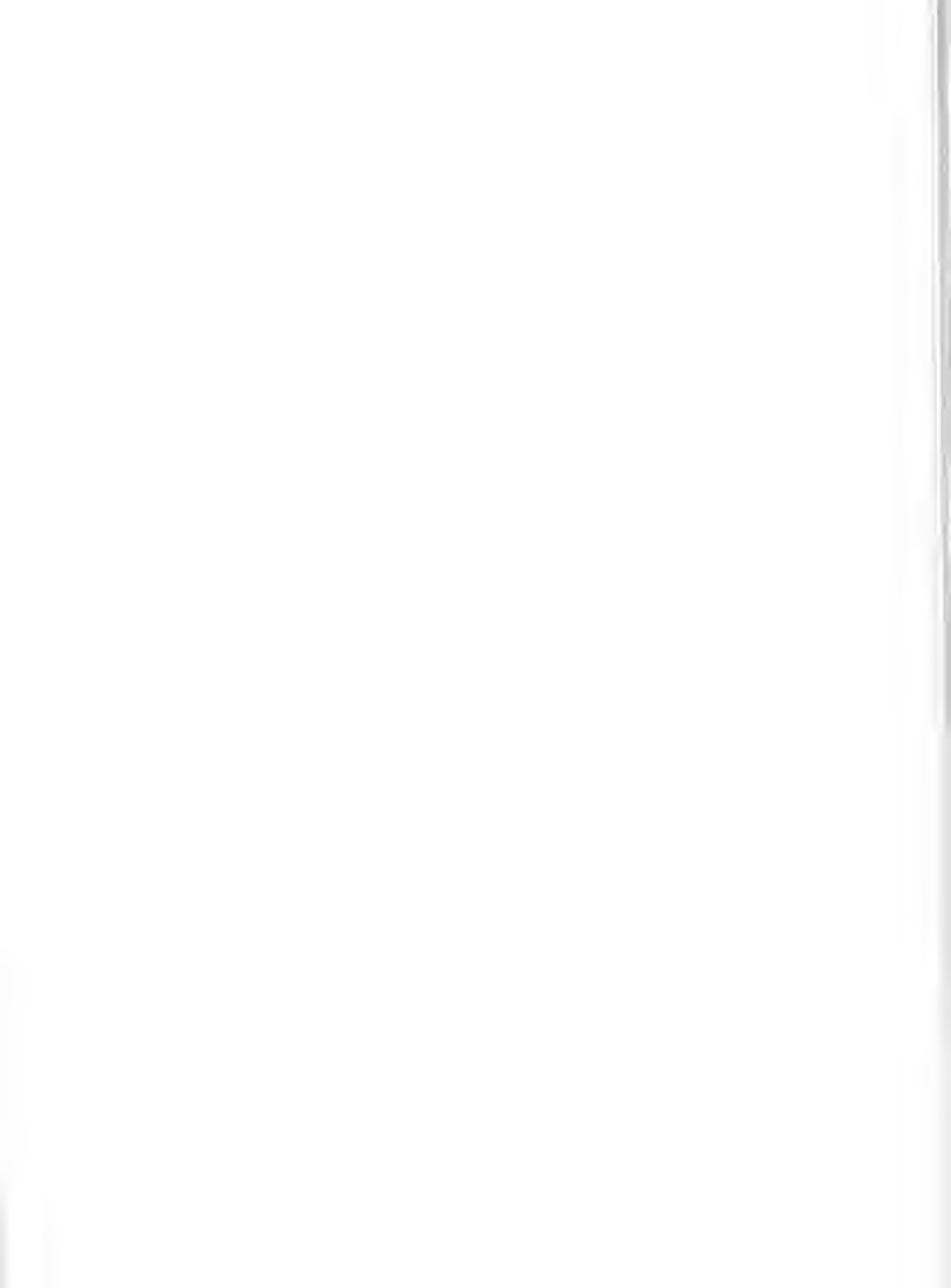
النظر عن معركة عين جالُوت، أو عن نتيجتها، لكننا نستطيع القول إن معركة عين جالُوت هي التي سهَّلت على دولة المماليك ضمَّ الشَّام إلى سَلطنتها في مصر، بعد انتصارهم على التَّتار، الذين كانوا قد احتلُّوا الشَّام، وأزالوا حُكْم الممالك الأيُّوبيَّة فيه، وإن الأُمراء أو المُلُوك الأيُّوبيين، الذين تركهم التَّتار لم يعودوا مُلُوكاً حقيقيين، بل نُوَّاباً للتَّتار، يُشاركهم حتَّى سُلطة النيابة نُوَّاب من التَّتار، وشحنة عسكرية تَتَاريَّة، وهُو الأمر نفسه الذي سيقوم به سلاطين المماليك، فالأُمراء الأيُّوبيُّون الذين تُركوا في إمارتهم سيكونون نُوَّاباً للسُّلطان المملوكي.

مع أن هؤلاء النُّوَّاب كانوا شُركاء حقيقيين مع المماليك في صُنع نصر عين جالُوت؛ على التَّتار الذي نتج عنه إعادة ضمِّ الشَّام إلى مصر، فالمنصُور مُحمَّد صاحب حماة كان قد دخل مصر، ومعه ـ بالإضافة إلى عساكره ـ عساكر السُّلطان النَّاصر وكُلّ عساكر الشَّام، وقد قاتلوا جميعاً في عين جالُوت، إضافة إلى دور الأشرف مُوسى صاحب حمص، الذي نسَّق مع المُظفَّر قُطز بواسطة مملوكه أزبك، وساعد على زَعْزَعَة صُفُوف التَّتار من خلال انسحابه من جانبهم، وانضمامه إلى المُظفَّر أثناء المعركة، كما يجب أن لا ننسى مُشاركة كلّ جفال الشَّام، الذين اتَّجهوا إلى مصر في المعركة ضدَّ التَّتار، ومع الأسف؛ نجد أن كثيراً من الباحثين قد تغاضوا عن دور الشّوام في عين جالُوت.

يُعلِّل رشيد الدِّين كاتب سيرة هُولاكُو هزيمة التَّتار في عين جالُوت بأنها كانت "بسبب الكمائن التي نُصِبَتْ للتَّتار وهُم يتعقَّبون جيش قُطز بعد هزيمته"[1]، ونُلاحظ أنه تبرير واه، ولا يحتاج لمناقشة، كذلك وَهمَ رشيد الدِّين عندما قال: "إن أكثر جُيُوش الشَّام ومصر من بقايا التركمان والمنهزمين من جيش جلال الدِّين خوارزمشاه . . وفي مُقدِّمة أُمرائهم بركت خان"[2]، علماً أن بقايا الخَوَارزميَّة قد تشتَّتوا، وأن بركة خان قد قُتل قبل ذلك بزمن طويل[3]. ويُعلِّل كلُود كاهن سبب نصر عين جالُوت لكون المماليك أتراكاً، "ممَّا جعلهم أقلَّ ذُعراً من العرب والإيرانيين"[4]، ولا نعتقد بأن السبب العُنصُري له هذا الدور في الصُّمُود، إنَّما هي مجموعة ظُرُوف وأسباب عديدة تهيَّأت لتحقيق النصر.

---

1 - جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 314.
2 - جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 310.
3 - راجعْ مبحث الفرْقة الخَوَارزميَّة في هذا الكتاب.
4 - الشرق والغرب، كلُود كاهن، ترجمة: أحمد الشيخ، 256.



الفصل الرَّابع

علاقات خاصَّة بين بعض المُلوك الأيُّوبيَّة والتَّتَار

المبحث الأوَّل:

انضمام بعض الملُوك الأيُّوبيَّة إلى التَّتَار

انقسمت المُلوك الأيُّوبيَّة بعد دُخُول التَّتَار إلى بلاد الشَّام، فقسم منهم بقي مع السُّلطان النَّاصر في حَيْرته وتردُّده، حتَّى قبض عليهم التَّتَار، وأرسلهم كتبغا إلى هُولاكُو، الذي قتلهم بعد كسرة عَيْن جالُوت. وقسم آخر دخل مع مُعظم عساكر الشَّام إلى مصر، وعلى رأسهم المنصُور مُحمَّد صاحب حماة، أمَّا القسم الآخر؛ فقد حالف التَّتَار، واتَّفق معهم، وصار في جملتهم.

الملك السَّعيد:

عندما وزَّع الملك العادل بن أيُّوب أولاده على ممالك مصر والشَّام وضع ابنه العزيز عُثمان[1] في ولاية بانياس[2] التي تقع جنوب دمشق على حُدُود مناطق السيطرة الفرنجيَّة، وكان أهمّ مواقعها العسكريَّة حصن تبنين[3]. وأثناء ولاية العزيز عُثمان بنى قلعة بانياس، التي عُرفَتْ باسم الصبيبة. تُوفِّي عُثمان عام 630 هـ1232م، فخلفه أخوه السَّعيد حسن[4]، وفي عام 644 هـ - 1246م وهب

---

1 - وهُو أخٌ شقيق للملك المُعظَّم (النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 280)، - ترجمته في: شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 320، وشذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 136، والدارس، النعيمي، 1/ 549، ومرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 478، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 281، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 137، والقلائد الجوهرية، ابن طولون، 131، - والسَّعيد هُو: ابن العزيز بن العادل بن أيُّوب، بينما النَّاصر يُوسُف هُو ابن العزيز بن الظَّاهر ابن السُّلطان صلاح الدِّين بن أيُّوب، علماً أن العيني يعود ليقول: " كان بالصبية السَّعيد بن الملك العزيز بن العادل". (عقد الجُمان، العيني، 1/ 235).

2 - بانياس: بلدة على طرف سهل الحولة في منطقة الجولان على مُثلَّث الحُدُود السُّوريَّة اللُّبنانيَّة الفلسطينية، شمال مدينة القنيطرة 25 كم، كانت موقعاً مُتقدِّماً لدمشق إبَّان الحُرُوب مع الفرنجة.(المُعجم الجَغرافي للقطر السوري، مادَّة: بانياس).

3 - تبنين: بلدة في جبال بني عامر، مُطلَّة على بانياس، بين دمشق وصور. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: تبنين).

4 - ترجمته في: شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 360، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 207، والسُّلوك، المقريزي، 1/ 431، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7/ 92، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 225، - ترويح القُلُوب، الزبيدي، 71 - وقد وهم البدر العيني عندما قال: "عبر هلاون من البيرة، وأخذها، ووجد بها السَّعيد بن العزيز أخا الملك النَّاصر يُوسُف مُعتقلاً". (عقد الجُمان، العيني، 1/ 229).

السَّعيد بانياس وقلعة الصبيبة إلى الملك الصَّالح أيُّوب، "وصـار في خدمتـه"، وعـاش في مـصر[1].
وهُناك رواية أُخرى تقول إن الملك السَّعيد لم يُسلِّم بانيـاس وقلعـة الـصبيبة إلى الـصَّالح أيُّـوب، بـل "أخذتا منه"[2]، وليس هذا بالاختلاف المُهمّ، فالاختلاف الأكبر بين روايات المُؤرِّخين كـان حـول مكان وُجُوده عند دُخُول التَّتَار إلى الشَّام، وحول كيفية استعادته بانياس والـصبيبة، المجموعـة الأُولى من الروايات تُؤكِّد تسليم السَّعيد بلاده إلى الصَّالح أيُّوب، وتقول إن السَّعيد رحل مـن مـصر عقب وفاة الصَّالح أيُّوب، ومرَّ على غزَّة، فأخذ ما فيها من مال، ومضى إلى الصبيبة، فتسلَّمها عـام 648 هـ 1250م[3]، وأنَّه عندما وصل التَّتَار إلى الشَّام كان موجُوداً في الصبيبة عام 658 هـ 1260م، فسلَّمها إليهم مع بانياس، "وصار معهم، وأعلن بالفسق والفجور وسفك الدماء"[4].

أمَّا المجموعة الثَّانية من روايات المُؤرِّخين حول الملك السَّعيد؛ فتقـول: إنَّـه كـان مسجوناً في الشَّام، وهي تُؤكِّد - بذلك - رواية أخذ بلاده منه بالقُوَّة من قبَل الصَّالح أيُّوب، ولكن هذه الروايـات - أيضاً - تعود لتنقسم حول مكان سجن السَّعيد في الشَّام عند قُدُوم التَّتَار إليها، فمن قائـل بأنَّـه كـان "محبوساً في قلاع الشَّام"[5]، دُون تحديد لمكان سجنه، وإنَّه انضم إلى التَّتَار "وصار معهم، ويدلُّ على عورات المُسلمين"، وأنَّه قدم مع كتبغا إلى دمشق، "وحـضر فـتح قلعتهـا، وأعـادوه إلى بـلاده"[6].
وهُناك مَنْ يقول: إن السَّعيد "اعتُقل بحصن عزتا"، ولكنَّه كان مُطلق السراح عند دُخُـول التَّتَـار إلى الشَّام. وبعد دُخُول النَّاصر يُوسُف دمشق ذهب السَّعيد إلى الصبيبة، وكـان بهـا خـادم لـه، ففـتح لـه الخادم بابها، وتسلَّمها[7].

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 361، والمُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 204، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 356، وعقد الجُمان، العيني، 1/ 32.
2 - عقد الجُمان، العيني، 1/ 235.
3 - عقد الجُمان، العيني، 1/ 32، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 182، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 361.
4 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 361، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 204.
5 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 8/ 51.
6 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 8/ 15.
7 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 224.

والمجموعة الأكبر من المُؤرِّخين تقول إنَّه كان محبوساً في قلعة البيرة، وإن هُولاكُو عندما فتح البيرة وجده معتقلاً في سجنها، فأطلقه، "وكتب له فرماناً ببانياس، وقلعتها"[1]. ومن الصُّعُوبة بمكان أن نُرجِّح ـ الآن ـ إحدى هذه الروايات، فكُلٌّ من أصحابها قد كَتَبَ ما وصل إليه سماعاً، أو ما قرأه في مصادره، ولكنْ؛ رُبَّما كان بعضها قد أُشيع عن السَّعيد، وأُلصق به لتبرير قتله من قِبَل المُظفَّر قطز بعد عَيْن جالُوت، فقالوا: "إنَّه لبس سراقوج[2] التَّتار، فناصحهم"[3]، وإنَّه قاتل معهم على قلعة دمشق[4]، وإنَّه قد "شهد عليه جماعة من الناس أنَّه كان يُقاتل مع التَّتار أشدّ قتال"[5].

أمَّا عن السبب الأكثر احتمالاً لقتله؛ فلعلَّه حنق المُظفَّر قطز عليه، لأنَّه ـ قبل عَيْن جالُوت ـ أرسل إليه المُظفَّر يستميله "فأساء الرَّدَّ على رسوله، وأوقع به"[6].

الصَّالح إسماعيل:

لم يكن الملك الأشرف مُوسى هُو الوحيد الذي كان له صلة بالتَّتار من الأُسرة الأَسَديَّة، فقد كان لعمِّه إسماعيل بن المُجاهد شيركوه صلة ـ أيضاً ـ بالتَّتار عند وُجُودهم في الشَّام، فعندما تملَّك المنصُور إبراهيم حمص بعد والده الملك المُجاهد لم يبقَ لإخوته شيء، فتركوا حمص، ومنهم الصَّالح إسماعيل، الذي أراد أن يُعبِّر عن معارضته لأخيه، فانضمَّ إلى أعدائه الخَوَارزميَّة، ولكنَّه ـ بعد هزيمتهم ـ أقام في بلاط الملك النَّاصر يُوسُف الثَّاني، وكان للصَّالح اختصاص كبير بالملك النَّاصر[7]. ومع ما "كان عنده من حزم وعزم وسياسة . . فقد كان من رأيه مُداراة التَّتَر، وعدم مشاققتهم"[8].

ولذلك كان يُقال: "إن الزَّين الحافظي قد أحضر له فرماناً من هُولاكُو، وإن للملك الصَّالح باطناً مع التَّتَر"[9].

---

1 - أخبار الأيُّوبيِّيْن، ابن العميد، 49، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة ، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار،20/ 411، وعقد الجُمان، العيني، 1/ 229+ 277، وزبدة الفكرة، الدَّوادَار، 48.

2 - سراقوج: لباس الرأس عند التَّتار.

3 - عقد الجُمان، العيني، 1/ 277.

4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة ، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 11 4.

5 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 8/ 51.

6 - ابن خلدون، العبر، 5/ 379، ـ يقول عصام شبارو: إن قطز "قتل السَّعيد صاحب بانياس لأنَّه ناصبه العداء" (السلاطين ـ مماليك، 75).

7 - المنهل الصافي، ابن تغري بردي، 2 / 394.

8 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 2/ 126.

9 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 2/ 126.

فعندما هاجم التَّتَار بلادَ الجزيرة عقد النَّاصر يُوسُف مجلساً لمناقشة الوضع العسكري، وكان الرأي السَّائد هُو الجهاد ومُقاتلة التَّتَار، "خلا الملك الصَّالح نُور الدِّين علي وابن أخيه الملك الأشرف مُوسى"[1]، وكان رأي الصَّالح إسماعيل يُعبِّر عن رأي جماعة كانت قليلة أوَّل الأمر، لكنَّها أصبحت لا يُستهان بها بعد سيطرة التَّتَار على الشَّام. ولابُدَّ أن هذه الجماعة قد سمعت عن أعمال التَّتَار في العراق والجزيرة، وعن عدم التزامهم بعُهُود، ولا بمواثيق، فهل كانوا يأملون منهم تصرُّفاً مغايراً في الشَّام؟ بل هُو الضلال الذي سيُكلِّفهم أرواحهم على يد التَّتَار.

وكان الصَّالح إسماعيل مع النَّاصر يُوسُف على طريق مصر بعد سُقُوط حلب[2]، وتأخَّر معه عندما تخوَّف من دُخُول مصر[3]. فعثرت عليهم طلائع التَّتَار، وأخذوهم إلى كتبغا، الذي أمر بتسييرهم إلى هُولاكُو، وأقاموا عند التَّتَار، حتَّى بلغت هُولاكُو أخبار هزيمة عَيْن جالُوت، فقتلهم[4].

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 485، ـ وقد وهم ابن شدَّاد، فذكر "الصَّالح نُور الدِّين علي". بينما هُو الصَّالح نُور الدِّين إسماعيل.

2 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 233.

3 - عقد الجُمان، العيني، 2/ 232.

4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 211، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 420، وعقد الجُمان، العيني، 1/ 284، والعبر، ابن خلدون، 5/ 367.

المبحث الثّاني:

الأشرف مُوسى نائب التتّار في الشّام

في عام 658 هـ1260م، عندما اكتسح التتّار الشّام كانت سُمعتهم السَّيِّئة قد سبقتهم إليها، فوقعت الشّام بأسرها تحت ما سُمِّي "الجفلة"؛ أيْ هرب الناس خوفاً. وكان الفرار أمام تقدُّم التتّار عامّاً، حتّى إنّه شمل مُلُوك الجزيرة والشّام وأُمراءهما، فالرُّعب والهلع كانا مُسيطرَيْن على الناس، ومع أن الخيال قد أضاف الكثير على الأحاديث المتناقلة عن فظائع التتّار، فإن الحقيقة فيها تفوق الخيال، وهذا ما أضاف قُوّة إلى قُوّة التتّار، وأسهم ـ بشكل فعّال ـ في تحقيق انتصاراتهم.

وكان من أوّل الهاربين في الجفلة سُلطان الشّام النّاصر يُوسُف، فقد سحب جُنده، ورافقه كُلّ أُمراء البيت الأيُّوبي، وتوجّهوا نحو مصر، تاركين أهل الشّام يُواجهون جلاّديهم عُزّلاً. ولم يدخل النّاصر مصرَ خوفاً من المماليك، وأقام في سيناء ومعه الصّالح إسماعيل بن المُجاهد شيركوه[1]، وفارقهم "الملك المنصُور مُحمّد صاحب حماة إلى مصر بحريمة وأولاده، وجفل أهل حمص وحماة"[2]. ولم يبقَ في الشّام من مُلُوكه وأُمرائه إلاّ الملك الأشرف مُوسى، الذي قابل هُولاكُو وهُو يُحاصر حلب عام 658 هـ 1260م.

الأشرف أمام هُولاكُو:

لدينا روايتان مُتناقضتان حول بداية علاقة الملك الأشرف مُوسى بالتتّار، **الأُولى**: قال بها ابن شدّاد، وأكدها اليونيني[3]، وتُفيد بأنّه ـ نتيجة لخذلان الملك النّاصر يُوسُف للملك الأشرف مُوسى ـ بدأ بالاتّصال بالتتّار، بعد أن طرقوا شمال شرق الشّام، واحتال على النّاصر حتّى لا يكشفه بأنْ استأذنه بمُراسلة صاحب المَوصل وصاحب ماردين، وأرسل رُسُلَهُ إلى التتّار. ثُمّ طلب إذناً لإرسال جواسيس لكشف أخبار التتّار ليكون على يقظة منهم، "وكُلُّ ذلك وسيلة إلى مُراسلتهم لحقد كان في صدره للملك النّاصر، بسبب أَخْذه حمص منه"[4]. وتُضيف الرواية أن الملك الأشرف أدّى دور

1 - العبر، ابن خلدون، 5/ 365.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 423.
3 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدّاد، 1/ 2/ 106، وذيل مرآة الزّمان، اليونيني، 2/ 311.
4 - ذيل مرآة الزّمان، اليونيني، 2/ 311.

العميل للتّتار، فشنَّ حرباً نفسية على الملك النّاصر، "ولم تزل كُتُبُهُ واردة على الملك النّاصر تحدث له الرهبة، وكُتُبُ التّتَر تصل إليه لتثبيط عزم النّاصر"[1].

وعندما قصد هُولاكُو حلب عام 658 هـ1260م، كان الملك الأشرف بدمشق متواطئاً معه داعياً إلى مسالمته، حتّى إنّه أرسل مِن قبَله مَنْ سَلَّم قلعة تلّ باشر إلى نُوَّاب هُولاكُو. وبالمُقابل؛ "عندما استولى هُولاكُو على بلاد الشّام أبقى على تلّ باشر للملك الأشرف"[2]. ولمّا أخذ هُولاكُو حلبَ، خرج الملك الأشرف مع الملك النّاصر يُوسُف إلى الصنمين[3]، ثُمّ فارقه منها، وتوجّه إلى تدمر، ومن هُناك؛ قصد هُولاكُو وهُو يُحاصر قلعة حلب[4].

أمّا الرواية الثّانية: فهي لصارم الدِّين أزبك[5] مملوك الملك الأشرف، الذي ذَكر أنّه قدم على هُولاكُو، فجعله نديماً له، وأنّه مهّد لطلب مولاه الملك الأشرف، حتّى قال له هُولاكُو: "يا أزبك؛ تقدر تُحضر أُستاذك الملك الأشرف؟ قُلتُ: نعم، حفظ الله القان، فأمر لي بخيل البريد".

ويُتابع أزبك: "ثُمّ سقتُ إلى غزّة، ودخلت البرّيّة، فوجدتُ المُلُوك مُشتّتين في البرّيّة عند برك زيزان .. فقُلتُ للأشرف: القان يطلبكُ، فخاف، فقُلتُ: لا بأس عليكَ، وعليّ الضمان أن تعود إلى مُلكِكَ .. ثُمّ أخذتُ الملكَ الأشرفَ، وعُدتُ به". ويذكر أزبك بأنّ الملك الأشرف مَثَلَ بين يدَيْ هُولاكُو "وهُو قائم يرعد كالقصبة، .. ولمّا نظرتْ إليه طقز خاتون ـ زوجة هُولاكُو ـ أعجبها.. ولم تزلْ الخاتون تُعنى بالملك الأشرف حتّى أعاد عليه ـ هُولاكُو ـ مُلْكَه بحمص، وأضاف إليه غيرها، وأنعم عليه إنعاماً كثيراً"[6].

---

1 - ذيل مرآة الزّمان، اليونيني، 2/ 311.

2 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدّاد، 1/ 2/ 106.

3 - الصنمَيْن: مدينة في حوران على الطريق بين دمشق ودرعا، وهي بلدة قديمة فيها آثار من العصر الرُّوماني والإسلامي. (المُعجم الجَغرافي للقطر العَرَبي السوري، مادّة: الصنمين).

4 - ذيل مرآة الزّمان، اليونيني، 2/ 211.

5 - صارم الدِّين أزبك: بدأ حياته مملوكاً عند الملك الأشرف مُوسى، وقد شغل عدّة وظائف إدارية في الشّام، وعاش مع التّتار مُدّة، تُوفّي عام 679 هـ-1280م، وكان يبلغ حوالي الخمسين من العمر . راجعْ نصّ مذكّرات المملوك أزبك في ملاحق كتاب: مملكة حمص في العصر الأيُّوبي، مُنذر الحايك، المُلحق الأوّل، 315.

6 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 8/ 56، ـ وردت في رواية أزبك عبارات عامّيّة أثبتُّها كما هي، فالمعنى واضح، والتصويب معروف.

لقد نقضت رواية الصارم أزبك الرواية السابقة تماماً، فالملك الأشرف لم يَسْعَ للقاء هُولاكُو حتَّى طلبه، وإن كُلَّ ما حصل عليه الملك الأشرف من تكريم وولايات كان بسبب إعجاب طقز خاتون[1] بالملك الأشرف، وهذا مُحتمل؛ إذا عرفنا أنَّها كانت المُفضَّلة عند هُولاكُو، وتتمتَّع بشخصية قويَّة، ولها منزلة كبيرة في الدولة[2]، إضافة إلى أن موقفها من الملك الأشرف لم يكن الوحيد، فقد كان لها موقف مشابه عند هُولاكُو من عزّ الدِّين بن غياث الدِّين كيخسرو سُلطان سلاجقة الرُّوم[3].

وإذا أردنا أن نُوفِّق بين الروايتَيْن، فبإمكاننا القول إنَّه ـ رُبَّما ـ كان طلب هُولاكُو للأشرف بالذات نتيجة لمُراسلات سابقة بينهما، ولكن الأحداث اللاحقة ستُبرهن على صحَّة رواية الصارم أزبك من خلال سلوك الملك الأشرف مُوسى، وخاصَّة؛ في عَيْن جالُوت، وما بعدها.

الملك الأشرف مُوسى نائب الشَّام للتَّتار:

بقي الملك الأشرف مُوسى مع هُولاكُو في حلب حتَّى مسير هُولاكُو نحو الشَّرْق "لحُضُور الاجتماع لانتخاب خانٍ أعظم لجميع التَّتار بدل منكوخان أخي هُولاكُو الذي تُوفِّي، فولى الملك الأشرف مُوسى الشَّام بأسره نيابة عنه، وأعاد إليه حمص مع تدمر والرحبة وغيرها"[4]، "وكتب له منشوراً بنيابة دمشق وبلاد الشَّام" [5]. وفي الحقيقة؛ لم تكن ولاية الملك الأشرف مُوسى للشام مُطلقة، فمع أنَّه حضر لدمشق ومعه من هُولاكُو "مرسوم أن يكون نائب السَّلطنة بدمشق والشَّام"، ومع امتثال كتبغا للأمر وإحضار الدواوين وكلّ ما يتعلَّق بالولاية للأشرف[6]، فإن كتبغا وبيدرا كانا ـ أيضاً ـ نائبَيْن عن هُولاكُو[7]، فما هُو وضع الملك الأشرف بينهما؟ .

---

1 - طقز خاتون: أو دوقوز خاتون، كانت زوجة والد هُولاكُو، ثُمَّ تزوَّجها بعد وفاة أبيه. وكانت وصية منكوقاآن هُولاكُو: "وشاور دوقوز خاتون في جميع القضايا والشُّؤون".(جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 220 + 237).

2 - جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت،220.

3 - جامع التواريخ ـ تاريخ هُولاكُو، رشيد الدِّين، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت، 301.

4 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 2/ 11.

5 - عقد الجُمان، العيني، 1/ 238.

6 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 425.

7 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 427.

يبدو أن هُولاكُو قد "رسم بأمر الملك الأشرف أن يكون من جُملة نُوَّابه بالشام، وأقطعه مائة فارس"[1]. وهذا هُو واقع التنظيم ذي الأساس العسكري، والذي لم يكن التَّتار يعرفون غيره حتَّى ذلك الوقت. فهُولاكُو لم يكن يحتاج إلى ملك للبلاد التي احتلَّها، أو حاكماً مُطلقاً، مهما كانت درجة ولائه، بل رغب في حاكم إداري له خبرة في شُؤُون البلاد، كما أن تعيين الملك الأشرف قائد مائة، هُو تحديد واضح لمرتبته في تسلسل المناصب الإدارية للتَّتار في الشَّام؛ حيثُ كان كتبغا نوين قائد الألف، هُو الحاكم العسكري الأعلى والقائد الفعلي في الشَّام، وتجلَّى ذلك بقيادته لقُوَّات التَّتار في عَيْن جالُوت[2]، بينما اقتصرت ولاية الملك الأشرف على الأُمُور المدنية المحلِّيَّة، وتسيير الدواوين. وهذا ما قصده ابن آيبك بقوله: "إن هُولاكُو جعل النُّوَّاب في المُدُن، وجعل رُجُوع الجميع إلى ما يأمر به الملك الأشرف"[3].

إن كلّ ذلك يقودنا للاعتقاد بأنَّ وساطة المملوك أزبك وإعجاب دوقوز خاتون بالملك الأشرف لم تكن إلاَّ أسباباً مُباشرة لاهتمام هُولاكُو بالملك الأشرف مُوسى، وتوليته النيابة، ولابُدَّ من وُجُود أسباب أُخرى بعيدة دفعت هُولاكُو إلى ذلك، منها:

1 ـ كان هُولاكُو يعرف مجد الأُسرة الأَسَديَّة التي يتحدَّر منها الملك الأشرف، وأدرك مدى الاحترام والتقدير الشَّعْبي والرَّسْمي الذي تحظى به هذه الأُسرة.

2 ـ لم يُقرِّر هُولاكُو أمرَ الملك الأشرف حتَّى قابله، فقد أراد أن يتأكَّد شخصياً ممَّا سمعه عن الملك الأشرف، ومدى تطابق ما سمعه عنه مع شخصيَّته الحقيقيَّة، واستخدم هُولاكُو فراسته في تقدير ذلك.

3 ـ مع أن فراسة هُولاكُو قد صدقت في تقديره لمواهب الملك الأشرف الشخصية، لكنَّها لم تصدق في توقُّع ولائه للتَّتار، فهُولاكُو ـ بالتَّأكيد ـ كان يعتمد في فراسته هذه على حقد الملك الأشرف على الملك النَّاصر يُوسُف، الذي طرده من مملكته، فتوقَّع منه الإخلاص لمَنْ أعاد له عزَّه، وجعله سيِّد الشَّام.

---

1 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 377.

2 - وهم أحمد العبَّادي بقوله عن الملك الأشرف مُوسى: "وجعله ـ هُولاكُو ـ قائده العامّ في الشَّام". (في تاريخ الأيُّوبيِّيْن والمماليك، 133).

3 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 8/ 47.

ونُلاحظ أن عدم إخلاص الملك الأشرف للتَّتار قد بدأ بالظهور مُباشرة بعد رحيل هُولاكُو، الذي أمره بخراب قلعة حمص، "فلم يُخرِّب منها إلاَّ شيئاً قليلاً؛ لأنَّها مدينته"[1]. وخلال نيابة الملك الأشرف في الشَّام لم يستقرّ في مدينة مُحدَّدة، فقد أقام ـ أوَّلاً ـ في حماة؛ حيثُ نجده قد خرج مع نائب حماة عن التَّتار خسروشاه لاستقبال الملك النَّاصر يُوسُف الثَّاني، الذي قبض عليه كتبغا، وسيَّره إلى هُولاكُو[2]. ثُمَّ ذهب الملك الأشرف إلى حمص، فأوهم التَّتار بأنَّه يهدم قلعتها، وسار ـ أخيراً ـ إلى دمشق، "فقُرِىء فرمانه بتسليم نظره في البلاد"، ثُمَّ شارك التَّتار فيها بتعقُّب البدو عندما استاقوا خُيُول التَّتار من المرعى، ولكنَّهم لم يُدركُوهم[3].

ويبدو أن كتبغا ـ الذي كانت قُوَّاته حول دمشق ـ لم يفهم تماماً ما قام به هُولاكُو من فصل بين السلطتَيْن الإدارية والعسكريَّة في الشَّام، واعتبر أن تولية الملك الأشرف هي انتقاصٍ لسيطرة القائد التَّتاري المعروفة في البلاد المفتوحة، لذلك كان يتحيَّن الفُرص للانتقاص من صفة الشجاعة التي يفتخر بها الملك الأشرف ساعياً لاستفزازه، ليتَّهمه بالخُرُوج عن الطاعة[4].

لكنْ؛ من جهة أُخرى، نرى كتبغا يستدعي الملك الأشرف، ويستشيره فيما يجب فعله للتّصدِّي لجُيُوش المُسلمين التي خرجت من مصر[5].

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 203، وعقد الجُمان، العيني، 1/ 240.
2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 418، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 304.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 206.
4 - الروض الزاهر، ابن عبد الظَّاهر، 66. ـ يروي ابن عبد الظَّاهر عن الأمير افتخار الدِّين والي بصرى قوله: "حضرتُ يوماً عند كتبغا وهُو في مجلس عظيم، وكان من جُملة مَنْ كان فيه المولى الملك الأشرف صاحب حمص، وقد التفتَ، وقال له: بأمر مَنْ أخذتَ حواصل شيزر، وسيَّرتها إلى ولدي هلاون؟. قال: بأمر ملك البسيطة ـ يعني هلاون ـ. فقال له: ما فعلتَهُ إلاَّ من عندكَ جسارة، وإلاَّ ابني هلاون ما يُسيِّرني قطُّ إلى جهة، ويكتب لغيري في مصلحة تتعلَّق بالبلاد، ولا به، ولا يتحدَّث في أمر من الأُمُور إلاَّ من جهتي، ولا يفعل أمراً إلاَّ ويشاورني فيه، وإنما هذه جرأة منكَ، ودعوى شجاعة. ولكنْ؛ قد سمعنا أن فلان ـ السُّلطان ـ قد خرج من مصر ومعه جماعة، فإنْ كُنتَ شُجاعاً، كما تزعم في نفسكَ، فاخرجْ، والتقيه".
5 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7/ 78.

المبحث الثَّالث:

انقلاب الأشرف مُوسى على التَّتَار

1 ـ دور الملك الأشرف في عَيْن جالُوت:

اجتمعت العساكر الإسلاميَّة في مصر، وكان الصراع فيها بين المماليك البَحْريَّة قد حُسم لصالح قُطُز، فتسلطن، وتلقَّب بالملك المُظفَّر سيف الدِّين، ثُمَّ أعلن الجهاد، وقاد جُيُوشه، وانطلق نحو الشَّام، ومعه الملك المنصُور صاحب حماة[1]، وعندما عرف قطز أنْ لابديل أمامه من التَّصدِّي للتَّتَار، كان أوَّل ما فعله الاتِّصال بالملك الأشرف مُوسى، فكتب إليه يلومه على انحيازه للتَّتَار، وتفضيلهم على المُسلمين، وطلب منه الخُرُوج عن طاعتهم، وعدم اشتراكه مع التَّتَار في المعركة المُتوقَّعة، ووعده بحال مُوافقته "أن يُبقى عليه ما بيده من البلاد، فأجابه إلى ذلك"[2].

لقد كان نداء المُظفَّر قطز للأشرف نقطة انعطاف مُهمَّة بالنِّسبَة للملك الأشرف؛ حيثُ أعاد النظر في مُجريات الأُمُور من حوله، وكأن نداء المُظفَّر جعله يستفيق من هول صدمة التَّتَار، فأخذ يُفكِّر بمصلحة البلاد والأُمَّة، فمُقاومة مصر للتَّتَار هي الأمل الوحيد، وعليه أن يقف معها. ولم يكتف الملك الأشرف بما طلب المُظفَّر منه بالوُقُوف على الحياد، بل أرسل إلى المُظفَّر "فوعده بالانهزام يوم اللقاء"[3]، وعلى هذا الأساس؛ تمَّت الترتيبات بين الصارم أزبك مملوك الملك الأشرف وبين أُمراء مصر. ولمَّا أراد كتبغا الخُرُوج للقاء المُظفَّر قطز طلب من الملك الأشرف المُشاركة بفرقته في جيش التَّتَار، فاعتذر الملك الأشرف عن الخُرُوج بنفسه، مُحتجَّاً بمرضه، وأرسل مملوكه صارم الدِّين أزبك مُقدَّماً على عسكره[4]. ولا ندري ـ بالتحديد ـ ما هي دوافع الملك الأشرف لعدم المُشاركة في المعركة، وقيادة عملية الانسحاب منها بنفسه، فرُبَّما لم يرغب الملك الأشرف بالانتظام ضمن جيش التَّتَار والقتال بإمرة كتبغا، حتَّى لو كان الأمر مرحلياً، فالانسحاب لن يتمَّ قبل اشتداد القتال، وإلاَّ فقد فاعليَّته، أو أنَّه خاف انكشاف تواطئه مع المُظفَّر، فانتقام التَّتَار منه عندها سيكون قاسياً.

---

1 - العبر، ابن خلدون، 5/ 366.

2 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 2/ 312.

3 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 2/ 312.

4 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 2/ 312.

اصطفَّت قُوَّات التَّتَار في عَيْن جالُوت، وكان الصارم أزبك يقود قُوَّات مولاه الملك الأشرف الموجُودة في ميسرة التَّتَار. ووصف الصارم تنفيذه لتعليمات الملك الأشرف مُوسى في الانسحاب وتنسيق ذلك مع جيش المُسلمين، قال الصارم: "وأنفذتُ غلامي صفة أنَّه جاسوس من عندنا، وأمرتُهُ في الباطن أن يجتمع بالملك المُظفَّر من جهتي، ويُهوِّن عليه أمر التَّتَار، ويُعرِّفه أنْ يُقوِّي الميمنة الإسلاميَّة، وأن يكون المُلتقى عند طلوع الشمس، وقُلتُ: عَرِّفْهُم طلبي[1] ورنكي[2]، وأنَّهم ساعة يحملوا عليّ، انهزمتُ، فإن التَّتَار يتبعوني في الهزيمة، فكان ذلك بمعونة الله عزَّ وجلَّ"[3].

وأكَّدت الأحداث والمصادر التاريخية رواية أزبك، فقد اندفعت الميمنة التَّتَارية، ومزَّقت ميسرة المُسلمين، وشتَّتها لولا استبسال قطز[4]، وانسحاب أزبك مع قُوَّاته في الوقت المُناسب. إن هذا الموقف للأشرف مُوسى ولمملوكه وقائد فرقته في عَيْن جالُوت، لم ينسه المُظفَّر قطز، ولا الظَّاهر بيبرس، عندما أصبحا سُلطانَيْ الشَّام.

ولمَّا وصلت أخبار هزيمة التَّتَار في عَيْن جالُوت إلى الملك الأشرف في دمشق، تظاهر بالهرب مع نُوَّاب التَّتَار، حتَّى لا ينكشف أمره، "فلمَّا وصلوا إلى قارة، فارقهم، وتوجَّه إلى تدمر"[5]، وانتظر حتَّى استقرَّ أمر المُظفَّر قطز في دمشق، فأرسل إليه مملوكَيْه صارم الدِّين أزبك وحُسام الدِّين لُؤلُؤ، فطمأنهما قطز، وحلف لهما، وطلب الملك الأشرف إليه في دمشق، ولمَّا حضر ركب قطز بنفسه للقائه، وأحسن إليه، وبرَّ بوُعُوده، فأعطاه حمص وتوابعها، وبعدها؛ "توجَّه الملك الأشرف إلى حمص، وطلع القلعة"[6].

---

1 - الطلب: وجمعه أطلاب، "بلغة الغز هو الأمير المُقدَّم، الذي له علم معقود وبوق مضروب، وعدَّة من الجُند ما بين مائتَيْ فارس، إلى مائة فارس، إلى سبعين فارس" (اتِّعاظ الحُنفا، المقريزي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، د.سُهيل زَكَّار، 25/ 329 ـ 11804)، ثُمَّ صار يُطلَق على فرقة عسكريَّة.

2 - الرنك: لفظ فارسي معناه: اللون. (المُعجم الذهبي، مُحمَّد ألتونجي، مادَّة: رنك)، وقد استُعمل بمعنى الشعار الذي يتَّخذه الأمير لنفسه. ـ حول الطلب والرنك راجعْ: صُبح الأعشى، القلقشندي، 4/ 61، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 673.

3 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 8/ 65.

4 - في التاريخ الأيُّوبي، أحمد العبَّادي، 143.

5 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 2/ 312.

6 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 2/ 312.

ولكنْ؛ يجب أن نُشير إلى أن مُعظم المصادر لم تذكر اتِّفاق الملك الأشرف مع قطز، وكلّ ما ذكروه أن الملك الأشرف قد طلب الأمان من المُظفَّر بعد هزيمة التَّتار، فأمَّنه، وحضر الملك الأشرف إليه في دمشق، فأكرمه، وأقرَّه على ما كان له من البلاد[1].

ولكن الرواية بهذا الشكل لا تستقيم مع منطق الأحداث، فلماذا غاية الإكرام من قطز للأشرف، وردّ كلّ بلاده إليه، بينما ـ في المُقابل ـ قام المُظفَّر بضرب رقبة الملك السَّعيد[2]، الذي انضمَّ إلى التَّتار، وقاتل مع كتبغا في عَيْن جالُوت، ولمَّا حاقت الهزيمة "جاء إلى الملك المُظفَّر، فلم يقبله، وقال له: لولا الكسرة ما جئتَ إليَّ، وأمر به، فقُتل"[3].

إن موقف قطز هذا تأكيد مُهمٌّ لرواية الصارم أزبك، ولحقيقة موقف الملك الأشرف من التَّتار، فلولا تأكُّد قطز الكامل من موقفه الإيجابي وتعاونه معه ضدَّ التَّتار لجَعَلَ مصيره كمصير السَّعيد. ولو لم يكن قطز مدركاً لأهمِّيَّة مُساعدة الملك الأشرف له في تحقيق نصر عَيْن جالُوت لم يكن ليردّ إليه أملاكه السابقة كلّها غير منقوصة، ولمَّا جعله مُساوياً للمنصُور صاحب حماة[4]، الذي قاتل مع جيشه في عَيْن جالُوت، بل نجد أن تقدير المُظفَّر للأشرف كان أكبر، فقد أخذ سلمية من المنصُور، وأعطاها لعيسى بن مهنَّا أمير بني ربيعة[5]، ومن ثَمَّ؛ كان له التقدير نفسه عند الظَّاهر بيبرس، الذي أضاف تلّ باشر على مُمتلكات الملك الأشرف مُوسى[6].

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 433، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 205، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 234، وذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 66، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7/ 82.

2 - الملك السَّعيد: حسن بن العزيز عُثمان بن العادل، كان صاحب الصبيبة وبانياس، وجده التَّتار مسجوناً، فأطلقوه.

3 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 366.

4 - وهم عصام شبارو عندما قال: " تمكَّن التَّتار من القضاء على سيطرة الأُمراء الأيُّوبيِّيْن في بلاد الشَّام، ولم يبقَ من الوُجود الأيُّوبي سوى الملك الأشرف مُوسى". (السلاطين المماليك، 62)، فالملك الأشرف مُوسى ليس من الأُسرة الأيُّوبيَّة. كما بقي المنصُور مُحمَّد التقوي الأيُّوبي حاكماً في حماة.

5 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 234.

6 - الروض الزاهر، ابن عبد الظَّاهر، 117.

2. دور الأشرف في معركة حمص الأولى[1]:

بعد مقتل كتبغا؛ انفرد بيدرا بقيادة جُيُوش التَّتار، وكان يتحرَّق شوقاً للانتقام، فـما إنْ سـمع بمقتل السُّلطان المُظفَّر قطز، وثورة سنجر الحلبي والي دمشق على السُّلطان الجديد بيبرس، حتَّى رأى أن الفُرصة مُواتية لاكتساح الشَّام من جديد. ففي عام 659 هـ 1261م، جمع بيدرا جند التَّتار الباقين في الجزيرة، وفلول الهاربين من عَيْن جالُوت[2]، وشكَّل فرقة قوامها ستَّة آلاف فارس[3]، وهاجموا حلب، فأخلتها قُوَّات المماليك، وكانوا من العزيزية والنَّاصريَّة، وهربوا مع مُقدَّمهم حُسام الدِّين الجوكندار، وما كادوا يصلون حماة حتَّى كان التَّتار في أعقابهم، فخرج منها الملك المنصُور صاحبها بجيشه، وساروا جميعاً إلى حمص[4]. فتلقَّاهم الملك الأشرف مُوسى، واجتمع بهم، فوجد أن الجوكندار يُريد مُتابعة هربه، فقد "عزم عسكر حلب على التّوجُّه إلى دمشق، وقارب التَّتَر حمص، فلام الملك الأشرف الجوكندار على هذا الرأي، وقال له: ما يُقال عنَّا في البلاد، وبأيِّ وجه نلقى صاحب مصر، وأخذ في تثنيته"[5].

ولموقف الملك الأشرف هذا دلالات أهمّها: أنَّه كسر حاجز الخوف من التَّتار، ورُبَّما لتعامله معهم دور كبير في هذا. وأنَّه كان يملك من الجرأة والشجاعة ما يكفي لتشجيع قُوَّات حلب وحماة للثبات والقتال معه ضدَّ التَّتار. في هذه الأثناء؛ كان التَّتار قد قاربوا حمص، "فخرج إليهم الملك الأشرف مُوسى بن شيركوه صاحب حمص، وكان معه الملك المنصُور بجيشه وحامية حلب المملوكية بقيادة الجوكندار. وكان الملك الأشرف قد طلب الأمير زامل بن علي، فجاء ومعه عدد من فُرسان بني ربيعة[6]، فبلغ جمع الملك الأشرف1400 فارس[7]. وكان التَّتار قد تجاوزوا الرستن، والتقوا

---

1 - الأُولى: تميُّزاً لها من معركة حمص الثَّانية، والتي كانت ضدَّ التَّتار أيضاً، وقادها السُّلطان المنصُور قلاوون عام 680 هـ 1281م، وقد جرت في المكان نفسه شمال قبر خالد بن الوليد؛ حيثُ قُتل فيها قائد التَّتار منكوتمر بن هُولاكُو، الذي كان يقود جُيُوش أخيه أبغا. (العبر، الذهبي، 5/ 326).

2 - العبر، الذهبي، 5/ 251.

3 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 442، وذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 434، و النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7/ 106.

4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 209.

5 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 2/ 115.

6 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 442.

7 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 434، والسُّلُوك، المقريزي، 2/ 442، والعبر، الذهبي، 5/ 251.

بفرقة من الفرنج أرسلتها الاسبتاريّة لتُقاتل معهم[1]، وتـابعوا تقـدُّمهم حتّى قُـرب أسـوار حمـص؛ حيثُ كان الملك الأشرف قد عَسْكَرَ بقُوَّاته شمال قبر خالد بن الوليد[2]. وفي يوم الجمعة الخامس مـن مُحرَّم 659 هـ ـ 1260م، التقى الجمعان. كان بيدرا قد وضع خُطَّته العـسكريَّة، ورتَّـب جيـشه مُتَّبعـاً تكتيك الصدم والخرق في العمق، مُستفيداً من قُوَّة انـدفاع فُرسـانه، ومـن تفـوُّقهم العـددي الكبـير؛ حيثُ كان لديه ستَّة آلاف فارس، ولمَّا كان تقسيم جيشه هُو التقسيم التَّتاري المعتاد؛ حيثُ ينتظم كُـلُّ ألف مُقاتل في فرقة ـ طلب ـ، فقد وضع ترتيب القتال؛ بحيثُ تكـون الفـرق الـستَّة خلـف بعـضها؛ لتشكل قُوَّة صَدْم كُبْرَى تتمكَّن من خرق دفاع المُسلمين، ومن ثَمَّ؛ الالتفاف عليهم وتطويقهم[3].

أمَّا الملك الأشرف مُوسى، فقـد لاحـظ التفـوُّق العـددي للتَّتـار، ووضـع خُطَّتـه العـسكريَّة لمُواجهة خُطَّة بيدرا، والتي تقوم على الصُّمُود أمام الصدمة الأُولى للتَّتار بـأيِّ ثمـن، "وعبَّـأ صـاحب حمص المُسلمين طلباً واحداً، فجعل صاحب حماة في الميمنة وعسكر حلب في الميـسرة، وهُـو وعـسكر حمص في القلب"[4]. فكان ترتيب الجيشَيْن وخُطَّتها أشبه ما تكون بالمطرقـة والـسندان، فـإن سَـحَقَ جيشُ التَّتار في ضربته الأُولى جيشَ المُسلمين، فقد نجحت المطرقة، وإنْ صمد المُسلمون، فقـد نجـح السندان. ويبدو أن السندان كان أصلب من المطرقة، فبعد أن ثبت جيش الملك الأشرف لهُجُوم التَّتـار تمكَّن من أن ينطلق للهُجُوم، "فانهزم التَّتار، وقُتِلوا، ومُزِّقوا كلّ ممزّق"[5]. وتبعهم المُسلمون"حتَّى أبادوا أكثرهم، وهرب مُقدَّمهم بيدرا بأسوأ حال، ولم يُقتَل من المُسلمين سوى رجل واحد"[6].

ويُمكننا أن نعدَّ أن انتصار الملك الأشرف على التَّتار كان واحداً من أهمِّ الانتصارات علـيهم، لعدَّة أسباب، منها:

1 ـ كان بيدرا من مشاهير قادة التَّتار، ويتمتَّع بخبرة واسعة، وشجاعة كبيرة.

2 ـ التفوُّق العددي الكبير للتَّتار، فقد كانوا أكثر من أربعة أضعاف المُسلمين.

---

1 - الاسبتاريَّة، سميث، 189.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 209، والسُّلُوك، المقريزي، 2/ 442، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7/ 106.
3 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 434.
4 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 434.
5 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 434.
6 - العبر، الذهبي، 5/ 251.

3 ـ رُوح التخاذل التي بدت على حامية حلب، وانسحاب المنصُور من حماة، ولعلم التَّتار بذلك، فرُبَّما راهنوا على عدم صدْق حملتهم عند اللقاء.

4 ـ كان مع بيدرا عدد كبير من أُمراء ومُقدَّمي التَّتار، حتَّى إنَّه قُتل منهم أكثر ممَّا قُتل في عَيْن جالُوت[1].

5 ـ قتل عدد كبير من فُرسان التَّتار، بينما لم يفقد المُسلمون سوى جُندياً واحداً.

وبالوقت نفسه؛ كانت هُناك أسباب يُمكن أن نُلاحظها، ساعدت على هزيمة التَّتار، وانتصار المُسلمين، منها:

1 ـ ثبات الملك الأشرف، وحنكته العسكريَّة بإدراكه لخُطَّة التَّتار، والرّدّ عليها، فقد كان "ذا حزم ودهاء وشجاعة وعقل، مقداماً شُجاعاً"[2].

2 ـ كانت عوامل الطبيعة مُساعداً جيِّداً للمُسلمين، فقد كان يوم المعركة يوماً بارداً، ساد فيه الضباب، وانهمر رذاذ ثلجي كانت تعصف فيه رياح حمص الجنوبية الغَرْبيَّة، وتضرب به وُجُوه التَّتار، ويصف هذه الصُّورة للمعركة شاهد عَيَان[3] صادق[4]، شاهدها من موقع استراتيجي[5]، قال: "وكان الطُّيُور[6] والهوى والضباب في وُجُوههم، فانهزم التَّتار"[7].

---

1 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 434.
2 - شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، 5/ 311.
3 - الأمير بدر الدِّين مُحمَّد بن عزّ الدِّين حسن القيمري.
4 - كان بدر الدِّين "صدوقاً، وعنده دين وصلاة وصيام وعبادة كثيرة". (ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 434).
5 - شاهد بدر الدِّين المعركة من قلعة حمص، (النُّجُوم الزَّاهرَة، 7/ 106)، ومَنْ يعتلي قلعة حمص يستطيع أن يرى ـ بوُضُوح ـ منطقة قبر خالد بن الوليد؛ حيثُ دارت المعركة.
6 - قال الأمير بدر الدِّين عن الطُّيُور: "كُنتُ في القلعة، فرأيتُ بعيني طُيُوراً بيضاء قد أقبلت، وجعلت تضرب وُجُوه التَّتار بأجنحتها". (عقد الجُمان، العيني، 1/ 268)، وما هذه الطُّيُور في الحقيقة إلاَّ رذاذ الثلج تعصف به رياح حمص، فيتحرَّك كالأجنحة البيضاء ليلفح وُجُوه التَّتار. وممَّا أكمل صُورة الطُّيُور إطلالة بدر الدِّين من القلعة، وبُعْد المسافة، وحالته النفسية بين الخوف والأمل، كلّ ذلك أسهم بتخيُّل الطُّيُور التي قاتلت التَّتار.
7 - ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني، 1/ 434.

وأبعدتْ معركةُ حمص الأُولى التَّتار عن الشَّام لفترة طويلة، ورفعت من قَدْر قائدها الملك الأشرف شعبياً[1] ورَسْمياً، "فنبل قَدْرُهُ"[2]. وعندما أعاد بيبرس سيطرته على الشَّام بعد قضائه على تمرُّد سنجر الحلبي قدَّر عالياً صُمُود الملك الأشرف، وزاد في تكريمه. وإذا كان هُناك مَنْ يُحمِّل الملك الأشرف وِزْرَ التعامل مع التَّتار، فإنْ لم يكن قد كفَّر عن تلك الهنَة بما دبَّره في عَيْن جالُوت فقد "غسل هناته بيوم حمص"[3].

وكنتيجة للعلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة بين السَّلطنة الأيُّوبيَّة والتَّتار، فإنَّنا نجد أنَّه قد سبق هُجُوم التَّتار على بُلدان العالم الإسلامي تحرُّك ديبلوماسي كبير، فقد تدفَّقت رُسُلُهُم، بمسوّغ، وبلا مسوّغ، يستطلعون، ويتجسَّسون، ويجمعون المعلومات عن البلاد والعباد. إضافة إلى ذلك ما كان يقوم به التَّتار عادة؛ حيثُ تنطلق رُسُلُهُم ومُراسلاتهم تحمل الترغيب والترهيب قبيل هُجُومهم على أيِّ بلد، وهذا سلاح معنوي أجاد التَّتار استعماله ببراعة.

وعندما أخذت تظهر طلائع التَّتار في الجزيرة الشَّاميَّة تجنَّب مُلُوك وقادة بني أيُّوب ما أمكنهم الاصطدام بهذه الطلائع، واستغلَّ هذا الظرف بدر الدِّين لُؤلُؤ صاحب المَوصل، الذي هادن التَّتار، وحارب مُلُوك الجزيرة. وعندما حاصر التَّتار بغدادَ تُركَتْ لتسقط، دُون أيِّ مُساعدة من السَّلطنة الأيُّوبيَّة، أو من غيرها، فالكُلُّ كان يخشى على نفسه، ويُجاهد ليُؤجِّل قُدُوم التَّتار نحوه، ولم يُفكِّروا بالوحدة، أو التضامن، بل استمرُّوا مُتصارعين مُتنافسين لاهين عن الخطر.

وكذلك عندما صمدت مَيَّافارقين الأيُّوبيَّة تُركَتْ لتسقط وحيدة دُون أن يقدِّم لها الملك النَّاصر سُلطان البيت الأيُّوبي أيَّ مُساعدة، في حين كانت المُراسلات والهدايا تتدفَّق منه على هُولاكُو.

---

1 - تحوّل الأشرف إلى بطل شعبي تنعقد عليه الآمال والأحلام، فقد ذكر أبو شامة أن رجلاً نصرانياً حلم أنَّه رأى النبي (ص)، فقال له: "مُرّ إلى أبي شامة، وأسلم على يده، وأخبره أن الملك الأشرف، يعني صاحب حمص، يملك بلاد سيس، ويهلك العدو بها"(6). إن دُخُول الأشرف أحلامَ العامَّة كمُحرِّر، ولو من باب الرواية فقط، لدليل واضح على شُهرة شجاعة الأشرف، وأنَّه كان يُمثِّل الأملَ الشَّعْبي للخلاص من خطر مملكة سيس الأرمنية، التي أدَّت - على الدوام - دور العميل والمُساعد والدليل لكُلِّ مَنْ غزا بلاد الشَّام، من الرُّوم والفرنج والتَّتار. ومع أنَّه لم يُقدَّر للأشرف أن يُحقِّق هذا الحلم، فقد حقَّقه الظَّاهر بيبرس عندما دمَّر عاصمتها سيس، وأنهى - بذلك - المملكة الأرمنية في الأناضول إلى الأبد.

2 - شذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 311.

3 - شذرات الذهب، ابن العماد، 5/ 311.

لقد اتَّبع النَّاصر سياسة المداراة مع التَّتار على أمل تجنُّبهم، في حين كـان قـرار التَّتـار قـد اتُّخذ ليكون النَّاصر وبلاده ضحيّتهم التَّالية.

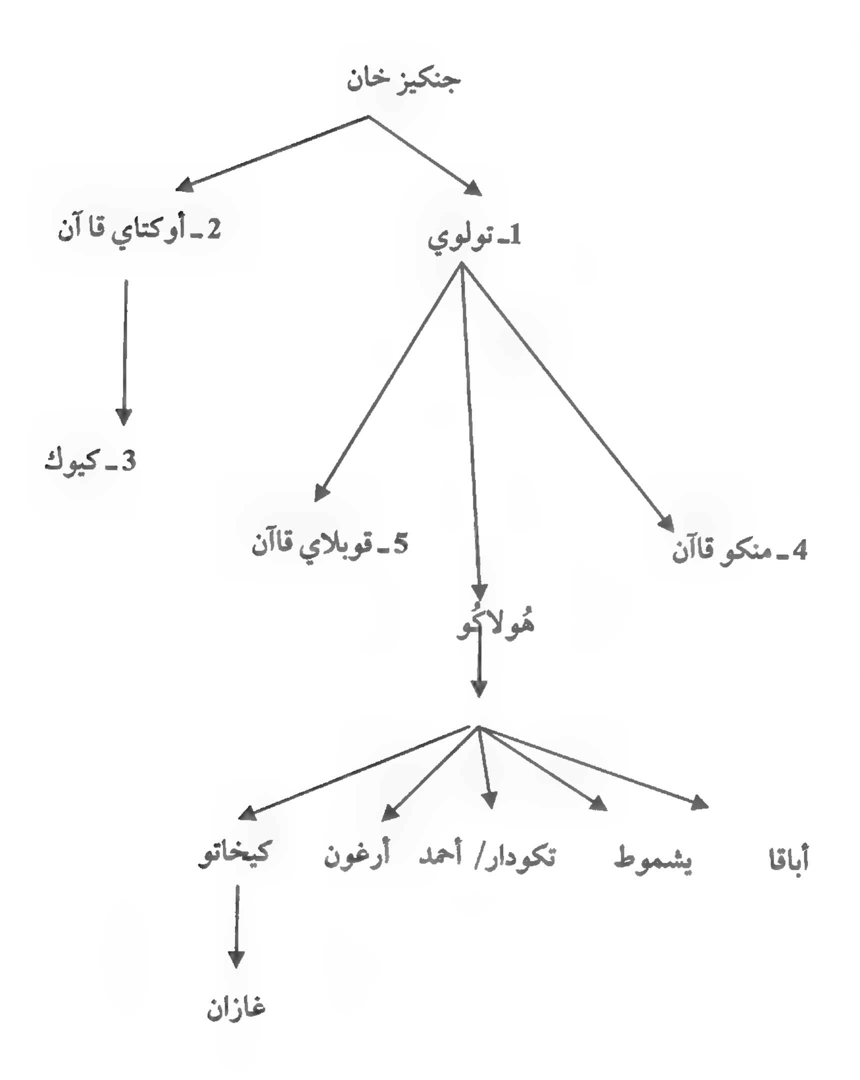
ولَّما سقطت الشَّام بيد التَّتـار كانت خُطَّتهم السِّياسيَّة تقضي بالاستفادة من المُبعدين والمسجونين من بني أيُّوب، فقاموا بتسليم الأشرف مُوسى والملك السَّعيد مناصب حكومية كبيرة، بالإضافة إلى ظُهُور طبقة من عملاء التَّتار، فيهم المُلُوك والوزراء. كما حاول التَّتـار التقرُّب من المسيحيين المحلِّيِّين، فأعطوهم بعض الدعم ضدَّ المُسلمين.

عندما أنهى التَّتار العصرَ الأيُّوبي، بعد احتلال الشَّام، وقَتْلهم النَّاصر الثَّاني آخر سلاطين بني أيُّوب، شكَّل ذلك عاملاً مُهمّاً؛ لتزامنه مع قيام حُكْم المماليك في مصر، فلولا القضاء على المُلُوك الأيُّوبيَّة لما تركوا أمر السَّلطنة في مصر يستقرُّ للمماليك. ولذلك نرى أن اجتياح التَّتـار للشام كان السبب الأهمّ ليس ـ فقط ـ لزوال حُكْم الأيُّوبيِّيْن، بل ولتوطيد حُكْم المماليك، وقيام سلطنتهم التي تعزَّزت بنصر عَيْن جالُوت.

أمَّا العلاقات بين الأرمن والتَّتار؛ فقد كان محورها أن الأرمن وجدوا بالتَّتار قُوَّة قادمة كُبْرَى أُشيع أنَّها مسيحيَّة، فأملوا الانتصار بهم على المُسلمين، فخضعوا لهم، وقاتلوا معهم، ثُمَّ تحوَّلوا إلى دويلة تابعة للتَّتار، تقدِّم الهدايا، وتدفع الأتاوات، وترسل الجُند للقتال في معارك التَّتار.

وكذلك نجد أن صلات سياسيَّة مُختلفة قد قامت بين الفرنج والتَّتار، ولكن هذا لم يمنع وُقُوع صدامات عسكريَّة محدودة بينهما، بينما نُلاحظ أن المُفاوضات والمُراسلات المُتبادلة شملت مُعظم فترة وُجُود التَّتار في الشَّام، فقد أمل الفرنج ـ ومن خلفهم أُورُوبا ـ بالتحالف مع التَّتار لسحق المُسلمين، وحَلُمَ البابوات بضَمِّ التَّتار إلى كَنيسَتهم للسيطرة بهم على العالم، أمَّا التَّتار؛ فكما يبدو كان غرضهم من التفاوض مع الفرنج ودول أُورُوبا هُو فرض السيطرة، وإخضاعهم للنفوذ، لذلك لم يتحقَّق بينهما أيُّ تعاون يُذكَر، فكُلٌّ منهم كان يرغب باستغلال الآخر.

سلسلة نَسَب مُلُوك التَّتار



القسم السَّادس

العلاقات الدّوليَّة للممالك المَسيحيَّة الشَّرْقيَّة

المبحث الأوَّل:

العلاقات الخارجيَّة لمملكة الكَرَج - جُورجيا

بعد المَدِّ الإسلامي واكتساح بلاد الكرج، وهم مسيحيُّون يتبعون الكَنيسَة البيزنطيَّة الأرثوذكسية، تمكَّن الكرج، حين ضعفت الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة، وتمزَّقت إلى ممالك وإمارات، من أن يُنظِّموا أنفسهم، ويُشكِّلوا جيشاً لا يُستهان به، استطاع إعادة السيطرة على عاصمتهم تفليس[1] وإحياء مملكة الكرج من جديد.

وفي عصر الممالك الأيُّوبيَّة؛ كانت دولة الكرج قد وصلت إلى أوج قُوَّتها، وثبَّتت أقدامها بين قُوَّتَيْن كبيرتَيْن: الروس من الشمال في أقصى شرق أُورُبة، وسلاجقة الرُّوم من الجنوب والغرب في آسيا الصُّغْرَى[2].

أمَّا الإمارات والممالك الأُخرى في جنوب غرب إيران والجزيرة الشَّاميَّة؛ فكانت على حالة مزرية من الضعف، ممَّا حدا بالكرج لاعتبارها مناطق توسُّع مشروعة لها، ومن خلال مُحاولات الكرج التوسُّع في الجزيرة الشَّاميَّة نشأت مجموعة من العلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة مع الممالك الأيُّوبيَّة.

بدأ الكرج توسُّعهم نحو البُلدان الإسلاميَّة، فهاجموا ـ أوَّلاً ـ بلاد أذربيجان[3]، وكانت للأمير أبي بكر بن البهلوان، فقد شنُّوا عدَّة غارات ناجحة في بلاده، كان أمير البلاد لاهياً عنها، فلم يسمع استغاثات السُّكَّان المُعرَّضين للقتل والنهب[4].

---

1 - تفليس: مدينة قديمة قُرب باب الأبواب، افتتحها المُسلمون أيَّام الخليفة عُثمان، واحتلَّها الكرج عام 515 هـ (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: تفليس)، وهي ـ الآن ـ عاصمة دولة جُورجيا الحديثة.

2 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 233.

3 - أذربيجان: إقليم مشهور في بلاد العجم، أكبر مُدُنها تبريز، وفيها مُدُن المراغة وخوي وأردبيل. وهُو صقع جليل ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال، فيها قلاع كثيرة وخيرات وافرة. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: أذربيجان).

4 - يقول ابن الأثير: " كان أبو بكر بن البهلوان مشغولاً ـ كعادته ـ بالشُّرب ليلاً نهاراً، لا يفيق، ولا يصحو، ولا ينظر في أمر مملكته ورعيَّته وجنده، قد ألقى الجميع عن قلبه، وسلك طريق مَنْ ليس له علاقة، ولمَّا استغاثت به أهل تلك البلاد من غارات الكرج، فكأنَّهم ينادون صخرة صماء". (الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 183).

ثُمَّ قام الكرج عام 599 هـ 1203م بحصار بلدة دوين[1]، "فاستنجد أهلها بأميرهم، فلم يُغثهم، ولم يتمكَّنوا من المُقاومة، فسقطت دوين، وأخذها الكرج عنوة بالسيف"[2].

إن سُقُوط دوين قد تمَّ بعد أن أحكم العادل سيطرته على مُعظم دولة أخيه صلاح الدِّين، وغدا السُّلطان الأعظم للأيُّوبية في مصر والشَّام والجزيرة، ولكنَّنا لم نسمع عن أيِّ إجراء قام به ضدَّ الكرج، أو تحرّك لردّ غاراتهم عن بلاد المُسلمين، رُبَّما لأنَّهم لم يقتربوا ـ بعدُ ـ من مُمتلكاته الخاصَّة، أو أنَّه لم يجد بنفسه القُوَّة لخوض صراع كبير بعيد عن أرضه. ونجد أن الأقرب للحقيقة هي طبيعة العادل التي تميل لتجنُّب المُشكلات ما أمكن، والمُحافظة على مُمتلكاته بأقلِّ ما يُمكن من الخسائر.

واتَّخذ الكرج من دوين قاعدة انطلاق لهم ضدَّ البُلدان الإسلاميَّة، فعاثوا في نواحي أذربيجان نهباً وسلباً، ففي عام 601 هـ 1205م، "أغاروا على ناحية خِلاط . . فأوغلوا حتَّى بلغوا ملاذ كُرد، ولم يخرج إليهم أحد من المُسلمين يمنعهم، وكُلَّما تقدَّموا تأخَّرت عساكر المُسلمين عنهم"[3]، فقد "كان صاحبها صبي، والمُدبِّر ليس له طاعة على الجُند"[4].

ثُمَّ عاد الكرج للإغارة على خِلاط، فهاجموا أرجيش، ونهبوا ما حولها، فاستنجد صاحب خِلاط بابن قليج أرسلان صاحب أرزن الرُّوم، "فسيَّر جميع عسكره معه، فلقوا الكرج، وتمكَّنوا من هزيمتهم، وقتل زكري الصغير قائد جيش الكرج، وكان من أَجَلِّ قُوَّادهم"[5].

ويبدو أن الإغارة على بلاد خِلاط كانت ضمن خُطَّة طويلة الأمد، يعتمدها الكرج لأَخْذ مدينة خِلاط في نهاية المطاف، فبالرغم من هزيمتهم السابقة؛ كرَّر الكرج الهُجُوم في العام التالي 602 هـ 1206م، وهاجموا خِلاط، ونهبوا، وسبوا في بلادها، "فلمَّا اشتد البلاء؛ اجتمعت العساكر

---

1 - دوين: وهي بلدة حُدُودية ما بين أذربيجان وبلاد الكرج، وكان يسكنها الأكراد الروادية، وهم ينتمون إلى قبائل الهذانيه الكبيرة (الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 430، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 12، ومُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: دوين).

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 184، وكذلك راجعْ: من عقد الجُمان، العيني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 59 / 72، أحداث عام / 599 هـ دفع سُقُوط دوين مجموعات كبيرة من الأكراد لتتَّجه نحو شمال العراق والجزيرة الشَّاميَّة، وشكَّلوا جُزءاً كبيراً من قوام المتطوِّعة في جُيُوش العراق والجزيرة والشَّام.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 204.

4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 240، من عقد الجُمان، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 59 / 72، أحداث عام/ 599 هـ.

5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 204 ـ 205.

الإسلاميَّة، وانضافت إليهم المتطوِّعة، وساروا نحو الكرج. فأمسكوا الطريق عليهم، وقتلوا منهم خلق كثير، وأسروا، ولم يفلت من الكرج إلاَّ القليل"[1].

رُبَّما بتأثير الهزيمة؛ وافق ملك الكرج على تزويج ابنته إلى أبي بكر بن البهلوان صاحب أذربيجان، الذي ضمن حماية بلاده منهم بهذا الزواج[2].

واقتضى تلافي نتائج هزيمة الكرج، وإعادة ترتيب جيشهم حوالي ثلاث سنوات، توجَّه - بعدها - جيش كبير من الكرج عام **605** هـ **1209**م، إلى بلدة أرجيش[3]، وهي من ولاية خِلاط، "فحصروها، وملكوها عنوة، وأحرقوها بالكُلِّيَّة"[4]، والجديد بالذِّكْر أن صاحب خِلاط - الآن - هُو الملك الأوحد نجم الدِّين أيُّوب، الذي استُدعي من قَبْلُ لحمايتها، وكان نجم الدِّين - وقت هُجُوم الكرج على أرجيش - مُقيماً في خِلاط، "وعنده كثير من العَسْكَر، فلم يخرج لكثرة الكرج، ولخوفه من أهل خِلاط"[5]، ولكن ما فعله نجم الدِّين هُو أن استنجد بوالده الملك العادل، الذي "أجمع رأيه على جمع العساكر وأصحابها، ويقصد بلاد الكرج، وحدّد الجمع على حَرَّان"[6].

ويبدو أن الكرج لم يكن في نيَّتهم الصدام المُباشر مع جيش أيُّوبي قوي فانسحبوا، واستفاد العادل من تجميع الجُيُوش عنده بعد انسحاب الكرج بالتفرُّغ لاحتلال سنجار، فسار نحوها.

ولكن غيبة الكرج عن الساحة لم تطلْ، ففي عام **607** هـ **1210**م، دخلوا الجزيرة بقُوَّة كبيرة يقودها ملكهم إيواني[7] بنفسه، ويُقال إن هُجُوم الكرج كان ضمن اتِّفاق مُلُوك الجزيرة ضدَّ العادل[8]، ويقال بأنَّ الملك الأوحد كان قد هاجم قلعة أوان، وهي للكرج، فاحتلَّها بمُساعدة

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 240.

2 - من عقد الجُمان، العيني، الموسوعة الشاملة. د. سُهيل زَكَّار، 59 / 72. - ولابن الأثير تعليق طريف على طريقة ابن البهلوان في حلِّ مشاكله مع الكرج، راجعْ: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12 / 240.

3 - أرجيش: مدينة قديمة بالقُرب من خِلاط، أكثر أهلها أرمن نصارى. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: أرجيش).

4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 279.

5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 279.

6 - المنصُوري، ابن نظيف، 57.

7 - يذكر أبو شامة اسمه: أبواي (ذَيْل الرَّوضَتَيْن، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 131).

8 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 146.

عسكريَّة من أخيه الملك الأشرف[1]. ومهما كان السبب، فقد قصد الكرج مدينة خِلاط، وفيها الأوحد بن العادل، وحاصروها، وكان ملك الكرج مُصمِّماً على إنهاء أمر خِلاط، ويصف أبو شامة تطوُّر المعركة على أبواب خِلاط، فيقول: "فأشرف على أَخْذها، وقصد باب أرجيش، فخرج المُسلمون إليه، فقاتلوه، ورأوا ما لا قبَل لهم به، فبينما هُم كذلك عثر به حصانه، فقتل عليه جماعة من خواصِّه، وأُخذ أسيراً"[2]. وأثبت الأوحد أنَّه لاعب ماهر في حقل السياسة والمُفاوضات، فقد أكرم الملك إيواني، وخلع عليه، وفاوضه على عدَّة شُرُوط مُقابل إطلاق سراحه، ومع أن شُرُوط الأوحد كانت باهظة، لكنَّ إيواني قبلها، ويُقال إنَّه هُو مَنْ بذلها للأوحد[3]، وهي:

1 ـ تسليم عدَّة قلاع كانت تحت سيطرة الكرج للملك الأوحد.

2 ـ إطلاق خمسة آلاف أسير مُسلم من سُجُون الكرج.

3 ـ دفع مائة ألف دينار نقداً.

4 ـ أن يُزوِّج إيواني ابنتَهُ للملك الأوحد[4].

5 ـ عقد هُدنة مُدَّتها ثلاثون سنة بين الطرفَيْن[5].

وأطلق الملك الأسير إيواني، الذي أثبت أنَّه مُعاهد شريف وصادق، حيثُ نفَّذ كُلَّ شُرُوط المُعاهدة بدقَّة، بما فيها زواج ابنته بالأوحد، وستكون هذه آخر عُهُود الكرج بالهُجُوم على الجزيرة، فقد التزموا بالمُعاهدة التزاماً كاملاً، خاصَّة أن إيواني قد عاد للعرش، واستمرَّ ملكاً للكرج فترة طويلة، وكان يحرص على علاقات وُدِّيَّة مع الأيُوبيِّيْن، ورُبَّما أن جُزءاً كبيراً من هذا الالتزام بالمُعاهدة كان بسبب الظُّرُوف الصعبة التي تعرَّضوا لها مع الخَوَارزميَّة، ثُمَّ مع التَّتَار. ولم يطل الأمر بالملك الأوحد، ففي السنة نفسها 607 هـ 1210م، مرض، وتُوفِّي، فضمَّ أخوه الملكُ الأشرفُ خِلاط إلى

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 273.

2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 131.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 2001.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 2001، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 113، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 131.

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 2001، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 113.

بلاده، وجعل الأشرف نائبه فيها أخاه المُظفَّر شهاب الدِّين عيسى[1]، وتزوَّج الملك الأشرف بأرملة أخيه الأوحد ابنة ملك الكرج إيواني، وتركها في خِلاط[2].

واستمرَّت بنت إيواني الكرجية مقيمة في خِلاط، حتَّى فتحها جلال الدِّين منكبرتي عام **627** هـ **1230**م[3]، وأخذها، ودخل بها في ليلته[4]، انتقاماً من الملك الأشرف، الذي أخذ نائبه في خِلاط الحاجب عليّ زوجة جلال الدِّين من مدينة خوي عندما تمكّن من دُخُولها[5].

وبقيت الكرجية مع الخوارزمي حتَّى هزمه التَّتَار، فقابلت خاقان التَّتَار، وحصلت منه على منشور بخِلاط وأعمالها، ولَمَّا وصلت الجزيرة عام **643** هـ **1246**م "راسلت الملك الكامل شهاب الدِّين غازي تقول: أنا كُنتُ زوجة أخيك الملك الأشرف، فإنْ تزوَّجتَ بي، فالبلاد لكَ، فلم يفعل"[6].

واستمرَّ ملك الكرج إيواني على عهده مع المُلوك الأيُّوبيَّة، فكان مع الأشرف مثلما كان مع الأوحد، ويبدو أن الهدايا كانت تُتبَادَل بين الأشرف وملك الكرج، ففي عام **610** هـ **1213**م، طلب الأشرف فيلاً من مصر ليحمل هدية إلى حميِّه ملك الكرج[7]، وعلى أساس المُعاهدة والصداقة، سارت العلاقات بين الكرج وبني أيُّوب، ولذلك عادت غارات الكرج - بعدها - تتوجَّه نحو أذربيجان، ولم تعد تتعرَّض لبلاد الجزيرة[8].

وعندما اقترب خطر التَّتَار من بلاد الكرج عام **617** هـ **1220**م، لم يجدوا أمامهم إلاَّ الملك الأشرف، فوصلت رُسُلُهم إلى حَرَّان، وكان الأشرف فيها يتجهَّز للسّير نحو مصر لنجدة أخيه الملك الكامل، بعد أن احتلَّ الفرنجُ دمياطَ، وقال رُسُلُ الكرج للأشرف: "إن لم توافقونا على قتال هؤلاء

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 208.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 146.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20 / 309.
4 - تاريخ فاتح العالم، الجويني، ترجمة: مُحمَّد ألتونجي، 2 / 79.
5 - تاريخ المغول، عبَّاس إقبال، ترجمة: عبد الوهاب علوب، 158.
6 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 199.
7 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 166.
8 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 172.

القوم ودفعهم عن بلادنا، وتحضروا بنُفُوسكم وعساكركم لهذا المُهمّ، وإلاَّ صالحناهم عليكم"[1]، فاعتذر الكامل إليهم بالمسير إلى مصر، وقال لهم: "إني أقطعتُ مملكة خِلاط لأخي، وسيرته ليكون بالقُرب منكم، وتركت عنده العساكر، فمتى احتجتُم إلى نصرته لدفع التَتَر، حضر معكم، ودفع التَتَر عنكم"[2].

وبعد أن انحسرت الموجة الأُولى لهُجُوم التَّتار، ولم تتعرَّض للكرج، استغلُّوا فُرصة الفوضى في البلاد التي اجتاحها التَّتار، فهاجموا أران[3] عام **619** هـ **1222**م، "وفعلوا فيها من النهب والقتل أكثر ممَّا فعله التَتَر، وصاحب البلاد مُظفَّر الدِّين أزبك بن البهلوان مُشتغل بشُربه ولهوه، ومُلُوك الإسلام كُلّ منهم قد اشتغل بصلاح قطره"[4].

ويبدو أن حالة السلام العامَّة، التي كانت سائدة بين الكرج والأيُّوبية بعد مُعاهدة خِلاط، رغم تطبيقها بعمومياتها، لكنَّها لم تمنع بعض الصراعات الهامشية، والتي تجري - عادةً - بين أيِّ دولتَيْن بينهما حُدُود مُشتركة، وأحياناً؛ قد تخرج عن السيطرة، وتستفحل، وهذا ما جرى عام **620** هـ **1223**م، مع صاحب سر ماري[5]، الذي كان في طاعة المُظفَّر غازي نائب أخيه الأشرف، ووَليّ عهده في خِلاط، فقد كانت الإغارات المحدودة على الحُدُود بينه وبين الكرج دائمة، ثُمَّ أعدَّ لهم كميناً، وقتل، وأسر، كثيراً منهم، فأرسل ملك الكرج إلى الأشرف يُذكِّره بالصُّلح والمُعاهدة، ويطلب إطلاق الأسرى، فأمر الأشرف صاحب سر ماري بإطلاقهم، وأكَّد على تجديد حالة الهُدنة مع الكرج[6].

ومع القُوَّة العسكريَّة المعهودة للكرج، فقد تعرَّضوا لضربة كبيرة عام **622** هـ **1225**م، عندما سيَّر إليهم الخوارزمي جلال الدِّين منكبرتي جيشاً أثناء تواجده في العراق على نيَّة قصد الخليفة،

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 368.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 90.
3 - أران: ولاية واسعة، وبلاد كثيرة، فيها مدينة كنجة، يفصلها عن بلاد أزربيجان نهر الرس. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: أران).
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 113.
5 - سر ماري: قلعة وولاية بين تفليس وخِلاط (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: سرماري.).
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 130.

لكنَّ قادة هذا الجيش أرسلوا إلى منكبرتي: أنْ "أدركنا؛ ما لنا بالكرج طاقة، وبغداد ما تفوت، فسار إلى تفليس، فخرج إليه الكرج، فضرب معهم مصاف، فقتل منهم سبعين ألف، وفتح تفليس عنوة، وقتل منهم سبعين ألفاً، فصار مائة ألف"[1]. وفي عام 627 هـ 1230م، وبعد أن هزم الخوارزمي في معركة ياصجمن، أرسل الملك الأشرف شمس الدِّين التكريتي رسولاً إلى ملك الكرج لاطِّلاعه على واقع الحال، والنصر على الخوارزمي[2].

وبينما كان الأشرف في أرجيش، وصله ردُّ كتابه من حميِّه إيواني ملك الكرج، "ومعه سيفاً للأشرف صحبة الكتاب، لأن عادة الكرج إذا ظفر جارهم، سيَّروا له سيفاً"، وقال إيواني في رسالته للأشرف: "وأنا على ما تعهَّده من المُعاهدة"[3].

وقد ضعفت مملكة الكرج بعد إيواني، كما ضعفت ممالك بني أيُّوب في الجزيرة بعد الأشرف، ثُمَّ تعرَّضوا جميعاً لخطر التَّتار الماحق الذي قضى على الطرفَيْن؛ لتبقى علاقة مملكة الكرج بممالك الأيُّوبيِّيْن الجزرية علاقة فريدة في مضمونها، ذات دلالات هامَّة في واقعها، السِّياسي والعسكري[4].

وبعد كُلِّ ذلك؛ نتبيَّن بأنَّه كان لمملكة الكرج مشروعها الخاصّ في الجزيرة الشَّاميَّة، ومن هُنا؛ اصطدمت مصالحها بالمصالح الأيُّوبيَّة، فقد كانت للكرج غارات مُنظَّمة في الجزيرة، وكان هدفهم المُباشر الاستيلاء على مدينة خِلاط، ثُمَّ السيطرة الكاملة على الجزيرة الشَّاميَّة، لكنَّ أَسْرَ ملك الكرج في خِلاط، واتِّفاقه مع الملك الأوحد الأيُّوبي، عزل الكرج، وأقصاهم عن الجزيرة، فقد التزم ملكهم بالهُدنة. ولمَّا هاجم التَّتار المنطقةَ هبَّ الكرجُ طلباً لتوحيد قواهم مع الممالك الأيُّوبيَّة في الجزيرة، لكنَّهم ابتلوا بجلال الدِّين الخوارزمي، الذي احتلَّ بلادهم، ثُمَّ جاء غزو التَّتار ليقضي على هذه المملكة.

---

1 - المفروض أن قتلى الكرج سبعين ألفاً أوَّلاً، وسبعين ألفاً ثانياً في تفليس، يُصبح مجموعهم مائة وأربعين ألف، وليس كما ذكر أبو شامة: مائة ألف، الذي رُبَّما هُو من أخطاء النُّسَّاخ. (ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 144، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 277).

2 - المنصُوري، ابن نظيف، 218.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 219 ـ 220.

4 - من عقد الجُمان، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 59 / 72، ـ أحداث عام/ 599 هـ.

المبحث الثَّاني:

علاقات مصر مع بلاد النوبة

أُطلق اسم بلاد النوبة على المنطقة المُمتدَّة جنوب صعيد مصر، وكانت منطقة قليلة الموارد، لا تعني الكثير لحُكَّام مصر، فكانت العلاقات معها ـ على الدوام ـ شبه معدومة.

وكان النُّوبيُّون قد اعتنقوا الديانة المَسيحيَّة بواسطة التبشير، انطلاقاً من مصر، مُنْذُ العصر البيزنطي، وفي أغلب الأحيان؛ كانت تقوم اتِّفاقيات شكلية بين النُّوبيين وحُكَّام مصر، ينقضها كُلُّ طرف عندما تتعارض مع مصالحه، وغالباً ما كان النُّوبيُّون يشنُّون الغارات على صعيد مصر، وينهبون قُراه، ويعودون إلى بلادهم[1].

ويُرجع بعض الكُتَّاب هجمات النُّوبيين المسيحيين على صعيد مصر إلى رُوح صليبية وحقد ديني[2].

لكنْ؛ على ما يبدو، كان هُناك وجه آخر للعلاقة السِّلْمية بين النُّوبيين ومصر، فقد تدفَّقوا عليها بالآلاف، وعملوا لدى حُكَّامها، وقد كان منهم أعداد كبيرة في خدمة الدولة الفاطمية، وقد ورد على لسان صلاح الدِّين برسالة أرسلها إلى الخليفة العبَّاسي من إنشاء القاضي الفاضل، وهُو يصف حال مصر، قوله: "وصلنا البلاد، وبها أجناد عددهم كثير، وسوادهم كبير. . وبها راجل من السودان يزيد على مائة ألف رجل، كلّهم أغتام أعجام، إنْ هُم إلاَّ كالأنعام، لا يعرفون ربّاً إلاَّ ساكن قصره، ولا قبلة إلاَّ ما يتوجَّهون إليه من رُكنه"[3].

---

1 - المقريزي، اتِّعاظ الحُنفا، 2/ 201.

2 - مُصطفى مُحمَّد حسن، الإسلام والنوبة في العُصُور الوُسْطَى، 144.

3 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 13/ 84.

وبعد سيطرة صلاح الدِّين على مصر، اصطدم بهم عندما قاموا بثورة عليه، ولكنَّه قضى عليها بشدَّة، وهرب الجُنُود السودان بعد فشل ثورتهم ضدَّ صلاح الدِّين نحو بلادهم جنوباً، فأتبعهم السُّلطان بأخيه تُورانشاه، الذي قصد النُّوبة، واستولى على قلعة ابريم من ملكها، ودخل عاصمتهم دنقله، وبعد أن أخضع شمال بلاد النوبة، عاد تُورانشاه إلى أسوان في صعيد مصر، تاركاً حامية قويَّة في قلعة ابريم، ونتيجة لجُهُود تُورانشاه في النوبة، حصل على إقطاعات واسعة جنوب مصر، تمتدُّ ما بين خوص وأسوان وعيذاب[1].

ونستنتج بأنَّ الدولة الأيُّوبيَّة ـ مُنْذُ أيَّام صلاح الدِّين ـ فرضت نُفُوذها في بلاد النُّوبة المَسيحيَّة، ومُنْذُ ذلك التاريخ؛ بدأ الإسلام والتعريب يدخلان المنطقة، وتعزَّز ذلك بنزوح قبائل عربية بعد فشل ثورة الكنوز في صعيد مصر، وهي التي عرَّبت شمال وأواسط السودان الحالي.

1 - الروضتَيْن، أبو شامة، 1/ 208 ـ 209.

المبحث الثَّالث:

العلاقات الدّوليَّة لمملكة أرمينيا[1]

الأرمن في الدولة الإسلاميَّة:

بدأت هجرة الأرمن من بلاد أرمينيا في أواسط القرن الخامس الهجري (الحادي عشر ميلادي) نحو كيليكيا وأعالي الفُرات، مدفوعين بالتقدُّم السلجوقي في الأناضول من جهة، وبتراجع السياسة البيزنطيَّة وسُوء إدارتها من جهة أُخرى[2]، وتوالت هجرة الأرمن بكثافة إلى شمال الجزيرة الشَّاميَّة، فشكَّلوا ـ أوَّل الأمر ـ قسماً مُهمّاً من طبقة الفلاحين هُناك، ثُمَّ تمكَّن بعضهم من تأسيس إقطاعات مُستقلَّة، تمتلك قُوَّات عسكريَّة صغيرة[3].

وعندما دخلت الحملة الصَّليبيَّة الأُولى شمال الشَّام عام **490** هـ **1097**م، وجدت أمامها في جبال طوروس الشَّرقيَّة والغربية جماعات مُستقلَّة من الأرمن، يحكمهم أُمراء منهم[4]، فقد استطاع بعض الأُمراء الإقطاعيين الأرمن من إقامة القلاع، والسيطرة على الممرَّات الجبلية الحصينة في كيليكية، حتَّى إن منهم مَنْ تمكَّن من حُكْم مُدُن صغيرة في شمال الجزيرة الشَّاميَّة[5]، بينما كان الأرمن في المُدُن الكُبْرَى وفي سُهُول الجزيرة وشمال الشَّام يخضعون لحُكْم الأتراك السلاجقة[6].

وممَّا يدلُّنا على تزايد أعداد الأرمن في الجزيرة أنَّه في عام **531** هـ **1136**م، بعد أن تمكَّن بهرام الأرمني من تولِّي منصب الوزارة في القاهرة الفاطمية، "تكاثر وُصُول أقارب بهرام وإخوته وأهله وقومه، ومجيؤهم من ناحية تلّ باشر، وقدموا ـ أيضاً ـ من بلاد الأرمن، حتَّى صار منهم بديار مصر نحو ثلاثين ألف إنسان . . وتفاقم الأمر، فخاف الناس منهم أن يُغيِّروا الملَّة الإسلاميَّة، ويكلبوا على

---

1 - قامت هذه المملكة ما بين سنوات: 594 ـ 776 هـ= 1198 ـ 1374م، ويُقال لها أرمينية الصُّغرَى تمييزاً لها عن الدولة القومية الأرمنية الكُبْرَى، التي يُطالب بها الأرمن.

2 - فنُّ الحَرْب، سميل، ترجمة: مُحمَّد وليد الجلاد، 88.

3 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 99.

4 - فنُّ الحَرْب، سميل، ترجمة: مُحمَّد وليد الجلاد، 88.

5 - ميخائيل السوري الكبير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، ترجمة: د. سُهيل زَكَّار، 5/ 108.

6 - فنُّ الحَرْب، سميل، ترجمة: مُحمَّد وليد الجلاد، 88.

البلاد، فيردُّوها دار كُفْر"[1]. واستمرَّت قُوَّة الجُند الأرمنية التي شكَّلها بهرام في مصر حتَّى بعد القضاء عليه، فقد كانت مُحتفظة بفاعليَّتها عندما تولَّى صلاح الدِّين أُمُور مصر؛ حيثُ يقول صلاح الدِّين في رسالة من إنشاء القاضي الفاضل إلى الخليفة في بغداد يصف حال مصر: "وبها عسكر من الأرمن، باقون على النصرانية، موضوعة عنهم الجزية، كانت لهم شوكة وشكة، وحمية وحمة"[2]، ويبدو أنَّهم كانوا مُعادين لقيام صلاح الدِّين بأمر الدولة، دفاعاً عن مكاسبهم ووُجُودهم، لكنَّ صلاح الدِّين تغلَّب عليهم، وطردهم، فقد تابع في الرسالة المذكورة آنفاً قوله: "وشرعنا في تلك الطوائف من الأجناد السودان والأرمن، فأخرجناهم من القاهرة"[3].

إن هذه الأعداد الكثيفة من الأرمن التي وصلت مصر، مع أن قسماً كبيراً منها قد تمَّ اعتراضه في الشَّام، ومُنع من مُواصلة طريقه إلى مصر[4]، تدلُّ على كثافة سُكَّانية كبيرة للأرمن في شمال الشَّام، لذلك كان من الطبيعي أن يسعوا لتوحيد كيانهم القومي في ظلِّ إطار سياسي، وإقامة دولة تجمعهم، خاصَّة إذا عرفنا أن أهمَّ ميزات تكوين الأرمن أنَّهم شعب جبلي مُقاتل بالفطرة.

لقد هاجر الأرمن من أرمينيا الكُبْرَى نحو الجنوب نتيجة ظُرُوف صعبة أخذت تُحيط بهم، لكنَّهم لم يجدوا ظُرُوفاً أفضل؛ حيثُ هاجروا، فقد وصلوا إلى مُحيط إسلامي يحكمه الأتراك السلاجقة المُتشدِّدون، لذلك ما إن أطلَّ رجال الحملات الفرنجيَّة الغازية حتَّى رحَّب بهم الأرمن، وقدَّموا لهم الدعمَ، وساعدوهم بكُلِّ إمكاناتهم، حتَّى أقاموا إمارة الرُّهَا، وكان الأرمن مدفوعين بعدائهم الدِّيني للأتراك، فوجدوا الفرنج أقرب ما يكون إليهم[5]، ولذلك انخرط الأرمن ـ بكثافة ـ في جُيُوش الفرنجة، وقاتلوا مع روجر وبلدوين بحماسة، وقد شكَّل منهم الفرنجة مجموعات قتالية مُهمَّة تدعم تكتيكهم العسكري الثقيل، فكوَّنوا فرَق فُرسان خفيفة وفرَقاً من المشاة الرماة[6].

---

1 - اتِّعاظ الحُنفا، المقريزي، 3/ 159.
2 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 13/ 84.
3 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 13/ 84.
4 - اتِّعاظ الحُنفا،، المقريزي، 3/ 158
5 - فنُّ الحَرْب، سميل، ترجمة: مُحمَّد وليد الجلاد، 89، والشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 99.
6 - فنُّ الحَرْب، سميل، ترجمة: مُحمَّد وليد الجلاد، 89.

ولكنْ؛ ما إن بدأ الفرنجة يواجهون الانتكاسات العسكريَّة حتَّى انقلب عليهم كثير من الأرمن، وتعاونوا مع المُسلمين، ممَّا عرَّضهم لانتقام الفرنجة[1].

قيام دولة أرمينيا:

وفي عام **594** هـ **1198**م، ساعدت الظُّرُوف السِّياسيَّة والعسكريَّة[2] أرمن كيليكيا لإقامة دولتهم المُستقلَّة[3]، التي عملوا ـ تدريجياً ـ على تأسيسها، وتوَّج ليون الثَّاني ملكاً على مملكة أرمينيا الصُّغْرَى[4]، وقد تَوَّجه هنري السَّادس إمبراطُور ألمانيا في كَنيسَة طرطوس تقديراً لجُهُوده في الحملة الصَّليبيَّة الثَّالثة، بمباركة من إمبراطُور بيزنطة وبابا رُوما[5]، فالإمبراطُور البيزنطي أمل أن تكون دولة أرمينية شوكة في جنب السلاجقة، إنْ لم تكن حاجزاً يمنعهم عن بلاده، ومهما كان، فالأرمن مسيحيُّون يُقيمُون دولة مسيحيَّة على أراض كانت تحت سيطرة إسلامية، ولو كانت ـ في كثير من جوانبها ـ اسميَّة، أمَّا البابا؛ فقد بارك دولة مسيحيَّة في مُحيط إسلامي، لكنَّه ـ أيضاً ـ أمل أن يضمَّها ـ فيما بعد ـ إلى كَنيسَته في رُوما. كذلك حصلت دولة أرمينيا الصُّغْرَى على دعم الجمهوريات الإيطالية، التي حصلت فيها على ميناء[6] لها فيه من التسهيلات الشيء الكثير، ويُوفِّر الأمن الذي عجزت موانئ الفرنجة في الساحل الشَّامي عن تأمينه بسبب هجمات المُسلمين المُتكرِّرة عليها.

ومع كُلِّ العلاقات الوثيقة بين الأرمن والفرنج في أُورُبة، وطموح الأُمراء الأرمن ليكونوا جُزءاً من المُجتمع الفرنجي في الشَّرْق، لكنَّهم ظلوا مُتمسِّكين بكَنيسَتهم القومية، وميِّزاتهم الوطنية[7].

---

1 - فنُّ الحَرْب، سميل، ترجمة: مُحمَّد وليد الجلاد، 91.

2 - أهمُّ هذه الظُّرُوف كان انشغال مُلُوك سلاجقة الرُّوم بصراعهم على السُّلطة بعد وفاة السُّلطان قليج أرسلان.

3 - حول مملكة أرمينيا في كيليكيا؛ راجعْ: تاريخ سنباط الأرمني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36 / 304.

4 - راجعْ مُخطَّط مملكة أرمينيا ضمن مُصوَّر المنطقة في ملاحق الكتاب.

5 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 232، وفُصُول بيبلوغرافية، مُحمَّد مُؤنس أحمد، 80.

6 - هُو ميناء إياس الواقع على الساحل الشمالي لخليج الإسكندرونة.

7 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 232.

العلاقات الأرمينية الأيُّوبيَّة:

بدأت العلاقات بين الأرمن والأيُّوبيين بوقت مُبكِّر من التاريخ السِّياسي لكُلٍّ منهما، فعندما كان السُّلطان صلاح الدِّين في الجزيرة عام 576 هـ هاجم بلاد ابن لاون[1] الأرمني، الذي أسر جماعة من التُّركمان، كان قد استماهم للرعي في أرضه، ثُمَّ غدر بهم، فأوغل السُّلطان في أراضي الأرمن، وتمكَّن من احتلال قلعة المناقير، فاستولى على موجُوداتها، وأمر بهدمها، وإحراقها، "فخاف ابن لاون، وخضع، وذلَّ، ودخل تحت طاعة السُّلطان، وأطلق ما بيده من الأسرى"[2]. لكنْ؛ ما إن انشغل السُّلطان صلاح الدِّين بحصار الفرنج لعكَّا، وسحب حاميته من قلعة بغراس، حتَّى سارع الأمير الأرمني ليفون، واحتلَّها[3]، وأصبحت بغراس مجال نزاع بين الأرمن وطائفة الدَّاوية، الذين طالبوا بها؛ لأنَّها كانت لهم قبل أن يُحرِّرها صلاح الدِّين لها[4]. واستمرَّ الأُمراء الأرمن يُدركُون أهمِّيَّة العلاقة بمَنْ يحكم الشَّام والجزيرة، ويحرصون على إرضائهم، أو التآمر ضدَّهم، إنْ أمكن، فعندما قدمت الحملة الألمانية لتعبر كيليكية عام 586 هـ 1190م، في طريقها إلى ساحل الشَّام، قام أقوى أُمراء الأرمن في ذلك الوقت ليفون[5] بمُلاقاة ملك الألمان فريدريك بربروسا، وقدَّم له كُلَّ ما يلزم، وتطوَّع أن يكون دليلاً لطريقهم حتَّى سُورية. لكنَّ أميراً أرمنياً آخر هُو غايوس صاحب قلعة الرُّوم[6]، أرسل إلى السُّلطان صلاح الدِّين رسالة يشرح فيها بالتفصيل حَرَكَة الحملة الألمانية عبر بلاد

---

1 - ابن لاون: هُو لافون بن اصطفانه بن لاون (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 320)، الذي كان أوَّل مُلُوك أرمينية الصُّغرَى، وهُو ليون الأوَّل، وتحريفاً لاسم ليون أطلق العَرَب المُسلمون أسماء: ابن لاون، وليفون، (بحوث ودراسات في تاريخ العُصُور الوُسْطَى، سعيد عاشور، 239)، وأحياناً؛ أسموه: تكفور (التعريف بالمُصطلح الشريف، العمري، 55). ويقول ابن العديم عن ليون الأوَّل: "وهُو من وُلد بردس الفقاس الذي كان في زمن سيف الدولة. (زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 625)، والمعروف أن اسم نقفور أو نقفور الفقاس كان العَرَب يُطلقونه على الإمبراطور البيزنطي المُعاصر لسيف الدولة الحمداني وهُو: Nicephorus II Phocas

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 98، ـ وكذلك راجعْ: الروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 16.

3 - ذيل وليم الصُّوري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8/ 358.

4 - ذيل وليم الصُّوري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8/ 359.

5 - ليفون: هُو لاون، أو ليون الثَّاني، الذي تُوِّج ـ آنذاك ـ ملكاً على الأرمن. (ذيل وليم الصُّوري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8/ 358).

6 - غايوس: يبدو أنَّه كان ذا رُتبة دينيَّة مسيحيَّة عالية؛ إذْ يقول عنه ابن واصل: "هُو للأرمن بمنزلة الخليفة عندنا". (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 320)، ـ قلعة الرُّوم: قلعة حصينة في غربي الفُرات مُقابل البيرة، بينها وبين سُمَيساط، بها مقام بطرك الأرمن. وهذه القلعة في وسط بلاد المُسلمين، وما أظنُّ بقاءها بيد الأرمن إلاَّ لقلَّة جدواها، ولأجل مقام البطرك بها، كأنَّهم يتركونها كما يتركون البيع والكنائس في بلاد الإسلام. (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: قلعة الرُّوم).

السلاجقة، ويُخبره بموت الملك الألماني فريدريك الكبير غرقاً، ويبدو أنَّه كان مُنافساً لليفون، فيذكر للسُّلطان بشيء من التَّشفِّي: أن ليفون كان سائراً ليلقى ملك الألمان، فسمع بموته، فأسرع إلى حصن له قريب، واحتمى به[1].

مملكة أرمينيا والفرنج:

إن علاقات الأرمن المُبكِّرة بالفرنج وحملاتهم وإماراتهم في الساحل الشَّامي تفاعلت إلى درجة كبيرة من خلال علاقة مملكة أرمينية مع إمارة أنطاكية، وانعكس ذلك على علاقات الجانبَيْن كلَيْهما مع الممالك الأيُّوبيَّة من خلال استراتيجية كُلِّ مملكة منها، فبعد شهر عسل طويل بين الأرمن وفرنجة أنطاكية، تدهورت العلاقات بينهما إلى درجة كبيرة، وغدا هُم أرمينية ومُلُوكها الهُجُوم على إمارات أنطاكية الفرنجيَّة، حتَّى حكموها في النِّهاية. وقد أدَّت المُعاهدة التي عقدها صلاح الدِّين مع الفرنج قُبيل وفاته، واشترطوا فيها أن تشمل إمارة أنطاكية[2]، إلى قيام حالة من السِّلْم بين أنطاكية والممالك الأيُّوبيَّة التي قامت بعد موت السُّلطان، والتي التزمت بالمُعاهدة، وخاصَّة مملكة حلب، التي حكمها الظَّاهر غازي بن السُّلطان صلاح الدِّين، وهي المملكة الأيُّوبيَّة الأكثر اهتماماً والتصاقاً بمملكة الأرمن وإمارة أنطاكية، لمُجاورتها بحُدُود طويلة.

إن حالة السِّلْم التي أقامتها مملكة حلب الأيُّوبيَّة مع إمارة أنطاكية الفرنجيَّة، فرضت نوعاً من التَّوتُّر بينها وبين مملكة أرمينية، لكنَّ الملك الظَّاهر صاحب حلب سعى جاهداً لتهدئة الوضع مع الأرمن؛ ليتفرَّغ لمشاكله مع عمِّه العادل في أوَّل الأمر، ولمَّا عادت الأُمُور إلى مجاريها بينهما، واستقرَّ كُلٌّ منهم في بلاده، كان العادل بصفته سُلطان الأيُّوبيَّة يفرض الكثير من المواقف على الظَّاهر تجاه علاقاته بالأرمن وأنطاكية. فهل هُو التنافس الأيُّوبي؟! أم عدم وُجُود استراتيجية سياسيَّة مُوحَّدة للبيت الأيُّوبي؟! لقد كانت خُطَّة الأرمن أن يُسيطروا سلْمياً، وبطريقة شبه شرعية، على أنطاكية، لكنَّ مُخطَّطاتهم واجهت العراقيل، فعندما تُوفِّي أمير أنطاكية الفرنجي بُوهمند الثَّالث[3]، خلفه كوريث شرعي، ابن ابنه ريموند، الذي كان قد تُوفِّي في حياة والده، وهذا الابن هُو حصيلة زواجه من الأميرة

---

1 - مُفرِّج الكرُوب، ابن واصل، 2/ 319.
2 - مُفرِّج الكرُوب، ابن واصل، 2 / 403.
3 - بُوهمند الثَّالث: عاش في الفترة ما بين سنوات 558 ـ 597 هـ ـ 1163 ـ 1201 م.

الأرمنية أليس ابنة روبين الثَّالث أخو ليون الثَّاني[1] ملك أرمينيا، وذلك حسب القانون السَّائد بتوريث الابن الأكبر، لكنَّ عمَّه بُوهمند الرَّابع صاحب طرابلس حضر بسُرعة إلى أنطاكية، وأعلن ـ يوم دَفْن والده بُوهمند الثَّالث ـ وراثته للعرش، وأيَّده في ذلك رجال الدِّين والقُوَّات العسكريَّة النِّظاميَّة والدَّاويَة في أنطاكية، وهذا التأييد كان ضدَّ طموح ليون الثَّاني بمَدِّ سيطرته على أنطاكية[2]، فما كان من ليون إلاَّ أن حشد قُوَّات الأرمن، وهاجم أنطاكية عام **601 هـ ـ 1205م**، "فسيَّر الملك الظَّاهر غازي عسكراً من حلب لنجدة البرنس صاحبها، فلمَّا وصلوا العاصي، ضعف أمر ابن لاون، وأخرجوه من أنطاكية، وقتلوا جماعة من أصحابه، فعاد عسكر حلب إليها"[3]، لكنَّ ابن لاون اعتبر أن حلب فسخت الهُدنة معه، فأغار على العمق، واستاق مواشيها، وأرسل إلى الملك الظَّاهر "وسأله أن يُخلِّي بينه وبين أنطاكية، وأن يُعيد جميع ما أخذه من العمق، فأجابه إلى ذلك، وهادنه على هذا الأمر" فعاد ابن لاون للهُجُوم على أنطاكية، "فكان الظَّاهر يمدُّ أهل أنطاكية بالغلال حتَّى قويت"[4]. ويبدو أن هذا قد أزعج ابن لاون، واعتبره مُخالفاً للهُدنة مع الظَّاهر، ففي عام **602 هـ ـ 1206م**، هاجم دربساك، ونهب أرض العمق، فسيَّر الظَّاهر قُوَّةً من عسكره بقيادة ميمون القصري[5]، فهاجمه ابن لاون على حين غرَّة، ثُمَّ عاد عنه. وخرج الملك الظَّاهر من حلب وقد جاءته النجدات من عمِّه العادل وغيره من بني أيُّوب، وَعَسْكَرَ بمرج دابق، ثُمَّ تحرَّك إلى سهل العمق، فأرسل ابن لاون يعرض الصُّلح، فلم يلتفت إليه، ولمَّا ألحَّ؛ تمَّ الاتِّفاق على أن يردَّ ابن لاون جميع ما أُخذ في الغارة، ويُحرِّر جميع أسارى المُسلمين، وأن لا يعرض لأنطاكية[6].

---

1 - ليون الثَّاني: عاش في الفترة ما بين سنوات 583 ـ 616 هـ 1187 ـ 1219 م.

2 - راجعْ: ذيل وليم الصُّوري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8/ 359. ومملكة حلب، كمال بدور، 119 ـ 120.

3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 225، وتاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، ستيفن رنسيمان، 3/ 170، وحسين عطية، إمارة أنطاكية، 255.

4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 226.

5 - نسبة إلى قصر الخُلفاء الفاطميين؛ حيثُ أخذه صلاح الدِّين، وضمَّه إلى مواليه.

6 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 762 ـ 628، والكامل في التاريخ، 12/ 238، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 102، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 170، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 406.

أرمينيا ومملكة حلب:

ويبدو أن هذه المُعاهدات والهُدنات بين مملكة حلب والأرمن لم تكن لتعني شيئاً للطرفَيْن كلَيْهما، حين يكون أحدهما في وضع مُناسب ضدَّ الآخر، فعندما حشد سُلطانُ سلاجقة الرُّوم كيخسرو قُوَّاته للهُجُوم على بلاد الأرمن عام 605 هـ 1209م، طلب نجدةَ الملك الظَّاهر، فأمدَّه بقُوَّة عسكريَّة يقودها سيف الدِّين بن علم الدِّين ومعه عدد من الأُمراء. فدعموا هُجُوم كيخسرو على برتوس[1]، ففتحوها مع عدَّة حُصُون[2]. ولكنَّ دعماً غير مُتوقَّع يأتي إلى ابن لاون من الملك العادل، فبعد أن راسله ابن لاون كتب إلى كيخسرو وإلى الظَّاهر كي يكفَّا عنه، وفعلاً؛ استجابا إلى طلبه، وعقد الصُّلح مع ابن لاون[3]، ممَّا يدلُّ على عدم وُجُود تنسيق بين الممالك الأيُّوبيَّة في علاقاتها السِّياسيَّة تجاه مملكة أرمينية، ورُبَّما كان الأمر كذلك بالنِّسبَة لبقية الدُّول الأجنبية. كما يدلُّ على تحرُّك سياسي واسع لملك الأرمن، وعلى معرفته الجيِّدة بالعلاقات بين الممالك الأيُّوبيَّة، ممَّا مكَّنه من اللعب على حبال الخلافات بينها أكثر من مرَّة.

وتتَّضح معالم حلف غير مُعلَن تجمَّعت أطرافه وُفقاً لمصالحها، بغَضِّ النظر عن الانتماءات والعقائد، فنجد الملك الظَّاهر غازي صاحب حلب في صفٍّ واحد مع بُوهمند الرَّابع أمير أنطاكية ومعه طائفة الدَّاوية، وكيخسرو سُلطان سلاجقة الرُّوم، يُقابلهم السُّلطان العادل في صفٍّ واحد مع ليون الثَّاني ملك أرمينية ومعه طائفة الاسبتاريَّة[4]. يتحدَّث الكاتب الفرنجي المجهول لذيل تاريخ وليم الصُّوري عن العلاقة بين حلب ومملكة الأرمن من خلال الصراع حول أنطاكية، فيقول: "أرسل الكُونت من داخل أنطاكية إلى سُلطان حلب يطلب المُساعدة ضدَّ الأرمن، وكان سُلطان حلب لا يُحبُّ ملك أرمينية، ووافق ذلك أمير أنطاكية، الذي كان بإمكانه المُقاومة ضدَّ ملك أرمينية، وأنْ يحول بينه وبين السيطرة على أنطاكية، ودامت الحُرُوب سبع سنوات، ثُمَّ سُلِّمَتْ أنطاكية إلى

---

1 - وهي في مُفرِّج الكُرُوب: بغرقوس (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3 / 187)، - ويقول د. سُهيل زَكَّار في تحقيق كتاب زُبْدَة الحَلَب: لعلَّها تصحيف عربسوس؛ أيْ أفسوس. (زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 629).

2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 629.

3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 629.

4 - Armenia cradle of civilization, Lang. p. 200

ملك أرمينية عن طريق الخيانة"[1]، ففي عام 612 هـ 1215م، تمكَّن ابن لاون ملك الأرمن من السيطرة على أنطاكية[2] بمُساعدة الاسبتاريَّة[3]، وكعربون صداقة وبداية لعلاقات أفضل، "أطلق جماعة من أسرى المُسلمين فيها، وحملهم إلى حلب، ووقع الصُّلح بينه وبين الملك الظَّاهر"[4]، وكتب ابن لاون إلى الملك الظَّاهر: "إنَّه فتح أنطاكية باسمه، وإنَّه أطلق أسرى المُسلمين، وسيَّرهم إلى حلب"[5]. وكذلك وفى ابن لاون بوعده، وسلَّم قلعة بغراس إلى الدَّاويَة، وعاد إلى بلاده؛ لأن عزّ الدِّين كيكاوس سُلطان سلاجقة الرُّوم لم يُهادنه، وباشر بشَنِّ الغارات على بلاد أرمينية، وفتح إحدى قلاعها المنيعة؛ وهي قلعة لُؤلُؤ[6]. وقبل أن يُغادر ابنُ لاون أنطاكيةَ نصب فيها "ابن أُخته روبين بن ريمند بن ريمند الكبير"[7].

ويبدو أن صُلح الظَّاهر صاحب حلب مع مملكة الأرمن لم يُعجب كيكاوس، ففي عام 613 هـ 1216م، ضغط على الظَّاهر، وألحَّ عليه للهُجُوم على الأرمن، وكانت خُطَّته أن يُهاجم كيكاوس من جهة مرعش، ويهجم الظَّاهر من جهة دربساك، فيحصرا ابن لاون وجيشه بين فكَّيْ كمَّاشة، وبالوقت نفسه؛ يُهاجم البرنس أنطاكية، تدعمه قُوَّات دمشق وحمص وحماه[8]. نظرياً؛ إنَّها خُطَّة مُحكمة وفاعلة بالتَّأكيد؛ حيثُ يحصر ابن لاون في المُرتفعات، ولا يُمكنه الخُرُوج بجيشه من الدربندات[9] لإنقاذ أنطاكية، التي يُهاجمها صاحبها السَّابق الإبرنس بقُوَّات دمشق وحمص وحماه، ولكنْ؛ عملياً، يبقى الاتِّفاق ناقصاً مُوافقة الملك العادل سُلطان الأيُّوبيَّة، وهُو صاحب القرار في دمشق، والتأثير الكبير في حمص وحماه، ورُبَّما كان يأمل كيكاوس أن يتكفَّل الظَّاهر بتأمين مُوافقة عمِّه العادل.

1 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 8/ 484.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار،20/ 174.
3 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد،، 1/ 2/ 408.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 233.
5 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 408.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 233.
7 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 406، ـ بقيت أنطاكية بيد روبين حتَّى قصدها السُّلطان الظَّاهر بيبرس، وفتحها عام 666 هـ(الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 408).
8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 234.
9 - الدربندات: جمع دربند، وهي الممرَّات الوعرة في جبال طوروس.

وبالفعل؛ فقد أعجبت الخُطَّةُ الملكَ الظَّاهر، الذي لم يكن له استراتيجية ثابتة في التعامل مع الأرمن، أو مع أنطاكية، وكان هَمُّهُ تأمين طريق تجارة حلب البحري مع أنطاكية، لكنْ؛ بدُون انتهاج خُطَّة دائمة وثابتة للتعامل معها، فلم يلتزم ـ بشكل كامل ـ لا مع أُمراء أنطاكية، ولا مع مملكة أرمينية، ولا مع مملكة سلاجقة الرُّوم، إنَّما كان يتبع تكتيكاً سياسيَّاً آنيَّاً، لا يدلُّ على بُعْد نظر، وهذا غير مُستغرَب على الظَّاهر، فقد كانت هذه سياسته في الشَّام، وضمن البيت الأيُّوبي. وأخذ الملك الظَّاهر بالاستعداد العسكري للحملة، وأرسل إلى عمِّه السُّلطان العادل يطلب منه الدعم لإتمام الخُطَّة، فأرسل إليه العادل يُهجِّن رأيه، ويطلب منه آلا يجتمع بكيكاوس أصلاً، وشرح له الورطة التي يُمكن أن يُوقع نفسه فيها، فأصابت الظَّاهر الحَيْرَةُ بين أن ينكل بوعده لكيكاوس وبين مُخالفة عمِّه[1].

وكأن السُّلطان العادل كان يرى أن خطر مملكة الأرمن يشغل بال الظَّاهر غازي عن المُطالبة بالسَّلْطَنَة، فتدخَّل لمصلحة الأرمن، وألحَّ على الظَّاهر بعقد الصُّلح معهم.

ومرَّة أُخرى؛ يثبت ابن لاون مقدرته السِّياسيَّة، ويُثبت أكثر اطِّلاعه على ما يجري ضمن البيت الأيُّوبي، فقد توجَّه ـ هذه المرَّة ـ برسالته إلى الملك الظَّاهر، ويبدو أنَّه كان يُدرك أن موقف الملك العادل مُناسب له، فركَّز على الملك الظَّاهر، وأوصل إليه رسالة فيها كُلّ ما يُريده الظَّاهر، وكأنَّه كان يعرف تماماً ما يُريده الظَّاهر، فقد بدأ رسالته بالتذلُّل والخُضُوع، وهُو ما يُناسب شخصية الظَّاهر، التي تملك طموحاً كبيراً مُستمدَّاً من إرث والده العظيم، ولا يملك مُقوِّمات شخصية والده لتحقيق طموحاته، فكلمات ابن لاون المستعطفة المتذلِّلة التي أجاد انتقاءها؛ حيثُ يقول: "إني مملوك السُّلطان، وغرس دولته، وقد دخلت عليه دُخُول العَرَب، وأطلب منه إنقاذي من هذه الورطة، وأكون مملوكه ما عشتُ"[2]، لابُدَّ أن هذه الكلمات فعلت فعلها في نفس الظَّاهر. ثُمَّ ينتقل ابن لاون في رسالته إلى تعداد خدماته السابقة للظاهر، ويذكره بها استعطافاً؛ كي لا يردَّ الجميل بالمكروه، فيقول: "وقد حفظتُ بلاد السُّلطان غير مرَّة، وخدمتُهُ، ومنها: أن السُّلطان لَمَّا حاصر دمشق المرَّة الأُولى، وبقيت البلاد شاغرة من العساكر ما شغلتُ قلبَهُ، ولا آذيتُ بلده، بل ساعدتُهُ، وعاونتُهُ بمالي

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 234.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 235.

ورجالي، وكذلك لَمَّا حاصر دمشقَ المَرّة الثَّانية، وقد بُذِلَتْ لي الأموالُ كُلّها لأشغلَ قلبَهُ، ويفتر عن الحصار، فلم أفعل"[1]. وبالطبع؛ يُشير ابن لاون إلى أشياء لم يفعلها، ولم يذكر ما قام بفعله ضدَّ مملكة حلب، من احتلاله لبغراس وهُجُومه المُتكرِّر على أراضي العمق، وضربه لقُوَّات حلب التي كانت مع ميمون القصري.

ويلفت النظر في الرسالة تلميح ابن لاون إلى عرض الملك العادل أثناء حصار الظَّاهر لدمشق، وهُو إشارة إلى أن ذلك مُمكن أن يتكرَّر، وأنَّه قد يحالف العادل على الظَّاهر في قادمات الأيَّام.

ويُتابع ابن لاون في رسالته إلى الظَّاهر، فيُقارن بين خدمات برنس أنطاكية للظاهر وخدماته هُو، واعداً أنَّ مصالح الظَّاهر في أنطاكية ستكون مُؤمّنة أكثر، وأن أميرها سيكون في خدمته، فيقول: "وإن كان الإبرنس قد خدم السُّلطان، فخدمتي أكثر من خدمته، وسوف يبصر السُّلطان خدمتي، ومُلازمتي بابه الشريف، وقد أوصيتُ ابن أُختي الذي نصبتُهُ بأنطاكية بمُلازمة خدمته"2. لقد اجتمع على الظَّاهر تأثير رسالة ابن لاون مع تحذير عمِّه الملك العادل من القيام بالحملة، لكنَّه بقي مُتردِّداً، فقد وعد كيكاوس، وهُو جار قوي وخطر، ولا تسهل مُعاداته. وجاء الفرج للظاهر من حادثة بسيطة على الحُدُود مع مملكة السلاجقة، كان من المُمكن أن لا يلتفت إليها في غير هذه الظُّرُوف، فقد أغارت قُوَّة من عسكر سلاجقة الرُّوم على منطقة البلاط التابعة لحلب، قاصدين تجمُّعاً للأرمن فيها، لأنَّهم ساعدوا ابن لاون في غارته على بلاد سلاجقة الرُّوم، ونهبها، فلمَّا بلغ الخبر إلى مسامع الظَّاهر، انتهزها فُرصة، وقال لرسول كَيْقُبَاذ الذي يستحثُّه لسُرعة الحَرَكَة: "العجيب أنكم تطلبون منا المعاونة، وتُخرِّبون بلادنا"[3]، ولم تُجد تبريرات رسول كَيْقُبَاذ، ونجا ابن لاون من هُجُوم كان من المُمكن أن يُسبِّب له أذىً كبيراً، خاصَّة بعد إبرامه تحالفاً مع إمبراطُور نيقية البيزنطي ثيودور لاسكارس، ممَّا اضطرَّ كيخسرو ـ الذي أصبح معزولاً ـ للتحالف مع لاتين القسطنطينيَّة[4].

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 235.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 235.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 235.
4 - التُّرك في العُصُور الوُسْطَى، زبيدة عطا، 118.

ويبدو أن سياسة حلب تجاه الأرمن وإمارة أنطاكية، كانت - غالباً - تسعى لتحقيق عدم تفوُّق أيٍّ منهما على الأُخرى، فالتوازن بينهما هُو مصلحة لمملكة حلب، وممَّا يُؤكِّد ذلك أنَّه بعد وفاة الظَّاهر وعودة أنطاكية لحُكْم الفرنج قامت حملة من أنطاكية على بلاد الأرمن عام **623** هـ **1226**م، فاستنجدوا بالأتابك شهاب الدِّين طَغْريل القائم بأمر مملكة حلب، فأمدَّ الأرمنَ بجند وسلاح، مكَّنهم من التّصدِّي لقُوَّات أنطاكية، وعودتها دُون تحقيق أيِّ شيء[1].

وفي نهاية البحث؛ نستطيع أن نستنتج بأنَّ دولة الأرمن في كيليكيا قد قامت مُستغلَّة الأوضاع المُضطربة للمنطقة، وكان سرُّ نجاحهم هُو فَتْحَهُم ميناء إياس على المُتوسِّط، الذي شكَّل بديلاً لموانئ الساحل الشَّامي، التي أغلقت الحُرُوب مع الفرنجة مُعظَمَهَا. وقد لاحظنا بأنَّ الأرمن وقفوا بكُلِّ قواهم - في أوَّل الأمر - مع الفرنجة في الجزيرة والرُّهَا، يدفعهم عداءٌ ديني ضدَّ السلاجقة الأتراك، وقاتلوا مع جُيُوش الفرنجة، وشاركت قُوَّاتهم في الحملة الثَّالثة على عكَّا، لكنْ؛ بتراجع القُوَّة الفرنجيَّة - وخاصَّة بعد تحرير الرُّهَا - انقلب كثير من الأرمن على الفرنجة.

لقد ارتبطت مملكة الأرمن بعلاقة مُتناقضة مع الممالك الأيُّوبيَّة، وخاصَّة جارتها حلب، فغالباً ما كان يسود العداء المُستحكم بينهما، وعندما كان الأرمن يتنمَّرون ويُهاجمون أطراف مملكة حلب سُرعان ما كانت تُوجَّه نحوهم حملة عسكريَّة، فيعودون للخُضُوع والتذلُّل. وضمن هذا الصراع حاولت مملكة أرمينيا أن تُجرِّب سياسة اللعب على وتر الخلافات الأيُّوبيَّة، لكنَّها لم تنجح، ممَّا جعلها تحرص على إقامة علاقة طيِّبة مُتميِّزة مع جارتها حلب، وتطوَّرت العلاقات بينهما، حتَّى إن حلب دعمت الأرمن عسكريّاً في بعض المواقع.

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 465 - 466.

المبحث الرّابع:

العلاقات الدّوليّة للإمبراطُوريّة البيزنطيّة

كانت القسطنطينيّة عاصمة الإمبراطُوريّة البيزنطيّة تعيش شعبياً في حالة مزرية من الانحطاط الأخلاقي، ورَسْمِيّاً؛ تُسيطر عليها نزعة الانقلابات على الأباطرة، وسَحْلهم في الشوارع، وأحياناً؛ أكل جُثثهم[1]. وكانت الدولة تعيش أسوأ أوقاتها في العصر الأيُّوبي، فسلاجقة الرُّوم قد سلخوا منها قسماً كبيراً وهامّاً في الأناضول، وقامت في كيليكيا مملكة الأرمن، التي مع كونها مسيحيّة أرثوذكسية، لكنَّها مُتعصِّبة لقوميَّتها غير مُستعدَّة للانصياع لبيزنطة. كما أن الفرنجة رغم مُحاولاتهم المُتعدِّدة للتفاهم، إن لم نقلْ التحالف مع بيزنطة، فقد ظلُّوا ـ على الدوام ـ مصدر خطر حقيقي لها في عُبُورهم للشرق، وفي وُجُودهم فيه، حتَّى فتحوا القسطنطينيّة، وأقاموا فيها الحُكْم اللاتيني، الذي استمرَّ حوالي ستِّين عاماً[2]. كُلُّ ذلك جعل أباطرة بيزنطة يسعون لإقامة علاقات طيِّبة مع السُّلطان الأيُّوبي، ولم تتعدَّ علاقاتهم مركزَ السُّلطة الأيُّوبيَّة الكُبْرَى إلى الممالك، أو الإمارات. ورُبَّما كان ذلك بسبب عدم وُجُود علاقات قويَّة من جهة، ولعدم وُجُود حُدُود مُشتركة، أو مصالح كُبْرَى مُشتركة بين البلدَيْن.

بيزنطة والحملات الفرنجيَّة على سُورية ومصر:

رُبَّما شعر أباطرة بيزنطة بخطر الحملات الفرنجيَّة التي تجتاز بلادهم، وحاولوا ـ ببراعة ـ تفادي الصدام بها، لكنَّ مُحاولتهم الأهمّ كانت لتسخير هذه الحملات لصالحهم، والاستفادة منها ما أمكن. لذلك تُعدُّ بيزنطة ذات مُساهمة جدِّيَّة في نجاح الحملات الفرنجيَّة الأُولى، فقد ساعدتهم بأسطُولها، الذي كان من أقوى الأساطيل في شرق المُتوسِّط، ولولا ارتياب كُلٍّ منهم بالآخر، لتمكَّنوا مُتَّحدين من تحقيق نجاحات كُبْرَى[3]. لقد كان الفرنجة في الحملات الأُولى، وقبل أن يقتنعوا بأفضلية الطريق البحري المُباشر، مُضطرِّين للعُبُور في أراضي بيزنطة، ورغم وحدة الدِّين المسيحي بينهما، فإن اختلاف المذهب ـ والأهمّ منه اختلاف المصالح السِّياسيَّة والعسكريَّة بينهما ـ

---

1 - ذيل وليم الصُّوري، مخطوطة ليون، 828، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8/ 265، وكان قد حصل ذلك للإمبراطُور أندرونيكسون، عندما ثار عليه كيرساك، وقتله، ثُمَّ سلَّمه إلى النساء، فمزَّقنهُ، وأكلنَهُ حتَّى آخر جُزء منه.

2 - أقام الفرنج إمبراطُوريَّتهم اللاتينيَّة في القسطنطينيَّة في عام 1204م، واستمرَّت حتَّى عام 1261م.

3 - سبع معارك، جوزيف داهموس، ترجمة: فتحي الشاعر، 110.

قد عقَّد مسألة عُبُور الفرنجة للأراضي البيزنطيَّة بشكل كبير، وتمَّ العُبُور في مراحل كثيرة منه بـالقُوَّة، أو بتهديد القُوَّة، فنهب الفرنجةُ البلادَ، وقتلوا الناسَ، وبالمُقابل؛ تآمر البيزنطيون عليهم، وضلَّلوهم، وهاجوهم عندما كانوا يتمكَّنون من ذلك، ويصف هذه الحالَ صاحبُ أعمال الفرنجة المُرافق للحملة الأُولى من وجهة نظر الفرنجة بقوله: "وثقنا بألكسيوس[1] وأتباعه، وصدَّقناه، واعتقدنا أنَّهم إخواننا في المَسيحيَّة، وحُلفاؤنا، لكنَّهم انقضُّوا علينا بوحشية كالأسود، وهجموا على رجالنا وهُـم غـافلون، ذبحوا رفاقنا في الحدائق، وكُلّ مَن ابتعد عن المُعسكر، في حـين كـان قائـدهم حنَّـا كومينـوس يعـدُ بالسلام"[2].

لكنَّ كُلَّ ذلك لم يمنع قيام تعاون عسكري بينهما ضدَّ المُسلمين، فبعد أن وطَّد الفرنجةُ أقـدامَهُم في الشَّرْق، حاولت بيزنطةُ الاستفادةَ من هذا الوضع الجديد، وتسخيره لمصلحتها، خاصَّة بعد أن بـدأت تظهر ملامح القُوَّة الإسلاميَّة عندما تمكَّن صلاح الدِّين من حُكْـم مـصر، وتوحيـدها مـع الـشَّام تحت حُكْم نُور الدِّين، فشعر الفرنج بجدِّيَّة الخطر، الذي بات يُشكِّله، فكاتبوا الرُّوم في بيزنطة، بعد أن فشلوا في تأمين الدعم اللازم من أُورُبة، ولبَّى طلبهم بسُرعة الإمبراطُور مانويل[3]، الذي عبَّأ أُسطُوله، وانـضمَّ إلى الفرنج، ومن ثَمَّ؛ هاجموا دمياط عام **565** هـ ـ **1170**م، بقـصد احتلالهـا رأسـاً لجسر يعـبرون إليـه للسيطرة على مصر كُلِّها. كان قائد الحملة الملك أمـوري صـاحب مملكـة القُـدْس، وسـاهم الأُسـطُول البيزنطي المُشارك بكثافة في هذه الحملة بتأمين النقل والدعم والإسناد البحري لها[4].

ويصف وليمُ الصُّوري حصارَ الحملة لدمياط، ويذكر المُقاومةَ الـشديدةَ، وعمليـات إحـراق السُّفُن، التي ألحقت نكبـة ـ بـلا شـكٍّ ـ بالأُسـطُول البيزنطـي[5]، فلـم يـستطع الأُسطُول مُواصـلة الحـصار، وانـسحب بعـد خمـسين يومـاً[6]. يقـول صـلاح الـدِّين في رسـالة إلى الخليفـة المُستـضيء:

1 - ألكسيوس: هُو ألكسيس الأوَّل إمبراطُور بيزنطة: (1081 ـ 1118 م).
2 - أعمال الفرنجة، مُؤرِّخ مجهول، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 6/ 180.
3 - مناويل الأوَّل: عاش في الفترة ما بين سنوات 1143 ـ 1180م.
4 - راجعْ: مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 1/ 180.
5 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 3/ 380.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 1/ 179، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 73.

إن المراكب البيزنطيَّة التي هاجمت دمياط "كانت ألف مركب مُقاتل وحامل"[1]. ويقول المقريزي إن الأُسطُول المُحاصر لدمياط كان يُعدُّ ألفاً ومائة مركب، وإنَّه قد غرق منها أثناء الحصار نحو الثلاثمائة مركب[2]، وهذه ـ بلا شكٍّ ـ خسارة كبيرة للبيزنطيين، أجبرتْهُم ـ فيما بعد ـ على نَبْذ سياسة التعاون العسكري مع فرنجة الساحل الشَّامي، ولكنْ؛ من جهة أُخرى، كان فشل هذه الحملة البيزنطيَّة الفرنجيَّة المُشتركة مُفيداً لظهور شخصية القائد صلاح الدِّين، ولتمكُّنه ـ في المُستقبل ـ من تحقيق مشروعه للتوحيد والتحرير[3].

العلاقات البيزنطيَّة الأيُّوبيَّة:

بعد موت نُور الدِّين محمود وتولِّي صلاح الدِّين أُمُور الدولة في مصر ومُعظم الشَّام، كان صلاح الدِّين يَعُدُّ إمبراطُور بيزنطة من أكبر أعدائه، ففي رسالة من إنشاء القاضي الفاضل إلى الخليفة العبَّاسي المُستضيء؛ يقول صلاح الدِّين:

"أمَّا الأعداء الذين يُحدقون بهذه البلاد، والكُفَّار الذين يُقاتلونها بالممالك العظام والعزائم الشداد؛ فمنهم صاحب قسطنطينية، وهُو الطاغية الأكبر والجبَّار الأكفر، وصاحب المملكة التي أكلتْ على الدهر، وشربتْ"، ثُمَّ يصف صلاح الدِّين في رسالته العلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة بينه وبين إمبراطُور بيزنطة[4]، فيقول: "وجرت لنا معه غزوات بحرية، ومناقلات ظاهرية وسرِّيَّة، وكانت له في البلاد مطامع، فأخذنا، ولله الحمد، بكظمه، .. ولم نخرج من مصر، إلى أن وصلتنا رُسُلُهُ في جُمعة واحدة في نوبتَيْن، كُلّ واحدة منهما يظهر فيه خفض الجناح وإلقاء السلاح، والانتقال من مُعاداة إلى مهاداة . . حتَّى إنَّه أنذر بصاحب صقلية وأساطيله"[5]. فبعد أن جرَّب إمبراطُور بيزنطة القُوَّة ضدَّ الدولة الأيُّوبيَّة لتحقيق مطامعه، وتأكَّد من عدم جدواها غير سياسته، واعتمد سياسة التفاهم والتصالح مع الدولة الأيُّوبيَّة، وأرسل رُسُلَهُ تترى إلى صلاح الدِّين، وبرهن عن حُسن نيَّته

1 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 13/ 85.
2 - اتِّعاظ الحُنفا، المقريزي، 3 / 315 ـ 316.
3 - راجعْ: تاريخ الفاطميين، مُحمَّد سهيل طقوش، 519.
4 - الإمبراطُور مانويل الأوَّل.
5 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 13/ 87.

بإبلاغ صلاح الدِّين عن تحرُّك صاحب صقلية، وحملته التي تمَّتْ ضدَّ الإسكندرية، وفتحت ـ بذلك ـ صفحة جديدة من العلاقات الوُدِّيَّة بين بيزنطة والدولة الأيُّوبيَّة الفتية.

وبعد أن تمكَّن صلاح الدِّين من هزيمة الفرنج في حطِّين، وتحرير قسم كبير من البلاد من سيطرتهم، أصبح صلاح الدِّين قُوَّة إسلامية كُبْرَى، وكانت علاقات بيزنطة بأُورُبة الكاثوليكية وبفرنجة الساحل الشَّامي قد ازدادت سُوءاً، فرغم تدفُّق مُلُوك أُورُبة وجُيُوشهم لسَحْق صلاح الدِّين، وتكالبهم على حصار عكَّا، نجد أن الإمبراطُور البيزنطي إسحق الثَّاني[1] أرسل إلى صلاح الدِّين رسولاً عام **586** هـ ـ **1190**م، يحمل رسالة شفهية ورسالة خطِّيَّة مع هدايا إلى السُّلطان، فقابله الملك العادل، فأبلغه: أن الإمبراطُور "لم يُجب ملك الألمان وصاحب صقلية وغيرهم من جُيُوش الفرنج المُوافقة على حرب السُّلطان، وإطلاق طريقهم، ونصحهم بالتأخُّر للسنة القادمة"[2]، ونقل القاضي الفاضل ما جرى في لقاء رسول ملك الرُّوم إلى السُّلطان برسالة من إنشائه، ثُمَّ عقَّب عليها برأيه، قال: "وهذا ملك الرُّوم خائف من الفرنج على بلده، مُدافع عن نفسه، إنْ تمَّ له الدفع ادَّعى أنَّه بسببنا، وإنْ لم يتمّ ادَّعى أنَّه غائب عن مقصده، وعن مقصدنا"، وقال القاضي الفاضل: إن ملك الرُّوم يطلب أن يُعيِّن البطاركة في كَنيسَة القيامة من قبله، حتَّى يستطيع أن يُقيم العذر لنفسه بمحالفة السُّلطان، وسماحه ببناء مسجد في القسطنطينيَّة تُقام فيه الصلاة والخطبة الإسلاميَّة. ثُمَّ يقترح القاضي الفاضل على السُّلطان أن تكون إجابته للرسول بعد تفكير وتثبيت، وأن لا يكون فيها ما يُوجب على الإسلام غضاضة، ثُمَّ يُعطي القاضي رأيه بملك الرُّوم، مُلخِّصاً العلاقة بين بيزنطة والدولة الأيُّوبيَّة، بقوله: "والعلَّة ما أفلح ملك الرُّوم قطُّ، ولا نفع أن يكون صديقاً، ولا ضرّ أن يكون عدوَّاً"[3].

---

1 - إسحق الثَّاني: عاش في الفترة ما بين السنوات 1185 ـ 1195م.

2 - أشاع الفرنج أن إسحق كان صديقاً لصلاح الدِّين، وأنَّه تآخى معه. حملة الملك ريتشارد إلى الأراضي المُقدَّسة، شاهد عيان، الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 31/ 50، ـ وحقيقة الأمر هي صدام المصالح والنُّفُوذ والاختلاف العقائدي بين الرُّوم والفرنجة.

3 - الروضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19/ 308 ـ 309.

فاغتنم صلاحُ الدِّين الفُرصة، وكما طلب الإمبراطُور أن تكون رُهبانه في كَنيسَة القيامة، وهي في بلاد السُّلطان، أرسل إليه رسولاً لإقامة الخطبة في مسجد القسطنطينيَّة[1]، فمضى الرسول، وأقام الخطبة، ولُقي باحترام عظيم وإكرام زائد، وكان السُّلطان قد أنفذ معه في المركب الخطيب والمنبر وجمعاً من المُؤذِّنين، وكان يوم دُخُولهم إلى القسطنطينيَّة يوماً مشهوداً عظيماً من أيَّام الإسلام[2].

ويبدو أن الطلبات بدأت بالتبادل بين بيزنطة والدولة الأيُّوبيَّة، ففي عام **590** هـ **1194**م، قدم رسول إمبراطُور الرُّوم يطلب صليب الصلبوت، "فأُحضر من القُدْس، وكان مُرصَّعاً بالجوهر، وسُلِّم إليه"[3]. ثُمَّ ورد في العام التالي **591** هـ **1195**م، كتاب إمبراطُور الرُّوم[4]: أن كلمه الرُّوم قد اجتمعت عليه، وأنَّه يُحسن إلى المُسلمين في بلاده، وهم يُقيمُون الجمعة فيها، وأنَّه ساعدهم بماله على بناء جانب من الجامع كان قد تهدَّم. "والتمس الوصية بالبطرك والنصارى، وأن يُمكَّنوا من إخراج موتاهم بالشمع المُوقد، وإظهار شعائرهم بكنائسهم، وأن يُفرج عن أسارى الرُّوم بمصر"[5].

كُلُّ ذلك يدلُّ على أن العلاقات السِّياسيَّة بين الطرفَيْن قد وصلت إلى مرحلة مُتقدِّمة جدّاً من الوُدِّ والتعاون، ولكنَّها لم ترتق إلى مرحلة تعاون مُعلَن ضدَّ الفرنج، الذين هُم - في الواقع - أعداء للطرفَيْن.

العلاقات بعد احتلال الفرنج للقسطنطينيَّة:

ولم يطلْ هذا التفاهم البيزنطي الأيُّوبي؛ إذ إنَّه في عام **600** هـ **1204**م، استولى الفرنج على القسطنطينيَّة، وأزالوا حُكْم الرُّوم منها[6]. فقد أعلن أنوسنت بابا رُوما عام **595** هـ **1199**م: "أن كُلَّ مَنْ يحمل الصليب، ويخدم جيش الرَّبِّ سنة نغفر له أيَّ خطيئة ارتكبها"، فاندفع عدد كبير من المُتطوِّعين والحُجَّاج الفرنج فيما عُرفَ بالحملة الرابعة، واختاروا البُنْدُقيَّة ميناءً لإبحارهم نحو

1 - وهُو المسجد القديم الذي بُني في عهد بني أمية.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، 2/ 228 ـ 229.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 322.
4 - الإمبراطُور ألكسيس الثَّالث: عاش في الفترة ما بين سنوات 1195 ـ 1203م.
5 - السُّلُوك، المقريزي، 229.
6 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 105، ـ ويجعله أبو شامة عام 601 هـ(ذَيْل الرَّوضَتَيْن، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 100، وكذلك في كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 158).

الشَّرق؛ لأن فيها أكبر عدد من السُّفُن[1]. وحوَّل البنادقة وجهة الحملة وُفقاً لهواهم، وانقضُّوا على القسطنطينيَّة بسبب عدم حُصُولهم فيها على امتيازات تجارية تُناسبهم، وتمكَّنوا من الاستيلاء عليها، "وانتهبوا ذخائرها، وما حوتْهُ كنائسها من آلات ورُخام، وحملوه إلى الديار المصريَّة والشامية، فبيع، ووصل منه إلى دمشق رُخام كثير"[2]. وأقام الفرنجُ مملكتَهُم في القسطنطينيَّة، واستمرَّ حُكْمهم لها حتَّى عام **660** هـ **1261**م[3].

ثُمَّ تمكَّن الرُّوم من إحياء دولتهم في أطراف الإمبراطُوريَّة الشَّرقيَّة، فقد قامت دولة في طرابزون جنوب شرق البحر الأسود، ما بين أعوام **4120 ـ 1222**م، كان مُؤسِّسها وأوَّل مُلُوكها ألكسيس كومننس الأوَّل. وقامت دولة في نيقية ما بين أعوام **4120 ـ1261**م، أوَّل مُلُوكها ثيودوروس الأوَّل لاسكاريس، ونسبة إليه عرف العَرَبُ كُلَّ مُلُوك هذه الأُسرة باسم الأشكري[4]، وهي تقريب للفظة لاسكاريس إلى العَرَبيَّة.

وبعد أن وطَّدت دولة الرُّوم في نيقية أُمُورها أرسل ملكها[5] رسولاً في البحر عام **624** هـ إلى السُّلطان الكامل بعد انتصاره في دمياط على حملة الفرنج، وعرض صداقته ومودَّته[6]، ولا نعرف كيف كان ردُّ الكامل، لكنَّنا نتوقَّع أن يكون ردّاً دبلوماسياً، فلم يكن السُّلطان الكامل في ذلك الوقت ليُعلِّق كبير أهمِّيَّة على التعاون مع هذه الدولة.

وفي المحصِّلة نُلاحظ بأنَّ العلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة لبيزنطة مع الدولة الأيُّوبيَّة قد ارتبطت بمُجريات الحملات الفرنجيَّة، وبعلاقات بيزنطة مع الفرنجة. فقد حاولت بيزنطةُ ـ أوَّل الأمر ـ تسخيرَ الحملات لصالحها، وفي ظلِّ هذه السياسة؛ قامت بيزنطة بحملة مُشتركة ضدَّ الدولة الأيُّوبيَّة بعهد صلاح الدِّين، ولمَّا تأكَّدت بيزنطة من استحالة تسخير قُوَّة الفرنجة، انقلبت عليهم، وحاولت أن تمدَّ يداً مُرتعشة للتحالف مع السُّلطان صلاح الدِّين، وحاولت استرضاءه، فتعدَّدت

---

1 - الاستيلاء على القسطنطينيَّة، فيلهاردين، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 10/ 32.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 100، وكَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 158.
3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 105.
4 - التعريف بالمُصطلح الشريف، العمري، 55.
5 - الإمبراطُور يُوحنَّا الثَّالث: عاش في الفترة ما بين السنوات 1222 ـ 1254م.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 149.

رُسُلُ بيزنطة، وهداياها، وطلبوا من السُّلطان أن يمنحهم نُفُوذاً دينياً في القُدْس، مُقابل فتح مسجد القسطنطينيَّة. وبعد أن احتلَّ الفرنجةُ القسطنطينيَّةَ، حاول الإمبراطُور البيزنطي في نيقيه الاتِّفاق مع السُّلطان الكامل ضدَّ الفرنج، لكنْ؛ لم يُترجَم هذا الاتِّفاق لأيِّ خُطوات عملية.

بعض الأباطرة البيزنطيُّون

. الكسيس الأوَّل: 473 . 512 هـ 1080 . 1118م (عاصر الحملة الفرنجيَّة الأُولى).

. يُوحنَّا الثَّاني: 512 . 538 هـ 1118 . 1143م.

. مناويل الأوَّل: 538 . 576 هـ 1143 . 1180م.

. الكسيس الثَّاني:576 . 579 هـ 1180 . 1183م.

. اندونيكس الأوَّل: 579 . 581 هـ 1183 . 1185م.

. إسحق الثَّاني: 581 . 561 هـ 1185 . 1195م.

. الكسيس الثَّالث: 561 . 599 هـ 1195 . 1203م.

. إسحق الثَّالث: 599 . 600 هـ 1203 . 1204م.

. الكسيس الخامس: 600 هـ 1204م.

. قسطنطين الحادي عشر: 600 هـ 1204 (فتح الفرنج للقسطنطينيَّة).

الأباطرة البيزنطيُّون في نيقية

. قسطنطين الحادي عشر: 600 هـ 1204م.

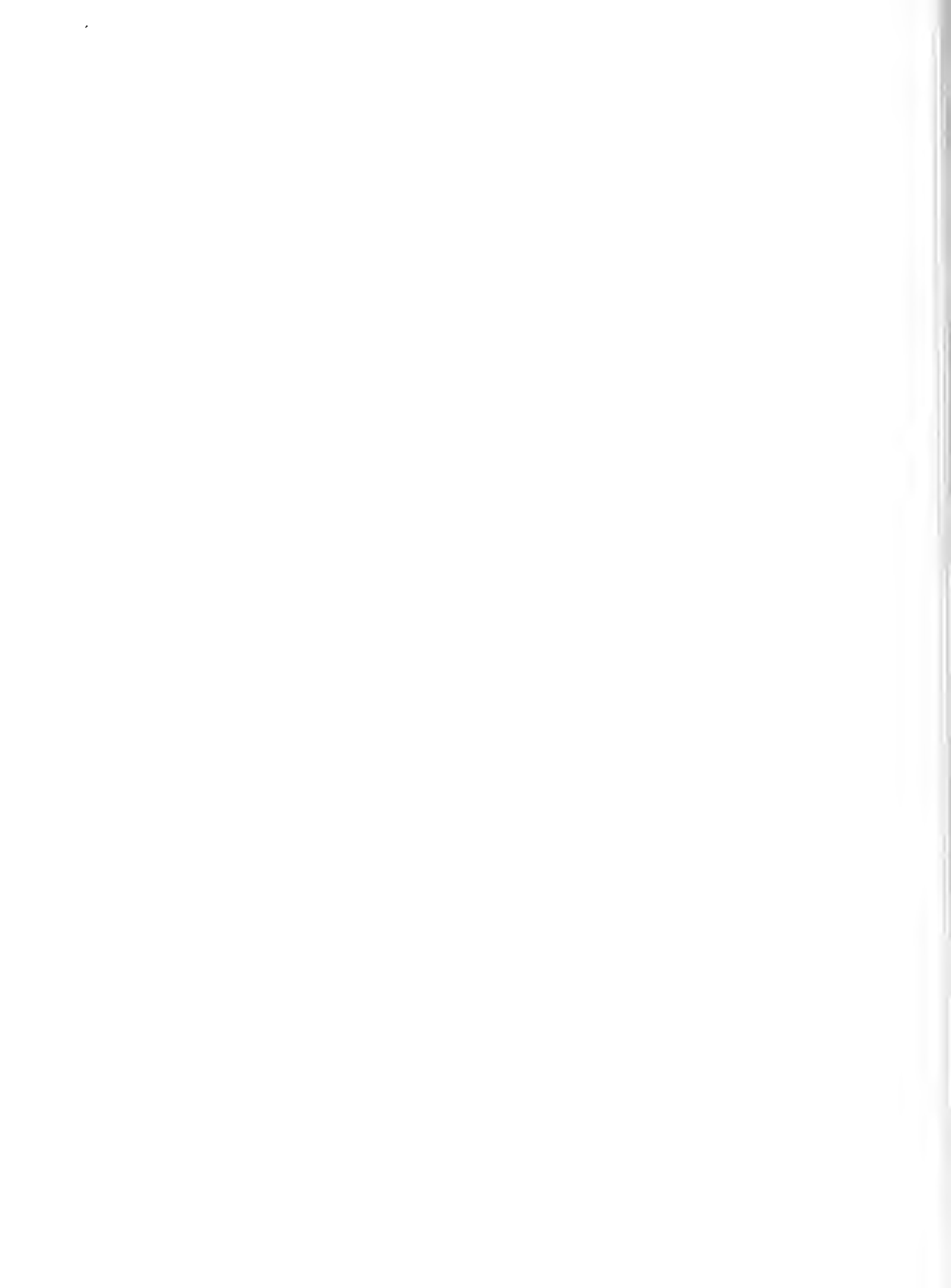
. تيودوروس الأوَّل: 600 هـ 619 هـ 1204 . 1222م.

. يُوحنَّا الثَّالث: 619 . 652 هـ 1222 . 1254م.

. تيودورس الثَّاني: 652 . 656 هـ 1254 . 1258م.

. يُوحنَّا الرَّابع: 656 هـ 1258م.

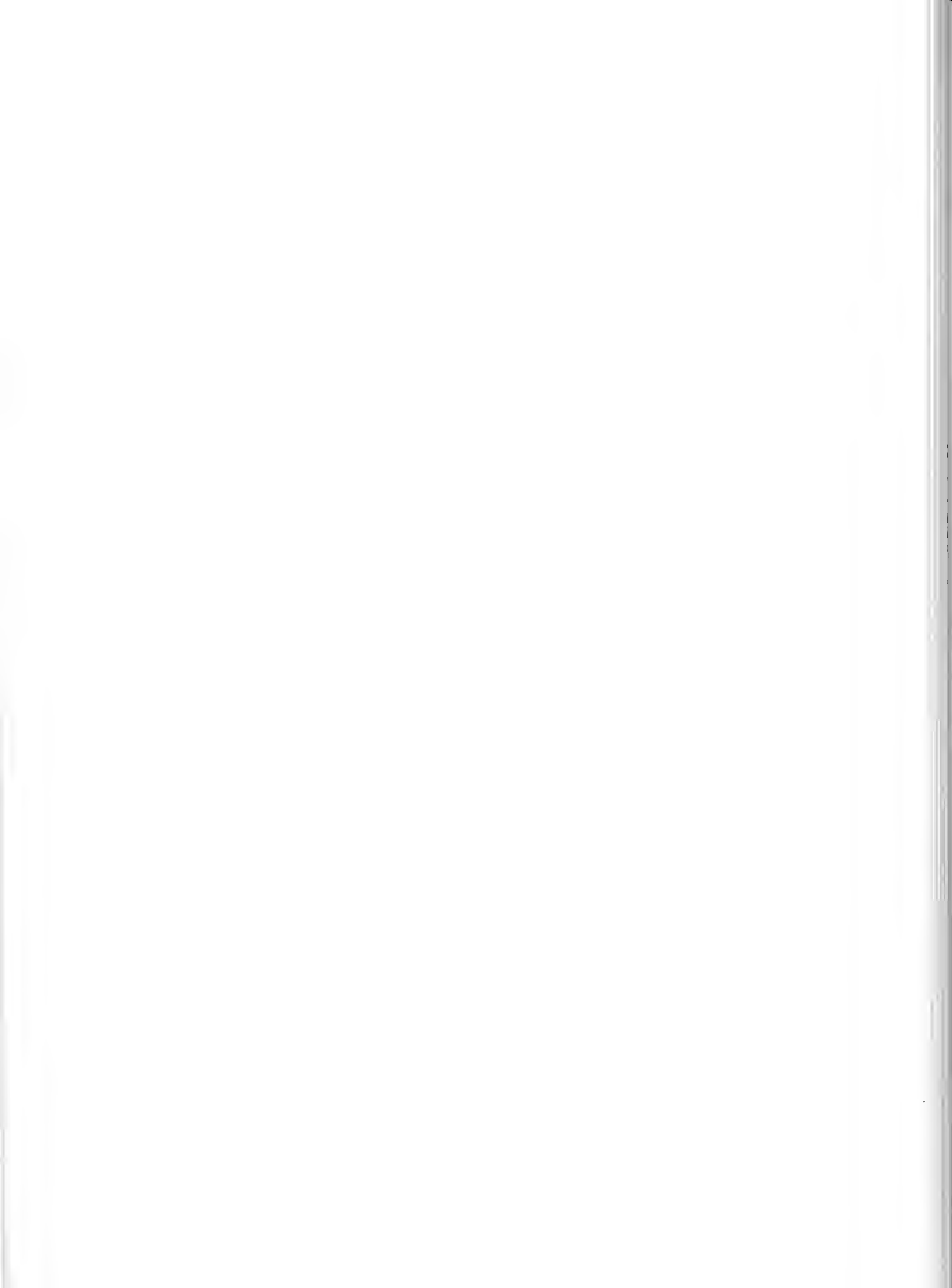
. ميخائيل الثَّاني: 656 . 659 هـ 1258 . 1261م (العودة إلى القسطنطينيَّة).



القسم السَّابع

العلاقات الدّوليَّة لمملكة

وإمارات فرنج الساحل الشَّامي



الفصل الأوَّل

العلاقات السِّياسيَّة بين السَّلطنة الأيُّوبيَّة والفرنج

المبحث الأوَّل:

بداية العلاقات بين المسلمين والفرنج

الحَرْب المُقدَّسة:

مُنذُ أن خلق الله البشر والقتلُ والقتالُ فيما بينهم لم يتوقَّف، حتَّى إن الحَرْب تُعدُّ ظاهرة اجتماعيَّة، يلجأ إليها الناس والدُّول داخلياً وخارجياً، وفي النتيجة يخضع طرف لرأي الآخر، ولحُكْمه بالقُوَّة، فالحرب هي أداة السياسة.

وفيما يتعلَّق بالحُرُوب بين المُسلمين والفرنجة، والتي اصطُلح على تسميتها بالحُرُوب الصَّليبيَّة، فقد كان الدافع المُباشر إليها هُو الحُصُول على الأرض، أكثر ممَّا هُو حماسة لحرب دينيَّة، وإنقاذ القبر المُقدَّس، كما كان يحلو للبعض أن يقول، فقُوَّة الحاكم الإقطاعي الفرنجي واستقرار حُكْمه كانا نابعَيْن ممَّا يملكه من مساحات على الأرض، وخسارة الأرض تعني للإقطاعي حرمانه من الخدمات العسكريَّة المفروضة على تلك الأرض[1]. لذلك نجد أنَّه بسبب فُقدان الفرنج ـ بعد معركة ـ حطِّين للكثير من مناطقهم التي كانوا يُسيطرون عليها، فقد انحطَّت فاعليَّتهم العسكريَّة، وحلَّت محلَّ الهجمات الواسعة للاكتساح والتوسُّع سياسة انتهاز الفُرص والهجمات المُتفرِّقة، وباتوا يعتمدون ـ بشكل شبه كُلِّيٍّ ـ على دعم أُورُبا لهم بالمال والسلاح، وخاصَّة بالرجال.

أمَّا بالنِّسبَة للمُسلمين؛ فقد كان لهذه الحَرْب معان وأهداف ودوافع مُختلفة تماماً عمَّا كان لدى الفرنجة، فقد خاض المُسلمون هذه الحَرْب على أنَّها جهاد، والجهاد في الإسلام هُو فرض ديني مُقدَّس، فرضه الله على المُسلمين، وحثَّ عليه، قال تعالى: ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ سُورة (الحجّ/ 78)، وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِ ﴾ (سُورة الأنفال/ 65).

---

1 - فنُّ الحَرْب، سميل، 52 ـ 66.

والجهاد في الشرع الإسلامي فرض دائم لا يحلُّ للمُسلم تَرْكُهُ بأمان، أو بمُوادعة، إلاَّ لغرض الاستعداد[1]، فكلّ مُقاتل مُسلم هُو مُجاهد يؤدِّي فرضاً دينياً مُقدَّساً، وإذا قُتل فهُو شهيد في الجنَّة.

وفي الأحكام الشرعية نجد أنَّها تؤكِّد على ضرورة إقامة الجهاد ضدَّ الكُفَّار في كلّ زمان ومكان[2]، فكيف بهم وقد هاجموا دار الإسلام، واحتلُّوا أجزاء منها!!. ولذلك نجد أن الدولة الأيُّوبيَّة قد قامت ـ أساساً ـ على فكرة الجهاد الدِّيني ضدَّ الفرنج[3].

وقد ألهب رجالُ الدِّين الناسَ حماساً بالخطب والمواعظ ومُؤلَّفات الجهاد وفضائله، وتأليف كُتُب فضائل مُدُن الشَّام، التي كانت تتعرَّض للغزو[4]، وخاصَّة فضائل بيت المَقْدس، ممَّا شكَّل أدب جهاد مُتكامل.

وكان السُّلطان صلاح الدِّين يحرص على إذكاء رُوح الجهاد، قال القاضي الفاضل: "وأنا ممَّنْ جمع له في الجهاد كتاباً جمعتُ فيه آدابه وكلّ آية وردت فيه. . وكان ـ رحمه الله ـ كثيراً ما يطالعه"[5].

الفرنجة في الشَّام:

كان وُصُول الفرنج إلى بلاد الشَّام مُفاجئاً، لا لسرِّيَّة حملاتهم، بل لجهل العالم الإسلامي بما يجري خارج أرضه، أو على أبوابها. فقد حسب الناسُ الفرنجةَ من جند الرُّوم البيزنطيين، حتَّى تبيَّن لهم الأمر، وعرفوا أنَّهم الفرنجة[6]. ومع أن هؤلاء الغُزاة قد حملوا شارة الصليب، فالمُؤرِّخون العَرَب لم يستخدموا ـ أبداً ـ في وصفهم مُصطلح صليبي، أو صليبية، وإنما استخدموا على الدوام: فرنجة، أمَّا الأُورُبيون؛ فيُسمُّونها الحَرْب المُقدَّسة، أو الحملة، أو الحَرْب العادلة[7].

---

1 - العلاقات الدّوليَّة، وهبة الزحيلي، 93.

2 - الماوردي، تحرير الأحكام، 35.

3 - النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، 16 ـ 18.

4 - انفردت المدرسة الشَّاميَّة بكثرة كُتُب الفضائل، فهُناك قرابة العشرين كتاباً في فضائل مُدُن الشَّام، دمشق أوَّلاً، ثُمَّ القُدْس، ثُمَّ الخليل، ثُمَّ عسقلان.(في التاريخ الشَّامي، شاكر مُصطفى، 1/ 21).

5 - الروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 221.

6 - حكاية الصليبيات، د. شاكر مُصطفى، 145، ـ أعمال الأسبوع التاريخي الأوَّل، الجمعية التاريخية السُّوريَّة، حمص / تشرين ثاني، 1991.

7 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، 15، وراجعْ أيضاً كتاب: (Holy War, Karen Armstrong)

مُبرِّرات الحملة:

وكان فَتْح طريق الحُجّاج المسيحيين إلى القُدْس من جُملة الأهداف المعلنة لهذه الحَرْب، ولكنْ؛ حتَّى بعد ما قامت به بيزنطة، إثر حُصُولها من الحاكم بأمر الله الفاطمي على حماية الأماكن المُقدَّسة في فلسطين عام **412** هـ **1021**م؛ حيثُ كانت تُعرقل مُرُور الحُجّاج إليها، خاصَّة بعد الانشقاق الدِّيني عام **426** هـ **1054**م[1]، لم تكن هُناك أخطار تُهدِّد الحُجَّاج إذا ساروا بمجموعات صغيرة[2].

ولكن البابويَّة ـ التي كان لها أهداف أُخرى بالتأكيد ـ استعارت فكرة الجهاد من الإسلام، بعد أن ملأتها حقداً وكراهية، وسيَّرت مجموعات كبيرة من المُتعصِّبين المُشبعين بالعاطفة الدِّينيَّة، بعد أنْ مَنَّتهُم بالجنَّة، وثروات الشَّرْق[3]، فارتكبوا ـ باسم المَسيحيَّة ـ أعمالاً وحشية، أقلّ ما يُقال فيها إنّها تتعارض مع تعاليم المَسيحيَّة[4]. وبينما كان الفرنج يرون أنفسهم رعايا المسيح، فإنَّهم رأوا المُسلمين أبناء الضلال[5]. وهذه نظرية قديمة، فأُورُبة المَسيحيَّة كانت مشغوفة بالنظرة التوراتية للعرب، وبتأثيرها أطلقوا عليهم اسم: **Sarasins**، وهي من العبرية: سارة – قين؛ أيْ عبيد سارة، إشارة إلى أن العَرَب هُم أبناء هاجر جارية سارة[6].

رَدُّ فعل المُسلمين على الحملة:

وكان من المفروض أن مثل هذا الخطر سيُوحِّد أُمراء الشَّرْق العَرَبي المُسلمين، وأنْ يُعيد للخلافة هيبتها؛ لتتصدَّى له. لكنَّ شيئاً من هذا لم يحدث، فالخلافة ـ رغم كلِّ المُتوسِّلين القادمين من الشَّام الجريح لاستنهاض الهمَم، لم تُحرِّك ساكناً[7]. فَوَقَعَ العبءُ الأكبر على سُكَّان الشَّام، الذين

---

1 - " الكلمة الإنكليزية: Crusade ، ابتُكرت في عُصُور لاحقة، عندما كتب لويس ميمور، مُؤرِّخ بلاط الملك لويس الرَّابع عشر عام 1675م، كتاباً أسماه: تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، ثُمَّ تبعه المُؤرِّخ ليسينغ ". (الأسبوع التاريخي الأوَّل، الحملات الصَّليبيَّة، صالح الحمارنة، 9).

2 - A History of the Crusades , S. Runciman , p. 1\ 48

3 - الأسبوع التاريخي الأوَّل، حكاية الصليبيات، شاكر مُصطفى، 146.

4 - الأسبوع التاريخي الأوَّل، الحملات الصَّليبيَّة، صالح حمارنة، 9.

5 - A History of deed's done beyond the sea , William of Tyr , P. 1/39

6 - التنبيه والإشراف، المسعودي، 143.

7 - المُنتظم، ابن الجوزي، 17/ 43ـ74ـ120.

ظلُّوا يدفعون من دمهم وأرزاقهم ثمن ضَعْفهم، وفرْقتهم، وتخاذل حُكَّامهم. حتَّى جاء عماد الدِّين زنكي، ووضع مشروعه الوحدوي التحرُّري، وكانت فكرة الجهاد لتحقيق التحرير والوحدة هي رُوح مشروع عماد الدِّين زنكي، وبعد وفاته؛ تابع إنجازه ابنه نُور الدِّين محمود، ثُمَّ أتمَّ جُزءاً كبيراً منه صلاح الدِّين يُوسُف بن أيُّوب.

مشروع عماد الدِّين زنكي مُقابل مشروع الفرنج:

عندما تولَّى أتابك زنكي المَوصل كانت الشَّام تعيش أسوأ أيَّامها، فقد احتلَّ الفرنج أقساماً كبيرة، شملت كُلَّ الساحل، ومُعظم مناطق الشمال. فلهم من ماردين حتَّى العريش، لا يتخلَّلها إلاَّ حلب وحماة وحمص ودمشق، وقد انزوت هذه المُدُن خلف أسوارها، في حين كان الفرنج يصولون، ويجولون حولها، يتخطَّفون الناس من على أبواب حماة، ويُقاسمون حلبَ نصف دَخْلها، ويتدخَّلون في شُؤُون دمشق الدّاخليَّة، ويجبون منها الضرائب.

لكنَّ خطر الفرنج الداهم كان يتمركز في الرُّهَا، فهذه الإمارة شكَّلت رأس حربة مُتقدِّمة باتِّجاه الجزيرة، ومن ثَمَّ؛ العراق، فقد بلغت سرايا الفرنج المُنطلقة منها، آمد في ديار بكر، ونصيبين في الجزيرة، وحَرَّان والرقَّة في الشَّرْق. وقطعوا الطريق ما بين العراق والشَّام إلاَّ على الرحبة؛ حيثُ يواجه المسافرون فيها مفاوز أسهل ما فيها العطش، وقد تنتهي بهُجُوم مباغت من الأعراب، فيسلبون، ويقتلون، بلا رحمة[1].

وفي الطرف الآخر كان الضعف والتمزُّق يستشريان بين العَرَب سُكَّان البلاد، أمَّا الحُكَّام من السلاجقة وأتباعهم؛ فلا هُم هم إلاَّ التسلُّط والتحكُّم، واستنزاف ما تبقَّى من خيرات البلاد. وبلغ الأمر حَدّاً لا يُطاق من ذُلِّهم، وإذلالهم للبلاد، أمام الفرنج، فقد عاهدوهم، ودفعوا لهم الجزية والأتاوات صاغرين.

هذا ما شاهَد أتابك زنكي أمامه في الشَّام، أمَّا عنده في المَوصل؛ فالأمر أدهى، فالرُّعب المُتولِّد عن وُجُود الباطنية، الذين يتخفّون بما لا يخطر على بال من الأشكال، فخناجرهم قد تلمع فجأة،

1 - الباهر، ابن الأثير، 33.

ليغتالوا الوزراء العظام كنظام الملك[1]، أو الوُلاة الأقوياء كوُلاة المَوصل مودود، وخَلَفه البرسقي. أَ فلا يحقُّ ـ إذنْ ـ لخليفتهما زنكي أن يُقلقه أمر الباطنية، أو يشغله ؟!.

إن ذلك ليس كلّ شيء، فماذا كان خلف أتابك زنكي؟.

كان الخليفة المسترشد يُمثِّل حالة صحوة الموت بالنِّسبَة للخلافة العبَّاسيَّة المُتردِّية، وعلى الرّغم من كلّ مُحاولاته اليائسة لإعادة هيبة الخلافة وبعض صلاحياتها، فإنَّه لم يستطع أن يُحقِّق شيئاً يُذكَر، لتعود الخلافة ألعوبة بيد حُجَّاب القصر، وَخَدَمه، حتَّى إنَّهم قتلوا مَنْ عارضهم من الخُلفاء، واختاروا مَنْ يُريدون غيره ليكون لهم الأمر[2].

وكان يُقابل سُلطة الخلافة، التي أصبحت اسمية، سُلطة سلاطين السلاجقة الفعليَّة، والذين استهلكتهم مُؤامرات أتباعهم وأقربائهم للوُصُول إلى السَّلطنة.

إن هذا الواقع الذي فرض على زنكي أن يتعامل معه، أوجب عليه وضع مشروع لمُواجهته، ومن تحرُّكات زنكي اللاحقة نستطيع أن نستشفَّ ملامح هذا المشروع، والذي يُمكن أن نسمِّيه المشروع الجهادي، وهُو يستند إلى محورَيْن أساسيَّيْن:

ـ **الأوَّل**: التوحيد، وذلك بضَمِّ أكبر عدد من الإمارات المتناثرة الضعيفة، حماية لها من الفرنج، وليدعم بها دولته المركزية.

ـ **والثاني**: التحرير، وذلك بقلب حصار الفرنج للدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة إلى حصار لمناطق الفرنج المحتلَّة، والبدء بالهُجُوم عليها، وإضعافها، ثُمَّ استردادها؛ بالتدريج[3].

وتتجلَّى لنا مُنطلقات أتابك زنكي من كونه شخصاً تركي الأصل، شامي المولد، عراقي جزري النشأة، ولكونه مُسلماً؛ فهي أوَّلاً: الجهاد المُقدَّس ضدَّ أعداء الدِّين الفرنج. وثانياً: ردَّاً لظُلم

---

1 - نظام الملك: (408 ـ 485 هـ)، أبو علي قوام الدِّين الحَسَن بن علي بن إسحاق الطوسي، وزير حازم عالي الهمَّة، تأدَّب بآداب العَرَب، وزر للسُّلطان ألب أرسلان، ولولده السُّلطان ملك شاه، وكان بيده الأمر كُلّه، فأحسن التدبير، وكانت أيَّامه دولة أهل العلم، اغتيل قُرب نهاوند، ودُفن في أصبهان.

2 - تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 417.

3 - حول توجُّهات زنكي الوحدوية الجهادية راجعْ: الحُرُوب الصَّليبيَّة، د.سُهيل زَكَّار، المُقدِّمة 1/ 72.

الفرنج وعُدوانهم على أرض لم يعرف غيرها وطناً، فقد وُلد فيها، وتربَّى ضمن بيئتها، واختزن قِيَمها، وفُتن بحضارتها.

لم يهدر عماد الدِّين زنكي وقته أبداً، وكأنَّه كان يُدرك أن عليه أن يُسابق عمره الذي لن يطول كثيراً، لتحقيق مشروعه الجهادي الضخم. فقام ـ مُباشرة ـ بالاستيلاء على كلّ ما حول المَوصل[1]، ليضمن أمن قاعدته. ثُمَّ هادن جوسلين الفرنجي حاكم الرُّهَا، ليأمن شرَّه ريثما يتفرَّغ له. وانطلق إلى جزيرة ابن عُمر، فاحتلَّها، كما استولى على نصيبين من بلاد الجزيرة، وأتبعها بمنطقة الخابور، وبعدها سنجار، ثُمَّ حَرَّان[2].

وكانت حلب تتبع ولاية المَوصل مُنذُ أيَّام البرسقي، وبعد موته ولَّى ابنه مسعوداً أمرها إلى قتلغ أبَه[3]، فظلم الناس، وقرَّب إليه الأشرار، فالتفَّ أهل حلب حول سُلَيْمان بن عبد الجبَّار بن أرتق، وزحفوا إلى القلعة لخلع قتلغ أبه، فقرَّر هُو وسليمان أن يحتكما إلى زنكي، الذي لم يُقِرّ أيّاً منهما على حلب، ووجَّه إليها قُوَّاته، وكان أهل حلب يميلون إليه، فتسلَّمها عام **522** هـ ـ **1128**م[4]، وسُرعان ما جاءته التغطية الشرعية بتوقيع السُّلطان السلجوقي له ليس على حلب فقط، بل على كلّ ما هُو غرب العراق[5].

وأخذت تحرُّكات عماد الدِّين تتَّسم بالسُّرعة والقُوَّة، فقد سار نحو حماة، وكانت مع سونج ابن تاج المُلُوك بوري بن طُغْتكِيْن أتابك دمشق، فأخذها عام **524** هـ **1130**م، ثُمَّ أكمل مسيره نحو حمص، ونازلها، لكنَّه لم يستطع دُخُولها[6] لحصانتها، وفي ذروة اندفاع عماد الدِّين لتحقيق مشروعه تدخَّلت يد الغدر، واغتالته وهُو يُحاصر قلعة جعبر[7].

---

1 - وفيات الأعيان، ابن خلكان، 2/ 327.

2 - الباهر، ابن الأثير، 37.

3 - قتلغ أبه: اسم تركي، وقد يُقال خطلبا، وهُو من مماليك السُّلطان ملكشاه. راجعْ ترجمته في: بغية الطلب، ابن العديم، من الموسوعة الشَّاميَّة، سُهيل زكَّار، 16 / 342 ـ 7419.

4 - الكامل، ابن الأثير، 10/ 649، وبغية الطلب، ابن العديم، 8/ 3845.

5 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 302.

6 - الكامل، ابن الأثير، 10/ 658.

7 - الكامل، ابن الأثير، 11/ 109، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 326، وذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي، 444، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 12/ 237، ومرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، الموسوعة الشاملة، سُهيل زكَّار، 15 / 315.

نُور الدِّين محمود يُتابع تنفيذ المشروع:

وُلد محمود في شوَّال **511** هـ **1117**م، وكان أشبه إخوته بأبيه أخلاقاً وعملاً، فقد أخذ على عاتقه إكمال مشروع زنكي الجهادي، لذلك ترك أخاه غازياً يحكم بهُدُوء في المَوصل، مُفضِّلاً حلب، التي مكَّنته من أن يكون فيها أقرب إلى أعدائه الفرنج. فكان "أكثر مُلُوك زمانه جهاداً، هزم الإفرنج وأخافهم وجرّعهم المر"[1]، "وأنكى بهم حتَّى لقبوه السفاح"[2]، "وانتزع منهم نيِّفاً وخمسين مدينة وحصناً"[3]، لقد كان جُلُّ أمل نُور الدِّين أن يُحرِّر بيت المَقْدس، وعمل لذلك كلّ جهده، حتَّى إنَّه أمر بصنع منبر في حلب، "جاء في غاية الإتقان، لوضعه في المسجد الأقصى بعد تطهيره"[4].

بعد أن استقرَّ نُور الدِّين في حلب، توجَّه نحو حمص؛ ليُوحِّد أقرب أجزاء الشَّام إليه، وليفتح الطريق نحو دمشق، ولمَّا كانت حمص تتبع لأخيه سيف الدِّين غازي صاحب المَوصل، فاستغلَّ نُور الدِّين فُرصة تبدُّل زعامة المَوصل عام **544** هـ **1149**م، عندما مات أخوه غازي، وخلفه أخوهما الآخر قُطب الدِّين مودود، فاحتلَّ غازي مدينةَ سنجار القريبة من المَوصل، ثُمَّ عرض على أخيه مُبادلتها بحمص والرحبة، فتمَّ له ذلك[5].

وفي عام **549** هـ **1154**م، جد نُور الدِّين في الاستيلاء على دمشق التي كانت تحت حُكْم مُجير الدِّين آبق بن مُحمَّد بن بوري بن طُغْتكِين، لأن الفرنج كانوا قد ملكوا عسقلان، وهي آخر معاقل المُسلمين على ساحل فلسطين، يقول أبو شامة: "ولمَّا كانوا يحصرونها، كان نُور الدِّين يتلهَّف، ولا يقدر على إزعاجهم؛ لأن دمشق في طريقه، وليس له على غيرها مَعْبَرٌ لاعتراض بلاد الفرنج في الوسط"[6].

---

1 - شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي، 4/ 288.

2 - صلاح الدِّين، شاندور، 116.

3 - المُنتظم، ابن الجوزي، 18/ 209.

4 - المُختصر، أبي الفداء، 3/ 73، والروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 112.

5 - الكامل، ابن الأثير، 11/ 141، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 12/ 242.

6 - الروضتَيْن، أبو شامة، 1/ 94.

ثُمَّ قام مُجير الدِّين بتسليم قلعة بانياس للفرنج[1]، وخاف نُور الدِّين أن يسبقه الفرنج إلى دمشق؛ فتكون ـ عندها ـ الطامَّة الكُبْرَى، فقد استعرضوا رقيق دمشق ممَّنْ أُخذ من سائر بلاد النصرانية، وخيَّروهم بين المقام، أو العودة لأوطانهم، بينما كان أسرى المُسلمين بالآلاف المُؤلَّفة لديهم يُجْبَرُون على أشقِّ الأعمال[2].

فما كان من نُور الدِّين إلاَّ أنْ حاصر دمشق، ففتح أهلُهَا الأبوابَ، ليتخلَّصوا من ذُلِّ أميرهم مُجير الدِّين أمام الفرنج[3]. فضمَّ نُورُ الدِّين دمشقَ إلى دولته، وانفتح أمامه ـ الآن ـ عمق الفرنجة، وطريق مصر.

رُبَّما كان ضَمُّ مصر إلى دولة نُور الدِّين، وإتمام التطويق التامِّ لمناطق الفرنج، يُعَدُّ ـ في أحسن الحالات ـ حُلماً بعيد المنال، لكنَّ تقلُّب الظُّرُوف السِّياسيَّة والعسكريَّة، وصراع الوُزراء في مصر، حوَّل أغرب الأحلام إلى حقيقة، ففي عام 55 هـ 1164م، التجأ الوزير شاور[4] إلى نُور الدِّين هارباً بعد هزيمته أمام ضرغام[5] بعد صراعهما على وزارة الخليفة الفاطمي العاضد[6].

فلم يتردَّد نُور الدِّين بقبول مُساعدة شاور، وغالباً؛ لم يلتفت للإغراءات التي قدَّمها شاور، بل فكَّر في حُلم توحيد مصر مع الشَّام، ولم يرَ نُور الدِّين لتحقيق هذا الأمر "أَقْوَمَ ولا أَشْجَعَ من أسد الدِّين"[7]. سار أسد الدِّين شيركوه إلى مصر، وَقَتَلَ ضرغامَ، لكنَّ شاورَ ـ بعد أن عاد إلى الوزارة ـ غدرَ به، واستقدمَ الفرنجَ إلى مصر، فاضطرَّ أسد الدِّين لمُغادرتها[8].

ولكنَّ أسد الدِّين عاد إلى مصر مُصطحباً نخبة من جند نُور الدِّين عام 562 هـ 1167م[9].

---

1 - النُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 6 / 5.
2 - الكواكب الدُّرِّيَّة، ابن قاضي شهبة، 92.
3 - الروضتَيْن، أبو شامة، 1/ 97، وذيل تاريخ دمشق، ابن القلانسي، 503.
4 - شاور: أبو شجاع شاور بن مُجير السعدي من بني هوازن، ولي صعيد مصر، ثُمَّ استولى على الوزارة، بعد أن قتل الوزيرَ رزيكَ.
5 - ضرغام: الأمير ضرغام بن سوار، كان نائب الباب في قصر الخلافة، ثُمَّ طَرَدَ شاورَ من الوزارة، وتولاَّها.
6 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 344.
7 - الروضتَيْن، أبو شامة، 1/ 331.
8 - الكامل، ابن الأثير، 11/ 299، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 345.
9 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 348.

وعاد شاور لطلب الفرنج، الذين قدموا مصرَ، واشتبكوا مع أسد الدِّين، ثُمَّ اتَّفقوا على مُغادرة مصر جميعاً[1]. لكنَّ الفرنج أدركوا أن السبق - الآن - بينهم وبين نُور الدِّين على مصر، ومَنْ يفزْ بها، فاز على الآخر، فاندفعوا إليها، واحتلُّوا بلبيس، وارتكبوا مجزرة فيها[2]، ثُمَّ توجَّهوا نحو القاهرة، فانهالت كُتُبُ الخليفة الفاطمي مُستنجداً بنُور الدِّين، مُستغيثاً، وقد ضمَّن كُتُبَهُ شُعُورَ نسائه[3].

ولبَّى نُورُ الدِّين النداءَ، وأعاد توجيه قائد جُيُوشه أسد الدِّين في حملة ثالثة إلى مصر، ولمَّا وصلها، انسحب الفرنجُ منها[4]، وَقَتَلَ شاورَ، وتولَّى أسدُ الدِّين منصبَ الوزارة للخليفة الفاطمي[5].

لكنَّه لم يعشْ بعدها سوى بضعة أسابيع، فَخَلَفَهُ ابنُ أخيه النَّاصر صلاح الدِّين يُوسُف، الذي ألغى الخلافة الفاطمية بوفاة العاضد، وخطب لبني العبَّاس، وَحَكَمَ مصرَ نائباً لنُور الدِّين[6]، فانتظمت الوحدةُ التي عمل لها عماد الدِّين، وأتمَّها ابنُهُ نُور الدِّين، أمَّا تتمَّة المشروع بالتحرير؛ فسيُترَك ليُنجزه صلاح الدِّين، بعد نصر حطِّين.

لكنَّ الدولة الأيُّوبيَّة - التي انقسمت إلى ممالك بعد وفاة السُّلطان صلاح الدِّين - بدَّلتْ استراتيجيةَ الجهاد إلى استراتيجية المُوادعة والمُهادنة مع الأعداء الفرنجة، وشنّ الحُرُوب، وعقد التحالفات ضدَّ بعضهم، ومع بعضهم، لتوسيع رُقعة المملكة على حساب الإخوة وأبناء العمِّ.

ولم يعدْ لهم نظرٌ لاستخلاص ما اغتصبه الفرنج، بل توجَّهت أنظارهم لاستخلاص ما بأيدي الآخرين من أفراد الأُسرة الأيُّوبيَّة.

---

1 - الكامل، ابن الأثير، 11/ 326.
2 - الكامل، ابن الأثير، 11/ 335.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 350.
4 - النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، 49.
5 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 351، ووفيات الأعيان، ابن خلكان، 7/ 151.
6 - الكامل، ابن الأثير، 11/ 342، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 350، والكواكب الدُّرِّيَّة، ابن قاضي شهبة، 182.

وقد بدأ الملكُ العادلُ هذا التوجُّهَ، وعمل عليه، حتّى سيطر على كامل دولة أخيه ما عدا حلب، وقد استهجنَ الناسُ والأُمراءُ هذا التّحوُّلَ، لكنْ؛ على ما يبدو، لم يكن باليد حيلة مع مَنْ يملك القُوَّةَ والمالَ، فقد كَتَبَ الملكُ العادلُ بإرسال كتاب بُشرى بعد فَتْحه مدينة خِلاط إلى أحد أُمراء الدولة، فردَّ عليه برسالة جوابية قال فيها: "وعكّا أقرب من خِلاط، وأنفع للمُسلمين فتحاً، وأعظم في الكُفَّار قدحاً، فو الله لإن انغلقَ باب الشَّام في وجه الكُفْر، لتنقطعنَ آمال أهل البحر والبرّ، ومادام في الشَّام بقيَّةٌ من الكُفر، فهُو يقبل الزيادة، وينتظر النجدة، ويأمل الاستعادة"[1].

وصحيح أن الملك العادل لم يعرْ هذه الرسالة أذناً صاغية، لكنَّها كانت خير تعبير عن رؤية استراتيجية شديدة الوُضُوح تجاه الوُجُود الفرنجي على أرض الشَّام، إنَّها رؤية عماد الدِّين زنكي ونُور الدِّين محمود، والتي تابعها صلاح الدِّين يُوسُف، وبنى على أساسها استراتيجيَّته العسكريَّة، فمع أنَّه بدأ سياسته بضَمِّ بُلدان الشَّام والجزيرة ليُؤسِّس دولة، لكنَّه لم ينهمك في ذلك، ولم يغضّ الطرفَ عن الفرنج، فما إنْ أسَّس دولةً تفي بحاجاته الاقتصاديَّة، وتُؤمِّن له مَدَداً من المُقاتلين، حتَّى انقضَّ على الفرنج، فلم يترك قتالهم، حتَّى حطَّمهم في حطّين.

ولَمَّا كَرَّتْ عليه مُلُوك أُورُبا بجُيُوشهم، تصدَّى لهم، وأفشل سعيهم، ولم يسمح لهم بالاقتراب من أسوار القُدْس، واكتفوا بالحُصُول على مدينة عكّا.

---

1 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 7/ 69.

المبحث الثّاني:

العلاقات بين الحَرْب والسِّلْم

مع أن الحُرُوب والهجمات وردّ الهجمات كانت هي الشكل السَّائد في العلاقات بين الممالك الإسلاميَّة في الشَّام ومصر وبين الفرنج، فإن أنواعاً أُخرى من العلاقات نشأت بينهما، كان من أهمّها العلاقات السِّياسيَّة، التي اتَّصف قسم منها بالسِّلْمية. فبعد هُدُوء عاصفة الاكتساح الفرنجي، ومُرُور سنوات عديدة على توضُّع الفرنج في الساحل الشَّامي وفلسطين، تحوَّل المُقيمون منهم إلى بلديين، أو بوليانز، وهؤلاء لم يأخذوا بأسباب الحضارة العَرَبيَّة الإسلاميَّة فقط، بل أخذوا كثيراً من العادات والتَّقاليد الشَّرقيَّة، بما فيها الانقسامات والتكتُّلات[1].

وقد بدأت العلاقات السِّياسيَّة الوُدِّيَّة والتحالفات بين قوى الفرنج والقوى المحلِّيَّة في وقت مُبكِّر نسبياً؛ حيثُ انضمَّ تنكريد أمير أنطاكية إلى رضوان بن تتش ملك حلب، وشكَّلا حلفاً عسكريّاً ضدَّ تحالف الأمير جاولي والي المَوصل والملك بغدوين ومعه ابن خالته جوسلين. وجرت بين الطرفَيْن عام 502 هـ1109م، معركة دامية[2]. وعندما ضغطت قُوَّاتُ عماد الدِّين زنكي على دمشق، أصبح تحالف صاحبها مُعين الدِّين أنر مع الفرنج سياسة ثابتة للحفاظ على إمارته، واستقدم أنرُ قُوَّات الفرنجة لصدِّ هُجُوم صلاح الدِّين الياغسياني[3] على دمشق[4]. وبالمُقابل؛ فقد رأى الفرنج أن دمشق هي الحليف التقليدي لهم في هذه المرحلة[5].

---

1 - ... ... Holy War , Karen Armstrong , p. 291

2 - الكامل، ابن الأثير، 11/ 466.

3 - صلاح الدِّين الياغسياني: مُحمَّد بن أيُّوب. وكان والياً على حماة لعماد الدِّين زنكي.

4 - وصف العرقلة الكلبي قلقَ أمير دمشق، وآماله المُعلَّقة بنجدة الفرنج، فقال:

يظنُّ صلاح الدِّين فُرسان جُلَّق	كفُرسانه ما الأسد مثل الثعالب
غداً تطلع الشَّام الفرنج بفيلق	مُعوَّدة أبطاله للمصائب
رجال إذا قام الصليب تصلَّبت	رماحهم في كلّ ماش وراكب

(الديوان، 5).

5 - الاسبتاريَّة، سميث، 178.

المشاريع السِّياسيَّة:

بمُواجهة المشروع الفرنجي الذي التفَّتْ عليه أُورُبا دُولاً وشُعُوباً ومُلُوكاً ورجال دين، والذي يهدف ـ بشكله النهائي ـ لإقامة ممالك لاتينية في الشَّرق، والقضاء على الإسلام والمُسلمين، إنْ أمكن ذلك، وإلاَّ فَدَفْعُهُم إلى المناطق الدّاخليَّة بالعُمق المُمكن.

وردّاً على هذا المشروع الذي امتلك السُّلطان صلاح الدِّين رُؤية واضحة له، وضع مشروعه المُضادّ، الذي يهدف إلى طرد الفرنجة من بلاد الشَّام نهائيّاً، ومن ثَمَّ؛ مطاردتهم إلى بلادهم، ومُحاولة القضاء على دولهم، وإقامة دولة إسلامية، إنْ أمكن ذلك. فقد كَتَبَ صلاحُ الدِّين ـ ردّاً على رسالة أرسلها له فريدريك الأوَّل إمبراطُور ألمانية ـ يقول له فيها: " . . كما أنَّنا لن نكتفي بالأراضي القائمة على شاطئ البحر، بل سوف نعبر نحوكم بمشيئة الله، ونأخذ منكم أراضيكم بعون الله وقُدرته"[1].

أمَّا بعد وفاة صلاح الدِّين؛ فقد مُسخَت المشاريع السِّياسيَّة للمُلُوك الأيُّوبيَّة، واقتصرت توجُّهاتهم ـ بمُعظمها ـ على الطمع بمُمتلكات الآخرين، والعمل على الاستيلاء عليها. بينما كان الفرنج هَمّاً مُقيماً بالنِّسبَة إليهم، عملوا على تجنُّب إثارته ما أمكن، وهذا ما نستطيع اعتباره العامل الرئيس في العلاقات السِّياسيَّة للأيُّوبيين مع الفرنج، والذي ترتَّب عليه استمرار الوُجُود الفرنجي لمئة سنة أُخرى في بلاد الشَّام. فإذا تمكَّن الفرنجة من احتلال أجزاء من الشَّام بقُوَّتهم، والاحتفاظ بها لمُدَّة مئة عام، فإنَّهم استمرُّوا مئة عام أُخرى بسبب الضعف والتشرذم التي أعقبت وفاة صلاح الدِّين. وقد أدرك الفرنج تمام الإدراك أن ضعف المُسلمين يكمن في تفرقتهم، فحاولوا جهدهم تكريس هذه التفرقة القائمة أصلاً[2].

ولكنْ؛ مع كلّ ذلك، لا يُمكننا إلاَّ أن نُسجِّل مواقف إيجابية للمُلُوك الأيُّوبيَّة في حلبة الصراع ضدَّ الفرنجة، فيُمكن أن نقول إن الفرنجة نادراً ما تمكَّنوا من احتلال بلدة أو مدينة، والاستقرار فيها،

---

1 - وُرُود التَّاريخ، روجر ويندفر، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 44/ 325.
2 - الاسبتاريَّة، سميث، 95.

وحتَّى الحملات القويَّة والكبيرة للفرنج فقد هُزمت عسكريَّاً، وخاصَّة الحملات ضدَّ دمياط. ونجد أنَّه من الإجحاف بمكان أنْ لا نُسجِّل للمالك الأيُّوبيَّة هذه الوقفات[1].

وكان ممَّا يُميِّز التعامل بين الطرفَيْن الفرنجي والأيُّوبي هُو عدم الالتزام بأيِّ عهد أو اتِّفاق من قبَل الفرنجة ومُلُوكهم، إلاَّ أن يكونوا بحالة إكراه على ذلك لضعفهم عن الغدر، أو لقُـوَّة المُسلمين، فعندما أطلق السُّلطانُ صلاح الدِّين ملكَ القُدْس غي شرط عليه خَلْعَ نفسه من المُلك، والمُغادرة فوراً إلى بلاده في أُورُوبة، لكنَّ غي ما إنْ تحرَّر حتَّى تنكَّر لأيمانه، وعُهُوده، وحمل السلاحَ، وَجَمَعَ الرجالَ مُطالباً باسترداد القُدْس، وقام بمُحاصرة عكَّا[2]. ولم يكن أُمراء الفرنجة أو مُلُوكهم بأفضل من عامَّتهم في انتهاك الاتِّفاقات، وخرق الهُدنات المعقودة مع المُسلمين، كُلَّما لمسوا قُوَّة من أنفسهم، فالسَّلْب والنَّهْب ومُهاجمة القوافل التِّجاريَّة، التي تتحرَّك ضمن اتِّفاقيات مُسبقة، كُلُّ ذلك كان عاديَّاً بالنِّسبَة للفرنجة، لذلك كان الحُكَّام الأيُّوبيُّون في حالة شديدة من الحرج أمام شُعُوبهم، مع أنَّهم قلَّما حسبوا لها حساباً، يقول أرنست باركر: "فإذا جاز للمُسلمين أن يصبروا على قيام دولة من الكُفَّار، فإنَّهم لا يطيقون قيام دولة من اللُّصُوص"[3].

علاقات سياسيَّة فردية:

في بعض الحالات الخاصَّة نجد تصرُّفات لبعض الأفراد لا تنسجم مع السياق العامِّ للطرف الذي ينتمي إليه هذا الفرد، وبالتَّأكيد؛ كان لهذه التصرُّفات دوافعها القويَّة، فبالرغم من شراسة الاسبتاريَّة في القتال، فقد أجرى معهم المُسلمون المُراسلات، وأقاموا التحالفات مُنْذُ عام 552 هـ 1157م، ونتيجة لهذه العلاقات المُباشرة كان مُعظم الاسبتاريَّة يتكلَّمون العَرَبيَّة، ويُلمُّون بأوضاع المُسلمين بشكل جيِّد، حتَّى إنَّه ـ في بعض الأحيان ـ كانت لهم مواقف داعمة لطرف من أطراف المُسلمين، ممَّا كان يصدم باقي الفرنج[4]، وكذلك في المُقابل؛ وُجد لدى المُسلمين مَنْ عامل الفرنجَ، واتَّفق معهم، ورُبَّما كان من أشهر هذه الحالات:

1 - صلاح الدِّين بين العبَّاسيين والصليبيين، حسن الأمين، 196.
2 - وُرُود التَّاريخ، روجر ويندوفر، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زكَّار، 24/ 327.
3 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، باركر، 71.
4 - الاسبتاريَّة، سميث، 136.

تسليم جبيل:

أثناء انشغال أبناء السُّلطان صلاح الدِّين بالخلافات فيما بينهم، أهملوا الساحل الشَّامي وحامياته، فانتهز الفُرصة قائد حامية جبيل، وهُو فقيه كُردي كان صلاح الدِّين قد سلَّمها إليه، عندما حرَّر هذا الثَّغرَ من صاحبه هيو أمبرياكو، ورُبَّما كان السُّلطان مخدوعاً بتُقاه الظَّاهر وتفقُّهه بالدِّين، فعندما قام الفرنج بالاتِّصال به وأغروه بالمال، وافق على تسليمهم الثغر، فدفعوا له ستَّة آلاف دينار، ودخل ريمون أخو صاحب جبيل القديم إلى الحصن عام **590** هـ **1194**م، وَشَحَنَهُ بالرجال والعتاد، ولمَّا بلغ الخبر إلى أبناء صلاح الدِّين خرج الملك العزيز من مصر، وخرج الأفضل من دمشق، مُحاولين تدارك الأمر، وإنقاذ الحصن قبل استقراره بيد الفرنج، لكنَّ جُهُودهم ذهبت سدى، وبدلاً من الهُجُوم على الحصن هاجم العزيز أخاه في دمشق لأَخْذها منه، ونسي أمر حصن جبيل[1]. علماً بأنَّ بعض المُؤرِّخين قد أشار إلى أن رجال الحامية هُم مَنْ عقد الاتِّفاق مع الفرنج[2]، ومنهم مَنْ يُؤكِّد أنَّهم قتلوا والي الحصن؛ ليتمكَّنوا من إتمام صفقتهم مع الفرنج[3]، بينما يُشير عدد آخر من المُؤرِّخين إلى الفقيه الكُردي والي الحصن على أنَّه مَنْ كان وراء عملية التسليم[4]، ويصفه ابن واصل بأنَّه كان "كُردياً مُتنمِّساً"[5].

الملك الجواد يُونُس:

في عام **635** هـ **1238**م، بعد وفاة السُّلطان الكامل، ولَّى أُمراؤه ابنَ أخيه الملكَ الجوادَ يُونُس على دمشق نيابة عن العادل الثَّاني بن الكامل، الذي تسلطن في القاهرة، ولكن الجواد كان ضعيف الهمَّة، فعرض على الصَّالح أيُّوب مُبادلته بدمشق على بعض مناطق الفُرات والجزيرة، فقبل أيُّوب، وغادر الجوادُ دمشقَ، ولكنَّه لم يتمكَّن من حفْظ مُمتلكاته الشَّرْقيَّة، فعاد خاوي الوفاض إلى الشَّام[6].

---

1 - البستان الجامع، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 11/ 390، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زكَّار، 20 / 5، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 116، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 26، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 2/ 2/ 97، ونهاية الأرَب، النويري، 28/ 442، والفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، 638، ولُبنان من السُّقُوط، تدمري، 2003.

2 - نهاية الأرَب، النويري، 28/ 442.

3 - البستان الجامع ، العماد الصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 11/ 390.

4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 20 5.

5 - مُفرِّج الكُرُوب، 3/ 26.

6 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 498.

ولم يأمن الصَّالح إسماعيلُ صاحبُ دمشق لوُجُود الجواد في بلده، فحاول القبض عليـه، لكنَّـه هرب إلى مناطق الفرنج في بيروت، فاستقبله صاحبها باليـان الإبليني، وأكرمـه، وشـهد معـه وقعـة قلنسوة، التي قتل فيها ألف مُسلم، وكان يُقـال إن سـبب لجوئـه للفـرنج بـسبب كـون أمِّـه فرنجيـة الأصل. ولَمَّا طلبه الصَّالح إسماعيل من صاحب بيروت هرب الجوادُ إلى عكَّا، ثُمَّ استدرجه الـصَّالح، فعاد إلى دمشق؛ حيثُ قبض عليه الصَّالح، وأخفى أمره[1].

الصَّالح إسماعيل وتسليم القُدْس والقلاع:

بعد سيطرة الصَّالح أيُّوب على مصر شعر عمُّه الصَّالح إسماعيل صاحب دمشق بالخطر.

خاصَّة بعد استدعاء الصَّالح أيُّوب للخَوَارزميَّة، وربَّما تكون دمشق إحـدى أهـدافهم، وهُـو لا طاقة له بهم[2]. وخاف ألا تكون قُوَّة حُلفائه في ممالك حمص والكرك وحلب كافية لردع أيُّوب عن دمشق، فاتَّصل بالفرنج، ووافق الدَّاويَة على التحالف معه مُقابل شُرُوط مُجحفة بحقِّه، فقد طلبوا مـن إسماعيل تسليمهم قلعتَيْ صـافيتا[3]، وشـقيف أرنـون[4]، مـع جميـع الأراضي العائـدة للقُـدْس مـن الساحل حتَّى نهر الأردن، مُقابل أن لا يعقدوا هُدنة أو صُلحاً مـع صـاحب مـصر، وأن يمنعـوه مـن المُرُور إلى الشَّام[5]. وحضر الملك المنصُور إبـراهيم صـاحب حمـص احتفـال المُـصادقة النهائيـة عـلى المُعاهدة في عكَّا عام **642** هـ **1244**م؛ حيثُ أقسم عليها هُناك، كما أقسم عليها جميع بارونات جيش الفرنجة[6]. وبعد ذلك، تمَّ تسليم القلاع والأراضي المُتَّفق عليها[7].

---

1 - لُبنان من السُّقُوط، تدمري، 248.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 332.

3 - صافيتا: اسم سرياني يعني: صفاء الحياة، دعاها البيزنطيون: أجيرو كاسترون، والفرنجة: القلعة البيـضاء / **Castel Blanc** تبعد 29 كم جنوب شرق طرطوس. حرَّرها الظَّاهر بيبرس عام 669 هـ-1271م. (المُعجم الجَغرافي، مادَّة: صافيتا).

4 - شقيف أرنون: الشقيف تعني الكهف، وهي قلعة حصينة جـدّاً في كهـف مـن الجبـل، قُـرب بانيـاس، بينهـا وبـين الساحل. (مُعجم البُلدان، ياقوت، مادَّة: شقيف أرنون)، وكان الفرنجة يُسمّونها: **Belfort**.

5 - حُرُوب فريدريك الثَّاني في سُورية وقبرص، فيليب دي نوفار، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 207.

6 - حملة لويس، مُصطفى زيادة، 73.

7 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47 / 626، ـ ذكر المطران الدّبس المُعاهدة، فقال: " تحدَّث عن هذه المُعاهدة مُؤرِّخ فرنجي يبدو أنَّه كان مُطَّلعاً على تفاصيلها، وهُو إنكليزي اسمه متَّى باريس، من هيئة القدّيس عبد الأحد". (تاريخ سُورية، الدّبس، 255).

وفي رسائل رئيس بيت فُرسان الدَّاوِيَة في فلسطين المُعلِّم هيرمان أوف بريفورد إلى رئيس بيت فُرسان الدَّاوِيَة في إنكلترا المُعلِّم روبيرت أوف ساندفورد يُبرِّر تحالف الدَّاوِيَة مع سُلطان دمشق، قائلاً: "لأنَّه أعاد لهم المنطقة بأكملها من نهر الأردن"[1]. ويتحدَّث في رسالة أُخرى عن سبب رفضهم التحالف مع سُلطان مصر، ويقول عنه: "لم يُعطنا سوى الكلام المُخادع الفارغ، فأدركنا مَكْرَهُ وغَدْرَهُ، لأنَّه أراد الهُدنة منَّا فقط، حتَّى يتمكَّن من إخضاع أصحاب دمشق وحمص والكرك، عندها؛ لن يتمكَّن الصَّليبيُّون الذين هُم على هذا الجانب من البحر، والذين هُم ضعفاء جدَّاً وعددهم صغير من الصُّمُود، فرفضنا هُدنته"[2]. ويبدو أن مُقدَّم الدَّاوِيَة قد اشتطَّ في المُبالغة؛ إذْ يُضيف: "إن سُلطان دمشق قد اقترح بشكل مُؤكَّد بأنَّه سوف يتلقَّى طقوس التعميد"[3]، وهذا شيء لا يُمكن لأحد أن يُصدِّقه، ولذلك "لم يُصدِّق كثير من المسيحيين أخبار هذه الرسالة لسُوء سُمعة الدَّاوِيَة"[4].

وقد لا يفوق ذلك، من تهاون الحُكَّام بأمر البلاد المُوكل إليهم حمايتها، إلاَّ تسليم الملك الكامل لمدينة بيت المَقْدس إلى الإمبراطُور فريدريك صفواً عفواً بلا أدنى قتال[5].

التجسُّس والاستطلاع:

كانت عملية استطلاع أحوال العدوِّ من أولويات السياسيين والعسكريين في عصر الحُرُوب مع الفرنجة، وكانت لهم وسائل وأساليب تتماشى مع الإمكانات المُتاحة لهذا العمل، فكان كُلُّ طرف يحرص على إرسال مجموعات لاستطلاع أحوال الطرف الآخر في حالة الحَرْب، أو قبلها.

وأكثر ما كان يخشاه المُسلمون هُو المُفاجأة خاصَّة عند انتهاء الهُدنة، ويُحدِّثنا البدرُ العيني عن ما كان يتمُّ في عصر الملك المُعظَّم بن العادل صاحب دمشق لتلافي ذلك، يقول: "كان في أيَّام الفسخ ـ أيْ فسخ الهُدنة، وانتهاؤها ـ مع الفرنج يُرتِّب النيران على الجبال من باب نابلس إلى عكَّا، وعلى عكَّا

1 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47 / 376.
2 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47 / 606.
3 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47 / 376.
4 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47 / 609.
5 - راجعْ مبحث العلاقات بين الملك الكامل والإمبراطُور فريدريك في هذا الكتاب

جبل قريب منها يُقال له الرمل، وكان عليه المُنوّرون وبينهم وبين الجواسيس علامات . . . وكان يُعطي الجواسيسَ كُلَّ فسخ جُملة كثيرة"[1].

ويُفَصِّل ابن العماد الحنبلي هذه العملية أكثر بقوله: "كان بجبل عكَّا جواسيس لهم مع نساء عكَّا علامات، فإذا عزم الملك على إخراج مائه أوقدت المرأة شمعة، وإذا كانوا مائتَيْن أوقدت شمعتَيْن"[2].

ويبدو أن الملك المُعظَّم كان يعتمد ـ بشكل كبير ـ على استطلاع أحوال أعدائه، ويستفيد من جمع المعلومات عنهم، وممَّا يفيد ذلك ما رواه سعدُ الدِّين مسعود، قال: "كُنتُ والياً بالشوبك، وكان بها راهب مُنفرد ببعض الجبال، فجاءني كتاب المُعظَّم بنَفْيه، فغاب مُدَّة، وجاء في كتابه: أَعِدْهُ إلى مكانه، وتوصَّى به، فبحثتُ عن القصَّة؛ فإذ به قد بعثه يكشف أخبار الإمبرور، وإنما نفاه لئلاَّ يُتَّهم، وأطلق له أرضاً، وأعطاه مائة دينار"[3].

ولم يكن الملك المُعظَّم يكتفي بما يصله من المعلومات عن الفرنج، فقد تنكَّر في زيِّ زيَّات، ودخل عكَّا، وأقام بها أيَّاماً"[4]. وإذا كان هذا ما رُوي عن المُعظَّم، فبالتأكيد كان باقي المُلُوك الأيُوبيَّة لهم الاهتمام نفسه، مثل ذلك، أو أكثر، وبالتَّالي؛ فالفرنج ـ أيضاً ـ كان لهم عُيُونهم وجواسيسهم، ففي حملة دمياط، "قدم جواسيس الملك لويس الذين كانوا في مُعسكر المُسلمين يحملون إليه أخبار مشروع الهُجُوم"[5].

إن هذا الشكل في العلاقات كان يرافق العلاقات الحَرْبيَّة والحملات، ولم يكن القاعدة، بل الاستثناء، أمَّا القاعدة؛ فكانت على عكس ذلك تماماً، فالعلاقات الاقتصاديَّة لا يُوقفها حتَّى الحَرْب، والمُراسلات والهُدنات والمُفاوضات لا تتوقَّف، بأيِّ حال من الأحوال.

---

1 - من عقد الجُمان في تاريخ أهل الزَّمان ـ ج 45، البدر العيني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 59/ 54.
2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 280.
3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 280.
4 - تُحفة ذوي الألباب، الصفدي، 111.
5 - سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 35/ 104.

المبحث الثَّالث:

الاتِّفاقيات بين الأيُّوبيِّيْن والفرنج

إن انشغال الدُّول الأُورُوبيَّة بمشاكلها الدّاخليَّة ومشاكلها السِّياسيَّة والعسكريَّة فيما بين مُلُوكها، وانشغال البابويَّة بصراعها ضدَّ الإمبراطُوريَّة الجرمانية المُقدَّسة، أدَّى إلى قَطْع المَدَد عن فرنجة المشرق، ودفعهم للبحث عن صيغة تعايش سلْمي مع جيرانهم المُسلمين، فعندما يتحقَّق الأمن سلمياً يتحقَّق ـ بشكل تلقائي ـ النُّمُوُّ التِّجاري والاقتصادي. وكانت إمارة أنطاكية، التي تضمُّ طرابلس، أسرع الدُّويلات الفرنجيَّة في الشَّرق للتخلِّي عن فكرة الحَرْب المُقدَّسة، وعقدت اتِّفاقيات سلام مع الممالك الأيُّوبيَّة، والتفتت لتخوض صراعاً عسكريَّاً مُدمِّراً مع أرمن كيليكيا، قبل أن يتمكَّنوا من السيطرة عليها.

أمَّا في جنوب الساحل الشَّامي؛ فكان الفرنجة يُعانون ضائقة اقتصاديَّة خانقة، فامتيازات الأُمراء، وطوائف الرُّهبان العسكريَّة، وما حصلت عليه المُدُن الإيطالية من حُقُوق، كُلُّ ذلك لم يترك لاقتصاد هذه الدُّويلات أيُّ فُرصة للنُّمُوِّ، خاصَّة بعد أن حُرمت من المناطق الدّاخليَّة. فكان طلب السِّلْم هُو المنفذ الوحيد أمام الفرنجة للاستمرار في العيش على أرض الشَّام[1].

ومن أهمِّ المُعاهدات[2] بين الأيُّوبيِّيْن والفرنج:

1. مُعاهدة الرملة:

كانت حملة مُلُوك أُورُبا لإنقاذ الأراضي المُقدَّسة بعد هزيمة حطِّين وسُقُوط القُدْس، قد وصلت إلى طريق مسدود، ولم تُحقِّق الحملة أيَّ نتيجة مُهمَّة، ما عدا استيلاؤهم على عكَّا، الذي يعدُّ نتيجة تافهة للحشد العسكري الهائل الذي قامت به أُورُبا في الشَّرق. وبعد موت فريدريك إمبراطُور ألمانيا وتشتُّت حملته، وانسحاب فيليب ملك فرنسا، ومُغادرته لفلسطين، لم يبقَ إلاَّ ريتشارد، الذي بعد أن يأس من تحقيق أيِّ مكسب على أرض فلسطين، وبلغته من إنكلترا أخباراً مُقلقة على عرشه،

---

1 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، 230.

2 - كان الاسم الغالب لاتِّفاقيات السلام أو المُعاهدات وُفقاً لرواية المُؤرِّخين المُسلمين، هُو: الصُّلح.

حاول أن يجد لنفسه انسحاباً مُشرِّفاً من الشَّرْق، فأرسل بالين دي أبلين صاحب صيدا، "وطلب منه بذل قصارى جهده لعقد هُدنة"[1].

ولم يقدم السُّلطان صلاح الدِّين على إجابة ريتشارد إلاَّ بعد أن جمع الأُمراء، وعرض عليهم الأمر، وطلب مشورتهم، وأعلمهم رأيه الخاصّ بمُتابعة الجهاد ورفض طلب الصُّلح، قائلاً: "نحنُ قُوَّة، وقد ألفنا الجهاد، ورأيي أن أخلف الهُدنة ورائي، فقالوا له: انظرْ إلى أحوال البلاد والرعايا والأجناد"[2]، وأقنعوه بقبول الصُّلح، ولكن السُّلطان أبى أن يدخل شخصياً في أُمُور الصُّلح، وفوَّض ذلك إلى أخيه الملك العادل[3]. وترتَّب الصُّلح، وعقدت الهُدنة بين الفرنج يُمثِّلهم الملك الانكليزي ريتشارد وبين المُسلمين يُمثِّلهم الملك العادل بتكليف من السُّلطان صلاح الدِّين، وتمَّ توقيع الصُّلح في 23 شعبان عام 558 هـ المُوافق 3 أيلول 1192م. "وكان يوم الصُّلح مشهوداً غشي الناس من الطائفتَيْن فيه من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلاَّ الله تعالى"[4].

وكان الصُّلح هُدنة كما سبقها، وكما سيتبعها من الهُدنات.

وهُناك ـ اليوم ـ مَنْ يلوم صلاح الدِّين على قبوله الصُّلح، ويعدُّه مُفرِّطاً في حُقُوق المُسلمين، خاصَّة وإنَّه كان يملك جيشاً قوياً، لم تستطع جُيُوش أُورُبا التَّصدِّي له، بدليل عدم تقدُّمها نحو القُدْس. ولكنْ؛ يبدو أنَّه قد غاب عن بالهم حالة الجُند والقادة في جيش صلاح الدِّين بعد سنوات أمضوها في قتال مُستمرٍّ لم يهدأ. وقد أشار ابن شدَّاد في كتابه النَّوادر السُّلطانيَّة إلى سبب قبول السُّلطان صلاح الدِّين الصُّلح بقوله: "وكان الحامل على ذلك ما أخذه الناس من تعب مُواظبة الغُزاة وكثرة الديون والبُعد عن الأوطان"[5]. ويبدو أن السُّلطان صلاح الدِّين كان شبه مُكرَه على قبول الصُّلح، بسبب ضغط الأُمراء الذين تحمَّلوا مشقَّات هائلة في حرب مُستمرَّة لسنوات طوال، ويُؤكِّد ذلك القاضي بهاء الدِّين بن شدَّاد قاضي العَسْكَر وصديق السُّلطان ومُستشاره وكاتبه، يقول ابن

1 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري، ليدن / 828، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8/ 443.
2 - الفَتْح القِسّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 412.
3 - النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليُوسُفية، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15/ 258 .
4 - النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليُوسُفية، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15/ 260.
5 - النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليُوسُفية، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15/ 223.

شدَّاد: "والله العظيم؛ إن الصُّلح لم يكن من إيثاره"[1]، "فإنَّه قال لي في بعض مُحاوراته في الصُّلح: أخاف أن أصالح، وما أدري أيَّ شيء يكون منِّي، فيقوى هذا العدوّ، وقد بقيت لهم هذه البلاد، فيخرجون لاستعادة ما في أيدي المُسلمين"[2]. ويُعقِّب القاضي ابن شدَّاد مُستعرضاً واقع المُسلمين بعد الصُّلح، فيقول: "رأى السُّلطانُ المصلحةَ في الصُّلح لسأمة العَسْكَر، وتظاهرهم بالمُخالفة، وكانت مصلحة في علم الله تعالى، فإنَّه اتَّفقت وفاته بعيد الصُّلح، ولو كان اتَّفق ذلك في أثناء الوقعات لكان الإسلام على خطر، فما كان الصُّلح إلاَّ توفيقاً وسعادة"[3]. وبالفعل؛ كان السُّلطان قد لمس الضعف والتخاذل من الجُند في وقعة يافا، "يوم أمرهم بالحملة، فلم يحملوا، فخاف أن يحتاج إليهم، فلا يجدهم، فرأى الصُّلح للاستعداد"[4].

2. مُعاهدة 594هـ 1198م، بين العادل والفرنج:

أُبرِمَتْ هذه المُعاهدة عام 594 هـ 1198م، وكانت لمُدَّة خمس سنين وثمانية أشهر[5]، ولمَّا انتهت هذه الهُدنة في عام 600 هـ 1204م، تحرَّك الفرنجُ من عكَّا بجموعهم، "ونهبوا كثيراً من البلاد في نواحي الأردن"، فَجَمَعَ العادلُ العساكرَ، ونزل عند الطور، حتَّى انعقدت الهُدنة التَّالية معهم عام 601 هـ 1205م، والتي كانت شُرُوطها تُشير بجلاء إلى ضعف موقف العادل، وتنامي قُوَّة الفرنجة، الذين لم يقبلوا بعقد الهُدنة، حتَّى تنازل لهم العادل عن جميع المناصفات في صيدا والرملة، وأعطاهم النَّاصرة، وغيرها[6].

ولمَّا انتهت هذه الهُدنة عام 603 هـ 1207م، كان الملك العادل قد استعدَّ وحشد قُوَّات جيِّدة، فسار نحو عكَّا، فصالحه أهلها على أن يُطلقوا جميع أسرى المُسلمين عندهم[7]. ويبدو أن الفرنجة كانوا في حالة من الضعف أجبرتْهُم على هذا الصُّلح. كما أن هذه الهُدنة لم تشمل إلاَّ مملكة

---

1 - النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليُوسُفية، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15/ 260.

2 - النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليُوسُفية، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15 / 206، و مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 405، تُوفِّي السُّلطان بعد حوالي ستَّة أشهر من الصُّلح (27 صفر/ 589 هـ4 آذار 1193).

3 - النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليُوسُفية، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15/ 260، و مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 406، والروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 204.

4 - النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليُوسُفية، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 15/ 258.

5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 18.

6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 194.

7 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 106.

القُدْس، بدليل أن العادل سار من عكّا نحو أراضي إمارة طرابلس، فنازل قلعة الحصن، واستولى على حصن مُتقدِّم من حُصُونها هُو بُرج عناز، ثُمَّ انتقل إلى طرابلس، ورماها بالمجانيق، ثُمَّ عاد عنها، ولَمَّا دخل عام **604**هـ **1208**م، عقدت طرابلسُ هُدنةً مع العادل[1].

ولم يقتصر الأمر في عقد المُعاهدات على السلاطين، فقد عقدت كُلُّ الممالك الأيُّوبيَّة التي تجاور المناطق المُحتلَّة مُعاهدات سلام مع الفرنج، فبعد انتصار الملك المنصُور صاحب حماة، على الفرنج واسبتارية حصن الأكراد، عام **599** هـ **1203**م، طلب الاسبتاريَّة الصُّلحَ، فأرسل المنصُور يستأذن الملكَ العادلَ في توقيع الصُّلح معهم، فأرسل إليه المُوافقة، لكنْ؛ مع التشدُّد بالشُّرُوط لضعف الفرنج، وقال العادل في جوابه: "الذي يراه المجلس من الصواب يعتمده، وأمَّا الفرنج خذلهم الله؛ فإن مادَّتهم قليلة، ونجدتهم مُتأخِّرة، وقد وصلت الكُتُبُ من كُلِّ جهة تُخبر بضعفهم. . . ويُوعز المجلس بأنْ يُقوِّي عليهم القول، ويُشدِّد عليهم الطول"[2]. وهذا يُعطينا فكرة واضحة عن العوامل المُؤثِّرة في شُرُوط المُعاهدات، وهي ميزان القُوَّة والضعف.

وعندما عقد الملكُ الكاملُ مُعاهدَتَهُ المشهورة مع الإمبراطُور فريدريك، التي تنصُّ على تسليم القُدْس عام **626** هـ **1229**م، لم تشمل المُعاهدة إمارة طرابلس، ولا فُرسان الاسبتاريَّة، الذين هاجموا مملكة حماة، فقصدوا بلدة بعرين، أو بارين، ونهبوها، وأسروا أهلها مع ستِّ قُرى ممَّا حولها[3]، وكان من جُملة مَنْ ظفروا به جماعة من التُّركمان كانوا نازلين قُرب بعرين "فلم يسلم منهم إلاَّ النادر والشارد"[4]. ممَّا اضطرَّ الملك الكامل للإغارة على قلعة الحصن معقل الاسبتاريَّة، فردُّوا بالعودة للإغارة على بعرين في العام التالي **627** هـ **1230**م[5]. "وقد صالح الملك المُظفَّر صاحب حماة الفرنج على مبلغ يُؤدِّيه لهم، حتَّى لا يُهاجموا بعرين عام **630** هـ **1233**م، وجدَّدها عام **634** هـ **1237**م"[6]، وكان هذا المبلغ يزيد أو ينقص وُفقاً لتأرجح ميزان القوى بين الفرنج وقُوَّات حماة.

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 107.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 152، ووثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة، مُحمَّد حمادة، 245 ـ 246.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 188.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 279.
5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 748 ـ 488.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 252.

الاتِّصالات السِّياسيَّة بين الفرنج والأيُّوبيين:

مُنْذُ أن أَسَّس صلاح الدِّين الدولة الأيُّوبيَّة في مصر والشَّام أخذ يتصرَّف كزعيم سياسي، إضافة لكونه قائداً عسكريّاً، وقد أملت عليه الظُّرُوف السِّياسيَّة البالغة الخُطُورة التي مرَّت بها دولته أن يتمرَّس بالعمل السِّياسي، وما يقتضيه من اتِّصالات بالأصدقاء وبالأعداء، وحتَّى بالأعداء والأصدقاء المُحتملين. فقد راسلَ الإمبراطُورَ الجرماني فريدريك قبل خُرُوجه في حملته الصَّليبيَّة، وعلى بُعْد بلاده تعدَّدت رسائله إليه[1]. ومع كلِّ الجُهُود التي كان يبذلها صلاح الدِّين لاسترداد القُدْس، فلم يمنعه ذلك من أن يكون دبلوماسياً إلى أبعد حَدٍّ، فعندما تُوفِّي ملك القُدْس أرسل صلاح الدِّين إلى ابنه الملك الجديد، "مُعزِّياً بأبيه، ومُهنِّئاً بجلوسه على عرش القُدْس"[2]، وكان رسوله الرئيس العميد مُختار الدِّين[3]. وعندما طلب الملك الإنكليزي ريتشارد الصُّلح عام 587 هـ 1191م، بعد استيلائه على عكَّا، وفشله في التَّحرُّك نحو القُدْس، رفض صلاح الدِّين الاجتماع به، وكلَّف أخاه الملكَ العادلَ بتولِّي المُفاوضات معه، ولطول أمد المُفاوضات كان العادل وريتشارد يأكلان، ويسمران، ويسمعان الغناء معاً، وقد تعدَّت الأحاديثُ بينهما إلى كُلِّ المواضيع[4].

ويبدو أن العلاقات الدِّبلُوماسيَّة توثَّقت أكثر بين الأيُّوبيِّيْن والفرنج بعد موت صلاح الدِّين، فعندما أبل الملك المُعظَّم بن العادل صاحب دمشق من مرضه عام 623 هـ 1226م، "وردت عليه الرُّسُل بالهناء من البلاد، وَسَيَّرَ كاتبَهُ إلى عكَّا يُعرِّفهم بعافيته"[5]، وهذا دليل على علاقات دبلوماسية حميمة. كذلك نجد أن الملك المُجاهد صاحب حمص عندما تُوفِّي البرنس بُوهمند الرَّابع عام 630 هـ 1233م، "سَيَّرَ الملك المُجاهد يُعزِّي ولده، ويُهنِّئه"[6]، ويبدو أن العلاقات بين صاحب حمص الملك المُجاهد وأُمراء الفرنج قد تعدَّت المجاملات الدِّبلُوماسيَّة، فقد كانوا يتبادلون الهدايا أيضاً[7].

---

1 - وُرُود التَّاريخ، روجر ويندوفر، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زكَّار، 44/ 325.
2 - وثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة، مُحمَّد حمادة، 118.
3 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 7/ 115.
4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 73.
5 - تاريخ الدُّول والمُلُوك، ابن الفُرات، 5/ 178، ـ انظرْ: المنصُوري، ابن نظيف، 120.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 257.
7 - المنصُوري، ابن نظيف، 259.

اتِّفاقيات السلام المُحدَّدة:

وهي هُدنة يُتَّفق على مدَّتها بين الطرفَيْن، وكانت شائعة، حتَّى إنَّنا نستطيع أن نقول إنَّها شملت كُلَّ عهد الفرنج في الشَّرْق العَرَبي. وممَّا يُشار إليه أن هذه الاتِّفاقيات ـ في غالب الأحيان ـ لم تكن شاملة تضمُّ كُلَّ دُويلات الفرنجة، وكُلَّ ممالك وإمارات المُسلمين، فغالباً؛ هي هُدنات محلِّيَّة، مع إدراك الطرفَيْن لأهمِّيَّة أن تشمل الهُدنةُ كُلَّ أطراف الصراع، ولذلك فقد سعى الفرنج لعقد هُدنات مرحلية مع أقوى المُلوك الأيُّوبيَّة؛ ليتفرَّغوا لمَنْ هُو أضعف، وهُو ما حدا بالملك الظَّاهر غازي بن صلاح الدِّين صاحب حلب إلى أن يطلب من عمِّه الملك العادل صراحة عام 613 هـ 1216م، "لأن يكون صُلح الملك الظَّاهر وصُلح الملك العادل مع الفرنج واحداً، وفكسهما معهم واحداً"[1].

وكان إمضاء الهُدنة أو الاتِّفاقية بعد الاتِّفاق على شُرُوطها ومُدَّتها لا يتمُّ إلاَّ بتوثيقها من السُّلطان، أو الملك، صاحب الأمر مُباشرة، وكانت طُرُق ذلك مُختلفة، فالمُسلمون كانوا يحلفون بأيمان مُغلَّظة على الوفاء، وهذا أقصى توكيد لإمضاء الهُدنة، بينما كان مُلُوك الفرنج تُؤخَذ يدهم (مصافحة)، ويتعهَّدون بالوفاء والالتزام بالشُّرُوط، وعندما أمضى السُّلطان صلاح الدِّين المُعاهدة مع ريتشارد ملك إنكلترا عام 588 هـ 1192م، اعتذر ريتشارد بأنَّ المُلُوك لا يحلفون، فأخذوا يده، وعاهدوه.. ووصل جماعة من المُقدَّمين الفرنج، وأخذوا يد السُّلطان على الصُّلح، واستحلفوا بقيَّة الأُمراء"[2].

وعادةً تُذكَر مُدَّة الهُدنة بالتفصيل، سنوات وأيَّام، وهذا من أهمِّ شُرُوطها، فالهُدنة التي أقرَّها السُّلطان صلاح الدِّين مع الفرنج كانت مُدَّتها: "عشر سنين وستَّة أشهر وأربعين يوم"[3]. وفي عهد الملك العادل جرت عدَّة هُدنات مع الفرنج، ففي عام 594 هـ 1198م، وبعد فشلهم أمام حصن تبنين، طلب الفرنج الهُدنة، فوافقهم الملك العادل، وعقدت بينهم لمُدَّة خمس سنين وثمانية أشهر[4]، وأعقب ذلك هُدنة أُخرى بين الفرنج والملك العادل عام 606 هـ1209م[5].

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 236، ـ الفكس، أو الفسخ هُو انحلال الهُدنة، أو خرقها.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 82.
3 - أخبار الأيُّوبيِّيْن، ابن العميد، 43.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 18.
5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 136.

وكانت الهُدنة لا تُعقَد في حالة ضعف أحد الفريقَيْن إلاَّ بترضية الطرف الأقوى بدفع مبالغ من المال[1]، أو بالتنازل عن أراضي ومُمتلكات، ففي عام 624 هـ 1227م، عندما اضطرَّ الملك الظَّاهر غازي بن صلاح الدِّين إلى صُلح الدَّاويَة، ليتفرَّغ إلى الصراعات الدّاخليَّة ضمن البيت الأيُّوبي، اضطرَّ أن يتنازل لهم عن نصف إقطاع شيزر[2].

وكان هُناك ـ على ما يبدو ـ مَنْ يختصّ بالسِّفارة والتفاوض لدى الفرنج ممَّنْ يُتقنون العَرَبيَّة، ورُبَّما كان أشهرهم المدعو سيمون، وهُو من اسبتارية قلعة الحصن، فكان مُفاوض الصُّلح مع الملك المُجاهد صاحب حمص، وصحب رُسُل المُجاهد إلى الملك الأشرف بن العادل ليُطلعه على مُجريات اتِّفاقية الصُّلح الذي تمَّ بينهما عام 627 هـ1230م[3]، وعلى يدَيْ سيمون هذا أيضاً كان صُلح الدَّاويَة مع الملك العزيز صاحب حلب عام 630 هـ 1233م[4].

إن قيام الهُدنة التي تقطع حالة الحَرْب الدائمة كانت ضرورية لكلا الطرفَيْن، فالفرنج كانوا بحاجة إلى مُعاهدات السلام المُؤقَّتة هذه للتفرُّغ لإدارة اقتصادهم التِّجاري، والتمكُّن من زراعة المحاصيل وجنيها بسلام، وهذا ما يكون مُتعذّراً في حالة الحَرْب. أمَّا بالنِّسبَة للمُسلمين؛ فقد كانت الهُدنة أهمّ لهم ممَّا هي للفرنج، فتركيبة الجُيُوش الإسلاميَّة كانت بغالبيَّتها من عسكريين إقطاعيين عليهم العودة بأسرع ما يُمكن لإقطاعياتهم، والتي يُمكن أن تكون بعيدة جدّاً عن مسارح القتال، ليتمكَّنوا من جني محاصيلهم التي يعيشون على إيرادها، فما إن تُعقَد الهُدنة حتَّى يُعطي الملك الأيُّوبي الدُّستُورَ لعساكره، فيتفرَّقون إلى إقطاعاتهم[5]. وممَّا يُذكَر أن وُجود هُدنة كان لا يعني ـ أبداً ـ عدم وُجود هجمات عسكريَّة هُنا، أو هُناك، كُلَّما لمس أحد الأطراف في نفسه قُوَّة، أو تجمَّع لديه عدد وافر من العساكر، أو رغب في تنفيذ غارة لتنفيذ غرض مُحدَّد، وهذا ينطبق على الطرفَيْن أيُّوبيين وفرنج.

وقد كانت الطوائف الدِّينيَّة العسكريَّة كالاسبتارية والدواية مشهورين بعدم التزامهم بالاتِّفاقيات ونقضهم المُستمرّ لكُلّ ما يعقدونه من هُدنات مع المُسلمين. وكذلك نجد أن المُسلمين

---

1 - الإعلام والتبين، الحريري، 72.

2 - المنصُوري، ابن نظيف، 152.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 203.

4 - المنصُوري، ابن نظيف، 261.

5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 136.

ـ في كثير من الأحيان ـ يُهاجمون أهدافاً فرنجية مع وُجُود هُدنة، كما فعل الملك المنصُور إبراهيم صاحب حمص عام 640 هـ 1243م، عندما أغار على مناطق طرابلس، بالرّغم من وُجُود هُدنة[1].

وهكذا؛ فإنّنا نُلاحظ أن الحالة العامّة للممالك الأيُّوبيَّة ولدُويلات الفرنج قد أثَّرت على علاقتهما السِّياسيَّة المُشتركة، فالسياسة الأيُّوبيَّة كانت مُرتبكة بشكل عامٍّ بسبب تقسيم الدولة الواحدة بعد وفاة السُّلطان صلاح الدِّين، وعلى ما يبدو لم تكن للمُلُوك الأيُّوبيَّة سياسة خارجية واضحة، وخاصَّة تجاه الفرنج، فلم تظهر بوادر أيِّ مشروع سياسي كامل لطرد الفرنج لأيٍّ من المُلُوك الأيُّوبيَّة بعد مشروع السُّلطان صلاح الدِّين.

وبالمُقابل؛ فإن فرنج الساحل الشَّامي، فيما عدا أيَّام الحملات الأُورُوبيَّة الكُبْرَى، قد انكمشوا على أنفسهم، وكان أقصى طموحاتهم هُو تنفيذ إغارة ناجحة ضدَّ جيرانهم المُسلمين، لتُعيد لهم ذكرى أمجاد غابرة. وأحياناً؛ تنحصر هذه الطموحات في السعي لتحقيق صُلح يُتيح لهم جَمْعَ الثروات واستثمار الأراضي المُحتلَّة، كما أنَّهم كانوا يُدركُون تماماً أن وُجُودهم بات يرتهن ببقاء الشَّام ومصر مُنفصلتَيْن، والشَّام ممزَّقة إلى دُويلات وإمارات وممالك، فلم يُوفِّر الفرنج جُهُودَهُم لتكريس التجزئة وتعميق الخلافات بينها، حتَّى ليُظَنّ ـ أحياناً ـ أن تحالفاتهم مع بعض الدُّول الأيُّوبيَّة كانت ضمن هذا المُخطَّط.

ولكنْ؛ لحُسن حظِّ المُسلمين لم يكن الفرنج ـ فيما بينهم ـ أحسن حالاً من جيرانهم، فقد انخرطوا في تحرُّكات سياسيَّة، وتحالفات عسكريَّة، كُنَّا نجد في بعض الأحيان أن بعض الدُّويلات الأيُّوبيَّة طرف فيها، ممَّا أدَّى إلى خلط الأوراق في المنطقة، وكان هذا الخلط ـ بشكل ما ـ لمصلحة الفرنج، فقد أطال أمد بقائهم في الشَّام حوالي المائة عام، حتَّى عادت الشَّام ومصر لتتوحدا من جديد في ظلِّ دولة المماليك. ومن الجدير بالذِّكْر أن العلاقات بين الفرنج والممالك الأيُّوبيَّة لم تكن عدائية على الدوام، فقد كانت ـ في بعض الأحيان ـ علاقات سلمية، وفي بعضها الآخر؛ وُدِّيَّة تصل إلى درجة التحالف والقتال المُشترك.

---

1 ـ مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 311.



الفصل الثَّاني

العلاقات العسكريَّة بين السَّلطنة الأيُّوبيَّة والفرنج

"اعلمْ أنَّ الحرُوب وأنواع المُقاتلة لم تزلْ واقعةً في الخليقة مُنْذُ براها الله"

(ابن خلدون، المُقدِّمة، 201)

المبحث الأوَّل:

معارك الساحل الشَّامي

بعد أن سقط خطُّ دفاع الشَّام الأوَّل؛ حيثُ احتلَّ الفرنجُ سلسلةَ مُدُن الساحل الشَّامي، بسبب تفوُّقهم البحري، وعدم الإمداد المُنظَّم لهذه المُدُن من داخل البلاد، صمد خطُّ الدفاع الثَّاني المُتمثِّل بسلسلة مُدُن الشَّام الدّاخليَّة، فقد قاومت حلب وحماة وحمص ودمشق حتَّى النِّهاية، وكان قدر حمص أن تكون ثغر الجهاد الأوَّل، من حيثُ تركيز هجمات الفرنج نحوها، أو انطلاق الهجمات المُعاكسة نحو مناطق سيطرتهم.

بعد موت السُّلطان صلاح الدِّين استقرَّ في سلطنة بني أيُّوب الملك العادل، الذي رافق مسيرة الجهاد الطويلة لأخيه صلاح الدِّين، وكان العادل ـ بحقٍّ ـ صانع اتِّفاقية الهُدنة مع الفرنج، التي أنهت الحملة الثَّالثة، ويبدو أنَّه كان رجل سياسة أكثر منه رجل حرب، على عكس أخيه السُّلطان صلاح الدِّين، فكان العادل لا يُحارب في موقع يُمكن أن يعقد فيه اتِّفاق سلام، ولكنْ؛ إذا اضطرَّ كان مُحارباً قديراً.

وبشكل عامٍّ؛ نستطيع القول إن الملك العادل كان رجل دولة وسياسة، وليس رجل مبادئ وجهاد مُقدَّس كأخيه صلاح الدِّين، فقد اكتفى العادل بإحكام سيطرته على ما أُتيح له من ولايات دولة أخيه؛ ليُورثها إلى أبنائه، فتوقَّف ـ بذلك ـ مشروع التحرير، الذي بدأه عماد الدِّين زنكي، وتابعه ابنه نُور الدِّين محمود، وأتمَّ أهمَّ فُصُوله السُّلطان صلاح الدِّين.

ومع كُلِّ اتِّفاقيات الهُدنة التي عقدها الملك العادل مع الفرنج، فلم تخل أيَّامه من صدامات عسكريَّة معهم، وإنْ غابت عنها المعارك الطاحنة الفاصلة، التي ميَّزت عهد أخيه صلاح الدِّين.

فبعد أن أعاد الفرنجة احتلال بلدة جبيل على الساحل الشَّامي عام 590 هـ 1194م[1]، وكانت من الفتوح الصَّلاحيَّة، بقيت بيروت وصيدا في الساحل الأوسط بيد المُسلمين، وهي تقطع شريط السيطرة الفرنجيَّة بين إمارة طرابلس ومدينة عكَّا التابعة لمملكة القُدْس.

وكانت بيروت تُشكِّل خطراً حقيقيّاً على التجارة البَحْريَّة لطرابلس وعكَّا، فقد كان أميرها عزّ الدِّين أُسامة، وهُو من الأُمراء الصَّلاحيَّة، يجتهد في تقوية أُسطُوله، "وكان يُرسل الشواني تقطع الطريق على الفرنج"[2]، ولمَّا لم يتمكَّنوا من الظفر به طلبوا نجدة أُورُبا، فجاءتهم جُمُوع الحُجَّاج عام 593 هـ1197م، وتحرَّكت الحملة نحو بيروت، فاستنجد أُسامة بالسُّلطان العادل، الذي عَسْكَرَ قُرب صُور.

كان العادل يُدرك أن الدعم البحري للفرنجة وتفوُّقهم بالأساطيل قد لا يُمكِّنه من إنقاذ بيروت، فأمر أُسامة بهَدْمها، فاعترض أُسامة، وأكَّد للسُّلطان أن بإمكانه الدفاع عنها، وتكفَّل له بذلك[3]. فقام الملك العادل بقطع الطريق على جيش الفرنج قُرب صيدا لإيقاف تقدُّمهم نحو بيروت، "جرت مُناوشة، وقُتل من الفريقَيْن جماعة، وحجز بينهم الليل، ثُمَّ سار الفرنج إلى بيروت"[4].

ويبدو أن العادل قد قام بهذه المُناوشة لاختبار قُوَّة جُيُوش الفرنج، فتبيَّن أنَّه لا طاقة له بهم، فأخلى بينهم وبين الطريق إلى بيروت، "فتركها أُسامة ومَنْ معه، فكانت غنيمة باردة"[5]، وهرب أُسامة إلى صيدا[6]، "وكثر فيه الحديث، فمن قائل: تجبَّن وتجنَّب، ومن قبل أن ينكب تنكَّب، ومن

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 6.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 126.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 71، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 127، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 2/ 102.
4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 126.
5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 126.
6 - الإعلام والتبيين، الحريري، 44.

قائل: رجاله هابوا، فغابوا، ولو أنّه دعاهم ما أجابوا"، وبقي لأُسامة بعد أخذ الفرنج لمدينة بيروت الولاية الجبلية في شرق المدينة، "لذلك سُمِّي في كثير من المصادر: أُسامة الجبلي"، لكنَّ أُسامة تركها، وغادر المنطقة[1]، وأصبح هرب أُسامة عن بيروت، وتسليمها للفرنج من غير قتال مسبَّة له على الدهر[2].

ولمَّا علم العادل بأَخْذ بيروت، عاد جنوباً، فخرَّب ما تبقَّى من عمارة صيدا[3]، فقد ضعف دفاعها بعد سُقُوط بيروت، وأصبح يُخشى عليها من الفرنج، وتابع العادل طريقه جنوباً بعد أن وصلته الإمدادات من ابن أخيه العزيز صاحب مصر، ووصل سنقر الكبير مع نخبة من حامية القُدْس، وميمون القصري مع نجدة من قُوَّات نابلس، فهاجم العادل ضواحي مدينة صُور، "فقطعوا أشجارها، وخربَّوا ما حولها من قُرى وأبراج"[4].

ثُمَّ تحرَّك العادل نحو يافا، وألقى عليها الحصار، وهاجمها، واحتلَّها بالسيف، "فقتل مُقاتليها وأعيان مَنْ بها من الفرنج، وامتلأت أيدي المُسلمين بالسبي والغنائم، وكان هذا ثالث فَتْح لها"[5]، وقُدِّر عدد أسرى الفرنج بعشرة آلاف أسير، عدا العدد والذخيرة والميرة والمال الذي لا يُحصَى[6]، وكان من جُملة الأسرى رسول ملك قبرص، وأحد فُرسانه المُعتمدين، الفارس وليم بر الياس، الذي أُسر مع زوجته[7]، وبعد فَتْح الملك العادل ليافا أمر بهَدْمها، ورمي حجارتها في البحر في مينائها[8].

---

1 - الروضتَيْن، أبو شامة، 233، وخُطْفَة البارق وعَطْفَة الشَّارق، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19/ 464.

2 - عندما حاصر الفرنج حصن تبنين نظم بعضهم يقول:

سلِّمْ الحصن ما عليك ملامة   ما يلام الذي يروم السلامة

فعطاء الحُصُون من غير حرب   سُنَّة سَنَّها ببيروت سامة

وأطلق كثير من المُؤرِّخين - فيما بعد - اسم سامة على عزّ الدِّين أُسامة، وهُو وَهْمٌ، فسامة هُنا لضرورة الشعر، بينما اسمه الصحيح هُو أُسامة (الروضتَيْن، أبو شامة، 233 - وخُطْفَة البارق وعَطْفَة الشَّارق، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19/ 464).

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 127.

4 - من عقد الجُمان، البدر العيني ، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 59 / 451.

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 78.

6 - البستان الجامع، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 11/ 394.

7 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري 1184 - 1197، مخطوطة فلورنسا، تحقيق: مرغريت مُورغان، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 8/ 504.

8 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20 / 12 .

إن هذا التبادل في احتلال المُدُن السَّاحليَّة ليدلّ على تعادل القوى العسكريَّة لدى الطرفَيْن، وتكون الغلبة، إذا حدثت، مرحلية يُمكن للطرف الآخر الرّدّ عليها بسُرعة.

كانت الحملات الفرنجيَّة تتجدَّد مُنطلقة من عكّا غالباً، فكُلّما وصلت مجموعات جديدة من الحُجّاج المُقاتلين تتحفَّز، وتتجمَّع، ومتى وجدت في نفسها قُوَّة للهُجُوم انطلقت صوب أراضي المُسلمين في الداخل، وفي عام **600** هـ **1204**م "اجتمع من الفرنج بعكّا جَمْع عظيم، وأخذوا في الإغارة ونهب البلاد وقتل المُسلمين"[1]، فخرج العادل بعسكره من مصر، وعَسْكَرَ عند سفح جبل الطور شمال فلسطين، وهُو مشرف على عكّا، للتَّصدِّي لقُوّات الفرنج التي كانت مُعسكرة في مرج عكّا. لذلك عمد الفرنج إلى القيام بغارة بحرية غير مُتوقَّعة، مُستفيدين من قُوَّة أساطيلهم البَحْريَّة وغفلة المُسلمين الذين يتوقَّعون هُجُومهم في فلسطين.

فخرج من عكّا أُسطُول فرنجي، وتوجَّه نحو مصر، فدخل النيل من فرع رشيد، ووصل إلى مدينة فوة، وأقام الفرنج فيها خمسة أيّام ينهبون، ويسبون، وعساكر مصر لا تتمكَّن من الوُصُول إليهم لعدم توفُّر أُسطُول حربي جاهز هُناك[2]، لقد أضعف ذلك موقف الملك العادل، واضطرَّه لقبول مُفاوضات الصُّلح مع الفرنج، الذين تعنَّتوا، ولم يوافقوا على الهُدنة، حتَّى نزل لهم العادل عن يافا ومناصفات اللّدّ والرملة، وانعقدت الهُدنة على ذلك عام **601** هـ **1205**م[3].

وفي عام **603** هـ **1207**م، تجمَّع الفرنج في طرابلس، وخرجوا منها تدعمهم اسبتارية قلعة الحصن، وهاجموا حمص، ويبدو أن الملك المُجاهد صاحبها أدرك أنَّه لا يستطيع مُقاومة كلّ تلك الحشود، فاستنجد بالمُلوك الأيُّوبيَّة، وبالملك العادل سُلطان البيت، فوصلتْهُ نجدة الملك الظَّاهر صاحب حلب، وتحرَّك الملك العادل بقُوّاته من مصر، فأيُّ خرق داخلي يُحقِّقه الفرنج سيقلب موازين القوى، إضافة لالتزامه بالدفاع عن الممالك الأيُّوبيَّة في الشَّام، التي تتبع له اسمياً على الأقلّ.

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 159.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 161، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 50، وتاريخ الإسلام، الذهبي، 591 ـ 600/ 46، وتاريخ ابن سنباط، 1/ 236.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 162، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 106.

وبدأ العادل هُجُومه في الشَّام بمُناوشة عكّا، وبالتَّأكيد؛ لم يُفكِّر بفَتْحها، بـل مُجـرَّد مُـضايقتها، "فصالحه أهلها على إطلاق مَنْ في أيديهم من أسرى المُسلمين"[1]، وشُرُوط هذا الصُّلح دليل واضح على ميزان القوى، الذي يُشير إلى عدم تفوُّق ساحق لأيٍّ من الطرفَيْن[2].

وسار العادل نحو هدفه في أواسط الشَّام حتَّى نزل عـلى بُحَـيْرة قَـدَس، فخيَّم في سـهلها[3]، واستدعى العادل إليه مُلُوك الشَّام مع قُوَّاتهم، فتحشَّد عنده المُجاهد بقُوَّات حمص، والمنصُور بقُـوَّات حماة، والأمجد بقُوَّات بعلبك، مع نجـدة حلـب التـي أرسـلها الظَّـاهر، وعـسكر المَوصـل وسـنجار والجزيرة وآمد، إضافة إلى ولدَيْه الأشرف والمُعظَّم، فتجمَّع لدى العادل حوالي عشرة آلاف فارس[4].

ولمَّا استكمل العادل استعداداته تحرَّك غرباً صوب طرابلس، فاصطدم بقلعـة الحـصن، وهـي أكبر مركز عسكري داخلي للفرنج في بلاد الشَّام، فحاصر القلعة، وقاتل عليها أشـدَّ قتـال[5]، ولكـن العادل لم يكن جادّاً في فتح قلعة الحصن، فهُو يُدرك ـ تماماً ـ أنَّهـا كانـت أبعـد مـن أن تُفتَـح في تلـك الحملة، وبدون استعدادات خاصَّة لفتح معقل بهذا الحجم وهذه القُوَّة، ولم يكـن فَتْحُهـا في مُخطَّطاتـه أصلاً، فهُو يُريد ـ فقط ـ الضغط على الفرنج لمَنْع هجماتهم داخل الشَّام، ولكن العادل لم يُضيِّع فُرصـة تجمُّع هذه الجُيُوش، فهاجم أحد أبراج المُراقبة التابعة لقلعة الحـصن، وهُـو بُـرج أعنـاز[6]، واحتلَّـه، وأسر منه خمسمائة مُقاتل، وسلاحاً، وأموالاً[7]، وكان بجانب البُرج طاحونة كبـيرة للفـرنج، فخرَّبهـا العادل[8]، وتابع الملك العادل هُجُومه نحو طرابلس، فهاجم البلـدة، وقطـع أشـجارها، وقناتهـا[9]، وضيَّق عليها.

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 172.
2 - راجعْ شُرُوط هذا الصُّلح في: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 273، وتاريخ الإسلام، الذهبي، 591ـ600/ 46.
3 - تُوجد حول بُحَيْرة قَدَس، من الجنوب والشرق والشمال، سُهُول واسعة ومروج مُمتدَّة، إضافة إلى مياه البُحَيْرة ونهر العاصي الذي يخترقها، ممَّا يُشكِّل مكاناً مثالياً لإقامة المُعسكرات.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 172، والمنصُوري، ابن نظيف، 52.
5 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 215.
6 - عناز: حالياً هي قرية في جبل الحلو غربي حمص، على الطرف الشمالي الغربي من سهل البقيعـة، وهـي جنـوب شرق قلعة الحصن حوالي 5 كم (المُعجم الجَغرافي للقطر السوري، مادَّة: عناز).
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 172، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 215.
8 - المنصُوري، ابن نظيف، 52.
9 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 215.

لكنَّه فعل بها كما فعل بقلعة الحصن، فلم تكن طرابلس هدفه الحقيقي، بل كان حصن القليعات[1]، فاستسلم الحصن له صُلحاً، فخرَّبه، وغنم ما فيه[2].

ولم يُشدِّد على طرابلس، فقد لمس من قُوَّاد النجدات التي ترافقه "فشلاً ومَلَلاً"[3]، إضافة إلى مُراسلة صاحب طرابلس بُوهمند الرَّابع، وخُضُوعه، وذُلّه، وإرساله الهدايا والمال، وإطلاقه ثلاثمائة أسير مُسلم[4].

---

1 - القليعات: حصن كبير مُشرف على خليج عرقة شمال طرابلس.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 274، والمنصُوري، ابن نظيف، 52.

3 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 591 ـ 600/ 46.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 175، وتاريخ الإسلام، الذهبي، 591 ـ 600/ 46.

المبحث الثَّاني:

الصراع على قلعة الطور[1]

في عام 607 هـ 1210م، قرَّر الملك العادل بناء قلعة على جبل الطور، وكانت عليه قلعة فرنجية حرَّرها السُّلطان صلاح الدِّين، ثُمَّ خرَّبها المُسلمون لَّما حرَّروا عكَّا[2]، فأمر العادلُ ابنَهُ الملكَ المُعظَّم، نائبه في دمشق، أن يجتهد في بنائها[3]، "ونزل الملك العادل بعساكره نحوها، وأحضر الصُّنَّاع من كُلِّ بلد، واستعمل جميع أُمراء العَسْكَر في البناء ونقل الحجارة"[4]، وجاءت قلعة الطور بنياناً عسكريَّاً فذَّاً في ذلك الوقت، لمتانة بنائها وموقعها الاستراتيجي المُسيطر على تحرُّكات الفرنج في الساحل من عكَّا إلى صُور[5].

ولعدم تمكُّن الفرنج من التدخُّل لوقف بناء القلعة، أرسلوا وُفُودهم إلى أُورُبا يُعلنون النفير، ويقولون: بأنَّ العادل سيملك الساحل بهذه القلعة، "فَجَدَّ الفرنجُ في وُصُولهم من البحر، والملك المُعظَّم يجدُّ في عمارته"[6].

وفي عام 614 هـ 1217م، انتهت الهُدنة مع الفرنج، فنزل الملك العادل في مرج الصُّفر، "وأرسل إلى مُلُوك الشَّرْق ليقدموا لقتال الفرنج، وكان أوَّل مَنْ قدم صاحب حمص أسد الدِّين"[7]، ثُمَّ تحرَّك العادل إلى بيسان ومعه ابنه المُعظَّم بعساكر دمشق[8]، وخرجت جُمُوع الفرنج من عكَّا بعد

---

1 - الطور: كلمة في العَرَبيّة والسريانية تعني الجبل، وهي هُنا اسم لجبل مُطلٍّ على عكَّا قريب منها.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 215، والمنصُوري، ابن نظيف، 62.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 63.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 215.
5 - بعد انتهاء الملك العادل من بناء قلعة الطور مدحه كمال الدِّين بن النبيه المصري بقصيدة منها:

الملك العادل من أمه	فقد رأى مُوسى على الطور
إنْ كان قد دُكَّ قديماً	فقد عمَّرته أحسن تعمير
كأنما أوقفته حارساً	يحرس من عكَّا إلى صُور

(مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 216).
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 63.
7 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 83.
8 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 197.

اكتمالها بوُصُول ملك قبرص هيو بقُوَّاته، وملك هنغاريا بجيشه[1]، وجيش مملكة القُدْس، الذي ضمَّ جميع بارونات الساحل، فشكَّلوا حوالي خمسة عشر ألف مُقاتل[2].

ويبدو أن الملك العادل فُوجئ بضخامة جيش الفرنج[3]، فانسحب بقُوَّاته نحو عجلون، وأراد المُعظَّم الثبات للقاء الفرنج، لكنَّ والده العادل لم يلتفتْ له، بل إنَّه شتمه، واتَّهمه بسُوء إدارة الإقطاع العسكري، ممَّا جعلهم في حالة ضعف[4]، وسار ليحمي الطريق نحو دمشق، وأمر ابنه المُعظَّم أن يتحرَّك صوب القُدْس لحمايتها، فنزل بينها وبين نابلس، وتابع العادل تراجعه أمام الفرنج، فوصل إلى جنوب دمشق وطلائع الفرنج تتابعه، حتَّى وصلت الجولان، فنهبوا، وأسروا، ثُمَّ عادوا[5]. وممَّا يُلفت النظر أن حملة بهذه الضخامة تتحرَّك على غير هُدى، وتكتفي بنهب بعض البلدات والقُرى، ثُمَّ تعود أدراجها نحو عكَّا، دُون تحقيق أيِّ هدف ذي قيمة.

ويبدو أن الملك العادل كان يتوقَّع أن لا تتوقَّف الحملة إلاَّ عند أسوار دمشق، لذلك أرسل إلى واليها ليستعدَّ ويُموِّن المدينة بالغلال، ويُغرق بعض المناطق حولها بالماء، قائلاً له: "إن الفرنج مُظهرون قَصْدَهَا"[6]، والملك العادل مُرابط في مرج الصُّفر جنوبي دمشق لحمايتها[7]. ولكن الحملة عادت أدراجها إلى عكَّا، وعسكرت في مرجها، ومن هُناك؛ تابع الفرنج تخبُّطهم العسكري، فشنُّوا غارات غير مُجدية قام بها المُجرِّبون نحو صيدا والشقيف، وذلك بالرّغم من نصائح الفرنج المحلِّيِّيْن وتحذيراتهم، فقد اندفع المُجرِّبون بغاراتهم في المناطق الجبلية، فهلكت أعداد كبيرة منهم لوُعُورة الطُّرُق، وبالكمائن التي نُصبتْ لهم، وتخطَّف المُسلمون مَنْ بقي منهم[8]، وسيقت أسراهم إلى دمشق[9].

---

1 - كان المُسلمون يُسمُّونه الهنكر، وقيل إن جيش الهنغار كان - وحده - يضمُّ خمسة عشر ألف مُقاتل. (شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 224).

2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 197، والحُرُوب الصَّليبيَّة، رنيسمان، 3/ 263.

3 - لُبنان من السُّقُوط، تدمري، 223.

4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 197.

5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 197.

6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 196.

7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 255 - 256.

8 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 103.

9 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 103.

ويبدو أن الفرنج أثناء تجمُّعهم في مرج عكّا تشاوروا، وقرَّروا اختيار هدف ثمين يليق بحملتهم وجموعهم، فاختاروا الهُجُوم على قلعة الطور، وتحرَّكوا صوبها، وقد تخلَّف عنهم الملك هيو، الذي كان يحضر زواج أُخته غير الشقيقة بأمير إنطاكية بُوهمند الرَّابع، وكان مسيرهم في يوم كثير الضباب، فلم يُحسّ بهم المُسلمون إلاَّ والفرنج عند باب الحصن.

فخرجت إليهم الحامية، واشتبكت معهم حتَّى ردُّوهم إلى أسفل الجبل، ثُمَّ عادوا إلى الهُجُوم بالسلالم، فأُحرقت بالنفط، واشتدَّ الهُجُوم، فقُتل عدَّة أُمراء للفرنج، واستشهد عدَّة أبطال للمُسلمين، "وأغلق المُسلمون الباب وضربوا مشورة، واتَّفقوا أنَّهم يُقاتلون قتال الموت ولا يسلمون أنفسهم، وكان في الطور أبطال المُسلمين وخيار عسكر الشَّام"[1]. وشدَّد الفرنج ضغطهم على القلعة "وكادوا يملكونها"[2]، واضطربت الشَّام ومصر لأهمِّيَّة الحصن واستراتيجية موقعه، ولما يحويه من الرجال والذخائر، وضاق الأمر بالملك المُعظَّم بن العادل وهُو المعني الأوَّل بهذا الحصن، فأرسل يستنجد بالخليفة العبَّاسي، وفي مُقدِّمة كتابه إليه بيتان من الشعر للأمير عبد المحسن الكاتب الحلبي، يقول فيهما:

قُلْ للخليفة لا زالت عساكره ... لها إلى النصر إصدار وإيراد

إن الفرنج بحصن الطور قد نزلوا ... لا يغفلن فحصن الطور بغداد[3]

وهذا يدلُّ على أهمِّيَّة الحصن للدولة الأيُّوبيَّة وللمُسلمين بشكل عامٍّ، وبالنتيجة؛ ولاستبسال حامية الحصن، واستماتتها في الدفاع، ووُصُول خبر موت الملك هيو في طرابلس، انسحب الفرنج من حصار قلعة الطور[4].

وممَّا يُلاحظ أن عمليات الفرنج العسكريَّة ضدَّ المُسلمين لم تكن كُلُّها محسوبة جيِّداً، ولم تكن كُلُّ قطعاتهم مُسيطراً عليها من قبَل قيادة واحدة، بل كان مُعظمها يتبع لأمير أو ملك له حُرِّيَّة التصرُّف، أو هي عبارة عن حُجَّاج مُتلهفِّين للقتال، لا يحسبون النتائج جيِّداً.

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 198.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 256.
3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 103.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 257.

بعد انسحاب الفرنج من حصار الطور عادوا للتجمُّع في مرج عكَّا، وعادوا للتشاور فيما يفعلون، فقرَّروا بشكل غير مُتوقَّع ـ قصد مصر، "وقالوا: إن صلاح الدِّين استولى على الممالك، وأخذ القُدْس والساحل من الفرنج بمُلكه ديار مصر، وتقويته برجالها، فالمصلحة أن نقصد مصر أوَّلاً، ونملكها، وحينئذ؛ فلا يبقى لنا مانع عن أَخْذ القُدْس، وغيره من البلاد"[1]، ويبدو أنَّهم قرَّروا ـ أخيراً ـ قراراً صائباً، فالشام مليئة بحُصُون المُسلمين، وقُوَّاتهم ورجالهم مُستعدُّون دائماً للحرب، بينما مصر مكشوفة تماماً، أو هكذا اعتقدوا. وفي عام **615** هـ **1217**م، ركبت جُمُوعُ الفرنجة البحرَ، وتوجَّهوا صوب مصر، وألقت الأساطيل مراسيها على برِّ الجيزة أمام مدينة دمياط، فتحرَّك الملك الكامل بن العادل نائب والده في مصر بجُيُوشه، وأقام قبالتهم[2].

أمَّا في الشَّام؛ فقد اغتمَّ الملك العادل لهذا الخبر، وبدأ بتجميع القُوَّات، وإرسالها إلى مصر، واستدعى ولده المُعظَّم، وقال له: "لقد بنيت هذا الطور، وسيكون سبباً لخراب الشَّام، وقد سلَّم الله مَنْ كان فيه، وأرى من المصلحة خرابه؛ ليتوفَّر مَنْ فيه على حفظ دمياط"، ولم يُوافق المُعظَّم أوَّلَ الأمر، لكنَّه رضخ لرغبة والده في النِّهاية، ونقل موجُودات الطور من العدد والذخائر إلى القُدْس وعجلون والكرك ودمشق، وخرَّبه، وأزال تحصيناته[3].

وكان آخر خبر يودُّ الملك العادل سماعه هُو ما حمله إليه من مصر رسول ابنه الكامل؛ حيثُ أعلمه بسُقُوط دمياط بيد الفرنج، فلم يحتمل قسوة النبأ، ومات خلال أيَّام، إنَّ مَنْ أمضى حياته في الجهاد، وحفظ البلاد بالحَرْب أو بالسِّلْم صُعق لخبر سُقُوط دمياط، فمات[4].

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 258.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 258.

3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 209.

4 - يذكر الدَّواداري في حوادث عام 596 هـ خبراً عن العادل، فيقول: "كان الأفضل مع جُيُوش أخوته يُحاصر دمشق، وبها العادل عمُّه، فضاق العادل من الحصار، وعدم القُوت، وفارقه جماعة من أصحابه، فلمَّا ضاق به الأمر، استدعى الأسرى الذين كانوا عنده من الفرنج، وقال: أُسلِّم إليكم هذا البلد، وتعطوني الكَرَك بجميع ما فيها، فلم يُوافقوه على ذلك". (كنز الدُّرر، الدَّواداري، 7 / 140)، ويبدو أن الدَّواداري قد وهم بهذا الحديث جُملة وتفصيلاً، فتسليم دمشق لأبناء أخيه لم يُقرّ به العادل، فكيف يُسلِّمها للفرنج؟! كما أن دليل فساد الخبر بين طيَّاته، فالعادل كان يملك الكَرَك بكُلِّ ما فيها، ولا يحتاج لأحد كي يُعطيها له، كما أن أسرى الفرنج ماذا بيدهم ليُقرِّروه، وهم بصفة سجناء، لم يهتمّ بفدائهم أحد من الفرنج، حتَّى يُسمَح لهم بالمُوافقة، أو عدمها، عن أمرائهم ومُلُوكهم.

وبعد وفاة الملك العادل، وهزيمة الحملة الفرنجيَّة على دمياط، يبدو أن الملك الكامل - الـذي خلف أباه سُلطاناً على مصر - قد أسقط من حساباته - نهائيّاً - الجهاد ضدَّ الفرنج في الساحل الـشَّامي، أو أنَّه اعتبر أن ذلك هُو مسؤولية أخيه الملك المُعظَّم صاحب دمشق والقُدْس، وقام بدل الجهـاد ضـدَّ الفرنج بالتحالف معهم، فقد رَاسَلَ الإمبراطُور فريـدريك، وطلـب منـه الحُـضُور إلى الـشَّام بقُوَّاتـه ليدعمه ضدَّ أخيه الملك المُعظَّم، على أن يُسلِّمه القُدْس، وما حوله، وهُو ما حصل فعلاً[1]. أمَّا الملـك المُعظَّم؛ فبعد جهاده المعروف ضدَّ الفرنج، وضربه لهم في فلسطين أثناء هُجُومهم على دمياط، اضـطرَّ لتهدئة جبهته مع الفرنج، نتيجة لتفاقم خلافاته مع أخوَيْه الكامل والأشرف، ولم نعد نـسمع عـن أيِّ نشاط حربي مُوجَّه ضدَّ الفرنج تقوم به مملكة دمشق. ولمَّا سمع الملك المُعظَّم بنيَّة أخيه الكامل، تسليم القُـدْس إلى فريـدريك، سـار إليهـا عـام 624 هـ 1227م، وأكمـل تخريـب حُـصُونها، وردم عـدَّة صهاريج حولها[2]، فهل هذا كُلُّ ما كان يُمكن الملك المُعظَّم فعله لحماية القُدْس؟

---

1 - حول تسليم القُدْس راجعْ مبحث العلاقات السِّياسيَّة مع الفرنج في هذا الكتاب

2 - كان المُعظَّم قد خرَّب أسوار القُدْس عندما احتلَّ الفرنجُ دمياطَ، خوفاً من أن يأخذوها، ويتحصَّنوا بها. (السُّلُوك، المقريزي، 1/ 346).

المبحث الثَّالث:

العلاقات العسكريَّة بين السُّلطان الصَّالح أيُّوب والفرنج

استمرَّت العلاقات العسكريَّة مع الفرنج زمن السُّلطان الصَّالح أيُّوب كما كانت ـ من قبلُ ـ مع مَنْ سبقه من سلاطين ومُلُوك بني أيُّوب، فكُلَّما وجد الفرنج في أنفسهم قُوَّة قاموا بغارة على بلاد المُسلمين، وتُحدِّد قُوَّةُ الإغارة وفاعليَّتها بالقُوَّة التي تجمَّعت لديهم، وهي ـ غالباً ـ من الحُجَّاج الوافدين إلى ساحل الشَّام المُتحمِّسين للقتال.

ففي عام **640** هـ **1242**م، بينما كان الخلاف بين الصَّالح أيُّوب ـ الذي تمكَّن من الاستيلاء على السُّلطة بمصر ـ والصَّالح إسماعيل صاحب دمشق على أشدِّه، تحرَّكت حملة من الفرنج من عكَّا إلى نابلس، فنهبوا المدينة، وقتلوا، وأسروا مَنْ قدروا عليه من أهلها، حتَّى الجامع لم يسلم منهم، فأخذوا منبر الخطيب من جامعها[1].

معركة غزَّة:

انتهت مُدَّة المُعاهدة التي عقدها الإمبراطُور فريدريك الثَّاني مع السُّلطان الكامل عام **638** هـ **1240**م، وكان البابا يمنع كُلَّ مُساعدة مُمكنة لمملكة القُدْس طالما هي بيد عدوِّه الإمبراطُور فريدريك، ورغم حظر البابا، فقد أبحر إلى عكَّا ثيوبولد أمير شمباني[2]، ثُمَّ تبعه ريتشارد أمير كورنوول شقيق هنري الثَّالث ملك انكلترا، لكنَّ هذا الدعم لم يُقدِّم الكثير لواقع الفرنجة المُتردِّي في الشَّرْق، فقد أُصيب الفرنج بعدوى الخلافات والانقسامات، التي كانت تُسيطر على الممالك الأيُّوبيَّة، وكانت جماعتا الاسبتاريَّة والدَّاوية تتزعَّمان هذه الخلافات، وهما من أشدِّ المُحرِّضين عليها[3]؛ حيثُ اعتضدت كُلُّ جهة منهما بواحد من مُلُوك المُسلمين، وسعت لكسب الأنصار من الفرنج، وخاصَّة من الأُمراء القادمين الجُدُد من وراء البحار[4]، وشقُّوا ـ بذلك ـ صفَّ الفرنجة.

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 415.

2 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 118.

3 - الدَّاويَة: جمعية فُرسان المعبد Templiers، تأسَّست عام 513 هـ 1119م، لحماية الحُجَّاج المسيحيين.

4 - حُرُوب فريدريك الثَّاني في سُورية وقبرص، فيليب دي نوفار، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 35 / 206 ـ 208.

وعندما قام الصَّالح أيُّوب سُلطان مصر بتهديد الصَّالح إسماعيل صاحب دمشق اتَّصل إسماعيل بالفرنج طالباً التحالف معهم، فانضمَّت الدَّاويَة إلى حلفه بشُرُوط قاسية، تفضي بتسليمهم عدَّة قلاع إسلامية، مع جميع الأراضي العائدة للقُدْس، مُقابل أن يدعموه في حربه ضدَّ صاحب مصر[1]. وسلَّم الصَّالح إسماعيلُ حليفَهَ الملكَ المنصُورَ إبراهيمَ صاحبَ حمص قيادةَ جيش دمشق، فضمَّه إلى قُوَّاته، وتوجَّه نحو فلسطين؛ حيثُ وافته قُوَّات النَّاصر داود صاحب الكَرَك، وقُرب عكَّا؛ وافته قُوَّات الفرنج، وعلى رأسها فُرسان الدَّاويَة[2]. وكان حجم المُشاركة الفرنجيَّة في الحملة على أعلى مُستويات القادة، وبمُعظم قواهم العسكريَّة، فقد رافق الجيشَ بطريركُ القُدْس روبيرت، ورئيسُ أساقفة صُور، ورالفُ أسقف الرملة، وطوائفُ الفُرسان الرُّهبان: الدَّاويَة، الاسبتاريَّة، والتِّيُوتُون، وكانوا يُشكِّلون أكثر من ثلاثمائة فارس، وكُلّ منها بقيادة مُقدَّمها الأكبر، وكانت فرقة الفُرسان من خارج الطوائف الرُّهبانية بقيادة فيليب مونتفورت صاحب صُور وتبنين، وقُوَّات أنطاكية بقيادة يُوحنَّا ووليم سيدي البترون أبناء عمّ بُوهمند أمير أنطاكية، ومعهم يُوحنَّا سيدهام كند سطبل طرابلس، وقيل إنَّ عدد فُرسان الفرنجة بلغ ألفاً وخمسمائة فارس، وأن الجُنُود المشاة كانوا عشرة آلاف مُقاتل[3].

ومن وصف المقريزي لمسير المنصُور إبراهيم مع قُوَّات الفرنج، نستطيع أن نُلاحظ مدى استياء العالم الإسلامي، ورفضه للتحالف مع الفرنج. قال: "فسار المنصُور جريدة إلى عكَّا، وأخذ الفرنج ليُحاربوا معه عساكر مصر .. وقد رفع الفرنجُ الصُّلبان على عسكر دمشق، وفوق رأس المنصُور صاحب حمص، والأقس تصلَّب، وبأيديهم أواني الخمر تسقي الفُرسان"[4]. في هذه الأثناء كان الصَّالح أيُّوب قد راسلَ الخَوَارزميَّةَ، فتحرَّكوا جنوباً بقُوَّاتهم التي تُقدَّر بعشرة آلاف مُقاتل، والتحقوا بقُوَّات مصر، قُرب غزَّة[5]. ونشبت المعركة يوم الاثنَيْن **12** جمادى الأُولى عام **643** هـ

---

1 - حُرُوب فريدريك الثَّاني في سُورية وقبرص، فيليب دي نوفار، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 207.

2 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 317.

3 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 746، والحُرُوب الصَّليبيَّة، رنسيمان، 3 / 394، و **The Crusaders in the East, Stevenson, p 239**

4 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 317، ـ والجريدة: سَيْرُ الفُرسان بسلاحهم الشخصي فقط.

5 - حملة لويس، مُصطفى زيادة، 73.

1246م[1] في ظاهر غزَّة[2]. واللقاء في هذا الموقع يدلُّنا على أن التحالف الشَّامي الفرنجي كان في موقف الهُجُوم، ويبدو أنَّهم كانوا ينوون دُخُول مصر. وأن جيش مصر كان في موقف الدفاع عن أبواب بلاده، وما طَلَبُ المصريين للخَوَارزميَّة إلاَّ لتقديرهم مدى قُوَّة التحالف المُعادي وخُطُورته على مصر، وهذا ما سيُثبته تراجع المصريين في المعركة. وقد تولَّى قيادة جيش التحالف المصري الخوارزمي رُكن الدِّين بيبرس[3]. أمَّا جيش التحالف الشَّامي الفرنجي؛ فقد كان بقيادة الملك المنصُور إبراهيم، الذي رتَّب قُوَّاته مُسنداً ميمنته، التي تضمُّ الفرنج، إلى أسوار عسقلان[4]، وجعل قُوَّات الكَرَك وعليها الوزيري في الميسرة[5]. وكان المنصُور مع قُوَّات حمص في القلب[6]. ومن مُجريات المعركة نستنتج أن الخَوَارزميَّة كانوا في ميسرة المصريين، ويواجهون الفرنج، بينما واجه جيشُ مصر قُوَّات المنصُور وقُوَّات الكَرَك.

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 174،. وتاريخ المعركة هُو: 17تشرين أوَّل 1244م (تاريخ سُورية، الدبس، 255).

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 338، والسُّلُوك، المقريزي، 2/ 317، و شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 376، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 323. بينما ذُكر أنَّه "ما بين غزَّة وعسقلان" في: ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 174، وحوادث الزَّمان، ابن الجزري، 190. وأنَّه: "عند بلدة جاذر" في: تاريخ سُورية، الدبس، 255، ـ وأنَّه "عند لافوربي ـ قرية حيربيا الحالية ـ" في: حملة لويس التَّاسع، مُصطفى زيادة، 75 . وكُلُّها مواقع في المنطقة نفسها.

3 - رُكن الدِّين بيبرس: البندقداري الصالحي، أحد مماليك السُّلطان الصَّالح أيُّوب الأخصَّاء، كان معه في حبس الكَرَك، ولمَّا تسلطن أيُّوبُ قدَّمه على الجيش في معركة غزَّة، ولمَّا سمع باتِّفاقه مع الخَوَارزميَّة ضدَّه، استدرجه إلى القاهرة، ثُمَّ قبض عليه، ولم يُعرَف له خبر بعدها. وبيبرس هذا هُو غير بيبرس البندقداري، الذي أصبح سُلطان مصر فيما بعد، وبيبرس السُّلطان أصغر من بيبرس الأوَّل، وقد التحق بخدمة الصَّالح أيُّوب في مصر، فهُو من المماليك البَحْريَّة. (النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6 / 322، والمُختصر، أبو الفداء، 3 / 184)، وقد وهم بعض المُؤرِّخين، فاعتقدوا أن بيبرس الأوَّل والثاني شخصاً واحداً، ومنهم ابن خلدون، يقول: " لمَّا بُويع المُعظَّم تُورانشاه، وكانت له بطانة من المماليك، جاء بهم من كيفا، فتسلَّطوا على موالي أبيه، وكان للصَّالح جماعة من الموالي وهم البَحْريَّة. وكان كبيرهم بيبرس، وهُو الذي كان الصَّالح بعثه بالعسكر لقتال الخَوَارزميَّة . . ." (العبر، ابن خلدون، 5 / 429)، كذلك وهم أرنست باركر عندما تحدَّث عن معركة غزَّة، قال: "بيبرس قائد القُوَّات المصريَّة والسُّلطان المملوكي الذي تولَّى ـ فيما بعد ـ حُكْمَ مصر". (الحُرُوب الصَّليبيَّة، باركر، 119)، ثُمَّ يعود ليقول: "فبيبرس هُو أعظم هؤلاء المماليك، والذي تولَّى القيادة في معركة غزَّة/ 1244، وكان من قادة المماليك أثناء القتال ضدَّ القدِّيس لويس/ 1250، ثُمَّ أصبح ـ فيما بعد ـ سُلطاناً/ 1260، (الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 123).

4 - حملة لويس التَّاسع، مُصطفى زيادة، 75.

5 - حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 190.

6 - تُحفة ذوي الألباب، الصفدي، 2/ 133.

كانت خُطَّة قائد التحالف الشَّامي الملك المنصُور إبراهيم تقضي بتحصين مُعسكر التحالف[1]، والدفاع عنه ضدَّ هُجُوم مُؤكَّد سيقوم به الخَوَارزميَّة، وكان المنصُور يعتمد في هذا التوقُّع على خبرته الطويلة في قتال الخَوَارزميَّة، فهم غير مُؤهَّلين لُمهاجمة التحصينات، كما أنَّهم لا يطيقون الانتظار في مكان واحد، أو المثابرة على حرب طويلة الأمد، وقد أيَّد القادةُ المنصُورَ إبراهيمَ في خُطَّته ماعدا كُونت يافا وولتر بريين، فقد ألحَّ بطلب الهُجُوم لشُعُوره بالتفوُّق العددي، ثُمَّ بادر بالتحرُّك بقُوَّاته، فتبعتْهُ بقيَّة الجيش[2].

وبدأت معركة من أغرب المعارك، ليس لما فيها من تناقض المُتحالفين وتقارب المُتصارعين فحسب، بل لما في مُجرياتها أيضاً، فقد ثبت الفرنج والخَوَارزميَّة لبعضهما بعضاً ثباتاً عجيباً، ودار صراع دموي قلَّما شهدت له الجُيُوش المُتحاربة في عصر الممالك الأيُّوبيَّة مثيلاً. أمَّا على الجانب الآخر؛ فقد"هرب جيش مصر"[3]، وتراجع أفراده فارِّين نحو بلادهم، حتَّى وصلوا إلى العريش[4]. وبدلاً من أن تبدأ قُوَّات الشَّام بمُطاردة المهزومين، أو الالتفاف على الخَوَارزميَّة لُمساعدة حُلفائهم الفرنج، حدث ما ليس بالحُسبان؛ حيثُ فرَّت ـ أيضاً ـ قُوَّات التحالف الشَّامي، وتركت أرض المعركة مُتراجعة صوب الشمال، يقول بطريرك القُدْس: "وهرب المُسلمون الذين معنا جميعاً، وترك الصَّليبيُّون وحدهم"[5]، فانكشفت القُوَّات الفرنجيَّة، ممَّا أتاح للخَوَارزميَّة تطويقها[6]. ولتتحوَّل المعركة إلى مجزرة للفرنج؛ حيثُ "قُتِل منهم كثيرون، حتَّى لم يبقَ من الهيكليين إلاَّ ثلاثة وثلاثون فارساً، ومن الإسبتالية خمسة، ومن فُرسان القدِّيس يُوحنَّا ثلاثة"[7].

---

1 - تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، ستيفن رنسيمان، تعريب: السَّيِّد الباز العريني، 3 / 394.
2 - تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، ستيفن رنسيمان، تعريب: السَّيِّد الباز العريني، 3 / 394.
3 - تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، ستيفن رنسيمان، تعريب: السَّيِّد الباز العريني، 2/ 133.
4 - تُحفة ذوي الألباب، الصفدي، 190.
5 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47 / 658.
6 - تُحفة ذوي الألباب، الصفدي، 190.
7 - تاريخ سُورية، الدبس، 255، ـ يُؤكِّد بطريرك القُدْس أن الناجين من الدَّاويَة هُم ثلاث وثلاثون، ولكنَّه يقول إن الناجين من الاسبتاريَّة كانوا ستَّة وعشرين، وثلاثة أشخاص من التَّيُوتُون (التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47 / 660).

"وغُنِم منهم أموال عظيمة، وأُسِر من الفرنج خلق من مُلُوكهم وكبرائهم، وقُتل منهم مقتلة عظيمة"[1].

"وأخذت الفرنجَ سُيُوفُ المُسلمين، فأفنوهم قَتْلاً وأَسْراً، ولم يفلتْ منهم إلاّ الشارد والنادر"[2]، فقد قُتل مُقدَّم الدَّاويَة، ورئيس أساقفة صُور، وأسقف الرملة، وسيدا البترون، وكان عدد القتلى الفرنج حوالي خمسة آلاف رجل، وأُسر كُونت يافا ومُقدَّم الاسبتار وكند سطبل طرابلس، وهرب فيليب مونتفورت ومعه بطريرك القُدْس[3] الذي يقول: "ولجئتُ وأنا نصف ميِّت إلى عسقلان"[4]، "وكان عدَّة من أُسر منهم ثمان مئة رجل"[5].

إن مُجريات هذه المعركة تجعلنا نميل للاعتقاد بأنَّه لم يجر قتال بين المصريين والشاميين، وبأن كلاً منهم قد انهزم من صاحبه بعد مُناوشات بسيطة. وآثر كُلٌّ منهم السلامة، تاركين حسم المعركة بين الخَوَارزميَّة والفرنج. فعلى الرّغم من هزيمة المصريين والشاميين لم نسمع عن خسائر بشرية في صُفُوفهما[6]، ممَّا يدلُّ على انسحاب الطرفَيْن في الوقت نفسه، ودُون أن يعرف أيٌّ منهما بانسحاب الآخر. ويبدو أن المنصُور إبراهيم، وهُو القائد المُجرِّب والعسكري المُحنَّك، وهازم الخَوَارزميَّة عدَّة مرَّات، قد اتَّخذ قرار الهزيمة سلفاً، أو أنَّه كان يراها واقعة لا محالة، فلم يَصدُق القتالَ، وآثر الانسحاب، بالرّغم من تراجع المصريين، ويبدو أن دافعه كان هاجساً نفسياً سيطر عليه، بعد أن سار بين أعداء الأُمَّة وتحت راياتهم "فقد حُكي عن المنصُور أنَّه قال: والله؛ لقد حضرتُ الحَرْب ذلك اليوم وأوقع الله تعالى في قلبي إنَّا لا ننتصر لانتصارنا بالكُفَّار على المُسلمين"[7].

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 174.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 338.

3 - تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، ستيفن رنسيمان، تعريب: السَّيِّد الباز العريني، 3/ 394. و The Crusaders in the East, Stevenson, p 239

4 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 47 / 662.

5 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 317.

6 - كُلُّ ما عرفناه عن خسائر الحلف الشَّامي أنَّه "أُسر من عسكر دمشق والكرك جماعة مُقدَّمين وغيرهم، ونُهبت أثقال الدمشقيين". (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 338)، أمَّا ما ذكره المقريزي بأنَّه قد "قُتل من الفرنج ومن أهل الشَّام زيادة عن ثلاثين ألف"، (السُّلُوك، المقريزي، 2/ 317)، فهذا رَقْم فيه مُبالغة واضحة، تُبيح لنا إهماله بالكامل.

7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 338.

وإنَّه بعد المعركة "جعل يبكي ويقول: قد علمتُ أنّا لمّا سرنا تحت صُلبان الفرنج أنّا لا نُفلح"[1]. وبذلك يكون المنصُور إبراهيم هُو المسؤول عن نكبة الفرنج في معركة غزَّة[2].

وكانت نتائج معركة غزَّة بالغة الأهمِّيَّة لكُلِّ الأطراف، فإضافة إلى الخسائر البشرية الكبيرة التي تكبَّدها الفرنج، فإن قُوَّات التحالف المصري الخوارزمي استولت منهم على "غزَّة والسواحل والقُدْس"[3]، واندفعت لتُحاصر دمشق، وقد تحصَّن بها صاحبها الصَّالح إسماعيل وحليفه المنصُور إبراهيم[4]، حتَّى خرجوا منها، وسلَّموها. ورُبَّما كان التّحوُّل بسياسة دمشق بعد تبعيّتها لسلطنة النَّاصر أيُّوب أقسى على الفرنج من الخسائر العسكريَّة في غزَّة، يقول متَّى باريس عن هذا التحوُّل في سياسة دمشق: "كانت مُتحالفة مع الصليبيين، ولم تكن تُؤذي أحداً منهم، وكانت نافعة جدَّاً لهم، ومُوائمة من خلال التجارات والعلاقات، ولكنْ؛ - الآن - تحوَّلت إلى المدينة الأكثر عُدوانية"[5].

كُلُّ ذلك دفع بالفرنج للاستنجاد بأُورُبة، فأوفدوا أسقف بيروت فاليران، الذي حضر مؤتمر ليون الكَنَسي عام 642 هـ **1245**م، برئاسة البابا أنوسنت الرَّابع، وسرد فيه فاليران وقائع معركة غزَّة، "وكيف ذهبت أعداد هائلة من صفوة أبطال الفرنجة وزهرة فُرسانهم"[6].

وكذلك كانت هزيمة عكَّا إحدى أسباب حملة لويس التَّاسع على مصر[7]. وممَّا يلفت النظر أنَّه لا الفرنج ولا المُسلمون استفادوا من دروس معركة عكَّا[8]، كما أن المُنتصرين فيها لم يعملوا على

---

1 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 493 - 494.

2 - ويبدو أن هذه الفكرة هي التي دفعت عاشور ليذكر أن" القُوَّات الشَّاميَّة لم تقبل فكرة طعن إخوانهم المصريين، فلم تكد تصل هذه القُوَّات إلى غزَّة حتَّى انضمَّت إلى جانب الجيش المصري ليشترك الجميع في مُهاجمة الصليبيين" (مصر والشَّام، عاشور، 110)، وهذا وَهْم.

3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 376.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 338.

5 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 47 / 816.

6 - العُدوان الصليبي على مصر، جوزيف نسيم، 45.

7 - العُدوان الصليبي على مصر، جوزيف نسيم، 47.

8 - لقد عادت نغمة التحالفات بسُرعة بين الفرنج وأطراف إسلامية، ففي عام 651 هـ 1253م، وخلال هُجُوم النَّاصر يُوسُف سُلطان الشَّام على المماليك، الذين استولوا على السُّلطة في مصر، " مالأ الجيش المصريُّ الفرنجَ، ووعدهم بأنْ يُسلِّموا إليهم بيت المَقْدس إنْ نصروهم على الشاميين". (البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 196).

استثمار نصرهم ضدَّ مواقع الفرنج الأساسية على الساحل، خاصَّة في غفلة أُورُبة عنهم، وانتظر الصَّالح أيُّوب حتَّى داهمته جُيُوش لويس التَّاسع في دمياط.

وقد حمَّل فريدريك الثَّاني ـ بشيء من الشماتة ـ بطريركَ القُدْس المسؤوليةَ الكاملة عن هذه الهزيمة، وقال في رسالته إلى ريتشارد إيرل أف كورنوول: "بطريرك القُدْس يأمل أن يحصل على مجد النصر كُلِّه، بحث عن كُلِّ أمير وشريك غير جدير، وألهبهم بشجاعة وصلت حَدَّ الطيش، . . فلم ينجُ أحد من جميع الصليبيين"[1].

ويُتابع فريدريك هُجُومه على بطريرك القُدْس، فيقول: "إضافة لإثارته هياج الفخار الدِّيني للدَّاويَة، فأرغموا ـ بحرب غير عادلة وغير حكيمة ـ سُلطانَ مصر على طلب مُساعدة الخَوَارزميَّة"[2]، إنَّه دفاع واضح عن سُلطان مصر، وحقّه بالدفاع عن النفس، ويقول فريدريك: إن عدم الالتزام بمُعاهدة الصُّلح التي عقدها مع سُلطان مصر هُو سبب الكارثة[3].

ويُعطي أرنست باركر بُعْداً إقليمياً وتاريخياً كبيراً لمعركة غزَّة، فيقول: "إن معركة غزَّة لم تكن إلاَّ فصلاً من فُصُول القصَّة الطويلة لما وقع من صراع بين مصر وشمال سُورية"[4].

لكنَّ باركر الذي ذكَّرتْهُ معركة غزَّة بالصراعات الحِثِّيَّة الفرعونية، من خلال تحالف القوى العسكريَّة في سُورية باختلاف أجناسها ضدَّ مصر، تجاهل نتائج المعركة؛ حيثُ تخلَّى المُسلمون عن الفرنج، ورُبَّما لم يعرف بما أبداه المنصُور إبراهيم من ندم على تحالفه مع الفرنج ضدَّ بني قومه، ورُبَّما تجاهل النتائج للوُجُود الفرنجي الغريب في أرض سُورية، وكيف تمَّ التخلُّص منه نهائيَّاً بجُهُود دولة المماليك التي تضمُّ مصر وسُورية.

إن كلَّ صيحات الاستغاثة التي أطلقها فرنج الشَّرق لم تُحقِّق لهم أيَّ مُساعدة مرجوَّة، فالبابا كان مشغولاً بصراعاته الأُورُبيَّة، وحملاته الصَّليبيَّة كانت تُوجَّه ضدَّ أعدائه الأُورُبيين، ويبدو أن الحماسة الدِّينيَّة في أُورُبا ـ بشكل عامٍّ ـ قد فترت، وأن صيحات كثيرة كانت ترتفع ضدَّ الحُرُوب

1 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47 / 619.
2 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47 / 619.
3 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47 / 619.
4 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 124.

الصَّليبيَّة، وتتّهم البابويَّة بأنَّها تستغلّها. ولكن المُسلمين لم يكونوا أفضل حالاً، فالصالح أيُّوب لم يستغلّ الوضع المأساوي للفرنج بعد هزيمة غزَّة، الذي وصفه بطريرك القُدْس بقوله: "إن الحزن من الماضي كبير جدّاً، ولكن الخوف من المُستقبل استولى على الجميع، لأن المنطقة التي أخذها الصَّليبيُّون بسُيُوفهم هي ـ الآن ـ خالية من جميع البشر، وقُوَّة المُدافعين قد دُمِّرَتْ، وفيها عدد من الأجناد انحدروا إلى حافة الموت، ويتوجَّب أن يسقط كلُّ المُتبقِّي بيد أعداء الصليب. . وما لم يتمّ تقديم المُساعدات إلى الأرض المُقدَّسة، فإن الخراب والتدمير المحيق لا يُمكن النجاة منه"[1].

فقبل أن يُفكِّر بالهُجُوم على معاقل الفرنجة، التي أصبحت شبه خالية من المُدافعين، التفت السُّلطان أيُّوب ليُصفِّي حساباته مع الخَوَارزميَّة حُلفاء الأمس، الذين انقلبوا عليه، ثُمَّ ليخوض صراعاً ضدَّ مملكة حلب، من أجل السيطرة على حمص، وفي غمرة صراعه هذا، فاجأتْهُ حملة لويس التَّاسع، التي استهدفت مصر قاعدة مُلكه، وبالتَّأكيد؛ لو هاجم أيُّوبُ القواعدَ الفرنجيَّةَ، مُستغلاً الرُّعب الذي أوقعه الخَوَارزميَّة في نُفُوس الفرنج، وخسائرهم الكبيرة في الأرواح، لتمكَّن من تحقيق فتوح، رُبَّما كانت تُضاهي فُتُوحَ صلاح الدِّين.

1 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47 / 664.

المبحث الرّابع:

علاقات عسكريّة خاصّة بين الأيّوبيّيْن والفرنج

لم تكن كلّ الصدامات التي تمّت بين المُسلمين والفرنج مُخطّطاً لها ضمن الاستراتيجية السّياسيّة العسكريّة للممالك الأيّوبيّة، أو للإمارات الفرنجيّة في الشّرْق؛ حيثُ نجد العديد من العلاقات العسكريّة خارجة عن خُطط الدولة، التي تتمُّ هذه العلاقات على أراضيها، حتّى إنّها كانت - أحياناً - ضدّ رغبة الدولة، فقد نشبت معارك صغيرة ومُتوسّطة، شنّتها قوى داخلية قبلية، أو دينيّة، لا تتبع - بشكل مُباشر - إلى القيادة السّياسيّة للمملكة، أو للدولة، التي تُقيم على أراضيها، أو تتحرّك خلالها. ومن أمثلتها الجماعات القبلية من بدو، أو تركمان، والجماعات الدّينيّة المُقاتلة، وكانت عند المُسلمين تتمثّل في مُقاتلي قلاع الدعوة الإسماعيليّة، وقد اشتهروا بقُدرتهم الخارقة على اغتيال قادة أعدائهم. وعند الفرنج؛ تمثّلتْ بطوائف الرّهبان المُقاتلين، مثل: الدّاويّة فُرسان المعبد، والاسبتار فُرسان المستشفى، والفُرسان الألمان التّيُوتُون، وغيرهم.

وكلّ هؤلاء لم يكونوا مرتبطين بأيّ رابط سياسي مع الممالك، أو الإمارات، التي يُقيمُون فوق أراضيها، إذا لم نقل إنّهم كانوا - أحياناً - خارجين عليها.

وقد بُحِثَتْ نشاطات كلّ هذه الجماعات في أمكنتها من هذا الكتاب، ولكنْ؛ تبقى أهمّ مظاهرها لدى الفرنج المتمثّلة بالحُجّاج، الذين كانوا يتدفّقون على ساحل الشّام طوال تواجد الفرنج فيه بلا انقطاع، وكانوا بين حملات كبيرة تصل إلى حَدّ تشكيل جيش، أو حملات صغيرة، وحتّى مجموعات، أو أفراد أحياناً، لكنّهم جميعاً جاءوا إلى الشّرْق ليس لزيارة الأماكن المُقدّسة والحجّ فقط، بل ليُعمّدوا حجّهم بالدم، ويقتلوا المُسلمين، ويعيدوا أمجاد مملكة القُدْس.

وكان الحُجّاج يُشكّلون دعماً غير محدود، ولا منقطع، لقوى الفرنجة في الشّرْق، لذلك كانت مواسم حُضُور الحُجّاج هي مواسم القتال بشكل عامّ، فمتى انقضى الشتاء، وأمكن السفر في البحر، يبدأ توافد الحُجّاج، وبالتّالي؛ يحين زمن القتال، فتتجمّع - بالمُقابل - العساكر الإسلاميّة، قال العماد الأصفهاني: "ولمّا انقضى الشتاء، وانفتح البحر، وحان زمان القتال، جاءت العساكر الإسلاميّة من

البلاد"[1]. ولكنْ؛ على الدوام، كانت هُناك مشاكل بين الحُجَّاج الوافدين والفرنج البلديين المقيمين في ساحل الشَّام، فقد كانت الحماسة والاندفاع والتصرُّفات اللامسؤولة هي أهمّ ميِّزات الحُجَّاج، ولذلك كثيراً ما كان ينشب الخلاف، أو حتَّى الصراع بينهم وبين البلديين، وهم الأكثر دراية بالمنطقة، وبالتعامل مع المُسلمين، فلا يقبل الحُجَّاجُ نصائحَ البلديين، وبالتَّالي؛ يندفعون، ويتسرَّعون، فيقعون في شرِّ أعمالهم.

في عام 599 هـ 1203م، وصل إلى سواحل الشَّام جَمْعٌ كبير من حُجَّاج الفرنج، وسارت طائفة منهم شمالاً، وعبروا على اللاذقية بالقُوَّة، على أمل أن يأخذوها، إذا تمكَّنوا من ذلك، فخرج سيف الدِّين بن علم الدِّين صاحب إقطاع اللاذقية بحاميتها، وتصدَّى لهم، "ونصره الله عليهم، فأسر مُقدَّميهم، وكان ملكهم أعور، وقتل منهم"[2]. وفي عام 625 هـ 1228م، جاءت حملة حُجَّاج من البحر، فزحفت نحو صيدا، وعمَّروها، وذلك بغير رضى فرنج الساحل الشَّامي[3]، "فكانت ردَّة فعل المُسلمين بأنْ أغار الملك العزيز عُثمان بن العادل على صُور، وأخذ منها جماعة أسارى، وفعل في ذلك فعلاً عظيماً"[4]. وفي عام 627 هـ 1230م، وصل إلى عكَّا حشد عظيم من الفرنج، فقام أحد نُبلائهم بقيادة أتباعه، وهاجم عدداً من البلدات حول عكَّا، وتمكَّن من نهبها، وأسر عدداً من سُكَّانها، فتحمَّس الباقون، وزحفوا صوب غزَّة، "فنصب لهم المُسلمون الكمائنَ، وانقضُّوا عليهم، وأُسروا جميعاً، أو قُتلوا، وعدد قليل منهم عاد إلى عكَّا"[5].

ضرب السواحل:

لجأ الأيُّوبيُّون إلى خُطَّة عسكريَّة تقضي بالهُجُوم على معاقل الفرنج في سواحل الشَّام كُلَّما قام الفرنج بحملة على مصر، وفي الحقيقة؛ فإن هذه الخُطَّة هي تقليد قديم، وكان أوَّل مَن اتبعها السُّلطان نُور الدِّين محمود، فعندما أرسل كبير قُوَّاده ومُمهِّد ملك البيت الأيُّوبي أسد الدِّين شيركوه في حملته الأُولى إلى مصر، انقلب الوزير شاور عليه، واستقدم الفرنج، وحاصروه في بلبيس، فما كان من نُور

---

1 - الروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 152.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 623.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 156.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 158.
5 - جولات ورحلات، 1480 ـ 1483، الراهب فيليكس فابري، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 43/ 1169.

الدِّين إلاَّ أن ضرب بكُلِّ قُوَّته عُمق الفرنج، وألحق بهم هزيمة حارم الكُبْرَى، ممَّا اضطرَّهم للتفاوض مع أسد الدِّين، وفكّ الحصار عنه، والعودة مُسرعين لحماية مناطق سيطرتهم، التي باتت مكشوفة في الشَّام[1].

وعندما سار تجمُّع الفرنج من عكَّا إلى مصر، وحاصروا دمياط، كان الملك العادل مُخيِّماً في مرج الصّفر، يجمع الجُيُوش لإرسالها إلى مصر لنجدة ابنه الكامل، واستدعى ابنَهُ الآخرَ الملكَ الأشرفَ من الجزيرة، وطلب منه دُخُول بلاد الفرنج من جهة حمص، "ليشغلهم عن حصار دمياط"[2].

فحاصر الأشرف حصن صافيتا عام **615** هـ **1218**م، وخرَّب ما حولها من الحُصُون، وانتقل إلى حصن الأكراد، فحاصره، حتَّى أشرف على أَخْذه، ثُمَّ خرَّب ما حوله، وعاد ليُعسكر "عند بُحَيْرة قَدَس في مُقابلة الفرنج"[3].

ومن جهة أُخرى؛ وجَّه الملكُ العادلُ ابنَهُ الثَّالثَ الملكَ المُعظَّم بعساكر الشَّام إلى حُصُون الفرنج في ساحل فلسطين لمشاغلتهم، وتُوفِّي الملك العادل والمُعظَّمُ مُرابطٌ بعسكر الشَّام في مُقابلة الفرنج، ثُمَّ التقى بهم المُعظَّم في معركة القيمون[4] في العام نفسه **615** هـ **1218**م، فانتصر عليهم، وقتل عدداً كبيراً منهم، وأسر مائة فارس من الدَّاويّة، وأَدْخلَهُم القُدْسَ مُنكَّسي الأعلام[5]، ثُمَّ سار المُعظَّم عام **616** هـ **1219**م، نحو قيسارية، على الساحل الجنوبي لفلسطين، وهاجمها حتَّى فتحها عنوة[6]، وتابع المُعظَّم هُجُومه، فحاصر عتليت[7]، ولمَّا علم المُعظَّمُ بأَخْذ الفرنج لدمياط، ترك الساحل، وسار نحو دمشق لاستنفار كلِّ قوى الشَّام، وحثّهم على المسير لاستنقاذ دمياط، ولكنَّه ترك عدَّة فِرَق من جيشه تُغير على حُصُون الفرنج في سواحل الشَّام[8].

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 300.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 460.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 265.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 209.
5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 210، والنُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 6/ 223.
6 - النُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 6/ 239.
7 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 126.
8 - النُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 6/ 239.

العادل الثَّاني ابن الكامل:

يبدو أن العادل الثَّاني اتَّبع خُطَّة أبيه الاستراتيجية نحو فرنج الشَّام، باعتباره قد ورث دمشق والقُدْس ضمن سلطنته عن أبيه، فقد أُلقي عليه عبء الدفاع ضدَّ تحرُّكات الفرنج في الشَّام، لذلك عندما سمع العادل بتحشُّد مجموعات كبيرة من الفرنج للإغارة في الشَّام أرسل جماعة من العَسْكَر المصري بقيادة رُكن الدِّين الهيجاوي لحفظ المناطق الإسلاميَّة من الساحل الشَّامي، ورابطت القُوَّات المصريَّة هُناك، حتَّى اصطدمت بالفرنج عام 637 هـ 1239م، فانتصرت عليهم، وأسرت عدَّة من أُمرائهم ونُبلائهم، وبلغ عدد الأسرى ثمانين فارساً، ومائتين وخمسين راجلاً، ساقوهم إلى القاهرة، وقتلوا منهم في المعركة ألفاً وثمانمائة رجل، "ولم يُقتَل من المُسلمين غير عشرة"[1].

النَّاصر داود والتحرير الثَّاني للقُدْس:

في عام 626 هـ 1229م، سلَّم الملكُ الكاملُ مدينةَ القُدْس وما حولها إلى الإمبراطُور فريدريك، وكان التسليم "على شرط أن لا يجددوا فيه عمارة"[2]، وكانت مدينة القُدْس مُدمَّرة الأسوار مُنْذُ غزو دمياط، فقد خاف الملكُ المُعظَّم - بعد احتلال دمياط - أن يُتابع الفرنج انتصاراتهم، ولا يتوقَّفوا حتَّى القُدْس، فقام بتدمير أسوارها، وأبراجها، ولم يترك فيها سوى بُرج داود، وعندما تُوفِّي الملكُ الكاملُ، ودبَّ الخلاف بين ابنَيْه العادل الثَّاني والصَّالح أيُّوب، قام الفرنج ببناء قلعة في القسم الغربي من مدينة القُدْس، وجعلوا بُرج داود واحداً من أبراجها[3]، واستعادوا نشاطهم المُعادي للمُسلمين على طول الساحل الشَّامي إثر قُدُوم جماعات جديدة من الحُجَّاج المُقاتلين بقيادة ثيوبلد الكمباني، فأعادوا تحصين عسقلان وعدَّة قلاع ساحلية[4]، وقطعوا الطريق بين مصر والشَّام، ونهبوا القوافل المارَّة فيه[5].

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 398 - 400.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 246.

3 - Meddle History, Stevenson, 317 ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 246، شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 351.

4 - The Crusades,Campell, P: 412 & The Latin Kingdom, Conder, P: 315

5 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، رنسيمان، 3/ 373.

وكان النَّاصر داود بن الملك المُعظَّم بن العادل قد طرده عمّاه الكامل والأشرف من دمشق، ولم يُبقيا عليه سوى الكَرَك، وما حولها، فاهتمَّ داود بتحرُّك الفرنجة؛ إذْ وصل أذاهم إلى طريق التجارة الحيوي، الذي يمدُّ بلاده بمُعظم دَخْلها، وكاد يتوقَّف النقل التِّجاري بين مصر والشَّام، خاصَّة؛ بعد أن استولى الفرنج على قافلة للمُسلمين قُرب نهر الأردن. وكان النَّاصر داود قد استردَّ هيبته بين بني أيُّوب، بعد أن قبض على ابن عمِّه الصَّالح أيُّوب صاحب دمشق وهُو في طريقه للاستيلاء على مصر، وتقوَّى بمَنْ كان معه من العَسْكَر، فتوجَّه نحو القُدْس عام **637** هـ **1239**م، وحاصر الفرنج في قلعتهم، ورماها بالمنجنيقات[1]، حتَّى استسلمت، فَسَمَحَ لَمْنْ كان بها من الفرنج بالتوجُّه إلى بلادهم في الساحل، واستولى على القُدْس، وهدم القلعة وبُرج داود[2].

النَّاصر يُوسُف الثَّاني:

مع أن الخطر الداهم الذي كان يُهدِّد دولة الأيُّوبيِّيْن في الشَّام، بعد أن وحَّدها النَّاصر الثَّاني صاحب حلب وحفيد صلاح الدِّين، هُو خطر التَّتار، لكنَّ ذلك لم يمنع من قيام بعض الصدامات العسكريَّة بين قُوَّات الدولة الأيُّوبيَّة والفرنج، ففي عام **651** هـ **1253**م، جرَّد الملك النَّاصر حملةً ضدَّ الفرنج، نزلت على عكَّا، فدمَّروا المنطقة التي حولها، ولحصانة عكَّا، ولعدم نيَّة الحملة حصارها، أو الهُجُوم عليها انتقلوا إلى صيدا، ويبدو أنَّها لم تكن مُحصَّنة جيِّداً، فأخذوها بالسيف، وهرب أهلها، واعتصموا بالقلعة[3].

ولم تكن الظُّرُوف الدَّوليَّة الجديدة، التي أوجدها توجُّه التَّتار نحو المنطقة، تسمح بتطوُّر العلاقات العسكريَّة بين الأيُّوبيِّيْن وأعدائهم التقليديين من الفرنج، فخطر التَّتار كان الشغل الشاغل للطرفَيْن.

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 291، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 225.
2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 351، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 246.
3 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 232.

الفصل الثَّالث

علاقات عسكريَّة مُنفردة لبعض الممالك الأيُّوبيَّة مع الفرنج

المبحث الأوَّل:

العلاقات العسكريَّة بين مملكة حماة الأيُّوبيَّة والفرنج

كانت مدينة حماة ـ عاصمة مملكة حماة الأيُّوبيَّة ـ تُشكِّل واحدة من قلاع المُقاومة الدّاخليَّة أمام مُحاولات الخرق الفرنجيَّة المُتكرِّرة لخطِّ المُدُن الدّاخليَّة دمشق، حمص، حماة، وحلب، فقد قاومت هذه المُدُنُ الحصينةُ مشاريعَ الفرنج، ولو سقطت إحداها، وخُرق خطُّ الدفاع الداخلي لكان من المُمكن اتِّساع الخرق. وكانت حماة مركز دفاع قويّاً في هذا الخطِّ، ومن أمامها وقفت قلعة شيزر مُتحدِّية الضغط العسكري الفرنجي، خاصَّة خلال الفترة الزمنية التي خضعت فيها آفاميا لحُكْم الفرنجة، إلى أن طُردوا منها.

كان فُرسان الاسبتاريَّة في قلعة الحصن هُم رأس الحربة للهُجُوم الدائم على حماة عبر بعرين، خاصَّة عندما تصلهم الإمدادات من الساحل[1]، وكان مُلُوك حماة الأيُّوبيُّون من سُلالة تقي الدِّين ابن أخي صلاح الدِّين، وهُو من أبطال بني أيُّوب المعدودين، وكانت له مكانة خاصَّة في ترتيب جُيُوش السُّلطان صلاح الدِّين، فقد كان قائد قُوَّات الميمنة على الدوام، واستمرَّ مُلُوك حماة من الأُسرة التقوية يقودون ميمنة القُوَّات الأيُّوبيَّة في أيِّ معركة يُشاركون فيها، وتوارثوا هذه المكانة[2]، لذلك كان مُلُوك حماة يحملون تراث قُوَّة عسكريَّة، ليس من السهل الحفاظ عليه، بغير الكثير من الجهد والاستعداد.

ففي عام **599** هـ **1202**م، عندما انتهت الهُدنة مع الفرنج، خرج الملك المنصُور من حماة بعساكره، ورابط في بعرين، وأرسل يطلب نجدة العادل سُلطان البيت الأيُّوبي، فقد كان يتوقَّع هُجُوم الفرنج، الذين سمع باستعداداتهم، فأرسل الملك العادل يُطمئنه، وطلب من الملك المُجاهد صاحب

1 - الاسبتاريَّة، سميث، 144.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 124.

حمص والملك الأمجد صاحب بعلبك أن يُنجداه بالعساكر، لكنَّهما تمهَّلا، وتأخَّرا في إرسال النجدات، ممَّا دفع الملك العادل إلى إعادة الطلب منها لإرسال النجدات إلى الملك المنصُور، كما كَتَبَ إلى الملك الظَّاهر صاحب حلب لإرسال قُوَّة دَعْم له[1].

وبالفعل؛ وصلت النجدات إلى الملك المنصُور وهُو على بعرين، فبادر بالهُجُوم، وتحرَّك غرباً، فاصطدم بجموع الفرنج المُؤلَّفة من الفُرسان الاسبتاريَّة أصحاب قلعة الحصن وعسكر طرابلس، فهزمهم، وتمكَّن من قَتْل وأَسْر أعداد منهم[2]، "أدخلهم حماة راكبين بعُددهم"[3]. وعاد المنصُور للمُرابطة في بعرين، فأعاد الفرنج تنظيم صُفُوفهم، وجمعوا قُوَّات جديدة، تألَّفت من 400 فارس، "ما عدا التركبولية، ومعهم رُماة الجروخ والزنبورك"، و1200 راجل، وهم من اسبتارية قلعة الحصن وقلعة المرقب، إضافة إلى قُوَّات من طرابلس ومجموعات من الحُجَّاج المُقاتلين، فتصدَّى لهم المنصُور، وصمد أمامهم، وتمكَّن - في النِّهاية - من هزيمتهم، بعد أن قتل قائد قُوَّات الفُرسان الخفيفة التركبولية، وأميراً من قادة الحُجَّاج القادمين من البحر، وعدداً من الفُرسان، وأسر عدداً آخر[4]. وظلَّ المنصُور مُرابطاً في قلعة بعرين ومعه عساكر النجدات، خوفاً من عودة الفرنج إلى الهُجُوم حتَّى عام 600 هـ 1204م؛ حيثُ توصَّل إلى عقد هُدنة مع الفرنج[5]، بشُرُوط جيِّدة، كانت - بمُجملها - لمصلحته، وذلك نتيجة لتردِّي وضع الفرنج، فقد قام الاسبتاريَّة بتوسيط الدَّاوية لدى المنصُور، ليقبل بالصُّلح[6]، وتمَّ هذا الصُّلح بناء على نصيحة الملك العادل وتوجيهاته[7]، ثُمَّ رجع المنصُور بعساكره إلى حماة، وتفرَّقت الجُند[8]. ويبدو أن الهُدنة لم تكن لأكثر من عام واحد، فعندما شعر الفرنج بقُوَّتهم عام 601 هـ 1205م، عاد الاسبتاريَّة للهُجُوم على حماة، ومعهم جُمُوع عظيمة من الفرنج، فنهبوا،

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 142، - راجِعْ نصّ الرسائل في: وثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة، مُحمَّد حمادة، 244 - 245.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 103، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 141.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 32/ 143.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 148، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 103، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 339.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 154، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 105.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 146.
7 - راجِعْ رسالة الملك العادل إلى المنصُور في: وثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة، مُحمَّد حمادة، 245.
8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 154.

وسبوا، وقتلوا، حتَّى وصلوا باب حماة[1]. وبدا أن المنصُور ملك حماة كان عاجزاً عن مطاردتهم، فقد اكتفى بردِّهم عن أبواب البلد، فرجعوا، بعد أن "ملؤوا أيديهم بالسّبي" [2]، فقد أخذوا نساءَ حماة من على العاصي، وهزموا عسكر حماة، ولولا ثبات المنصُور، "ولولا وُقُوفه لراحت حماة"[3].

فأسرع الملك المنصُور يطلب النجدة من المُعظَّم نائب أبيه العادل على دمشق، فأمدَّه بالعساكر[4]، وفي الوقت نفسه؛ ترددَّت الرُّسُلُ بين المنصُور والاسبتاريَّة، حتَّى جدَّدوا الصُّلح بينهما[5]. ويبدو أن جبهة حماة قد هدأت حتَّى عام 626 هـ 1229م؛ حيثُ هاجم الاسبتاريَّة مملكةَ حماة من جديد، بالرّغم من الصُّلح الذي كان الملك الكامل قد عقده مع الإمبراطُور فريدريك، لكنَّ الاسبتار اعتبروا أنفسهم غير مُلزمين به، ممَّا اضطرَّ الملك الكامل للهُجُوم على معقلهم في حصن الأكراد، لوَقْف تعدِّياتهم على حماة[6]، وما إن انسحب الكامل حتَّى ردَّ الاسبتار بالإغارة على أراضي حماة عام 627 هـ 1230م، وكانوا في عدد وعُدَّة كبيرة، فخرج إليهم المُظفَّر محمود بن المنصُور صاحب حماة، "وقاتلهم، فولُّوا منهزمين، وقتل من خيَّالتهم ورجالتهم خَلْق كثير، وأسر جماعة، واستردَّ ما غنموه"[7]، ويقول أبو الفداء: "إن هذه المعركة قد جرت عند قرية لفيون بين حماة وبارين"[8]، ويجعل الحنبلي اسمها أفيون[9]، وهُو الأصحُّ، فَتَلُّ أفيون لا يزال يحمل هذا الاسم حتَّى الآن، وهُو قُرب خربة كفر بهم جنوب غرب حماة[10]، "وقرية أفيون هي ـ الآن ـ خربة لا تزال تُعرَف بخربة أفيون"[11].

---

1 - الباب الغربي (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 162)، والباب القبلي (المنصُوري، ابن نظيف، 44)، وباب البلد على العاصي (ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة،51).

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 162.

3 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 45ـ601/ 700.

4 - المنصُوري، ابن نظيف، 45.

5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 106، والمنصُوري، ابن نظيف، 44.

6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 487.

7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 303، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 488، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 147.

8 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 147.

9 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 339.

10 - الملك العالم أبو الفداء، أحمد الكيلاني، 46.

11 - المُعجم الجَغرافي للقطر السوري، مادَّة : كفر بهم.

المبحث الثَّاني:

العلاقات العسكريَّة بين مملكة حلب الأيُّوبيَّة والفرنج

بعد أن سلَّم أميرُ طرابلس الفرنجي قلعةَ الحصن لفُرسان الاسبتاريَّة[1]، انقطعت العلاقات العسكريَّة لمملكتَيْ حمص وحماة بإمارات الساحل الفرنجيَّة، وبعد مُدَّة بسيطة لم يبقَ بيد المُسلمين من الفتوح الصَّلاحيَّة للساحل سوى اللاذقية، التي تتبع لها جبلة. وكانت اللاذقية ـ مُنْذُ الأيَّام الصَّلاحيَّة ـ تتبع ولاية حلب، واستمرَّت بتبعيَّتها لمملكة حلب الأيُّوبيَّة، التي أسَّسهاالظَّاهر بن صلاح الدِّين، لذلك كانت مملكة حلب المملكة الأيُّوبيَّة الوحيدة التي تملك موطئ قدَم في شمال الساحل الشَّامي، وبالتَّالي؛ تنخرط في الصراعات العسكريَّة القائمة هُناك بين قوى عديدة.

وبشكل عامٍّ؛ كانت العلاقات العسكريَّة لمملكة حلب في غاية الحساسية، لذلك كانت كثيرة التقلُّب، فقد كانت تتحكَّم بها مُجمل علاقات سياسيَّة مع قوى خارجية عديدة، مُتنافرة غالباً،ومُتحالفة أحياناً، فهُناك السياسة العامَّة لحلب المحكومة بالالتزام بسياسة البيت الأيُّوبي بشكل عامٍّ، وبسياسة سُلطان البيت بشكل خاصٍّ، مع وُجُود قوى سياسيَّة خارجية كُبْرَى وصغرى تُحيط بحلب، منها سلاجقة الرُّوم الجار المُسلم القوي، المهادن حيناً، الطامع في حين آخر. وكذلك وُجُود جيران أقوياء مُتربِّصين، منهم ما هُو عدوّ على الدوام كمملكة الأرمن، المُحاربين القُساة، أصحاب المناطق الوعرة، التي يُفكِّر أيُّ جيش ألف مرَّة قبل أن يشرع بغزوها. والوُجُود الفرنجي المُتمثِّل بإمارة أنطاكية، وعلاقاتها المُتشعِّبة مع البيزنطيين والأرمن والسلاجقة. إضافة لوُجُود قوى فرنجية مُستقلَّة، مثل طائفتَيْ الرُّهبان الاسبتاريَّة والدواية، الذين سيطروا على قلاع مُهمَّة على حُدُود مملكة حلب، وكانت لهم مواقفهم الخاصَّة وسياساتهم العسكريَّة الخاصَّة. لكنَّ عُنصُر العلاقة العسكريَّة الأساسي لمملكة حلب مع الفرنج كان مع إمارة أنطاكية.

فعندما كان السُّلطان صلاح الدِّين يُتابع فَتْحَ السواحل، بعد انتصاره في حطِّين، ألقت قُوَّاته رحالها أمام أسوار أنطاكية، ورابطت مُقدِّمة هذه القُوَّات على أبوابها، فأرسل بُوهمند صاحب أنطاكية يطلب الصُّلح من السُّلطان صلاح الدِّين، فصالحه السُّلطان، "لشدَّة ضجر العَسْكَر، واستقرَّ الصُّلح

1- راجعْ : مملكة حمص، منذر الحايك، 197.

على أنطاكية لا غير، على أن يُطلقوا أسارى المُسلمين، والهُدنة ستَّة أشهر، فإن جاء منْ ينصرهم، وإلاَّ سلَّموا البلد"[1]، ويبدو أن شرط تسليم البلد قد ألغى نفسه بعد تجمُّع الحملة الثَّالثة، وقَصْدها عكَّا.

وبعد وفاة صلاح الدِّين؛ تولَّى ابنه الظَّاهر غازي مملكة حلب، وكان يعاصره في أنطاكية البرنس بُوهمند الثَّالث[2]، ويبدو أنَّه كانت هُناك رغبة مُتبادلة لدى الرجلَيْن بإقامة سلْم، أو حالة مُؤقَّتة من الهُدُوء، ليتفرَّغ كلّ منهما لحلّ مشاكله، فالظاهر كان يخوض معركة السُّلطة مع عمِّه العادل، وبُوهمند كان يخوض صراعاً مريراً ضدَّ ليون الثَّاني ملك الأرمن في كيلكيا[3]. واستمرَّ هذا السِّلْم بينهما حتَّى وفاة بُوهمند الثَّالث في عام **590** هـ **1194**م؛ حيثُ اندلع الصراع بين خليفته بُوهمند الرَّابع حاكم طرابلس، الذي نصَّب نفسه أميراً على أنطاكية، وبين ليون الثَّاني المُطالب بعرش أنطاكية للأمير ريموند روبين بن ريموند بن بُوهمند الثَّالث[4].

لكنَّ عمَّه بُوهمند الرَّابع لم يعترف بحقِّه في وراثة العرش، ودخل أنطاكية بتأييد رجال الكَنيسَة وأُمراء الجيش ومُقدَّمي الدَّاويَة، الذين اتَّفقوا جميعاً على مُقاومة امتداد نُفُوذ ليون الثَّاني إلى أنطاكية.

فما كان من ليون الثَّاني إلاَّ أن هاجم أنطاكية بقُوَّاته العسكريَّة، "فأرسل بُوهمند الرَّابع يستنجد بالظاهر، فكتب الظَّاهر إلى والي حارم على جناح طائر، فخرج بعساكره لنجدة البرنس"[5].

ولكن الوضع العسكري في أنطاكية تفاقم؛ إذْ تمكَّن ليون من اقتحام أسوار أنطاكية، ولم يستطع بُوهمند الرَّابع الصُّمُود أمامه سوى بعض الوقت، ثُمَّ التجأ إلى القلعة، "ونادى بشعار الملك الظَّاهر، ووصل الخبر إلى الظَّاهر على جناح طائر، فخرج من حلب بالعساكر، وقصد أنطاكية، فبلغ ذلك ابن لاون، فكَرَّ راجعاً إلى بلاده"[6].

---

1 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 399.
2 - بُوهمند الثَّالث: (558 ـ 597 هـ/ 1163 ـ 1201م)، وغالباً ما يُشير إليه المُؤرِّخون العَرَب باسم: بيمند.
3 - ليون الثَّاني: (583 ـ 616 هـ/ 1187 ـ 1219م)، كان يُشير إليه المُؤرِّخون العَرَب باسم: ابن لاون.
4 - ريموند ـ روبين: هُو ابن ريموند المُتوفَّى في حياة والده بُوهمند الثَّالث من الأميرة الأرمنية أليس بنت روبن أخي الملك ليون الثَّاني.
5 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 1/ 2/ 405، وذيل تاريخ وليم الصُّوري 1184 ـ 1197، مخطوطة فلورنسا، تحقيق: مرغريت مُورغان، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 8 / 470. والحُرُوب الصَّليبيَّة، رنسيمان، 3/ 170، و إمارة أنطاكية، عطية، 255، ومملكة حلب، 199.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 154.

إنَّ تراجع ليون عن أنطاكية بعد أن أصبحت بيده كـان اضـطراريّاً، فقُـوَّات حلـب بكاملهـا تزحف ضدَّه، فإنْ تصدَّى لها، فسيُهاجمه بُوهمند الرَّابع بقُوَّاته التـي في القلعـة مـن الخلـف. ولَّمـا علـم الملك الظَّاهر بانسحاب ليون، وكان قد وصل إلى حارم، عاد إلى حلب[1].

وبالتَّأكيد؛ فقد كان للملك الظَّاهر أسباب كثيرة تدفعه لنجدة أنطاكية، منها: كـسب حليـف فرنجي قوي، يملك إمارتَيْ أنطاكية وطرابلس؛ حيثُ يُمكن الإفادة منه سياسياً وعسكريّاً، إضافة إلى أن أنطاكية هي المرفأ الطبيعي لحلب، وحياة حلب الاقتصاديَّة تقوم على كونهـا محطَّـة تجاريـة لقوافـل الشمال والشرق، وكلّ البضائع تصبُّ فيها، وكلّ ازدهارها مرتبط بقدرتها على تصريف هذه البـضائع بأمان نحو البحر، ولا يتمّ ذلك إلاَّ عبر أنطاكية، فهي ميناؤها الطبيعي.

ولكن العلاقة المتميّزة مع أنطاكية لم تكن لتمنع قيـام علاقـات عـسكريَّة مُتـوتِّرة مـع الفـرنج الآخرين، ففي عام 600 هـ 1204م، انطلقت القُوَّات الأيُّوبيَّة مـن جبلـة بقيـادة الأسـد الهكـاري، وهاجمت قُوَّات الاسبتاريَّة في قلعة المرقب، فنهبوا، ودمَّروا ما حولها. وقد كرَّروا هـذا الفعـل مـراراً، فخرج لهم الفرنج، وأسروا سيف الدِّين حسين ابن الأسد الهكاري، "وقوي الفرنج، وطمعـوا"[2]، ونتيجة لذلك؛ أرسل الملك الظَّاهر غازي قُـوَّة عـسكريَّة بقيـادة مبـارز الـدِّين أقاجـا عـام 60 1هـ 1205م، إلى المرقب، فحاصر الحصن، وتمكَّـن مـن "هَـدْم الـبُرج الـذي لـه عـلى بـاب الميـناء"[3]، واستشهد أقاجا بسهم أصابه، فعادت العَسْكَر بالغنائم[4]. ردَّت الاسبتاريَّة على ذلك مُباشرة، ففـي العام نفسه؛ خرجت قُوَّة من الحصن مع دَعْم جاءهم من طرابلس، وساروا نحو مُمتلكـات حلـب في جبلة واللاذقية، ونصبوا الكمائن، فلمَّا خرجت حامية جبلة للتـصدِّي لهـم، انقـضت عليهـا الكمائـن، وفتكوا بها، "فقُتِل من المُسلمين جماعة كثيرة"[5].

وعندما أرسل الملك العادل يُعلم الظَّاهر بخُرُوج قُوَّات الحملة الألمانيـة شـمالاً عـام 601 هـ 1205م، بعد احتلالها لبيروت، أمر الظَّاهر غازي بهـدم جبلـة واللاذقيـة، فـأبلغ بُوهمنـد قـادة جنـد

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 105
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 43.
3 - مُفرِّج الكرُوب، ابن واصل، 3/ 165، والبُرج مايزال قائماً حتَّى الآن، ويُسمَّى بُرج الصبي.
4 - مُفرِّج الكرُوب، ابن واصل، 3/ 165.
5 - مُفرِّج الكرُوب، ابن واصل، 3/ 166.

العزيز، الأمير نُور الدِّين قلج وحُسام الدِّين عُثمان بن طمان، بأنَّ الألمان قد عادوا أدراجهم نحو عكّا[1]، فتوقّفا عن الهدم. وعندما هاجم ليون الثَّاني أنطاكية في العام نفسه 601 هـ 1205م، أرسل الملك الظَّاهر إليها النجدات، ممَّا أجبر ليون على فكِّ حصاره لأنطاكية، واعتبر أن ذلك العمل من الظَّاهر هُو فسخ للهُدنة بينهما، فهاجم منطقة سهل العمق، وقام بتحصين قلعة دربساك المُشرَّفة على العمق، ثُمَّ جرت مُفاوضات بينه وبين الظَّاهر انتهت بتجديد الصُّلح، ممَّا فتح طريق أنطاكية ـ مرَّة أُخرى ـ أمام ليون، فهاجمها، وضرب ما حولها من البلاد، ولم يتمكَّن الظَّاهر من إرسال نجدة عسكريَّة لحليفه وصديقه بُوهمند الرَّابع أمير أنطاكية، واكتفى بإرسال المؤن والغلال، ممَّا جعل الحصار غير مُجدٍ[2]. كذلك قدم بُوهمند نجدة من عشرة آلاف مُقاتل إلى قُوَّات الملك الظَّاهر عندما هاجمت عدوّهما المُشترك ليون الثَّاني عام 602 هـ 1206م[3].

وهذا ما يجعلنا نستنتج بأنَّ الصفة المميّزة للعلاقات بين حلب والاسبتاريَّة هي الصدامات العسكريَّة، وتبادل الهجمات والمعارك سجال. بعكس العلاقات مع إمارة أنطاكية، التي كان أميرها بُوهمند الرَّابع يقدِّم كلّ مُساعدة مُمكنة لقُوَّات الظَّاهر. لكنَّ العلاقات الوُدِّيَّة لم تكن خالصة بين مملكة بُوهمند الرَّابع، التي تضمُّ أنطاكية وطرابلس ومملكة الظَّاهر غازي في حلب، فلكُلٍّ منهم دوافعه لهذا التحالف، الذي نعدُّه مرحلياً للأسباب التي ذكرناها، لكنْ؛ في بعض الأحيان، كانت هُناك أسباب تدفع أحدهما لعدم الإخلاص لحليفه، فنتيجة الدعم الكامل من قبَل طائفة الدَّاويَة لبُوهمند الرَّابع ضدَّ ليون الثَّاني، قام ليون بالاتِّفاق مع طائفة الاسبتاريَّة، أعداء الدَّاويَة، وقدَّم لهم مواقع استراتيجية، جعلها بعُهدتهم على حُدُوده مع سلاجقة الرُّوم[4]، ممَّا دفع بُوهمند لمُحاولة استمالة الاسبتاريَّة، فتغاضى عن هُجُومهم عام 601 هـ 1205م، الذي قاموا به في قلعة المرقب ضدَّ جبلة، وتركهم يعودون بالأسرى والغنائم[5]، وبالمُقابل؛ فقد تصدَّى الملك الظَّاهر لهُجُوم بُوهمند الرَّابع على مناطق الإسماعيليَّة بعد اغتيالهم لابنه الأكبر ريموند في كَنيسَة طرطوس، ولمَّا استنجد الإسماعيليَّة بالظاهر

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 106 ـ 611، مملكة أنطاكية، عطية، 285.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 625
3 - مُفرِّج الكرُوب، ابن واصل، 3/ 170، وتاريخ الدُّول والمُلُوك، ابن الفُرات، 5/ 1/ 43.
4 - Stevenson, The Crusaders in the East, p. 299
5 - مُفرِّج الكرُوب، ابن واصل، 3/ 166، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 164، والاسبتاريَّة، سميث، 160.

كان عليه المُوازنة بين حليف استراتيجي هُم: الإسماعيليّة، وحليف تكتيكي هُو: بُوهمند، فاختار دعم الإسماعيليّة، وأرسل مجموعة فُرسان مدعومة بمائتَيْ راجل، لكنَّ الفرنج كمنوا لهذه النجدة، التي أصبحت بين قتيل وأسير، ولولا هُجُوم الملك المُعظَّم صاحب دمشق على طرابلس لفتك بُوهمند بالإسماعيليّة[1]، ولكن حلفهم الوثيق مع البيت الأيُّوبي بكامل فروعه أنقذهم من هُجُوم بُوهمند، ثُمَّ أجبر على إطلاق أسرى نجدة حلب.

ويُمكننا القول إن ليون الثّاني ملك الأرمن استغلَّ الخلافات بين الظّاهر وبُوهمند، وتمكَّن من دُخُول أنطاكية عام 612 هـ 1216م، ونصَّب ريموند روبين ملكاً عليها، ولمَّا لم يعترض الملك الظّاهر، أطلق ريموند أسرى المُسلمين من أنطاكية، وأوصلهم إلى حلب[2]، ورُبَّما تكون تلك صفقة عُقدت بينهما، فالظاهر لا يهمُّه شخص مَنْ يملك أنطاكية، بل كان كُلُّ همّه في أن تظلَّ أنطاكية وميناؤها مفتوحَيْن أمام تجارة وقوافل حلب، وقد أثبتت الأيّام أن إخلاص ريموند روبين للتحالف مع حلب كان أفضل من إخلاص بُوهمند، فلم يستغلّ ريموند الظُّرُوف الحرجة التي مرَّت بها مملكة حلب عقب موت الملك الظّاهر 613 هـ 1216م، فقد كان يستطيع أن يُحقّق مكاسب كبيرة على الأرض، عندما غزا سُلطانُ سلاجقة الرُّوم يدعمه الأفضل بن صلاح الدِّين مملكةَ حلب، واحتلا أجزاء منها. وكذلك لم يستغلّ فُرصة انشغال جيش حلب، وجُيُوش البيت الأيُّوبي بكامله، بالمُشاركة ضدَّ حملة الفرنج على دمياط. وبعد موت الملك الظّاهر يبدو أن حلب لم تعدْ تُولي مسألة أنطاكية الكثيرَ من اهتماماتها، واقتصرت العلاقات العسكريّة مع الفرنج على صدامات مع الدّاوية، الذين يتمركزون في قلاع وحُصُون مُتاخمة لأراضي حلب، فمع أن بُوهمند الخامس أمير طرابلس[3] حافظ على العلاقات الوُدّيّة القديمة مع مملكة حلب، لكنَّ الدّاوية حاولوا استغلال وفاة الملك الظّاهر، وتولِّي الأمير طَغريل الوصايةَ على ابنه العزيز عام 613 هـ 1216م، فهاجموا التُّركمان النازلين في سهل العمق ردّاً على قَتْلهم أحد الفُرسان الدّاويّة، فقتلوا عدداً من التُّركمان، وأسروا آخرين، لكنَّ

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 3/ 166، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 224، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 179.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 233، وتاريخ الدُّول والمُلُوك، ابن الفُرات، 5/ 1/ 168.
3 - بُوهمند الخامس: عاش ما بين 1233 ـ 1258م/ 630 ـ 656هـ.

طَغْريل ردعهم بحزم، وتصدَّت لهم قُوَّات حلب، فأسروا فارسَيْن للدَّاويَة، وقتلوهما، عندها؛ طلب الدَّاويَة الصُّلح على قاعدة رَدِّ المنهوبات والأسرى[1].

وفي عام **628** هـ **1231**م، كان السُّلطان الكامل قد عقد الصُّلح مع الإمبراطُور فريدريك، الذي يُمثِّل مملكةَ القُدْس الفرنجيَّة، لكنَّ صُلحه لم يشمل طرابلس، ولا أنطاكية، ويبدو أن طوائف الرُّهبان المُقاتلين من داوية واسبتارية أرادوا إحراج فريدريك المحروم من البابا، الذي يتبعون له مُباشرة، فقاموا بالهُجُوم على مدينة جبلة، وقد تمكَّنوا بغارة مُفاجئة من الاستيلاء عليها، وكانت تتبع اللاذقية، التي هي من مُمتلكات حلب.

فخرج عَسْكَرُ حلب على جناح السُّرعة، وقام الأتابك شهابُ الدِّين طَغْريل الوصيّ على الملك العزيز صاحب حلب بتكليف بدر الدِّين ابن الوالي بقيادة الحملة، وأَقْطَعَهُ جبلة، فلحق بالفرنج، وقد تحصَّنوا في قلعة المرقب، فأغار عليها، وحاصرها، واحتلَّ حصن بانياس[2]، وأطلق أسرى المُسلمين منه، وبعد عدَّة صدامات وإغارات اتَّفق الطرفان على الهُدنة[3].

ثُمَّ حاول الدَّاويَة استغلالَ وفاة الملك العزيز **634** هـ **1236**م، وعادوا للهُجُوم على تركمان العمق، فخرج عسكر حلب بقيادة تُورانشاه بن السُّلطان صلاح الدِّين، وحاصر قلعة بغراس قاعدة الدَّاويَة، "فأشرفت على الأُخْذ، فَسَيَّرَ البرنس صاحب أنطاكية، وشفع فيهم، بعد أن كان مُغاضباً لهم، فعقدوا هُدنة مع الدَّاويَة، ورحلوا، ولو أقاموا عليها يومَيْن آخرَيْن لأخذوها"[4].

ولم يقتنع الدَّاويَة بهذه النتيجة،ولم يحرصوا على الهُدنة، فما إن سار جيش حلب عنهم حتَّى جمعوا جُمُوعهم، واستقدموا نجدةً من جبيل، وغيرها، وقد أمدَّهم هيو أمبرياكو صاحب جبيل، فهاجموا قلعة دربساك، وعاثوا فساداً في ربضها، فتصدَّت لهم حامية دربساك، ولحق بهم عَسْكَرُ حلب، "فهزموهم هزيمة شنيعة، وقُتل منهم خلق عظيم، وأسر المُسلمون فارسَهُم، وراجلهم،

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 375.

2 - بانياس: بلدة على ساحل الشَّام، ما بين طرطوس واللاذقية، كنعانية الأصل، عُرِفَتْ في العصر اليوناني ـ الرُّوماني باسم بالانيا، وسمَّاها العَرَبُ بلنياس، ودعاها الفرنجة باسم فاليني. (المُعجم الجَغرافي للقطر العَربي السوري، مادَّة بانياس).

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 504، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 300، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 688.

4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 681.

وفيهم جماعة من المُقدَّمين، ولم ينجُ منهم إلاَّ القليل"[1]، وكان من جُملة القتلى مُقدَّم الدَّاويَة الأكبر وليم مونتفرات، ويقول ابن العديم: إن هذه الوقعة فَتَّتْ في عضد الدَّاويَة في كُلِّ الساحل، ولم تقمْ لهم بعدها قائمة[2]، "وكان هذا الفتح من الفُتُوح الجليلة المشهورة، ودخل عَسْكَرُ حلب ورُؤُوس الفرنج محمولة على الرماح والأسرى معهم"[3]، وأقام الأسرى في سُجُون حلب ما بين القلعة والخندق، حتَّى عام 638 هـ 1240م، عندما هُزم جيش حلب أمام الخَوَارزميَّة، "فأطلق الأسرى الدَّاويَة الذين كانوا بحلب؛ استكفاءً لشرِّهم"[4]، وكان هذا الإفراج عن الأسرى إشارة سلام إلى الدَّاويَة، الذين لم يكونوا ـ وقتها ـ قادرين على إلحاق أيِّ أذى بحلب، ولكنْ؛ نتيجةً لنكبة الحلبيين الكُبْرَى اضطرُّوا لهذا الإجراء الاحترازي، ويبدو أن هُدنة غير مُعلنة استمرَّت قائمة لسنوات بين النَّاصر الثَّاني ملك حلب وبين بُوهمند الخامس أمير طرابلس حتَّى قُدُوم المغول إلى الشَّام، فانقلبت موازين العلاقات العسكريَّة والسِّياسيَّة.

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 682.

2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 682، ـ راجعْ: مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 331، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 159، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 409، وذيل المُختصر، ابن الوردي، 2/ 242.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 131.

4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 698.

المبحث الثَّالث:

العلاقات العسكريَّة بين مملكة حمص الأَسَديَّة والفرنج

عُدَّتْ حمصُ في بدايات الحُرُوب أملاً واعداً للفرنجة، ورُبَّما ظنُّوا أنَّها ستكون أُولى مُدُنهم الدّاخليَّة الكبيرة، فوجَّهوا جُزءاً كبيراً من جهدهم العسكري صوبها، حتَّى سُمِّيَتْ ناقة الفرنجة[1].

ولإدراك صلاح الدِّين أهمِّيَّة حمص وخُطُورة موقعها، فقد كان من أهمِّ أسباب اختيار ابن عمِّه ناصر الدِّين مُحمَّد بن شيركوه لتولِّيها هُو مقدرته العسكريَّة، وشجاعته. وفوق كُلِّ ذلك ليكون ناصر الدِّين في مُواجهة داهية أُمراء الفرنجة، وفارسهم كُونت طرابلس ريموند[2]، وللأسباب نفسها؛ كان اختيار صلاح الدِّين للمُجاهد بن ناصر الدِّين. وكان ريموند كُونت طرابلس يُخطِّط للحُصُول على حمص بوصفها عُمقاً استراتيجياً اقتصادياً، وجُزءاً مُكمِّلاً، لا غنى عنه لإمارته في طرابلس. ولكنَّه ـ بعد عدَّة هجمات مُخفقة عليها ـ استعان بالاسبتارية لتحقيق مشروعه.

الاسبتاريَّة في مُواجهة مملكة حمص:

تأسَّست فرقة الاسبتاريَّة[3] عام 492 هـ 1099م، وهي جمعية تُعنى بعلاج المرضى، وبالحُجَّاج، ثُمَّ تحوَّلت إلى هيئة حربية دينيَّة، لعبت دوراً كبيراً في مُجمل حُرُوب الفرنجة في الشَّرق.

وقد تعمَّد ريموند كُونت طرابلس أن يسدَّ بهم الممرَّ الجبلي الخطر، بعد أن أخفق بامتلاك طرفة الآخر عند حمص، وأن يضعهم كرأس حربة للفرنجة، أمام أهمِّ المداخل من الساحل إلى عمق بلاد الشَّام. فقام عام 539 هـ1144 م بمنحهم قلعة الحصن. وأعطاهم الحُقُوق على بُحَيْرة حمص حتَّى السدّ القائم في نهايتها. ثُمَّ منحهم عام 576 هـ 1180م، حصن الطوبان[4]، ففتح لهم الطريق إلى حمص ذاتها. واحتفظ لنفسه بحقِّ الاستيلاء على مدينة حمص، والأراضي الواقعة شرق نهر

---

1 - " The la Chamele - of the Franks " (الاسبتاريَّة، سميث، ترجمة: صُبحي الجابي، 144). وورد اسمها في المصادر الفرنجيَّة بعدة أشكال: Camolla - Chamelle - Emessa- Homs - Hims . (الاسبتاريَّة، سميث، 482).

2 - كُونت طرابلس ريموند الثَّالث. Reymond de Saint -Gilles

3 - الاسبتاريَّة: فُرسان المستشفى Hospitaliers.

4 - الطوبان: أحد حُصُون الممرّ الجبلي بين حمص وطرابلس (Tobanic).

العاصي. ويبدو أن أمله في امتلاك حمص قد تلاشى سريعاً، فعاد في عام 580 هـ 1184 م، فمنح الاسبتاريَّة جميع الحُقوق على حمص، وأراضيها[1].

أمَّا غرباً؛ فقد منحهم أمليريك ملك القُدْس قلعةَ عرقة، وحُصن ابن عكَّار[2] عام 565 هـ 1170م[3]. ومع أن قلعة الحصن كانت قويَّة وحصينة بما فيه الكفاية، فإن الاسبتاريَّة أعادوا تحصينها وتوسيعها حوالي عام 596 هـ 1200م[4]. وبالتَّأكيد؛ فإن ذلك تمَّ بعد زلزال عام 592 هـ 1196م.

وفي الواقع؛ استمرَّ تحصين الاسبتاريَّة لقلعة الحصن حتَّى عام 669 هـ 1271م، ممَّا جعلها أضخم القلاع الفرنجيَّة في الشَّام، فقد كانت تتَّسع لألفَيْ جُندي في آن واحد[5]. واستطاع الاسبتاريَّة أن يجعلوا من هذه القلعة شوكة دامية في جنب مملكة حمص الأَسَديَّة. وبما أن الاسبتاريَّة لم تكن تدين بالولاء لسيِّد طرابلس، فلم تكن تخضع لشُرُوط أيِّ هُدنة يعقدها مع المُسلمين، وكانت لهم حُرِّيَّة التعامل مع جيرانهم، وشنّ الهجمات عليهم[6]. لذلك لم يكن الاسبتاريَّة جاراً مُقلقاً لمملكة حمص فقط، بل جاراً بالغ السُّوء، فقد كانت كلّ الهجمات الفرنجيَّة التي تعرَّضت لها حمص مُنْذُ عام 539هـ 1144م، بقيادة الاسبتاريَّة، أو بمُشاركتهم الفعَّالة. ورُبَّما كان هذا ما دفع الملك المُجاهد بن ناصر الدِّين صاحب حمص عام 627 هـ 1230م، لعقد الصُّلح معهم، وكان "سيمون رسول بيت الاسبتار في صحبة رُسُل المُجاهد إلى الملك الأشرف لإعلامه بالصُّلح"[7]. ويبدو أن هذا الصُّلح مع الاسبتاريَّة كان مُقابل فرضهم أربعة آلاف دينار سنوياً على حمص، وظلَّت هذه الضريبة حتَّى عهد الظَّاهر بيبرس؛ حيثُ اشترط إلغاءها مُقابل تجديد الهُدنة مع الاسبتاريَّة[8]. إن هذا التعايش الطويل بين الاسبتاريَّة والعَرَب المُسلمين في الحَرْب والسلام، هُو الذي مكَّن طائفة الاسبتاريَّة من التكلُّم باللُّغة العَرَبيَّة، ومن أن تكون على دراية كاملة بأوضاع الممالك الأيُّوبيَّة حولها، ولتسعى - بالتَّالي - لإبقائها مُجزَّأة مُتناحرة[9].

---

1 - الاسبتاريَّة، سميث، 70.

2 - حصن ابن عكَّار: Giblacr أوحصن عكَّار، يقع في منطقة عكَّار شمال شرق طرابلس.

3 - الاسبتاريَّة، سميث، 69.

4 - الاسبتاريَّة، سميث، 191.

5 - تاريخ سُورية ولُبنان، فيليب حتَّى، 244.

6 - الاسبتاريَّة، سميث، 183.

7 - المنصُوري، ابن نظيف، 259.

8 - الاسبتاريَّة، سميث، 145 - 146.

9 - الاسبتاريَّة، سميث، 136.

حمص: ناقة الفرنجة:

في عام 573 هـ1177م، توجَّهت قُوَّة فرنجية يُساندها فُرسان الاسبتاريَّة للإغارة على حمص، وكان صاحبها ناصر الدِّين مُحمَّد قد بث عُيُونه يترصَّد تحرُّكاتهم، ولمَّا عرف بالأمر "سارع، وكمن لهم، فقتل أكثرهم، وأسر جميع مُقدَّميهم، ولم يفلت منهم إلاَّ مَنْ هُو مُثخن بالجرَّاح"[1].

ولكن علاقة حمص العسكريَّة بالفرنج لم تصل إلى مداها إلاَّ زمن المُجاهد بن ناصر الدِّين، الذي كانت أوَّل أعماله الحَرْبيَّة ضدَّ الفرنج عام 586 هـ 1190م، بمُشاركته في ملحمة عكَّا؛ حيثُ كان أوَّل المُلبِّين لطلب صلاح الدِّين بالقُدُوم مع النجدات. فقد قال العماد: "ولمَّا انقضى الشتاء، وانفتح البحر، وحان زمان القتال، جاءت العساكر الإسلاميَّة من البلاد. فكان أوَّل مَنْ وصل الملك المُجاهد أسد الدِّين شيركوه صاحب حمص"[2].

وعندما يتوقَّف القتال على عكَّا في الشتاء كان المُجاهد يعود إلى حمص، كَكُلِّ الأُمراء والمُلُوك المُشاركين؛ حيثُ لا يبقى مُرابطاً عليها إلاَّ السُّلطان صلاح الدِّين وجيشه.

فاستغلَّ المُجاهد فُرصة وُجُوده في حمص عام 587 هـ 1191م، وأغار على أراضي طرابلس، "واستاق منها شيئاً كثيراً من الخُيُول والأبقار والأغنام، وظفروا بخلق كثير من الفرنج، فقتلوهم"[3]. وأرسل يُعلم السُّلطان صلاح الدِّين بغارته،وبظفره[4]. وكان المُجاهد يعود إلى عكَّا في موعد القتال، ولم يتخلَّف عنها حتَّى تمَّ الصُّلح، بعد إخفاق حملة أباطرة أُورُبة العظام على الشَّرْق؛ حيثُ انحصرت مكاسبهم بالاستيلاء على عكَّا، وتوقيع صُلح يضمن للحُجَّاج المسيحيين حُرِّيَّة الوُصُول للأماكن المُقدَّسة. "ومن هذه النتيجة الضئيلة تتَّضح شناعة الخاتمة التي حلَّت بما عُقد على تلك الحملة من آمال"[5]. وكان الملك المُجاهد واحداً من المُلُوك الذين عقدوا هذا الصُّلح مع الفرنج، وحلفوا عليه عام 589 هـ 1193م[6].

---

1 - سنا البرق، البِنْداري، تحقيق: ششن، 275، والكامل، ابن الأثير، 11/ 448، وقد أكَّد رنسيمان هذه الواقعة. (A History of the Crusades , S. Runciman , p. 2 \ 679)

2 - الروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 152.

3 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 12/ 363.

4 - الفَتْح القِسِّي في الفتح القدسي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 13 / 316 ـ 6057.

5 - تاريخ أُورُبة، العُصُور الوُسْطَى، هـ. فيشر، ترجمة: مُصطفى زيادة، 187.

6 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 87.

وفي عام 559 هـ 1164م، أرسل الملك المُجاهد[1] قُوَّات حمص لغزو الفرنج مع المنصُور صاحب حماة، فاجتمعت عليه قُوَّات الفرنجة من حصن الأكراد وطرابلس، والتقوا عند بعرين.

فانهزم الفرنج، وقُتِل وأُسِر منهم عَدَد كبير، ثُمَّ عاود الفرنج الهُجُوم على المنصُور ومعه قُوَّات حمص بعد عدَّة أيَّام، فتكرَّرت هزيمتهم[2]. وفي عام 601 هـ 1205م، عبر الفرنج نهر العاصي، وهاجموا أراضي حمص، فقتلوا، وأسروا، ثُمَّ تصدَّى لهم الملك المُجاهد، وطاردهم[3].

ولكن نهر العاصي الذي كان يرسم الحُدُود بين حمص ومناطق السيطرة الفرنجيَّة لم يكن ليبعد عن حمص أكثر من 5 كم، وهذا ما جعل منها مدينة حُدُودية مُقاتلة، وانعكس ذلك على الكثير من أُمُورها الدّاخليَّة. كما أن هذه الإغارة الخاطفة للفرنجة شكَّلت قلقاً كبيراً لمملكة حمص، ورُبَّما عدها المُجاهد مُقدِّمة لأعمال عسكريَّة أكبر، فطلب الدعم من الملك العادل في مصر، فوعد بحُضُوره مع جيشه إلى الشَّام[4].

وفي عام 603 هـ 1207م "نزلت الفرنج على حمص"[5]. ويبدو من الخبر أنَّهم كانوا ينوون حصارها، والاستيلاء عليها. وكان يقود هُجُوم الفرنجة فُرسان الاسبتاريَّة، بعد أن حصلوا على نجدات من عكَّا، ومن قُبرُص[6]. وأمام هذا الهُجُوم الكبير طلب المُجاهد المُساعدة من صاحب حلب الظَّاهر غازي، الذي أرسل نجدة بقيادة المبارز يُوسُف بن خطلج، فتمكَّن المُجاهد من الصُّمُود لهُجُوم الفرنج؛ حيثُ جرت بينهما معركة غير حاسمة، انسحب على إثرها الفرنج[7].

ولكنَّهم عاودوا هُجُومهم على حمص عام 604 هـ 1208م، بعد أن وصلت أعداد كبيرة منهم إلى طرابلس وحصن الأكراد، فشنُّوا الغارات على أطراف حمص، ثُمَّ هاجموا المدينة نفسها

---

1 - وَهِمَ د. عُمر تدمُري؛ حيثُ ذكر أنَّه " الأمجد صاحب حمص" دراسات في تاريخ الساحل الشَّامي: تاريخ طرابلس السِّياسي والحضاري عبر العُصُور، 1/ 360.

2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 103.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 46.

4 - المنصُوري، ابن نظيف، 46.

5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 57، و البداية والنِّهاية، ابن كثير،13/ 50، وتاريخ الإسلام، الذهبي، 601 - 610 / 50.

6 - الاسبتاريَّة، سميث، 144.

7 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 192.

بجُمُوع غفيرة، يقودها ـ كالعادة ـ فُرسان الاسبتاريَّة[1]. فاستنجد المُجاهد بمُلُوك الشَّام وبالعادل في مصر، فلم يُنجده سوى الظَّاهر صاحب حلب، الذي وصلت نجدته إلى حمص في الوقت المُناسب، وساعدت على المُقاومة، حتَّى رحل الفرنج[2].

ويبدو أن بُعْد المسافة وبُطء الاستعدادات هي ما أخَّر العادل عن نجدة حمص. فقد وصل بعد رحيل الفرنج، ونزل بقُوَّاته عند بُحيرة حمص، وطلب المَدَد من مُلُوك الجزيرة، ثُمَّ دخل بلاد الفرنج مُتَّجهاً صوب طرابلس عبر وادي البقيعة، فاستولى على القليعات، وعاد بسبب دُخُول الشتاء[3].

وتكرَّر هُجُوم الفرنج على حمص للعام الثَّالث على التوالي، ففي عام **605 هـ 1209م**، توجَّهوا نحوها بخُطَّة جديدة، تُؤمِّن لهم التملُّص من مخافر الحراسة الأمامية على مخاوض العاصي، فقد صنعوا جسراً خشبياً، وحملوه مُفكَّكاً على الجمال، وعبروا عليه العاصي، من إحدى المناطق غير المحروسة. وكانوا يأملون تحقيق مُفاجأة، تُتيح لهم دُخُول حمص، وبالفعل؛ مكَّنتْهُم المُفاجأة من الوُصُول إلى باب تدمر[4]. ووُصُولهم إلى هذا الباب الواقع في الطرف الشمالي لسُور حمص الشرقي يدلُّ على أن الفرنج قد تعمَّدوا تجنُّب الأبواب المُتَّجهة نحو حُدُودهم، أو الأقرب إليها، واختاروا الباب الأبعد. ويبدو أن هذا جُزءاً من الخُطَّة، فالأبواب الغَرْبيَّة قد تكون الحراسة عليها أشدّ، والحذر عند حُرَّاسها أكبر، ولذلك قدَّر الفرنج أن باب تدمر المُتَّجه نحو البادية سيكون أقلّ حراسة، وَحَرَسُهُ أقلّ حذراً. وهذا ما يُؤكِّد اعتمادهم المُطلق على عُنصُر المُفاجأة. وللوُصُول إلى باب تدمر كان عليهم الالتفاف حول المدينة بقوس كبيرة للوُصُول إلى طرفها الشرقي.

ولكن كلّ ذلك باء بالفشل، فقد انتبه لهم الحَرَسُ، وقاوموهم، فهربوا. وهذا يدلُّ على أنَّهم لم يكونوا قُوَّة كبيرة، واتَّجهوا جنوباً صوب بُحيرة حمص[5]. ولعودتهم بهذا الاتِّجاه نُرجِّح أنَّه كان طريق قُدُومهم أيضاً. وقد تركوا الجسر وكلّ المعدَّات وراءهم، وَقَتَلَ جُندُ حمص منهم أعداداً كبيرة،

---

1 - الكامل، ابن الأثير، 12/ 273.
2 - الكامل، ابن الأثير، 12/ 273، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 54، وتاريخ الإسلام، الذهبي، 601 ـ 610 / 50.
3 - الكامل، ابن الأثير، 12/ 273، ـ القليعات: حصن قريب من الساحل شمال طرابلس، راجعْ: الكامل، ابن الأثير، 9/ 297.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 67، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 57.
5 - ذكر أبو شامة: "فهربوا عن طريق القُدْس". (ذَيْل الرَّوضَتَيْن، 67)، والأصحّ عن طريق قَدَس، وقَدَس اسم لبُحيرة حمص.

وغنموا غنائم كثيرة[1]. ويدلُّنا تتابع هجمات الفرنجة على حمص على توالي قُدُوم الإمدادات إليهم من البحر، وتدفُّق الرجال الذين يُريد كلّ منهم أن ينجح حيثُ فشل الآخرون، وأن يُحقِّق مكاسب وانتصارات، وحمص هي الهدف الأوّل. وبالمُقابل؛ فإن نجاح الملك المُجاهد بالتصدِّي لهذه الهجمات جعله بطلاً شعبياً، يثق الناسُ بقُدرته وشجاعته، ففي عام **614** هـ **1217**م، عندما بلغ الخوف أشدَّه بأهل دمشق لتوقُّع هُجُوم الفرنج، لم يُهَدِّئ روعَهم إلاَّ وُصُول المُجاهد بقُوَّاته ودُخُوله دمشق[2].

وبعد يأس الفرنج من تحقيق أيِّ مكاسب على الأرض في الشَّام توجَّهوا نحو مصر، وهاجموا دمياطَ، فاستنفر الملكُ الكاملُ قُوَّاته في مُواجهتهم، وطلب من الملك المُجاهد الهُجُوم على معاقلهم في الشَّام لتخفيف الضغط عن مصر[3]. ولكنْ؛ بعد دُخُول الفرنج دمياط، تغيَّرت خُطَّةُ الكامل، وطلب من كلِّ مُلُوك الشَّام نجدته بقُوَّاتهم لخُطُورة الموقف، فوصل الملك المُجاهد مع جيشه إلى مصر، عام **618** هـ **1221**م، "وسكن المنصُورة إلى انقضاء الغُزاة"[4]، ودعم السُّلطان الكامل بقُوَّاته "وقاتل معه حول دمياط، حتَّى أُخذت"[5]. وعندما استسلم الفرنج في دمياط، تقرَّر الصُّلح على شُرُوط، "وكان المُقرِّر لهذا الصُّلح الملك المُجاهد شيركوه باتِّفاق المُلُوك"[6].

ووقَّع الصُّلح نيابة عن المُسلمين. وفي مجلس الصُّلح، "جلس السُّلطان في خيمته، وحضر عنده المُلُوك، فكان على يمين السُّلطان صاحب حمص الملك المُجاهد، ودُونه الملك الأشرف شاه أرمن، ودُونه الملك المُعظَّم عيسى، ودُونه صاحب حماة، ودُونه الحافظ صاحب جعبر.. ثُمَّ مُقدَّمو النجدات.. وكان على يساره نائب البابا، وصاحب عكَّا، وصاحب قبرص، وصاحب طرابلس، وصاحب صيدا، وعشرون من الكنود، ومُقدَّم الدَّاويَة، ومُقدَّم الاسبتار"[7].

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 67، و البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 57.
2 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 83، و تاريخ الإسلام، الذهبي، 611 ـ 620/ 16.
3 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 460.
4 - ترويح القُلُوب، الزبيدي، 37، الغُزاة: هكذا وردت، ويقصد الغزو.
5 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 306.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 92.
7 - تاريخ الإسلام، الذهبي، 611 ـ 620/ 27.

ويدلُّنا التقديم الذي حظي به المُجاهد في جلسة الصُّلح، حتَّى على المُلُوك أخوة السُّلطان، ليس على مكانة المُجاهد فقط، بل على أهمِّيَّة دوره في التَّصدِّي للفرنج بشكل عامٍّ، وفي معركة دمياط بشكل خاصٍّ.

وعندما خلف الملك المنصُور إبراهيم بن المُجاهد والده في مملكة حمص، تابع خُطاه في التَّصدِّي للفرنج، وكانت تأتيه النجدات من جيش دمشق، فيضمّهم إلى جيشه، ويدخل بلاد الفرنج للإغارة[1]. وفي عام 640 هـ 1243م، بعد أن هزم الخَوَارزميَّة في الجزيرة، "سار المنصُور ومعه جماعة من عَسْكَر حلب قاصداً بلاد الفرنج للإغارة عليهم من جهة طرابلس"[2]، فهل هُو واجب الجهاد الذي لا يشغل مُلُوك الأَسَديَّة عنه شيء؟! أم أن الإغارات على الفرنج غدت نوعاً من العمل الدوري؟! ورُبَّما كانا الأمرَيْن كلَيْهما.

العلاقات العسكريَّة بين حمص والفرنج بعد غزو التَّتَار:

بعد معركة عَيْن جالُوت عاد الأشرف مُوسى إلى عاصمة مُلكه حمص، ولكنْ؛ كنائب لسُلطان المماليك في مصر. ورُبَّما تأكَّد للفرنج في هذه المرحلة أنَّهم لا يُمكن أن يخوضوا حُرُوباً ضدَّ المُسلمين مُنفردين، لذلك استغلُّوا فُرصة هُجُوم المغول الثَّاني على الشَّام عام 659 هـ 1261م؛ حيثُ سارع الاسبتاريَّة بتقديم العون لهم، وعَدوُّهم حُلفاء طالما أن العدوّ واحد. وكانت مُساعدة الاسبتاريَّة بفرقة فُرسان انضمَّت إلى الجيش المغولي[3]، وخاضت معه معركة حمص، التي تصدَّى فيها الأشرف مُوسى لقُوَّات هذا التحالف، وألحق بهم هزيمة مُنكرة[4]. وبعدها مُباشرة؛ شارك الأشرف مُوسى بقُوَّاته في حملة الظَّاهر بيبرس على معاقل الفرنجة في الساحل الشَّامي[5]. وفي عام 660 هـ 1262م، أوعز السُّلطان بيبرس لجُيُوش الشَّام بالإغارة على أنطاكية، فخرجت جُيُوش حلب وحماة وجيش حمص بقيادة الأشرف مُوسى[6]. فساروا إليها، وهاجموها، وتمكَّنوا من أَخذ الميناء

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 504.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 5/ 311.
3 - الاسبتاريَّة، سميث، 189.
4 - راجعْ تفاصيل هذه المعركة في ص 95 من هذا الكتاب.
5 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7/ 153.
6 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 214.

"السويدية"[1]. ففتحوا حواصله، وأحرقوا المراكب الراسية فيه[2]، وأسروا أكثر من ثلاثمائة أسير[3]. وعادوا سالمين، فأرسل الظَّاهر بيبرس ـ على إثرها ـ الهدايا الكثيرة إلى الأشرف مُوسى[4].

ومع كُلِّ مظاهر الضعف التي اعترت الفرنجة في بلاد الشَّام في بدايات العصر المملوكي، فإنَّنا نجد أنَّهم لم يتخلّوا عن حُلمهم القديم باحتلال حمص. ففي عام 664 هـ 1266م، قام بُوهمند أمير طرابلس بالهُجُوم على حمص، وحاول أن يعبر إليها عبر مخاضة بلالة، لكنَّ واليها المملوكي عَلَم الدِّين الباشقردي عرف بتحرُّكه، وسبقه إلى المخاضة، فحماها، وحاول بُوهمند العُدُول إلى غيرها، فتبعه عَلَمُ الدِّين، فانهزم هارباً[5].

أُسرة حماة الأيُّوبيَّة

1. المُظفَّر تقي الدِّين عمر: 357. 587 هـ 1178. 1191م.

2. المنصُور مُحمَّد: 587. 617 هـ 1191. 1220م.

3. النَّاصر قليج أرسلان بن مُحمَّد: 761. 626 هـ 1220. 1229م.

4. المُظفَّر محمود بن مُحمَّد: 626. 641 هـ 1229. 1244م.

5. المنصُور مُحمَّد بن محمود: 164. 683 هـ 1244. 1284م.

6. المُظفَّر محمود بن مُحمَّد: 368. 697 هـ 1284. 1298م.

---

1 - السويدية: بلدة عند مصب نهر العاصي، تبعد 18 كم جنوب غرب أنطاكية، أسَّسها سلوقس نيكاتور، وسمَّاها سلوقيا على اسمه، أُعيد إعمارها في العصر العبَّاسي، ثُمَّ احتلَّها الفرنج، واهتمُّوا بها، وجعلوها مرفأ لأنطاكية. وقد سُلخَتْ عن سُورية ضمن لواء إسكندرون أثناء الانتداب الفرنسي.

2 - الروض الزاهر، ابن عبد الظَّاهر، 132.

3 - عقد الجُمان، العيني، 1/ 332.

4 - السُّلُوك، المقريزي، 2/ 472.

5 - الروض الزاهر، ابن عبد الظَّاهر، 245، وعقد الجُمان، العيني، 1/ 447.

أُسرة حلب الأيُّوبيَّة:

1 . العادل أبو بكر بن أيُّوب: 579 . 582 هـ 1183 . 1186م.

2 . الظّاهر غازي بن السُّلطان صلاح الدّين: 582 . 613 هـ 1186 . 1216م.

3 . العزيز مُحمَّد بن غازي: 613 . 633 هـ 1216 . 1236م.

4 . يُوسُف بن مُحمَّد النّاصر صلاح الدّين الثّاني: 633 . 658 هـ 1236 . 1260م.

أُسرة حمص الأَسَديَّة:

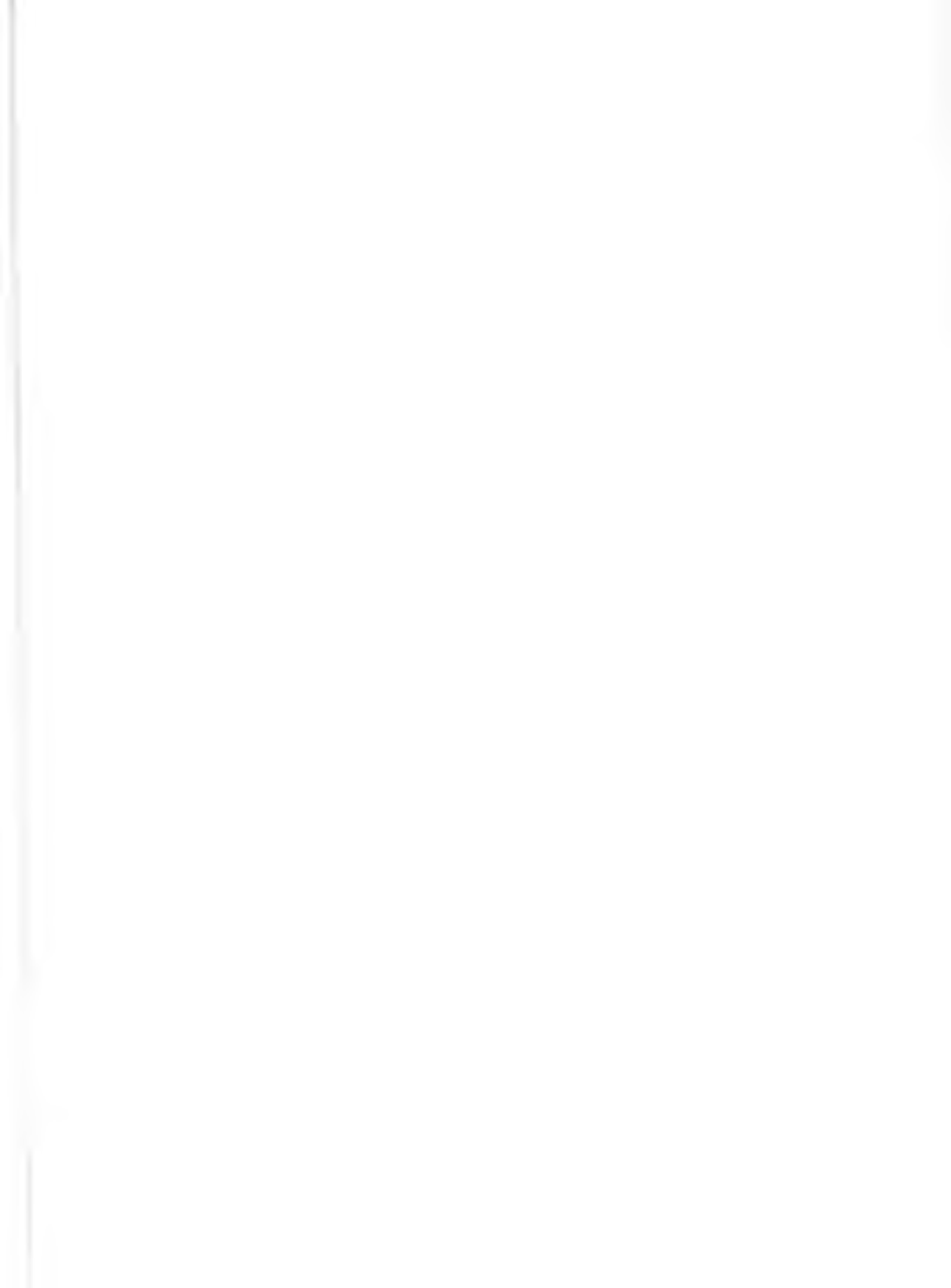
1 . أسد الدّين شيركوه: ت 564 هـ 1169م.

2 . ناصر الدّين مُحمَّد: ت 581 هـ 1185م.

3 . المُجاهد أسد الدّين شيركوه الثّاني:956 . 637 هـ 4117 . 1240م.

4 . المنصُور إبراهيم: 600 . 622 هـ 1204 . 1246م.

5 . الأشرف مُوسى: 762 . 662 هـ 1230 . 1263م.



الفصل الرَّابع

دور الجيش في العلاقات العسكريَّة الدّوليَّة

المبحث الأوَّل:

نظام الإقطاع العسكري ودوره في العلاقات العسكريَّة

ورثت الدولة الأيُّوبيَّة نظام الإقطاع الزراعي العسكري(1) عن نظام الإقطاع في دولة الأتابكة الزنكيين، الذي هُو تطوير لنُظُم الإقطاع السلجوقية، فبدايات نظام الإقطاع الأيُّوبي نجدها في تنظيمات نُور الدِّين بن زنكي، الذي كان يُقطع أمراءَهُ وأتباعَهُ البُلدانَ والأراضي التي تضمُّها دولته، مُقابل أن يُساهم كُلٌّ منهم بقدر معلوم من الفُرسان والجُنُود حين الحاجة، وكانت عوائد الزراعة في هذا النظام هي بدل رواتب الجُند، وكان نُور الدِّين إذا أَقْطَعَ أميراً إقطاعاً قرَّر عليه رجالاً ذوي عدد مُحدَّد بخيلهم وسلاحهم(2)، ومُنْذُ أن طبق نُور الدِّين نظام الإقطاع الزراعي العسكري، جعل الإقطاع وراثياً(3)؛ حيثُ ينتقل الإقطاع إلى الابن الأكبر، فيتولَّى إقطاع أبيه، ويتعهَّد بتقديم ما يتوجَّب عليه من المُقاتلين، وقد ضمَّت سجلات الإقطاع كُلَّ ما هُو مُقرَّر على المُقطع من الرجال والسلاح(4)، ويُذكَر أن أسد الدِّين شيركوه عندما تولَّى إقطاع حمص كان عليه تقديم خمسمائة جُندي للقتال في جيش نُور الدِّين(5).

وكان المُقطع مسؤولاً عن زراعة الأرض، وريِّها، وعمارة الجُسُور(6)، وجباية الخراج(7).

---

1 - راجعْ تعريف نظام الإقطاع في: صُبح الأعشى، القلقشندي، 13/ 104 ـ 117.

2 - سنا البرق، البنْداري، تحقيق: نبراوي، 64.

3 - الباهر، ابن الأثير، 308.

4 - الباهر، ابن الأثير، 308، والروضتيْن، أبو شامة، 1/ 219.

5 - الشَّرق الأدنى، الباز العريني، 155.

6 - الجُسُور: هي السُّدُود، يقول ابن مماتي: "هي الحابسة للمياه على أرض بلادها إلى حين استحقاق الزراعة". (قوانين الدواوين، ابن مماتي، 276)، وحول الجُسُور انظرْ: صُبح الأعشى، القلقشندي، 3/ 444، والتُّحفة المُلوكية، الماوردي، 133.

7 - قوانين الدواوين، ابن مماتي، 276.

وقد كانت وثيقة الإقطاع في ذلك العصر تأمر المُقطع "بالمُحافظة على الإقطاع، وعمارته، وحُسن إدارته"[1].

ومن الجدير بالذِّكْر أن الجيش الأيُّوبي لم يعتمد ـ بشكل مُطلق ـ على الجُنُود الإقطاعيين، فقد كان لكُلِّ ملك أو أمير جُنُود مُتطوِّعة لهم جامكيات؛ أيْ رواتب، وينتظمون في جرائد الأجناد، التي تضمُّ أسماء هؤلاء الجُنُود، ومقدار رواتبهم[2].

أمّا مَنْ لم يردْ اسمه في جرائد الجُند؛ فقد اشتهروا باسم البطّالين، وكانوا يحصلون على أرزاقهم بشكل أُعطيات، أو من الغنائم، ويُستخدمون حين الحاجة إليهم[3].

وقد سعت الدولة الأيُّوبيَّة، وقبلها الأتابكة، لتكريس الاقتصاد الزراعي، الذي هُو عماد اقتصاد البلاد، ليكون بواسطة الإقطاع العسكري اقتصاد حرب مُوجَّه لخدمة الآلة العسكريَّة، ولكن هذا النظام تسبَّب في تأخُّر الزراعة، وظُلم الفلاحين، وتشغيلهم بالسُّخرة[4]، وبالكاد كان يقوم بأود المُتطلّبات المُتزايدة لآلة الحَرْب. ممّا جعل المُلُوك الأيُّوبيَّة يزيدون ـ باضطراد ـ اعتمادهم على عائدات التبادل التّجاري عبر أراضيهم، بل والمُتاجرة، وحتَّى احتكار التجارة في كثير من الأحيان[5].

إضافة إلى ذلك؛ فقد ساهم نظام الإقطاع العسكري في تكوين طبقة أرستقراطية عسكريَّة تحكم مُجتمعاً هي غريبة عنه، وبفضل الإقطاع؛ أصبح لها كُلّ الحُقُوق عليه، وعندما تقوم ببعض الواجبات يتغنَّى بها الشُّعراء على أنَّها منَّة وفضل من الحاكم إلى رعيَّته.

ولم يقتصر نظام الإقطاع العسكري على الجانب المُسلم في عصر الحُرُوب مع الفرنجة، بل كان هُو النظام السَّائد في المالك والإمارات الفرنجيَّة، وقد طبَّقوا نظامهم الإقطاعي الأُورُبي كما هُو في المناطق التي احتلُّوها في الشَّرْق العَرَبي.

---

1 - انظرْ "وثيقة عهد الإقطاع" في : صُبح الأعشى، القلقشندي، 11/ 124.

2 - الروضتَيْن، أبو شامة1، 219

3 - الروضتَيْن، أبو شامة، 1/ 196

4 - المُختار من حوادث الزّمان، ابن الجزري، 212

5 - بعد السُّلطان صلاح الدِّين لا يُوجد ملك أيُّوبي إلاّ واستغل التجارة، بدءاً من الملك العادل، (راجعْ حادثة التاجر كليام الجنوي في مبحث العلاقات مع جنوة في هذا الكتاب) وابن عمّه الملك المُجاهد. (راجعْ: تاريخ الإسلام، الذهبي، 631ـ640 / 307)

فالقرن العاشر الميلادي شهد ذروة ازدهار النظام الإقطاعي في أُورُبا، ويُقال إنَّه كان سبب نُشُوء قوانين الفُرُوسية، وعلاقة الفارس السَّيِّد بأتباعه، وأن هذه القوانين هي التي ألهبت الحماس للتبشير بالحملات الصَّليبيَّة، والقيام بحرب مُقدَّسة ضدَّ المُسلمين[1].

انعكاس نظام الإقطاع على فاعلية الجيش:

مع أن نظام الإقطاع العسكري كان سائداً لدى كلِّ الجُيُوش في المنطقة، خلال العصر الأيُّوبي، لكنْ؛ على ما يبدو كانت مُعاناة الأيُّوبيِّيْن من مُشكلات هذا النظام وانعكاسها سلباً على قُوَّة جُيُوشهم هي الأشدّ أثراً بين جُيُوش الحُلفاء، أو الأعداء في المنطقة.

فقد كانت الجُيُوش الأيُّوبيَّة لا يلتئم شملها إلاَّ في أوقات الفراغ من الأعمال الزراعية الأساسية، كالفلاحة في أوائل الشتاء، وجني المحاصيل في أواخر الربيع. وكان من المُحتَّم في أوقات قد تكون حرجة عسكريّاً تسريح القُوَّات الإقطاعية لتعود إلى بلادها لمُباشرة أعمالها الزراعية، التي لا تُؤجَّل، فكانت من أكبر الميِّزات السلبية للجُيُوش الأيُّوبيَّة عدم قُدرتها على تعبئة طويلة الأمد، كما أن جمع العساكر بعد تسريحها يحتاج إلى وقت وإلى خبرة ونظام بالغَيْ الدقَّة، وهُو ما لم يكن مُتوفِّراً في مُعظم الحالات.

وقد اضطرَّ كثير من القادة العسكريين الأيُّوبيِّيْن للقبول بشُرُوط مُعاهدات لا تتناسب مع تفوُّقهم العسكري على الفرنج، ولكن ضغط الأُمراء الإقطاعيين لإنهاء الحَرْب للتفرُّغ لأعمالهم الزراعية كان أقوى من أن يحتمله أيُّ قائد أيُّوبي. إضافة إلى أن اهتمامات الأُمراء بإقطاعاتهم كانت أعظم من اهتمامات الجُنُود، فوُجُود المُقطع في إقطاعه من ضرورات تثبيت مُلكيَّته.

فكانت الجُيُوش الأيُّوبيَّة مُجبرة على التفرُّق في نهاية، أو بداية، المواسم الزراعية، ولم يكن في مقدور الفرنجة تحقيق نصر في معركة أكبر بكثير ممَّا يُمكن أن يُحقِّقه لهم مثل هذا الوضع[2].

---

1 - مدخل إلى نشيد رولاند، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 9/ 11 ـ بينما يعتقد كلود كاهن أن ظُهُور نظام الفُرُوسيَّة، وما ترتَّب عليه من حفْظ الدوابّ وصيانة السلاح التي كانت تُكلِّف غالياً، هي التي سبَّبت ظُهُور نظام الإقطاع (الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 88).

2 - فنُّ الحَرْب، سميل، 127.

كان الفرنجة ـ على الدوام ـ يحرصون على إبقاء الفلاحين من أهل البلاد كعُمَّال زراعيين بالمُحاصصة، حتَّى لا يشغلوا جُنُودهم بالأرض، فالجُندي عندما يُمنَح قطعة أرض مُقابل خدماته العسكريَّة سُرعان ما تطغى مصالحه الزراعية على اهتماماته العسكريَّة[1]، وإذْ لم يعتمد الفرنجة نظام الإقطاع بشكل واسع للجُنُود، فقد اعتمدوه كُلِّيّاً للأمراء والنُّبلاء، الذين كانوا يُبرِّرون عدم قيامهم بالحملات شتاء بسبب عدم صلاحية الأرض للتحرُّك، وأن أيَّ حملة عسكريَّة في الشتاء لا تكون لها نتائج مُهمَّة[2].

ولكنْ؛ هُناك حقيقة أُخرى عن سبب تجنُّب الفرنجة للقتال شتاء، وهي أن الحُجَّاج المُقاتلين كانوا يفدون إلى ساحل الشَّام مع الربيع، حين ينفتح البحر للملاحة، ويُغادرون مع الخريف، ولذلك كان وقت الصيف هُو المُلائم للجميع لتنفيذ أغراضهم العسكريَّة، وهُو أمر ناسب الطرفَيْن المُتصارعَيْن، ولم يخرجا عنه إلاَّ في الحملات الكُبْرَى.

1- The English ecclesiastical tenants in chief and knight service, Chew, p.326

2- The Historical Geography of the Holy Land, Smith, p. 423

المبحث الثَّاني:
الجيش الأيُّوبي

كانت الجُيُوش الأيُّوبيَّة تتشكَّل من خليط عجيب من الجنسيات والأعراق، وهي أكثر اختلاطاً من الجُيُوش السلجوقية، التي كان مُعظم قوامها من الأتراك، ورُبَّما كان ذلك بسبب انتماء قادة الجُيُوش الأيُّوبيَّة إلى أرستقراطية عسكريَّة مُختلفة الأُصُول[1].

ومع ذلك؛ كانت هذه الجُيُوش تتمتَّع بتماسك جيِّد، فقد أوجد القادةُ الأيُّوبيُّون وسائلَ ناجحةً للسيطرة والتحكُّم بهذه المجموعات وقت الحَرْب، خاصَّة في عهد السلاطين الأقوياء، مثل صلاح الدِّين وأخيه العادل؛ حيثُ كان كبار أُمراء العَسْكَر، من المُلُوك أو الأُمراء أصحاب الإقطاعات، يقودون ـ بشكل مُباشر ـ جُنُودهم المُشكَّلين في إقطاعهم، إضافة إلى جُنُود الحلقة، وهم أصحاب الرواتب المُتواجدون تحت السلاح بشكل دائم، وهُم ـ غالباً ـ الحَرَسُ الخاصُّ للملك، أو الأمير[2]. أمَّا السُّلطان أو القائد العامُّ؛ فله حلقته الخاصَّة من الجُند، إضافة إلى المماليك الخاصَّة المُدرَّبين والمُعدِّين للقتال، والذين لم يقتصر وُجُودهم على السُّلطان والمُلُوك والأُمراء، بل تعدَّى ذلك إلى الفُرسان والجُنُود الإقطاعيين، وحين يصف العمادُ الأصفهاني جيشَ الملك العزيز بن السُّلطان صلاح الدِّين صاحب مصر، يقول: "تجهَّز الملك العزيز، وخرج في عسكر لا يُوصَف في قُوَّته وكَثْرَته، وحُسْن عُدَّته، وكثرة خيله، حتَّى إن الجُندي يكون معه عشرة مماليك تُرك"[3].

رُبَّما كانت الصُّعُوبات المُتزايدة للنظام العسكري الإقطاعي، وصُعُوبة جَمْع العَسْكَر الإقطاعية وقت الحاجة، وعدم تواجدهم تحت السلاح طيلة الوقت، هُو ما دفع بالمُلُوك والأُمراء الأيُّوبيَّة لزيادة اعتمادهم على المماليك، فأضحوا القُوَّة الأكثر تنظيماً في الجُيُوش الأيُّوبيَّة، وغدا منهم أُمراء الجُند

---

1 - كان القادة الأيُّوبيُّون ينتمون إلى أُصُول مُتباينة، تمتدُّ من آسيا إلى أُورُوبة وأفريقية. (تاريخ الشُّعُوب العَرَبيَّة، ألبرت حوراني، 165).

2 - راجعْ شرح الحلقة في: الشَّرق الأدنى، أيُّوبيون، السَّيِّد الباز العريني، 225.

3 - البُستان الجامع، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زكَّار، 11/ 391.

والقادة، وذلك لتدريبهم العالي، وانضباطهم العسكري، حتَّى أصبحوا عماد الجيش، وجمرة قُوَّاته، وآل بهم الأمر إلى أن تولّوا السَّلطنة في نهاية المطاف[1].

وإذا عرفنا أن الجُندي في الجيش الأيُّوبي كان إقطاعه عشرة آلاف دينار، فإنَّنا نُدرك أنَّه يستطيع امتلاك عشرة مماليك، وأنَّه قادر على النفقة المُترتِّبة على وُجودهم عنده. وقد شهدت الجُيُوش الأيُّوبيَّة قفزات كُبْرَى في احتوائها على المماليك مع السلاطين والمُلُوك المُتأخِّرين، حتَّى شكَّلوا مُعظم قوام هذه الجُيُوش وقُوَّتها الضاربة.

المُتطوِّعة:

إضافة إلى الجُند الإقطاعيين والمماليك وجُنُود الحلقة كان يتمُّ تطويع عدد من الراغبين في الخدمة العسكريَّة المأجورة في صُفُوف الجيش، وغالباً كان هؤلاء من أُصُول قبلية، تُركمان، أو أتراك، أو بدو، يمتهنون القتالَ بالأجرة. علماً أن أصل المُتطوِّعة هُم المُقاتلون المُتطوِّعون للقتال ضدَّ أعداء الدِّين احتساباً وتلبية لفريضة الجهاد، دُون أن يتقاضوا على ذلك أيَّ أجر. واستمرَّ توافد المُتطوِّعة من المُجاهدين على الجُيُوش الأيُّوبيَّة أثناء قتالها للفرنج والتَّتار بشكل دائم لم ينقطع، حتَّى إن أعداداً كبيرة منهم كانت من خارج الشَّام، بل وكان قسم كبير منهم من أقاصي المغرب العَرَبي.

لكنْ؛ فيما بعد، اعتمد نظام المُتطوِّعة على مَنْ يتطوَّع بأجر، وهُو أجر مُجز كان يُشجِّع على الدوام أعداداً مُتزايدة للعمل كمُتطوِّعة في الجيش، وهُم ـ غالباً ـ مُتطوِّعة موسميُّون للمُشاركة في حملة، أو للتصدِّي لخطر. وكان التطويع يتمُّ لأفراد، ولجماعات، فقد ذُكرَ أن جماعة من التُّركمان تزيد عن سبعين ألف مُقاتل قد تطوَّعت[2]، وغالباً؛ ما كان لهذه الجماعات عندما تكون كبيرة قائد، أو مُقدَّم منهم[3]، والتطوُّع مهنة رابحة، ليس بالراتب فقط، بل هُناك الغنائم، والفُرص الدائمة للارتقاء والشُّهرة، لكونهم قُرب القادة والحُكَّام في الجيش.

---

1 - راجعْ مبحث المماليك في هذا الكتاب.
2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 331.
3 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7 / 350.

أمَّا الانقسام الأكبر في الجُيُوش الأيُّوبيَّة؛ فقد كان عرْقياً، فمع أن الإسلام كان يُوحِّد بين الغالبية العُظْمَى إنْ لم نقل كامل المُقاتلين في تلك الجُيُوش، لكنَّ الانتماء العرْقي كان مُتبايناً جدَّاً، فالمماليك كانوا من مُختلف أصقاع الدُّنيا، إضافة إلى مجموعات عرْقية كانت تُشكِّل قوى مُهمَّة ضمن الجُيُوش الأيُّوبيَّة، مثل: الأتراك، أو الأكراد، أو التُّركمان[1].

المُتطوِّعة الأجانب (المُرتزقة):

احترفت القتالَ، في العصر الأيُّوبي، مجموعاتٌ مُختلفة الأعراق والأديان، فقد كانت الحُرُوب تجذب إليها المُتطوِّعة كما تجذب النارُ الفراشَ، فهي عمل كُلِّ مَنْ لا عمل له، وبالتَّأكيد؛ كان كُلٌّ منهم لديه دوافع كافية للانخراط في المعارك، ولم يكن هذا غريباً، لا في جانب المُسلمين، ولا في جانب الفرنج، ففي الجانب الإسلامي؛ حيثُ لم ينعدم وُجُود مُتطوِّعة فرنج، ولكن بشكل أقلّ، بل، وربَّما نادر، وذلك لأن حرمان الكَنيسَة كان يطال كُلَّ فرنجي يُقاتل في صُفُوف المُسلمين، ومع أن فُرسان الفرنجة ورُماتهم قاتلوا كمُتطوِّعة في جُيُوش المُوحِّدين، لكنْ؛ ذلك ظلَّ استثنائياً في بلاد الشَّام[2].

وكذلك نجد أن مُتطوِّعة من الفرنجة يُقاتلون مع قُوَّات سلاجقة الرُّوم بشكل كثيف، حتَّى إنَّهم انفردوا في القتال بإحدى المعارك بعد إحجام جيش السُّلطان غياث الدِّين كيخسرو[3].

وهُناك إشارة إلى وُجُود مجموعة من الرُّماة الفرنج كانوا يعملون كمُرتزقة ضمن عسكر بلدة رأس عين، حين هاجمها الخَوَارزميَّة[4]، وهذه كُلُّها مواقع بعيدة عن ساحات المعارك في ساحل الشَّام، وهُو أمر طبيعي، فمُرتزقة الفرنج يتجنَّبون القتالَ ضدَّ بني قومهم، أو ضدَّ مسيحيِّيْ أُورُوبا بشكل عامٍّ، ولم يمنع ذلك من التجاء عدد من فُرسان الفرنج إلى جانب المُسلمين، وانضمامهم إليهم، لينجوا بأنفسهم من جحيم المعارك[5].

---

1 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 13/ 151، والأعلام والتبين، الحريري، 90.
2 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 224.
3 - مُختصر تاريخ الدُّول، ابن العبري، 439.
4 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 705.
5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 446.

كما وُجدَتْ مجموعة من الفرنج استأمنوا إلى السُّلطان صلاح الدِّين، وطلبوا منه سُفُن وزوارق، فزوَّدهم بها، فأخذوا يُغيرون على سُفُن الفرنج في البحر المُتوسِّط، ووصلوا بغاراتهم حتَّى جزيرة قبرص، فقتلوا، وسلبوا، وعادوا إلى اللاذقية[1]، فكانوا حالة فريدة من المُرتزقة، يعملون لحسابهم الخاصّ كقراصنة، ولكنْ؛ في النتيجة، فإن هجماتهم تصبُّ في صالح المُسلمين.

ولا نستطيع هُنا أن نعدَّ بقايا جيش جلال الدِّين الخوارزمي، التي جعلت الشَّام مسرحاً لعمليَّاتها، من المُتطوِّعة، فقد عملت هذه الفرقة لحسابها الخاصّ، أو كحُلفاء لغيرهم من المُلُوك والأُمراء، لكنْ؛ مَنْ سلم منهم، بعد كسرتهم العُظْمَى عند بُحَيْرة حمص، وتشتُّت شملهم، تحوَّلوا إلى مُتطوِّعة في جُيُوش الإمارات والممالك من بغداد حتَّى القاهرة.

دور العامَّة في الجيش:

كانت العامَّة في العصر الأيُّوبي لا تُعدُّ من قوام القُوَّات العسكريَّة في شيء، مع أنَّه كان لهم أدوار عسكريَّة في معارك عديدة، فقد كانوا مصدر المُتطوِّعة للجهاد؛ حيثُ يُسمّون غُزاة، أو مُجاهدين، أو مُرابطين. وقد لا يكون للعامَّة دور فعَّال ضمن قطعات الجيش النِّظاميَّة، ولكنْ؛ على الدوام، كانوا يُسخَّرون للأعمال الداعمة للمجهود الحربي، وكانوا يُقاتلون بضراوة عند مُحاصرة مُدُنهم، بل كانوا يُساقون للتجنيد في حالات الخطر على شكل تعبئة عامَّة، كما فعل الملك الكامل بعد أَخْذ الفرنج لدمياط؛ "حيثُ كانت الفرنج تخاف من الحرافيش أكثر من العَسْكَر"[2]، فقد كان للعامَّة نكاية عظيمة في الفرنج، فقد قتلوا منهم الكثير، "وكانوا يتحيَّلون في خَطْفهم كُلَّ حيلة"[3].

ويبدو أن التطوُّع في الجيش الأيُّوبي كان من الأعمال التي تدعو إلى الفخر في ذلك العصر، فقد كان الجُنُود يُميِّزون أنفسهم، فيما عدا لباسهم الحربي الخاصّ، بإطالة الشارب، بينما كانت العامَّة والفُقهاء والكَتَبَة يحفُّون الشارب[4].

---

1 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 13/ 320.
2 - كَنز الدُّرر، ابن آيبك، 7/ 376.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 447.
4 - الفرج بعد الشدَّة، التنوخي، 2/ 253.

إقامة الجيش:

كانت القلاع والحُصُون والمُعسكرات هي مكـان إقامـة الجُيُـوش النِّظاميَّـة، أو جُنُـود الحلقـة والمماليك المُقاتلة في أوقات السِّلْم، أمَّا في حالة التَّحرُّك والحَرْب؛ فقد كان الجُند يُقيمُـون مُعـسكرات مُتنقِّلة، تنتقى لها أمكنة مُناسبة، يتوفَّر فيها الماء والمرعى للخُيُول ودوابّ التحميـل والجَرّ، والاتِّـساع وسُهُولة الأرض، ومن أشهر أمكنة المُعسكرات في بلاد الشَّام كان مرج الصّفر جنوب دمشق، ومـرج راهط شمال شرق دمشق، وسهل بُحَيْرة قَـدَس جنـوب حمـص، ومُجمَّـع المُـرُوج شـمال شرق حمـص، وغيرها كثير.

وكان ممَّا يُميِّز كلَّ مُعسكر هُو الخدمات المُلحقة به، وأهمّهـا الـسُّوق، ويـصف عبـد اللطيـف البغدادي السُّوق المُلحق بمُعسكر السُّلطان صلاح الدِّين على عكَّا، فيظهر كأنَّه مدينة، وليس سُوقاً في مدينة، فيقول: أنَّه كان للسُّوق شُحنة؛ أيْ رئيس، وكان به سبعة آلاف دُكَّان، كان منها مائة وأربعـون دُكَّان بيطار، إلى أن يقول: "وعددتُ عند طبَّاخ واحـد ثمانيـاً وعـشرين قـدْراً، كُـلُّ قـدْر تـسع رأس غنم"، ويُتابع: "أمَّا سُوق البرّ؛ أيْ سُوق الأمتعة والأسلحة، فشيء يُبهر العقـل"، ثُـمَّ يقـول: "أنَّـه كان في سُوق المُعسكر أكثر من ألف حمَّام، ومُعظم مَنْ يتولاها المغاربة"[1].

وكذلك يشهد وليم الصُّوري بأهمِّيَّة دور مُتعهِّدي خدمـة الجـيش ونـشاطهم في مُعـسكرات المُسلمين، من باعة وحرفيين، وغيرهم[2].

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 119.

2 - الشَّرْق الأدنى، السَّيِّد الباز العريني، 168.

و A History of deed's done Beyond the sea, William of Tyre, P: 503

المبحث الثَّالث:

جيش الفرنج

كانت جُيُوش الإمارات الفرنجيَّة في الشَّرق تختلف بقوامها عن جُيُوش الحملات القادمة مُباشرة من أُورُبا، علماً أنَّهم غالباً ما كانوا يُقاتلون معاً، وكان جيش فرنجة الشَّرق يعتمد على:

الفُرسان :

إن كلمة فارس في لُغات أُورُبا قد تعني رُتبة، فيكون صاحبها قد رُسِم بالسيف في رُتبة فارس، فانضمَّ ـ بشكل رسمي ـ إلى مُنظَّمة الفُرُوسية، التي تُقابل مُنظَّمة الفُتُوَّة العَرَبيَّة، ولكن الفارس قد لا يكون مرسوماً، ولكنَّه يُقاتل على فَرَس، ويملك سلاحاً حربيَّاً كاملاً، يتوافق مع ثروته ومنزلته، وهُو خُوذة وسابغة ودرع من الفُولاذ وسيف ورمح وهراوة وغيرها، وله مجموعة من الأتباع تُرافقه وتدعمه في المعارك التي يخوضها[1]. ويتبع سلاح الفُرسان مجموعات أُخرى تُقاتل راكبة، منها:

آ. السرجندية:

لأن إعداد الفارس الثقيل كان مُكلفاً للغاية، فقد شجَّع ذلك على ظُهُور فرقة فُرسان[2] خفيفة التسليح نسبياً، أُطلق عليها اسم المُساعدين (sergeants)[3]، فالسرجندي هُو فارس خفيف مُساعد للفارس الثقيل[4]. وقد يكتفي السرجندية بالسيف والهراوة، وسوابغهم من الجلد، أو القماش المُبطَّن، وكذلك خُيُولهم أخفّ[5]. وكانوا وُفقاً لترتيب قتال الفرنجة يدعمون سلاح الفُرسان الثقيلة بالقتال أمامهم[6].

---

1 - مدخل إلى نشيد رولاند، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 9/ 39.

2 - يُرجِّح سميل أن السرجندية كانوا مُشاة، وأنَّهم لا يُستَدْعون للخدمة إلاَّ أثناء الحملات الكبيرة. (فنُّ الحَرْب، سميل، 153)، ولكن الوقائع والإشارات التي أوردها المُؤرِّخون المُعاصرون لا تدعم وُجهة نظره.

3 - سبع معارك، جوزيف داهموس، 15.

4 - مدخل إلى نشيد رولاند، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 3/ 335.

5 - مدخل إلى نشيد رولاند، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 9/ 39.

6 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري 1184 ـ 1197، مخطوطة فلورنسا، تحقيق: مرغريت مُورغان، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 8/ 502.

ب ـ التركبول:

بداية؛ يجب أن نُشير إلى أن هُناك خلافات كثيرة في الرأي بين المُؤرِّخين حول أُصُول هذه الفرقة، مع أن الجميع قد اتَّفقوا على طُرُق تسليحها وقتالها، فهي فرقة من الفُرسان الخفيفة[1]، يتبعون طُرُق القتال الإسلاميَّة، فيرمون بالقوس من الحَرَكَة[2]، ويُشكِّلون وحدات دعم خفيفة لقُوَّات الفرنجة[3]. ولكن الخلاف كان حول أُصُول هذه الفرقة، فقد قيل: إنَّها مزيج من الأقلِّيَّات، كالأرمن، والإغريق، ولذلك كان قائدهم يُسمَّى: تركبلير[4]، أو أنَّهم من أبناء الأتراك حصراً، بدلالة اسمهم التركبول[5]. وهُناك مَنْ يقول: إنَّهم من السريان والمُسلمين[6]. ولكن كلود كاهن يعترض على كلِّ هذه الآراء، فيقول: "لا يبدو أن ذلك صحيحاً، ففي الإمبراطُوريَّة البيزنطيَّة ـ خلال القرن الحادي عشر والقرن الثَّاني عشر ـ كان الجيش يستخدم التركوبولوا، والفرانكوبولوا، على نطاق واسع، ويتعلَّق الأمر ـ فيما يبدو ـ بأتراك تحوَّلوا إلى المَسيحيَّة، وبفرنجة مُرتزقة تزوَّجوا بيُونانيَّات"، وهذه الفرَق الأجنبية سيكون لها ـ فيما بعد ـ ما يُشابهها في فرقة الجاسمود لدى دولة اللاتين في القسطنطينيَّة، وهُم أبناء الزيجات المُختلطة بين اللاتين واليُونانيَّات، وفرقة الإيجديش[7]، وهُم من المُولَّدين الذين اعتنقوا الإسلام، ولا شكَّ بأنَّ التسمية تتعلَّق بأتراك اعتنقوا المَسيحيَّة الكاثوليكية، وتزوَّجوا بفرنجيات، ويبدو أنَّهم قلَّة، ولم يشغلوا سوى وظائف ثانوية[8].

الحُجَّاج المُقاتلون:

كان الحُجَّاج القادمون من أُورُبا يُشكِّلون المصدر الأهمَّ لدعم قوام الجُيُوش الفرنجيَّة في الشَّرق، وكانوا يتوافدون مع ربيع كلِّ عام من كلِّ أصقاع أُورُبة، مُستفيدين من الحسم الذي تمنحه السُّفُن الإيطالية بمُناسبة عيد الفصح لرُكَّاب الربيع: **Passangium Vernale**، القادمين للاحتفال

1 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، باركر، 58.

2 - فنُّ الحَرْب، سميل، 181.

3 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، 222.

4 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، سُهيل زَكَّار، من الموسوعة الشاملة، 3/ 336.

5 - تاريخ سُورية ولُبنان، فيليب حتَّي، 235.

6 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، باركر، 58.

7 - الإجديش: غير الأصيل، ومنها قالت العامَّة عن الحصان غير المعروف نسبه: إكديش.

8 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، 222.

في الأماكن المُقدَّسة، وكانت نسبة كبيرة من هؤلاء الحُجَّاج يعتقدون أن حجَّهم لا يتمُّ دُون المُشاركة في الحَرْب المُقدَّسة ضدَّ المُسلمين، فينخرطون في حملات أُمراء فرنجة الساحل الشَّامي[1]، ومع أن مُشاركتهم كانت مُؤقَّتة، فقد كانوا يُشكِّلون القُوَّة المُتجدِّدة لجُيُوش الفرنجة في الشَّرْق، والدماء الجديدة التي تُضخُّ في عُرُوقهم[2]. ويجب عدم الاستهانة بأعداد الحُجَّاج القادمين من ما وراء البحار، ففي ما عدا الحملات الكُبْرَى القادمة بجُيُوش كاملة، كان الحُجَّاج الفُرادى والجماعات يتدفَّقون بشكل قوي ومُستمرٍّ، وهذا ما دعا الحريري ليقول في وصف تدفُّق الحُجَّاج: "ويأتي الفرنجة من البحر مراكب في عدد أمواجه، فإذا قَتَلَ المُسلمون أفرنجياً، أخلفَ البحرُ مكانَهُ ألفَ أفرنجي"[3].

علماً بأنَّ الفرنجة المحلِّيُّون، البوليانز، كانوا لا يُرحِّبون كثيراً بحملات الحُجَّاج هذه، فهُم يشكُّون بنوايا الأُمراء القادمين من أُورُبا، ويعتقدون أنَّهم قدموا طامعين بتشكيل إمارات شرقية.

كما كانت حملات الحُجَّاج تُهدِّد اتِّفاقياتهم التِّجاريَّة مع المُسلمين، وتقضي على أرباحهم منها[4].

ولكنَّهم ـ في الوقت نفسه ـ كانوا يُدركُون ـ تماماً ـ أن وُجُودهم مُرتبط بتوارد الحملات، وبالدعم الأُورُبي لهم بالمال، والرجال. وبمُراجعة رسالة مُقدَّم الدَّاويَة في عكَّا إلى أُورُبا، بعد احتلال دمياط؛ حيثُ يقول: "إنَّنا مُتوقِّعون مُنْذُ وقت طويل وُصول الإمبراطُور ونُبلاء آخرين، فبهم نأمل أن نتحرَّر، ولكنْ؛ إذا خابت آمالنا بشأن هذه المُساعدات، ولم تصل في الصيف المُقبل، سوف يكون وضع البلدَيْن؛ أيْ مصر وسُورية، وما تملَّكناه مُؤخَّراً، والذي نتملَّكه مُنْذُ وقت طويل، في موضع شكٍّ"[5]، نجد أن حملات الحُجَّاج برجالها ومالها هي سرُّ استمرار الإمارات الفرنجيَّة في الشَّرْق، وليس فقط قُوَّتها، وعُدوانيَّتها نحو جيرانها المُسلمين، حتَّى إنَّه يبدو ـ أحياناً ـ أن دور البوليانز أو فرنجة الشَّرْق كان يقتصر على الدلالة والتوجيه والمُشاركة الثانوية في الحملات الكُبْرَى والمُتوسِّطة، وهذا ما دفعهم ـ على الدوام ـ لتحمُّل صلف وعنجهية وجهل مُعظم القادة الأُورُبيين،

---

1 - فنُّ الحَرْب، سميل، 153.

2 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، باركر، 68.

3 - الأعلام والتبين، الحريري، 86.

4 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، باركر، 69.

5 - وُرُود التَّاريخ، روجر ويندوفر، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 45/ 786.

الذين يقدمون مع الحملات، كما كانت الحال مع الملك الإنكليزي ريتشادر في الحملة الثَّالثة، ومع نائب البابا الكاردينال بيلاجيوس في حملة دمياط الثَّانية.

طوائف الرُّهبان:

ارتبط العامل الدِّيني بالعلاقات العسكريَّة لفرنجة الشَّرق بشكل مُؤقَّت بواسطة حملات الحُجَّاج الموسمية، لكنَّ هذا العامل كان له رباط دائم بعلاقات الفرنج العسكريَّة بواسطة طوائف الرُّهبان المُقاتلين من داوية، واسبتارية، وتيوتون، وغيرهم[1]. فقد شكَّلت الأخويات الرُّهبانية جُزءاً مُهمّاً من قوام الجُيُوش الفرنجيَّة في الشَّرق، وأخذ دورها بالتعاظم مع الزمن، فامتلكوا المُقاطعات والقلاع، وحشدوا الجُيُوش، وعقدوا الاتِّفاقيات، وتحولت كلّ طائفة منهم إلى ما يُشبه الدولة، بعلاقاتها الدّاخليَّة والخارجية.

آ. الدَّاويَة:

أو فُرسان الهيكل، لأن جماعتهم أقامت ـ أوَّل الأمر ـ في هيكل سُلَيْمان في القُدْس، فقد خرج من رُوما واحد من النُّبلاء الإيطاليين ومعه ثلاثون فارساً، وقد نذر مُساعدة ملك القُدْس بلدوين لمُدَّة ثلاث سنوات، ونتيجة لنجاحات هذا الفارس، طلب منه بلدوين أن يستمرَّ في خدمة المملكة، وأعطاه هيكل سُلَيْمان للإقامة مع رجاله، ومنحهم بطريركُ القُدْس بعضَ الأوقاف، فقامت هذه الطائفة، بعد أن وُضع لها نظام خاصٌّ يقضي ألا يتزوَّجوا، وأن لا يتحمَّموا، وأن تكون مُلكيَّتهم جماعية. وفتحوا باب الانضمام لَمَنْ يرغب على أن ينزوي سنة كاملة في صومعة؛ ليُفكِّر؛ لأنَّهم سيقتلونه إذا ارتدَّ، وإذا وافق بعدها يلفُّونه بثوب أبيض، لا يرتدي معه أيَّ زينة سوى زنَّار فقط، ثُمَّ يُعاهد الرئيس على الطاعة المُطلقة[2].

ب. الاسبتاريَّة:

أو فُرسان المُستشفى، إذا كانت طائفة الدَّاويَة قد نشأت بمُبادرة أُورُبية، فإن طائفة الاسبتاريَّة قد نشأت بمُبادرة محلِّيَّة، بدأت برعاية الجرحى والمرضى، وقد تأسَّست هذه الفرقة عام 492 هـ 1099م، وكُرِّست في بداياتها لعلاج الجرحى والاهتمام بالحُجَّاج بشكل عامٍّ، ثُمَّ تحوَّلت إلى هيئة

---

1 - وُرُود التَّاريخ، روجر ويندوفر، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 45/ 864.

2 - روايات المُؤرِّخ ميخائيل السوري الكبير، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 5/ 87.

حربية دينيّة، لها نُظُمها، وقوانينها[1]، وقد لعبت دوراً كبيراً هي والدّاويَة في مُجمل حُرُوب الفرنجة مع المُسلمين.

ونتيجة لفتَن هاتَيْن المُؤسّستَيْن العسكريّتَيْن الدّينيّتَيْن، ولأن مواردهم أصبحت أعلى من موارد النُّبلاء الإقطاعيين سادة البلاد، فقد حوّلوا إليهم ملكية القلاع الرئيسية[2]، لأن صيانتها وتدعيمها يحتاجان لمبالغ طائلة، لذلك امتلكت الرُّهبانيات المُقاتلة قوى أكثر، وسُلطة أكبر من ما كان يملكه الأُمراء العلمانيون[3]. وكانوا لا يدينون بالولاء للملك أو للأمير المُتواجدَيْن على أرضه، ويعدُّون البابا مرجعهم الأعلى[4]، فكانت لهم حُرِّيّة حَرَكَة كبيرة بأُمور خطيرة كالحرب، أو السلام[5]، حتّى إنّهم أقاموا علاقات دولية حقيقيّة مع الممالك الأيُّوبيّة، فعقدوا معهم المُعاهدات والاتّفاقيات، واقتسموا معهم الأراضي والنُّفُوذ والضرائب في مناطق المُناصفات[6]، ولذلك نجدهم يتكلّمون العَرَبيّة، ويتولّون الترجمة بها بين الفرنجة والأيُّوبيين[7].

ولكنْ ـ بالتدريج ـ أخذ ضَرَرُهُم للوُجُود الفرنجي في الشّرْق يتزايد على نَفْعهم له، وظهرت مطامعهم، وخُصُوماتهم، التي بلغت حَدَّ الحَرْب فيما بينهم[8]، فـدُعاة الفقر والتقشُّف والحرمان والطاعة تحوّلوا إلى جماعات نَفْعية، قاتلوا من أجل الغنائم، وسلبوا، وتاجروا، ولم يتورّعوا عن فعل أيِّ شيء في سبيل منافعهم الخاصّة[9]. وبعد أن كانوا ـ في نظر المُسلمين، ألَدَّ وأخطرَ الأعداء، لا يُفدى أسيرهم، ولا يُعفى عنه ـ أخذ العالم المسيحي ينظر إليهم بازدراء، وأطلقوا عليهم اسم: لُصُوص الفرنجة[10]، وردّدوا في أُورُبا: آه من خيانة الدّاويَة القديمة، آه من تحريض الاسبتاريّة الدائم على الفتنة[11].

---

1 - لتفصيلات أكثر حول الاسبتاريّة راجعْ كتاب: الاسبتاريّة، جُوناثان رايلي سميث، تعريب: صُبحي الجابي.
2 - يعقد فيليب حتّي مُقارنة لطيفة بين هذه الطوائف وطائفة الإسماعيليّة لدى المُسلمين. (تاريخ سُورية ولُبنان، 2/ 252).
3 - الشّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 223.
4 - رُبّما لبُعْده عن الساحة، وليُتيحوا لأنفسهم أكبر قَدْر مُمكن من حُرِّيّة التّصرُّف وعدم الخُضُوع لأيِّ سُلطة سياسيّة.
5 - الاسبتاريّة، سميث، 139.
6 - سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 36 / 188.
7 - سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 36 / 168.
8 - الشّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 223.
9 - العَرَب والرُّوم، جوزيف نسيم يُوسُف، 90.
10 - سيرة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكّار، 36 / 154.
11 - الاسبتاريّة، سميث، 183.

كما أنَّهم لم يكونوا بأقلَّ وطأة بمُؤامراتهم وخيانتهم على الفرنجة أنفسهم، فإن ما اعتاد عليه الاسبتاريَّة من نقض للعُهُود، ومن جرائم ومخازي مع جيرانهم المُسلمين، جعلهم يتعاملون بالطريقة نفسها مع فرنجة الشَّرْق، فأضافوا إليهم تسمية أُخرى هي: "محراك النار"[1].

النساء في جيش الفرنجة:

كان للنساء مُساهمة فعَّالة في جُيُوش فرنجة الشَّرْق؛ إذْ ساندنَ الرجال في نواح عديدة، فقد ذكر العماد الأصفهاني: أن نساء الفرنج كُنَّ يُقدِّمنَ أنفسهنَّ للمُقاتلين تقدمه دينيَّة بمُباركة رجال الدِّين[2]، ولكن الجانب المُهمَّ الذي انفردت به نساء الفرنج هُو المُشاركة الفعليَّة في القتال، حتَّى إنَّه وقع منهنَّ قَتْلَى، كما أسر المُسلمون بعضهنَّ[3]، وكانت بعضهنَّ فوارس يُقاتلنَ على الجياد بالدُّرُوع، والسلاح الكامل، ولم يكن المُسلمون يُميِّزوهنَّ إلاَّ في حالة مَقتلهنَّ، وتعريتهنَّ من الدُّرُوع. إضافة إلى أن إحدى النساء النبيلات قدمت لتُشارك في الحَرْب المُقدَّسة وهي تقود خمسمائة فارس، "وهم يركبون برُكبانها"، أمَّا العجائز؛ فقد امتلأت بهنَّ ساحات القتال، "وهُنَّ يُحرِّضنَ، وينخينَ، ويقلنَ إن الصليب لا يرضى إلاَّ بالإباء"[4].

المُرتزقة:

نظراً لمحدودية الثروة البشرية لدى الفرنج في الشَّرْق، وعدم قُدرتهم على تجنيد السُّكَّان المحلِّيِّين، لقلَّة الثقة، أو لقلَّة الفائدة، فقد اضطرُّوا لقبول المُرتزقة كمُقاتلين في جُيُوشهم، فشكَّلوا فرقة من المُشاة الأرمن، وفرقة من الرُّماة الموارنة من جبل لُبنان[5]، إضافة إلى اضطرار الفرنجة في الشَّرْق للاستعانة بالجاليات الأُورُبيَّة التِّجاريَّة المُتواجدة في مُدُنهم عند الضرورة، وخاصَّة من جاليات المُدُن الإيطالية بيزا، وفلورنسا، وغيرها[6].

---

1 - فُرسان القدِّيس يُوحنَّا، سميث، ترجمة: صُبحي الجابي، 112.
2 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 13/ 237.
3 - الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19/ 225.
4 - الفَتْح القِسِّي، العماد، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 13/ 237.
5 - تاريخ سُورية ولُبنان، فيليب حتِّي، 235.
6 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري، 1184 ـ 1197، مخطوطة فلورنسا، تحقيق: مرغريت مُورغان، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 8/ 502.

المبحث الرَّابع:

تسليح الجُيُوش ودوره في العلاقات العسكريَّة

كانت الجُيُوش في العصر الأيُّوبي تتوزَّع على قطعات عسكريَّة بسيطة، وُفقاً لتنوُّع الأسلحة المُتاحة للجُيُوش في ذلك العصر، وكان من أهمِّ هذه القطعات:

آ. سلاح الفُرسان:

كان الفُرسان يُشكِّلون الجُزء الأكثر فاعلية من الجيش في ذلك العصر، فالحصان كان يُعطي للفارس قُوَّةَ حمل أسلحة عديدة، وقُوَّة اختراق بما يملكه من سُرعة واندفاع، إضافة إلى إمكانية المُناورة الواسعة[1].

1 ـ **سلاح الفُرسان الفرنجي**: يُلخِّص العمادُ الأصفهاني رأيَ المُسلمين في سلاح الفُرسان عند الفرنج بقوله: "إن فارسهم مادام فَرَسُهُ سالماً لم يذلّ للصّرعة، فإنَّه من لبسه الزردي من قرنه إلى قدمه كأنَّه قطعة حديد، ودراك الضرب والرمي إليه غير مُفيد، لكنَّ فرسهُ إذا هلك فُرس ومُلك"[2].

فالحصان كان عُنصُراً أساسياً بالنِّسبَة للفارس الفرنجي؛ إذْ إن كلَّ معدَّاته وقُوَّته وتدريباته لا تُساوي شيئاً إذا فَقَدَ فَرَسَهُ؛ حيثُ يتمكَّن أيُّ جُندي مُتواضع من المُشاة أن يطعنه، أو يأسره[3].

فالذرديَّات تُغطِّي كامل جسم الفارس، وفوقها الدُّرُوع الصّلبة، إضافة إلى مجن دفاعي طويل من الفُولاذ، يُمكن أن يستر مُعظم جسمه.

وكان الفارس الفرنجي يعتمد ـ بعد دُرُوعه الثقيلة على رمحه الطويل الفعَّال، المصنوع من خشب السنديان، أو البلُّوط القاسي[4]، فكان يستخدم رمحه وقُوَّة حصانه لخَرْق الصُّفُوف، وتمزيق الكتائب. وامتلك الفرنجة قواعد للقتال بالرّمح، تقوم على استخدام قُوَّة الرّمح، وسُرعة الحصان[5].

---

1 - حول أهمِّيَّة الحصان في معارك العُصُور الوُسْطَى راجعْ كتاب: حلية الفُرسان، ابن هُذَيْل الأندلسي.

2 - البرق الشَّامي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 13/ 29.

3 - سبع معارك، داهموس، 15.

4 - فنُّ الحَرْب، سميل، 132.

5 - مدخل إلى نشيد رولاند، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 9/ 42.

وفي بعض الأحيان؛ كان الفارس يستخدم رمحه كأداة رمي، فيقذفه باتِّجاه الخصم بقُوَّة ساعده، مُستفيداً من قُوَّة الدفع الناتجة عن سُرعة حصانه. وإذا فَقَدَ الفارسُ الفرنجي رمحه، ولم يتوفَّر معه تابع ليُزوِّده برمح جديد، يُقاتل بسيفه الثقيل، الذي يُمكن ـ في حالات كثيرة ـ أن يستخدم يدَيْه كلتَيْهما للضرب به، ويترك عنان فَرَسه المُدرَّب ليُتابع المهمَّة وحده[1]. ويُمكن للفارس ـ في بعض الحالات ـ أن يُقاتل بالهراوة، أو الدّبُّوس[2].

وبشكل عامٍّ؛ كان الفارس الفرنجي كُتلة من الفُولاذ ما بين دُرُوعه وزرده وأسلحته، فهُو قُوَّة حربية كُبْرَى طالما كان مُمتطياً جواده.

أمَّا السلاح الوحيد الذي كان يصعب استخدامه على الفارس الفرنجي؛ فهُو القوس، لأن دُرُوعه الثقيلة كانت تُعيقه عن دقَّة التسديد، وسُرعة الإيتار.

2 ـ **سلاح الفُرسان المُسلمين:** امتاز سلاح الفُرسان لدى المُسلمين بخفَّة حَرَكَته، وقُدرته العالية على المُناورة، والتَّحرُّك في أرض المعركة، ممَّا كان يُربك فُرسان الفرنجة لثقل حَرَكَتهم.

واستخدم الفارس المُسلم في ذلك العصر ـ بالدرجة الأُولى ـ حربة خفيفة، قناتها من القصب[3]، وسيف يعتمد عليه الفارس في الانقضاض بشكل كامل، إضافة إلى قوس يُجيد استخدامها، ويتمكَّن من الرمي بها من الحَرَكَة وهُو فوق جواده. ويُمكن أن يحمل هراوة لاستخدامها عند الحاجة.

أمَّا دُرُوع الفارس المُسلم، فكانت زرديات خفيفة تُغطِّي القسم الأعلى من جسمه، مع درع صغير وخفيف، شكله مُستدير، أو بيضوي، وصحيح أنَّها كانت أقلّ فاعلية في الحماية من دُرُوع الفرنجة، ولكنَّها أعطتْهُم ميِّزة الخفَّة، فلم يُثقلوا خُيُولهم بأوزان الفُولاذ، وبالتَّالي؛ تمكَّنوا من امتلاك سُرعة مُناورة، كانت أفضل ـ في كثير من الحالات ـ من قُوَّة الدُّرُوع.

لكنْ؛ بسبب احتكاك المُسلمين بالفرنجة، ولما كانوا يحصلون عليه من أسلحتهم كغنائم حرب، بدأت بعض أسلحة الفُرسان المُسلمين تُصبح أكبر وأثقل، فقد لبسوا الدُّرُوع الفرنجيَّة

---

1 ـ مدخل إلى نشيد رولاند، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 9/ 42.

2 ـ الهراوة: أداة قتال معدنية، كبيرة الرأس، تُسمَّى ـ أحياناً ـ اللتّ، والدّبُّوس شبيه بها، لكنْ؛ له رأس مُدبَّب، ورأس قاطع. (الأسلحة وآلات القتال، إحسان هندي، 144 ـ 146).

3 ـ فنُّ الحَرْب، سميل، 132.

تدريجياً، ويعتقد كلود كاهن أن كلمة: طارقا، التي كانت تعني في العصر الأيُّوبي الدرع الكبير، ما هي إلاَّ كلمة: تارج ـ Targe الأُورُبيَّة[1]، وقد أكَّد ذلك أُسامة بن مُنقذ عندما عدَّد ـ ضمن دُرُوعه ـ زردية إفرنجية[2]، كذلك ذكر أُسامة أنَّه ظهرت عادة حمل الرماح الطويلة[3]، ممَّا استدعى ظُهُور تقنيات جديدة لدى المُسلمين في فنِّ القتال بهذه الرماح[4]. وممَّا يُعطينا فكرة عن تعامل المُسلمين مع الرماح قول أسد الدِّين شيركوه عندما كان يُشرف بنفسه على التدريب العسكري لابن أخيه صلاح الدِّين، فكان يقول له ـ أثناء التدريب على الطعن بالرّمح ـ: "أَمْسكْ به بقُوَّة تحت ذراعكَ، ولا تُلوِّح به، شُدَّه إليكَ لكي يحمل كُلَّ ثقلَ جسمكَ، وثقل جوادكَ"[5].

ب. أسلحة الرمي:

1 . **الأقواس**: اهتمَّ العَرَبُ والمُسلمون بالقوس، واستخدموه في حُرُوبهم مُنْذُ القدَم، وتميَّزت أقواسهم بالخفَّة، ممَّا ميَّزها بسُهُولة الاستخدام، وسُرعة الرمي، وعوَّضوا عن صغر سهامهم وقصر مداها بغزارة الرمي، ففي ليلة واحدة وزَّع السُّلطان صلاح الدِّين أربعمائة حمل من النشَّاب، إضافة إلى ما كان مع المُقاتلين[6]. ومع ذلك؛ فقد عرف المُسلمون ـ أيَّام الحُرُوب مع الفرنج ـ أنواعاً أُخرى من الأقواس[7]، منها: الأقواس الزيارة[8]، وأقواس الزنبورك[9]، وأقواس الجرخ[10]، وأقواس العقار[11]، وغيرها[12].

---

1 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، 89 - Targe بالفرنسية وTarget بالإنكليزية، تعني درع.
2 - الاعتبار، أُسامة بن مُنقذ، 95.
3 - الاعتبار، أُسامة بن مُنقذ، 96.
4 - صلاح الدِّين وعصره، نيوباي، 39.
5 - صلاح الدِّين وعصره، نيوباي، 39.
6 - البرق الشَّامي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 13/ 23.
7 - Carole Hillenbrand, The Crusades Islamic Perspectives, P:457
8 - القوس الزيار: قوس قوي، أخذ اسمه من تزيير الوتر؛ أيْ شدّه، ممَّا يُعطي اندفاعة السهم سُرعة وقُوَّة أكبر. (الأسلحة وآلات القتال، إحسان هندي، 174).
9 - قوس الزنبورك: وهُو قوس كبير يرمي بعدَّة سهام دفعة واحدة (الأسلحة وآلات القتال، إحسان هندي، 185).
10 - قوس الجرخ: قوس ضخم، يرمي بسهم ذي رأس حديدي لاختراق الأجسام الصلبة (الأسلحة وآلات القتال، إحسان هندي، 179).
11 - قوس العقار: العقار هُو النفط، وقوس العقار هُو القوس الذي يرمي قوارير النفط (الأسلحة وآلات القتال، إحسان هندي، 187).
12 - راجعْ : البرق الشَّامي، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 13/ 23. وما ورد حول الأقواس في كتاب: ذكْر فضيلة الرمي وأوصافه، مرضي بن علي الطرطوسي.

2 ـ **المنجنيقات**: مع أن الفرنج كانوا يعرفون بناء المنجنيقات، واستخدامها، لكنَّهم لم يصلوا يوماً إلى براعة المُسلمين ودقَّة رَمْيهم بها، فعندما يصف جوانفيل تبادل الرمي بالمنجنيقات في حملة دمياط، بين المُسلمين في مصر وقُوَّات حملة الملك الفرنسي لويس التَّاسع، يذكر ـ صراحة ـ عدم جدوى منجنيقات الفرنجة، يقول: "عند وُصُولنا إلى النهر أمر الملك ببناء ثماني عشرة آلة قذف، وتطايرت قذائف آلاتنا ضدَّ الأعداء وآلاته، وقاموا ـ بدورهم ـ بالرمي علينا، غير أنِّي لم أسمع أن آلاتنا قد سبَّبت أذىً كبيراً"[1].

ويُؤكِّد ذلك وليم الصُّوري خلال حديثه عن حصار المُسلمين لقلعة فرنجية، يقول: "حاول المُحاصرون أن يُشيِّدوا آلة حربية خاصَّة بهم، إلاَّ أن أفراد العدوِّ، المسؤولين عن آلات القذف الحَرْبيَّة الموجُودة في الخارج، سدَّدوا قذائف الصُّخُور بخبرة مُتناهية، إلى درجة أن المسيحيين تخلّوا عن المُحاولة، بعدما روَّعتهم الضربات المُستمرَّة"[2].

ويبدو أن المُسلمين قد طوَّروا صناعة المنجنيقات، حتَّى إنَّهم تمكَّنوا من بناء منجنيق كبير جدَّاً يرمي بصُخُور هائلة لا يصمد أمامها شيء، كان يُسمَّى المنجنيق المغربي، رُبَّما نسبة لمكان اختراعه، أو لمُخترعه[3]، إن هذا التقدُّم في آلات القذف كان ضرورة بالنِّسبَة للمُسلمين لمُوازنة تفوُّق الفرنجة في بناء وتحصين القلاع.

3 ـ **النفط**: ويلحق بأسلحة الرمي، لأنَّه كان من أشدّ مقذوفاتها فتكاً، ويُعدُّ من بدايات الرمي الناري. وقد تمرَّس العَرَب بصناعة النُّفُوط، وتطييبها[4]، وكان المُسلمون يستخرجون خام النفط من شمال العراق؛ حيثُ تركَّزت ـ هُناك ـ صناعة تكريره من الشوائب لتحويله إلى مادَّة سريعة الاشتعال، وهُناك ـ أيضاً ـ تطوَّرت أساليب رميه بالمزاريق والمنجنيقات، وكان أجود النُّفُوط يُسمَّى الأبيض[5]، أو الطيار[6] لتبخُّره السريع.

---

1 ـ جان جوانفيل، سيرة القدِّيس لويس، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 35/ 81.
2 ـ وليم الصُّوري، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 7 / 500.
3 ـ مُفرِّج الكُرُوب، أحمد الحنبلي، 5/ 65.
4 ـ تطييبها: أيْ تكريرها لزيادة فاعليَّتها.
5 ـ الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 13/ 238.
6 ـ الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 13/ 247.

كانت النُّفُوط تُوضع بقوارير زُجاجية، ثُمَّ تُرمَى بالمنجنيقات بعد إشعال فتيلها، ورُماتها ومُعدُّوها هُم النفَّاطون المُشتغلون بإعداد أنواع النفط، وأدوات رميه، كما يُمكن أن يُقذَف النفطُ بالمزاريق، وهي مواسير يُوضَع بها النفط، ويُنفخ بطرفها الزرَّاق، فيندفع النفط المُشتعل من الطرف الآخر على فُرسان وجُنُود العدوّ، وهي أشبه بقاذفة اللّهب اليوم.

4 ـ البُندُق: لا نعتقد بأنَّ رمي البُندُق وصل في العصر الأيُّوبي إلى درجة تشكيل فرَق عسكريَّة له، أو حتَّى اعتماده في القتال كسلاح، فبالرغم من معرفة المُسلمين للرمي بالبُندُق بواسطة ماسُورة تدفع البُندُقة في داخلها، بواسطة وتر القوس، الذي يضرب عتلة داخل الماسُورة، فتندفع البُندُقة لتخرج من فوهة الماسُورة كمقذوف البُندُقيَّة، ممَّا يحملنا على القول بأنَّها كانت بُندُقية بدائية ستنتظر حتَّى استخدام البارود كقُوَّة دافعة؛ لتُصبح أداة حربية فتَّاكة.

وكان رمي البُندُق في العصر الأيُّوبي يقتصر ـ على ما يبدو ـ على كونه رياضة رمي على أهداف ثابتة، أو مُتحرِّكة؛ كالحَمَام والطُّيُور الأُخرى. أمَّا مادَّة الرمي، وهي البُندُقة؛ فكانت تُصنَع من معدن، أو حجر منحوت كالكُرة، أو من الطين المشوي[1].

صناعة الأسلحة:

اشتهر في الشَّام خلال العصر الأيُّوبي فُولاذ دمشق، وكان يُعتقَد أن مهارات تصنيعه قد أخذها الدمشقيون عن الهند، ومع أن المادَّة الأولية للفُولاذ كانت تُجلَب من مكامن المعادن في مناطق بعيدة، كجبل لُبنان مثلاً، لكنَّ تصنيع الفُولاذ الدمشقي، أو ما كان يُعرَف بالسقاية؛ أيْ مُعالجة المعدن ليبدو ذا بريق خاصٍّ يميل إلى الأزرق، ويكتسب صلابة مع مُرُونة كبيرة جدَّاً في الوقت نفسه، فكان ذلك سرَّاً دمشقياً خاصَّاً، وبقي فُولاذ دمشق المَسْقي مشهوراً حتَّى بعد أن أخذ الأُورُبيون صناعة الفُولاذ، وانتشرت في أُورُبة الوُسْطَى، وأنتجوا السُّيُوف الفرنجيَّة المشهورة، التي كان يُباع أحدها في مصر بألف دينار، لأنَّه يضرب بالحَدِّ وبالسِّنِّ معاً[2].

---

1 - راجعْ عن شَيِّ البُندُق: سيرة الملك الظَّاهر بيبرس، مجهول، 81.

2 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، 87.

وقد اهتمَّ المُسلمون بصناعة كافَّة أنواع الأسلحة، وألَّفوا فيها الرسائلَ والكُتُبَ، ورُبَّما كان منها ما ألَّفه مرضي بن علي الطرسوسي لصلاح الدِّين بعُنوان: ذكْر فضيلة الرمي، وأوصافه[1]، ولابن هُذَيْل الأندلسي كتاب: حلية الفُرسان، ولمُحمَّد بن منكلي العلمي كتاب: الحيَل في الحُرُوب وفَتْح المدائن وحفْظ الدروب[2].

السيف العَرَبي:

ردَّد مُؤرِّخو الحُرُوب مع الفرنجة المُحدثون مقولة فاعلية السيف الفرنجي المصنوع من الفُولاذ القاسي، والكبير الحجم، الثقيل الوزن، الذي يطعن بالسِّنِّ، ويقطع بالحَدِّ، في مُقابل السيف العَرَبي، الصغير نسبياً، الخفيف الوزن، الأعكف الذي يضرب بالحَدِّ فقط، ولتحدُّب نصله لا يتمكَّن حامله من الطعن فيه، وفي الحقيقة؛ هذه مسألة فيها نظر:

ففيما ذُكِر تُوجد مُسلَّمات، بل، وتكاد تكون كُلُّها صحيحة ماعدا ما يتعلَّق بحدبه السيف العَرَبي، فطُول السيف الفرنجي وعرضه يُكسبانه وزناً أكبر، يُمكن أن يكون ذا فائدة بإضافة وزن السيف إلى قُوَّة الضربة، فيُمكن أن تقطع الدرع، ولكن ثقل السيف يجعله غير قابل للمُناورة أبداً، وغير قابل لسُرعة رَدِّ الضربة عند المُفاجئة، وقد استعاضت السُّيُوف العَرَبيَّة عن ثقل الضربة بخفَّة الحَرَكَة، كذلك استعاضت عن المتانة والصلابة بالليُّونة، فهُو لا ينقصف بسُهُولة؛ إذْ إنَّه حادٌّ جدَّاً، وخفيف جدَّاً، ولَيِّنٌ في الوقت نفسه، أمَّا عن عكفة السيف العَرَبي، فمن المُتعارف عليه أن السُّيُوف العَرَبيَّة القديمة كُلّها كانت مُستقيمة[3]، إلى أن بدأ يظهر ـ مع بداية الحُرُوب مع الفرنجة ـ تحدُّب بسيط في مُقدَّمة السيف[4]، أمَّا الحدبة الكبيرة، التي تكاد تُشكِّل سيفاً معكوفاً؛ فإنَّنا نعتقد أنَّها كانت لسُيُوف الزينة، التي تُحمَل في المُناسبات فقط، مثلها مثل الخناجر اليمنية المعكوفة، وإن أبسط استعمال

---

1 - حقَّق هذه المخطوطة ونشرها في باريس كلود كاهن، ونشرها بدمشق المعهد العلمي الفرنسي، بتحقيق: بودولاموت عام 1968 ـ كذلك يُوجد للمُؤلِّف مرضي بن علي الطرسوسي، وفي الموضوع نفسه كتاب آخر عُنوانه: تبصرة أُولي الألباب.

2 - راجعْ استعراض كارول هلنبراند لكُتُب السلاح والجهاد في العصر الأيُّوبي:

Carole Hillenbrand, The Crusades Islamic Perspectives, P.P:435 – 439

3 - Carole Hillenbrand, The Crusades Islamic Perspectives, P:453

4 - الأسلحة وآلات القتال، إحسان هندي، 98.

هذا النوع المعكوف يُظهر عدم فاعليَّتها القتالية. أمّا التقوُّس البسيط في رأس سيف القتـال العَـرَبي، فهُو ـ في الحقيقة ـ تطوُّر هامٌّ لم يكن الهدف منه تغيُّر شكل السيف، بل كان الهدف هُو إكساب السيف ميِّزة هامَّة في القتال، فالتقوُّس البسيط لا يمنع ـ أبداً ـ من الطعن بهذا السيف بفاعليـة كبـيرة، إذاً؛ لم هذا التقوُّس؟ إنَّه بتقديرنا، إن لم يكن لتقنية صناعية تُؤثِّر على صلابة حَدِّ السيف[1]، فهُو ـ بالتَّأكيـد ـ لتشتيت انتباه الخصم عن مكان الطعنة الدقيقة لرأس السيف، فيصعب عليه الاتِّقاء منها بترسه[2].

1 - هذا أمر يحتاج لمُختبر صناعي يُمكن أن يُؤدِّي إلى نتيجة واضحة.

2 - يُمكن إجراء تجربة عملية بسيطة، وذلك بطعن شخص بخشبة مُستقيمة وأُخرى مُنحنية.

المبحث الخامس:

أساليب القتال

1. عند المسلمين:

شهد العصر الأيُّوبي تطوُّراً كبيراً في فُنُون القتال وأساليبه، التي ارتقت لتتناسب مع تطوُّر الأسلحة، وكان هذا التطوُّر تُمليه الضرورات العسكريَّة؛ حيثُ كانت المعارك شبه يومية، والقتال يكاد لا يتوقَّف، ممَّا اقتضى ظُهُور نُظُم وتقاليد حربية عالية المُستوى، فكانت هُناك قواعد للارتقاء بالمراتب العسكريَّة، وأصبح العمل العسكري لدى الأيُّوبيِّيْن عملاً احترافياً بشكل كامل، إنْ كان في التدريبات، أو في قيادة المعارك وإدارة الحُرُوب، وبرعوا في تحقيق التعبئة الشاملة، خاصَّة أيَّام السُّلطان صلاح الدِّين، وفيما بعد؛ أثناء حملة دمياط.

وعرف الجيشُ الإسلاميُّ في ذلك العصر نظاماً خاصَّاً في التقنية العسكريَّة لخوض المعارك، فكان هُناك نظام الأطلاب، والطلب هُو كتيبة، لها قائدها، ولها مهمَّات خاصَّة، ومهامّ ضمن بقيَّة الجيش، إضافة إلى وُجُود التقسيم الرئيسي المُتعارف عليه سابقاً، وهُو تقسيم الجيش إلى قلب وميسرة وميمنة، وأتقن القادةُ المُسلمون تنسيقَ التعاون بين هذه الأقسام، والتناغم بينها خلال المعركة. ويبدو أن كلَّ قسم من هذه الأقسام الرئيسة كان ينقسم إلى ميمنة وميسرة، يقول العماد الأصفهاني واصفاً ترتيب جيش السُّلطان صلاح الدِّين قُبيل إحدى المعارك: "رتَّب السُّلطانُ جيشَهُ ميمنة وميسرة وقلباً على ترتيب منازلهم طلباً طلباً، المُظفَّر تقي الدِّين في الميمنة، والعادل في الميسرة، والأفضل في ميمنة القلب، والظافر في ميسرة القلب"[1].

ولكن هذا الترتيب لم يكن دائم التطبيق، فقد تحرَّر القادة الأيُّوبيُّون، خاصَّة قادة الجُيُوش منهم، من هذه القواعد، ورتَّبوا قُوَّاتهم وُفقاً لما تُمليه الظُّرُوف، وخير مثال على ذلك هُو ترتيب الملك الأشرف مُوسى صاحب حمص لجيشه في مُواجهة الهُجُوم الثَّاني للتَّتار على الشَّام، فقد اتَّبع تعبئة غير مُعتادة، أملاها عليه واقع تفوُّق العدوّ العددي، وقُوَّة اندفاع فُرسانه، فقد رتَّب قُوَّاته؛ بحيثُ تتشكَّل من بضعة صُفُوف مُتراصَّة، لا عُمق لها؛ ليُؤمِّن امتداداً على عرض أرض المعركة[2]، ونجحت خُطَّته أيَّما نجاح.

---

1 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 13/ 247.

2 - راجعْ تفاصيل خُطَّة المعركة في: مملكة حمص، مُنذر الحايك، 241.

فنُّ القتال لدى المُسلمين:

استغلَّ المُسلمون امتيازهم بامتلاك سُرعة الحَرَكَة، وخفَّة المُناورة، فسيطرت على خُطَطهم العسكريَّة فكرة المُناورة بشكل واسع، ولذلك لم يكن المُسلمون يتعجَّلون الالتحام بالفرنجة، بل يُبقون قُوَّاتهم بعيدة بعض الشيء، مُحتفظين بحُرِّيَّتهم لاختيار الزَّمان والطريقة المُناسبَيْن للالتحام، ومن ثَمَّ؛ تطوير المعركة، أو الانسحاب إذا لم يكن هُناك مطمع في العدوِّ[1]. وكثيراً ما كانت القُوَّات الأيُوبيَّة تُطبِّق أُسلُوب التقهقر المُضلِّل، فتتراجع مُظهرة الضعف، لإرهاق الفرنجة بالحركة، وإبعادهم عن قواعدهم، وغالباً ما كان يُمارِس هذا التقهقر فرقة صغيرة تكون طُعماً مغرياً لقُوَّة فرنجية كبيرة، فتتبعها، عندها؛ تنقضُّ عليها الكمائن، أو تصدمها قُوَّة الجيش الرئيسة.

وقد أجاد المُسلمون الهجمات السريعة لضرب أطراف جيش العدوِّ لخلخلة ترتيبه، وتوازنه، قبل أن ينقضُّوا عليه. وكان أكثر ما يخافه الفرنجة هُو انقضاض الفِرَق العسكريَّة الإسلاميَّة الخفيفة على قُوَّاتهم أثناء المسير، فتكتيك الفرنجة قائم على رَصِّ التشكيلات، والهُجُوم بقوى مُتساندة. وقد لمس المُسلمون في مُؤخِّرة جُيُوش الفرنجة نُقطة ضعف مُؤثِّرة، فكانت ـ على الدوام ـ مجالاً لهجماتهم؛ حيثُ تتمكَّن فِرَق الفُرسان الإسلاميَّة السريعة من الالتفاف حول الجيش الفرنجي، وضرب مُؤخَّرته المُثقلة بالمعدَّات، والتي تكون في أسوأ حالاتها أثناء المسير.

وفي مُعظم الأحيان كان رُماة السهام في الفِرَق الأيُوبيَّة هُم مَنْ يبدؤون القتال؛ حيثُ يُصلُون العدوَّ بوابلٍ من رشقاتهم؛ لاستفزاز الفرنجة، ودفعهم للهُجُوم، والتخلِّي عن تشكيلاتهم[2]. ولكن السمة التكتيكية التي امتازت بها القُوَّات الأيُوبيَّة هي الرمي من الحَرَكَة بوتيرة عالية جدًّا، فحتَّى أثناء التقهقر كان الفُرسان المُسلمون يقومون بإيتار أقواسهم، ورَمْي قَدْر كبير من السهام بسُرعة كبيرة[3].

وإذا كان الفُرسان الأتراك هُم مَن ابتدع الرمي من الحَرَكَة بشكل فعَّال[4]، فإن القُوَّات الأيُوبيَّة قد طبَّقتْهُ بإتقان كبير[5]، وصحيح أن سهام المُسلمين كانت خفيفة، قليلة المدى، قليلة

1 - فنُّ الحَرْب، سميل، 140.
2 - فنُّ الحَرْب، سميل، 139.
3 - كتاب البُلدان، ابن الفقيه، 137.
4 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، 88.
5 - راجعْ بحث الاستراتيجية العسكريَّة عند المُسلمين في العصر الأيُوبي:
(Carole Hillenbrand, The Crusades Islamic Perspectives, P:511)

الفاعلية، لكنَّ الكثافة كانت تُعوِّض كُلَّ ذلك، كذلك فإن غزارة الرمي كانت تُربك مُقاتلي الفرنجة، فقد لا تخترق النبالُ دُرُوعَهُم، لكنَّها تعلق بها، وتُسبِّب لهم توتُّراً نفسياً، إضافة إلى فاعليَّتها في جرح وقَتْل الخُيُول[1]، وهي مُصيبة كُبْرَى للفارس الفرنجي. وبعد كُلِّ هذه المُناورات والرمي والمُناوشات تحتاج هزيمة العدوِّ - في النِّهاية - للالتحام معه، عندها - فقط - يتنكَّب الفارس المُسلم قوسَهُ، ويُشهر سيفه، أو يُشرع رمحه، وينقضّ على الفرنجة[2].

وبشكل عامٍّ؛ نستطيع أن نقول إن السمة المسيطرة في التكتيك الأيُّوبي كانت الهُجُوم المُتحرِّك في الأرض المكشوفة، أو الدفاع المُتحرِّك وُفقاً للحالة الراهنة. أمَّا الدفاعات الثابتة والقلاع؛ فكانت من نقاط الضعف لدى المُسلمين في العصر الأيُّوبي، وخاصَّة تلك التي تُطلُّ على السواحل مُباشرة، لذلك كانت خُطَطهم الدفاعية عنها بهَدْمها، وبعثرة حجارتها.

يصف جوانفيل خُطط المُسلمين القتالية عندما قاموا بالقتال ضدَّ قُوَّات الملك الفرنسي لويس التَّاسع بعد احتلاله دمياط، يقول: "أنشب المُسلمون القتال مع كُونت دي أنجو، لأنَّه كان في طليعة جيشنا، وُفق طريقة اللعب بالشطرنج؛ حيثُ أرسلوا - أوَّلاً - رجالتهم نحو الأمام لقتاله، وبعثوا - أيضاً - الذين قذفوا النار الإغريقية نحو عساكره، ثُمَّ ضغط المُسلمون جميعاً من خياله ورجاله بشدَّة مُتناهية على عساكرنا إلى حَدِّ أن الكُونت قد قُهر تماماً"[3]. ولذلك يُمكن القول إن المُسلمين في العصر الأيُّوبي قد تمكَّنوا من خَلْق جُيُوش كانت الأُولى بتنظيمها، وتدريبها، "فهي من رجال مِهْنتهم الوحيدة هي الحَرْب"[4]، فقد كانت أعداد كبيرة من قوام جُيُوش صلاح الدِّين - كما في عهد نُور الدِّين - من مُقاتلين مُحترفين أتراكاً وأكراد[5].

---

1 - فنُّ الحَرْب، سميل، 137، وكتاب البُلدان، الهمذاني، 138.
2 - فنُّ الحَرْب، سميل، 139.
3 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زكَّار، 35 / 106.
4 - الحُرُوب الصَّليبيَّة وتأثيرها، سوريال عطية، 148.
Carole Hillenbrand, The Crusades Islamic Perspectives, P:444 - 5

ب. فنُّ القتال لدى الفرنجة:

كانت أهمّ سمات تكتيك الحَرْب عند فرنجة الشَّرْق هُو تجنُّب خوض المعارك الكُبْرَى، وانتظار تفرُّق جيش المُسلمين الموسمي. وكانت قُوَّات الطوائف الرُّهبانية المُقاتلة تكاد تكون الجيش العامل الوحيد، والجاهز دوماً[1]، بالإضافة إلى شجاعتهم وتمرُّسهم بالقتال[2]، ولأنَّهم كانوا فُرساناً يُقاتلون بكامل عدَّتهم وهُم مُثقلون بالحديد، فغدوا عرضة للسعات فُرسان المُسلمين الخفاف، لـذلك لجؤوا لتدبيرَيْن احترازيَّيْن: فقد أوجدوا فرقة التركبول، وهي من الفُرسان الخفيفة، واعتمدوا ـ بشكل مُتزايد ـ على المُشاة لحماية الفُرسان[3].

وتعلَّم الفرنجة في الشَّرْق من تجاربهم دُرُوساً في فنِّ القتال، دفعوا ثمنها من دمائهم، ومنها ألا يبتعدوا كثيراً عن قواعدهم، ولا عن مصادر الماء، ولا أن يُواصلوا المُطاردة لجيش مُنسحب، وعدم الانتشار بحثاً عن الغنائم، وأن عليهم المُحافظة على كُتلة الجيش وحدة مُتماسكة[4]، فطالما سعى المُسلمون لفصل وحدات الجيش الفرنجي في المعركة، لمُحاصرتها كمجموعات، وإبادتها، أو أَسْرها.

كما اعتمد الفرنج على القلاع كملاذ أمن، في ظلِّ وُجُود رعية غير موثوقة، فطوَّروا فنَّ البناء العسكري، وأشادوا مُنشآت عسكريَّة غاية في الفاعلية والإتقان[5]. وطالما شهد المُسلمون ببسالة وشجاعة الفرنج، فلم يبخسوهم حقَّهم، ومنهم ابن شدَّاد، الذي وصف قتال الفرنج أثناء حصار السُّلطان صلاح الدِّين ليافا، فقال: "أمر السُّلطانُ الناسَ، فزحفوا، وضايقوا القوم مُضايقة عظيمة، فلله درّهم من رجال أقيال، ما أشدّهم وأعظم بأسهم، فإنَّه مع هذا كُلِّه لم يُغلقوا لها باباً، ولم يزالوا يُقاتلون خارج الأبواب أعظم قتال"[6].

---

1 - سبع معارك، داهموس، 116.
2 - كانت الطوائف الرُّهبانية تتكوّن من أشرس مُقاتلي الفرنجة، ولذلك أطلق المُسلمون على الدَّاويّة اسم: جمرة الفرنجة.
3 - سبع معارك، داهموس، 118.
4 - سبع معارك، داهموس، 120.
5 - فنُّ الحَرْب، سميل، 111.
6 - النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، 222.

وبالنتيجة؛ نتبيّن أنّه كان هُناك مدرستان عسكريّتان مُتباينتان تتحاربان طوال العصر الأيُّوبي، وهُما:

المدرسة العسكريَّة الإسلاميَّة:

وتُركِّز على ابتداء المعركة بالرَّشْق الكثيف للنِّبال، ثُمَّ الطعن بالرماح، والرمي من الحَرَكَة، وإنْ لاحت فُرصة مُواتية، فالالتحام بالسُّيُوف، والضرب بالدبابيس، وإلاَّ؛ فالفَرّ؛ لسَحْب قُوَّات العدوّ، وخلخلتها، ثُمَّ الكَرّ عليها بخفَّة. مع تميُّزهم باستخدام سلاح النفط كقُوَّة حارقة، واستخدام المجانيق كقُوَّة تدميرية، كُلُّ ذلك ضمن حَرَكَة واسعة خفيفة وسريعة.

المدرسة العسكريَّة الفرنجيَّة:

امتازت بوُجُود سلاح الفُرسان الثقيلة كقُوَّة كُبْرَى في الميدان، واعتمدت قواها الرئيسة على دُرُوع فُولاذية، وأسلحة كبيرة قويَّة، وأقواس ونبال قويَّة وبعيدة المدى، كذلك ركَّز الفرنجة على قُوَّة التحصينات وتعدُّد القلاع، فالاحتماء خلف الأسوار ـ وخاصَّة في المُدُن ـ جنَّبهم مخاطر كثيرة.

ولكنْ؛ لا يُمكن لأحد أن ينفي أنَّه ـ في نهاية العصر الأيُّوبي ـ كان هُناك كثير من التأثيرات الحَرْبيَّة المُتبادلة بين المدرستَيْن.

المبحث السَّادس:

القلاع والحصُون

قبيل قُدُوم الفرنج نحو الساحل الشَّامي وفلسطين كانت القلاع وأسوار المُدُن تكاد تكون بلا فعَّالية عسكريَّة حقيقيَّة، ولم تُوجد قلاع إسلامية قويَّة إلاَّ في مناطق الثُّغُور في شمال بلاد الشَّام، وهذا ما سهَّل - جُزئياً - عملية استيلاء فرنجة الحملة الأُولى على الساحل والقُدْس.

القلاع والتحصينات الفرنجيَّة:

سُرعان ما قام الفرنجة بتحصين المُدُن التي احتلُّوها، فبنوا حولها الأسوار، وعليها الأبراج، وأقاموا القلاعَ والحُصُونَ في المناطق الاستراتيجية للسيطرة على أطراف البلاد المُحتلَّة، والتحكُّم بطُرُق التجارة والمُواصلات وإدارة الأراضي الزراعية، فأمَّنتْ لهم هذه القلاعُ استقلالَ البلاد اقتصادياً، وكانت - بالوقت نفسه - أمكنة آمنة، يتحصَّنون بها عند الهجمات المُفاجئة ضدَّهم، ويُعيقون بها حَرَكَة الجُيُوش الغازية لمناطقهم.

حقَّق الفرنجُ تقدُّماً هائلاً في مجال التحصينات، وفي صناعة منجنيقات الحصار، بعد استقرارهم في الشَّرْق[1]. ولكنْ؛ لقلَّة أعداد الفرنجة، كان الدفاع عن المعاقل يستنفذ مُعظم قُوَّاتهم البرِّيَّة، فإذا أرادوا دفع جيش إلى الميدان، فكان عليهم المُخاطرة بتعريض حُصُونهم ومُدُنهم إلى الخطر، لنَقْص المُدافعين عنها[2]. وترسَّخت لدى الفرنجة في الشَّرْق قيَم عسكريَّة، تعتمد على فكرة أن الأمن لا يتحقَّق إلاَّ وراء الحُصُون المنيعة، واعتمدت طوائف الرُّهبان المُقاتلين على هذه الفكرة في أواخر أيَّام الفرنج في الشَّام اعتماداً كبيراً، لكنْ - في النِّهاية - سقطت هذه الفكرة بتهاوي هذه الحُصُون واحداً بعد آخر بيد المُسلمين.

تركَّزت قُوَّات الدَّاويَة والاسبتار في مجموعة قلاع وحُصُون على التُّخُوم مع المُسلمين. وتركَّزت قُوَّات الاسبتاريَّة في قلعة ساحلية هي قلعة المرقب، وقلعة الحصن الدّاخليَّة، وهي

---

1 - كلود كاهن، الشَّرْق والغَرْب، 89.

2 - فنُّ الحَرْب، سميل، 171.

من القلاع الضخمة؛ حيثُ كانت تتَّسع لألفَيْن مـن الجُنُـود. أمَّـا الدَّاويَـة؛ فقـد تواجـدوا في قلعـة طرطوس على الساحل، وفي الداخل كان لهم بُرج صافيتا. وقد زُرعَت المنطقـة السَّـاحليَّة بالحُـصُون، حتَّى لا تكاد تخلو قمَّة استراتيجية من قلعة، أو حصن، أو بُرج، وقد أحصى الإدريسي ـ أثناء تجواله في ساحل الشَّام ـ أكثر من ستِّين حصناً ما بين بيروت واللاذقية[1]. وهُنا؛ يجب أن لا ننسى أنَّـه بمُقابـل قلاع الاسبتاريَّة والدَّاويَة كانت تربض قلاع الإسماعيليَّة، وكأن الإسماعيليَّة ـ بشكل، أو بـآخر، ومـع كُلِّ التشابهات والفُرُوقات بينهم، وبين الرُّهبان المُقاتلين لدى الفرنج ـ وجدت قلاعهم لتُواجه بندية قلاع الدَّاويَة والاسبتاريَّة[2].

القلاع والتحصينات الأيُّوبيَّة:

انقسم الاهتمام الأيُّوبي بالتحصينات إلى قسمَيْن مُتناقضَيْن:

بناء التحصينات والقلاع:

كان عهد صلاح الدِّين كُلّه حُرُوباً لتثبيت دولته أوَّلاً، ومن ثَمَّ؛ مُواجهة الفرنجة، الذين كانوا شُغله الشاغل، لذلك كان بناء التحصينات والاهتمام بها قليلاً في عهده، وكان مـن أهـمِّ مـا جـرى في هذا الشأن هُو أمر صلاح الدِّين، الذي أصدره إلى نائبه في القاهرة الأمير قراقوش؛ لبناء سُور شـامل، يضمُّ القاهرة والمدينة القديمة مصر، إضافة إلى ترميمه لكُلِّ القلاع وأسوار المُدُن، التي استولى عليهـا من الفرنج.

ولكنْ؛ ما إن استقرَّ الملك العادل في مُلك دمشق حتَّى نقض قلعتها القديمة، وكانـت حـصناً سلجوقيّاً بسيط[3]، وأقام قلعة دمشق، التي لا تزال كثير من مبانيهـا وأسـوارها صـامدة حتَّـى الآن، وربَّما لتأكيد سلطنته على مُلُوك بني أيُّوب، أو لحاجته فعلاً لهم، طلـب مـن كُـلِّ ملـك مـن مُلُـوكهم إنجاز بُرج من أبراجها[4].

---

1 - نُزهة المُشتاق، الإدريسي، 1/ 414، ـ تُوفِّي الإدريسي عام 560 هـ1165م.

2 - يَعقد أجفان الصغير مُقارنة وافية بين قلاع الإسماعيليَّة وقلاع الاسبتاريَّة والدَّاويَة. (القلاع في فترة الحُرُوب الصَّليبيَّة، أجفان الصغير، رسالة ماجستير، 79).

3 - عن قلعة دمشق السّلجوقية، راجعْ: في التاريخ الشَّامي، شاكر مُصطفى، 1 / 109.

4 - المنصُوري، ابن نظيف، 55، وراجعْ نصَّ قلعـة دمـشق في الملاحـق ـ وحـول بنـاء القلعـة الأيُّوبيَّـة راجـعْ كتـاب: The Citadel of Damascus, Hazar Omran & George Dabboura

وبشكل عامّ؛ فإن الباحث لا يجد أيّاً من مُلوك بني أيّوب لم يُحصّن، أو يُرمّم في مُدُنه وقلاعه، ورُبّما كان من أشهر أعمالهم ما قام به الملك المُجاهد صاحب حمص، فقد حصّن أسوار المدينة، وعمّق خندقها، وزاد في ارتفاع القلعة، وحصّنها[1]. كما بنى الملكُ المُجاهدُ القلاعَ الضخمةَ في المناطق الرئيسية التي يُسيطر عليها، فقد استُحدثت قلعة على جبل يُشرف على تدمر[2]، وكذلك هَدَمَ القلعةَ الصغيرةَ القديمةَ التي كانت في الرحبة، وبنى مكانها قلعة كبيرة، تُشرف على وادي الفُرات[3]، وعندما ضمَّ سلمية إلى مملكته، قام ببناء قلعة على جبل قريب منها، يُشرف عليها، هي قلعة شميميس[4]. وكذلك قام الملك المنصور صاحب حماة بناء قلعة في المعرَّة، وحصَّن قلعة بارين، وقوّى أسوار حماة، وحُصُونها[5].

وبنى الملك المُعظَّم قلعة هائلة على جبل الطور المُطلّ على عكّا[6]، لمُراقبتها والتصدّي لكُلّ مَنْ يخرج منها. وعندما تولّى الملكُ الصّالح أيّوبُ السّلطنة في مصر بنى قلعته المشهورة على النيل، وجعلها مقرّاً مَلكياً له، ولحَرَسه، ومماليكه، وأَوْقَفَ الأوقافَ لحفْظ سُور القاهرة، والقلعة[7]، كذلك رمّم أسوار القُدْس، وأمر أن يُصرَف ما يُجبى من القُدْس من ضرائب على عمارة سُورها[8].

وفي الحقيقة؛ لا نجد مَنْ لم يهتمّ بالتحصينات والقلاع من مُلوك بني أيُّوب[9]، وذلك للطابع العسكري الذي ميَّزهم، وميَّز حُكْمهم بالكامل، فكانت القلاع لإقامة المُلُوك، ففيها يشعرون بالأمان، خاصَّة من عساكرهم، وفيها يكنزون أموالهم لوقت الحاجة[10].

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 122 ـ 137.

2 - المنصُوري، ابن نظيف، 221.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 55.

4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 604، والمنصُوري، ابن نظيف، 221.

5 - يقول ابن نظيف: "وبالغ غاية المُبالغة في الحصانة". (المنصُوري، 252).

6 - ذيل أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 20/ 136.

7 - قوانين الدواوين، ابن مماتي، 341.

8 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 359.

9 - راجعْ بحث القلاع الإسلاميّة في العصر الأيُّوبي، مع صُور ومُخطّطات وافية لها:
Carole Hillenbrand, The Crusades Islamic Perspectives, P.P:467 – 503

10 - راجعْ عن الحُصُون والقلاع ما ورد في كتاب: الحِيَل في الحُرُوب وفتح المدائن وحفْظ الدُّرُوب، مُحمّد بن منكلي العلمي.

هَدْمُ الحُصُون، وإزالة الأسوار:

بمُقابل كُلِّ ما قام به الأيُّوبيُّون، من تحصين وترميم وبناء للقلاع والأسوار، نجد أنَّهم قد اختطُّوا خُطَّة لا سابق لها، فعندما كانوا يخشون على حصن، أو قلعة، أو حتَّى مدينة، مهما عَظُمَتْ، كانوا يهدمونها، أو يُزيلون أسوارها، وذلك عند شُعُورهم بالعجز عن الدفاع عنها، وحمايتها بالقُوَّة العسكريَّة. رُبَّما كان هذا العمل جُزءاً من خُطَّة استراتيجية كانت تُطبَّق في حُرُوب تلك الأيَّام، وهي خُطَّة الأرض المحروقة، فكُلُّ الأطراف كانت تُدمِّر المُدُنَ، وتقطع الأشجارَ، وترعى الزُّرُوعَ في أراضي العدوِّ، ولكنْ؛ لا نجد إلاَّ الأيُّوبيِّيْن يُدمِّرون مُدُناً وحُصُوناً يُسيطرون عليها، حتَّى لا يكون للعدوِّ فيها مَطْمَع، دُون أن يُجرِّبوا الدفاع عنها. فقد كان الأيُّوبيُّون يُفضِّلون الدفاع من الحَرَكَة الواسعة، ويخافون الحصار، وقد طبَّقوا هذه الخُطَّة مُنْذُ بدايات عهد الدولة الأيُّوبيَّة، فالنَّاصر صلاح الدِّين عندما فتح عسقلان أشار عليه الأمير سُلَيْمان بن جندر، وهُو أحد خاصَّته، "بخراب عسقلان مصلحة للمُسلمين"[1]، ورُبَّما لم يُدمِّر صلاح الدِّين عسقلان لوُجُود مَنْ يعارض خُطَّة التدمير، واللُّجُوء إلى الدفاع من الحَرَكَة، وكان القاضي الفاضل، قاضي عسكر صلاح الدِّين، ومُستشاره، واحداً منهم، فهُو يرى أن تدمير الحُصُون هُو أسوأ من الهزيمة بحَدِّ ذاتها، يقول القاضي الفاضل عن تخريب القلاع والأسوار: "المُنهزم ينهزم بالرجال، ونحنُ ننهزم بالبلاد"[2].

وإنْ نجت عسقلان من التدمير أيَّام صلاح الدِّين فإنَّها سُرعان ما أُزيلت من الوُجُود على يد أخيه الملك العادل، وابنه الملك العزيز، فقد أمرا بخراب عسقلان عام **594** هـ **1198**م، يقول المقريزي عن هدم عسقلان: "فتلفت مدينةٌ لا مثيل لها، وثغرٌ لا نظير له في الثُّغُور، وعمارة لا تخلف الأيَّام ما تلف بها، لعجز المُلُوك عن مُمانعة الفرنج بالسلاح، واضطرارهم إلى هدم المُدُن، وتعفية رُسُومها"[3]. وكان الملك العادل عام **593** هـ **1197**م، عند مدينة يافا عندما "أمر بهدمها، فرُميت حجارتها في البحر في مينائها"[4]. وبالمُقابل؛ عندما استولى الفرنج على بيروت، في العام نفسه، أعادوا

---

1 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 113.
2 - الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 19/ 304.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 253.
4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 10.

تحصين القلعة، ورمّوا الأسوار، وجعلوها غاية في المناعة. فهل هي استراتيجية مُعاكسة لاستراتيجية إزالة الحُصُون الأيُّوبيَّة؟

في الواقع؛ كان كُلٌّ من الفرنج والأيُّوبيين يملك مُنطلقات في التخطيط الاستراتيجي للصراع ضدَّ الآخر تنطلق من إمكانات مُتاحة، فالفرنج يمتلكون السيطرة المُطلقة في البحر بواسطة الأساطيل التي تقوم بالدعم والإمداد والمُشاركة في القتال، ودعم المُدُن الواقعة على السواحل، وذلك بعكس الأيُّوبيِّين، الذين كانوا يُفضِّلون المعارك المكشوفة في الداخل لافتقارهم لدعم أُسطُول قوي، وبالتَّأكيد؛ لو كانت لهم قُوَّة الأساطيل الفرنجيَّة لما قاموا بتخريب أيِّ حصن على الساحل، فبالأساطيل تكتمل حلقة الدفاع عن الثُّغُور البَحْريَّة.

وبعد أَخْذ الفرنج لثغر بيروت تردَّدت الأخبار بأَنَّهم عازمون على مُواصلة التَّحرُّك شمالاً لاحتلال جبلة واللاذقية، وكانتا تتبعان مملكة حلب، فأرسل الملك العادل عام **594** هـ **1198**م، يُعلم الملكَ الظَّاهر صاحبَ حلب بحركتهم، فما كان من الظَّاهر ـ بدل تسيير الجُيُوش والإمدادات إلى الساحل ـ إلاَّ أنْ أرسل "الحجَّارين والزرَّاقين لَهَدْم حصنَيْ جبلة واللاذقية، ولمَّا وصلوا اللاذقية نقبوا القلعة ... وهدموا المدينة، وذهب أهلها"، ولكن الفرنج عادوا من بيروت إلى صُور، فأمر الظَّاهر بإعادة بناء ما انهدم من اللاذقية[1]. ولكن الأمر لم يطلْ كثيراً، ففي عام **600** هـ **1203**م، وصلت الأخبار إلى الظَّاهر بحَرَكَة الفرنج إلى جبلة واللاذقية، "فَسَيَّرَ السُّلطانُ العساكرَ، وأمرهم بخراب جبلة واللاذقية، فلم يكن للفرنج حَرَكَة، وخربت قلعة اللاذقية"[2]. وهكذا لمُجرَّد خبر غير موثوق هُدمت القلاعُ الإسلاميَّة الوحيدةُ المُتبقِّية على ساحل الشَّام، والتي تتمتَّع بموقع استراتيجي هامّ جدّاً للمُسلمين، فهي منفذهم الوحيد إلى البحر، كما أنَّها كانت تقطع الاتِّصال البرِّيَّ المُباشر بين إمارة أنطاكية ومملكة القُدْس في الجنوب.

---

1 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 610.

2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 625.

كانت فكرة هدم الحُصُون تُطبَّق ـ أحياناً ـ لاستراتيجية محلِّيَّة لا علاقة لها بالحَرْب ضدَّ الفرنجة، فعندما قبض الملك المُعظَّم بن العادل على عزّ الدِّين أُسامة، وكان بحُكْمه قلعتَا كوكب وعجلون، قام المُعظَّم بإشارة من والده العادل بتخريب قلعة كوكب[1]، وأبقى على قلعة عجلون[2].

وكان الملك المُعظَّم من أكثر مُلُوك بني أيُّوب هدماً للحُصُون، فهل كان ذلك تهاوناً في الدفاع عنها، علماً أنَّه من شُجعان بني أيُّوب، وأحزمهم، وأقواهم، وصاحب مشروع بناء قلعة الطور؟ أم أنَّه تقدير صحيح منه لميزان القوى، الذي يُبيِّن استحالة الدفاع عنها إذا هاجمها الفرنج؟ وأنَّها ستكون عوناً كبيراً لهم ضدَّ المُسلمين إذا احتلُّوها. وفي الحقيقة؛ لا ندري ما هي الدوافع الحقيقيَّة للملك المُعظَّم في ذلك، ولكنْ؛ لا يخفي على الباحث حرج موقفه العسكري، والهجمة الكُبْرَى للفرنج نحو دمياط، فعندما أمر الملك المُعظَّم بهَدْم حصنَيْ بانياس وتبنين، "وكانت قفلاً للبلاد، وملجأ للعباد، أظهر أن ذلك خوفاً من استيلاء الفرنج"[3]. وفي الواقع؛ كان ذلك عام **615** هـ **1218**م، وهُو عام وفاة أبيه السُّلطان العادل، وهُجُوم الفرنج على مدينة دمياط، واحتلالها. ولكنْ؛ سيكون لهذا العمل نتائجه على الوضع العسكري للفرنج والأيُّوبيين كلَيْهما، ففي عام **625** هـ **1228**م، عندما وصل الإمبراطُور فريدريك الثَّاني إلى فلسطين اجتمع مع أمير جبيل جاي أمبرياكو، وأمير صيدا باليان[4]، وَجَمَعَ فرنجَ عكَّا، وصُور، وبيروت، وسار بهم إلى صيدا، وكانت مُناصفة مع المُسلمين، فاستولوا عليها بدُون أيِّ مُقاومة، وذلك لهَدْم حصن تبنين وغيره من الحُصُون الإسلاميَّة المُجاورة قبل سنوات[5]، وكانت تلك الحُصُون ملجأ حاميات تلك المنطقة، وتُسيطر على التَّحرُّكات العسكريَّة في الساحل المُقابل لها[6]. وبمُقابل تخريب المُسلمين لحُصُونهم كان الفرنج كُلَّما استولوا على

---

1 - قلعة كوكب: تقع فوق الجبل المُطلِّ على مدينة طبرية، وهي قلعة حصينة تُشرف على وادي الأردن، وهي من الفُتُوح الصَّلاحيَّة (مُعجم البُلدان، ياقوت الحموي، مادَّة: كوكب).

2 - قلعة عجلون: تقع فوق جبل عجلون، وتُشرف على وادي الأردن من جهة الشَّرق. (ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 158، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 114 وكَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 175.

3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 217.

4 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، رنسيمان، 3/ 323، ولُبنان من السُّقُوط، تدمري، 225.

5 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 144.

6 - راجعْ: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 477، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 235، و مرآة الزَّمان، ابن الجوزي، 8/ 2/ 597، ونهاية الأرَب، النويري، 29/ 86.

بلدة أو حصن يجعلونه في غاية الحصانة، فعندما استولوا على صيدا، وأزالوا عنها حُكْم المُسلمين حصَّنوا سُورها[1].

يظهر أن هدم الحُصُون وأسوار المُدُن كانت من أسهل الطُّرُق للحُكَّام المُسلمين في حال عجزهم عن حمايتها، بغَضِّ النظر عن التأثير المعنوي الكبير على موقف الناس، والخوف والهلع الذي ستُسبِّبه لهم، والمصائب والنكبات التي ستلي هجرة السُّكَّان. ورُبَّما كان أسوأ ما قاموا به من تهديم هُو تخريب الملك المُعظَّم لسُور مدينة بيت المَقْدس، ففي عام 616 هـ 1219م، بعد سُقُوط دمياط كان المُسلمون جميعاً يعتقدون أن الهُجُوم على مصر غايته وُصُول الفرنجة إلى القُدْس، لذلك "أرسل الملك المُعظَّم عيسى الحجَّارين والنقَّابين إلى القُدْس، وخرب أسواره، وكانت قد حُصِّنت إلى الغاية، فانتقل منه عالم عظيم، وكان ذلك لَمَّا رأى قُوَّة الفرنج، وتغلُّبهم على دمياط، فخشي أن يقصدوا القُدْس، فلا يقدر على مَنْعهم، فخرَّبه"[2]، فاتَّهمه مُعاصروه بالخوف من الفرنج، والعجز عن مُقاومتهم[3]، وهجوه بأشعارهم[4]. فعندما "أخرب المُعظَّم أبراج القُدْس وسُوره كان على أتَمِّ الأحوال من العمارة، وكثرة السُّكَّان"، ومع أن قادة حامية القُدْس، وكان فيها العزيز عُثمان بن السُّلطان العادل، وأُستاذ الدار عزّ الدِّين آيبك، قد حاولوا منع تدمير القُدْس، وقالوا للمُعظَّم: نحنُ نحفظه، وهذا تعهُّد واضح بالدفاع عن القُدْس من قِبَل حاميته، وهُمْ مَنْ يعرف إمكانية الدفاع عنه، لكنَّ المُعظَّم رفض طلب أخيه العزيز عُثمان، وأرسل يقول له: "لو أخذوه لقتلوا كُلَّ مَنْ فيه، وحكموا على دمشق وبلاد الشَّام"[5]. ويُبرِّر ابنُ واصل تدميرَ المُعظَّم أسوار القُدْس بقوله: "خاف المُعظَّم أن تصل من البحر أُمم عظيمة، إذا سمعوا بتمكُّن أصحابهم من مصر، فيقصدون البيت المُقدَّس، وهُو عامر، فيملكونه، ولا يُمكن بعد ذلك استنقاذه منهم"، ولكن ابن واصل يعود ليُناقض تبريره، فيذكر أن تخريب أسوار القُدْس أدَّى إلى هجرة السُّكَّان، واستياء المُسلمين[6].

---

1 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 144.

2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 122.

3 - مرآة الجنان، اليافعي، 4/ 26.

4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 222.

5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 222.

6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 32.

ويبدو أن التخريب أصبح عادة لكُلِّ أولاد السُّلطان العادل من المُلُوك، ففي عام **620** هـ **1223**م، بعد عودة الملك الأشرف بن العادل من دمياط، اتَّفق مع أُمراء حلب "على تخريب قلعة اللاذقية، فأرسلوا عسكراً، وهدموها إلى الأرض"[1]، ممَّا يدلُّ على أنَّه أُعيد بناء قلعة اللاذقية مرَّة أُخرى، أو على الأغلب؛ أنَّها لم تُهدَم بشكل كامل في المرَّة السابقة، ولكنْ؛ هل كان تهديم قلعة اللاذقية ضرورياً؛ خاصَّة بعد نصر دمياط الساحق على الفرنج؟! يُحتمَل أن ذلك كان خوفاً من انتقام بحري فرنجي.

لم تكن استراتيجية تهديم الحُصُون والقلاع وتخريب أسوار المُدُن تنبع خوفاً من الفرنجة وأساطيلهم فقط، بل اتَّبعها المُلُوك الأيُّوبيُّون على جبهات أُخرى، فعلى جبهة سلاجقة الرُّوم؛ قام السُّلطان الكامل عام **630** هـ **1232**م "بهَدْم قلعة الرُّهَا، وبلدها"[2]. وكذلك قلعة السُّويداء، بعد أن عجز عن حمايتها من هجمات علاء الدِّين كَيْقُبَاذ سُلطان سلاجقة الرُّوم[3].

وعندما تعرَّضت مملكة حماة لهُجُوم عساكر حلب، واحتلالهم المعرَّة عام **636** هـ **1238**م، "خاف ملك حماة المُظفَّر أن تخرج بعرين من يده بسبب قلعتها، فتقدَّم بهَدْمها، فهُدِمَتْ إلى الأرض"[4].

لقد كان كُلُّ ذلك الهدم للحُصُون في الشَّام، أمَّا في مصر؛ فلم يهدم الأيُّوبيُّون فيها أيَّ حصن، أو سُور، رُبَّما لقناعتهم بتمكُّنهم من الدفاع عنها، أو رُبَّما لكثافة سُكَّانها، وتعداد رجالها، ومُقاتليها، ولكن الهدم في حُصُون مصر كان على يد المماليك، الذين تربّوا في قُصُور المُلُوك والأُمراء الأيُّوبيِّين، ولابُدَّ أنَّهم شهدوا معهم، أو شاركوا بأنفسهم، تخريب العديد من الحُصُون في الشَّام. ففي عام **648** هـ **1250**م، وبعد انتصار المماليك على حملة الملك لويس، وأَسْره، وتحرير دمياط، دخلوا في صراع على السُّلطة ضدَّ الوريث الأيُّوبي الشرعي سُلطان الشَّام الملك النَّاصر يُوسُف، فخافوا أن يغتنم الفرنجُ فُرصةَ خلافهم معه، ويُعاودوا الكَرَّة على دمياط، فيملكوها، "فاجتمع رأي أُمراء المماليك على خراب دمياط"[5]، وهذا أسهل ما يقومون به للدفاع عنها، وكانوا ـ بذلك ـ تلامذة حقيقيين للأيُّوبيين.

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 132.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 676.
3 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 315.
4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 163.
5 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 8/ 15.

لكنْ؛ للحقيقة، ولذكر كُلِّ جوانب الأمر، فإن مُلُوك بني أيُّوب كانوا إذا شعروا بالاطمئنان العسكري، وبدَّدت الظُّرُوف المُحيطة خوفَهم من امتلاك الآخرين، إنْ كانوا أعداء خارجين، أو داخلين، لما بأيديهم من القلاع والمُدُن، كانوا يميلون إلى عمارة البلاد، وتحصينها، فعندما استتبَّ الأمرُ للملك الصَّالح أيُّوب أَمَرَ - أثناء زيارته إلى القُدْس عام 646 هـ 1248م - "بإعادة بناء سُور القُدْس، الذي هدمه عمُّه الملك المُعظَّم"[1]، ولذا؛ فإنَّنا نعدُّ إعادة تسوير القُدْس هُو مُنتهى الشُّعُور بالقُوَّة والسيطرة التامَّة على البلاد، وابتعاد التهديدات الخارجيَّة، وهذه هي دوافع الملك الصَّالح أيُّوب.

تهديم الحُصُون خلال المعارك:

كان من الطبيعي أن يتحصَّن المُدافعون في قلاع، أو حُصُون، أو خلف أسوار المُدُن، وأن ينقضَّ الجيش الغازي على التحصينات، مُحاولاً هدمها؛ لاختراقها، والوُصُول إلى المُدافعين لقَتْلهم، أو إجبارهم على الاستسلام. فلهذا الغرض تأسَّست في الجُيُوش الأيُّوبيَّة، ولدى أعدائهم بالتَّأكيد، فرَق هندسية مُختصَّة بهدم التحصينات، وكان يُطلَق على فرَق النقَّابين اسم الخراسانية[2]، وكانوا يُباشرون عملهم فور إلقاء الحصار على الحصن، أو المدينة، ويقومون بالحفر تحت بُرج، أو باشورة[3]، ثُمَّ يدعمون سقف النقب بالأخشاب، وعند وُصُولهم للأساسات، "يحشون النقب بالحطب، ويُلقون النار فيه، فينهار البناء"[4].

وكخُطَّة دفاعية كان أهل المدينة أو الحصن عندما يُبدأ نَقْبُ أسوارهم يبنون بطانة للسُّور من الداخل، فإذا انهار السُّور الخارجي، وجد المُهاجمون سُوراً آخر أمامهم[5].

---

1 - النجوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6 / 359.
2 - الخراسانية: مُهندسو نقب الأسوار، (الاعتبار، أُسامة بن مُنقذ، 142)، - ورُبَّما كانت نسبتهم إلى خراسان مُجرَّد اسم لهم، ولم يكونوا - بالضرورة - من خراسان.
3 - الباشورة: مبنى بارز على السُّور، فوق المدخل، أو مُجاور له ليحميه، وهُو من أصل البناء، ويكون للحصن أو السُّور أكثر من باشورة. (قلعة الحصن، طلاس، الجلاد/ 153).
4 - الاعتبار، أُسامة بن مُنقذ، 73.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 184.

تهديم الطبيعة للحُصُون:

كان لعوامل الطبيعة الدور الأهمّ، بعد العمليات العسكريَّة، في انهيار الحُصُون، ممَّا يستدعي دوام الترميم والتدعيم فيها، فالمطر والرياح دائمان، وخاصَّة في سواحل بلاد الشَّام، ومعاقلها الجبلية؛ حيثُ تكثر القلاع والحُصُون. ولكن الظاهرة الطبيعية الأكثر تدميراً كانت ـ ومازالت ـ هي الزلازل، ويبدو أن العصر الأيُّوبي قد شهد عدداً من الزلازل، كان منها الشديد التدمير، وكان منها المُتوسِّط الشدَّة[1]. ورُبَّما كان زلزال عام 597 هـ 1201م، من أشدّها، وقد وصفه عبد اللطيف البغدادي بقوله: "كانت الأرض تسير سيراً، والجبال تمور موراً، وما ظنَّ أحد من الخلق إلاَّ أنَّها زلزلة الساعة"[2]. أمَّا مُقدَّم الدَّاويَة في عكَّا فيليب دي بليسيس ـ **Philip Du Plessis**؛ فقد وصف ما فعلته الزلزلة في بلاد الإفرنج في رسالته إلى أرنولد رئيس أساقفة شيتو **Arnold I Abbot of Chateaux**، فكان برأيه أعنف زلزال مُنْذُ بدء الخليقة، فقد دمَّر عكَّا، وقتل مُعظم سُكَّانها، وحطَّم صُور، وطرابلس، وطرطوس، وقد دمَّر قلعة عرقا بالكامل، وأرسوف، وبُرج صافيتا، ثُمَّ انتشر الطاعون، فمات به مَنْ لم يمت تحت الأنقاض، ومن شدَّة يأس مُقدَّم الدَّاويَة لم يطلب سوى الصلاة[3]. وكذلك مُقدَّم الاسبتاريَّة جفري أوف دونجون– **Geoffrey of Donjon** ، فقد أرسل يشكو حال الفرنج بعد الزلزال إلى سانشو السَّابع ملك نافار ـ **Sancho VII of Navarra** ، ويصف حال الخراب بمناطق الفرنجة بأنَّه: "يحتاج إلى أكثر من جيل لإصلاحه، ويتحدَّث بتفصيل عن دمار معقلَيّ الاسبتاريَّة: حُصن الأكراد، وقلعة المرقب، ويقول إن مَنْ بقي حياً سيُواجه مصير مَنْ قتله الزلزال لعدم وُصُول الإمدادات إليهم"[4].

وهذا يدلُّ على عدم بقاء مَنْ يمدُّ يد المُساعدة لمنكوبي الحُصُون البعيدة عن المُدُن، ولذلك ساد الاعتقاد بأنَّ خسائر الفرنج كانت أكبر بكثير جرَّاء زلزلة عام 597 هـ 1201م، من خسائر المُسلمين، فقد دُمِّرَتْ قلاع الفرنجة وحُصُونهم وأبراجهم، التي كانت عمادهم الأساسي في خُططهم

---

1 - راجعْ كتاب: الزلازل في بلاد الشَّام، عصر الحُرُوب الصَّليبيَّة، مُحمَّد مُؤنس أحمد عوض، 113 ـ 135.

2 - الإفادة والاعتبار، البغدادي، 100.

3 - Tow unpolished letters on the Syrian, Mayer, p. 304

4 - Tow unpolished letters on the Syrian, Mayer, p. 304

الحَرْبيَّة؛ سواء في الدفاع، أم الهُجُوم، وهي ما كان يُعوِّض لهم نقص الرجال، والتواجد في مناطق مُعادية.

ولكنْ؛ يجب أن لا نُعطي الأمرَ أكبرَ من حجمه؛ إذْ سُرعان ما قامت طوائف الرُّهبان المُقاتلين من داوية واسبتارية بعملية إعادة الترميم والبناء للحُصُون والقلاع التي كانت بحُكْمهم، وساعدهم على ذلك ثرواتهم الواسعة، فأصبحت حُصُونهم أقوى، وقلاعهم أكبر.

أمّا إذا سألنا لماذا لم يغتنم المُسلمون فُرصةَ الدمار ونَقْص الرجال لدى الفرنج، ويقوموا بهُجُوم يكتسحون فيه الفرنج نهائيّاً من الساحل، فالجواب لن يكون بسبب انشغالهم بترميم حُصُونهم ومُدُنهم، فدمارها كان جزئياً، وقُوَّة جُيُوشهم الرئيسية كانت شبه كاملة، فدمار مُدُن الشَّام الإسلاميَّة كان يسيراً بالنِّسبَة لما جرى في الساحل وُفقاً لروايات المُؤرِّخين[1]، ولذلك نرى أنَّه قد يكون السبب الأهمّ لعدم اغتنامهم الفُرصة أنَّها صادفت صراع أبناء السُّلطان صلاح الدِّين ضدَّ عمِّهم العادل، فقد عدَّ مُلُوك الأيُّوبيَّة أن هذه الزلزلة هبة من الله لإلهاء الفرنج عنهم.

---

1 - راجعْ: الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 170، والمنصُوري، ابن نظيف، 25، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 174، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 29، ومُختصر الدُّول، ابن العبري، 208، والصلصلة عن وصف الزلزلة، السُّيُوطي، 198 ـ 195، ـ أكَّد المُؤرِّخون المُسلمون بأنَّ الدمار في الديار الإسلاميَّة اقتصر على بعض أجزاء الأبنية، والقتلى يُعدُّون على أصابع اليد في كُلِّ بلد إسلامي أصابته، ولكنَّهم أدركوا حجم الدمار الهائل لدى الفرنج، فقد ذكروا أن قُوَّة الزلزلة كانت على الساحل.

المبحث السَّابع:

الأُسطُول والحَرْب البَحْرِيَّة

مُنذُ أن وصل العَرَب المُسلمون إلى سواحل بحر الشَّام أدركوا إن عليهم للاحتفاظ بها أن يتقنوا الدفاع والهُجُوم في البحر، فللدفاع أقاموا الرباطات في الثُّغُور البَحْرِيَّة، وقد امتلأت بالمُجاهدين، يتحدَّث المَقْدسي المُتوفَّى عام 380 هـ عن واحد من هذه الرباطات كان في قرية كفر سلام من قُرى قيسارية جنوب الساحل الشَّامي، يقول: "لها رباطات على البحر، ويقع فيها النفير، وتُقلع إليها شلنديات الرُّوم، وشوانيهم . . وقد ضجَّ بالنفير لَمَّا تراءت مراكبهم، فإنْ كان ليل أُوقدت منارة ذلك الرباط، وإنْ كان نهار دخَّنوا، ثُمَّ تُوقد المنارة التي تليها، ثُمَّ الأُخرى، فلا تكون ساعة، إلاَّ وقد أنفر مَنْ بالقصبة، وضُرب الطبل على المنارة، ونُودي إلى ذلك الرباط، وخرج الناس بالسلاح، والقُوَّة"[1].

أمَّا للهُجُوم؛ فسُرعان ما برع العَرَب في الحَرْب البَحْرِيَّة، فأقاموا دُور بناء السُّفُن، وشكَّلوا الأساطيل، التي انتشرت على سواحل الشَّام، وسُرعان ما انتصر العَرَب على الأُسطُول البيزنطي، أعرق أساطيل البحر المُتوسِّط، وأقواها، في معركة ذات السواري. ودعم الأُسطُولُ الإسلاميُّ من موانئ الشَّام حملةَ الأمويين الثَّانية على القسطنطينيَّة بآلاف القطَع البَحْرِيَّة.

ولكنْ؛ بعد انقسام الدولة العَرَبيَّة الإسلاميَّة، وتشرذم دُولها، أصاب الوهنُ الأُسطُولَ الشَّامي، حتَّى كاد أن يتلاشى، وانتقل مركز ثقل البَحْرِيَّة الإسلاميَّة من سواحل الشَّام إلى سواحل مصر، بعد سيطرة الفاطميين عليها، فقد أحضروا معهم تُراثهم البحري من المغرب، فاهتمُّوا بالأساطيل، وأقاموا في مصر قُرب عاصمتهم القاهرة داراً لصناعة السُّفُن، وكان يُشرف عليها ديوان العمائر التابع لديوان الجهاد، يقول ابن الطُّوَيْر: "كان من أهمِّ أُمُورهم احتفالهم بالأساطيل ومُواصلة إنشاء المراكب بمصر والإسكندرية ودمياط من الشواني الحَرْبيَّة والشلنديات والمُسطَّحات، وإنفاذها إلى بلاد الساحل، وكانت جريدة قواد الأُسطُول تزيد عن خمسة آلاف مُدوَّنة، منهم عشرة أعيان يُقال

---

1 - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، المَقْدسي، 177.

لهم القواد تصل جامكية كُلّ منهم إلى عشرين دينار، ولهم إقطاعات تُعرَف بأبواب الغُزاة. ويُقدَّم على الأُسطُول أمير كبير من أعيان الأُمراء، وأقواهم"[1].

لم يكتف صلاح الدِّين بحراسة الشواطئ البَحْريَّة، بل أَوْلَى الأُسطُول كبير عناية، وأفرد له ديواناً عُرف بديوان الأُسطُول، وعيَّن له الإقطاعات، وحدَّد له الخراج، وأَوْقَفَ على الأُسطُول أشجار السنط في مصر، وأَوْكَلَ بديوان الأُسطُول أخيه الملك العادل، الذي أقام في مُباشرته وعمالته صفي الدِّين بن شكر[2]، ذلك لشدَّة اهتمام صلاح الدِّين بالأُسطُول، ولإدراكه أن سلامة دولته ورخائها يعتمدان على قُوَّتها البَحْريَّة[3].

عندما شنَّ أمير الكَرَك هُجُومه البحري من ميناء إيله عبر البحر الأحمر نحو المدينة المُنوَّرة، اضطرَّ السُّلطان صلاح الدِّين إلى شحن أُسطُول في البحر الأحمر، مُستعيناً بنجدة المغاربة البحريين المُتواجدين في مصر وقتها[4]؛ حيثُ تمكَّن أمير الأُسطُول لُؤلُؤ من القضاء على حملة الفرنجة، وأسرهم. ولأن ساحل الشَّام وموانيه التي تمَّ تحريرها من الاحتلال الفرنجي لم يعمرها السُّلطان، بسبب ضغط الأساطيل الفرنجيَّة، وبالتَّالي؛ ظلَّت الدولة الأيُّوبيَّة تفقد دعم الأُسطُول البحري قُرب مناطق العمليات الحَرْبيَّة في الشَّام. واقتصر الأمر في الموانئ المُحرَّرة على الدفاع عنها من البرِّ.

لكنَّ الأمر في مصر، التي تتبع ـ أيضاً ـ للدولة الأيُّوبيَّة، كان مُختلفاً، فعندما بدأ الفرنج حصارهم الشهير لعكَّا استدعى السُّلطان صلاح الدِّين أُسطُول مصر، وكانت عدَّته خمسين شينياً، ولَمَّا وصل أمام عكَّا، وكان بقيادة أمير البحر حُسام الدِّين لُؤلُؤ صاحب مأثرة البحر الأحمر، هاجم أُسطُول الفرنجة، وشتَّته، وغنم منه شيني[5] عظيم[6]، ويبدو أن هذه الهجمة للأُسطُول المصري كانت في نهاية الخريف؛ حيثُ تنقطع طُرُق الإمداد البحري من أُورُبا، وتتوقَّف أساطيل الفرنجة عن الحَرَكَة، وتغادر إلى موانيها، ويُؤكِّد ذلك العماد الأصفهاني، بقوله: "وانقطعت طُرُق الفرنج البَحْريَّة،

---

1 - نُزهة المُقلتَيْن، ابن الطُّوَيْر، 95 ـ 96، وصُبح الأعشى، القلقشندي، 7/ 204 + 10/ 212.

2 - الخُطط والآثار، المقريزي، 3/ 12، ـ صفي الدِّين عبد الله بن علي بن شكر، وسيكون وزير العادل في سلطنته.

3 - الشَّرق الأدنى ـ أيُّوبيون، الباز العريني، 188.

4 - الرحلة، ابن جُبَيْر، 35

5 - الشيني: سفينة حربية كبيرة.

6 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زكَّار، 13/ 231.

فاستطالت بها أساطيلنا، فعملت ما شاءت"[1]، ويقول أيضاً: "اغتنم السُّلطانُ هيجانَ البحر، وحُضور مراكب الأُسطُول من مصر، فما زال يُقوِّي عكًّا، فلمَّا سَكَنَ البحرُ، وعادت مراكب الكُفْر، عادت مراكب الفرنج إلى مراسيها، وشدَّت مراكبنا في موانيها"[2]. إنَّها حالة تفوُّق فرنجي بحري واضحة تماماً؛ إذْ لا تخرج السُّفُن الحَرْبيَّة الأيُّوبيَّة إلاَّ في حال مُغادرة الأساطيل الفرنجيَّة أيَّام هيجان البحر، لذلك كان المُلُوك الأيُّوبيُّون المُتعاقبون يُدركُون هذا التفوُّق، ولا ندري هل عملوا على تلافيه، وعجزوا؟ أم أنَّهم اقتنعوا بالتفوُّق الفرنجي البحري، ووضعوا استراتيجياتهم العسكريَّة على أساسه؟! هذا هُو الأغلب، بدليل عدم بذل أيِّ جهد لبناء أساطيل، أو إقامة دُور صناعة بحرية بشكل واسع لقلب ميزان القوى البَحْريَّة في البحر المُتوسِّط. وهذا ما يُفسِّر عدم قيام معارك بَحْريَّة هامَّة في العصر الأيُّوبي، فأساطيلهم البَحْريَّة في ساحل الشَّام هي سُفُن قليلة في بعض الثُّغُور الشَّاميَّة، ولبعض الوقت، تقوم بمهمَّات خاصَّة بسيطة، ومُحدَّدة، بينما كانت مصر مركز القُوَّة البَحْريَّة الأيُّوبيَّة؛ حيثُ تلجأ السُّفُن إلى النِّيل في حال الخطر، إضافة لوُجُود بقايا قواعد لبناء السُّفُن مُنْذُ العصر الفاطمي، وخاصَّة في دمياط، والإسكندرية.

أدرك السُّلطان صلاح الدِّين نقطة ضعفه في البحر، فأرسل يطلب من سُلطان المغرب دعم أُسطُوله القوي في الجهاد ضدَّ الفرنجة، ولكنَّه تجاهل هذا الطلب[3]. وبسبب خسارة الدولة الأيُّوبيَّة لقواعد الأُسطُول في موانئ الشَّام[4]، ولضعف ونقص الخبرات الفنيَّة وقلَّة وُجُود الأخشاب المُناسبة في بلادها، كُلُّ ذلك لم يكن ليسمح لصلاح الدِّين، ولا لخُلفائه بالدُّخُول في سباق تسلُّح بحري مع الفرنج[5]. لكنْ؛ مع كُلِّ هذا كان أُسطُول مصر يتحرَّك، ويُهاجم كُلَّما سنحت له الفُرصة، فعندما تولَّى العزيز بن صلاح الدِّين حُكْم مصر، بعد وفاة والده، جهَّز أُسطُول النيل من مصر ودمياط، وأُسطُول الإسكندرية، وَسَيَّرَهُ لغزو بلاد الفرنج، فاستولوا على عدَّة سُفُن فرنجية، وأحرقوا لهم

---

1 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زكَّار، 13/ 231.

2 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زكَّار، 13/ 244.

3 - الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زكَّار، 19/ 288.

4 - البَحْريَّة الإسلاميَّة، سيِّد عبد العزيز سالم، 292.

5 - راجعْ كتاب: الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، 176.

مركباً كبيراً[1]. وستكون آخر المُحاولات لتشكيل أُسطُول أيُّوبي مُقاتل في البحر تلك التي جرت أيَّام السُّلطان صلاح الدِّين[2]، وسيتخلَّى خُلفاؤه عن هذه المُحاولات.

عندما تولَّى الملك العادل السَّلطنة في دولة بني أيُّوب بعد أخيه صلاح الدِّين، كان له اهتمام خاصٌّ بالأُسطُول، فحاول تجديد الأُسطُول المصري، ودعمه، حتَّى تمكَّن من القيام بغزوات بعيدة بمواعيد موسمية من كُلِّ عام، ففي عام **593** هـ **1197**م، خرج أُسطُول مصر للغزو، "وعاد إلى القاهرة غانماً سبعين فارساً"، كان فيهم أمير، أو قائد كبير، "فبُذل في فدائه ثمانية آلاف دينار"[3].

وأعاد أُسطُول مصر الكرَّة في العام التالي **594** هـ **1198**م، فوصل حتَّى ميناء إياس، وضرب مملكة الأرمن، وعاد إلى مصر ومعه منهم أربعمائة وخمسون أسيراً[4]. وظلَّ اهتمام الملك العادل بالأُسطُول وغزواته السنوية حتَّى تعرَّض أُسطُول مصر لكارثة طبيعية كُبْرَى دمَّرتْهُ، ففي عام **602** هـ **1205**م، جهَّز العادل في ميناء الإسكندرية خمسة عشر شينياً، وشحنها بالرجال والعتاد، وَسَيَّرَهُم للغزو، وبينما هُم قبالة شواطئ إمارة طرابلس الفرنجيَّة ضربتْهُم عاصفة بَحْريَّة، رمت بهم على الساحل، فتكسَّرت المراكب، وهلك عدد كبير من البحَّارة والجُنُود، "ما بين أسرى، وغرقى، ولم يسلم من الشواني غير ستَّة"[5]. ورُبَّما كانت هذه الكارثة البَحْريَّة هي سبب عدم سماعنا عن أيِّ غزوة بَحْريَّة، أو نشاط للأُسطُول الأيُّوبي في البحر المُتوسِّط حتَّى غزوة دمياط.

المعارك البَحْريَّة:

ففي عام **615** هـ **1218**م، بعد وُصُول الحملة الفرنجيَّة بحراً إلى دمياط، وإلقاء الأساطيل مراسيها قبالتها، تحرَّك الملك الكامل نائب أبيه في مصر بجُيُوشه برَّاً، وأمر بتحريك أُسطُول النيل نحو دمياط[6]. ونستطيع أن نقول إن معارك هذه الحملة كان العامل الحاسم فيها هُو الأُسطُول الأيُّوبي،

---

1 - البُستان الجامع، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 11/ 344.

2 - The Crusades, Carole Hillenbrand, p. 570.

3 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 11.

4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 18.

5 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 159.

6 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 309.

وقد أثبتت البَحْريَّة الأيُّوبيَّة وُجُودها ـ من جديد ـ أمام أقوى أساطيل العصر، وأمنع سُفُنه[1]، فعندما جنحت مرمة[2]، فرنجية تجاه ساحل البحر الذي فيه المُسلمون، استولوا عليها، "فإذ هي مُصفَّحة بالحديد، لا تعمل فيها النار، ومساحتها خمسمائة ذراع، وفيها من المسامير ما زنة الواحد منها خمسة وعشرون رطلاً"[3].

ولمعرفة الأيُّوبيِّيْن بأنَّ النيل هُو مدخل مفتوح أمام الأساطيل الفرنجيَّة، فقد سدُّوا منفذه أمام دمياط بسلسلة مشدودة بين بُرجَيْن، قاتل الفرنج عليها، حتَّى ملكوا الأبراج، وقطعوا السلسلة، فلجأ الملك الكامل إلى تغريق عدَّة مراكب في النيل لمَنْع تقدُّمهم البَحْري، فاحتالوا على ذلك بحَفْر فرع قديم للنيل، وأجروا الماء فيه، وعبروا جنوباً، ولمَّا تجاوزوا الحاجز المائي، سهل عليهم احتلال دمياط، فانسحب الكامل بقُوَّاته إلى الخلف، وَعَسْكَرَ في المنصُورة، وقدم الأُسطُول، وكان حوالي مائة قطعة.

وكان أمير الأُسطُول بدر الدِّين بن حسُّون، فسارع، وحصر قُوَّات الفرنج بعد تقدُّمهم نحو المنصُورة من الخلف، وقطع عنهم الميرة والإمدادات القادمة من البحر، وانقض الأُسطُول المصري على أساطيل الفرنج، ودارت معارك بَحْريَّة حقيقيَّة، فقد استولى على ستِّ شواني وجلاسة وبطسة[4] للفرنج، أسر فيها ألفَيْن ومائتَيْ رجل، ثُمَّ ظفروا بثلاث قطع بَحْريَّة أُخرى برجالها، وأسلحتها. وهاجم أُسطُول مصر مرمة عظيمة قادمة من البحر، وحولها عدَّة حرَّاقات تحميها، وكُلُّها كانت مشحونة بالميرة والسلاح، فدارت معركة بَحْريَّة هائلة، ظفر ـ في نتيجتها ـ أُسطُول مصر بالمرمة والحراقات[5].

وفي الحقيقة؛ كانت الحَرْب البَحْريَّة في غزوة دمياط الثَّانية أيَّام الملك الكامل هي الحَرْب الأساسية، ومعاركها هي التي فرضت النِّهاية المحتومة للفرنج بالهزيمة.

---

1 - حول أنواع السُّفُن الفرنجيَّة وتسليحها راجعْ: كتاب الأسرار، مارينو سانوتو، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 38/ 156 ـ 157، 160 + 40 / 232.

2 - المرمة: سفينة من أكبر أنواع السُّفُن.

3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 313.

4 - الجلاسة: سفينة نقل جُنُود صغيرة ـ البطسة: سفينة نقل حربية ذات سعة تخزين كبيرة، وكانت من سُفُن البنادقة، وقد اشتُقَّ تعريب اسمها من كلمة: Buzzus (حملة الملك ريتشارد، شاهد عيان، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 31/)50.

5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 944 ـ 451.

وعندما تولّى الملك الصَّالح نجم الدِّين أيُّوب سلطنة مصر بعد أبيه الكامل، وجد أُسطُول البحر الأحمر كافياً ومُناسباً لتجهيز حملة بَحْريَّة نحو اليمن عام 638 هـ 1240م[1].

وفي غزوة دمياط الثَّالثة؛ حيثُ واجه الملك الصَّالح أيُّوب هُجُوم لويس التَّاسع ملك فرنسا بحملته البَحْريَّة على دمياط عام 647 هـ 1249م، حرَّك أيُّوبُ قُوَّاته البرِّيَّة نحو دمياط، وأمر نائبه في القاهرة حُسام الدِّين ابن أبي علي "أن يُجهِّز الشواني من صناعة مصر، فشرع في تجهيزها، وتسييرها شيئاً بعد شيء"[2]، فكانت الشواني المصريَّة ترد بالعدد الكاملة والرجَّالة[3]، ممَّا يدلُّ على وُجُود ترسانة كاملة ومُستعدَّة لتصنيع السُّفُن في القاهرة. وبعد وفاة أيُّوب وحُضُور ابنه المُعظَّم تُورانشاه لتولِّي قيادة المعركة ضدَّ الفرنج، تسلَّلت قطَع الأُسطُول المصري إلى ما وراء سُفُن الفرنجة، ثُمَّ أطبقت عليها من الخلف، وتقدَّم باتِّجاهها أُسطُول دمياط من الأمام، فتمَّ الفتك بها، وأُسر منها أعداد كبيرة، وذهب بحَّارتها بين قَتْلَى، وغرقى. وصحيح أنَّه أعقب ذلك معركة بَحْريَّة خسر فيها المُسلمون عدَّة قطَع، لكنَّهم ثأروا لها بالمعركة الثَّالثة، التي دمَّروا فيها مُعظم ما تبقى للفرنج من أساطيل مُتقدِّمة، فنفدت مُؤن الحملة البرِّيَّة، وقُطع إمدادها، وطمع فيهم المُسلمون، فأخذوهم قَتْلاً وأَسْراً[4].

ومع كُلِّ هذه النجاحات؛ فإنَّنا نتبيَّن أن حال الأُسطُول الأيُّوبي كانت ـ بشكل عامٍّ ـ تسير من سيِّئ إلى أسوأ، يقول المقريزي: "ثُمَّ قلَّ الاهتمام بالأُسطُول، وصار لا يُفكِّر بأمره إلاَّ عند الحاجة إليه. فإذا دعت الحاجة إلى تجهُّزه طُلب له الرجال، وقُبض عليهم من الطُّرُقات، وقُيِّدوا بالسلاسل نهاراً، وسُجنوا في الليل، حتَّى لا يهربوا، فصارت خدمة الأُسطُول عاراً يُسبُّ به الرجال في مصر، وإذا قيل لرجل "يا أُسطُولي" غضب غضباً شديداً، بعدما كان خُدَّام الأُسطُول يُقال لهم المُجاهدون في سبيل الله، والغُزاة في أعداء الله، ويُتبرَّك بدُعائهم للناس"[5].

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 408.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 437.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 439.
4 - الخُطط والآثار، المقريزي، 1/ 221. ـ راجع: العُدوان الصليبي على مصر، جُوزيف نسيم، 191 ـ 192.
5 - الخُطط والآثار، المقريزي، 2/ 174.

غزوات الفرنج البَحْرِيَّة:

كانت الأساطيل الفرنجيَّة كُلَّما وجدت في نفسها قُوَّة، أو لمست ضعفاً من المُسلمين، تقوم بغزوة كبيرة نحو بلد لا ندري كيف كان يتمُّ اختياره، وغالباً بواسطة استطلاع بَحْري مُقنَّع بطابع تجاري، ففي عام 600 هـ 1203م، "توجَّهت عشرون قطعة من أُسطُول الفرنج من عكَّا، ودخلت من فم رشيد إلى قرية فوة بمصر، ونهبوها، وأقاموا بنواحيها يومَيْن، ثُمَّ خرجوا من حيثُ دخلوا غانمين سالمين، ولم يسمع أحد بمثل ذلك مُنْذُ فتح مصر"[1]. يقول صاحب عقد الجُمان إن من قام بهذا الهُجوم هُو صاحب قبرص[2]، ويقول أبو الفداء وابن الأثير: "إن الفرنج أقاموا ينهبون في نواحي فوة خمسة أيَّام"[3]، فأين كان سُلطان بني أيُّوب العادل؟! وأين ابنه ونائبه في مصر الكامل؟! وأين جُيُوش مصر، وأساطيلها؟! يقول ابن الأثير مُعلِّلاً ذلك: "كانت عساكر مصر مُقابلهم بينهم النيل، ليس لهم وُصُول إليهم لأنَّه لم تكن لهم سُفُن"[4]. وهذا ليس بعُذر، فلماذا لم يعبروا بأيِّ واسطة مُتاحة؟ أو يصلوا إلى بلدة فوة من البر التي هي عليه؟!

ولم يكتف الفرنج بالهُجُوم البَحْري على بلاد المُسلمين من ميناء عكَّا وموانئ ساحل الشَّام المُحتلَّة، فقد كانت جزيرة قبرص قاعدة أساطيل الفرنجة، وملجأ قُوَّتهم البَحْرِيَّة بعد عكَّا. فبعد موت السُّلطان صلاح الدِّين واختلاف أبنائه وعمّهم العادل، اغتنم ملك قبرص عموري لوزينيان الفُرصة، وهاجم بيروت بأساطيله، واستولى عليها عام 593 هـ 1197م، بعد هرب حاميتها، التي كانت بقيادة عزّ الدِّين أُسامة، بدُون مُقاومة. وفي عام 607 هـ 1210م، توجَّه إليان القبرصي قائد أُسطُول عكَّا إلى مصر، وأرسى غرب دمياط، وأنزل رجاله إلى البرِّ، وهاجموا قرية بورة الواقعة على النيل، فسبى أهلها، ونهبها، وعاد آخر النهار نحو مراكبه، وأبحر، دُون أن يتمكَّن أحد من اللحاق به[5].

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 95.

2 - من عقد الجُمان، البدر العيني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، مُجلَّد/ 59، أحداث عام 609 هـ.

3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 106، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 198.

4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 198.

5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 149. ـ تمكَّن إليان القبرصي عام 609 هـ، من الاستيلاء على أنطاكية، وشنَّ هُجُوماً على التُّركمان في سهلها، فقتلوه، وحملوا رأسه إلى الملك العادل. (ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 154).

المبحث الثّامن:

أسرى الحرْب

كان الأسرى في عصر الحُرُوب مع الفرنجة على نوعَيْن، فهُم إمَّا عسكريون يُؤسرون في المعارك، أو بعد فَتْح المُدُن والقلاع، أو أنهم مَدَنيون يُؤخذون كغنائم عند فَتْح المُدُن، أو الهُجُوم على مواقع آهلة. وغالباً؛ لم تكن الجُيُوش الأيُّوبيَّة تأخذ أسرى من المدنيين، وعند فَتْح المُدُن يُسمَح للسُّكَّان الفرنج المدنيون بالرحيل إذا استسلمت المدينة بدُون قتال. وبشكل عامٍّ؛ كان القادة الأيُّوبيُّون يلتزمون بشُرُوط المُعاهدات، أو شُرُوط استسلام المُدُن والقلاع، أمَّا إذا سقطت المدينة حرباً وبقُوَّة السلاح، فسُكَّانها غنائم بشرع قانون الحَرْب في ذلك العصر، لكنَّ القادة الأيُّوبيِّيْن كانوا - دائماً - يسمحون للسُّكَّان بافتداء أنفسهم بمبالغ بسيطة.

الأسرى المَدَنيون:

على العكس من مُعاملة المُسلمين كان الأسرى المَدَنيون المُسلمون لدى الفرنج يُسامون العذاب، ويُنفِّذون أشقَّ الأعمال، وخاصَّة بتسخيرهم لبناء التحصينات، وحفر الخنادق، حتَّى يتمكَّن الأسير من شراء نفسه، أو أن يفتديه أمير، أو مُحسن، كما حصل للشاعر سعدي الشيرازي، فقد خطفه الفرنج، وهُو في طريقه إلى القُدْس، وأجبروه على العمل في حفر خندق طرابلس، وبالصُّدفة مرَّ به تاجر من حلب، فافتداه مُقابل عشرة دنانير[1].

ولم يرحم الفرنج الأسيرات المُسلمات، فقد عوملوا كالعبيد تماماً، وعندما وصف ابن جُبَيْر حال الأسرى والأسيرات المُسلمات في بلاد الفرنج التي زارها في رحلته، قال: "يرسفون في القُيُود، ويُصرَّفون في الخدمة الشاقَّة تصريف العبيد، والأسيرات المُسلمات كذلك في أسوقهنَّ خلاخيل الحديد، فتنفطر لهم الأفئدة، ولا يُغني الإشفاق عنهم شيئاً"[2].

---

1 - روضة الورد - كلستان، سعدي الشيرازي، 114.

2 - الرحلة، ابن جُبَيْر، 280.

لذلك كان فداء أسرى المُسلمين من الفرنج أحد أهمِّ أوجه الصدقات في عصر الحُرُوب مع الفرنجة. وخاصَّة الأسرى الغُرباء، أو المغاربة على وجه الخُصُوص؛ حيثُ كانت تُترك الوصايا، وتُخصَّص أموال من صدقات المُحسنين لفدائهم[1].

الأسرى العسكريون:

القادة والأُمراء:

وقع في أَسْر المُسلمين عدَّة شخصيَّات فرنجية كبيرة؛ منهم بلدوين أوف بورج، الذي أُسر مرَّتَيْن، الأُولى عندما كان أميراً للرُّهَا، والثَّانية عندما كان ملكاً للقُدْس، وفي المرَّتَيْن أُطلق سراحه، وتعهَّد أنْ لا يُحارب المُسلمين، لكنَّه نكث بوُعُوده، وعاد لحربهم. كذلك أُسر جوسلين الأوَّل مرَّتَيْن، مرَّة وهُو صاحب تلّ باشر، والأُخرى عندما كان أميراً للرُّهَا. كما أُسر بُوهمند أمير أنطاكية، وريموند الثَّاني أمير طرابلس[2]، وأُسر عدد كبير من الأُمراء ومُقدَّمي الدَّاوية والاسبتاريَّة في معركة حطِّين[3]. أمَّا في معركة المنصُورة؛ فقد أسرَ الجيشُ الأيُّوبي الملكَ الفرنسيَّ لويس التَّاسع، وأخوَيْه، وكبار قادته، وقيَّدوهم بالسلاسل، ثُمَّ أفرجوا عنهم[4]. ويبدو أن المُسلمين في العصر الأيُّوبي كانوا يُقدِّرون المُلُوك والأُمراء، ويُجلُّونهم عن الأسر، وعلى الدوام؛ كان يُطلَق سراحهم ما عدا مَنْ يُعدُّ منهم مُجرم حرب، فيُقتَل كما فعل السُّلطان صلاح الدِّين بأرناط أمير الكَرَك، الذي كان أشبه بقاطع طريق منه بأمير. وبالمُقابل؛ فإنَّنا نُلاحظ أن المُلُوك الأيُّوبيِّيْن والأُمراء لم يقع أيٌّ منهم في أَسْر الفرنجة، ورُبَّما كان مَردُّ ذلك إلى تحرُّكاتهم المدروسة، واستطلاعهم الجيِّد، وخبرتهم الكاملة بالأرض.

كان الشرع الإسلامي يحمي الأسرى الفرنج من التعذيب والتجويع، فقد أفتى الفُقهاء بأنَّه لا يجوز تعذيب الأسير بالجُوع، والعطش، وغيرهما من أنواع التعذيب[5]. ولكثرة ما كان المُسلمون في العصر الأيُّوبي يأسرون من جُنُود الفرنجة، فقد كانوا يرغبون بفدائهم، حتَّى لا يكونوا عبئاً عليهم،

---

1 - الرحلة، ابن جُبَيْر، 281.

2 - حول إمارة الرُّهَا وأَسْر بُوهمند راجعْ:

A History of the expedition to Jerusalem, Falcher of Charter's, p.135

3 - راجعْ كتاب: القادة الصَّليبيُّون الأسرى، محمود عُمران.

4 - راجعْ معركة دمياط الثَّانية في مبحث العلاقات العسكريَّة مع الفرنج في هذا الكتاب.

5 - العلاقات الدّوليَّة، وهبة الزحيلي، 78.

بإقامتهم، وطعامهم، وحراستهم، فبعد جَمْع الأسرى كان يُطلَب مِمَّنْ يستطيع منهم أنْ يفدي نفسه بالمال[1]. كما كان المُسلمون يُطلقون أسرى الفرنج في كثير من المُناسبات، لإثبات حُسْن النيَّة، أو لاستكفاء الشَّرِّ[2]، أو بمُناسبة عقد الصُّلح، وغالباً ما كانت شُرُوط مُعاهدات الصُّلح تنصُّ على ذلك[3]. ولكنْ؛ في بعض الحالات، كان الجُنُود الفرنج الأسرى يُعامَلون بالمثل، فيُجبرون على العمل في البناء، فقد بنى الملك الصَّالح أيُّوب قلعة الروضة، وبعض المدارس في القاهرة، وشغَّل فيها أسرى الفرنج في معركة غزَّة[4].

وفي حالات نادرة؛ كان الأيوبيُّون يأمرون بقَتْل الأسرى الخطرين من جماعات الدَّاويَة والاسبتاريَّة، فقد كانوا يعدُّونهم لا عهد لهم، وقد أعلنوا أنفسهم أعداء للإسلام، فعدَّهم المُسلمون مُجرمي حرب، وكانوا ـ غالباً ـ يقتلون أَسْرَاهم[5]، لكنْ؛ في كثير من الحالات، كان أسرى الدَّاويَة والاسبتاريَّة يُحتفَظ بهم لحين الحاجة، حتَّى إنَّه أُطلق سراحهم في بعض الحالات[6].

---

1 - الاعتبار، أُسامة بن مُنقذ، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 12/ 197.
2 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 505.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 408.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 407.
5 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 13/ 57، ـ كذلك راجعْ: مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، سُهيل زَكَّار، من الموسوعة الشاملة، 2/ 429.
6 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 505.

المبحث التَّاسع:

نتائج العلاقات العسكريَّة بين السَّلطنة الأيُّوبيَّة والفرنج

إن أهمَّ ما يُلاحَظ على مُجمل العلاقات العسكريَّة بين الفرنج والمُسلمين، أن الفرنج قد أخذوا في حُرُوبهم بعادات الرُّومان، التي كانت ماتزال سائدة في أُورُبة، والتي تتمثَّل بالقسوة المُتناهية والاستباحة في الحُرُوب، فالإبادة والمجازر البشرية كانت أُمُور عادية مارسها الفرنج بكُلِّ بساطة، وخاصَّة؛ في حملتهم الأُولى قبل أن تلين طبائعهم بعض الشيء، ويتأثَّروا بعادات الشَّرْق.

بينما نجد أن الجُيُوش والمُقاتلين المُسلمين في العصر الأيُّوبي كانوا يلتزمون بقواعد الجهاد، فهُم يُقاتلون لغاية مُقدَّسة هي تحرير الأرض، والدفاع عن الأُمَّة، وبالتَّالي؛ يتقيَّدون بالتعليمات الدِّينيَّة الواردة في كُتُب الجهاد، التي شاع تأليفها، وقراءتها في ذلك الوقت، ومنها وصايا النبي(ص)، والخُلفاء الراشدون للمُقاتلين، ومنها أحاديث الرسول (ص) التي يُوصي فيها بعدم قَتْل النساء والأولاد ورجال الدِّين المُتفرِّغين للعبادة. كذلك نَصَّ الشرع الإسلامي أنَّه "لا يجوز شَرْعَاً قَتْلُ غير المُقاتلين"[1].

كذلك يُلاحَظ على العلاقات العسكريَّة في العصر الأيُّوبي ارتباطها الوثيق بالعلاقات السِّياسيَّة، وصحيح أن الاستراتيجية السِّياسيَّة هي التي كانت تُوجِّه العلاقات العسكريَّة، ولكنْ؛ بعد انتهاء الصراع، فإن النتائج العسكريَّة هي التي تُوجِّه التَّحرُّك السِّياسي، وتفرض طبيعة العلاقات السِّياسيَّة. وكانت الاستراتيجية العسكريَّة للمالك الأيُّوبيَّة تقوم ـ بشكل عامٍّ ـ على تجنُّب الحَرْب ما أمكن، حتَّى مع الفرنج، على عكس استراتيجية السُّلطان صلاح الدِّين. فلذلك ركَّزت المالك الأيُّوبيَّة لتحقيق أهدافها بدلاً من الحَرْب مع الفرنج على عقد سلسلة من مُعاهدات الصُّلح معهم، وفيما بينها ركَّزت على التآمر عن طريق الاتِّصالات السِّرِّيَّة بالأعوان والأُمراء، وكَسْب تأييدهم، وكانت وسائل ذلك مُتاحة، فلكُلٍّ منهم ثمن، ولا يُوجد ولاء سياسي مُطلق، ولا تبعية عسكريَّة، أو سياسيَّة دائمة، إنَّما مصلحة ومنافع فقط. وإذا اضطرَّ الأمر ـ أحياناً ـ كان المُلُوك الأيُّوبيَّة يلجؤون للتهديد بالقُوَّة العسكريَّة، فتتدخَّل الوساطات، وتنشط الرُّسُل، وغالباً ما تُحلُّ المشاكل في هذه المرحلة، وإلاَّ؛ فالتَّحرُّك العسكري في آخر المطاف.

---

1 ـ العلاقات الدّوليَّة، وهبة الزُّحيلي، 66 ـ67.

وبالرغم من الخلافات الشديدة والدائمة بين أفراد البيت الأيُّوبي، والصراعات المُستمرَّة بينهم على السُّلطة، وعلى السيطرة على البلاد، فإنَّنا لا نجد حرباً حقيقيَّة واحدة قامت بينهم، فأكثر ما في الأمر هُو الحصار واستعراض القُوَّة، فإذا ظفر أحدهم بعدوِّه نادراً ما يقتله، وإذا حدث ذلك، فبعد مُدَّة، وبشكل سرّيّ. ومع أن المُلُوك من بني أيُّوب كانوا سُلالة مُقاتلين شُجعان، فإن قلَّة منهم مَنْ ورثت هذه الصفات، فإذا استثنينا سُلالة شيركوه في حمص، فإنَّنا لا نكاد نجد منهم قادة عسكريين يليقون بأمجادهم السالفة سوى الملك المُعظَّم تُورانشاه بن السُّلطان صلاح الدِّين، الذي كان يعمل لصالح أبناء أخيه الظَّاهر غازي قائداً لجُيُوشهم في حلب.

رُبَّما كان سبب ذلك هُو عدم وُجُود قضيَّة عُليا، يُؤمنون بها، ويُقاتلون من أجلها، كما كان لدى مُؤسِّس دولتهم السُّلطان صلاح الدِّين، الذي جعل تحرير الأرض قضيَّته المُقدَّسة، ونجح في ذلك، ولكنْ؛ لم يكن لخُلفائه من قضيَّة سوى مصالحهم الآنية، كما دلَّت الأحداث عن جهل سياسي فاضح لدى كثير منهم، رُبَّما وصل حتَّى السذاجة السِّياسيَّة، وخير مثال على ذلك الملك الأفضل علي بن السُّلطان صلاح الدِّين، والنَّاصر داود بن الملك المُعظَّم بن العادل، كذلك كانت حملة ابن أبي علي العسكريَّة، التي سَيَّرَهَا الملك المنصُور صاحب حماة، لدعم دمشق دليلاً مُهمَّا على سذاجة سياسيَّة وعسكريَّة قاتلة. ولذلك نستطيع القول: إن رُوح الحسم العسكريَّة التي أقامت الدولة الأيُّوبيَّة سُرعان ما غابت عنها، وتلاشت. ومن كُلِّ ما سبق تظهر بعض الملامح العامَّة للعلاقات العسكريَّة، التي أقامتها الممالك الأيُّوبيَّة بعد صلاح الدِّين، ويتجلَّى منها:

1 ـ لم يبتكر الأيُّوبيُّون أسلحةَ قتال جديدة، أو يُطوِّروا تكتيكاً عسكريّاً مُتميِّزاً، كما كان مُتوقَّعاً، نتيجة لاحتكاكهم بالفرنجة.

2 ـ لم يحرصوا على الجهاد وتحرير المناطق المُحتلَّة، بل إنَّهم سلَّموا كثيراً من الفُتُوح الصَّلاحيَّة للفرنج.

3 ـ لم يُطوِّروا اقتصاداً حربيّاً يخدم الآلة العسكريَّة، ويدعمها، باستمرار وكفاءة.

4 ـ أهمل الأيُّوبيُّون الأُسطُولَ، ولم يستخدموه إلاَّ جُزئياً، وعند الحاجة الماسَّة إليه.

5 ـ كان لكُلِّ من المُلُوك الأيُّوبيِّين مشروعه السِّياسي الخاصّ، الذي وظَّف له كُلَّ قواه العسكريَّة المُتاحة، وأهمل كُلَّ ما عداه من مشاريع عامَّة.

القسم الثَّامن

العلاقات الدّوليَّة بين أُورُوبا والشرق الإسلامي



المبحث الأوَّل:

سياسة الدولة البابويَّة تجاه الشَّرْق الإسلامي

رُبَّما لم تُواجه البابويَّة مُشكلة استحوذت على اهتمامها وجُهُودها، مُنْذُ القرن الحادي عشر الميلادي، الخامس الهجري، وحتَّى نهاية العُصُور الوُسْطَى، مثل تنظيم وتوجيه الحملات الصَّليبيَّة[1].

وكان أوَّلهم دعوة لهذه الحُرُوب هُو البابا أُورُبان الثَّاني، الذي استغلَّ استغاثة بيزنطة، بعد هزيمتها الشنعاء في معركة ملاذكُرد أمام السلاجقة المُسلمين، ففي عام 489 هـ 1096م، دعا البابا أُورُبان الثَّاني جُمُوع المسيحيين في أُورُبا للتوجُّه إلى الشَّرْق لاستخلاص قبر السَّيِّد المسيح من المُسلمين،وخصّ الجنويين، وهُم ـ آنذاك ـ من أكبر القوى البَحْريَّة في المُتوسِّط، بطلبه إليهم التّوجُّه إلى السواحل الشَّرْقيَّة للبحر المُتوسِّط، للمُساعدة في الحملة على الأرض المُقدَّسة[2]. وقد جعل البابا أُورُبان الثَّاني الانتصار للمسيحية واستخلاص قبر السَّيِّد المسيح هدفه المُعلن، بينما كانت كُلُّ تصريحاته وتصرُّفاته تدلُّ على إنَّه يُريد ـ من وراء ذلك ـ ضمَّ اليُونان إلى الكَنيسَة الكاثوليكية تحت زعامته[3]، والقضاء على الهرطقة الأرثوذكسية، كما كان يعتقد.

كان أُورُبان الثَّاني من باباوات المنفى، ففي عام 468 هـ 1076م، طرد الإمبراطُور الجرماني هنري الرَّابع البابا غريغوري من رُوما، وعزله بالقُوَّة، وعيَّن بديلاً له، يُوافقه، ويُناسبه. ولكن عدداً كبيراً من الكرادلة اجتمعوا في فرنسا، وانتخبوا بابا شرعيَّاً، حسب اعتقادهم، وقامت بابوية مُزدوجة، حتَّى انتُخب أُورُبان الثَّاني في مدينة ليون الفرنسيَّة، وكان مُنافسه في رُوما البابا كليمنت الثَّالث يحتلُّ قصر اللاتيران. ومن هذا الواقع المُجزَّأ للبابوية؛ انطلقت مُعظم دوافع أُورُبان الثَّاني، رُبَّما كان أهمّها أنْ تُتيح له الحَرْب الصَّليبيَّة فُرصة امتلاك قُوَّة عسكريَّة، يتمكَّن ـ بواسطتها ـ من تحقيق النصر على الإمبراطُوريَّة، والعودة إلى قصر اللاتيران في رُوما. وأيضاً؛ رُبَّما لم يغفل عن الفُرصة الذهبية التي لاحت له، والتي رغب بانتهازها لتوحيد الكَنيسَتَيْن الغَرْبيَّة والشَّرقيَّة، ليُصبح رجل

---

1 - سبع معارك، جوزيف داهموس، ترجمة: فتحي الشاعر، 19.

2 - History of the Crusades, Runciman, Vol:1, p. 112

3 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 1/ 11.

المَسيحيَّة الأوَّل في العالم، ورأسها الوحيد. وهذه الأهداف لأبدَّ أنْ يتبعها هدفاً آخر كان من أحلام البابويَّة مُنْذُ عقود من الزمن؛ وهُو القضاء على الإسلام[1]، عندها؛ لن يقف أمام البابويَّة شيء للسيطرة على العالم بكامله[2].

الحملة الصَّليبيَّة الرابعة، حملة البابويَّة على المسيحيين:

كانت جُمُوع الحملة الرابعة ـ بمُعظمها ـ من الفرنسيين، وكالعادة؛ كانوا حُجَّاجاً كاثوليك مُتعصِّبين، مُندفعين لقَتْل المُسلمين، وإنقاذ القُدْس منهم، أو الموت في سبيل ذلك. وبعد اتِّفاق البارونات الفرنسيين قادة الحملة مع دُوق البُنْدُقيَّة أنريكيو واندولو على نقلهم إلى سُورية[3]، انطلقت جُمُوع الحُجَّاج على سُفُن البُنْدُقيَّة، وبنيَّتهم التّوجُّه صوب الأراضي المُقدَّسة في سُورية، ولكن نيَّة البنادقة كانت في التّوجُّه صوب وُجهة أُخرى، إنَّها مدينة زارا، والتي مع كونها مدينة مسيحيَّة كاثوليكية، ولكنَّها كانت ـ بالنِّسبَة للبنادقة ـ من ألدِّ الأعداء؛ لأنَّها خرجت عن سيطرة البُنْدُقيَّة، وأخذت تحول دُون تحكُّمها المُطلق في بحر الأدرياتيك. لم يُؤخذ أهل زارا على حين غرَّة، فقد كانت لهم شُكُوكهم في نوايا البنادقة، فعندما أقنع البنادقةُ الحُجَّاجَ بالهُجُوم على زارا، أرسل أهل المدينة مرسوماً بابوياً يقضي بحرمان كُلِّ مَنْ يعتدي عليهم، وتُلي المرسوم في مُعسكر الحملة[4]، فالبابا قد ألقى بثقله مع أهل زارا ضدَّ كُلِّ مَنْ يعتدي عليها، لكنَّ القُوَّة العسكريَّة البرِّيَّة للحُجَّاج والبَحْريَّة للبنادقة كانت أقوى من القُوَّة المعنوية لمرسوم البابا، فتحدّوا الحرمان، وتابعوا حجَّهم المُقدَّس بالقَتْل والنهب والتدمير في مدينة زارا. فماذا فعل البابا؟ يبدو أنَّه لم يفعل شيء، فلم يصب لعناته ولا حرمانه ولا عُقُوباته الكَنَسية ضدَّ دُوق البُنْدُقيَّة المُتحدِّي له، أو ضدَّ حُجَّاج خرجوا لقتال المُسلمين، فانقضُّوا على المسيحيين.

وبعد الاستيلاء على المدينة، وإتمام نهب ثرواتها، والاتِّفاق بين حُجَّاج الحملة والبنادقة على اقتسامها، تذكَّروا أنَّهم خالفوا مرسوم البابا، وارتكبوا إثماً كبيراً بوُقُوعهم تحت الحرمان الكَنَسي،

---

1 ـ مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 3/ 264 ـ 247 .
2 ـ لقد أشار المقريزي إلى ذلك، وهُو يصف هُجُوم الفرنجة على مصر، فقال: " وقد زيَّن لهم سُوء عملهم أنْ يملكوا أرض مصر، ويستولوا منها على ممالك البسيطة كُلِّها". (السُّلُوك، 1/ 321).
3 ـ الاستيلاء على القسطنطينيَّة، فيلهاردين، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 10/ 36 .
4 ـ سُقُوط القسطنطينيَّة، روبرت دي كلاري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 10/ 212 .

وبدلاً من الانسحاب من المدينة، والتعويض على سُكّانها، وجدوا حلاً أسهل بكثير لتحليلهم من الحرمان، وهُو استرضاء البابا، وطلب عفوه، وبالفعل؛ أرسلوا وفداً يطلب الغُفران برئاسة أسقف سواسون، "فحصل من صاحب الكرسي الرسولي على منشور غُفران لجميع الحُجّاج والبنادقة"[1]، وابتهاجاً بهذا المرسوم قرّرت الحملة تمضية الشتاء في زارا، فما قاموا به مع الحرمان ضدّ زارا سيُكملونه - الآن - في ظلّ عفو البابا.

وفي شتاء زارا؛ حدث التحوُّل الأكبر في وُجهة الحملة، وفي أهدافها، ومقاصدها، وذلك بطلب رسمي ومُباركة مُقدَّسة من البابا. فقد كان دُوق البُنْدُقيَّة يُحاول إقناع الحُجّاج، وأُمراء الحملة، بتَرْك بلاد المُسلمين، والتّوجُّه نحو القسطنطينيَّة لفَتْحها، واصفاً لهم ثرواتها المُكدَّسة، ولكنْ؛ كانت هُناك عدَّة عوائق أمام تنفيذ مشروعه، فالقسطنطينية بلد مسيحي، وإنْ كان يتبع كَنيسَة مُختلفة بعض الشيء، ثُمَّ إن وُجهتهم الأساسية كانت نحو الأراضي المُقدَّسة، إضافة إلى خوفهم من موقف مُعارض للبابا. لكنَّ الذي حصل فاق توقُّعات الجميع، وكانت بداياته في ألمانيا، فقد ذهب ألكسيوس المُطالب بعرش القسطنطينيَّة إلى خاله ملك ألمانيا، يطلب منه المُساعدة ضدَّ ألكسيوس آخر، استولى على العرش، وسمل عُيُون أبيه إسحق فاتاتزس، فقال له خاله: إنَّه سمع بتجمُّع للفرنجة في البُنْدُقيَّة يقصدون سُورية، فإنْ كُنتَ قادراً على إجبار اليونانيين للتقيُّد بكَنيسَة رُوما، وأن يتوحَّدوا معنا في الإيمان، فإن البابا يُمكن أن يأمر الحُجّاج بالتخلِّي عن حملتهم المُوجَّهة إلى الأراضي المُقدَّسة، والذهاب إلى القسطنطينيَّة لإعادتها إليكم، فوافق ألكسيوس. "وعندما سمع البابا هذا غلبه السُّرُور، وأمر بكتابة رسائل - على الفور - إلى الحُجّاج، وأرسل أحد الكرادلة، وجعل منه مُمثِّلاً له، وأرسل بركاته للجميع، ودعوة بأنَّهم إذا تخلّوا عن الحملة إلى سُورية للذهاب إلى القسطنطينيَّة . . فإن كُلَّ مَنْ يموت في هذا الحملة سينال العفو، وتُوضَع عنهم خطاياهم، كما لو كانوا ماتوا عند قبر المسيح". وسافر الكاردينال مندوب البابا إلى زارا، وتلا عليهم المرسوم البابوي، وبيَّن لهم أن الحملة ضدَّ القسطنطينيَّة أفضل بكثير من الحملة ضدَّ سُورية؛ لأنَّها ستجمع المسيحيين على الاتِّفاق، وتماثل الكلمة إنْ كانوا فرنجة أو يُوناناً، بدلاً من الذهاب إلى سُورية، بدُون أمل في النجاح[2].

---

1 - سُقُوط القسطنطينيَّة، روبرت دي كلاري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 10/ 213.
2 - تاريخ المورة، مجموع هافنس / 57، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 10/ 385-386.

فاندفعت الحملة بأمر مُباشر من البابا مع بركاته ودعواته وغُفرانه، وانقضَّت على القسطنطينيَّة من البرِّ، والبحر، حتَّى فتحوها بالسيف، وأقاموا الحُكْم اللاتيني فيها.

ولكن أحلام البابويَّة تبخَّرت باتِّحاد الكَنيسَتَيْن، فالبنادقة لم تكن تهمُّهم الكَنيسَة، بقدر ما كانوا مُهتمِّين برواج تجارتهم، وتزايد أرباحهم، فقد تفرَّغوا لإقامة المراكز التِّجاريَّة في الجُزُر اليُونانية، ولم يلتفتوا ـ مُطلقاً ـ للتبشير الدِّيني، أو حتَّى لترسيخ سُلطة الكَنيسَة الغَرْبيَّة في القسطنطينيَّة، كما أن رُوما لم تكن راضية ـ أبداً ـ عن نبيل بُنْدُقي يتحوَّل إلى بطريرك في القسطنطينيَّة، ويُمارس الشعائر باسمها[1].

البابويَّة تقود الحملة الخامسة على مصر:

بعد استيلاء الفرنجة على القسطنطينيَّة، وانتخاب بلدوين دي فلاندرز إمبراطُوراً لاتينياً عليها، اعتقد البابوات أنَّهم أنهوا أمر الكَنيسَة الشَّرْقيَّة إلى الأبد باحتلال كرسيها البيزنطي، فالتفتوا مُجدَّداً صوب المُسلمين، ودعا البابا أينوسنت الثَّالث عام 612 هـ ـ 1215م، إلى تجنيد حملة جديدة، على أن يكون هدفها مصر[2]، فقد توصَّل مجمع اللاتيران إلى مُحصَّلة، قضت بوُجُوب إرسال الجيش الفرنجي إلى مصر؛ لأن الخبراء في ذلك المجمع قد برهنوا بأنَّه لا يُمكن للفرنجة أن يحكموا بسلام في الأرض المُقدَّسة ما لم يُسيطروا على مصر، ويُلحقوها بمملكتهم، وقد استدلُّوا على ذلك بوحدة الشَّام ومصر أيَّام عموري ملك القُدْس؛ حيثُ أحاط الخطر العظيم بالمملكة، بينما قبل ذلك ما كان بإمكان أيِّ إنسان إلحاق أدنى أذى بالمملكة[3].

بعد وفاة البابا أينوسنت الثَّالث؛ تولَّى البابا هونوريوس الثَّالث الكرسي الرسولي (1216ـ1227م)، وكان مُتحمِّساً لتنفيذ الحملة التي دعا إليها سلفه. وفي عام 614 هـ ـ 1217م، كانت قُوَّات الحملة تنطلق من المجر وألمانيا والنمسا، وفي عام 615 هـ ـ 1218م، تكاملت في ميناء عكَّا، بما انضمَّ إليها من قُوَّات قبرص ومملكة القُدْس وإمارة أنطاكية وفُرسان الاسبتالية والدَّاويَة والتَّيُوتُون[4]، وأبحر الجميع نحو دمياط، وآمالهم مُشرعة نحو المدينة الأكثر غنىً في مصر، والمليئة

---

1 - تاريخ أُورُوبا في العُصُور الوُسْطَى، فيشر، ترجمة: مُحمَّد مُصطفى زيادة، 247.

2 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 108.

3 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 43/ 1159.

4 - الصَّليبيُّون في الشَّرق ، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 295.

بالتجارات[1]، ورُبَّما تدلُّنا هذه الفكرة عن دمياط، التي كانت لدى الفرنج عن الكثير من دوافعهم؛ لاختيارها هدفاً لهُجُومهم. ورُبَّما كانت هذه معلومات البابوات عن دمياط، وعن غنى مصر، فلذلك قرَّروا توجيه الحملة إليها[2].

كان من المُفترض أن يكون قائد الحملة هُو جان دي برين ملك القُدْس[3]، فمع أن المواهب العسكريَّة والسِّياسيَّة تنقصه، وليس له سُلطات فعليَّة، لا على فرنجة الشَّرق المُرافقين له من قبرص، أو أنطاكية، ولا على البارونات الأُورُبيين، وخاصَّة بوُجُود ملك المجر أندريه ودُوق النمسا ليوبولد[4]، ومع ذلك؛ كان يُفترض أن يقود ملك القُدْس الحملة ضدَّ مصر، وذلك لعدَّة أسباب: فهُو - **أوَّلاً** - صاحب المملكة وقائد جُندها المُشاركين بالحملة، إضافة إلى خبرته الطويلة بالصراع مع المُسلمين، لكنَّ البابا هونوريوس الثَّالث كان له رأي آخر، فقد أوفد مندوباً شخصياً له - قاصد رسوليّاً - هُو الكاردينال بلاجيوس[5]، وقد زوَّده بكُتُب رَسْميَّة تُؤكِّد قيادته للحملة[6].

ومع كُلِّ الخلافات بين بيلاجيوس وجان دي برين، فقد تمكَّنت الحملة من احتلال دمياط عام **616** هـ **1219**م، ومُباشرة؛ قام النائب البابوي بتحويل جامع دمياط الكبير إلى كَنيسَة كاثوليكية، وأمر أسقف عكَّا بتعميد جميع الأطفال الذين وجدوهم في المدينة[7]، وأقاموا بها حتَّى عام **618** هـ**1221**م، يُقوُّون دفاعاتهم، ويتزوَّدون بالمُؤن؛ ريثما يصل الإمبراطُور فريدريك الثَّاني، الذي أعلن عن نيَّته بالتَّوجُّه لدعم الحملة.

---

1 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1160.

2 - لقد تغيَّرت فكرة الفرنج عن دمياط، فبعد هزيمتهم المُنكرة أخذوا يُردِّدون مع شاعرهم: "دمياط تلك السَّيِّدة المُتكبِّرة على البحر، والمُعذِّبة للصليبيين". (جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1163).

3 - ملك القُدْس: جان دي برين: تولَّى الملك خلفاً لأمليريك الثَّاني، بزواجه من ماريا بنت إيزابيلا زوجة أمليريك من زوجها السَّابق كونراد مونتفرات (الحُرُوب الصَّليبيَّة، باركر، 108)، وكان المُسلمون يُسمُّونه الملك النَّوَّام. (المنصُوري، ابن نظيف، 93).

4 - الصَّليبيُّون في الشَّرق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 296

5 - الكاردينال بيلاجيوس: من أصل إسباني (الصَّليبيُّون في الشَّرق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 295)، وهُو أسقف ألبانو (وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45 / 750 - 759).

6 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 108.

7 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45 / 774 - 775.

في هذه الأثناء قدَّم لهم السُّلطان الكامل عرضاً مُغرياً ينصُّ على تسليمهم القُدْس والساحل وإطلاق الأسرى مُقابل انسحابهم من دمياط، كان ملك القُدْس يرغب بالمُوافقة واستعادة مملكة القُدْس كما كانت قبل الفُتُوح الصَّلاحيَّة[1]، لكنَّ المندوب البابوي بيلاجيوس، الذي كان يرغب بملكية دمياط، كانت له وُجهة نظر أُخرى، فقد أعلن - بعد احتلال دمياط - تبعيَّتها إلى مُمتلكات البابا[2]، وكان يطمح أن تكون مصر بكاملها تابعة لحُكْم البابويَّة، لذلك خالف ملك القُدْس، ولكونه القائد الأعلى للحملة أصدر أمراً بمُتابعة الهُجُوم جنوباً[3]. قدَّم ملك القُدْس نصيحة إلى بيلاجيوس بعدم الحَرَكَة من دمياط، لكنَّ النائب البابوي انزعج كثيراً من هذه النصيحة، وأعلن عن حرمان كَنَسي عامّ ضدَّ كُلِّ مَنْ يعيق تنفيذ خُطَّته لإكمال احتلال مصر[4]، فقد كانت استراتيجية بيلاجيوس تنحصر في جُملة واحدة هي: "لا صُلح البتَّة مع الكُفَّار"، إن رجل الدِّين هذا الذي لا تنقصه الغطرسة ولا الطُّمُوح قد اضطلع بدور القائد الأعلى للجيش، وقد أثبتت الأحداث أنَّه دور لا يُناسبه أبداً، لكنَّ دعم رجال الدِّين وقادة الطوائف الدِّينيَّة العسكريَّة مكَّنه من أن يفرض نفسه قائداً بالقُوَّة[5]. وتقدَّمت الحملة الفرنجيَّة من دمياط عام **618** هـ **1221**م، بكامل رجالها، وعُددها، والسُّفُن تُرافقهم مُبحرة في النيل، فواجهوا مُقاومة عنيفة من المُسلمين، وانتصارات عديدة على سُفُن الحملة؛ حيثُ أُسرت، أو دُمِّرت بغالبيَّتها، ثُمَّ فتح المُسلمون عليهم مياه النيل، فاضطرُّوا لطلب الصُّلح، وتسليم دمياط وإطلاق الأسرى، مُقابل الحفاظ على أرواحهم، "ولحرص الملك الكامل على دمياط؛ أجابهم ولو أقاموا يومَيْن أخذهم برقابهم"[6]، وكان بعض قادة المُسلمين يرغبون بعدم إعطائهم الأمان، وأخذهم بدُون عهد، حتَّى يُسلِّموا ما بقي بأيديهم من الساحل، لكنَّ طُول مُدَّة الحَرْب، وضجر العَسْكَر، جعلت في قبول عرض الفرنجة مصلحة للجميع[7].

---

1 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1162.

2 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45 / 773.

3 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 108 - 109.

4 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1164.

5 - الصَّليبيُّون في الشَّرق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 298.

6 - ذَيل الرَّوضَتَين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 248.

7 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 130.

وحمّلتْ أُورُبا للبابوية وللقاصد الرسولي بيلاجيوس مسؤولية هذه الهزيمة الشنيعة، فقد نعتت الملكَ الفرنسي فيليب الثَّاني بيلاجيوس ومَنْ معه بالأغبياء؛ لرفضهم قبول مملكة مُقابل مدينة، وكتب الشاعر الفرنسي يوون دي سان كنتان: "يا رُوما؛ إن القُدْس تئنُّ من الجشع، الذي استحوذ عليكَ، وعكّا تئنُّ، ودمياط أيضاً، بسببكَ كان هذا الوضع". وقال الشاعر غليوم كليرك يستنكر تصرُّفات بيلاجيوس في الحملة: "حين يأخذ رجال الدِّين رسالة أمر الفُرسان، فهذا مُخالف للقانون، لأن واجب الكَهَنَة قراءة الكتاب المُقدَّس والمزامير، وترك ميدان القتال للفُرسان". وفي الحقيقة؛ كان فشل الحملة البابويَّة على دمياط ضربة كبيرة لمكانة البابويَّة، عدا خسائرها الباهظة في الأموال، التي جُمِعَتْ من كُلِّ كنائس أُورُبا[1].

الصراع بين البابويَّة والإمبراطُور فريدريك الثَّاني وأثره على السَّلطنة الأيُّوبيَّة:

كان من ضمن خُطط البابويَّة لدفع مُلُوك أُورُبا وأُمرائها نحو الحَرْب الصَّليبيَّة ضدَّ المُسلمين ما قدَّمته من دعم لفريدريك الثَّاني عام 612 هـ 1215م، ممَّا أدَّى إلى تتويجه إمبراطُوراً على الإمبراطُوريَّة الجرمانية المُقدَّسة. وحتَّى يضمن البابا مُشاركة فريدريك في الحملة على الأراضي المُقدَّسة أجبره على القَسَم، لكنَّ فريدريك لم يبرَّ بقَسَمه إلاَّ بعد اثنَتَيْ عشرة سنة، فقد كان يُدافع البابا، ويعتذر له سنة بعد أُخرى. ولكنْ؛ بعد تخلُّف فريدريك عن الالتحاق بالحملة الخامسة على دمياط، وفشل تلك الحملة، اعتبر البابا هونوريوس الثَّالث أن فريدريك هُو سبب فشلها[2].

وفي عام 620 هـ 1223م، بعد فشل حملة دمياط، وجد ملك القُدْس جان دي برين أنَّه قد خسر كُلَّ شيء، "فتوجَّه إلى رُوما يستجدي العون، فوجد البابا غريغوري التَّاسع غاضباً جدَّاً من الإمبراطُور فريديك الثَّاني، فقام بمُصالحتهم"[3]، إن هذه المُصالحة لابُدَّ أن البابا كان راغباً فيها، فهُو مايزال يأمل أن يحلَّ فريدريك كُلَّ مشاكل البابويَّة في الشَّرق، وخاصَّة بعد نتيجة حملة دمياط، وجان دي برين كان يأمل منها دعم فريدريك لاستعادة مملكة القُدْس. لكنَّ أهمَّ نتائج هذه المُصالحة تجلَّت في عام 622 هـ 1225م؛ حيثُ تمَّ ترتيب زواج سياسي على غاية من الأهمِّيَّة بالنِّسبَة لأطراف

---

1 - الصَّليبيُّون في الشَّرق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 929 - 301

2 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 112.

3 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 43/ 1166

ثلاثة قامت به، فقد تقرَّر زواج الابنة الوحيدة لجُون دي برين ملك القُدْس من الإمبراطُور فريدريك الثَّاني بمُباركة وتدبير من البابا، وباعتبار الزوجة هي وريثة مملكة القُدْس، فقد نزع فريدريك لقب ملك القُدْس من جان دي برين، وتلقَّب به[1]. كان البابا يرغب بهذا الزواج؛ ليُورِّط فريدريك في القضية الصَّليبيَّة، فقد نقل إليه رَسْمياً حقَّ مملكة القُدْس الصَّليبيَّة، وعليه - الآن - الاندفاع لاستعادتها من المُسلمين، أمَّا الملك السَّابق جان دي برين؛ فيبدو أنَّه يئس من قضيَّة المملكة، واستعادتها بإمكانياته الخاصَّة، ففضَّل أن تُوكَل إلى فريدريك، علَّه يُحقِّق ما عجز هُو عنه. أمَّا فريدريك، الذي لم يكن يرغب أصلاً بالانخراط في المسألة الصَّليبيَّة، فيبدو أن مُوافقته لم تكن تعني أكثر من إضافة لقب معنوي كبير على ألقابه، مُقابل قضيَّة هُو مُتورِّط بها أصلاً، وقد صدر منه قَسَم عليها، ولن يزيد زواجه الأمر سُوءاً أكثر ممَّا هُو عليه الأمر، فلذلك وافق.

لكنَّ فريدريك فاته أن البابا جدِّيّ بالأمر أكثر من اللازم، فما كاد يُطلُّ عام **624** هـ **1227**م، حتَّى كان البابا غريغوري التَّاسع قد جهَّز أُسطُولاً كبيراً في ميناء برنديزي، وشحنه بالرجال، ودعا الإمبراطُور للوفاء بوعده، وقيادة الحملة إلى فلسطين، وهُناك؛ أُسقط بيد الإمبراطُور فريدريك، ولم يجد بُدّاً من الوفاء بوُعُوده، والالتحاق بالحملة، التي أقلعت بوُصُوله من برنديزي نحو الشَّرق، فاطمئنَّ البابا، ولكنْ؛ بعد وقت قصير جدّاً عادت كوامن غضبه لتنفجر على فريدريك، الذي عاد أدراجه، بعد أن قطع مسافة قصيرة في البحر بحُجَّة المرض المُفاجئ، ممَّا أدَّى إلى تعطُّل الحملة بكاملها. فجاء ردُّ البابا مُباشراً وعنيفاً، فقد "أعلن حرمان فريدريك للمرَّة الثَّانية، وعدَّه خائناً حانثاً بيمينه"[2]، ويبدو أن هُناك أسباباً وجيهة وراء عودة فريدريك المُثيرة، فقد قيل إنَّه سمع أن البابا كان ينوي منح صقلية وأبوليا إلى جان دي برين أثناء غيابه في فلسطين، وقيل إنَّ رُجُوعه كان بتدخُّل من سُلطان مصر، الذي "بعث له رسائل ورشوات كبيرة، ووعده بمملكة القُدْس دُون حرب، شرط إعاقة هذه الرحلة"[3].

---

1 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1166، والحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 112.
2 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1167.
3 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1167

ونميل إلى الاعتقاد بأنَّ تخوُّف فريدريك من البابا له الاحتمال الأكبر في عودته عن هذه الحملة، وصحيح أن السُّلطان الكامل راسله في هذه الأثناء، أو قبلها بقليل، لكنَّ المُراسلة ما كانت لتمنعه عن الإبحار، فالكامل يطلبه إلى الشَّرق لمُساندته ضدَّ أخيه المُعظَّم.

وبعد أن رتَّب فريدريك أُموره الأُورُبيَّة، وجهَّز بلاده، وأمَّنها ضدَّ مطامع البابا، قرذَر في العام التالي **625** هـ **1228**م، الإبحار مُحارباً صليبياً من طراز فريد، فهُو محروم ومنبوذ ومُحارَب من البابا، والبابا هُو السُّلطة التي تُشرِّع الحَرْب الصَّليبيَّة، وتدعو لها، فقد أبحر فريدريك من برنديزي نحو سُورية، رغم مُعارضة البابا غريغوريوس التَّاسع الشديدة، "الذي أعلن أن فريدريك ليس صليبياً، بل قُرصاناً، خادماً مُحمَّد، وأن حملته ليست ضدَّ الإسلام، بل لسرقة مملكة القُدْس"[1]. واستخدم البابا حملة فريدريك ضدَّه في كلِّ المجلات، حتَّى إنَّه استغلَّها عسكريَّاً، فأمر جُنُوده، "بعد أن كرَّسهم مُحاربين صليبيين يُقاتلون ملكاً غير مسيحي"، بالهُجُوم على مُمتلكات الإمبراطُوريَّة لاحتلالها.

هذا الوضع كان مُربكاً جدَّاً للإمبراطُور، فدينيَّاً؛ هُو عدوُّ الكَنيسَة، وعسكريَّاً؛ تُهاجَم بلاده من قبَل حملة صليبية، وسياسياً؛ هُو معزول عن دَعْم أيِّ ملك مسيحي له، وحتَّى طاعة جُنُوده له تعرَّضت للاهتزاز، وتعرَّض هُو من البابا ومن رجال الدِّين وغيرهم إلى قدر كبير من الإهانة[2]، ويبدو أنَّه لكُلِّ ذلك خرج فريدريك من بلاده بحملة رمزية لا تضمُّ سوى خمسمائة فارس، فقد وفَّر جُنُوده للدفاع ضدَّ هُجُوم البابا، واعتمد على مُراسلاته السابقة مع السُّلطان الكامل، "وكان ذهاب فريدريك نحو الأرض المُقدَّسة ليس عن غيرة على العقيدة، أو رغبة في خدمة المَسيحيَّة"، وأخذ القُدْس، بمُعاهدة سلام مع السُّلطان الكامل، وتوَّج نفسه ملكاً عليها عام **626** هـ **1229**م، ولم يُوافق الكاردينال نائب البابا في فلسطين على هذا السلام، ورفضه بطريريك القُدْس، وطوائف الدَّاوية والاسبتاريَّة، والبارونات، باستثناء الألمان والصقليين . . ولمَّا أرسل فريدريك يرجو البابا غريغوري تحليله من الحرمان؛ رفض، ولم يعترف بتحالفه مع المُسلمين"[3]. وما إن أنهى فريدريك حملته الاستعراضية في الشَّرق حتَّى عاد مُسرعاً نحو أُورُبة، "فقهر جُيُوش البابا، وأجبر جريجوري

---

1 - الصَّليبيُّون في الشَّرق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 302.

2 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 113.

3 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 43/ 1168.

التَّاسع عام 626هـ 1229م على إبراءه وتحليله"[1]، واضطرَّه - أيضاً - للمُصادقة على مُعاهدتـه مـع السُّلطان الكامل، وأن يُوعز للاسبتاريَّة والدَّاويَة في فلسطين لمُراعاة شُرُوط الصُّلح[2].

علاقات البابويَّة مع الشَّرْق بعد تسلُّم فريدريك القُدْس:

لقد أثارت المُعاهدةُ مع السُّلطان الكامل، والتي تسلَّم بمُوجبها الإمبراطُور فريـدريك مدينـة القُدْس، البابا، وأقامته، ولم تُقعده، وانطلق يُشنِّع على فريدريك، وقال واصفاً مُعاهدتـه مـع الكامـل: "إنَّها تتوافق مع شريعة المُسلمين، أكثر من توافقها مع شريعة إيماننـا، واتَّبـع عـاداتهم في عـدَّة نُقـاط، منها: مُساعدة السُّلطان ضدَّ جميع الناس من مُسلمين ومسيحيين"[3].

وفي رسالة أرسلها البابا لمندوبه في فرنسا، يقول:

"أخذ فريدريك بوسائل المُسلمين ،وهاجم ميراث الكرسي الرسولي، والذي هُو أكثر مقتـاً، إنَّه يُبرم - الآن - مُعاهدة مع السُّلطان، ومع مُسلمين آخرين، ويُظهر اللُّطف نحوهم، ويُبدي الكراهية المكشوفة تجاه المسيحيين"، ثُـمَّ يـذكر أن فريـدريك يُـشجِّع المُسلمين عـلى الإغـارة عـلى طـائفتَيْ الاسبتاريَّة والدَّاويَة، فعندما هاجم المُسلمون أراضيهم، "وبعد أن قتلـوا عـدداً كبـيراً مـن أتبـاعهم، حملوا معهم كمِّيَّات كبيرة من الغنائم، فهاجمهم الدَّاويَة، وانتزعوا منهم بعضاً من الغنائم، فقام وزيـر الإمبراطُور بمُهاجمتهم عندما كانوا عائدين، وانتزع منهم بالقُوَّة هذه الغنائم، وأعادها للمُـسلمين . . كما أنَّه جمع مائة عبد كانوا لدى الاسبتاريَّة والدَّاويَة، وأعطاهم للمُـسلمين". وضـمَّن البابـا رسـالتَهُ اتِّهامات كبيرة ضدَّ فريدريك، حتَّى إنَّه يُسمِّيه: "نائب مُحمَّد".

وفي الحقيقة؛ كان اعتراض البابا على فريـدريك، وتـصرُّف وزيـره في فلـسطين أنهـما يُطبِّقـان الاتِّفاقية مع الكامل، فردَّ غنائم الدَّاويَة من المُسلمين وإعادة الأسرى، الذين يُسمِّيهم البابا عبيداً، كان من شُرُوط الاتِّفاقية بين فريدريك والكامل.

---

1 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 114.
2 - الصَّليبيُّون في الشَّرْق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 303
3 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 45/ 899.

وفي قرار حرمان البابا انوسنت الرَّابع[1] للإمبراطُور فريدريك الصادر في مجمع ليون يُعدِّد البابا ذُنُوبَ فريدريك وخطاياه العظيمة، ومنها:

1 - التحالف بحلف مقيت مع المُسلمين.

2 - إرسال الرُّسُل والهدايا إليهم، وتلقِّي الهدايا منهم.

3 - تبنِّي عادات المُسلمين، والاعتماد على مُسلمين في خدماته اليومية.

4 - سمح لاسم مُحمَّد أنْ يُذكَر عَلَنَاً في هيكل الرَّبِّ.

5 - استقبل سُفراء سُلطان مصر، الذي يُلحق الأذى بالأرض المُقدَّسة[2].

إن هذه الذُّنُوب التي يُعدِّدها البابا لفريدريك تُعطينا فكرة واضحة عن نظرة البابوية إلى المُسلمين، وإلى التعامل معهم، ومدى الحقد والكراهية التي كانت تزرعها البابويَّة في نُفُوس المسيحيين الأُورُبيين لتدفعهم ضدَّ المُسلمين في حملات ظاهرها الدفاع عن الدِّين وباطنها إعلاء سُلطة البابويَّة، وزيادة مُمتلكاتها، وثرواتها، فقد وظَّف البابا علاقةَ فريدريك بالمُسلمين لتشريع الحرمان ضدَّه، لكنَّ فريدريك - بالمُقابل - وظَّف علاقته بالمُسلمين من خلال السُّلطان الكامل؛ ليتقوَّى شعبياً في أُورُبا ضدَّ البابا. ولم يخسر فريدريك من علاقته الطيِّبة بالسُّلطان الكامل، بقدر ما ربح في أوساط الشُّعُوب الأُورُبيَّة، التي كانت تتململ من ظُلم البابوات، وانحرافهم الواضح عن مهامِّهم الدِّينيَّة، وانغماسهم بأُمُور الحُكم والسياسة.

فقد ساعد فرديريك في وُقُوفه بوجه البابويَّة الخيالَ الشَّعْبي الأُورُبي، الذي اعتبره خَلَفَاً لبربروسا، ومُحرِّراً للضريح المُقدَّس. وصحيح أن البابويَّة حَرَمَتْهُ كَنَسياً، واعتبرته مُهرطقاً ومُجحفاً، وحانثاً بالقَسَم، لكنَّ فريدريك حرم البابويَّة من ثرواتها، ومن كثير من أملاكها، فتحوَّل في الخيال الشَّعْبي الأُورُبي إلى شخصية تُعاقب رجالَ اللاهوت في أيَّام الدُّنيا الأخيرة. أمَّا في ألمانيا؛ فقد اعتبر المُخلّص ضدَّ ظُلم الكَنيسَة، لذلك ردَّ البابا بوضع كُلِّ ألمانيا تحت الحرمان، وردَّ على البابا الوُعَّاظ المُتجوِّلون، الذين "أعلنوا البابا أنوسنت الرَّابع شرِّيراً، إلى درجة أن حرمانه لا يعني شيئاً، وأن البابا

1 - البابا أنوسنت الرَّابع: نبيل جنوي، ضالع في القانون الكَنَسي، ماهر في الأُمُور المالية. (تاريخ أُورُوبا في العُصُور الوُسْطَى، فيشر، ترجمة: مُحمَّد مُصطفى زيادة، 255).

2 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47/ 770.

والأساقفة مُهرطقين، وطلبوا من الناس الصلاة للإمبراطُور فريدريك وابنه كونراد الصالحَيْن الكاملَيْن معاً"[1].

لقد كان للصراع بين البابا أينوسنت الرَّابع والإمبراطُور فريدريك الثَّاني أثراً واضحاً في الشَّرق تعدَّى الإمارات الفرنجيَّة إلى الممالك الأيُّوبيَّة، فبعد فشل الحملة الخامسة، حملة البارونات على مصر، مُباشرة، أصدر مجمع ليون642 هـ 1245م، قراراً بتوجيه حملة جديدة، لكنَّ انشغال البابا بالصراع مع فريدريك جعله يُوجِّه هذه الحملة ضدَّه، لذلك لَعَنَهُ، وحَرَمَهُ كَنَسياً، وعدَّه مُلحداً؛ ليستحقَّ أن تتوجَّه حملة صليبية ضدَّه، فأخذ البابا التبرُّعات المالية للحملة الصَّليبيَّة، واستخدمها ضدَّ فريدريك.

إن صراع البابويَّة ضدَّ فريدريك كان مُنبِّهاً لكثير من الفُرسان والنُّبلاء الأُورُبيين لاستغلال البابويَّة لهم، فقد رفض الباروناتُ الإنكليزُ ـ صراحةً ـ الاشتراكَ في الحملة التي دعا إليها مجمع ليون، وقال هنري الثَّالث ملك إنكلترا لمبعوث البابا: إن وُعَّاظ الحملة يخدعون الشعب، ولن نسمح لهم بعد ذلك. وحتَّى في أوساط اللاهوتيين؛ ارتفعت أصوات المُعارضة للحملات الصَّليبيَّة نحو فلسطين، فقد صرَّح اللاهوتي رادولف نيفر قائلاً: من الجُنُون التدخُّل في شُؤُون فلسطين حين تتعرَّض المَسيحيَّة في الغَرْب لخطر الهرطقة، وقال: أيُّ معنى لتحرير القُدْس من المُسلمين حين يتجذَّر الكُفْر في أرض الوطن. وكان الشاعر المُغنِّي الجوَّال الفرنسي ريمون جوردان يتغنَّى في إحدى قصائده قائلاً: إن ليلة مع الحبيبة أفضل من جميع أطايب الجنَّة، التي يُوعَد بها المُشارك بحملة صليبية. أمَّا الشاعر الجوَّال بيرود؛ فكان يتغنَّى بمقطع يقول فيه:

أرض الوطن عزيزة على الناس ... من صلاح الدِّين شبعنا

وتعدَّى الأمر إلى التفكير في أُورُبة بشرعية الحملات أصلاً، فنقدوها بشكل لاذع، وعبَّر الشاعر الجوَّال الألماني فولغرام فون ايشتنباخ عن رأي عدد من الفُرسان حين قال: إنَّه من المشكوك فيه أن يكون من العدل قتل أتباع الأديان الأُخرى. إضافة إلى أن الصراع بين البابويَّة والإمبراطُور قد

1 ـ السعي وراء الفترة الألفية السَّعيدة، فورمان كوهين، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 4/ 143 ـ 144.

مزّق إيطالية وألمانيا[1]. أمّا إنكلترا؛ فقد حزم ملكها هنري الثّالث[2] أمره بعدم المُشاركة في أيِّ حملة، ودفع للبابا أنوسنت الرّابع ليس لإعفائه من السفر بنفسه فقط، بل لمنع الإنكليز كافّة من الإبحار نحو الشّرق، وفرض حراسة مُشدَّدة على شواطئ بلاده لمنع أيِّ صليبي من المُغادرة[3]. أمّا الحملة الفرنسيَّة نحو مصر؛ فلم تتمّ إلاَّ بضغط شديد يُشبه الهَوَس من قبَل لويس التّاسع ملك فرنسا.

إن البابويّة وازنت بين مصالحها في أُورُبة وما تُحقّقه الحملات إلى الشّرق، فتبيَّن لها أن الكفّة تميل بشدَّة نحو أُورُبا، إضافة إلى المُقاومة التي كانت تلقاها فكرة الحملات الجديدة. أمّا الوُعّاظ البابويون؛ فقد طوَّروا أُسلوبهم في الدعوة، ولأن الجانب المالي من رسالتهم هُو المُهمُّ، لذلك غفروا خطايا مَنْ يتبرَّع بالذهب والفضَّة كفداء لنفسه من الاشتراك الشخصي بالحملة. أمّا البابا؛ فكان تطويره لأفكار الحملات وأهدافها أكبر من ذلك، فقد أعلن: "أن القُدْس لم تعدْ هدف الحملة"[4]، فهُو يُريد تحقيق مشاريعه السّياسيَّة والعسكريَّة أوّلاً، فالهدف السّياسي للبابا أزاح بسُهُولة الهدف الدِّيني للحملة، ولذلك عندما قام لويس التّاسع بحملته الصّليبيَّة على مصر لم يقمْ البابا بأيِّ خُطوة إيجابية لمُساعدته، فقد كان البابا يخوض حربه الصّليبيَّة الخاصَّة ضدَّ فريدريك، وانشغل ـ تماماً ـ عن القدِّيس لويس[5]. وقام فريدريك بإرسال المُؤن إلى لويس عندما هدَّدته المجاعة في قبرص، فكتب لويس إلى البابا يرجوه إيقاف الحَرْب ضدَّ فريدريك، لإنقاذه الجيش الصليبي، فلم يلتفت له.

ثُمَّ كتبت بلانشي أُمّ الملك لويس إلى البابا تلتمس عفوه عن فريدريك، " فرفض البابا كُلَّ ذلك، وضايق فريدريك أكثر، فأكثر"[6].

وبعد الفشل المأساوي لحملة لويس، وأَسْره في مصر، ثُمَّ إطلاق سراحه، عاد أخوا الملك كُونت أنجو وكونت بواتيه إلى ليون، وقابلا البابا أنوسنت الرّابع، وأبلغاه طلب لويس المُساعدة والصُّلح مع فريدريك؛ ليتفرَّغا من حربهما لمُساعدته، لكنَّ البابا ـ على ما يبدو ـ لم يتحمَّس للطلب،

---

1 - الصّليبيُّون في الشّرق، زابارون، ترجمة: إلياس شاهين، 305 ـ 312.

2 - هنري الثّالث: عاش في الفترة ما بين أعوام 1216 ـ 1272م.

3 - A Chronicle of The Pops from St Peter to Pius X, Mc Killiam, p 432

4 - الصّليبيُّون في الشّرق، زابارون، ترجمة: إلياس شاهين، 304.

5 - Bray, p 263

6 - التاريخ الكبير، متّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكّار، 27 / 1057.

فهدّدا بإخراجه من مدينة ليون الفرنسيّة[1]، واتّهماه بالتسبُّب بهزيمة لويس في مصر؛ لتصرُّفه بالأموال التي جمعها باسم الحملة في أغراض أُخرى[2].

البابوات من وُجهة النظر الإسلاميّة:

لقد كانت في العالم الإسلامي فكرة قريبة جدّاً إلى الواقع عن الموقع الحقيقي للبابوات في أُورُبا المَسيحيّة، وبالتّالي؛ ربطوا هذا الموقع - بدورهم - في الحُرُوب الصّليبيّة. فقد شبَّه المُؤرِّخون المُسلمون مركزَ البابا الدِّيني بالنِّسبَة للمسيحيين في أُورُبا بمركز الخليفة في ديار الإسلام، حتّى إنّهم كانوا يُسمُّونه أحياناً: خليفتهم البابا[3]، وقد أدركوا أنّه رأس النصرانية الغَرْبيّة الدِّيني، فقد وصفوه بأنّه: إمام رُومية[4]. ولذلك كان جُزء كبير من تقديرهم لفريدريك ينبع من علاقته السَّيِّئة بالبابا، وحربه معه، وقد ساعد فريدريك بنفسه على هذه النظرة من خلال مُقارنة طريقة أجراها أثناء الحديث مع فخر الدِّين بن الشَّيخ بين البابا والخليفة العبّاسي[5]، وكان المُسلمون يعرفون - أيضاً - أن البابويّة قد تحوّلت إلى منصب سياسي أكثر منه ديني، فقد تحدَّث مُؤرِّخو المُسلمين عن حُرُوب البابا مع الإمبراطُوريّة الجرمانية، وردّدوا أنباء انتصارات فريدريك على البابا وإخضاعه له[6]، وعرفوا أن البابا لا يقوم بالمُؤمرات السّياسيّة فقط ضدّ خُصُومه، بل يلجأ إلى تنظيم الاغتيالات السّياسيّة ضدّهم إذا لزم الأمر، فقد ذكرت عدّة روايات أن البابا قد اتّفق مع بعض خواصّ الإمبراطُور فريدريك الثّاني

---

1 - أقام البابوات في ليون بعد طردهم من رُوما عام 1244م.

2 - Bray, p 263

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 194.

4 - وردت هذه التسمية في رسالة من الملك الجواد إلى أحد مُلُوك الفرنجة عام 630 هـ في سلطنة الملك الكامل بن العادل. (صُبح الأعشى، القلشندي، 7/ 118).

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 247، - قال ابن واصل: "بلغني أن الإمبراطُور لمّا كان بعكّا قال لفخر الدِّين ابن الشّيخ: أخبرْني عن الخليفة الذي لكم؛ ما أصله؟ فقال: هُو ابن عمّ نبيِّنا مُحمّد (ص)، أخذ الخلافة عن أبيه، وأخذها أبوه عن أبيه، فالخلافة مُستمرّة في بيت النبوة، لا تخرج منهم. قال الإمبراطُور: ما أحسن هذا؟ لكنّ هؤلاء القليلي العُقُول، - يعني الفرنج - يأخذون رجلاً من المزبلة، ليس بينه وبين المسيح نسبة، ولا سبب، جاهلاً، فدماً (الفدم: العي عن الحُجّة والكلام، وهُو الأحمق. - لسان العَرَب، مادّة: فدم)، يجعلونه خليفة عليهم، قائماً مقام المسيح فيهم، وأنتم خليفتكم ابن عمّ نبيِّكم، فهُو أحقُّ الناس بمرتبته. (مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 251).
إن هذه الرواية، بغَضّ النظر عن مُناقشة دقّتها، تُعطينا فكرة كاملة عن مفهوم المُسلمين الواضح لمنصب البابويّة من خلال مُقارنته بمنصب الخلافة.

6 - المنصُوري، ابن نظيف، 248.

لاغتياله وهُو نائم، ولكن فريدريك علم بالأمر من عُيُونه، فَقَتَلَ المُتآمرين[1]. كذلك ذكروا هزيمة مانفريد بن فريدريك أمام قُوَّات البابا، الذي تحالف مع شارل دي أنجو أخو لويس التَّاسع، مُقابل تسليمه صقلية، فهاجماها، وأسرا مانفريد، ويصف ابن واصل نهاية الإمبراطُور بقوله: "وتقدَّم البابا بذبحه، فذُبح"[2].

وكانت البابويَّة مُتشدِّدة بشأن الاتِّصال المُباشر بالسَّلْطَنَة الأيُّوبيَّة، فقد كان أكثر ما أخذه البابا على الإمبراطُور فريدريك الثَّاني هُو علاقته بالسُّلطان الكامل، ومُعاهدته معه، ولكنْ؛ على ما يبدو، فإن البابا اضطُرَّ أن يسلك سُلُوك فريدريك عينه، دُون أن يجد أيَّ حرج، فقد أرسل البابا إلى السُّلطان الصَّالح أيُّوب يطلب منه أن يمنح الصليبيين في فلسطين مُعاهدة سلام، أو على الأقلِّ؛ هُدنة، فردَّ عليه أيُّوب أن العلاقة المُميّزة بين السُّلطان والإمبراطُور، والعلاقة المُتوتِّرة بين البابويَّة والإمبراطُور لا تمنحه حُرِّيَّة عقد هذا الاتِّفاق، دُون معرفة رأي الإمبراطُور، وأنَّه قد أرسل إلى بلاط الإمبراطُور، وسوف يُبلغه الرَّدَّ[3]. فالسُّلطان الصَّالح أيُّوب لم يردْ تقديم خدمة مجَّانية للبابا تدعم نُفُوذه في العالم المسيحي، دُون الرُّجُوع للإمبراطُور لمعرفة رأيه، وكأن الصَّالح أيُّوب لا يُريد أن يُضحِّي بصداقة الإمبراطُور، وبالتحالف معه، خاصَّة بعد مُرُور زمن طويل على هذا التحالف، أثبت ـ خلاله ـ إخلاصه، بعلاقة غير مضمونة مع البابويَّة، التي لا تخجل من إظهار عدائها الدائم، وتحريضها ضدَّ المُسلمين.

وبشكل عامٍّ؛ كانت العلاقات المُباشرة بين البابويَّة والسَّلطنة الأيُّوبيَّة شبه معدومة، لتعنُّت البابوات، وتعصُّبهم ضدَّ علاقة كهذه، لكنَّ العلاقات غير المُباشرة كانت واسعة وذات تأثيرات فعَّالة جدّاً، فالحملة الرابعة حرفتها رغبة البابا عن الشَّرق الإسلامي، والحملة الخامسة كان من أهمِّ أسباب فشلها تصدِّي النائب البابوي لقيادتها، وبالمُقابل؛ كانت مُعاهدة الكامل مع فريدريك، وتسليم القُدْس، أمضى سلاح استخدمه فريدريك لمُقاومة البابا، والنصر عليه، أمَّا التحريبات واللعنات التي

---

1 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 760، وتاريخ الإسلام، الذهبي، 641 ـ 650، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 171، والمُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 204.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 251، ـ راجعْ تفاصيل الصراع بين البابويَّة وأباطرة الإمبراطُوريَّة الرُّومانيَّة المُقدَّسة من أفراد أُسرة هوهنشتاوفن في: أُورُبا العُصُور الوُسْطَى، سعيد عاشور 1/ 559.

3 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 899

كان يُطلقها البابوات على الدوام ضدَّ كُلِّ مَنْ يُتاجر مع المُسلمين، أو ينقل إليهم موادّ تدعم مجهودهم الحربي[1]، فيردّ عليها كلود كاهن بقوله: "بالرّغم من التحريمات الكَنَسية فلم تشهد تجارة الشَّرْق أيَّ توقُّف"[2].

وأخيراً؛ نجد أن علاقات الدولة البابويَّة مع الشَّرْق الإسلامي عامَّة، والسَّلطنة الأيُّوبيَّة خاصَّة، كانت من خلال اهتمامها بقضية الأراضي المُقدَّسة، التي رمت ـ من خلفها ـ إلى احتلال الشَّرْق الإسلامي، وإقامة دولة لاتينية كاثوليكية فيه، والقضاء على الهرطقة الأرثوذكسية، ومن ثَمَّ؛ القضاء على الإسلام، وسيادة العالم. وبدأ هذا المشروع الطُّمُوح عندما أعلن البابا أُورْبان الثّاني الدعوة إلى حرب صليبية لإنقاذ الأراضي المُقدَّسة، وتابع خُلفاؤه من بابوات رُوما الدعوة والتحريض، بل وإرسال الكاردينالات لقيادة المعارك ميدانياً، ولم يتورَّعوا ـ في سبيل تحقيق مشروعهم ـ عن القيام بأيِّ شيء بما فيه مُحاربة المسيحيين الكاثوليك، فقد تغاضوا عن نهب الملك ريتشارد لمدينة مسينا المَسيحيَّة، وسبي نسائها، وغفروا للصليبيين نَهْبَ مدينة زارا الكاثوليكية، وقَتْلَ سُكَّانها، وشجَّعوا الهُجُوم على الأرثوذكس في القسطنطينيَّة؛ لإجبارهم على اعتناق الكاثوليكية.

واستخدم البابواتُ مسيحيِّيْ أُورُوبا كأدوات سياسيَّة وعسكريَّة لتنفيذ مشروعهم الكبير، لكنَّ أدواتهم هذه كانت ـ في كثير من الأحيان ـ تهتمُّ بمصالحها قبل اهتمامها بالولاء الدِّيني للبابوات، فالإيطاليون كان يهمُّهم الربح في التجارة أَوَّلاً، والإمبراطُور فريدريك انقلب على البابوات، وحاربهم، أمَّا القدِّيس لويس، وهُو آخر أداة مُهمَّة للبابوية؛ فقد كان فشله ذريعاً.

وكان البابوات يُعلنون ـ دائماً ـ رفضهم لأيِّ علاقات مُباشرة مع المُسلمين إلاَّ علاقة الحَرْب، ولذلك لم نُلاحظ قيام علاقات سياسيَّة مُباشرة بين البابويَّة والسَّلطنة الأيُّوبيَّة. أمَّا العلاقات العسكريَّة المُباشرة؛ فقد تمثَّلت في قيادة النائب البابوي بيلاجيوس للحملة على دمياط في عهد الملك الكامل. ولم يهتمّ حُكَّام المُسلمين عموماً، والأيُّوبيُّون خُصُوصاً، بقيام علاقات مُباشرة مع البابويَّة، ولم يسعوا إليها، فقد كانت الفكرة السائدة لدى المُسلمين عن البابا بأنَّه ذا منصب سياسي ديني يُشبه منصب الخليفة العبَّاسي بالنِّسبة للمُسلمين.

---

1 ـ الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 107.

2 ـ الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 262.

المبحث الثَّاني:

سياسة دُول المدُن الإيطالية تجاه الشَّرْق الإسلامي

في عصر المماليك الأيُّوبيَّة كانت إيطالية تتشكَّل من جُمهوريات مُستقلَّة، وكانت كُلُّ جُمهورية منها تقوم في مدينة كُبْرَى، مثل: البُنْدُقيَّة، بيزا، جنوة، وأمالفي، ولكنَّها كُلّها تتبع نمطاً اقتصادياً واحداً، يقوم على التجارة البَحْريَّة، وقد تمكَّنوا جميعاً، بفضل الأساطيل المُتنوِّعة الضخمة، من أن يُحقِّقوا أرباحاً خيالية، وأن تصل هذه المُدُن إلى مُستويات عالية من الثروة[1]. ورُبَّما بسبب هذه الثروة؛ كان الأُورُبيون ـ وخاصَّة الفرنسيون ـ يحتقرون الإيطاليين، ويقولون بأنَّ سُكَّان إيطالية ما هُم إلاَّ عبيد، وقراصنة، أو تُجَّار، وبحَّارة، بينما الفرنسيون فُرسان[2]. ورُبَّما نلحظ شيئاً من هذا في الحُرُوب المُستمرَّة والمُدمِّرة ـ أحياناً ـ بين الجُمهُوريات الإيطالية، وذلك بسبب تنافسهم التِّجاري، وحماية المصالح التِّجاريَّة الخاصَّة لكُلّ منهم إن كان في أُورُبة، أو في خارجها، لذلك عندما دعا البابا أُورُبان الثَّاني إلى مُؤتمر كليرمونت عام **488 هـ ـ 1095**م، أرسلت المُدُنُ الإيطالية الكُبْرَى مندوبيها لحُضوره[3]، فهي لا يُمكن أن تغيب عن حدث كبير لم يكن أحد ـ وقتها ـ يستطيع أن يُقدِّر ما سيتمخَّض عنه.

وما إن بدأت الحملات الفرنجيَّة على الشَّرْق الإسلامي، حتَّى انشغلت بها الجُمهُوريات الإيطالية، وشكَّلوا الجناح التِّجاري الاقتصادي، مُقابل الجناح الاستعماري الاستيطاني، حتَّى قيل: "إن الاستعمار والتجارة أمران ارتبطا ـ بشدَّة ـ بتاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة"[4]، فمن الحملة الأُولى حتَّى حملة لويس التَّاسع على دمياط[5] قلَّما كان يُوجد نشاط صليبي، بدُون مُشاركة إيطالية فعَّالة.

لكنْ؛ في أوَّل الأمر، كانت تصرُّفات الإيطاليين ـ بشكل عامٍّ ـ تتَّصف بالتردُّد، ورُبَّما كان ذلك لأنَّهم كانوا يدرسون موقفهم التِّجاري، وفي أيِّ طرف هُو أكثر ربحاً؟ وما هي الظُّرُوف

---

1 - الحُرُوب الصَّليبيَّة وتأثيرها، عزيز سوريال عطية، 146.

2 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري، مخطوطة مدينة ليون / 828، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8/ 291.

3 - مصر في عصر الأيُّوبيِّين، السَّيِّد الباز العريني، 9.

4 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 146.

5 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 36 / 149.

الجديدة الناشئة عن الحَرْب؟ وأين ستكون مصلحتهم الحقيقيَّة؟ فأوَّل الأمر كان منهم مَنْ هُو ضِدَّ الحَرْب؛ لأنَّها تُؤدِّي إلى كساد التجارة، وخاصَّة إذا كانت مع المُسلمين الذين يتحكَّمون في كُلِّ الطُّرُق التي تُؤدِّي إلى الشَّرْق، فلم يكن الإيطاليون على استعداد ـ أبداً ـ للتضحية بمصالحهم، والقضاء على مصادر ثرواتهم تجاه الله، فقامت كُلُّ مدينة إيطالية بطُرُقها الخاصَّة بإجراء اتِّصالات سرِّيَّة مع المُسلمين، لإعلان تنصُّلهم من العُدوان، وإبداء الرغبة في التفاهم[1]. وهذا ما أعاق انخراط المُدُن الإيطالية في الحَرْب مُنْذُ بداياتها، فلم يظهر أثرهم المحسوس فيها إلاَّ بعد انتهاء الحملة الأُولى، وقيام مملكة القُدْس والإمارات الفرنجيَّة الأُخرى في الشَّام، فقد لمسوا ـ عندها ـ إمكانية الفائدة التِّجاريَّة من الوضع الجديد، خاصَّة أنَّهم كانوا قد مهَّدوا للتعاون مع الفرنج، فالسُّفُن الإيطالية التي كانت قُرب الساحل الشَّامي قدَّمت المُؤن والذخائر، ودعمت ـ بفعَّالية ـ الحملة في حصارها لأنطاكية، وكذلك فعلت في حصار القُدْس، ورُبَّما بدُون هذا الدعم البَحْري لما تمَّتْ هذه الانتصارات السهلة للفرنجة[2]. وكذلك قامت أساطيل كُلِّ المُدُن الإيطالية: جنوه، البُنْدُقيَّة، بيزا، وأمالفي، بدعم مدينة صُور عندما حاصرها السُّلطان صلاح الدِّين[3]، وسيكون لأساطيل هذه المُدُن دور بارز في الحملات الفرنجيَّة التي تمَّتْ فيما بعد على مصر[4]. ولكن الثمن الذي طلبته المُدُن الإيطالية مُقابل خدماتها للفرنجة كان باهظاً، فقد حصلوا على امتيازات تجارية كبيرة بلغت حدَّ قيام أحياء كاملة لكُلِّ جالية منهم في المُدُن المُحتلَّة، وكانوا يُديرونها كأنَّها مُلك لهم.

وقام الإيطاليون بعرقلة مشاريع الحُكَّام الفرنجة في الإدارة، وحتَّى في التعامل مع المُسلمين، ما أمكنهم إلى ذلك من سبيل، فاهتمامهم الأوَّل هُو التجارة بما فيها التجارة مع المُسلمين، فكانوا غالباً ضدَّ أيِّ سياسة تُعرِّض السلام للخطر[5]، لذلك استنتج كثير من المُؤرِّخين الأُورُبيين أن المُدُن الإيطالية كانت تهدف ـ بالدرجة الأُولى ـ من مُشاركتها في الحُرُوب ضدَّ المُسلمين إلى السيطرة على

---

1 - الحُرُوب الصَّليبيَّة وتأثيرها، عزيز سوريال عطية، 147.
2 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 29
3 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زَكَّار، الموسوعة الشاملة، 3/ 385
4 - العلاقات بين الشَّرْق والغَرْب، مُحمَّد عبد المنعم خفاجي، 95
5 - سبع معارك، داهموس، ترجمة: فتحي الشاعر، 107

الطُّرُق التِّجاريَّة للسلع الشَّرْقيَّة، وما ستدرُّه عليهم من مكاسب كبيرة[1]، مُستدلِّين على ذلك بالمُعاهدات التي وقَّعوها مع مُلُوك وأُمراء الفرنجة في الساحل الشَّامي[2]، وقالوا إن الضرورة ألجأت الفرنجة للتعامل مع الإيطاليين، فقد كانوا بحاجة ماسَّة لأساطيلهم للنقل وللدعم البَحْري، بعد أن قنطوا من إمكانية استخدام الطريق البرِّيّ بسبب المُراوغة والغدر البيزنطي والهجمات الشرسة للتُّركمان في الأناضول. مع أن الفرنجة اللاتين كانوا ـ بالتَّأكيد ـ يعرفون أن الإيطاليين تُجَّاراً في الدرجة الأُولى، ثُمَّ مسيحيين فيما بعد، فشعار البنادقة كان على كُلِّ لسان؛ حيثُ يقولون: "لنكن ـ أوَّلاً ـ بنادقة، ثُمَّ ـ بعد ذلك ـ مسيحيين"[3].

ومع كُلِّ الآثار الضارَّة للعلاقات التِّجاريَّة بين الإيطاليين والمُسلمين على الوُجُود الفرنجي، فإن ما يفوقها ضرراً عليه هي الخلافات التِّجاريَّة والتحزُّبات السِّياسيَّة، التي أدَّت إلى صراع عسكري مكشوف بين الإيطاليين في فلسطين، كان له أسوأ الأثر على وُجُود الإمارات الفرنجيَّة في الشَّرْق، وسيكون له دور كبير في فنائها. وهذا ما دعا بعض المُؤرِّخين ليقول بأنَّ جشع الإيطاليين، وخلافاتهم، ومُنازعاتهم على المكاسب، قد تُسبِّب بتدمير القواعد البَحْريَّة اللازمة لنجاح المشروع الفرنجي في الشَّرْق، ويقول: إنَّهم فعلوا ما هُو أسوأ من ذلك؛ حيثُ عقدوا المُعاهدات التِّجاريَّة مع المُسلمين أعداء الفرنج[4]، وفي الحقيقة؛ فقد تأكَّد الإيطاليون بأنَّ المُعاهدات التِّجاريَّة المُتبادلة النَّفْع مع البُلدان الإسلاميَّة أوثق وآمن من الامتيازات التي حصلوا عليها في الأراضي المُحتلَّة، فقلَّ اهتمامهم ـ تدريجياً ـ بالمشروع الاستعماري الأُورُبي، وأخذوا ينظرون إلى الفرنجة بأنَّهم لا يقومون إلاَّ بعرقلة كَسْبهم للأرباح بصُورة مُنظَّمة ومُستمرَّة من التجارة المشرقية[5].

1 - Economic and Social, Pirenne, p. 181

2 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 29.
و Economic and Social Pirenne, p. 181

3 - كان البنادقة يقولون: Siamo Veneziani, poi Christiani
(The Invasion of Egypt , Davis, p. 411)

4 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 134.

5 - الصَّليبيُّون في الشَّرْق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 229.

وبالمُقابل؛ فقد أدركت الممالكُ الأيُّوبيَّةُ حاجتَهَا لكَسْب التُّجَّار الإيطاليين، فلوَّحت لهم بالمكاسب، وعقدت معهم الاتِّفاقيات على أساس الفائدة المُشتركة، فتحدّوا كُلَّ قرارات المنع وكُلّ التزام ديني، ونقلوا البضائع من وإلى الموانئ الإسلاميَّة، وخاصَّة موانئ مصر. وعلى ما يبدو؛ أدرك المُسلمون ما للمصالح الإيطالية من أهمِّيَّة في بقاء الإمارات اللاتينيَّة، وأدركوا التنافس القائم بين الجُمهُوريات الإيطالية وما يحدث بينهم من خلافات، وعلى هذه الأُسُس ركَّزوا اهتمامهم على التجارة الإيطالية. فمُنْذُ أوائل عهد الدولة الأيُّوبيَّة نشط التُّجَّار الإيطاليون فيها، وخاصَّة في مصر، بعد تأمينها طريق البحر الأحمر، فموانئ الشَّام ـ بمُعظمها ـ بيد الفرنج، وما هُو بيد المُسلمين إمَّا مُهدَّم، أو غير آمن، فزادت موارد الدولة الأيُّوبيَّة من جهة، وأضعف النشاط التِّجاري للفرنجة، وبالتَّالي؛ مواردهم المالية.

وكان للملك العادل دور كبير في تشجيع التجارة عبر مصر، ففي عام **608** هـ **1211**م، كان يجتمع في مدينة الإسكندرية وحدها ثلاثة آلاف تاجر من الفرنج[1]، ما عدا مُرافقيهم، ومُساعديهم، وعُمَّالهم، وبحَّارة سُفُنهم، ممَّا شكَّل حَرَكَة تجارية نشطة، كانت الممالك الأيُّوبيَّة بأمسِّ الحاجة إليها، لحاجتها إلى كثير من الموادِّ المجلوبة، وللرُّسُوم الوافرة المفروضة على التجارة. وسار الملك الكامل على نهج والده العادل في دعم حُرِّيَّة التجارة لإدراكه أهمِّيَّة استفادة بلاده منها، ففي عام **629** هـ **1232**م، كان الكامل في دمشق يستعدُّ لحملة الجزيرة، فوصله الخبر أنَّ رُسُلَ جُمهُوريات البُنْدُقيَّة، وجنوة، وغيرهم، في الإسكندرية ينتظرون الإذن بمُقابلته[2]. ويجب أن لا نفهم من هذا أن الإيطاليين قد قاطعوا الفرنجة في الساحل الشَّامي، بل، على العكس، فهُم لا يُفوِّتون فُرصة للربح، ولا مكاناً لاقتناصه، فقد كانت جالياتهم في المُدُن الفرنجيَّة في فلسطين تصول، وتجول، وتُقيم دُولاً ضمن الدولة[3].

ويبدو أن التجارة والأرباح تكون ـ دائماً ـ فوق المُعتقدات، وفوق مُقتضيات السياسة، وحتَّى لا نظلم الإيطاليين، فلننظر إلى حال التجارة بين المُسلمين والفرنجة في فلسطين من خلال ما رآه ورواه ابن جُبَيْر في رحلته إلى مناطق السيطرة الفرنجيَّة عام **581** هـ **1185**م، في عهد السُّلطان صلاح الدِّين، يقول ابن جُبَيْر: "ونحنُ بدمشق على قدم الرحلة إلى عكَّة، التماس رُكُوب البحر مع تُجَّار النصارى، في

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1 / 294.

2 - المنصُوري، ابن نظيف، 248.

3 - مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، د. سُهيل زكَّار، الموسوعة الشاملة، 2/ 409.

مراكبهم المُعدَّة لسفر الخريف. وكان انفصالنا في قافلة كبيرة من التُّجَّار المسافرين بالسلع إلى عكَّة، ومن أعجب ما يُحدَّث به في الدُّنيا أن قوافل المُسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج وسبيهم يدخل إلى بلاد المُسلمين"، فقد استولى صلاح الدِّين على مدينة نابلس، وعاد الجيش بالغنائم والأسرى إلى دمشق، "وخرجنا نحنُ من دمشق وأوائل المُسلمين قد طرقوا بالغنائم، وكان مبلغ السبي آلافاً لم تتحقَّق إحصاءها.. وخرجنا نحنُ إلى بلاد الإفرنج وسبيهم يدخل بلاد المُسلمين، وناهيك من هذا الاعتدال في السياسة"[1]، إن هذه الواقعية في التجارة، وفصلها عن الأُطُر السِّياسيَّة والعقائدية والصراعات العسكريَّة أمر مطلوب لمصلحة الجميع، وهُو اعتدال مرغوب كما قال ابن جُبَيْر، فعكَّا ـ على سبيل المثال ـ كانت مدينة تجارة دولية، فيها الجاليات الإيطالية والإسلامية على السواء.

1. البُنْدُقيَّة (فينيسيا):

كانت مدينة البُنْدُقيَّة تُشكِّل أكبر قُوَّة بَحْريَّة في البحر الأدرياتيكي، وتتطلَّع للسيطرة على كامل الحوض الشرقي للبحر المُتوسِّط، ولا يُنافسها ـ في ذلك ـ إلاَّ مدينتا بيزا وجنوة[2]. ولم تكن المُنافسة عسكريَّة، أو استعمارية، في أهدافها البعيدة، بل تجارية محضة، فقد آمنوا بجني الأرباح، وجمع الثروات من خلال نقل البضائع، والبيع، والشراء. ويبدو أن البُنْدُقيَّة تمكَّنت من احتلال موقع الصدارة بين المُدُن الإيطالية؛ بفضل الأُسطُول الهائل، الذي كانت تملكه، فقد بلغت أعداد سُفُنه عام **823** هـ **1420**م، ثلاثة آلاف سفينة مُتنوِّعة، يعمل عليها سبعة عشر ألف بحَّار، يدعمهم ستَّة عشر ألف عامل في أحواض السُّفُن[3].

كانت علاقات البُنْدُقيَّة العسكريَّة بالشرق الإسلامي مُبكِّرة، تعود إلى أيَّام الحملة الفرنجيَّة الأُولى على الشَّرق؛ حيثُ دعم أُسطُولها ـ بشكل فعَّال ـ حصار أنطاكية، ثُمَّ دعم حصار القُدْس.

وفي عام **518** هـ **1124**م، وصل دُوق البُنْدُقيَّة دُومنغو ميشيل على رأس أُسطُول ضخم إلى عكَّا، وكان يضمُّ أكثر من مائة وعشرين سفينة قتالية مع سُفُن النقل، ما عدا القوارب، وقد حملوا

---

1 - تذكرة بالأخبار عن اتِّفاقات الأسفار، ابن جُبَيْر، 244 ـ 246.

2 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 144.

3 - مارينو ساتودو، حياة قُضاة البُنْدُقيَّة، نقل عنه: عزيز سوريال عطية، الحُرُوب الصَّليبيَّة وتأثيرها، 169.

معهم أدوات الحصار، وضمَّت الحملة خمسة عشر ألف مُقاتل وحاجّ، وثلاثمائة حصان[1]. وأثناء الاحتفال بعيد الميلاد في القُدْس وبيت لحم في العام نفسه 518 هـ1124 م، اتَّفق فرنج الساحل الشَّامي مع دُوق البُنْدُقيَّة للهُجُوم على مدينة صُور، وبالفعل؛ تمَّ حصار المدينة، وكان للبنادقة دور مُهمٌّ كبير في سُقُوطها، فحصلوا ـ مُقابل ذلك ـ على ثُلث مدينة صُور، وأراضيها[2]، ورُبَّما كانت مُساهمة البُنْدُقيَّة في احتلال صُور هي نُقطة التحوُّل في علاقاتها بفرنجة الشَّرْق، فقد كانت البُنْدُقيَّة حتَّى ذلك الوقت لا تزجُّ بقُوَّات كبيرة في دعم فرنجة الشَّرْق، لكنْ؛ بعدما رجحت كفَّة الفرنجة على المُسلمين، وبدا أن الامتناع عن المُشاركة الفعَّالة سيُؤدِّي إلى حرمانهم من غنائم كبيرة، قرَّرت البُنْدُقيَّة تأمين الدَّعْم العسكري البَحْري لفرنجة الساحل الشَّامي، مُقابل الحُصُول على مكاسب وامتيازات تجارية مُتزايدة[3].

البُنْدُقيَّة تقود الحملة الرابعة:

تجمَّعت الحملة الفرنجيَّة على الشَّرْق، والتي تُعرَف بالرابعة، في فرنسا، وكانت أُورُبا قد اقتنعت بأنَّ الطريق البَحْري إلى الشَّرْق هُو الطريق الأفضل، ولوُجُود أكبر عدد من السُّفُن في أُورُبا في البُنْدُقيَّة سارت رُسُلُ القائمين على الحملة إليها. وبعد أن رحَّب دُوق البُنْدُقيَّة أنتكيو داندولو برُسُل الفرنسيين عرضوا رسالتهم أمام مجلس البُنْدُقيَّة قائلين: "إن أمراءنا يعرفون أنَّه ليس هُناك شعب يُمكن أن يُساعدهم بشكل جيِّد جدّاً مثل شعبكم"، وأبلغوهم طلب الحملة أُسطُول البُنْدُقيَّة لنقلها إلى الشَّرْق. وتمَّ الاتِّفاق بين الرُّسُل والدُّوق على ما يلي:

1 ـ نقل أربعة آلاف وخمسمائة فارس مع خُيُولهم.

2 ـ نقل عشرين ألف جُندي مُشاة.

3 ـ تقوم البُنْدُقيَّة بتموين الحملة لمُدَّة ستَّة أشهر.

---

1 - تاريخ الحملة إلى القُدْس، فُولتشر أُوف تشارترز، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 6 / 474 ـ 479.
2 - تاريخ الحملة إلى القُدْس، فُولتشر أُوف تشارترز، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 6 / 506.
3 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 104.

4 ـ أجور النقل: للرجل ماركان، وللحصان خمسة ماركات، فتكون الكلفة الكاملة للحملة خمسة وثمانون ألف مارك[1].

5 ـ إعطاء البُنْدُقيَّة مُهلة سنة واحدة لبناء وإعداد السُّفُن اللازمة للحملة.

6 ـ تتبرَّع البُنْدُقيَّة بخمسين سفينة كبيرة مُقابل نصف الغنائم التي تحصل عليها الحملة[2].

ووُقِّعت الاتِّفاقية، وخُتِمَتْ، وأقسم الدُّوق بالإنجيل على الالتزام بالاتِّفاق، وكذلك الستَّة والأربعون عُضواً في مجلس البُنْدُقيَّة، وتلا ذلك إقامة اجتماع شعبي في كاتدرائية سان ماركوس طلب فيه الدُّوق مُوافقة شعب البُنْدُقيَّة على الاتِّفاقية، فوافقوا، وقام رُسُلُ الحملة لتأكيد الاتِّفاق باقتراض خمسة آلاف مارك، وسلَّموها للدُّوق عُربوناً[3]، وأرسل الدُّوق معهم مندوبيه لاستلام عشرين ألف مارك أُخرى هي تتمَّة الدفعة المُعجَّلة من المبلغ المُتَّفق عليه[4].

وبعد أن أكملت البُنْدُقيَّةُ إعدادَ أُسطُولها، واكتمل تجمُّع حملة الحُجَّاج فيها، وأقلعوا باتِّجاه الشَّرْق، وبعد فترة وجيزة من إبحارهم كانوا مُقابل مدينة زارا[5]، فجمع الدُّوق بارونات الحملة، وقال لهم: "لقد ألحقت هذه المدينة بي وبشعبي مضارَّ عظيمة، وأذى كبير، وإنَّه لمن دواعي سُرُوري الانتقام منها، لهذا؛ أرجو مُساعدتكم"، فرحَّب البارونات بذلك، وبدأ الحصار، فأرسل أهل زارا إليهم نُسخة مرسوم من البابا يقضي بحرمان كُلِّ مَنْ يُهاجمهم، أو يلحق الضرر بهم، وتُلي المرسوم في مُعسكر الحملة، فانبرى الدُّوق قائلاً: "أيُّها السادة؛ تيقَّنوا إنِّي لن أتخلَّى مهما كانت الضُّغُوط عن الانتقام من أهل زارا، حتَّى مع وُجُود قرار الحرمان من البابا"، فوعده الجميعُ بالمُساعدة عن طيب خاطر. وانقضُّوا على المدينة، حتَّى استسلمت، فتمَّ اقتسامها مُناصفة بين الحُجَّاج والبنادقة. ولمَّا بدا أن القسمة لم تكن عادلة، ولشُعُور الحُجَّاج بالغُبن، نشب بينهم وبين البنادقة قتال عنيف استمرَّ حتَّى

---

1 - يقول روبرت دي كلاري: إن دوق البُنْدُقيَّة طلب مائة ألف مارك ذهبي، ثُمَّ تمَّ الاتِّفاق على سبع وثمانون ألف مارك. (سُقُوط القسطنطينيَّة للصليبيين، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 10/ 206)

2 - يُضيف روبرت دي كلاري شرطاً آخر وهُو: أن يرافق الحملة نصف القادرين على القتال من البنادقة. (سُقُوط القسطنطينيَّة للصليبيين، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 10/ 206)

3 - الاستيلاء على القسطنطينيَّة، فيلهاردين، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 10/ 36

4 - سُقُوط القسطنطينيَّة للصليبيين، روبرت دي كلاري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 10/ 206

5 - زارا: مدينة في إقليم دلماشيا على الساحل الشرقي للبحر الأدرياتيكي، تتبع الآن لجمهورية كرواتيا.

أبرم الصُّلح، وأعادوا الاتِّفاق على توزيع الغنائم[1]. وقد نستغرب كيف أن الحُجَّاج المُؤمنين قادتهم أطماع البُندُقيَّة لقتل ونهب وتدمير بلدة مسيحيَّة كاثوليكية مُؤمنة، وفوق كُلِّ ذلك تتمتَّع بحماية البابا خليفة بطرس رأس الكَنيسَة، وقد دعمها بحرمان واضح لكُلِّ مَنْ يعتدي عليها، ومع ذلك؛ لم يرفّ جفن لحاجٍّ، أو بُندُقي، وهُو يقتل، ويُدمِّر، وينهب إخوانه في العقيدة. ولكن الأمر الأعجب من ذلك هُو موقف البابا نفسه، فبعد الاستيلاء على زارا أرسل الحُجَّاج والبنادقة يطلبون غفران البابا، فأصدر صاحب الكرسي الرسولي منشور غُفراناً لجميع الحُجَّاج والبنادقة، الذين هاجموا، وقتلوا، ونهبوا أهل زارا، وهذا ما دفع الحُجَّاج والبنادقة للاحتفال، وقرَّروا إمضاء الشتاء في المدينة المنكوبة للإجهاز على ما بقي فيها[2]. وإنْ كُنَّا لا ندري ما هُو ثمن تلك الصفقة مع البابا، فإنَّنا نعرف - بالتَّأكيد - أنَّها تمَّتْ على حساب أهل زارا، إنْ لم نقلْ من أموالهم ومنهوباتهم.

وخلال تمضية الحملة لفصل الشتاء في زارا، كان قادة الحملة من البارونات ودُوق البُندُقيَّة يتباحثون، حول وُجهة الحملة، فتبيَّن لهم عدم إمكانية التّوجُّه إلى مصر، أو سُورية، فتمويل الحملة وغنائمها أنفق مُعظمها أُجور نقل ومصاريف احتفالات باذخة في زارا، بينما البُندُقيَّة ترفع - باستمرار - أُجور سُفُنها، ولمَّا استعصى الحلُّ "انبرى الدُّوق قائلاً: إن في بلاد البيزنطيين أراض عظيمة الخصب، تُنتج كُلَّ ما هُو طيِّب، وعندي أن أفضل خُطَّة نعتمدها هي أن نبحث عن ذريعة تُسوِّغ زحفنا إلى تلك البلاد، لنتزوَّد بها من مُؤن، وأعلاف، وغير ذلك ممَّا نحتاجه، عند ذلك نمتلك القُدرة على استئناف السفر إلى ما وراء البحار"[3]. ومع أن المسافة من زارا إلى القسطنطينيَّة تكاد تكون المسافة نفسها إلى سُورية، فقد كانت حُجَّة دُوق البُندُقيَّة مُقنعة جدَّاً للحُجَّاج، فالحجُّ الثَّاني لهم سيكون في القسطنطينيَّة بعد زارا، فإنْ كانت زارا مسيحيَّة كاثوليكية تتمتَّع بحماية البابا، فإن القسطنطينيَّة، مع أنَّها مسيحيَّة، لكنَّها أرثوذكسية مارقة بنَظَرهم، وحدث ما لم يكن في الحُسبان، "فعندما سمع البابا هذا غلبه السُّرور، وأمر بكتابة رسائل على الفور إلى الحُجَّاج، وأرسل أحد الكرادلة، وجعل منه مُمثِّلاً له، وأرسل معه بركاته للجميع، ودعوة بأنَّهم إذا تخلَّوا عن الحملة إلى سُورية للذهاب إلى القسطنطينيَّة،

---

1 - سُقُوط القسطنطينيَّة للصليبيين، روبرت دي كلاري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 10 / 212.

2 - سُقُوط القسطنطينيَّة للصليبيين، روبرت دي كلاري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 10/ 212.

3 - سُقُوط القسطنطينيَّة للصليبيين، روبرت دي كلاري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 10/ 214.

فإن كُلَّ مَنْ يموت في هذه الحملة سينال الغُفران، وتُوضَع عنهم خطاياهم، كما لو كانوا ماتوا عند قبر المسيح"[1].

ولَمَّا وصل الكاردينال مُمثِّل البابا النائب الرسولي إلى زارا، قام بتلاوة أمر البابا، ثُمَّ شرح لأفراد الحملة أن هذا أفضل لجميع المسيحيين؛ حيثُ سيتمُّ الاتِّفاق، وتماثل الأفكار بين الفرنجة واليونان، بدل الذهاب إلى سُورية بدُون أمل في النجاح[2]. ولم يكن لا الحُجَّاج، ولا البنادقة، بحاجة إلى ذريعة، إنَّما جاءتهم هذه الفتوى البابويَّة كدعم مجَّاني لمشاريعهم، فسواء كان الأمر ضدَّ رغبة البابا، كما حدث في زارا، أو تمشِّياً مع رغباته، كما هُو الحال الآن، فالهُجُوم على القسطنطينيَّة كان قد تقرَّر بين دُوق البُندُقيَّة وبارونات الحملة. ولَمَّا جاء الربيع كان حُجَّاج الحملة والبنادقة يُحاصرون القسطنطينيَّة، ثُمَّ انقضُّوا عليها، واحتلُّوها عام **601** هـ **1204**م، وبمُنتهى الديمُقراطية انتخبوا بلدوين كُونت فلاندرز أوَّل إمبراطُور لا تيني في القسطنطينيَّة، وأضحت المدينة الأُسطُورية، العظيمة بثرواتها وكُنُوزها نهباً لرُعاع فرنسا وقراصنة البُندُقيَّة، مُبرِّرين عملهم أمام الله بأنَّهم يتزوَّدون بها لقتال أعدائه المُسلمين، واسترداد الأرض المُقدَّسة منهم، واستمرَّ التزوُّد من خيرات القسطنطينيَّة ستِّين عاماً، دُون أن يُفكِّر أيُّ لاتيني بالسفر إلى الأرض المُقدَّسة، أو إلى غيرها، إلى أن تمكَّن البيزنطيون من طَرْدهم منها بعد مذبحة رهيبة ارتكبوها في الحيِّ اللاتيني، ردَّ عليها الهاربون بمذابح أرهب لسُكَّان الجُزُر اليونانية العُزَّل[3].

لقد كَتَبَ كثير من المُؤرِّخين عن خيانة البُندُقيَّة للقضية المَسيحيَّة بتحويلها الحملة عن هدفها في الشَّرق الإسلامي إلى القسطنطينيَّة، وأنَّها كانت في ذلك مُتواطئة مع الملك العادل لتحصل منه على امتيازات تجارية في مصر، ومع أن البُندُقيَّة - بالفعل - عقدت اتِّفاقاً مع الملك العادل عام **605** هـ **1208**م، حصلت فيه على امتيازات تجارية في مصر[4]، لكنَّ مُجريات هذه الحملة بكاملها تدين الفكرة الصَّليبيَّة بكاملها، بدءاً من الدُّعاة والمُحرِّضين في رُوما، إلى المُنفِّذين من الحُجَّاج الأُورُبيين، ثُمَّ

---

1 - تاريخ المورة، مجموع هافنسيس/ 57، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 10/ 386.

2 - تاريخ المورة، مجموع هافنسيس/ 57، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 10/ 386.

3 - راجعْ: مبحث العلاقات مع بيزنطة في هذا الكتاب.

4 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 103.

أدواتها الإيطاليين، لأن البُنْدُقيَّة لا يُمكن أن تُعدَّ المسؤولة الوحيدة عن مُجمل جرائم الحملة الرابعة في زارا، وفي القسطنطينيَّة، وفي عدم التوجُّه إلى الشَّرْق الإسلامي، لعدَّة أسباب، منها:

ـ أوَّلاً: غَفَرَ البابا ـ رغم حرمانه السَّابق ـ كُلَّ ما قام به الحُجَّاج في زارا من جرائم وقتل ونهب.

ـ ثانياً: كان البارونات الفرنسيون يُوافقون على الخُطط التي يطرحها دُوق البُنْدُقيَّة، ليس لبراعته في الإقناع، بل لبراعته في إثارة طمعهم بالغنائم.

ـ ثالثاً: يُمكن القول إن البُنْدُقيَّة كانت تحصل على كُلِّ ما تُريده من امتيازات في الشَّرْق، وحملة الشَّرْق قد تزيد في غنائمها، لكنْ؛ بالنِّسبة لها كان إزاحة المُنافسين من الطريق كمدينة زارا، وضرب قواعد البيازنة والجنوبيين الذين حصلوا على امتيازات أفضل في القسطنطينيَّة، كان أَوْلَى وأهمّ، فلذلك سعى البنادقة لتحويل وُجهة الحملة بما يُناسب مصالحهم، وهذا شيء غير مُستغرب من بلد يحكمه التُّجَّار، ويعيش على التجارة.

إن كُلَّ ذلك لا يعني انفصال البُنْدُقيَّة عن عالم الفرنجة ومُستعمراتهم في الشَّرْق الإسلامي، بل استمرَّت في مكانتها العسكريَّة والتِّجاريَّة هُناك، واستمرَّت في مُنافستها الفعَّالة للبيازنة والجنوبيين، أمَّا بالنِّسبة للسَّلطنة الأيُّوبيَّة؛ فقد سعت البُنْدُقيَّة لتوثيق العلاقات معها، وكانت مُعاهداتها التِّجاريَّة تتجدَّد باستمرار، فعندما تولَّى الملكُ الكاملُ سلطنةَ مصر عقدت البُنْدُقيَّة مُعاهدةً تجاريةً معه[1]، رُبَّما كانت تجديداً لمُعاهدتها مع والده السُّلطان العادل.

2 ـ جنوة:

مُنْذُ بداية الحملات الفرنجيَّة على الشَّرْق الإسلاميَّة كانت أُورُبة تُدرك أهمِّيَّة القوى البَحْريَّة للمُدُن الإيطالية، ففي عام 489 هـ 1096م، دعا البابا أُورُبان الثَّاني الجنويين إلى أن يتوجَّهوا بسُفُنهم إلى الشَّرْق لاستخلاص الطريق المُؤدِّي إلى قبر السَّيِّد المسيح[2]، لبَّى الجنويون النداءَ، وردَّدوا أنَّهم: جُندُ المسيح، وأعداء الإسلام. ومع أنَّه لم تُشارك قُوَّات جنوة بشكل مُباشر في القتال لكنَّها لعبت دوراً مُهمَّاً في الحملة الأُولى، فعندما كان الفرنج يُحاصرون أنطاكية من البرِّ كان الأُسطُول الجنوي يُحاصرها

---

1 ـ الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 134.

2 - History of the Crusades, Runciman, Vol: 1, p.112

من البحر، وعندما ضاقت الأحوال ببُوهمند اتَّصل بالسُّفُن الجنوية الراسية في ميناء السويدية[1]، فأمدَّته بالمُؤن ومعدَّات الحصار[2]. وعندما حاصر الفرنجة ميناء عكَّا، قدَّمت السُّفُن الجنوبية مُساعدات فعَّالة، وكان ما حصل عليه الجنويون من امتيازات في هذا الميناء هُو تعويض عمَّا قدَّموه من عون[3]. وفيما بعد؛ عقد الجنويون اتِّفاقاً مع الملك بلدوين ينصُّ على مُساعدته في احتلال أرسوف وقيسارية من الفاطميين، مُقابل حُصُولهم على ثُلث الغنائم، وملكية شارع في كُلِّ بلدة يحتلُّونها.

ولذلك نستطيع القول بأنَّ جنوة وحدها من بين المُدُن الإيطالية كانت صاحبة المُشاركة بدُون توقُّف بالحملات الفرنجيَّة على الشَّرْق الإسلامي، من خلال مُبادرات ميدانية خاصَّة أوَّلاً، ثُمَّ عبر مُشاركات رَسْميَّة، وكان ذلك بعد أن لاحظت جنوة أن مُنافستَيْهَا البُنْدُقيَّة وبيزا قد انخرطوا، ليس في دعم الحملات، بل، والمُساهمة فيها[4]، فكان اندفاع جنوة للمُساهمة في الحملات لتظلَّ في حيِّز المُنافسة على تجارة الشَّرْق، وإلاَّ؛ فكان من المُمكن أن تُقصيها عنها مدينتا البُنْدُقيَّة وبيزا. وأيضاً؛ كانت جنوة وحدها من بين المُدُن الإيطالية التي عرفت كيف تُقيم علاقات رابحة من جهة، ومُتوازنة من جهة أُخرى مع طرفَيْ النزاع كلَيْهما في الشَّرْق، فقد حصلت على تنازلات مُهمَّة من الإمارات الفرنجيَّة الناشئة في سُورية[5]، وعلى امتيازات تجارية مُهمَّة في السَّلطنة الأيُّوبيَّة، وخاصَّة في موانئ مصر، فالتُّجَّار الجنويون كانوا معروفين تماماً في ميناء الإسكندرية، وخاصَّة عائلة الإمبرياشي[6].

كليام التاجر الجنوي:

بعد نجاح الحملة الصَّليبيَّة الرابعة باحتلال القسطنطينيَّة تمكَّنت البُنْدُقيَّة من الحُصُول على القسم الأكبر من مُمتلكات الإمبراطُوريَّة البيزنطية، وإذا كانت البُنْدُقيَّة قد أعلنت أن ذلك كان حملة حجٍّ في سبيل الكرسي البابوي وخُطوة لتوحيد الكَنيسَة، لكنَّ البُنْدُقيَّة نفسها كانت تُدرك - قبل المُدُن الإيطالية الأُخرى - بأنَّ ما قامت به كان في سبيل مصالحها الخاصَّة، وقد ترجمته المُدُن لأُخرى بأنَّه ضدَّ

1 - السويدية: ميناء أنطاكية على البحر المُتوسِّط، وكان يُسمِّيه الفرنجة: سان سيمون.
2 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 34.
3 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 143.
4 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 105.
5 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 105.
6 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 144.

مصالحها، وخاصَّة جنوة، التي كان لها امتيازات كُبْرَى في القسطنطينيَّة، وبالتَّالي؛ زاد الخلاف بين البُنْدُقيَّة وجنوة حول السيطرة على جزيرة كريت، التي تضمُّ أهمَّ ميناء في الطريق إلى الساحل الشرقي للبحر المُتوسِّط، وإلى مصر. لذلك تحرَّكت جنوة في كُلِّ الاتِّجاهات لكسب معركتها ضدَّ البُنْدُقيَّة، فإذا كانت البُنْدُقيَّة قد فازت بالقسطنطينية، فعلى الأقلِّ؛ ليكن لجنوة موقع مُتميِّز في مصر، فأرسلت سفيراً سرِّيّاً إلى السُّلطان العادل[1]، لم يُعلن السفير عن هُويَّته، ونزل مصر على أنَّه تاجر، وكذلك لم يُعلن السُّلطان العادل عن السِّفارة، بالرّغم من الضجَّة الكُبْرَى، التي قامت حول شخصية السفير، واتِّهامه بالتجسُّس، وقد روى المُؤرِّخون المُسلمون قصَّة هذه السِّفارة على الشكل التالي:

قدم إلى مصر في عام **607** هـ **1210**م، تاجر من مدينة جنوة اسمه كليام، رُبَّما غليوم أو وليام، وتمكَّن من الاتِّصال بالسُّلطان العادل، وقدَّم له الهدايا، فأُعجب العادل به، وصادقه، "وأحسن السُّلطان إليه، وكان من جُملة إحسانه إليه أن يأخذه معه إلى أين اتَّجه"[2]، ويبدو أن صحبة العادل وكليام كانت مثار استغراب لمُعاصريه، ودهشتهم، ولم يجدوا لها مُبرِّراً، فاستغربوا، واسترابوا بتاجر فرنجي يُصادق سُلطان المُسلمين، ويُرافقه في جولاته، فلم يجدوا مُبرِّراً، إلاَّ أنَّه يتجسَّس على المُسلمين، وينقل أخبارهم، فبدأ الناس يتقوَّلون عليه، "وقيل للسُّلطان، فما التفت" إلى ما قيل عنه[3]. والغريب في أمر هذا السفير الذي لم يكشف هُويَّته أنَّه أطال الإقامة المعهودة لسفير، فقد طالت إقامة كليام مع السُّلطان العادل حتَّى دخل عام **608** هـ **1211**م، وفيه "توجَّه الملك العادل إلى الإسكندرية لكشف أحوالها وكليام صحبته"[4]. وبالتَّأكيد؛ فقد تحادثا في الإسكندرية، وهي ميناء مصر ومقصد التُّجَّار، عن التجارة والنقل البحري وصناعة السُّفُن، إضافة إلى أُمُور أُخرى قد تتعلَّق بالتعاون بين البلدَيْن. ثُمَّ خرج العادل من مصر "إلى الشَّام، وسار إلى الجزيرة، ورتَّب أحوالها، وعاد إلى دمشق، وكُلُّ هذا وكليام الفرنجي صحبته"[5]. وهذه الجولة الطويلة مع العادل زادت

---

1 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 235.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 65، وراجعْ: السُّلُوك، المقريزي، 1/ 291.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 65، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 291.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 67.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 68، وراجعْ: السُّلُوك، المقريزي، 1/ 293.

الشُّكُوك بكليام، الذي يجول مع السُّلطان في بلاده، ويتفقَّدها معه، فشاع بين الناس أن "كليام كان في باطن الأمر عيناً للفرنج"[1]، "وكان الملعون يكشف الأحوال أوَّلاً، فأولاً، ويُكاتب بها الفرنج"[2].

وربَّما كانت من إحدى اهتمامات كليام كَشْف أحوال المُسلمين، لكنْ؛ بالتَّأكيد، كان اهتمامه الأكبر توثيق التفاهم بينه وبين السُّلطان الأيُّوبي، وبالتَّالي؛ الوُصُول إلى تعاون بين جنوة وبين السَّلطنة الأيُّوبيَّة. ولكن المُستغرب في الأمر هُو طُول إقامة كليام لدى العادل في الشَّام، وتقريب العادل له تقريباً غير معهود للسُّفراء؛ إذْ إنَّه استمرَّ مُقيماً بصحبته، حتَّى خرج العادل من الشَّام إلى مصر عام **611** هـ **1214**م "وكليام لا يُفارقه"[3]، ونزل العادل بدار الوزارة في القاهرة، "وأمر أن يُقيم معه كليام الفرنجي الجنوي فيها"[4]. ومع وُجُود التراجمة بكثرة، وخاصَّة كمُرافقين للتُّجَّار، لكنَّ طُول إقامة كليام مع السُّلطان العادل لا تُشير إلى أن الحديث بينهما كان من خلال ترجمان، بل نُرجِّح أن كليام كان يُجيد العَرَبيَّة مثل مُعظم التُّجَّار في إجادتهم للُغات البلاد التي يرتادونها.

ومع أنَّه لا نتائج سياسيَّة واضحة للمُفاوضات الطويلة بين السُّلطان الأيُّوبي والسفير الجنوي، إلاَّ أن هُناك ما يُؤكِّد أن التجارة الجنوية مع السَّلطنة الأيُّوبيَّة قد وصلت في عهد العادل إلى ذروة نشاطها في الموانئ المصريَّة[5]. وهذا جُزء من نشاط جنوة التِّجاري، الذي كان يشمل البحر المُتوسِّط بكُلِّ دُوله وأنظمته السِّياسيَّة، بما فيهم دُول المغرب العَرَبي، فقد روى القاضي الفاضل: أنَّه ورد كتاب من المهدية عام **586** هـ يذكر تكرار دُخُول مراكب الجنويين إلى ميناء المهدية، "بأمان من صاحبها، فباعت فيها، وتزوَّدت منها، وأنَّها قاصدة الشَّام"[6]. ويبدو أن المراكب الجنوية كانت تتبع خُطُوطاً بَحْريَّة في المُتوسِّط، فتتحرَّك من ميناء إلى آخر عبر توقيت مُحدَّد وخُطَّة مرسومة معروفة في كُلِّ مينا؛ حيثُ ينتظرها المُسافرون، وبضائعهم، فالرَّحَّالة العَرَبي ابن جُبَيْر عندما أراد السفر من سُورية إلى بلاده في المغرب قصد عكَّا، وهُو يعرف أن المراكب ترسو وتُبحر منها في أوقات مُحدَّدة معلومة،

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 191.
2 - المنصُوري، ابن نظيف، 65.
3 - المنصُوري، ابن نظيف، 70.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 299.
5 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 235.
6 - الروضتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 19/ 307.

فانتظر مركبه المُناسب لوُجهته، وكان مركباً جنوياً، امتلأ بالمُسلمين والفرنج، الحُجّاج والتُّجّار القاصدين بلاد الغَرْب الأُورُبي، ومنها إلى بلاد المغرب العَرَبي[1].

ورُبّما تكون مُصادفة أكثر ممّا هي حادثة مُخطّط لها أن تقود البُنْدُقيّة الحملة الفرنجيّة إلى القسطنطينيّة، وتفتحها، وتُقيم بها الإمبراطُوريّة اللاتينيّة، وأن جنوة مُنافسة البُنْدُقيّة هي التي تدعم وتسمح بالقضاء على الإمبراطُوريّة اللاتينيّة في القسطنطينيّة وعودة الحُكْم اليُوناني إليها، وعودتها إلى حُكْم الأباطرة البيزنطيين. فبعد سُقُوط القسطنطينيّة انتخبَ النُّبلاء البيزنطيون كير ثيودورس لاسكاريس[2] إمبراطُوراً عليهم، فاتّخذ من نيقية عاصمة له، وبدأ العمليات العسكريّة ضدّ الفرنجة في القسطنطينيّة، ولمّا تُوفّي خلفه ابنه ثيودورس الثّاني لاسكاريس، ولمّا مات أوصى لابنه إيوانس الرّابع لاسكاريس وكان عُمره ثماني سنوات، وأقام نُبلاء البلاط في نيقية النبيل ميكائيل بالايولوغوس وصياً على الإمبراطُور الصغير، وكان بلدوين إمبراطُور القسطنطينيّة قد قتل وتُوّج خلفاً له روبرت فلاندرز، ولمّا مات تولّى ابنه بلدوين حُكْم الإمبراطُوريّة وهُو مُعاصر لبالايولوغوس الذي بدأ الهُجُوم على القسطنطينيّة، واتّفق مع الهيئة الحاكمة في جنوة، وأعطاها موقع غالاتا الاستراتيجي، فبنوا فيه حيّاً جنوياً ومُؤسّسة كبيرة للخدمات التّجاريّة، وأقسم بالايولوغوس للجنوبيين، ووقّع معهم مُعاهدات تُعفيهم من دفع الرُّسُوم التّجاريّة في كُلّ أرض الإمبراطُوريّة، مُقابل أن يُقدّموا له السُّفُن المُقاتلة وسُفُن النقل لكُلّ المعارك مع اللاتين في القسطنطينيّة، وإنّه سيدفع لهم أُجُورهم كمُرتزقة مع هدايا إضافية.

وبالتّأكيد؛ كانت خُطط بالايولوغوس ضدّ القسطنطينيّة غير قابلة للتنفيذ، بدُون المُساعدة الجنوية، فقد كانت جنوة تُسيطر على كُلّ المنافذ البَحْريّة، ممّا مكّن بالايولوغوس من مُحاصرة بلدوين في القسطنطينيّة، ودُخُولها، بعد أن حاصرها الجنويون من البحر، وهاجمها هُو من البرّ، وقام اليُونانيون داخل القسطنطينيّة بثورة مُسلّحة، وبدؤوا بقتل اللاتين، ممّا جعل بلدوين يفرُّ هارباً في سفينة سريعة، ودخل بالايولوغوس إلى القسطنطينيّة فاتحاً مُنتصراً، وأعلن نفسه إمبراطُوراً بيزنطياً، ولكنّه ـ قبل ذلك ـ سمل عينَيْ ابن سيّده القديم ووارث الإمبراطُوريّة الشرعي إيوانس الرّابع

---

1 - تذكرة بالأخبار عن اتّفاقات لأسفار، ابن جُبَيْر، 275، وما بعد.

2 - ثيودوروس: كان زوج ابنة أليكسيوس الثّالث.

لاسكاريس، ووضعه في السجن، حتَّى مات فيه[1]. وإذا كان الفرنج قد اتَّهموا البُنْدُقيَّة بأنَّها حرفت الحملة الرابعة عن أهدافها في الأرض المُقدَّسة، وقادتها نحو القسطنطينيَّة، فبماذا يتَّهمون جنوة بعد مُساهمتها في طرد الفرنجة من القسطنطينيَّة؟

3. بيزا:

كانت الحملات الفرنجيَّة على الشَّرْق الإسلامي مُنْذُ بداياتها تأمل بالدعم البَحْري للمُدُن الإيطالية كافَّة، وخاصَّة بيزا، التي سبقت الآخرين بدعمها للحملات، فقد اتَّصل أُمراء الحملة الأُولى بتشجيع من البابويَّة بالبيازنة، وأطلقوا لكبير أساقفة بيزا ديمبيرت وُعُوداً كثيرة، فجهَّزتْ بيزا أُسطُولاً كبيراً من السُّفُن السريعة والضخمة منها ذوات الصفَّيْن من المجاذيف، ومنها ذوات الثلاث صُفُوف بلغت تسعمائة سفينة، وكانت حملتهم بقيادة مُباشرة من رئيس الأساقفة ديمبيرت. ولم ينسَ البيازنة في طريقهم نحو الشَّرْق أن ينهبوا الجُزُر والمُدُن السَّاحليَّة اليُونانية، مثل: كورفو وكيوكاس، وكيفالونيا، وغيرها، ممَّا دفع الإمبراطُور البيزنطي، رغم معرفته "أن أهل بيزا هُم سادة الحُرُوب البَحْريَّة"، أن يخوض ضدَّهم معركة بَحْريَّة غير حاسمة، أَنْهَتْهَا عاصفة بَحْريَّة[2]. بعدها؛ وصلت حملة بيزا إلى أنطاكية، وساعدت الأمير بُوهيمند، الذي كافأ البيازنة بسخاء، وكان بإمكان البيازنة أن يلعبوا الدور نفسه مع مملكة القُدْس، ويحصلوا على المكاسب نفسها، لكنَّ النزاع الذي نشب بين ديمبيرت والملك بُودوان الأوَّل أدَّى إلى زعزعة مواقع بيزا في مملكة القُدْس، ولم يكن لهذا أيّ علاقة بصلات البيازنة بالممالك الإسلاميَّة، فقد كانت الصلة التِّجاريَّة بينهما قليلة حتَّى الآن[3].

لكنْ؛ بعد معركة حطِّين، وانتهاء حملة المُلُوك على عكَّا، وإعادة احتلالها، انقلب الوضع في مملكة القُدْس لصالح البيازنة، وامتلكوا سُلطات واسعة في المملكة الفرنجيَّة، "حتَّى إنَّهم كانوا يُكبِّدون الذين يقدمون إلى سُورية، خاصَّة الجنويين، خسائر عظيمة، وشكاوي الجنوية تصل كُلَّ يوم إلى الكُونت، فطلب البيازنة، وقال لهم: إن ما تفعلونه في مدينة عكَّا عمل سيِّئ جدَّاً، فلم يلتفتوا إليه، وتصرَّفوا ضدَّ رغباته، وقرَّر طردهم، فاحتجَّ ايمري لوزنجان، كافل المملكة، وأخو الملك غي،

---

1 - تاريخ المورة، مجموع هافنسيس/ 57، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 10/ 403 ـ 405.
2 - الألكسياد، آنا كُومينا، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 6 / 66.
3 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 105.

ودافع عنهم"[1]، وهذا يدلُّ على أهمِّيَّة موقع البيازنة وتفوُّقهم في عكَّا، ودعم المملكة لهم، وبالتَّالي؛ نستنتج أن التواجد العسكري البحري والمُقاتلين البيازنة كان لهم دور مُهمّ في عكَّا، ويُؤكِّد ذلك أنَّه عندما وصلت الحملة الألمانية ـ التي سيَّرها الإمبراطُور هنري إلى فلسطين، وجعلوا هنري كُونت بالادين قائداً عامَّاً للجيش ـ صادف تقدُّم السُّلطان العادل بقُوَّاته نحو عكَّا، فخرج الألمان، وتصدُّوا له، فهزمهم، واضطرَّهم للانسحاب، والتحصُّن بعكَّا، ولمَّا حرَّض هيو صاحب طبرية الكُونت هنري، واستنفر له الناس، تشجَّع هنري، وأعاد تنظيم فرَق جيشه، "وحصل على عدد كبير من البيازنة المُسلَّحين بشكل جيِّد، وُفق طرائق بلادهم، فأمر بوضعهم في المُقدِّمة"[2]. كذلك عندما اندفعت جُمُوع الفرنجة نحو مصر في ما يُعرَف بالحملة الخامسة، كان المُقاتلون البيازنة معهم، وكانت قُوَّات بيزا البرِّيَّة تتميَّز بمقدراتها القتالية، فعندما هاجمت الحملةُ قُوَّاتِ الملك الكامل المُعسكرة قُرب دمياط، واندحرت قُوَّات الفرنجة بما يُشبه هزيمة كُبْرَى، قامت مجموعات قليلة من المُقاتلين، بمَنْ فيهم البيازنة، بتشكيل قُوَّة حماية للفارِّين، وشكَّلت سُوراً في وجه المُسلمين لمَنْع مذبحة رهيبة كانت ستقع بهم[3].

4. مدينة أمالفي:

لم يُوجد ما يُشير إلى مُساهمة هذه المدينة الإيطالية الجنوبية في الحملات الفرنجيَّة على الشَّرق، فرُبَّما كان ذلك بسبب الهُجُوم النورماندي عليها عام **489 هـ 1096**م، المُتزامن مع بداية الحملات، ورُبَّما كانت أمالفي غير راغبة في خوض مُنافسة غير مضمونة مع المُدُن القويَّة: بيزا وجنوة والبُندُقية، حول الامتيازات في الأراضي المُحتلَّة، فاكتفت بعلاقاتها التِّجاريَّة الجيِّدة مع البلاد الإسلاميَّة، ورُبَّما كان هذا هُو الاحتمال الأغلب؛ لأن تجارة أمالفي استمرَّت مع البُلدان الإسلاميَّة والممالك الأيُّوبيَّة[4].

---

1 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري، مخطوطة مدينة ليون / 828، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8/ 453.
2 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري، مخطوطة مدينة ليون / 828، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8/ 499 ـ 502.
3 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 769.
4 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 106.

خصائص وميِّزات العلاقات الإيطالية:

وكنتيجة لاستعراض علاقات المُدُن الإيطالية بكُلٍّ من فرنجة الشَّام والمالك الأيُّوبيَّة نجد أن التجارة كانت فوق كُلِّ شيء، والأرباح كانت مُقدَّسة أكثر من المُعتقدات، فبالرغم من التحريات الكَنَسية المُستمرَّة التي كان يُطلقها البابا ضدَّ كُلِّ مَنْ يُتاجر مع المُسلمين، أو ينقل لهم البضائع والموادَّ، فلم تشهد التجارة بين الشَّرْق والغَرْب أيَّ انقطاع[1]، ولم يكن حقُّ الفرنجة في الأراضي المُقدَّسة، وإنقاذ قبر السَّيِّد المسيح، ولا حقّ المُسلمين في أراضيهم وبلادهم له أيّ معنى في عُرف تُجَّار وزُعماء المُدُن الإيطالية، فالمُؤمن ـ بالنِّسبَة لهم ـ مَنْ يُؤمِّن لهم الربح، والكافر مَنْ يكفر بحقِّهم فيه، والحقُّ هُو حقُّ التجارة، وحُرِّيَّة تنقُّلها، إنَّها نظرة شُمُولية للعالم ولمُشكلاته، ولكن المنظار الذي نظروا من خلاله كانت فيه مُشكلة، فقد ضيَّق الإيطاليون مساحة الرُّؤية فيه، حتَّى لم يعد يظهر في الصُّورة إلاَّ مصلحتهم الضيِّقة جدَّاً، والمحدودة جدَّاً، وهذا ما يُفسِّر تناقض مواقفهم السِّياسيَّة والعسكريَّة من قضيَّة الصراع في الشَّرْق، وتناقض تصرُّفاتهم مع أو ضدَّ السَّلطنة الأيُّوبيَّة، فبالرغم من كُلِّ الوُدِّ السَّائد بين التُّجَّار الإيطاليين والسُّلطان العادل، وكُلِّ الامتيازات التِّجاريَّة والتسهيلات في موانئ مصر، فقد شاركت المُدُن الإيطالية بكاملها في الحملة الخامسة ضدَّ مصر، فالبيازنة شاركوا بقُوَّة بَحْريَّة وبرِّيَّة[2]، وكذلك الجنوية[3]، أمَّا البنادقة؛ فكانوا من المحُرِّضين على الحملة، والداعين لها[4]. وعندما عرض الملك الكامل على الفرنجة إعادة دمياط التي احتلُّوها مُقابل التنازل لهم عن القُدْس والساحل، وإطلاق الأسرى، وافق قائد الحملة ملك القُدْس جان دي برين، وكثير من القادة، لكنَّ المُعارضة التي قادها الإيطاليون: البنادقة، والجنوية، والبيازنة، أدَّت إلى رفض عرض الملك الكامل، ومُتابعة الحَرْب[5]. إن موقف الإيطاليين هذا لا يُمكن تفسيره إلاَّ بمطامعهم لإقامة مراكز تجارية يُسيطرون عليها مُباشرة في مصر، التي كانت أهمَّ موقع استراتيجي للتجارة العالمية، وعندها؛ يُسيطرون على تجارة العالم فعلاً.

---

1 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 177 + 262.
2 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 769.
3 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1162.
4 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 110.
5 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1162.

ويبدو أن هُناك نوعاً من التفاهم بين المُدُن الإيطالية كان قائماً خلال الحملة الخامسة، فكانت لهم مواقف مُوحَّدة ضدَّ الدولة الأيُّوبيَّة، وهذا ما افتقدوه في حملة لويس على مصر، فعندما طلب لويس السُّفُن لنقل حملته من فرنسا إلى مصر وافق الجنويون، وقدَّموا له السُّفُن اللازمة، أمَّا البُنْدُقيَّة؛ فقد رفضت المُساهمة في تقديم أيِّ عون للملك لويس في حملته تلك، لأنَّها كانت قد حصلت على موقع تجاري مُتميِّز في مصر[1]، ففي الإسكندرية وحدها كان للبنادقة فُندُقان وكَنيسَة خاصَّة، وتسهيلات تجارية إضافية، حصلوا عليها من الملك الصَّالح أيُّوب[2]، والحَرْب على مصر ستُغلق أبواب الأرباح المُؤكَّدة التي تجنيها البُنْدُقيَّة هُناك، وهذا يُفسِّر تأييد جنوة المُعلن والقوي للحملة ضدَّ مصر، لكنَّ متَّى باريس يذكر أن البنادقة لم يتردَّدوا بإرسال المُساعدات التي طلبها الملك لويس عندما هدَّدت المجاعة حملته وهُو في قبرص[3].

ولم يكن الوئام بين الفرنجة والقوى الإيطالية هُو وحده المُهمّ لبقاء الفرنجة في الشَّرْق، أو لنجاح حملاتهم، بل كان الأهمّ منه الوئام والاتِّفاق الوُدِّيّ بين القوى الإيطالية نفسها، ففي عام 642 هـ 1244م، خلال بابوية أنوسنت الرَّابع، "نشب خلاف شيطاني بين الجنويين والبنادقة في عكَّا، كُلٌّ منها تُريد أن تكون أعظم من الأُخرى، وتحاربت أساطيلها، وصار البحر خطيراً جدَّاً، وانقطع الحجُّ؛ لأن الفئتَيْن كانت قويَّتَيْن في البحر والبرِّ، وكانتا أداتا رُعب لكُلٍّ من الصليبيين والمُسلمين على السواء"[4]. لقد كانوا ـ فعلاً ـ أدوات لرفاهية الإنسان، ولغنى الكثيرين وسعادة غيرهم ببضائع مجلوبة من مكان إلى مكان، لكنَّهم ـ في الوقت نفسه ـ إذا لاح لهم مطمع، أو اعترضهم مُنافس، فهُم أشدُّ ما يكون من الخطر، على كُلِّ الأطراف بدُون تمييز للعرْق، أو الدِّين. ورُبَّما كان ما قاله عنهم السُّلطان صلاح الدِّين في رسالته إلى الخليفة المُستضيء، يُعبِّر عن واقع هذه الحال بأفضل شكل، قال في رسالته ـ وهي من إنشاء القاضي الفاضل ـ: "ومن الذين يسربون الجُيُوش البنادقة والبياشنة والجنوية، كُلُّ هؤلاء ـ تارة ـ لا تُطاق ضراوة ضرِّهم، ولا تُطفأ شرارة شرِّهم، وتارة؛ يجهرون سفاراً،

---

1 - العُدوان الصليبي على مصر، جوزيف نسيم يُوسُف، 61.

2 - Histovy of Eygpt. Lane- poole, p. 218

3 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 47 / 1057.

4 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1107.

يحتكمون على الإسلام في الأموال المجلوبة"[1]، ثُمَّ يُتابع صلاح الدِّين واصفاً للخليفة العلاقة بين دولته والمُدُن الإيطالية، يقول: "وما منهم ـ الآن ـ إلاَّ مَنْ يَجْلُبُ إلى بلدنا آلَةَ قتاله وجهاده، ويتقرَّب إلينا بإهداء طرائف أعماله وبلاده، وكُلُّهم قد قرَّرتُ معهم المُواصفة، وانتظمتُ معه المُسالمة على ما نُريد، ويكرهون"[2]. وهذه الحالة نستطيع تعميمها على كامل عهد الدولة الأيُّوبيَّة، فالإيطاليون ما انقطعوا عن موانئ مصر، يجلبون كافَّة البضائع؛ بما فيها السلاح، وكُلٌّ منهم حريص على عقد مُعاهدة تُميِّزه، ولو بالقليل من غيره، وقد عرف السلاطين الأيُّوبيُّون ـ على الدوام ـ كيف يُثيرون طمع التُّجَّار الإيطاليين، ويحصلون منهم على كُلِّ البضائع المطلوبة.

وأخيراً؛ نستطيع القول بأنَّه كان للمُدُن الإيطالية دور ملموس في الحَرَكَة الصَّليبيَّة، ولكن هذا الدور يختلط ويتضارب بين غاية الإيمان والاندفاع والشجاعة، وغاية الخيانة والغدر والاستغلال، وكما اختلفت الأدوار الإيطالية بالحَرْب في الشَّرْق، كذلك اختلفت الآراء بحقيقة الدوافع الإيطالية للمُشاركة فيها، فهل كانت دينيَّة، أم تجارية، أم سياسيَّة، أم هي بواعث شخصية؟ وفي الحقيقة؛ إذا غابت الدوافع، فالوقائع تُساعد على كَشْفها، ومن الوقائع التي يندر الخلاف بشأنها:

1 ـ زوَّدت إيطاليةُ الحملاتِ برجال أشدَّاء، ومُقاتلين في البرِّ والبحر، وقد شاركوا ـ بقُوَّة ـ في قسم كبير من معارك الفرنجة في الشَّرْق.

2 ـ نقلت السُّفُنُ الإيطاليةُ الجُنُودَ اللاتين، والأسلحة، والخُيُول، والإمدادات، دُون توقُّف خلال مُدَّة الوُجُود الفرنجي في الشَّرْق. وكان الأُسطُول الإيطالي يُمثِّل شريان الحياة لفرنجة الشَّرْق. وأسهمت الأساطيلُ الإيطالية باحتلال مُدُن الساحل السوري، ومن ثَمَّ؛ شاركت في الدفاع عنها، فلولا الأساطيل الإيطالية، وخاصَّة الجنوية، ما استطاع الفرنج احتلال المُدُن السَّاحليَّة في سُورية، وبالتَّالي؛ لعجزوا عن تأمين استمرار وُجُودهم فيها.

3 ـ كان التواجد في موانئ البحر المُتوسِّط الشَّرْقيَّة مسألة حياة أو موت لكُلِّ مدينة إيطالية، لذلك كانت مُشاركتهم في الحملات الفرنجيَّة على الشَّرْق لفرض نُفُوذهم التِّجاري فيه، وحتَّى لا تنفرد فيه مدينة إيطالية دُون الأُخريات.

---

1 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 13/ 88.
2 - صُبح الأعشى، القلقشندي، 13/ 88.

ولم تنفصل - في يوم من الأيّام - لدى الإيطاليين الحَرْب عن التجارة، فقد كانوا - بمُجملهم - تُجاراً، ومُقاتلين، حملوا السلاح، وجنَّدوا الحُرَّاس للدفاع عن بضائعهم، وقاتلوا الجميع للحُصُول على مكاسب، وكانوا مُستعدِّين لقتال أيٍّ كان، حتَّى إنَّه جرت بين الإيطاليين أنفسهم حُرُوب وحشية. إن رُوح التاجر المُقاتل تجعله أقرب ما يكون إلى القرصان في تفكيره، إنَّما لكُلٍّ منهما طريقته. وكنتيجة عامَّة؛ تتجاوز كُلَّ الأحداث نرى أن المُدن الإيطالية قد جنت ثروات طائلة أثناء الحُرُوب بين المُسلمين والفرنجة، وأن الذين قبلوا القيام بدور الحمَّالين للسادة والنُّبلاء الأُورُبيين الصليبيين أوَّل الأمر، قاموا - فيما بعد - بمَصِّ دماء هؤلاء السادة إلى آخر قطرة.

كما أنَّنا نجد أن أهمَّ ما كان يُميِّز سياسات المُدن الإيطالية في العصر الأيُّوبي هُو تنافس هذه المُدن فيما بينها، فبعد تفوُّق الإيطاليين في بناء الأساطيل التِّجاريَّة والعسكريَّة ضمنوا السيطرة البَحْريَّة في مُعظم حوض المُتوسِّط، واستغلُّوا تفوُّقهم البَحْري بإمساك زمام التجارة الأُورُوبيَّة مع الشَّرْق، وجنوا أرباحاً هائلة، زادت في قُوَّتهم، وانجرُّوا إلى حرب مُنافسة طويلة فيما بينهم.

في أوَّل الأمر؛ تردَّدت المُدن الإيطالية عن دعم المشروع الفرنجي في الشَّرْق، خوفاً على تجارتهم، ثُمَّ لاحت لهم الامتيازات التِّجاريَّة، وزيادة الأرباح، فشاركوا في الحملات، وهُم يسعون للسيطرة على الموانئ والطُّرُق التِّجاريَّة. ومع أن الفرنجة كانوا - دائماً - يرمون الإيطاليين بالجشع، ويحتقرونهم، لكنَّهم كانوا - على الدوام - يسترضونهم بالمال، والامتيازات التِّجاريَّة، لحاجتهم إلى دَعْم أساطيلهم. ولم يترك الإيطاليون مُطلقاً التعامل التِّجاري مع المُسلمين، خاصَّة مع مصر، فقد كانت رُسُلُ الجُمهُوريات الإيطالية تتردَّد على الملك العادل، وعلى الملك الكامل بشكل دائم، وكانوا - على ما يبدو - يُطبِّقون مقولة إن السِّياسيَّة تُوجِّهها التجارة، فكان الإيطاليون يُقيمُون علاقات تجارية كُبْرَى مع المُسلمين، رغم تحريمات البابا، ولم تُعطِّلهم الحَرْب مع المُسلمين عن التجارة معهم.

وقد تمتَّعت جُمهُورية البُندُقيَّة بصدارة المُدن الإيطالية، في التجارة والحَرْب، لأنَّها امتلكت أُسطُولاً كبيراً، مكَّنها من جني أرباح واسعة، والقيام بمشاريع حربية مُهمَّة، فبالإضافة لمُشاركتها المُبكِّرة في الحملات الأُولى، كان لها الدور الأهمّ في الحملة الرابعة؛ حيثُ تمكَّنت من توجيه الحملة عن

فلسطين، والهُجُوم على مدينة زارا المَسيحيَّة الكاثوليكية؛ لأنَّها مُنافسه لها، ثُمَّ احتلَّت القسطنطينيَّة، وأقامت إمبراطُوراً بُنْدُقياً عليها.

وتمكَّنت جُمهُورية جنوة من مُنافسة البُنْدُقيَّة بشدَّة، وكان لها مُشاركة مُبكِّرة في المشروع الفرنجي مُنْذُ الحملة الأُولى، ولذلك حصلت على امتيازات تجارية مُهمَّة في موانئ فرنجة الشَّام.

وفي الوقت نفسه؛ كان لجنوة امتيازات تجارية مُهمَّة في مصر، وخاصَّة أيَّام السُّلطان العادل، الذي ربطتْهُ علاقة خاصَّة بالتاجر الجنوي كليام. ولم تتخلَّف بيزا عن المُشاركة العسكريَّة لدَعْم الحملات الفرنجة بَحْريّاً، وكانت أقلّ الجُمهُوريات الإيطالية صلةً بالمُسلمين.

المبحث الثَّالث:

علاقات الإمبراطُوريَّة الجرمانية المقُدَّسة بالشرق الإسلامي

أدَّى سُقُوط إمارة الرُّهَا الفرنجيَّة عام 538 هـ 1144م، بيد عماد الدِّين زنكي إلى صدمة هائلة للفرنج في أُورُبا[1]، أثارت موجة عاتية من الحماس الدِّيني، نتج عنها حملة صليبية جديدة عُرِفَتْ بالحملة الثَّانية، كان أهمّ قادتها كونراد الثَّالث إمبراطُور ألمانيا، ولويس السَّابع ملك فرنسا، وهُما أكبر مُلُوك أُورُبا في ذاك الوقت.

اتَّبعت الحملةُ الطريقَ البرِّيَّ، مُتعثِّرة بأثقالها، فَسَلَكَ كونرادُ الطريقَ المُباشر عبر الأناضول، ممَّا أدَّى لإبادة مُعظم جُنُوده على يد السلاجقة، ولم يكن حظُّ لويس، الذي سلك الطريق المُحاذي للبحر أفضل؛ بحيثُ تعرَّض لهزيمة مُرَّة أمام عساكر السلاجقة، لكنْ؛ في النِّهاية، تمكَّنت الحملة من الوُصُول إلى فلسطين؛ حيثُ انضمَّ إليها بلدوين الثَّاني ملك القُدْس، وقادهم لحصار دمشق، ثُمَّ رفع بلدوين الحصار، ممَّا أحنق كونراد ولويس، فاتَّهماه بالخيانة، وعادا أدراجهما[2]. وكانت الحملة الألمانية تجربة غير سعيدة لأباطرة ألمانيا، لكنْ؛ على ما يبدو، كان الحماس الدِّيني هُو الغالب عليهم، ممَّا دفعهم لتكرارها، وعدم الإفادة من دُرُوس فشلها.

عندما سقطت صقلية بيد النورمان، تابع الملك النورماندي روجر زحفه عبر مضيق مسينا، وانتقل للهُجُوم على سواحل تُونُس، وفي عام 537 هـ 1143م، تمكَّن من الاستيلاء على المهدية العاصمة، وعلى مدينة صفاقس، وجزيرة جربا، وفي عام 540 هـ 1147م، وصل إلى طرابلس الغَرْب، واحتلَّها[3]،واستمرَّت السيطرة النورماندية على إقليمَيْ تُونُس وليبيا، حتَّى عام 553 هـ

---

1 - كان لمدينة الرُّهَا ما للقُدْس من قداسة وأهمِّيَّة دينيَّة في أذهان الأُورُبيين، فقد انتشرت حولها أفكار عديدة، تربطها بأُصُول المَسيحيَّة الأُولى، كما أنَّها أوَّل الإمارات الفرنجيَّة تأسيساً في الشَّرْق، وكانت أمل الفرنجة للتوغُّل في قلب الشَّرْق المُسلم، ودرع الإمارات الفرنجيَّة، وسُورهم أمام القوى المحلِّيَّة المُسلمة، راجعْ كتاب: الرُّهَا المدينة الفاضلة، سيغال، ترجمة: يُوسُف جبرا.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11 / 130 ـ 131، وتاريخ أُورُبا في العُصُور الوُسْطَى، فيشر، ترجمة: مُحمَّد مُصطفى زيادة، 184 ـ 186.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11 / 60 ـ 70، والعبر، ابن خلدون، 5/ 202.

1158م؛ حيثُ تمكَّن عبد المُؤمن زعيم المُوحِّدين من طَرْد النورمان، وضمَّ كُلَّ مناطق ساحل أفريقيا الشمالي، حتَّى طرابلس إلى دولته[1].

قبل أن تتوَّحد صقلية مع الإمبراطُوريَّة المُقدَّسة كان ملكها وليام الثَّاني عام **569** هـ **1174**م، يرغب في المُشاركة بالحملات ضدَّ المُسلمين، ولقُوَّة وشُهرة الأُسطُول الصقلي انفرد وليام بالحملة، ويصف السُّلطان صلاح الدِّين أعداد هذه الحملة ومسيرها في رسالة إلى الخليفة العبَّاسي المُستضيء، وهي من إنشاء القاضي الفاضل، يقول: "ومن هؤلاء الكُفَّار صاحب صقلية . . أراد أن يظهر قُوَّته المُستقلَّة بمُفردها، . فعمَّر أُسطُولاً، استوعب فيه ماله، وزمانه، فإنَّه - إلى الآن - مُنْذُ خمس سنين يُكثر عدَّته، إلى أن أوصل منها إلى الإسكندرية، أمر رائع وخطب هائل، ما أثقل ظهر البحر مثل حمله . . وجيش ما احتفل ملك قُطر بنظيره"[2].

وصلت الحملةُ الصقليةُ البَحْريَّةُ إلى الإسكندرية، وأنزلت إلى الساحل قرابة ثلاثين ألف مُقاتل ما بين فارس وراجل صدموا حامية الإسكندرية، التي حاولت منع الإنزال، وقتلوا منها حوالي سبعمائة شخص، وردُّوهم إلى داخل المدينة، ممَّا سمح للأُسطُول بدُخُول الميناء. وفي صباح اليوم الثَّاني "زحفوا، وحاصروا، ونصبوا الدبَّابات بكباشه، والمجانيق"[3]، أمَّا في صباح اليوم الثَّالث؛ فقد "فتح المُسلمون البابَ، وخرجوا، فتكاثروا على الفرنج، وأحرقوا الدبَّابات، واتَّصل القتال إلى عصر اليوم التالي، ثُمَّ دخل المُسلمون البلدَ، ثُمَّ كبسوهم عند قُرب اختلاط الظلام"[4]، وكانت المُفاجأة تامَّة، فاستولى المُسلمون على الخيام، وكانت خسائر الفرنج لا تُحصى، ولم ينجَ إلاَّ مَنْ ألقى بنفسه إلى البحر، "واقتحم المُسلمون البحرَ، فخسفوا بعض المراكب، وأغرقوها، وغنم المُسلمون ما لا يُملَك مثله"[5]. يقول مُؤرِّخ الفرنجة في الشَّرق وليم الصُّوري: إن الحملة "تكبَّدت خسائر كبيرة بالموت والأسر"، ويُعلِّل هذه الخسارة "بسبب فُقدان الحذر، الذي أظهره الحُكَّام والقادة"[6]، ومن الطبيعي

1 - المن بالإمامة، ابن صاحب الصلاة، 172، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11 / 60 - 70، والعبر، ابن خلدون، 5/ 202.
2 - صُبح الأعشى ، القلقشندي، 13/ 88.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 11.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 15.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 16.
6 - تاريخ الأعمال المُنجَزَة فيما وراء البحار، وليم رئيس أساقفة صُور، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 7 / 375.

أنْ لا يُشير وليم الصُّوري إلى ضراوة المُقاومة التي واجهتها الحملة، أو الهُجُوم الذي انقضَّ فيه المُسلمون عليهم.

وربَّما كانت هذه التجربة الصقلية لا تُنسَى لولا التحريض الدائم وإثارة الشُّعُور الدِّيني من قبَل البابوات ومبعوثيهم، الذين لا يهدؤون. ولكن دور صقلية في المُشاركة بالحملات الصَّليبيَّة، أو دعم فرنجة الشَّرق سيكون ضعيفاً جدّاً، وبلا جدوى. فبعد انتصار صلاح الدِّين في حطِّين، وتدمير مملكة القُدْس الفرنجيَّة، تابع حملته ضدَّ مواقع الفرنجة السَّاحليَّة، فأراد صاحب صقلية أن يدعم هذه المواقع، "فجهَّز أُسطُولاً في ستِّين قطعة، كُلُّ قطعة منها قلعة. . فوصل طرابلس، فلا نفع، ولا ضرَّ، بل صار على الفرنج وبالاً بسبب مؤونته، فسار إلى صُور، ورجع إلى طرابلس، وتردَّد في البحر"[1].

واعتمد السُّلطان صلاح الدِّين على اتِّصالات ديبلوماسية واسعة بالنِّسبَة لزمانه، فبعد تحريره للقُدْس عام 583 هـ 1187م، أدرك أن أُورُوبا لن تتغاضى عن ذلك، وعندما أخذ يسمع باستعدادات الأُورُوبيين لمُهاجمته قام بمُراسلة الإمبراطُور الجرماني فريدريك الأوَّل قبل خُرُوجه في حملته الصَّليبيَّة نحو الشَّرق بمُدَّة غير يسيرة، بل وتعدَّدت رسائله إليه، ولا ندري هل كان يقصد صلاحُ الدِّين بهذه الرسائل كَسْبَ وُدِّ فريدريك؟ أم تحييده ـ على الأقلّ ـ عن مُلُوك أُورُبا المُتورِّطين بغزو الشَّرق؟ أم أن هُناك أُمُور أُخرى لم نُدركها؟ لكنَّ فريدريك وصف ما طلبه صلاح الدِّين منه بأنَه: "أُمُور ثقيلة وهامَّة"، وهي ـ غالباً ـ أُمُور الحَرْب والسلام، والحملات الفرنجيَّة. ويتبيَّن من نصِّ رسالة فريدريك إنَّه لم يكن يكترث بالرَّدِّ على صلاح الدِّين، فلم تكن قد تبلورت لديه بعد الفكرة الصَّليبيَّة والتوجُّه شرقاً، ولكنْ؛ ما إن بدأ حملته الصَّليبيَّة عام 584هـ 1188م، حتَّى بادر بمُراسلة صلاح الدِّين، إنَّما مُهدِّداً مُتوعِّداً طالباً منه تسليم الأراضي المُقدَّسة، لكنَّ صلاح الدِّين ردَّ عليه بلهجة عنيفة قائلاً: إنَّنا لن نكتفي بالأراضي القائمة على شاطئ البحر، بل سوف نعبر نحوكم[2]. وكان ردُّ فعل إمبراطُور ألمانيا أقوى وأعنف، فقد انضمَّ فريدريك الأوَّل برباروسا[3] إلى فيليب ملك فرنسا، وريتشارد ملك إنكلترا، وجهَّز حملته الألمانية الخاصَّة، وكان معه ابنه أمير سوابيا،

---

1 - الفَتح القِسِّي في الفتح القدسي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 54.

2 - وُرُود التَّاريخ، روجر ويندوفر، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 44/ 352.

3 - كان فريدريك وريث أُسرة هوهنشتاوفن – **Hohenstaufen**

تقدَّم فريدريك بربروسا عام 585 هـ 1189م، عبر هنغاريا على خُطى الحملات الأُولى في البرّ، بينما تأخَّرت الحملتان الإنكليزية والفرنسية؛ لتُبحرا في العام التالي[1]، وبذلك؛ كان فريدريك آخر مُلُوك أُورُوبا بالتعهُّد بحَمْل الصليب، وأوّلهم بتنفيذ تعهُّده[2]، لقد بكَّر فريدريك بالخُرُوج من بلاده تدفعه حماسته للثأر من المُسلمين[3]، فمع تقدُّمه في العُمر، كان يجمع صفات الفارس الكامل: الشجاعة، المرح، الشغف بالقتال، ولذلك لُقِّب: الجُندي الأوَّل، وبالوقت نفسه؛ كان يمتلك طُمُوحاً كبيراً، فقد عمل على إعادة الدولة الرُّومانيَّة القديمة، وتمكَّن من تحقيق حُلمه بتتويجه في رُوما إمبراطُوراً عام 549 هـ 1155م. ورُبَّما كان أكبر دليل على شجاعته هُو تمكُّنه من هزيمة السلاجقة، بعد أن أرهقوه بهجماتهم على مُؤخِّرة وأطراف جيشه[4]، ومن ثَمَّ؛ نجاحه في عُبُور الأناضول بأقلّ خسائر مُمكنة.

وصلت أخبار الحملة الألمانية إلى صلاح الدِّين، ولكنْ؛ تضاربت المصادر في تقدير أعدادها[5]، لكنَّ فريدريك لقي حتفه، قبل أن يدخل سُورية، فقد غرق في أحد أنهار كيليكيا[6]. ويُقال: إنَّه لو وصل إلى سُورية ـ بعد عُبُوره الناجح ـ لوجد صلاحُ الدِّين به نِدَّاً قوياً، ولاختلفت النتائج[7]، ولكنْ؛ رُبَّما كان في هذا القول بعض المُبالغة، فقد كان ريتشاردُ بالغَ الشجاعة، ولويس امتاز بدهائه، فما هي احتمالات نجاح فريدريك الإضافيَّة؟ اللّهُمَّ إلاَّ زيادة الخلاف والتنافس بين مُلُوك أُورُبا كما حصل بين لويس وريتشارد.

وبموت فريدريك بربروسا تلاشت الحملة الألمانية، فقد تخطَّفَ الأتراكُ قسماً منهم، وأبحر قسم آخر عائداً إلى بلاده، وسارت فرقة من الجيش إلى قلعة بغراس؛ حيثُ أُسرت بالكامل، بينما لم يتمكَّن من الوُصُول إلى عكَّا سوى عدد بسيط من الجُند الألمان[8]. ولكن ابنه وخليفته هنري

---

1 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، رنسيمان، 3/ 23.
2 - حملة ريتشارد إلى الأراضي المُقدَّسة، شاهد عيان، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 31/ 31.
3 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، رنسيمان، 3/ 30.
4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 20.
5 - النَّوادر السُّلطانيَّة، ابن شدَّاد، 115، والروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 150، ـ قدَّر ابن واصل أعداد الألمان من 200 ـ 260 ألف رجل (مُفرِّج الكُرُوب، 2/ 317)، أمَّا المقريزي؛ فقد قدَّرهم بحوالي مليون رجل (السُّلُوك، 1/ 216).
6 - غرق فريدريك في نهر غوكسو على حُدُود أرمينيا. (حملة ريتشارد إلى الأراضي المُقدَّسة، شاهد عيان، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 31/ 31).
7 - تاريخ أُورُبا في العُصُور الوُسْطَى، فيشر، ترجمة: مُحمَّد مُصطفى زيادة، 187.
8 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، 395، والروضتَيْن، أبو شامة، 2/ 156، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 322 .

السَّادس، الذي حصل على صقلية بزواجه من الأميرة كونستانس النورماندية وريثة عرش صقلية، وبعد أن تُوِّج إمبراطُوراً أراد أن يُتابع مهمَّة والده تجاه الأراضي المُقدَّسة، وإنْ كان لا يملك صفاته، فقد أمر هنري السَّادس أُمراءَ ألمانيا بحَمْل الصليب، وقام بتجهيز السُّفُن في ميناء بيولا؛ حيثُ تجمَّع حوالي ثلاثة آلاف فارس، وعدد كبير من المُشاة، لكنَّ هنري لم يُرافق الحملة، مُكتفياً بإعداداها، والدعوة لها، وعندما توجَّهت الحملة الألمانية نحو الشَّرْق كان فيها القاصد الرسولي نائب البابا، وكبير رجال الدِّين الألمان كونراد رئيس أساقفة مينس، وكونراد مُستشار القصر الإمبراطُوري، الذي كُلِّف بقيادة الحملة[1]. ولمَّا وصلت الحملة الألمانية إلى عكَّا، عاملوا فرنجة الشَّرْق بازدراء، "وعندما كان فُرسان البلاد يخرجون في مهامّ كانوا يذهبون، ويطردون نساءهم، ويسكنون محلَّهم". فتألَّب فرنجة عكَّا ضدَّهم، وأخرجوهم منها؛ ليُقيمُوا مُعسكراً لهم خارجها[2].

الحملة الألمانية على بيروت وتبنين:

كانت بيروت تُشكِّل خطراً حقيقيّاً على التجارة البَحْريَّة لطرابلس وعكَّا، فقد كان أميرها عزّ الدِّين أُسامة، وهُو من الأُمراء الصَّلاحيَّة، يجتهد في تقوية أُسطُوله، "وكان يُرسل الشواني تقطع الطريق على الفرنج"[3]، ولمَّا لم يتمكَّنوا من الظفر به طلبوا نجدة أُورُبا، فجاءتهم جُمُوع الحُجَّاج عام 593 هـ 1197م، ومُعظمهم من الألمان يقودهم كونراد[4] رئيس أساقفة ماينز[5]، وتحرَّكت الحملة نحو بيروت مدعومة بالقُوَّات المحلِّيَّة للفرنج، فاستنجد أُسامة بالسُّلطان العادل، الذي تحرَّك نحو الساحل، وَعَسْكَرَ قُرب صُور. كان العادل يُدرك أنّه - بوُجُود القُوَّة الألمانية والدعم البَحْري للفرنجة، وتفوُّقهم بالأساطيل - قد لا يُمكنه إنقاذ بيروت، فأمر أُسامة بهَدْمها، فاعترض أُسامة[6].

---

1 - ذيل وليم الصُّوري - ليدن / 828، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8/ 489 - 494.

2 - ذيل وليم الصُّوري - ليدن / 828، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8/ 499.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 126.

4 - وكان المُسلمون يُسمُّونه: الخنصلير (الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 126)، أو الجصكير (من عقد الجُمان، العيني، الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 59/ 10).

5 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، رنسيمان، 3/ 169، - راجعْ التفاصيل في : لُبنان من السُّقُوط بيد الصليبيين، تدمري، 206.

6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 71، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 127، والأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 2/ 102.

قام الملك العادل باعتراض الفرنج قُرب صيدا؛ حيثُ جرت مُناوشات بسيطة، لكنَّها لم تمنع الحملة الألمانية وفرنج الساحل من التقدُّم إلى بيروت[1]، وكانت المُفاجأة بأنَّ أُسامة ومَنْ معه غادروها بلا قتال[2]، فسار العادل إلى يافا، وَهَدَمَهَا، وردَّ الفرنج على خسارة يافا بأنْ توجَّهت جُيُوشهم مع قُوَّات الحملة الألمانية إلى حصن تبنين في عام **594** هـ **1198**م، وأحاطوا به، وشدَّدوا الحصار عليه[3]، وكان حصن تبنين في ولاية حُسام الدِّين بشارة الصلاحي[4].

كان الملك العادل يُدرك ـ تماماً ـ أن المعارك في بدايتها، وقدَّر أن الفرنج لن يقنعوا ببيروت التي احتلُّوها بدل يافا، وتوقَّع أن تكون هجمتهم التَّالية صوب إحدى الحُصُون الدّاخليَّة، فيافا قد أصبحت خراباً يباباً، لذلك توجَّه نحو حصن هونين مُحاولاً استباق الأحداث، لكنَّ الفرنج كانوا قد توجَّهوا إلى حصن تبنين، وحاصروه، ولمَّا كان العادل يُدرك أن الهُجُوم على قُوَّات الفرنج في معركة مكشوفة قد يكون خطراً على جيشه، أرسل إلى الملك العزيز ابن صلاح الدِّين صاحب مصر يطلب منه الخُرُوج بنفسه مع قُوَّاته لنجدته، فقد كان تقدير العادل للخطر الفرنجي بأنَّه قد يكون حرب استرداد شاملة إنْ نجحوا بأَخْذ تبنين، ولم يتأخَّر العزيز بتلبية نداء عمِّه، ورُبَّما كان ذلك بما أرسله إليه من تحذير، فالأخطار داهمة في حال توانيه، والعادل يُدرك تماماً تقاعس أبناء أخيه، وعدم تحمُّسهم للقتال. وكذلك طلب العادل النجدات من مُلُوك الشَّام والجزيرة، فجاء إليه الملك الأفضل صاحب دمشق، والملك المُجاهد صاحب حمص، والملك الأمجد صاحب بعلبك، والأمير عزّ الدِّين بن المُقدَّم والأمير بدر الدِّين دلدرم[5]، وكما يبدو؛ فقد استنفر العادل كُلَّ قُوَّات المُسلمين، ولم يقبل إرسال النجدات إليه إلاَّ وملك أو أمير كُلّ مقاطعة على رأس قُوَّاته، إن كُلَّ ذلك يُؤكِّد الشُّعُور المُتزايد بالخطر، الذي شعر به العادل، وهُو مُحقٌّ، فلو نجح الفرنج أمام تبنين لما توقَّفوا إلاَّ في القُدْس.

شدَّد الفرنجُ الحصارَ على تبنين، وكانت حماسة الألمان شديدة وهُم عماد القُوَّات المُحاصرة بقيادة أميرهم كونراد رئيس أساقفة ماينز. وممَّا أحنق الألمان وقائدهم مُستشار القصر الإمبراطُوري،

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 126.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 126.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 126، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 93.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 75.
5 - الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زكَّار، 19/ 966.

أنّهم أرسلوا بخبر حصارهم لقلعة تبنين إلى إمبراطُورهم هنـري، فغـضب الإمبراطُـور، "لأن حملتـه العظيمة تُحاصر قلعة فقط"[1]، ممّا دفع الألمان للضغط على القلعة بكُلِّ حماسة وقُوَّة، فتمكّنوا من نقب الأسوار[2]، بعد أن حفروا لُغمَيْن تحت أسوار القلعة[3]، وأُسقط بيد حامية الحصن، فَضَغطُ الفرنجة كبيرٌ، وأسوار القلعة شبه مُدمَّرة، والملك العادل بقُوَّاته ينتظر وُصُول إمدادات العزيز مـن مـصر، ولا يتدخَّل في المعركة، ولمَّا لاح لحامية تبنـين أن العـادل ومـن خلفـه مـن مُلُـوك المُـسلمين قـد تركـوهم لمصيرهم، خرجوا من الحصن، وطلبوا التفـاوض لتـسليمه، بعـد أن انقطـع أملهـم مـن النجـدات، واشترطوا على الفرنج الخُرُوج من القلعة بأنفسهم، وأمواهم، فلم يُوافق الألمان[4]، ورُبَّما كان الألمـان مُتسرِّعين جدّاً بهذا القرار، لكنَّ الظُّرُوف المُحيطة كُلّها كانت تُؤكِّد أن القلعة بحُكْم المُستولى عليهـا، والقضية هي قضيَّة ساعات قليلة من القتال، ورُبَّما لأجل هذا التعنُّت، والثقة الزائدة بالنَّفْس من قبَـل الألمان، اتَّصل الفرنجة المحلِّيون المُرافقون للحملة بحامية القلعة، ونصحوهم بعدم التـسليم، وقـالوا لهم: "إذا سلَّمتُم الحـصنَ اسـتأسركم هـذا، وقـتلكم، يقـصدون كـونراد أسـقف مـاينز، فـاحفظوا نُفُوسكم، فعادوا، وامتنعوا، وقاتلوا قتال مَنْ يحمـي نفـسه"[5]. "وعـاود الألمـانُ الهُجُـومَ بالرجـال والمجانيق، ودافع المُسلمون بكُلِّ قُوَّة وعزيمة، وانهارت الأسوار الملغومة، ولمَّـا أراد الألمـان الاقتحـام رُدُّوا، ومُنعوا من الدُّخول، فوافقوا على استسلام القلعة، وتأمين النـاس فقـط"، فرفـضت الحاميـة؛ لأنَّهم كانوا لا يثقون بالألمان، ولأنَّهم سمعوا باقتراب العزيز وقُوَّات مصر.

وفي هذه اللحظات الحاسمة، وصل إلى الألمان خبرُ وفاة الإمبراطُور هنري، وشاهدوا بأعينهم النجدات تتوالى على مُعسكر المُسلمين، "فاضطربوا، واستولى عليهم الرُّعـب، وفقـدوا شـجاعتهم،

---

1 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري 1184 ـ 1197، مخطوطة فلورنسا، تحقيق: مرغريت مُورغان، مـن الموسـوعة الـشاملة، سُهيل زَكّار، 8/ 511..

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 126.

3 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري 1184 ـ 1197، مخطوطة فلورنسا، تحقيق: مرغريت مُورغان، مـن الموسـوعة الـشاملة، سُهيل زَكّار، 8/ 511.

4 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري 1184 ـ 1197، مخطوطة فلورنسا، تحقيق: مرغريت مُورغان، مـن الموسـوعة الـشاملة، سُهيل زَكّار، 8/ 511.

5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 126.

وإرادتهم، وحزنوا، وما عادوا يدرون ما يفعلون"[1]. وممّا زاد على الفرنج الطين بلّة هُبُوب زوبعة من المطر العاصف[2]، فلمّا جنَّ الليل، سارعوا بالرحيل عن تبنين، وزحفت خلفهم قُوّات العزيز والعادل يلتقطون مَنْ ظفروا به منهم[3]، واستولت حامية الحصن على كُلّ أثقال الفرنج، التي خلّفوها من أسلحة ومُؤن[4].

وما كاد الفرنج يتوارون خلف حُصُونهم على الساحل، حتّى عاد العزيز مُسرعاً إلى مصر، تاركاً مُعظم عساكر مصر مع عمّه العادل، "وجعل إليه أمر الحَرْب والصُّلح"[5]، وكأن العزيز يُريد أن يخلص من هُمُوم الحَرْب، وكُلّ ما يتعلّق بها، والتي يبدو أنّها كانت غير مُحبَّبة إلى نفسه، التي تطلب السلامة والدَّعَة، وكُلُّ ذلك كان يُصيب هوى في نفس العادل، ويُوافق مُخطَّطاته.

وقد لَمَح بعض المُؤرِّخين المُسلمين إلى أن ملك قبرص هُو سبب إفشال الهُجُوم النهائي للفرنجة على حصن تبنين، ورُبّما كان ذلك نكاية، أو خوفاً من الألمان، الذين كانوا غير محبوبين من فرنجة الشَّرْق، وذلك لصلفهم، وتعاليهم، وقسوة طباعهم، "وكان ملك قبرص قد أصبح ملكاً على مملكة بيت المَقْدس بعد وفاة الكندهري واتّفاق البارونات على تنصيبه، وتزويجه بالملكة إيزابيل زوجة الكندهري"، الكُونت هنري، ويقول ابن الأثير عن ملك قبرص هذا الذي أصبح ملك القُدْس: "كان عاقلاً يُحبُّ السلامة، فلم يعد إلى الزحف على الحصن"[6].

ولمّا تقدّم السُّلطان العادل بقُوّاته نحو عكّا، قال هيو صاحب طبرية للألمان: هذه البلاد أمامكم، "فليُبرهن مَنْ أراد على فُرُوسيّته"، ونشبت معركة قاسية بين عسكر العادل وقُوّات الحملة الألمانية، "وفي النّهاية؛ تخاذل الألمان، وانسحبوا إلى داخل عكّا، وتركوا باقي الناس تحت رحمة الرَّبّ"[7]. ولم ينسحب العادل من أرض المعركة، ولا سرَّح قُوّاته كالعادة، بل ظلّ "يشنُّ الغارات

---

1 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري 1184 ـ 1197، مخطوطة فلورنسا، تحقيق: مرغريت مُورغان، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زكّار، 8/ 511.

2 - من عقد الجُمان، البدر العيني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زكّار، 59/ 12.

3 - مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 75.

4 - من عقد الجُمان، البدر العيني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زكّار، 59/ 12.

5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 93.

6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 126.

7 - ذيل وليم الصُّوري ـ ليدن/ 828، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكّار، 8/ 501، ـ راجعْ حول حملة الألمان هذه: مُفرّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 76، والبداية والنّهاية، ابن كثير، 13/ 19.

على مواقع الفرنج، ويقصدهم بنفسه، وبجُمُوعه، إلى أن أَضْجَرَهُم، فراسلوه بطلب الصُّلح، فأجاب إليه"[1]، على قاعدة صُلح صلاح الدِّين[2]، واستقرَّت الهُدنة ثلاث سنين[3]، ورجع العادل إلى دمشق، وذلك عام **594** هـ **1198**م.

إن هذه الانتكاسات الألمانية في الشَّرْق لن تُنسَى حتَّى يتولَّى الإمبراطُور الأُعجُوبة فريدريك الثَّاني عرش الإمبراطُوريَّة المُقدَّسة، ولن يتبدَّل حظُّ الألمان العاثر في الشَّرْق فقط، بل سيُبدِّل فريدريك كثيراً من المفاهيم، ومن العلاقات بين الشَّرْق والغَرْب. فعندما تُوفِّي الإمبراطُور هنري السَّادس عام **593** هـ **1197**م، وجد بابا رُوما أنَّه من الأجدى الاعتناء بابنه ووريثه الشرعي فريدريك، الذي كان صبياً صغيراً، يُمكن التحكُّم بمُقدَّراته مُستقبلاً، إذا تمَّت السيطرة عليه بوقت مُبكِّر، فدعم البابا فريدريك الثَّاني، وتوَّجَهُ على ألمانيا، التي ورثها مع المُمتلكات الإيطالية من أبيه، وعلى صقلية، التي ورثها من أُمِّه، وأعلنه البابا إمبراطُوراً عام **609** هـ **1212**م.

إن نشأة فريدريك في صقلية التي كانت مُلتقى حضارات المُتوسِّط، ومكان امتزاجها، أكْسَبَتْهُ مهارات وملكات جعلته فريد عصره، فقد تعلَّم فريدريك الكلام والكتابة وقرض الشعر بستِّ لُغات حية، وبقدر ما كان جُندياً بارعاً جسوراً، كان سياسياً لبقاً، مع نزعة علمية وحُبٍّ شديد للفلسفة والفَلَك والهندسة والطِّبّ والتاريخ، حتَّى إنَّه صنَّف كتاباً بالبيزرة. ولكن شخصيَّته لم تخلُ من امتلاك المُتناقضات، فقد سلك مسلك الرُّهبان الدُّومينيكان بصرامتهم الدِّينيَّة، وبالوقت نفسه؛ كان بعيداً عن التعصُّب يُحيط به المُسلمون، وجعل من صقلية ملجأ للشُّعراء الجوَّالين المُغنِّين ـ التروبادور، وامتلك الجواري، وعاش في قُصُوره على عادة مُلُوك المُسلمين ورفاهيَّتهم، مع أنَّه تشدَّد مع بقايا السُّكَّان المُسلمين في صقلية، وطردهم منها، كُلُّ ذلك جعله يُدعى بحقٍّ: أُعجُوبة الدُّنيا ـ **Stupor Mundi**[4].

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 71.

2 - من عقد الجُمان، البدر العيني، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زكَّار، 59 / 12.

3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 94، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 78.

4 - تاريخ أُورُبا، فيشر، ترجمة: مُحمَّد مُصطفى زيادة، 252.

فريدريك والحملة إلى الشَّرْق:

كان البابا يهدف من دعم فريدريك وتتويجه إمبراطُوراً أن يجعله أداة طيِّعة في يده ليحكم من خلاله، ولطبيعة اهتمام البابويَّة بالحملات إلى الشَّرْق، أقنع البابا الإمبراطُورَ فريدريكَ بضرورة قيادة حملة لاسترداد مملكة القُدْس من المُسلمين، وأجبره أنْ يُقسم على ذلك عام **612** هـ **1215**م، ولكن فريدريك – الذي ـ على ما يبدو ـ لم يكن قانعاً بجدوى الحملات – ظلَّ يُماطل، ويُسوِّف، ويعتذر للبابا، ولم يف بقَسَمه إلاَّ بعد اثنتَيْ عشرة سنة[1].

وعندما أبحرت الحملة الخامسة نحو دمياط، وهُزمت هُناك بعد إصابتها بخسائر فادحة، اعتبر البابا أن تخلُّف فريدريك عن الحملة هُو سبب فشلها، ويقول البابا غريغوري التَّاسع في رسالة له: "الكَنيسَة تبكي دمار الأرض المُقدَّسة، التي كُنَّا آملين أنْ تكون ـ الآن ـ قد أُنقذت من أيدي الكُفَّار، وأنْ يكون الجيش الصليبي قد استردَّها مُبادلة لدمياط، لولا أنَّه مُنع مراراً أن يفعل ذلك بوساطة رسائل الإمبراطُور"[2]، علماً بأنَّ بيلاجيوس نائب البابا هُو الذي رفض عرض السُّلطان الكامل بمُبادلة دمياط بالقُدْس[3].

ويعود البابا غريغوري ليتَّهم فريدريك بأنَّه سبب نكبة الحملة، وأَسْر جُندها؛ فيقول: "وما كان هذا الجيش وقع أسيراً بأيدي الكُفَّار لو تمَّت أعمال تجهيز السُّفُن كما كان قد وعد الإمبراطُور"، ثُمَّ يُتابع البابا في رسالته توجيه التُّهم لفريدريك، فيُضيف: "جرى تسليم دمياط إلى رُسُله، ووُضعَتْ تحت عُهدتهم، وتزيَّنت بالنُّسُور الإمبراطُوريَّة، ثُمَّ جرى نَهْبها بشكل وحشي، ثُمَّ بعد ما جرى تدميرها بشكل مُهين، تمَّت إعادتها من قبَلهم إلى الكُفَّار"[4]، ولكن البابا يتناسى أن تسليم دمياط تمَّ بالاتِّفاق مع مندوبه بيلاجيوس أوَّلاً[5].

---

1 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 112.
2 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 867.
3 - راجعْ مبحث العلاقات مع البابويَّة في هذا الكتاب.
4 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 868.
5 - راجعْ مبحث العلاقات مع البابويَّة في هذا الكتاب.

وفي مُقابل ما نقوله عن تحامل البابا عليه، وتحميله المسؤولية كاملة عن نكبة دمياط، نجد أن هُناك شيئاً من الحقيقة، فالفرنجة - بعد أَخذ دمياط - كانوا يتوقَّعون قُدُوم الإمبراطُور لإتمام مشروع احتلال مصر، يقول مُقدَّم الدَّاويَة في إحدى رسائله من دمياط: "إنَّنا مُتوقِّعون - مُنذُ وقت طويل - وُصُول الإمبراطُور؛ لتصل هذه المسألة إلى نهاية سعيدة، وإذا خابت الآمال، فسوف يكون وضع البلدَيْن مصر وسُورية في موضع شكٍّ"[1]، إن مُقدَّم الدَّاويَة مُحقٌّ جدّاً، فوُصُول الإمبراطُور بقُوَّات جديدة كان من المُمكن أن يُبدِّل كثيراً في وضع المعركة، على الأقلّ؛ كان فريدريك قد نحَّى بيلاجيوس الكاردينال المُتعجرف الجاهل بأُمُور الحَرْب عن قيادة الحملة، ولكن فريدريك لم يتجاهل الحملة تماماً، فقد أرسل دُوق بافاريا مُمثِّلاً له، ومعه عدد لا بأس به من الجُنُود[2]، ولا ندري أيدلُّ ذلك على توفُّر نوايا صليبية لدى الإمبراطُور فريدريك؟! أم أن ذلك لذَرِّ الرماد في العُيُون؟!

بعد تراجع الحملة الخامسة مهزومة عن مصر، كان جُون دي برين ملك القُدْس أكثر الناس حُزناً، فقد خسر جُهُوداً وأموالاً، ولم يستعد شيئاً من مملكته، فتوجَّه إلى رُوما يستجدي عون البابا غريغوري التَّاسع، فوجده في أشدِّ حالات الغضب من الإمبراطُور فريدريك، فسعى جُون بالصُّلح بينهما، وتكلَّلت مساعيه بالنجاح، على أن يتزوَّج الإمبراطُور فريدريك من إيزابيلا ابنة جُون الوحيدة، وباعتبارها وارثة مملكة القُدْس، فتنتقل المملكة - بهذا الزواج - من جُون إلى فريدريك، وجدَّد الإمبراطُور وعده بأنَّه سيُبحر لاسترداد مملكة أصبحت - الآن - من حقِّه[3].

وتمَّ ترتيب الزواج الإمبراطُوري عام **622 هـ - 1225م**، وأُضيفت على الألقاب الإمبراطُوريَّة لفريدريك لقب ملك القُدْس[4]، ورُبَّما كان هذا سبب تحمُّس البابا لزواجه، فقد أَدْخَلَهُ - بذلك - شريكاً أساسياً في طلب استرداد مملكة القُدْس، التي أصبحت من حقِّه.

ولوَضْع فريدريك أمام الأمر الواقع، قام البابا بجَمْع أُسطُول، وشحنه بالرجال، ودعا الإمبراطُور للوفاء بوعده، فأُسقط بيد فريدريك، واضطرَّ للالتحاق بالحملة، وأبحر - فعلاً - من

---

1 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 45/ 786.
2 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 45/ 789.
3 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 43/ 1166.
4 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 112.

ميناء برنديزي نحو الشَّرق، ولكنْ؛ بعد ثلاثة أيَّام من الإبحار، أمر فريدريكُ السُّفُنَ بالعودة، وأعلن أنَّه أُصيب بمرض مُفاجئ، وعادت الحملة، وتشتَّت أربعون ألف رجل مُسلَّح، كانوا ذاهبين لتحرير القُدْس[1]، فقامت قيامة البابا على فريدريك، وَحَرَمَهُ كَنَسياً للمرَّة الثَّانية، وعدَّه خائناً حانثاً باليمين.

وانتشرت شائعات كثيرة حول عودة الإمبراطُور غير المُتوقَّعة، فقد قيل إنَّه سمع أن البابا سيُعطي في غيابه صقلية وأبوليا إلى جُون ملك القُدْس السَّابق، وقيل أيضاً: إن سُلطان مصر قدَّم له رشوات كبيرة، ووعده بتسليم مملكة القُدْس، دُون حرب، شرط إعاقة هذه الرحلة[2].

ورُبَّما كان أقوى الاحتمالات لعودة فريدريك السريعة هُو خوفه من البابا ونواياه السَّيِّئة ضدَّه، أمَّا رشوة سُلطان مصر، وطلبه إعاقة الحملة، فلا نعتقد بصحَّتها؛ لأن السُّلطان الكامل راسل فريدريك فعلاً، لكنَّه طلب قُدُومه ليُساعده في مشاريعه ضدَّ أخيه المُعظَّم.

---

1 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 854.

2 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1167.

المبحث الرَّابع:

العلاقات الخاصَّة بين السُّلطان الكامل والإمبراطُور فريدريك

قدِم الملك الأشرف إلى مصر على رأس عساكره نجدة لأخيه السُّلطان الكامل عند سُقُوط دمياط بيد الحملة الفرنجيَّة الخامسة، وبعد أن تحقَّق النصر، أطال الأشرفُ مُكُوثَهُ بمصر لدى أخيه الكامل، واتَّفقا ـ أثناء ذلك ـ ليكونا حلفاً واحداً ضدَّ أخيهما المُعظَّم صاحب دمشق[1]، وقد لا يستغرب المرء هذا الحلف بينهما، ولكن المُستغرب جدّاً أن يقوم الحلف ضدَّ أخيهما المُعظَّم، فلا تُوجد أسباب ظاهرة لذلك، إلاَّ إذا فكَّرنا بوراثة الأبناء لطَمَع أبيهما العادل بمُلك أولاد أخيه السُّلطان صلاح الدِّين. وما كان ظاهراً من العلاقة بين الأخوة كان يدعو لاستبعاد أيِّ اتِّفاق بين الأشرف والكامل، فالمُعظَّم بإلحاحه ورجائه أجبر الأشرف على ترك الشَّام، ونجدة الكامل[2]، كما أن المُعظَّم هُو صاحب الفضل على الكامل بتخليصه من ابن المشطوب، الذي أراد خلعه عن العرش[3]. وحتَّى لا يقع الملك المُعظَّم بين فكَّيْ كمَّاشة أخوَيْه: الكامل في مصر، والأشرف في الجزيرة، فكَّر بالتحالف مع قُوَّة خارجية كبيرة هي دولة الخَوَارزميَّة، خاصَّة أن ملكها جلال الدِّين خوارزمشاه قد وصلت سُمعة قُوَّته ومُقارعته للتَّتار إلى بلاد الشَّام، وقدَّر المُعظَّم أن الخوارزمي يستطيع إشغال الأشرف بهُجُومه على الجزيرة؛ ليُتيح له التّصدِّي للكامل إذا فكَّر أخواه بالهُجُوم عليه، فأرسل المُعظَّم مُحتسب دمشق صدر الدِّين البكري إلى جلال الدِّين، واتَّفق معه على أخوَيْه[4]، وكان ذلك عام 624 هـ 1227م. ولمَّا علم الكامل باتِّفاق أخيه المُعظَّم مع الخوارزمي فكَّر بالتحالف مع قُوَّة خارجية تُوازن قُوَّة الخوارزمي، "فأرسل فخر الدِّين يُوسُف بن شيخ الشُّيُوخ إلى الإمبراطُور فريدريك. . . يطلب منه القُدُوم إلى عكَّا، ووعده أن يُعطيه البيت المُقدَّس، وبعض الفُتُوح النَّاصري، وقصد بذلك إشغال سرّ أخيه المُعظَّم"[5].

---

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 310.

2 - راجعْ مبحث الحملة الخامسة في هذا الكتاب.

3 - راجعْ مبحث : أُمراء العَسْكَر فصل ابن المشطوب في هذا الكتاب.

4 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 310، وأخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 14.

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 206.

ولأوّل مرّة تتدخّل قوى خارجية كُبْرى بالصراع بين المُلوك الأيُوبيّة، فالمُعظَّم رأى أنّه أضعف من أن يُجابه حلف أخوَيْه، ولا يملك القُوّة الهُجُومية للتّحرُّك ضدّ أحدهما، فتحالف مع الخوارزمي، ولا ندري بماذا وعده، ولا ماذا كان ثمن هذا الحلف[1]، أمّا الكامل؛ فكان يملك القُوّة العسكريّة، لكنّه كان يخشى من عسكره[2] أكثر من خشيته من أعدائه، فطلب فريدريك ليُقاتل عنه، وكان الثمن باهظاً، إنّه القُدْس، وبعض الفُتُوح الصّلاحيّة[3].

نتيجة لظُرُوف فريدريك الصعبة التي وضعه فيها صراعه مع البابويّة وحرمانه كَنَسياً، وجد في دعوة السُّلطان الكامل له فرجاً عظيماً، وأن عرض الكامل بتسليمه القُدْس وما حولها سيقلب موازين القوى في أُورُبا لصالحه، واعتقد أن الأمر سيكون نُزهة جميلة، يعود بعدها سريعاً إلى دياره وقد تزوّد بقوى معنوية هائلة، فبدأ فريدريك يدرس توزُّع القوى في الشّرْق الإسلامي، وسعى للاتّصال بها. ورُبّما كان يأمل أنّه سيحصل على القُدْس والساحل من خلال مُراسلات يُجريها مع المُلوك الأيُوبيّة، وعلى الأقلّ؛ ستكون تمهيداً لقُدُومه، واحتكاكه المُباشر معهم. وقام فريدريك عام 624 هـ 1227م، بتوجيه الكُونت تُوماس[4] نائبه في عكّا رسولاً إلى الملك الكامل، يطلب منه تسليم ما وعد به قبل وُصُول الإمبراطُور، ومن ثَمَّ؛ توجّه الرسول إلى دمشق، فقابل الملك المُعظَّم، وقدّم له هدايا حسنة، وطلب منه القُدْس وبلاد الساحل[5].

استقبل الكاملُ رسولَ الإمبراطُور، واستلم منه الهدايا، "وعمل له هدية لم يُسمَع بمثلها، وَسَيَّرَ بها جمال الدِّين إسماعيل بن مُنقذ في الجواب"[6]، ورُبّما اعتذر إليه بأنّ البلاد التي طلبها هي ضمن مملكة دمشق، وقد يكون لهذا السبب سار الرسول للتوجُّه نحو دمشق، ولكن الرسول الإمبراطُوري الذي استُقبل بحفاوة في مصر، قد تلقّى ردّاً قاسياً في دمشق، فقد ردّه الملك المُعظَّم

---

1 - رُبّما كان الثمن ـ كما قال ابن نظيف ـ هُو بلاد خِلاط (المنصُوري، 153).
2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 30.
3 - أخبار الأيُوبيّيْن، ابن العميد، 14.
4 - تُوماس: هُو كُونت أتري، وهُو وزير فريدريك، ونائبه في عكّا.
5 - المنصُوري، ابن نظيف، 149.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 148.

بغلظة[1]، وأجابه على طلب فريدريك للقُدْس قائلاً: "ماله عندي إلاَّ السيف"[2]. وهُنا يُقرِّر فريديك الحُضور بنفسه إلى الشَّرْق. وفي صيف عام 625 هـ 1228م، غادر الإمبراطُورُ فريدريكُ ميناءَ برنديزي، مُتوجِّهاً نحو سُورية، فقامت قيامة البابا، وأعلن: "أن فريدريك ليس صليبياً، بل قُرصاناً، خادماً مُحَمَّد، وأن حملته ليست ضدَّ الإسلام، بل لسرقة مملكة القُدْس"[3]، ولكن ذلك لم يُؤثِّر على فريدريك، فاستمرَّ في إبحاره حتَّى وصل جزيرة قبرص؛ حيثُ نزل فيها، وضمَّها إلى مملكته، ثُمَّ تابع سيره، ووصل ميناء عكَّا في العام نفسه، "فارتاع المُسلمون لذلك"[4]، ويبدو أن أخبار حملة الإمبراطُور فريدريك قد وصلت مُضخَّمة إلى أسماع المُسلمين، أو أنَّهم بالغوا في تقدير قُوَّة الحملة، نظراً لمكانة الإمبراطُور، فقيل: "إنَّه وصل إلى عكَّا في جُمُوع عظيمة"، وجعل بعضهم مرض الملك المُعظَّم وموته من نتائج وُصُول فريدريك[5]، مع أنَّه كان يُرافق الإمبراطُور أصغر جيش صليبي وصل إلى الديار المُقدَّسة[6].

وكان أصعب ما واجهه فريدريك في الشَّرْق هُو أن الظُّرُوف التي بسببها استدعاه الملك الكامل كانت قد تغيَّرت، فقد تُوفِّي الملك المُعظَّم صاحب دمشق، وتولَّى ابنه الشابّ داود، الذي التجأ لعمِّه الكامل، وهكذا زالت مخاوف الكامل تماماً، ولم يعد لحُضُور الإمبراطُور من فائدة تُرجَى، بل على العكس، هُو - الآن - مصدر قلق لمُطالبته بتنفيذ الوعد، وشعر فريدريك بموقفه الصعب، فلو علم بالتبدُّلات قبل حُضُوره، لهان الأمر عليه، ولما حضر، لكنَّه - الآن - في فلسطين، وعودته خائباً ستكون القاضية عليه أمام البابا ومُلُوك أُورُبا، فراسل السُّلطانَ الكاملَ، وأرسل نائبه تُوماس، ومعه صاحب صيدا[7] يحملان رسالة شفهية إلى السُّلطان، جاء فيها: إن المُسلمين قد بذلوا لنائبي في حصار دمياط تسليم الساحل جميعه، " فلا أقلّ من إعطائي ما كُنتُم بذلتُمُوه له"، فاستشار الكاملُ أخاه الأشرفَ، فترك تقرير الأمر له، ونصحه بجَمْع الجُيُوش، واتِّفاق كلمة المُسلمين ريثما يُقرِّر السُّلطان

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 292.
2 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 284.
3 - الصَّليبيُّون في الشَّرْق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 302.
4 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 144.
5 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 662.
6 - The Crusades, Cambell, P. 404
7 - تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، رنسيمان، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 3/ 330.

ما فيه الصلاح[1]. ويبدو ـ بشكل واضح ـ من مجرى المُراسلات أن الكامل كان يُماطل، ويُسوِّف، أملاً بحَلٍّ غير مُتوقَّع لمُشكلته، أو حُدُوث ما يحلُّه من وعده للإمبراطُور، دُون تسليم قُدْس المُسلمين، فأطال المُراسلات مع فريدريك، وكان المُتردِّد في الرسائل بينهما من جهة السُّلطان هُو الأمير فخر الدِّين بن يُوسُف بن شيخ الشُّيُوخ لسابق رسالته إلى الإمبراطُور يوم دعاه للخُرُوج إلى الشَّرق[2].

كان السُّلطان الكامل ـ أثناء ذلك ـ مُقيماً في تلِّ العُجُول من أرض فلسطين، فقد كان في طريقه إلى دمشق لأَخذها من ابن أخيه النَّاصر داود، الذي خلف والده الملك المُعظَّم، عندما فاجأه حُضُور الإمبراطُور فريدريك إلى عكَّا، ومن تلِّ العُجُول؛ تردَّدت الرُّسُل بينه وبين الإمبراطُور دفعات كثيرة[3]، وخرجت المُراسلات عن شكلها السِّياسي، فتناولت مسائل في الفلسفة والهندسة والرياضيات[4]، رُبَّما أراد فريدريك منها أن يُثبت للكامل علْمه وفضله، وأنَّه مُختلف عن قادة الفرنج ومُلُوكهم الجهلة، ولمَّا سأل فريدريك عن علْم الفَلَك أراد السُّلطان الكامل أن يُثبت له تفوُّق الحضارة الإسلاميَّة، فأرسل له العلم قيصر[5] وهُو أفضل أهل زمانه في هذا العلم[6].

وتأكَّد للإمبراطُور في هذه المُدَّة أنَّه غير قادر على أَخذ القُدْس إلاَّ بمُوافقة الكامل، وأصلاً؛ لم يكن فريدريك يرغب بأَخْذها حرباً، فلا استعداده، ولا قُوَّاته، كانا يُوحيان بذلك، ولكُلِّ هذا أرسل إلى السُّلطان الكامل عام 626 هـ 1229م، يقول: "إنِّي عتيقكَ، وتعلم أنِّي أكبر مُلُوك الفرنج، وأنتَ كاتبتَني بالمجيء، وقد علم البابا والمُلُوك باهتمامي، فإنْ رجعتُ خائباً، انكسرتْ حُرمتي، وهذه القُدْس، فهي أصل دين النصرانية، وأنتم قد خرَّبتُمُوها، وليس لها طائل، فإنْ رأيتَ أن تُنعم عليَّ بقصبة البلد، ليرتفع رأسي بين المُلُوك، وأنا ألتزم بحَمْل دَخلها إليكَ"[7]. وفي الحقيقة؛ فإن كُلَّ ما ورد في الرسالة هُو حقائق واقعة، وكان فريدريك يُدركها تماماً، كما كان الكامل يُدركها أصلاً،

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 163 ـ 164.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 242.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 483.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 242.
5 - العلم قيصر: علم الدِّين قيصر الحنفي، المُشتهر بتعاسيف، تُوفِّي عام 649 هـ 1251م، كان أبرع المُتأخرين بعلم الهيئة ـ الفَلَك، (المُختصر، أبو الفداء، 3/ 195).
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 176.
7 - العبر، الذهبي، 5/ 102.

ولكنْ؛ يبدو أنَّه من المشكوك فيه أن تصدر هذه الرسالة عن الإمبراطُور، رغم كُلِّ وضعه الأُورُوبي الصعب، وعدم حيلته في الشَّرْق، فحتَّى لو كان يرغب في توصيل هذه المعاني إلى السُّلطان الكامل، فلكان صاغها بما يُخفِّف صيغة الذُّلِّ والخُضُوع المُذلّ، ولذلك يُحتمَل أن تكون هذه الرسالة من وَضْع، أو إعادة صياغة المُؤرِّخين الذين تطوَّعوا لتبرير قيام الكامل بتسليم القُدْس.

إن ما واجهه الإمبراطُور فريدريك في مملكة القُدْس قد يكون أقسى ممَّا واجهه وسيُواجهه مع المُسلمين، فقد عارض قُدُومَهُ فُرسانُ الرُّهبانيات؛ لتبعيَّتها الدِّينيَّة للبابا، وبطريرك القُدْس، ومُعظم أُمراء الفرنجة في الساحل الشَّامي، وبلغ بهم الأمر أنْ تآمروا عليه، فقد كتبوا إلى السُّلطان الكامل: "إذا حصل المصافّ مسكوا الإمبراطُور"، لكنَّ الكامل كان له رأي آخر، فقد أرسل كُتُبَهُم إلى فريدريك؛ ليَحْذَرهُم، لأن السُّلطان الكامل -على ما يبدو- كان يميل لتسليم القُدْس إلى فريدريك[1]. ومُباشرة ؛حاول فريدريك أن ينتقم، فدبَّر لإلقاء القبض على صاحب بيرُوت يُوهان فُون إبلين، لكنَّه نجا من المكيدة، بينما وقع في قبضته قائد جيش بيرُوت فيليب فُون إبلين[2]، ثُمَّ التفت فريدريك لتعزيز مواقعه على الأرض، فاستولى على صيدا، وكانت مُناصفة مع لمُسلمين، فأخرجهم منها، وعمَّر سُورها[3]، مع أن ذلك قد تمَّ بغير رضا فرنج الساحل[4]، فما قام به فريدريك هُو مُخالفة للمُعاهدات السابقة مع المُسلمين. كذلك انتقل فريدريك إلى قيسارية، فدعم تحصيناتها[5].

ومع عدم المُبالاة الكاملة من السُّلطان الكامل بما يفعله فريدريك، فإن بعض الأُمراء المحلِّيين المُسلمين قاموا بإغارة ناجحة على قُوَّات الفرنج؛ حيثُ كمنوا لهم قُرب صُور، فقتلوا، وأسروا،

---

1 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 144. مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 234، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 234، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 477.

2 - المنصُوري، ابن نظيف، 160، وراجع : الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، تعريب: أحمد الشَّيخ، 641.

3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 361، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 234، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 477.

4 - المنصُوري، ابن نظيف، 156، - ولا ندري هل عدم الرضا هذا بسبب كونه محروماً كَنَسياً؟ أم حفاظاً على المُعاهدات مع المُسلمين؟ أم خوفاً منه على نُفُوذهم ؟

5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 480.

وغنموا[1]. ويُعلِّل ابن الأثير سُهُولة احتلال صيدا وطرد المُسلمين منها، وإعادة تحصينها بدُون اعتراض مُعترض، بقوله: "وإنما تمَّ لهم ذلك بسبب تخريب الحُصُون القريبة منها، تبنين وهونين وغيرهما"[2]. ويبدو أن تفاهماً قد تمَّ بعد ذلك بين فريدريك وأُمراء الساحل من الفرنج وطوائف الدَّاويَة والاسبتار[3]، ممَّا مكَّن فريدريك للتفرُّغ لما جاء من أجله، وركَّز على مُفاوضاته مع السُّلطان الكامل ليُسلِّمه القُدْس.

وفي الحقيقة؛ كان من السهل على السُّلطان الكامل التّصدِّي عسكريّاً لفريدريك، أو على الأقلِّ؛ تركه محصوراً بينه وبين فرنج الساحل المشكوك بولائهم له. فلا قُوَّات فريدريك، ولا شخصيَّته وأفكاره يُؤيِّدون قيامه بحرب ضدَّ السُّلطان الكامل، وبالأساس؛ فلم تكن لدى فريدريك رغبة في خوض حرب ضدَّ المُسلمين، وهُناك عدَّة أسباب لذلك، منها تأثُّر فريدريك بالثقافة الإسلاميَّة، التي كانت تنتشر في صقلية؛ حيثُ تربَّى[4]، يقول ابن واصل: كان الإمبراطُور "مائلاً إلى المُسلمين لأن مقامه في الأصل ومرباه بلاد صقلية، وأهل تلك الجزيرة غالبهم مُسلمون"[5]، ومنها صداقته مع السُّلطان الكامل، وتشابهه معه في كثير من الصفات[6]، حتَّى قيل إنَّهما ـ معاً ـ كانا سابقَيْن لعصرهما في كثير من أخلاقهما[7]، ولكن الكامل فضَّل أن يمضي اتِّفاقه السَّابق مع فريدريك، لأنَّه ـ على ما يبدو، بعد طُول التفكير ـ وجد أن التّصدِّي لفريدريك "يُؤدِّي إلى فوات أغراضه، التي كان في ذلك الوقت بصددها"[8]، وأغراض السُّلطان الكامل كانت في تحقيق مشروعه الذي بدأ فيه، وهُو ضمّ الشَّام إلى مصر، وإعادة بناء الدولة الأيُّوبيَّة الكُبْرَى وجعلها بحُكْم سلطنته المُباشرة، ومنها رغبته بالمُحافظة على كلمة أعطاها للإمبراطُور ليُحافظ على صداقته، والتحالف معه، فقد "تأكَّدت بينهم

---

1 - قام بالإغارة العزيز عُثمان صاحب بانياس، ومعه صارم الدِّين التبنيني. (المنصُوري، ابن نظيف، 156 وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 152).

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 478.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 150.

4 - Crusades commerce and culture, Atia, p 88

5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 233.

6 - الإمبراطُور فريدريك وعلاقته بالشرق العَرَبي، د. حسن مبيِّض، مُحاضرة في الجمعية التاريخية السُّوريَّة، 1998.

7 - The Crusades, Campel, p. 407 & The Latin Kingdom of Jerusalem, Conder, p 313

8 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 234.

صداقة"[1]. ومهما كانت مُبرِّرات السُّلطان الكامل، فقد أثبت فريدريك أنّه سياسي مُحنَّك، ومُحاور جيِّد، ومُفاوض مُتفوِّق، وحصل على كُلِّ ما يُريد.

فبعد مُفاوضات مُطوَّلة "استقرَّت القاعدة على أن يُسلِّموا إليه البيت المُقدَّس، ومعه مواضع يُسيَّرِه من بلاده"[2]، وقد تولَّى مُفاوضات الصُّلح فخر الدِّين بن شيخ الشُّيُوخ، وقاضي العَسْكَر المصري شمس الدِّين الحُسَيْني[3]، والصلاح الإربلي[4]. ويبدو أن السُّلطان الكامل أراد أن يُشرك في المُفاوضات مندوبَيْن للمُلوك الأيُوبيَّة المُؤيِّدين له، ليُقحمهم في قضيَّة القُدْس، وليُخفِّف عن نفسه المسؤولية بتوزيعها على جماعة معه، فشارك مع رُسُل السُّلطان الكامل رسول الملك المُجاهد صاحب حمص، الأمير صفي الدِّين سودان بن إبراهيم بن سودان.

وفي عام 626 هـ 1229م، انتظم الصُّلح، وعُقدت مُعاهدة، كان من شُرُوطها:

1 ـ يتسلَّم الإمبراطُورُ فريدريكُ مدينةَ القُدْس، وتبقى أسوارها مُهدَّمة، ولا يحقُّ له ترميمها.

2 ـ سائر قُرى القُدْس للمُسلمين، ولا حُكْم فيها للفرنج.

3 ـ يبقى الحرم القدسي ـ الجامع الأقصى ـ قبَّة الصخرة ـ بأيدي المُسلمين، ويدخله الفرنج للزيارة فقط، ويتولاه المُسلمون، ويُقيمُون فيه شعائر الإسلام من أذان وصلاة.

4 ـ تُسلَّم القُرى الواقعة على الطريق بين يافا والقُدْس للفرنج، دُون ما عداها[5].

5 ـ مُدَّة المُعاهدة عشر سنين وخمسة أشهر وأربعين يوماً.

6 ـ بند مُلحق: طلب الإمبراطُور فريدريك من السُّلطان الكامل "تبنين وأعمالها، لأن صاحبتها بنت الهمفري دخلت عليه، وسألته فيها، فأنعم عليه بها، ودخلت في نُسخة المُهادنة"[6].

---

1 - المنصُوري، ابن نظيف، 176.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 483.

3 - شمس الدِّين الحُسَيْني الأرموي، تُوفِّي عام 650 هـ1253م.

4 - المنصُوري، ابن نظيف، 176، ـ الصلاح الإربيلي، تُوفِّي عام 631 هـ1233م.

5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 353.

6 - أخبار الأيُوبيِّين، ابن العميد، 16.

7 ـ كما ضمن الإمبراطُورُ للسُّلطان بأنَّ القلاع الباقية بيد الفرنج مثل: قلعة الحصن، وصافيتا، وطرطوس، لن تلقى أيَّ مُساعدة من أيِّ مكان[1].

ويُقال إن المُعاهدة كانت تنصُّ على إقامة تحالف كامل بين الدولتَيْن، وأن فريدريك قد تعهَّد بعدم المُساهمة بأيِّ حملة صليبية على مصر[2].

وفي رسالة لاحقة للإمبراطُور فريدريك أرسلها إلى ملك إنكلترا يقول فيها: إن المُدُن التي استردَّها هي: "بيت لحم وما بينها وبين القُدْس، والنَّاصرة وما بينها وبين عكَّا، وصيدا وما حولها"، ولكنَّه يذكر شُرُوطاً مُعاكسة للشُّرُوط التي ذكرها المُؤرِّخون المُسلمون منها مثلاً: السماح بإعادة بناء القُدْس، وقلاع يافا وقيسارية وصيدا وقلعة مريم في جبال عكَّا، التي كانت تتبع لطائفة الفُرسان "التِّيوُتون"، ويُضيف ما هُو مُستغرب أكثر، فيقول: لا يُسمح للسُّلطان بترميم أيِّ حصن من حُصُونه، كما أنَّه تعهَّد بإعادة جميع الأسرى، وإنَّهم ـ بالفعل ـ أطلقوا ودخلوا القُدْس، وبعد الفراغ من عباداتهم، عادوا إلى بُلدانهم[3].

فأيُّ الشُّرُوط هي الأصحُّ؟ ما ذكره المُؤرِّخون المُسلمون؟ أم ما ذكره فريدريك بنفسه؟ في الحقيقة؛ إن كُلَّ ما ذُكر عن المُعاهدة فيه مُغالطات كبيرة، ولا نستطيع أن نثقَ إلاَّ بالنتائج التي أعقبت المُعاهدة، فالمُؤرِّخون المُسلمون وهُم شبه ناطقون رسميون باسم السُّلطان، لأنَّهم كُتَّاب رسميون في دواوينه، أو دواوين خُلفائه من المُلُوك الأيُّوبيَّة، قد جمَّلوا الاتِّفاقية بما أمكن لهم من تبريرات، وقاموا بالتركيز على الشُّرُوط الإيجابية للمُسلمين، كذلك كان من المُتوقَّع لفريدريك أن يظهر الأمر لصالحه، وصالح قضيَّة الفرنجة بشكل عامٍّ، ليُبرِّر موقفه المُتدهور في أُورُبة، ولكن المُهمَّ في الأمر أن الاتِّفاق نصَّ ـ بما لا يقبل الشكَّ ـ على تسليم القُدْس، وعدد من القُرى حولها، وطريق يصلها بالبحر إلى الإمبراطُور فريدريك، فقد أخلى السُّلطان الكامل "البيت المُقدَّس من المُسلمين، وسلَّمه

---

1 - الصَّليبيُّون في الشَّرق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 303.

2 - The Crusades, Campell, p. 406 راجعْ نصَّ مُعاهدة يافا بين السُّلطان الكامل والإمبراطُور فريدريك في: تاريخ الحَرْب، فيليب دي نوفار، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 91 + 45.

3 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 893.

للفرنج"[1]، ودخل الإمبراطورُ القُدْسَ، وأقام فيها يُرافقه قاضي نابلس شمس الدِّين[2]، "فاستعظم المُسلمون ذلك، وأكبروه، ووجدوا له من الوهن والتألُّم ما لا يُمكن وصفه"[3].

نتائج تسليم القُدْس في العالم الإسلامي:

اختلفت آراء المُسلمين، وتباينت حول ما قام به الكامل من تسليم القُدْس، وهُو غير مُضطرٍّ لذلك، فكان القسم الأكبر من العالم الإسلامي غير مُهتمٍّ بما حدث أصلاً، هذا إذا سمع بما حدث، فقد يكتفي بالاستنكار، مثلما فعل اليافعي، المُؤرِّخ اليمني، الذي قال: "أخذ الكامل بيت المَقْدس، وسلَّمه إلى ملك الفرنج، أعوذ بالله من سُخط الله، ومن انتهاك شعائر الله، ومُوالاة أعداء الله"[4].

وظهرت المواقف السِّياسيَّة واضحة في عبارات مُؤرِّخي الشَّام، الذين بمُعظمهم كتبوا بعد سُقُوط دمشق بيد السُّلطان الكامل يُدافعون عنه، ويُبرِّرون تسليمه للقُدْس، فالكامل وأخوه الملك الأشرف ومعهما الملك المُجاهد صاحب حمص وحليفهم صاحب حماة، كانوا يداً واحدة، وهُم أصحاب الشَّام، بعد طَرْد النَّاصر داود من دمشق. فالمُؤرِّخ ابن نظيف لم يُضمِّن عباراته التي دوَّن فيها خبر تسليم القُدْس أيَّ نقد للسُّلطان الكامل، فقد كان مُقيماً في بلاط الملك المُجاهد صاحب حمص حليف السُّلطان الكامل، ولكنَّه ـ للحقِّ ـ لم يُبرِّر، ولم يُدافع. أمَّا مُؤرِّخو دمشق وحماة؛ فقد أجهدوا فكرهم، وأعملوا أقلامهم للدفاع عن الكامل، واختلقوا له الأعذار والمُبرِّرات، وابتكروا تحليلات لتسويغ تسليمه القُدْس للفرنج[5]، وكان شيخهم قاضي حماة المُؤرِّخ ابن أبي الدَّم، الذي نصَّب نفسه مُحامي دفاع عن ما فعله الكامل[6].

ولكن ردَّ فعل دمشق قبل أن يستولي عليها السُّلطان الكامل كان هُو الأعنف، رُبَّما لقُربها من مسرح الحدث، فالقُدْس جُزء من الشَّام، وهي أقدس مُقدَّساته، لذلك قامت دمشق تحمل لواء

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 299.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 244.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 483.

4 - مرآة الجنان، اليافعي، 4/ 47.

5 - راجعْ ما كتبه ابن واصل: "بأنَّ الناس تستشنع ما فعل، مع أنَّه سلَّم الفرنج بلداً خرباً لا يُمكنهم الدفاع عنه، ومتى أراد الكامل يُخرجهم منه (مُفرِّج الكُرُوب، 4/ 443)، ويقول أيضاً: "إن الكامل بتسليمه القُدْس للفرنج لم يفتح باب مُحاربتهم" (مفرج 4/ 241)، ويُردِّد أحمد الحنبلي (شفاء القُلُوب، 311) ما قاله ابن واصل، وهذا عُذر أقبح من ذنب للكامل.

6 - راجعْ نصَّ ما أورده ابن أبي الدَّم في تبرير فعلة الكامل في ملاحق هذا الكتاب.

المُعارضة ضدَّ الكامل، وباشر العُلماء فيها والفُقهاء بالتشنيع عليه، وبالتَّأكيد؛ كان ذلك بتشجيع صاحب دمشق الملك النَّاصر داود بن الملك المُعظَّم، الذي أدرك أن الاتِّفاق بكامله مُوجَّه ضدَّه، مثلما كان قد بدأ ضدَّ أبيه المُعظَّم، وخاصَّة أن طلائع جيش السُّلطان الكامل وحُلفاءه قد وصلت لحصار دمشق، ونزعها منه. عقد سبط ابن الجوزي في جامع دمشق مجلساً، فلم يتخلَّف عنه أحد من أهل دمشق[1]، وألقى فيه خطبة "ولم يُرَ في ذلك اليوم إلاَّ باك، أو باكية"[2]، وممَّا قاله ابن الجوزي: "يا خجلة مُلُوك المُسلمين لمثل هذه الحادثة"[3]. أمَّا في القُدْس، فقد آلم المُسلمين إخراجُهُم من ديارهم، "فاشتدَّ البُكاء، وعظم الصُّراخ"[4]، "وحضر المُؤذِّنون والأئمَّة الذين كانوا في الصخراء والمسجد الأقصى إلى باب دهليز الملك الكامل، فأذَّنوا على باب الدهليز في غير وقت الأذان، فعسر ذلك على الكامل"، وأمر أتباعه بأخذ ما معهم من أثاث المسجد، وطردهم[5]، ورُبَّما كان هذا الاعتراض المُباشر الوحيد الذي جُوبه به الكامل من قبَل مُؤذِّنين، لا حول لهم، ولا قُوَّة. وإذا كان الاستنكار الرَّسْمي معدوماً، أو خجلاً، فقد كان الاستنكار الشَّعْبي قوياً جدَّاً، إلى درجة اضطُرَّت الملك الكامل لتسيير رُسُله إلى البُلدان لتسكين الناس، وكذلك أرسل إلى الخليفة يُبرِّر له ما فعل[6].

وَقْعُ الاتِّفاقية في أُورُبا:

غادر فريدريكُ أرضَ فلسطين بسُرعة، بعد إبرامه الاتِّفاقية مع السُّلطان الكامل، فقد وصلته الأخبار أن جُنُود البابا قد هاجموا مُمتلكاته في جنوب إيطالية، وتمكَّن فريدريك بعد وُصُوله إيطالية من التّصدِّي لقُوَّات البابا، وهزيمتها عام 627 هـ 1230م، وأجبر البابا على عقد مُعاهدة سان جرمانو؛ حيثُ ألغى حرمانه، وصادق البابا - في السنة التَّالية - على مُعاهدته مع السُّلطان الكامل، وأرسل البابا أوامره إلى طوائف الرُّهبان الفُرسان الدَّاويَة والاسبتاريَّة لمُراعاة نُصُوص اتِّفاقية فريدريك مع المُسلمين[7].

---

1 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 432.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 246.
3 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 432.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 354.
5 - أخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 16.
6 - المنصُوري، ابن نظيف، 179، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 232.
7 - الصَّليبيُّون في الشَّرق، زاباروف، ترجمة: إلياس شاهين، 303، والحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 113.

ولكن الهُدنة لم تمنع البابا من توجيه نقد كبير لاتّفاقية فريدريك مع المُسلمين، فاتّهمه البابا غريغوري بأنّه وحده يعرف شُرُوط المُعاهدة، "لأنّها تتوافق مع شريعة المُسلمين أكثر من توافقها مع شريعة إيماننا، واتّبع عاداتهم في عدَّة نقاط، منها: مُساعدة السُّلطان ضدَّ جميع الناس مُسلمين ومسيحيين"[1]، وتابع البابا قوله في رسالة إلى مندوبه بفرنسا: أن فريدريك ويُسمِّيه البابا: نائب مُحمَّد، أخذ بوسائل المُسلمين، وهاجم ميراث الكرسي الرسولي، وأبرم مُعاهدة مع السُّلطان، وأظهر اللُّطف نحو المُسلمين، وأبدى كراهية مكشوفة تجاه المسيحيين، "إلى حَدِّ العمل على محق طائفتَيْ الاسبتاريَّة والدَّاويَة"[2]، وإن نائب الإمبراطُور ووزيره في فلسطين توماس كُونت أتري ينتزع الغنائم من الدَّاويَة والاسبتاريَّة، ويردّها للمُسلمين، "كما أنَّه جمع مائة عبد كانوا لدى الاسبتاريَّة والدَّاويَة. . وأعطاهم للمُسلمين"[3]. إن البابا لا يُريد القول بأنَّ فريدريك ونائبه يُطبِّقان بُنُود الاتّفاقية، والتي يتَّضح أنّه كان من بُنُودها ردّ كُلّ ما يسلبه الفرنجة من المُسلمين، وإطلاق أسرى المُسلمين في البلاد الواقعة تحت سيطرة الإمبراطُور، الذين يُسمّيهم البابا عبيد. ثُمَّ يُحدِّد البابا موقفَ الكَنيسَة ورجالها من حملة فريدريك بقوله: "بأنَّ فريدريك لم يقم بالحملة غَيْرَة على العقيدة، أو رغبة في خدمة المَسيحيَّة، بل ليُتوِّج نفسه، فقد سمح للمُسلمين بالبقاء في القُدْس"[4]، وهُنا؛ تظهر الجوانب الإيجابية في شخصية فريدريك مُقارنة مع رجل المَسيحيَّة الأوّل في أُورُبا، الذي لا يُوافق على بقاء المُسلمين في القُدْس، حتَّى تحت السيطرة المَسيحيَّة. ويقول البابا إن كُلَّ القوى المَسيحيَّة في الأراضي المُقدَّسة لم تُوافق على مُعاهدة السلام مع المُسلمين التي عقدها فريدريك: الكاردينال نائب البابا، وبطريرك القُدْس، والدَّاويَة، والاسبتاريَّة، والبارونات، باستثناء الألمان، والصقليين[5].

وعندما عجز البابا عسكريّاً عن قَهْر فريدريك، لجأ إلى التآمر عليه، فاتَّفق مع ثلاثة من خواصّ الإمبراطُور عام **644** هـ **1247**م، على اغتياله، على أن يُوزِّع بلاده بينهم، لكنَّ الإمبراطُور

---

1 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 899.

2 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 871.

3 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 872.

4 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1167.

5 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1168.

كشف المُؤامرة، وذبحهم بيده، واشتعل القتال بين البابا والإمبراطُور مرَّة أُخرى[1]. وجاء الدليل على تعصُّب وتزمُّت البابا غريغوري التَّاسع وتجبُّره وظُلمه، الذي نال منه فريدريك قدراً كبيراً، فقد قام سُكَّان رُوما بثورة ضدَّ هذا البابا، وطردوه من بلدهم[2].

فلسطين بعد المُعاهدة:

لم يتعرَّض أحد من مُؤرِّخي الإسلام، المُعاصرين للمُعاهدة، لتطبيق الفرنج لبُنُودها التزاماً، أو مُخالفة، ورُبَّما كان ذلك تجنباً كُلِّيّاً لذكر المُعاهدة، لعدم إزعاج الكامل، أو أبنائه من بعده.

أمَّا مُؤرِّخو الفرنجة؛ فقد تضاربت أقوالهم، فقد روى بعضهم أن الفرنجة أعادوا بناء المدينة، وأحاطوا الأسوار بالخنادق، ورمَّموا شرافات الأبراج، وكذلك عمَّروا جميع المُدُن والقلاع[3]. وجاء في رواية أُخرى ما يُناقض ذلك تماماً، يقول متَّى باريس: "إن سُكَّان عكَّا خائفون تماماً، ومحصورون ضمن مدينتهم مع نقص المُؤن، لأن فريدريك أصبح مطرقة رُعب الكَنيسَة، ولم يعد يسمح بأيِّ مُؤن أو قُوَّات عسكريَّة أن تُنقل إلى عكَّا. . . عسقلان مُحاصرة، وبالكاد تُدافع عن نفسها، وأصبحت الحُصُون الصَّليبيَّة سُجُوناً لأهلها، وليست أماكن للحماية"[4].

وبغَضِّ النظر عن ما يكتبه مُؤيِّدو فريدريك، أو ما يكتبه مُعارضوه، فإنَّنا نستنتج أن وضع الفرنج في فلسطين أصبح أكثر سُوءاً بعد المُعاهدة، فانقسام الولاء بين البابا والإمبراطُور صاحب المملكة، ومنع الطوائف الدِّينيَّة من فرض هيمنتها، وتوقُّف الدعم البابوي، كُلُّ ذلك أدَّى ـ بلا شكٍّ ـ إلى زعزعة الوُجُود الفرنجي في فلسطين، الذي هُو ضعيف أصلاً مُنذُ معركة حطِّين. والذي منع اجتثاث هذا الوُجُود هُو ضعف السَّلطنة الأيُّوبيَّة، والتفات مُلُوك الأيُّوبيِّين إلى خلافاتهم، ويبدو أن السياسة الأيُّوبيَّة كانت ترى ترك الفرنج بحالهم ما أمكن، رُبَّما لاعتبارهم أصبحوا لا يُشكِّلون أيَّ خطر حقيقي على الأيُّوبيِّين.

---

1 - المُختار من حوادث الزَّمان، 204، وتاريخ الإسلام، الذهبي، 641 ـ 650، والبداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 171، وتاريخ أُورُوبا في العُصُور الوُسْطَى، فيشر، ترجمة: مُحمَّد مُصطفى زيادة، 257.

2 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 872.

3 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 898.

4 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 892.

نتائج الحملة:

تُعدُّ حملة فريدريك الحملة السادسة في الحملات الفرنجيّة على الشّرْق الإسلامي، من أغرب الحملات، وأكثرها إثارة للجدل في مجراها وفي نتائجها، فمن حيثُ الواقع كان قائد الحملة فريدريك في أسوأ وضع عرفه قائد يُقدم على معركة، فقد أبحر نحو الشَّرْق محروماً من الكَنيسَة، وما كاد يبتعد حتَّى هاجم جُنُود البابا مُمتلكاته الإيطالية، ولمَّا وصل فلسطين "وجد قدراً ضئيلاً من الطاعة، وقدراً كبير من الإهانة"[1]، وتعرَّض لتآمر فرنج سُورية عليه، فقد عرضوا على السُّلطان الكامل تسليمه إليه في المعركة. أمَّا لدى المُسلمين؛ فقد وجد أن السُّلطان الكامل الذي استدعاه، ووعده بالقُدْس، قد استغنى عنه، فالخطر قد زال عن مملكته بوفاة أخيه المُعظَّم، لذلك أصبح قُدُوم فريدريك عبثاً عليه، فحاول التملُّص من وعده.

لكنَّ فريدريك أثبت أنَّه سياسي مُحنَّك، ومُفاوض جيِّد، فقد حصل من الملك الكامل، مهما كانت الظُّرُوف أو الأسباب، على القُدْس، ووقَّع معه اتِّفاقية عام **626 هـ 1229م**، وكان فيها ما هُو أهمّ للطرفَيْن من القُدْس، إنَّه سلام عشر سنين قادمة، يتفرَّغ فيها كُلٌّ منهما لمشاكله الخاصَّة. ونعود للقول إن أهمَّ أسباب نجاح فريدريك كانت تكمن في شخصيَّته الفريدة التي قرَّبته كثيراً إلى المُسلمين، الذين كانوا يُكنُّون له كُلَّ احترام، حتَّى إنَّهم اعتقدوا أنَّه أميل للإسلام[2]. لقد بهرت شخصية فريدريك المُسلمين وسُلطانهم الكامل، لأنَّهم وجدوا فيه العلم وسعة الأفق والتحرُّر من سيطرة الكَنيسَة[3]، كما اعتقدوا أنَّه تغلب عليه رُوح التسامح والاحترام تجاه كُلِّ الأديان، هذه الصفات التي تُعدُّ ـ الآن ـ جميلة، وتُميِّز أيَّ شخص مُعاصر، كانت فريدة في عصر يسوده التعصُّب الأعمى[4].

---

1 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 163.

2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 148.

3 - حول حياة فريديك راجعْ كتاب:

Frederick the Second (1194 – 1250), Kantorowicz

4 - حول الاعتقاد الذي ساد بعدم تعصُّب فريدريك وتسامحه الدِّيني، راجعْ زيارة فريدريك للقُدْس، رواية ابن واصل عن شمس الدِّين قاضي نابلس، وكيف تصرَّف فريدريك مع قسِّيس مسيحي شاهده عند الصخرة، وطلبه سماع أذان المُؤذِّنين (مفرج 4/ 244 ـ 245)، علماً أن مُحاولة المُؤرِّخ ابن واصل المُبالغ فيها لتبرير تسليم الكامل للقُدْس، تجعلنا

العلاقات بين الإمبراطوريَّة والسَّلطنة بعد المُعاهدة:

بعد رحيل فريدريك إلى بلاده، استمرَّت العلاقات بينه وبين السُّلطان الكامل، ويبدو أن الرسائل بينهما كانت لا تتوقَّف، فقد استمرَّ فريدريك "مصافياً للملك الكامل، مُوادّاً له، والمُراسلة بينهما مُتَّصلة"[1]، بل حتَّى إن رسائل الإمبراطُور كانت مُستمرَّة إلى فخر الدِّين يُوسُف بن الشَّيخ وزير السُّلطان الكامل، الذي تحمل وزر المُفاوضات مع فريدريك[2]، وكُلُّها تدلُّ على حفْظ فريدريك للجميل، ومُثابرته على علاقة الوُدِّ مع السُّلطان الكامل.

فريديك الثَّاني وعلاقاته بالسَّلْطَنَة الأيُّوبيَّة بعد الكامل:

تُوفِّي السُّلطان الكامل عام **635** هـ **1238**م، وخلفه في سلطنة مصر ابنه الملك العادل الثَّاني، واستمرَّ الإمبراطُور على وداده، "فصافى الملك العادل، ووادَّه، وراسله"[3]. وبعد الانقلاب على السُّلطان العادل الثَّاني، وتولِّي أخيه الصَّالح أيُّوب سلطنة مصر والشَّام، استمرَّت المُحالفة والتفاهم والاتِّفاق بين المملكتَيْن، فقد حافظ فريدريك على علاقاته نفسها بالسُّلطان الصَّالح أيُّوب، وكذلك استمرَّ أيُّوب بتقدير فريدريك، والحرص على أحسن العلاقات معه، حتَّى إن فريدريك كان يطلب العُلماء المُسلمين من مصر، فقد أرسل إليه السُّلطان أيُّوب في عام **626** هـ **1229**م "الشَّيخ العلامة سراج الدِّين الأرموي، قاضي قونيه، فأقام عنده مُدَّة مُكرَّماً، وألَّف له كتاباً في المنطق، ثُمَّ عاد إلى الملك الصَّالح أيُّوب"[4]، ممَّا يدلُّ على أن العلاقات بين البلدَيْن قد تعدَّت حُدُود التحالف السِّياسي إلى حَدِّ التبادل الفكري والثقافي، والتمازج الحضاري، الذي كان أباطرة الدولة المُقدَّسة مُهيَّئين له بسبب تواجدهم في صقلية، التي كانت مرجل تفاعل بين حضارات المُتوسِّط.

نشكُّ بهاتَيْن القضيَّتَيْن، أو على الأقل، رُبَّما كان هُناك مُبالغة في نقلهما، مع أنهما لا تُستبعدان عن تفكير ولا سُلُوك الإمبراطُور فريدريك.

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 246.

2 - راجعْ نُصُوص رسائل الإمبراطُور فريدريك إلى فخر الدِّين في : المنصُوري، ابن نظيف، 189 ـ 193؛ حيثُ يقول ابن نظيف إن سبب إثبات هذه الكُتُب في تاريخه هُو تحقيق ممالك الإمبراطُور وقُدرته.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 246.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 246.

وعندما أرسل فُرسان الدَّاويَة والاسبتاريَّة يسألون السُّلطان أيُّوب إطلاق أسراهم في معركة غزَّة مُقابل فدية، أرسل يقول لهم: "كَمْ هُم تُعساء هؤلاء الدَّاويَة والاسبتاريَّة الخارقين لنظامهم، قبل سنوات قاموا بخيانة إمبراطُورهم فريدريك عندما كان في حجِّه، فقُمنا بحمايته"، ورفض أيُّوب فداءَ الأسرى. ولمَّا سأل رُسُلُهُم الحاشيةَ ماذا نفعل؟ نصحوهم قائلين: "أقنعوا الإمبراطُور فريدريك، الذي يُحبُّه مولانا، ويحترمه فوق جميع الناس، فرفضوا"[1]، إنَّه دليل على صداقة وتحالف ومحبَّة حقيقيَّة يُكنُّها الصَّالح أيُّوب للإمبراطُور. وتتأكَّد هذه العلاقة الخاصَّة من رسالة أرسلها السُّلطان أيُّوب إلى البابا ردَّاً على رسالته، التي يطلب فيها هُدنة مع المُسلمين، يقول السُّلطان أيُّوب في ردِّهِ: "بعد التوقير والاحترام . . من الصَّالح نجم الدِّين أيُّوب . . سمعنا ما قاله رسولكَ، وإنكَ تُريد السلام، ونحنُ كذلك نرغب به، وليعلم البابا أن صداقة وتقديراً مُتبادلاً فيما بيننا وبين الإمبراطُور مُنْذُ أيَّام أبينا السُّلطان، وبينكَ وبين الإمبراطُور أنت تعلم كيف هي الأحوال، ولذلك ليس لنا حُرِّيَّة عمل اتِّفاق مع الصليبيين دُون معرفة رأيه، وقد كتبنا إلى مبعوثنا الموجُود الآن في بلاد الإمبراطُور من أجل ما ذكرتَ، ومبعوثنا سوف يأتي إليكم"[2]، تُوضح لنا هذه الرسالةُ عُمقَ الصلة بين المملكتَيْن، وتُبيِّن أن هُناك تحالفاً يقضي بعدم عقد اتِّفاقات خارجية إلاَّ بعد التشاور، كما تُبيِّن وُجُود سفير دائم لمصر في بلاط الإمبراطُور، ورُبَّما كان هُناك مثله في بلاط السُّلطان.

فريدريك وحملة لويس على مصر:

تتحدَّث عدَّة مصادر عن خبر مُسبق أرسله الإمبراطُور فريدريك إلى السُّلطان الصَّالح أيُّوب، يُحذِّره فيه من قيام الملك لويس التَّاسع ملك فرنسا بحملته المُتوجِّهة إلى مصر عام 647 هـ 1249م. وقد وصل الخبر إلى السُّلطان عندما كان لويس يُمضي أوقاتاً عصيبة في قبرص، والسُّلطان أيُّوب يُحاصر حمص لاستردادها من الحلبيين. إن مُعظم المصادر التي تحدَّثت عن إنذار فريدريك للسُّلطان أيُّوب هي مصادر إسلامية، وقد يكون هذا طبيعيَّاً، فالمُسلمون هُم مَنْ عرف الخبر، وإليهم وصل التحذير، فقد ذكر الروايةَ ابنُ واصل على لسان رسول فريدريك، قال: "حكى لي

---

1 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 858.

2 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 899.

سرندر[1]،وهُو مهمندار[2] مُنفرد ابن الإمبراطُور: أرسلني الإمبراطُور في السِّرِّ إلى الملك الصَّالح نجم الدِّين، عزم قصد ريد فرانس على مصر، وأُحذِّره منه، وأُشير عليه بالاستعداد له، فاستعدَّ له الملك الصَّالح، ورجعتُ إلى الإمبراطُور، وكان ذهابي إلى مصر ورُجُوعي في زيٍّ تاجر[3]، ولم يشعر أحد باجتماعي بالملك الصَّالح، خوفاً من الفرنج أن يعلموا مُمالأة الإمبراطُور للمُسلمين عليهم"[4].

وقد أُعطي هذا الإنذار المُبكِّر الذي قام به عاهل مسيحي ضدَّ عاهل مسيحي آخر أهمِّيَّة كُبْرَى، علماً أنَّه في حال كونه حقيقة، فهُو لا قيمة عسكريَّة له البتَّة، فمن المُستبعد أن لا تكون أنباء حملة لويس قد وصلت إلى الصَّالح أيُّوب مع التُّجَّار، إنْ لم نقلْ من عُيُونه في قبرص، فقد أمضى لويس ثمانية أشهر كاملة هُناك، تعرّض خلالها لمجاعة كادت تقضي على حملته برُمَّتها[5]. وإذا كان خبر وُجُود الملك لويس في قبرص قد وصل إلى التَّتار في أقاصي آسيا، وقام الخاقان جغطاي بإرسال سفارة وصلت إلى لويس في قبرص[6]، فمن الأَولى أن يكون خبر الحملة قد وصل ـ بشكل أبكر ـ إلى الصَّالح أيُّوب. ولكنَّنا لا نستطيع نَفْيَ أن يكون فريدريك قد نبَّه ـ فعلاً ـ الصَّالح أيُّوب، لكنْ؛ لابُدَّ أنَّه ـ في قرارة نفسه ـ كان يعرف أن تنبيهه لا يعني الشيء الكثير، إلاَّ إذا كان يقصد تبرير موقفه أمام سُلطان مصر، عندها؛ يكون الشِّقُّ الثَّاني من رسالة فريدريك هُو المقصود، وهُو المُهمُّ؛ حيثُ أراد فريدريك أنْ يُعلم أيُّوب أنه بذل جهداً كبيراً لإقناع لويس بالعُدُول عن الحملة، لكنَّه أصرَّ على القيام بها.

يقول فريدريك في رسالته إلى أيُّوب: "وقد اجتهدتُ غاية الاجتهاد على ردِّه عن مقصده، وخوَّفتُهُ، فلم يرجع لقولي"[7]، وممَّا يجعلنا نشكُّ أكثر بتحذير فريدريك علاقته الجيِّدة جداً بالملك لويس التَّاسع، والدليل عليها إمداد فريدريك لحملة لويس في قبرص بالمُؤن اللازمة، التي أنقذته، وأنقذت الحملة من خطر الموت بالمجاعة[8]. وقد انقسم مُؤرِّخو الفرنجة حول عملية الإمداد هذه،

---

1 - سرندر: رُبَّما كان اسمه: سير برنار.

2 - راجعْ مبحث العلاقات مع القبائل البدويَّة في هذا الكتاب.

3 - إن تزيِّي السفير بزي التُّجَّار يُذكِّرنا بسفير جنوة التاجر كليام، راجعْ: مبحث المُدُن الإيطالية ـ جنوة، في هذا الكتاب.

4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 247، وراجعْ: الخُطط والآثار، المقريزي، 1/ 409.

5 - راجعْ مبحث: حملة لويس التَّاسع في هذا الكتاب.

6 - راجعْ: مبحث: العلاقات بين التَّتار والفرنج في هذا الكتاب.

7 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 366.

8 - راجعْ مبحث: حملة لويس في هذا الكتاب.

فمنهم مَن اتَّبع جوانفيل مُؤرِّخ حملة لويس ومُرافقه الذي شكَّك بنوايا فريدريك على مُساعدة الملك لويس[1]، ومنهم مَن انساق مع المُؤرِّخ الإنكليزي متّى باريس، الذي أكَّد أهمِّيَّة مُساعدات فريدريك لحملة لويس في قبرص[2].

ولتفسير هذه المواقف المُتناقضة لفريدريك فيُمكن أن يُقال إنَّه اتبع سياسة مُزدوجة حيال لويس، فكون فريدريك إمبراطُوراً للدولة الرُّومانيَّة المُقدَّسة، وملكاً لمملكة بيت المَقْدس فقد ساعد لويس، فهُو معه كملك لفرنسا، كما أنَّه يُريد المُحافظة على علاقته المُتميِّزة به ضمن مُجمل علاقات سيِّئة له في أُورُبا. وبالمُقابل؛ فكون فريدريك صديقاً لسلاطين مصر، ومصالحه مُؤمَّنة في بلادهم بشكل جيِّد، فقد أراد أن يكسب ثقة السُّلطان، ويُبرهن له على مودَّته بما لا يضرُّ القضية الصَّليبيَّة مُطلقاً، ففريدريك أكثر الناس معرفة بأنَّ خبر الحملة بعد إقامتها في قبرص لابُدَّ وأن يتسرَّب إلى مصر.

ويبدو أن تحقيق المصالح المُشتركة للإمبراطُورية وللسلطنة في اتِّفاقهما وتحالفهما دفع الحُكَّام المتعاقبين على حُكْم مصر للالتزام بحُسن العلاقة، وتعدَّى الأُسرة الأيُّوبيَّة ليُتابع سلاطين المماليك نهج مَنْ سبقهم من سلاطين الأيُّوبيَّة في التحالف مع الإمبراطُوريَّة، ولكنْ؛ بالنِّسبَة للإمبراطُورية فقد استمرَّ ذلك التحالف ما استمرَّت أُسرة فريدريك في الحُكْم، ففي عام **659** هـ **1261**م، وجَّه السُّلطان الظَّاهر بيبرس سفارة إلى الإمبراطُور مانفريد بن فريدريك الثَّاني تحمل هدايا ومعها "جماعة من التَّتَار الأسرى في نوبة عَيْن جالُوت بخُيُولهم التَّترية، وعدَّتهم"[3].

سياسة فريدريك تجاه مُسلمي صقلية:

رُبَّما كان التناقض هُو السمة الأوضح في شخصية هذا الإمبراطُور الأُعجُوبة، فالإمبراطُور الذي أقام أوثق العلاقات مع المُسلمين في الشَّرْق، وحالفهم، وحالفوه، كان له تصرف آخر مع مُسلمي صقلية، أيضاً؛ فيه من التناقض الشيء الكثير، فهُو الذي وُصف بالتسامح الدِّيني في الشَّرْق[4]، وعُدَّ أميل للإسلام، ويُؤثر القرآن على الإنجيل[1]، ويستقدم عُلماء المُسلمين، ويستفيد من

---

1 - Latin kingdom, Conder, 358

2 - راجعْ: Bray, p. 263

3 - عقد الجُمان، العيني، 1/ 290.

4 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 118.

علمهم[2]، ولكنْ؛ ما وجه الحقيقة في كُلِّ ذلك؟ غالباً كانت هذه النظرة إلى فريدريك من قبَل مُؤرِّخي المُسلمين لخلافه مع البابا[3]، دُون أن يعرفوا حقيقة مُعتقده. ومع أن فريدريك كان يعتمد في قصره على حاشية من المُسلمين، لكنَّهم كانوا للخدمات فقط، وهي عادة جرى عليها مُلُوك صقلية مُنْذُ عهد مُلُوك النورمان، وفريدريك مُتَّبع لهم في صقلية لم يأت بجديد، يقول ابن جُبَيْر في وصفه لملك صقلية النورماندي كليام ـ أو وليم، وهُو وصف شاهد عيان، يقول: "وشأن ملكهم عجيب في حُسن السيرة، واستعمال المُسلمين . . كثير الثقة بالمُسلمين، وساكن إليهم في أحواله، والمُهمِّ من أشغاله؛ ناظر مطبخه مُسلم، وجُملة من العبيد السُّود مُسلمون، ووُزراؤه وحُجَّابه الفتيان هُم أهل دولته، والمُرتسمون بخاصَّته، يتشبَّه بالنعيم والتفخيم بمُلُوك المُسلمين . . يقرأ ويكتب بالعَرَبيَّة، وجواريه وحظاياه كُلُّهنَّ مُسلمات، أمَّا فتيانه وهُم يُحيون دولته وأهل عمالته؛ فهم مُسلمون"[4].

وملك صقلية وليم النورماندي هُو الذي قام بحملة بَحْريَّة كُبْرَى على مصر، زمن السُّلطان صلاح الدِّين، ومع أنَّه هُزم أمام الإسكندرية، وعاد إلى بلاده، فلم يُغيِّر من مُعاملته لمُسلمي صقلية، فعندما ارتطم المركب الذي يستقلُّه الرَّحَّالة ابن جُبَيْر في برِّ صقلية، خرج وليم "بنفسه في جُملة من رجاله، وأبصر فُقراء من المُسلمين، فأنزلهم عنده . . وخلَّص جميع المُسلمين"[5]. وعندما يصف ابن جُبَيْر حال مُسلمي صقلية يتعجَّب من حُسن مُعاملتهم، ومن تسامح النصارى معهم[6]. فماذا فعل الإمبراطُور الألماني فريدريك عندما تولَّى عرش صقلية بالمُسلمين فيها؟ لقد فعل ما لا يفعله إلاَّ كُلّ مُتعصِّب أعمى، بعيد عن أيِّ نوع من التسامح، ففي عام 627 هـ 1230م، كانت قد اشتُهرت علاقة الملك الكامل بفريدريك بعد تسليم القُدْس، وكان الملك الكامل في حَرَّان، فوصل إليه فيها "شخص يُقال له أحمد بن أبي القاسم المعروف بالرّمان من جزيرة صقلية، من أهل مشائخ غلو من

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 2/ 148، وعقد الجُمان، العيني، 1/ 290.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 246.

3 - المنصُوري، ابن نظيف، 194.

4 - تذكرة بالأخبار عن اتِّفاقات الأسفار، ابن جُبَيْر، 295 ـ 299.

5 - تذكرة بالأخبار عن اتِّفاقات الأسفار، ابن جُبَيْر، 295.

6 - تذكرة بالأخبار عن اتِّفاقات الأسفار، ابن جُبَيْر، 305 ـ 310.

جبال صقلية، والجزيرة كُلُّها بيد الإمبراطُور إلاَّ هذه الجبال[1]، . . . وسبب وُصُوله أن الإمبراطُور غدر بأهل الجبال هُناك، . . وذكر الحاجُّ أنَّه أخذ إلى البرِّ الكبير؛ أيْ بلاد إيطالية، مائة ألف، وسبعون ألفاً أخرجهم من أوطانهم، وأخذ أموالهم، وقتل من الشُّطَّار مثلهم، وخلت هذه الجبال"، وطلب المُسلم الصقلي من الكامل التوسُّط لدى الإمبراطُور ليردَّهم إلى أوطانهم، أو يُمكنهم من الخُرُوج إلى مصر، فكتب له الكامل كتاباً إلى الإمبراطُور[2]، ولا ندري هل تمكَّن هذا الرجل من الوُصُول إلى الإمبراطُور؟ وتسليمه الرسالة؟ وغالباً قد فعل، فرسالة من السُّلطان الكامل تجد طريقها بسُهُولة إلى بلاط الإمبراطُور، لكنَّ المُهمَّ ماذا كانت نتيجتها على مُسلمي صقلية ؟ لا شيء أبداً.

فقد أنهى فريدريكُ قضيَّة المُسلمين في صقلية إلى الأبد؛ إذْ نفاهم "إلى منطقة لُوسيرا في ايطالية الجنوبية، حيثُ حوصروا من قبل المسيحيين من كل الجهات وكان مصيرهم الهلاك"[3]، لكنْ؛ بعد طرد المُسلمين من صقلية أصبحت الجزيرة لُقمة سائغة أمام البابا أُورُبان الرَّابع، الذي تمكَّن من احتلالها عام 1268م، وذبح ملكها مانفريد ابن فريدريك، وأنهى حُكْم أُسرة الهوهنشتاوفن إلى الأبد في صقلية، ورُبَّما لو اعتمد فريدريك أكثر على مُسلمي صقلية، ولم يطردهم، لاختلف مصير أُسرته هُناك، وقام البابا أُورُبان الرَّابع، وهُو أوَّل بابا فرنسي، بتسليم عرش صقلية إلى شارل أنجو أخي ملك فرنسا لويس التَّاسع[4].

وفي النِّهاية؛ نجد أن علاقات ألمانيا بالدولة الأيُّوبيَّة كانت مُهمَّة ومُبكِّرة، وقد ابتدأت عدائية من خلال مُشاركة الأباطرة الألمان في الحملات الفرنجيَّة المُتكرِّرة، مع أنَّها جميعاً كانت غير مُجدية. لكنَّ العلاقات بين السَّلطنة الأيُّوبيَّة والإمبراطُورية الجرمانية قد تسارعت، وتوطَّدت، بشكل غير مألوف، وغير مُتوقَّع؛ بحيثُ وصلت إلى ما يُشبه تحالف استراتيجي، وذلك عندما عقد الإمبراطُور فريدريك اتِّفاقيَّته المشهورة مع الملك الكامل، وتسلَّم القُدْس، لكنَّ هذا المكسب الكبير الذي حقَّقه

---

1 - عندما احتلَّ النورمان صقلية اعتصم أهلها المُسلمون بالجبال، وفي أيَّام السُّلطان صلاح الدِّين كانت تصل أخبار صراعهم مع الفرنج إلى مصر والشَّام. (الروضتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 19/ 307.)

2 - المنصُوري، ابن نظيف، 194 ـ 195.

3 - الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 236.

4 - تاريخ أُورُوبا في العُصُور الوُسْطَى، فيشر، ترجمة: مُحمَّد مُصطفى زيادة، 260.

فريدريك للقضية المَسيحيَّة، والذي عجزت أُورُوبا بعد زجِّ كُلِّ قواها العسكريَّة عن تحقيقه، لم يُجنِّب فريدريك عداءَ البابا، الذي حرمه كَنَسياً، ولعنه، وأسماه خادم مُحمَّد، وعدوَّ الكَنيسَة.

وقد أعقب هذا الاتِّفاق علاقاتٌ سياسيَّة وُدِّيَّةٌ مُتميِّزة بين الإمبراطُوريَّة والسَّلطنة، استمرَّت طيلة عهد الكامل وابنه أيُّوب. لكنَّ تحالف فريدريك مع الأيُّوبيَّة وكُلّ ما أُذيع عن تسامحه لم يمنعاه عن القيام بأبشع أعمال التصفية العُنصُرية ضدَّ العَرَب والمُسلمين المُقيمين في صقلية.

وباختصار؛ فالعسكريَّة الألمانية لم تكن مُوفَّقة أبداً في الشَّرق؛ إذْ إن حملاتها كانت على الدوام تنتهي بانتكاسات كبيرة، بالرّغم من الحماسة الألمانية المشهورة، والمُشاركات المُتكرِّرة في الحملات الفرنجيَّة. كذلك لم يكن لطائفة الفُرسان الرُّهبان "التيُّوتُون" الشُّهرة نفسها التي تمتَّعت بها طوائف الدَّاويَة والاسبتاريَّة، لأنَّه لم يكن لها فعَّالية مُهمَّة في الحملات والحُرُوب التي خاضها الفرنجة ضدَّ المُسلمين. ورُبَّما كان الإمبراطُور فريدريك الثَّاني أوَّل مَنْ أدرك ذلك الواقع، وتصرَّف على أساسه، عندما حضر بحملته الشهيرة إلى الأراضي المُقدَّسة بعدد رمزي من الفُرسان، وتمكَّن ـ بالديبلوماسية والمُفاوضات ـ من تحقيق ما عجزت أكبر الحملات العسكريَّة عن تحقيقه، وحصل على مدينة القُدْس، وانتهج ـ لأول مرَّة في تاريخ العلاقات بين الشَّرق والغَرْب في العُصُور الوُسْطَى ـ سياسة استراتيجية أساسها العلاقات الوُدِّيَّة مع المُسلمين، وارتبط مع السَّلطنة الأيُّوبيَّة بما يُمكن أن نُسمِّيه اليوم: مُعاهدة سياسيَّة.

أُسرة هوهنشتاوفن Hohenstaufen

كُونراد الثَّالث

ت: 547 هـ 1152م

فريدريك الأوَّل بربروسا

516 ـ 586 هـ 1122 ـ 1190م

هنري السَّادس (تزوَّج كُونستانس ملكة صقلية)

586 ـ 593 هـ 1190 ـ 1197م

فريدريك الثَّاني

960 ـ 648 هـ 1212 ـ 1250م

كُونراد الرَّابع

648 ـ 652 هـ 1250 ـ 1254م

مانفريد كُونرادين

ت: 667 هـ 1268م

المبحث الخامس:

علاقات مملكة فرنسا بالشرق الإسلامي

الفرنسيون في الشَّرْق:

عندما وصلت جحافل الحملة الفرنجيَّة الأُولى إلى سُورية اعتقد الناس أنَّهم الرُّوم، ومضى وقت ليس بالقصير قبل أن يُدرك المُسلمون أن المُهاجمين ليسوا من الرُّوم، بل من سُكَّان أُورُوبا الغَرْبيَّة، فصحَّحوا تسميتهم إلى الفرنجة. كانت تسمية الفرنجة معروفة لدى مُسلمي المغرب العَرَبي، وخُصُوصاً مُسلمي الأندلس، فهي تُطلَق على شعب الفرانك، أو سُكَّان فرنسا، وهذا الشعب كان قليل الاحتكاك مع العَرَب المُسلمين في الشَّرْق، لكنْ؛ بعد الصدام المُباشر بالحملة الفرنجيَّة الأُولى تعرَّف المُسلمون إليهم، وبما أن الفرنسيين، أو الفرنك، كانوا يُشكِّلون السواد الأعظم للحملة، فأعطوهم الاسم الصحيح، وهُو الفرنج، وقد عُمِّمَتْ هذه التسمية على كُلِّ الأُورُبيين.

وحافظ الفرنسيون على التفوُّق العددي؛ إنْ كان في الحملات التَّالية، أو في عداد المُستوطنين في المُدُن المُستولى عليها، وذلك لأن جنوب فرنسا كان أرض التبشير وأرض الدعوة للحملات على الشَّرْق، ففيها كان مقرُّ البابا بعد طَرْده من الفاتيكان؛ إذْ إنَّه في عام **468** هـ **1076**م، قام الإمبراطُور الجرماني هنري الرَّابع بطَرْد البابا غريغوري من رُوما، وعَزَلَهُ من منصبه بالقُوَّة، وعيَّن بديلاً له. ولكن عدداً كبيراً من الكرادلة اجتمعوا في جنوب شرق فرنسا، وانتخبوا بابا جديداً، وغدت البابويَّة الشرعية ـ حسب اعتقادهم ـ للبابا المُنتخَب في مدينة ليون الفرنسيَّة، ولذلك أصبحت مناطق جنوب وجنوب شرق فرنسا هي مهد الحملات الفرنجيَّة نحو الشَّرْق، ووقودها الدائم بتأثير وُجُود مقرِّ البابا فيها، والذي كان هُو رأس الدعوة الصَّليبيَّة، وبالتَّالي؛ كان مُعظم النُّبلاء والأُمراء الفرنجة في الشَّرْق، وحتَّى مُلُوك القُدْس، من الفرنسيين. كذلك كان مُعظم فُرسان الاسبتاريَّة والدَّاويَة من الفرنسيين، يدلُّ على ذلك أسماء مُقدَّميهم، ورُؤساء طوائفهم. وقد تصدَّر مُلُوك فرنسا قائمة المُشاركة في الحملات الفرنجيَّة إلى الشَّرْق، فلا تكاد تخلو حملة من واحد منهم، وكأنَّ قَدَرَ فرنسا كان يرتبط بهذه الحملات مُنْذُ بدء الدعوة إليها، وحتَّى نهايتها المُفجعة.

لويس السَّابع في الحملة الثَّانية، وحصار دمشق:

بعد سُقُوط إمارة الرُّهَا الفرنجيَّة عـام 538 هـ ـ 1144م، بيـد عـماد الـدِّين زنكـي، أصـابت أُورُوبا صدمة كبيرة غير مُتوقَّعة، نتج عنها موجـة عاتيـة مـن الحـماس الـدِّيني، أدَّت إلى تجمُّـع حملـة صليبية جديدة عُرِفَتْ بالحملة الثَّانية، كان من أهمِّ قادتها لويس السَّابع ملك فرنسا، وكان مـن أكـبر مُلُوك أُورُبا في ذلك الوقت. اتَّبعت الحملة الطريق الـبرِّيَّ المُحـاذي للبحـر، ومـع أن لـويس تعـرَّض لهزيمة مُرَّة أمام عساكر السلاجقة، لكنْ؛ في النِّهاية، تمكَّن من الوُصُول مع حملته إلى فلـسطين؛ حيـثُ التقى بالحملة الألمانية، وانضمَّ إليهم بلدوين الثَّاني ملك القُدْس، وقادهم إلى حصار دمشق، ثُـمَّ رفـع بلدوين الحصارَ لاتِّفاقه مع أمير دمشق[1]، ممَّا أحنق كونراد ولويس، فاتَّهماه بالخيانة، وعـادا أدراجهـما بدُون تحقيق أدنى فائدة[2].

فيليب الثَّاني في الحملة الثَّالثة:

كان فيليب الثَّاني ملك فرنسا يمرُّ بمرحلة من مراحل الخلاف المُستحكم مع الملك الإنكليزي هنري الثَّاني عندما وصل رئيس أساقفة صُور ينقل إلى أُورُوبا أخبار فاجعة حطِّـين، ويُحـرِّض النـاس لاسترداد مملكة القُدْس، فجعل همَّه الإصلاحَ بين الملكَيْن، فقد خـشي كُـلٌّ منهـا المُـشاركة في الحملـة حتَّى لا يُهاجمه الآخر، لذلك اتَّفقا على الخُرُوج في يوم واحد، فأبحر الملك الفرنسي فيليب نحو الشَّرْق عام 586 هـ ـ 1190م، مُتزامناً مع إبحار ريتشارد الملك الإنكليزي الجديـد، الـذي تُـوِّج بعـد مـوت والده، وقرَّرا قضاء فصل الشتاء في صقلية[3].

بدأ الخلاف بين الملكَيْن مُبكِّراً، فعندما هاجم ريتشاردُ مدينةَ مسينا الـصقلية، ونهبهـا، وسـبى نساءها، طالب فيليبُ بحصَّته من الغنائم، كما طالب بإنزال الأعلام الإنكليزيـة عـن أبـراج المدينـة، ورفع الأعلام الفرنسيَّة، لأنَّه يعدُّ ريتشارد واحداً من أتباعه؛ بسبب أملاكـه التابعـة للتـاج الفرنـسي،

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 11/ 130 ـ 132.

2 - تاريخ أورُبا في العُصُور الوُسْطَى، فيشر، ترجمة: مُحمَّد مُصطفى زيادة، 184 ـ 186.

3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 2/ 289، والحُرُوب الصَّليبيَّة، رنسيمان، 3/ 23، حملة الملك ريتشارد، شـاهد عيـان، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 31/ 32.

فرفض الملك ريتشارد كُلَّ تلك المطالب، فما كان من فيليب إلاَّ أن تحالف مع تنكريد ملك صقلية ضدَّ ريتشارد[1].

وبعد تأخير عام كامل في صقلية بسبب الخلافات وصلت الحملة إلى فلسطين، وكان الملك الفرنسي فيليب الثَّاني يُحاول العمل مُنفرداً ما أمكنه لتحقيق انتصار على أسوار عكَّا؛ ليُزعزع شُهرة ريتشارد العسكريَّة، فجهد في اختراع وصُنع آلات قتال كالمنجنيقات والأبراج، وقام مع جُنده الفرنسيين بعدَّة هجمات، لكنَّها كُلّها كانت جُهُوداً ضائعة. وبعد استسلام عكَّا؛ استشرى الخلاف بين فيليب وريتشارد، فقد كان لكُلٍّ منهما مُرشَّحه لتولِّي مملكة القُدْس؛ إذْ دعم فيليبُ ترشيحَ المركيز مُونت فرات، بينما أيَّد ريتشارد إعادةَ المملكة إلى صاحبها السَّابق الملك غي. ولمَّا بدأت المُفاوضات بين ريتشارد والمُسلمين شكَّ فيليب أن يكون الاتِّفاق على حسابه، أو على الأقلِّ، أن يكون خارجه، فادَّعى المرض، وغادر فلسطين إلى فرنسا[2].

حملة لويس التَّاسع في دمياط وفلسطين:

وبعد أن هدأت المعارك بين الفرنج والمُسلمين، والتفت الطرفان لمصالحهما السِّياسيَّة والاقتصاديَّة، وبدا للجميع أن صفحة جديدة من تاريخ العلاقات بينهما قد فتحتها مُعاهدة الإمبراطُور فريدريك مع السُّلطان الكامل، جاءت معركة غزَّة التي دمَّرت الجيش الفرنجي، وأتاحت فُرصة نادرة للمُسلمين للقضاء على البقية الباقية من قُوَّات الفرنج، وفتح حُصُونهم، واسترداد المُدُن التي احتلُّوها، ضمن ظُرُوف دولية مُناسبة تماماً للمُسلمين، وبالغة القسوة على الفرنج؛ حيثُ انشغلت عنهم ممالك أُورُوبا بمُشكلاتها الدّاخليَّة، وتركهم البابا، الأب الرُّوحي للأراضي المُقدَّسة، ليُوجِّه حملاته الصَّليبيَّة ضدَّ خُصُومه في الإمبراطُوريَّة الجرمانية، فلم يلتفت أحد لصُراخ واستغاثات فرنجة الشَّرق. لكنَّ أحداً من المُسلمين لم يستغلَّ هذه الظُّرُوف، فالسُّلطان أيُّوب كان مُنشغلاً عن الفرنج بصراعاته الدّاخليَّة، ويهمُّه احتلال دمشق أكثر من عكَّا، وحمص أكثر من

---

1 - حملة الملك ريتشارد، شاهد عيان، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 31 /40 ـ 42.

2 - حملة الملك ريتشارد، شاهد عيان، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 31 / 75 ـ 91.

طرابلس، ثُمَّ انشغل السُّلطان أيُّوب كُلِّيَّة بانقلاب حُلفائه الخَوارزميَّة عليه، ممَّا أبعد الخطر عن الفرنجة، وأطال أمد وُجُودهم في الشَّرق.

وللتأكيد بأنَّ فرنسا قد ارتبطت بالمشروع الفرنجي في الشَّرق، وتورَّطت فيه أكثر من كُلِّ الدُّول الأُورُوبيَّة، نجد أنَّه في هذه الظُّرُوف الحرجة بالنِّسبَة للمُسلمين وفرنج الشَّام على السواء، جاءت حملة الملك الفرنسي لويس التَّاسع، التي كانت آخر سهم فعَّال ترميه أُورُوبا من جُعبتها تجاه الشَّرق الإسلامي في ذلك العصر، لكنَّ هذه الحملة بدت وكأنَّها مُغالطة تاريخية، فهي في غير مكانها، وفي غير زمانها، فالملك لويس يعيش حالة خاصَّة لم تعد مقبولة عند مُعظم الأُورُبيين، فدوافعه نحو الشَّرق نبعت من تعصُّب ديني وورع صُوفي تُسيطر عليه رُوح تبشيرية لا تنتمي إلى زمانها[1]، ولا تُشبه إلاَّ رُوح الفرنجة الأوائل، الذين اندفعوا في الحملات الأُولى[2]. "كان لويس ـ دائماً ـ يقول: إنَّه عمل شرِّيرٌ أنْ تأخذ أملاك الغير"[3]، وبالتَّأكيد؛ كان يعتبر أنَّه فوق هذه القاعدة الأخلاقية، وإلاَّ كيف فكَّر بالقيام بحملة لأَخذ مصر، وغيرها، وهي أملاك للغير، لكنَّ التعصُّب الذي سيطر على الملك لويس هُو الذي أشعل فيه رُوح العُدوانية، وقاده نحو الشَّرق[4]، وما كان لقب القدِّيس الذي أُطلق على الملك لويس إلاَّ صدى لتعصُّبه الدِّيني، وقد سيطر هذا التعصُّب عليه إلى درجة جعلته يعتقد بأنَّه يُنفِّذ مشيئة الرَّبِّ، الذي شفاه من مرض فتَّاك كاد أن يُودي به، ولذلك قام بحملته لاسترداد الأراضي المُقدَّسة، واصطحب معه أُخوته الثلاثة: رُوبيرت كُونت دي أرتُو، وألفُونسُو كُونت بواتييه، وشارل كُونت أنجُو[5]. وقد عرف المُؤرِّخون المُسلمون الملك لويس بأسماء عدَّة منها الفرنسيس[6]، ورُبَّما كانت هذه التسمية نسبة إلى كونه من فرنسا، وعُرف ـ أيضاً ـ باسم آخر هُو

---

1 ـ تتَّضح هذه الرُّوح لدى الملك لويس من خلال ما ذكره مُرافقه ومُستشاره في الحملة جين جوانفيل؛ حيثُ يقول: عندما جنحت سفينة الملك على سواحل قبرص، تفقَّده الراهب ريموند، "فوجده مُتمدِّداً فوق السطح، وقد مدَّ ذراعَيْه على شكل صليب، وكان عاري القدمَيْن، وشعره مشعث". (حياة القدِّيس لويس، جان جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 223 ـ 224).

2 ـ الشَّرق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 238.

3 ـ حياة القدِّيس لويس، جان جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 21.

4 ـ The good Saint Louis, Bray , P. 82

5 ـ حياة القدِّيس لويس، جان جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 21.

6 ـ ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 184، وفوات الوفيات، الكُتُبي، 1/ 83، والسُّلوك، المقريزي، 1/ 562.

الأكثر انتشاراً، والأقرب إلى حقيقة اسمه، فكان يُطلَق عليه اسم ريد فرانس[1]، وهي من الفرنسيَّة: Roi de France ـ ملك فرنسا.

أعلن لويس عن نيَّته بالتوجُّه إلى الشَّرْق في حملة صليبية لإنقاذ مملكة القُدْس، وبدأ حملته بمُحاولة إصلاح ما بين البابا والإمبراطُور فريدريك، فقد كان يُدرك ـ تماماً ـ أن وحدة المَسيحيَّة في أورُبا ستكون سنده الأكبر في مهمَّته، لكنَّه صُدم بتعنُّت البابا. ومع ذلك تحرَّك لويس من ليون نحو مرسيليا، والغريب في الأمر أن الهُجُوم عليه بدأ في الأراضي الفرنسيَّة، فقد انقضَّ سُكَّان مدينة أفنيون على جيشه في الممرَّات الجبلية، ونهبوا ما تمكَّنوا من نهبه، وقتلوا كُلَّ مَنْ تصدَّى لهم، واقترح قادةُ الجيش عقابَ المدينة، لكنَّ لويس رفض، وتابع سيره نحو مرفأ مرسيليا، لكنَّ أهلها لم يكونوا أكثر وُدِّيَّة من أهل أفنيون، فقد كبَّدوا جيشَ الملك خسائر أكبر، وتجنَّب لويس الاصطدام معهم ما أمكنه، حتَّى دخل الميناء[2]. ولَمَّا كان الملك لويس لا يملك أُسطُولاً خاصَّاً به، اتَّصل بالبنادقة، الذين رفضوا تزويده بالسُّفُن، نظراً لعلاقاتهم التِّجاريَّة الطيِّبة مع مصر، فالحرب ليست من مصلحتهم، وستُغلق بوجههم أبواب التجارة مع مصر، وعبرها، وستُوقف الأرباحُ المُتدفِّقةُ عليهم، لكنَّ الجنويين أعداء البنادقة كانوا جاهزين لنقله، فاعتمد على أُسطُولهم، بالإضافة إلى بعض السُّفُن التي استأجرها من مرسيليا[3]. ونظراً لصُعُوبات النقل البَحْري، ولعدم توفُّر سُفُن بالشكل المطلوب، اصطحب الملك لويس معه عساكر النُّخبة، وترك وراءه عدداً كبيراً من الرُّماة والفُرسان[4].

لويس في قبرص:

يبدو أن الملك لويس أراد أن يجعل من قبرص قاعدة لهُجُومه على مصر، فقواعده في بلده فرنسا شديدة البُعْد، بالإضافة إلى تمضية فصل الشتاء فيها بالاستعداد والتنظيم، فهُو لا يُريد أن ينزل

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل 5/ 36، وابن العبري، تاريخ الزَّمان، ترجمة: إسحق أرملة، 452، والنُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 6/ 329، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 187.

2 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 27/ 1010، ـ لم يذكر جوانفيل كاتب سيرة الملك لويس أيَّ شي عن هذه الاعتداءات على جيش الملك، راجِعْ وصفه لطريق الحملة من باريس حتَّى مرسيليا. (حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 56).

3 - History of Egypt, - Lane poole , P. 218

4 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 27/ 1010.

في مصر، وقد انقطع عن أُورُبة بسبب توقُّف مُعظم السُّفُن عن الإبحار في الشتاء. ولكن الذي لم يدر بخلد لويس هُو أن تمضية الشتاء في قبرص سيستهلك المُؤن التي أحضرها معه، أو التي يُمكن إعدادها في قبرص، فموارد الجزيرة الصغيرة لن تكفي لحملة تُعَدُّ بالآلاف من الرجال، فأرسل لويس رُسُلَهُ إلى المُدن الإيطالية، وإلى الإمبراطُور فريدريك، فَأَمَدَّهُ البنادقةُ بالمُؤن، أمَّا فريدريك؛ فقد أغدق عليه كُلَّ أنواع المُساعدات، ولم يكتف بما أرسله هُو، بل قام بإقناع كثير من الحُكَّام الأُورُبيين لإمداد لويس. فكتب إليه لويس يشكره، وأعاد الكتابة إلى البابا يرجوه الكَفَّ عن فريدريك، وقال له إن فريدريك: "صديق مُفيد للكَنيسَة، ساعد على تحرُّر الجيش الصليبي من مجاعة"، كذلك كتبت بلانشي أُمّ الملك لويس إلى فريدريك تشكره، وإلى البابا تلتمس العفو عنه، ورفض البابا كُلَّ تلك الدعوات[1]؛ إذْ لم يكن وارداً في اهتمامات البابا لا الملك لويس، ولا حملته في سبيل الكَنيسَة، وكُلّ ما كان يسعى إليه هُو قَهْر فريدريك، وإذلاله.

ونتيجة للأشهر الطويلة التي أمضاها الملك لويس في قبرص، وهي محطَّة التُّجَّار وموئلهم، علم السُّلطان الصَّالح أيُّوب بحملة لويس، ومقاصده، ففي عام **646 هـ 1248**م "تواترت الأخبار بأنَّ ريد فرانس مُقدَّم الفرنسيَّة قد خرج من بلاده في جُمُوع عظيمة وشتَّى بجزيرة قبرص"[2]. وكان هذا شيئاً طبيعيَّاً، فإقامة لويس الطويلة مع جيش ضخم شيء لا يُمكن إخفاؤه في جزيرة صغيرة، هي في عدوة الساحل الشَّامي، وتكاد جبالها تُرى منه، إضافة لكون قبرص أهمّ المحطَّات التِّجاريَّة في شرقي المُتوسِّط، ويقصدها التُّجَّار من كُلِّ الأجناس والأديان، وبالتَّأكيد؛ من بينهم العَرَب المُسلمون، فقد وصلت أخبار لويس وإقامته في قبرص إلى أقصى الشَّرْق في فارس، فأرسل له إيلخان التَّتَار جغطاي سفيرَيْن؛ هُما مرقص وداود، وكانا من المسيحيين النساطرة[3]، ممَّا يدلُّ على اشتهار وُجُود الملك لويس في قبرص، وعلى نواياه للقيام بحرب ضدَّ المُسلمين في مصر، أو سُورية، ويبدو أن فريدريك ـ كما كان قد قام بحقِّ الانتماء الدِّيني، وساعد لويس بإمداده بالمُؤن، وإنقاذه من المجاعة ـ قام بحقِّ الصداقة نحو السُّلطان أيُّوب بن الكامل، فأخبره أن وُجهة لويس هي مصر؛ ليأخذ حذره،

---

1 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 27 / 105.

2 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 329.

3 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة ، د. سُهيل زكَّار، 35/ 58، وكذلك راجعْ مبحث: التَّتَار والفرنج في هذا الكتاب.

يقول جوانفيل مُرافق الملك لويس في حملته: "كان سُلطان مصر يتوقَّع وُصُول ملكنا إلى مصر في الربيع"[1]. ولم يكن أيُّوب يعرف بتوجُّههم إلى مصر فقط، بل يتوقَّع موعد وُصُولهم في الربيع، وهُو وقت انفتاح البحر للملاحة، وكذلك الفرنسيون يعرفون أنَّه يعرف بقُدُومهم، ويتوقَّع موعده.

خُطَّة السُّلطان الصَّالح نجم الدِّين أيُّوب للدفاع عن دمياط:

لم يُفاجأ السُّلطان أيُّوب ـ أبداً بتوجُّه ـ لويس نحو دمياط، فقد كان يعرف وُجهته مُسبقاً، لذلك قام السُّلطان بعدَّة إجراءات عسكريَّة، منها:

1 ـ شحن دمياط بالميرة والذخيرة.

2 ـ عهد لأُمراء بني كنانة، وهُم قوم مشهورون بالشجاعة والإقدام، لحماية المدينة من الداخل[2].

3 ـ أمر نائبه في القاهرة الأمير حُسام الدِّين بن أبي علي بتجهيز أُسطُول النيل، وتسييره نحو دمياط[3].

4 ـ وجَّه وزيره ومُستشاره فخر الدِّين بن شيخ الشُّيُوخ مع فرقة كبيرة من الجيش، وأمره أن يُرابط على العدوة الغَرْبيَّة لدمياط، لمنع الحملة من الإنزال هُناك[4].

أمَّا عن سبب استعداد السُّلطان في دمياط؛ فهُناك عدَّة احتمالات، منها: كان السُّلطان ـ ورُبَّما جميع المُسلمين ـ على يقين بأنَّ الحملات الفرنجيَّة قد قطعت أملها من النجاح في الساحل الشَّامي، وأنَّها باتت أسيرة هاجس السيطرة على مصر، ولتكرُّر هجمات الفرنجة على دمياط ونجاح الحملة الخامسة باحتلالها بات من المُرجَّح ـ إنْ لم نقل من المُؤكَّد ـ أن حملة لويس ستتوجَّه إليها، فقد كانت الفكرة الشائعة لدى الفرنجة والمُسلمين أن مَنْ يُسيطر على مصر يُنهي أمر الصراع في الشَّام، يقول ابن واصل: "إن ملك فرنسا ري دا فرانس حدَّثته نفسه بأنْ يستعيد البيت المُقدَّس إلى الفرنج . .

---

1 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 62.
2 - البيان والإعراب، المقريزي، 21، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 378، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 178.
3 - النُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 6/ 121، والبَحْريَّة الإسلاميَّة، أحمد مُختار العبادي وسيِّد عبد العزيز سالم، 236.
4 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 378، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 178.

وعلم أن ذلك لا يتمُّ إلاَّ بمُلك الديار المصريَّة"[1]. ويُقال إن السُّلطان الصَّالح أيُّوب قد وصلت إليه خُطَّة لويس مع رسول خاصٍّ من الإمبراطُور فريدريك[2]، كما أنَّه من المُمكن أن تكون عيُون وجواسيس السُّلطان في قبرص قد نقلت إليه ما سمعوه عن توجُّه الحملة إلى دمياط، فخبر كهذا لا يخفى بين البحَّارة وعمَّال الموانئ.

الملك لويس في دمياط:

في عام 647 هـ 1249م، أنهى لويس إقامته في قبرص، وتوجَّه مُبحراً نحو مصر، يقول جوانفيل: "وصلنا إلى أمام دمياط؛ حيثُ وجدنا صفَّاً كاملاً من قُوَّات السُّلطان مُتمركزاً على الساحل"[3]، فقد كانت قُوَّات فخر الدِّين بن الشَّيخ قد احتلَّت جيزة دمياط، وتمركزت فيها لمنع نُزُول الحملة، وكان فرع نهر النيل يفصل بين هذه القُوَّات وبين مدينة دمياط المُحصَّنة بشكل جيِّد، وفي النهر؛ كان الأُسطُول قد وصل، واحتلَّ مواقعه ليُساند القُوَّات البرِّيَّة، ويُقاتل سُفُن الفرنجة، ولكن المُفاجأة الأُولى كانت بإتمام نُزُول الحملة بدُون هُجُوم جدِّي من قبَل قُوَّات ابن الشَّيخ البرِّيَّة أو البَحْريَّة للقضاء على الإنزال في أحرج أوقاته.

ويصف لنا جوانفيل سُهولة عملية الإنزال بقوله: "رسوتُ مع رجالي أمام كوكبة كبيرة من المُسلمين، كان تعدادهم في ذلك المكان ستَّة آلاف رجل على ظُهُور خُيُولهم، وما إنْ رأونا ننزل حتَّى حملوا علينا حملة شديدة، وبالنسبة لنا؛ غرسنا ترستنا في الرمال، وثبَّتنا رماحنا في الأرض بكُلِّ شدَّة، وجعلنا أسنَّتها مُشرعة نحو العدوِّ، لكنْ؛ في اللحظة التي رأوا فيها أن رماحنا سوف تخترق بُطُونهم، نكصوا على أعقابهم، وولُّوا هاربين"[4]. وتابع جيش الفرنجة النُّزُول إلى اليابسة بكُلِّ أمان، ثُمَّ "أمر كُونت يافا بنصب خيمه، وما إنْ رآهم المُسلمون حتَّى اجتمعوا معاً في كتلة واحدة، ثُمَّ قدموا ثانية، وقد همزوا خُيُولهم وكأنَّهم عزموا على سحقنا، لكنْ؛ عندما رأوا أنَّنا لا نريد الانهزام، نكصوا ثانية على أعقابهم، وانسحبوا"[5]. فهل هذه معركة لمنع العدوِّ من إنزال قُوَّاته على الشاطئ؟ أم هي خُطَّة

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 351.

2 - راجعْ مبحث العلاقات مع فريدريك في هذا الكتاب

3 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 65.

4 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 67.

5 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 68.

استعراضية نفَّذتها قُوَّات فخر الدِّين؟ فلم يتمّ أيُّ احتكاك عسكري بين الطرفَيْن، ولم يقتل أحد منهما سوى شيخ من المُتطوِّعة في جيش المُسلمين هُو الشَّيخ نجم الدِّين بن شيخ الإسلام، وكان قد جاء مُتطوِّعاً من الكَرَك، واستُشهد في هذه المُناوشات[1]، ويصف جوانفيل حادثة استشهاد الشَّيخ، فيقول: "وحمل واحد من المُسلمين، إمَّا لأنَّه لم يستطع ضبط حصانه، أو لأنَّه ظنَّ بأنَّ بقيَّة المُسلمين سوف يحملون خلفه، وصار هذا المُسلم في وسط الرجال الذين نزلوا إلى اليابسة لتوهم، غير أنَّه مزق إلى أشلاء"[2]، وبالتَّأكيد؛ كان الشَّيخ غير مُطَّلع على أوامر فخر الدِّين، التي تُحدِّد حجم القتال، وشكله، أو أنَّه لاحظ التقاعس، فحاول أن يُشجِّع العَسْكَر بالتضحية بنفسه، ولكنْ؛ على ما يبدو، كان الأمير فخر الدِّين يضبط عسكره، ويُسيطر عليهم بشكل جيِّد. ولا يستطيع أحد أن يُفسِّر ـ الآن ـ لماذا لم يُقاتل فخر الدِّين ابن الشَّيخ؟ إلاَّ إذا افترضنا أنَّه كان يرغب بنُزُول الحملة، ووُصُولها إلى دمياط، وكُلُّ تصرفاته تُضيف مزيداً من التأكيدات حول هذا الشكِّ.

وكانت المُفاجأة الثَّانية ليلاً، فبعد أن ثبَّت الفرنجة مواقعهم في النهار على البرِّ المصري، وبدلاً من أن يقوم ابن الشَّيخ بهُجُوم ليلي يُدمِّر فيه مُعسكر الفرنج غير المُحصَّن، والذي أُقيم على عجل، أمر قُوَّاته بترك البرِّ الغربي كاملاً لهم، وانسحب عبر جسر خشبي كان قد أُقيم على القوارب نحو دمياط، وممَّا يزيد العجب من تصرُّفات ابن الشَّيخ أنَّه لم يقمْ بأبسط ما يُمليه العُرْف العسكري، فلم يأمر بتدمير الجسر، وتركه سالماً خلفه، وكأنَّه يُريد أن يُسهِّل عملية عُبُور الفرنج، ووُصُولهم إلى دمياط؛ لأنَّه لو قطع الجسر، لأعاق الفرنج إعاقة كُبْرَى[3]. والأعجب والأغرب أن ابن الشَّيخ لم يُعسكر على أبواب دمياط، ولم يدخلها ليُدافع عنها، بل تركها، وتوجَّه جنوباً نحو اشموم طناح؛ حيثُ يُعسكر السُّلطان.

نتائج تحرُّك ابن الشَّيخ:

1 ـ بعد انسحاب الجيش المُدافع عن دمياط كان أوَّل النتائج وأخطرها نُزُوح أهل دمياط، فعندما "رأى أهل دمياط رحيل العَسْكَر، خرجوا، ولم يبقَ في المدينة أحد، وفرُّوا حُفاة عُراة"[4].

---

1 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 219 والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 437.
2 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 68.
3 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 69.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 438.

2 ـ انسحب فُرسان بني كنانة، وأخلوا دمياط، وتركوا أبوابها مفتوحة[1].

3 ـ واجه أهل دمياط الفارُّون بذُهُول من مـدينتهم مـن إخـوانهم المُسلمين أشـدّ ممَّـا كـانوا سيُواجهونه مع الفرنج، "فقد خرج أهل البلد على وُجُـوههم حيـارى بنسائهم وأطفـالهم، فنهـبهم المُسلمون في طريق القاهرة، وسلبوهم"[2].

4 ـ أمَّا الكارثة التي نتجت عن تراجع ابن الشَّيخ؛ فهي استيلاء الفـرنج بيُـسر وسُـهُولة عـلى أمنع المُدُن المصريَّة بكُلِّ ما فيها من ذخائر وأسلحة ومُؤون ومعدَّات، فبعد عُبُور الفرنج نحـو دميـاط شاهدوا الأبواب مفتوحة، والمدينة خالية، "فظنَّ الفرنج أنَّها مكيدة، فتوقَّفـوا سـاعة"[3]، "وبعـث الملك لويس بواحد من الفُرسان ليتحقَّق فيها إذ كانوا ـ بالفعل ـ قد تركوا المدينة"[4]، ولمَّا تبيَّن الأمر، دخلها الفرنج[5]، واستولوا على ما في المدينة "من آلات حربيـة وأسـلحة عظيمـة العـدد والأقـوات والأموال والأمتعة صفواً عفواً"[6].

5 ـ تراجع السُّلطان أيُّوب بعساكره إلى الخلف، وأقام في المنصُورة، ممَّا يعنـي تراجـع القُـوَّات الرئيسية للدفاع عند الخطِّ الثَّاني بدُون قتال.

ردّ أيُّوب على تحرُّك ابن الشَّيخ:

عندما وصل المُنهزمون: قُوَّات ابن الشَّيخ، والكنانية، وأهل دمياط إلى أشموم اطنـاح؛ حيـثُ كان يُعسكر السُّلطان، وجدوه في ذروة غضبه، لكنَّه اكتفى بتوجيه لوم بسيط[7] لمُسبِّب الكارثة الأمير فخر الدِّين ابن الشَّيخ، فهل كان السُّلطان من الضعف أمام ابن الشَّيخ؛ بحيثُ لم يتمكَّن من اتِّخـاذ أيِّ تدبير ضدَّه؟ أو حتَّى توجيه اتِّهام مُباشر إليه؟ إنْ لم نقل بالخيانة، فبالجُبن والخور، ولا نـدري إن كـان ابن الشَّيخ قد قدَّم عُذراً مُقنعاً للسُّلطان؟ مع أن ذلك أمر مُستبعد لأن مُعظم مَنْ كتب عن الحادثة من

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 179.
2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 220 والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 438.
3 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 220.
4 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 69.
5 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 378.
6 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 438.
7 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 219.

المُؤرِّخين المُعاصرين لها، أو التابعين لهم، يُحمِّلون المسؤوليةَ كاملةً عن سُقُوط دمياط لابن الشَّيخ[1].

وما كان من السُّلطان أيُّوب إلاَّ أن صبَّ جام غضبه على أُمراء بني كنانة، فأمر بشَنْقهم؛ لمُخالفتهم الأوامر، ومُغادرة دمياط، فشُنقوا، وكانوا أكثر من خمسين أميراً[2]. وقد يكون إعدام المُتهاونين في حالة الحَرْب بأمر القائد العامِّ شيئاً مطلوباً حتَّى يمنع التراخي، ويردع الناس، ولكنْ؛ ما يُلفت النظر هُنا هُو التغاضي الكامل عن انسحاب الجيش النظامي، والعُقُوبة القُصْوَى لبعض أُمراء الأعراب، وهُم ـ غالباً ـ مُتطوِّعة، وليسوا في تعداد ديوان العَسْكَر، وهذا ما حاول الكنانيون الدفاع به عن أنفسهم، فقالوا: "وما ذنبنا إذا كانت عساكره جميعهم، وأُمراؤه، هربوا . . فأيّ شيء نعمل نحنُ؟"[3]، وفي الحقيقة؛ وبغَضِّ النظر عن مُحاسبة ابن الشَّيخ، وعساكره، فالأُمراء الكنانية كانوا يستحقُّون العُقُوبة، فلو أغلقوا أبواب المدينة، ودافعوا عنها بما فيها من أسلحة وأقوات، لقاومت المدينة سنوات طويلة[4]. وبعد سُقُوط المدينة؛ انسحب أيُّوب بعساكره إلى مدينة المنصُورة[5]، وأعلن النفير العامّ بأرض مصر، "فاجتمع بالمنصُورة أُمم لا يُحصون"[6]، ولكن السُّلطان كان قد بلغ به المرض حدّاً خطيراً، أشفى به على الموت[7].

الحَرْب بعد احتلال دمياط:

كانت طلائع قُوَّات المُسلمين ـ الذين اتَّخذوا من المنصُورة قاعدة لقُوَّاتهم ومقرّاً حربياً لقيادتهم ـ قد وصلت أسوار دمياط، وحاولت مُحاصرة مُعسكر الفرنج، الذي أقاموه خارجها، يقول جوانفيل: "قام فُرسان السُّلطان ـ بعد مُضي وقت قصير على استيلائنا على دمياط ـ بالاحتشاد أمام المُعسكر، وهاجموه من ناحية البَرِّ"[8]. ويُتابع جوانفيل واصفاً حال الفرنجة، فيقول: "وقدم

1 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 330، والخُطط والآثار، المقريزي، 1/ 219، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 438، وكَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 369.
2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 378، وأخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 36، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 439.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 439.
4 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 369.
5 - المُختصر، أبو الفداء 3/ 179.
6 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 378.
7 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 216.
8 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 73.

المُسلمون كُلَّ ليلة إلى مُعسكرنا على الأقدام، وقتلوا رجالنـا حيـثُ وجـدوهم نـائمين، . . وتوجَّـب علينا تحمُّل هذا العذاب"[1]، ممَّا أزعج الفرنج بشدَّة، فقـاموا بهُجُـوم سـاحق، انطلاقـاً مـن دميـاط، فقتلوا عدداً كبيراً من المُسلمين، وكان قائد هذه الإغـارة وعـدَّة غـارات أُخـرى ناجحـة هُـو القائـد الإنكليزي وليم نغوسبي، الذي حسده الفرنسيون، وضايقوه، حتَّـى رحـل إلى عكَّـا[2]. "وفي اليـوم التالي؛ أملوا بالنجاح، ولكنَّهم خسروا عشرة أضعاف ما كسبوه في اليـوم الأوَّل، فـأحكم المُـسلمون إغلاقَ الطُّرُقات حولهم، وجمع السُّلطان الغلايين، وراقب البحار والسواحلَ لَمنْع المُساعدات"[3].

وفي هذا الأثناء؛ تُوفِّي السُّلطان الصَّالح نجم الدِّين أيُّوب، ويبدو أن مجلساً للحُكْم قد تـشكَّل فوراً، وكان على رأسه شَجَر الدُّرِّ، أُمّ خليل، جارية وأرملة الصَّالح أيُّوب، وفخـر الـدِّين بـن الـشَّيخ قائد الجيش، فقامت شَجَر الدُّرِّ بتدبير الأُمُور الإدارية السُّلطانية، وتـابع فخـر الـدِّين الإشراف عـلى شُؤُون الجيش، وأخفوا خبر موت السُّلطان، وأرسلوا مَنْ يُحضر ولده المُعظَّم تُورانـشاه مـن حـصن كيفا ليتسلَّم السَّلطنة[4]. وفي فترة الشَّكِّ بموت السُّلطان، أو عدمه، تراخت العساكر، ولم تقم بأعمال قتالية ضدَّ الفرنج، ورُبَّما تهاونوا في الحراسة. وصادف أن اتَّصل بدوي بجُنـد الحملـة، وأخـبرهم أنَّـه بإمكانه أن يدلَّهم على مخاضة يعبرون منها إلى مُعسكر المُسلمين، مُقابل خمسمائة دينـار، فوافـق الملـك لويس، وعبرت الحملة من المخاضة[5]، "وركب الفرنج، وحملوا عـلى المُـسلمين سـحراً عـلى غـرَّة، فدهموهم في بُيُوتهم، وخيامهم"[6]، وكانت غايـات هـذا الهُجُـوم قتـل القـادة المُـسلمين، وتـشتيت الجيش، وإنهاء المعركة تمهيداً لاحتلال البلاد، ولم تكن هذه الغايات بعيدة لو نجـح الفـرنج في إكـمال هُجُومهم كما بدؤوه، فبعد أن انقضَّ رُوبيرت كُونت أرتو قائد فرقة المُقدِّمة عـلى مُعـسكر المُـسلمين، وباغتهم، "تفرَّقوا في أزقَّة المنصُورة، وبين بُيُوتها"[7]، فتعقَّبهم الكُونت، ودخل بقُوَّاته أزقَّة المنصُورة

---

1 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 73.

2 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 11116.

3 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 1091.

4 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 216، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 361.

5 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 88.

6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 361.

7 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 361.

الضَّيِّقة[1]، "وكادت تكون كسرة، ووصل الفرنسيس[2] إلى باب قصر السُّلطان الصَّالح"3، وظنَّ الفرنج أن نصرهم أوشكَ، خاصَّة أن قائد جيش المُسلمين الأمير فخر الدِّين بن الشَّيخ قد خرج على عجل شبه عارٍ، بعد دهم الفرنج بابه، فقتلوه، ولكنْ؛ حدث ما لا يتوقَّعه أحد في مثل هذه الظُّرُوف، فقد "أغاث الله المُسلمين بطائفة المماليك الصالحية، المعروفين بالبَحْريَّة، فركب فارس الدِّين أبو الهيجاء وبيبرس البندقداري في عدَّة من التُّرك، وحملوا على الفرنج حملة مُنكَرَة، فبدَّدوا شملهم، وولُّوا مُنهزمين، وقُتل ألفان وخمسمائة فارس من شُجعانهم، أمَّا الرَّجَّالة؛ فلا تُحصى"[4]، وكان من القتلى الكُونت رُوبيرت دي أرتو شقيق الملك لويس[5].

وفي شوَّال من عام **647** هـ **1249**م، وصل تُورانشاه إلى المنصُورة "وبها عسكر المُسلمين قبالة الفرنج، الذين استولوا على دمياط"[6]، وقاد السُّلطان الجديد بنفسه العمليات القتالية ضدَّ الفرنج، ويبدو أن الفرنج لم يعلموا بموت السُّلطان الصَّالح أيُّوب حتَّى تولَّى ابنه تُورانشاه، يقول متَّى باريس: "مات السُّلطان، وابتهج الصَّليبيُّون، مع أنَّه كان يتوجَّب عليهم الخوف، وجرى تعيين سُلطان جديد، وتابع نشاطه ضدَّ الصليبيين بشدَّة أعظم"[7]. وكانت القُوَّات الفرنجيَّة بقيادة الملك لويس بعد الهزيمة لا تزال بالقُرب من المنصُورة، وبعيدة عن دمياط، وقد حاصرهم المُسلمون، ولم يُمكِّنوهم من الحَرَكَة، مع استمرار المُناوشات والهجمات شبه اليومية على أطرافهم. أمَّا في البحر؛ فلم يكن حال الفرنج أفضل، فقد نتج عن العمليات الحَرْبيَّة البَحْريَّة استيلاء المُسلمين على اثنَيْن وثلاثين مركباً فرنجياً[8]، وأصبح وضع الفرنج ميؤوساً منه، مع أن قُوَّاتهم الرئيسية لا زالت شبه كاملة،

---

1 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 88.
2 - في الحقيقة لم يكن الفرنسيس؛ أيْ الملك لويس، بل كان أخاه الكُونت رُوبيرت دي أرتو.
3 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 376.
4 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 736، ـ يقول أبو شامة: إن قتلى الفرنج من الفُرسان كانوا ألفاً وخمسمائة، وإنَّه لم يُفقَد من المُسلمين إلاَّ ثلاثين نفساً. (ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 361)، ويقول جوانفيل : "قُتل كُونت دي أرتو ومعه حوالي ثلاثمائة فارس، وفقد الدَّاويَة حوالي مائتَيْن وثمانين فارساً".
(حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 89).
5 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 89.
6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 361.
7 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 1093.
8 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 180.

ومُعظمهم لم يُقاتل بعد، فهُم مُحاصرون، لا يستطيعون الحَرَكَة للهُجُوم على القُوَّات الإسلاميَّة، وكذلك لا يستطيعون العودة إلى دمياط، وبدأت معنوياتهم تنهار، ومُؤنهم تنفد، "فأرسلوا يطلبون القُدْس، وبعض الساحل، وأن يُسلِّموا دمياط، فلم تقع الإجابة على ذلك"[1]. فهل كان وضع المُسلمين في المنصُورة الثَّانية أفضل منه في المنصُورة الأُولى؟ حتَّى اختلف جوابهم عند طلب الفرنج للصُّلح مُقابل تسليم دمياط؟ أم هل كان وضع الفرنج أسوأ ممَّا سلف؟ في الحقيقة؛ لا يبدو أن لوضع قُوَّة المُسلمين، أو ضعف الفرنج، أيّ علاقة باختلاف الجواب، فمُوافقة السُّلطان الكامل في المنصُورة الأُولى كان ناتجاً - بمُجمله - عن تحسُّبه وخوفه من قُوَّات إخوته، التي كانت مُتواجدة بكاملها على أرض مصر، فرُبَّما تخيَّل من ذلك، فسارع لقبول الصُّلح، أمَّا في المنصُورة الثَّانية؛ فتُورانشاه هُو سُلطان مصر ودمشق، ولا يُوجد مَنْ يُنافسه في الشَّام، أو يُمكن أن يحلَّ محلَّه، حتَّى إنْ وُجد في شخص الملك النَّاصر يُوسُف الثَّاني، فهُو بعيد في حلب، ولا يُعقَل - وقتها - أن يُفكِّر بالسَّلْطَنَة، كما أنَّه لا تُوجد أيُّ قُوَّات له في مصر، فهُو لم يُرسل أيَّ نجدة عسكريَّة، علماً أن وضع الفرنج في المنصُورة الثَّانية كان أفضل منه في الأُولى، فقُوَّات الفرنج كاملة وجاهزة، ويُمكن أن تقوم بهُجُوم يائس، وهُم يُسيطرون على الأرض التي حولهم، بينما كانوا في نكبة حقيقيَّة بعد إغراق مُعسكرهم في المنصُورة الأُولى.

في كُلِّ يوم كان يمرُّ على الفرنج كانت حالهم فيه تتردَّى من سيِّئ إلى أسوأ، وكان الحصار يفتك بهم، ومُناوشات المُسلمين تُنهكهم، فأكلوا خُيُولهم من الجُوع[2]، "وبدأ كثيرون ممَّنْ لم يكونوا أقوياء في إيمانهم بالتجديف، وأخذ إيمانهم يتلاشى"[3]. وقد سجل متَّى باريس شهادة نادرة على حُسن تعامل المُسلمين مع الفرنجة المُلتجئين إليهم، وعدم استغلال حاجتهم، وضعفهم، يقول: "قام عدد كبير من الصليبيين بسبب المصاعب، وتركوا المدينة سرّاً، والتحقوا بالمُسلمين وُفق شُرُوط مُعتدلة، ووقفوا بشكل مُؤثِّر وفعَّال ضدَّ بني قومنا، استقبلهم المُسلمون بالأطعمة المُناسبة، وقسم من الفارِّين حافظوا على دينهم بسبب اعتدال المُسلمين، وتسامحهم، غير أن بعضهم ارتدُّوا، والتحقوا

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 180، - يقول جوانفيل: وكان رسول الملك لويس إلى المُسلمين هُو الفارس جو فروا دي سارجين - Geoffroy de Sargines. (حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 35/ 89).

2 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 48/ 1091.

3 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 48/ 1094.

بدنسهم، فتمَّ تزويدهم بثروات واسعة مع زوجات وقلاع، وجرت ترقيتهم إلى كثير من مراتب الشرف"[1]. وإزاء هذه الانتكاسة الكبيرة للحملة؛ عمد بعض أفرادها إلى إرسال رسائل إلى أُورُبا، تقلب واقع الحال، وتُصوِّر انتصارات وهمية للفرنجة، وتقول بأنَّهم استولوا على القاهرة، وأن الإسكندرية تكاد تسقط، وكان القصد منها مُواساة المسيحيين، وتشجيعهم على الالتحاق بالحملة، وظهر أن عناصر الدَّاويَة هُم أكثر مَنْ نشر هذه الرسائل الكاذبة في أُورُبة، إضافة إلى أسقف مرسيليا[2]. ويبدو أن القصَّة التي نشرها متَّى باريس عن مُطالبة حاكم القاهرة الأمير حُسام الدِّين بن أبي علي بالتعميد، وإطلاق أسرى الفرنج، كانت من ضمن إشاعات الأمل التي أطلقها الفرنجة في ضائقتهم تلك[3].

شعر المُسلمون بضعف الفرنج تحت وطأة الحصار، وكانت كتائب جيش مصر في البرِّ الشرقي، أمَّا البرُّ الغربي؛ فكانت تشغله المُتطوِّعة من العُربان والعوامّ[4]، وهُم يضغطون ـ بشكل مُتزايد ـ على الفرنج، ويصف جوانفيل الوضع العسكري قائلاً: "شاهدنا بأنَّ الملك بات قريباً من النهر، وكان المُسلمون يسوقون كتائبه إلى الوراء، وهُم يضربون، ويطعنون، فيها بالرماح، وبالسُّيُوف، ويُجبرونها ـ بالتدريج ـ مع كتيبة الملك الخاصَّة على التراجع على طُول النهر، وكانت الهزيمة هُناك كاملة"[5]، حتَّى عزم الملك لويس على أن يشقَّ طريقه إلى دمياط بالقُوَّة، "فعلم المُسلمون بذلك، وكان الفرنج قد عملوا جسراً عظيماً من الصنوبر على النيل، فسهوا عن قطعه، فعبر المُسلمون منه في الليل إلى برِّهم، وأحدقوا بهم قتلاً وأسراً طوال الليل، فالتجؤوا إلى قرية منية أبي عبد الله، وتحصَّنوا بها، وظفر أُسطُول المُسلمين بأُسطُولهم، فغنموا جميع المراكب بكُلِّ ما فيها"[6]، وتحصَّن الملك لويس في حوش من أحواش البلدة، ومعه خمس مائة من أبطال جيشه، وطلب

---

1 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 11092 ـ 11093.
2 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، ، 48/ 1104.
3 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 1094.
4 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 221.
5 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 94.
6 - النُّجُوم الزَّاهِرَة، ابن تغري بردي، 6/ 364.

المُفاوضات على التسليم، فجاء إليه مندوباً عن المُسلمين الأمير سيف الدِّين القيمري[1]، ومعه الطواشي رشيد، واتَّفقوا مع لويس على قاعدة استسلامه[2]، وقدَّر المُسلمون شجاعة لويس، وعدم تخلِّيه عن جيشه في محنته، فقال ابن تغري بردي: "ولو أراد الفرنسيس أن ينجو بنفسه لخلص على خيل سبق، أو في حرَّاقة، لكنَّه أقام في الساحة يحمي أصحابه"[3]. وانتشرت أخبار هزيمة الفرنج، وانتصار المُسلمين، يقول أبو شامة في أحداث عام **648** هـ: في **2** مُحرَّم الأربعاء كَسَر السُّلطان المُعظَّم تُورانشاه الفرنج كسرة عظيمة"[4]، ويفصل ذلك الملك المُعظَّم تُورانشاه في رسالة له أرسلها إلى نائبه في دمشق جمال الدِّين بن يغمور، يقول: "ولمَّا كانت ليلة الأربعاء، تركوا خيامهم، وأموالهم، وقصدوا دمياط هاربين، فسرنا في آثارهم طالبين، ومازال السيف يعمل في أدبارهم عامَّة الليل، فحلَّ بهم الخزي والويل. فلمَّا أصبحنا يوم الأربعاء، قتلنا منهم ثلاثين ألفاً، غير مَنْ ألقى بنفسه في اللّجج، وأمَّا الأسرى؛ فَحَدِّثْ عن البحر، ولا حرج"[5].

شُرُوط لويس للاستسلام:

طلب لويس من سيف الدِّين القيمري ليستسلم عدَّةَ شُرُوط، منها:

1 ـ الأمان لنفسه، ولِمَنْ معه.

2 ـ أنْ لا يحتجزوه بين السّوقة والرِّعاع.

فأجابه الأمير سيف الدِّين إلى ذلك[6]، وتدلُّنا طلبات لويس المُتواضعة على حرج موقفه، وعلى انهيار معنوياته، فلم يعد يهمُّه إلاَّ سلامة رُوحه ومَنْ معه من الحاشية، وأن تُصان جلالته المَلَكية،

---

1 - سيف الدِّين القيمري: أبو الحَسَن علي بن يُوسُف بن أبي الفوارس القيمري، كان من كبار الأُمراء، بطلاً شُجاعاً جواداً كثير المعروف، يُقال إنَّه ابن صاحب قيمر. راجعْ ترجمته في: البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 195، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 7/ 39.

2 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 221.

3 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 365.

4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 20/ 364.

5 - وثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة، مُحمَّد ماهر حمادة، 251، ـ كذلك راجعْ خُطط المقريزي، 1/ 391، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 9/ 367.

6 - المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 221.

ولا يُهان بين العامّة والغوغاء. واستسلم الملك لويس إلى جيش مصر، فاقتيد، وسُجن، وأطال المُؤرِّخون المُسلمون في وصف سجنه، ومكانه، وما قيل فيه من الأشعار، وإذا تجاوزنا ذلك كُلّه نجد أن المُفاوضات بين المُسلمين والملك لويس قد بدأت ـ فوراً ـ على أُسُس جديدة، وأهمّ ما دارت حوله المُفاوضات هُو أكبر غنائم المُسلمين الملك لويس، وأكبر غنائم الفرنج مدينة دمياط، ويبدو أن نفس الملك لويس كانت عنده أغلى بكثير من مدينة دمياط، وما حوت، كما أن مقتل السُّلطان المُعظَّم تُورانشاه كان أداة ضغط أُخرى على الملك لويس، فقد بلغ به الخوف مُنتهاه بعد مقتله، ورُبَّما فكَّر أنَّه إذا قتل المُسلمون سُلطانهم، فكيف سيُبقون على ملك الأعداء؟!

كلَّف المماليكُ ـ بعد تولِّيهم السُّلطة ـ الأميرَ حُسام الدِّين بن أبي علي الهذباني، "لما يعلمونه من عقله ومشورته"[1]، بالمُفاوضات مع الملك لويس لإبرام المُعاهدة بينهم وبين الملك لويس، وتمّ الاتِّفاق بينهما، وكانت أهمّ البُنُود هي:

1 ـ إطلاق سراح الملك لويس وأخوَيْه ألفونسو وشارل.

2 ـ إطلاق سراح حاشية الملك وفُرسانه الذين أُسروا معه في منية أبي عبد الله.

3 ـ تسليم مدينة دمياط للمُسلمين مع كُلِّ ما كان فيها.

4 ـ دفع مبلغ خمسمائة ألف دينار[2]، رفض لويس تسميته فدية لنفسه، واتَّفق على أن يكون فدية لجُنُوده، وتعويض لخسائر دمياط مُقابل ما لحقها من خراب، على أن يدفع نصف المبلغ مُقدَّماً، ونصفه الآخر فيما بعد.

واقتاد المُسلمون لويسَ إلى دمياط لتسليمها، "فما وصلوا إلاَّ والمُسلمون على أعلاها بالتكبير، والفرنج قد أخلوها، وهربوا في المراكب، فخاف الفرنسيس، واصفرَّ لونه، فقال حُسام الدِّين للمُعزّ أيبك: هذه دمياط قد حُصِّلَتْ لنا، وهذا الرجل في أَسْرنا، وهُو عظيم النصرانية، وقد اطَّلع على

---

1 - عقد الجُمان، العيني، 1/ 29.

2 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 35/ 89، والنُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 368، وعقد الجُمان، العيني، 1 / 222، ـ اختلف الرُّواة بتحديد قيمة الفدية، فمنهم مَنْ قال إنَّها ثمانمائة ألف دينار. (تاريخ مُختصر الدُّول، ابن العبري، 455، ودُول الإسلام، الذهبي، 2/ 117)، وجعلها فيلكس فابري ثمانية آلاف قطعة نقد ذهب إسلامية.(جولات ورحلات، فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 43/ 1172)، ويُلاحظ الباحث أن كثيراً من الغُمُوض والإيجاز يسودان في كتابات المُؤرِّخين المُسلمين حول شُرُوط هذه الاتِّفاقية مع الملك لويس.

عوراتنا، والمصلحة أنْ لا نُطلقه، فقال أيبك: ما نرى الغدر"[1]. ويُعلِّل ابن تغري بردي موقف أيبك: بأنَّ المماليك قد أطلقوا لويس طمعاً ببقية مال الفدية، ويُضيف أن لويس قد أرسل يقول لهم: "ما رأيتُ أقلّ عقلاً ولا ديناً منكم"[2]، ولكنْ؛ يبدو أن المماليك لم يكن هدفهم مال الفدية، فأموال مصر والسَّلطنة كُلُّها أصبحت في أيديهم، فالأرجح أنَّهم مالوا لإطلاق لويس، للتفرُّغ لحُكْم مصر، بعد أن أمنوا شرَّه، واستلموا دمياط. ورُبَّما تكون دوافع السُّلطان الكامل نفسها في المنصُورة الأُولى قد راودت المماليك في المنصُورة الثَّانية، فأُمراء الشَّام قد أعلنوا العصيان، ولم يقبلوا بحُكْم المماليك، وأرسلوا يطلبون الملك النَّاصر يُوسُف صاحب حلب وحمص لتسليمه دمشق، وممَّا يُؤكِّد هذا الاحتمال أن المماليك ـ بعد إطلاق الملك لويس ـ أرسلوا يُفاوضون لإعفائه من بقيَّة الفدية، وتسليمه القُدْس[3]، مُقابل مُساعدتهم عسكريّاً ضدَّ النَّاصر يُوسُف في الشَّام.

الملك لويس في ساحل الشَّام:

غادر الملك لويس دمياط مُبحراً إلى عكَّا، وبدلاً من أن يستريح فيها لمُدَّة بسيطة ويُغادر بعدها نحو فرنسا خالف آمال جميع أفراد حملته، وقرَّر البقاء في الساحل الشَّامي، مع أن أُمَّه أرسلت إليه تطلب منه العودة؛ لأن مملكته في خطر، لكنَّ الفرنج البلديين تمسَّكوا به، وقالوا له: "إن غادرتَ سوف تضيع هذه البلاد"[4]. واستمرَّت إقامة الملك لويس في فلسطين أربع سنوات، لم يُصبره عليها إلاَّ تعصُّبه الأعمى، وحقده على المُسلمين، وأمله أن يثأر لهزيمته، ويُحوِّلها إلى نصر، أو على الأقلِّ؛ أن يُعوِّض نفسه بشيء. وبالتَّأكيد؛ لم يكن من السهل على شخصية مثل لويس المُلقَّب بالقدِّيس أن يعود إلى أُورُبا، وسُمعته قد بلغت الحضيض، بعد هزيمته، وأَسْره، وخاصَّة أن هُناك أعداداً كبيرة من جُنُوده كانت لا تزال في أَسْر المصريين، فكان على لويس أن ينتظر الإفراج عن بقيَّة الأسرى، وكان من المعروف عن لويس التزامه وحرصه بسلامة جُنُوده، لذلك؛ ما إن بدأ المصريُّون بالتفاوض معه حتَّى كان أوَّل شُرُوطه التعجيل بإطلاق الأسرى الفرنسيين في مصر. وخلال هذا الوقت كان لويس يأمل أن يُعيد ترتيب قُوَّاته، وأن يتمكَّن من إصلاح الحال بين قوى الفرنجة في الشَّرْق والتوفيق بينهم؛

---

1 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 368، ـ يُؤكِّد جوانفيل هذه الرواية، ويقول: إن عدداً من أُمراء مصر كان يرى قَتْلَ الملك لويس وكُلَّ الأسرى. (حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 35/ 140 ـ 141).

2 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 369.

3 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 184.

4 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 35/ 156.

ليدعموه في حملة جديدة، لذلك بدأ بمساعي الصُّلح بين مملكة أرمينية وإنطاكية، وأحرز فيها بعض التقدُّم، لكنَّه لم يستطع أن يُحقِّق أيَّ تقدُّم في التوفيق بين الجنوية والبنادقة[1]. ومِمَّا يُؤكِّد - أيضاً - عزمه على الثأر إرساله طلب النجدات من فرنسا وإرساله سفارة مع أخوَيْه كُونت بواتيه وكُونت أنجو إلى البابا يطلب مُساعدته[2]، لكنَّ البابا كان مشغولاً عنه بحربه ضدَّ الإمبراطُور فريدريك الثَّاني، فمع التهديد والوعيد الذي أبلغه أخوا الملك إلى البابا، لكنَّه لم يلتفت إلى ما قالاه، ولم يُفكِّر بنجدة لويس[3]. كذلك لم تلقَ دعوة لويس لإمداده بالنجدات أيَّ استجابة في طُول أُورُبا، وعرضها، حتَّى في فرنسا، فرغم الدعوات الكثيرة التي أرسلها لويس، لكنَّ النُّبلاء والفُرسان الفرنسيين تجاهلوها تماماً، فقد كفاهم درس مصر[4]، وفي بريطانيا؛ كان الملك هنري الثَّالث يفرض حراسة مُشدَّدة على موانئ بلاده لمَنْع سفر الفُرسان نحو فلسطين[5]. كما كان قسم كبير من أُورُبا مشغولاً بقيام عدد من الهرطقات الدِّينيَّة، التي أخذت تدعو لإصلاح الكَنيسَة[6].

ولابُدَّ أن الوضع المُتردِّي لإمارات الفرنجيَّة في الشَّرْق كان يُؤلم الملك لويس أشدَّ الألم، ورُبَّما كان الجُزء الأهمَّ من دوافع بقاءه في الشَّرْق لإصلاح واقع حال الفرنجة، خاصَّة بعد أن ألقت معركة المنصُورة الثَّانية بظلال رهيبة على هذا الواقع. ومع أن أخوي الملك قد تركاه، وعادا إلى فرنسا، وعاد معهما عدد كبير من كبار البارونات[7]، فإن آمالاً مُشرعة كانت تعصف بالملك لويس، وتشدُّه إلى البقاء، فقد شاهد مقتل سُلطان مصر، ولابُدَّ أنَّه كان يتوقَّع حرباً أهلية فيها للصراع على السُّلطة، كما كان على علم باستيلاء النَّاصر يُوسُف على دمشق، وبأنَّه يُحاول أن يستعيد مصر من مماليك البيت الأيُّوبي، لذلك كان يأمل أن تصبَّ هذه الصراعات في مصلحته، ورُبَّما - أيضاً - أن يستعيد مملكة القُدْس، كما استعادها فريدريك بالمُفاوضات مع الأطراف المُتنازعة[8].

---

1 - الشَّرْق والغَرْب، كلود كاهن، ترجمة: أحمد الشَّيخ، 238.
2 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 1164.
وThe Good St, Louis, Bray, p. 263
3 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 1164.
وA History of France, Kitchen, Vol. :1, P. 436
4 - الصَّليبيُّون في الشَّرْق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 316.
5 - التاريخ الكبير، متَّى باريس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 48/ 1120.
وA Gronicale of the Pops, Mc Killiam, P. 432
6 - A History of the Christian Church, Hardwick, P 307
7 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 163.
8 - راجعْ مُناقشة ذلك في : العُدوان الصليبي، جوزيف نسيم يُوسُف، 139.

مُفاوضات لويس في فلسطين:

في رجب عام 648 هـ 1250م، وصلت إلى عكّا سفارة مصرية، وقابلت لويس التَّاسع فيها ليعرضوا عليه رغبة القيادة الجديدة في مصر بالتحالف معه ضدَّ النَّاصر يُوسُف صاحب الشَّام، وحملت إليه عرضاً بإلغاء باقي الفدية، وإطلاق جميع أسرى الفرنج في مصر، وتسليمه القُدْس، كُلّ ذلك مُقابل القيام بحملة مُشتركة ضدَّ النَّاصر يُوسُف[1]. لم يكن الملك لويس مُتحمِّساً لقبول عرض المصريين لعدَّة أسباب، منها: لابُدَّ أنَّه كان يذكر عاقبة مُشاركة الفرنج في الصراعات المحلِّيَّة، وخسارتهم الفادحة في معركة غزَّة. وأنَّ المماليك في مصر لا يملكون بيت المَقْدس؛ ليُسلِّموه إيَّاه، بل هُو ـ عملياً ـ في ملكية النَّاصر يُوسُف.

لكنَّ الملك لويس لم يُقفل الباب في وجه المصريين، فآلاف من جُنُوده لا زالوا بأيديهم[2]، وإنما اشتطَّ بطلباته عليهم، فقد "طلب من المصريين رُؤُوس جميع المسيحيين القتلى، والأطفال الذين أخذوهم صغاراً، وإعفاءه من باقي الفدية، وهي مائتا ألف ليرة ذهبية"[3]، وأخذ ينتظر رَدَّ المصريين. في هذه الأثناء؛ وردت عليه في عكّا رُسُلُ النَّاصر يُوسُف صاحب الشَّام، فلم يقبل لويس بعرض النَّاصر يُوسُف بالانضمام إليه ضدَّ المصريين، مُقابل تسليمه مملكة القُدْس التي هي بحوزته[4]، وردَّ لويس على الملك النَّاصر بأنَّه "لا يرغب بالتحالف معه حتَّى يعرف موقف أُمراء مصر من طلبه لتغيير شُرُوط الهُدنة، فإذا رفضوا، عندها؛ يُقدِّم له العون"[5]. ولشدَّة حرج موقف الأُمراء المصريين، وخوفهم من الملك النَّاصر الذي يُطالب بعرش مصر باسم الشرعية الأيُّوبيَّة، فقد وافقوا على تسليم الملك لويس مملكة القُدْس وكُلّ طلباته الأُخرى، ويقول جوانفيل إن الملك لويس قبل المُعاهدة مع الأُمراء المصريين، وأقسم عليها[6]. وكَرَدٍّ على مُعاهدة الملك لويس مع المصريين قام النَّاصر يُوسُف بإرسال فرقة من جيشه، تُقدَّر بحوالي أربعة آلاف فارس، إلى غزَّة ليقطع الاتِّصال بينهما[7]. ومع قبول الملك لويس للمُعاهدة مع المصريين، وإقسامه عليها، فقد بقي يُناور بين الطرفَيْن المُتصارعَيْن،

---

1 - البداية والنِّهاية، ابن كثير، 13/ 184 وعقد الجُمان، العيني، 1/ 80.

2 - قيل إنَّهم كانوا اثْنَيْ عشر ألف أسير. (تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، ستيفن رنسيمان، تعريب: السَّيِّد الباز العريني، 3/ 473).

3 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكّار، 35/ 173.

4 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكّار، 35/ 164.

5 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكّار، 35/ 172.

6 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكّار، 35/ 190.

7 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 522، وحياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكّار، 35/ 190.

آملاً أن يُحقِّق بالديبلوماسية ما عجز عن تحقيقه بالحَرْب. وعملياً؛ تمكَّن الملك لويس من إعادة تحصين قيسارية، بعد أن كان المُسلمون قد هدموها[1].

ثُمَّ ذهب إلى يافا، وحصَّن قلعتها[2]. وانتقل ـ أخيراً ـ إلى صيدا، فحصَّنها بأسوار عالية، وأبراج[3]. واستمرَّ على هذه الحال، إلى أن يأس تماماً بعد أربع سنوات طوال، فعاد أدراجه إلى فرنسا، بعد أن عقد مُعاهدة مع الملك النَّاصر يُوسُف عام 652 هـ 1254م، مُدَّتها عشر سنوات[4]، يقول ابن شدَّاد: إنَّها نصَّت على المُناصفة لبعض المُدُن مثل صيدا وطبرية[5]. وكمُحصلَّة أخيرة؛ نُلاحظ أن كُلَّ ما بذله الملك لويس من جُهُود وأموال ذهبت بدُون أيِّ مُقابل، إضافة إلى ما تعرَّض له من هزيمة، وذُلِّ الأسر، فلا بالحَرْب نجح، ولا بالمُفاوضات السِّياسيَّة أفلح، وحتَّى المواقع التي حصَّنها اضطرَّ للتخلِّي عن بعضها، وبعضها الآخر اتَّفق مع النَّاصر يُوسُف سُلطان الشَّام على اقتسامها مُناصفة. ورُبَّما كان الشُّعُور بالفشل لدى الملك لويس في هذه الحملة هُو دافعه الأكبر للقيام بحملة ثانية ضدَّ تُونُس، لاقى فيها منيَّته.

وقد أعقب أَسْر لويس في المنصُورة وإطلاق سراحه علاقات سياسيَّة وعسكريَّة مُعقَّدة جدّاً، بينه وبين الأيُّوبيَّة في الشَّام من جهة، وبينه وبين المماليك في مصر من جهة أُخرى، من خلال مُفاوضات ثُنائية استغرقت جولات عديدة، كان لويس ـ خلالها ـ يتلاعب بالطرفَيْن اللَّذَيْن رغبا بالتحالف معه، كُلّ منهم ضدَّ الآخر، لكنَّه لم يجرؤ على اتِّخاذ جانب أيٍّ منهما، ولم يحدِّد موقفه، وكما كان الفشل العسكري نصيبه في دمياط كان الفشل السِّياسي نصيبه في عكَّا.

وهكذا نُلاحظ بأنَّ الدور الفرنسي كان دائماً مُتميِّزاً في الحملات الفرنجيَّة على الشَّرْق، وكانت تسمية العَرَب للأُورُبيين الغُزاة بالفرنجة من كون غالبيَّتهم من الفرنك، أو الفرنسيين، فالفرنسيون كانوا يُشكِّلون الغالبية العددية على الدوام، إنْ كان في الحملات العسكريَّة، أو في المُستوطنات، أو في الطوائف الرُّهبانية المُقاتلة، وكانت هذه الغالبية الفرنسيَّة بسبب كون جنوب فرنسا مهد الدعوة الصَّليبيَّة. كذلك كان مُعظم المُلُوك والأُمراء الفرنجة في الشَّرْق من الفرنسيين، ومُعظم طائفتَيْ الدَّاوية والاسبتاريَّة من الفرنسيين، كما لم يتخلَّف الفرنسيون عن أيِّ حملة، كما شارك مُلُوكهم بشكل شخصي في الحملتَيْن الثَّانية والثَّالثة، بالإضافة إلى ذلك؛ فقد كان للفرنسيين حملتهم الخاصَّة مع الملك لويس التَّاسع.

---

1 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 174.
2 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 190.
3 - حياة القدِّيس لويس، جين جوانفيل، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 221.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 393، وأخبار الأيُّوبيِّين، ابن العميد، 43.
5 - الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد، 3/ 2/ 134.

المبحث السّادس:

علاقات دُول أُورُوبية مُختلفة بالشرق الإسلامي

1- إنكلترا:

كان هنري الثّاني ملك إنكلترا من المُلوك الأُورُبيين الذين هزّتهم هزيمة حطِّين وسُقُوط القُدْس، واستجابوا لرئيس أساقفة صُور، الذي نقل أخبار الكارثة إلى أُورُوبا، وحرَّض مُلوكها لاسترداد القُدْس، فتعهَّد هنري بحَمْل الصليب، ولكن الموت عاجله، فتوَّج ابنه ريتشارد، الذي أوفى بنذر والده، وقام بحملته الشهيرة لإنقاذ الأراضي المُقدَّسة، وكما يقول مُدوِّن رحلته: "لتدمير المُسلمين، وإزالة الشريعة الإسلاميَّة، ونَشْر المَسيحيَّة"[1]، فانطلق ريتشارد مُبحراً من إنكلترا عام 566 هـ - 1190م، ثُمَّ توقَّف ليُمضي فصل الشتاء في جزيرة صقلية، ونتيجة لخلاف وقع بين بعض جُنُوده وسُكَّان مدينة مسينا الصقلية، قام ريتشارد بقيادة جيشه، والهُجُوم على المدينة المَسيحيَّة، التي كانت تُؤويه بجوارها. ويصف مُدوِّن أخبار الحملة، وهُو شاهد عيان كان يُرافق الملك ريتشارد ما فعله الإنكليز في مسينا، فيقول: "وقاموا بذَبْح وأَسْر كُلِّ مَنْ قابلوه من سُكَّان المدينة"، ويُتابع: "سار رجالنا يتقدَّمهم الملك ريتشارد خلال المدينة المقهورة كمُنتصرين، وقاموا بنَهْب المدينة كُلّها. . . وهكذا استولى ريتشارد على مسينا، وبات الذهب والفضَّة وكُلّ شيء وجدوه ملكاً للمُنتصرين، الذين قاموا بإحراق سُفُن الأعداء، وأخذ أعلى نسائهم مكانة، وحملوهنَّ معهم"[2]. وبعد تدمير ريتشارد لمدينة مسيحيَّة، ونهبها، وسبي نساءها، تابع مهمَّته لنَشْر المَسيحيَّة، والتصدِّي للمُسلمين.

ولكن حملة مُلُوك أُورُوبا - التي تزعَّمها ريتشارد لاسترداد مملكة القُدْس، والقضاء على المُسلمين بمُشاركة إمبراطُور ألمانيا وملك فرنسا - وصلت إلى طريق مسدود، ولم تُحقِّق هذه الحملة أيَّ نتيجة مُهمَّة، ماعدا استيلائهم على عكَّا، الذي يُعدُّ نتيجة تافهة للحشد العسكري الهائل الذي تجمَّع عليها. فبعد موت فريدريك الأوَّل إمبراطُور ألمانيا؛ وتشتُّت حملته، وانسحاب فيليب الثَّاني ملك فرنسا، ومُغادرته لفلسطين، لم يبقَ إلاَّ ريتشارد، الذي ظهرت بُطُولاته وشجاعته، في إعدامه للآلاف

---

1 - حملة ريتشارد إلى الأراضي المُقدَّسة، شاهد عيان، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 31 / 96.

2 - حملة ريتشارد إلى الأراضي المُقدَّسة، شاهد عيان، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 31 / 41.

من سُكَّان وحامية عكَّا، الذين استسلموا على شرط الأمان، فقتلهم صبراً[1]، إنَّها ليست وحشية ريتشارد فقط، بل كانت وحشية قيَم وأخلاقيات إنكلترا التي كان يُمثِّلها، والتي نصَّبَتْهُ بطلاً لها، وأطلقت عليه اسم قلب الأسد.

وبعد أن يأس ريتشارد من تحقيق أيِّ مكسب على أرض فلسطين، وبلغتْهُ من بلاده أخبار مُقلقة على عرشه، حاول أن يجد لنفسه انسحاباً مُشرِّفاً من الشَّرق، فأرسل صاحب صيدا بالين دي أبلين، "وطلب منه بذل قُصارى جهده لعَقْد هُدنة" مع المُسلمين[2].

وفي الحقيقة؛ كان ملك إنكلترا ريتشارد مُستعجلاً لإجراء الصُّلح، لأنَّه الحلُّ الوحيد أمامه للانسحاب بشرف من مأزق لم يعد له حلٌّ، فلا هُو قادر على هزيمة السُّلطان والوُصُول إلى القُدْس، ولا كبرياؤه المَلَكية، وسُمعته البُطُولية تسمحان له بالتسلُّل مُغادراً بنتائج هزيلة، خاصَّة بعد أن تأكَّد أن جُيُوش السُّلطان قد اكتملت، وأن البحر ـ خلال وقت وجيز ـ سوف لا يُمكن رُكُوبه، وهُو مُتحرِّق للعودة، فالأخبار المُتواترة من بلاده تُنذر بأسوأ الأُمُور، له، ولعرشه.

فأرسل ريتشارد إلى السُّلطان يقول: "فإنْ هادنتُم، تبعتُ هوايَ ـ بالسفر إلى بلاده ـ وإنْ حاربتُم، أقمتُ ها هُنا، وقد كَلَّ الفريقان، ولا تغترُّوا بالعساكر، فإن جَمْعَهَا في الشتاء إلى شتات"[3].

ولم يُقدِّم السُّلطان صلاح الدِّين على إجابة ريتشارد، إلاَّ بعد أن جمع الأُمراء، وعرض عليهم الأمر، وطلب مشورتهم، فأقنعوه بقبول الصُّلح، ولكن السُّلطان أبى أن يدخل شخصياً فيه، وفوَّض ذلك إلى أخيه الملك العادل، وزوَّده بتعليماته، التي تقضي بأنْ يقطع المُفاوضات إذا لمس من الفرنج المُماطلة، فطلب العادل مُذكِّرة خطِّية بما يُسمَح له بالمُفاوضة عليه، "فكتبت له تذكرة" بخطِّ الأمير بدر الدِّين دلدرم، تتضمَّن البلاد التي تقع ضمن مناطق المُناصفة مع الفرنج، وأن المُسلمين يسمحون بإعطائهم صليب الصلبوت، ويكون لهم في كَنيسَة القيامة مَنْ يُؤمِّن لهم زيارتها، بشرط عدم حَمْل

---

1 - حملة ريتشارد إلى الأراضي المُقدَّسة، شاهد عيان، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 31 / 96 .
2 - ذيل تاريخ وليم الصُّوري، ليدن / 828، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 8 / 443.
3 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 13/ 412.

السلاح، وأن الصُّلح ثلاث سنين من تاريخه، وطلب السُّلطان من أخيه العادل أن لا يكون هُناك حديث في الجبليات[1]؛ أيْ أنَّه غير مُفوَّض بالتنازل عن أيِّ موقع جبلي.

وبعد إعلام ريتشارد بالمُوافقة على طلبه بإجراء مُفاوضات الصُّلح، وصلت رُسُلُهُ تطلب الاجتماع بالملك العادل؛ لتنسيق وُصُول الملك ريتشارد[2]، فأمر الملك العادل بنصب ثلاث خيام قُرب مُقدِّمة الجيش، وتجهيزها بما يلزم من طعام وفاكهة لاجتماعه بريتشارد، الذي حضر إلى خيام العادل، وطالت المُحادثات بينهما[3]. ثُمَّ استقرَّ الرأي أن يتزوَّج الملك العادل أُخت ريتشارد، "على أن يحكم العادل في البلاد، وتكون المرأة في القُدْس مع زوجها، ويُرضي العادل مُقدَّمي الفرنج والدَّاوية بعض القُرى، ولا يُقيم معها في القُدْس إلاَّ قسِّيسون ورُهبان"[4]. ولكنْ؛ تَعَنَّتَ رجال الدِّين الفرنج، وبعض الأُمراء، واشترطوا تنصُّر العادل، فرفض، وانسحب من المُفاوضات، واعتذر الملك ريتشارد بامتناع أُخته[5].

ولكنْ؛ حتَّى بدُون زواج سياسي، فقد ترتَّب الصُّلح، وعُقدت الهُدنة بين الفرنج؛ يُمثِّلهم الملك الإنكليزي ريتشارد، والمُسلمين يُمثِّلهم الملك العادل بتكليف من السُّلطان صلاح الدِّين، وتمَّ توقيع الصُّلح في 23 شعبان عام 558 هـ المُوافق 3 أيلول **1192**م. وقد نصَّت مُعاهدة الصُّلح "على أن يستقرَّ بيد الفرنج يافا وعملها، وقيسارية وعملها، وحيفا وعملها، وأن تكون عسقلان خراباً، وتكون اللّدّ والرملة مُناصفة بين الفرنج والمُسلمين"[6]. ثُمَّ أمر السُّلطان بالنداء في المُعسكرات والأسواق: "ألا أن الصُّلح قد انتظم، فَمَنْ شاء من بلادهم أن يدخل بلادنا، فليفعل، ومَنْ شاء من بلادنا أن يدخل بلادهم، فليفعل"[7].

---

1 - النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليُوسُفية، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 15/ 258 .

2 - النَّوادر السُّلطانيَّة والمحاسن اليُوسُفية، ابن شدَّاد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 15/ 223.

3 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 13/ 380.

4 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 13/ 377.

5 - الفَتْح القِسِّي، العماد الأصفهاني، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 13/ 377.

6 - مُنتخبات التواريخ، ابن شاهنشاه صاحب حماه، 304.

7 - مُفرِّج الكرُوب، ابن واصل، 2/ 405

وقد رُويت كثير من الأخبار عن علاقة الملك العادل سيف الدِّين بالملك ريتشارد قلب الأسد، حتَّى إن منها ما أخذ يرقى إلى مرتبة الحكايات والأساطير، ولكن الثابت أن علاقات حميمة قد ربطت الرجلَيْن، وأنهما قد تباسطا في أُمُور حياتية كثيرة، بعيداً عن شُؤُون السياسة والحَرْب، ويروي مُدوِّن أخبار الحملة الإنكليزي: "أنَّه في يوم أحد السعف قلَّد ريتشاردُ ـ وسط مظاهر أُبَّهة عظيمة ـ حزام الفُرُوسية إلى ابن سيف الدِّين، الذي وصل إليه لهذا الغرض"[1].

لقد كانت حملة الملك ريتشارد ـ ضمن ما يُسمَّى بالحملة الثَّالثة ـ حالة وحيدة ومُتميِّزة لوُجُود ملك إنكليزي في الشَّرْق، ولن تتكرَّر ـ بعدها ـ أبداً، فعندما قام بابوات رُوما بالتحريض لتجنيد المسيحيين للقتال في الشَّرْق، بعد أن خذلهم الإمبراطُور الألماني فريديك، قرَّر الملك الإنكليزي هنري الثَّالث[2] عدم المُشاركة في أيِّ حملة على الشَّرْق، ودفع المالَ للبابا أنوسنت الرَّابع، ليس لإعفائه من السفر بنفسه فقط، بل لمنع الإنكليز كافَّة من الإبحار نحو الشَّرْق، وقام بفرض حراسة مُشدَّدة على شواطئ إنكلترا لمَنْع أيِّ صليبي من المُغادرة[3]. ولكن هذا التشدُّد لم يمنع الأمير ريتشارد إيرل أُوف كُورنوول، شقيق الملك هنري الثَّالث، من السفر إلى فلسطين على رأس مجموعة بسيطة من أعوانه عام **638** هـ **1240**م[4]، لكنَّ هذا الدعم الإنكليزي لم يُقدِّم الكثير لواقع الفرنجة المُتردِّي في الشَّرْق، فقد كانت الخلافات والانقسامات قد استشرت بين الفرنج، وكانت جماعتا الاسبتاريَّة والدَّاويَة تتزعَّمان هذه الخلافات، وهُما من أشدِّ المُحرِّضين عليها؛ حيثُ اعتضدت كُلُّ جهة منهم بواحد من مُلُوك المُسلمين، وسعت لكسب الأنصار من الفرنج، وخاصَّة من الأُمراء القادمين الجُدُد من وراء البحار[5]، وشقُّوا ـ بذلك ـ صفَّ الفرنجة.

فقد تحالف الدَّاويَة ومعهم مجموعة من أُمراء الفرنج مع سُلطان دمشق الصَّالح إسماعيل، ولكن الاسبتاريَّة كان لهم مُخطَّطات أُخرى؛ حيثُ رتَّبوا مع جُزء آخر من الفرنج لعقد مُعاهدة مع الصَّالح أيُّوب سُلطان مصر، وأقنعوا اللورد ريتشارد أوف كورنوول ليقسم على مُعاهدتهم مع

---

1 - حملة ريتشارد إلى الأراضي المُقدَّسة، شاهد عيان، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 31 / 146.

2 - الملك هنري الثَّالث: عاش في الفترة ما بين أعوام 1216 ـ 1272م.

3 - Acronikle of The Pops from St Peter to Pius X, Mc Killiam, p 432

4 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، أرنست باركر، ترجمة: السَّيِّد الباز العريني، 118.

5 - حُرُوب فريدريك الثَّاني في سُورية وقبرص، فيليب دي نوفار، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35 / 206 ـ 208.

سُلطان مصر[1]، وشارك في القَسَم عدد من الذين أقسموا مع الصَّالح إسماعيل، "وحلف معهم ملك نافار وكُونت بريتاني، وعدد كبير آخر من الحُجَّاج، دُون إقامة أيِّ تقدير لليمين الذي حلفوه مع سُلطان دمشق"[2]. ورُبَّما كان هذا الانقسام من مُسبِّبات نكبة غزَّة.

ويبدو أن ريتشارد أمير كُورنوول لم يُشارك في معركة غزَّة، بل ـ قد يكون ـ أبحر عائداً قُبيل المعركة؛ إذْ إنَّه لم يردْ له ذكْر أثناء تعداد القُوَّات الفرنجيَّة المُشاركة في المعركة، ولم يُذكَر في الأسرى، ولا في القتلى[3].

وفي النتيجة؛ يتَّضح أن الدور الإنكليزي الأبرز في مُجمل الحُرُوب الفرنجيَّة في الشَّرق كان دور الملك ريتشارد، الذي يأس من تحقيق أيِّ انتصار، بعد قيادته الاحتلال المأسوي لعكَّا، فألَحَّ على الصُّلح، خاصَّة بعد تردِّي أوضاع مُلْكه في بلاده، فحصل على صُلح الرملة، الذي هُو ـ في الحقيقة ـ تقرير واقع، فسماح صلاح الدِّين بالحجِّ السِّلْمي كان مُوافَقاً عليه، ويُطبِّقه مُسبقاً، ولم يمنعه أبداً. وبعد رحيل ريتشارد؛ أدارت إنكلترا ظهرها للقضية برُمَّتها.

2. المجر أو هنغاريا:

في عام 614 هـ ـ 1217م، وصل إلى عكَّا ملك المجر أندراش، أو أندريه، مع قُوَّة كبيرة من جيشه[4]، وكان المُسلمون يُسمُّونه الهنكر، رُبَّما نسبة إلى هنغاريا. وشارك ملك المجر وقُوَّاته بفعَّالية مع القُوَّات الألمانية وقُوَّات فرنج الساحل في حملة الطور، ويبدو أنَّهم قد سبَّبوا إرباكاً حقيقيَّاً للملك العادل، الذي فُوجئ بضخامة جيش الفرنج[5]، فانسحب بقُوَّاته ليحمي الطريق إلى دمشق، وأمر ابنه المُعظَّم أن يتحرَّك صوب القُدْس لحمايتها[6]. لكنَّ الحملة عادت لسبب غير معروف إلى عكَّا، وعسكرت في مرجها، ومن هُناك؛ شنَّ المجريون ـ مُنفردين ـ غارات مُحدَّدة بقيادة ابن أُخت ملك

---

1 - حُرُوب فريدريك الثَّاني في سُورية وقبرص، فيليب دي نوفار، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 35/ 207.
2 - حُرُوب فريدريك الثَّاني في سُورية وقبرص، فيليب دي نوفار، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، 35/ 207 ـ 208.
3 - مرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 8/ 2/ 746، والحُرُوب الصَّليبيَّة، رنسيمان، 3 / 394، و The Crusaders in the East, Stevenson, p 239
4 - وقيل إنَّ جيش الهنغار كان ـ وحده ـ يضمُّ خمسة عشر ألف مُقاتل. (شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 224).
5 - لُبنان من السُّقُوط، تدمري، 223.
6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 20/ 197.

المجر نحو صيدا، والشقيف، وذلك بالرّغم من نصائح صاحب صيدا السّابق والفرنج المحلّيّيْن، وتحذيرهم لهم، فقد اندفع المجريون بغاراتهم في المناطق الجبلية، فهلكت أعداد كبيرة منهم لوُعُورة الطُّرُق، أو بالكمائن التي نُصبت لهم قُرب مشغرا، وتخطَّف المُسلمون مَنْ بقي منهم قَتْلاً، وأَسْراً[1]، وكانوا حوالي خمسمائة فارس، لم ينجَ منهم سوى ثلاثة أشخاص، وسيقت أسراهم إلى دمشق[2].

هذه الفاجعة والنكسة العسكريَّة لملك المجر لم تمنعه من الانضمام إلى باقي الفرنجة في قرارهم الإبحار إلى مصر لمُهاجمة دمياط، وبالفعل؛ شارك أندريه ملك المجر بما تبقّى معه من قُوّات في حملة دمياط، وشهد احتلالها، لكنّه مالبث أن عاد مُبحراً إلى بلاده عندما اختلف ملك القُدْس مع الكاردينال بيلاجيوس نائب البابا وقائد حملة دمياط عام **615** هـ **1218**م[3].

3. النمسا:

لم تخرج النمسا عن القاعدة التي سار عليها كُلُّ مُلُوك وممالك أُورُوبة، فقد شارك دُوقها ليوبولد مع قُوّاته في الحملة الخامسة التي انطلقت عام **614** هـ**1217**م، من أُورُوبا نحو الشَّرْق، وبعد أن تنقَّل دُوق النمسا مع جيشه على غير هُدى في بلاد ساحل الشّام اتّفق مع بقيّة قُوّاد الحملة على مُهاجمة ثغر دمياط؛ لأُخْذه، واحتلال مصر بعد ذلك[4]. ويبدو أن القُوّات المُرافقة لدُوق النمسا لم تكن كبيرة العدد، ولا تتمتّع بميّزات قتالية عالية، فعندما حاصرت الحملة دمياط، حُدِّد موقع واحد للقُوّات النمساوية؛ لتتولّى التمركز فيه مُقابل سُور دمياط، كما كانوا تحت جناح قُوّات الدّاويّة مدعومين بفُرسانها، ومع ذلك؛ فعندما شنَّ المصريُّون هُجُومهم على القُوّات المُحاصِرة لدمياط سحقوا قُوّات النمسا، وأزاحوها من موقعها[5].

ويبدو أن علاقات أقدم من توقيت الحملة الخامسة كانت تربط دُوقات النمسا بالأراضي المُقدّسة، وبالقوى السّياسيّة في الشّام، فقد نسب عميد مقرّ الكَهَنَة في لندن رالف أف دي سيتو نصّ

---

1 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 103.
2 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، 103.
3 - الصَّليبيُّون في الشَّرْق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 296.
4 - الصَّليبيُّون في الشَّرْق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 296.
5 - وُرُود التّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 45/ 765.

رسالة إلى زعيم الإسماعيليّة في سوريا، الذي يدعوه باسم: شيخ الجبل، مُوجَّهة إلى ليُوبُولد دُوق النمسا؛ يُبرِّئ فيها شيخ الجبل الملك الإنكليزي ريتشارد الأوَّل من تُهمة تحريض الإسماعيليّة على قَتْل الماركيز كونراد دي مُونتفرات صاحب صُور المُرشَّح لتولِّي مملكة القُدْس[1]، فلو صحَّت نسبة الرسالة، فإن ذلك يعني وُجُود اهتمام كبير لحُكَّام النمسا بمُشكلات الأراضي المُقدَّسة، وعلاقات واسعة لهم مع القوى الموجُودة فيها.

4. الفلمنك:

يبدو من مُجريات الأحداث أن شُعُوب أُورُوبا أيضاً، وليس مُلُوكها فقط، قد أدلوا بدلوهم في الحَرْب ضدَّ المُسلمين لطَرْدهم من الأراضي المُقدَّسة، وكان منهم شعب الفلمنك[2]. يُحدِّثنا فلهاردين عن الحملة الفلمنكية إلى الأراضي المُقدَّسة، فيروي أنَّه عام **601** هـ **1204**م، شتَّى أُسطُول فلمنكي كبير في مرسيليا، ورافقوا أُسطُول البنادقة، الذي حمل الفرنسيين إلى القسطنطينيَّة لاحتلالها، لكنَّهم لم يقفوا أمامها، بل تابعوا إلى الساحل الشَّامي، مع أن عددهم يفوق رجال حملة الفرنج ضدَّ بيزنطة، ومع ذلك؛ فقد انتهت حملتهم في الساحل؛ حيثُ "أهلك مناخ سُورية بعضهم، ولم يفعل أيٌّ منهم شيئاً مُفيداً" ومنهم مَنْ ذهب إلى أنطاكية ليعمل في خدمة بُوهمند كجُنُود مُرتزقة في حربه ضدَّ ليون ملك أرمينيا، فَنَصَبَ لهم الأتراك كميناً، فلم ينجُ منهم أحد[3].

---

1 - تواريخ أُسرة بلانتغنيت، رسالة رالف دي سيتو، الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 30 / 266.

2 - الفلمنك: هُم شعب الفلمند، وكانوا في العُصُور الوُسْطَى يُسيطرون على مناطق شمال غاليا، وهُم - الآن - يتوزَّعون فيما بين شمال غرب ألمانيا وبلجيكا وهُولندا.

3 - الاستيلاء على القسطنطينيَّة، فلهاردين، من الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، 10/ 107.

المبحث السَّابع:

العلاقات الأيُّوبيَّة الأُورُوبيَّة خلال الحملات الكُبْرَى

(الحملة الفرنجيَّة الخامسة نموذجاً)

تُعدُّ الحملات الأُورُوبيَّة على الشَّرْق وجهاً مُهمًّاً للعلاقات بين أُورُوبا من جهة والمُسلمين عُمُوماً والأيُّوبيين خُصُوصاً من جهة أُخرى، كما تُعطينا هذه الحملات فكرة عن نظرة أُورُوبا إلى الشَّرْق الإسلامي في ذلك العصر، وطريقتها في حلِّ مُشكلاتها على حسابه، أو حلِّ خلافاتها معه بالقُوَّة المُسلَّحة، و تكرار فشلها في كُلِّ مرَّة.

وتُعدُّ الحملة الخامسة نموذجية في كُلِّ نواحيها، فهي لم تكن بقيادة ملك أُورُوبي واحد كما في حملة الملك لويس، ولا مُجزَّأة بقيادات مُلُوك كما في الحملة الثَّالثة، بل ساهمت فيها مُعظم دُول أُورُوبا، وشُعُوبها، وكانت قيادتها مثالية، فهي دينيَّة من قِبَل نائب البابا مُباشرة.

في إطار السعي البابوي المحموم لتجنيد الحملات ضدَّ المُسلمين من أجل القضاء عليهم، وإحياء مملكة القُدْس، أصدر البابا إينوشنتيوس الثَّالث مرسوماً خاصّاً، ذكر فيه ما يُعانيه آلاف المسيحيين في سُجُون المُسلمين، وأن المُسلمين قد بنوا ـ قَصْدَاً وعَمْدَاً ـ قلعة رهيبة على جبل الطور، لتُهيمن على عكَّا، وستُتيح لهم اقتحام الأرض المُتبقِّية من مملكة القُدْس بلا عائق، وقال البابا: إنَّه إضافة إلى مخاطر هذه القلعة، فإن المُسلمين قد بنوها في المكان المُقدَّس، الذي حدثت فيه قيامة يسوع المسيح، كما جاء في الإنجيل[1]. وفي عام 614 هـ1217م، انطلقت الحملة من أُورُوبا نحو الشَّرْق، وفيها الملك المجري أندراش، أو أندريه، ودُوق النمسا ليُوبُولد، وبعض الأُمراء الألمان، وتجمَّع معهم حوالي عشرة آلاف فارس، وعدد كبير من المُقاتلين المُشاة، فأبحروا إلى عكَّا؛ حيثُ وصلوها، وأخذوا في التجمُّع بها، ويبدو أن فرنجة الشَّرْق استقبلوا صليبيِّيْ الغَرْب ببُرُودة، إنْ لم نقل بجفاء، فنتائج الحملة بالنِّسبَة للفرنج للبلدَيْن غير مضمونة عسكريّاً، بينما من المُؤكَّد أنَّها ستضرُّ بمصالحهم التِّجاريَّة مع المُسلمين، التي مضى عليهم حوالي عشرين عاماً في مُحاولة ترسيخها، والإفادة منها بالشكل

1 - الصَّليبيُّون في الشَّرْق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 294.

الأفضل[1]. وعندما علم السُّلطان العادل بتحشُّد الفرنج في عكَّا، خرج من مصر إلى الشَّام في العام نفسه 614 هـ 1217م، ليكون في مُواجهتهم، ونزل قُرب بلدة اللّدّ في فلسطين، فتحرَّكت جُيُوش الفرنج من عكَّا لقَصْده، "وسار نحوهم؛ ليسبقهم، ويحمي أطراف البلاد، فسبقوه، ونزل على بيسان"[2]، وتقدَّمت قُوَّات الفرنج نحوه وهُم مُدركون لتفوُّقهم العسكري على العادل، الذي كان معه قُوَّة عسكريَّة صغيرة، فتحرَّك أمامهم نحو دمشق، ونزل في مرج الصفر، فاحتلُّوا بيسان، وحاصروا بانياس، وانتشروا في حوران، يُغيرون على مُدُنها، حتَّى وصلت غاراتهم إلى نوى، ثُمَّ تحرَّكوا صوب صُور، وحاصروا قلعة الشقيف، ونهبوا ما حولها[3]. ويبدو أن هذه الحَرَكَة الواسعة للجيش الفرنجي كانت غايتها إبعاد العادل عن الهدف الحقيقي لهم، وتنظيف المنطقة المُجاورة للهدف، وإخراج المراكز العسكريَّة الإسلاميَّة المُجاورة من المعركة، ليُواجهوا هدفهم الرئيس مُنفرداً، وبالفعل؛ بعد هذه الجولات الناجحة للحملة تفرَّغوا لهدفهم؛ "حيثُ تجهَّز الفرنج، وأخذوا معهم آلة الحصار، وقصدوا قلعة الطور، وحصروها"[4].

وكان من المُتوقَّع أن يهبَّ سُلطان البلاد الملك العادل لنجدة قلعة الطور ذات الموقع الإستراتيجي المُهمّ، ولكنَّه لم يتحرَّك من مرج الصفر؛ حيثُ كان مُعسكراً، ويُدافع ابن الأثير عن موقف السُّلطان العادل قائلاً: "وبالجُملة؛ فالذي فعله العادل هُو الحزم والمصلحة، لئلا يُخاطر باللقاء على حالة تطرُّق العَسْكَر"[5]، ورُبَّما كان هذا الدفاع في محلِّه قبل حصار الفرنج لقلعة الطور؛ حيثُ كان هدفهم ضرب قُوَّات العادل لإخراجه من المعركة، ولكنْ؛ ما هُو المُبرِّر الحقيقي لعدم نجدة قلعة الطور، وخاصَّة أنَّها قاومت مُقاومة بُطُولية شرسة، فكان من المُمكن للعادل أن يهجم على مُؤخِّرة الفرنج المُشتغلين بالحصار، والنيل منهم، أو مُشاغلتهم ـ على الأقلّ ـ لتخفيف وطأة هُجُومهم على القلعة. لقد تحمَّلت حامية قلعة الطور المُؤلَّفة من ألفَيْ مُقاتل[6] عبء الدفاع عن مواقعهم طيلة سبعة

1 - الصَّليبيُّون في الشَّرق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 295 ـ 296.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 321.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 321، وزُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 643، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 117.
4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 322.
5 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 322.
6 - الصَّليبيُّون في الشَّرق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 296.

عشر يوماً[1]، تصدُّوا خلالها لثلاث مُحاولات اقتحام، وأفشلوها، وقد لعبت خلافات الفرنج دوراً مُهمّاً في تخلِّيهم عن حصار القلعة، والعودة عنها، فقد كان بُوهمند الرَّابع أمير أنطاكية، يُعارض الهُجُوم على القلعة، ويعدُّه جهداً ضائعاً، بينما كان يُوحنَّا دي برين ملك مملكة القُدْس يُصرُّ على اقتحامها[2]، وبالتَّأكيد؛ كان سبب إصرار ملك القُدْس على فتح القلعة لأنَّها تُشكِّل أكبر خطر على مملكته[3]، بينما هي بعيدة عن أنطاكية، ولا تُسبِّب أيَّ تهديد مُباشر لها. وبعد فشل الهُجُوم على قلعة الطور واختلاف الآراء عاد الجيش الفرنجي إلى عكَّا، ليُعيد تنظيم قُوَّاته، ويبحث عن هدف جديد.

وعندما وصلت إلى عكَّا قُوَّات الفرنجة المُرتدَّة عن قلعة الطور، فما كان يبدو أنَّه نهاية لحملة فاشلة، أخذ يتحوَّل إلى بداية تجمُّع لحملة عسكريَّة فرنجية لم تشهد لها البلاد مثيلاً من سنوات طويلة، تألَّفت من: قُوَّات يُوحنَّا دي برين ملك القُدْس، وقُوَّات بُوهمند الرَّابع أمير أنطاكية، وفُرسان الاسبتاريَّة بقيادة الأُستاذ الأكبر غارن دي مُونتيغيو، وفُرسان الدَّاويَة بقيادة الأُستاذ الأكبر غيوم دي شارتر، وفُرسان التِّيُوتُون الألمان بقيادة غرمن فُون زالست، وقُوَّات مملكة قبرص بقيادة الملك غي دي لُوزينيان، وليُوبُولد دُوق النمسا وأندريه ملك المجر مع قُوَّاتها، فتكوَّن جيش قوامه بحُدُود عشرين ألف فارس، ومثنَيْ ألف من المُشاة[4]. رُبَّما تكون هُناك بعض المُبالغة في تعداد هذا الجيش، لكنَّه ـ بلا شكٍّ ـ كان جيشاً كبيراً قادراً على القيام بحملة تُحقِّق أهدافاً كبيرة.

وفي هذه الأثناء؛ توصَّل المجمع الكَنَسي المُنعقد في قصر اللاتيران إلى ضرورة توجُّه الحملة إلى مصر، فقد برهن الخُبراء في المجمع أنَّه لا يُمكن للصليبيين العيش بسلام في سُورية والأرض المُقدَّسة ما لم تلحق مصر بمملكتهم، فقد عرض الخُبراء أمام المجمع حقيقة ما تمَّ سابقاً، فما إن اتَّحدت سُورية مع مصر أيَّام الملك عموري حتَّى أصبحت مملكة القُدْس في خطر عظيم، بينما ما كان بإمكان أحد التعرُّض للمملكة المُقدَّسة قبل تلك الوحدة[5]، وقد أصبح من الراسخ لديهم أن عليهم العمل

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 322.
2 - الصَّليبيُّون في الشَّرق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 296.
3 - حول مملكة القُدْس في هذه المرحلة، راجعْ:
The Latin Kingdom of Jerusalem, Conder, p.p 415-432.
4 - الصَّليبيُّون في الشَّرق، زابوروف، ترجمة: إلياس شاهين، 295.
5 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1159.

للاستيلاء على مصر من أجل الحُصُول على القُدْس[1]. وبالمُقابل؛ كان المُسلمون يُدركُون هدف الفرنج بدقَّة، فقد قال ابن واصل على لسان الفرنجة: "فالمصلحة أوَّلاً أن نقصد مصر، ونملكها،وحينئذ؛ فلا يبقى لنا مانع من أخذ القُدْس وغيره من البلاد"[2]، إذنْ؛ فقد تحدَّد الهدف الجديد للحملة؛ وهُو قَصْد مصر، وفعلاً؛ في سنة **615** هـ **1218**م، أبحرت قُوَّات الفرنج من ميناء عكَّا نحو مصر، وألقوا مراسيهم أمام مدينة دمياط[3].

رَدُّ العادل في الشَّام على حملة الفرنج إلى دمياط:

كان السُّلطان العادل مايزال مُقيماً في مرج الصفر ينتظر حَرَكَة الفرنج، فلمَّا علم أنَّهم قصدوا دمياط، أرسل العساكر التي معه إلى ابنه الكامل[4]، الذي كان قد سار من القاهرة، ونزل قبالة الفرنج لدعم دمياط، والتصدِّي للحملة[5]. واستدعى السُّلطانُ العادلُ ولدَهُ الملكَ الأشرفَ في عسكره من الجزيرة، وأمره بدُخُول بلاد الفرنج، "ليشغلهم عن مُحاصرة دمياط، فدخل صافيتا، فخرَّبوا ربضها، ونهبوا رستاقها، وهدموا ما حولها من حُصُون، ودخلوا ربض حصن الأكراد، فنهبوه، وحاصروا القلعة حتَّى أشرفت على الأخذ"[6]. وكلَّف السُّلطانُ العادلُ ابنَهُ الآخرَ الملكَ المُعظَّمَ أن يدخل إلى بلاد الساحل بعسكر دمشق ليُرابط أمام الفرنج[7]، وطلب من المُعظَّم ـ كذلك ـ أن يُشرف بنفسه على هدم قلعة الطور، التي كان المُعظَّم قد بناها، فقد أدرك السُّلطان العادل أنَّها كانت سبباً لتلك الحملة، ورغم المُعارضة الشديدة التي أبداها المُعظَّم، فقد هدم قلعة الطور في النِّهاية[8]. و الغريب أنَّه لم يكتف بذلك، بل تابع خُطَّة الهَدْم، فبعد قلعة الطور وجد الملك المُعظَّم أن القُدْس هي الهدف الكبير الذي يسعى إليه الفرنج من الحملة، فأمر بخراب أسوار القُدْس، وأبراجها[9].

---

1 - The Crusades, Campell, p. 382

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 258.

3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 118 و زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 643.

4 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار،20/ 209.

5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 118

6 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 643، وذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة 20/ 210.

7 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 209.

8 - زُبْدَة الحَلَب، ابن العديم، 2/ 643، والكامل في التاريخ، ابن كثير، 12/ 323.

9 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 305.

وقد استعظم المُسلمون هذا الحَدَث، وتأسفوا على خراب القُدْس بأيدي المُسلمين[1]. بينما عَدَّ الفرنج تدمير المُعظَّم للقُدْس رَدَّاً منه على حصارهم لدمياط، يقول رُوجر ويندوفر بأنَّ الملك المُعظَّم: "كان رجلاً قاسياً وشرِّيراً، قد قام انتقاماً منه لحصار دمياط بتدمير مدينة القُدْس الشهيرة تدميراً كُلِّيّاً"[2]، فلم يفهم رُوجر تصرُّف المُعظَّم على أنَّه دفاع وقائي. ويُبرِّر ابن واصل تدمير المُعظَّم أسوار القُدْس بقوله: "خاف المُعظَّم أن تصل من البحر أُمم عظيمة، إذا سمعوا بتمكُّن أصحابهم من مصر، فيقصدون البيت المُقدَّس وهُو عامر، فيملكونه، ولا يُمكن ـ بعد ذلك ـ استنقاذه منهم"، ولكن ابن واصل يعود ليُناقض تبريره، فيذكر أن تخريب أسوار القُدْس أدَّى إلى هجرة السُّكَّان، وأنَّه حَدَثٌ استعظمه المُسلمون، وتأسَّفوا على خرابه[3].

بينما عَدَّ الفرنج تدمير المُعظَّم للقُدْس رَدَّاً منه على حصارهم لدمياط، يقول رُوجر ويندوفر بأنَّ الملك المُعظَّم: "كان رجلاً قاسياً وشرِّيراً، قد قام انتقاماً منه لحصار دمياط بتدمير مدينة القُدْس الشهيرة تدميراً كُلِّيّاً"[4]، فلم يفهم رُوجر تصرُّف المُعظَّم على أنَّه دفاع وقائي. ويقول فيليكس فايري: "قام المُعظَّم، فحشد، وزحف على القُدْس، فدمَّرها تدميراً كُلِّيّاً، باستثناء هيكل الرَّبِّ، وبُرج داود، ثُمَّ حاصر، واستولى على بعض القلاع الصَّليبيَّة"[5]. إنه تحديد أكثر دقَّة من فيليكس فابري، يدلُّ على اطِّلاع أكبر على واقع الحال في فلسطين أثناء الحملة الخامسة. كما تحدَّث عن هُجُوم المُعظَّم في فلسطين مُقدَّم الدَّاويَة، الذي كان يُقيم مُعسكره في عتليت، فيقول في إحدى رسائله: "إن المُعظَّم حشد جيشاً كبيراً، ولمعرفته بأنَّ عكَّا وصُور لم تكونا مُزوَّدتَيْن بما يكفي من الفُرسان والجُنُود للتصدِّي له، قام ـ بشكل مُستمرٍّ ـ بإلحاق الأذى الشديد بهذَيْن المكانَيْن . . وغالباً ما جاء، ونصب مُعسكره أمام مُعسكرنا، مُلحقاً بنا كُلَّ أنواع الأذى، كما حاصر قيسارية، واستولى عليها"[6]، ويُضيف مُقدَّم الدَّاويَة في رسالته إلى أُورُوبا شارحاً ما يفعله الملك الأشرف، وما يتوقَّع منه من خطر مُستقبلي إذا

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 32.
2 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 758.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 32.
4 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 758.
5 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1160.
6 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 786.

تفرَّغ من قتال أعدائه في المناطق الشَّرقيَّة، عندها "يُمكن أن يلتفت نحو أنطاكية، أو طرابلس، أو عكّا، أو مصر، وسوف تكون في الخطر الأعظم إذا كان سيتولَّى حصار أيٍّ واحدة من قلاعنا؛ لأنَّنا لن نستطيع ـ بأيِّ حال من الأحوال ـ دَفْعَهُ، أو إبعاده"، ويُتابع مُقدَّم الدَّاويَة قائلاً: "هذا؛ والحديث عن خلافات بين المُسلمين يمنحنا السُّرُور والراحة"[1]، إنَّه يشعر بخطر انضمام الأشرف للحرب ضدَّهم، ويتمنَّى أن تتحقَّق الشائعات التي تتردَّد عن وُقُوع خلافات بين المُسلمين، فلا شيء يُسعده أكثر من ذلك، كُلُّ هذا والسُّلطان العادل يُدير الهجمات المُعاكسة ضدَّ الفرنج في الشَّام، ويُوالي إرسال الإمدادات إلى ابنه الملك الكامل في مُواجهة الفرنج على دمياط.

الفرنج أمام دمياط:

في عام **615** هـ **1218**م، أرست الحملة الفرنجيَّة أمام دمياط، ونزلوا على برِّ الجيزة المُقابل للمدينة التي يحجزها نهر النيل عنهم، "فبنوا سُوراً، وجعلوا خندقاً، وجعلوا آلات ومرمات وأبراج"[2]. وكان الكامل قد خرج بقُوَّاته من القاهرة، وعسكر مُقابل الفرنج على برِّ دمياط في العادلية[3]، ولم يحصل أيُّ احتكاك بين العسكرَيْن، فالفرنج محجوزون على العدوة الأُخرى من دمياط بواسطة بُرج السلسلة، وهذا البُرج كان قد بناه العزيز بن السُّلطان صلاح الدِّين عام **592** هـ **1196**م، فقد نقض حجارة من الأهرام، ونقلها عبر النيل إلى دمياط[4]، وبنى البُرج وسط النيل؛ لتمتدَّ منه سلسلتان فوق مياه النيل لمَنع عُبُور المراكب نحو دمياط، وتُغلق السلسلتان فرعَ دمياط بأكمله، ولذلك سُمِّي هذا البُرج: قُفْل البلاد[5].

ولكن الفرنج لم يتوقَّفوا أمام هذا الحاجز، فقد جهَّزوا السُّفُن بشكل أبراج مُدرَّعة، وقاموا بالهُجوم على البُرج بشكل مُكثَّف، وحامية البُرج تُقاوم هجمة إثر أُخرى. في هذه الأثناء؛ لم يقف الكامل موقف المُتفرِّج، فقد نظَّم حملتَيْن، قام بهما الجيش المصري في البرِّ والبحر ضدَّ مُعسكر الفرنج،

---

1 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 45/ 786 .
2 - الكامل في التاريخ، ابن كثير، 12/ 323.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 3/ 260.
4 - المنصُوري، ابن نظيف، 5.
5 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 20/ 210.

لكنَّهما رُدَّتا[1]، ويبدو أنهما قوَّتا استطلاعاً للاحتكاك بالعدوِّ، وتقدير قواه، وفاعليَّته. وفي الوقت نفسه؛ فقد وجد الفرنج أن الخندق الذي أقاموه حول مُعسكرهم قد أنقذهم من حيثُ لا يدرون عندما فاض نهر النيل، وإلاَّ لجرف النهرُ المُعسكرَ بكامله[2].

وبعد أربعة أشهر كاملة من الهجمات الفرنجيَّة المُركَّزة على بُرج السلسلة تمكَّن الفرنج من احتلال البُرج، وقطعوا السلاسل[3]، وانفتح طريق دمياط أمامهم، فأسرع الكاملُ، ونصب عوضاً عن السلاسل جسراً عظيماً من السُّفُن، فقاتل الفرنج عليه، حتَّى قطعوه، فأغرق الكاملُ عدَّة مراكب في النيل قبالة دمياط، وزرَّع عدَّة أوتاد فيه، فأعاقت الملاحة، وحصَّن ضفَّة النهر التي يُعسكر عليها بخنادق وسواتر تُرابية وخشبية، تحميها المنجنيقات[4]، فقام الفرنج بفتح مجرى قديم للنيل، فحفروه، وعمَّقوه، وأجروا الماء فيه، فوصلت مراكبهم عبره إلى مُقابلة مُعسكر الكامل عند موضع يُسمَّى بورة، فهاجموه غير مرَّة، ولكنْ؛ بلا طائل[5]، وكان عدد كبير من الحُجَّاج قد وصل مَدَداً للحملة الفرنجيَّة من مُختلف أنحاء أُورُوبا[6].

وصل الخبر إلى السُّلطان العادل بسُقُوط بُرج السلسلة، فثقل الأمر عليه، واشتدَّ كَرْبُهُ، ولم يحتمل قلبه انتكاسة تُطيح بدولة أمضى عُمره، وبَذَلَ فوق ما يستطيع إنسان لبنائها، فمات بنوبة قلبية عام **615** هـ **1218**م[7]. وبموته؛ ساد الهُدُوء على جبهة الشَّام[8]، فقد تراجعت الجُيُوش الأيُّوبيَّة التي كانت تُهاجم في عُمق أراضي الفرنجة، وانسحبت نحو قواعدها، فكُلُّ أمير، أو ملك، يُريد أن يكون ترتيب مرحلة ما بعد السُّلطان العادل تُناسبه أكثر، وتحميه أكثر. إن الضعف الذي اعترى الهجمات الأيُّوبيَّة في الشَّام يُعَدُّ جانباً قليل الأهمِّيَّة تجاه ما أصاب صُمُود الجيش الأيُّوبي في مصر. يقول ابن كثير حول أثر موت السُّلطان العادل: "فضعفت نُفُوس الناس؛ لأنَّه السُّلطان حقيقة، وأولاده،

---

1 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 45/ 759.
2 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 45/ 759.
3 - الكامل في التاريخ، ابن كثير، 12/ 324.
4 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 45/ 763.
5 - الكامل في التاريخ، ابن كثير، 12/ 324، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 15.
6 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 45/ 759.
7 - الكامل في التاريخ، ابن كثير، 12/ 324.
8 - لُبنان من السُّقُوط بيد الصليبيين حتَّى التحرير، د. عُمر تدمُري، 225.

وإنْ كانوا مُلُوكاً، إلاّ أنّهم بحُكْمه، والأمر إليه، وهُو ملَّكهم البلاد"[1]. ويبدو أن أكبر المُتضرِّرين من موت السُّلطان هُو ابنه الكامل، يقول ابن واصل: "عظم على الملك الكامل موت والده جدّاً، في هذا الوقت الصعب، وخاف أن يتخلَّى عنه إخوته، ولا يطيق دفع الفرنج عن مصر"[2]. ولكن الذي حدث كان أسوأ ممَّا توقَّع الكامل، فقد وصله أن أحمد بن علي المشطوب، وهُو من أكبر أُمراء العَسْكَر، يُدبِّر للقبض عليه، وتنصيب أخيه الفائز مكانه[3]، فأُسقط بيد الكامل، ونسي الفرنجَ، ونسي دمياطَ، ولم يتذكَّر سوى نفسه، ففرَّ برُوحه من "المُعسكر ليلاً جريدة، ونزل اشموم طناح، فأصبح العَسْكَر، وقد فقدوا سُلطانهم، فركب كُلاً منهم هواه، ولم يقف الأخ على أخيه، وتركوا أثقالهم وأموالهم وأسلحتهم إلاّ ما خفَّ حمله، ولحقوا بالكامل، فعبر الفرنج إلى برِّ دمياط، وملكوه، وغنموا كُلَّ ما كان في مُعسكر المُسلمين، وأحاطوا بدمياط برّاً وبحراً، وضيَّقوا عليها"[4].

لقد كانت ردَّة فعل الكامل حَرَكَة عفوية، رُبَّما لم يُسعفه خاطره بغيرها، فهي إنْ دلَّت على شيء، فإنَّها تدلُّ على قُوَّة ابن المشطوب في الجيش، ومدى نُفُوذه فيه، حتَّى إن ملك البلاد لم يتمكَّن من اتِّخاذ أيِّ تدبير ضدَّه، وما ملك من أمر نفسه إلاّ الهرب من المُعسكر؛ حيثُ مركز قُوَّة خصمه. ولكنَّها تدلُّ ـ بشكل أكبر ـ على أن مصلحة البلاد هي آخر ما كان يُفكِّر فيه القادة، فابن المشطوب رتَّب مُؤامرته مُتغاضياً عن الخطر المُحدق بالبلاد، ورُبَّما كان مُستعدّاً ليُخلي بين دمياط والفرنج إذا نجح، وكذلك الملك الكامل، فقد ترك الجيش، الذي هُو أمل البلاد الوحيد، بلا قائد، ونجا برُوحه مرعوباً إلى درجة أنَّه فكَّر بمُغادرة أرض مصر[5]، وكاد أن يُفارقها فعلاً خوفاً من عسكره، وعندها "كان الفرنج ملكوا الجميع بلا تعب، ولا مشقَّة"[6]، لولا أن وصل المُعظَّم عيسى من الشَّام، فثبَّت الملك الكامل، وأجبر ابن المشطوب على مُغادرة مصر.

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن كثير، 12/ 324.
2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 15.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 17.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 17 ـ 18، راجعْ وصف طبيعة دمياط، ومواقع تمركز الفرنجة في: المواعظ والاعتبار، المقريزي، 1/ 403 .
5 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 314.
6 - الكامل في التاريخ، ابن كثير، 12/ 325.

ولكنْ؛ كيف تصوَّر الفرنج عملية إخلاء المُسلمين لمُعسكرهم بشكل مُفاجئ؟ لم يكن الفرنج يعرفون أيَّ شيء ممَّا يجري داخل مُعسكر المُسلمين، لذلك فسَّروا الأمر على أنَّه هُرُوب للمُسلمين نتيجة لخوفهم من الفرنجة. فقد كان المُسلمون يُشكِّلون دفاعات قويَّة أمام عُبُور الفرنج نحو عدوة دمياط، وقد حاولوا اختراق هذه الدفاعات عدَّة مرَّات، لكنَّهم فشلوا، ويُعبِّر عن رأي الفرنجة الراهب رُوجر أُوف ويندوفر قائلاً: اصطفَّ جيش الفرنجة مُحاولاً العُبُور دُون فائدة، "لكنْ؛ في الليلة نفسها، سُلطان مصر وجيشه أصابهم الرُّعب، حتَّى إنَّهم تركوا خيامهم دُون علم المُسلمين المُواجهين للفرنج، ورأوا أن نجاتهم وسلامتهم هي بفرارهم"[1]، ويُتابع: بعد أن حاصر الفرنجة مدينة دمياط "من الجانب المُواجه للبحر، ولذا؛ فإن السُّلطان الذي كان مُعسكراً في الجانب الآخر من المدينة هرب مُبتعداً مع جيشه، وعبر جيشُنَا النهرَ، وحاصر المدينة"[2]. وفي الحقيقة؛ ليس الفرنج فقط، بل - رُبَّما - عدد كبير من المُسلمين في مُعسكر الكامل لم يعرفوا ما حصل، لذلك سيُفسِّر كُلٌّ منهم الحادثة على هواه.

لقد أَنهَتْ مُؤامرةُ ابن المشطوب أمرَ دمياط، وجعلت مسألة استيلاء الفرنج عليها مسألة وقت، فلم يكن الفرنج ليحلموا بما حصل، وحتَّى إنَّهم لم يُصدِّقوا أوَّل الأمر أن يترك المُسلمون مُعسكرهم بما فيه غنيمة باردة، ويتخلّوا عن مواقعهم ومعدّاتهم ومُؤنهم وأسلحتهم ليتزوَّد بها الفرنج. وممَّا زاد الأمر سُوءاً ما قام به البدو بعد رحيل العَسْكَر عن العادلية، فقد نهبوا ما حول دمياط، "وكانوا أشدَّ من الفرنج"[3]. ولكن الطامة الكُبْرَى كمنت في أن الجيش الأيُّوبي كان يُقاتل عن دمياط وهُو مُعسكر خارجها، فلمَا هربت العَسْكَر، ولحقوا بالملك الكامل إلى اشموم طناح، لم يدخل منهم أحد إلى دمياط، وتُركَت المدينة لتتولَّى الدفاع عن نفسها بإمكاناتها الذاتية[4] بعد أن حاصرها الفرنج من البرِّ والبحر، فقد عسكروا على أسوارها بقواهم البرِّيَّة، "وحفر الفرنج على مُعسكرهم المُحيط بدمياط خندقاً، وبنوا عليه سُوراً كعادتهم"[5].

---

1 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 763.
2 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1160.
3 - الكامل في التاريخ، ابن كثير، 12/ 326.
4 - الكامل في التاريخ، ابن كثير، 12/ 326.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 18.

بعد أن استقرَّ أمر الكامل في مُعسكره الجديد جاءته النجدات، وتخلَّص من ابن المشطوب، فالتفت إلى دمياط، وقام بهجمة مُعاكسة كبيرة، فاستولى على مكان عُبُور الفرنج إلى عدوة دمياط، وحاصرت عساكرُهُ الفرنجَ المُحاصرين لدمياط[1]، يقول ابن واصل "وأصبحت حال دمياط كما كانت حال عكّا أيّام صلاح الدِّين"[2]. ويبدو أن الكامل لم يقتنع بمُجرَّد حصار المُحاصِرين، بل قام جيشه بهجمات شرسة على الفرنج، يقول الراهب رُوجر أُوف ويندوفر: "ألقى المُسلمون أنفسهم كُتلة هائلة على الخندق من جميع الجهات، واحتلُّوا جسر الدَّاويّة ومواقع دُوق النمسا، وقاتلوا الفرنج بشجاعة نادرة، وأحرقوا الجسر"[3]، ثُمَّ قام جُند الشَّام القادمون في نجدة مع الملك المُعظَّم بهُجُوم مُباغت في خمسمائة راجل، يقودهم مُقدَّم اسمه الناهض بن الجرخي[4]، فهاجموا الخنادق التي حفرها الفرنج حولهم أثناء حصارهم لدمياط، وخاضوا معركة دامية، قُتلوا فيها جميعاً[5]، وقام الفرنج بصَفِّ رُؤُوسهم على الخنادق[6]، إنَّها هجمة يائسة، ولابُدَّ أن المُهاجين قد وطَّنوا أنفسهم على الشهادة؛ إذ إنَّه من المعروف سلفاً أن هكذا هُجُوم على مُعسكر الفرنج الشديد التحصين لا يُمكن أن ينجو منه أحد. ولم تتوقَّف هجمات القُوَّات الإسلاميَّة على مُعسكر الفرنج حول دمياط، يقول الراهب رُوجر أُوف ويندوفر: "وفي إحدى الهجمات عبروا الخندق، وسحقوا الدَّاويَة، وشقُّوا -بالقُوَّة- صُفُوفهم، وأرغموا الرّجَّالة الفرنج على الهرب، وبات الجيش كُلُّه في خطر، وتضاعف رُعب الفرنج، لكنَّ هُجُوماً مُضاداً قام به الدَّاويَة وبقيَّة الفُرسان الرُّهبان، فتراجع المُسلمون لمسافة قصيرة، ووقف الفرنج تحت السلاح. وفي هذا الوقت؛ جرى إحراق جميع مجانيق الفرنج وسلالمهم التي أقاموها في مُواجهة المدينة"[7]، إنَّه هُجُوم واسع سَحَقَ مُقاومة الفرنج، وكان له هدف مُحدَّد، نُجح فيه، وهُو تدمير معدَّات الحصار.

---

1 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 765.

2 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 19

3 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 765.

4 - كما يبدو ومن اسمه، فهُو من أُسرة تمتهن الجُندية.

5 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 304.

6 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار،20/ 224.

7 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 766.

وكما هُو مفروض، لم تقتصر الهجمات على جانب واحد، فقد قام الفرنجة - أيضاً - بهُجُوم كبير على مُعسكر المُسلمين، لكنَّه كاد أن يُودي بهم إلى كارثة حقيقيَّة، ويتحدَّث أبو شامة عن هذا الهُجُوم باختصار شديد على عادة مُؤرِّخي الإسلام، فيقول: "نزل الفرنج على شارمساح، فأخلى لهم المُسلمون الخيامَ، فطمعوا، ثُمَّ رجع عليهم الكامل، فكسرهم، وقتل منهم خلقاً كثيراً، فعادوا إلى دمياط"[1]، بينما نجد تفاصيل مُهمَّة عن هذه المعركة لدى الراهب رُوجر أُوف ويندوفر؛ حيثُ يقول: "هاجم الفرنج كُتلة واحدة مُعسكر المصريين، فتظاهروا بالفرار، ثُمَّ ارتدُّوا بعد توقُّف الجيش، وهاجموا الجناح الأيمن، فأظهر فُرسان قبرص الخوفَ، وهرب الرَّجَّالة الرُّومان، وبعدهم الفُرسان من مُختلف البُلدان وفُرسان الاسبتاريَّة"، ثُمَّ يتحدَّث عن مُطاردة رهيبة لفُرسان الفرنجة، أثقلتهم فيها دُرُوعهم، التي كوتهم تحت أشعَّة شمس مصر، فَمَنْ لم تَطَلْهُ السُّيُوفُ قَتَلَهُ العطشُ، ومنهم مَنْ ركض حتَّى انقطعت أنفاسه، ويقول إنَّه لولا صُمُود بعض القوى التي شكَّلت سُوراً للفارِّين لدُمِّرَت الحملة[2]، والغريب هُنا أن جيش المُسلمين لم يستثمر هذا الانتصار بهجمة مُعاكسة على مُعسكر الفرنج، ويُطوِّر المطاردة إلى معركة نهائية، رُبَّما كان أحد الأسباب هُو عدم وُجُود خُطَّة مُسبقة بذلك، أو عدم امتلاك المُبادرة لخُطوة كبيرة بهذا الشكل.

مع هذه الانتكاسة الكبيرة، فقد تابع الفرنجُ الحصارَ، ومُضايقة دمياط بشكل فعَّال، وانقضُّوا عليها من البرِّ والبحر، يقول ابن الأثير: "واشتدَّ الأمر على أهل دمياط، وصبروا صبراً لم يُسمَع بمثله"[3]. ويبدو أنَّه بعد تبادل الهجمات بين الفرنج المُحاصِرين لدمياط، والمُسلمين المُحاصِرين لهم حول دمياط، قد انعقدت هُدنة مُؤقَّتة، لم يجدها المُسلمون من صالحهم، فالوقت يمرُّ على دمياط، والمجاعة تفتك بها، لذلك قامت الجُيُوش الإسلاميَّة بهُجُوم كبير على الفرنج من البرِّ والبحر، تدعمهم المجانيق، وللتغلُّب على خندق الفرنج من أجل العُبُور إليهم، اتَّبعوا أُسلُوب طَمِّ الخندق بواسطة حزم كبيرة من الأخشاب حملوها معهم، ولكن وُصُول غلايين فرنجية في الوقت الحاسم أنقذ الفرنجة، وأفشل الهُجُوم[4]. واستمرَّ حصار الفرنج لدمياط، دُون أن يتمكَّن الكامل وعساكره

---

1 - ذَيل الرَّوضَتَين، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 217.

2 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 768 - 769.

3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 326.

4 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 770.

وعساكر النجدات التي قدمت إليه من تقديم العون اللازم إليها، "فنفدت الأقوات منها، واشتدَّ بأهلها الجُوعُ، حتَّى مات أكثرهم، وعجزوا عن المُدافعة"[1]، وأصبح سُقُوط المدينة أمراً مفروغاً منه، واختلفت الروايات بكيفية سُقُوطها، فقد قيل إنَّها سُلِّمَتْ بالأمان، بعد أن عجز أهلها عن حفْظها[2]، لكنْ؛ بعد الدفاع البُطُولي لأهل دمياط، نجد أن الأقرب لمنطق الأحداث رواية أُخرى تقول: إنَّه بعد أن ضعف أهل دمياط، وصلت نجدات كبيرة من البحر للفرنج، فهجموا على دمياط بغتة، واستولوا عليها[3]، في عام 616 هـ 1219م، بعد حصار استمرَّ 16 شهراً، و22 يوماً[4]، يقول الراهب فيليكس فابري: "عندما دخل الصَّليبيُّون دمياط، واجهوا رائحة نتن لا تُحتَمَل، صدرت عن جُثث الأموات، فهُناك رجال ونساء وأطفال قد جاعوا حتَّى الموت"[5].

لَّما شاهد الكامل من مُعسكره أعلامَ الفرنجَ ترتفع على أسوار دمياط بكى، وكان إلى جانبه أخوه المُعظَّم يبكي هُو الآخر، فالتفت إليه الكامل، وقال: "لقد فات ما ذبح، وما في مقامكَ هُنا فائدة، والمصلحة أن تنزل إلى الشَّام، تشغل خواطر الإفرنج، وتستجلب العَسْكَر"[6].

وتحرَّك الكامل بقُوَّاته مُبتعداً عن دمياط، فنزل على رأس بحر أشموم[7] اطناح، عندما يتشعَّب عن فرع دمياط[8]، وضرب مُعسكره في بُقعة، ستقوم عليها مدينة مكان المُعسكر وستُعرَف بالمنصُورة، نتيجة لنصر كبير قادم[9].

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 32.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 326، وذَيْل الرَّوضَتيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 224.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 33.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 319.
5 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1163.
6 - ذَيْل الرَّوضَتيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 229، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 304.
7 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 319.
8 - ابن دقماق، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، 5/ 71.
9 - يقول أحمد الحنبلي: إن الكامل عندما بنى المدينة أسماها المنصُورة. (شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 305).

الفرنج في دمياط:

"أقام الفرنج في دمياط، وشرعوا في عمارتها، وتحصينها، حتَّى إنَّها بقيت لا تُرام"[1]. وأمضوا عام 618 هـ 1221م، بكامله يُحصِّنون دمياط، ويزيدون في مَنَعَتها[2]، ويبثُّون السرايا حولها، ينهبون، ويقتلون[3]. ولمَّا بلغ الفرنج في أُورُبة أن إخوانهم ملكوا دمياط، "ساروا إلى مصر مُجدِّين، واتَّخذوها دار هجرتهم، وقدم منهم إلى دمياط أُمم لا تُحصَى"[4]، ولمَّا تكاملت جُمُوع الفرنج في دمياط، خرجوا منها في حَدِّهم وحديدهم، "ونزلوا قبالة المُسلمين في طرف جزيرة دمياط، التي يُحيط بها فرعا النيل، فرع دمياط، وفرع اشمون، الذي يفصل بينهم وبين المُسلمين[5]. وكان توقُّف الفرنج أمام مُعسكر المُسلمين فيه شيء كثير من التحدِّي والتصميم على الاقتحام، نظراً للحصانة الهائلة التي وجدوا عليها المُعسكر، فقد أقام المُسلمون سُوراً حول مُعسكرهم، وعليه الستائر، وآلات الحَرْب، وغربي السُّور البحر، وللمُسلمين عسكر نازلين في غربيه أمام الفرنج"[6]. إنَّه دفاع مثالي، مُعسكر مُحصَّن أمامه ساتر، وعائق مائي، تُدافع عنه قُوَّات مُتحرِّكة، إنَّها شجاعة كبيرة من الفرنج بتحدِّي هذا الموقع، لكنَّها ـ بالوقت نفسه ـ غفلة شديدة أن يضعوا أنفسهم بأسوأ المواضع، فهُم على شبه جزيرة، ليس لها إلاَّ منفذ واحد يربطها بالبرِّ نحو قاعدتهم الأساسية في دمياط، والسبب ـ على ما يبدو ـ أنَّهم كانوا مُفعمين بالاندفاع والتوثُّب، مع قدر كبير من عدم المهارة الحَرْبِيَّة، وجهل شبه تامّ بطبيعة أرض مصر، ونيلها.

مصر في مُواجهة الهُجُوم الفرنجي:

إن هذا الاندفاع العسكري للفرنج صوب قلب مصر كان له نتائج نفسية كادت أن تكون مُدمِّرة على أهل مصر، فقد بلغ بهم الخوف أنَّهم همُّوا بالجلاء عن بلادهم، "ولو مكَّنهم الكامل من

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 326.
2 - الحُرُوب الصَّليبيَّة، باركر، 108.
3 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 326.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 93، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 327، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 321.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 94.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 94.

ذلك لتركوا البلاد خاوية على عُرُوشها، وإنما مُنعوا منه، فثبتوا"[1]. ومِمَّا تجدر الإشارة إليه أنَّه في الوقت الذي كان فيه الفرنج يقتحمون بلاد مصر كان التَّتار يدقُّون أبواب العراق، وقلَّما اجتمع على أُمَّة من الأُمم خطرَيْن عظيمَيْن بآن معاً.

وكان بمُواجهة الفرنج في مصر الملك الكامل صاحب البلاد، يدعمه أخوه الملك المُعظَّم صاحب دمشق، الذي اعتبر هُجُوم الفرنج على مصر هُو همَّه الأوَّل، وعمل ـ فعلاً ـ كُلَّ ما بطاقته، دُون هوادة، حتَّى أمكن النصر. وإذا كان الكامل يُدافع عن مُلكه، فإنَّنا لا نستطيع إلاَّ أن نُقدِّر للمُعظَّم استماتته في الدفاع عن مصر، ورُبَّما نكون عاجزين عن تفسير موقفه بدوافع وطنية واضحة مُباشرة، لكنَّنا نجد لها تفسيراً وطنياً دينياً، فهُو يُدافع عن أرض الإسلام، فقد كان المُعظَّم يقول في مرضه الذي تُوفِّي فيه: "لي عند الله في أمر دمياط ما أرجو أن يرحمني به"[2]. كذلك كان الأشرف، في نجدته لمصر، يعتقد أنَّه يُؤدِّي فريضة الجهاد، فعندما نصحه بعض خواصِّه بالعودة إلى بلاده خوفاً من فتنة تحدث فيها، قال: "قد خرجتُ بنيَّة الجهاد، ولابُدَّ من إتمام هذا العزم"[3].

كانت الحملة الفرنجيَّة التي خرجت من دمياط برَّاً وبحراً من القُوَّة؛ بحيثُ "تيقَّنوا هُم وكُلُّ الناس أنَّهم يملكون مصر"[4]، ويبدو أن الملك المُعظَّم وأخوه الكامل قد أدركا حجم الخطر، فأرادا توسيع مسؤولية المُشاركة في دفعه، فلجأا إلى عامَّة الرعية؛ حيثُ أرسل الملك المُعظَّم إلى نائبه في دمشق سبط ابن الجوزي لاستنفار الناس في الشَّام، يقول الملك المُعظَّم في رسالته: "قد علم الأخ العزيز بأنَّه جرى على دمياط ما جرى، وأُريد أن تُحرِّض الناسَ على الجهاد، وتُعرِّفهم ما جرى على إخوانهم أهل دمياط من الكَفَرَة أهل العناد . . وأُريد أن تُخرج الدماشقة ليَذبُّوا عن أملاكهم، الأصاغر منهم، والأكابر، ويكون لقاؤنا وهُم صُحبتكَ نابلس"[5]. إنَّه النفير العامُّ بلا شكٍّ، ولكنْ؛

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 327.
2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 472.
3 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 93.
4 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 328.
5 - النُّجُوم الزَّاهرَة، ابن تغري بردي، 6/ 239 ووثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة، حمادة، 249 ومرآة الزَّمان، سبط ابن الجوزي، 6/ 239.

يبدو أنَّه كان للدماشقة رأي آخر، فقد "تقاعد الناس عن المسير"[1]، فهل كـان هـذا التقاعـد لعـدم إحساسهم بالخطر المُباشر؟ أم هُو عدم انسجام بين الشعب وحُكَّامه، فوجدوها فُرصـة - وإنْ كانـت غير مُناسبة أبداً - للخُرُوج على السُّلطة؟ رُبَّما كان الأصحُّ أن الاستعانة بجماهير الشعب تحتاج إلى علاقة مُتميِّزة بين الحُكَّام والناس، ليتمكَّنوا من جَرِّهم للدفاع عن بلد بعيد، حتَّى وإنْ كان فيه أُخـوة لهم، بينما يختلف الأمر في حال الخطر المُباشر، فكُلُّ مرَّة كانت تُحاصَر فيها دمشق من قبَل ملـك أيُّـوبي يُريد ضمَّها إليه، وبغَضِّ النظر عن المواقف السِّياسيَّة الأيُّوبيَّة، كـان العامَّـة في دمشق يُـدافعون عـن مدينتهم، ويُشاركون في التّصدِّي للحصار، ويتحمَّلون الأذى الأكبر من الحصار بالجُوع ونقص الموادّ وهدم البُيُوت. ولذلك كان الأمر في مصر مُختلفاً، فقد أرسل الملـك الكامـل لاسـتنفار جميـع النـاس، وحشدهم كرديف لجُنده في المنصُورة، فجمع الأُمراءُ كُلَّ قادر على القتال، "ما بـين القـاهرة إلى آخـر الحوف الشرقي، فاجتمع من المُسلمين عـالم لا يقـع عليـه حـصر"[2]، "وأمـر الكامـلُ أهـلَ مـصر والقاهرة بالخُرُوج إلى المنصُورة"[3]، ممَّا يُؤكِّد أنَّه قام بتعبئة شاملة لقوى مصر بكاملها، ولكن الكامل كان يأمل بدعم أقوى، فالحُشُود الشَّعْبيَّة سلاحٌ ذُو حَدَّيْن؛ لعدم تسليحها، ولـسُوء تنظيمهـا، لـذلك فكَّر بتعبئة الجُيُوش الأيُّوبيَّة الشاملة.

التعبئة الأيُّوبيَّة في دمياط:

"بعث الكامل إلى الآفاق سبعين رسولاً، يستنجد أهل الإسلام على قتـال الفـرنج، ويُخـوِّفهم من تغلُّب الفرنج على مصر، فإنَّهم متى ملكوها لا يمتنع عليهم شيء من الممالك بعدها"[4]، إن عـدد الرُّسُل المُتوجِّه لطلب النجدة يُوضِّح لنا الموقف الحرج، الذي شعر الكامل أنَّه يقفه في مُواجهة الحملة الفرنجيَّة، ولكنَّه - مع ذلك - لم يفقد الأمل، وأصرَّ على طلب النجدات لخوض المعركة الفاصلة.

وكان أهمُّ رُسُل الكامل وأكثرهم انعقـاداً للآمـال عليـه هُـو رسـوله إلى الخليفـة العبَّـاسي في بغداد، ولمَّا وصلت نجدة الخليفة، مع أنَّها لا تُناسب آمال الملك الكامل، كانت مُناسبة لعزيمة خليفـة

---

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 305.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 321.
3 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 303.
4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 314.

العصر، فكُلُّ ما وصل منه هُو كُتُبٌ إلى المُلُوك تطلب النجدات للكامل، وكأن هؤلاء المُلُوك ينتظرون إشارة الخليفة، أو أن الكامل لا يستطيع أن يُخاطبهم مُباشرة، ولكنْ؛ هل كان بيد الخليفة أن يفعل غير ذلك؟ نعتقد أنَّه كان قادراً على المُساعدة بشكل أفضل، ففي ظُرُوف الخطر المُباشر التي تعرَّض لها الخليفة كان يُخرج الأموال المكنوزة، ويُجنِّد الجُيُوش.

أمَّا مُلُوك بني أيُّوب؛ فكان أقواهم الملك الأشرف صاحب الجزيرة، وكانت استغاثات الكامل تصله مُباشرة، وأحياناً؛ عبر أخيه الملك المُعظَّم، مُنْذُ بدايات الحملة على دمياط عام **616 هـ 1219م**، لكنَّه كان في شُغل شاغل لتوطيد مُلكه في شمال الشَّام، خاصَّة بعد موت الملك العزيز صاحب حلب[1]. ولمَّا استقامت الأُمُور للملك الأشرف عام **618 هـ 1221م**، سار بعسكره إلى مصر لنجدة الملك الكامل، فوصل والفرنج قد خرجوا من دمياط نحو داخل مصر[2]. كان الأشرف أوَّل القادمين، وقد اصطحب معه الملك النَّاصر قليج أرسلان صاحب حماة، يقود نجدة حماة[3]، وكان أخوه الملك المُظفَّر تقي الدِّين مُحمَّد قد سبقه عام **616 هـ 1219م**، يقود نجدة من حماة في عهد والدهما الملك المنصُور[4]، كذلك وصل الملك المُجاهد صاحب حمص، والملك الأمجد صاحب بعلبك مع قُوَّاتها، ونجدة من عسكر حلب، وكان آخرهم وُصُولاً الملك المُعظَّم صاحب دمشق، الذي رغب أن يتحرَّك الجميع أمامه نحو دمياط، بعد أن جهد باستنفارهم[5].

الملك الكامل يطلب الصُّلح:

بعد خُرُوج الجيش الفرنجي من دمياط، تقدَّم جنوباً برَّاً وبحراً، حتَّى "اكتشفوا وُجُود السُّلطان وجيشه، فعسكروا مُقابله، وأقاموا الجُسُور للعُبُور"[6]، في هذه الأثناء؛ كانت النجدات قد تكاملت في مُعسكر السُّلطان الكامل، فتقدَّمت عساكره "إلى بحر المحلَّة، وازدادوا قُرباً من الفرنج،

---

1 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 121، والكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 327.

2 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 328، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 321.

3 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 129.

4 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 319.

5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 129، والسُّلُوك، المقريزي، 1/ 321، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 306، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 92 ـ 93.

6 - رسالة مُقدَّم الدَّاويَة في: وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكَّار، 45/ 789.

وقاتلوهم، وتقدَّمت شواني المُسلمين، وقاتلت شواني الفرنج، فأخذوا منها ثلاث قطع بمَنْ فيها، ففرح المُسلمون، وتفاءلوا، وقويت نُفُوسُهُم، واستطالوا على عدوِّهم"[1]. ومن غرائب الأُمُور أن السُّلطان الكامل عندما تكاملت لديه النجدات، وقويت نفسه بأُخوته وآل بيته واجتماع الحُشُود حواليه، يُرسل إلى الفرنج طالباً الصُّلح[2]، على شُرُوط مُجحفة بحقِّ المُسلمين، ولا يستحقُّها الفرنجة مع أَخْذهم لدمياط، فقد لاحت بوادر التمكُّن من التّصدِّي لتقدُّم الفرنج، إنْ لم نقلْ بوادر النصر، التي يُعبِّر عنها ابن آيبك بقوله: "واشتمُّوا روائحَ النصر"[3]، فالصدامات العسكريَّة ـ بمُعظمها ـ كانت لمصلحة المُسلمين، ومع ذلك؛ عرض الكامل أن يُسلِّم الفرنجُ القُدْسَ وعسقلانَ وطبريةَ وصيدا وجبلةَ واللاذقيةَ؛ أيْ جميع الفُتُوح الصَّلاحيَّة، ما عدا الكَرَك والشوبك، مُقابل التَّخلِّي عن دمياط، ورحيلهم عن مصر[4].

ويُضيف رُوجر ويندوفر إلى عرض الكامل: تسليم الصليب المُقدَّس، وإطلاق جميع الأسرى الفرنج في مصر والشَّام[5]، علماً أن أيّاً من المُؤرِّخين المُسلمين لم يذكر شيئاً عن هذَيْن الشرطَيْن.

وكان الأغرب من عرض الكامل هُو رفض الفرنج للعرض، ويبدو أنَّهم كانوا يرفضون فكرة الصُّلح أصلاً، فقد كانت قُوَّتهم في أوجها، وأصداء احتلال دمياط وانسحاب المُسلمين أمامهم كلها عوامل تدفعهم للتعنت أملاً بنصر كبير يُمكنهم من مصر كلها. فطلبوا استعادة الكَرَك والشوبك، وهي في عُمق الشَّام، وتقطع الطريق ما بين مصر والشَّام، وتقترب بالفرنج من الحجاز؛ حيثُ مُقدَّسات المُسلمين، وردَّ الفرنج على رُسُل الكامل: "لا نُسلِّم دمياط حتَّى تُسلِّموا ذلك كُلَّه، فرضي الكامل"[6]، فامتنع الفرنج، وطلبوا ثلاثمائة ألف دينار لعمارة القُدْس[7]. ويحار الباحث في أمر الكامل، سُلطان المُسلمين، والحاكم على أكبر قُوَّة لهم تجتمع عنده مُنْذُ أيَّام صلاح الدِّين، لماذا كان

---

1 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 328.
2 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 129.
3 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 209.
4 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 94، وشفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 306، والمُختصر، أبو الفداء، 3/ 129.
5 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، 43/ 1162.
6 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 321.
7 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 329، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 94، ـ ويقول المقريزي إنَّها خمسمائة ألف (السُّلُوك، المقريزي 1/ 321).

لديه هذا الاندفاع إلى صُلح غير مُشرِّف؟ هل هُو خوف مُتأصِّل في نفسه؟ أم أنَّه كان يلمس خطراً حقيقيَّاً من أَخْذ الفرنج لمصر؟ رُبَّما كان خوفه في الحقيقة من عساكر ومُلُوك المُسلمين المُجتمعين عنده أكبر من خوفه من الفرنج، ويُؤكِّد ذلك ابن أيبك بقوله: "كان الكامل مُجتهداً على الصُّلح خوفاً من أُخوته المُلُوك"[1]، وهذا هُو المُبرِّر الوحيد الذي نستطيع أن نستنتجه من تهالكه على الصُّلح. لكنَّ الفرنج فوَّتوا عليه الفُرصة بتعنُّتهم، ورفضهم لعرضه، فكانوا كُلَّما وافق لهم على طلب طلبوا غيره، وفي الحقيقة؛ جاء رفض الفرنج لعرض الكامل من القائد الأعلى للحملة بيلاجيوس النائب البابوي، وقد أيَّده في هذا الرفض بطريرك القُدْس والأساقفة، وطوائف الرُّهبان العسكريَّة الدَّاويَة والاسبتاريَّة، إضافة إلى البنادقة والجنوية وجميع الإيطاليين. مُقابل هؤلاء كان يُوحنَّا دي برين ملك القُدْس وجميع نُبلاء المملكة، مع دُوق النمسا والقادة الألمان، قد وافقوا على عرض الكامل، وقبلوا به، ولكنْ؛ لم يتمكَّنوا من فرض رأيهم[2]. وفي الحقيقة؛ كان أتباع كُلِّ رأي ينطلقون من مصالحهم الخاصَّة، فبلاجيوس يُريد أن يضمَّ مصر بعد دمياط إلى أملاك البابا، ومن الطبيعي أن يُؤيِّده رجال الكَهَنُوت وطوائف الرُّهبان، أمَّا الإيطاليون؛ فكانوا يُريدون مصر لإقامة مراكز تجارية فيها، وبالمُقابل؛ فيُوحنَّا دي برين يُريد استرجاع مملكته المفقودة، ودمياط لا تعني له شيء، لذلك يقول فيلكس فابري: "فما كان بإمكان شَرَه رجال الكَنيسَة، والنّهم الذي لا حُدُود له للتُّجَّار الذين تولّوا تدبير الحملة، جلب الأُمُور إلى نهاية سعيدة"[3].

معركة المنصُورة الأُولى[4]:

لكُلِّ ذلك؛ فشلت مُحاولات الكامل بالصُّلح، واستمرَّ القتال بوتيرة مُتصاعدة، ويبدو أن نيَّة القتال كانت مُتوفِّرة لدى كافَّة أُمراء وجُند المُسلمين خلافاً لرغبة الكامل، فعندما أبلغ الفرنجُ رُسُلَ المُسلمين رَفْضَهُم لشُرُوط الصُّلح، غادروا "وهُم مسرورون جدَّاً"[5]، وسيطرت على الجميع إرادة

---

1 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 209.
2 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1162.
3 - جولات ورحلات، الراهب فيليكس فابري، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 43/ 1162 ـ 1163.
4 - تعارف المُسلمون على تسمية هذه المعركة بالمنصُورة الأُولى (شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 226)، تمييزاً لها عن معركة المنصُورة الثَّانية، التي وقعت ـ بعدها ـ بين الفرنج بقيادة لويس التَّاسع والملك الصَّالح أيُّوب وابنه المُعظَّم تُورانشاه.
5 - وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 773.

القتال، وحَسْم الأمر عسكريّاً، "واشتدَّ القتال برّاً وبحراً، واجتمع من رجالة المُسلمين في المنصُورة ما لا يقع عليه الإحصاء، فكانوا يُنكون في العدوّ أكثر من نكاية الجُند"[1]، وانقطع طريق الإمداد عن الحملة، فقد "أنزل السُّلطانُ الكاملُ على ناحية شار مساح ألفَيْ فارس، في آلاف من العُربان، ليحولوا بين الفرنج وبين دمياط. وسارت الشواني ومعها حرَّاقة كبيرة إلى رأس بحر المحلَّة، وعليها الأمير بدر الدِّين بن حسُّون، فانقطعت الميرة عن الفرنج من البرِّ والبحر"[2]. ويصف مُقدَّم الدَّاويَة في الحملة هذه الحال في رسالته إلى أُورُوبا، فيقول: "قطع المُسلمون النهرَ بالغلايين، والبراكيس التي احتلّته، ومُنع التموين من البحر، وكذلك من البرّ"[3]، إنَّه ـ في الواقع ـ حصارٌ كاملٌ للحملة، وليس ـ فقط ـ قطع إمداداتها بالتموين، فقد عُزلت عن دمياط، وعن البحر، وأُورُوبا، فلا نجدات، ولا أخبار، وأيُّ حَرَكَة الآن للحملة يجب أن تتمَّ بالقتال.

إضافة إلى أن المُسلمين قد تزوَّدوا بإمدادات الفرنج عندما استولوا على سُفُن الدعم القادمة من دمياط إلى الحملة[4]، فقد استولى المُسلمون على ثلاث قطع بَحْريَّة فرنجية، بما فيها[5]، ومن ثَمَّ؛ حضر مركب عظيم يُسمَّى مرمة، تحرسه عدَّة حراقات مملوءة بالميرة والسلاح، فظفر المُسلمون بهم[6]، وتمَّت الخُطوة الأخيرة للإجهاز على الفرنج، عندما عبر جماعة من المُسلمين بحرَ المحلَّة إلى الأرض التي عليها الفرنج، " ففجَّروا فجرة عظيمة في النيل، وهُو في قُوَّة زيادته، والفرنج لا خبرة لهم بأمر النيل، فركب الماءُ أكثرَ تلك الأرض"[7]، "ودار بهم الماء من كُلِّ جانب، ولا مراكب تطيق العُبُور إليهم لعظمها"[8]، "وفُقدت حيوانات الحمولة والحاجيات، واعتُقل الجيش وسط المياه مثل سمكة"[9]. عندها؛ اشتدَّت الهجمات عليهم، "وعظمت نكاية المُسلمين بهم برميهم بالسهام،

---

1 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 95.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 320.
3 - رسالة مُقدَّم الدَّاويَة في: وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 790.
4 - السُّلُوك ، المقريزي، 1/ 321.
5 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 95.
6 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 96.
7 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 96.
8 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 210.
9 - رسالة مُقدَّم الدَّاويَة في: وُرُود التَّاريخ، روجر أوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 790.

وحملهم على أطرافهم"[1]، ولم يجد الفرنج مخرجاً من هذا الوضع إلاَّ "بطلب الأمان فقط، مُقابل دمياط"[2]، "وأُلقي في قُلُوبهم الرُّعب والذِّلَّة، بعد ما كانوا في غاية الاستظهار والعَنَت على المُسلمين"[3].

عرض الملكُ الكاملُ طلبَ الفرنج على أُخوته، فقال الملك الأشرف: "لا نقبل منهم، ونقتل هؤلاء الملاعين أجمعهم، فإن هؤلاء هُم دين النصرانية كُلّه"، وأيّده في ذلك الملكُ المُعظَّمُ[4]، وكان هذا رأي مُعظم المُلُوك[5]، لكنَّ الكامل كان له رأي آخر، فقال: "ليس هذا برأي، ولا مصلحة، هؤلاء كبار دين الصليب ومُلُوك الأرض، والفرنج كثير، وإلى الآن؛ دمياط بأيديهم، ومتى قتلناهم، لابُدَّ أن يأتوا برّاً وبحراً"[6]. فأيُّ الآراء كان فيه المصلحة الحقيقيَّة؟ لقد رأى مُعظم المُلُوك أن الفرنج بجَمْعهم قد فَتَكَ بهم المرضُ والمجاعةُ، ولذلك كان يكفي حصارهم ومُناوشتهم، فَمَنْ لا يُقتَل منهم سوف يموت وحده. ولكنْ؛ هل كانوا ـ فعلاً ـ هُم كُلَّ الفرنجة، كما قال الأشرف. في الحقيقة؛ لم يكونوا كذلك، وما هي إلاَّ حملة يُمكن لفرنج أُورُوبا أن يُجهِّزوا عدَّة حملات مثلها، وهُنا نرى الكامل على حقّ. إضافة إلى أن دمياط فعلاً كانت قد أصبحت قلعة لا تُرام[7]، كذلك كان من حُجج الكامل لقبول الصُّلح تململ العَسْكَر لطُول مُدَّة الحَرْب، التي تجاوزت ثلاث سنين، فقد قال: "وأصحابنا في هذا الوقت قد سئمت نُفُوسهم من القتال، وكَلُّوا، وإنَّهم ـ والله ـ لمعاذير في ذلك"[8]. ومع كُلِّ ذلك فلو تمتَّع الكامل برُوح الصبر والمُثابرة، وتجاوز خوفه وشُكوكه، لرُبَّما تضاعفت خسائر الفرنج البشرية، وحصل منهم على تنازلات أكثر من دمياط، التي كانت كُلَّ همِّه، يقول أبو شامة مُعترضاً على قرار الكامل بالصُّلح: "ولو أقاموا يومَيْن أخذهم برقابهم"[9]، ويقول أحمد الحنبلي:

---

1 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 327.
2 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 306.
3 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 327.
4 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 211.
5 - المُختصر، أبو الفداء، 3/ 130.
6 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 211.
7 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 330، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 99.
8 - كَنز الدُّرر، ابن أيبك، 7/ 211.
9 - ذَيل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زكّار، 20/ 248.

"لو أمهلهُم يومَيْن، لأخذهم قسراً"[1]، ولكنْ؛ "مازال الكامل قائماً في تأمين الفرنج، إلى أن وافقتْهُ بقيَّة المُلُوك"[2].

عُقِدَت جلسة الصُّلح بحُضُور المُلُوك من آل أيُّوب، الملك الكامل، وإخوته الملك الأشرف والملك المُعظَّم، والملك المُجاهد صاحب حمص، وصاحب حماة، وغيرهم، ومن الفرنج حضر الجلسة كرهائن لتسليم دمياط: ملك القُدْس حنَّا دي برين[3]، ونائب البابا الكاردينال بيلاجيوس[4]، والكُونت لويس[5] دُوق بافاريا[6]، ثُمَّ أرسل الكامل نُوَّابه لاستلام دمياط ومعهم مندوبون عن الحملة والرهائن، "فحاول أسقف عكَّا والمُستشار وهنري كُونت مالطا القادم حديثاً الدفاع عن المدينة، وبحثوا عن وسائل وجُنُود للدفاع، فلم يجدوا، فخضعوا للاتِّفاقية"[7]، وتمَّ تسليم المدينة للمُسلمين، "فأطلق الملكُ الكاملُ المُلُوكَ الفرنجيَّة"[8]، وكان يوم تسليمها يوماً مشهوداً[9]، غادرت ـ بعده ـ بقايا الحملة أرضَ مصر، بعضهم في البرِّ، وبعضهم في البحر، إلى عكَّا[10].

إن ما نستنتجه من مُجريات هذه الحملة، التي هي نموذج مثالي للحملات الفرنجيَّة على الشَّرق، هُو عُقم المشروع الفرنجي لاحتلال الشَّرق الإسلامي، واستحالة تطبيقه، رغم توظيف أُورُوبة لكُلِّ طاقاتها لتحقيقه. كما نُلاحظ أنَّه متى توفَّرت النيَّة الصادقة في الدفاع عن الأرض، مع القُدرة على توحيد الإمكانات المُتاحة، فإن المُدافع عن أرضه وحقِّه في الوُجُود لابُدَّ وأن يكون هُو المُنتصر في النِّهاية.

---

1 - شفاء القُلُوب، أحمد الحنبلي، 306.
2 - السُّلُوك، المقريزي، 1/ 328.
3 - كان المُسلمون يُطلقون عليه اسم: الملك النَّوَّام.
4 - كان المُسلمون يُطلقون عليه اسم: اللَّكَّاف.
5 - كان المُسلمون يُطلقون عليه اسم: كندريس، أو: كندريش، أو: كند البرنش.
6 - الكامل في التاريخ، ابن الأثير، 12/ 330، ومُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 97، والمنصُوري، ابن نظيف، 93.
7 - رسالة مُقدَّم الدَّاويَة في: وُرُود التَّاريخ، رُوجر أُوف ويندوفر، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 45/ 791.
8 - المنصُوري، ابن نظيف، 93.
9 - مُفرِّج الكُرُوب، ابن واصل، 4/ 98.
10 - ذَيْل الرَّوضَتَيْن، أبو شامة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، 20/ 248.

الحملات الفرنجيَّة على الشَّرْق

الحملة الشَّعْبيَّة: قامت عام: **488 هـ ـ 1095م**، قادها بُطرُس الناسك، وقضى عليها الأتراك في الأناضول.

الحملة الأُولى: جرت خلال أعوام: **489 ـ 501 هـ 1096 ـ 1099 م**، وقد دعا إليها البابا أُورُوبان الثَّاني، احتلَّت الرُّهَا والقُدْس وجُزءاً من الساحل السوري.

الحملة الثَّانية: قامت إثر سُقُوط الرُّهَا، وشارك فيها كُونراد الرَّابع الألماني ولويس السَّابع الفرنسي، وانتهت بحصار فاشل لدمشق.

الحملة الثَّالثة: جرت خلال أعوام: **558 ـ 588 هـ ـ 1189 ـ 1192 م**، على إثر سُقُوط القُدْس، شارك فبها فريدريك بارباروسا، وفيليب الثَّاني، والملك ريتشارد، وانتهت بمُعاهدة صُلح بعد احتلال عكَّا.

الحملة الرابعة: قامت عام: **600 هـ ـ 1204م**، احتلَّت القسطنطينيَّة.

الحملة الخامسة: جرت خلال أعوام: **461 ـ 618 هـ ـ 1217 ـ 1221م**، قادها الكاردينال بيلاجيوس نائب البابا، احتلَّت دمياط، ثُمَّ تخلَّت عنها، بعد هزيمة قاسية.

الحملة السادسة: جرت خلال أعوام: **562 ـ 626 هـ ـ 1228 ـ 1229م**، وهي حملة استعراضية قام بها فريديك الثَّاني، وقد حصل على القُدْس باتِّفاقه مع السُّلطان الكامل.

الحملة السابعة: جرت خلال أعوام: **646 ـ 652 هـ ـ 1248 ـ 1254م**، قادها الملك الفرنسي لويس التَّاسع، احتلَّ دمياط، ثُمَّ هُزم، وأُسر.

خاتمة

بعد هذه الجولة ضمن عالم العلاقات الدّوليّة في عصر الحُرُوب الصَّليبيّة تبرز أمامنا ـ الآن ـ تساؤلات عدَّة، قد تُوصِلنا إلى استنتاجات هامَّة، ولكنَّها ـ في الوقت نفسه ـ تطرح إشكاليات أهمّ، فبالإضافة إلى حساسية هذه الإشكاليات وخُصُوصيَّتها، فقد تُشكِّل نقاط خلاف كُبْرَى في الرأي، إذا لم تُعالَج بمنهج علمي، وبفكْر مُتحرِّر يقبل النتائج الموضوعية. وأرجو أن أكون قد وُفِّقْتُ من خلال هذا البحث في الإجابة عن بعض هذه التساؤلات، كما أرجو أن أكون قد التزمتُ بمنهج البحث العلمي، للوُصُول إلى صُورة مُعبِّرة عن واقع العلاقات في ذلك العصر.

تُبيِّن مُجمل أحداث العصر الأيُّوبي أن عماد الدِّين زنكي قد حقَّق إنجازاً عظيماً بوَضْعه لمشروع رائد، رُبَّما رأى الكثيرون ـ في ذلك الوقت ـ استحالة تحقيقه على بساطته، وهُو مشروعه الوحدوي التحرُّري، والذي حقَّق ابنه نُور الدِّين جُزأه الأوّل، وحقَّق صلاح الدِّين قسماً مُهمَّاً من جُزئه الثَّاني.

ولذلك؛ نعدُّ انتصار صلاح الدِّين في حطِّين تتويجاً لمشروع عماد الدِّين الوحدوي التحرُّري، فلولا مُتابعة نُور الدِّين لخُطى والده في توحيد الشَّام؛ ثُمَّ توحيد مصر مع الشَّام، لما تحقَّق هذا النصر. وفي الوقت نفسه؛ يبدو جلياً انقسام العصر الأيُّوبي إلى مرحلتَيْن:

آـ مرحلة الدولة المركزية الواحدة، وتشمل عصر صلاح الدِّين، وتُعدُّ استمراراً لدولة عماد الدِّين زنكي، وابنه نُور الدِّين محمود.

ب ـ مرحلة الانقسام والتجزئة؛ حيثُ قامت الدُّويلات الأيُّوبيّة في الجزيرة ومصر والشَّام، والأَسَديَّة في حمص.

وبمُتابعة تفاصيل العلاقات السِّياسيَّة والعسكريَّة لعصر الحُرُوب الصَّليبيّة أرى أن أهمَّ ما يُلاحَظ عليها:

1ـ لم تتمكَّن الممالك الأيُّوبيّة من تحقيق أيِّ إنجاز هامٍّ في مرحلة التجزئة السِّياسيَّة، التي تلت عهد صلاح الدِّين، لا على الصعيد الداخلي، ولا على صعيد الصراع ضدَّ الفرنجة، فسنوات التجزئة هذه ـ على طُولها ـ كانت عقيمة، وبالتَّالي؛ نستنتج أن نصر عَيْن جالُوت، الذي تلا تلك السنوات،

لم يكن ليتحقّق لولا انضمام قُوّات الشّام، التي انسحبت مع المنصُور مُحمّد صاحب حماة، إلى قُوّات مصر، وتعاون الأشرف مُوسى صاحب حمص معهم من خلف خُطُوط العدوّ.

2 ـ في عهد التجزئة الأيُّوبيّة كانت المصلحة الخاصّة تُسيطر على دبلوماسية المُلُوك والزُّعماء، فتوسيع رُقعة المملكة، أو زيادة الثروة الشخصية، كانت هي الأهداف البعيدة لكُلِّ تحرُّكاتهم السِّياسيّة والعسكريّة، وقد تساوى ـ بذلك ـ مُلُوك البيت الأيُّوبي والمُلُوك الآخرون.

3 ـ لم تكن للممالك الأيُّوبيّة ـ بعد صلاح الدِّين ـ سياسيّة خارجية مُوحّدة، بل كان لكُلِّ مملكة أيُّوبية نشاطات عسكريّة وعلاقات سياسيّة مُختلفة ومُتناقضة في كثير من الأحيان عن الممالك الأُخرى. ونجد أن بعض المُلُوك الأيُّوبيّة قد تحالفوا مع أعداء خارجيين ضدّ إخوتهم، وأصبح التحالف بين مُلُوك المُسلمين عامّة وممالك وإمارات الفرنج أمراً عادياً، حتّى ليخال المرء أن العالم لم يعد يقسمه الدِّين، أو القومية، بل المصالح وحدها، فالاتِّفاقيات، والمُعاهدات، وحتّى الحُرُوب المُشتركة بين مَنْ يُفترَض أنّهم أعداء، تدلُّ على ذلك.

لما تقدّم؛ نجد أن التحالفات السِّياسيّة بين جميع الأطراف كانت كُلّها تحالفات هشّة، فسُرعان ما تنتقضُ ـ لأتفه الأسباب ـ عند تبدُّل المصالح.

4 ـ مع كُلِّ هذه التجزئة الدّاخليّة والضغط الخارجي، استمرّت أقاليم الشّام ومصر والجزيرة الشّاميّة تعيش حياة الدولة الواحدة في كُلِّ أوجه نشاطاتها الاقتصاديّة والاجتماعيّة، أمّا الانقسام السِّياسي والعسكري؛ فيُمكن أن نصفه بأنّه انقسام للحُكّام، وليس للشعب، أو للأرض، فحتّى في أيّام الحُرُوب والحملات كان الشعب يُمارس أعماله واتّصالاته وتجارته وتنقُّلاته، فلم يعرف تقسيمَ الأرض، ولم تكن هُناك حُدُود ثابتة لمناطق السيطرة والممالك، وليس ـ هُنا فقط ـ فالحياة الواحدة كانت تنسحب على كُلِّ أجزاء الدولة العَرَبيّة الإسلاميّة الواسعة.

لكنّ هذا لا ينفي أن هُناك دُولاً قامت في هذه المنطقة، ونشأت بينها علاقات سياسيّة وعسكريّة جديدة لم تكن وُدّيّة على الأغلب، فالتنافس، بل والقتال، كان أمراً عادياً بينها. ولكنّنا نستطيع القول بأنّ الوحدة السِّياسيّة والعسكريّة قد تمثّلت بأوهى أشكالها، وكان ذلك باتِّفاق غير

مُعلَن بين مُلُوك الدُّول الأيُّوبيَّة، على أن يكون أحدهم السُّلطان الأعظم، ويتمتَّع بنُفُوذ، وإنْ كان ـ في كثير من الأحيان ـ اسمياً، على المُلُوك الآخرين، وممالكهم.

5 ـ كانت السياسة الأيُّوبيَّة الخارجيَّة تختلف إلى حَدٍّ كبير في عهد كُلِّ سُلطان يتولَّى البيت، وكان يُوجِّهها ويُحدِّدها المشروع الخاصُّ بكُلِّ سُلطان.

آ ـ تمحورت السياسة الخارجيَّة لعهد السُّلطان صلاح الدِّين حول مشروعه السِّياسي ـ العسكري، والذي كانت أهدافه المُعلنة، في المُحافظة على الدولة الواحدة وجهاد الفرنج وتحرير الأرض، قد استحوذت على مُجمل العلاقات السِّياسيَّة لعهد صلاح الدِّين، فهي سياسة قائد عسكري، تبدو وكأنَّها مُتابعة لمشروع وسياسة الأتابكة.

ب ـ في عهد السُّلطان العادل اختلفت السياسة الأيُّوبيَّة الخارجيَّة عمَّا كانت عليه في عهد أخيه صلاح الدِّين، فالعادل لم يكن قائداً عسكريَّاً فقط، بل كان سياسياً مُحنَّكاً أيضاً، لا يُحارب في موقعه يُمكن أن يتجنَّبها باتِّفاق، أو مُعاهدة، فغلبت على عصره المُعاهداتُ. ويتلخَّص مشروعه في الاستيلاء على مملكة أخيه، والوُصُول إلى السَّلطنة، وقد حقَّق ذلك.

ج ـ أمَّا في عهد السُّلطان الكامل بن العادل؛ فقد تعاظم العمل السِّياسي، واتَّخذ مناحي مُختلفة، فقد شمل التحالف مع قوى أُورُوبية، ودفع ثمنها تسليم مدينة القُدْس، وأقام تحالفات داخلية، عزَّزها بالمُصاهرة، فقد زوَّج بناته إلى مُلُوك حلب وحماه والكرك.

كُلُّ ذلك في سبيل تحقيق مشروعه للانفراد بالسُّلطة المُطلقة في الشَّام ومصر، ثُمَّ وظف العمل العسكري لاحتلال مملكة سلاجقة الرُّوم، حتَّى ينقل المُلُوك الأيُّوبيَّة إليها، ويُحقِّق مشروعه الذي أفشله تنبُّه المُلُوك الأيُّوبيَّة له، وتحالفهم ضدَّ الكامل.

د ـ لمَّا تولَّى أيُّوبُ بن الكامل السَّلطنة، وكان شخصية تمتاز بالعُنف، تمكَّن من تحقيق مُعظم مشاريعه السِّياسيَّة بالقُوَّة، فقد تخلَّص من أعدائه داخل البيت الأيُّوبي، وألحق بالفرنج هزيمة عكَّا، التي كانت أقسى عليهم من هزيمة حطِّين.

هـ ـ عندما استولى النَّاصر الثَّاني على الشَّام، وأنهى المماليك السَّلطنة الأيُّوبيَّة في مصر، أُتيحت الفُرصة للفرع الصلاحي باستلام السَّلطنة، ولكن مشاريع النَّاصر السِّياسيَّة والعسكريَّة لإعادة أمجاد

جَدِّه وسَمِّيه السُّلطان صلاح الدِّين ظلَّت مُجرَّد أحلام، لعدم تمتُّعه بمُؤهِّلات تُمكِّنه من تحقيقها، فغلبت عليه سياسة التردُّد والتخاذل، ويكفي أنَّه ترك حلب تُواجه مصيرها أمام التَّتار، وهرب نحو مصر، ولم يجرؤ على دُخُولها، حتَّى قبض عليه التَّتار، وقتلوه.

6 ـ طغت على عصر التجزئة الأيُّوبيَّة ظاهرة الأحلاف السِّياسيَّة والأحلاف المُضادَّة، والتي كانت ـ دائماً ـ تتَّصف بالهشاشة، لذلك لم ينتجْ عنها معارك عسكريَّة كُبْرَى، ولا تبدُّلات سياسيَّة هامَّة. كذلك؛ فإن وُجُود جيش قوي، مُدرَّب، عالي الجاهزة، جيِّد التسلُّح، كان يُعطي لأيِّ مملكة إضافة للقُوَّة العسكريَّة، نُفُوذ سياسي قائم على التهديد بالقُوَّة، التي ـ غالباً ـ لم تكن تستخدم في العلاقات الأيُّوبيَّة ـ الأيُّوبيَّة.

7 ـ يبدو واضحاً ـ في العصر الأيُّوبي ـ انعدام دور عامَّة الشعب في الحياة السِّياسيَّة، وضعفه في النشاطات العسكريَّة، ورُبَّما كان سبب ذلك غياب التنظيمات الشَّعْبيَّة كالأحداث، وغيرها، أو لقُوَّة الجيش الأيُّوبي، وتنظيمه، ممَّا أدَّى إلى فرض سيطرة كاملة للدولة على كُلِّ قطاعات المُجتمع، أو رُبَّما تعلَّق الأمر بحالة الجهاد ضدَّ الفرنجة، ومن ثَمَّ؛ ضدَّ التَّتار التي كانت تعيشها الدولة والمُجتمع.

آ ـ في حين كنا نُلاحظ دوراً واضحاً لنساء الفرنج في التركيبة السِّياسيَّة، ونشاطاً لهنَّ في الجيش، وإنْ بدا محدوداً، لكنَّه ملموس، كان الأمر على العكس في الجانب الإسلامي، فالنساء الأيُّوبيات كُنَّ بعيدات، إلاَّ ما نَدَرَ، عن السياسة، وعن الحياة العامَّة، مع وُجُود استثناءات، مثل: ستّ الشَّام أُخت صلاح الدِّين، ودورها في الحياة العامَّة، وضَيْفَة خَاتُون بنت العادل، ودورها في السياسة.

ب ـ كان المسيحيُّون المحلِّيُّون، مُشتَّتين بالولاء، فعندما لم يُفلح الفرنج في استمالتهم، أو دمجهم في تجمُّعاتهم، عَدُّوهم هراطقة، وفي الحقيقة؛ كانوا أقرب إلى المُسلمين؛ حيثُ يجمعهم تاريخ مُشترك طويل، ماعدا الموارنة الذين قرَّروا الالتحاق بالكَنِيسَة الكاثوليكية، وتعاونوا مع الفرنجة. أمَّا اليهُود؛ فقد كانوا أعداداً بسيطة لا يُؤبَهُ لها في العصر الأيُّوبي، ورُبَّما كان تأييدهم للدولة، أو على الأقلِّ؛ استكانتهم أمامها، على خلفية اضطهادهم في أُورُوبا والذي كان يسبق كُلَّ حملة فرنجية تنطلق إلى الشَّرْق.

نتائج العلاقات مع القوى الدّاخليّة:

مع أن العلاقات السِّياسيَّة الدّاخليَّة بين الممالك الأيُّوبيَّة ليست الغرض الأساسي لهذا البحث، ولكنَّه ما كان ليكتمل بدُون التعرُّف على علاقات سياسيَّة وعسكريَّة، كانت تتمُّ بين السَّلطنة الأيُّوبيَّة وممالكها من جهة، وقوى إسلامية، لا يُمكن إلاَّ أن نعدَّها داخلية من جهة أُخرى، فمنها ما كان مُستقلاً تماماً عن السُّلطة الأيُّوبيَّة، وبعضها كان له شبه استقلال؛ ومن هذه القوى:

كان هُناك بعض القادة العسكريين والأُمراء الإقطاعية الذين لعبوا أدواراً مُهمَّة انعكست سلباً، أو إيجاباً في العلاقات الأيُّوبيَّة السِّياسيَّة والعسكريَّة، فمنهم مَنْ تولَّى قيادة الجُيُوش، ومنهم مَنْ تولَّى الوزارة، ومنهم مَنْ حَكَمَ إمارة، أو سيطر على مناطق واسعة، فقامت لهم علاقات سياسيَّة وعسكريَّة، تشعَّبت بين عدَّة دُول في المنطقة، وكان منهم أبو الهيجاء السمين، والحاجب علي، وابن المشطوب، وأولاد الشَّيخ، إضافة إلى طوائف عسكريَّة، مثل: فرَق المماليك الصَّلاحيَّة، والأَسَديَّة، أو طوائف عرْقية، مثل: التُّركمان، والأكراد.

وعلى العُمُوم؛ كان يبدأ أمر هؤلاء في ظلِّ الدولة الأيُّوبيَّة، ولخدمتها، ثُمَّ غالباً ما تنقلب الأُمُور، فيعملون لمصالحهم الخاصَّة ضدَّ الدولة، فتبطش بهم، وكثيراً ما كانت أعمال هؤلاء الرجال، أو التّصدِّي لهم، يُوقع الدولة في مواقف حرجة في علاقاتها العسكريَّة والسِّياسيَّة الدّوليَّة.

كذلك كانت القبائل البدويَّة تنتشر على حوافِّ المناطق الزراعية في مصر والشَّام، وربَّما كان بنو ربيعة من أشهر قبائل الشَّام، وأكثرها تأثيراً في السياسة الأيُّوبيَّة والعسكريَّة. ولطبيعة حياة هذه القبائل، فقد كانت تُشكِّل قوى عسكريَّة لا يُستهان بها لطريقتها الخاصَّة في القتال. ومع أنَّها كانت تابعة للسَّلطنة الأيُّوبيَّة بشكل عامٍّ، لكنَّها تمتلك قَدْراً كبيراً من حُرِّيَّة التصرُّف، وتتعاظم هذه الحُرِّيَّة في عُهُود الضعف، وخلال الأزمات، فيحرص الأيُّوبيُّون على استمالتهم، وغالباً عن طريق المال. وكما كان للبدو مواقف جهادية ضدَّ الفرنج لا تُنكَر، كان لهم زلات شنيعة، فقد عمل بعضهم أدلاء للفرنج ضدَّ مواقع المُسلمين، وكانوا ـ في كثير من الأحيان ـ سلاحاً ذا حَدَّيْن؛ إذْ سُرعان ما ينقلبون على حُلفائهم في حال الهزيمة.

وأُضيف إلى القوى الدّاخليَّة فرقة الخَوَارزميَّة التي ظهرت إثر هزيمة وتبعثر الجيش الخوارزمي أمام التّتار، وأخذت تتنقل في الجزيرة السُّوريَّة وبلاد الشَّام. كان أفرادها يُشكِّلون فرقة

مُرتزقة حقيقيَّة، يُقاتلون للمكاسب، ويعيشون بسُيُوفهم، لكنَّهم قرَّروا العمل لحسابهم فيما بعد، فعاثوا فساداً في البلاد، وأضافوا طرفاً جديداً على أطراف النزاع، وأَدخلوا المنطقةَ في دوَّامة من الأحلاف السِّياسيَّة والمعارك العسكريَّة، فقد حالفوا الجميع، وحاربوا الجميع، واستطاعوا التأثير في موازين القوى والتحالفات القديمة للممالك الأيُّوبيَّة وبعض الممالك القريبة منها. ولكنْ؛ للحقيقة وللتاريخ، لا يُمكن لنا إلاَّ أن نُسجِّل لهم عملاً إيجابياً قاموا به، فقد سجَّل الخَوارزميَّةُ مأثرةً كبيرة، رغم كُلِّ مخازيهم، عندما طردوا الفرنج من القُدْس، التي كان قد سلَّمها لهم الكامل، ثُمَّ أبادوا أكبر تجمُّع لجُيُوش الفرنج بعد حطِّين في معركة غزَّة، ممَّا جعل الوُجُودَ الفرنجي في فلسطين بكامله يترنَّح تحت ثقل هذه الضربة، وكانت إحدى دواعي حملة لويس التَّاسع على مصر.

نتائج العلاقات الدّوليَّة الخارجيَّة:

يبدو أن العلاقات الدّوليَّة للسَّلطنة الأيُّوبيَّة كانت هي الأهمّ في عصرها، فكثيراً ما قرَّرت هذه العلاقاتُ مسيرةَ الدّبلُوماسيَّة العالمية، أو مُجريات الصراعات العسكريَّة العالمية، لأنَّها كانت تستقطب قوى عالمية كُبْرَى في ذلك العصر. وقد انقسمت العلاقات الدّوليَّة للسَّلطنة الأيُّوبيَّة إلى علاقات مع دُول إسلامية، وعلاقات مع دُول غير إسلامية، وكان لكُلٍّ منها طبيعة خاصَّة في التعامل الدبلوماسي، أو العسكري معها، ومع هذا؛ ففي بعض الأحيان، كانت تختلط الأوراق، وتتداخل العلاقات عبر تكتُّلات وأحلاف قد تتعدَّى الحُدُود والأديان والمُعتقدات.

وقد كانت نقاط الاحتكاك الساخنة في المرحلة الأُولى من العصر الأيُّوبي هي سواحل الشَّام ومصر، فعليها وقُربها جرت أهمُّ المعارك العسكريَّة والسِّياسيَّة بين المُسلمين وقوى فرنج أُورُوبا. بينما تحوَّلت أرض الجزيرة الشَّاميَّة، في المرحلة الثَّانية من العصر الأيُّوبي، إلى بُؤرة الصراع الأُولى بين كُلِّ مَنْ يجد بنفسه قُوَّةً، وتتوفَّر لديه أطماع وطُمُوح. وكان الصراع على مُدُن ومناطق الجزيرة على أشدِّه بين الممالك الأيُّوبيَّة وبين عدَّة دُول، وقوى إسلامية، وغير إسلامية، منها: سلطنة السلاجقة، ومملكة الأتابكة، وممالك الأرمن والكرج والخَوارزميَّة، وأخيراً؛ التَّتار.

1. نتائج العلاقات الدّوليّة الإسلاميّة:

بما أن بُلدان السَّلطنة الأيُّوبيَّة كانت تتبع للخليفة العبَّاسي تبعية اسمية، فقد فرض ذلك تعامل دبلوماسي كامل بين الطرفَيْن، ولم تكن لتنقطع الوُفُود والمُراسلات بينهما، ممَّا يدلُّ على علاقة سياسيَّة نشطة، لكنَّها لم تتعدَّ طور الرسميات؛ حيثُ لم يكن هُناك أيُّ نُفُوذ حقيقي للخليفة على الحُكَّام الأيُّوبيِّيْن، وبالمُقابل؛ لم يتلقَّ الأيُّوبيُّون في أحلك ظرُوفهم العسكريَّة سوى التأييد المعنوي والدعوات الصالحة من الخليفة.

أمَّا المالك الإسلاميَّة المُجاورة؛ فقد كان يجمعها في علاقاتها مع الأيُّوبيِّيْن خوف مُشترك من القُوَّة الأيُّوبيَّة، لكنَّها ـ غالباً ـ لم تتمكَّن من الاتِّحاد ضدَّها، ممَّا يدلُّ على سياسة أيُّوبية ناجحة مع المالك الإسلاميَّة المُجاورة، بل إنَّنا نستطيع القول إنَّه كان هُناك نوع من الهيمنة الأيُّوبيَّة على عدد من ممالك وإمارات الجوار الإسلاميَّة؛ مثل إمارات الأتابكة والأراتقة، كما كان هُناك دعم وتبادل مصالح بين الأيُّوبيَّة وبعض الإمارات الإسلاميَّة، مثل إسماعيلية الشَّام، الذين يُعتقَد بأنَّهم ارتبطوا بمُعاهدة دفاع مُشترك مع السَّلطنة.

أمَّا الدُّول الكُبْرَى والقوى الإسلاميَّة العُظْمَى التي كانت تُجاور السَّلطنة الأيُّوبيَّة مثل: دولة سلاجقة الرُّوم، والدولة الخَوَارزميَّة؛ فقد كانت العلاقات بينهم وبين الأيُّوبيَّة تتأرجح بين الحَرْب الشاملة وحالة السِّلْم، التي يترقَّب فيها كُلُّ طرف سانحة ضعف لدى الطرف الآخر، ولكن كُلَّ هذا لم يمنع من قيام تحالفات استراتيجية بينهما في بعض الأحيان، وهذا ما يُؤكِّد قيام تحرُّكات دبلوماسية على كُلِّ المُستويات، لابُدَّ أنَّها كانت تُرافق الصدامات والتَّحرُّكات العسكريَّة، وتُنسِّق كُلَّ تلك التحوُّلات والتبدُّلات في المواقف السِّياسيَّة لمُختلف الأطراف.

وآخر المطاف في العلاقات الأيُّوبيَّة مع القوى الإسلاميَّة المُجاورة كان مع صنائعهم ومماليكهم السابقين، الذين استولوا على حُكْم مصر إثر تنامي قُوَّتهم العسكريَّة، وقد أثبتت الأحداث عدم كفاءة السُّلطان الأيُّوبي النَّاصر الثَّاني في تصدِّيه السِّياسي والعسكري للمماليك؛ حيثُ عجز عن استرجاع مصر، ولم يلبث أن فَقَدَ الشَّام أمام زحف التَّتار، وبانتصار المماليك على التَّتار مدُّوا سيطرتهم على كامل أراضي السَّلطنة الأيُّوبيَّة المُنهارة.

2. نتائج العلاقات الدّوليَّة مع قوى خارجية غير إسلامية:

كانت العلاقات مع فرنج الساحل الشّامي تحتلُّ الصدارة في المرحلة الأُولى من الحُكْم الأيُّوبي؛ حيثُ كانت عدائية بشكل عامٍّ، ويغلب عليها طابع الصراع العسكري. أمّـا في المرحلـة الثّانيـة؛ فقـد نشطت العلاقات السِّياسيَّة بين الطرفَيْن، حتَّى إنَّها غدت ـ في بعض الأحيان ـ علاقات سلْمية، بـل، وفي بعضها الآخر وُدِّيَّة تصل إلى درجة التحالف والقتال المُشترك.

أمّا بقيَّة القوى المَسيحيَّة الشَّرْقيَّة؛ فكان لكُـلٍّ منهـا طابعهـا الخـاصّ، النـاتج عـن اهتماماتهـا الخاصَّة ومُشكلاتها الخاصَّة مع الدولـة الأيُّوبيَّـة. فالإمبراطُوريَّـة البيزنطيَّـة كانـت في وضـع سياسي وعسكري مُحرج ومُتردِّد بين الفرنج والأيُّوبيين، لذلك كانت العلاقات معها محدودة في كُلِّ أشكالها.

بينما نجد أن مملكة الكرج ـ بعد ضغطها العسكري المُتنامي للسيطرة على الجزيـرة الـشَّاميَّة ـ فقد وقَّعت مُعاهدةَ صُلح مع الأيُّوبيِّيْن، والتزمت ببُنُودها. لكنَّ مملكة أرمينيا استمرَّت تـسعى نحـو أسوأ العلاقات مع الأيُّوبيَّة، يدفعها حقد أعمى للتعاون مع كُلِّ الأعداء ضدَّ الأيُّوبيَّة، فقـد تعاونـت مع الفرنج، ثُمَّ مع التَّتار، وقدَّمت لهم الدعم العسكري اللازم. ومع ذلك؛ فقد قام نوع من العلاقات السِّياسيَّة بين الأرمن ومملكة حلب الأيُّوبيَّة بحُكْم الجوار.

وفي أواخر المرحلة الثَّانية من العصر الأيُّوبي؛ قفزت العلاقات مع التَّتار لتحتلَّ موقع الصدارة في علاقات السَّلطنة الأيُّوبيَّة في الشَّام، في البداية؛ اتَّبع الأيُّوبيُّون سياسةَ الابتعاد عن الـصدام بطلائـع التَّتار، رُبَّما لاعتقادهم أنَّهم غُزاة عابرون، أو أنَّ تجنُّب الصدام مـع التَّتـار قـد يُبعـدهم نحـو أهـداف أُخرى، لكنْ؛ مهما كانت الأسباب، فقد أثبتت السياسةُ الأيُّوبيَّةُ قصرَ نظر هائل؛ بحيثُ لم تُقدِّر خطر التَّتار حقَّ قَدْره، وكان فشل السياسة الأيُّوبيَّة تجاه التَّتار كبيراً، لكنَّ فشلهم العسكري كان أكبر، فقـد ترك السُّلطانُ الأيُّوبيُّ عاصمةَ مُلكه حلب تسقط، وفيها أهله، وآل بيته، بينـما كـان يُراسـل هُولاكُـو، ويستعطفه من دمشق، ثُمَّ انسحب بجيش الشَّام كاملاً، دُون أن يُجرِّب التّصدِّي حتَّى لطلائـع التَّتـار، ورُبَّما كان ضعف شخصية السُّلطان النَّاصر الثَّاني ورُعبه من التَّتـار وراء هـذَيْن الفـشلَيْن ـ الـسِّياسي والعسكري ـ المُروِّعَيْن.

نتائج العلاقات مع دُول أُورُوبا:

كان الدور السِّياسي والعسكري للدُّول الأُورُبيَّة قد بدأ في مصر والشَّام قبل قيام الدولة الأيُّوبيَّة، لكنْ؛ تضاعف هذا الدور في المنطقة، وازدادت اهتماماتها بها بعد قيام الدولة الأيُّوبيَّة. وصحيح أن علاقات أُورُوبا بدأت دينيَّة من خلال الحجِّ واستكشاف الأراضي المُقدَّسة، لكنَّها انتهت استعمارية بالاحتلال والسيطرة واستغلال الثروات، وشاركت في هذا مُعظم دُول أُورُوبا وشُعُوبها، فكُلٌّ منها أدلى بدلوه وُفقاً لمنظوره واهتماماته، لكنَّ بعضها كان له أدوار مُتميِّزة لعبها من خلال علاقاته العسكريَّة أو السِّياسيَّة مع السَّلطنة الأيُّوبيَّة، ومن أهمِّها:

رُبَّما كانت العلاقات الفرنسيَّة العسكريَّة هي الأكثر تميُّزاً لأنَّها الأطول والأغنى بمُشاركاتها الحَرْبيَّة، وكُلُّها كانت بدُون تحقيق أيِّ فائدة تُذكَر. وقد سنحت الفُرصة للملك الفرنسي لويس كي يلعب دوراً سياسياً بارزاً في المنطقة عندما كان في عكَّا؛ حيثُ طلب التحالف معه كُلٌّ من سُلطان الشَّام الأيُّوبي وزُعماء المماليك بعد استيلائهم على حُكْم مصر، لكنَّ لويس فوَّت الفُرصة بتردُّده.

وإذا كانت الصفة العدائية هي الغالبة على العلاقات الفرنسيَّة بالسَّلْطَنَة الأيُّوبيَّة، فإنَّها كانت عدائية أشدّ بالنِّسبَة لعلاقات ألمانيا بها، وقد تبدَّت شدَّة العدائية من خلال مُشاركات أباطرتها في الحملات على الشَّرْق، وشدَّة الحماس الدِّيني الذي رافقهم، لكنَّ كُلَّ ذلك انقلب مع الإمبراطُور فريدريك الثَّاني، الذي عقد تحالفاً استراتيجياً مع السَّلطنة الأيُّوبيَّة، والتزم به خلفاؤه حتَّى نهاية دولتهم. ورُبَّما كانت هذه العلاقة الوُدِّيَّة هي العلاقة الوحيدة التي ربطت بين طرف أُورُوبي والسَّلطنة الأيُّوبيَّة.

وبالنتيجة؛ نجد أن مُعظم العلاقات السِّياسيَّة بين المُسلمين وأُورُوبا في العصر الأيُّوبي تمحورت حول قضيَّة الصراع على مدينة القُدْس، وتجلَّى تفاعل هذه العلاقات بين طرفَيْن، الأوَّل: الحملات الفرنجيَّة العسكريَّة، التي وجَّهتها أُورُوبا إلى بلاد الشَّام ومصر، والثاني: الأيُّوبيُّون الذين حملوا راية التَّصدِّي للفرنج نيابة عن كُلِّ المُسلمين.

وكان من المُفترض أن يكون خلف المُتصارعَيْن كلَيْهما عُمق استراتيجي يدعم مجهوده الحربي، لكنْ؛ وللحقيقة، كان دعم أُورُوبا للفرنج بالمال والرجال والمعدَّات غير محدود، بينما كان مُعظم الدعم الإسلامي للأيُّوبيين يقتصر على شكل معنوي، فأدعية خُطباء المساجد وتمنِّيات الخليفة الطيِّبة

لم تكن ذات فعَّالية تُذكَر في القتال، ماعدا الدعم البسيط غير الدائم من بعض أُمراء المَوصل والجزيرة الشَّاميَّة.

لقد كان الصراع على أرض الشَّرْق يدور بين مدرستَيْن، إحداها إسلامية، والأُخرى أورُوبية، تُمثِّلان حضارتَيْن فكريَّتَيْن ودينيَّتَيْن مُختلفتَيْن كُلَّ الاختلاف، لكنَّ هذا الصراع لم ينتج عنه تمازج فكري، أو تأثير ديني، أو حضارة وسيطة؛ كالهلنستية.

فبعد إقامة الفرنج حوالي مائتَيْ عام في أرض الشَّرْق، واحتكاكهم المُستمرّ بشعبه وحضارته، كانت نتائج هذا الاحتكاك ضئيلة جدَّاً في أرض الصراع مصر والشَّام. وكان حيِّز كبير من هذا الصدام يدور بين المدرسة العسكريَّة الأُورُوبيَّة والمدرسة العسكريَّة الإسلاميَّة، وصحيح أن المدرسة الإسلاميَّة هي التي انتصرت، بدليل الطرد النهائي للفرنجة من الشَّرْق، لكنَّ هذا الانتصار لم يُثمر عسكريَّاً، فلم تتطوَّر أسلحة جديدة، ولم يبتكر المُسلمون أساليبَ قتال مُتقدِّمة، كما أنَّه لم يُثمر حضارياً لاستمرار الجُمُود الفكري عند المُسلمين. ومن خلال هذا الصدام تبدَّت بعض النتائج الأساسية:

1 ـ **عسكريَّاً**: ظهر واضحاً التفوُّق العسكري الأيُّوبي في مُعظم المُواجهات، وذلك وُفقاً لحساب النتائج النهائية للمعارك. لكنَّ التفوُّق الأُورُبي كان ملموساً في البحر، وفي صناعة السُّفُن، وقتال الأساطيل، خاصَّة أساطيل المُدُن الإيطالية، التي كان لها دور كبير في تفوُّق الفرنجة البحري، وبالمُقابل؛ كان هُناك شَلَلٌ كامل للأساطيل الإسلاميَّة، وكان هذا ـ غالباً ـ بسبب تدمير قواعد الأساطيل في ساحل الشَّام، واستيلاء الفرنج على مُعظمها.

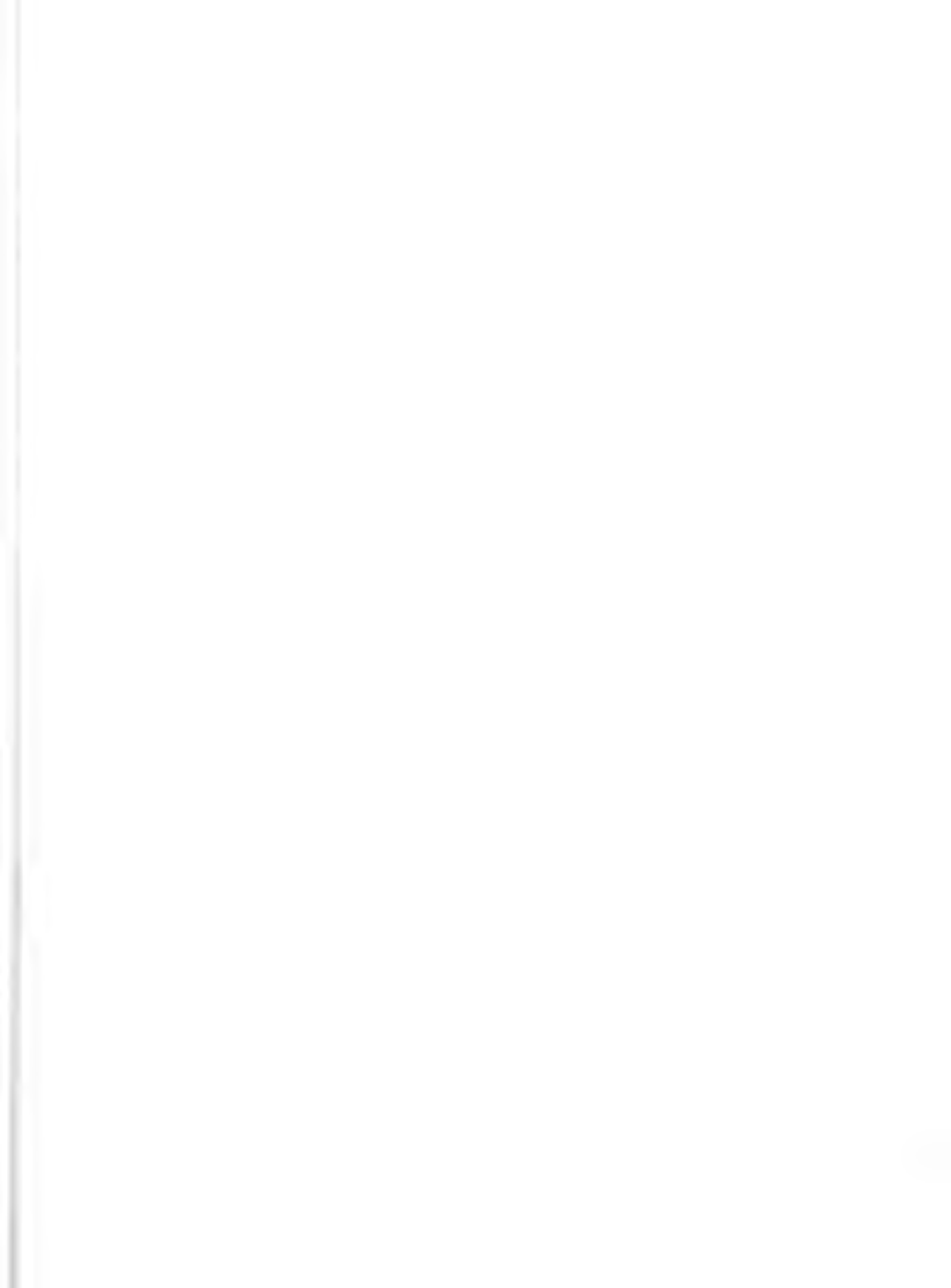
2 ـ **سياسياً**: كانت التَّحرُّكات السِّياسيَّة بين الأيُّوبيِّيْن وأُورُوبا نشطة جدَّاً، ورُبَّما كانت أنشط من التَّحرُّكات العسكريَّة، فالاتِّصالات السِّياسيَّة لم تنقطع، والسِّفارات من الجانبَيْن لم تتوقَّف، والمُعاهدات كانت كثيرة، وقيام الحَرْب بينهما لم يمنع من مُراسلات المُجاملة، والتعزية، أو التهنئة، كما لم يمنع تبادلاً تجاريَّاً واسعاً بينهما.

تقويمٌ عامٌّ للعلاقات الدّوليَّة في عصر الحُرُوب الصَّليبيَّة:

بعد كُلِّ ذلك نستطيع القول بأنَّ السياسة الأيُوبيَّة كانت ناجحة ـ على العُمُوم ـ مع القوى الدّاخليَّة، فكُلُّها كانت تدور في فَلَك السياسة الأيُوبيَّة، وكذلك كانت علاقات الأيُوبيِّيْن السِّياسيَّة مُوفَّقة ـ بشكل عامٍّ ـ مع الدُّول الإسلاميَّة المُجاورة، التي كانت ـ غالباً ـ مُتحالفة معها بشُرُوط جيِّدة، أمَّا العلاقات مع الممالك المَسيحيَّة الشَّرقيَّة؛ فكانت ـ أيضاً ـ تحت السيطرة، ووُفقاً للمصالح الأيُوبيَّة مُعظم الأحيان، أمَّا مع فرنج المشرق؛ فكانت علاقات الأيُوبيِّيْن مُتأرجحة ما بين الحَرْب والسِّلْم، والعداء السافر، أو التعاون، والتحالف، لكنَّ الشيء الثابت في هذه العلاقة هُو سعي كُلِّ طرف لتأمين مصالحه بأيِّ طريق كانت. أمَّا الصفة الرئيسية للعلاقات مع دُول وأُورُوبا، فقد كانت علاقات مُتوتِّرة غالباً، إذا استثنينا العلاقات مع الإمبراطُوريَّة الجرمانية، وخاصَّة في عهد فريدريك، وأولاده، ونستطيع أن نصفها بأنَّها علاقات في ظلِّ الحَرْب، وأنَّها كانت قائمة على سُوء فَهْم مُتبادل بين عقليَّتَيْن وثقافتَيْن ودينَيْن بينهما كُلّ الاختلاف، لذلك كانت تبدو أنَّها علاقات ليس لها أُسُس ثابتة.

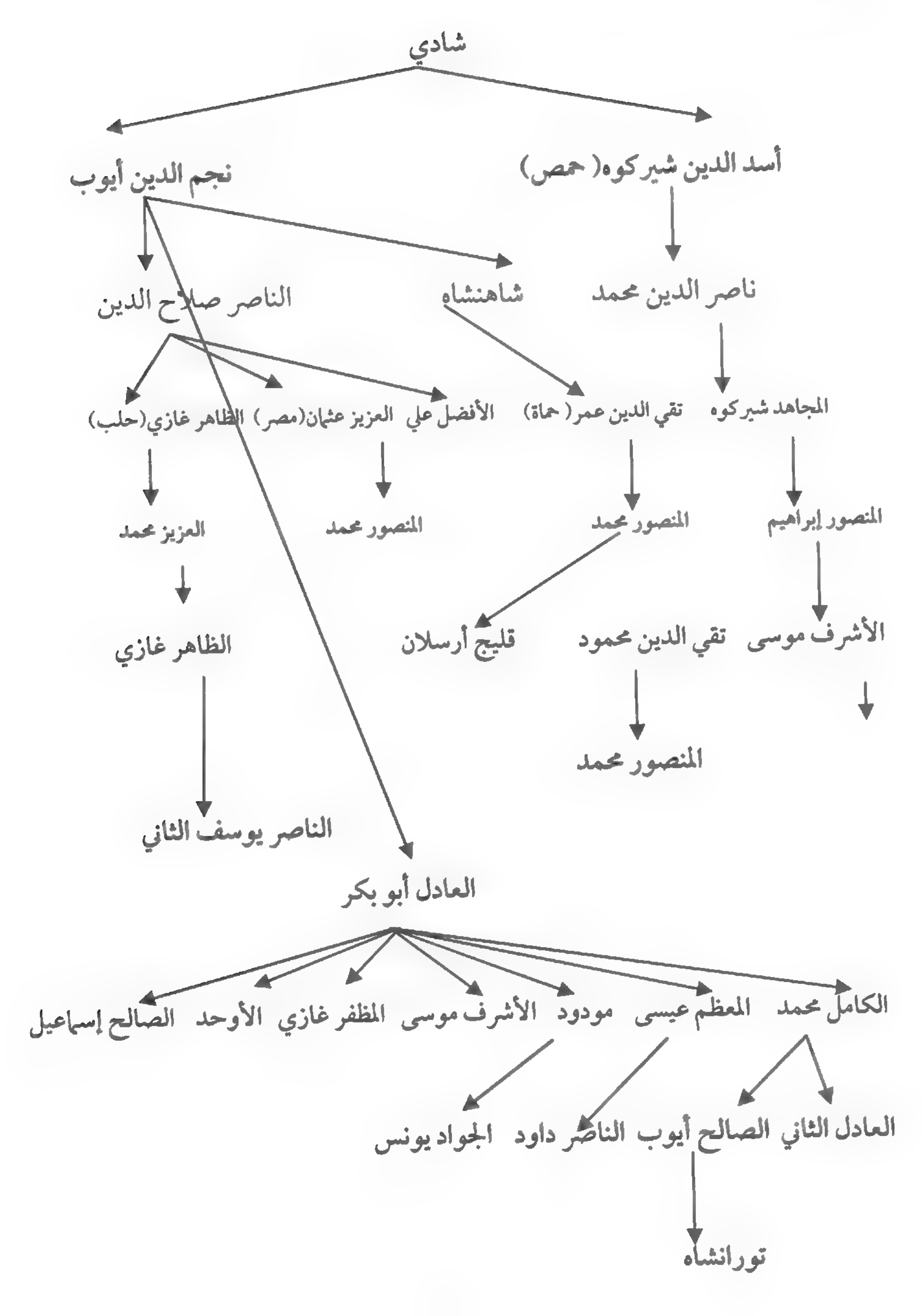
وأخيراً؛ فإنَّنا نُلاحظ بأنَّ العصر الأيُوبي بمُجمله كان عصر صراع وتنافس بين الدُّول والقوى على البلاد والموارد، لذلك سيطرت العلاقات العسكريَّة والسِّياسيَّة على كُلِّ ما عداها من علاقات طبيعية أُخرى، حتَّى كادت أن تطمسها، وأصبحت العلاقات السِّياسيَّة التي تُوظِّف العلاقات العسكريَّة سمة للعلاقات الدّوليَّة في ذلك العصر.

وفي النِّهاية؛ فهذا مبلغ علْمي، وفوق كُلِّ ذي علم عليم، والله من وراء القَصْد.

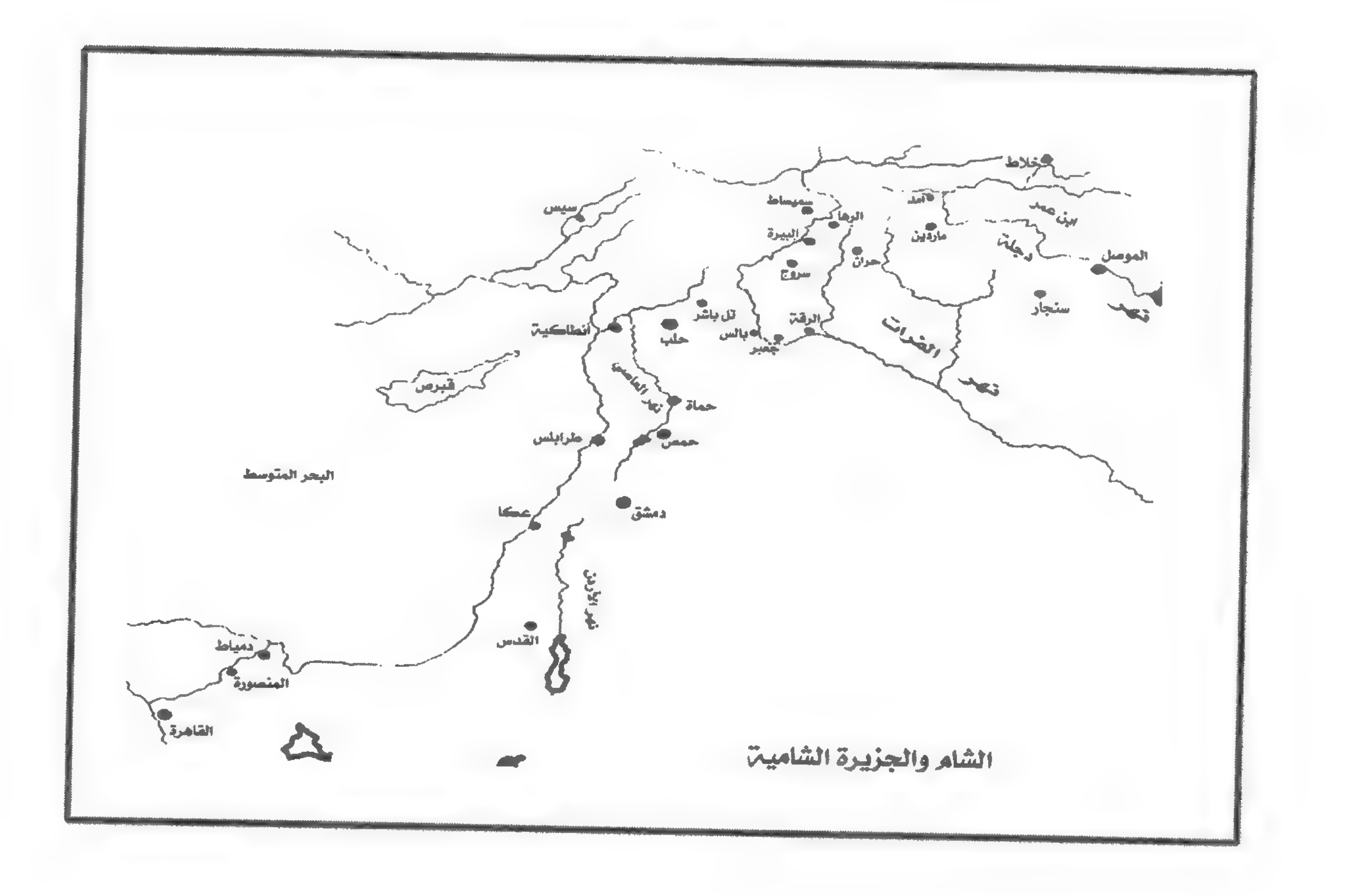


الملاحـق

مُخطَّط نسب الأُسرة الأيُّوبيَّة



الشرق العربي في العصور الوسطى


الشام والجزيرة الشامية
خلاط
آمد
ابن عمر
دجلة
الموصل
ماردين
سنجار
سميساط
الرها
البيرة
حران
سروج
الرقة
تل باشر
بالس
جعبر
الفرات
سيس
أنطاكية
حلب
قبرص
نهر العاصي
حماة
حمص
طرابلس
دمشق
عكا
نهر الأردن
القدس
البحر المتوسط
دمياط
المنصورة
القاهرة

نصُّ قلعة دمشق:

1 ـ بسم الله الرحمن الرحيم، وصلَّ الله على مُحمَّد وآله، أمر بعمارة هـذا الـبُرج المُبـارك مولانـا الـسُّلطان الملـك العـادل المُجاهـد المُـرابط المُظفَّـر المُؤيَّـد المنـصُور سـيف الـدُّنيا والـدِّين، سُلطان الإسلام والمُسلمين، قاتل الكَفَرَة والمُشركين، قاهر الخوارج والمُتمرِّدين، ملك الـديار المـصريَّة والشامية والأخلاطية، أبو بكر بن أيُّوب بن شادي خليل أمير المُؤمنين، أدام الله سُلطانه.

3 ـ وبنى هذا البُرج العبد الفقير إلى رحمة الله تعالى الملك المنصُور مُحمَّد بن عُمر بـن شـاه نـشاه بن أيُّوب، أعزَّ الله نصرَه بتولِّي نايبه أبي الغنايم بن عبد الرحمن بن سـيف القرشـى الملكـي المنـصُوري سنة ستٍّ وستُّماية.

The citadel of Damascus, Vol.2

A dissertation submitted in partial satisfaction of the requirement for the degree of Doctor of Philosophy in history

By: Paul Edward Chevedden_ 1986.

وثائق تتعلّق بغزو التّتار للشام

سفارة ابن شدّاد من قِبَل النّاصر الثّاني إلى هُولاكُو:

قال ابن شدّاد: خرجتُ من دمشق رسولاً إلى التّتَر النازلين على مَيّافارقين، في مُستهلّ المُحرَّم، صُحبة الملك المُفضَّل صلاح الدِّين يُوسُف ابن الملك المُفضَّل مُوسى بن صلاح الدِّين، وأخرج معنا الملكُ النَّاصر أولادَهُ الثلاثة وحريمه ليكونوا بحلب، وهُم: الملك العادل، والملك الأشرف، وولد آخر صغير. وأمر أن نأخذ معنا من حلب هدية إلى يشموط، وهي ألف وخمس مئة دينار عيناً، وحياصة مُجوهرة، وسيف مُجوهر.

ثُمَّ وصلنا إلى حلب في الخامس عشر من المُحرَّم، وخرجنا منها في الثّالث والعشرين منه، فوصلنا إلى حَرَّان في الثّامن والعشرين. ورحلنا منها مُستهلّ صَفَر، فوصلنا إلى ماردين في الرَّابع منه، فأقمنا بها ليلتَيْن، واجتمعنا بالملك السَّعيد ـ صاحبها ـ، وأنهينا إليه رسالة من الملك النَّاصر مُشافهة، تتضمَّن استشارته في أمر التّتَر، فلم يُجبنا بكلمة، وقال: قد ضجرتُ من نُصحي إيّاه.

ثُمَّ توجَّهنا إلى مَيّافارقين، فوافينا في طريقنا على مدينة صُور طائفة من التّتَر قاصدين الإغارة على الجزيرة، ومُقدّمها هندو خان، فقدَّمنا له تقدمة، وانفصلنا عنه، بعد أن بطقنا إلى مادرين، وحَرَّان، وحلب، بتجفيل من بها. ثُمَّ رحلنا من صُور، وعبرنا الشطَّ، فنزلنا منزلة وصل إلينا فيها من المغل جماعة كبيرة، ومعهم أمير يُقال له: صقلبو، فنزل عندنا، وطلب منّا طعاماً، فأطعمناه. ثُمَّ رحلنا، ونزلنا منزلة أُخرى، فوصل إلينا من التّتَر جماعة، ومعهم قامات، فعرضوا جميع أصحابنا، وما معنا من الدوابّ، ثُمَّ أوقدوا ناراً في ناحيتَيْن، ومرُّوا بنا بينهما، وهُم يضربوننا بالعصي، وأخذوا من عرض الثياب ثوباً خطائياً مُذهَّباً، فقطعوا منه قَدْرَ ذراع، ثُمَّ قطعوا الذراع قطَعاً صغاراً، ولفُّوها، وأحرقوها بالنار، ثُمَّ قالوا: إيل خان يأمركم أن تستريحوا الليلة، وتحضروا عنده غداً.

فلمّا أصبحنا، حضر إلينا جماعة، وأخذوا ما كان معنا من الهدية، وحملوها بين أيدينا، وأمرونا بالمسير معهم، فلمّا حضرنا عنده، أدّيْنَا الرسالة، وكان مضمونها التهنئة بالقُدُوم، والشكوى من تعرُّضهم لبلاد الجزيرة، وقتل مَنْ بها من الرعية. ونمنُّ عليهم بانقياده إليهم مُنْذُ عشرين سنة، طوعاً،

واختياراً، وبما يبعثه من الهدايا والأموال التي لم تجد عليه شيئاً. فلمّا سمعوا الرسالة، أذنوا لنا في الانصراف إلى المكان الذي أنزلنا فيه.

فلمّا كان من الغد، أحضرونا، وأسمعونا كلاماً غليظاً، وقالوا: إن رعاياكم قاتلونا، وبدؤونا بالحَرْب، وإنَّا لم ندخل الجزيرة إلاَّ في طلب أعدائنا التُّركمان والعَرَب. وطلبتُ منهم ما كانوا أخذوه من بلد حَرَّان، أو العوض عنه، وقُلتُ: متى لم تُنصفونا، خرجنا عن الطاعة، فأغاظهم ذلك، وقالوا لي: كم لكَ رأس؟! مَنْ ذا الذي يُقابل إيل خان بهذا الكلام؟ ثُمَّ أقامونا مُزعجين، ومرُّوا بنا على قَتْلَى، وقالوا لنا: إنْ لم تكونوا عُقلاء، وإلاَّ كُنتُم مثل هؤلاء.

ذِكْرُ ما جرى لي مع نُوَّاب صاحب مَيَّافارقين:

كُنَّا قدَّمنا القول بأنَّ التَّتَر طلبوه لَمَّا نزلوا على مَيَّافارقين، فأنكروه، فلمّا تحقَّقوا أنَّه فيها، أُحضرتُ بعد يومَيْن من هذه المُحاورة، وقيل لي: صاحب مَيَّافارقين يطلبكَ، فقُلتُ: ما لي عنده حاجة، فقالوا: تتوجَّه إليه بأمرنا، فقُلتُ: ما أمرني صاحبي بذلك، فقالوا: لابُدَّ من مضيّكَ إليه، فقُلتُ: ما الذي أقول له إذا اجتمعتُ به؟ قالوا: تقول له: قد جئنا من عند الملك النَّاصر لنشفع فيكَ، على أن تخرج إلى إيل خان، وتكون في طاعته. فأبيتُ تحمُّل هذه الرسالة، فأمروا بإخراجي، ومرُّوا بي على واد مملوء قَتْلَى، وقالوا: أنتَ إلى ساعة أُخرى من هؤلاء، فقُلتُ: لا يدفع قضاءَ الله بحيلة.

فسألني بعض كُبرائهم عن المانع من الدُّخُول إليه، والاجتماع به، قُلتُ: هؤلاء يُريدون أن يعملوا بي حيلة، حتَّى أُخرجَ صاحبها، فيقتلوه، ويملكوا البلد، فيقتلوا مَنْ فيه، وأكون السبب في ذلك، فاستعظم ما قُلتُه! وقال لي: لا تتكلَّم بهذا، تُقتَل. ثُمَّ إنَّهم أمروني بالاجتماع به، وألحُّوا في ذلك، فشرطتُ عليهم أنْ لا يخرج إليهم، ولا يخرج من البلد، وأنَّهم يرحلون متى تمَّ الصُّلح بينه وبينهم.

ثُمَّ تقدَّمتُ إلى باب المدينة ومعي أزدمر بن بايجو، فلمّا وصلنا إلى بابها، خرج إلينا علم الدِّين الأعسر ـ واليها ـ فقُلتُ له: قد أخذَت المسألة منكم ومنهم حقَّها، وأنتم أخبر بمصلحتكم. وتردَّدنا بينهما ثلاثة أيَّام، وهُم ـ مع ذلك ـ يبعثون إلينا الشواء، والحلوى، والدجاج، ليظهروا بذلك قُوَّة، وكانوا في ضيق من الحال شديد. وقرَّرنا الصُّلح على مئة ألف درهم سُلطانية، وستَّة آلاف نصفية من

عمل البلد، وثلاثين جملاً، وثلاثين بغلاً، وسبعين فَرَساً. فأخرجوا لنا بعضها، وقالوا: متى رحلوا سَيَّرْنَا الباقي إليهم، فرحلوا من غربي البلد إلى شرقيه،عازمين على الرحيل.

فوردتْ عليهم كُتُبٌ من بدر الدِّين ـ صاحب المَوصل ـ يُخبرهم فيها: أن الشهرزورية والأُمراء الصالحية وصاحب الكَرَك قد اتَّفقوا على الملك النَّاصر، وأخرجوا عساكره من البلاد، وألجؤوهم إلى دمشق، وقد عزم على الهرب منها. هذا وكُتُبُهُ تصل إليَّ، يُحرضني على ترحيل التَّتَر عن مَيَّافارقين، والإصلاح بين الملك الكامل وبينهم، فلمَّا وقفوا على مُكاتبته، عدلوا عن الصُّلح، ومالوا إلى الغدر. وكان القتال قد بطل أيَّاماً، فاغتنم الملكُ الكاملُ الفُرصةَ في عمارة ما هدمته المجانيق من السُّور. فأُحضرنا عند يشموط، وسألنا عن الأُمراء الصالحية، وعدَّتهم، فأخبرتُهُ أنَّهم شُجعاء الإسلام، وهُم الذين كسروا عسكر اريد افرانس على دمياط. وأنَّهم يكونون ألف فارس، فأنكروا ذلك، وقالوا: إن عدَّتهم أقلُّ من هذا، فقُلتُ لهم: أنا أعرف الذي نقل إليكم. ثُمَّ جدُّوا في القتال، وأمروني بالعود.

النَّصُّ كما ورد في: (الأعلاق الخطيرة، ابن شدَّاد،3 / 2 / 491 ـ 497).

رسالة هُولاكُو إلى النَّاصر الثَّاني بعد سُقُوط بغداد، وقد كتبها له بالعَرَبيَّة نصير الدِّين الطوسي:

أمَّا بعد: فقد نزلنا بغداد سنة ستّ وخمسين وستّمائة، فساء صباح المُنذرين، فدعونا ملكها، فأبى، فحقَّ عليه القول، فأخذناه أَخْذاً وبيلاً. وقد دعوناكَ إلى طاعتنا، فإنْ أتيتَ، فَرَوْحٌ ورَيحان، وإنْ أبيتَ، فخزْيٌ وخُسران، فلا تكنْ كالباحث عن حتفه بظلفه، والجادع مارن أنفه بكفِّه، فتكون من الأخسرين أعمالاً، الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدُّنيا، وهُم يحسبون أنَّهم يُحسنون صُنعاً، فما ذلك على الله بعزيز، والسلام على مَن اتَّبع الهُدى.

النصُّ كما ورد في:

1 ـ (جامع التواريخ للهمذاني، ج2، ق1 ـ 296).

2 ـ (وثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة والغزو المغولي للعالم الإسلامي، مُحمَّد ماهر حمادة، 351).

رسالة أُخرى من هُولاكُو إلى الملك النَّاصر:

يعلم سُلطان مصر ناصر، طال بقاؤه، إنَّا لَمَّا توجَّهنا إلى العراق، وخرج إلينا جُنُودهم، فقتلناهم بسيف الله. ثُمَّ خرج إلينا رُؤساء البلد، ومُقدَّموها، فكان قُصارى كلامهم سبباً لهلاك نُفُوس تستحقُّ الإهلاك. وأمَّا ما كان من صاحب البلد؛ فإنَّه خرج إلى خدمتنا، ودخل تحت عُبُوديَّتنا، فسألناه عن أشياء كذَّبَنَا بها، فاستحقَّ الإعدام، وكان كذبه ظاهراً، ووجدوا ما عملوا حاضراً.

أجبْ ملك البسيطة، ولا تقولنَّ: قلاعي المانعات، ورجالي المُقاتلات. ولقد بلغنا أن شرذمة من العَسْكَر التجأت إليك هاربة وإلى جنابكَ لائذة:

أيـن المفـرُّ ولا مفـرَّ لهـارب   ولنـا البسيطان الثـرى والمـاء

فساعة وُقُوفكَ على كتابنا تجعل قلاع الشَّام سماءها أرضها، وطُولها عرضها، والسلام.

النَّصُّ كما ورد في:

(وثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة والغزو المغولي للعالم الإسلامي، مُحمَّد ماهر حمادة، 352)

رسالة أُخرى من هُولاكُو إلى الملك النَّاصر:

أمَّا بعد: فنحنُ جُنُود الله، بنا ينتقم ممَّنْ عتا، وتجبَّر، وطغى، وتكبَّر، وبأمر الله ما ائتمر، إنْ عُوتب، تنمَّر، وإنْ رُوجع، استمرَّ، وتجبَّر. ونحنُ قد أهلكنا البلادَ، وأَبَدْنَا العبادَ، وقتلنا النسوانَ، والأولادَ، فأيُّها الباقون؛ أنتم بمَنْ مضى لاحقون، ويا أيُّها الغافلون؛ أنتم إليه تُساقون. ونحنُ جُيُوش الهَلَكَة، لا جُيُوش المملكة، مقصودنا الانتقام، وملكنا لا يُرام، ونزيلنا لا يُضام، وعدلنا في مُلكنا قد اشتهر، ومن سُيُوفنا أين المفرُّ:

أيـــن المفـــرُّ ولا مفـــرَّ لهـــارب ولنـــا البـــسيطان الثـــرى والمـــاء

ذلَّـــت لهيبتنـــا الأُســـود فأصـــبحت في قبـــضتي الأُمـــراء والخُلفـــاء

ونحنُ إليكم صائرون، ولكم طالبون، ولكم الهرب، وعلينا الطلب:

ســـتعلم لـــيلى أيَّ ديـــن تـــداينت وأيَّ غـــريم بالتقـــاضي غريمهـــا

دَمَّرْنَا البلادَ، وأَيْتَمْنَا الأولادَ، وأَهْلَكْنَا العبادَ، وأَذَقْنَاهُم العذابَ، وُجَعَلْنَا عظيمَهُم صغيراً، وأميرهم أسيراً. أَ تحسبون أنكم منَّا ناجون، أو مُتخلِّصون؟ وعن قليل سوف تعلمون على ما تُقدمون، وقد أُعذرَ من أَنْذَرَ، والسلام .

النَّصّ كما ورد في: (شذرات الذهب، الحنبلي،2/ 272ـ273).

كتاب هُولاكُو إلى أهل دمشق بعد هُرُوب الملك النَّاصر، وقد قُرِئ الكتاب في الجامع الأُموي، وكان منه:

أمَّا بعد: فنحنُ جُنُود الله، بنا ينتقم ممَّنْ عتا، وتجبَّر، وطغى، وتكبَّر، وبأمر الله ما ائتمر، إنْ عُويف تنمَّر، وإنْ رُوجع، استمرَّ، ونحنُ قد أَهْلَكْنَا البلادَ، وَأَبَدْنَا العبادَ، وَقَتَلْنَا النسوانَ، والأولادَ، ولا نُبقي على وجه الأرض منكم أحداً، فيا أيُّها الباقون؛ أنتم بمَنْ مضى لاحقون، ويا أيُّها القافلون؛ أنتم إليها تُساقون، ونحنُ جُيُوش الهَلَكَة، لا جُيُوش الملكة، مقصودنا الانتقام، ومُلكنا لا يُرام، ونزيلنا لا يُضام، وعدلنا في مُلكنا قد اشتهر، ومن سُيُوفنا أين المفرّ.

أيــــن المفــــرُّ ولا مفــــرَّ لهـــارب   ولنـــا البـــسيطان الثـــرى والمـــاء

ذلَّـــت لهيبتنـــا الأُسُـــود فأصـــبحت   في قبـــضتي الأُمـــراء والخُلفـــاء

ونحنُ إليكم صائرون، ولكم الهرب، وعلينا الطلب:

ســـتعلم لـــيلى أيَّ ديـــن تـــداينت   وأيَّ غـــريم بالتقـــاضي غريمهـــا

دَمَّرْنَا البلادَ، وأَيْتَمْنَا الأولادَ، وأَهْلَكْنَا العبادَ، وأَذَقْنَاهُم الألـيمَ، وَجَعَلْنَا عظـيمهم صـغيراً، وأميرهم أسيراً، تحسبون أنكم منَّا نـاجون؟! أو مُتخلِّصون! وعـن قليـل سـوف تعلمـون عـلى مـا تُقدمون، وقد أُعْذرَ مَنْ أَنْذَرَ.

النَّصّ كما ورد في:

المُختار من حوادث الزَّمان، ابن الجزري، 255 .

تاريخ الخُلفاء، السُّيُوطي، 224 – 225 .

السُّلُوك، المقريزي، 1 / 514.

ذيل مرآة الزَّمان، اليونيني،1/ 357.

وثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة والغزو المغولي للعالم الإسلامي، مُحمَّد ماهر حمادة، 353.

رسالة نصير الدِّين الطوسي من قبَل هُولاكُو إلى أهل الشَّام:

قُل اللَّهُمَّ فاطر السموات والأرض. الذي يُعْلِم به جمال الدِّين بكتمر، وعلاء الدِّين القيمري، وسائر أُمراء الشَّام والأجناد.

اعلموا إنَّا جُند الله، خَلقَنَا من سخطه، وسَلَّطنا على مَنْ حَلَّ عليه غضبه، لا نـرقُّ لـشاك، ولا نرحم عبرة باك. قد نزع الله الرحمةَ من قُلُوبنا، فالويل، كُلُّ الويل، لِمَنْ لم يكـن مـن حزبنـا. قـد خَرَّبْنَـا البلادَ، وأَيْتَمْنَـا الأولادَ، وأَظْهَرْنَـا في الأرض الفـسادَ. خُيُولنـا سـوابق، ورماحنـا خـوارق، ولُيُوثنـا سواحق، وقُلُوبنا كالجبال، وعَدَدُنا كالرمال. مَنْ رام سلْمَنَا سَـلمَ، ومـن رام حَرْبَنَـا نـدمَ، فمُلكنـا لا يُرام، وجارنا لا يُضام. فإنْ قبلتُم شرطنا، وأطعتُم أمرنا، كان لكم ما لنا، وعليكم ما علينـا. وإن أنـتُم خالفتُم، وأبيتُم، وعلى غيِّكم تماديتُم، فلا تلوموا إلاَّ أنفسكم.

الحُصُون بين أيدينا لا تمنع، والعساكر لقتالنا لا تردُّ، ولا تدفع، ودُعاؤكم علينا لا يُستجاب، ولا يُسمَع، لأنكم أكلتُم الحرامَ، وأظهرتُم البدعَ، وحنثتُم بالأيمان، وضيَّعتُم الجُمَعَ، وتفاشيتُم الحسدَ، والطُّغيانَ، فاستبشروا بالمذلَّة، والهوان. فاليوم تُجزون عذاب الهون بما كُنتُم تستكبرون في الأرض بغير الحقِّ، وبما كُنتُم تفسقون، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنقلب ينقلبون.

وقد ثبت عندكم أنَّنا كَفَرَة، وحقَّ عندنا أنكم فَجَرَة، وقد سلَّطنا عليكم مَنْ بيده أُمُور مُقدَّرة، وأحكام مُدبَّرة. فعزيزكم لدينا ذليل، وكثيركم لدينا قليل، والأمن والخوف لِمَنْ هو بين أيدينا طويل، فإنَّا مُلُوك الأرض، شرقاً وغرباً، وأصحاب الأموال سلباً ونهباً، وآخذون كُلَّ سفينة غصباً. فمَيِّزوا بعُقُولكم طُرُق الصواب، وأسرعوا إلينا برَدِّ الجواب، من قبل أن تستعر الحَرْب نارها، وترمي إليكم شرارها، فلم يَبقَ لكم باقية، وتضحى الأرض منكم خالية، ويُنادي عليكم مُنادي الفناء: فهل تحسبنَّ منهم مَنْ أجاب؟ أو تسمع لهم ركزاً؟ وقد أنصفناكم إذْ سألناكم، ونثرنا جواهر الكلام، والسلام.

جواب أهل الشَّام على رسالة هُولاكُو:

قُل اللّهمَّ على كُلِّ شيء قدير. والحمد لله، والصلاة على سيِّدنا مُحمَّد النبي الأُمِّي.

جواب على كتاب وَرَدَ فجراً من الحضرة الخاقانية، والسدة السُّلطانية، نصرَ الله أشدها، وجعل الصحيح مقبولاً عندها، وبان أنكم مخلوقون من سُخطه، مُسلَّطون على مَنْ حلَّ عليه غضبه، ولا ترقُّون لشاك، ولا ترحمون عبرة باك، قد نزع الله الرحمة من قُلُوبكم، وذلك من أكثر عُيُوبكم، فهذه صفات الشياطين، لا صفات السلاطين، كفى بهذه الشهادة لكم واعظاً، وبما وصفتُم به أنفسكم ناهياً، وآمراً. قُلْ يا أيُّها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون. ففي كُلِّ كتاب لُعنتُم، وبكُلِّ قبيح وُصفتُم، وعلى لسان كُلِّ رسول ذُكرتُم، وعندنا خبركم من حيثُ خُلقتُم، وأنتم الكَفَرَةُ كما زعمتُم، ألا لعنة الله على الكافرين.

وقُلتُم: إنَّنا أظهرنا الفساد، ولا عُدَّ من أنصار فرعون مَنْ تمسَّك بالأُصُول، ولا يُبالي بالفُرُوع. ونحنُ المُؤمنون حقّاً، لا يُداخلنا عيب، ولا يصدُّنا غيب، القُرآن علينا نزل، وهُو رحيم بنا لم يزل، تحقَّقنا تنزيله، وعرفنا تأويله. إنَّما النار لكم خُلقَتْ، ولجُلُودكم أُضرمَتْ؛ إذ السماء انفطرت. ومن أعجب العجب تهديد اللُّيُوث بالرتوت، والسِّباع بالضِّباع، والكُماة بالكراع. خُيُولنا برقية، وسهامنا يمانية، وسُيُوفنا مضرية، وأكتافها شديدة المضارب، ووصفها في المشارق والمغارب، فُرساننا لُيُوث إذا

ركبت، وأفراسنا لواحق إذا طلبت، سُيُوفنا قواطع إذا ضربت، ولُيُوثنا سواحق إذا نزلت، جُلُودنا دُرُوعنا، وجواشننا صُدُورنا، لا يصدع قُلُوبنا شديد، وجمعنا لا يُراع بتهديد، بقُوَّة العزيز الحميد، لا يهولنا تخويف، ولا يُزعجنا ترجيف. إنْ عصيناكم، فتلك طاعة، وإنْ قتلناكم، فنعم البضاعة، وإنْ قُتلنا، فبيننا وبين الجنَّة ساعة.

قُلتُم: قُلُوبنا كالجبال، وعددنا كالرمال، فالقصاب لا يهوله كثرة الغنم، وكثرة الحطب يكفيه قليل الضرم. أَ فيكون من الموت فرارنا؟ وعلى الذُّلِّ قرارنا؟ ألا ساء ما يحكمون! الفرار من الدنايا، لا من المنايا، فهُجُوم المنيَّة، عندنا، غاية الأُمنيَّة. إنْ عشنا، فسعيداً، وإنْ متنا، فشهيداً، ألا إن حزب الله هُم الغالبون. أَ بَعَدَ أمير المُؤمنين، وخليفة رسول ربِّ العالمين، تطلبون منَّا الطاعة؟! لا سمعاً لكم، ولا طاعة. تطلبون أن نُسلِّم إليكم أمرنا قبل أن ينكشف الغطاء، ويدخل علينا منكم الخطا. هذا كلام في نظمه تركيك، وفي سلكه تسليك، ولو كُشف الغطاء، ونزل القضاء، لبان مَنْ أخطأ، أَ كُفْرٌ بعد الإيمان، ونقضٌ بعد التبيان.

قُولُوا لكاتبكم الذي رصف مقالته، وفخَّم رسالته، ما قصَّرتَ بها قصدتَ، وأوجزتَ وبالغتَ: والله؛ ما كان عندنا كتابكَ إلاَّ كصرير باب، أو طنين ذُباب، قد عرفنا إظهار بلاغتك، وإعلانَ فصاحتكَ. وما أنتَ إلاَّ كما قال القائل: حفظتَ شيئاً، وغابتْ عنكَ أشياء. كتبتَ: سيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنقلب ينقلبون. لكَ هذا الخطاب، وسيأتيكَ الملك النَّاصر، وبكتمر، وعلاء الدِّين القيمري، وسائر أُمراء الشَّام ينفرون الإيصال إلى جهنَّم، وبئس المهاد، وضرب اللّمم بالصماصم الحداد. وقُلْ لهم: إذا كان لكم سماحة، ولديكم هذه الفصاحة، فما الحاجة إلى قراءة آيات، وتلفيق حكايات، وتصنيف مُكاتبات؟ وها نحنُ مُؤخَّر الصّفر موعدنا الرّستن، وألا تعدنا بإمكان السِّلْم، بل قُلنا ما حضر، والسلام.

وَرَدَ نصُّ الرسالتَيْن في:

مخطوطة مكتبة الدِّراسات العُليا، جامعة بغداد، رَقْم: 975، (نشر صُورتها د. عبد الأمير الأعسم، في كتاب: الفيلسوف نصير الدِّين الطوسي، 163 ـ 169، دار الأندلس، بيروت / 1975).

رسائل فرنجة الأرض المحتلَّة إلى أوروبا

رسالة مُقدَّم الدَّاويَة في عكَّا بيتر دي مُونت آليوت إلى أسقف إلمنيوم، يشرح فيها أوضاع المملكة بعد الاستيلاء على دمياط:

إلى أخينا المُحترم في المسيح، يُرسل إليكم تحياته ن.n ، بنعمة الرّبّ أسقف إليمنيوم Elimenum، وبطرس دي مُونت آليوت مُقدَّم فُرسان الدَّاويَة.

نُعلم قداستكم بالرسائل المعروضة أمامكم عن سَيْر أُمُور مولانا يسوع المسيح مُنْذُ الاستيلاء على دمياط وعلى قلعة تنيس، وليكن معلوم لديكم بالمقام الأوَّل أنَّه بعد الاستيلاء المذكور، وصل إلى دمياط عدد من الحُجَّاج، شكَّلوا مع بقيَّة الجيش الذي بقي، ما فيه كفاية لشحن دمياط، وللدفاع عن المُعسكر، ومولانا النائب البابوي ورجال الدِّين، يرغبون في تقدُّم قضيَّة جيش المسيح، ولذلك غالباً ما يقومون بحَثِّ الناس، وتحريضهم للهُجُوم على المُسلمين، لكنَّ نُبلاء الجيش، وكذلك الذين في مناطق ما وراء البحر ومعهم الذين هُم من جانبنا من المياه، يرون أن الجيش ليس كافياً للدفاع عن المدينتَيْن المُتقدِّمَتَيْ الذِّكْر والقلعتَيْن، وفي الوقت نفسه؛ لا يُمكن المضي أبعد في سبيل منفعة المَسيحيَّة، ولذلك هُم لم يُوافقوا على هذه الخُطَّة، لأن سُلطان مصر مع حشد لا يُحصى عدده من المُسلمين، قد نصب مُعسكره قُرب دمياط، وبنى على كُلِّ فرع من فُرُوع النهر جُسُوراً ليُعيق تقدُّم الصليبيين، وهُو هُناك مع جيش عملاق، وأن يقوم الصَّليبيُّون بالتقدُّم أكثر، فإنَّهم ـ وقتها ـ سوف يكونون في خطر هُو الأعظم، ومع ذلك؛ لقد قُمنا بتحصين المدينة المذكورة، والمُعسكر، والساحل القريب منَّا، بخنادق من جميع الجهات، مُتوقِّعين أن تتمَّ مُواساتنا من قبل الرَّبِّ بوساطة مُساعدة الذين هُم قادمين لمُساعدتنا.

ورأى المُسلمون ـ على كُلِّ حال ـ عدم كفايتنا، فسلَّحوا جميع غلايينهم، وبعثوا بهم إلى البحر في شهر أيلول، وسبب هؤلاء خسارة كبيرة أَلَمَّتْ بالصليبيين الذين كانوا قادمين لتقديم العون إلى الأرض المُقدَّسة، وكان هُناك في جيشنا عجز كبير بالمال، إلى حَدِّ أنَّه لم يعد بإمكاننا الحفاظ على سُفُننا لأيَّة مُدَّة أطول. ولدى معرفتنا بأنَّ خسائر كبيرة تنزل بالجيش الصليبي، بوساطة غلايين المُسلمين تلك، قُمنا على الفور بتسليح غلايينا، وسُفُننا، ومراكبنا الأُخرى للتصدِّي لهم. وليكن ـ أيضاً ـ

معروفاً لديكم بأنَّ المُعظَّم سُلطان دمشق، قد حشد جيشاً كبيراً من المُسلمين، ولدى معرفته بأنَّ مدينتَيْ عكَّا، وصُور، لم تكونا مُزوَّدَتَيْن بما يكفي من الفُرسان والجُنُود للتصدِّي له، قام - بشكل مُستمرٍّ - بإلحاق الأذى الشديد بهذَيْن المكانَيْن، بشكل سرِّيٍّ، وبشكل علني.

وبالإضافة إلى هذا، غالباً ما جاء، ونصب مُعسكره أمام مُعسكرنا، الذي اسمه: المحجّ - عثليت، مُلحقاً بنا كُلَّ أنواع الأذى، كما أنَّه حاصر قيسارية في فلسطين، واستولى عليها، مع أنَّه كان هُناك عدد من الحُجَّاج مُقيمين في عكَّا.

وعليَّ - أيضاً - أن أُخبركم بأنَّ الأشرف ابن سيف الدِّين، وأخا سُلطانَيْ مصر ودمشق، يُقاتل مع جيش قوي ضدَّ المُسلمين في المناطق الشَّرْقيَّة، وقد انتصر على أعظم أعدائه قُوَّة، لكنْ؛ ليس ضدَّ الجميع، لأنَّه بفضل الرّبِّ سوف لن يكون بإمكانه - بسُهُولة - قَهْرهم جميعاً، لأنَّه إذا ما استطاع إنهاء تلك الحَرْب، سوف يكون من المُمكن أن يلتفت باهتمامه نحو كُونتية أنطاكية، أو نحو طرابلس، أو عكَّا، أو مصر، ولسوف نكون في الخطر الأعظم، إذا كان سيتولَّى حصار أيَّة واحدة من قلاعنا، لأنَّنا لن نستطيع - بأيِّ حال من الأحوال - دفعه، وإبعاده.

هذا؛ والحديث عن وُجُود خلافات بين المُسلمين يمنحنا السُّرُور والراحة، علاوة على ذلك؛ إنَّنا مُتوقِّعون - مُنْذُ وقت طويل - وُصُول الإمبراطُور، ونُبلاء آخرين بهم نأمل أن نتحرَّر، ونأمل بوُصُولهم بإنهاء هذه المسألة، التي بدأت بأيدي كثيرة، إلى نهاية سعيدة، ولكنْ؛ إذا خابت آمالنا بشأن هذه المُساعدة، ولم تصل في الصيف المُقبل، الأمر الذي آمل أنْ لا يحدث، سوف يكون وضع البلدَيْن اللذَيْن هُما مصر وسُورية، وما تملَّكناه مُؤخَّراً، والذي نمتلكه مُنْذُ زمن طويل، في موضع شكٍّ.

وبالإضافة إلى ما تقدَّم؛ لقد ظُلمنا نحنُ والناس الآخرين من جانبنا من الغَرْب بالنفقات العالية جدّاً في الاستمرار بهذه الصَّليبيَّة، ووصل الحال والضيق بنا إلى درجة أنَّنا سوف نكون غير قادرين على الإنفاق على حاجتنا الضرورية، ما لم نتسلَّم - بفضل الرحمة اللاهوتية - بأسرع وقت مُمكن المُساعدة من أبناء ديننا المسيحيين.

صَدَرَ في عكَّا في العشرين من أيلول.

النَّصُّ كما وَرَدَ في: الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زكَّار، 45/ 785.

رسالة من فيليب دي آلبيني (619 هـ 1222م) الفارس الإنكليزي في القُدْس إلى رالف إيرل شيستر حول فُقدان دمياط:

إلى صاحب القداسة والمولى والصديق رالف ايرل شيستر ولنكولن، يتمنَّى له صديقه المُخلص فيليب دي ألبيني الصحَّة وخالص العواطف. عليَّ أن أُخبر معاليكم أنَّه في يوم صُعُود العذراء مريم أبحرنا من ميناء مرسيليا، وفي يوم الاثنَيْن قبل ميلاد العذراء نفسها، وصلنا إلى أمام دمياط، وهُناك رأينا عدداً كبيراً من السُّفُن تُغادر البلدة، ولقد تحدَّثتُ مع واحد من المراكب، وقدَّمتُ هدايا إلى الملاحين، وبناءً عليه؛ قدموا، وتحدَّثوا إلينا، وجلبوا إلينا تقارير حزينة جدَّاً، أفادت بأنَّ شعبنا في دمياط، والنُّبلاء في تلك المدينة، وملك القُدْس، والنائب البابوي، ودُوق بافاريا، والدَّاويَة والاسبتاريَّة، مع آخرين كُثُر، بلغ عددهم إلى ألف صليبي، وخمسة آلاف من الفُرسان الآخرين، مع أربعين ألفاً من الجُنُود الرجَّالة، قد مضوا في حملة نحو القاهرة، وذلك على الرّغم من مُعارضة الملك؛ حيثُ ـ كما قيل ـ قد غادروا في يوم عيد القدِّيس بُطرُس في الأغلال، وهذا معناه أنَّه مضى على غيابهم في تلك الحملة ثلاثة أسابيع، أو أكثر، وهُم ـ الآن ـ في حوالي مُنتصف الطريق بين دمياط والقاهرة.

وقدم ـ وقتها ـ سُلطان القاهرة مع أخيه المُعظَّم، ومعهما جميع القُوَّات التي تمكَّنا من حشدها، وغالباً ما هاجما قومنا، وكثيراً ما فقدا بعضاً من رجالهما، وعندما رغب شعبنا بالعودة إلى دمياط، أصبح النهر فائضاً، وطاف لعدَّة أيَّام على طرفَيْه، وانحصر شعبنا بين فُرُوع النهر، ثُمَّ عمل المُسلمون قناة من فرع إلى آخر على مقربة من جيشنا، وفي الوقت نفسه؛ ازداد ارتفاع النهر بشكل كبير جدَّاً، حتَّى إن شعبنا صار رجاله يخوضون في الماء حتَّى رُكبهم، وأوساطهم، ممَّا سبَّب لهم شقاءً عظيماً، وآلاماً، وبذلك صاروا عُرضة إمَّا للقتل، أو الوُقُوع أسرى بيد سُلطان القاهرة، وذلك حسبما يرغب.

وفي ظلِّ هذه الأوضاع وافق شعبنا على هُدنة لُمدَّة ثمانية أعوام، وأبرموها مع السُّلطان، على شرط تخلِّيهم عن دمياط، وتسليمهم لها مع جميع الأسرى الذين لديهم بالأسر. وفي سبيل مُراعاة هذه الهُدنة، وتنفيذها، بقي ملك القُدْس، والنائب البابوي، ودُوق بافاريا والشخصيات الهامَّة الأُخرى بمثابة رهائن، وقدم السُّلطان، وأعطى عشرين رهينة من أجل مُراعاة الهُدنة من جانبه.

وعندما سمعنا بهذه التقارير شعرنا بحُزن عظيم، كما يتوجَّب على كُلِّ مسيحي أن يشعر، وبناءً عليه رأينا أن من الأفضل أن نأخذ طريقنا إلى عكَّا، لأنَّنا لم نرغب أن نكون حُضُوراً لدى تسليم دمياط، وقد وصلنا إلى عكَّا في اليوم التالي لميلاد العذراء مريم، وهُو اليوم الذي أعقب يوم تسليم دمياط إلى السُّلطان، وقد قام السُّلطان نفسه بإطلاق سراح جميع الأسرى الذين كانوا لديه.

وعليَّ - أيضاً - أن أُخبركم أن صاحب الجلالة ملك القُدْس، على نيَّة الذهاب إلى بلادكم، ولذلك أرجوكم أن تُقدِّموا له العونَ، وُفقاً للوُعُود التي عُملت نحو الملك والنُّبلاء الآخرين، لأنَّه من الصعب وصف فضائله الكُبْرَى، التي هي موضع إعجاب.

النَّصُّ كما وَرَدَ في: الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، **45**/ 787.

رسالة الراهب بيتر دي مُونت أليوت مُقدَّم الدَّاويَة إلى آ. مارتل في إنكلترا:

من الراهب ب. **P** دي مُونت أليوت، المُقدَّم المُتواضع لفُرسان الدَّاويَة، إلى أخيه المحبوب في المسيح آ. مارتل - **A. Martel** ، الشاغل لمنصب مُدرِّس في إنكلترا، تحيَّات: لقد كُنَّا - من حين إلى آخر - قد أخبرناكم عن تطوُّر أحوال القضية التي نحنُ بشأنها، والمُتعلِّقة بشُؤُون يسوع المسيح، ونُخبركم - الآن - بانتظام عن الانتكاسات التي واجهناها في أرض مصر، بسبب ذُنُوبنا، فلقد مكث الجيش الصليبي بعد الاستيلاء على دمياط وقتاً طويلاً، دُونما حراك، في ذلك المكان، ولقد ألقى الناس الذين قدموا من مناطقنا في الغَرْب، والذين جاءوا من مناطق ما وراء البحر، الملامة والنقد علينا بسبب هذا السُّلُوك، وقد وصل دُوق بافاريا بمثابة قائد مُمثِّل للإمبراطُور، وقد أوضح للناس بأنَّه قد جاء بغرض الحَرْب ضدَّ أعداء الإيمان المسيحي، وبناءً عليه؛ جرى عقد اجتماع ضمَّ مولانا النائب البابوي، ودُوق بافاريا، ومُقدّمو الدَّاويَة والاسبتاريَّة وطائفة التِّيُوتُون، والإيرلات والبارونات، فيه تقرَّر - بالإجماع - القيام بالتقدُّم. وبعدما جرى الإرسال خلف ملك القُدْس المشهور، جاء مع باروناته ومعه أُسطُول من الغلايين والسُّفُن المُسلَّحة، ووصل إلى دمياط، ووجد جيش الصليبيين مُقيماً في مُعسكره خارج الخُطُوط. وبعد عيد القدِّيسين بُطرُس، وبُولُس، استأنف - وقتها - صاحب الجلالة الملك والنائب البابوي ومعهما الجيش الصليبي كُلّه، الزحف - بشكل نظامي - في كُلٍّ من البرِّ والماء، وقد اكتشفوا وُجُود السُّلطان مع حشد لا يُحصَى من أعداء الصليب، وقد هرب هؤلاء من

أمامهم، وبناءً عليه؛ تابعوا زحفهم من دُون خسائر، حتّى وصلوا إلى مُعسكر السُّلطان، وكان هذا المُعسكر مُحاطاً بنهر، كانوا غير قادرين على عُبُوره، ولذلك أقام الجيش الصليبي مُعسكره على ضفّة النهر، وشيّد جُسُوراً للعُبُور إلى أمام مُعسكر السُّلطان، الذي كُنّا مفصولين عنه بوساطة نهر تنيس، الذي هُو فرع لنهر النيل العظيم. وبعدما أقمنا بعض الوقت هُناك، غادر عدد كبير جيشنا، من دُون الحُصُول على إذن، ولذلك نقص عدد الجيش بعشرة آلاف، أو أكثر. وفي الوقت نفسه، عندما فاض النيل، أرسل السُّلطان غلايين وبراكيس إلى داخل النهر لإعاقة سُفُننا، وفعل ذلك من خلال أقنية، كان فَتَحَهَا، وأَعَدَّها من قبلُ، وبهذه الطريقة؛ لم يكن من المُمكن وُصُول مُؤن إلينا من دمياط، وبذلك حُرمنا من المُؤن، لأن المُؤن تعذّر وُصُولها إلينا عبر البرّ، بسبب أن المُسلمين منعوها من الوُصُول، وهكذا؛ فإن الطريق بالبحر والبرّ الذي كان من المُمكن عبره أن تصل المُؤن الضرورية إلينا بات مُغلقاً. وعقد الجيش اجتماعاً للتباحث من أجل العودة، لكنّ أخوا السُّلطان: الأشرف والمُعظّم، سُلطانا: حلب ودمشق والسلاطين الآخرون، خاصّة سلاطنة: حمص، وحماة، وقلعة جعبر، مع مُلُوك مُسلمين كثير آخرين، وجيش لا يُحصى عدده من المُسلمين، كانوا قد جاءوا لمُساعدتهم، تولّوا قطع طريق تراجعنا، وغادر ـ على كُلّ حال ـ جيشنا أثناء الليل، وسار عبر البرّ والماء، لكنّه فقد كُلّ المُؤن في النهر، وذلك إلى جانب عدد كبير من الرجال، لأنّه عندما فاض النهر، وجّه السُّلطانُ الماءَ في اتّجاهات مُختلفة من خلال مجاري خفيّة وأقنية وترع، كانت كُلُّها قد أُعدّت قبل وقت مضى لإعاقة تراجع الصليبيين، وبناءً عليه؛ تفرّق جيش المسيح بين الأغواط، ولذلك فقد جميع حيوانات الحُمُولة لديه، ومخزوناته، وجميع حاجياته الضرورية تقريباً، وصار بذلك محروماً من المُؤن، وبذلك لم يعدْ بإمكانه الاشتباك بالقتال مع السُّلطان، بسبب أنّه كان مُحاطاً بالنهر، وهكذا بات مُعتقلاً في وسط المياه مثل سمكة. وعندما وجد قادة الجيش أنفسهم في هذا المأزق، وافقوا مُكرهين على تسليم مدينة دمياط إلى السُّلطان، مع جميع الأسرى الذين يُمكنهم العُثُور عليهم في صُور وعكّا، مُقابل الصليب الحقيقي، والأسرى الصليبيين الموجُودين في مصر ودمشق.

وبناءً عليه؛ نبنا مع عدد آخر من الرُّسُل عن الجيش بشكل عامٍّ، وذهبنا إلى دمياط لإخبار الناس في المدينة عن الشُّرُوط التي فُرضت علينا، ممّا أزعج كثيراً أسقف عكّا، والمُستشار، وهنري كُونت مالطا، الذي وجدناه هُناك، ذلك أنّهم رغبوا بالدفاع عن المدينة، وهُو ما توجّب علينا المُوافقة

عليه، لو أمكن فعله، والقيام به مع أيَّة منافع، لأنَّنا كُنَّا بالحري نُؤثر أن نُوضَع في أَسْر دائم على تسليم المدينة للمُسلمين، الذي هُو عار للصليبية. وبناءً عليه؛ قُمنا بعملية بحث دقيقة خلال المدينة، ومع الأفراد والأوضاع المُؤثِّرة، فلم نجد مالاً، ولا أُناساً، يُمكن بوساطتهم الدفاع عن المدينة، ولذلك رضخنا لهذه الاتِّفاقية، وربطنا أنفسنا بالإيمان، وبإعطاء رهائن، ووافقنا على هُدنة ثابتة لمُدَّة ثمانية أعوام، والتزم السُّلطان، حتَّى الانتهاء من الترتيبات، بدقَّة بما كان قد وعد به، وزوَّد جيشنا الجائع بالخُبز والدقيق لقرابة خمسة عشر يوماً، ولذلك تعاطف برحمة مع آلامنا، وساعدنا بقدر ما أنت تستطيع ووداعاً.

النَّصُّ كما وَرَدَ في: الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، **45**/ 789.

وثائق تتعلّق بحملة فريدريك الثّاني

رسالة البابا غريغوري إلى المسيحيين حول اتّفاق الإمبراطُور فريدريك مع الملك الكامل:

من غريغوري الأسقف، عبد عبيد الرّبّ، إلى جميع المُؤمنين المسيحيين.

التحيّات، . . . إلخ.

ليكن معلوماً لدى جماعتكم كُلّها بأننا قد تسلّمنا رسائل من بلاد ما وراء البحر، مُحتواها هُو كما يلي: من جيرالد، الذي هُو برحمة الرّبّ بطريرك القُدْس، ومن ب.p رئيس أساقفة قيسارية، الذي هُو النائب الحقير والمُتواضع للكُرسي الرسولي، ومن ن. N رئيس أساقفة نربونة، ومن ب. P أسقف أُوف وينكستر، ومن و.w أسقف أوف ايكستر، ومن مُقدَّمي الاسبتاريَّة، ومُقدَّمي فُرسان الدَّاويَة، ومن طائفة اسبتارية التّيُوتُون، إلى جميع مَنْ سوف تصلهم هذه الرسائل، تمنّيات الصحَّة في مولانا يسوع المسيح.

نحنُ مُرغمون على إخبار جماعتكم كُلِّها عن حاجاتنا الأكثر إلحاحاً وعجلة، وعن تقدُّمنا في العمل في سبيل قضيَّة مولانا يسوع المسيح، الذي سفك دمه من أجل جميع المُؤمنين الصادقين، وإنَّه ـ مع كثير من القلق والانزعاج في العقل، ومع سفح للكثير من الدُّمُوع ـ تعلمون أن صاحب المقام السامي، الإمبراطُور لم يقدم إلى سُورية، كما كُنَّا جميعاً نأمل بوُصُوله في شهر آب المُنصرم، كما كان قد وعد، ونتيجة لهذا؛ فإن الحُجَّاج من تلك المناطق، عندما سمعوا بأنَّ الإمبراطُور لم يصل في العُبُور المُتقدِّم، وكان تعدادهم أكثر من أربعين ألفاً من الرجال الأشدَّاء، عادوا في السُّفُن نفسها، كما جاءوا، واضعين ثقتهم في إنسان، بدلاً من وضعها في الرَّبِّ. وبعد مُغادرتهم، قد بقي هُنا قرابة الثمانمائة فارس، هُم الذين ما برحوا يصرخون بصوت واحد: دعونا إمَّا أن نخرق الهُدنة، أو اتركونا نُغادر مع بعضنا، وهُم قد أبقوا هُنا ليس من دُون صُعُوبات كبيرة، لأن دُوق أُوف ليمبورغLimburg ، وهُو رجل من أصل نبيل، قد جرى تعيينه قائداً للجيش، في مكان الإمبراطُور، وجرى لهذا عقد مُؤتمر ضمَّ بشكل خاصٍّ: الاسبتاريَّة، والدَّاويَة، والاسبتاريَّة الألمان، وفيه تمَّ الاتِّفاق على أن يقوم الدُّوق المُتقدِّم الذِّكْر بالعمل حسبما يكون الأفضل لصالح المسألة الصَّليبيَّة والأرض المُقدَّسة. ثُمَّ إن الدُّوق سأل،

وتلقَّى النصيحة حول النقاط التَّالية، وظهر في اليوم المُحدَّد بشكل خاصٍّ من أجل القضية المعروضة، أمامنا، وأمام نُبلاء تلك البلاد، وهُناك؛ أعلن ـ بشكل واضح ـ بأنَّه يرغب في خرق الهُدنة، وسأل المُساعدة والنصيحة من الحُضُور حول كيف يُمكنه السير بشكل هُو الأكثر منفعة في سبيل تنفيذ تلك النيَّة، وعندما جرى إخبار الدُّوق ومُستشاريه أنَّه سوف يكون من الخُطُورة بمكان خَرْق الهُدنة، ولأنَّها مُؤكَّدة بالأيمان، سوف يكون ذلك غير مُشرِّف أيضاً، أجابوا بأنَّ صاحب القداسة البابا قد حرم كَنَسياً جميع الصليبيين الذين لن يلتحقوا بهذه الحملة الصَّليبيَّة، مع أنَّه يعلم بأنَّ الهُدنة ينبغي أن تستمرَّ لمُدَّة عامَيْن، وأكثر، وبهذا؛ فهموا بأنَّه يرغب بالحفاظ على هذه الهُدنة، وبالإضافة إلى هذا لن يُبقي الحُجَّاج هُنا من دُون عمل، وكان هُناك ـ أيضاً ـ كثير من الناس قد قالوا بأنَّه ما إنْ يُغادر الحُجَّاج، حتَّى سيقوم المُسلمون بعد مُغادرتهم بمُهاجمتهم، دُون إقامة تقدير للهُدنة، وقال بعضهم بأنَّ الملك الأشرف مشغول بحرب شديدة مع حُكَّام حماة، وحمص، وحلب، ولهذا السبب كان خائفاً ـ أكثر ممَّا هُو مُعتاد ـ من قيام الصليبيين بخَرْق الهُدنة، وإذا ما جرى خَرْق الهُدنة، اعتقدوا بأنَّ الملك الأشرف ـ عندما سيجد نفسه مُعرَّضاً للضغط عليه بالحَرْب من جميع الجهات ـ رُبَّما سيُقدِّم شُرُوطاً للسلام.

وأخيراً؛ وبعد مُناقشات طويلة حول هذه القضايا، وافقوا كُلّهم بالإجماع على الزحف إلى المدينة المُقدَّسة، التي كرَّسها يسوع المسيح بدمه شخصياً، ولكي يكون الوُصُول إليها سهلاً، تقرَّر بالإجماع القيام بالمقام الأوَّل بتحصين قيسارية أوَّلاً، ثُمَّ يافا، الأمر الذي أملوا أن يكونوا قادرين على إنجازه قبل العُبُور الذي سيكون في آب المُقبل، وعندها؛ سوف يكونون في الشتاء المُقبل قادرين بسُرُور على الانطلاق نحو بيت الرَّبِّ، تحت حمايته. وجرى الإعلان عن هذا القرار خارج مدينة عكَّا، في يوم عيد الرسولَيْن سمعان وجُود، وجاء ذلك بحُضُور جميع الحُجَّاج، وهُناك أُمروا ـ بشكل صارم ووقور ـ أن يكونوا جاهزين في اليوم التالي ليوم عيد جميع القدِّيسين، للانطلاق نحو قيسارية.

وبالنسبة للحُجَّاج الذين لم يعرفوا الخُطَّة التي قرَّرها الجيش، لدى سماعهم بهذا، بعد تحصين القلعتَيْن المُتقدِّم ذكرهما، تملَّكتهُم ـ فجأة ـ رغبة عظيمة بالزحف نحو القُدْس، حتَّى إنَّهم بكوا بُكاء كثيراً، وشعروا بأنَّهم تمتَّنوا كثيراً بفضل نعمة الرُّوح القُدُس، حتَّى إن كُلَّ واحد منهم شعر بأنَّه قادر على غلبة ألف من الأعداء، وأن اثنَيْن يُمكنهما قهر عشرة آلاف، ولذلك نحنُ لسنا بحاجة إلى

استخدام كثير من المُثيرات لحثّكم وتحريضكم، لأن هـذه الـضرورات المُلحّـة تتحـدّث عـن نفـسها، وتُطالب بمُساعدة فورية، لأن التأخير يجلب الخطر، والسُّرعة سوف تكـون مُنتجـة لأعظـم المنـافع، ويدعو دم المسيح من هذه البلاد كُلّ واحد منكم، وهذا الجيش الصغير المُتواضع، لكنَّ التقي، يلتمس منكم مُساعدة سريعة، وهُو يضع أمله وثقته بالرَّبِّ، بأنَّ هذا العمل الذي بدأ بكُلِّ تواضع، يُمكـن أن ينتهي بفضله نهاية سعيدة.

وبناءً عليه؛ حثُّوا أنفسكم جميعاً، وليُقم كُلُ واحد منكم ببـذل غايـة جهـده لمُساعدة الأرض المُقدَّسة، لأن هذا يُمكن عدّه القضية العامّة لكم كمُؤمنين، ولجميع الشعب المسيحي، ونحـنُ تحـت عناية الرَّبِّ وتوجيهه لن نتوقّف عن رفع شأن هذه القضية، آملين ـ بثقـة ـ بأنّهـا سـوف تتقـدّم عـلى أيدي المُؤمنين المحفوظين بثقة.

صدر في اللاتيران في الثّالث والعشرين من كانون الأوّل من السنة الأُولى لبابويّتنا.

النَّصُّ كما وَرَدَ في: الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكّار، 45/ 851.

رسالة رسولية تحمل قرار حرمان فريدريك:

من غريغوري، أسقف، إلى ستيفن رئيس أساقفة كانتربري، تحيات، إلخ. .

غالباً ما حدث أن كَنيسَة المسيح قد تغلّبت عليها الاضطرابات، ففي الوقت الذي يُخيَّل إليهـا أنّها تُربِّي الأولاد، وتُغذّيهم، هي ـ بالفعل ـ تُغذّي في صدرها ناراً، وأفاعي، وثعابين، تسعى بأنفاسـها إلى تدمير كُلِّ شيء، وكذلك بنهشاتها، ولهيبها، ولكي يتولّى تدمير التّنّينـات مـن هـذا النـوع، ويهـزم العصابات المُعادية، ولكي يُلطِّف الطباع الصعبة، قام الكُرسي الرسولي في هذه الآونـة ـ وسـط عنايـة كبيرة ـ بتربية واحد من التلاميذ، اسمه الإمبراطُور فريدريك، الذي تسلّم المسؤولية كـما كانـت مـن رحم أُمّه، ورضع من صدرها، وحملته على كتفَيْهـا، وهـي التـي غالبـاً مـا أنقذتـه مـن أيـدي الـذين استهدفوا حياته، وهي التي رَبّتْهُ، وَرَعَتْهُ، حتّى وصل إلى كـمال الـشباب، مُقابـل كثـير مـن المتاعـب والنفقات، وارتقت به إلى مقام الملكيـة، ودفعتـهُ ـ أخـيراً ـ حتّـى أوصـلته إلى القمّـة؛ أيْ إلى المحطّة الإمبراطُوريّة، وكانت واثقة أنّه سوف يكون صولجان الدفاع، وعصا الأيّام الخوالي.

وعندما ذهب إلى ألمانيا، ليتولّى مقاليد الحُكُومة، وضع أمام عينَيْ أُمِّه، ما اعتقد أنّه بشارة سعيدة، لكنْ؛ حتّى نكون صادقين أكثر، ما يُمكن عدُّه بشارة خطيرة، لأنّه قام بمُبادرة منه، وليس بناء على نصيحتنا، ومن دُون معرفة الكُرسي الرسولي، بتثبيت الصليب على كتفَيْه، وعمل تعهُّداً ونذراً ثابتاً بأنّه سوف يذهب لمُساعدة الأرض المُقدَّسة، وحصل بعد هذا على قرار بالحرمان الكَنَسي ضدَّه شخصياً، وضدَّ الآخرين، الذين حملوا شارة الصليب، إذا لم ينطلقوا في وقت مُحدَّد، وطلب بعد هذا، وتلقّى التحليل، لأنّه أعطى ـ أوّلاً ـ يميناً بأنْ يلتزم بقرار الكَنيسَة حول هذه المسألة، وأضفى الكُرسي الرسولي عليه كثيراً من النِّعَم، ودعاه إلى التتويج، صُدُوراً عن هدف صحيح، حتّى يتمكَّن بسُرعة، وبضمان، من الذهاب إلى الأرض المُقدَّسة، وقام هُو ـ ليس من دُون رغبة ـ بناءً على كثير من الوساطات، والرسائل الفخمة، باستخدام راية الصليب حتّى هذه الآونة.

وعندما تسلَّم التاج من يدَيْ هُونُوريُوس، سلفنا صاحب الذكرى الطيِّبة، في كَنيسَة القدِّيس بُطرُس، جدَّد حمل الصليب من يدينا؛ حيثُ كُنَّا ـ آنذاك ـ نشغل منصباً أدنى، وجدَّد ـ بشكل مُعلن ـ تعهُّده، ونذره، وأقنع كثيرين بحمل الصليب، لأملهم بتأييده، وثبَّت موعداً من أجل عُبُور البحر. ثُمَّ إنَّه عقد ـ بعد ذلك ـ مُؤتمراً مع الكَنيسَة الرُّومانيَّة في فيرولي ـ Veroli ، ووقتها؛ أقسم ـ بشكل علني ـ أنَّه سوف ينطلق مع كُلِّ الأُبَّهة، وبما يليق به كإمبراطُور، وذلك في وقت مُحدَّد، تتولّى كَنيسَة رُوما تثبيته، ثُمَّ إنَّه قام ـ بعد هذا ـ في مُؤتمر مُماثل جرى عقده في فيرنتينو ـ **Ferentino**، فثبَّت تاريخاً لإقلاعه يكون بعد عامَيْن من ذلك التاريخ، كما أنَّه وعد ـ أيضاً ـ بقسم مهيب بأنَّه سوف يعبر البحر، وسيتزوَّج الابنة النبيلة لولدنا المحبوب كثيراً في المسيح، جُون ملك القُدْس، وهي التي كانت ـ أيضاً ـ وريثة ذلك الملك المشهور، وقد أضاف أنَّه بهذه الوسائل سوف يربط نفسه بخدمة الأرض المُقدَّسة، ليس مثل الحُجَّاج الآخرين، بل مثل الدَّاويَة والاسبتاريَّة، إلى الأبد.

وعندما اقترب حُلُول الموعد المُحدَّد، بدأ يعمل تعليلات كثيرة، وأعلن أنَّه غير مُستعدٍّ للذهاب، وقدَّم أُعطيَّات كثيرة، ومنافع، وهدايا، حتّى يحصل على تأخير لمُدَّة ثلاث سنوات، وبسبب أن الأُمُور كُلَّها باتت مُتعلِّقة بهذا الأمير، بعد الكَنيسَة الرُّومانيَّة، ولكي لا يجري إلغاء المشروع، وتذهب الجُهُود التي بُذلَتْ من دُون فائدة، عقد الكُرسي الرسولي مُؤتمراً مع عدد من الأساقفة ورجال

آخرين، وناقش القضية، دُون أن يُسقط أيّاً من إشكاليّاتها وظرُوفها، ثُمَّ بعثنا بأخينا المُبجّل ب. P أسقف ألبانو، وغ. G الكاردينال الحامل للقب كاهن القدِّيس مارتن، حتَّى يتولّيا تأكيد الوُعُود التي عملها الإمبراطُور عن طواعية، بتقديم المُساعدة إلى الصليب. ثُمَّ إنهما ـ بناءً عليه ـ عقدا مُؤتمراً مع عدد من مُقدَّمي وزُعماء ألمانيا في كَنيسَة القدِّيس جيرمين Germain، وهُناك قام الإمبراطُور بمُبادرة منه، فأقسم أنَّه خلال عامَيْن من ذلك التاريخ؛ أيْ في عُبُور آب الأخير، سوف يُزيل جميع الأعذار بالتأخير، وسوف يُقلع، وسوف يُبقي هُناك لمُدَّة عامَيْن، على حسابه الخاصّ، ألف فارس، لتقديم العون للأرض المُقدَّسة، وأنَّه سوف يُرسل في العُبُورات الخمسة المُقبلة مائة ألف أونصة Ounces من الذهب لتُدفَع لأشخاص مُحدَّدين هُناك. ثُمَّ قام الكاردينال الكاهن، فأعلن ـ بناءً على مُوافقة الإمبراطُور، وبوساطة سُلطات الكُرسي الرسولي، وأمام المُقدَّمين الموجُودين، وعلى مرأى من الناس المُحيطين ـ قرار الحرمان الكَنَسي، الذي سوف ينزل بالإمبراطُور، إذا لم يُنفِّذ واحداً من الوُعُود المذكورة أعلاه.

وعلاوةً على ذلك؛ تعهَّد الإمبراطُور بجَلْب مائة سفينة وخمسين غليون، والاحتفاظ بهم فيما وراء البحر، وأنَّه ـ إلى جانب هذا ـ سوف يُعطي في أوقات مُحدَّدة عُبُوراً لألفَيْ فارس، وأقسم برُوحه أنَّه سوف يفي بهذه الوُعُود التي ذكرناها. وأبدى رضاه ومُوافقته على تنفيذ الحُكم الصادر ضدَّه وضدَّ مملكته، إذا لم يقم بالوفاء بما وعد به. وأنت تعلم ـ الآن ـ كيف وفى بهذه الوُعُود، لأنَّه تحت ضُغُوطه، وبسبب التماساته، توجَّه عدَّة آلاف من الصليبيين، تحت عُقُوبة الحرمان الكَنَسي، قبل الموعد المُحدَّد، إلى ميناء برنديزي، وسحب الإمبراطُور عطفه من جميع مُدُن الساحل تقريباً. ومع أنَّه غالباً ما أنذر من قبل سلفنا ومن قبلنا نحنُ حتَّى يقوم بجميع الاستعدادات اللازمة، وأن يقوم بإخلاص بالوفاء بكُلِّ ما وعده به، قام بعدم الاهتمام بهذه الوُعُود التي عملها بوساطة رُسُله ورسائله الشخصية، إلى الكُرسي الرسولي، وإلى الصليبيين، وذلك بإرسال الإمدادات وبقيَّة الأشياء المُحتاجة، ولم يُولِ أدنى اهتمام لخلاصه الشخصي، واحتفظ بالجيش الصليبي، وأعاقه في أعلى حرارة الصيف، لمُدَّة طويلة، في مناخ قذر ومُميت، ولذلك هلك عدد كبير من عامَّة الجُند، وليس منهم فقط، بل هلك عدد لا بأس به من النُّبلاء، وذوي المراتب، بسبب الأمراض، والعطش، والحرارة، ولأسباب أُخرى كثيرة، ومات بينهم أسقفا: أنجو، وأوغسبورغ ـ Augsburgh صاحبا الذكرى الطيِّبة، وحوَّل الذين بقوا من الجيش اتِّجاهاتهم للعودة، ومات عدد كبير منهم في الغابات، وفي السُّهول، والجبال،

والكُهُوف، والذين بقوا مع الصُّعُوبات، حصلوا على الإذن بالمُغادرة، ومع أنَّه لم يكن هُناك ما يكفي من سُفُن لحَمْل إمدادات الناس وخُيُولهم كما كان قد وَعَدَ، قاموا في يوم عيد العذراء المُباركة، عندما حان موسم العودة، وأقلعوا مُبحرين، مُعرِّضين أنفسهم للمخاطر، من أجل اسم المسيح، وكانوا يعتقدون بأنَّ الإمبراطُور سوف يتبع خُطواتهم، لكنَّه خرق وُعُوده، وقطع الروابط التي ربط نفسه بها، وألقى جانباً كُلَّ الخوف من الرَّبِّ، ولم يُقدِّم الاحترام إلى يسوع المسيح، ولم يهتمّ بلَوْم الكَنيسَة، وتخلَّى عن الجيش الصليبي، وترك الأرض المُقدَّسة، عُرضة أمام الكُفَّار، واستخفَّ بتقوى شعب المسيح، ولكي يُسبِّب العار لنفسه وللمسيحية انصرف نحو مباهج مملكته، وغادر بعدما تعلَّل بأوهى الأسباب، مُدَّعياً الضعف الجسدي، كما قال.

وتمعَّن الآن، وانظرْ هل هُناك من حُزن مثل حُزن الكُرسي الرسولي، وأُمّك التي غالباً ما جرى خداعها بوحشية وغشّها بابنها الذي أرضعتْهُ، والذي فيه وضعت الثقة بأنَّه سوف يتولَّى تنفيذ هذه المسألة، والذي عليه حشدت كثيراً من الآمال والمنافع. وأخفى ـ في الوقت نفسه ـ نيَّته بالتخلِّي عن قضيَّة الأرض المُقدَّسة عندما تتوفَّر الفُرصة، مُركِّزاً انتباهه على نَفْي الكَهَنَة، والسلب، والأَسْر، وأعمال إيذاء مُضاعفة، أَنْزَلَها بالكنائس، وبالمُمتلكات الدِّينيَّة، وبرجال الدِّين، ولم يستمع إلى كثير من شكاوى الفُقراء، مع كُلٍّ من سواد الناس والنُّبلاء، الذين صرخوا ضدَّه، والذين ـ كما نعتقد ـ دخلت أدعيتهم إلى أُذنيّ المولى ربِّ السماء.

ومع أن كَنيسَة رُوما قد توجَّب عليها حماية ابن لها، نشأ وسط مثل هذه العناية، وجرى الاهتمام به إلى مثل هذا الحَدّ، إنَّها ـ الآن ـ تبكي من أجله، وقد قُهِرَتْ من دُون قتال، وتداعت من دُون وُجُود عدوٍّ، ولعاره الكُلِّيّ، انحطَّتْ بشكل مُشين، وليس أقلّ من هذا كُلّه أسى، هلاك الجيش الصليبي، الذي أخفق، ليس بسبب سُيُوف الأعداء، أو لفُقدانه للشجاعة، لكنَّه تبدَّد بسبب هذه المُصيبة المُرعبة، وهي ـ أيضاً ـ تبكي؛ لأن الجُزء المُتبقِّي من العساكر، هُم عُرضة لمخاطر البحر، وللأمواج الهائجة، من دُون دليل، أو قائد، أو مُقدَّم، مُساقين إلى حيثُ لا يدرون، يُقدِّمون القليل من الفائدة إلى قضيَّة الأرض المُقدَّسة، ونحنُ غير قادرين ـ تبعاً لتعهُّدنا ـ أن نُقدِّم لهم مُواساة، أو مُساعدة، بسبب الوضع العاصف للبحر، وشدَّة وسُوء أوضاع الموسم، والكَنيسَة أكثر من هذا، إنَّها تبكي دمار الأرض المُقدَّسة، التي كُنَّا آملين أن تكون ـ الآن ـ قد أُنقذت من أيدي الكُفَّار، وأن يكون الجيش الصليبي ـ كما قيل ـ قد استردَّها، مُبادلة دمياط، لولا أنَّه مُنع مراراً أن يفعل ذلك بوساطة

رسائل الإمبراطُور. وما كان هذا الجيش نفسه أسيراً في أيدي الكُفَّار، لو تمَّت أعمال تجهيز السُّفُن، وتزويده بها، كما كان قد وعد من قبله، وكان ذلك من المُمكن صنيعه، لأن دمياط قد جرى تسليمها، كما قيل، إلى رُسُله، ووُضعت تحت عُهدتهم، وتزينت بالنسور الإمبراطُوريَّة، وقد جرى نهبها في اليوم نفسه بشكل وحشي، ثُمَّ بعدما جرى تدميرها بشكل مُهين، تمَّت إعادتها من قِبَلهم إلى الكُفَّار، وقد أُضيف - أيضاً - إلى أسانا وخسائرنا المُتقدِّم ذكْرها الجُهُود والنفقات التي تكبَّدناها في دمياط، وذلك بالإضافة إلى المعنويات بين المسيحيين، وكذلك الوقت الذي بُدِّد، وقد جرى إنفاق هذا كُلِّه من دُون مُحصِّلة. . . .

وعلى كُلِّ حال، لكي لا نبدو مثل كلب أخرس، غير قادر على النباح، وأن لا نُظهر أنَّنا غَضَضْنا النظرَ عن هذا الرجل في عدم تقديره للرَّبِّ، من دُون مُعاقبته، وهُو الذي ألحق أذىً عظيماً بشعب الرَّبِّ، إنَّنا نُعلن - مع أنَّنا مُكرهون - أمام الناس أن الإمبراطُور المذكور فردريك هُو محروم كَنَسياً، طالما أنَّه لم يعبر البحر في الوقت المُحدَّد، ولم يُرسل إلى هُناك مبلغ المال الذي جرى الاتِّفاق عليه من قبلُ، كما لم يُحضر إلى هُناك الألف جُندي، للبقاء لمُدَّة عامَيْن على حسابه، من أجل مُساعدة الأرض المُقدَّسة، لكنَّه تقاعس عن تنفيذ هذه الشُّرُوط الثلاثة الواردة في اتِّفاقيَّته، حسبما كان قد ورَّط نفسه عن طوعية، ووضع نفسه في شبكة الحرمان الكَنَسي المُتقدِّم ذكْره، ونحنُ نأمره أن يتجنَّب بدقَّة جميع الناس، ونأمركم أن تُعلنوا شخصياً هذا القرار على الملأ، وأن تتدبَّروا نشره من قبَل أساقفة الكنائس الآخرين، ولسوف نُتابع السيرَ ضدَّه بحدَّة أعظم، إذا ما استدعى تمرُّده ذلك.

ونحنُ علاوةً على هذا، نثق برحمة أبينا المُقدَّس، الذي لا يرغب بهلاك أيِّ إنسان، حتَّى يُمكن لعينَيْ عقله المُظلم، عندما يُدهَن بمرهم الكَنيسَة، إذا لم يكن مُتمرِّداً في قلبه، فسوف يستنير، حتَّى يُمكنه أن يرى عُريه، ويُمكنه أن يتجنَّب العارَ، الذي سقط فيه، وبذلك يُمكنه العودة إلى الطبيب الصحيح، ويُمكنه الرجعة إلى أُمِّه الكَنيسَة، وبتواضع مُوائم صحيح، وبتفكير نقي، يُمكنه - وقتها - تلقِّي الخلاص، لأنَّنا لا نرغب أن يكون خلاصه الأبدي في الرَّبِّ مُعلَّقاً، لأنَّنا أحببناه - من قبلُ - بإخلاص، عندما كُنَّا في منصب أدنى.

صَدَرَ في اللاتيران، في السنة الثَّانية من حبريَّتنا.

النَّصُّ كما وَرَدَ في: الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، 45/ 862.

رسالة البابا غريغوري إلى مندوبه بفرنسا حول فريدريك، وأَخْذه القُدْس:

من غريغوري الأسقف، إلى المندوب الرُّوماني بين الفرنسيين:

تحيَّات، . . . إلخ..

نرجوكَ الانتباه لتعرف هل هُناك أسى مثل أسانا، لأنَّنا وجدنا في الابن الذي ربَّته الكَنيسَة الرُّومانيَّة، ورفعتْهُ إلى أعلى المراتب، على أمل أن تجد فيه بطلاً ضدَّ الكُفَّار، مُضطهداً قاسياً، وعدواً فعَّالاً، وعلينا أن لا نمرَّ بصمت بالأذى الأثيم، والدمار المُريع، الذي أنزله فردريك الإمبراطُور المذكور بشكل مُستمرٍّ بالكَنيسَة، وباللاهوتيين، فهُو ـ الآن ـ يقوم بوسائل المُسلمين، وآخرين، بمُهاجمة ميراث الكُرسي الرسولي، والذي هُو أكثر مَقْتاً، أنَّه يُبرم ـ الآن ـ مُعاهدات مع السُّلطان ومع مُسلمين آخرين، ويُظهر اللُّطف نحوهم، ويُبدي الكراهية المكشوفة نحو المسيحيين، إلى حَدِّ العمل على محْق طائفتيْ الاسبتاريَّة والدَّاويَة، مع أن الآثار المُقدَّسة للأرض المُقدَّسة، قد حُميَتْ من قبَلهما حتَّى الآن، لأنَّه بعدما خُرقَت المُعاهدة بين المُسلمين والصليبيين قد خُرقَت بناءً على أوامره، قام المُسلمون بغارة داخل أراضي الطائفتَيْن المُتقدِّمتي الذِّكْر، وبعدما قتلوا عدداً كبيراً من أتباعهم، أو أخذوهم أسرى، حملوا معهم كمِّيَّات كبيرة من الغنائم، وبعد ذلك؛ هاجمهم الدَّاويَة، وانتزعوا منهم بعضاً يصل ثمنها إلى ستة آلاف مارك، إنَّما الذي حدث هُو أن تُوماس كُونت أتيري ـ Atterae وزير الإمبراطُور، هاجمهم بحدَّة عندما كانوا عائدين، وانتزع منهم ـ بالقُوَّة ـ هذه الغنائم، وفي طاعة من الدَّاويَة لأحكام طائفتهم، لم يتجرَّؤوا على رفع يد مُسلَّحة ضدَّ المسيحيين، وأعاد تُوماس المذكور هذه الغنائم إلى المُسلمين، باستثناء بعض منهم، قد قيل بأنَّه احتفظ بها من أجل استخداماته الشخصية.

وإذا ما أخذ المُسلمون أسلاباً من الصليبيين ليس ـ فقط ـ هُو لا يسعى لاستردادها، بل إنَّه لا يسمح للصليبيين أن يأخذوا أسلاباً من المُسلمين، وبهذه الوسائل؛ صار المُسلمون أكثر وقاحة، وهاجموا بجُرأة شعبنا، وخوفاً من شعبنا من الخيانة، كانوا أقلّ جُرأة في مُقاومتهم، وهكذا؛ فإن إراقة الدّم الصليبي تحوَّلت ـ في بعض الأحيان، لسُوء الحظِّ ـ لصالح كَسْب الإمبراطُور، ويقوم تُوماس المذكور، أو بالحَريّ الإمبراطُور بحُكْم النيابة، الآن باضطهاد الطائفتَيْن المذكورتَيْن أعلاه، وسلب منهما ـ بالقُوَّة ـ بُيُوتهما، ومُمتلكاتهما، التي بين أيديهما. وإظهاراً منه لإخضاعه لامتيازات الكَنيسَة، إنَّه

يسعى - الآن - إلى حرمانها من الامتيازات، التي منحها إيّاها الكُرسي الرسولي، ومن ثَمَّ؛ وضعها تحت حُكْم الإدارة الإمبراطُوريَّة. كما أنَّه جمع مائة عبد كانوا لدى الاسبتاريَّة والدَّاويَة في صقلية وأبوليا، وأعطاهم إلى المُسلمين، دُون أن يُقدِّم أدنى تعويض عنهم إلى الطائفتَيْن المذكورتَيْن، وهكذا فإنَّه - كما ظهر بشكل واضح من الظُّرُوف المُتقدِّمة - هُو يهتمُّ أكثر، ويُقدِّر عبيد مُحمَّد، أكثر من تقديره لعبيد المسيح.

وعليكَ أن تُصدِّق حقيقة أن الإمبراطُور المذكور - كما قيل - قد أنزل إلى البحر مع قلَّة من الفُرسان، لقد أرسل جيشاً كبيراً من المسيحيين مع حشد من المُسلمين، لمُهاجمة ميراث الكَنيسَة، وبذلك قدَّم بُرهاناً واضحاً عن جميع آثامه، لكنْ؛ كما قُلت، لدينا الثقة به، هُو الذي أسَّس كَنيسَته على صخرة الإيمان، بأنَّه لن يسمح بالإطاحة بها، مهما كانت قُوَّة الرياح وعُنفها المُرسَلَة ضدَّها، أو المياه التي تسعى لغلبتها، وبما أنَّه يتآمر - بشكل شرِّير - من أجل القضاء على الإيمان المسيحي، وعليه يصبُّ جام غضبه، نحنُ مُحقُّون في أن نكون في أقصى حالات الرُّعب، ولكنْ؛ مهما استمرَّ ظُلم هذا الرجل غير التقي، وطال، لا يُمكنه السيطرة بذنبه، بل بالحريّ سوف يضيع فيه، وبناءً عليه، إنَّه - بمُوجب الواجب المفروض علينا، مع أنَّنا غير جديرين بذلك - نحنُ مُرغمون على منع نائب مُحمَّد هذا، من الاستمرار بصبِّ جام غضبه على عبيد المسيح، لا، بل بالحريّ سينال الخزي في عُدوانه، وسوف يرتفع شأن مجد الاسم المسيحي، ونحنُ نأمركم بهذه الرسائل الرسولية أن تُذيعوا هذه القضايا في جميع أرجاء بلاد نيابتكم، وذلك من أجل أن يقف الشعب المُؤمن بالمسيح بشجاعة في سبيل العقيدة، وتمسُّكاً بالدِّين الصحيح، ومُراعاة له، وكأن كُلَّ واحد يعمل في سبيل الحفاظ على مصالحه، تماشياً مع التشجيع الذي سوف يستخدمه.

صَدَرَ في اللاتيران، في الخامس من آب، في السنة الثَّانية من حبريَّتنا.

النَّصُّ كما وَرَدَ في: الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، 45/ 871.

رسالة الكُونت تُوماس، أحد نُوَّاب الإمبراطُور إلى سيِّده في فلسطين حول إعطاء البابا الإمبراطُوريَّة للملك جُون:

إلى فردريك السامي والقدير، الذي هُو بنعمة الرَّبِّ أغسطس وإمبراطُور الرُّومان، والملك الأعظم قُوَّة لصقلية، من تُوماس كُونت أُوف أتيري ـ Atterae تابعه المُخلص والمُطيع في جميع المجالات، تمنِّيات الصحَّة والنصر على أعدائه، بعد مُغادرة جلالتكم، حشد غريغوري، الحبر الرُّوماني، والعدوّ المكشوف لمعاليكم، جيشاً كبيراً، بوساطة جُون دي بريين، الملك الماضي للقُدْس، وبعض الرجال الجريئين الآخرين، الذين عيَّنهم مُقدَّمين على حملته، وغزا أراضيكم، وأراضي رعاياكم، دُونما تقدير للشريعة المَسيحيَّة، وقد قرَّر إخضاعكم بسيف الفُولاذ، ذلك أن جُون المذكور قد جمع جيشاً كبيراً من مملكة فرنسا، ومن البُلدان الأُخرى المُجاورة، على أمل الحُصُول على الإمبراطُوريَّة، إذا ما تمكَّن من التغلُّب عليكم. وقد زوَّد عساكره بعطاء من خزانة الكُرسي الرسولي.

ثُمَّ قام جُون المذكور مع المُقدَّمين الآخرين، بغزو أراضيكم، وأراضي رعاياكم، وقد ألقى النيران في الأبنية والبلدات، واستولى على المواشي، وعلى غنائم أُخرى، وجعل السُّكَّان أسرى لديه، بعدما عذَّبهم بمُختلف الطُّرُق، وقد أرغمهم على دفع غرامات ثقيلة، وهُم لم يُوفِّروا، لا عُمراً، ولا جنساً، ولم يُظهروا رحمة إلى أيِّ إنسان خارج الكنائس، أو المقابر، وهُم يستولون ـ الآن ـ على البلدات، وعلى القلاع، دُون المُبالاة بحقيقة أنكَ ـ الآن ـ في خدمة يسوع المسيح، وإذا ما أشار أيُّ إنسان إلى الإمبراطُور، فإن جُون بريين هذا يُعلن أنَّه لا يُوجد إمبراطُور آخر إلى جانبه نفسه.

وأصدقاؤكَ ـ أيُّها الإمبراطُور ـ الأكثر قُدرة قد اعترتْهُم الدهشة تجاه هذه الأشياء، ولاسيما رجال الدِّين، وهُم يتساءلون، بأيِّ نصيحة وبأيِّ شُعُور يُمكن للحبر الرُّوماني أن يفعل مثل هذه الأشياء، ويشنُّ حرباً ضدَّ المسيحيين، وخاصَّة أن الرَّبَّ قد قال لبُطرُس، عندما كان على وشك أن يضرب رجلاً بسيفه الفُولاذي: "ضعْ سيفكَ في غمده، لأن كُلَّ واحد يضرب بالسيف، سوف يُهلك بالسيف".

ومثل هذا هُم ـ أيضاً ـ يتساءلون بأيِّ حقٍّ يُمكن للذي يقوم كُلّ يوم بحرمان اللُّصُوص كَنَسياً، والمُحرِّقين للمسيحيين، والمُعذِّبين لهم، والذي يطردهم من حظيرة الكَنيسَة يُمكنه أن يُفوِّض

ويُعطي مُوافقته على مثل هذه الإجراءات. وبناءً عليه، ألتمس منكَ - أيُّها الإمبراطُور الأعظم قُدرة - أن تتَّخذ ما يلزم من إجراءات من أجل سلامتكَ، وأن تحفظ كرامتكَ، حتَّى لا تتدنَّس بالمسائل المُتقدِّم ذكرُها، لأن عدوَّك جُون دي بريين المُتقدِّم ذكره، قد شحن جميع الموانىء الموجُودة على هذا الجانب من الماء، بعدد كبير من الجواسيس المُسلَّحين، من أجل أنَّه إذا ما حدث وعُدتَ من حجِّكَ يقوموا باعتقالكَ، لا سمح الرَّبُّ بذلك.

النَّصُّ كما وَرَدَ في: الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، 45/ 885.

رسالة فريدريك إلى ملك إنكلترا يُدافع عن نفسه ضدَّ الحرمان:

من فريدريك، الذي هُو بنعمة الرَّبِّ، أغسطس إمبراطُور الرُّومان، وملك القُدْس، وصقلية، إلى صديقه المحبوب كثيراً، الملك هنري، ملك الإنكليز.

تمنِّيات الصحَّة، والعواطف المُخلصة، ليفرح الجميع، ويبتهجوا بالرَّبِّ، وليَقُم الذين هُم مُستقيمون في القلب بتمجيده.

نحنُ نرغب في إعلام قداستكم، بأننا نضع ثقتنا بأنَّ يسوع المسيح، هُو ابنه، الذي بخدمته نحنُ مُعرِّضون أجسادنا بتقوى عظيمة جدَّاً، وكذلك حياتنا، وهُو لن يتخلَّى عنَّا في هذه البُلدان النائية، وغير المعروفة، وهُو سيُقدِّم إلينا - على الأقلِّ - نصيحة صحيحة، ومُساعدة من أجل تشريفه، وحمده، ومجِّده، فبجُرأة انطلقنا باسمه من عكَّا في اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الثَّاني، وَعَبَرْنَا أخيراً، ووصلنا سالمين إلى يافا، عازمين على إعادة بناء القلعة في ذلك المكان بحصانة مُناسبة، حتَّى يكون - فيما بعد - الوُصُول إلى مدينة القُدْس المُقدَّسة ليس فقط أسهل، بل - أيضاً - أسلم، وأكثر أماناً بالنِّسبَة لنا، ولجميع الصليبيين، وبعدما صرنا هُناك واثقين تماماً باعتمادنا على الرَّبِّ، انشغلنا في يافا، وانصرفنا نحو الإشراف نحو بناء القلعة، والاهتمام بقضية المسيح، حسبما تتطلَّب الضرورات، ووُفقاً لما تقتضيه واجباتنا، وفي أثناء انشغال حُجَّاجنا بهذه المسائل، تكرَّر تبادل الرُّسُل بيننا وبين سُلطان مصر، لأنَّه كان مع السُّلطان سُلطان آخر اسمه الأشرف - Xaphat وهُو أخوه، وكانا معاً مع جيش كبير عند غزَّة، على مسافة سفر يوم واحد عنَّا، في اتِّجاه آخر لمدينة شكيم، التي تُعرَف - بشكل عامٍّ -

باسم نابلس، وهي قائمة في سهل، وكان ابن أخوه، سُلطان دمشق، مُقيماً مع عدد كبير من الفُرسان، والجُنود على مسافة سفر يوم واحد، عنَّا، وعن الصليبيين.

وأثناء سَيْر المُفاوضات من أجل عقد مُعاهدة بين الطرفَيْن على كلا الجانبَيْن، من أجل استرداد الأرض المُقدَّسة، تجلَّى - أخيراً - يسوع المسيح ابن الرَّبِّ من الأعلى على صبرنا التقوي، ومُثابرتنا الخاشعة في سبيل قضيَّته، وفي عطفه الرحيم علينا، جعل سُلطان مصر يُعيد إلينا المدينة المُقدَّسة، وهي المكان الذي سار فيه المسيح بقدمَيْه؛ وحيثُ عبد المُؤمنون الصادقون الأب بالرُّوح، وبالحقيقة، وفي سبيل إخباركم عن كُلِّ واقعة من وقائع هذا التسليم كما حدثت، ليكن معلوماً من قبَلكم أنَّه ليست المدينة المُتقدِّم ذكْرها - وحدها - هي التي سُلِّمت إلينا، بل المنطقة كُلّها المُمتدَّة من هُناك إلى ساحل البحر، قُرب قلعة يافا، وذلك في سبيل أن يمتلك حُجَّاج المُستقبل ممرّاً حُرّاً وآمناً للذهاب إلى الضريح المُقدَّس، والعودة منه، على شرط أن مُسلمي ذلك الجُزء من البلاد، بما أنَّهم يُقدِّرون الأقصى تقديراً عظيماً، يُمكنهم أن يأتوا إلى هُناك، ويتردَّدوا عليه بقدر ما يختارون، على شكل زُوَّار للتعبُّد هُناك، وُفقاً لعاداتهم.

هذا؛ ولسوف نسمح إليهم بالقُدُوم من الآن فصاعداً بالعدد الذي نأذن به، من دُون سلاح، كما أنَّهم لا يُمكنهم الإقامة بالمدينة، بل خارجها، وأن يُغادروا فور تأديتهم لعباداتهم. وعلاوةً على هذا؛ أُعيدت مدينة بيت لحم إلينا، مع جميع المنطقة القائمة بين القُدْس وبين تلك المدينة، وكذلك مدينة النَّاصرة، والمنطقة كُلّها القائمة بين عكَّا وتلك المدينة، وجميع منطقة تورون، التي هي واسعة جدّاً، ومُفيدة جدّاً للصليبيين. وأُعطيت مدينة صيدا إلينا - أيضاً - مع جميع السهل، وأحوازها، وسوف تكون أكثر قبولاً للصليبيين، وأكثر منفعة، مثلما كانت حتَّى الآن بالنِّسبَة للمُسلمين، وخاصَّة أنَّه يُوجد ميناء جيِّد هُناك، ومن هُناك من المُمكن نقل كمِّيَّات كبيرة من الأسلحة والحاجيات إلى مدينة دمشق، وفي الغالب؛ من دمشق إلى القاهرة.

ومع أنَّه مسموح لنا - بمُوجب المُعاهدة - بإعادة بناء مدينة القُدْس، وأن نجعلها في أحسن حالة كانت عليها قطّ، وكذلك قلاع: يافا، وقيسارية، وصيدا، وقلعة القدِّيسة مريم التابعة لطائفة التِّيُوتُون، والتي بدأ رُهبان هذه الطائفة بعمارتها في المنطقة الجبلية لعكَّا، والتي لم يسمح للصليبيين

ـ قطُّ ـ بفعله أثناء أية هُدنة سالفة، إنَّه مع ذلك، غير مسموح للسُّلطان، حتَّى نهاية الهُدنة بينه وبيننا، والتي مُدَّتها المُتَّفق عليها عشر سنوات، بترميم، أو إعادة بناء أيٍّ من حُصُونه، أو قلاعه. وهذا كان في يوم الأحد الثَّامن عشر من شُباط الذي مضى مُؤخَّراً، الذي هُو اليوم الذي قام فيه المسيح ابن الرَّبِّ من الموت، والذي هُو ـ بناء على قيامته ـ يرعاه المسيحيُّون بوقار، ويحتفلون به ويعدُّونه مُقدَّساً بشكل عامٍّ في جميع أرجاء العالم، وتأكَّدت هذه المُعاهدة بتبادل الأيمان بيننا. وحقَّاً؛ أشعَّ هذا اليوم على الجميع بشكل مُفيد، وهُو اليوم الذي فيه تُغنِّي الملائكةُ بحمد الرَّبِّ:

المجد للرَّبِّ في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وحُسن الإرادة نحو الناس.

وفي اعترافنا بمثل هذا اللُّطف العظيم، وهذا التشريف الجليل، الذي جاء فوق رغباتنا، وعلى عكس آراء كثيرين، والذي أضفاه الرَّبُّ برحمته علينا، من أجل رحمته الدائمة المشهورة، ومن أجل أن نتمكَّن شخصياً أن نُقدِّم إليه قرابين شفاهنا المُلتهبة. ليكن معلوماً أنَّنا في اليوم السَّابع عشر من شهر آذار من هذه الخمس عشرية الثَّانية، قُمنا نحنُ برفقة جميع الحُجَّاج الذين تبعوا معنا بإخلاص المسيح ابن الرَّبِّ، بالدُّخول إلى مدينة القُدْس المُقدَّسة، وبعدما تعبَّدنا الضريح المُقدَّس، جرى في اليوم التالي تتويجنا بحُكْم كوننا الإمبراطُور الكاثوليكي، وهُو أمرٌ منحنا إيَّاه الرَّبُّ القدير من عرش جلالته، عندما رقانا بنعمته الخاصَّة، وجعلنا الأعلى بين أُمراء العالم، وهكذا إنَّه أثناء دعمنا لشرف هذا المقام العالي، الذي عائد إلينا بمُوجب حقِّ السيادة، بات واضحاً أكثر، فأكثر، إلى الجميع بأنَّ يد الرَّبِّ قد صنعت هذا كُلَّه، وبما أن رحمته فوق جميع أعماله، يتوجَّب على المُؤمنين بالعقيدة السليمة، أن يعرفوا ـ مُنْذُ الآن، وأن ينشروا في الطُّول والعرض في جميع أرجاء الدُّنيا ـ بأنَّه الذي هُو المُبارك دوماً قد زار شعبه، وخلَّصه، وأنَّه رفع عالياً صوت الخلاص في بيت عبده داوود. وقبل أن نُغادر مدينة القُدْس، قرَّرنا بفخامة أن نُعيد بناء أبراجها، وأسوارها، ونوينا ـ أيضاً ـ أن نُرتِّب الأُمُور؛ بحيثُ تسير خلال غيابنا، ليس بعناية أو رعاية أقلّ، أثناء سير الأُمُور كما لو كُنَّا حاضرين شخصياً.

ومن أجل أن تكون رسالتنا الحالية مبعث سُرُور كامل في جميع الأنحاء، وأن تكون نهايتها سعيدة مثل بدايتها، ولكي تبتهجوا بعقلكم الملكي، نرغب بأنْ يكون معلوماً لديكم، وأنتم حُلفاء لنا، أن السُّلطان قد تعهَّد أن يُعيد إلينا جميع الأسرى، الذين ـ بمُوجب المُعاهدة المُبرمة بينه وبين

الصليبيين - لم يُطلق سراحهم عند فُقدان دمياط مُنْذُ بعض الوقت، وأيضاً؛ الأسرى الآخرين الذين وقعوا بالأَسْر بعد ذلك.

صَدَرَ في مدينة القُدْس المُقدَّسة، في اليوم السَّابع عشر من شهر آذار، من عام تجسيد ربِّنا، ألف ومائتَيْن وتسعة وعشرين.

النَّصُّ كما وَرَدَ في: الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، 45/ 891.

دفاع قاضي حماة المُؤرِّخ ابن أبي الدَّم عن قيام الملك الكامل بتسليم القُدْس للإمبراطُور فريدريك الثَّاني، قال:

دخلت سنة خمس وعشرين وستِّماية، فيها في شعبان، تجهَّز السُّلطان الملك الكامل إلى الشَّام والسواحل للقاء الإفرنج - خذلهم الله تعالى - حين علم بحشدهم، وتجمُّعهم، ولترتيب أُمُور المُسلمين، وبلادهم. فوافا تلّ العُجُول، وأناخ به، وتوجَّه الملك الأشرف إلى خدمته، ومضى صاحب دمشق الملك النَّاصر صلاح الدِّين داود معه لنجدته، واجتمعت عساكر المُسلمين هُناك.

وكان الانبرور طاغية الفرنجيَّة وعظيمهم خرج بجَمْع كثير إلى الجزاير والسواحل، وخيف على بلاد الإسلام منهم، فاجتهد السُّلطان الملك الكامل رأيه، وصالحهم صُلحاً تامَّاً رآه مصلحة للمُسلمين، وغبطة لهم، فكان راعي هذه الأُمَّة المُحمَّدية وسُلطان الملَّة الإسلاميَّة، ومَنْ أعزَّ الله تعالى به الدِّين وأهله، والمأمون عليهم، والناصح المُشفق عليهم، ففعل مارآه مصلحة وغبطة ترجَّحت في نظره، راعاها، وصالح الفرنج على أن يُسلِّم إليهم البيت المُقدَّس، حرسه الله تعالى وحده من غير تسليم شي من أعماله، ولا بلاده قليلاً، ولا كثيراً، وشرط عليهم أن لا يُحدثوا فيه شيَّاً، ولا سُوراً، ولا دُوراً، ولا يتجاوز خندقه. وأن تُقام فيه الجُمعة للمُسلمين المُقيمين به، ولا يُمنَع مُسلم من زيارته، فكيف أراد، ولا يُؤخذ من زاير مال أصلاً.

وكان ذلك - إنْ شاء الله - من أكبر مصالح المُسلمين، وأعظمها، ممَّا لا يخفى عن ذي البصاير، فإن البيت المُقدَّس موضع عبادة، (للمُسلمين وللكُفَّار فيه اعتقاد عظيم، يحملهم على قصد المُسلمين، وبلادهم لأجله، فالمقصود منه التردَّد إلى زيارته[1]) لإقامة العبادة على حسب اعتقاد الملَّتَيْن. فسلَّم

---

1 - هذه الفقرة ساقطة من النُّسخة التي اعتمدها د. سُهيل زَكَّار في الموسوعة الشاملة، راجعْ: التاريخ المُظفَّري، ابن أبي الدَّم، الموسوعة الشاملة، 21 / 290.

السُّلطانُ الملكُ الكاملُ ذلك إليهم، مع تهديمه، وعدم حصانته، حفظاً لبقية الثُّغُور، والبلاد، ونزله منزلة مسجد يتردَّد إليه المُصلُّون.

وعقد معهم عقد الهُدنة الشرعية المُدَّة المرعية في نظر سُلطان المُسلمين وملكهم ومُتولِّي أُمُورهم، واندفع عن المُسلمين ـ بذلك ـ شرٌّ عظيم، وخوف، وحصل الأمن مُدَّة الهُدنة، فلا مصلحة للمُسلمين أيْمَنَ من هذه المصلحة، ولا غبطة لهم أعظم من هذه الغبطة. ودخل البيت المُقدَّس أناس قليلون من الفرنج، لا شوكة لهم، ولا عدد، ولا عدَّة. وكان ذلك في سنة ستّ وعشرين وستّمئة، ومتى مهَّد السُّلطان الملك الكامل بلاد المشرق، واتَّفقت كلمة المُلُوك استعاد البيت المُقدَّس من يد مَنْ هُو فيه من الفرنج في يوم واحد، بل في ساعة واحدة، حتَّى رُوي: إنه وجد من المُسلمين جماعة قُتلوا ورُموا في بير هُناك، فنسب المُسلمون المُقيمون بجبال القُدْس قَتْلَهُم إلى الفرنج، وهجموا عليهم البلد، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة تُقارب خمس ماية نفس. كما رُوي: وحجزوهم، وأرهبوهم، واختلفوا فيهم، وصاروا في غاية ما يكون من الذُّلِّ. وعاد الانبرور بعد الصُّلح التَّامّ إلى بلاده، ومازال السُّلطان الملك الكامل مُقيماً بتلِّ العُجُول، يُمهِّد الأرض، ويملاها عدلاً.

النَّصُّ كما وَرَدَ في:

1 ـ التاريخ الإسلامي المُختصر، ابن أبي الدّم، 543 ـ 547.

2 ـ التاريخ المُظفَّري، ابن أبي الدّم، الموسوعة الشَّاميَّة، د.سُهيل زَكَّار، 21/ 290.

الحوار بين الإمبراطُور فريدريك والملك لويس حول الحملة على مصر:

عندما ترك الإمبراطُورُ أميرُ الفرنجة الأرضَ المُقدَّسة، واستأذنَ الملكَ الكاملَ بالانصراف، تعانق القائدان في عسقلان، وتواعدا ـ بصُورة مُتبادلة ـ على الصداقة والمُساعدة والأُخُوَّة.

والحال أن الطريق الوحيد الذي يُمكن للفرنجي[1] أن يسير منه إلى مصر كان يمرُّ عبر أراضي الإمبراطُور. وقد قام هذا الأخير أوَّلاً باستقباله، واللقاء معه، وقدَّم له مُساعداته من الخيَّالة والفضَّة

---

1 - الفرنجي: المقصود به ملك الفرنجة لويس.

والمواشي. غير أن القائدَيْن قابلا بعضهما بعضاً، بعد ذلك؛ قال الإمبراطُور للفرنجي: إلى أين تنوى الذهاب؟

ـ والله؛ سأذهب ـ قطعاً ـ إلى مصر والقُدْس.

ومن ضمن ما ردَّ عليه الإمبراطُور قوله:

ـ هذا الأمر لا يُلائمكَ، لا تذهبْ إلى مصر، وراجعْ هذا الأمر في نفسكَ، ومع أُمرائكَ، أُولئك الذين يُؤيِّدونكَ، وأُولئك الذين لهم رأي آخر. ولقد كُنتُ قبلكَ بها في سنة كذا وكذا تحت حُكْم الملك الكامل. وقد انتزعتُ من المُسلمين القُدْسَ وكُلَّ القُرى الواقعة بين هذه المدينة وعكَّا، واشترطتُ مع الملك الكامل أن تكون هذه المناطق مُلكاً للفرنجة، وأن لا تظلَّ أيُّ قُوَّة إسلامية بالقُدْس. وإذا كُنتُ قد اقتصرتُ على ذلك فإنني أدركتُ أنَّه من المُستحيل مُحاربة المُلُوك والأُمراء وكُلّ العساكر الموجُودين بالبلد، كما تأكَّدتُ من عجزي على مُواجهتهم، فكيف لكَ تُريد الاستيلاء على دمياط والقُدْس ومصر؟!.

وعندما سمع الفرنجي هذه الكلمات استشاط غضباً، فقال للإمبراطُور:

ـ لا تستمرّ، والله؛ ثُمَّ والله؛ وحتَّى الإيمان لن يمنعني شيء عن مُهاجمة دمياط والقُدْس ومصر، ولن يحول بيني وبين ذلك سوى موتي أنا ورجالي.

وأمام استياء الإمبراطُور من هذا العناد؛ كتب إلى الملك الصَّالح رسالة من ضمن ما قاله فيها:

ـ في هذا السنة جاء إلى بلدي ملك الفرنجة، مصحوباً بجُمهُور غفير، وذكر بعد ذلك:

ـ احترسْ يا مولاي نجم الدِّين جيِّداً، واعلم أن قصد مُهاجيكَ هُو الاستيلاء على القُدْس، وقبل ذلك إخضاع مصر لأجل هذا الهدف.

ـ وقال أيضاً: إن ملك الفرنجة على اقتناع بأنَّه سيستولي على مصر في بضع ساعات. وهذا الفرنجي هُو الأكثر قُوَّة من بين أُمراء الغَرْب، وتقوده الغَيْرَة على الدِّين، ويختلف عن أيِّ أمير آخر من جهة أفعاله كمسيحي وتعلُّقه بدينه. ويختتم خطابه بالكلمات التَّالية:

ـ يا ابن أخـي، (واصـفاً الملـك الـصَّالح نجـم الـدِّين أيُّـوب) لقـد حاولـتُ عبثاً مُواجهـة مشروعاته، وأردتُ تحذيره من الخطر الذي سيحيق به لو هاجمكَ. ولكي أُوثِّر فيه ألححـتُ عـلى عـدد وقُوَّة المُسلمين، وعلى استحالة الاستيلاء على القُدْس إنْ لم يتمّ قبل ذلك إخضاع مصر، وهُو أمر غـير قابل للتحقُّق. لكنَّ الفرنجي لم يعمل برأيي، وتزايد باستمرار عدد مَنْ يتبعونه، الذي يزيد على ستِّين ألفاً، وسينزلون خلال السنة إلى جزيرة قبرص.

النَّصُّ كما وَرَدَ في كتاب: (الشَّرْق والغَرْب زمن الحُرُوب الصَّليبيَّة، كلود كاهن، ترجمة: أحمـد الشَّيخ، نقلاً عن: قرطاي العزى، مخطوط عربي، ترجمة كلـود كـاهن، المجلَّـة الآسـيوية، جُوتـا، عـام 1970، الصفحات: 9 ـ 10).

المصادر والمراجع

- القُرآن الكريم.

المصادر العَرَبِيّة والمُعرّبة:

- الأبشيهي (مُحمَّد بن أحمد بن منصُور): المُستطرف في كُلِّ فنٍّ مُستظرف، تحقيق: عبد اللطيف بيتية، دار إحياء التُّراث العَرَبي، بيروت - 1994.

- ابن أبي أُصيبعة (أحمد بن القاسم بن خليفة): عُيُون الأنباء في طبقات الأطبَّاء، تحقيق: د. نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت - 1965.

- ابن الأثير (علي بن مُحمَّد بن مُحمَّد):

1 - الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت - بلا.

2 - التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، تحقيق :عبد القادر طُليمات، وزارة الثقافة، القاهرة - 1963.

- الأرمني (سنباط): التاريخ المعزو إلى القائد سنباط الأرمني، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكّار، المُجلَّد -36، دار الفكر، دمشق - 1999.

- ابن الأزرق الفارقي (مُحمَّد بن يُوسُف بن علي): تاريخ آمد ومَيَّافارقين، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، المُجلَّد - 11، دار الفكر، دمشق - 1995.

- الإدريسي (الشريف مُحمَّد بن مُحمَّد بن عبد الله):

1 - نُزهة المُشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكُتُب، بيروت - 1989.

2 - وصف أفريقية الشمالية والصحراوية - فصل من نُزهة المُشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق: هـ. بريس، الجزائر - 1957.

- الإسحاقي: (مُحمَّد بن عبد المُعطي بن أبي الفتح بن أحمد): لطائف أخبار الأُوَل في مَنْ تصرَّف في مصر من أرباب الدُّول، القاهرة - 1300 هـ.

- أسقف فريزنغ (أوتو): مُذكِّرات عن الحُرُوب الصَّليبيّة، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكّار، المُجلَّد - 29، دار الفكر، دمشق - 1997.

- الإصطخري (إبراهيم بن مُحمَّد الكرخي): مسالك المالك، مطبعة بريل، ليدن - 1937.

- الأصفهاني (العماد مُحمَّد بن مُحمَّد بن حامد الكاتب):

1 - الفَتح القِسِّي في الفتح القُدسي، آ- الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكّار، المُجلَّد - 13، دار الفكر، دمشق - 1995 . ب - تحقيق: مُحمَّد محمود صُبح، الدار القومية، القاهرة - 1962.

2 - رسالة العُتْبَى والعُقْبَى - فيما جرى بعد وفاة السُّلطان حتَّى سنة 592 هـ، ضمَّنها أبو شامة في كتابه: الرَّوضَتَيْن في أخبار الدولتَيْن.

3 - خُطفَة البارق وعَطفَة الشّارق، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، المُجلَّد - 19، دار الفكر، دمشق - 1997.

- الأصفهاني (العماد مُحمَّد بن مُحمَّد - وهو غير العماد الأصفهاني الكاتب): البُستان الجامع لجميع تواريخ أهل الزَّمان، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكّار، المُجلَّد - 11، دار الفكر، دمشق - 1995.

- الأنطاكي (يحيى بن أوتيخا المُسمَّى سعيد بن البطريق): تاريخ الأنطاكي المعروف بصلة تاريخ أُوتيخا، تحقيق: د.عُمر عبد السلام تدمري، جرُّوس برس، طرابلس - 1990.

- ابن إياس (مُحمَّد بن أحمد بن إياس الحنفي): بدائع الزُّهور في غرائب الدُّهور، تحقيق: مُحمَّد مُصطفى، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، القاهرة - 1983.

- ابن آيبك (أبو بكر عبد الله): كَنز الدُّرر وجامع الغُرر، تحقيق: د. سعيد عاشور، المعهد الألماني للآثار، القاهرة - 1982.

- ابن أيُّوب (تاج الدِّين شاهنشاه): مُنتخبات من كتاب التاريخ لصاحب حماة، مُلحقة بكتاب النَّوادر السُّلطانيَّة لابن شدَّاد، - بلا.

- بادربورن (أُوليفر): الاستيلاء على دمياط، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، المُجلَّد - 34، دار الفكر، دمشق - 1998.

- باريس (متَّى): التاريخ الكبير، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، المُجلَّد -46 - 50، دار الفكر، دمشق - 2001.

- البَسَوي (يعقوب بن سُفيان): المعرفة والتاريخ، تحقيق: أكرم ضياء العُمري، مُؤسَّسة الرسالة، بيروت - 1981.

- البغدادي (مُوفَّق الدِّين عبد اللطيف بن يُوسُف بن مُحمَّد المعروف بابن اللَّبَّاد):

1 - الإفادة والاعتبار في الأُمور المُشاهدة والحوادث المُعاينة بأرضِ مصر، تحقيق: غسَّان سبانو، دار دمشق، دمشق - 1983.

2 - من تاريخ البغدادي ورحلته، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكّار، المُجلَّد - 14، دار الفكر، دمشق - 1995.

- البَلاذُرِّي (أحمد بن يحيى بن جابر): فُتُوح البُلدان، مُراجعة: رضوان مُحمَّد رضوان، مطبعة السعادة القاهرة - 1959.

- بلانتغنيت: تواريخ أُسرة بلانتغنيت، رسائل رالف دي سيتو، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكّار، المُجلَّد - 30، دار الفكر، دمشق - 1998.

- البِنْداري (الفتح بن علي بن مُحمَّد): سنا البرق الشَّامي، مُختصر البرق الشَّامي للعماد الأصفهاني. 1 - تحقيق: د.رمضان ششن، دار الكتاب الجديد، بيروت-1971.

- تحقيق: د.فتحية النبراوي، مكتبة الخانجي، القاهرة - 1979 .

- بوا (بيير دو): استرداد الأرض المُقدَّسة، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكّار، المُجلَّد - 37، دار الفكر، دمشق - 1999.

- بُولُونير (جُون): وصف الأرض المُقدَّسة - 1421م، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكّار، المُجلَّد - 40، دار الفكر، دمشق - 2000.

ـ ابن البيبي (ناصر الدِّين يحيى بن مُحمَّد بن علي): تاريخ سلاجقة الرُّوم ـ مُختصر سلجوق نامة، تعريب: مُحمَّد السَّعيد جمال الدِّين، جامعة قطر، الدوحة ـ 1994.

ـ تشارتز (فُولتشر أُوف): تاريخ الحملة إلى القُدْس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 6، دار الفكر، دمشق ـ 1993.

ـ ابن تغري بردي (يُوسُف بن تغري بردي الأتابكي):

1 ـ النُّجُوم الزَّاهِرَة في مُلُوك مصر والقاهرة، [طبعة مُصوَّرة عن طبعة دار الكُتُب] وزارة الثقافة، القاهرة ـ 1963.

2 ـ المنهل الصافي والمُستوفي بعد الوافي، تحقيق: د. نبيل مُحمَّد عبد العزيز، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، القاهرة ـ 1986.

ـ التنوخي (المُحسن بن علي بن مُحمَّد):

1 ـ نِشْوَار المُحاضرة وأخبار المُذاكرة، تحقيق: عبُّود الشالجي، بلا ، بيروت ـ 1971.

2 ـ الفرج بعد الشدَّة، وزارة الثقافة، دمشق ـ 1995.

ـ ابن الجزري (مُحمَّد بن إبراهيم بن أبي بكر): المُختار من حوادث الزَّمان وأنبائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، اختيار: مُحمَّد بن عُثمان الذهبي، تحقيق : خُضير المنشداوي، دار الكتاب العَرَبي، بيروت ـ 1988.

ـ ابن جعفر (أبو الفرج قُدامة الكاتب البغدادي): كتاب الخراج وصنعة الكتابة، نبذة منه مُلحقة بكتاب المسالك والممالك لابن خُرْدَاذْبَه، مطبعة بريل، ليدن ـ 1889.

ـ جوانفيل (جين):

1 ـ حياة القدِّيس لويس، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 35، دار الفكر، دمشق ـ 1999.

2 ـ القدِّيس لويس ـ حياته وحملاته على مصر والشَّام، ترجمة: حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة ـ 1986.

3 ـ ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي بن مُحمَّد): المُنتظم في تاريخ المُلُوك والأُمم، تحقيق: مُحمَّد عطا ومُصطفى عطا، دار الكُتُب العلمية، بيروت ـ 1992.

ـ ابن الجوزي (السبط أبو المُظفَّر يُوسُف بن قزاوغلي): مرآة الزَّمان في تاريخ الأعيان:

1 ـ الجُزء الأوَّل، تحقيق: د.إحسان عبَّاس، دار الشُّرُوق، بيروت ـ 1985.

2 ـ الجُزء الثَّامن، دائرة المعارف الإسلاميَّة، حيدر أباد ـ الدكن ـ 1951.

3 ـ مُقتطفات، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 15، دار الفكر، دمشق ـ 1995.

ـ الجُويني، إمام الحرمَيْن (عبد الملك بن عبد الله بن يُوسُف): غياث الأُمم في التياث الظُّلَم، تحقيق: فُؤاد عبد المُنعم ومُصطفى حلمي، دار الدعوة، الإسكندرية ـ 1979.

ـ الجُويني (علاء الدِّين عطا ملك بن بهاء الدِّين مُحمَّد): تاريخ فاتح العالم ـ جهانكشاي، تعريب: د. مُحمَّد ألتونجي، دار الملاح، دمشق ـ حلب ـ 1985.

ـ حاجي خليفة (مُصطفى بن عبد الله كاتب جلبي): كشف الظُّنُون عن أسامي الكُتُب والفنُون، استنبول ـ 1945.

ـ ابن حَجَر (أحمد بن علي بن مُحمَّد العسقلاني):

الدُّرر الكَامنة في أعيان المئة الثامنة، آ ـ دار الجيل، بيروت ـ 1981 . ب ـ تحقيق: مُحمَّد سيِّد جاد الحقّ، مطبعة المدني، القاهرة ـ 1966.

إنباء الغُمْر بأبناء العُمْر، تحقيق: مُحمَّد أحمد دهمان، مكتبة الدِّراسات الإسلاميَّة، دمشق ـ 1399 هـ.

ـ الحريري (أحمد بن علي) : الإعلام و التبيين في خُرُوج الفرنج الملاعين، تحقيق: د. سُهيل زَكّار، دار الملاح، دمشق ـ 1981.

ـ الحنبلي (أحمد بن إبراهيم بن نصر الله): شفاء القُلُوب في مناقب بني أيُّوب، تحقيق: ناظم رشيد، وزارة الثقافة، بغداد ـ 1978.

ـ ابن الحنبلي (مُحمَّد بن إبراهيم بن يُوسُف التَّادفي الرَّبعي): الآثار الرفيعة في مآثر بني ربيعة، تحقيق: د. عبد العزيز الهلابي، معهد المخطوطات العَرَبيَّة، الكُويت ـ 1985.

ـ ابن حوقل (مُحمَّد بن حوقل): صُورة الأرض، دار مكتبة الحياة، بيروت ـ 1979.

ـ ابن خُرْدَاذْبَه (عُبيد الله بن عبد الله): المسالك والممالك، مطبعة بريل، ليدن ـ 1889.

ـ ابن خلدون (عبد الرحمن بن مُحمَّد بن مُحمَّد): كتاب العبر وديوان المُبتدأ والخبر في أيَّام العَرَب والعجم والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي السُّلطان الأكبر. آ ـ [طبعة مُصوَّرة] دار إحياء التُّراث العَرَبي، بيروت ـ بلا. ب ـ دار الكُتُب العلمية، بيروت ـ 1992.

ـ ابن خلكان (أحمد بن مُحمَّد بن إبراهيم): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان، دار صادر، بيروت ـ 1978.

ـ خواندمير (غياث الدِّين مُحمَّد بن همام الدِّين الحُسَيْني):

1 ـ دُستُور الوُزراء، تعريب: حربي أمين سُليمان، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، القاهرة ـ 1985.

2 ـ حبيب السير في أخبار أفراد البشر، ترجمة: حربي أمين سُليمان، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، القاهرة ـ 1983.

ـ ابن دقماق (إبراهيم بن مُحمَّد بن أيدمر العلائي): الانتصار لواسطة عقد الأمصار، المطبعة الكُبْرَى الأميرية، بُولاق ـ 1893.

ـ ابن أبي الدّم (إبراهيم بن عبد الله بن عبد النافع الهمداني):

1 ـ التاريخ المُظفَّري، من الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكّار، المُجلَّد ـ 21، دار الفكر، دمشق ـ 1995.

2 ـ التاريخ الإسلامي المُختصر، تحقيق: جزيل عبد الجَبَّار الجومرد، رسالة دُكتُوراه، قسم الدِّراسات العَرَبيَّة ـ جامعة سانت أندراوس، المملكة المُتَّحدة ـ اسكتلندا ـ 1984.

ـ الدَّوادَار (رُكن الدِّين بيبرس المنصُوري): زُبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق: دُونالد. س. ريتشاردز، دار الكتاب العَرَبي، برلين ـ 1998.

ـ ديريك (ثيو): وصف الأماكن المُقدَّسة، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكّار، المُجلَّد ـ 35، دار الفكر، دمشق ـ 1998.

ـ الذهبي (مُحمَّد بن أحمد بن عُثمان):

1 ـ سيَر أعلام النُّبلاء، مُؤسَّسة الرسالة، تحقيق: شُعيب الأرنؤط، بيروت ـ1985.

2 ـ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: د. بشَّار معروف وآخرون، مُؤسَّسة الرسالة، بيروت ـ 1988.

3 ـ العبر في خبر مَنْ غبر، تحقيق: د.صلاح الدِّين المُنجِّد، مطبعة حُكُومة الكُويت ـ 1984.

ـ الراوندي (مُحمَّد بن علي بن سُليمان): راحة الصُّدُور وآية السُّرُور في تاريخ الدولة السلجوقية، تعريب: د. إبراهيم الشواربي وآخرون، نشر وتصحيح: مُحمَّد إقبال، دار القلم، القاهرة ـ 1960.

ـ رشيد الدِّين (فضل الله بن عماد الدولة أبو الخير بن مُوفَّق الدولة علي الهمذاني): جامع التواريخ ـ تاريخ المغول الإيلخانيون:

1 ـ تاريخ هُولاكُو، ترجمة: مُحمَّد صادق نشأت وآخرون، وزارة الثقافة، القاهرة ـ بلا.

2 ـ تاريخ خُلفاء جنكيز خان، تعريب: فُؤاد عبد المُعطي الصيَّاد، دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت ـ 1983.

ـ الزُّبيدي (المُرتضى مُحمَّد بن مُحمَّد بن مُحمَّد): ترويح القُلُوب بذكْر المُلُوك بني أيُّوب، تحقيق: د. صلاح الدِّين المُنجِّد، دار الكتاب الجديد، بيروت ـ1983.

ـ ابن الساعي (علي بن أنجب): الجامع المُختصر في عُنوان التواريخ وعُيُون السِّيَر، تحقيق: د. مُصطفى جواد، دار المُثنَّى، بغداد ـ 1954.

ـ سانُوتُو، تُورسيلُو (مارينُو): من كتاب الأسرار للصليبيين الحقيقيين، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 38، دار الفكر، دمشق ـ 1999.

ـ السبكي (عبد الوهاب بن علي بن تمَّام):

1 ـ طبقات الشافعية الكُبْرَى، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، الجُزء الثَّالث والعشرون، دار الفكر، دمشق ـ 1995.

2 ـ مُعيد النِّعَم ومُبيد النِّقَم، تحقيق: مُحمَّد علي النجَّار وآخرون، دار الكتاب العَرَبي، القاهرة ـ1948.

ـ السخاوي (مُحمَّد بن عبد الرحمن بن مُحمَّد): الضوء اللامع في أعيان القرن التَّاسع، دار الجيل، بيروت ـ 1994.

ـ ابن سعد (مُحمَّد بن سعد بن منيع الزهري): الطبقات الكُبْرَى، دار صادر ـ بلا.

ـ ابن سعيد (علي بن مُوسى بن مُحمَّد بن عبد الملك): المغرب في حلى المغرب ـ النُّجُوم الزَّاهرَة في حلى حضرة القاهرة، تحقيق: حسين رضا، مطبعة دار الكُتُب، القاهرة ـ 1970.

ـ ابن سلام (أبو عُبيد القاسم بن سلام): كتاب السلاح، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مُؤسَّسة الرسالة، بيروت ـ 1988.

ـ ابن سمباط (حمزة بن أحمد بن عُمر): صدق الأخبار ـ تاريخ ابن سمباط، تحقيق: د. عُمر تدمُري، جرُّوس برس، طرابلس ـ 1993.

ـ السُّيُوطي (عبد الرحمن بن الكمال أبو بكر بن مُحمَّد):

1 ـ تاريخ الخُلفاء، تقديم: عبد الله مسعود، دار القلم العَرَبي، حلب ـ1990.

2 ـ لُبّ اللُّباب في تحرير الأنساب، (صُورة عن طبعة لايبزغ ـ ألمانيا ـ 1842) مكتبة المُثنَّى، بغداد ـ 1959.

3 ـ كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة، تحقيق: مُحمَّد كمال الدِّين عزّ الدِّين، بيروت ـ 1987.

ـ أبو شامة (عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم):

1 ـ الرَّوضَتَيْن في أخبار الدولتَيْن النُّورية والصلاحية، آ ـ المُؤسَّسة المصريَّة العامَّة للكتاب، القاهرة ـ 1962 . ب ـ الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 19، دار الفكر، دمشق ـ 1995.

2 ـ تراجم رجال القرنَيْن السَّادس والسَّابع ـ المعروف بالذيل على الرَّوضَتَيْن، آ ـ دار الجيل، [طبعة مُصوَّرة] بيروت ـ بلا . ب ـ الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 20، دار الفكر، دمشق ـ 1995 .

3 ـ عُيُون الرَّوضَتَيْن في أخبار الدولتَيْن، تحقيق: أحمد البيسومي، وزارة الثقافة، دمشق ـ 1991.

ـ شانكاره (مُحمَّد بن علي): مجمع الأنساب، طبعة مُصوَّرة، بيروت ـ بلا.

ـ شاهد عيان: حملة الملك ريتشارد إلى الأراضي المُقدَّسة، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 31، دار الفكر، دمشق ـ 1998.

ـ ابن شدَّاد (مُحمَّد بن علي بن إبراهيم): الأعلاق الخطيرة في ذكْر أُمراء الشَّام والجزيرة:

1 ـ الجُزء الأوَّل، تحقيق : يحيى عبَّارة، وزارة الثقافة، دمشق ـ 1991.

2 ـ الجُزء الثَّاني، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: د. سامي الدهَّان، المعهد الفرنسي للدراسات العَرَبيَّة، دمشق ـ 1956.

3 ـ الجُزء الثَّالث، تحقيق : يحيى عبَّارة، وزارة الثقافة، دمشق ـ 1978.

ـ ابن شدَّاد (يُوسُف بن رافع بن تميم): النَّوادر السُّلطانيَّة و المحاسن اليُوسُفية، آ ـ تحقيق: د. جمال الدِّين الشَّيَّال، الدار المصريَّة للتأليف والترجمة، القاهرة ـ 1964 . ب ـ الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 15.

ـ ابن الشُّحْنَة (مُحمَّد بن مُحمَّد بن مُحمَّد): الدُّرُّ المُنتخب في تاريخ مملكة حلب، دار الكتاب العَرَبي، دمشق ـ 1984.

ـ الشهرستاني (مُحمَّد بن عبد الكريم بن أحمد): المِلَل والنِّحَل، تحقيق: أبو عبد الله السَّعيد المندوه، مُؤسَّسة الكُتُب الثقافية، بيروت ـ 1998.

ـ شيخ الربوة (مُحمَّد بن أبي طالب الأنصاري): نخبة الدهر في عجائب البرِّ والبحر، اختيارات: عبد الرزَّاق الأصفر، وزارة الثقافة، دمشق ـ 1983.

ـ الشيرازي (سعدي): روضة الورد ـ كلستان، ترجمة: مُحمَّد الفُراتي، دار طلاس، دمشق ـ بلا.

ـ الصابئ (هلال بن المُحسن بن إبراهيم):

1 ـ رُسُوم دار الخلافة، تحقيق: ميخائيل عوَّاد، دار الرائد العَرَبي، بيروت ـ 1986.

2 ـ تُحفة الأُمراء في تاريخ الوُزراء، تحقيق: عبد السَّتَّار فرَّاج، دار إحياء الكُتُب العَرَبيَّة، القاهرة ـ 1985.

ـ ابن صاحب الصلاة (عبد الملك بن مُحمَّد بن أحمد الباجي): المنُّ بالإمامة على المُستضعفين بأنْ جعلهم الله أئمَّة وجعلهم الوارثين، تحقيق: عبد الهادي التازي، دار الحُرِّيَّة للطباعة، بغداد ـ 1979.

- الصدر الكبير (علي بن أبي الفوارس ناصر الدِّين بن الحُسَيْن): زُبدة التواريخ - أخبار الدولة السلجوقية، تحقيق: مُحمَّد إقبال، لاهور - 1933.

- ابن صصرى (مُحمَّد بن مُحمَّد): الدُّرَّة المضيَّة في الدولة الظاهرية، تحقيق وترجمة: د. وليم. م. بريز، جامعة كاليفورنيا - بركلي - بلا.

الصفدي (صلاح الدِّين خليل بن آيبك بن عبد الله):

1 - تُحفة ذوي الألباب فيمَنْ حَكَمَ بدمشق من الخُلفاء والمُلُوك والنُّوَّاب، تحقيق: إحسان خلوصي وزهير صمصام، وزارة الثقافة، دمشق - 1991.

2 - نَكْت الهَمْيَان في نُكَت العِميان، [مُصوَّرة عن طبعة أحمد زكي بك، المطبعة الجماهيرية بمصر - 1911] دار المدينة - بلا.

3 - الوافي بالوفيات، تحقيق: جـ 1 هلموت ريتر، جـ 2 - 3 - 4 - 6 - س. ريدرينج، جـ 7 إحسان عبَّاس، النشرات الإسلاميَّة، دار فرانز شتاينر، فسبادن - 1982.

- الصُّوري (وليم، رئيس أساقفة صُور):

1 - تاريخ الأعمال المُنجَزَة فيما وراء البحار، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد - 7، دار الفكر، دمشق - 1994.

2 - الذيل - ليدن - 828، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد - 8، دار الفكر، دمشق - 1995.

- ابن الصيرفي (علي بن منجب بن سُليمان الكاتب):

1 - الإشارة إلى مَنْ نال الوزارة، تحقيق: أيمن فُؤاد سيِّد، الدار المصريَّة اللُّبنانيَّة، القاهرة - 1990.

2 - القانون في ديوان الرسائل، تحقيق: أيمن فُؤاد سيِّد، الدار المصريَّة اللُّبنانيَّة، القاهرة - 1990.

- الطبري (مُحمَّد بن جرير بن يزيد): تاريخ الرُّسُل والمُلُوك، تحقيق: مُحمَّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة - 1967.

- الطرسوسي (مرضي بن علي): ذكر فضيلة الرمي وأوصافه، تحقيق: أنطوان بودولاموت، المعهد العلمي الفرنسي، دمشق - 1968.

- ابن طُولُون (مُحمَّد بن علي بن أحمد): القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، تحقيق: مُحمَّد أحمد دهمان، مجمع اللُّغة العَرَبيَّة، دمشق - 1980.

- ابن الطُّوَيْر (المُرتضى عبد السلام بن الحَسَن القيسراني): نُزهة المُقلتَيْن في أخبار الدولتَيْن، تحقيق: أيمن فُؤاد سيِّد، النشرات الإسلاميَّة - 39، بيروت - 1992.

- ابن عبد الظَّاهر (عبد الله بن رشيد بن عبد الظَّاهر): الروض الزاهر في سيرة الملك الظَّاهر، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، الرياض - 1976.

- ابن العبري (غريغوريوس بن أهرون الملطي):

1 - تاريخ مُختصر الدُّول، صَحَّحَهُ وفَهْرَسَهُ: الأب أنطون صالحاني اليسوعي، دار الرائد اللُّبناني، بيروت - 1988.

2 ـ تاريخ الزّمان، ترجمة: الأب إسحق أرملة، دار المشرق، بيروت ـ 1986.

3 ـ روايات ابن العبري، ترجمة وتحقيق: د. سُهيل زَكّار، الموسوعة الشاملة، المُجلّد ـ 5، دار الفكر، دمشق ـ 1995.

ـ ابن العديم (عُمر بن أحمد بن هبة الله):

1 ـ بُغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: د. سُهيل زَكّار، مطابع دار البعث، دمشق ـ 1988.

2 ـ زُبْدَة الحَلَب من تاريخ حلب، آ ـ تحقيق: خليل المنصُور، مُجلّد واحد، دار الكُتُب العلمية، بيروت ـ 1996 .
ب ـ تحقيق: د. سُهيل زَكّار، مُجلّدان، دار الكتاب العَرَبي، دمشق ـ 1997.

ـ ابن عربشاه (أحمد بن مُحمَّد الحنفي): فاكهة الخُلفاء ومُفاكهة الظُّرفاء، (طبعة مُصوَّرة: دار صادر، بيروت ـ بلا) دير الآباء الدُّومنيكين، المَوصل ـ 1869.

ـ ابن عساكر (علي بن الحَسَن بن هبة الله): تاريخ دمشق، تحقيق: عَمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت ـ 1995.

ـ العظيمي (مُحمَّد بن علي بن مُحمَّد التنوخي): تاريخ حلب، تحقيق: د. إبراهيم زعرور، بلا، دمشق ـ 1984ز

ـ العلمي (مُحمَّد بن منكلي): الحيل في الحُرُوب وفتح المدائن وحفْظ الدُّرُوب، تحقيق: أ.د. مُحمَّد عبد العزيز أحمد، دار الكُتُب المصريَّة، القاهرة ـ بلا.

ـ العليمي (عبد الرحمن بن مُحمَّد بن عبد الرحمن الحنبلي): الأُنس الجليل بتاريخ القُدْس والخليل، مكتبة المُحتسب، عمّان ـ 1973.

ـ ابن العماد (عبد الحي بن أحمد بن مُحمَّد الحنبلي): شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب، دار الفكر، بيروت ـ 1988.

ـ العُمري (ابن فضل الله شهاب الدِّين أحمد بن يحيى):

1 ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أصدره: فُؤاد سزكين، [مُصوَّرة عن مخطوطة أدد ـ 9589، المكتبة البريطانية، لندن] معهد تاريخ العُلُوم العَرَبيَّة والإسلامية، جامعة فرانكفورت ـ 1988.

2 ـ التعريف بالمُصطلح الشريف، مطبعة العاصمة، مصر ـ 1312 هـ.

3 ـ قبائل العَرَب في القرنَيْن السَّابع والثَّامن الهجريَّيْن (من: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار)، تحقيق: دُورُوتيا كرافُولسكي، المركز الإسلامي للبُحُوث، بيروت ـ 1985.

ـ ابن العميد (المكين جرجس بن العميد أبي الياسر بن أبي المكارم بن أبي الطيِّب): أخبار الأيُّوبيِّيْن، مكتبة الثقافة الدِّينيَّة، بُور سعيد ـ بلا.

ـ العيني (البدر محمود بن أحمد بن مُوسى): عقد الجُمان في تاريخ أهل الزَّمان، آ ـ تحقيق : د. مُحمَّد أمين، وزارة الثقافة، القاهرة ـ 1992 . ب ـ الموسوعة الشاملة، المُجلّد ـ 59، تأليف وتحقيق وترجمة: د. سُهيل زَكّار، دار الفكر، دمشق ـ 2004.

ـ فابري (الراهب فيلكس): جولات ورحلات في فلسطين ـ 1480م، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكّار، المُجلّد ـ 40 ـ 43، دار الفكر، دمشق ـ 2000.

ـ أبو الفداء (إسماعيل بن علي بن محمود الأيُّوبي):
المُختصر في أخبار البشر، [طبعة مُصوَّرة] دار المعرفة، بيروت ـ بلا.
تقويم البُلدان، صحَّحه: رينو مُدرِّس العَرَبيَّة و ماك كولين ديسلان، دار الطباعة السُّلطانية، باريس ـ 1940.
ـ ابن الفُرات (ناصر الدِّين مُحمَّد بن عبد الرحيم): تاريخ ابن الفُرات ـ تاريخ الدُّول والمُلُوك، تحقيق: د. قسطنطين زريق ود. نجلاء عزّ الدِّين، المطبعة الأمريكانية، بيروت ـ 1939.
ـ ابن الفُوطي (عبد الرزاق بن أحمد بن مُحمَّد الصابوني الشيباني):
1 ـ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة: منسوب إليه، آ ـ دار الفكر الحديث، بيروت ـ 1987 . ب ـ تحقيق: مُصطفى جواد، مطبعة الفُرات، بغداد ـ 1969.
2 ـ مجمع الآداب في مُعجم الأسماء والألقاب، تحقيق: مُصطفى جواد، دمشق، 1963.
ـ فُوقاس (يوانس): رحلة في الأرض المُقدَّسة، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 35، دار الفكر، دمشق ـ 1998.
ـ فيتري (جاك دي): تاريخ القُدْس، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 34، دار الفكر، دمشق ـ 1998.
ـ فيلهاردن (جيُوفري بن فيلان دي): الاستيلاء على القسطنطينيَّة، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 10، دار الفكر، دمشق ـ 1995.
ـ ابن قاضي شهبة (مُحمَّد بن أحمد بن مُحمَّد الأسدي) الكواكب الدُّرِّيَّة في السيرة النورية، تحقيق: د. محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت ـ 1970.
ـ القاضي الفاضل (عبد الرحيم بن علي بن الحَسَن العسقلاني): الرسائل، تحقيق: د. علي نجم عيسى، مكتبة الجيل، المَوصل ـ 2002.
ـ القُدسي (مُحمَّد بن خليل الشافعي): دُول الإسلام الشريفة البهية، تحقيق: صُبحي لبيب و أولريش هارمان، النشرات الإسلاميَّة ـ 37، الشركة المُتَّحدة، بيروت ـ 1997.
ـ القرماني (أحمد بن يُوسُف بن أحمد الدمشقي): أخبار الدُّول وآثار الأُوَل في التاريخ، [طبعة مُصوَّرة عن طبعة مطبعة عباس التبريزي، بغداد، المُصوَّرة عن مخطوطة] عالم الكُتُب، بيروت ـ بلا.
ـ القزويني (زكريا بن مُحمَّد بن محمود): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت ـ بلا.
ـ ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة بن أسد بن علي التميمي): ذيل تاريخ دمشق، تحقيق: د. سُهيل زَكَّار، دار حسَّان، دمشق ـ 1983 .
ـ القلقشندي (أحمد بن علي بن أحمد):
1 ـ صُبح الأعشى في صناعة الإنشا، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، القاهرة ـ 1985.
2 ـ قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزَّمان، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكُتُب الحديثة، القاهرة ـ 1963.

- الكُتُبي (مُحمَّد بن شاكر بن أحمد): فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: د.إحسان عبَّاس، دار صادر، بيروت - 1973.

- ابن كثير (إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي): البداية والنِّهاية، تحقيق: د.أحمد أبو مُلحم وآخرون، دار الكُتُب العلمية، بيروت - بلا.

- كلاري (رُوبرت دي): سُقُوط القسطنطينيَّة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد - 10، دار الفكر، دمشق - 1995.

- ابن كنان (ابن زين التقاة مُحمَّد بن عيسى بن مُحمَّد): المُرُوج السُّندسية في تاريخ الصالحية، تحقيق: مُحمَّد أحمد دهمان، المُديرية العامَّة للآثار والمتاحف، دمشق - 1947.

- كُوهين (فُورمان): السعي وراء الفترة الألفية السَّعيدة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد - 4، دار الفكر، دمشق - 1993.

- كُومينا (آنا): الألكسياد، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد - 6، دار الفكر، دمشق - 1995.

- كيناموس (يُوحنَّا): أعمال يُوحنَّا ومانويل كُومينُوس، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد - 29، دار الفكر، دمشق - 1997.

- ماب (وولتر): ما جاء عند وولتر ماب عن الحُرُوب الصَّليبيَّة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد - 36، دار الفكر، دمشق - 1999.

- الماوردي (علي بن مُحمَّد بن حبيب):

1 - التُّحفة المُلُوكية في الآداب الساسانية (منسوب إليه)، تحقيق: د. فُؤاد عبد المُنعم، مُؤسَّسة شباب الجامعة، الإسكندرية - 1993.

2 - الأحكام السُّلطانية والولايات الدِّينيَّة، تحقيق: خالد عبد اللطيف، دار الكتاب العَرَبي، بيروت-1990.

3 - نصيحة المُلُوك، إعداد: د. فُؤاد عبد المُنعم أحمد، مُؤسَّسة شباب الجامعة، الإسكندرية - بلا.

- مجهول: سيرة الملك الظَّاهر بيبرس، سيرة شعبية منسوبة إلى الدِّيناري والدويداري، المكتبة الثقافية، بيروت - بلا.

- مجهول: رواية عن الأرض المُقدَّسة - 1350م، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، المُجلَّد - 40، دار الفكر، دمشق - 2000.

- مجهول: يوميات صاحب أعمال الفرنجة، أو تاريخ الفرنجة الذين استولوا على القُدْس، تدوين: ريمون دي جيل راهب نُوتردام دي بوي، الموسوعة الشاملة، د.سُهيل زَكَّار، المُجلَّد - 6، دار الفكر، دمشق - 1995.

- المسعودي (علي بن الحُسَيْن بن علي):

1 - التنبيه والإشراف، دار التُّراث، بيروت - 1968.

2 - مُرُوج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: شارل بلا، الجامعة اللُّبنانيَّة، بيروت - 1966.

- مِسْكَويه (أحمد بن مُحمَّد بن يعقوب): تجارب الأُمم وتعاقب الهمَم، تحقيق: هـ. ف أمدروز، مطبعة شركة التمدُّن الصناعية، القاهرة - 1914.

- ابن المعمار (مُحمَّد بن أبي مكرم): الفُتُوَّة، تحقيق: مُصطفى جواد وآخرون، بغداد، 1958.

ـ المغربي (علي بن مُوسى): كتاب الجَغرافية، تحقيق: إسماعيل العَرَبي، دار الفكر، بيروت ـ 1979 .

ـ المَقْدسي (مُحمَّد بن أحمد بن أبي بكر البشاري): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، ليدن ـ 1909.

ـ المقريزي (أحمد بن علي بن عبد القادر):

1 ـ المواعظ و الاعتبار بذكْر الخُطط و الآثار، [مُصوَّرة عن طبعة بُولاق] دار التحرير، القاهرة ـ 1943.

2 ـ السُّلُوك لمعرفة دُول المُلُوك، نشره: د. مُحمَّد مُصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ـ 1957.

3 ـ المُقفَّا الكبير، من الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، الجُزء الخامس والعشرون، دار الفكر، دمشق ـ 1995.

4 ـ اتِّعاظ الحُنفا بأخبار الأئمَّة الفاطميين الخُلفا.

آ ـ تحقيق: د. مُحمَّد حلمي أحمد، لجنة إحياء التُّراث الإسلامي، القاهرة ـ 1996.

ب ـ الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 25، دار الفكر، دمشق ـ 1995.

5 ـ البيان والإعراب عمَّا بأرض مصر من الأعراب، تحقيق: عبد المجيد عابدين، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ـ 1989.

6 ـ دُرر العُقُود الفريدة في تراجم الأعيان المُفيدة ـ قطعة منه، تحقيق: عدنان درويش ومُحمَّد المصري، وزارة الثقافة، دمشق ـ 1995.

ـ المقرِّي (أحمد بن مُحمَّد بن أحمد التلمساني): نفح الطيب من غُصن الأندلس الرطيب وذكْر وزيرها لسان الدِّين بن الخطيب، تحقيق: يُوسُف الشَّيخ مُحمَّد البُقاعي، دار الفكر، بيروت ـ 1986.

ـ الملك الأمجد (حسن بن الملك النَّاصر داود بن الملك المُعظَّم عيسى الأيُّوبي): الفوائد الجلية في الفرائد النَّاصريَّة ـ سيرة الملك النَّاصر داود الأيُّوبي، تحقيق: عبد الحَسَنَيْن خضر، مطبعة عكرمة، دمشق ـ 1996.

ـ ابن مماتي (أسعد بن المُهذَّب بن مينا): قوانين الدواوين، تحقيق: عزيز سوريال عطية، مكتبة مدبولي، القاهرة ـ 1991.

ـ المُنذري (عبد العظيم بن عبد القوي): التَّكملة لوفيات النَّقَلَة، تحقيق: بشَّار عوَّاد معروف، مُؤسَّسة الرسالة، بيروت ـ 1981.

ـ ابن مُنقذ (أُسامة بن مُرشد بن علي بن مُقلّد الكناني):

الاعتبار، آ ـ تدقيق: حسن الزين، دار الفكر الحديث، بيروت ـ 1988. ب ـ الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 12، دار الفكر، دمشق ـ 1995.

ـ المنازل والديار، تحقيق: مُصطفى حجازي، لجنة إحياء التُّراث الإسلامي، القاهرة ـ 1968.

ـ ابن مُيسَّر (مُحمَّد بن علي بن يُوسُف): ذيل تاريخ مصر للمسبحي المطبوع باسم: أخبار مصر، تحقيق: هنري ماسيه، المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة ـ 1981.

- الميداني (أحمد بن مُحمَّد النيسابوري): مجمع الأمثال، تحقيق: مُحمَّد مُحيي الدِّين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت - 1972.
- النسوي (مُحمَّد بن أحمد بن علي المنشئ): سيرة السُّلطان جلال الدِّين منكبرتي، تحقيق: حافظ أحمد حمدي، دار الفكر العَرَبي، القاهرة - 1953.
- ابن نظيف (مُحمَّد بن علي بن عبد العزيز الحموي): التاريخ المنصُوري - تلخيص الكشف والبيان في حوادث الزَّمان، تحقيق: د. أبو العيد دُودُو، مجمع اللُّغة العَرَبيَّة، دمشق - 1981.
- النعيمي (عبد القادر بن مُحمَّد الدمشقي): الدارس في تاريخ المدارس، آ - فهرسه: إبراهيم شمس الدِّين، دار الكُتُب العلمية، بيروت - 1990 . ب - تحقيق: جعفر الحَسَني، مكتبة الثقافة الدِّينيَّة، القاهرة - 1988.
- نُوفار (فيليب دي): حُرُوب فريدريك الثَّاني ضدَّ الإبلينيين في سُورية وقبرص، الموسوعة الشاملة، المُجلَّد - 35، د. سُهيل زَكَّار، دار الفكر، دمشق - 1999.
- النُّويري (شهاب الدِّين أحمد بن عبد الوهاب بن مُحمَّد): نهاية الأَرَب في فُنُون الأدب، تحقيق: د. أحمد كمال زكي، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، القاهرة - 1980.
- هافنسيس: مجموع هافنسيس - 57 - تاريخ المورة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد - 10، دار الفكر، دمشق - 1995.
- ابن الهبارية (الشريف أبو يعلى مُحمَّد بن مُحمَّد): ديوان الصادح والباغم، القاهرة - 1292 هـ.
- ابن هُذَيْل (علي بن عبد الرحمن بن هُذَيْل الأندلسي): حلية الفُرسان وشعار الشُّجعان، تحقيق: مُحمَّد عبد الغني حسن، دار المعارف، القاهرة - 1949.
- الهمذاني (ابن الفقيه أحمد بن مُحمَّد): كتاب البُلدان، مطبعة بريل، ليدن - 1885.
- ابن واصل (مُحمَّد بن سالم بن نصر الله):
1 - مُفرِّج الكرُوب في أخبار بني أيُّوب: آ - الجُزء الأوَّل: تحقيق: د. جمال الدِّين الشيال، المطبعة الأميرية، القاهرة - 1957 ب - الأجزاء: 2 - 3 - 4، تحقيق: د. حسنَيْن ربيع، مطبعة دار الكُتُب، القاهرة - 1972 - 1977.
2 - التاريخ الصالحي، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد - 21، دار الفكر، دمشق - 1995.
- ابن الوردي (زين الدِّين عُمر بن المُظفَّر بن الوردي المعرِّي الحلبي، ت 749 هـ): تاريخ ابن الوردي - ذيل المُختصر، إشراف: أحمد رفعت البدراوي، دار المعرفة، بيروت - 1970.
ابن الوردي (سراج الدِّين عُمر بن الوردي المصري، ت 861 هـ): خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تصحيح وإعداد: محمود فاخوري، دار الشُّرُوق العَرَبي، بيروت - 1991.
- الوهراني (مُحمَّد بن مُحمَّد بن محرز): منامات الوهراني ومقاماته ورسائله، تحقيق: إبراهيم شعلان ومُحمَّد نغش، دار الكاتب العَرَبي، القاهرة - 1968.
- وورزنبيرغ (جُون أُوف): وصف الأرض المُقدَّسة، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد - 34، دار الفكر، دمشق - 1998.

ـ ويندوفر (رُوجر أُوف): وُرُود التَّاريخ، الموسوعة الشاملة، د. سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 44 ـ 45، دار الفكـر، دمشق ـ 2000.

ـ اليافعي (عبد الله بن أسعد بن علي): مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفـة مـا يُعتـبَر مـن حـوادث الزَّمـان، تحقيق: خليل المنصُور، دار الكُتُب العلمية، بيروت ـ 1997.

ـ اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب إسحق بن جعفر):

1 – كتاب البُلدان، مطبعة بريل، ليدن ـ 1860.

2 ـ تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت ـ 1995.

ـ اليُونيني (مُوسى بن مُحمَّد بن أحمد): ذيل مرآة الزَّمان، [طبعة مُصوَّرة عن طبعة حيدر أباد، الهند ـ 1960] دار الكتاب الإسلامي، القاهرة ـ 1992.

المراجع العَرَبيّة والمعرّبة:

ـ إبراهيم (د. محمود): حطّين بين أخبار مُؤرّخيها وشعر مُعاصريها، دار البشير، عمّان ـ 1987.

ـ أبو خليل (شوقي): أطلس التاريخ العَرَبي الإسلامي، دار الفكر، دمشق ـ 2001.

ـ أحمد (د. علي): الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشّام، دار طلاس، دمشق ـ 1989.

ـ أحمد (مُحمّد مُؤنس): فُصُول بيبلُوغرافية في تاريخ الحُرُوب الصّليبيّة، عين للدراسات، القاهرة ـ 1996.

ـ الأسدي (خير الدّين): أحياء حلب وأسواقها، تحقيق: عبد الفتّاح روّاس قلعجي، وزارة الثقافة، دمشق ـ 1984.

ـ إسماعيل (أحمد علي): تاريخ السلاجقة في بلاد الشّام، الشركة المُتّحدة للطباعة والنشر، دمشق ـ 1983.

ـ الأعسم (د. عبد الأمير): الفيلسوف نصير الدّين الطوسي، دار الأندلس، بيروت ـ 1975.

ـ ألتونجي (د. مُحمّد): التيّارات الأدبية إبّان الغزو المغولي، دار طلاس، دمشق ـ 1987.

ـ أليسيف (نيكيتا): السُّلطان نُور الدّين بن زنكي، ترجمة: سليم قندلفت، ألفباء الأديب، دمشق ـ 1998.

ـ إقبال (عبّاس):

1 ـ تاريخ المغول، ترجمة: عبد الوهاب علوب، المجمع الثقافي، أبو ظبي ـ 2000.

2 ـ تاريخ إيران بعد الإسلام، تعريب: مُحمّد علاء منصُور، دار الثقافة العَرَبيّة، القاهرة ـ 1994.

ـ أمين (أحمد): ظُهر الإسلام، دار الكتاب العَرَبي، بيروت ـ بلا.

ـ الأمين (حسن):

1 ـ صلاح الدّين بين العبّاسيين والفاطميين والصليبيين، دار الجديد، بيروت ـ 1995.

2 ـ الغزو المغولي للبلاد الإسلاميّة، دار النهار للنشر، بيروت ـ 1993.

ـ الإيبش (أحمد و د. قُتيبة الشهابي):

1 ـ دمشق الشّام في نُصُوص الرّحّالين والجغرافيين والبُلدانيين العَرَب والمُسلمين، وزارة الثقافة، دمشق ـ 1998.

2 ـ معالم دمشق التاريخية، وزارة الثقافة، دمشق ـ 1996.

ـ الباشا (حسن): الألقاب الإسلاميّة في التاريخ والوثائق، دار النهضة العَرَبيّة، القاهرة ـ 1978.

ـ باركر (أرنست): الحُرُوب الصّليبيّة، تعريب: د. السّيّد الباز العريني، دار النهضة العَرَبيّة، بيروت ـ 1967.

ـ بُدُور (كمال): مملكة حلب الأيُوبيّة، رسالة ماجستير، بإشراف الدُّكتُور سُهيل زكّار، جامعة دمشق، 1998.

ـ بريدج (أنتوني): تاريخ الحُرُوب الصّليبيّة، تعريب: أحمد غسّان سبانو ونبيل الجيزاوي، دار قُتيبة، دمشق ـ 1985.

ـ تدمري (د. عُمر عبد السلام): دراسات في تاريخ الساحل الشّامي:

1 ـ لُبنان من السُّقُوط بيد الصليبيين حتّى التحرير، دار الإيمان، طرابلس ـ 1994.

2 ـ تاريخ طرابلس السّياسي والحضاري عبر العُصُور، مطابع دار البلاد، طرابلس ـ 1978.

- ترمانيني (د.عبد السلام): أحداث التاريخ الإسلامي بترتيب السنين، دار طلاس، دمشق - 1995.
- التكريتي (محمود ياسين أحمد): الأيُّوبيُّون في شمال الشَّام والجزيرة، رسالة دُكتُوراه، بإشراف الدُّكتُور إبراهيم أحمد العدوي، جامعة بغداد - 1979.
- توينبي (أرنولد): الحضارة في الميزان، ترجمة: محمود أمين الشريف، دار الكتاب العَرَبي، القاهرة - بلا.
- جروسيه (رينيه): جنكيز خان قاهر العالم، تعريب: خالد أسعد عيسى، دار حسَّان، دمشق - 1982.
- جُودة (د. صادق): القُضاة الشهرزوريون، دار البشير ودار عمَّار، عمَّان - 1986.
- جُوزي (بندلي): من تاريخ الحَرَكَات الفكرية في الإسلام، دار الجليل، دمشق - 1982.
- جُولد تسيهر (أغناس): العقيدة و الشريعة في الإسلام، ترجمة: مُحمَّد مُوسى وآخرون، [طبعة مُصوَّرة عن طبعة دار الكتاب المصري - 1946] دار الرائد العَرَبي، بيروت - بلا.
- الحايك (مُنذر):
1 - مملكة حمص في العصر الأيُّوبي، دار طلاس، دمشق - 2000 .
2 - دراسات في تاريخ الرستن، بإشراف: العماد أوَّل مُصطفى طلاس، دار طلاس، دمشق - 2002.
- حتِّي (د. فيليب): تاريخ سُورية و لُبنان و فلسطين، ترجمة: جُورج حدَّاد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت - بلا.
- حسن (علي إبراهيم): دراسات في تاريخ المماليك، مكتبة النهضة، القاهرة - 1944.
- حسن (مُصطفى مُحمَّد): الإسلام والنوبة في العُصُور الوُسْطَى، دار النهضة العَرَبيَّة، القاهرة - 1960.
- حُسَيْن (د. مُحسن مُحمَّد): الجيش الأيُّوبي في عهد صلاح الدِّين، مُؤسَّسة الرسالة، بيروت - 19986.
- حمادة (مُحمَّد ماهر):
1 - وثائق الحُرُوب الصَّليبيَّة والغزو المغولي للعالم الإسلامي، مُؤسَّسة الرسالة، بيروت -1986.
2 - الوثائق السِّياسيَّة والإدارية العائدة للعُصُور العبَّاسيَّة المُتتابعة، مُؤسَّسة الرسالة، بيروت - 1985.
3 - دراسة وثـقية للتاريخ الإسلامي ومصادره، مُؤسَّسة الرسالة، بيروت - 1988.
- حمدي (حافظ أحمد): الشَّرق الإسلامي قبل الغزو المغولي، القاهرة - 1950.
- حُوراني (ألبرت): تاريخ الشُّعُوب العَرَبيَّة، تعريب: أسعد صقر، دار طلاس، دمشق - 1997.
- الحياري (مُصطفى): الإمارة الطائية في بلاد الشَّام، دار الفكر، عمَّان - 1977.
- خفاجي (مُحمَّد عبد المُنعم): بنو خفاجة، دار الكتاب العَرَبي،القاهرة -1950.
- خليل (د. عماد الدِّين):
1 - نُور الدِّين محمود، دار القلم، دمشق -1980.
2 - الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشَّام، مُؤسَّسة الرسالة، بيروت - 1998.
- داهموس (جُوزيف): سبع معارك في العُصُور الوُسْطَى، ترجمة: فتحي الشاعر، الهيئة المصريَّة العامَّة للكتاب، القاهرة - 1987.
- الدبس (المطران يُوسُف): من تاريخ سُورية الدّنيوي والدِّيني، المطبعة العُمُومية، بيروت - 1902.

ـ ديسو (رينيه): العَرَب في سُورية، ترجمة: عبد الحميد الدواخلي ومُحمَّد مُصطفى زيادة، دار الحداثة، بيروت ـ 1985.
ـ أبو رميلة (هشام): علاقات المُوحِّدين بالدُّول النصرانية والدُّول الإسلاميَّة في الأندلس، دار الفُرقان، عمَّان ـ 1984.
ـ رنسيمان (ستيفن): تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، تعريب: السَّيِّد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت ـ 1968.
ـ زابُورُوف (ميخائيل): الصَّليبيُّون في الشَّرق، ترجمة: إلياس شاهين، دار التقدُّم، موسكو ـ 1986.
ـ الزُّحيلي (د. وهبة): العلاقات الدّوليَّة في الإسلام مُقارنة بالقانون الدولي الحديث، مُؤسَّسة الرسالة، بيروت ـ 1989.
ـ زَكَّار (د. سُهيل):
1 ـ الحُرُوب الصَّليبيَّة روايات شُهُود عيان، دار حسَّان، دمشق ـ 1984.
2 ـ مدخل إلى تاريخ الحُرُوب الصَّليبيَّة، الموسوعة الشاملة في الحُرُوب الصَّليبيَّة، المُجلَّدات 1 ـ 3، دار الفكر، بيروت ـ 1994.
2 ـ الموسوعة الشاملة في الحُرُوب الصَّليبيَّة 1 ـ 50، تأليف وتحقيق وترجمة، دار الفكر، بيروت ـ 1994 ـ 2002 .
ـ زكريَّا (أحمد وصفي): عشائر الشَّام، دار الفكر، دمشق ـ 1997.
ـ زكي (عبد الرحمن): السيف في العالم الإسلامي، دار الكتاب العَرَبي، القاهرة ـ 1957.
ـ زيادة (د. مُحمَّد مُصطفى): حملة لويس التَّاسع على مصر وهزيمته في المنصُورة، وزارة الثقافة، القاهرة ـ 1961.
ـ زيدان (جُورجي): تاريخ التمدُّن الإسلامي، نشر: حُسَيْن مُؤنس، القاهرة ـ 1968.
ـ زيُّود (مُحمَّد أحمد): العلاقات بين الشَّام ومصر في العهدَيْن الطُّولُوني والإخشيدي، دار حسَّان، دمشق ـ 1989.
ـ سبانو (أحمد غسَّان): مملكة حماة الأيُّوبيَّة، دار قُتيبة، دمشق ـ 1984.
ـ سليم (د. صبري): الأتراك الخوارزميُّون في الشَّرق الأدنى الإسلامي 628 ـ 644، مكتبة الثقافة الدِّينيَّة، القاهرة ـ 2000.
ـ سميث (جُوناثان رايلي):
1 ـ الاسبتاريَّة، تعريب: صُبحي الجابي، دار طلاس، دمشق ـ 1989.
2 ـ فُرسان القدِّيس يُوحنَّا، تعريب: صُبحي الجابي، دار حسَّان، دمشق ـ 1981.
ـ سميل (ر . سي): فنُّ الحَرْب عند الصليبيين في القرن الثَّاني عشر (1097 ـ 1193)، ترجمة: مُحمَّد وليد الجلاد، دار طلاس، دمشق ـ 1985.
ـ سُوفاجيه (جان): دمشق الشَّام، ترجمة: فُؤاد افرام البستاني، تحقيق: أكرم العلبي، دار الوارف، بيروت ـ 1989.

ـ سيغال (ج . ب): الرُّهَا المدينة الفاضلة، ترجمة: يُوسُف إبراهيم جبرا، دار الرُّهَا للنشر، حلب ـ 1988.

ـ شاندور (ألبير): صلاح الدِّين الأيُّوبي البطل الأنقى في الإسلام، ترجمة: سعيد أبو الحَسَن، دار طلاس، دمشق ـ 1993.

ـ شبارو (د.عصام مُحمَّد): السلاطين في المشرق العَرَبي،

1 ـ السلاجقة ـ الأيُّوبيُّون، دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت ـ 1994.

2 ـ المماليك ، دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت ـ 1994.

ـ شبولر (برتولد):

1 ـ العالم الإسلامي في العصر المغولي، تعريب: خالد عيسى، دار حسَّان، دمشق ـ1982.

2 ـ المغول في التاريخ، ترجمة : يُوسُف شلب الشَّام، دار طلاس، دمشق ـ 1989.

ـ شرف (طه أحمد): دولة النزارية أجداد آغا خان، دار الكتاب، بيروت ـ 1994.

ـ الشهابي (د. قُتيبة):

1 ـ مُعجم دمشق التاريخي، وزارة الثقافة، دمشق ـ 1999.

2 ـ أبواب دمشق وأحداثها التاريخية، وزارة الثقافة، دمشق ـ 1996.

ـ الشَّيَّال (د. جمال الدِّين): تاريخ مصر الإسلاميَّة، مطبعة رويال، الإسكندرية ـ 1967.

ـ الشَّيخ (مُحمَّد مرسي): الإمارات العَرَبيَّة في بلاد الشَّام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ـ1980.

ـ الصغير (أجفان): القلاع في فترة الحُرُوب الصَّليبيَّة ودورها الاقتصادي والاجتماعي والإداري عند المُسلمين في بلاد الشَّام، رسالة ماجستير، بإشراف الدُّكتُور سُهيل زَكَّار، جامعة دمشق ـ 1995.

ـ الصَّيَّاد (فُؤاد عبد المُعطي): المغول في التاريخ، دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت ـ 1980.

ـ الطَّبَّاخ (مُحمَّد راغب بن محمود): إعلام النُّبلاء بتاريخ حلب الشهباء، المطبعة العلمية، حلب ـ 1925.

ـ طقوش (د. مُحمَّد سهيل): تاريخ الفاطميين، دار النفائس، بيروت ـ 2001.

ـ طلاس والجلاد (العماد أوَّل مُصطفى طلاس والعميد مُحمَّد وليد الجلاد): قلعة الحصن، دار طلاس، دمشق ـ 1990.

ـ عابدين (د. عبد المجيد): دراسات في تاريخ العُرُوبة في وادي النيل (مُلحق بكتاب البيان والإعراب)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ـ 1989.

ـ عاشور (د. سعيد عبد الفتاح):

1 ـ مصر والشَّام في عصر الأيُّوبيِّين والمماليك، دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت ـ بلا.

2 ـ أُورُبا العُصُور الوُسْطَى، دار النهضة العَرَبيَّة، القاهرة ـ 1972.

3 ـ سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصُّغْرَى ـ بُحُوث ودراسات في تاريخ العُصُور الوُسْطَى، دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت ـ 1977.

4 ـ حضارة ونُظُم أُورُوبا في العُصُور الوُسْطَى، دار النهضة العَرَبيَّة، القاهرة ـ 1976.

5 ـ العصر المماليكي في مصر والشَّام، القاهرة ـ 1965.

- عاشور (فايد):
1 - العلاقات السِّياسيَّة بين المماليك والمغول، دار المعارف، القاهرة - 1976.
2 - الحَرَكَة الصَّليبيَّة، مطبعة لجنة البيان العَرَبي، القاهرة - 1963.
- العبَّادي (د. أحمد مُختار):
1 - في تاريخ الأيُّوبيِّين و المماليك، دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت - 1995.
2 - تاريخ البَحْريَّة الإسلاميَّة، شارك في التأليف: سيِّد عبد العزيز سالم، دار النهضة العَرَبيَّة، القاهرة - 1981.
3 - قيام دولة المماليك الأُولى في مصر والشَّام، دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت - 1986.
- عبد المولى (مُحمَّد أحمد): بنو مرداس الكلابيون في حلب وشمال الشَّام، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية - 1985.
- العريني (السَّيِّد الباز):
1 - الشَّرق الأدنى في العُصُور الوُسْطَى - الأيُّوبيُّون، دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت - 1967.
2 - مصر في عصر الأيُّوبيِّين، وزارة الثقافة - الألف كتاب، القاهرة - 1960.
- عزَّاوي (عبَّاس): التعريف بالمُؤرِّخين، شركة الطباعة والتجارة المحدودة، بغداد - 1957.
- عطا (زبيدة): بلاد التُّرك في العُصُور الوُسْطَى، دار الفكر العَرَبي، القاهرة - 1998.
- عطوان (حَسَيْن): الجَغرافية التاريخية لبلاد الشَّام، دار الجيل، بيروت - 1987.
- عطية (عزيز سوريال): الحُرُوب الصَّليبيَّة وتأثيرها، لندن - 1962.
- عطية (حسين محمود): إمارة أنطاكية الصَّليبيَّة والمُسلمون، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية - 1989.
- عُمران (د. محمود سعيد): القادة الصَّليبيُّون الأسرى في أيدي الحُكَّام المُسلمين، دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت - 1986.
- عودات (د. أحمد وآخرون) : تاريخ المغول والمماليك، دار الكندي، إربد - 1990.
- عوض (د. مُحمَّد مُؤنس أحمد):
1 - الزلازل في بلاد الشَّام عصر الحُرُوب الصَّليبيَّة، عين للدراسات والبُحُوث الإنسانيَّة، القاهرة - 1996.
2 - الجَغرافيون والرَّحَّالة المُسلمون في بلاد الشَّام زمن الحُرُوب الصَّليبيَّة، عين للدراسات والبُحُوث الإنسانيَّة، القاهرة - 1995.
- غوانمة (د. يُوسُف): إمارة الكَرَك الأيُّوبيَّة، دار الفكر، عمَّان - 1982.
- فريد (مُحمَّد بك المُحامي): تاريخ الدولة العليَّة العُثمانية، تحقيق: د. إحسان حقِّي، دار النفائس، بيروت - 1998.
- فيشر (هـ. أ. ل): تاريخ أُورُوبا في العُصُور الوُسْطَى، ترجمة: مُحمَّد مُصطفى زيادة والسَّيِّد الباز العريني، دار المعارف، القاهرة - القسم الأوَّل: 1957 - القسم الثَّاني: 1969.
- القاسمي (مُحمَّد سعيد): قاموس الصناعات الشَّاميَّة، تحقيق: ظافر القاسمي، دار طلاس، دمشق - 1988.
- كاهن (كلود):

1 ـ الشَّرق والغَرْب زمن الحُرُوب الصَّليبيَّة، تعريب: أحمد الشَّيخ، سينا للنشر، القاهرة ـ 1995.
2 ـ تاريخ العَرَب والشُّعُوب الإسلاميَّة مُنْذُ ظُهُور الإسلام حتَّى بداية الإمبراطُوريَّة العُثمانية، تعريب: د. بدر الدِّين القاسم، دار الحقيقة، بيروت ـ 1977.
ـ كُرد علي (مُحمَّد): خُطط الشَّام، مكتبة النُّوري، دمشق ـ 1983.
ـ الكرملي (الأب أنستاس ماري): النُّقُود العَرَبيَّة وعلم النميات، المطبعة العصرية، القاهرة ـ 1939.
ـ الكيلاني (أحمد قدري): الملك العالم أبو الفداء والمُلُوك الأيُوبيُّون في مملكة حماة، المكتبة العَرَبيَّة، حماة ـ 2000.
ـ لابيدوس (إيرا مارفين): مُدُن الشَّام في العصر المملوكي، ترجمة: د.سُهيل زَكَّار، دار حسَّان ـ 1965.
ـ لسترانج (كي): بُلدان الخلافة الإسلاميَّة، ترجمة: بشير فرنسيس وكُوركيس عوَّاد، مُؤسَّسة الرسالة، بيروت ـ 1985.
ـ لويس (برنارد):
1 ـ الحشَّاشون ـ فرقة ثورية في تاريخ الإسلام، تعريب: مُحمَّد العزب مُوسى، دار المشرق العَرَبي الكبير، بيروت ـ 1980.
2 ـ الحشيشية ـ الاغتيال الطَّقُوسي عند الإسماعيليَّة النزارية، ترجمة: د. سُهيل زَكَّار، دار قُتيبة، دمشق ـ 2004.
ـ ماجد (عبد المُنعم): العلاقات بين الشَّرق والغَرْب في العُصُور الوُسْطَى، مطابع بيبلوس، بيروت ـ 1966.
ـ متز (آدم): الحضارة الإسلاميَّة، تعريب: مُحمَّد أبو ريدة، دار الكتاب العَرَبي، بيروت ـ بلا.
ـ مُصطفى (د. شاكر):
1 ـ من ذكريات الغزو الفرنجي، دار طلاس، دمشق ـ 1996.
2 ـ في التاريخ الشَّامي، دار طلاس، دمشق ـ 1998.
ـ معلوف (أمين): الحُرُوب الصَّليبيَّة كما رآها العَرَب، ترجمة: د. عفيف دمشقية، دار الفارابي، بيروت ـ 1998.
ـ المناوي (د. مُحمَّد حمدي): الوزارة والوُزراء في العهد الفاطمي، دار المعارف بمصر، القاهرة ـ 1990.
ـ مُورغان (مرغريت): دراسة لذُيُول وليم الصُّوري، الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 8، دار الفكر، دمشق ـ 1994.
ـ المُنجِّد (د. صلاح الدِّين): النُّظُم الدِّبلُوماسيَّة في الإسلام، دار الكتاب الجديد، بيروت ـ 1983.
ـ ناجي (عبد الجبَّار): الإمارة المزيدية، دار المُثنَّى، بغداد ـ 1970.
ـ النَّقَّاش (د. زكي): العلاقات الاجتماعيَّة والثقافية والاقتصاديَّة بين العَرَب والفرنج خلال الحُرُوب الصَّليبيَّة، دار الكتاب اللُّبناني، بيروت ـ 1946.
نيوباي (ب .هـ): صلاح الدِّين وعصره، تعريب: ممدوح عُدوان، دار الجُندي، دمشق ـ 1993.
ـ هندي (د. إحسان): الأسلحة وآلات القتال عند العَرَب والمُسلمين في القُرُون الوُسْطَى، مركز الدِّراسات العسكريَّة، دمشق ـ 2004.
ـ يُوسُف (د. جُوزيف نسيم):
1 ـ العَرَب و الرُّوم واللاتين في الحَرْب الصَّليبيَّة الأُولى، دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت ـ 1981.

2 ـ العُدوان الصليبي على الشَّام،دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت ـ 1981.

3 ـ العُدوان الصليبي على مصر، دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت ـ 1981.

4 ـ الوحدة و حَرَكَات اليقظة إبَّان الغزو الصليبي ، دار النهضة العَرَبيَّة، بيروت ـ 1981.

المعاجم والموسوعات:

ـ ألتونجي (د. مُحمَّد): المُعجم الذهبي فارسي ـ عربي ، دار العلم للملايين، بيروت ـ 1969.

ـ البُستاني (بُطرُس): دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت ـ 1976.

ـ الحموي (ياقوت بن عبد الله): مُعجم البُلدان، دار صادر، بيروت ـ1995.

ـ الخطيب (مُصطفى عبد الكريم): مُعجم المُصطلحات والألقاب التاريخية، مُؤسَّسة الرسالة، بيروت ـ 1966.

ـ دُوزي (رينهات):

1 ـ تكملة المعاجم العَرَبيَّة، ترجمة وتعليق: د. مُحمَّد سليم النعيمي، دار الرشيد، بغداد ـ1982.

2 ـ المُعجم المُفصَّل بأسماء الملابس عند العَرَب، ترجمة: د. أكرم فاضل، مطبعة الحُكُومة، بغداد ـ 1971.

ـ الزركلي (خير الدِّين): الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت ـ 1990.

ـ زامباور (إدوارد فُون): مُعجم الأنساب والأُسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه: د.زكي مُحمَّد حسن و حسن أحمد محمود، مطبعة جامعة فُؤاد الأوَّل، القاهرة ـ 1951.

ـ شير (السَّيِّد أدي): الألفاظ الفارسية المُعرَّبة، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ـ 1908.

ـ الكاشغري (محمود بن الحُسَيْن بن مُحمَّد): ديوان لُغات التُّرك، مطبعة عامرة، دار الخلافة العلية ـ 1333 هـ.

ـ كُوراني (علي سيِّد): القاموس الكُردي الحديث كُردي ـ عربي، شركة الشَّرق الأوسط للطباعة، عمَّان ـ1985.

ـ مجموعة من المُؤلِّفين: المُعجم الجَغرافي للقُطر العَرَبي السوري، إشراف: العماد أوَّل مُصطفى طلاس، مركز الدِّراسات العسكريَّة، دمشق ـ1995.

ـ ابن منظور (مُحمَّد بن مكرم بن علي): لسان العَرَب، دار إحياء التُّراث العَرَبي، بيروت ـ 1988

ـ The Encyclopedia of Islam, vol: IV. London 1960

كُتُب الرحلات:

ـ التطيلي (الربي بنيامين بن بونة): رحلة بنيامين، ترجمة: عزرا حدَّاد، المطبعة الشَّرقيَّة، بغداد ـ 1945.

ـ ابن بطُّوطة (مُحمَّد بن عبد الله بن مُحمَّد): تُحفة النُّظَّار في غرائب الأمصار، دار الكُتُب العلمية، بيروت ـ بلا.

ـ ابن جُبَيْر (مُحمَّد بن أحمد بن جبير): تذكرة بالأخبار عن اتِّفاقات الأسفار، آ ـ دار صادر، بيروت ـ بلا . ب ـ الموسوعة الشاملة، سُهيل زَكَّار، المُجلَّد ـ 14، دار الفكر، بيروت ـ 1998.

ـ زكريَّا (أحمد وصفي): جولة أثرية، دار الفكر، دمشق ـ 1984.

دواوين الشعر:

ـ العرقلة (حسَّان بن نمير الكلبي): الديوان، تحقيق: أحمد الجُندي، دار صادر، بيروت ـ1992.

ـ الملك النَّاصر (داود بن الملك المُعظَّم عيسى): الديوان، تحقيق: عبد الحَسَنَيْن الخُضر، مطبعة عكرمة، دمشق ـ 1996.

المصادر والمراجع الأجنبية:

_ Ambroise: The Crusade of Richard Lion_Heart. Translation from the Old French by: M.J. Hubert, New York, 1941.

_ Anna, Comnena: The Alxiad. An English Translation By: Dawes, Elizabeth A.S, London, 1928

_ Armstrong, Karen: Holy War, Macmillan, London, 1988

_ Ateya, Aziz: Crusade, Commerce and Culture, New York 1962

_ Baldwin, M.W: Raymond III of Tripoli's and the fall of Jerusalem (1140_1187), Princeton, 1936

_ Barker, E: Social and Political thought in Byzantium from Justinian I to the late Palaeologus, Oxford, 1957

_ Bell, M.I: A Short History of the Papacy. London, 1921

_ Boyl, John Andrew: The Mongol Word Empire, London, 1977

_ Burchard, Of Mount Zion: A Description of the Holy Land (A. D.1280), Translation from the original Latin by A, Stewart, London, 1896

_ Cahen, Claude: Pre – Ottoman Turkey, Translation: D, Jones_Williams, Sidgwick and Jackson, London, 1968

_ Campell,G.A: The Crusades, London, 1935

_ Chew, Helen .M: The English Ecclesiastical Tenants in Chief and Knight service, Oxford, 1932

_ Codfrey, J: The Unholy Crusade, London, 1980

_ Conder, Cloud Reignier: The Latin Kingdom of Jerusalem
1099 –1291 A .D, London, 1997

_Couiton,G.G: Medieval panorama, New York, 1955

_ Davis, E.J: The Invasion of Egypt in A.D 1249 by Louis IX of France, London, 1897

_ Davis, R.H.C: The History of Medieval Europe from Constantine to Saint Louis, London, 1957

_ De Diogil, Odo: La Croisades de Louis VII Roi de France, Translation: Berry,V.G, New York, 1984

_ Dussaud, R: Topographie historique de la Syrie antique et Médiévale, Paris, 1927

_ Hill, C. A: History of Cyprus, 2 Vols. Cambridge, 1940

_ Hillenbrand, Carole: The Crusades Islamic Perspectives,
Edinburgh University Press, 1999

_ Hardwick: A History of the Christian Church,

_ Hussey, A.J.M: The Byzantine World, London, 1957

_ Joinville, Jean Sire de: Saint Louis King of France, Translation: James Hotton, London, 1868

_ Jones, A.M: Constantine and The Conversion of Europe, London, 1961

_ Lane – Poole, Stanley:

1_ Saladin and the Fall of The Kingdom of Jerusalem, Cheats, Beirut , 1964

2_ A History of Egypt in the middle ages, London, 1936

3_ The Mohammedan dynasties, London, 1958

_Lang, David: Armenia Cradle of Civilization, London 1978

- Lewis, Bernard:

1_ Saladin and Assassins, Bulletin of the School of Oriental and African studies, University of London, Vol. XV, part: 2, London 1959

2_ The Assassins, London, 1967

_ Nersessian, S: The Kingdom of Cicilian Armenia, Philadelphia, 1962

_ Legman, G: The Guilt of The Templers, New York, 1966

_ Kantorowicz, E: Frederick The Second (1194 _1250), London, 1957

_ King, E.J: The Knights Hospitallers in The Holy Land, London, 1931

— Mayer, H: Bibliographie Zurggeschte der Kreuzzuge, Hanover 1956{ Two unpolished letters on the Syrian earthquake of 1202 } in Medieval and Middle Eastern studies, the Honor of Aziz Surial Atiya, ed Sami Hanna, 1972

_ Mc Killiam: A Chronicle of The Popes from St Peter to Pius x, London, 1972

- Nersessian, S: The Kingdom of Cicilian Armenia in Setton, Wolf and Hazard, A History of Crusades, Vol. II, Philadelphia, 1962

- Prawer, J:

1— Colonization Activities in The Latin Kingdom of Jerusalem (Revue Belgique philologie et d, Histoire XXIX) 1951 P.P.:1063_118

2_ The Settlement of the Latens in Jerusalem, Speculum, Vol. xxv ll, 1952

_ Rice, Tamara Talbot: The Seljuks in Asia Minor, Thames and Hudson, London, 1966

_ Runciman, Steven: A History of Crusades, Copy right, Cambridge University Press, 1954, Penguin Books, 1981

_ Pirenne, H: Economic and Social History of Medieval Europe, Translation from the French by: Halsey, F.D: London, 1961

_ Oman, Sir Charles: A History of The Art of War in The Middle Ages

A.D. 378_1515), London, 1960

Omran, Hazar & Dabbouram George: The Citadel of Damascus, Damascus, Unpublished, 2001

Of Charter's, Falcher: A History of the expedition to Jerusalem,

Of Tyr, William: A History of Deed's done Beyond the Sea, 2 voles, Translation by: Babcock, E.A and

rey, A.C, New York, 1976

Setton, K.M: A History of The Crusades, 2 Vols. Pennsylvania, 1958

mith, G.A: The Historical Geography of The Holy Land, London, 1935

Stevenson, W.B:

The Crusaders in The East, Cambridge,1907. Copy right, Beirut 1968

Meddle History, London, 1953

cola: Urban Life in Syria, Beirut, 1969 Ziadeh, _

المجلات والنشرات العَرَبيّة:

ـ أعمال الأُسبُوع التاريخي الأوّل، الجمعية التاريخية السُّوريّة، حمص ـ تشرين ثاني 1991.

1 ـ الحمارنة (د. صالح): الحملات الصَّليبيَّة ـ التسمية والدوافع.

2 ـ مُصطفى (د. شاكر): حكاية الصليبيَّات.

ـ أعمال ندوة خالد بن الوليد الدّوليّة، جامعة البعث، حمص ـ نيسان 1999.

الحايك (مُنذر): آخر أيّام خالد بن الوليد.

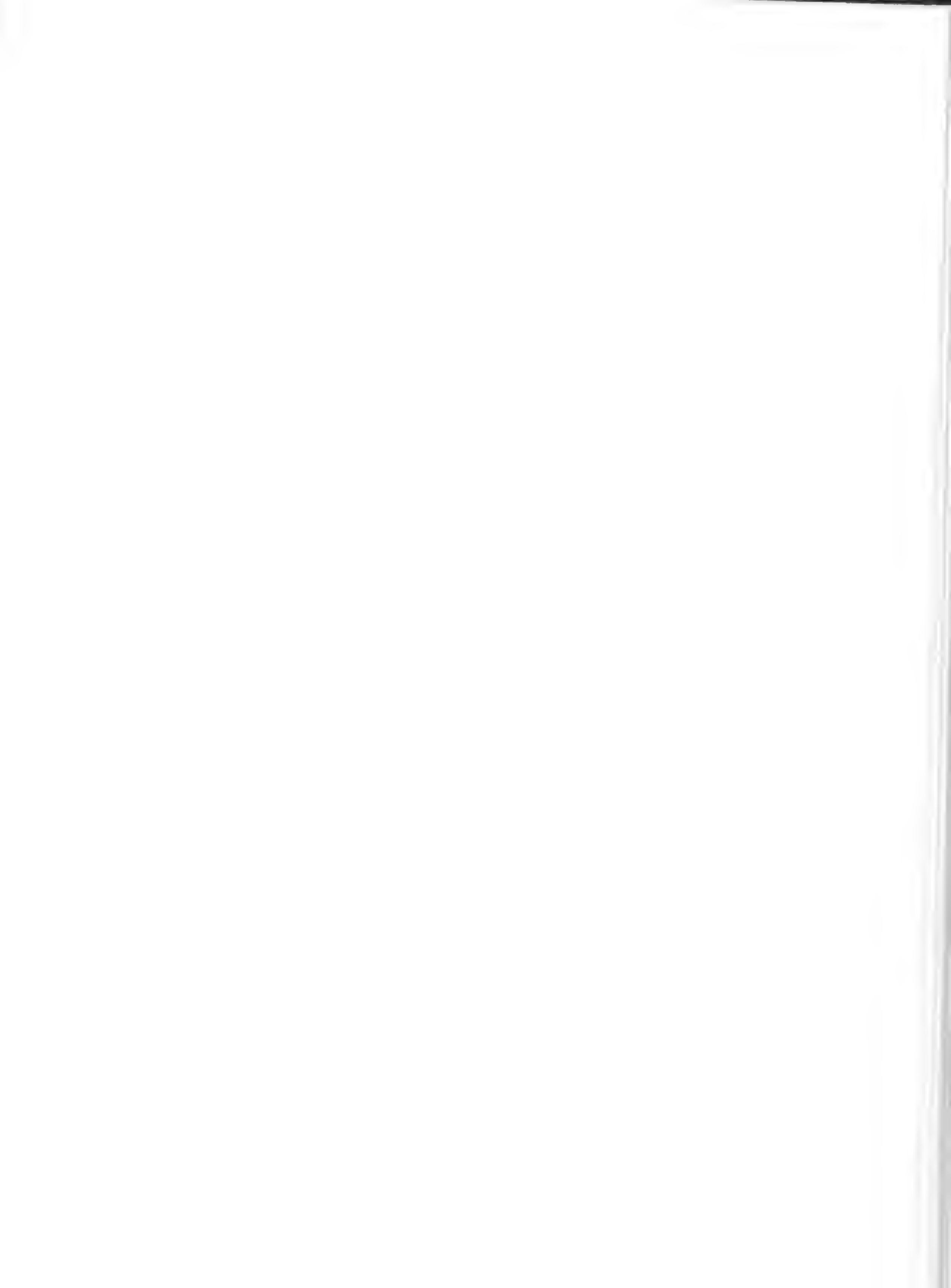
ـ مجلّة المُؤرِّخ العَرَبي، اتّحاد المُؤرّخين العَرَب بالقاهرة، العدد الثّاني ـ المُجلّد الأوّل ـ 2000.

باذياب (د. نُورة عبد الله): السياسة الأمنية للسُّلطان السلجوقي كيقباد الأوّل وأثرها على التقدُّم الاقتصادي لبلاد

المُحاضرات:

ـ مُبيِّض (د. حسن): الإمبراطُور فريدريك وعلاقته بالشرق العَرَبي، مُحاضرة في الجمعيـة التاريخيـة الـسُّور

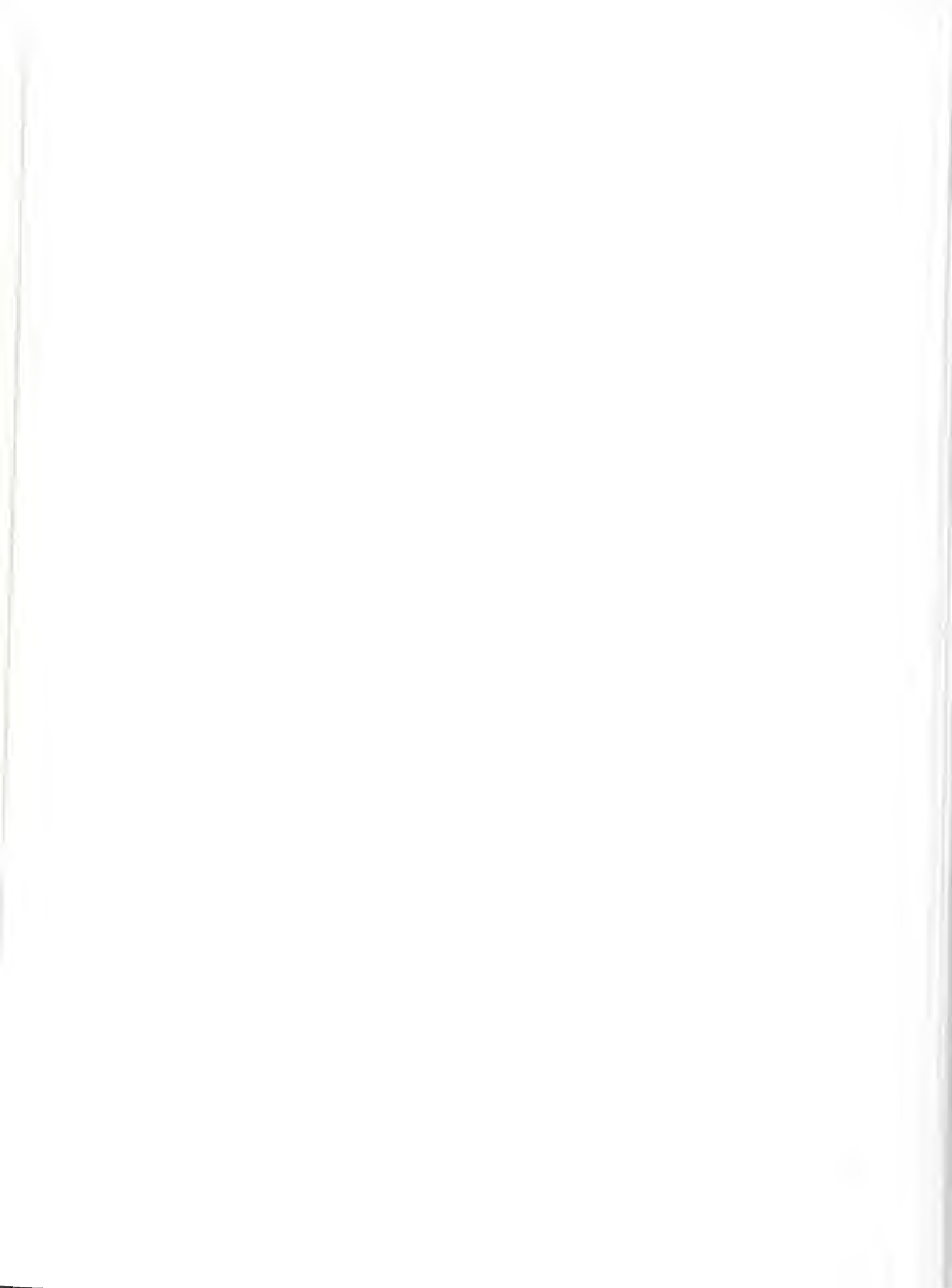
حمص، 15 ـ 3 ـ 1998.



لمحة إلى المؤلِّف

د .مُنذر مُحَمَّد الحايك:

- دُكتوراه في تاريخ العرب والإسلام.
- عُضو دائم في اللِّجان العلميَّة، ومُنسِّق لأعمال المُؤتمرات التَّاريخيَّة والأثريَّة في جامعة البعث .
- رئيس سابق للجمعيَّة التَّاريخيَّة السُّوريَّة .
- أُستاذ مادَّة التَّاريخ في كُلِّيَّة الآداب، جامعة البعث (1992-2002) .
- باحث مُشارك في العديد من المُؤتمرات الدّوليَّة في الجامعات السُّورية والعَرَبيَّة.
- له أكثر من عشر مُؤلَّفات في التَّاريخ، والآثار، والتُّراث الشَّعبي.
- نَشَرَ عشرات البُحُوث التَّاريخيَّة، والأثريَّة، والاجتماعيَّة في المجلَّات العَرَبيَّة المُتخصِّصة.
- حَصَلَ على كثير من شهادات التَّقدير من عدَّة جامعات، ومراكز دراسات، وهيئات ثقافيَّة سُوريَّة، وعَرَبيَّة، وأجنبيَّة؛ تقديراً لنشاطاته الثَّقافيَّة، ومُشاركاته العلميَّة.



منشورات الأوائل للنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق ص ب 3397
هاتف 00963112233013 فاكس 00963112460063
www.daralawael.com / alawael@scs-net.org

1) **الدم المُقدّس الكأس المُقدّس ، ميشيل بيجنت – ريتشارد لاي – هنري لينكون ، ترجمة : مُحمَّد الواكد**، 2006.
2) **فلسفة التّرقّي والولاية عند الشّيخ مُحيي الدِّين بن عربي ،د.مُنى غزال**، 2006.
3) **الحقّ الذي لا يريدون ، دراسة في روايات الأحاديث على ضوء القُرآن الكريم ، عدنان غازي الرّفاعي** ، 2006 .
4) **قصّة الوُجود دراسة قُرآنيّة في فلسفة الموت والحياة لعالميْ الإنس والجنّ، عدنان غازي الرّفاعي**، 2006.
5) **دفاعاً عن الجهاد، آرشي أوغوستاين ، ترجمة: مُحمَّد الواكد**، 2006.
6) **وُجهة نظر مسيحيّة : تفجيرات انتحاريّة أم استشهاد؟! آرشي أُوغوستاين، ترجمة :مُحمَّد الواكد** ، 2006.
7) **ردٌّ على كتاب (الشّخصيّة المحمّديّة لمعروف الرّصافي) ، د.مُحمد بن مُوسى بابا عمي وآخرون** ، 2006 .
8) ***نُاسترادامُوس الألفيّة الجديدة ، جون هُوغ ، ترجمة ، مُحمّد الواكد*** ، 2006.

مَنْ هُو ناسترادامُوس؟ كيف جمع بين الطّبّ والتّنبُّؤ؟ نماذج من نُبُوءاته..كيف تنبّأ بـ: مقتل هنري الثّاني؟ بحروب الدِّين في أوروبا؟ باغتيال هنري الثّالث؟ بحرب ضدَّ إمبراطُوريَّتَيْن عَرَبيَّتَيْن؟ بولادة الإمبراطُوريَّات الجُمهُوريَّة؟ بنابليون بونابرت؟ بالثّورة الفرنسيَّة؟ بأعمال وحشيَّة إرهابيَّة؟ بمنطاد مُونت غاليفير؟ بسُقُوط رُوبيسبيري؟ بأنَّ نابليون هُو عدوُّ المسيح الأوّل؟ بالحرب الفرنسيَّة الرُوسيَّة؟ بنابليون الثّالث والرّايخ الثّاني؟ بانحطاط ما بعد الإمبراطُوريَّة؟ بهتلر، وبمُوسُوليني، وبالشّخص الأحمر العظيم، وبراسبُوتين، وبلُغز قَتْل رُومانُوف، وبتنازل إدوارد الثّامن عن العرش، وبهيفتر عدوّ المسيح الثّاني، وبسُقُوط فرنسا، وبمعركة بريطانيا، وبباربارُوسا، وبهرمجدون، وبموت مُوسُوليني، وبموت عدوّ المسيح الثّاني، وبإلقاء القنبلة الذّرّيَّة على هيروشيما، وبإسرائيل وفلسطين، وبالثّورة الهنغاريّة، وبتشارل دي غُول، وبالثّورات الثّقافيَّة الصّينيَّة، وبمقتل الأخوة كينيدي الثّلاثة، وبنُزُول أبولو على القمر، وبكارثة تشيرنُوبل، وبنهاية الشّيُوعيَّة، وبكارثة تشالينجير، وبإطلاق النّار على رُوي ريب "رُونالد ريغن"، وبنكسة سُوق الأسهم الماليَّة، وبمعاهدات تخفيض الأسلحة الاستراتيجيَّة، وبمُذنّب هالي، وبالطّاعون، وبالبابا جُون الثّالث والعشرين، وبالبابا بُول السّادس، وبالاغتيال البابوي، وبالفضائح الماليَّة في الفاتيكان، وبانتشار الإيدز، وبأنَّ ثُلثي العالم سينتهيان ويضمحلان، وبمابوس عدوّ المسيح الأخير(صدَّام حُسين، وجورج دبليو بوش، وأسامة بن لادن)، وبالعقيد مُعمَّر القذّافي، وبياسر عرفات، وبتفجيرات 11أيلول (سبتمبر)2001 (الهُجوم على الجبال المُجوَّفة)، وبعمليَّة عاصفة الصّحراء، وبحرب أمريكا المُفجعة ضدَّ الإرهاب، وبسلام في الأرض لوقت طويل، وبالحرب المنغوليَّة العظيمة، وبالحرب العرْقيَّة العالميَّة العظيمة، وبإيحاء تأثير البيئة على المناخ، وبالجفاف العظيم النّاجم عن ارتفاع درجة حرارة الأرض، وبأنَّ ملك الإرهاب الحقيقي هُو ارتفاع درجة حرارة الأرض، وبالكُسُوف العظيم في 11أغسطس/ آب 1999، وبرجال الرُّؤيا الجُدُد؛ مثل سُون ما يُونج، والحلاج، وبدي لاما، وبماهيش يُوغي، وبمهير بابا، وبالسّوامي باراماهانسا يُوغانادا، وبما بعد الألفَيْن، وبألفيَّة من السّلام، وبكيف سينتهي العالم عام 3797بعد الميلاد!!

9) ***(إسرائيل) الرّؤساء ـ رُؤساء الكنيست ـ رُؤساء الحُكُومات مُنذُ الإنشاء حتّى 2006 م،***
د.أسامة جُمعة الأشقر ـ حسن عادل الرّفاعي، 2006.

الصّهيونيَّة وقادة المشروع الصّهيوني، اتّجاهات وتيّارات الفكر الصّهيوني، الموجات الاستيطانيَّة، التّحالف الاستراتيجي بين الصّهاينة والاستعمار، وعد بلفور، نصّ إعلان قيام إسرائيل، أبرز زُعماء الحركة الصّهيونيَّة، النّظام السّياسي

الإسرائيلي، رُؤساء الكنيست الإسرائيلي، رُؤساء إسرائيل، رُؤساء الحُكومات الإسرائيليَّة. مع لمحة كافية لكُلٍّ رئيس من هؤلاء، مُنذُ قيام إسرائيل إلى بداية 2006.

10) **فُتوح فلسطين تحقيقات تاريخيَّة تكشف تفاصيل فُتوح المناطق الفلسطينيَّة في العصر النَّبويّ وصدر العصر الرَّاشديّ، د.أسامة جمعة الأشقر، 2006.**

الكتاب هو الدّراسة الأولى التي تقف بالقارئ على تفاصيل ما أورده المُؤرِّخون والرُّواة عن فتح فلسطين في أزهى عُصور الإسلام (عصر النّبي وصاحبَيْه الخليفة أبي بكر الصّدِّيق، والخليفة عُمر بن الخطَّاب، ويُحلِّل مرويَّات فتح مدينة القُدس بشكل يُخالف الصُّورة النّمطيَّة التي يُوردها الكُتَّاب والمُؤلِّفون، ويذكر كيفيَّة فُتُوح مُعظم مدائن فلسطين وأقاليمها ممَّا لم يقف عليه مُعظم القُرَّاء من قبلُ في ضوء المُعطيات التّاريخيَّة، يكشف الكتاب عن الدّور النّبوي الكبير في فتح فلسطين، والتّهيئة لذلك قبل اشتعال الفُتُوح في عهد أبي بكر، وانتشارها واكتمالها في عهد خليفته عُمر بن الخطَّاب. ويقف الكتاب على نماذج من بُطُولات الصّحابة والتّابعين في عمليَّات الفُتُوح.

11) ***المُقاومة الفلسطينيَّة والإرهاب الدّولي بعد 2001/9/11 م، نهاد خنفر، 2006.***

المفهوم العامّ للإرهاب، مصاعب تعريف الإرهاب، تحديد مراحل تطوُّر الإرهاب السّياسي (الخلفيَّة التّاريخيَّة)، الثّورة الفرنسيَّة والإرهاب، الفَوضَويَّة والعَدميَّة والإرهاب، الثّورة الرّوسيَّة والإرهاب، مُحاولات تعريف الإرهاب، تعريف المُجتمع الدّولي للإرهاب، تعريف المُنظَّمات العالميَّة والإقليميَّة للإرهاب، عصبة الأُمم وتعريف الإرهاب، الأُمم المُتَّحدة وتعريف الإرهاب، جامعة الدُّول العَرَبيَّة وتعريف الإرهاب، مُميِّزات الإرهاب، دوافع الإرهاب وأسبابه، أنواع الإرهاب، أساليب وأدوات الإرهاب، تمييز الإرهاب من أنواع العُنف الأُخرى، بين الحروب النِّظاميَّة والتّقليديَّة والإرهاب، بين حرب العصابات والإرهاب، بين الجرائم السّياسيَّة والإرهاب. المفهوم العامّ للمُقاومة، تعريف المُقاومة وتحديدها، شرعية المُقاومة في القانون الدّولي، الوزن القانوني للمُقاومة، أسانيد مُمارسة حقّ المُقاومة المُسلَّحة، حق المُقاومة المُسلَّحة والدّفاع الشّرعي، تأييد المُجتمع الدّولي لكفاح حركات التَّحرُر، الخلفيَّة القانونيَّة لحقّ الشّعب الفلسطيني في المُقاومة، حقّ الفلسطينيِّين في تقرير المصير، عدم شرعية الاحتلال وحقّ الشّعب الفلسطيني في المُقاومة، الخَلط بين المُقاومة والإرهاب، المُحاولات الأمريكيَّة للخلط بين الإرهاب والمُقاومة المشروعة، المُحاولات الأمريكيَّة قبل 11 أيلول / 2001، المُحاولات الأمريكيَّة بعد 11 أيلول/ 2001، المُحاولات الإسرائيليَّة للخَلط بين الإرهاب والمُقاومة المشروعة، المُحاولات الإسرائيليَّة قبل 11 أيلول / 2001، المُحاولات الإسرائيليَّة بعد 11 أيلول / 2001، آثار الخلط على المُقاومة الفلسطينيَّة، الآثار المُترتِّبة على منهجيَّة المُقاومة في العمل المُسلَّح داخل حُدُود 1967، الجدل الفلسطيني الدّاخلي حول جدوى العمليَّات التّفجيريَّة (التّفجيرات البشريَّة).

12) ***التّغلغل الإسرائيلي في إيران وأثره في الأمن الوطني العراقي (1950 – 1967)، د. جاسم إبراهيم الحيَّاني، 2006.***

ما هي الخلفيَّة التّاريخيَّة للتّغلغل الإسرائيلي في إيران حتَّى تَسلُّم مصدق الحُكومة 1951؟ كيف تغلغلت إسرائيل في إيران 1951 ـ 1963؟ وكيف تزايد التّغلغل من 1963 ـ 1967، وما أثره في الأمن الوطني العراقي؟

13) ***خفايا علاقات إيران ط "إسرائيل" وأثرها في احتلال إيران للجزر العَرَبيَّة الإماراتيَّة الثّلاث (1967 – 1979)، د. جاسم إبراهيم الحيَّاني، 2006.***

كيف كانت العلاقات الإيرانيَّة الإسرائيليَّة بين 1967ـ 1971؟ بدايات التَّغلغل الصّهيوني في إيران، ما مراحل تطوُّر العلاقات بينهما من 1967ـ 1971؟ ما هي ادِّعاءات إيران لاحتلالها الجُزُر الإماراتيَّة العَرَبيَّة الثّلاث، وكيف احتلَّتها؟ ما هي الوقائع التّاريخيَّة والقانونيَّة لمُمارسة السّيادة الفعليَّة للعَرَب على الجُزُر الثّلاث؟ ما هُو الموقف العَرَبي والدّولي من احتلال الجُزُر؟ ما هي العلاقات الإسرائيليَّة الإيرانيَّة؟ وما دور إسرائيل الخفي وأهدافها في احتلال إيران للجُزُر؟ ما موقف إيران من حرب 73؟ ما موقف إسرائيل من سُقُوط مُحمَّد رضا بهلوي 1979؟

14) ***أمركة العولمة في الشرق الأوسط وآسيا الوسطى مثلث الخيرات، مُحمّد سرحان، 2006.***

ما هي خُطّة الدّفاع الاستراتيجي الأمريكيّة لإعادة إحياء الحرب الباردة؟ قراءة في الإخفاقات المُتكرّرة لسياسة الولايات المُتّحدة..وهل ستنهج الإدارة الأمريكيّة سياسة مُتوازنة؟ وما هي سياسة واشنطن ورياح التّغيير في المنطقة العَرَبيّة؟ وهل الحرب مرآة لعصر التّكنولوجيا أم لسباق الهيمنة؟ وكيف اجتاحت العولمة الأمريكيّة أسوار الصّين؟ ولماذا تتخوّف أمريكا من الصّين وكُوريا الشّماليّة؟ العَرَب والمصلحة القوميّة في آسيا الوُسْطَى.. ما هي عوامل الانحراف في آسيا الوُسْطَى؟ اللّوبي الصّهيوني ومُحاولات تخريب العلاقات الرّوسيّة العَرَبيّة.. ما هي الخريطة الجديدة للصّراع الخلف الأذري الإسرائيلي؟ أوراسيا والمُخطّط الجيواستراتيجي..آسيا الوُسْطَى والشّرق الأوسط بين مخالب الدّول الكُبْرَى ..الأمم المُتّحدة والحُكُومة الخفيّة العالميّة..العولمة الأمريكيّة وأولويّات العلاقات العَرَبيّة التّركيّة..العولمة والدّور الإسرائيلي في آسيا الوُسْطَى.. التّغلغل الإسرائيلي في آسيا الوُسْطَى ورُوسيا ودُول البلطيق..

15) **لقد سرقوها ! القضيّة الفلسطينيّة حقائق ودلالات، نبيل السّهلي**، 2006.

ما القرارات الدّوليّة حول فلسطين؟ الفلسطينيُّون ومُؤشّرات التّطوّر والنُّمو، التّسلّل اليهودي إلى فلسطين، الفلسطينيُّون داخل الجُزء المُحتلّ 1948، إسرائيل، المُجتمع، الاقتصاد، الكنيست، النكبة واللاجئون، الضّفّة والقطاع، القُدْس، المجازر الصّهيونيّة، الانتفاضات، المُساعدات الأمريكيّة لإسرائيل، التّسوية الإسرائيليّة للقضيّة الفلسطينيّة، الأسرى الفلسطينيُّون في السُّجُون الإسرائيليّة.

16) ***نحن وتنظيم القاعدة، مُنتصر حمادة، 2006.***

ما هي حسابات الرّبح والخسارة في الحرب على تنظيم القاعدة؟ مَنْ هُو مُلهم أسامة بن لادن؟ التّصدّي الأمني والفقهي، ما دُرُوس حادث اقتحام الحَرَم المكّي؟ العقل الإسلامي ومأزق فكرانيّة القاعدة، كيف أحرج المُبتسم العقل السّياسي الغربي، والفقه الإسلامي المُعاصر؟ القاعدة وأزمة النّماذج التّفسيريّة، القاعدة وأزمة الفصل بين الاعتدال والتّشدّد، نقد القراءة التّآمريّة لمجزرة بيسلان، نقد تخبُّط إسلاميّي المغرب، وإسلاميّي فرنسا، وإسلاميّي القاعدة، القاعدة وحتميّة المُجابهة الفقهيّة، مُسلّمة عَجز فُقهاء المُؤسّسة، مُراجعات الجماعة الإسلاميّة في مصر، مُراجعات الشّيخ علي الخُضير، المُراجعات ورُدُود الاستنفار الفكراني.

17) **أبحاث في التّوازن والميزان، المهندس بشّار عطّار**، 2006.

ما هي الحقيقة المُطلقة؟ ما هُو الميزان؟ حركة الأرض وأنواعها الـ13وحساب الله تعالى لها في الأذن الوُسطى، الميزان وحركة الجبال والبحار والبرزخ والماء والحياة، الميزان والأعمار والموت والميزان الرّقمي ورَقم40، الصّيام والميزان والخمر والطّهارة والمنام والحرب والقتال، الميزان وغُمُوض مُستقبل الإنسان، الميزان الهندسي وأثر الطّغيان في الميزان، الإرهاب والخطر النّووي واللّوح المحفوظ.

18) ***فعاليّة القراءة وإشكالية تحديد المعنى في النّصّ القُرآني، جهلان مُحمّد، 2006.***

يهتمُّ البحث بتحليل فعاليّة القراءة وعلاقتها بتجسيد دلالة النّصّ، ويتّخذ من القراءات والتّأويلات المُمارَسَة على النّصّ القُرآني موضوعاً لاختبار آليّات القراءة عند المُفسّرين العَرَب القُدماء، ويفتح سُبُلاً لمُحاولة الاستفادة منها، وربطها بالآراء الحديثة في القراءة وتأويل النُّصُوص. من أهمّ ماورد في الكتاب:ما هي القراءة الاستهلاكيّة؟ وما هي القراءة الفعّالة المُنتجة؟ وما مُستويات القراءة ومُحاورة النّصّ؟ وما هي مراحل القراءة للقُرآن؟ وكيف نُحلّل الآليّة القُرآنيّة؟ القراءة وإنتاج المعنى، آفاق نظريّة القراءة، القارئ عند عُلماء القُرآن، المكّي والمدني، والتّفاعل بين النّصّ القُرآني وواقع المُتلقّين، النّاسخ والمنسوخ، توسيع المعنى وتضييقه، المُطلق والمُقيّد، المُحكم والمُتشابه، فَهم النّصّ القُرآني والقراءة، فَهم القُرآن بين التّفسير والتّأويل، تيّارات التّأويل القُرآني، آليّات التّأويل القُرآني، وشُرُوطه، وأنواعه، بين المعقول والمنقول؛ نقد ما بعد الحداثة.

19) **أُصول البرمجة الزّمنيّة في الفكر الإسلامي دراسة مُقارنة في الفكر الغربي، د. مُحمّد بن مُوسى بابا عمي، 2006.**
بدأ المُؤلّف مُحاولة أصيلة لإبراز نُقطة الالتقاء بين عناصر الحضارة الثّلاثة: (الدّين "أو القيَم"، والزّمن، والإنسان). واهتمّ بالمُصطلح والعُلُوم الزّمنيّة والدّراسات الإسلاميّة، واهتمّ بالأُصول العقيديّة والتّقنيّة والغايات والأهداف، ثُمّ اقترح أُصولاً تقنيّة من خلال فقه الأولويّات والعقيدة وأُصول الفقه، ثُمّ اهتمّ بالبرنامج اليومي من خلال القُرآن والسُّنّة النّبويّة، وحلّل إشكاليّة المُصطلح العَرَبي في الفكر الإسلامي وفي الدّراسات الإسلاميّة الزّمنيّة خُصُوصاً، ثُمّ أحصى جُملة العُلُوم التي لها علاقة عُضويّة بالبرمجة الزّمنيّة، ثُمّ حلّل الدّراسات الإسلاميّة في الزّمن والوقت و.. و..البحث ـ في مُجمله ـ لا يخرج عن كونه عملاً تأصيليّاً أوّليّاً، سعى جهده إلى التّدليل على أنّ للبرمجة الزّمنيّة أُصولاً وجُذُوراً دينيّة، وثقافيّة، وحضاريّة، وليست مُجرّد عادات شكليّة، أو تصرُّفات ظاهريّة، وهذه بعينها هي الأطروحة التي يهدف الباحث إلى إظهارها، والدّفاع عنها.

20) **أنماط العلاقات الاجتماعيّة في النّصّ القرآني دراسة سُوسيُولُوجيّة لعمليات الاتّصال في القصّة القُرآنيّة (قصّة مُوسى تطبيقاً)، د. عبد العزيز خواجة، 2006.**
المُصطلح وحُدُود العلم، الوضعيّة وارتباطيّة النّصّ بالمُجتمع، الماركسيّة والانعكاسيّة، مدرسة فرانكفورت، الأمريكيّة ودراسة الجمهور، من النّصّ الأدبي إلى النّصّ الدّيني، العلاقات الاجتماعيّة: التّحديد والقياس، والمُستويات، العمليّة الاتّصالية: المفهوم والأبعاد، الأنواع والأساليب، عناصر العمليّة الاتّصالية ونماذجها، المُرسل، الرّسالة، الوسيلة، المُستقبل، الأُطُر العامّة للاتّصال، البُعْد السّسيوتاريخي للنّصّ القُرآني وقَصَصه، ما مفهوم النّصّ القُرآني؟ ما تاريخيّة النّصّ التّأسيسي؟ تقسيم النّصّ القُرآني، من القصّة إلى القصّة القُرآنيّة، تعدُّد الأغراض، البُعْد الاجتماعي، عوائق التّحديد، مادّة القصّة في النّصّ القُرآني، نمط العلاقات الأُسريّة، مادّة مُوسى في النّصّ القُرآني، الأسرة البيولوجيّة، الأسرة البديلة، أسرة الإنجاب، نمط العلاقات السّلطويّة وعلاقات السّائد، مَنْ هُو فرعون؟ مَنْ هي حاشيته؟ ما أجهزته القمعيّة؟ ما وسائلها القمعيّة؟ احتكاكيّة مُوسى بالسّلطة، نمط علاقات التّبعيّة وعلاقات التّعلّم، وغيرها من الموضوعات التي تُطرح بشكل جديد وعلمي.

21) **الصّدق في العمل الاجتماعي، د. مُوسى بن بابا عمّي، 2006.**
مدخل في مُصطلح (المُجتمع والأُمّة)، الصّدق والعلميّة والغاية والأهداف والأولويّات والتّخصُّص والتّفرُّغ والعمل الجماعي والتّقييس والتّقييم والوُضُوح والنّقد والمُحاسبة والحزم والرّدع والتّداول على المنصب والعصبيّة والمصالح الذّاتيّة ومفهوم الآخر، التّعميم في الأفكار، ومَنْ يستطيع أنْ يقول لا؟!

22) **المُعادلة الفعّالة لحلّ الإشكاليّات وقيادة الجماعات، د. مُوسى بن بابا عمّي، 2006.**
كيف نُفعّل العمل الجماعي؟ كيف نفضّ الخلافات بأنواعها؟ إدارة الجماعات والشّركات والمُؤسّسات، تأهيل القيادات، والعمل على تحمُّل المسؤوليّات، فَهْم الأحداث التّاريخيّة، وتفسيرها، والحُكم عليها، التّخطيط والتّخطيط الاستراتيجي.

23) **المُعادلة السّحريّة لحلّ الإشكاليّات وإدارة المشاريع، د. مُوسى بن بابا عمّي، 2006.**
يجب مُطالعة هذا الكتاب بغرض تطبيقه في الحياة اليوميّة، وأنْ ننقل ما نستوعب إلى مَنْ حولنا، وأنْ نحمل في طيّاتنا رُوحاً ناقدة، مثلاً حين وُقُوع سُوء تفاهم بين مُعلّم وآخر، أو بين إدارة وأساتذة، أو بين تلاميذ وإدارة، ماذا نفعل؟! الإجابة بين ثنايا الكتاب.

24) **حدّد غايتك، د. مُوسى بن بابا عمّي، 2006.**
إنّ ما تقرؤه في هذا الكتاب هُو أهمّ شيء في حياتك، فسواء اقتنعت به أم لم تقتنع، وسواء أعجبك أم لم يُعجبك، فإنّ تحديد غايتك والعمل وفقها هُو أهمّ قرار تتّخذه في حياتك، فلا تتغافل عنه، ولا تُضيع الوقت في البتّ فيه. إنّ ما ورد في هذا الكتاب ليس رأياً شخصيّاً، ولا نظريّة تقبل النّقض، ولكنّه حقيقة كونيّة، مُستمدّة من القُرآن الكريم، وهي مُوجّهة إلى الإنسان مهما كان دينه، فقرّرْ الآن، ولا تتوانَ، وأجب عن السُّؤال الأهمّ لمصيرك: ما هي غايتي من الحياة؟!

25) ***العلامة مُحمَّد رشيد رضا عصره وتحدِّياته ومنهجه الإصلاحي ، د. خالد سُليمان الفهداوي ، 2006.***
حياة مُحمَّد رشيد رضا، خُصُوصيَّات المرحلة التَّاريخيَّة، الوحدة الإسلاميَّة الغائبة والصِّراع الدَّاخلي، التَّخلُّف العلمي للأُمَّة وعدم وُجُود برنامج واضح، إلغاء دور المرأة في البناء الاجتماعي،ما هي التَّحدِّيات التي واجهت الأُمَّة في زمنه؟ التَّكوين الفكري والمنهج الإصلاحي له.

26) ***الفقه السِّياسي عند شيخ الإسلام ابن تيمية ، د. خالد سُليمان الفهداوي ، 2006.***
ما هي السِّياسة الشَّرعيَّة عند ابن تيمية؟ وما أهمِّيَّة الدَّولة في مشروعه الإصلاحي؟ وما المقصود بالفراغ الدُّستوري؟ ولماذا نشأ؟ وما أهمِّيَّة شاغل الفراغ الدَّستُوري عند ابن تيمية؟ ما منهجيَّة ابن تيمية في ملء الفراغ الدَّستوري؟ ابن تيمية ومنهج المرحلة، هل استطاع ابن تيمية ملء الفراغ الدَّستوري(تقييم وتقويم).

27) ***منهج التَّعايش بين المُسلمين واستراتيجيَّة التَّقريب بين المذاهب الإسلاميَّة ، د. خالد سُليمان الفهداوي ، 2006.***
الطَّائفيَّة..التَّاريخ والواقع والمُخطَّط، التوجُّهات الغربيَّة تجاه أُمَّتنا العَرَبيَّة الإسلاميَّة، في فقه عام الجماعة، الاختلاف المشروع والتَّفرُّق المذموم، لماذا ندعو إلى منهج التَّعايش؟ نحو المُستقبل.

28) ***التَّشيُّع والعولمة رُؤية في الماضي والمستقبل، د. جمال البدري ،2006.***
ما هُو مفهوم التَّشيُّع و الشِّيعة وتطوُّرهما؟ ما أهمّ الأفكار والفرَق الشِّيعيَّة؟ الأئمَّة والمذهب الشِّيعي الاثْنَيْ عشري، الغيبة والإمام الغائب، إرساء عقائد الشِّيعة، تعداد الأئمَّة بالتَّفصيل، الأُسُس والأُصُول الشِّيعيَّة، العترة والعصمة والولاية والإمامة والعدل والتَّقية ونفي البدعة والغيبة والشَّفاعة والاجتهاد والدِّعاء والتَّقليد. ما هُو المُستقبل؟

29) ***السَّيف الأخضر دراسة في الأُصُوليَّة الإسلاميَّة المعاصرة ، د. جمال البدري ،2006.***
الكتاب ـ أصلاً ـ رسالة دكتوراه حازها المُؤلِّف بدرجة امتياز وبمرتبة الشَّرف. ما هي الأُسُس العامَّة للجماعات الأُصُوليَّة الإسلاميَّة في مصر؟ مرحلة التَّأسيس والظُّهُور، التَّأثير والازدهار، الثَّبات والانتظار، الاستراتيجيَّات والآليَّات الحركيَّة للجماعات الأُصُوليَّة المصريَّة، الإخوان المُسلمون، الجهاد، آليَّات بناء النُّفُوذ السِّياسي والاجتماعي، الحاضر والمُستقبل، الإخوان المُسلمون وخُطَّة التَّمكين، القيادات الجديدة للجماعات الأُصُوليَّة المصريَّة، التَّجربة والخطأ..نموذج تطبيقي.

30) ***القرامطة واليهُود الاتِّجاه الواحد ، د. جمال البدري ،2006.***
ما هي عقائد الكيسانيَّة؟ ما هي الدعوة العلويَّة أيَّام العبَّاسيِّيْن؟ الإسماعيليَّة أو السَّبعيَّة، مَنْ هُو قرمط؟ لماذا نشأت دعوة القرامطة في الكُوفة؟ ما مُساهمة المرأة في دعوة القرامطة؟ القرامطة في كلوذا، ما هي عقائد القرامطة؟ اليهُود في دعوة القرامطة، ما هي أشهر كُتُب القرامطة؟ وما هُو أثرهم على الشُّعراء والكُتَّاب؟ القرامطة في العراق والشَّام والبحرين والقطيف والحجاز، القرامطة وغزوهم لمصر، وعلاقتهم بالفاطميِّيْن، وما أثر حُرُوب القرامطة على الدَّعوة العبَّاسيَّة؟ كيف انتهى القرامطة؟.

31) ***اليهُود وألف ليلة وليلة ، د. جمال البدري ،2006.***
ما هي أهمِّيَّة ألف ليلة وليلة؟ اليهُود في العراق القديم، بابليَّة التَّوراة والتَّلمود، الثَّالوث الشَّرقي المُشترك، النَّتاج الفكري العبَّاسي، يهود بغداد في العصر العبَّاسي، عراقيَّة ألف ليلة وليلة، ألف ليلة وليلة المصريَّة، جَغرافيَّة ألف ليلة وليلة، الإسرائيليَّات في ألف ليلة وليلة، الإعلام والسِّياسة، المال والتِّجارة، الجنس والمرأة، السِّحر والأسطورة، الكلام غير المُباح، العهد الثَّالث، ألف ليلة وليلة والماسونيَّة، اللَّيالي في أمريكا، النُّبوءة!!

32) **الأسوأ من سادوم وعامورة الزَّانيات المُقدَّسات في صفحات التَّوراة ، حنَّا حنَّا ،2006.**
الزَّواج مُنْذُ وُجُوده، أنواعه، العلاقة الجنسيَّة بين الذَّكَر والأُنثى، كيف كانت تتمُّ التَّضحية ببكارة الصَّبايا؟ وكيف تُقدَّم العذارى ضيافة للمُمارسات الجنسيَّة، كيف نظرت التَّوراة إلى نساء يهُود؟ لُوط وابنتاه، هُوشع، نشيد الإنشاد والجنس ولذَّته، يهُوذا الأب الرُّوحي للياهوديَّة وكيف ضاجع كنَّته ثامار؟ راحاب الزَّانية في سِفْر راعوث، سِفْر استر وتغريرها بأحشويروش، يهوديت وإغواؤها أليفانا قائد جُيُوش نبوختنصر، يفتاح ابن الزَّانية، النَّبي صموونيل، أمنون يغتصب

أخته، إبراهيم وسارة وفرعون وأبو مالك الفلسطيني، إسحق وزوجته، دينه ابنة يعقوب، مزامير داود، هذا الكتاب يُعرِّي العهد القديم، ويكشفه للنّاس أجمعين، ويفضح ما فيه من تزوير ونحل وفبركة (من ناحية الجنس).

33) ***الكافي في تاريخ القُدْس*** **، رجا عبد الحميد عُرابي ، 2006.**

القُدْسُ كلمةٌ ينتشي بحُزن لدى سماعها أيُّ عَرَبيٍّ؛ أ كان مُسلماً أم مسيحيّاً. فلم تلعب مدينة من المُدُن القائمة الدّور الذي لعبته القُدْس في التّاريخ الإنساني. كيف نشأت القُدْس؟ ما موقعها؟ ما مصادر التّاريخ القديم للقُدْس وفلسطين؟ ما هي نشاطات التّنقيب الآثاريّة؟ ما هي النّظريّة السّاميّة؟ جغرافيّة القُدس والمنطقة، وأحوالها المناخيّة ما قبل التّاريخ، السّاميّة والعبريّة، التّوحيد الكنعاني، اكتشاف أورشليم القديمة، أورشليم اليبوسيّة، عصر إبراهيم، وإسحق، ويعقوب، مَنْ هُم بنو إسرائيل؟ الرّحيل! الهكسوس، مُوسى والخُرُوج، الأمر بغزو فلسطين، التّيه، ما هي حقيقة الوعد وأرض الميعاد وشعب الله المُختار؟ وفاة مُوسى وغزو بلاد كنعان، يُوشع بن نُون ودُخُول أرض كنعان، القُضاة، الفلسطينيُّون، المُلُوك، داود، سُليمان، أسوار القُدْس القديمة، انقسام يهُودا، الغزوات الآشوريّة والكلدانيّة والبابليّة، القُدْس والفُرْس واليُونان والرُّومان ، القُدْس والمسيح، الإسراء والمعراج، القُدْس والفتح الإسلامي، العهدة العُمريّة، القُدْس والأمويُّون، كيف بُني مسجد الصّخرة والمسجد الأقصى؟الفاطميُّون والقُدْس، السلاجقة، الحُرُوب الصّليبيّة واحتلال القُدْس، صلاح الدِّين الأيُّوبي وتحرير القُدْس، القُدْس وخُلفاء الأيُّوبي الكبير، بيبرس والقُدْس، المماليك والقُدْس، العثمانيُّون والقُدْس، القُدْس ونابليون، القُدْس وإبراهيم باشا، القُدْس وآخر الحُكْم العُثماني، مُؤامرات الحُلفاء، وعد بلفور، سايكس بيكو، ثورة 1936، فلسطين أثناء الحرب العالميّة الثّانية، الهجرات اليهُوديّة، التّقسيم، الكُونت برنادوت، سُقُوط القُدْس، خُطّة دالت لطَرْد الفلسطينيّين، أيزنهاور، ولادة مُنظّمة التّحرير الفلسطينيّة، الانتفاضات، كيف ستكون نهاية إسرائيل؟ مكانة القُدْس بين المُدُن، المساحة، السُّكّان، الأحياء، الأسوار، المناخ، الجبال، الأبنية، الحدائق، الملاهي، محطّات الإذاعة، المدارس، الجامعات، الجمعيّات، النّوادي،المكتبات، المُستشفيات، الخدمات، الصّناعات، الشّركات، المصارف، القُدْس في التّراث الإسلامي، الأماكن المُقدّسة المسيحيّة والمُسلمة في فلسطين، المقابر، الطّوائف المسيحيّة في القُدْس، تفاصيل الغزو الصّهيوني لفلسطين، المُستوطنات، تفريغ القُدْس من سُكّانها العَرَب، الحفريّات، مُستقبل القُدْس عاصمة فلسطين العَرَبيّة.

34) ***مُحمّد ﷺ والنّصرة بين الأهل والآل*** **، رجا عبد الحميد عُرابي ، 2006.**

مكّة وقُريش، السّدانة والرّفادة والسّقاية، الاقتصاد والمُجتمع والدِّين في الجزيرة قبل الإسلام، الرّسول (باختصار) من الولادة إلى البعثة، أبو طالب ونصرة الرّسول، هل أسلم أبو طالب؟ العبّاس بن عبد المُطّلب ونصرة الرّسول، البيعات، رُؤيا عاتكة بنت عبد المُطّلب، مُتخلّفو قُريش عن غزوة بدر، ومُتخلّفو المُسلمين عنها، حمزة ونصرة الرّسول، عمارة بنت حمزة وعمرة القضاء، مواقف أبناء عُمُومة الرّسول من آل البيت ونصرة الرّسول، أبو سُفيان المُغيرة بن الحارث بن عبد المُطّلب، ربيعة بن الحارث بن عبد المُطّلب، نوفل بن الحارث ابن عبد المُطّلب، أبناء أبي طالب: طالب وعقيل وجعفر وعليّ، أبناء العبّاس بن عبد المُطّلب:الفضل وقثم وعبد الله .مع إفراد فصل خاصّ لجعفر وعليّ لما لهما من أهمّيّة استثنائيّة في نصرة الرّسول، رُجُوع الرّسول إلى المدينة والتّآمر على قتله، خطبة عرفات، خطبة منى، غسل النّبيّ وتكفينه ودفنه، المُسلمون بعد وفاة النّبيّ، بيعة السّقيفة ومُلابساتها، الخُلفاء الأربعة، الفتنة، وقعة الجمل، صفّين والنّهروان، سلمان الفارسي والبحث عن الحقيقة.

35) **أصالة الوُجُود عند صدر الدِّين الشّيرازي من مركزيّة الفكر الماهوي إلى مركزيّة الفكر الوُجُودي، كمال عبد الكريم حُسين الشّلبي، تقديم : د صلاح الجابري ، 2006.**

قدّمت نظريّة (أصالة الوُجُود) بُعداً فلسفيّاً إسلاميّاً ابتكاريّاً، نمّ عن قُدرة فكريّة فذّة. ما هي أصالة الماهيّة عند الفلاسفة السّابقين على الشّيرازي، ثُمّ عند الفلاسفة المُسلمين كالسّهروردي وابن عَرَبي، ثُمّ عند الشّيرازي؟ وقد اعتمد الباحث ـ بشكل رئيس ـ على المنهج الوصفي التّحليلي، مع إدماج المنهج التّاريخي المُقارن؛ أحياناً.

36) **مابين الجغرافية السياسيَّة ومخاطر الجيوبوليتيك والعولمة ، أ.د.إبراهيم سعيد ، 2006.**
يسعى هذا الكتاب ـ بأسلوب جديد ـ إلى إظهار البُنى التّقليديَّة للجغرافيا السّياسيَّة ودراستها وتحليلها وفقاً للمدارس الجغرافيَّة الأساسيَّة.

37) ***الرّأسماليَّة في محكّ التّكنولوجيا أو في النّظام التّكنولوجي للعولمة ، د.يحيى اليحياوي ، 2006.***
ما هي الرّأسماليَّة المعلوماتيَّة؟ إشكاليَّة الاقتصاد الجديد، عولمة العلم والتكنولوجيا، المعلومة والمعرفة واستبداد الاتِّصال، ما هُو المُجتمع الشّبكي؟ الإنترنت، المعلوماتيَّة، دمقرطة الشّبكة، ما هي الفجوات الرّقْميَّة؟ الفجوة الرّقْميَّة في المنطقة العَرَبيَّة، القمَّة العالميَّة لمُجتمع المعلومات، تقرير التّنمية الإنسانيَّة العَرَبيَّة لعام 2003.

38) ***تدويل الإعلام العَرَبي الوعاء ووعي الهُويَّة ، د.جمال الزّرن، 2006.***
من إعلام الدّولة إلى تدويل الإعلام ، الحرب على العراق وسُؤال الهُويَّة الإعلاميَّة، ما هي الحرب الإعلاميَّة؟ من التّدفُّق الإعلامي إلى الاختراق الإعلامي، الإعلام المُقارن، دُرُوس الإعلام أم دُرُوس الحرب؟ الإصلاح ومُجتمع المعرفة..ما هي إيديولوجيا مُجتمع المعرفة؟ ما هي إيديولوجيا الإصلاح؟ ما هي إشكاليَّة التّلقّي؟ الشّرق الأوسط الكبير وتدويل الإعلام العَرَبي..قانون إصلاح أجهزة الاستخبارات.. من الإعلام إلى الاتِّصال..خيارات لإعادة هيكلة الإعلام والاتِّصال، إشكاليَّة الهيكلة والحرب على العراق، تحرير الإعلام والاتِّصال، التّساؤل الإعلامي، التّلفزيون وتلفزيون الواقع، تعدُّد المناهج، أين يبدأ الواقع؟ وأين ينتهي الخيال؟ التّلفزيون وثقافة الفضاء المُختلط، خطاب المُؤامرة وتلفزيون الواقع، قمع الدّولة، قمع الصُّورة، التّلفزيون فضاء اتِّصالي وجُزء من الفضاء العامّ، ما هي ثُنائيَّة الإعلام والدّيمقراطيَّة؟ في تدويل الإعلام العَرَبي والحرب على الإرهاب..

39) ***البرنامج النّووي الإيراني وأثره على منطقة الشّرق الأوسط ، د.رياض مُحيي علي حُسين، 2006.***
إيران وعوامل القُوَّة..ما مبرِّرات إيران للبحث عن عوامل القُوَّة؟ ما موقع القُوَّة في المُكوِّن المُجتمعي الإيراني؟ الأمن القومي الإيراني ومُتطلَّبات القُوَّة..ما هُو البرنامج النّووي الإسرائيلي؟ ما هُو البرنامج النّووي العراقي؟ الأسلحة النّوويَّة لدى الهند وباكستان.. ما هي مُكوِّنات البرنامج النّووي الإيراني؟ ما مراحله؟ كيف تطوَّر؟ ما المُنشآت النّوويَّة الإيرانيَّة؟ ما هي الصّواريخ البالستيَّة الإيرانيَّة؟ ما هي وجهة نظر إيران حول برنامجها النّووي؟ ما هُو موقف الوكالة الدّوليَّة من البرنامج النّووي الإيراني؟ ما هُو الموقف الأمريكي من البرنامج النّووي الإيراني؟ ما هُو موقف الاتِّحاد الأوروبي ؟ ما هُو أثر البرنامج النّووي الإيراني على منطقة الشّرق الأوسط؟ ما هي النّتائج المُتوقَّعة لاستخدام الولايات المُتّحدة للخيار العسكري؟ ما هُو حجم السّلاح النّووي الإيراني؟ وما هي قُدراته التّدميريَّة؟ ما هُو الهدف الإيراني من امتلاك السّلاح النّووي؟ الكتاب رسالة دكتوراه مُوثَّقة بتفاصيل دقيقة، وتُطرَح للمرَّة الأولى على صعيد النّشر..

40) ***العلاقات الدّوليَّة في عصر الحُرُوب الصّليبيَّة ، د.مُنذر الحايك، تقديم: د.سهيل زكّار، 2006.***
الحياة العامَّة في العصر الأيُّوبي..العلاقات السّياسيَّة للسّلطنة الأيُّوبيَّة، المُعاهدات الدّوليَّة..المُراسلات الدّيبلوماسيَّة..ما هي مراكز القوى الدّاخليَّة؟ وما دورها في العلاقات الخارجيَّة؟ وما هو دور أرباب السّيف ورجال الإدارة؟ ما هي العلاقات الخارجيَّة للقبائل البدويَّة؟ ما هي العلاقات السّياسيَّة والعسكريَّة لفرقة الخوارزميَّة؟ ما هي العلاقات الدّوليَّة لإمارات وممالك الجزيرة الشّاميَّة والخلافة العبّاسيَّة والفرقة الإسماعيليَّة والشّام ومصر والحجاز والمماليك وسلاجقة الرّوم .. ثُمَّ يتحدَّث بالتّفصيل عن العلاقات الآسيويَّة الأوروبيَّة؛ التّتار والدُّول المسيحيَّة، الممالك المسيحيَّة الشّرقيَّة، فرنج السّاحل الشّامي، وما هُو دور الجيش في العلاقات العسكريَّة الدّوليَّة؟ وما العلاقات الدّوليَّة بين أوروبا والشّرق الإسلامي؟ الكتاب يسدُّ فجوة كبيرة وخطيرة في المكتبة العَرَبيَّة والإسلاميَّة، بل العالميَّة، وجامعاتنا ومراكز بُحُوثنا بمساس الحاجة إلى هكذا دراسة أكاديميَّة توثيقيَّة دقيقة وتفصيليَّة مُدعَّمة بكُلِّ ما يحتاجه الباحث من مصادر ومراجع وأدلَّة تُغني البحث، وتزيد من وُضُوحه ومصداقيَّته العلميَّة..

41) ***نظريَّة المؤمرة أ وَهْمٌ أم حقيقة؟ "الصُّوفيَّة"، مُوفّق العطّار، 2006.***
يعتقد المُؤلِّف أنَّه من العبث والسُّخرية أنْ نلقي بكامل أخطائنا وجُلِّ انحطاطنا على نظريَّة المُؤامرة، التي يُؤمن بها كَمٌّ لا بأس به من الذين يدَّعون أنَّهم نُخبنا السِّياسيَّة، ويبدأ بحثه مُنذُقيام الحركة الصُّوفيَّة، ويُحلِّل مسيرتها، ومراحلها، وأبرز شخصيّاتها، وأشهر مقولاتها، وأفكارها، وكيف امتزجت بأفكار هندوسيَّة وزرادشتيَّة وأفلاطونيَّة، مُبتدئاً بالتَّآمر على

الخُلفاء الرَّاشدين الأربعة، مُروراً بمُؤسَّسات التَّآمر في العصر الحديث؛ مثل مركز سياسة الأمن القومي الأمريكي، والمجلس الاستشاري للأمن القومي، ومُنتدى الشَّرق الأوسط، ومُؤسَّسة هدسون، ومعهد واشنطن لسياسة الشرق الأدنى، ويُؤكِّد أنَّ هُناك عداءً سافراً، وليس مُؤامرة، ويرتدُّ راجعاً إلى التَّصوُّف؛ حيثُ يُعدِّد، ويُحلِّل، ويستنتج، ويُقارن طُرُق ومراحل وأعلام مُصطلحات المُتصوِّفة ، ويُبرز كيف أطلق فريق من الصُّوفيِّين الخراسانيِّين تلك المقولات، وكيف سعت فرق منهم إلى نشر أفكارهم، التي عدَّها مُعظم عُلماء السُّنَّة أنَّها مُؤامرة مُدبَّرة لتشويه العقيدة الإسلاميَّة والسُّنَّة الصَّحيحة، فهل نجح هؤلاء الخراسانيُّون في تحقيق أهدافهم تلك؟!

42) **القضيَّة الكُرديَّة والحلّ المنشود التَّاريخ الواقع المستقبل ، د. خالد سُليمان الفهداوي ، 2006.**

مَنْ هُم الأكراد؟ ما هي جُذورهم؟ ما هي مُميِّزاتهم؟ الأكراد والدَّولة العراقيَّة الحديثة.. واقع كُردستان الرَّاهن.. ما هي الخيارات والبدائل المطروحة؟ ما منهجيَّة الحلّ الإسلامي في التَّعامل مع القضيَّة الكُرديَّة؟ كتاب مُختصر لعلَّه يضع لبنة على بناء حلّ لقضيَّة شَغَلَتْنا!!

43) **القُدْس في قُلوب المُسلمين ، د. خالد سُليمان الفهداوي ، 2006.**

مَنْ بنى القُدسَ؟ مَنْ سَكَنَهَا؟ ما هُو فضلها؟ كيف فُتحت القُدسُ؟ وكيف حرَّرها صلاح الدِّين الأيُّوبي؟ وهل بالإمكان تحريرها من جديد؟ كتاب مُختصر لعلَّه يُساهم في أنْ لا ننسى قُدسَنا وأقصانا!!

44) ***الخَبر بالبُرهان والدَّليل على أنَّ النَّبي يعقوب غير إسرائيل ، سُويد الأحمدي ، 2006.***

استند المُؤلِّف في هذا الكتاب إلى أدلَّة من القُرآن الكريم وكُتُب الأحاديث (السِّتَّة ومُسند الإمام أحمد)، فَفَحصَ الآيات، ودقَّق في الأحاديث، ثُمَّ جمع أدلَّة وشهادات أضافها إلى بحثه من التَّوراة السَّامريَّة، وإنجيل برنابا، وكذلك ما يُسمَّى الكتاب المُقدَّس بعهدَيْه القديم والجديد ، وممَّا كُتب عن التَّلمود، ثُمَّ ما كتبه كُلُّ الدَّارسين والباحثين والمُؤرِّخين والعُلماء في التَّاريخ والآثار. من موضوعات الكتاب:

قابيل وهابيل ـ قابيل وشيث في المصادر الإسلاميَّة ـ بنو قابيل وبنو شيث ـ إدريس ـ نُوح ـ الذين آمنوا مع نُوح ـ إسرائيل ـ يعقوب ـ مواقف من اسم إسرائيل ـ السّبط واليهود الذين هادوا في اللُّغة العَرَبيَّة ـ الإسلام وانشقاق اليهود والنّصرانيَّة ـ عزرا اليهود وبُولُس النَّصارى ـ أدلَّة القُرآن الكريم على أنَّ يعقوب غير إسرائيل ـ نهاية بني إسرائيل ـ آية وإشكاليَّة ـ حلّ الإشكاليَّة عند ابن كثير ـ أدلَّة الحديث الشّريف ـ أدلَّة التَّوراة السَّامريَّة ـ أدلَّة العهد القديم ـ أدلَّة إنجيل برنابا ـ أدلَّة العهد الجديد ـ أدلَّة التّلمود ـ أدلَّة مخطوطات قمران (البحر الميِّت) ـ أدلَّة وثائق إيبلا ـ أدلَّة التَّاريخ المصري ـ مصر وبنو إسرائيل ـ ست والهكسوس ـ التَّاريخ والسَّامريُّون ـ تحليل لمدلولات لُغوية ـ شهادات الباحثين والمُؤرِّخين وعُلماء الآثار ـ إسرائيل الاسم والمعنى والأصل ـ الشَّجرة الملعونة في القُرآن. بإيجاز: (بعد قراءة هذا البحث المُهمّ جدّاً جدّاً) نفهم عن بني إسرائيل أنَّهم ليسوا من ذُرِّيَّة نُوح، وليس لهم أيُّ علاقة بذُرِّيَّة إبراهيم أو يعقوب، فنفهم ـ بالتّالي ـ سبب إفسادهم في الأرض، فهُم من ذُرِّيَّة مُحدَّدة من بين جميع البشر، والشُّعُوب من ذُرِّيَّة أخرى.

45) ***كشْفُ الحال في وَصف الخال ، صلاح الدِّين خليل بن أيبك الصَّفدي ، تحقيق مُحمَّد عايش ، 2006.***

يُعدُّ هذا الكتاب من روائع ذخائر تُراثنا العَرَبي الجميل، الذي لم يسبق له أنْ نُشر في العصر الحديث، وقد بقي مئات السِّنين مُنتظراً مَنْ يُخلِّصه من ذلك الغُبار المُتراكم عليه على مرِّ العُصُور. في هذا الكتاب يبسط المُؤلِّفُ الكلامَ عن الخال في اللُّغة، ثُمَّ الشَّامة، ثُمَّ الحسنة، وذلك مع إيراد الشَّواهد الشّعريَّة وأقوال أهل اللُّغة، ثُمَّ ينتقل إلى حقيقة الخال وسبب ظُهُوره، وتفسير الحُكماء لذلك، ثُمَّ يُورد كلام أبقراط، ثُمَّ يُترجم الصَّفدي لعدد من الأعلام ممَّن كان به شامة، ويُورد ما يتعلَّق بذلك من النُّقُول والأشعار والحكايات. وكانت النّتيجة جنَّة ضمَّت أزهار الأشعار، التي قيلت في الخال، وفي وصف مَنْ كان به خال أو شامة، مُرتَّبة حسب القافية من الألف إلى الياء.

46) ***موسوعة أنواع الحُرُوب ، الفريق الرّكن الدُّكتور مُحمَّد فتحي أمين ، 2006.***

يبحث هذا الكتاب المُهمّ في الحُرُوب التي يجري فيها القتال المُسلَّح فعلاً؛ كالحرب البرِّيَّة والجوِّيَّة وحرب الدّبَّابات وحرب الصَّواريخ والحرب النّوويَّة، إلخ ، ثُمَّ يتحدَّث عن صفات تلك الحُرُوب؛ مثل التّقليديَّة والشّاملة والمحدودة والنّظيفة، ثُمَّ علاقة الحُرُوب بالسّياسة ، وهل هُناك شيء اسمه الحُرُوب السّياسيَّة مثل الحرب الاستعماريَّة وحرب الاستقلال والحرب الأهليَّة والحرب الثّوريَّة والحرب الشّعبيَّة ، ثُمَّ يُفصِّل في الحُرُوب التي لها تأثير على فكر الإنسان

ورُوحه المعنويّة والنَّفسيّة ؛ مثل الحُرُوب الفكريّة كحرب الإذاعة والأعصاب والإعلاميّة والعقل والحرب النَّفْسيّة وحرب المعلومات، ثُمّ ينتقل إلى الحُرُوب العلميّة والاقتصاديّة مثل حُرُوب الإشعاعات والتّقنية وحرب النُّجُوم، والحرب الاقتصاديّة، وحرب الغذاء. الغاية من هذا الكتاب اطّلاع أفراد وضُبّاط وقادة الجُيُوش وكذلك المدنيّين على الحُرُوب كافّة، والتي يكاد يبلغ عددها أكثر من 110 لتكوين صُورة عن هذه الحُرُوب.

47) ***الإنسان ولغته من الأصوات إلى اللغة (الكلام) ، مارسيل لوكان، ترجمة : د. ماري شهرستان ، 2006.***

كيف تطوّرت الجُمجُمة عند البشر؟ تسلسل الأحداث التّاريخيّة العامّة للجنس البشري - ما هي المناطق الحسّيّة والحواسّيّة، والمناطق المُحرِّكة المُرتبطة بالسَّمْع ؟ هجرات الإنسان الماهر والمُنتصب والعاقل - مَنْ هُو الإنسان؟ ما هي الذّاكرة البيُولُوجيّة؟ ثغثغة الطِّفل وذاكرته اللّغويّة - توازي التّطوُّر واللُّغة - الخيال التّطوُّري الطّوطمة - البشر في الماضي - الإرث اللّغوي القَبْتاريخي (قبل التّاريخ) - بداية العصر الجليدي المُعاصر - نتائج بُركان هائل - أوائل البشر المُتكلّمين - أقدم إنسان عُرف حتّى الآن - كيف تطوّرت اللُّغات وتنوّعت؟ ما هي مصادر اللُّغة؟ أصداء نموذجيّة أصليّة في الكلام - أصوات الكلام النّموذجيّة الأصليّة للإنسان المُنتصب، ثُمّ العاقل - المُساعِدات الصّوتيّة - بدايات النُّموّ - هكذا تكلّم الإنسان المُنتصب قبل حوالي مليون سنة - ازدياد السُّكّان وتنوُّع اللُّغات - هجرات ولُغات أحفاد آدم - أحفاد حوّاء - هجرات العرب - مَنْ هُم العيلاميُّون؟ نُشوء العَدِّ والصّناعة - نُشوء الفنّ وتطوّره - نهاية ما قبل التّاريخ - بدايات الاتّصال بين المُدُن - من اليد إلى اللّسان - بُنية الأُذن وتطوُّرها - حواسُّنا الخمسة - التّسلسل التّاريخي الحديث للُغات المحكيّة والمكتوبة - تطوُّر اللُّغة وإبداعيّتها - من التّصوُّر العقلي المجازي إلى المفهوم - نماذج المجاز - اتّصال، وعي، ثقافات، طُرُق انتقال المعرفة - التّكييف الاجتماعي باللُّغة - طُقُوس غذائيّة - ما هُو مُستقبل اللّغات؟ ومَنْ هُو الإنسان النّاطق في المُستقبل؟ رُؤية مُستقبليّة.

48) ***العجيب والغريب في كُتُب تفسير القُرآن تفسير ابن كثير أُنمُوذجاً ، وحيد السّعفي ، 2006.***

لنُبادر إلى طَمْأَنَة القارئ، فهُو مُقبل على قراءة كتاب شيّق يتعلّق - لا محالة - بعلْم التّفسير؛ وهُو علم يقتضي الإلمام به معارف دقيقة، إلاّ أنّه - بكُلّ تأكيد - ليس كتاباً في التّفسير يُضاف إلى التّفاسير التي يضعها عُلماء الدِّين. هُو كتاب يستعصي على التّصنيف بحسب المعايير المَدْرسيّة، ولعلّنا لا نتعسّف عليه تعسُّفاً كبيراً إنْ اعتبرنا أنّه أقرب ما يكون إلى الإناسة التّاريخيّة. وهُو - إلى جانب ذلك - مكتوب بلُغة أنيقة راقية مُمتعة تشدُّ القارئ شدّاً، وتُحلِّق به - برفق وأناة - في دُنيا الظّنّ والأسطُورة مثلما تجول به في قضايا الفكْر والمُجتمع ومجالات العقائد والمشاعر، وتنتقل به - من حيثُ لا يتوقّع - في الزّمان والمكان، من فترة البدايات إلى عصر المُفسِّرين، وبين بيئات العَرَب، واليهُود، واليُونان، والهُنُود، وغيرهم، ثُمّ هُو كتابٌ طريفٌ من حيثُ رَبْطُه بين عناصر مُستقلّ في الظاهر بعضها عن بعض؛ حيثُ يطّلع عليها قارئ التّفسير الغُرّ، والذي ليست له هواجس وحيد السّعفي المعرفيّة وسَعَة اطّلاعه على تُراث الشُّعُوب، وعلى اتّجاهات البحث المُعاصر ومنهاجه.

49) **القُربان في الجاهليّة والإسلام ، وحيد السّعفي ، 2006.**

ما هي القرابين البشريّة؟ الأنثى قُربان الجاهليّة ... الذّكَر قُربان الإسلام ... ابن الذّبيحَيْن - القُربان الأنمُوذج - الإله القُربان وابنه المصلوب - القرابين البديلة - الكبش الكبش - الهَدْيُ البُدْنُ - الإسلام والنّسج على المُنوال - وجاء الإسلام ينشر الأضاحي - كتاب الأضاحي - هذا القُربان لكَ يا عَبْدِي، فكُلْ واشربْ على نخبي. ها نحنُ ندرس القُربان في الجاهليّة والإسلام، من خلال أخبار المُسلمين والقُرآن، وما حفّ بالقُرآن من عُلُوم الدِّين، لا غاية لنا غير تَتبُّع مظاهر السُّنّة الثّقافيّة في هذا الدِّين، ومظاهر السُّنّة الثّقافيّة في هذا الدِّين عالم من الفكْر والخيال لشعب مُختلف الأمصار، مُتعدّد الأوطان، عاش في كثير من الأزمان، فجاء فكْره والخيال فُسيفساء، سُبحان مَنْ ضمّ أشتاتها، فبدتْ واحدة. ذاك هُو عملنا، فُسيفساء؛ فاجْمَع الأشتاتَ، ورَتِّبْ، تقف على رحلة في عالم النّاس، أردناها جميلة كالفُسيفساء، ترسم خُيُوطاً تشدّ النّاس إلى الإله، تربط بينهم وبينه، ولا تُفرِّق. وكانت تلكم الخُيُوط موؤودة وهدياً وأُضحيّة ونذراً قرّبوها للإله ساعة أيقنوا أنّ الإله لا يُعطي إلاّ بحساب، وأنّ الدِّين حمْل يُثقل كاهل الإنسان، وإنْ اشتدّ عُوده أو غَلُظ. قُمنا إلى تلك الخُيُوط الرّابطة بين الرّبّ والعبد، نبحث لها عن أصل في عالم القرابين والنّحر والذّبح، ونرسم خُطُوط عرضها والطّول، لعلّنا

نفوز بها تستَّرت عليه من أُمور تُقرِّبها من التفكير الميثي حيناً، فتُجهِّز نفسها لنَقْضه، وتجذرها في أرضها حيناً، فتسعى إلى تجاوزها، وتُحلِّق في أمصار الناس من غير جنسها، وفي الثقافات على اختلافها، والأديان على تنوُّعها، وتستوي كَونيَّة لا تعرف الحُدود.

50) ***المرأة عبر التَّاريخ البشري الحضارات القديمة العبرانيُّون - التَّوراة - الفراعنة - الشَّرق الأقصى - البوذيُّون - الصِّينيُّون - اليونانيُّون - رُوما القديمة - المسيحيُّون - الجاهليُّون - الإسلام - د. عبد المنعم جبري ، 2006.***

لعلَّ هذا الكتاب هُو الأشمل والأدقُّ في بحثٍ مُهمٍّ كبحث المرأة ... استعرض فيه مُؤلِّفه تطوُّر حُقُوق المرأة عبر التَّاريخ البشري، بدءاً من الحضارات القديمة، مُروراً بالعُصُور الوُسطى في أوروبا والجاهليَّة والإسلام، ثُمَّ تحدَّث عن أنَّ المرأة، هل هي الَّتي تُحدِّد مصير العالم؟... ومَنْ هي المرأة في أنوثتها الأُولى والمُراهقة، وسنِّ النُّمُوِّ العقلي والجسدي؟ ثُمَّ عرَّج إلى المرأة في حضارات الشَّرق الأوسط (بابل - التَّوراة - الفراعنة - الكَهَنُوت...) ثُمَّ المرأة في حضارات الشَّرق الأقصى (اليابان - الصِّين)، (اليونان - رُوما القديمة..) المسيحيَّة والمرأة - عداء الكَهَنَة للمرأة - تحرير المرأة في نظام العائلة البَلشفي الشُّيُوعي الرُّوسي - المرأة الفارسيَّة - المرأة في عصر النَّهضة - الطَّبيعة والتَّاريخ في حقِّ المرأة - واقع المرأة عبر العُصُور - المرأة العربيَّة - (البداوة والإسلام وعصر النَّهضة)... البغاء ودوافعه - اللِّواط - السُّحاق - المرأة المُسلمة عبر التَّاريخ - المُساواة بين المرأة والرَّجل (قانونيّاً)... وغيرها من الموضوعات المُهمَّة جدّاً جدّاً.

51) ***حركَة فَتْح من العاصفة إلى كتائب الأَقصى (الانعطافات الفلسطينيَّة)، علي بدوان - نبيل السهلي، 2005.***

يُؤرِّخ الكتاب تأريخاً دقيقاً لنُشوء مُنظَّمة التَّحرير الفلسطينيَّة وحَرَكَة فَتْح، إلى أنْ يصل إلى تشكيل كتائب الأَقْصى، فيبدأ بفَتْح العاصفة ومخاض الرَّصاصة الأُولى، ومسيرة ياسر عرفات مُنْذُ بدايتها حتَّى لحظة استشهاده. ويُبيِّن كيف عَقَدَت اللَّجنة التَّنفيذيَّة لمُنظَّمة التَّحرير الفلسطينيَّة اجتماعها التَّاريخي الأوَّل في القاهرة يوم 2/ 9/ 1964، برئاسة أحمد الشُّقيري. ويُبيِّن كيف انتقلت فَتْح / قُوَّات العاصفة من القومي العامِّ إلى التَّلمُّسات الفلسطينيَّة للدَّور الذَّاتي، كما يُبيِّن كيف تخرَّجت أوَّل دورة للمُقاتلين الفدائيِّين بدمشق في 3/ 5/ 1965. ثُمَّ ينتقل إلى (من العاصفة إلى كتائب الأقصى)، ونجد في ثنايا الكتاب أسماء لقادة فلسطينيِّين بعضهم مازال حيّاً إلى الآن، وبعضهم استُشهد، وبعضهم اعتُقل، وبعضهم نسيه الزَّمن. . . الكتاب تأريخ دقيق، بذل فيه المُؤلِّفان قصارى جهدهما لهذا التأريخ، رغم ندرة المصادر.

52) ***التَّوراة اليهُوديَّة مكشوفة على حقيقتها رُؤية جديدة لإسرائيل القديمة وأُصول نُصوصها المُقدَّسة على ضوء اكتشاف علم الآثار أ. د إسرائيل فنكلشتاين ، فيل أشر سيلبرمان ، ترجمة : سعد رستم ، 2005.***

الكتاب مُهمٌّ جدّاً جدّاً؛ لأنَّه إقرار على لسان مُحقِّقَيْن يهُوديَّيْن؛ إسرائيلي وأمريكي، صاحبَيْ خبرة طويلة في التَّنقيبات الآثاريَّة، وعلم الآثار، بأنَّ التَّوراة الحاليَّة ليست كُلُّها كلمة الله، فجاء كتابهما هذا مُثيراً جدّاً، واستفزازيّاً جدّاً لليهُود؛ حيثُ أثبتا أنَّ التَّوراة الحاليَّة قد كَتَبَهَا كَهَنَةُ يهُود في عهد الملك المُستقيم (يوشيا) ملك يهُوذا في القرن السابع ق.م، فيبدأ كُلَّ فصل من فُصُول الكتاب بعرض الرِّواية التوراتيَّة، ثُمَّ يُعقِّب بذكر ما تقترحه المُكتشفات الآثاريَّة، فكانت النَّتائج التي وصل إليها المُؤلِّفان العلمانيَّان طعنة نجلاء في صميم المُعتقدات اليهُوديَّة التَّقليديَّة، وتحطيماً للرُّمُوز الدِّينيَّة التَّقليديَّة لليهُود. ولعلَّ أهمَّ نُقاط الكتاب:1 - لا تُؤيِّد الأدلَّة الآثاريَّة رواية الخُرُوج الجماعي من مصر بالشَّكل والأعداد والطَّريقة التي تذكرها التَّوراة العبريَّة.2 - لم يقم يشوع بن نُون بحملة غزوات مُوحَّدة لفتح أرض كنعان.3 - داود سُليمان وُجدا تاريخيّاً، لكنْ؛ كانا أقرب إلى رئيسَيْ عشيرة منهما إلى مَلكَيْن، كما أنَّ سُليمان لم يبن أيَّ هيكل (معبد) هائل.4 - لم يكن هُناك دينٌ يهُودي مُوحَّد في أغلب تاريخ يهُوذا (إسرائيل القديمة).5 - ليس هُناك دليل علمي على الوُجُود الحقيقي لشخصيَّات مثل إبراهيم أو إسحق أو يعقوب. إنَّ قُوَّة وإفادة هذا الكتاب هُو بُطلان الدَّعاوى الصَّهيونيَّة في أرض فلسطين استناداً لتواجدهم القديم فيها، أو أنَّها أرض الميعاد، على لسان اثنَيْن من كبار عُلمائهم أنفسهم، اللَّذَيْن أكَّدا أنَّ فلسطين كانت - وظلَّت دائماً - مسكونة من عدَّة شُعُوب تتالوا عليها كاليبوسيِّين والكنعانيِّين، والفلسطينيِّين، والعماليق، والعَرَب، وأنَّ الإسرائيليِّين لم يكونوا إلاَّ مجموعة هامشيَّة فوضويَّة نَمَتْ وسيطرت لفترة قصيرة على منطقة محدودة من المُرتفعات والتِّلال المركزيَّة في فلسطين، في حين كانت بقيَّة فلسطين مسكونة من الكنعانيِّين والفلسطينيِّين وغيرهم.

53) ***حُدود الصِّراع تاريخيَّة وخفايا الصِّراع العَربي واليهُودي الصَّهيوني الإسرائيلي ، مُوفَّق صادق العطَّار ، 2005.***

إنَّ النُّصُوص الواردة في التَّوراة والمُستخدمة لتبرير الطَّبيعة العُدوانيَّة والرَّغبة الكامنة لدى الشَّعب اليهُودي بالقتل والعُدوان الانفصال عن الآخرين من مُنطلق عُنصُري باعتباره المزعوم بأنَّه شعب الله المُختار قد أيَّدتْها كتابات التَّلمود، التي تُعدُّ كتابات مُقدَّسة عند مُعظم الفرَق اليهُوديَّة. يبدأ الكتاب بتعريف كتاب العهد القديم، ثُمَّ التَّوراة، وأسفار

مُوسى الخمسة، ثُمَّ يُلقي أضواء على النَّصِّ التّوراتي (من ناحية المُعتقد والإله)، ثُمَّ يتحدَّث عن تشويه العقيدة (الخلفيَّة الدِّينيَّة ـ النَّص التّوراتي ـ الإطار العامّ للنَّصِّ المقدَّس ـ الإصرار على تحريف العقيدة ـ اليهُود والإسلام)، ثُمَّ يُفصِّل في الصّهيونيَّة والصّراع العَرَبي الإسرائيلي (حقيقة النّصر ـ استغلال الحَدَث ـ أبعاد الموقف الإسرائيلي ـ الادِّعاءات الباطلة)، ثُمَّ القُرآن الكريم والتّوراة ـ الغرب والصّهيونيَّة ـ اللُّغة الإلهيَّة ـ المسيح اليهُودي الصّهيوني ـ الولايات المتَّحدة واليهُود اللاّساميَّة كسلاح يهُودي للتّشهير ـ مُعاداة السّاميَّة ـ طُمُوح نحو المزيد من السّيطرة ـ الجُمُوح إلى الهيمنة على صناعة السّينما ـ الولايات المتَّحدة والعلاقة الخاصَّة مع (إسرائيل) ـ طبيعة التّحالف الأميركي مع الصّهيونيَّة ـ حُدُود الصراع (البُعْد الدِّيني للصِّراع العَربي الإسرائيلي ـ العَرَب والصّهيونيَّة ـ أضواء على طبيعة الصّراع) أسماء رُؤساء الولايات المتَّحدة ، عدد اليهُود في دُول الاتّحاد الأورُوبي ـ وعددهم خارج دُول الاتّحاد الأورُوبي، وعددهم في دُول أورُوبا الشّرقيَّة ـ التّوزيع الجغرافي لليهُود في العالم ـ عدد أتباع أبرز الدّيانات في العالم ـ الأحزاب الإسرائيليَّة المتمثِّلة في الكنسيت واتّجاهاتها.

54) **عالية الهاشميَّة ملكة العراق سيرة وأحداث 1934 - 1950 ، د. مُحمَّد حمدي صالح الجَعفري** ، 2005.

ولادة عالية ونشأتها ـ رحيلها من الحجاز واستقرارها في بغداد ـ زفافها وزواجها من الملك غازي ـ ولادة ابنها البكر ـ مصرع زوجها ـ كيف تلقَّتْ نبأ مصرع زوجها؟ روايات مَقْتَله ـ نشاطها السِّياسي والاجتماعي والثّقافي ـ عالية وحرب فلسطين 1948 ـ هل كانت عالية رائدة النّهضة الاجتماعيَّة العراقيَّة؟ ـ كيف كَتَبَتْ مُذكّراتها؟ مَرَضُها ـ ساعاتُها الأخيرة ـ وفاتها ـ النَّصُّ الّذي ألقاه الوصيُّ ـ تقرير الأطبّاء عن وفاة الملكة عالية ـ كلمة الوصيّ عبد الإله التّأبينيَّة ـ بعض ما قيل في رثاء الملكة برقيّات التَّعزية ـ صُور ووثائق مُهمَّة تُنْشَر للمرَّة الأولى. الكتاب بانوراما تفصيلية تأريخيَّة دقيقة لحياة الملكة عالية، ولتاريخ العراق في عهدها.

55) **نُوري السَّعيد وبريطانيا خلاف أم وفاق؟! د. مُحمَّد حمدي صالح الجعفري** ، 2005.

نُوري السَّعيد شغل النَّاس في العراق والمنطقة العربيَّة ردحاً من الزَّمن، فمُنذُ بُرُوزه فوق المسرح السِّياسي، لَفَت أنظار السَّاسة العرب والأجانب طيلة نصف قرن، لِما تمتَّع به من ذكاء وقّاد وفطنة عالية، وقُدرة على المُناورة والخداع، وقد انتبه له البريطانيُّون، وكسبوه إلى صفِّهم، مُنذُ قَدِمَ إلى العراق عام 1920، واستقرَّ بمنصبه كمُدير للشّرطة العامَّة في الحُكُومة العراقيَّة الجديدة، وبعدها كرئيس لأركان الجيش، ثُمَّ كوزير للدِّفاع، ورئيس للوُزراء لعدَّة مرَّات، وبقي مُخلصاً لبريطانيا، وفيّاً لها حتَّى ساعة انتهاء نُفُوذها عام 1958. يبحث المُؤلِّف نُشُوء العلاقة وتطوُّرها بين نُوري السَّعيد وبريطانيا، نُوري السَّعيد النّشأة والتّكوين ـ اتّصاله بالسَّاسة البريطانيِّين ـ السَّعيد وحُكُومة سُوريا العربيَّة السَّعيد والحُكُومة العراقيَّة المُؤقّتة 1920، السَّعيد ومهمَّة حماية المصالح البريطانيَّة ـ السَّعيد والموقف البريطاني من قضيَّة فلسطين ـ السَّعيد والمهمَّة الإقليميَّة في الخمسينيَّات مشاريع الدِّفاع عن الشّرق الأوسط ـ السَّعيد والإصلاح ـ السَّعيد واتّفاقيَّة النّفط ـ السَّعيد والتّلويح بالخطر الشُّيُوعي ـ السَّعيد وتعديل مُعاهدة 1930 ـ السَّعيد وسياسة الأحلاف في الخمسينيَّات ـ أزمة السُّويس والتّحالف البريطاني العراقي، وإجراءات نُوري السَّعيد ـ الاعتداء الثّلاثي على مصر وبداية السُّقوط البريطاني ـ إجراءات السَّعيد ومُناورته خلال العُدوان الثّلاثي ـ نُوري السَّعيد وانضمام الكُويت إلى العراق، والتّآمر على سُوريا ـ نُوري السَّعيد والتّقارب مع أُسرة آل الصَّباح ـ بريطانيا والحلّ العراقي الكُويتي ـ السَّعيد والمشروع البريطاني لحلِّ الخلاف ـ آراؤه لانضمام الكُويت إلى العراق ـ السَّعيد والتّآمر على عرش سُوريا ـ الثّورة في العراق ونهاية نُوري السَّعيد والنُّفوذ البريطاني ـ إعلان الثّورة وسُقُوط النِّظام المَلَكي في العراق ـ السَّاعات الأخيرة من حياة نُوري السَّعيد ـ موقف بريطانيا من الثّورة في العراق ـ تدابير الحُكُومة العراقيَّة الجديدة موقف دُول حلف بغداد من الثّورة ـ اجتماع لندن والاعتراف بالحُكُومة العراقيَّة الجديدة..

56) ***تاريخ مدينة دمشق وعُلماؤها خلال الحُكْم المصري ، خالد أحمد مفلح بني هاني*** ، 2005.

تتناول هذه الدِّراسة فترة تاريخيَّة هامَّة، نُظر إليها على أنَّها من أهمِّ فترات التّاريخ الحديث لبرِّ الشّام. بدأ الباحث دراسته بالعُلماء والأعيان الدِّمشقيِّين، وشُيُوخ الطُّرُق الصُّوفيَّة، والأشراف، والعَسْكَر، والحرَفيِّين، والعامَّة، والملاّكين، والفلاَّحين، ثُمَّ تحدَّث عن دمشق قُبيل الحُكْم المصريِّ، وعن الفتنة الدّاخليَّة(1831 م) وعن المسيحيِّين والمُسلمين، كما تحدَّث عن الإصلاحات المصريَّة في برِّ الشّام (الإدارة، والقضاء، والزِّراعة، والصِّناعة، والتِّجارة، والتّعليم، وعن

المُتغيِّرات الرُّوحيَّة والاجتماعيَّة) ويبحث - بالتَّفصيل - موقف العُلماء والأعيان في دمشق من الحُكم المصريِّ، ورُدود الفعْل والمواقف المحليَّة الدِّمشقيَّة، ثُمَّ تناول أساليب الحُكم المصريِّ في التَّعامل مع العُلماء والأعيان، ثُمَّ دَرَس نهاية الحُكم المصريِّ، وآثاره السِّياسيَّة، والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، وكيف انسحب المصريُّون، ثُمَّ أورد مُقارنة لتقييم أحكام بعض المُؤرِّخين لآثار الحُكم المصري لبرِّ الشَّام.

57) ***العلم العسكري، مفهومه وتطبيقاته علم الحُروب والصِّراعات نظريَّة الحرب وقوانينها الاستراتيجيَّة، الفريق الرُّكن الدُّكتور مُحمَّد فتحي أمين، 2005.***

يتحدَّث هذا الكتاب المُهمُّ عن مفهوم العلْم العسكري، ثُمَّ ينتقل إلى بعض العُلُوم التَّطبيقيَّة وتطبيقاتها في القُوَّات المُسلَّحة كعُلُوم الإدارة السِّياسيَّة والاقتصاد والقوانين والاجتماع والنَّفْس والإنسان والجَغرافيا والمناخ والتَّاريخ، ثُمَّ يتحدَّث عن بعض العُلُوم التَّطبيقيَّة وتطبيقاتها في القُوَّات المُسلَّحة كعُلُوم الحاسبات وبُحُوث العمليَّات واللّيزر والألياف الضَّوئيَّة والإحصاء والتّجفير (التشفير)، ثُمَّ يُفصِّل في العلْم العسكري، مفهومه، علْم الحُرُوب والصِّراعات، النَّظريَّة العسكريَّة، نظريَّة الحرب، السِّياسة العسكريَّة، قوانين الحرب، علم المعرفة السّوقية (الاستراتيجيَّة)، عُلُوم الكيمياء والأحياء والذَّرَّة وعلم المُتفجِّرات وعلم المقذوفات...

58) ***الغزو المغولي لديار الإسلام، الفريق الرُّكن الدُّكتور مُحمَّد فتحي أمين، 2005.***

يبحث هذا الكتاب في حالة المغول العامَّة وعصر جنكيز خان، وحالة البلاد الإسلاميَّة قبل غزو المغول، وما هي أعمال جنكيز خان، ثُمَّ ينتقل إلى هُولاكو وحملاته الأوَّليَّة، ثُمَّ احتلال بغداد، ومعركة عين جالوت، ويتحدَّث عن تعاون الفرنجة مع المغول. والكتاب مُدَّعم بالصُّور والخرائط المُهمَّة.

59) ***الوعْيُ والعَالَمُ السّيكولوجي والباراسيكولوجي دراسة علميَّة فلسفيَّة لمجالات ساي اللاانفصاليَّة، د. صلاح الجابري، 2005.***

الكتاب من أدقِّ وأمتع ما كُتب - علمياً - في مجال الدّراسة العلميَّة الفلسفيَّة لمجالات ساي اللاانفصاليَّة، ما هي لاانفصاليَّة الوعي والعَالَم؟ ما هو البُعْد التّاريخي التّقليدي للمُشكلة؟ ما هو قُصور الرُّؤية الانفصاليَّة في العلْم؟ العلم وإعادة حُضور الوعي في المُستوى الفيزيائي الدّقيق، ما هو المُستوى الفيسيُولُوجي؟ ما هُو الأساس العلْمي للنّظريَّة الثّنائيَّة؟ ما هو المُستوى السّيكُولُوجي؟ وما هُو المُستوى الباراسيكُولُوجي؟ ما تأثير الجسم على النَّفْس؟ ما تأثير النَّفْسي على الجسم؟ ما الحالات المُتبدِّلة للوعي؟ ما التّغذية الاسترجاعيَّة الحَيَويَّة؟ ما هُو الإدراك فوق الحسِّي؟ ما هُو التّخاطر؟ ما هُو الاستشفاف؟ ما هُو الإدراك المُسبَق؟ ما هي باراسيكُولُوجيَّة الوعي؟ ما هُو المُستوى الصُّوفي أو الاستشفافي؟ هل الإنسان مُعادلة كونيَّة مُتعدِّدة الأطراف؟ ما هُو التّزامن؟ ما هُو مجال ساي؟ ما هُو قانون السّلسلة؟ ما هي علاقة التّزامن والباراسيكُولُوجي؟ ما هي التّفسيرات البديلة للتّزامن؟ ما هي السّببيَّة التّراجعيَّة؟ ما هُو البُعْد الفلسفي لحُضور الوعي؟ ما هُو المُستوى الفلسفي لاكتشاف بُعْد ساي (الباراسيكُولُوجي)؟ الباراسيكُولُوجي بين الميتافيزيقيا والرُّؤية المادِّيَّة... ابن سينا .. الشّيرازي، ما هي التّجربة الصُّوفيَّة؟ ما هُو التَّصوُّر الميتافيزيقي الحديث للعَالَم؟ ما هُو التّحديد الإبستمُولُوجي للمُعطَى المُوفي لساي؟ ما هي الظّواهر الباراسيكُولُوجيَّة والمبادئ الأساسيَّة الحدِّيَّة؟ العقل والخُلُود في ضوء مجال ساي، ما هي الوسائط الرُّوحيَّة؟ ما هي الوساطة الذّهنيَّة؟ أسئلة هامَّة، نجد إجابات عنها في ثنايا هذا الكتاب العلْمي جداً، والسّهل جداً، والشّيِّق جداً..

60) ***خفايا الاستغلال الجنسي في وسائل الإعلام، ويلسون براين كي، ترجمة: مُحمَّد الواكد، ط1 2005 وط2 2006.***

ما هُو الهدف من الاستغلال الإعلامي الجنسي؟ هذا الكتاب غير العادي يكشف كُلَّ الطُّرُق التي تقوم بها كُلٌّ من المجلاّت والصُّحُف والأقنية التّلفزيونيَّة والأفلام والمُوسيقى الشّعبيَّة، والتي تقوم على مبدأ الاغتصاب والاستغلال الفكْري للشّعب. بعد قراءته؛ لابُدَّ أنَّكَ ستنظرُ، وتُنصتُ، وتُدركُ، ولكنْ؛ بطريقة جديدة تماماً. - لا تدعهم يضعون السّتار أمام عينَيْكَ وأُذنَيْكَ وفمكَ وأنفكَ وحواسِّكَ كُلِّها... أيُّها المُشتري؛ كُنْ حريصاً! كُنْ حريصاً! أوّلاً من أنَّ الإعلان مُصمَّم من أجل أنْ يضعكَ في عالم الخيال، تلك هي رسالة الاستغلال الإعلامي الجنسي... ما هي الرُّمُوز المخفيَّة في وسائل الإعلام الأمريكيَّة؟ ما هي كيفيَّة قيام تلك الرُّمُوز برَمْجَة وتكييف عقلنا الباطن؟ إنَّه كَشْفٌ مُثير لعواقب الإغواء اللاّشعُوري؛ لأنَّ وسائل الإعلام تَعْلَمُ كُلَّ شيء عن مُخيّلاتكَ، ومخاوفكَ، وعاداتكَ المُتأصِّلة والعميقة،

فهي تعلم - إذاً - كيف تستغلُّ مشاعركَ وسُلُوككَ الشِّرائي - كيفيَّة قيام إعلانات الحلوى بإزالة مخاوفكَ من زيادة الوزن - كَشْفُ أنَّ مجلاَّت مثل "بلاي جير" و "فيفا" المُخصَّصة للنِّساء، هي - في الواقع - تستهدف الرِّجال - كيفيَّة قيام إعلانات السّجائر بإزالة مخاوفكَ من الإصابة بالسَّرَطَان - كيفيَّة قيام الأفلام بابتكار طُرُق تعذيب جديدة من أجل إيلامكَ، ومن أجل زيادة أرباحها - كيفيَّة قيام إعلانات الأزياء بالتَّوجُّه إلى السُّحاقيَّة المُسْتَتِرَة - كيفيَّة نجاح مُوسيقى الرُّوك الشّعبيَّة السَّاحق في ترويج المُخدِّرات - كيفيَّة قيام صُور الأخبار بقَوْلَبَة وصياغة آرائكَ - كيفيَّة تَضْمين وإخفاء كلمة من أربعة أحرف في صُور طعامكَ وفي صُور ملابسكَ من أجل إثارة الرَّغبة الجنسيَّة - كيفيَّة قيام كُلِّ ذلك - وأكثر من ذلك بكثير - بإثارتكَ، واستعبادكَ، ومن دُون أدنى علم حسِّيٍّ بذلك! (صدمة مُدهشةٌ!) (سحْرٌ شديدٌ!) (الأمر يتطلَّب أقصى درجات الحِرْص!).

61) ***لُصُوص في مناصب مرموقة لقد سَرَقُوا بلادَنا وعلينا أنْ نستعيدَهُ، هاي تاوير، ترجمة: مُحمَّد الواكد، 2005.***

يتحدَّث الصُّحُفي الأمريكي الشّهير في كتابه هذا، الذي أَحْدَثَ ضجَّة كبيرة في الولايات المُتَّحدة عن أُمَّة الكليبتُوقراطيَّة (كُتلة من الشّعب مُدارة من قبَل لُصوص).. ويُدلِّل على أنَّ حُكُومة أمريكا هي حُكُومة تتَّسم بعمليَّة نَقْل وتحويل الأموال والسُّلطة من الأغلبيَّة إلى الأقلِّيَّة، وأنَّ نُخبة من المُشرِّعين المُرْتَشين تغتصب الحُرِّيَّةَ والعدالةَ والاستقلالَ وحُقُوق أُخرى من الشّعب، ويدعو - بكُلِّ قُوَّة - لإصلاح أمريكا، ويتحدَّث عن شركات بُوش في نَزْع السّلاح، ويُدلِّل أنَّ الحادي عشر من أيلول وصدَّام حُسَيْن كانا قد أَضْفَيَا تغطيةً مُسهبة وتبريراً للتَّكتُّل العديم الشّفقة لرجال بُوش في سُلطة الحُكُومة، ويُثبت أنَّ بُوش - رجل النّفط - أعطي صفقة حميدة في هاركين إنبرجي، وأنَّ الذين أعطوه شراكة جوهريَّة في تكساس رانجيرز لم يُحضروه إلى المجلس لقُدراته العقليَّة أو لفطنته القياديَّة، بل لأنَّهم اشتروا رئيساً صُورياً ذا اسم مقبول على مُستوى البُنُوك.. ما هي حقيقة الضرائب في أمريكا؟ كيف يتمُّ التّلاعب بالقوانين في أمريكا؟ ما هي حقيقة إمبراطُوريَّة المعايير المُزدَوَجَة للملك جُورج دبليُو بُوش؟! ما هي تعاليم بُوش؟ لقد أكلتْ إدارة بُوش كُلَّ شيء.. ما هي الويليقراطيَّة (سياسة التّذبذب)؟ أمريكا المُحتمَلَة.. حُرُوب النّفط.. أمريكا الجميلة.. كيف نهزم الشّيطان؟ الطَّريق إلى السِّرِّيَّة.. المصارف.. الشّركات الاحتكاريَّة.. و.. و.. بُوب يُرشِّح نفسه للرِّئاسة .. و..

62) ***نظرية التَّأويل في الفلسفة العربيَّة الإسلاميَّة، د. عبد القادر فيدوح، 2005.***

ما هي جُذُور وفلسفة التَّأويل في الفكْر الشِّيعي؟ ما التَّأويل في قراءاته الكلاميَّة (السَّلَف ومرجعيَّة النَّصّ...)؟ - التَّأويل بين النَّقْل والعقل - ما التَّأويل البياني؟ وما الجَدَل الكلامي؟ التَّأويل وتحصيل البُرهان - التَّأويل الفلسفي ومقاصد الشَّريعة - المعراج الصُّوفي والتَّأويل الذَّوقي... و... هل استطاع العقل العربي في منظوره - الذي أسهمت الفلسفة في تحريره - أنْ يقوم بالدَّور الفعَّال المُستمرِّ في معرفة الوُجُود بما هُو موجود؟ أَمْ أنَّ مفهومه لم يتجاوز العقل العملي المُكتسَب من وصايا الثَّوابت؟ وهل استطاعت الفلسفة العربيَّة الإسلاميَّة - في نظرتها التَّأويليَّة - أنْ تُميِّز بين المعقول واللاَّمعقول في تطوير الفكْر الإسلامي تباعاً؟ وقبل كُلِّ ذلك؛ هل نستطيع الحديث عن الفلسفة العربيَّة الإسلاميَّة بمعزل عن العقيدة؟ وإلى أيِّ مدى استطاع هذا العقل أنْ يُراهن على تحليل النَّصّ؟ وأيُّ نصٍّ؟

63) ***المسيح عند اليهُود والنَّصارى والمُسلمين وحقيقة الثَّالوث، د. عبد المنعم جبري، ط1 2005 وط2 2006.***

الكتاب بحث مُوسَّع للتَّعريف بعقائد النّصارى واليهُود من خلال العهد القديم والأناجيل المُعتمَدَة لدى المرجعيَّات الكَنَسيَّة، اعتمد فيه الباحث على التّلمود والأسفار والأناجيل، فعرَّف بكُلِّ طائفة من طوائفهم ومرجعيَّاتهم وأناجيلهم، قديماً وحديثاً، مُبيِّناً معنى المسيح في القواميس اللُّغويَّة؛ العبريَّة والعَرَبيَّة والمعاجم اللاَّهوتيَّة، ومُعرِّفاً بالمذاهب النّصرانيَّة القديمة كالبيلاجُوسيَّة والنّسطوريَّة والمَلَكيَّة واليعقوبيَّة والكاثُوليكيَّة، مُرُوراً بالمارونيَّة والأرثُوذكسيَّة، ثُمَّ البرُوتستانتيَّة وشُهُود يَهْوَه، وحاول أنْ يُثبت أنَّه - ومُنذُ غياب المسيح - أخذ اليهُود يخترعون الآمال لأُمم المسيح، ثُمَّ استعرض المسيح في قَصَص الأنبياء وعند المُسلمين، كما تحدَّث عن المسيح الدَّجَّال. الكتاب بانورامَا تفصيليَّة تحليليَّة لما يعنيه المسيح عند اليهُود، وعند النّصارى، وعند المُسلمين..

64) **أضواء على بروتوكولات حكماء صهيون ، (النصوص الكاملة) دراسة تحقيقية تاريخية معاصرة، رجا عبد الحميد عرابي ، ط1 2005 وط2 2006.**

ما هي الجذور القديمة لليهودية؟ فرية الشعب المختار ـ .. الوعد وأرض الميعاد ـ الفطير المقدس. ما هي النصوص الكاملة لبروتوكولات حكماء صهيون؟ ومن واضعها؟ اليهود والإمبراطورية العثمانية ـ ما هي الأهداف الهامة للبروتوكولات؟ ما هي منظمات اليهود وحركاتهم؟ .. الصهيونية المسيحية ـ اللجنة اليهودية الأمريكية ـ بناي بريت ـ كيف تم تسخير الدول العظمى لخدمة اليهود ـ بريطانيا ـ الاتحاد السوفيتي سابقاً ألمانيا، فرنسا، الولايات المتحدة الأمريكية. تنظيم القاعدة وحرب أفغانستان ـ زلزال 11 أيلول 2001 لماذا احتلال أفغانستان؟! لماذا احتلال العراق؟ الدولة الكردية ومشروع (إسرائيل) لتفجير الشرق الأوسط ـ حرب الخليج الثالثة ـ اليهود ومحاولة السيطرة على العالم ـ الدولة اليهودية العالمية ـ العراق ينهب ويعرض للبيع ـ (إسرائيل) استثمار أمريكي ـ ماذا تحقق من أهداف البروتوكولات؟ وماذا لم يتحقق بعد؟ مسيرة الانحدار بدأت عند اليهود..

65) **القرآن بين اللغة والواقع ، سامر إسلامبولي ، 2005.**

لقد جاء هذا البحث يدعو الأمة لكي تقوم بدراسة النص القرآني بحواسها لا بحواس غيرها، لكي تنشر وعياً جديداً وثقافة إيمانية جديدة، معتمدة على الماضي بما يناسب الحاضر، مكملة ـ من خلال ما سبق ـ ما يناسب الحاضر والمستقبل قدر الإمكان، وبذلك تكون الأمة قد قامت بدور فعال ومنتج مشيدة جسراً من التواصل بين الماضي والحاضر والمستقبل (سيرورة وصيرورة)، وقد تحولت من موقع الأخذ والتلقي إلى موقع العطاء والترقي، وحينئذ ستشعر الأمة بأنها موجودة فعلاً وفكراً لا جسداً ورقماً. على أن يكون كل ذلك تحت سلطان الأدلة والبراهين، قال تعالى: (قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين).

66) **قراءة حول مصير النبي موسى عليه السلام : هل مات أم قتل؟! بديع السيوفي ، 2005.**

ضبابية، مجهولة، غامضة، هكذا تبدو نهاية النبي موسى، من هو إبراهيم الخليل؟ قصته بالتفصيل مع هاجر وسارة وهجرته، هل كان يعقوب يهودياً؟ وما هي أصل تسمية اليهود باليهود؟ ولادة ونشأة موسى عليه السلام ، ما هي ديانة أخناتون التوحيدية؟ من هو أخناتون؟ موسى الكاهن والقائد،عودة موسى من الحبشة، موسى القاتل، موسى في أرض مدين، موسى والعودة إلى مصر، خروج موسى من مصر، قصة خروج بني إسرائيل، عودة موسى من الحبشة وأحداث مصر والخروج . من هو موسى ؟! موسى لم يك إسرائيلياً، هل كان موسى يهودياً؟ كيف ظهرت اليهودية؟ الغموض في موت موسى، وفاة موسى أم اغتيال موسى. . موسى والموسويون ـ اليهودية والصهيونية ـ الصهيونية حركة سياسية ـ العبرية واليهودية، والتوراة ـ الصهيونية واليهودية ـ الشعب اليهودي . .باختصار: الكتاب يثبت أن النبي موسى لم يك عبرانياً . . ولا إسرائيلياً . . ولا يهودياً . . إنما كان صاحب دعوة دينية خاصة اسمها الموسوية، ويسمى أتباعه بالموسويين.

67) **الـ سي آي إيه و/11/ أيلول 2001 والإرهاب العالمي ودور أجهزة الاستخبارات ، أندرياس فون بولوف، ترجمة : د. عصام الخضراء - سفيان الخالدي، ط1 2005 وط2 2006.**

ماذا جرى من أكاذيب وخدع وآثار زائفة في 11 أيلول 2001؟ كيف بين المؤلف أن الإسلاميين كانت آثارهم واضحة في أحداث 11 أيلول؟ وكيف أن آثارهم هذه تلاشت حين التأمل والتدقيق بتلك الآثار على انفراد؟ خبير الاستخبارات ووزير الاتحاد السابق يشكك بالرواية الرسمية عن هجمات 11 أيلول 2001 ـ أ ليس ممكناً أن تكون الهجمات جاءت مواتية جداً للحكومة الأمريكية؟! آثار وأدلة كثيرة تقود إلى شبكة الاستخبارات، وفي مقدمتها سي آي إيه... الهجوم الرباعي في صباح 11/ 9 / 2001 ـ نظرة إلى الوراء ـ أثر الإرهاب ـ رفاق قدامى، 19 مهاجماً في تحضير سري ـ تكهنات قبل الهجمات ، أسامة بن لادن والأثر الإسلامي ـ الوصف الرسمي لأحداث 11 / 9 / 2001 ـ من كان في الطائرات؟ آثار تدعو إلى الاستغراب ـ تناقضات لا نهاية لها ـ أحداث نيو يورك ـ جهاز الحكومة الأمريكي: هل هو أعمى؟ أم غبي؟ أم على علم؟ أجهزة الاستخبارات في عملية مستترة ـ إمكانية التحكم بالطائرات من خارجها ـ ماذا جرى مع الرحلة / 77 / ؟ ما هو سر العمارة 7 من مركز التجارة العالمي؟ ماذا يعرف جهاز الاستخبارات الإسرائيلي الموساد؟ كيف استغلت حكومة بوش الفرصة؟ اللعبة الكبيرة للسيطرة على العالم. الكتاب من أهم الكتب التي صدرت، والتي تعالج، وتفند، وتحلل هجمات 11 أيلول2001.

68) **الفكر والسّياسة لدى الجمعيّات والمُنتديات والأحزاب العَربيَّة حتّى نهاية الحرب العالميَّة الأولى، زُهير عبد الجبّار الدُّوري**، 2005.
ما هي الأوضاع السّياسيَّة في الشّرق العَربي في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر حتّى بداية القرن العشرين؟! ما طبيعة حُكْم السّلاطين العُثمانيِّيْن الأوائل؟ ما هي جمعيَّة الاتّحاد والتّرقي؟ وكيف استلمت الحُكْم؟ ما هي فلسفة العُثمانيِّيْن للتّعامل مع العَرَب مع بداية القرن العشرين؟ ما الأوضاع السّياسيَّة في المشرق العَربي في النّصف الثّاني من القرن التّاسع عشر حتّى بداية القرن العشرين؟ ما هي الأوضاع السّياسية في كُلٍّ من سُورية ولُبنان واليمن والحجاز ومصر والعراق؟ كيف نشأت الجمعيّات والنّوادي والأحزاب الفكريَّة والسّياسيَّة في الوطن العَربي؟ ما هُو أثر الفكر السّياسي المصري في الفكر السّياسي المشرقي؟ كيف انتقل الفكر السّياسي من مصر إلى المشرق العَربي؟ ما هي جُذُور نشأة الجمعيّات والنّوادي الفكريَّة والسّياسيَّة في المشرق العَربي؟ بعض الجمعيّات مثل الجمعيّات الصّغيرة: جمعيَّة النّهضة العَربيَّة ـ جمعيَّة الإخاء العَربيَّة ـ الجمعيَّة القحطانيَّة ـ المنتدى الأدبي ـ جمعيَّة العهد، الجمعيّات الكبيرة: الجمعيَّة العَربيَّة الفتاة ـ حزب اللاّمركزيَّة ـ مُؤتمر باريس.

69) **انتبهوا... الدَّجّال يجتاح العالم، مُحمَّد مُنير إدلبي**، 2006 ط 6.
دراسة تحليليَّة علميَّة موثُوقة تُثبت بُطلان الزّعم القائل بأنَّ الدَّجّال إنسان واحد. وتُثبت ـ في الوقت نفسه ـ أنَّ ما يُسمّى بالأعور الدجّال قد ظهر في الأرض وأنَّه يجتاح العالم، ويعيث فيه فساداً !!! ما تفسير الحديث الشّريف: تغزون جزيرة العَرَب، فيفتحها الله؟ ثُمَّ تغزون فارس، فيفتحها الله؟ ثُمَّ تغزون الرُّوم، فيفتحها الله؟ ثُمَّ تغزون الدَّجّال فيفتحها الله؟

70) ***سِفر التّاريخ اليهُودي اليهُود تاريخهم عقائدهم فرَقهم نشاطاتهم سُلوكيّاتهم الحركة الصّهيَوْنيَّة والقضيَّة الفلسطينيَّة، رجا عبد الحميد عُرابي، ط1 2004 وط2 2006.***
تزعم ـ دار الأوائل ـ أنَّه الكتاب الأشمل في ما أُلِّف عن اليهُود؛ حيثُ يتحدَّث المُؤلِّف فيه عن تاريخ اليهُود وتشتُّتهم وانتشارهم في العالم، وعن كُتُبهم الدِّينيَّة وعقائدهم وفرَقهم وطوائفهم قديماً وحديثاً، وعن تعاليم حُكَمائهم، وعن نشاطاتهم السّياسيَّة، وعن سُلوكيّاتهم وأخلاقيّاتهم، كما يتحدَّث عن الحركة الصّهيَوْنيَّة والقضيَّة الفلسطينيَّة. ممّا يتناوله المُؤلِّف: جنَّة عَدَن في التّوراة، وفكرة الفردوس عند السُّومريِّيْن، وآدم وجنَّته، مصادر التّاريخ القديم لليهُود، النّظريَّة السّاميَّة، العبْريَّة والعبْرانيُّون، القُرآن والعبْريَّة، إبراهيم، العبْرانيُّون والإسرائيليُّون والموسويُّون واليهُود، أسباب انحراف اليهُود، الخَلْطُ بين اليهُود وبني إسرائيل، يعقوب والرّحيل، الهكسُوس، مُوسى، أخناتون والتّوحيد، مُوسى والتّوحيد، بُرهان أنَّ مصر هي مصران الجزيرة، الأمر بغزو فلسطين، تابوت العهد وخيمة الاجتماع، يُوشع بن نُون، عهد القُضاة، عهد المُلُوك، داود، سُليمان، بلقيس، سبأ، انقسام المملكة اليهُوديَّة، مملكة دمشق الآراميَّة، الأسباط العشرة، التّوراة، السّبي البابليّ، الفُرس الإخمينيُّون، اليهُود والرُّومان، تشتُّت اليهُود، انتشار اليهُود في العالم، الخزَر، اليمن، الجزيرة العَربيَّة، الحبشة، الأشكناز، السّفارد، الدّيانة اليهُوديَّة، ترجمة التّوراة، التّلمُود، القرّاءون، السّنهدرين، الكَتَبَة، السّامريُّون، الصّدوقيُّون، الفرّيسيُّون، الإسينيُّون، المسيح المُنتظَر، الدُّونمة، الصّهيَوْنيَّة، الأحزاب الدِّينيَّة اليهُوديَّة، الهسكالا، برُوتُوكُولات حُكماء صِهيَوْن، الماسُونيَّة، بْناي بريت، إله اليهُود، اللاّساميَّة، حاخامات اليهُود، هرتزل، ألمانيا وفرنسا واليهُود، إسرائيل وفلسطين بالتّفصيل الدّقيق، العلاقة الأمريكيَّة الإسرائيليَّة، وغيرها من المعلومات المُهمَّة التي لا غنى عنها لكُلِّ عَربيٍّ ومُسلم وغير يهُوديٍّ.

71) ***الفرق والمذاهب الإسلاميَّة مُنذ البدايات النّشأة - التّاريخ - العقيدة - التّوزُّع الجغرافي، سعد رُستم، ط1 وط2 2004 وط3 2005.***
عرض تاريخيٌّ تحليليٌّ لقصَّة نُشوء الفرَق والمذاهب الإسلاميَّة، وأسباب انقسامها، مع شرح أهمِّ العقائد التي ميَّزت كُلَّ فرقة، ويُبيِّن التّوزُّع الجغرافيَّ لأتباعها، والأسباب الحقيقيَّة الكامنة وراء انفصالها، وأسرار انقساماتها، مع التّعرُّف ـ بدقَّة وموضوعيَّة ـ إلى أهدافها ونواحيها، والوُقُوف على عقائدها الحقيقيَّة التي تميَّزت بها، برُوح موضوعيَّة علميَّة ومُتجرِّدة، أوَّل اختلاف بين المُسلمين، الخوارج، مأساة كربلاء، الانقسامات الكلاميَّة والفقهيَّة ضمن أهل السُّنَّة، المُعتزلة، الحشويَّة، الحنابلة، الأثريَّة، والأشاعرة، الماتريديَّة، النّزاع بين الرّأي والحديث، المذاهب: الحنفيّ، المالكيّ، الشّافعيّ، الحنبليّ، التّصوُّف، الإباضيُّون، الشّيعة: اليزيديُّون، الإماميَّة الاثنَيْ عشريَّة (الجعفريَّة)، الشّيعة الجعفريُّون العلويُّون، الشّيعة الإسماعيليَّة، الحوشبيَّة، الخلفيَّة، الفاطميُّون، الصّليحيُّون، المُستعلية، النّزاريَّة، المُوحِّدون (الدُّرُوز)، الآغا خانيَّة، القاديانيَّة (الجماعة الإسلاميَّة الأحمديَّة) جمعيَّة أهل القُرآن (أصحاب الفَهْم العصريّ للقُرآن ورَفض السُّنَّة والحديث)، وغيرها من الموضوعات التي تُؤكِّد أنَّ جُلَّ المذاهب والفرَق الإسلاميَّة لا تعدو وُجهات نَظَر مُختلفة في فَهْم الإسلام،

وكُلّها نابعة من الإسلام الحنيف، تتحرَّك فيه، وتتمسَّك بأُصوله، حسب فَهمها، وترجع إليه، الكُلّ مُسلمون ينتمون لأُمَّة واحدة هي أُمَّة مُحمَّد بن عبد الله (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، ويعبدون إلهاً واحداً هُو الله الواحد الأحد، الفَرْد الصَّمَد، الذي لم يلِدْ، ولم يُولَدْ، ولم يكنْ له كُفُواً أحد، ويُؤمنون بكتاب واحد هُو القُرآن الكريم، ويستقبلون قبلة واحدة هي بيت الله الحرام.

72) ***الفرَق والمذاهب المسيحيَّة مُنذُ ظُهور الإسلام حتّى اليوم، سعد رُستُم، ط1 2004 وط2 2005.***

الآريُوسيَّة - النّساطرة - اليعاقبة - الملكانيَّة - الخلاف بشأن تقديس الأيقونة والتّماثيل والصُّور - الانشقاق المسيحيُّ الكبير إلى كنيستَيْن: اليُونانيَّة الشّرقيَّة الأرثُوذُكسيَّة والرُّومانيَّة الغربيَّة الكاثُوليكيَّة - الشّتات الأرثُوذُكسيُّ والبعثات التّبشيريَّة - الفُرُوقات الرّئيسيَّة بين الأرثُوذُكسيَّة والكاثُوليكيَّة - فترة الانقسام البابويِّ - الإصلاح والحركة المُضادَّة - التّحوُّل الهامُّ لموقف الكنسية الكاثُوليكيَّة تجاه الإسلام في المجمع الفاتيكانيِّ الثّاني - الحوار الإسلاميُّ المسيحيُّ بعد المجمع الفاتيكانيِّ الثّاني - الرّهبانيَّات والحركات التّبشيريَّة الكاثُوليكيَّة - مُنظَّمات الفُرسان الرُّوحيَّة - فُرسان القدِّيس يُوحنّا - فُرسان الهيكل - الفُرسان التّيوتُونيُّون - حركة الإصلاح الدِّينيِّ ونشأة الكنائس البرُوتستانتيَّة - مارتن لُوثر - أولريخ زفينغلي - جان كالفن - الفرَق والحركات التي انشقَّت عن البرُوتستانتيَّة: الأنابابْتيست - المنيونيُّون - السُّوسيانيَّة - الأرمينيانيُّون الكنيسة اللُّوثريَّة - المنهجيَّة - المشيخيَّة والمُصْلَحَة - التّطهُّريَّة البيُوريتانيَّة - حركة الإصلاح المُضادّ للكنيسة الكاثُوليكيَّة في نضالها مع البرُوتستانتيَّة: مجمع ترينت اليسُوعيُّون - الفرَق والشِّيَع المسيحيَّة الغربيَّة الحديثة: المعمدانيَّة - الألفيُّون - السّبتيُّون - شُهُود يَهْوَه - جماعة أصدقاء الإنسان - المُورمون - الشّفائيُّون - الأنطونيُّون المسيحيَّة العلميَّة - الأخت غايا - حركات اليقظة أو الصّحوة المسيحيَّة - الإخوة بلايموث - الرّسُوليَّة - الرّسُوليَّة الجديد جمعيَّة الأصدقاء الهزَّازين - جيش الخلاص العنصرة - الكنائس الكاثُوليكيَّة الصّغيرة - رابطة توحيد المسيحيَّة في العالم - الصّهيونيَّة المسيحيَّة الأصوليَّة - مذهب الألفيَّة السّابقة البريطاني والصّهيونيَّة المسيحيَّة مُنظَّمة المائدة المُستديرة الدِّينيَّة - مُؤتمر القيادة المسيحيَّة الوطنيَّة لأجل (إسرائيل) - المسيحيُّون المُتّحدون من أجل (إسرائيل) - المصرف المسيحيّ الأمريكيّ لأجل (إسرائيل) - و . . .

الكتاب ليس مُناظرة دينيَّة، أو مُجادلة كلاميَّة، أو لاهوتيَّة لبيان الحقِّ من الباطل، وإنّما هُو عرض تحليليٌّ، تاريخيٌّ، دينيٌّ، اجتماعيٌّ، سياسيٌّ، للفرَق المسيحيَّة جميعها؛ بدءاً من بُزُوغ فجر الإسلام حتّى الآن، يُبيِّن فيه المُؤلِّف تاريخ نشأة كُلّ فرقة، والأسرار الكامنة وراء انقساماتها، وترجمة مُؤسِّسيها، مع شرح ما يُميِّز كُلَّ فرقة من عقائد، أو طُقُوس، أو مبادئ وأهداف، وطريقة تنظيم وإدارة، مع الإشارة - ما أمكن - إلى التّوزُّع الجغرافيِّ لأبناء كُلِّ فرقة، والعدد المُقدَّر لأتباعها.

73) **نساء في قُصور الحُكّام (ومن الحِنس ما قَتَل)، مازن النّقيب، ط1 2004 وط2 2005.**

بعض الرجال - سياسيِّين كانوا أم أدباء، مُلُوكاً أم رُؤساء، عُلماء أم من العامَّة ... - لا يستطيعون مُقاومة عُيُون النّساء، ولا دَلَعهنَّ، ولا أصواتهنَّ، ولا ... ولا ....، حُكّام ونساءٌ من الشّرق والغرب، بعضهم رحل وأصبح في عالم النّسيان، وبعضهم مازال يقف على الشّطآن، يحلم بأنْ يكون إنساناً، ليصطاد حُوريَّة من البحر، يتعرَّض الكتاب إلى عيِّنة من البشر تخلَّت عن المبادىء والقيَم والعادات والأخلاق والتّقاليد من أجل لحظة فساد ونشوة عابرة، فمَنْ منّا لا يذكر الملك فاروق وناريمان، وقَصص بيل كلينتون، والأميرة ديانا ودُودي الفايد، وجُون كينيدي وزوجته ومارلين مُونرُو، وشاه إيران مُحمَّد رضا بهلوي، والمُشير عبد الحميد، والرّئيس ميتيران ومازارين، والملك إدوارد الثّامن وأليس سيمبسُون، والملكة أليزابيث الثّانية، والأمير فيليب، والأميرة مارغريت وعاشقها المُطلَّق، والأمير آندرو وسارة، وجواهر لال نهرو واللّيدي مُونتباتن، وبانازير بُوتُو وزرَادي، وأوناسيس وجاكلين كينيدي، والأميرة كارولين وفينسان ليندُون، والأميرة مارتا وآري بين، ....، يربط الكتاب بين قَصص حُبٍّ وعشق هؤلاء مع الخفايا والأسرار التي كانت تُحاك خلف أسوار القُصُور والمنازل، وعلاقة ذلك كُلِّه - في النّهاية - بالسِّياسة.

74) **لماذا الاغتيالات السِّياسيَّة؟! مازن النّقيب، 2004.**

الاغتيال السِّياسيُّ موضوع هامٌّ شغل ألباب المُفكِّرين على مرِّ العُصُور؛ حيثُ كَتَبَ عنه عُلماء النَّفْس والاجتماع والسِّياسة والدِّين، ما هي النّظريَّات العلميَّة في تفسير الاغتيال السِّياسيِّ؟ ما هُو الاغتيال السِّياسيُّ للدّولة؟ اليهُوديَّة الصّهْيَوْنيَّة والاغتيال السِّياسيُّ. القصَّة الحقيقيَّة لكيفيَّة اغتيال (أبُو جهاد؛ خليل الوزير). اغتيال الشّهيد زُهير مُحسن. اغتيال د. فتحي الشّقاقي مُؤسِّس الجهاد الإسلاميِّ. اغتيال (أبُو علي مُصطفى، علي حسن سلامة، وفاء إدريس، وغيرهم من شُهداء فلسطين). كيف تمَّت اغتيالات: حُسني الزّعيم، سامي الحنّاوي، أديب الشّيشكلي، عدنان المالكي،

الملك عبد الله الأوَّل، هزَّاع المجالي، وصفي التَّل، نُوري السَّعيد، الملك فيصل الثَّاني ملك العراق، أنور السَّادات، أنطُون سعادة، رشيد كرامي، كمال جُنبلاط،عبَّاس الموسوي، رينيه مُعوَّض، بشير الجميِّل،إيلي حبيقة، إسحق رابين، رحبعام زائيفي، مُحمَّد بُو ضياف، المهدي بن بركة، مُحمَّد فرح عيديد، عبد الفتَّاح إسماعيل، إبراهيم الحمدي، جُون كينيدي، باتريس لُومُومبا، د. مارتن لُوثر كينج، تشي غيفارا، أنديرا غاندي، شهبور بختيار، بعض السُّفراء الأتراك، المُونسينيُور دُوراتي.

75) ***تشنيف السَّمع في انسكاب الدَّمع (من جميل تراثنا) ، صلاح الدِّين خليل بن أيبك الصَّفدي ، تحقيق : مُحمَّد عايش ، 2004.***

كتابٌ فريدٌ في بابه، وليس له نظير، فهُو الوحيد الذي يُفصِّل القَوْل في الدَّمع، من ناحية لُغويَّة ونَقْليَّة وعَقْليَّة وأدبيَّة، ويربط بينها بصيغة منطقيَّة، ويُشكِّل الكتاب حلقة وَصل بين دواوين مفقودة لكثير من الشُّعراء، بل هُو يُضيف بعض الشِّعر إلى دواوين مطبوعة. إنَّه ـ بحقٍّ ـ دُرَّة من دُرَر تُراثنا.

76) ***التَّقاليد والعادات الدِّمشقيَّة خلال عُهود السَّلجوقيِّين - الزِّنكيِّين - الأيُوبيِّين د. فراس سليم حياوي السَّامرَّائي ، 2004.***

إنَّ دراسة المُجتمع العَرَبيِّ الإسلاميِّ في هذه المُدَّة يُعدُّ من أكثر الدِّراسات تعقيداً؛ لأنَّ في دمشق طوائف مُتعدِّدة. دَرَس الباحث ـ بداية ـ جَغرافيَّة دمشق، وأهمَّ التَّطوُّرات السِّياسيَّة، ثُمَّ عرَّج على دراسة فئات المُجتمع الدِّمشقيِّ (حُكَّام، رجال دين، أرباب الفكر والعُلماء، تُجَّار، أصحاب الفُنُون الجميلة، وغيرهم) ثُمَّ فصَّل في الطَّعام، والشَّراب، والملابس، والحمَّامات، والخانات، والصِّحَّة العامَّة، والأسواق، ووسائل الرُّكُوب، ومُستوى المعيشة، والأسعار، والأعياد، والمُناسبات، ووسائل التَّسلية، والعائلة الدِّمشقيَّة، ومُفرداتها، وعلاقاتها بغيرها، وأوصاف قُصُور الأُمراء والميسورين.

77) ***العبادات في الدِّيانات القديمة ،المصريَّة ،العراقيَّة ،الرُّومانيَّة ،الهندُوسيَّة ،البُوذيَّة ،الصِّينيَّة ،الزرادشتيَّة ،الصَّابئيَّة ، عبد الرَّزَّاق الموحي، 2004.***

عبادة قُرص الشَّمس عند المصريِّيْن القُدماء، ودعوة أخناتون إلى التَّوحيد وصيام الكَهَنَة ـ ربُّ الأرباب عند العراقيِّيْن القُدماء (أنُو إله السَّماء، وأنليل سيِّد الرِّيح العاصفة) ـ الدِّيانة اليُونانيَّة القديمة والفلسفة والإشراك، وصيامهم ـ الرُّومان القُدماء وآلهتهم وصيامهم ـ الهندُوس والبُوذيُّون والصِّينيُّون والزَّرادشتيُّون والصَّابئيُّون وصلاتهم وصيامهم وزكاتهم وحجُّهم و ....

78) ***العبادات في الدِّيانة اليهُوديَّة ، عبد الرَّزَّاق الموحي ، 2004.***

الله في الفكر اليهُودي ـ النُّبُوَّة عند اليهُود ـ الصَّلاة (الطَّهارة الوُضُوء) صلاة الصَّباح ـ صلاة المساء ـ الصَّلاة الجماعيَّة ـ صلاة الظَّهيرة أو العصر ـ صلاة المغرب ـ صلاة الغُفران ـ صلاة القمر ـ صلاة السَّبت ـ صلاة عيد شعوت ـ صلاة عيد المظال ـ صلاة العشاء الخاصَّة بالافتتاح بيوم الغُفران ـ الزَّكاة ـ الصَّدقة ـ الصَّوم (فَرْديّ وجَماعيّ) صوم الصَّمت ـ الحجُّ (إلى بيت المقدس) ـ الأعياد : الفصح ـ المظال ـ الأسابيع (العُنْصُرة) ما هُو رأي الإسلام في العبادات اليهُوديَّة ؟ وما هُو تأثير الدِّيانات القديمة على العبادات اليهُوديَّة ؟ وما هي التَّأثيرات الإسلاميَّة في العبادات اليهُوديَّة مُتمثِّلة بالصَّلاة؟ وغيرها من الموضوعات التي يجهلها عامَّة النَّاس.

79) ***العبادات في الدِّيانة المسيحيَّة ، عبد الرَّزَّاق الموحي ، 2004.***

الأُلُوهيَّة والنُّبُوَّة ـ الصَّلاة (عقليَّة فَرْديَّة ـ لفظيَّة جَماعيَّة) ـ صلاة المساء وصلاة الصُّبح وصلاة الظَّهيرة ـ التَّسابيح ـ صلوات الاستغاثة والثِّقة والحمد ـ مزامير التَّعليم الزَّكاة ـ الصِّيام (صوم الصَّمت ـ الصَّوم عن أنواع الطعام) الصِّيام عند الكاثُوليك ـ الصِّيام في الكنيسة الأرثُوذُكسيَّة الشَّرقيَّة ـ صوم الأربعين ـ صوم الميلاد ـ صوم العُنْصُرة ـ صوم العذراء ـ صوم نينوى ـ صيام طائفتَيْ الأرمن والقبط ـ الحجُّ ـ أثر الدِّيانات القديمة على العبادات المسيحيَّة ـ ومُقارنة بين السَّيِّد المسيح وبُوذا ـ أوجه التَّشابه بين المسيحيَّة وعَبَدَة بَعْل ـ تأثُّر الدِّيانة المسيحيَّة بالدِّيانة الميثريَّة ـ العبادات المسيحيَّة الواردة في القُرآن الكريم ورأي الإسلام فيها.

80) **الاستبداد والمرجعيَّة في الخطاب الإسلاميِّ دراسة الحالة المُعاصرة، أ. د. خالد مدحت أبو الفضل، ترجمة : مُحمَّد سفر عيد، تقديم : أنور إيمان، 2004 .**

بمَوْت الرَّسول الكريم أصبح المُسلمون وحدهم، مُنفردين بأنفسهم، فقد كان الرَّسول الكريم الصِّلة الوحيدة المُباشر بالله، حينها؛ لم تتحطَّم الولاءات السِّياسيَّة فحسب، بل تحطَّمت ـ أيضاً ـ تلك الرَّابطة الفريدة والضَّروريَّة بالمشي الإلهيَّة، ومن ثمَّ؛ بدأ علم الشَّريعة. إنَّ سياسات إبراز الهُويَّة هبطت بالشَّريعة إلى مُستوى الشِّعار السِّياسيِّ ، وكا

الأحرى أنْ ترتفع بها إلى مُستوى المكانة الثَّقافيَّة الرَّفيعة التي تبوَّأتها في عُهود أسلافنا الفُقهاء المُشرِّعين. ما هي إشكاليَّة السُّلطة؟ النَّصُّ والسُّلطة، الفتوى، حديث أنس حول الوُقُوف، حديث مُعاوية، علم منهج الحديث وحديث السُّجُود، بنية الاستبداد بالرَّأي.

81) **تاريخ الخطِّ العَرَبيِّ وغيره من الخُطُوط العالميَّة ، آن زالي وآني بيرثييه ، ترجمة : سالم سُليمان العيسى ، 2004.**

لقد جمع هذا الكتاب أسمى الصَّفات المُبدعة للخطِّ العَرَبيِّ الذي يفتخر به كُلُّ العَرَب، وخُطُوط بلاد ما بين النَّهرَيْن، ومصر، والصِّين، وأمريكا قبل العهد الكُولُومبي، وإفريقية، وتحدَّث مُؤلِّفاه فيه عن الحضارة الغربيَّة وعن خطٍّ بلاد ما بين النَّهرَيْن / المسماريّ و .../ وعن القُدرة السِّحْريَّة للخطِّ، وعن خطِّ الفراعنة، والأبجديَّة الهيرُوغليفيَّة وخطِّها الخطِّ الدِّيمُوطيِّ والقبطيِّ، وأساطير ولادة الأحرف الصِّينيَّة وأحرفها، مُرُوراً عبر فيتنام، واللُّغة اليابانيَّة المُعقَّدة، ومدينة الأزتيك اللاَّمعة، ومصير الخُطُوط المُدوَّنة قبل تأسيس كُولُومبيا، وإفريقية من الكلام فيما يتعلَّق بالرَّسْم إلى الخطِّ، وُصُولاً بالقارئ إلى ثورة الأبجديَّة، بدءاً بالفينيقيَّة ونُقُوشها، ومُرُوراً بالآراميِّيْن وهُم النَّاشرون للأبجديَّة، وُصُولاً إلى الخُطُوط في العَرَبيَّة الجنوبيَّة، وفي الحبشة، وُصُولاً إلى القُرآن، وبيان أنَّ الخطَّ العَرَبي ارتقى من الفينيقيَّة عن طريق الآراميَّة مُتخلِّلاً بين الفارسيَّة والهندو أُورُوبيَّة (مثل التُّركيَّة).. وكيف وصل الخطُّ إلى الهيلِّلينيِّيْن، وابتكار الأحرف الصَّوتيَّة، وكيف وُلدت من الأبجديَّة اليُونانيَّة، ومُرُوراً من اليُونانيَّة، ووُصُولاً إلى اللاَّتينيَّة، وبيان أنَّ الخطَّ هو مرآة الكلام. كتاب جدير بالقراءة. هذا أقلُّ ما يُمكن أنْ يُقال عنه.

82) **الإسلام ونُبُوءات المسيح والقرن الحادي والعُشرون ، عبد الوهاب نُوشاد ، ط1 2004 وط2 2006.**

يبحث المُؤلِّف في نُبُوءات المسيح المذكورة في العهد الجديد، ومُقارنة هذه النُّبُوءات مع الواقع، ومعرفة مقدار ما تحقَّق منها. الإنجيل وأعمال المسيح، نُبُوءة المسيح عن مَلَكُوت السَّموات، نُبُوءة المسيح عن المُعين رُوح الحقِّ، نُبُوءة المسيح عن عودته من السَّماء. كما تمَّ في هذا البحث الاستعانة بالنُّبُوءات الموجودة في العهد القديم (التَّوراة)، لتوضيح نُبُوءات المسيح بشكل دقيق.

83) ***أساطير وكالة الاستخبارات المركزيَّة الأمريكيَّة ، فيليب آجي وآخرون ، ترجمة : حمدي الصَّاحب ، ط1 2004 وط2 2005.***

يبحث هذا الكتاب الهامُّ جدّاً في كيفيَّة انشقاق بعض زُمر مُوظَّفي وكالة الاستخبارات المركزيَّة الأمريكيَّة على مدى سنين عديدة، وخاصَّة بعد حرب فيتنام؛ حيث ترك العديد منهم هذه الوكالة وهُم ساخطون. وبدلاً من الانشقاق والذَّهاب إلى الاتِّحاد السُّوفيتيِّ فَعَلوا الأخطر؛ وهُو إبلاغ أسرارهم إلى العالم أجمع؛ وخاصَّة إلى الشَّعب الأمريكي. بدأ بكيفيَّة تحديد مكان الجاسُوس، وكيفيَّة هَتْك أسرار الـ سي آي إيه، ومَنْ هُم رُؤساء المركز. ومَنْ هُو الجاسُوس السُّوبر (كُوردمير). والـ سي آي إيه في البُرتغال والتَّغييرات فيها. ثُمَّ انتقل إلى نُقطة التَّحوُّل ومسألة ريتشارد ويلتسن، وُصُولاً إلى أثينا وبيان مُنظَّمة 17 نُوفمبر الثَّوريَّة. وماذا تفعل الـ سي آي إيه في أُورُوبة الغربيَّة. إسبانيا بعد فرانكو عمليَّات الاستخبارات في اليُونان. العامل الأمريكيُّ في اليُونان. مُونتغمري. إيطاليا ومارتشيني. الاستخبارات في فرنسا. في ألمانية الغربيَّة. وكيف تنتزع أموالُ الـ سي آي إيه أسنانَ الاشتراكيَّة البريطانيَّة، وكيف تدعم الـ سي آي إيه السُّوق المُشتركة. كيف تصنع الـ سي آي إيه الأخبار. سويسرا. ثُمَّ يُختتم الكتاب بمقاييس معنويَّات الـ سي آي إيه، ثُمَّ الـ سي آي إيه الجديدة. كتاب جدير جدّاً بالقراءة والتَّدبُّر، وُصُولاً إلى مُحاولة استشفاف ما بين السُّطُور أكثر ممَّا على السُّطُور.

84) ***لُورنس والقضيَّة العَرَبيَّة 1888-1935 ، حسام علي مُحسن المدامغة ، ط1 2004 وط2 2005.***

حفلت المنطقة العَرَبيَّة في فترة الحُكْم العُثْمانيِّ بنشاط من الرَّحَّالة والمُستشرقين الأُورُوبيِّيْن والأمريكان الذين اختلفوا في مغزى نشاطهم، فمنهم مَنْ جاء بحثاً عن معلومات جديدة تُغني معرفته، وتُرضي فُضُوله، ومنهم مَنْ جاء بناءً على توجيه من حُكُومته لأهداف استخباريَّة يقصد من ورائها جَمْعَ معلومات سياسيَّة أو عسكريَّة. وتُوماس إدوارد لُورنس من الذين عملوا في المنطقة العَرَبيَّة بتوجيه خارجي، فتحدَّث المُؤلِّف عن ولادته ونشأته الأُسَريَّة وصفاته الشَّخصيَّة، وكيف انخرط لُورنس في الجيش البريطانيِّ عند اندلاع الحرب العالميَّة الأُولى، وكيفيَّة عمله في عمليَّات الثَّورة العَرَبيَّة. اعتمد المُؤلِّف ـ فضلاً عن الوثائق العَرَبيَّة والإنكليزيَّة غير المنشورة والمنشورة ـ على الكثير من المصادر العَرَبيَّة والأجنبيَّة وفي مُقدِّمتها مُؤلَّفات لُورانس نفسه، والتي أهمُّها (أعمدة الحكْمة السَّبعة) ممَّا جعل الكتاب غنيّاً جدّاً بمصادره وتحليلاته واستنتاجاته.

85) **اليهوديَّة والغَيْريَّة غير اليهود في منظار اليهوديَّة، ألبيرتو دانزول، ترجمة: د. ماري شهرستان، 2004.**

ألبيرتو دانزول كاتبٌ فرنسيٌ ذُو خلفيَّة ثقافيَّة علمانيَّة، وهُو - في هذه الدِّراسة - يرمي إلى إلقاء الضَّوء على هيكليَّة خفايا التَّفاسير اليهُوديَّة والتّلمُود، ويُعرِّي دور التّلمُود الآثم في بناء شخصيَّة اليهُودي، حتَّى غدا اليهُودي أشدَّ المخلوقات عداوة لبني البشر، كما أنَّه وضَّح البنى الذّهنيَّة للأحبار والحاخامات ودأبهم المُستمرّ لتكريس انعزال وانغلاق اليهُودي وتكبُّره وتغطرُسه، ممَّا أدَّى إلى عدم تفاعله مع المُجتمعات الإنسانيَّة قاطبة؛ فالذي اعتمده اليهُودي هُو الكنيس والتَّوراة المنحولة والتّلمُود، وهُم وطن اليهُودي وقضاء يَهْوَه وأوامره على الأرض من قَتْل وإبادة جماعيَّة. هُناك بشر غير قادرين على مُقاربة الله: إنَّهم نوع البشر الذين ليس لديهم أيُّ مُعتقد دينيٍّ ولا علميٍّ ولا تقليديٍّ مثل آخر الأتراك في أقصى الشّمال، والزُّنُوج في أقصى الجنوب والذين يُشبهونهم في مناخاتها. هؤلاء يُعدُّون مثل حيوانات غير عاقلة: فأنا لا أُصنِّفهم في مُستوى البشر؛ إذْ إنَّهم من بين الكائنات الحيَّة صنفٌ أدنى من البشر وأعلى من القرد. بما أنَّ لديهم وجه وملامح الإنسان وفطنة أعلى من القرد، هذا ما قاله ابن ميمُون، وهُو عَلَمٌ من أعلام اليهُوديَّة الحاخاميَّة. فلنُبحر معاً لاستكشاف ما خفي.

86) **مُناهضة السَّاميَّة تاريخها وأسبابها، برنار لازار، ترجمة: د. ماري شهرستان، 2004.**

يُشكِّل هذا الكتاب مُساهمة أساسيَّة في سعة مراجعه ومنهجيَّته. وإنَّ تغييب هذا النّصّ وعدم معرفته تُشكِّل - بحَدِّ ذاتها - فضيحة. قال اليهُود عنه - وهُو يهُودي أيضاً - إنَّ لازار مُناهض للسّاميَّة. لكنَّه يقول: اقرؤوا، وستجدوا أنِّي كتبتُ بتجرُّد - بحياديَّة - دراسة تاريخيَّة اجتماعيَّة. تحدَّث فيه المُؤلِّف عن أسباب مُناهضة السّاميَّة الحقيقيَّة مُنذُ القديم حتَّى العصر الحديث. فتكلَّم عن الهكسُوس والرَّواقيِّين ورُوما وأنطاكية واصطدام الدّيانة الرُّومانيَّة باليهُوديَّة، ومن ثَمَّ بالمسيحيَّة، ثُمَّ اصطدام الكنيسة في القرن الثّامن باليهُوديَّة، ثُمَّ تحدَّث عن محاكم التّفتيش، عن اليهُود وتعذيبهم وقَتْلهم ردّاً على ما كانوا يفعلون من جرائم، لعلَّ أبسطها تسميم المياه كي يموت المسيحيُّون في الغرب... ثُمَّ فصَّل في الأدب المُناهض لليهُوديَّة، ثُمَّ تحدَّث عن الثّورة الفرنسيَّة والثّورة الرُّوسيَّة وأثر اليهُود فيهما... وفصَّل المُؤلِّف في حديثه عن العِرْق اليهُودي وعن القوميَّة ومُناهضة السّاميَّة وعن الرُّوح الثّوريَّة في اليهُوديَّة وعن اليهُود وتحوُّلات المُجتمع... وخَتَمَ بالحديث عن مصير مُناهضة السّاميَّة (إنَّه كاتب يهُوديٌّ حياديٌّ يفضح اليهُوديَّة).

87) **خارقيَّة الإنسان الباراسيكُولُوجي من المنظور العلمي، د. صلاح الجابري، ط1 2004 وط2 2006.**

مُنذُ القرن السّابع عشر وحتَّى بدايات القرن العشرين فَقَدَ العلمُ شفافيَّته، وراح ينأى مُبتعداً عن كُلِّ همسة رُوحيَّة أو لمسة شاعريَّة للكون، والتصق - أكثر فأكثر - بأقسى جوانب الطّبيعة صلابة، وبأكثر قوى العقل البشريّ بُعْداً عن المواهب الحدسيَّة النّافذة إلى صميم الأشياء. كان لتلك الرُّؤية نتائج فلسفيَّة وخيمة على الإنسانيَّة؛ لأنَّها جمّدت عواطف الإنسان، وأغلقت منافذه الرُّوحيَّة بجُدُرٍ صلبة، فأفقدتْهُ طابعه الإنسانيَّ الحقيقيَّ، فكان لذلك انعكاسات نَفسيَّة سُلُوكيَّة، نما في إطارها الدّافع العُدواني المدفوع بمُيُول حُبّ الذّات المُوجَّهة باقتصاديَّات السُّوق، وحُبّ الثّراء السّريع على حساب القيَم الرُّوحيَّة التي بدأت تتراجع مكانتها في نَفْسيَّة الإنسانيَّة، وحلَّت محلَّها قيَم اللّيبراليَّة، التي تفتقر إلى أيّ أسلوب أو آليَّات لمُعالجة الانحراف الإنساني وإيقاف قَتْل الإنسان لأخيه. علم السّاي من العُلُوم الجديدة التي ظهرت حديثاً على السّاحة العلميَّة، والاسم الشّائع لهذا الحقل هُو الباراسيكُولُوجي، ويُسمِّيه بعضهم السّيكُوترُونيك، والقُوَّة الأساسيَّة التي يُفترض أنَّها تُسبّب ظواهره تُسمَّى قُوَّة ساي Psi. تظهر قُوَّة ساي بأشكال مُتعدِّدَة، ففي بعض الأحيان تتَّخذ شكل قُوَّة إدراكيَّة - تخاطر، جلاء بصريّ (استشفاف)، تنبُّؤ بالمُستقبل - وأحياناً؛ تتَّخذ شكل التّأثير على الأشياء المادّيَّة بكُلِّ أشكالها. والقُوَّة الإدراكيَّة لـ ساي هي نوع من الاتِّصال بين الأحياء على شكل تخاطر، أو بين الأحياء والبيئة على شكل استشفاف (جلاء بصريّ)، وقد يأتي التّخاطر والجلاء البصريُّ على شكل تنبُّؤ بالأحداث قبل وُقُوعها. يهدف الكتاب إلى إيضاح طبيعة الدّليل الذي يُقدِّمه الباراسيكُولُوجي لإثبات واقعيَّة ظواهر ساي، ويُؤكِّد - علميّاً وفلسفيّاً - أنْ ليس كُلّ المتنبِّئين موهُوبين حقيقة، بل يدخل ضمنهم المُشعوذُون والدَّجّالون والسَّحَرَة، علماً أنَّ السِّحْر لا يدخل في إطار القوى أو المَلَكَات الباراسيكُولُوجيَّة، وأنَّ الباراسيكُولُوجي كأيِّ علم آخر - انتزع نفسه من رُكام هائل من الظّواهر المُختلفة وأعمال السِّحْر والكَهَانة بفضل الطّريقة العلميَّة والتّحقّق التّجريبيّ.

88) **القتل من أسفار اليهود وبروتوكولات حكماء صهيون إلى فارس بلا جواد، مازن النقيب، 2004.**

من نُقطة التّفريق بين أمٍّ يهوديَّة تحمل طفلاً يهوديّاً بريئاً، رفض حافظ (مُحمَّد صُبحي) في مُسلسل فارس بلا جواد أنْ يُفجّر مكاناً اجتمع فيه حاخامات اليهود؛ لأنَّ فيه طفلاً بريئاً، من هذه النُّقطة وُلدت فكرة الكتاب، يشرح الكتاب - بشيء من التّفصيل - القتل، العُنصُريَّة، سَلْب حُقُوق وأرواح غير اليهود، من خلال الغوص في التّوراة، والتّلمُود، وبرُوتُوكُولات حُكماء صِهْيَوْن. فاليهُود - وحدهم - بشر، والشُّعُوب الأخرى حيوانات مُسخَّرة لخدمتهم، ولا يترتَّب أيُّ عقاب على يهوديٍّ يقتل غير يهوديٍّ، قَسَمُ اليهُوديِّ لغير اليهوديِّ غير مُلزم، ألم يقل شارون يوماً: أمنيتي احتلال القاهرة ودمشق، وأتنزَّه - عسكريّاً - في لُبنان، الفلسطينيُّون من السّهل مُحاصرتهم وإبادتهم، إنَّهم في فمنا، أمَّا المصريُّون والسُّوريُّون فمازالوا خارج أيدينا، ويجب أنْ يكونوا في أيدينا أوّلاً، ثُمَّ في فمنا ثانياً، بعدها؛ يُمكن أنْ نقول (إسرائيل) قد حققت أمنها؟ يقولون: إنَّ الصّهاينة لديهم 24 برُوتُوكُولاً، نفَّذوا منها 19 برُوتُوكُولاً، انتهت بأحداث 11 أيلول في الولايات المُتَّحدة، كما يتعرَّض الكتاب إلى البرُوتُوكُولات ويشرحها - بشيء من الاختصار - ويُقارن بينها وبين مدى مُطابقتها لما قد تحقَّق منها خلال القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين.

89) **نهاية التّاريخ في الفكر الإسلامي الحديث، علي سكيف، 2004.**

هل وصل سُكَّان الأرض إلى حضارة تفوق حضارتنا الحاليَّة؟ هل شهد كوكب الأرض حضارة مُتقدِّمة أكثر من حضارتنا الحاليَّة اندثرت نتيجة حرب كونيَّة ؟ هل هُناك مخلوقات بشريَّة على كواكب أُخرى؟ هل صحيح أنَّ الكون يتمدَّد ويتوسَّع: وما هي نهاية هذا التّوسُّع؟! هل كان أصحاب الكهف في عصر الرُّومان؟ وهل كان الكهف على هذا الكوكب أم كان خارج الأرض؟! هل الخُلود في الجنَّة والنار أبديٌّ؟ هل صحيح أنَّ يعقوب بن إسحاق هُو إسرائيل وذُرِّيَّته من بعده هُم بنو إسرائيل؟! هل هُناك علامات عن قُرب يوم القيامة لسُكَّان هذا الكوكب؟ هل نشأت المخلوقات البشريَّة على هذا الكوكب أم جاءت وافدة من كواكب أُخرى؟ هل عرف العالم قبلنا الاستنساخ بكافَّة أشكاله وأنواعه؟ هل كان نُوح يعيش في العصر الحجري؟ أم كان عالماً مُتخصِّصاً بعلم الاستنساخ؟ هل هُناك - فعلاً - جنٌّ وشياطين وأبالسة غير مرئيِّيْن؟ أم أنَّ هذيْن المُصطلحَيْن يُعبِّران عن مُصطلحات توراتيَّة.

90) **مُؤامرة الصّمت ختان الذُّكور والإناث عند اليهود والمسيحيِّين والمُسلمين الجَدَلُ الدِّينيُّ الطِّبِّيُّ الاجتماعيُّ القانونيُّ، د. سامي الذّيب، تقديم: د. نوال السّعداوي، 2003.**

تعريف الختان وأهمِّيَّته - الجَدَل الدِّينيُّ - الختان في الفكر الدِّينيِّ اليهُوديِّ - في الفكر الدِّينيِّ المسيحيِّ - في الفكر الدِّينيِّ الإسلاميِّ - الختان والجَدَل الطِّبِّيُّ - الآلام النّاتجة عن ختان الذُّكور والإناث - الأضرار الصِّحِّيَّة لختان الجنسَيْن - المضارُّ الجنسيَّة لختان الجنسَيْن - الفوائد الصِّحِّيَّة المزعومة لختان الجنسَيْن - الختان والجَدَل الاجتماعيُّ - الختان والجَدَل القانونيُّ مع الختان بين المُثُل والإمكانيَّات. تقول الدُّكتورة نوال السّعداوي في تقديمها لهذا الكتاب: هذا الكتاب من الكُتُب الضّروريَّة للمكتبة العَربيَّة. لهذا؛ أودُّ أنْ يُنشَر في بلادنا العَربيَّة. وأنْ يكون في مُتناول الشُّبَّان والشّابَّات والتّلاميذ والتّلميذات في المدارس والجامعات. إنَّه أحد الأسلحة في مجال الثّقافة العامَّة؛ حيثُ تُحرم الأغلبيَّة السّاحقة من الثّقافة الحقيقيَّة؛ حيثُ يفشل نظام التّعليم في تدريب الشُّبَّان والشّابَّات على تشغيل عُقُولهم. تُؤدِّي الهزيمة العقليَّة إلى هزيمة سياسيَّة وعسكريَّة واقتصاديَّة. إنَّ الثّقافة غير مُنفصلة عن السّياسة أو الدِّين أو الحرب، والعقل هُو الذي يُوجِّه اليد التي تُمسك السّيف أو البُندقيَّة.

91) ***العراق أوّلاً حرب إسرائيل الخاطفة على نفط الشّرق الأوسط عمليَّة (شيخينا)، جو فيالز، ترجمة: مروان سعد الدِّين، ط1 2003 وط2 2005.***

إنَّ فكرة سرقة المخزون النِّفطيِّ لشعب آخر ليست ابتكاراً إسرائيليّاً، بل رُبَّما تعود إلى عام 1941، عندما فرض رُوزفلت حظراً كاملاً على تزويد اليابان بالنّفط خلال (الحرب على الإرهاب الأمريكيَّة الأُولى)، ويأتي هذا الكتاب ليفضح عمليَّة « شيخينا » التي خطَّطت لها (إسرائيل) لتُسيطر على نفط العراق، وَسَعَتْ لتحقيقها، لولا الهجمات على مركز التِّجارة العالمي في أيلول 2001، وذلك بعد أنْ عقدت (إسرائيل) العزم على شنِّ اعتداء مُباغت على جنوب العراق، لإحكام السّيطرة على حُقُوله النّفطيَّة الجنوبيَّة، ومن ثَمَّ استخدام خطِّ أنابيب نقل النّفط العَربيِّ الموجود سابقاً

(التّابلاين) لضخِّ النّفط إلى مصافيها في حيفا، كما يُوضِّح الكاتب الأمريكيُّ بأنّه من أجل تنفيذ هذا المُخطَّط سعت
(إسرائيل) إلى التّسلُّل إلى جنوب العراق وشمال السُّعُوديَّة، وكيف مَنَحَتْ بعض المُسلمين الشّيعة ـ دُون أنْ يدروا بأ
(إسرائيل) وراء هذا التّخطيط ـ ممرّاً مجّانيّاً إلى بُلدان أُخرى، بعيداً عن عدوِّهم صدّام حُسين، ويُبرز الأمريكي فيا
كيف تمَّ التّخطيط لما سُمّي بعمليَّة « حُرِّيَّة العراق »، وهي الجُزء الثّاني من عمليَّة « شيخينا »، وكيف سيتمُّ قَطْعُ رأس
صدّام حُسين وتعيين جي غارنر الذي هُو عُضو في المعهد اليهُوديِّ لشُؤُون الأمن القوميِّ، ليكون حاكماً عسكر
للعراق، ثُمَّ سيأتي دور أحمد الشّلبي كإداريٍّ مُؤقَّت للعراق، على أنْ يتمَّ ـ فيما بَعْدُ ـ إبدال الرّئيس السُّوريِّ بشّار الأس
بالأخ الأصغر لأحمد الشّلبي، وإذا رفضت سُوريَّة هذا، فإنّه سيجري تدميرها وإعادتها إلى العصر الحجريِّ، ولكنْ
تسر الأُمُور كما خُطِّط لها..، تفاصيل دقيقة ومُثيرة وسرِّيَّة يكشفها الكاتب الأمريكيُّ جُو فيالز في ثنايا هذا الكتا
المُدعَّم بالصُّور والخرائط اللاّزمة.

92) ***الحُكْمُ بالسِّرِّ التّاريخ السِّرِّيّ بين الهيئة الثُّلاثيَّة والماسُونيَّة والأهرامات الكُبرى مَنْ يحكم أمريكا والعالم سرّاً؟***
جيم مارس، ترجمة: مُحمَّد مُنير إدلبي، ط1 2003 وط2 2003 وط3 2004 وط4 2005.

في هذا الكتاب المُذهل يقوم الكاتب الأمريكيُّ المشهور وكاتب صحيفة نيُو يُورك تايمز والمبيعات الحائزة على أف
المبيعات جيم مارس باستكشاف وتمحُّص أكثر أسرار العالم خفاء. وذلك بكَشْف الأدمغة المُسيطرة المُختبئة، من خ
مُحاولة للوُصُول إلى جُذُور الحقيقة؛ حيثُ يقوم بإماطة اللّثام عن البراهين بأنَّ أصحاب الأمر الحقيقيِّين ومُح
الأحداث في العالم هُم الذين يتمكّنون ـ عادةً ـ من التّسبُّب باندلاع الحُرُوب وإيقافها. كما يتحكَّمون بأسواق الأ
الماليَّة ونسَب الفوائد على العُملات، كما يُحافظون على تفوُّقهم الفئويِّ، حتّى إنّهم يُسيطرون على الأخبار اليوميَّة.
يقومون بذلك كُلِّه تحت رعاية وأنظار مجلس العلاقات الخارجيَّة الأمريكيِّ والهيئة الثُّلاثيَّة، والمُخابرات الألمانيَّة
CIA، وحتّى الفاتيكان. من خلال تقصِّيه للبراهين التّاريخيَّة، ومن خلال بحثه المُحكَم، يقوم مارس ـ بعناية ـ بت
الألغاز التي تربط بين هذه المُؤامرات المُعاصرة لنا بالتّاريخ القديم للبشريَّة. والنّتيجة المُذهلة هي تحليل رائع لمُع
تاريخيَّة (كثير منها كان مخفيّاً عن جُمهُور النّاس) وهي تُلقي ضوءاً على المُنظَّمات السِّرِّيَّة التي تحكم شُؤُون حياتن
الأشياء المُثيرة في الكتاب: ما هي مُنظَّمة الهيئة الثُّلاثيَّة السِّرِّيَّة. ما هي مُنظَّمة المعهد المَلَكيِّ البريطانيِّ. ما هي مُ
الإليوميناتي. ما مُنظَّمة دير صِهْيَوْن. ما هي علاقة اليهُود وأساطين عائلاتهم المصرفيَّة الثّريَّة بهذه المُنظَّمات. و
الماسُونيَّة، وما علاقتها بهذه المُنظَّمات. ومَنْ يحكم ـ فعْليّاً ـ أمريكا. ما هي مُنظَّمة مجلس العلاقات الخ
الأمريكيِّ. آل رُوكفلر. آل مُورغان. آل رُوتشيلد. أسرار المال ونظام الاحتياط الفيدراليِّ. المعهد المَلَكيُّ للشُّؤُون ا
(المائدة) المُستديرة، رُوديس ورَسكين، ما هُو جبل الحديد، الخليج العَرَبيّ والحُرُوب للسّيطرة عليه، حرب
1991، وأسبابها الحقيقيَّة. بُوش الجَدُّ وبُوش الأب وبُوش الابن والنّفط. فيتنام. كينيدي وأسباب اغتياله،
الكُوريَّة. النّازيَّة. بِرُوتُوكُولات حُكماء صِهْيَوْن. هتْلَر. اليابان. الحرب العالميَّة الثّانية. الحرب العالميَّة الأُولى.
الرُّوسيَّة. بُرُوز الشُّيُوعيَّة. الحرب بين الولايات الأمريكيَّة. مُنظَّمة الفُرسان السِّرِّيَّة. الماسُونيَّة. الثّورة الف
اليعقُوبيُّون، الجيمسيُّون. فرانس بيكُون وأتلانتيس الجديدة. الثّورة الأمريكيَّة. الإليُوميناتي (المُستنيرون). الماسُو
المسيحيَّة. الرُّوزيكروشيُّون. فُرسان الهيكل المُقدَّس. الحشّاشُون. مصرفيُّو وبُناة فُرسان الهيكل. الكاثاريُّون.
الصّليبيَّة. مُنظَّمة دير صِهْيَوْن. الميرُوفينجيُّون. الطّريق إلى رُوما. القَبَالاة. الغنُوسطيَّة. الإيسيُّون. الأسرار
القديمة. التّناسُخ في العالم القديم (زمن نُوح). أصل الإنسان. مُوسى. كُلُّ الطُّرُق تُؤدِّي إلى سُومر. الأناكيُّون.
والحُرُوب و..و. هذا الكتاب (الحُكم بالسِّرِّ) ـ بما فيه من طبيعة مُقلقة ومُثيرة وحافزة بشدَّة ومُجبرة على التّفكير ـ
رُؤية عالميَّة فريدة بإمكانها أنْ تُفسِّر لنا حقيقة عالمنا، وما هي أُصُولنا؟ وإلى أين نتّجه؟..

93) ***الماسُونيَّة والمُنظَّمات السِّرِّيَّة ماذا فعلت؟ ومَنْ خَدَمَتْ؟ عبد المجيد همّو، ط1 2003 وط2 2004 وط3 2005.***

الكَهَنُوت الأعلى في طيبة ـ القُوَّة الخفيَّة اليهُوديَّة ـ جماعة الآلهة ميترا وعبادتها ـ الغنُوصيَّة العرفانيَّة ـ الحَ
النُّورانيُّون ـ البابيَّة ـ البهائيَّة ـ فُرسان الهيكل ـ الغاردُونا جماعة الصّليب الورديّ ـ الفحّامون ـ أحباب الملاك ا
الخصّاؤن ـ الماسُونيَّة: أصلها ـ نُشُوءها ـ تعريفها ـ من أين اسمها؟ ـ محافلها ـ وأسماء ماسُونيَّة عالميَّة وعَرَبيَّ

التي يُقسمها المُنتسب للماسُونيَّة ـ ما الامتحانات؟ وما الاختبارات التي يخضع لها؟ الماسُونيَّة والسِّياسة ـ التَّجنيد لصالح اليهُود ـ علاقة الماسُونيَّة بالقَبَالة وبالتلمُود ـ مُحاربة الأديان ـ التَّوراة ولا شيء غيرها ـ مُحاربة الأمم ـ كيف سقطت الإمبراطُوريَّة الرُّوسيَّة ـ كيف تفجَّرت الثَّورة الفرنسيَّة ـ إعادة اليهُود إلى فلسطين ـ بناء الهيكل ـ الماسُونيَّة والتَّنظيم ـ الماسُونيَّة الرَّمزيَّة ـ كيف أُقيم أوَّل محفل ـ محافل أُورُوبة ـ محافل أمريكا ـ محافل البلاد العَرَبيَّة ـ مشاهير الماسونيِّين من الشَّرق والغرب اللُّوثريَّة ـ البيُوريتانيَّة ـ أحبَّاء صِهْيَوْن ـ شُهُود يَهْوَه ـ الرُّوتاريَّة ـ بْنَاي بْريت ـ الدُّونمة ـ الاتِّحاد والتَّرقِّي ـ العلْمانيَّة ـ الاشتراكيَّة العلميَّة ـ الاتِّحاد اليهُوديّ العامّ ـ الرِّيفُورم بلُوتُو ـ أنوشيت ـ ترُويد رست. كتاب يجمع مُعظم المُنظَّمات السِّرِّيَّة العالميَّة، ويشرح كيف يتمُّ الانتساب لهذه الجمعيَّات. كتاب يسدُّ فجوة في المكتبة العَرَبيَّة، ويُعرِّي ويفضح اليهُود الذين كانوا السَّبب الأهمَّ وراء تأسيس مثل هذه المُنظَّمات السِّرِّيَّة.

94) ***الحقيقة بين النُّبوءة والسِّياسة التَّوراة الأناجيل نوستراداموس القُرآن الكريم، مُحمَّد نضال الحافظ، ط1و2و3/2002 وط4 2004.***

هل كان انهيار بُرجَيْ مركز التِّجارة العالمي نُبوءة؟ ما مصير مَنْ دعا إلى ضرب مكَّة المُكرَّمة بقُنبلة نوويَّة؟ ما هي العلاقة بين العراق الآن وبابل زمن نبُوخذ نصَّر؟ ما قصَّة النُّبوءات في آخر الزَّمان؟ ما هي تلك النُّبوءات الإنجيليَّة والتَّوراتيَّة والقُرآنيَّة؟ وما علاقتها بالسِّياسة العالميَّة؟ ماذا يفعل اليهُود والمسيحيُّون والمُسلمون تجاه نُبوءاتهم؟ كيف تبدو نهاية اليهُود و(إسرائيل) من خلال التَّوراة والتَّلمُود والأناجيل ونُوستراداموس والقُرآن الكريم؟ العراق وبابل واليهُود ونُوستراداموس، هل نسي اليهُود كيف أسرهم نبُوخذ نصَّر وسباهم إلى بابل؟ هل يُحاول اليهُود (أمريكا ـ بريطانيا) الانتقام من العراق؟ هل من المُمكن أنْ تكون هُناك ضربة نوويَّة للعراق؟ المسيحيَّة الصِّهْيَوْنيَّة ـ نشأتها ومشاهيرها، برُوتوكُولات حُكماء صِهْيَوْن، السِّياسيُّون الأمريكيُّون ونُبوءات التَّوراة والأناجيل ونُوستراداموس، معركة هرمجدون والحرب العالميَّة النَّوويَّة الثَّالثة، المُؤامرات اليهُوديَّة الأمريكيَّة، فلسطين واليهُود والتَّوراة والتَّلمُود ونُوستراداموس، هل بدأ يوم القيامة؟! لنتعرَّف الحقيقة المُذهلة من خلال كتاب الحقيقة بين النُّبوءة والسِّياسة.

95) ***الفقه السِّياسيُّ الإسلاميُّ، د. خالد الفهداوي، ط1 2003 وط2 2005.***

في هذا الزَّمن وفي هذا الوقت بالذَّات غدت الحاجة مُلحَّة جداً جداً من أجل وضع قواعد لتأسيس فقه سياسيٍّ إسلاميٍّ، بعد أنْ أُشبع الفقه العادي إنْ صحَّ التَّعبير؛ أيْ فقه المُعاملات وفقه العبادات، تأسيساً ومنهجيَّة. يتناول الباحث ـ تاريخيّاً ـ السِّياسة الإسلاميَّة مُنذُ عُمَر بن الخطَّاب، مُروراً بأبي حنيفة وابن خلدون والشَّاطبي وابن تيميَّة والماوردي والغزالي، وُصُولاً إلى المدرسة التَّجديديَّة المُعاصرة. ويُعلِّل لماذا الحاجة إلى قواعد فقه سياسيٍّ إسلاميٍّ. ثُمَّ يُوضِّح ما هي أسباب تعطيل الفقه السِّياسيِّ الإسلاميِّ ومظاهره. ويُعرِّج على العلمانيَّة والاستشراق والخلافة والمُلك وإلى دَور الجامعات الإسلاميَّة في إغناء الفقه السِّياسيِّ. كما يرتدُّ الباحث إلى بحث فقه السِّياسة عند الأنبياء نُوح وإبراهيم ومُوسى وعيسى، ويبحث في نحو قواعد مُوصِّلة للتَّفسير السِّياسيِّ للقُرآن الكريم. ومن ثَمَّ يصل إلى فقه هذه المرحلة التي نعيشها؛ أيْ قواعد الحرب والسَّلام. ويبحث في مُصطلحات عديدة مثل: الجهاد ـ القتال ـ السَّلام ـ الحرب ـ وكيفيَّة ضبط كُلٍّ من هذه المُصطلحات في القُرآن والسُّنَّة. كما يتطرَّق ـ بشيء من التَّفصيل ـ إلى قواعد السَّلام والحرب في مرحلة الاستضعاف (مثال السَّلام مع الكيان الصِّهْيَوْني بين الشَّرع والواقع). ويصل إلى بحث قواعد الحرب والسَّلام في مرحلة العالميَّة، ويبحث في الدِّيمقراطيَّة والمجالس النِّيابيَّة وحُقُوق الإنسان والسَّلام العالمي من ميزان الفقه السِّياسيِّ الإسلاميِّ. ويُعرِّج إلى قواعد الحرب والسَّلام في ضوء المُتغيِّرات السِّياسيَّة، ويُبيِّن قواعد الفقه السِّياسيِّ الإسلاميِّ بين الثَّوابت والمُتغيِّرات. ويتناول العولمة والآخر، وهل ما يحدث الآن هُو حوار حضارات أم صدام حضارات؟ كما يبحث في المُجتمع المَدَنيِّ والإرهاب والمُنظَّمات الدَّوليَّة والفقه السِّياسيِّ والسُّلطات الثَّلاث، مُفصِّلاً في الخلافة والإمامة والسُّلطان والملك، وأهل الحلِّ والعقد ومجلس الشُّورى والنِّظام الوراثي، والطَّائفيَّة والأمَّة ودولة المُؤسَّسات والمرأة والحُقُوق السِّياسيَّة والدُّستور وولاية الفقيه وفقه الدَّولة وفقه الفَرْد، والنِّظام القَبَلي والحوار القوميِّ الإسلاميِّ والحرب الحضاريَّة والحُرِّيَّات العامَّة والتَّعدُّديَّة السِّياسيَّة ومعالم النِّظام الإسلاميِّ العالميِّ، والدِّين والسِّياسة. ثُمَّ يُعدِّد القواعد التي ارتآها تصلح لتأسيس فقه سياسيٍّ إسلاميٍّ.

96) **نزار قبّاني وقصائد كانت ممنوعة في الدّين والسّياسة والجنس ، نضال نصر الله ، ط1و2و2003/3 وط4 2005 .**
نزار قبّاني طفل بردى. طفل البساتين التي نَشَرَتْ وردها وعطرها ذات يوم بين سُور الصّين ومدريد./ سُليمان العيسى/ ـ إنَّ عُمَر بن أبي ربيعة شاعر من قافلة شُعراء التّاريخ العَرَبي؛ لكنَّ نزار قبّاني هُو مدرسة الشّعر العَرَبيّ الحديث، يعيش على رُوحها آلاف الشُّعراء وأجيال من الشّباب المثقّف./ سميح القاسم/ . هذا الكتاب يضمُّ بين دفّتَيْه قصائد مُنعت لنزار قبّاني حين نَظَمَهَا، ثُمَّ تحت ضغط الجماهير العَرَبيّة وحبّها لهذه القصائد أُجيزت، كما يحكي هذا الكتاب قصّة المَنع أو المُصادرة وقصّة الإجازة؛ من هذه القصائد: خُبز وحشيش وقمر ـ هوامش على دفتر النكسة ـ المُهرولُون ـ المُستحمّة ـ مُحاكمة غير شرعيّة ـ بلقيس ـ وغيرها... فمنها قصائد مُنعت بحُجَّة الأخلاق، ومنها بحُجَّة الدِّين، ومنها بحُجَّة المُجتمع والسِّياسة و...

97) **لوعة الشّاكي ودمعة الباكي (من جميل تراثنا) ، المنسوب لصلاح الدّين خليل بن أيبك الصّفدي تح: مُحمّد عايش، 2003.**
العشق والغرام وما يُصاحب ذلك من الوله والهُيام. هذه هي المادّة الأساسيّة للكتاب الذي جمع فيه مُؤلّفه كُلّ مُفردات الحُبّ والعشق والغرام وما يتعلّق بها بأسلُوب السّجع المُوسيقيّ الجميل، مُستخدماً من ذلك الألفاظ البليغة والمُعبّرة للحالة التي يصفها. ثُمّ يُلخّص ذلك بأبيات من الشّعر التي لا تخلو من البراعة ومن مُحسنّات الشعر وفُنُونه. يحكي المُؤلّف ذلك كُلّه من خلاله قصّة يرويها تبدأ بنظرة، وتنتهي بلقاء، ولكنْ؛ ما بين النّظرة واللّقاء آهات وأشجان وزفرات وعبرات وأحداث وتُجريات، ووصف بليغ وصادق لكُلّ ما يُحيط بالقصّة يشدّ القارئ، ويجعله يستمتع بالقراءة. ذلك هُو كتاب: لوعة الشّاكي ودمعة الباكي الذي يُعَدُّ صورة واضحة لواقع الأدب في ذلك العصر. نقول ذلك لأنَّ المُؤلّف الصّفدي ـ فضلاً عن كونه مُؤرّخاً وهُو ما اشتهر به من خلال كتابه: الوافي بالوفيات ـ فقد كان شاعراً وأديباً رقيقاً، فقد وُصف من قبَل بعض مَنْ ترجم له بأنّه: أديب الزّمان والشّاعر المُجيد، وغير ذلك من الألقاب.

98) **سيرة السّلطان النّاصر صلاح الدّين الأيُوبي (النّوادر السُّلطانيّة والمحاسن اليُوسُفيّة) ، بهاء الدّين ابن شدّاد ، تحقيق : د. أحمد إيبش ، ط1 2003 وط2 2005.**
تبقى سيرة البطل الخالد صلاح الدّين الأيُوبي وجهاده وحُرُوبه مع الصّليبيّين، وانتصاره الأكبر في حطّين، وفَتْحه للقُدس، تبقى واحدة من أنصع صفحات تاريخنا العَرَبيّ الإسلاميّ الوضّاء.في هذا الكتاب الرّائع « النّوادر السُّلطانيّة والمحاسن اليُوسفيّة » ينقل لنا المُؤلّف بهاء الدّين ابن شدّاد صُورة حيّة ورواية مُباشرة عن حياة بطلنا الكبير وأعماله وبُطُولاته.. ويُصوِّر لنا، كشاهد عيان ثَبْت صادق، مشاهد مُؤثّرة وعبَرَاً بليغة عن المزايا العظيمة التي تحلّى بها السُّلطان النّاصر صلاح الدّين الأيُوبيُّ، حتّى احترمه الأعداء، بَلْهَ الأصدقاء، فارتفع اسم صلاح الدّين عالياً، ليقترن بأمجاد جهاده، وليقترن بالقُدس الشّريف، وليغدو صاحبه ـ بكُلّ جدارة ـ واحداً من أعظم الشّخصيّات التي أنجبتْهَا أمّتنا العَرَبيّة الإسلاميّة، لا، بل البشريّة جمعاء على امتداد تاريخها.وكفى سُلطاننا صلاح الدّين فخراً أنَّ الشّهادة بفضله ونُبله وتسامحه، فضلاً عن شجاعته وقُوّته وحكمته، كانت قد صدرت عن أعدائه قبل أصدقائه وأتباعه.إنَّ سُلطاننا النّاصر صلاح الدّين واحد من الذين يُقال فيهم: إنّهم نسيج وحدهم.

99) **السّيف الأحمر دراسة في الأُصوليّة اليهُوديّة المعاصرة ، د. جمال البدري ، 2003.**
الصّهيْونيّة انعكاس لليهُوديّة، و(إسرائيل) انعكاس للصّهيْونيّة. ـ الأحزاب الدّينيّة الإسرائيليّة هي القاسم المُشترك بين اليهُوديّة والصّهيْونيّة و (إسرائيل). . ـ إنَّ الوظيفة القوميّة لهذه الأحزاب تجسيد لجوهر الرُّؤية اليهُوديّة الصّهيْونيّة، وليس ـ هُناك ـ فرق استراتيجيٌّ بين اليسار / اليمينيّ/ الوسط، فكُلّها تتبنّى الرُّؤية التلمُوديّة. ـ ما هي السّمات والاتّجاهات التّاريخيّة للدّيانة اليهُوديّة؟ ـ ما هي السّمات الأساسيّة للفكر الدّينيّ الإسرائيليّ؟ ـ ما هي الاتّجاهات اليهُوديّة الحديثة قبل الحركة الصّهيْونيّة؟ ـ نشأة وتطوُّر الأحزاب الدّينيّة الإسرائيليّة. ـ نشأة الحركة الصّهيْونيّة في أُورُوبا. ـ التّطبيقات الإيديُولُوجيّة للأحزاب الدّينيّة الإسرائيليّة. ـ حركة غوش ايمُونيم الثّيُوقراطيّة والدّيمُقراطيّة الصّهيْونيّة. ـ ما هي الوظيفة القوميّة للأحزاب الدّينيّة الإسرائيليّة في إطار الصّراع العَرَبيّ الصّهيْونيّ؟ ـ التّهجير والاستيعاب ـ الوظيفة الأمنيّة والعسكريّة. ـ تعداد الشّخصيات الدّينيّة الرّئيسيّة اليهُوديّة الإسرائيليّة. ـ المُنظّمات الدّينيّة الجديدة وصُعُود العُنْصُر الدّينيّ بعد 1967. ـ توسُّع الجيش الإسرائيليّ في تجنيد المُتطرّفين اليهُود. ـ تعداد أحزاب الكيان الصّهيْونيّ التي تخوض انتخابات الكنيست.

100) **مثلث الدم شارون أمس ، اليوم ، غداً ، د. جمال البدري ، 2003 .**
إنّ اريك شارُون أو اريل أو ارئيل بقدر ما هُو فَرْد واحد في المؤسّسة الإسرائيليّة الحاكمة، فهُو - أيضاً - رمز لهذه المؤسّسة؛ رمزٌ سلبيٌّ بالنّسبة لنا، ورمزٌ إيجابيٌّ « ماشيح « بالنّسبة لهم. - الماشيح اليهُوديُّ، والعصر الماشيحانيُّ. - المجموعة الماشيحانيّة « مُواطنو الدّرجة الأولى «. - حاييم وايزمن - إسحاق بن زفي - زالمان شازار - افرام كاتزر - إسحاق نافون - حاييم هيرتزوغ - ديفيد بن غُوريُون - مُوشي شاريت - ليفي أشكُول - غُولدا مائير - إسحاق رابين - مناحيم بيغن - إسحاق شامير - شيمُون بيريز - نتنياهُو - براك - اريل شارُون - اريل شارُون من الوحدة 101 حتّى الكيلو 101 . - شارُون فوق القانون !! - شارُون و(إسرائيل) الكُبرى. - الظّاهرة الشّارُونيّة ومُستقبل (إسرائيل).

101) **هندسة القُرآن دراسة فكريّة جديدة في تحليل النّصّ ، د. جمال البدري ، 2003 .**
القُرآن هُو صوت الله الخالد الذي يُلائم الطّبائع البشريّة المُتّزنة مع الحياة، وإنّ وُجود القُرآن استمرار للنُّبُوّة. - التّفسير والتّأويل. القُرآن أُنزل من أجل الإنسان، وليس للملائكة والجان. - خصائص التّحليل القُرآنيّ بـ عُلُوم القُرآن. - لماذا الدّائرة في هندسة القُرآن؟ وما هي نماذج هذه الدّائرة؟ - سُورة الشّمس - سُورة اللّيل - سُورة الضُّحى. - كيف نُطوّر الرّبطَ بين الرّقم والكلمة؟ - ما هي العلاقة بين الدّائرة والرّقم؟ - نماذج تطبيقيّة من التّحليل القُرآنيّ. - سُورتا الفاتحة والبقرة - سُورة الإخلاص - سُورة العَلَق. القُرآن والمُستقبل. إذنْ؛ الهندسة هي تفاعل أصيل بين الكلمات والأرقام مُكوّناً صُورة مُعبّرة ومُنظّمة، صُورة فيها جماليّة الكلمات ودقّة الأرقام، ولكنّها ليست كلمة ولا رَقماً، بل هي هندسة بموجب مفهومنا في هذا المجال، فإذا كانت الهندسة كلاماً كانت هندسة كلاميّة، أو كلاماً مُهندَساً، والقُرآن كلام الله هندسة مُقدّسة، فيه مُواصفات الجمال والدِّقّة.

102) **كيف صَنَعَ اليهود الهُولوكوست؛ نُورمان فنكلشتاين ، ترجمة : د. ماري شهرستان ، ط1 2003 وط2 2006 .**
قال الحاخام آرنولد جاكوب فُولف مُدير جامعة دي يال:"يبدو لي أنّهم يبيعون الهُولوكُوست عوضاً عن أنْ يُعلّموه". إنّ هذا الكتاب هُو في - آن واحد - تشريح واتّهام لصناعة الهُولوكُوست. إنّه يُؤكّد أنّ الهُولوكُوست هُو تقدمة إيديُولُوجيّة للهُولُوكُوست النّازيّ. إنّ إحدى أكبر القُوّات العسكريّة وأعظمها في العالم؛ وحيثُ إنّ فيها انتقاصات حُقُوق الإنسان هائلة قدّمت نفسها كبلد ضحيّة. وقد جنت أرباحاً وفوائد هائلة عن هذا الوضع - الضّحيّة الذي لا مُبرّر له. وخُصُوصاً الحصانة في مواجهة النّقد حتّى الأكثر ثُبُوتاً وسناداً. يقول فنلكشتاين: كان أهلي يندهشون - غالباً - عندما يجدون أنّني مُستنكر - إلى حدّ كبير - تزوير واستغلال الإبادة النّازيّة - الجواب الوحيد والأبسط هُو التُّهم التي يستعملونها لتبرير السّياسة الإجراميّة لدولة (إسرائيل) ودَعْم الولايات المُتّحدة لهذه السّياسة. هُناك - أيضاً - دافع شخصيٌّ؛ إنّه الحملة الحاليّة لصناعة الهُولُوكُوست الهادفة إلى ابتزاز المال من أُورُوبة على حساب الضّحايا المُحتاجين للهُولُوكُوست، وضعت استشهادهم في مُستوى أخلاقي لكازينو مُوناكو. نُورمان ج. فنكلشتاين يهُوديٌّ يفضح كيف صَنَعَ اليهُود الهُولُوكُوست، وكيف يستثمرونه، وكيف يخدعون به الدُّنيا وأُورُوبة وأمريكا.

103) **التّمييز ضدّ غير اليهُود في (إسرائيل) مسيحيّين كانوا أم مُسلمين ، د. سامي الذّيب ، ترجمة : د . ماري شهرستان ، 2003 .**
إنّ هذا الكتاب يُساهم في فَهْم أفضل لألم الشّعب الفلسطينيّ، ويُؤكّد أنّه لن يكون لدورة العُنف (النّضال الفلسطينيّ) نهاية مادامت سياسة (إسرائيل) مُتمثّلة ومُتجسّدة بقوانين ومُمارسات قضائيّة، التي هي باستمرار ضدّ غير اليهُود لن تُعدّل. إنّ هذه الدّراسة تجعلنا نتلمّس بالإصبع نَهْج الاعتداء المُستمرّ على حُقُوق الإنسان، فيُؤكّد - في البداية - مفهوم الحُرّيّة الدّينيّة، ثُمّ يتحدّث عن التّرحيل والتّدمير بعد 1948م و 1967م، ويتحدّث عن حُقُوق غير اليهُود 1948م و 1967م، وكيف يُحرّف اليهُود العدالة، ويتّخذون القمع وسيلة ضدّ غيرهم، ثُمّ يتساءل أيّ مُستقبل منشود لغير اليهُود؟

104) **تطوُّر العُلُوم عند العرَب (الشّيخ والقارورة) ، د. إسماعيل الرُّبيعي ، 2003 .**
يتحدّث هذا الكتاب عن نشاط العُلُوم والمُؤثّرات، وعن نُشُوء الفكر الفلسفيّ في المجال العَرَبيّ الإسلاميّ، كما يتحدّث عن الطّبّ العَرَبيّ، ويُعدّد أهمّ الأطبّاء العَرَب والمُسلمين، وعن الرّياضيّات وأهمّ عُلمائها من العَرَب والمسلمين، وعن الكيمياء وعُلمائها، والفَلَك وعُلمائه.

105) **تحوُلات الذّات الثّقافي العَربيّ مُقاربات معرفيَّة ، د. إسماعيل الرُبيعي ،** 2003.
ما من أمّة شغوفة بلَعْن الظّلام مثل العَرَب. فالجميع حانق وغاضب يُمارس عادة كيل الشّتائم، وجَلْد الذّات، والبُكاء على الأطلال، وفوات الفُرص، وغياب العدالة الاجتماعيَّة، وانعدام الحُرّيَّات، والتّفرقة العُنْصُريَّة والطّائفيَّة. إنَّ استمرار الوعي الذّاتيّ لدى العَرَب يجعلهم يعيشون خارج السّياق التّاريخيّ. فالتّصوُّرات والرُّؤى عالقة في مداها من دُون إحساس بعناصر التّغيُّر والتّحوُّل، فالتّقليد هُو الموئل الذي لا فكاك ولا خلاص منه. إذنْ؛ أين العَرَب من أسئلة اللّحظة الرّاهنة؟! يبحث المُؤلِّف في نَقْد العقل، وتحوُّلات الذّات (العالم وفواصل التّغيير)، وتُحدِّدات التّغيير. (الطّغاة والطُّغيان). فاتورة الأحقاد. قياس درجة الكراهية. الوعي بالخُصُوصيَّات. ترسُّبات الماضي. ما يُنتجه الواقع. مُوجِّهات التّغيير (في صُلب الوظيفة المفاهيميَّة). سيمُولُوجيا الوطنيَّة. ما بعد الوطنيَّة. مُعيقات التّغيير. كيف نستخدم التّاريخ؟ الوعي مُتّهماً. من الأحداث إلى التّأمُّل. معيارا الذّاتيّ والموضوعيّ. بعيداً عن الأحداث؛ قريباً من الخطاب. الحَدَث تمثيل للتّاريخ ومُحرِّك له. تفكيك الخطاب الثّقافيّ العَربيّ (الحَدَث الكبير يُولِّد الأسئلة الكُبرى). الحادثات تترى، واللّوك لا ينقطع. ما بعد المُثقَّف. الجاحظ. ترميم بُرج بابل. الرّجل الذي فَقَدَ أزرار معطفه. تداخلات الوظيفة النَّقْديَّة. محنة المُثقَّف. مُحاولة الاقتراب من مُكوِّنات الخطاب الثّقافيّ العراقيّ المُعاصر (المحنة موقعاً). سيل من أسئلة جارفة ومُحاولات جادَّة للإجابة عنها؛ هذا هُو الكتاب الذي بين أيدينا.

106) **مائير كاهانا وغُلاة التّطرُّف الأُصوليّ اليهُوديّ ، رفائيل ميرجي وفيليب سيمون ، ترجمة : عائدة عم علي ،** 2003.
من أقوال كهانا: الدِّيمقراطيَّة والصّهيُونيَّة لا تتعايشان معاً. .اليهُوديَّة مُختلفة ـ كُلّيَّاً ـ عن الدِّيمُقراطيَّة. النّاس في هذا البلد (إسرائيل) مَرْضَى، مَرْضَى فكريّاً، وبالنّسبة لي لا يُوجد هُناك إسرائيليُّون، يُوجد يهُود، بعضهم يعيش في (إسرائيل) وآخرون يعيشون في ... إنَّ هُناك شعباً يهُوديّاً، ولأنَّ هُناك شعباً يهُوديّاً فإنَّ لدينا الحقّ في المجيء إلى هذا البلد وسَلْبه من العَرَب. إنَّ شارُون سيِّئ جدّاً جدّاً، إنَّه كاذب، ولا يملك أيَّة مبادئ أخلاقيَّة، ولا أيَّة مُثُل، بإمكانه أنْ يفعل أيَّ شيء، وأنا أخافه تماماً كما يخافه اليساريُّون. سُؤال إلى كهانا: إذنْ؛ فأنت تتقبَّل حقيقة قَتْل المَدَنيِّيْن العَرَب؟ بالطّبع؛ بالتّأكيد، بالطّريقة نفسها التي أُوافق فيها الإسرائيليِّيْن على قَصْف لُبنان.

107) ***ما بين مُوسى وعزرا كيف نشأت اليهُوديَّة؟ عبد المجيد همُّو ، ط1 2003 وط2 2004.***
مُوسى وبنُو إسرائيل ـ القُرآن الكريم لم يُشرْ إلى اليهُوديَّة في زمن مُوسى ـ العهد القديم لم يُشرْ إلى اليهُوديَّة في زمن مُوسى ـ حقيقة رسالة مُوسى ـ هل العهد القديم كتاب سماويّ؟ متى تمَّ نَسْخ التّوراة وتدوينها؟ توراة مُوسى ـ الألواح وهل هي غير التّوراة؟ الزّبور وداود ـ سُليمان الحكيم ـ إثبات عدم يهُوديَّة إبراهيم وأبنائه ـ وإثبات عدم يهُوديَّة مُوسى والأسباط وداود وسُليمان ـ متى ظهرت اليهُوديَّة في الكتاب المُقدَّس؟ كيف نشأت اليهُوديَّة؟ ـ عزرا ونحميا أنشأ اليهُوديَّة ـ سمات اليهُوديَّة.

108) ***اليهُوديَّة بعد عزرا وكيف أُقرَّت؟ عبد المجيد همُّو ،*** 2003.
تاريخ تدوين الأسفار كُلّها ـ التّوراة والأخلاق ـ المُعتقدات ـ هل هُناك إله واحد يعبده اليهُود؟ أم هُم يعبدون آلهة عدَّة؟ الطُّقُوس ـ الوصايا ـ الوصايا الأخلاقيَّة المُحرَّمات من النّساء ـ وصايا حول الزّنى ـ وصايا مُختلفة ـ الإيمان باليوم الآخر.

109) ***مفاهيم تلمُوديَّة نظرة اليهُود إلى العالم ، عبد المجيد همُّو ، ط1 2003 وط2 2005.***
متى كُتب التّلمُود؟ تعريفه ـ جمعه ـ تأليفه ـ ترجمته ـ أهمّيَّته ـ الرُّدُود عليه ـ التّلمُود والأُمم الأُخرى ـ التّلمُود والمسيحيَّة ـ مسيح اليهُود المُخلِّص ـ التّلمُود والعَرَب موضوعات تلمُوديَّة ـ موقف التّلمُود من يَهْوَه ـ موقف التّلمُود من فلسطين ـ التّلمُود والآخرة ـ التّلمُود والقَبَالة (تطوُّر التّلمُود).

110) ***الله أم يَهْوَه؟ أيُّهما إله اليهُود؟ عبد المجيد همُّو ،*** 2003.
تعدُّد الآلهة عند اليهُود ـ إيل ـ يَهْوَه ـ بعل ـ آلهة أُخرى ـ إيل إله إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب ـ ما صفاته؟ يَهْوَه إله اليهُود: من أين أتى؟ ما صفات يَهْوَه؟: التّسلُّط ـ الجهل ـ حُبُّ الجنس ـ الحزن ـ الكذب... إلخ. هل اليهُود مُوحِّدون؟

111) **الفرق والمذاهب اليهوديَّة مُنذُ البدايات ، عبد المجيد همُّو ، ط1 2003 وط2 2004.**

اليهود وفرَقُهم قبل الإسلام ـ نُشوء اليهوديَّة وانقسامها ـ السّامريَّة ـ الصّدوقيَّة ـ الحسيديُّون. الفريسيُّون ـ الأسنيُّون ـ الغنوصيُّون ـ الكَتَبَة ـ المُتعصِّبون ـ الرَّبَّانيُّون ـ التّلموديُّون ـ القرّاءون ـ مُوسى بن ميمُون ـ الفاءون ـ القبَالة ـ يهود الخزَر ـ الأشكناز ـ اللُّوثريَّة ـ المسيحيَّة اليهُوديَّة ـ شُهُود يَهْوَه ـ الصّهيَوْنيَّة ونشأتها ـ وموضوعات أُخرى مُفصَّلة تفصيلاً دقيقاً تُبيِّن موقف اليهُود من المسيحيَّة، وكيف اضطهدوا المسيح وأتباعه..

112) **المجازر اليهُوديَّة والإرهاب الصّهيَوني مُنذُ ظُهور التّوراة ، عبد المجيد همُّو ، ط1 2003 ط2 2004.**

هذا الكتاب يشرح ـ بوُضُوحٍ ـ ما أحدثه اليهود من مجازر وإرهاب قديماً وحديثاً من خلال كتاب العهد القديم ووقائع الحال على مُرُور التّاريخ حتّى العصر الحديث، من هذه المجازر: مجازر ما قبل مُوسى ـ مجازر نُسبت إلى مُوسى ـ مجازر يشوع ـ القُضاة ـ صموئيل ـ مجازر نُسبت إلى داود ـ مجازر يَهْوَه ـ مدين ـ العجل ـ سنحاريب الطُّوفان ـ إيزابيل ـ ياهو ـ مجازر المكابيِّيْن ـ يهُوديت ـ استر ـ الثّورة الفرنسيَّة ـ البلاشفة ـ مجازر فلسطين قبل الدّولة المُصطنعة ـ الاغتيالات اليهُوديَّة الإسرائيليَّة لزُعماء فلسطين تدمير القُرى في فلسطين من قبل 1948 حتَّى 2000 ـ عبث الصّهاينة بقرارات الأمم المُتَّحدة، وغيرها كثير. كتاب توثيقيٌّ من التّوراة ومن كُتُب اليهُود التي يُؤمنون بها، يُوثِّق القتل والإرهاب اليهُوديَّيْن، وهُو وصمة عار من وُجهة نَظَر الإنسانيَّة في جبين اليهُود، وسجلٌ مُشرِّف من وُجهة نَظَر اليهُود في جبينهم.

113) **الخديعة الكُبرى هل اليهُود. حقّاً. شعب الله المُختار؟ د. مُحمَّد جمال طحَّان ، 2003.**

بماذا وَصَفَ مُفكِّرون أُورُوبيُّون وأمريكيُّون اليهُودَ؟ ما مدى العداء الذي يُكنُّه الصّهاينة للسَّيِّد المسيح أو لنبيِّ الإسلام؟ تقول نيستا ويبستر: إنَّ المفهوم اليهُوديَّ السّائد عن فكرة شعب الله المُختار هُو مفهوم سياسيٌّ محض ابتكره الحاخامات لحَضِّ اليهُود على السّعي الدّؤوب للسّيطرة على العالم، ويُعتبر هذا الشّعار أساس الدّيانة الحاخاميَّة التّلموديَّة، ويأخذ اليهُود بتعاليم التّلمُود كدُسْتُور لهم في الحياة.ـ مَنْ هُم اليهُود؟ ـ مَنْ هُو إسرائيل؟ وصف اليهُود في التّوراة والأناجيل والقُرآن الكريم الماسُونيَّة ـ الدّولة العالميَّة ـ رسالة الحاخام الأكبر في إستانبول لليهُود في أُورُوبا والعالم ـ الأسلحة اليهُوديَّة الرّهيبة.... ـ الكتاب مُوجَّه إلى الذين لا يعلمون حقيقة اليهُود، وإلى الذين يعلمون حقيقتهم من أجل أنْ يُقاوموا ، ويُحاولوا ....

114) **امنحوني فُرصة للكلام ، د. مُحمَّد جمال طحَّان ، 2003.**

ـ اتركْ السّياسة لأهلها، والثّقافة لأهلها، والحُرِّيَّة لأهلها، واكتف بالعيش، ولا تَنَمْ إلا بعد عشاء ثقيل، ولا تنسَ.. اخلع الوعي قبل النّوم. لا.. لستُ غبيّاً.. كُلُّ ما أرجوه منكم أنْ تُقاوموا فكرة إقامة نُصْب تذكاريٍّ لي بعد أنْ أموت.. لماذا؟ لأنَّني لا أريد أنْ أغدو مكاناً أميناً يلجأ إليه مَنْ يريد أنْ يبول.. أنا أكتب.. أنت تقرأ.. هُم يُقتَلون.. وهُو يشجب بنصف صوت، أنا أكتب نَدَمي لأنِّي لم أحترف القتال، وأنت تقرأ وتتألَّم؛ لأنَّ الفعل بيد ذلك الذي يهزأ من نَدَمي ويسخر من ألمك.. ـ ألم يَحِنْ وقت استخدام حقِّ الفيتو على العقل ليتوقَّف بُرهة عن المُسالمة والاستسلام؟! وإذا كان العقل والعقلانيَّة لم يعودا مُجْدِيَيْن، ألا يحقُّ لنا أنْ نُمارس الجُنُون؟! ـ ما الذي جعل الحضارة العَرَبيَّة الإسلاميَّة تذوي؟ ـ هل بإمكاننا إيقاف تبادُل التُّهم والإدانات لنعمل جميعاً على إعادة نهجنا الحضاريِّ الذي انبنى على توفير الحُرِّيَّات الفكريَّة، والتّعدُّديَّة، وتعميق القيَم الإنسانيَّة الخالدة؟! ـ ما المقدار الذي يحمله الإعلام المُعاصر من مسؤوليَّة التّضليل؟! ـ ألا فلنبدأ هُنا، والآن، وبكم، ثُمَّ ليكُن ما يكون....

115) **الرَّحَّالة ك طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، عبد الرّحمن الكواكبي، تحقيق : د. مُحمَّد جمال طحَّان، ط1 2002 وط2 2004 وط3 2005.**

تأتي أهمِّيَّة الكواكبيِّ وأهمِّيَّة كتابه طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد من أجل أنْ نتعلَّم من الماضي كي لا نُلدغ من الجحر مرَّتَيْن، ويأتي نَشْر الطّبائع استكمالاً لدراسة أفكاره التي بدأت في أمِّ القُرى. ويقول : تمحَّص عندي أنَّ أصل الدّاء هُو الاستبداد السّياسيُّ ودواؤه دَفْعُهُ بالشُّورى الدُّسْتُوريَّة. ويقول : (ويُراد بالاستبداد عند إطلاقه استبداد الحُكُومات خاصَّة؛ لأنَّها أعظم مظاهر أضراره). ويقول: إنَّ خوف المُستبدِّ من نقمة رعيَّته أكثر من بأسه؛ لأنَّ خوفه ينشأ عن علمه

بما يستحقُّه منهم، وخوفهم ناشئ عن جهل؛ وخوفه عن عجز حقيقيٍّ، وخوفهم عن توهُّم التّخاذل فقط؛ وخوفه على فَقْد حياته وسُلطانه، وخوفهم على لُقيمات من النّبات وعلى وطن يألفون غيره في أيّام، وخوفه على كُلِّ شيء، تحت سماء مُلكه، وخوفهم على حياة تعيسة فقط.

116) ***أُمّ القُرى مؤتمر النّهضة الإسلاميَّة الأوَّل، عبد الرَّحمن الكواكبي، تحقيق: د. مُحمَّد جمال طحَّان، ط1 2002 وط2 2004.***

الكواكبيُّ واحد من أجدادنا الأفذاذ؛ رُوَّاد النّهضة الذين حاولوا النُّهوض بالواقع إيماناً منهم بمسؤوليَّة العُلماء في توعية النّاس، ليقدروا على المُطالبة بحُقُوقهم بعد أنْ يُدركوا أنَّهم بشر أحرار في صُنْع مصائرهم. ممَّا نادى به الكواكبيُّ في كتابه هذا: يجب ألاّ يُصرَّ أحد على رأيه الذّاتيّ، وألاّ يُمانع في العُدُول عن خطئه ـ سبب الفُتُور هُو تحوُّل السّياسة الإسلاميَّة من ديمُقراطيَّة إلى مَلَكيَّة مُقيَّدة، ثُمَّ إلى مَلَكيَّة مُطلقة ـ إنَّ البليَّة هي فَقْدُنا الحُرِّيَّة، حُرِّيَّة التّعليم والخطابة والمطبوعات والمُباحثات ـ كأنَّ مُجرَّد كون الأمير مُسلماً يُغني حتَّى عن العدل، وكأنَّ طاعته واجبة ولو كان يُخرِّب البلاد، ويظلم العباد ـ إنَّ طاعة أُولي الأمر واجبة، ولكنْ؛ مع العدل، فالحاكم العادل الكافر أفضل من المُسلم الجائر وأَوْلى بحُكْم المسلمين ـ صرنا نتبع الأشخاص بدلاً من التّمسُّك بديننا الحنيف ـ إنَّ المنشأ لكُلِّ فساد هُو انحلال السُّلطة القانونيَّة وتسلُّط فَرْد عليها، فضلاً عن دُخُول ديننا تحت ولاية العُلماء الرّسميِّين؛ أي الجهَّال المُتعمّمين ـ إنَّ الاقتصار على العُلُوم الدِّينيَّة يُضعفُ المُسلمين، ولابُدَّ من دراسة العُلُوم الرّياضيَّة والطّبيعيَّة أيضاً ـ إذْ ترك الخُطباء التّحدُّث في الأمور العُمُوميَّة، وعدّوا ذلك لَغْواً. وهكذا تأصَّل فينا فَقْدُ الإحساس ـ إنَّ السّبب الأكبر للفُتُور هُو تكبُّر الأمراء وميلهم إلى العُلماء المُتملّقين المُنافقين الذين يُزيِّنون لهم الاستبداد ـ إنَّ أفضل الجهاد هُو الحَطُّ من قَدْر العُلماء المُنافقين عند العامَّة، وتحويلهم لاحترام العُلماء العاملين حتَّى لا يلبث أنْ يحترمهم الأُمراء أيضاً، ويأخذوا بآرائهم. وهكذا؛ نجد أنَّ أُمّ القُرى واحد من الكُتُب المُذهلة، إنْ حذفنا منه تاريخ تأليفه، فلن نشكَّ لحظة واحدة، في أنّه قد أُنجز توّاً، وخُصُوصاً أنَّ صاحبه قد وقَّعه باسم السَّيِّد الفُراتي.

117) ***المُثقّف وديمُقراطيَّة العبيد، د. مُحمَّد جمال طحَّان، 2002.***

في هذا الكتاب بعض الأحاديث عن المتاهات والمفازات، فيه ما يُؤلم ويُرهق، وفيه ما يدعو إلى المُكابدة، ويحثُّ على المُعاناة. الجوُّ مُكفهر والغُيُوم داكنة وكذلك الهُمُوم، من أجل ماذا؟! من أجل الدِّيمقراطيَّة، ومن أجل الثّقافة.. ولكنْ، فيه إلى جانب ذلك كُلّه، وفوق ذلك كُلّه تجربة قلم حيٍّ، وتجربة إنسان نابض بالبراءة والنّزاهة، إنَّه الأمل في استمرار الدّفاع عن الوطن، وعن المُواطن فيه، الآن وفي المُستقبل.

118) ***الولايات المُتَّحدة الأمريكيَّة من الخيمة إلى الإمبراطوريَّة. مُرفق خريطة شاملة للولايات المُتّحدة الأمريكيَّة وولاياتها ومُدُنها وتاريخها، إعداد: ديب علي حسن، تدقيق: إسماعيل الكردي، ط1 2002 وط2 2004 وط3 2005.***

قليلون هُم الذين يعرفون أنَّ الولايات المُتّحدة كان الاستعمار يجثم فوق صدرها، وأنَّ حرباً أهليَّة دامية جرت فيها بين الشّماليِّين والجنوبيِّين، وقليلون يعرفون ما هُو دُسْتُورها؟ وما ولاياتها؟وما مُدُنها؟و ما ثرواتها؟ وما قوانينها؟ وما تنوُّع سُكّانها؟ وما....؟ وما....؟! ما الجيش الأمريكي ـ الاستخبارات ـ الدِّين والسّياسة فيها السّياسة الأمريكيَّة وأهمّ السّياسيِّين الحاليِّين ـ الكتاب يسدُّ فجوة في المكتبة العَرَبيَّة، ويُبيِّن كيف تمَّ طَرْد الهُنُود الحُمْر وإبادتهم. وكيف نشأت دولة أمريكا.. ويُعَدِّدُ رُؤساءها مُنذُ الرّئيس الأوَّل إلى الآن.. يجب على كُلِّ عَرَبيٍّ أنْ يقرأ ما هي الولايات المُتَّحدة؟ وكيف نشأت؟ وكيف وصلت إلى ما وصلت إليه الآن.

119) ***الفِرَق والمذاهب المسيحيَّة مُنذُ البدايات حتَّى ظُهُور الإسلام، نهاد خيَّاطة، ط1 2002 وط2 2004 وط3 2005.***

لمحة إلى الأناجيل ـ الأناجيل غير المُعتمدة ـ أناجيل الطُّفُولة ـ اليهُوديَّة المسيحيَّة ـ الأبيونيَّة ـ النّصارى ـ الدُّوكتيَّة ـ المرقيونيَّة ـ هل تزوَّج يسُوع؟ مجمع نيقية والفِرَق المسيحيَّة الآريوسيَّة ـ إلهيَّة الرُّوح القُدس ـ السّابليانيَّة ـ المسيحيَّة بعد نيقية ـ النّسطوريَّة مدرسة نصيبين ـ برصوما ـ نرسيس ـ باباي الأكبر ـ خلقيدونية والفِرَق المسيحيَّة بعد خلقيدونية ـ المُونُوفيزيَّة ـ القول بالمشيئة الواحدة في المسيح ـ التّثليث في المسيحيَّة والإسلام ـ الآب ـ ثالوث أم رابوع ـ التّوحيد والتّثليث بين الظّاهر والباطن التّثليث في الفكر الإسلامي ـ الابن ـ الرُّوح القُدُس.

120) **أبو حيَّان التَّوحيدي إنساناً وأديباً ، مُحمَّد رجب السَّامرَّائي ، 2002.**
يتناول المُؤلِّف في كتابه سيرة حياة التّوحيدي، والظُّلم الذي لحق به من ذوي الجاه والسُّلطان، وتفضيلهم مَن هُو أدنى منه مرتبة أدبيَّة وعلميَّة، كما يتعرَّض إلى التّوحيدي كأديب فارس لايُشَقُّ له غبار في ميادين عديدة كالأدب والفلسفة.
121) **رمضان في الحضارة العَرَبيَّة الإسلاميَّة ، مُحمَّد رجب السَّامرَّائي ، 2002.**
يرسم المُؤلِّف صُورة عن رمضان في ذاكرة الإنسان العَرَبيّ في الزّمان والمكان، ويسرد سيرته العطرة في المظانّ العَرَبيَّة القديمة والمُعاصرة عن طريق التّدوين لهذه المظاهر الاحتفاليَّة به، وتدوين المظاهر الاحتفاليَّة بعيد الفطر السّعيد ومأكولاته وحُلوياته في أكثر من 22 بلداً عَرَبيّاً وإسلاميّاً.
122) ***المسيحيَّة وأساطير التَّجسّد في الشَّرق الأدنى القديم اليُونان ـ سُوريَة ـ مصر ، دانييل إ. باسُوك ، ترجمة : سعد رُستُم ، 2002.***
يُؤكِّد المُؤلِّفُ الباحثُ الأمريكيُّ باسُوك في كتابه هذا أنَّ عقيدة التّجسُّد في المسيحيَّة عقيدة خُرافيَّة،وفكرة وَثَنيَّة دخيلة،نفذت إلى المسيحيَّة من وَثَنيَّة اليُونان والرُّومان.ويرى أنَّ رسالة المسيح بذاتها كانت رسالة أخلاقيَّة توحيديَّة بسيطة،لا تعقيد فيها،فالمسيح نشأ يهُوديّاً،مُؤمناً، وترعرع في بيئة توراتيَّة مُتديِّنة،من ركائزها الأساسيَّة التّأكيد على وحدانيَّة الله تعالى الخالصة،والفصل التّامّ بينه وبين مخلوقاته من البشر. إنَّ المسيح هُو عبد الله،وليس ابناً لله،هُو نبيُّ الله،وليس ابناً لله...
123) ***التّوحيد في الأناجيل الأربعة وفي رسائل القدّيسَيْن بُولُس ويُوحنَّا ، سعد رُستُم ، 2002.***
يُؤكِّد المُؤلِّف من الأناجيل الأربعة ومن رسائل بُولُس ويُوحنَّا أنَّ المسيح عيسى ـ عليه السّلام ـ أكَّد أنَّ الله هُو الإله الواحد الأحد، وأنَّه ـ أيْ المسيح ـ بشرٌ وإنسانٌ، ويُؤكِّد المُؤلِّف أنَّ مَنْ يقرأ الأناجيل قراءة مُتمعِّنة لن يجد عبارة واحدة صريحة لسيِّدنا المسيح نفسه يدعو فيها أتباعه للإيمان بأُلُوهيَّته، وبلُزُوم عبادته، أو يُصرِّح فيها لهم بأنَّه ربُّ العالمين وإله الخلائق أجمعين المُتجسِّد الذي انقلب بشراً، أو يُصرِّح لهم فيها بعقيدة التّثليث...
124) ***الذّات الإلهيَّة والمجازات القُرآنيَّة والنَّبويَّة وإزالة شُبهة التَّشبيه والتَّجسيم من أساسها ، سعد رُستُم ، 2002.***
إنَّ جماعة من قُدماء أصحاب الحديث،عُرفوا ـ تاريخيّاً ـ باسم الحشويَّة،لكثرة ما حَشَوا به الدِّين من أحاديث وأخبار آحاديَّة فَرْديَّة غريبة، وجعلوها حُجَّة في العقيدة والإيمان! فاغترّوا بظاهر ما وَرَدَ في بعض الأحاديث والأخبار وقليل من الآيات القُرآنيَّة،من تعبيرات أُضيف فيها اسم عُضو من أعضاء الإنسان كالوجه أو الجَنْب أو اليد أو السّاق أو القَدَم لله تعالى... إنَّ الغرض من الكتاب هُو توضيح المعنى الصّحيح للآيات التي اشتبه فَهْمُهَا على الحشويَّة المُجسِّمة،توضيحاً ينكشف به ـ بجلاء ـ التّنزيه المُطلق لله سُبحانه وتعالى،وليس الغرض ـ أبداً ـ اتِّهام أحد في عقيدته أو تكفيره أو تضليله.
125) ***نحو تفعيل قواعد نَقْد متن الحديث دراسة تطبيقيَّة على بعض أحاديث الصَّحيحَيْن ، إسماعيل الكردي ، 2002.***
بمُرُور الزّمن، وكما يحدث في كُلِّ تُراث دينيٍّ مُقدَّس، تكوَّنت هالة مهيبة مُبالغ بها حول صحيح مُسلم وصحيح بُخاري، فصار أيُّ تحفُّظ على عبارة وَرَدَتْ فيهما، أو ردٍّ لسند أو حديث فيها، أو التّشكيك بصُدُوره عن النّبيِّ صلّى الله عليه وسلَّم مهما أقام صاحبه على رأيه هذا من الدّلائل العلميَّة والبراهين العقليَّة، واتَّبع في قوله سَلَفَاً أو أسلافاً من العُلماء المُتقدِّمين، وعمل بما وضعوه من قواعد وشُرُوط لقبول المتن،يُعَدّ زيغاً وضلالاً وعُدواناً على السُّنَّة!! وسنرى ـ يقيناً ـ أنَّه وعلى الرّغم من الدِّقَّة التي اتَّبعها الإمامان البُخاري ومُسلم في انتخاب الحديث واجتهادهما في تحرِّي صحيح السّند منه، لم يخل كتاباهما من عدد من الرّوايات المُنتقدَة سنداً، أو التي لا يُمكن القبول بصحَّتها مَتْنَاً، طبقاً لقواعد نقد المُتُون التي قرَّرها عُلماء الحديث.
126) ***حلّ الاختلاف بين الشِّيعة والسُّنَّة في مسألة الإمامة ، مُصطفى حُسيني طباطبائي ، ترجمة : سعد رُستُم ، ط1 2002 وط2 2005.***
هل الإمامة أمر مُنفصل عن الإمارة والحُكُومة أم لا؟ كيف كان سُلُوك أئمَّة أهل البيت عليهم السّلام مع وُلاة الأُمُور وحُكَّام المُسلمين في عصرهم؟ كيف كان سُلُوك أئمَّة الشّيعة من أهل البيت تجاه فُقهاء وأئمَّة أهل السُّنَّة وعامَّتهم؟ وما هي التّعليمات التي كان الأئمَّة يقولونها لتلامذتهم ومُحبِّيهم في هذا الشّأن؟ هل الخطأ في موضوع الإمامة يُوجب حقّاً الخسران العظيم في الآخرة والمصير إلى النّار أم لا؟

127) ***حوادث دمشق اليوميَّة غداة الغزو العُثمانيّ للشَّام 926 ـ 951 هـ صفحات مفقودة تُنشر للمرَّة الأولى من مُفاكهة الخلاَّن في حوادث الزَّمان ، ابن طولون الصَّالحيّ الدِّمشقيّ ، تحقيق : د. أحمد ايبش ، 2002 .***
هذا الكتاب يُقدِّم لنا صُورة حيَّة وصادقة عن حياة المُجتمع وحركته السّياسيَّة والاقتصاديَّة وحوادثه وغرائبه وطرائفه، فضلاً عن وصفٍ وافٍ للعادات والتّقاليد ولأنماط الحياة السّائدة آنذاك في الفترة التي يُغطّيها الكتاب، ويُمثّل جُزءاً وافياً من القسم الضّائع من كتاب (مُفاكهة الخلاَّن في حوادث الزّمان) للمُؤرِّخ الدّمشقيّ الشّهير بابن طُولُون الصّالحيّ، وهذا القسم يُعَدُّ ـ دُون شكٍّ ـ المصدر الأوَّل لتأريخ مدينة دمشق في مطلع العهد العُثمانيّ بين عامَيْ 926 ـ 951 هـ وهي فترة غامضة المعالم لم تصلنا عنها مصادر وثائق كافية. فيأتي هذا الكتاب اليوم ليَسُدَّ ثغرة هامَّة، وليُضيف جُزءاً هامّاً إلى مكتبة المصادر المُختصَّة بتاريخ دمشق وبلاد الشّام، وليرسم ـ فوق ذلك ـ صُورة حيَّة وطريفة ودقيقة للحياة السّياسيَّة والاجتماعيَّة والثّقافيَّة والاقتصاديَّة لدمشق إبَّان دُخُولها تحت حُكْم بني عُثمان في عهد السُّلطان سُليمان خان القانوني.

128) **نَقْدُ الدِّين اليهُودي ، جميل خر بيل ، 2002 .**
أُسطُورة العهد القديم ـ الدِّين ـ يَهْوَه ـ الخُرُوج ـ الأساطير ـ الخليقة والطُّوفان ـ ولادة إبراهيم ومُوسى ـ داود ـ سُليمان ـ اصطفاء اليهُود ـ لا أخلاقيَّات شخصيات العهد القديم ـ يَهْوَه وأخطاؤه ـ صراعه وندمه ـ إبراهيم ـ راحيل ـ ثامار ـ يشُوع...

129) **إسرائيل والعرَب حرب الخمسين عاماً ، أهرون بريغمان وجيهان الطّهري ، ترجمة : سالم العيسى ، ط1 2002 وط2 2004 .**
من أهمِّ الكُتُب التي صَدَرَتْ عالميَّاً، والتي تتناول الصّراع العَرَبيَّ الإسرائيليَّ.عبد النَّاصر والاتِّصال الأوَّل بين العَرَب و(إسرائيل) .كيف قُسِّمت فلسطين؟ الاتِّصالات السِّرِّيَّة في باريس. التّخريب في مصر ـ المُجابهة ـ حرب الأيام السِّتَّة ـ السّادات يُدهش العالم بالمُصالحة ـ كامب ديفيد ـ أيلول الأسود ـ شارُون والجميل ـ الحرب في لُبنان.مَكْرُ صدَّام حُسين ـ مُؤتمر مدريد ـ الطّريق الطّويلة ـ المُحادثات السِّرِّيَّة في أُوسلُو، الحلقة المُفرغة؟ النّقاش مع سُوريَّة.وغيرها من الأسرار التي تُكشَف للمرَّة الأولى.

130) **المرأة في حياة وشعر الجواهريّ ، ديب علي حسن ، 2002 .**
مَنْ لا يقرأ الجواهريَّ الشّاعر المُحبَّ، فسوف يبقى بعيداً عن تذوُّق روائعه التي نظنُّ أنَّها من أجمل الشّعر العَرَبيّ. في هذا الكتاب باقة نضرة من بُستان الجواهريِّ آثرنا أنْ تكون فوَّاحة بعطر مَنْ أحبَّ من بغداد إلى لندُن إلى.. إنَّه الشّاعر الذي لا تغيب الشّمس عن مملكته الشّعريَّة نضالاً وحُبّاً وإيماناً وتفاؤلاً بالقادم.

131) ***ظاهرة النَّص القُرآني تاريخ ومُعاصرة ردٌّ على كتاب النَّصّ القُرآنيّ أمام إشكاليَّة البنية والقراءة لـ د.طيِّب تيزيني، سامر إسلامبولي، 2002 .***
كيف جُمع النَّصُّ القُرآنيُّ؟! توحيد القراءات والرّسم للنَّصّ القُرآنيّ. كيف نشأت القراءات؟ بيان أنَّ اختلاف القراءات لا يُؤثِّر على الأحكام.توثيق النَّصّ القُرآنيّ من التّاريخيَّة إلى الواقعيَّة.وهميَّة وُجُود النّاسخ والمنسوخ في القُرآن الكريم؛ وذلك لأنَّه كتاب أُحكمت آياته.الكتاب دراسة علميَّة تحليليَّة تُثبت أنَّ القُرآن الكريم ثابت مُنذُ نُزُوله، ولم يتعرَّض إلى الاختراق أبداً.والدّليل الأقوى على هذا هُو أنَّه بين أيدينا وهُو قابل للدّراسة والتّأكُّد من صحَّة مضمونه على صعيد الآفاق والأنفس، وكيفيَّة إثبات أنَّ مضمونه لا يُمكن أنْ يكون خطأً ومُناقِضاً لمحلِّ خطابه أبداً؛ لأنَّ النّصَّ الرَّبَّانيَّ لا يُمكن أنْ يتناقض مع محلِّ خطابه، ولا بأيِّ شكل من الأشكال.

132) ***الآحاد النَّسخ الإجماع (دراسة نَقديَّة لمفاهيم أُصُوليَّة) ، سامر إسلامبولي ، 2002 .***
ما فائدة الخبر الظَّنِّيِّ؟ ما موقف القُرآن من خبر الآحاد الظَّنِّي؟ ما موقف الصّحابة والعُلماء من الخبر الظَّنِّيِّ؟ نقاش رسالة الألباني في أنَّ حديث الآحاد حُجَّة بنفسه. ما خُطُورة وُجُود فكرة النّاسخ والمنسوخ في القُرآن؟ هل النَّسْخ مُمكن للنَّصّ الخاتميِّ؟ نماذج من الآيات التي قيل إنَّها منسوخة وردُّ ذلك.ما تفسير : (ما ننسخ من آية أو ننسها)؟ (يمحو الله ما يشاء ويثبت)؟ (وإذا بدَّلنا آية مكان آية)؟ (اتّبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربّكم)؟ إثبات أنَّه لا ناسخ ولا منسوخ في القُرآن؛ ذلك الكتاب الذي أُحكمت آياته... ما هُو الإجماع؟ وما مصدريَّته؟ وما مفهومه كمصدر ربَّاني؟ مُناقشة

الإجماع عند الإمام الشّافعيّ... نماذج من إجماع الصّحابة وآل البيت وعُلماء الأمّة.. نَقْد قاعدة (الأصل في الأفعال التّقيد). ماذا ترتّب على الادّعاء بأنّ الإجماع مصدر شرعيٌّ إلهيٌّ؟

133) ***العبادات في الأديان السّماويّة (اليهوديّة‪ط المسيحيّة‪ط الإسلام ، والمصريّة والعراقيّة واليونانيّة والرّومانيّة والهندوسيّة والبوذيّة والزّرادشتيّة والصّابئيّة)، عبد الرّزّاق رحيم صلال الموحي، ط1 2001 وط2 2003 وط3 2005.***

هذا الكتاب هامٌّ جدّاً جدّاً، لأنّه يسدُّ ثغرة كبيرة في مكتبتنا العَرَبيّة الإسلاميّة، بل والعالميّة. والباحث في دراسته هذه، والمُوثّقة توثيقاً دقيقاً، يتناول مفهوم العبادات في الأديان الثّلاثة وفي ديانات مُندثرة مثل ديانة المصريّيْن القُدماء والعراقيّيْن القُدماء واليُونانيّيْن القُدماء والرُّومانيّيْن القُدماء، وفي ديانات مازال لها مُعتنقون ومُؤيّدون إلى الآن؛ مثل الدّيانة الهندوسيّة والبُوذيّة والصّينيّة والزّرادشتيّة والصّابئيّة. فكم من النّاس والمُثقّفين يعرف كيف يُصلّي اليهُود؟ وكيف يُزكّون؟ وكيف يتطهّرون؟ وإلى أين يحجّون؟ وكيف يصومون؟ وكيف يتوضّؤون؟ وما هي أعيادهم؟ وكذلك الأمر بالنّسبة للمسيحيّيْن و... هذه الدّراسة دراسة مُقارنة هامّة تُبيّن ـ وبالنُّصوص المُوثّقة من التّوراة والأناجيل والقرآن الكريم والسُّنّة النّبويّة ـ ما أصاب بعض الدّيانات السّماويّة من تحريف وابتعاد عمّا نزل أصلاً في كُتُبها السّماويّة، حتّى وصل بعضهم إلى تحليل ما حُرّمَ في كُتُبهم، وتحريم ما أُحِلَّ؟ وتبديل ما ليس يُبدّل، رغم وُجود دلائل قاطعة في كُتُب تلك العبادات حُرِّفَت فيما بعد. ولا شكَّ أنّه ـ وبعد قراءة الدّراسة ـ سيتّضح ـ تماماً ـ جانب هامٌّ من جوانب تاريخ العبادات المُقارَن في العالم.

134) ***المرأة اليهُوديّة بين فضائح التّوراة وقبضة الحاخامات، ديب علي حسن، ط1 2000 وط2 2001 وط3 2002 وط4 2006.***

المرأة في التّوراة (إبراهيم وسارة وهاجر، يعقوب وراحيل والزّواج من أُختيْن، يهوذا يزني بكنّته ثامر، أمنون يغتصب أخته ثامار) سالومي ورأس يُوحنّا المعمدان، المرأة اليهُوديّة في الحياة الدّينيّة المُعاصرة. المرأة في الجيش الإسرائيليّ، حاخامات يهُود يُديرون شبكات الدّعارة و المُخدّرات في العالم. كيف حاولت (إسرائيل) تصدير عبادة الشّيطان إلى مصر؟ تفاصيل العمليّة القذرة لاتّهام سفير مصر في (إسرائيل) بمُحاولة اغتصاب راقصة إسرائيليّة. الكتاب دراسة موثّوقة تُبيّن وتفضح وتُعرّي كيف لعب حاخامات يهُود بالنّساء اليهُوديّات وعن طيب خاطرهنّ مُنذُ وُجد اليهُود إلى الآن.

135) ***تاريخ مدينة دمشق خلال الحُكم الفاطميّ، د. مُحمّد حُسين محاسنة، 2001.***

هُو دراسة لفترة غفل عنها المُؤرّخون تماماً، حتّى بدت ضبابيّة، وهي من أهمّ الفترات في تاريخ مدينة دمشق؛ لأنّها كانت ـ في مُعظمها ـ صراعاً مذهبيّاً بين السُّنّة والإسماعيليّة، وهي فترة استجلى فيها المُؤلّف الدُّكتور مُحمّد حُسين محاسنة خفايا صراعات كثيرة؛ من الفاطميّيْن إلى القرامطة، إلى الأتراك والتُّركمان، إلى جماعات الأحداث الدّمشقيّة، وقد تناول الباحث ـ بدايةً ـ جَغرافيّة المدينة وخُططها وبداية بنائها ومناخها ومياهها.. ثُمّ انتقل إلى الفَتْح الفاطمي لها، وإلى الأحداث الخطيرة التي رافقت هذا الفَتْح، ثُمّ تحدّث عن التّنظيمات الإداريّة والماليّة، ثُمّ الحياة الاقتصاديّة، ثُمّ الثّقافيّة.

136) ***المرأة مفاهيم ينبغي أنْ تُصحّحَ، سامر إسلامبولي، ط1 1999 وط2 2001.***

تفسير آيات: غضّ البصر. حفظ الفُرُوج. إبداء الزّينة. ضرب الخمار. هل حقّاً أنّ الرّسول الكريم قال: إنّي رأيتُ أكثر أهل النّار من النّساء؟ أنتنّ ناقصات عقلٍ ودين؟! كيف يكون إذنها سُكُوتها وهي لم تنطق بحَرْف؟! السّياسة والنّساء ومنصب الرّئاسة. ما قصّة ما أفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة؟! ماذا اشترط الله لتعدُّد الزّوجات؟ وكيف أهمل المُسلمون شُرُوط الله تعالى؟! ملك اليمين، المتعة..

137) ***تحرير العَقْل من النَّقْل وقراءة نقديّة لمجموعة من أحاديث البُخاري ومُسلم، سامر إسلامبولي، ط1 2000 وط2 2001.***

هل نعتمد العَقْل أم النَّقْل؟! ما الفَرْقُ بين السُّنّة والحديث؟! ما هي العصمة؟ وهل هُناك أئمّة معصومون؟! هل سَحَرَ اليهُود الرّسولَ الكريمَ؟ هل حقّاً أنّ الرّسول الكريم نسي آيات، ثُمّ تذكّرها؟! هل حقّاً أنّ الرّسول الكريم قال: إنّما الشُّؤم في ثلاثة؛ في الفرس والمرأة والدّار؟! هل صحيحا البُخاري ومُسلم مُقدّسان لايجوز المساس بهما أو نَقْدهما؟!

138) بيني وبينك هذا القلب ، ماهر فضلون ، 2002.

139) تظلّين أنت ، ماهر فضلون ، 2002.

140) مسارات وحدة الوُجُود في التَّصوُّف الإسلامي الله الإنسان العَالَم ، مُحمَّد الرَّاشد ، 2004.

141) وحدة الوُجُود من الغزالي إلى ابن عَرَبي ، مُحمَّد الرّاشد ، 2003.

142) نظريَّة الحُبِّ و الاتِّحاد في التَّصوُّف الإسلاميِّ من الحُبِّ الإلهيِّ إلى دوامات الاتِّحاد المُستحيل ، مُحمَّد الرّاشد ، 2003.

143) استراتيجيَّة الأمن المائيِّ العَرَبيِّ ، د. إبراهيم أحمد سعيد ، 2002.

144) أمريكا - إسرائيل و 11 أيلول 2001 ، ديفيد ديُوك ، ترجمة : سعد رُستُم ، ط1 2002 وط2 2003.

145) مُخيَّم جنين من النَّكبة إلى الانتفاضة ، علي بدوان ، 2002.

146) القُرآن وتحدِّيات العصر رحلة الشَّكِّ والإيمان ، مُحمَّد الرَّاشد ، 2002.

147) إشكاليَّة وحدة الوُجُود في الفكر العَرَبيِّ الإسلاميِّ (الله والإنسان والعالم في الحضارات الإنسانيَّة) دراسة تحليليَّة رُؤيويَّة ، مُحمَّد الرَّاشد ، 2002.

148) الدِّبلُوماسيَّة القديمة والمُعاصرة ، د. علي عبد القوي الغفَّاري ، 2002.

149) الحجاز في نَظَر الأندلسيِّيْن والمغاربة في العُصُور الوُسطى ، أ. د. إبراهيم أحمد سعيد ، 2004.

150) الدَّليل إلى ألفيَّة ابن مالك في النَّحْو والصَّرْف والإعراب (تبويب وتوضيح) ابن مالك الأندلسي ، إعداد : باسمة درمش ، 2002.

151) قَتلُ المُرتدِّ الجريمة التي حَرَّمها الإسلام ، مُحمَّد مُنير إدلبي ، 2002.

152) نَزْع فتيل الإرهاب الدَّولي إسلام السَّلام وأمان العالم ، مُحمَّد مُنير إدلبي ، 2004.

153) إشارات حمراء ، رزان المُغربي ، 2002 ، مقطوعات شعريَّة.

154) الجياد تلتهم البحر ، رزان المُغربي ، 2002 ، قَصَصٌ تُعبِّر عمَّا يشوب حياة النَّاس.

155) الهجرة على مدار الحَمَل (رواية) ، رزان نعيم المُغربي ، 2004.

156) الحلقة المفقودة في سلسلة الحضارات القديمة للجزيرة العَرَبيَّة ، علي سكيف ، 2002.

157) المسؤوليَّة في القانون الجنائيِّ الاقتصاديِّ دراسة مُقارنة بين القوانين العَرَبيَّة والقانون الفرنسيِّ ، محمُود داوود يعقوب ، 2001.

158) الحياة هي في مكان آخر ، ميلان كُونديرا ، ترجمة : معن عاقل ، 2001.

159) القصر المسحور (سيِّد الباب السَّابع) ، إيفلين بريزو بيللين ، ترجمة : فا سمة عابدين ، 2001.

160) بين ابن المُقفَّع ولافونتين (مدخل إلى دراسة مُقارنة) ، فا سمة عابدين ، 2001.

161) الأُلُوهيَّة والحاكميَّة دراسة علميَّة من خلال القُرآن الكريم ، سامر إسلامبولي ، 2000.

162) الوصايا المغدورة (التَّرجمة الكاملة) ، ميلان كُونديرا ، ترجمة : معن عاقل ، 2000.

163) المُحاورة ، ميلان كُونديرا ، ترجمة : معن عاقل ، 2000.

164) فيض الملك العلام في ما جاء لأهل البيت من الإكرام ومُنير الغرام من أحاديث سيِّد الأنام في فضل دمشق الشَّام ، نصري بن أحمد الحُسيني والبكري الأشعري الخلواتي ، تحقيق : تميم مأمون مردم بيك ، 2004.

165) من دفء القُلُوب ، سُعاد غانم ، 2005.

هذا الكتاب

في مرحلة عاصفة من مراحل التاريخ العلمي؛ حيثُ هاجمت أوروبا بكُلِّ قوّاتها أرض الشام لإقامة دولة لاتينية مسيحية فيها، وفي الوقت نفسه تقريباً هبَّت عاصفة التتَّار، التي لم تُبقِ، ولم تذر، واكتسحت الشَّرقَ الإسلاميَّ وُصولاً إلى بلاد الشام. فكيف كانت العلاقات بين الدُّول في عصر تلك الأحداث الجسام، التي شملت عالم ذلك الزَّمان برُمَّته؟

هذا السُّؤال الكبير يُجيب عنه الكتاب الذي بين أيدينا، فهُو يرصد العلاقات الدّوليَّة في أهمِّ أشكالها السِّياسيَّة والعسكريَّة.

نستعرض في الكتاب علاقات دُول وشُعُوب وقوى عسكريَّة وسياسيَّة مُتعدِّدة ومُختلفة، منها بعض القوى الدّاخليَّة، مثل: قبائل البدو، وبعض الوُزراء، والقادة، وكثير من الدُّول الكُبرى والصُّغرى، مثل التتَّار، والخوارزميَّة، والسّلاجقة الرُّوم، والأتابكة، والأراتقة، وأشراف الحجاز، والإسماعيليَّة، والمماليك، والمُوحِّدين، والإمبراطُوريَّة البيزنطيَّة، وأرمينيا، وجُورجيا، والنّوبة، ومملكة القُدس الفرنجيَّة، وإماراتها في أنطاكية، وطرابلس، والدّولة البابويَّة، والجُمهُوريَّات الإيطاليَّة، والإمبراطُوريَّة الجرمانيَّة، وفرنسا، والنّمسا، وإنكلترا، وهنغاريا، والفلمنك.

بعد كُلِّ ذلك؛ نجد أنفسنا - وجهاً لوجه - أمام الواقع السِّياسي، والعمل الدّوبلُوماسي لدُول تعيش في عصر لم يعرف إلا الحديد، والنار، لحلِّ مُشكلاته، أو تحقيق أطماعه. فكانت الحُلُول العسكريَّة هي كُلُّ ما يخطر على البال، مع أنَّه لم نعدم - حتَّى في ذلك العصر - مَنْ يمدُّ يده عبر حُدُود الأديان والأوطان؛ ليطلب العيش بسلام.

AL_AWA'EL

pixel studio design 2450733
www.pixelstudio.sy.com

